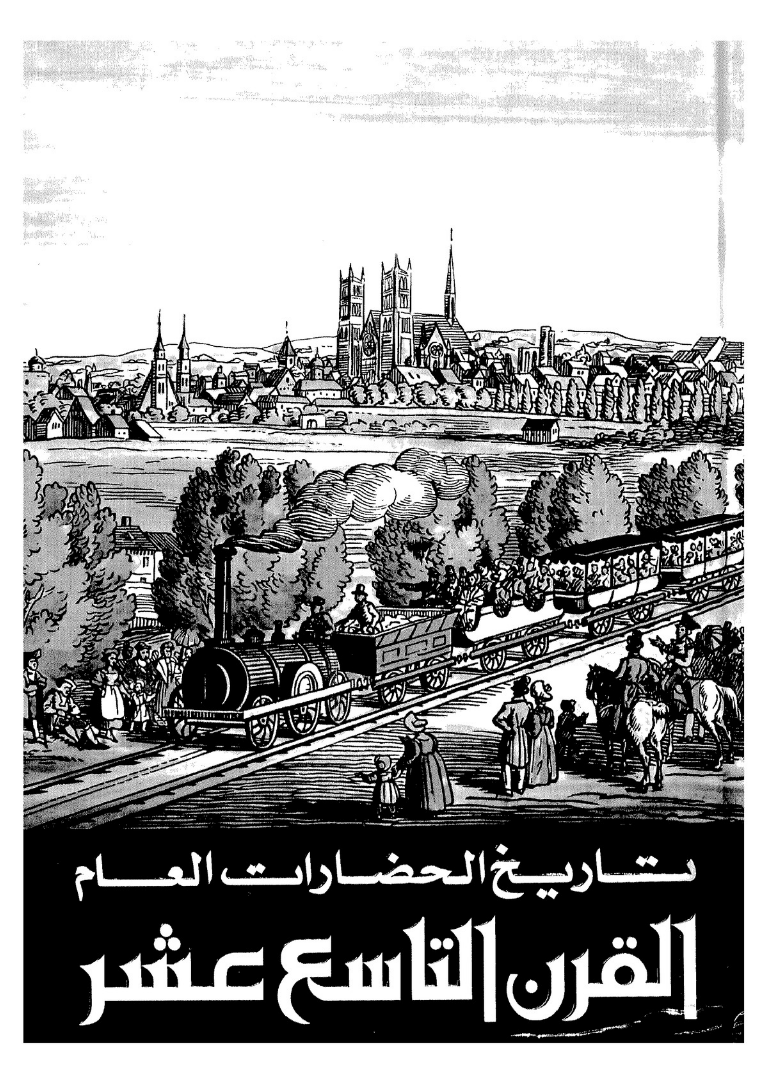

تاريخ الحضارات العام
القرن التاسع عشر

تاريخ الحضارات العام

تاريخ الحضارات العام

موسوعة في سبعة مجلدات بإشراف موريس كروزيه

١

الشرق واليونان القديمة

أندريه ايمار — أستاذ في السوربون
جانين أوبواييه — أمينة متحف غيمة

٢

روما وأمبراطوريتها

اندريه ايمار — أستاذ في السربون
جانين اوبواييه — أمينة متحف غيمة

٣

القرون الوسطى

إدوار بروي — أستاذ في السربون

٤

القرنان السادس عشر والسابع عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون

٥

القرن الثامن عشر

رولان موسنيه — أستاذ في السربون
و
أرنست لابروس — أستاذ في السربون

٦

القرن التاسع عشر

روبير شنيرب — أستاذ فخري في الدراسات العليا

٧

العهد المعاصر

موريس كروزيه — مفتش المعارف العام في فرنسا

تاريخ الحضارات العام

بإشراف
موريس كروزيه
مفتش المعارف العام في فرنسا

المجلد السادس

طبعة جديدة مع ملحق خاص حتى أيامنا

تاريخ الحضارات العام

القرن التاسع عشر

تأليف

روبير شنيرب

أستاذ فخري في الدراسات العليا

دكتوراه دولة في الآداب

نقله الى العربية

يوسف أسعد داغر   فريد م. داغر

عويدات للنشر والطباعة

بيروت - لبنان

ISBN 9953 - 28 - 049 - 5

الطبعة 2006

مـــدخل

لكل شيء أثره ... وعلى هـــذا فالكل او لا شيء .
فالكشف عن الحقيقة التاريخية كاملة غير منقوصة يقتضي
له التقصي واقتفاء مـــا تركت من أثر ملحوظ أينما وقع
وبأي شكل ظهر ، مهما صغر او دق .

ميشليه

١٨١٥ - ١٩١٤

وإن شئت فقل القرن التاسع عشر . وإذ ذاك تنطّ أمام نواظرنا هذه العناوين الفرّارة التي يشير اليها مارك بلوك عندما يستعرض أمامنا هذا التشويش او الاضطراب الذي يلازم « تصنيفاتنا الزمنية » . بعد هذا ، هل يقف راوية ما من أمثال هيرودوتس مثلاً ، عند « سرد ما حدث او جرى » دون ان يرد هـــذه الأحداث الى أطرها التاريخية ومفارقاتها المميزة ؟ فاذا لم يرو ماجريات التاريخ وفقاً للتسلسل الزمني حسب تعاقب الملوك وتوالي السيطرات السياسية او الحربيـــة ، فسيستمر ، في اضعف الايمان ، عاملاً في إقامة الحدود ووضع الصـوى بين هـذه العهود التاريخية المعروفة لدينا باسم : التاريخ القديم ، والأجيال الوسطى ، والعصر الحديث والزمن المعاصر . ولكن أي معنى بعـد لهذه الأدوار والأطوار ، وأي مدلول لهذه المصطلحات والمسميات ؟ ففي نظر ليتريه ، التاريخ المعاصر « بدون وقائع الزمن الذي عاش فيه الناس وجرت حوادثهم » بينما يمتد العصر الحديث من حقبة الانبعاث الادبي في القرن السادس عشر الى يومنا هـــذا . ومع ذلك فقد جرت التقاليد منذ عهد سحيق ، وهي تقاليد وأعراف لم تُنسخ بعد ، على جعل سنة ١٧٨٩ ، حداً فاصلاً لهذه الحقبة . ومثل هذا الاضطراب في المسميات الزمنية يشوب الحقب التاريخية الاخرى . فاذا ما جعلنا من عام ١٧١٥ نهاية القرن السابع عشر ، فمن المعقول ان نجعل من عام ١٨١٥ الحد النهائي للقرن الثامن عشر . ففي التسليم بمثل هذا التقسيم الزمني، لم يعد القرن التاسع عشر ليتفق وحدود الاصطلاح المسيحي للأزمنة التاريخية ، كما انه لا تقاطع هنالك ولا حدود في ديمومة التطور وحركة النشوء . فالأمر ، والحالة هذه ، لم يعد ليتعدى الاصطلاح على حقبة هي خير ما يتفق وترابط الحوادث لتماسكها وفقاً للمفهوم الاوروبي للتاريخ .

لا مراء قط انهم توصلوا الى مقررات هامة في هذه المفاوضات التي دارت في مؤتمرات باريس وفيينا وغنت. ومع ان التعاند لم ينقطع قط بين مفهوم النظام القديم والايديولوجيا الجديدة التي طلعت علينا منذ عام ١٧٨٩ ، فباستطاعة اوروبا التي أعاد اليها نظامها « هذا العالم المتمدن » ، كما جاء على لسان مترنيخ بالحرف الواحد ، ان تتنفس الصعداء ، وأن تنعم بسلام دائم . وقد استثمرت البورجوازية الفوائد الجسام التي سيعود عليها بها الاقتصاد الصناعي المتطور ، الحر ، في تكامله المتصاعد . فليس بعد ما يعيق او يحد من استشراء الحركة التجارية وانبساطها عبر البحار والقارات . وستجد انكلترا بنوع خاص نفسها في وضع لم تعرف خيراً منه لتفرض على الناس ما تنتج من السلع والبضائع .

واندلعت عام ١٩١٤ حرب أكول ، ضروس ، جعلت الحضارة الاوروبية على قاب قوسين وأدنى من الانهيار والهلكة ، في هذا الانقلاب الجذري الذي لف العالم لفاً فكان نذيراً بطلوع عهد جديد على البشرية جمعاء .

فأوروبا ، ولا شك في ذلك ، هي روح العالم وريحانته في هذا العصر . ومع ذلك ، فالسبق الذي سجلته لها في المضمار الحضاري ، مهما بلغ من مداه ورحبه وبُعد مراحله ، لم يكن بمأمن من كل منافسة او مزاحمة . فقد كشفت اميركا الفتية في صحبة موصولة لبروموتيه ، عن سر نهضة عارمة سريعة الخطى ، كما ان بلداناً ودولاً اخرى اخذ يدب في ثناياها رسيس نشاط وتتمطى بين جوانحها وجوارحها هزة طافرة .

فالقرن الثامن عشر الذي كان عصر نهضة فكرية وتقنية وسياسية جعل اوروبا تسير في طليعة الركب الحضاري. فهل كتب لهذه القارة، في حلبة الزمن، ان يكون القرن التاسع عشر، عصرها الجلي وذروة التطور عندها ؟

القسم الأول

بين الاستمرار والتغييرات المحتملة في مطلع العصر

خصائص هــذا العصر ومميزاته برزت واتضحت شيئاً فشيئاً . فأنماط العيش وطرق التفكير التي سيطرت وراجت بعد حقبة الثورة والعهد النابوليوني لم تكن ، ولم يكن لها ان تكون جديدة بالنسبة للغرب . فتحرير الفلاح المشدود الى الارض لم يكن امراً مشكوكاً فيه وحسب لدى قسم كبير من دول اوروبا ودويلاتها ، بل ان طرائق العمل ووسائل استثمار الارض سجلت تقدماً بطيئاً . لم يطلع علينا بعــد ١٨١٥ كما لم يحدث قبل ١٧٨٩ « ثورة صناعية » إذ نحن أمام تطور يتسم بالبطء في كل ما يتصل بتقنية الانتاج ووسائل النقل والانتقال، ولا تزال اكتشافات القرن الثامن عشر هي التي تفيض بنعمائها على القرن اللاحق. فالأفكار التي صدمتها بعنف التصدعات السياسية وما صاحبها ولازمها من هزات اجتماعية وارتجاجات سياسية ، بقيت عرضة لهواجس الحيرة والتردد والتشكك ، وما زالت المشاعر المهتاجة في تفاعل وانفعال . فالصراع لا يزال على أشده بين النظام التقليدي والروح التحررية التي جاشت بها البورجوازية ؛ والقلق الذي يبعثه في النفوس مرأى الفقر المدقع المسيطر على الأحياء المكتظة بالسكان في المدينة ينحسر عن أعمــال تافهة او عن نظريات خدّاعة، برّاقة ، والطريقة الثورية التي شرعها احتلال الباستيل ودكها تستمر وتستأسد؛ والتحالف المقدس الملكي والارستوقراطي يستهدف دوماً الأخذ بهذه الاساليب التي سيطرت على دبلوماسية بلاطات الملوك . فاذا مــا هيأت سنوات حكم لويس الرابع عشر الاخيرة وثورات انكلترا وانتفاضاتها ، طلوع القرن الثامن عشر ، فحضوره يتمثل في معظم المجالات والنشاطات. ألم يرس أسس الاستقلال الاميركي الذي رحبت مقاييسه واتسعت جنباته ما بين ١٨١٥ و ١٨٣٠ ؟ ألم يوح بالحملة المستمرة المضادة للرق ؟ ومع ذلك فنفوذ اوروبا ولا سيما انكلترا ، لا يزال يتعاظم ويتجسم أكثر فأكثر ، كما ان شخصية اميركا برزت بصورة أجلى . وبالرغم من تحكم وضع اقتصادي لم يكن مؤاتيــاً ، فالبورجوازية المدنية اخذت تستبد بالسلطة في هذه البلدان بالذات التي تستبد بها وتسيطر عليها عوامل المال والتجارة والصناعة . والمعارك العنيفة التي خاضتها البروليتازيا الكادحة عكست من جهتها شكيمة رأس المــال وسيطرته الغاشمة . فانتصب في وجه الطبقة الظافرة المتحكمة طبقة اخرى اخذت تحاول إثبات وجودها بشق طريقها واحتلالها محلا مرموقاً تحت الشمس . وفي الوقت ذاتــه طلع على العالم اكتشاف تقني جديد يتمثل بدخول البخار في خدمة الغرب ، وبفضل هــذا الكشف العلمي العظيم عرف الغرب ان يفيد ، الى حد بعيد من خدمات ووسائل يسّر استعمالها ، لم يقم في الامس الغابر ، من ظن بها خيراً ، ولا من رأى بها نفعاً . وهكذا تستطيع اوروبا استئناف السير حثيثاً وهي على مثل ما نرى من نشاط زاخر وعافيــة ، للسيطرة على العالم وبسط نفوذها ، في الوقت الذي انصرف فيه الاميركيون ، من جهتهم ، لبسط سيطرتهم على اميركا .

الفصل الأول

سكان أوروبا

النمو المطرد

تضخم عدد سكان العالم ، خلال القرن الثامن عشر ، إذ ارتفع هـذا العدد من ٦٠٠ مليون حوالي عام ١٧٠٠ الى ٩٠٠ مليون في مطلع القرن اي في سنة ١٨٠٠. وقد عرفت اوراسيا ان تحافظ من جهتها على تفوقها العددي . صحيح ان اميركا الشمالية عدّت ، إذ ذاك ، ٦ ملايين نسمة بعـد ان ضمت مليوناً واحـداً من السكان فسجلت بذلك اكبر معدل في الزيادة ، بينما بلغ عدد سكان ما تبقى من العالم الجديد، ١٩ مليوناً بعد ان كان في حدود ١٢ مليوناً . أما افريقيا فقد بقيت على وضعها المعروف تقريباً أي في حدود المائة مليون . وبالمقابل بلغت آسيا ٥٧٥ مليون نسمة بعـد ان كانت ٣٣٠ ، واوروبا ١٨٧ مليوناً بعـد ان كانت ١١٨ مليوناً . وهكذا فقد أربى معدل الزيادة في اوروبا على معدل النمو في آسيا [1] .

وهذا النمو المتصاعد لم يتوقف ولم يخف كما انه لم تتغير كثيراً نسبة التوزيع الديموغرافي في النصف الاول من القرن التاسع عشر. هنالك في العالم زهاء ١٢٠٠ مليون حوالي عام ١٨٥٠. فاذا ما عرفت اميركا ان تحتفظ بأكبر معدل في هذا النمو السكاني ، إذ ارتفع عدد السكان فيها من ٦ ملايين الى ٢٥ مليوناً، فقد سجلت آسيا ٧٦٠ مليوناً وأوروبا ٢٦٦ مليوناً . وهكذا نرى كيف ان معدل النمو ازداد في اوروبا . وقـد يتأتى معدل الزيادة أعلى من ذلك بكثير اذا ما اخذنا بعين الاعتبار حركة الارتحـال الاوروبي الى الولايات المتحدة الاميركية (اي ما يقارب ١٠ في المائة من سكان عام ١٨٥٠) .

وقـد طرأ ما غيّر من معدل توزيع السكان داخل المجموعة الاوروبية . فالخمسة والثلاثون مليون فرنسي، عام ١٨٥٠، لم يكن ليبزهم عدداً إلا الـ ٥٧ مليون روسي . والدويلات الالمانية (باستثناء النمسا) تعادل لوحدها هذا الرقم، بينما ارتفع عدد سكان ايطاليا من ١٨ مليوناً الى ٢٥ مليوناً ، كما نلاحظ زيادة مرموقة في معدل نمو السكان في الجزر البريطانية إذ ارتفع رقمهم

---

(١) راجع في هذا الصدد الجدول البياني لتعداد السكان في اول الفصل الرابع من القسم الثاني من هذا الكتاب.

من ٩ ملايين ، في عام ١٧٠٠ ، الى ١٦ مليوناً ، عام ١٨٠٠ ، والى اكثر من ٢٧ مليوناً ، بينهم ٨ ملايين ونصف في ايرلندا . والسبق الفرنسي في هـــذا المضمار أصابه التمهل ، فالتأخر لعلة تناقص المواليد ، بينما يرتفع معدل نمو السكان في البلدان الاخرى . فبينما يبلغ معدل النمو في فرنسا ، عام ١٨٠٠ ، ٣٢ في الالف ، تحافظ انكلترا على مثل هذا المعدل ، عام ١٨٥٠ ، ويبلغ في المانيا ٤٠ في الالف و ٤٣,٣ بالالف في الولايات المتحدة الاميركية .

المعدل العالي في الوفيات
الأوبئة الفتاكة والطاعون

قابل معدل المواليد العالي معدل عالٍ في الوفيات . ان الامل بحياة طويلة الامد ضعيف أينما كان ، فالسواد الاعظم من السكان هم من الاحداث . ان ٤٤ ٪ من سكان فرنسا، عام ١٨١٥ ، لهم من السن اقل من عشرين سنة والذين تجـــاوز سنهم الـ ٦٠ لا يمثلون سوى ٧ ٪ لا غير . فاذا ما انخفض معدل الوفيات قليلاً في غربي اوروبا والبلدان السكندينافية ، فالظروف الاقتصادية السيئة تحول دون أي تحسن في هذا المجال وتقف حجر عثرة في اي امل بتحسن الوضع . لا بد من ان نتذكر هنا ان السواد الاعظم من الاوروبيين لا قدرة عندهم على مقاومة المرض ولا مناعة عندهم بالنظر لمـا هم عليه من نقص في التغذية ولأن موقفهم من المرض ليس خيراً من الآسيويين والافريقيين . ففي مدينة ليل ، عام ١٨٣٠ ، لا يتجاوز معدل سن نصف الاحداث بينهم ، خمس سنوات ، بينما لم يزدد معدل مدى الحياة في مدينة ملهوز على ٢٢ سنة . ويكفي ان تجدب الارض سنة واحدة او ان تجدب غلالها حولاً واحداً حتى يتهاوى المساكين والبائسون بعشرات الالوف.

فاللقاح الذي اكتشفه جنتّر ساعد كثيراً على التحكم بسير الجدري، والبرص اعتصم في أشباه الجزر الجنوبية والسكندينافية، بينما بقيت حمى البرداء على فتكها الذريع في بلدان حوض البحر الابيض المتوسط ، والتدرن الرئوي المتلبس أشكال مرض السل ومظاهره المألوفة بقي يحصد الناس دونما رحمة او شفقة .

فالتيفوس والوباء والطاعون هي اكثر الأوبئة الوافـــدة التي خشي الناس شرها الوخيم . فالتيفوس ، كالطاعون ، مرتعه القذارة وانعدام الوسائل الصحية ، فهو يعشعش في الزرائب وفي الاوساط التي تعاني من سوء التغذية ، او تذهب فريسة لويلات الحرب وفتكها الذريع . فقـد تميزت اواخر الحروب النابوليونية بجائحة تيفوس فتكت دونما رحمة بالمانيا ، وبقي هـذا المرض الوبيل الخبيث ينتقل من محل الى آخر في جميع ارجـاء اوروبا ، معلناً عن قدومه واستشاطته بهجمات فتاكة تقضي على ٢٠٠٠٠٠ في بلجكا ، خلال الازمة التي استحكمت بها بين ١٨٤٦-١٨٤٧، وينزل بالمحاربـين في الشرق ، عـام ١٨٢٩ ، ولا سيا في حرب القرم (١٨٥٤ – ١٨٥٦) من ويلاته ضحايا لا تحصى ولا تُعد . وقد عرفت اوروبا ، بين ١٨١٠- ١٨٣٢، ان تتفادى وافدة الوباء الذي نشأ بين سكان السلطنة العثمانية . وقد اتضح للجميع بالاختبار ان إفتراس الجرذان الاغبر للجرذان الاسود والتهامه له فيه ما يخفف من انتشار هذه الجائحة .

ان الطاعون ضيف طارىء ثقيل ، يزرع الرعب أينما حلّ وقـام ويسمر الخوف في القلوب والنفوس . فوافدته الكبرى اجتاحت اوروبا في اثر حملة الروس على ارمينيا وعلى ايران وأثناء الدور الاول من الصراع الدامي الذي نشب بين مصر وتركيا . فالعدوى سَهَّل انتقالها خلال الحملات والاشتباكات الحربية ، التي قامت بين الروس والبولونيين ، عام ١٨٣٣ ، عقب وصول بعض السفن الموبوءة، الى سواحل البرتغال، محملة جنوداً وعتاداً لحساب دون بدرو، ووافدة الوباء لم تتجاوز استراخان عام ١٨٢٣ ، إلا انها اتجهت بعـد ١٨٣٠ ، شطر اوروبا فاشتدت عليها وطأتها مدة سبع سنوات ومنها امتدت الى الجزائر [١] . فقد بلغ عدد الضحايا الذين خلفتهم وراءها في فرنسا مائة الف ، بينهم ١٦،٥٠٠ في باريس نفسها ، و ١٤٠٠ في برلين ، و ٢٠٠٠ في فيينا و ١٠٠٠ في النرويج ، و ٦٧٠٠ في لندن . والمدن التي تثاقلت عليها وطأة الجائحة ، فرّ اهلها بأنفسهم الى الريف . فيا له من خوف مريع . فبمَ يستطبّ الناس ويتعالجون ؟ هل يفيد في مسبب الموت الزؤام، البزموت والكلور والكينا وحمامات البخار . وعندما اصدر حاكم مقاطعة السين اوامره بنقل الاوساخ والنفايات بالعربات ، راح الزبالون بعد ان حرمهم هـذا القرار من لقمة العيش ، يشعلون النار في عدد من هذه العربات ، كما راح خصوم لويس فيليب ، يستغلون لحسابهم الخاص ، الاضطرابات التي نشبت في العاصمة ، كما راحوا يسممون الخواطر ، بالشوائع المغرضة والاقاويل زاعمين مرددين ان كزيمير بريّيه يسمم الشعب بالتواطؤ مع الاطباء والكهنة . ولم يلبث النـاس ان راحوا يتخاطفون النعوش والتوابيت وصناديق الموتى . ومع كزيمير برييه غابت وجوه: شمبوليون الابن وكوفييه وصادي كرنو.

والرياح الموبوءة الفاسدة اخذت ، بـين ١٨٤٧ و ١٨٥١ ، تهب من سباسب آسيا وفلواتها الموحشة في الحين الذي اخذت تستحكم في الرقاب ازمة اقتصادية حادة. ولما كان الشعب البلجيكي ضعيفاً وهناً لكثرة ما يعاني من ضنك العيش وسوء التغذية فقد رأت فيه الجائحة مرتعاً خصباً وفتكت فيه فتكاً ذريعاً ، فحصدت من بين صفوفه ٢٣،٠٠٠ نسمة . وبلغ عدد الضحايا ، في لندن ضعفي عددهم عام ١٨٣٢ ، كما ان امبراطورية القياصرة الروس سجلت لوحدها أكثر من ٦٠٠،٠٠٠ ضحية، وحصدت هذه الوافدة في باريس، بين ١٦،٠٠٠ و ١٧،٠٠٠ فريسة وتجرأت على الجنرال بوجو ، « ملاذ المجتمع ومعقله الحصين » ، كما يقول فيه لويس فويو . واشتد الوباء بالأكثر في الاحياء المدقعة الفقر ، كما يؤكد ارمان دي ميلون . وكان الجيش النمساوي أداة نقل هذه الوافدة الى ايطاليا ، ومن مرسيليا انتقلت الى الجزائر . وقد سلكت الطريق ذاته عـام ١٨٥٥ ، فأناخت هذه المرة بكلكلها الثقيل على بلدان الحوض الغربي للبحر الابيض المتوسط ، كما

---

(١) انظر الى الخريطة ص ٢٤ - ٢٥ ، وزيادة في المعلومات يحسن مراجعة البحث الاستقصائي الذي قام به السيد لويس شفاليه بعنوان: « الكوليرا أولى وافدات القرن التاسع عشر » المنشور في مجلة مكتبة جمعية الثورة، عام ١٨٤٨ (الذي صدر عام ١٩٥٨)

سارت في ركاب الفرق الفرنسية في حروبها في شبه جزيرة القرم ، وانتقلت عن طريق النازحين الى اميركا . وقد عرفت اوروبا في آخر الامر كيف تتقي هذا الشر الوخيم .

مع ملطوس وضده

فلماذا ينجب الناس مثل هذا العدد من الولد اذا كانت قسمتهم الفقر المدقع والموت الخاطف وحياة ملؤها الغصص ؟ هـذا السؤال كثيراً ما طرحه على نفسه القس ملطوس في كتابه الموسوم : « بحث حول مبدأ السكان » الذي صدر عـام ١٧٩٨ ، والذي احدث صدوره دوياً عظيماً [١] . فعندما راح يهاجم نظرية النشوء والارتقاء ، هـــذه النظرية التي قال بها فلاسفة القرن الثامن عشر وعلموا ، حُسب عليه هجومه هـذا شجباً للقانون الانكليزي المتعلق بالفقراء ، هـــذا القانون الذي حبذ تكاثر النسل لدى طبقة المعوزين ، مشيراً بذلك الى ناموس المتوالية الهندسية ، بينما « وسائل التغذية » لا يمكن ان تتطور وتزداد بأسرع من « المتوالية الرياضية » . وقد تنطح للرد عليه غودون ، فراح يؤكد ان البؤس والفقر انما ينشأ عن تفاوت في توزيع مصادر الثروة الطبيعية او عن سوء في هذا التوزيع ، وعن تمركز الملكية العقارية وحصرها في ايدي عدد قليل من الملاكين . وقـد وقف هذا الموقف المناهض لمالطوس هذا القبيل من الناس الذين راحوا يتمنون ردة عكسية للحد من حرية التصرف المؤاتية ، في نظر سسموندي ، « للدول الثرية ، حيث ظاهرة البؤس والفقر العـــام تسير جنباً الى جنب والثراء المادي » . وقد حرص ماركس ولا سيما انغلز على تجريح نظرية ملطوس ودحضها ، الذي ينزل العامل منزلة حيوان الجر ، تأميناً للانتاج ، ويذهب بالحكم عليه بالموت جوعاً ، والعيش اعزب طوال حياته . وعلى عكس هذا تماماً راح المتحررون من علماء الاقتصاد ، يرحبون بمبدأ يتنافى والاصلاح الاجتماعي . من الواجب ، وأيم الحق ، تشجيع النـــاس على الاقتصاد وحملهم على التوفير ، بدلاً من التكاثر والانسال بكثرة ، كما يؤكد جان باتيست ساي المعروف بشدة تفاؤله والذي لم ينفِ قط « ان جانباً من الناس يموتون من العوز والتضور جوعاً حتى بين الشعوب التي تنعم بالازدهار المادي » . وراح دونوبه ، عام ١٨٣٣ يوصي بقطع المساعدات الانسانية عن كل الأسر التي لا يزيد عدد الاولاد عندها ، على ولد واحد . وجان ستيوارت ميل لا يتورع قط عن « النظر الى الأسر العديدة الاولاد والبنين نظرة الازدراء والاحتقار التي يحتفظ بها للمدمنين على تعاطي المسكرات او لغير ذلك من الموبقات الجسدية » . وتألفت في انكلترة عصبة خاصة تعرف بعصبة ملطوس اخذت على نفسها مناهضة الانسان والأسر الولود بين البائسين .

وهكذا انفتح باب الجدل والنقاش على مصراعيه . فهل يقضي العصر لملطوس او عليه ؟

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٥٩٩ و ٦١٧ (الطبعة العربية) .

الفصل الثاني

العناية بالأرض في اوروبا
أنماط الحياة القديمة والتطور

« كل مخلوق بشري أوتي القدرة على انتاج كمية تزيد على حاجته من الغذاء » ـ غودوين: (نظرات حول السكان ـ ١٨٣٠)

الطابع السائد في اوروبا
لا يزال طابع التربة والارض

لم يكن في مقدور « الثورة الصناعية » ان تزيل عن اوروبا ، وهي بعد عند عتبة القرن التاسع عشر ، الطابع الريفي الذي لازمها منذ عهد سحيق . ومهما كان من الدفع الرأسمالي في انكلترا ، فالتوازن لم ينقطع ، لدى سكان الجزيرة ، بين الثروة العقارية (Landed Interest) وبين الثروة النقدية (Moneyed Interest) لجهة الاخيرة منها . أما في فرنسا ، التي دخلت في ظل إعادة الشرعية الى الحكم ، فالتربة تمثل ثلاثة أخماس الثروة الوطنية ، وهي نسبة تجاوزت هـذا الحد في معظم دول القـارة . فإن كان الانسان لا يزال يعول في معايشه على عمله في الارض والسعي لتأمين ما فيه كفافه ، فقد بقي الخوف من المجاعة هاجسه اليومي الذي لم يبارحه إلا في السنوات التي تجود بالمواسم الطيبة والغلال المشجعة ، حتى المدن التي كان شأنها متواضعاً على الاجمال فقـد وجدت نفسها غارقة في محيط ريفي تعيش معه في مقايضة موصولة وتبادل لا ينقطع .

الاقتصاد الريفي
لا يزال على طابعه التقليدي

حرص الاوروبيون الذين همهم ، في الدرجة الاولى ، تأمين أوَد العيش ، على ان يجنوا من غلال الارض ومحاصيلها المتنوعة ما يؤمن معايشهم العادية. مغبوطة هي الارض التي تكفي نفسها وتفي بفرائضها المرسومة ومباركة المواسم التي تتيح لأصحابها توفير بعض الغلال ، بعد ان يسدد المزارع ما عليه من رسوم وأتاوات وضرائب وعوائد .

فالمساحات المخصصة لانتاج الحبوب لم تكن ابداً ، فائضة عن الحاجة ، إذ المهم في هـذه الحياة تأمين حاجـة المرء من الحنطة . فالمحاصيل الزراعية في البلد الام تكفي عام ١٨٤٠ ،

بحاجات ٩٠٪ من البريطانيين . فإن قصر موسم الشوفان شال موسم القمح . ومع ذلك بقي خبز القمح ورغيف القمح من الامور الكمالية او الترفيهية . والشوفان والشعير والذرة دخلت أكثر فأكثر في تكوين الرغيف والطلبية والعصيدة . أفليست كعكة الحلوى او قرص الحلوى في سكوتلندا من القرطم ؟

وتربية الماشية تأتي بالرديف المؤمل والعنصر المساعد ، وهي تربية تعوّل ، الى حد كبير ، على انتاج الحقل اكثر منها عملية استثمار قائمة بذاتها . فهي تولي صاحبها القوة وتوفر له حاجته من اللبن واللحم ، اذا ما كانت تقوم على تربية الخنزير وتعتمد على السماد الطبيعي . وهذه السائمة التي تعيش قطعانها بصعوبة كلية ، على المراعي والقصيل الجاف والتي تفتقر احياناً للملح ، هي عرضة ، من حين الى آخر ، لجوائح وأوبئة تصيب الماشية ، فتفتك بها حتى الفناء ، باستثناء الوباء البقري منها . ومع ذلك فالخروف ، يسرح في الجنوب ويمرح في مراع واسعة يغشاها دورياً مع مواسم الظعن . والماعز الذي يعرّفونه عادة ببقرة الفلاح يقضي على الخضرة في الارض بعد ان يقضمها قضماً من الاساس .

والأهمية التي اتخذتها زراعة البطاطا بحيث اصبحت الركن الركين في نظام التغذية تعبر من نفسها عن حراجة الوضع ، كما انها دليل على قلة الطمأنينة للمواسم الزراعية وتقلباتها المحتملة . فما من شك قط ان السهول الساحلية الرطبة لم تكن تكفي لتأمين ما فيه أوَد العيش للسكان الآخذ عددهم بالازدياد لولا التعويل على المحاصيل الاخرى في البلاد ، وهذا ما يفسر لنا كيف ان ارلندا لم تقفر من السكان منذ عهد بعيد .

وفي اماكن ونواح كثيرة ، لم يكن الجهد البشري ، حقق بعد ، السيطرة على سطح الارض القابل للزراعة . فقد يقنع الفلاح باستثمارها الموقت مستعيناً على ذلك بوسائل بدائية تؤول الى حرق الاعشاب بعد كشطها ، وعزق التربة واحيائهـــا والتسميد ، كما اخذ العمل بذلك كلـه مناطق عديدة من الاردين . ومهما تكن دورة الارض الزراعية فهنالك دوماً ارض بور . وأمام فقدان السماد الحيواني ، كثيراً ما عمـــد الفلاح الى الزبال او السماد الاخضر . وكثيراً ما يقنع بعزق الارض على الطريقة الصينية ، اذا لم يتوفر له ما يلزم ، من حيوانات الجر والفلاحة وكثيراً ما جرّ البزار الرديء او المتأخر عن اوانـــه ، والعزق الناقص ، الى مواسم سيئة . فالأعمال الزراعية يقتضي لها جهود شاقة ووقت طويل وسواعد مفتولة . فالبزار يتم باليد ، وهي حركة مبرورة تبقى عماد الموسم الزراعي الى اواخر القرن . فالحصاد يجري بالمنجل ، والدراسة بالمخباط او النورج تجره الأبقار . فالصور الفرعونية لعملية الحصاد لا تجرح انظار الصغار .

الازمات الزراعية

هذا النظام الاقتصادي القائم على موسم الحبوب ولا سيما الحنطة يبقى دوماً عرضة لتقلبات محيرة اساسها اصلاً ضعف معدل انتاجية الارض ، وهذه التقلبات التي تطرأ على الحد الاعلى في المحصول ، وقصور وسائل النقل وبطئها . وهكذا اصبحت سوق الحبوب سريعة الحساسية الى حد بعيد . وهـذه التقلبات السريعة كثيراً ما تقع خلال فترة من

ركود الأسعار او هبوطها ، هذا الهبوط الذي يطبع بميسم خاص، عام ١٨١٧ وما بعده ، وهو ركود عقب حقبة طويلة من ارتفاع الاسعار استطالت الى النصف الثاني من القرن الثامن عشر [١] .

ومع الاستقرار ، انعكس الوضع وانقلب ، إذ يكفي ظهور موسم عاطل واحد لتطل الازمة برأسها من جديد . فعندما برزت ازمة عام ١٨١٦ ، ارتفع ثمن الهكتوليتر من القمح في فرنسا ، من ٢٢ الى ٣٤ حتى بلغ ٤٦ فرنكاً في بعض الاماكن . وراح الناس ينزلون باللائمة على المحتكرين ، كما راحوا بالتالي يطالبون بالمصادرة . وقد تجلى الهيجان ، إذ ذاك ، بأعمال سرقة الطحين ومحاولات تعدٍّ بالقوة . وكما حدث في عهد لويس السادس عشر ، راحت الحكومة تعفي القمح من رسم الدخولية ، وتعطي مساعدات لمستوردي الحبوب ، وفتحت ابواب المشاغل الخيرية . ومنذ ١٨٢٥ ، اخذت البلاد تشكو من فقدان البطاطا مما سبب زيادة جديدة في اسعار المواد الغذائية ، ولا سيما في اسعار الحبوب ، فعادت الاضطرابات وسيطر الهيجان في مطلع عهد ملكية تموز، وجرت اعمال عنف ضد النبلاء وضد جباة الضرائب غير المباشرة ؛ فإذا ما هبطت الاسعار عقب ذلك هدوء الاحوال. وعندما عادت الاسعار الى الارتفاع من جديد ، عام ١٨٣٢ ، عاد الهيجان يطل ثانية ليعكر صفو الامن . فندرة المواد الغذائية اوجدت مناخاً لا ينسجم واستتباب الامن في البلاد ، عام ١٨٣٨ و ١٨٤٠ .

وقلة المواد الغذائية وفقدانها كانت اصلاً وراء الانتفاضة الثورية التي وقعت عام ١٨٤٨، اذ قلت البطاطا في الاسواق بعد ان فتكت بها حشرة مهلكة . ففي الحين الذي لاقى فيه مئات من الألوف في ايرلندا حتفهم جوعاً وتضوراً (الأمر الذي سبب مهاجرة أكثر من مليون نسمة من سكانها) طرأ موسم جفاف اجدبت معه مواسم الحبوب في هذه المقاطعات الواقعة بين السين والرين فتعرض لمجاعة شديدة سكان منطقة واسعة تقع على سواحل البحر الابيض المتوسط . وهكتوليتر القمح الذي كان سعره يتراوح بين ١٨ – ٢٣ فرنكاً قفز فجأة الى ٤٣ فرنكاً . كما أن سعر الخبز تضاعف من جهة ثانية ، هو الآخر . فالانعكاسات والردات هي واحدة مما شجع جول فاليس على أن يضع كتاباً حول فتنة انتفاضية في فرنسا في مقاطعة الاندر ، صدر بعنوان « البلوزات » . وكان من جراء حركة ارتفاع الاسعار والاستيراد، أن ضعفت السيولة بين أيدي الناس وأوصلت الازمة الى القطاع الصناعي . وعند أقل بادرة تساهل من قبل القوى الساهرة على حفظ النظام ، كانت الجماهير المهتاجة في كل مكان تعمل على اسقاطها والتخلص منها ولو الى أمد قصير .

---

(١) راجع الكشف البياني ، الشكل ٤ في الفصل ٦

نتائج « الثورة الزراعية » ذي النهج البريطاني

هنالك كما يبدو تطورات ملحوظة بدت طلائعها منذ القرن الثامن عشر .

راح أرثر يونغ يؤكد عالياً « ان طريقة تعاقب المزروعات العلفية ، الخاصة بالماشية مع زراعة الحبوب الغذائية ، هي القاعدة الاولى والركن المعول عليه في النظام الزراعي المتبع في انكلترا » . ويؤكد نورفولك بالفعل : ان الدورة الزراعية الرباعية من شأنها ان تقضي على الارض البور وان تزيد الارض خصباً بمزجها التربة بالنباتات والحشائش والمواد العلفية الغنية بعنصر الازوت وهي النظام الذي ارتكزت عليه واعتمدته «الثورة الزراعية» . وعلى هذا فان اضافة بعض انواع الفصيلة الصليبية كاللفت والكرنب والسلجم وبعض الحشائش الريفية التي تتكاثر بالبذار كالفصة والبرسيم والحلفا يجب ان تعتبر من افضل الطرائق العلمية التي استنبطها العصر الحديث . وقد اخذ بطريقة التحويل الزراعي وتطبيقها كبار المزارعين الانكليز . بينما عارض المزارعون ، في فرنسا ، اقتباس هذه الطريقة لما تمثله من صدمة تلحق التقاليد المتبعة لدى صغار الملاكين والمزارعين ، في فرنسا ، مثلاً . ومع ذلك فقد راحت اراض عديدة معروفة بطيب تربتها ، بين المانش ومقاطعة بوهيميا او في سهل نهر البو ، تحاول زرع الشمندر السكري بينما اخذت أماكن اخرى تعاقب بين زراعة السلجم ، وبين زراعة الحبوب والبطاطا ، ومثل هذه البقول تجد لها سوقاً رائجة في المدن المكتظة بالسكان . وراحت زراعة الكرمة في الغرب تتقهقر أمام الاقبال المتزايد على زراعة التفاح . بعد ان ثبت بالتجربة ان التربة والمناخ في المقاطعات الجنوبية هي أكثر ملاءمة لها . كذلك حشيشة الدينار اخذت مناطق زراعتها تنحدر من الشمال الغربي ، نحو وادي الرين ومقاطعتي بورغوني والبافيير .

وقد عولوا في علف الماشية ، على بعض الحبوب . فراح العاملون في تربية الماشية في انكلترا يعنون ، على الاخص ، بتأصيل عروقها واستيلاد انواع جديدة بالمصالبة . فقد همهم أن يحصلوا على عرق من الابقار يعطي المزيد من اللحم او الحليب . كما راحوا يستولدون عروقاً جديدة من الغنم الجيد الصوف . وهكذا استطاعوا ان يسجلوا لهم تقاليد محترمة يُعمل بها في مجال تربية الماشية . من ذلك مثلاً ، النوع المعروف عندهم بـ *Durham Shorthorned* القصير القرن . كذلك صرف المزيد من الاهتمام والعناية بنظام السقاية والري استوحيت اصوله من الاساليب المستعملة في الاراضي الاسبانية *huertas* المروية المشهورة بخصب زراعاتها . وكان من بعض نتائج هذه الطريقة ظهور مروج ومراع هامة في انكلترا وفي بعض بلدان القارة .

وأخذت اوروبا تجري تجارب تأصيل واستنبات عروق جديدة بين الغنم والبقر . فبعد ان كان الخروف من عرق المارينوس يعد في فرنسا مليون ونصف المليون ، عام ١٨١٥ ارتفع عدده في عام ١٨٤٠ الى ٨ ملايين رأس . وقبل أن تدخل بلدان جديدة مضمار تربية الماشية ،

أقبلت اوروبا القارية على هذا النوع من الأستثمارات ، بصورة غريبة بحيث ان المانيا عدت ٢٠ مليون رأس ، منها ٨ ملايين في بروسيا .

وبذلوا كذلك المزيد من الاهتمام والعناية لرفع الإنتاج في الاراضي الخاصة بزراعة الحبوب بعد ان ظهر للجميع فائدة تسميدها بالكلس وتخصيبها . ومع انه اصبح في الامكان التعويل ، أكثر فأكثر ، على السماد الحيواني ، فقد راحت شركات استثمارية بريطانية ، تعنى باستعمال العظام المسحوقة لهذه الغاية حتى ان احداها اخذت تستعمل تربة بعض الحقول التي كانت ميداناً لاحدى المعارك النابوليونية الكبرى . وأخذ الغوانو *Guano* يلعب ، بعد عام ١٨٤٠ ، دوراً بارزاً في عملية تسميد الاراضي الزراعية ، ومثل هذه المادة تتوفر بكثرة في بلدان اميركا الجنوبية المطلة على شواطىء المحيط الهادي . كذلك جاء بفائدة كبيرة الاختراع الذي تم على يد ليبيغ *Liebig* ومكنه من صنع مخصّبات صناعية تُستمد من الكيمياء الصناعة .

وبما استدعى اهتماماً أكبر وجهداً مريراً هي الاراضي التي عرف الانسان ان يستخلصها من البحر . فقد طرأ تحسين كبير على طريقة تصريف المياه تدريجياً بواسطة قساطل متخذة من الطوب والقرميد ، وهي الطريقة التي اقترح العمل بها السكتلاندي سمث عام ١٨٢٣ . وقد عرف بيل *Peel* ان يحدث حولها دعاية للترويج لها ، وذلـــك باعتماده لها في مزرعته الواسعة في ستافوردشير بانتظار الانابيب التي اوصى عليها في معامل هوايتهيد في برستن . ونظام تصريف المياه مع نظام سقاية دقيقة مكن من زراعة واستثمار السهل البادانى . وهكذا امكن ادخال تحسينات ملحوظة على الاراضي الواطية في يوركشير ولنكولنشير ، وسهل فوريز ، وبطائح سولوني والمستنقعات القائمة في المانيا الشمالية .

ولعل ما يلفت النظر في هذا النشاط الزراعي ، عمليات تجفيف الاراضي الواطية وانشاء المزارع مكانها . وبهذا تم للانكليز الاستيلاء على *Fens* ، كما اخـذ الفرنسيون يجففون مستنقعات *Moers* . وتمكن الهولنديون على الاخص ، بـــين ١٨١٥ — ١٨٧٥ ، من استخلاص اراض من البحر مساحتها ٥٨،٠٠٠ هكتار ، مقابل ٢٥،٠٠٠ هكتاراً تم استخلاصها منذ عام ١٦٧٥ ، وبذلك تم ضم مقاطعات كيغراس ، وانـّابولونا ، وأزالوا بحر هارلم ، وراحوا فيما بعد يعملون على تجفيف ونزح ميـاه مستنقعات مياه توماس وبولينا ، بعد ان استبدلوا المضخات التي تعمل على الهواء بأخرى تعمل على البخار . وفي الوقت ذاتــه ، استمر العمل في بناء سدود ماركنتير ، واحياء اراضي مستنقعات البواتو ، وتثبيت كثبان الرمل في مقاطعة كسغوني . وهكذا اتسعت شطآن اوروبا المطلة على الاطلسي وأمكن تثبيتها .

وهذا الجهد لا يعني قط إغفال ما للأدوات الزراعية من قيمة والانتقاص من شأنها بعد التحسين الملحوظ الذي طرأ عليها قبل اكتشاف البخار . ولم تلبث انواع المحاريث الانكليزية المحسّنة ،

على اختلافها ، من طراز *Bibble* و *Howard* و *Mathieu* ان غزت القارة واكتسحت اسواقها وذاع استعمالها في مختلف البلدان الاوروبية .

ومع ذلك فهذه النجاحات التي حققتها الهندسة الزراعية لم تكن بحاسمة قط . فالتجارب والمشاريع الفردية التي قام بها في هـذا المجال أمثال ماثيو دي دومبال وإيفار ، الذي كان في فرنسا ، ما كانه أرثر يونغ في انكلترا ، لم تلقَ التشجيع المرتجى من قبل السلطات في باريس . فالأساليب والطرق الفنية الانكليزية وجدت لها استجابة اكبر بين كبار الملاكين في بروسيا ، وأصبحت المدارس الزراعية تعتمدها كل من *Thaer* و *Thumer* . وطبّق بسمارك في مزارعه الواسعة ، في كنيفوف ، الارشادات والاقتراحات التي أوصى بها الاخير منها ، كذلك اخذ بأسباب التجدد وتطبيق وسائل الزراعة الحديثة وأساليبها كبـار الملاكين في الامبراطورية النمساوية ، وفي ايطاليا ايضاً امثال كافور ، وفي روسيا .

كل من تطلع ، عـام ١٨٥٠ ، الى الارياف ، في كل من فرنسا وانكلترا رأى الفرق والتباين بين ما كانت عليه مناظر الريف والحدائق بين البلدين ، وكلها تشهد بالسبق الذي سجلته الزراعة الانكليزية في هذا المضمار . كذلك جـاء الفرق كبيراً بين اسطبلات الخيل في مقاطعة نورمنديا ومقاطعة الليموزين . ويتضح من البيانات والحسابات الدقيقة التي وضعها ليونس دي لافيرني انـه يلزم فرنسـا ثلاثة ارباع القرن من الجهد والتطور الزراعي لتصبح في المستوى الذي بلغته جارتهـا في هذا المضمار .

بريطانيا العظمى وكبار الملاكين

عندما انتهى كبـار الملاكين في انكلترا ، عام ١٨٤٥ من إقامة السياجات وعملية التصوين حول ممتلكاتهم العريضة ، كان قد صدر ، قبل ذلك ، منذ عام ١٧٠٠ ، نحو من ٤٠٠٠ قانون او قرار ، تطالب بشكل او بآخر اصحاب الاملاك إحاطة أملاكهم الواسعة بالأسوار والسياجات اللازمة . وهكذا أتيح لهؤلاء الملاكين الاستيلاء على جانب كبير من الاراضي في انكلترا .

هنالك زهاء ٢٠٠٠ من كبار الملاكين كانوا يملكون اكثر من ثلث مساحة الاراضي الزراعية في انكلترا ، ولا يزال تحت تصرف البعض منهم لليوم ، من هـذه الأملاك الشاسعة ما يربو على ١٠٠،٠٠٠ والبعض على ٤٠٠،٠٠٠ هكتار ،وهي ممتلكات تضم لعمري جانباً كبيراً من الاراضي الموات والمراعي . ورغبة من الارستوقراطية العقارية البريطانية في رفع وارداتها ، راحت تحاول لتجعل من اراضيها وممتلكاتها استثمارات زراعية ناجحة . ان آل بدفورد مثلاً ، استطاعوا ، بعد ان عنوا بتصريف مياه المستنقعات من بعض ممتلكاتهم ، وإحياء الكثير من الاراضي الموات ، ان يؤمنوا لهم دخلاً سنوياً من مواسمهم الزراعية تجـاوز مليونين ونصف [1] . فأملاك الكونت

---

(١) الاشارة هنا للفرنك الفرنسي وفقاً لقيمته الفعلية في شهر جرمينال من العام الثوري الحادي عشر .

ليستر الذي عرف بمعارضته لنظام الدورة الزراعية ، والتي بلغت مساحتها ١٢،٠٠٠ هكتار ، وقيمتها خمسة ملايين، في عام ١٧٧٦ ، ارتفعت اسعارها الى ٢٥ مليوناً ، عام ١٨٤٠ . فالأملاك الواسعة تولي اصحابها ومالكيها سؤدداً ونفوذاً عظيمين . فالبورجوازي الكبير بيل لا يخرج عن كونه ابن درايتن مانور او صرح درايتـُن .

ففي انكلترا نحو من ٢٠٠،٠٠٠ من هـذا الصروح التي تبدو ببساطتها من الداخل وتشرف بارتفاعها على المروج السندسية والغابات . ووجود هـذه الحدائق والمروج التي تكثر فيها اسباب القنص والصيد تضفي على مالكها شخصية تفرده ، كما انهـا تيسر له ولضيوفه ونزلائه ما يبعث في نفوسهم البهجة إذ تمكنهم من الانصراف لرياضة الخيـل والالعاب الرياضية . فعلى مقربة من مدينة شفيلد التي تغشاها الجلبة والضوضاء كما تغشى جوها سحابة دائمة من الدخان الكثيف ، يقوم قصر دوق ديفونشير المنيف الذي يحاكي بجماله وروعته ومناظره ، قصر فرساي من قريب بمياهه الهادرة ومساقط مياهه وأحواضه وفستقباته المزدانة بالتماثيل، وبدفيئته الفنية التي عولوا عليها لتجهيز معرض لندن ، عام ١٨٥١ ، بما يلزم . ويحتشد الأسياد من كبار الملاكين بالمئات في حفلات الصيد المرحة فينصرفون لصيد الثعلب وما اليـه من طرائد الطير والوحش التي تحوم في الغابات والمرتفعات الفيحاء .

فالجهاز الاداري في المنطقة يقع تحت تصرف الطبقة المالكة بما لديها من قوى الشرطة وأجهزة العدل حتى ورجال الاكليروس تنويها بما توليه الملكية العقارية لصاحبها من شرف وسؤدد. وهذا الرهط الكبير من كبار اصحاب العقارات الكبرى يعرف ان يؤمن له ريعاً كبيراً ممـا على سطح الارض او في بطنها ، يساهم الى حد كبير في تأمين ما يؤول الى تطوير المدينة ومرافق الصناعة في البلاد . ويملك كل من اللورد وستمنستر وبدفورد ، جانباً هاماً من لندن يتكون من أطيان وعقارات طائلة ، ويقومان فيها بمعاملات وأعمال تجارية واسعة ، وإيجارات مع رهن وبنيان العديد من المباني والعمارات التجارية لاستثمارها . ويعمل لورد دورهام ولورد لندندري في تجارة الفحم الحجري وتسويقه ويملك كثيرون من كبار الملاكين المصانع والمعامل. ما من شركة تجارية ولا من مصرف مالي إلا وله عائدات محترمة من ريع العقارات التي يملكها ، وهذا الريع هو في انكلترا أعلى منه في القـارة بفضل قوانين الحبوب (*Corn Laws*) التي تحظر دخول الحنطة الأجنبية الى البلاد. في مقدورنا ان نلاحظ شيئاً من التناظر بين القوانين المتعلقة باقامة السياجات (*Enclosure Acts*) وبين تقييم سعر الحبوب. ففي الحين الذي كان فيه علماء الاقتصاد وآدم سمث ينظرون الى الدخل او الريع العقاري نظرهم الى هبة او عطية من الله رأى ملطوس في هـذا الريع نتيجة حتمية للضغط الديموغرافي في البلاد . وها هو ريكاردو يشجب ربيبة القلة والعوز ، هذه الثمرة للحيازة الخانعة . ويتساءل كوبدن المتفائل مستوضحاً ما اذا كان باستطاعة كبار الملاكين في البلاد ان يعرّضوا، باستمرار ، سكان المدن للمجاعة. ولذا حتمت المجاعة التي وقعت عام ١٨٤٠ *Hungry Forties* على اصحاب الاملاك الكبيرة،القيام بتنازلات ملحوظة بهذا الشأن.

ومن جهة اخرى ، كان المزارع في انكلترا افضل وضعاً من زميله في القارة ، إذ انـه يملك منزلاً بورجوازياً يضم غرفة الاستقبال وينعم في سويعات فراغه بالمطالعة والرسم وتبعث زوجته لتبتاع من المدينة ما ترغب في شرائه من ألبسة وزينة . هنالك ، بالمقابل بروليتاريا هي دوماً عرضة لتقلبات سوق العمل ، كما يوجد في البلاد ، طبقة من اصحاب الفقر المدقع ، كما يدل على ذلك هذا العدد المرتفع من هؤلاء العمال المسجلة اسماؤهم في بيت العمل *Workhouse* ، إذ تتراوح نسبتهم بين ١٠ و ١٥ ٪ من سكان الناحية ، وهي حالة فقرية يزيد من بؤس اصحابها وتعاستهم التطورات السريعة التي اخذ بأسبابها رأس المال الصناعي ورأس المال الزراعي ، إذ جرّ الاول الخراب على الحِرف اليدوية في الريف كما استأثر الثاني بالسيطرة على الارض . فالاصلاح الزراعي الذي أجري عام ١٨٣٤ لم يحدث اي تغيير يذكر ولم يحوّر شيئاً من المبادىء التي كرست ديمومة هذا الشكل من الفوضى الاجتماعية في البلاد . وبالرغم من المساعدة التي قدمها هـــذا الاصلاح للراعويات التي لم يعد بامكانها مد يد المساعدة للمعوزين والبائسين ، فهو لم يمنع المساعدة عن هذه الأسر إلا ليجعل العمل الالزامي أشد اسراً وأنكد عيشاً .

الفلاح الايرلندي
وما يعانيه من بؤس ومذلة

بحق الفتح وباسم القوة سيطر كبار الملاكين على ايرلندا هذه الجزيرة الواقعة الى الغرب من انكلترا . فسواء أقام فيها صاحب الارض او في مدينة بلفاست او في دبلين او مكث في انكلترا ، فهو لا يستثمر منها سوى قسم ضئيل من رأس ماله وهو على يقين بأنه سيجد دوماً فيها السواعد المفتولة. فالسكان الذين يتناسلون فيها بسرعة يتوزعون بين ٧٠٠،٠٠٠ مزرعة (مقابل ٢٠٠،٠٠٠ في بريطانيا العظمى) معظمهم لا تزيد مساحة مزرعته على هكتارين وتبقى شبه ضائعة لا تقع عليها عين بين ممتلكات تتناوح مساحة الواحـــدة منها بين ٦٠٠٠ و ٦٠،٠٠٠ هكتار . فالمرابع او المزارع الضعيف الجانب يشده الى الارض عقد مشروط لا يستطيع معه مبارحة المزرعة التي يعمل فيها لأخرى إلا بعد إنذار صاحب الارض برغبته تلك بستة اشهر ، عملاً بالعرف المتبع (*rundale* او *runrig*) الذي يجعل القريـــة بأجمعها متضامنة متكافلة معاً في أداء المفروض عليها من الغلة او *Conacre* المرتبط دوماً بأمل الحصول على موسم طيب ، تسديداً ووفاء لعوائد باهظة . فهو لا يتمتع حتى بهذه الطمأنينة التي تتوفر لرقيق الارض . فهو يستدين ليؤمن بذاره والعشر المترتب عليه نحو الكنيسة ، سواء أكان من أتبـاع الكنيسة الانكليكانية او لا ، والضرائب العقارية التي زادت فداحة منذ الحروب الاخيرة . ولما كان دخله لا يمثل إلا ثلث المحصول القائم ، كان على ملتزم الارض ان يتدبر امره بالاستدانة بفوائـــد عالية وببيع قسم من حصته . وكان من جراء هـــذا التصرف ان فقدت البلاد مواردها لا سيا اذا ما عرفنا ان مساحة الارض المخصصة لزراعة المواد الغذائية أخذت تتناقص امام إقامة المراعي والمروج. والبطاطا وحدها هي المعول عليه في تأمين أوَد الاسرة والخنزير الذي يحتل قسماً من المطبخ في الزريبة فيأخذ الفلاح الايرلندي يجوب الارض بحثاً عن عمـل (هنالك اكثر من ٦٠٠،٠٠٠ يبقون عاطلين عن العمل اكثر من

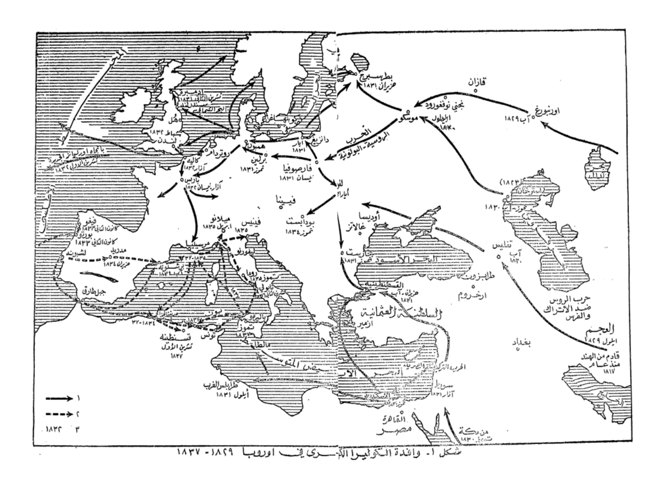
نصف السنة) وإلا اضطر ان يتبلغ عيشه الضنك في منزله الموحل يصطلي، على الرديء من الفحم يتنازعه عاملا الاستسلام واليأس .

زد على ذلك الاضطرابات الزراعية التي كثيراً ما رافقتها حرب دينية وصراع مستميت ضد اجنبي طارىء استباح باحة البلاد ممـــا لم يترك للانكليز سوى فترات قليلة من الهدوء النسبي وراحة البال . فبعد الهيجان الذي احتدم أواره عـــام ١٧٦٣ – ١٧٦٤ ، والفتنة الدامية التي قامت بين ١٧٩٦ – ١٧٩٧ ، وهذه الفوضى التي استبدت بالبلاد بين ١٨١٠ – ١٨١٤ ، والمجاعة التي أنشبت أظافرها ، عام ١٨٢٢ ، كل ذلك جر البلاد الى اضطرابات دامية تخللت الازمة التي نشبت عام ١٨٣١ اصبحت معه الجزيرة مسرحاً لأعمال العنف والحرائق والجرائم السياسية . ولم يعــد الأمن الى نصابه إلا بعد حوادث ١٨٤٦ – ١٨٤٨ المفجعة التي أدت ليس الى إفقار الريف فحسب بل الى ثورة دامية .

في فرنسا مجتمع من صغار الملاكين المتواضعين

بعد عودة البلاد الى الشرعية وجد ملوك آل بوربون عندهم طبقة من الفلاحين متحررة تماماً من النظام السيادي . وهـــذا المجتمع ما زال يتألف في كثير من المناطق من مزارعين ومرابعين وعمال مياومين . فبعد ان صُدمت آمالهم في ما عللوا النفس بـــه وتوقعوا من تقسيم ، استمسك اكثرهم حرماناً بالأعراف المعمول بها مجتمعياً ، هذه الأعراف التي شجبتها ونددت بها عالياً التشريعات الفردية والاقتصادية . وعندما راحت حكومة تموز تفكر بإلغـاء حق رعي الماشية في المراعي الخاصة ووقف العمل بما تمتعوا به من حق المرور ، والمباشرة بإحياء الاراضي المشاعية وتعميرها ، أثارت المجالس البلدية امامها احتمال قيام هيجانات شعبية في البلاد. وقد استقر في روعها انه من الافضل الاخذ بنظام تأجير الارض بدلاً من توزيعها. وقد صدر بذلك، عام ١٨٥٠ ، قانون بيّن وسائل تطبيقه ووضعه موضع التنفيذ .

هنالـك أملاك ساروا في استثمارها وفقاً لأصول الزراعة الحديثة كما حدث احياناً منذ القرن الثامن عشر ، وظهر للحال الفرق بينها وبين الاملاك التي ساءت العناية بها فبارت بالتالي مواسمها وفاتت غلالها. ويلحظ ستاندال في « مذكرات سائح » تحول بعض اصحاب الاملاك الذين قالوا بالشرعية ، الى العناية بالارض . وراح بعض البورجوازيين وبعض اصحاب الاراضي من النبلاء ، خذاً منهم بالنظام الانتخابي المعمول بـــه ، يتحكمون بمجتمع ريفي تسوده الفردية والتشتت . الأملاك العقارية هي متواضعة الحجم ، اجمالاً ، باستثناء بعض المقاطعات حيث المزارع الكبرى بقيت تدار وفقاً للتقاليد المرعية ،وحيث المستأجر يفتقر للنقد وللسيولة لتأمين ما يطمع فيه من ارباح واستقرار. فهل كان فوربيه يغلو عندما يؤكد لنا، عام ١٨٢٩ ان هنالك في ارجاء مقاطعة بيكارديا ، فلاحين ومزارعين لا فراش عندهم في هـذه الأكواخ الترابية التي يعيشون فيها ، فهم يتخذون لهم فراشاً من الاوراق اليابسة الـــتي تعبث فيها الهوام والحشرات . ويتساءل نويل



شكل ١- وافدة الكوليرا الكبرى في اوروبا ١٨٢٩- ١٨٣٧

بارفيه ، عام ١٨٤١ ، ما اذا كان وضع الفلاحين العاملين في سهول *Beauce* يختلف كثيراً عن وضع آبائهم وجدودهم ، إذ كان طعامهم دون ما يحتاجون اليه بكثير ، إذ لم يكن غذاؤهم اليومي سوى الخبز الاسود الناشف بعد ان كانوا يؤمنون لنا خبزاً ابيض شهياً — وبعض البقول ، وشيئاً من الجبنة مع الماء بالقدر الكافي ، هذا الماء الذي ينقص احياناً ، في فصل الصيف بعد ان تجف البرك والغدران وتنزح الينابيع والآبار ، بينما لا يذوقون من انواع اللحم غير دهن الخنزير ضمن ورقة الملفوف ، مع العلم ان الحصة السنوية للفرد الواحد من القمح واللحم قد ارتفعت ، من عهد لافوازييه الى سنة ١٨٤٠ ، من هكتولتر وربع و ١٨ كيلو من اللحم الى هكتولتر و ٣/٤ من القمح و ٢٢ كيلو من اللحم ، بالاضافة الى كمية اكبر من البطاطا والخضراوات والحليب وأحياناً النبيذ . والنظام الاقتصادي الذي حرص ابن الريف دوماً على التمسك به هو ان يكفي نفسه بنفسه وان يبيع كل ما يعطيه مردوداً أطيب ، وهي عقلية رجل مقتصد همه الوحيد ان يتمكن من زيادة املاكه مهما كلفه الامر من حرمان ، وتحمل من غصص ومضض ، مع العلم انه لن يتمكن دوماً من تفادي الوقوع في الدين . وهذا هو بالذات ما حمل برودون ان يرى في عمليات الرهن التي كثيراً ما تعرض له ابن الريف ، المشكلة الكبرى ، هذه المشكلة التي رأى فيها ماركس انه حلت محل الرسوم السيادية .

وهكذا مهما بدا من امر هذه المفارقات الاقليمية القائمة ، فالريف الفرنسي بقي مستمسكاً بالأعراف والتقاليد التي أقصرت سكانه على العيش الحقير . فهم يصرفون اوقاتهم في المماحكات والانتقاص من خدمة المعلمين ورسالتهم ويسلمون بالخدمات التي يؤديها الطب ، ويعولون كثيراً على الاطباء الدجالين ، ويخشون جانب النبلاء ويستسلمون بكليتهم كالأطفال ، لمباهج الأعياد الوطنية وأفراحها ، ويتنكرون هنا ، للخوري الذي يقوم على خدمتهم الروحية ، ويجلّونه هنالك ، محتفظين من المسيحية بمعظم ما لها من مظاهر وثنية ، عارضين صورة العذراء مريم الى جانب صورة نابوليون . وبالرغم من ثورة ١٧٨٩ التي حررته من العشر والحقوق الاقطاعية ومنحته تلقائياً الحق القانوني دون الحق الفعلي بالاستملاك واقتناء الاراضي ، فالعالم الذي يعيش فيه هذا الريفي الفرنسي هو ، من الوجهة المادية والعسكرية ، يحاكي من قريب ، العالم الذي عرفه وغمره في العهد البائد . فهو لن يتخلص ، من الوجهة الديموغرافية بسهولة ، من عقابيل الازمة التي اخذت بتلابيبه بين ١٨٤٦ — ١٨٤٨ .

انكفاء النظام السيادي في المناطق الواقعة بين البحر الشمالي وجبال الابنين

على اثر الفتوحات الفرنسية ، استمرت حركة تحرير الفلاحين في احتدامها الصاعد وان لم تأت هذه الحركة واحدة قدراً ونوعاً ، في كل مكان في البلاد الواطئة ومقاطعات الرين وسويسرا وايطاليا الشمالية . فقد أُلغيت في كل من هذه الاقطار تقريباً الحقوق السيادية كما اخذ يختفي فيها تدريجياً ، رق الارض ، وسهلت بالتالي امام الاهلين حقوق التملك

ومعاملات توزيع الارض ، مع ما نرى الى جانب هـــذا كله ، من بوادر حركة رجعية وردّة عكسية بعد عام ١٨١٥ .

ففي البلاد الواطية حيث بقيت الكنيسة وطبقة النبلاء محافظتين على امتيازاتها ، استحوذت البورجوازية على حصص كبيرة من الاراضي بينما بقي مستثمرو الارض من مستأجرين ومكترين على عسرهم المالي المعروف . ففي السهول الفلمنكية حيث لا يزيـــد معدل مساحة الارض التي يتصرف بهـــا الفلاح او المرابع على ثلاثة هكتارات ، يوجد نحو من ٣٠٠،٠٠٠ من الشغيلة المياومين ، بحيث ان نصف عدد سكان الريف لا يستطيعون العيش إلا باحتراف الحياكة وصناعة النسيج . فقد كانت السنوات ١٨٤٠ – ١٨٤٨ ، وبالاً على هذا القطر الذي اصطلحت عليه ، في آن واحد ، أزمة خانقة من هـــذه الأزمات التي حلت ببضاعة النسيج ، ومرض زراعي فتك بزراعة البطاطا ، بينما كان سكان مقاطعتي البرابنت والهينو في وضع يحسدون عليه .

أما في سويسرا ، فالمجتمعات الريفية تعيش متحررة ، مستمسكة بأعرافها وتقاليدها ، بينما يرزح المزارعون العاملون في المرتفعات ، تحت سيطرة كبـــار الملاكين في المدن الذين لا يزالون متمسكين بأعراف السخرة وضريبة العشر ، فلن يكتب الفوز التام لحركة التحرر هذه إلا بعد جهود الديموقراطية الريفية وتضحياتها السخية في أعقاب سنة ١٨٤٨ .

أما في المانيا حيث لا نزال نرى بعض واحات ترزح تحت وطأة رق الارض ، فالحرية مثعال جانبها ، والأملاك السيادية لم تعد تمثل شيئاً يذكر اذا ما قيست بنظام اكتراء الاراضي الزراعية . فليس فيها من يفكر بالتخلي عن الاجراءات التي تم وضعها تحت تأثير الثورة الفرنسية . فقـــد صدر في مقاطعة ورتنبرغ مرسوم يقضي بإلغاء رق الارض ، واستبدلت السخرات الاعتباطية بأعمال سخرة محددة ، مشروطة ، كما ان التشريعات التي صدرت في مقاطعة بادن يسّرت شراء او افتكاك الرسوم المتوجبة كما اصبح إلغاء السخرة ، بعد عام ١٨٣٠ ، امراً واقعياً في هـــذه الفراندوقية . ومع ذلـــك فالفلاح يقاسي كثيراً من حرمانه من الارض ومن الربا الفاحش مع الرهن ، بحيث ان ثورات الفلاحين ، في المانيـــا الجنوبية ، عام ١٨٤٨ ، اتجهت ضد اليهود وضد كبار الملاكين من النبلاء ورجال الكنيسة .

فالسوادُ الاعظم من سكان الريف ، الى الجنوب من الالب ليسوا بأسعد حـــالاً ، بالرغم من زوال الرسوم الاقطاعية . فنظام استثمار الارض وتأجيرها على أساس المرابعة ، هو النظـــام الذي لا يزال متبعاً في هذه المرتفعات ، والارض غير المروية الواقعة في سهول البو بيـــنا نرى المرابعين والعمال المياومين العاملين في سهول لومبرديا ومقاطعة البندقية وفي دوقيات مودين وبارم هم عرضه لأبشع الاستغلال من قبل اصحاب الاملاك الجشعين وأرباب الأســر الكبيرة ، الذين يعيشون عيشة الترف والقصف على مقربة من هذه الاكواخ المتخذة من اغصان الشجر ومن اللبن المجفف . وبالرغم من تبجحه بالتضلع من أفانين الزراعة وأصولها . فان ميولوبولد دي توسكانا

الذي يزور مزارعه معتمراً قبعة من القش ولابساً قماطه أبعدمن ان يفكر في تلطيف وضع هؤلاء المرابعين والعمال المياومين ، بعض الشيء . وهذه المستحدثات التي اخذ بها وتبناها قرناء رجال الاقتصاد ، من بينهم مثلاً ، كمبل بنسو دي كافور ، كانت اعجز من ان تدخل تحسينات سريعة على وضع الطبقات الكادحة .

الاطيان الضخمة على حدود اوروبا الشرقية وفي شبه الجزر المطلة على البحر الابيض المتوسط

ساد الى الشرق من نهر الايلب ، والى الجنوب من جبال الابنين في توسكانا والبيرانيس نظام الاطيان والممتلكات الضخمة . فرقّ الارض هو النظام المسيطر هنا وهنالك في هذه المقاطعات المتصلة بروسيا والبلقان .

ففي شبه الجزيرة الايبيرية ومملكة نابولي اصبح الخطر يهدد وضع النبلاء والاكليروس تحت تأثير مفارقة غريبة تتمثل في هـذا التنافس الانكليزي الفرنسي . فراح الفلاحون الذين عُرفوا بكرههم للاجنبي وبتعصبهم الشديد يتصرفون تصرف سكان مقاطعة الفانديه . واذا لم يعد آل بوربون ، في ايطاليا ، بعـد عودة الشرعية في فرنسا ، فالبوربون في اسبانيا ، قوّضوا من الاساس، بحركة جذرية، العمل الاصلاحي الذي بوشر به في عهد الملك جوزف او جرى الاخذ به عن طريق الكورتيس بتوجيه منه .

وكانت هذه الممتلكات الواسعة *Latifondi* تمتد من جبال الابنين الوعرة المسالك حتى السهول الساحلية التي ساء تصريف مياهها. فقد أخذت في مقاطعة بولوني ٧٢٪ من مجموع مساحة الولاية، نصفها للنبلاء والنصف الآخر لأصحاب الطبقة البورجوازية . ويصور لنا لامارتين ، سنة ١٨٣٢ ما كان عليه « وضع الشواطىء البحرية في مقاطعات روماني وكالابريا والاراضي الواقعة في جوار مستنقعات بونتين وبطائحها ، من فقر واستيحاش » . هنا ارستوقراطية زاهية متغطرسة تتخفف من مشاغل الارض والعناية بهـا تاركة امرها لمتعهدين عامين ، لتستسلم للعبث واللهو وللاستمتاع بمشاهدة التمثيل وسباق الخيل ، وهناك بروليتاريا بائسة ، كادحة قوامها مزارعون ومرابعون وعمال مياومون ، تؤلف معيناً لا ينضب من شذاذ الآفاق ومرتعاً للعوزين .

والاحصاء الذي أجري عام ١٧٨٧ ، سجّل ملاّكاً واحـداً بين ٣٥ شخصاً . فمقاطعات البّشلك تخلو من كبار الملاكين ، هذه المقاطعة التي كانت تفاخر بمـا فيها من معمرين يعملون في استثمار الارض ، ومثلها مقاطعة النافار ومقاطعة كتلوني حيث راج نوع من الايجار المرهون يكاد يؤلف شبه ملك للفلاحين . فسهول فالنسيا تتقاسمها آلاف الحصص الصغيرة الـتي لا تتجاوز مساحة الواحدة منها بضع دونمات، بينما يخيم، على ولايتي غاليسيا واستوريا حيث يسيطر توزيع الاراضي المرهقة بحقوق الارتفاق ورق الارض، البؤس والشقاء وما يحملان في ثناياهما من ويلات. فالمزارع المرتبط بالارض بعلاقة واهية يرزح تحت وطأة الاعشار، كما ان الفلاح القشتلاني يتضور، من جهته ، جوعاً فوق قطعة ارض تزرع قمحاً يبقى نصفها بوراً . والمياوم الاندلسي يغادر المدينة

وما اعتاد عليه فيها من بطالة لينصرف للعمل مرتين في السنة ، وذلك في اوان الحصاد او لتقليم الكرمة وقطف العنب . ونقابة العاملين في تربية الاغنام (*La Mesta*) ، تحول دون زراعة الارض وتعميرها واحيائها لتؤمن لقطعان الغنم المراعي اللازمة وفقاً لمقتضيات الظمن. والكنيسة من جهتها ، تعمل على منع الفلاح من التملك ، هـذا الفلاح الذي يتسكع في مهاوي الجهل والخرافات ، ليكون ابداً على استعداد لتأمين الاعمال الوحشية ، هـذا الفلاح الذي يصوره لنا غويا في « ويلات الحرب » يقنع بشرحة لحم وكسرة خبز اسود او ببصلة او كراثـة او بحبة بندورة او بحز بطيخ مع قليل من النبيذ اذا ما اسعفت الحال . فاذا ما تمت عام ١٨٣٥ مصادرة املاك الكنيسة ، فلا يستفيد من العملية غير الملاكين العقاريين والبورجوازية .

أما في بروسيا ، فالمعارضة التقليدية المتمثلة في كلايست وآدم مولر ، والمتمركزة حول الملاك الاقطاعي الكبير لودفيغ فون دي ماروتز ، أوجست خيفة من ان تفقد الخدمات التي كان رب الارض يفرضها على المستأجر ، ليحسن استثار الارض التي هي باستلامه ، هذه الارض التي يحاول مالكها ان يوسعها ويزيد من نطاقها بضم قطع اليها ، الامر الذي يعيد الى الاذهان عملية التسييج التي اخذوا بها في انكلترا . فالأطيان الواسعة آخذة فيها بالازدياد والاتساع وعرفت ان تؤمن لها يداً عاملة احتياطية ، تكلف اقل من الاولى ، كما انها تسعى في تأمين المزيد من الاصلاحات الزراعية. إلا ان اتجاه اوروبا الوسطى نحو رأسمالية عقارية من النمط السائد في انكلترا لم يكن ليتحقق إلا على انقاض النظام القديم . فرق الارض لن يزول في هـذه المناطق التي يرويها نهر الدانوب قبل عام ١٨٤٨ . وهذا ما سبب تأخر البلدان الدائرة في فلك آل هبسبورغ . هنالك بعض كبار الملاكين امثال تششني يدعون عالياً للأخذ بالأساليب والمناهج الانكليزية ، فتنتصب في وجههم طبقة النبلاء الصغرى ، مما هو في مصلحة فيينا العليا التي عرفت ان تفيد من هـذه الانقسامات إبقاء منها لوضع كان لا بد ان يفضي في نهاية المطاف الى خرابها فهلاكها .

القرى الروسية الكبرى الخاضعة لرق الارض

لا نعرف بلداً احسن استغلال الطغيان المستبد مثل روسيا القيصرية التي فرضت عبوديتها على الفلاح . ففي الوقت الذي اتسع فيه العمل بنظام رق الارض ، اشتد في تلك البلاد ساعد المجتمع الفردي (*Le Mir*) بحيث اصبح باستطاعة القيصر ان يعهد اليـه بجباية الرسوم والعوائـد والضرائب المترتبـة .

مما لا شك فيه قط ان علم الاقتصاد الريفي عرف ان يجتذب اليه بعض ذوي الأملاك الواسعة ، امثال آل غالتزين وآل سامرين وآل مورافييف الذين لم يفتهم قط الاطلاع على النظريات الانكليزية والفرنسية والالمانية الحديثة فيما يتعلق بخير الاساليب الخاصة باستثار الارض. فالاصلاح الزراعي الذي قامت به بروسيا بين ١٨٠٧ – ١٨١١ ، كان له اثره البالغ على طبقة النبلاء البلطيقيين من دم الماني ، هـذه الطبقة التي كانت تبيع محاصيلها الزراعية لتجار مدينة ريغا ، بفضل اعمال ونشاط هذا المرابع الذي كان يحسن تسميد الارض بكشط سطحها مع ما عليه من احشاش يحرقها تخصيباً للارض وإلا مات عليها جوعاً .

فالعمل المأجور يعود على صاحبه بربح اكبر اذا ما تم في المجال الصناعي الذي تأذّى كثيراً من رق الارض وعبودية الفلاح . وانتشرت بين الناس فكرة تقول ان العمل المأجور يربح اقل مما يربحه العمل الحر . فاذا كان الفلاح او المزارع يطمع في المزيد من الحرية فلرغبته بالخلاص مما يعانيه من أعمال السخرة ومما يرزح تحته من عوائد الارض وأتاوتها ، والعمل على تحرير المجتمع الفردي ، لا ان يضطر لقضاء يومه كادحاً يعمل في حقل سيد الارض . ومع ذلك ، فمندما راح القيصر يلغي بعد التجربة التي قام بها في ليفونيا ، رق الارض ، في الولايات البلطيقية ، فقد رمى من حركته الاصلاحية هذه الى تسهيل تحويل سواعد القرويين الذين جرى تحريرهم ، للعمل في ممتلكات البارونات . ففي بولونيا ، لم يتدخل القيصر نيقولا لوضع حد لمساوىء النظام ، إلا لغاية واحدة ، هي تقليم اظافر النبلاء الذين وضعوا انفسهم في موضع سيء خـــلال الثورة التي نشبت ، عام ١٨٣١ . فبعد ان سلّم واقتنع بأن رق الارض ، كما يجري العمل به آنذاك هو شر واضح ، فالتعرض له الآن وتعديل هذا النظام يفضي الى شر اكبر . ومع ان الاضطرابات المستمرة التي زاد عدد الفتن التي قامت خلالهـا على ٥٥٥ فتنة ، بين ١٨٢٦ – ١٨٥٥ ، باعتراف الادارة ذاتها حملته على التسليم ببعض التنازلات ، فهذه التنازلات لم يفد منها سوى الفلاحين العاملين في املاك التاج ، مع العلم ان القائمين بالحركة الاصلاحية يترددون جداً في حركتهم هذه . « فجمعية الجنوب » برئاسة بستل تواجه احتمال القيـــام بتغييرات جذرية ، بينما « جمعية الشمال » ترفض تحت تأثير نيكيتا مورافييف ، التسليم والاخذ بمبدأ التقسيم .

وايجازاً للوضع يمكننا ان نقول بأن اسباب التذمر آخذة بالازدياد والارتفاع . ففي السنوات التي يجود فيهـــا المحصول وتطيب الغلال ، تعجز السوق الداخلية فيها من تصريف الانتاج واستهلاكه فتسقط الاسعار . أما في السنوات العجاف فالمجـــاعة تطل بقرنها على الابواب . فالجماهير الريفية تتسكع في البؤس ، ويروح الملاكون المعروف سوادهم بالكسل والقعود وعدم الاكتراث ، يستدينون إشباعاً لمطالبهم التي يعجز ريع الارض عن اشباعها . وهكذا نرى الامبراطورية تتجه نحو ازمة حادة إلا اذا حلت في الوقت المناسب ، المعضلة الزراعية الآخذة بالخناق ، وذلك بالغاء رق الارض والقضاء على النظام السيادي فيها ، مشجعة بالأحرى الدعوة للرأسمالية العقارية . فالظروف العارضة يمكن ان تقنع النبلاء بأن في اتخاذ مثل هــذا التدبير ، وهذا التدبير وحده ، الخلاص ، شريطة ان تنجح هذه المحاولة الاصلاحية الهامة دون ان يلحق أذى بالنظام السياسي والاجتماعي المعمول به في البلاد .

الفصل الثالث

التقنيات الجديدة في الصناعة والنقل

سير العلم بين جيل وآخر

جاش عصر الانوار برغبة جامحة نحو المعرفة فغاص عميقاً في الابحاث الرياضية وتوغل الى نظرية علمية لتفسير نشأة الكون وسبر أبعاد النجوم في متاهاتها وأبعادها السحيقة ، واستثمر البحار المترامية الاطراف ، وأنشأ علم النبات ودشّن عهد الكيمياء وسخّر الكهرباء للترفيه عنه واستنبط المحرك البخاري وتوقف ملياً منعماً النظر في ماهية الاجيال الطالعة كما اعرض جانباً عن الآداب الكلاسيكية . صحيح ان الحروب الدولية لم تساعد كثيراً على تطوير الاتصالات التي هيأت اسبابها الشعوبية الدولية ، غير ان الحوافز الضرورية جعلت العلماء في يقظة واستنفار حتى اذا ما عاد السلام الى نصابه والامن الى محرابه ، تجددت الاتصالات . فاذا ماراح شاتوبريان ومدام دي ستال يقومان بتشهير « الطغمة الرياضية » ، واذا ما رأى لامارتين في العلوم الرياضية غلاً وقيداً للفكر البشري ، فقد عرف غوتيه ، من ناحيته ، ان يحافظ على هدوئه ورباطة جأشه ، وغاص «كونت» الى ما فوق أذنه في الفلسفة الوضعية بعد ان اولى العلم المقام الاول ووضعه في رأس النظام الفلسفي .

أما العمل وظروفه وأوضاعه فلم يطلع عليه شيء جديد . فقد بقيت باريس جذوة هذه المعاهد الكبرى التي أسسها المؤتمر الوطني (الكنفنسيون) والتي راحت تنافس بنجاح ما قام فيها من ركائز ومؤسسات سابقة وطيدة تعمل في خدمة العلم ، امثال : كوليج دي فرانس وأكادمية العلوم والسوربون شيخة الجامعات . أما في انكلترا ، فقد تقدمت الركب وسارت في الطليعة هذه المؤسسات المتمتعة باستقلالها فتقدمت على جامعتي اكسفورد وكمبريدج . وايطاليا لا تزال تتمتع بكنوز فنونها التي تفيض نعومة وعذوبة ودقة . وهذه « الجمهوريات العليمة » التي طلعت في سماء اوروبا الوسطى ، تمثلت على خير وجه في هذه الجامعات التي نمت بنصرة الامراء المستنيرين ومؤازرتهم ، حتى ان روسيا نفسها ساهمت بهذا النشاط الفكري العارم . وقد اوشكت تأزف ساعة هذا الجامعي الذي يدرس كل شيء في أثناء طلبه للعلم ، بعد ان قل عدد نصراء العلم في صفوف الارستوقراطية . فالروح تهب حيث تشاء ، والتفاعل الفكري وتبادل المعلومات ساعد ادفر على اكتشاف السيّار نبتون بواسطة مرصد جامعة كمبريدج ، في

الوقت لذي راح فيه لوفرييه يعين بالارقام مكان هذا الكوكب وموضعه بحيث اخذ عدد من علماء الفلك امثال غوس الالماني ولوبتشفسكي الروسي وبولييه المجري بدعوة كل لنفسه فضل السبق الى وضع هندسة غير إقليدية هي الهندسة الإهليجليجية .

عرفت العلوم الاخرى ، من جهتها ان تفيد من الانجازات البعيدة الاثر التي حققتها العلوم الرياضية في تطورها الصاعد . فقد تعاون لابلاس ولافوازيه فيما بينهما وتعرضا في الابحاث التي وضعاها للعديد من المشكلات والقضايا العلمية . وامبير الذي تميز بفضوله العلمي وبروح طلمة لانني ولا ينطفىء لها غليل انطلق من الاختبار العلمي الذي قام بـه دورستد حول زيغان الابرة المغنطيسية ، فوضع لهذه الظاهرة قـاعدتها المعروفة . وغوس ارتبط اسمـه بالتحليل العلمي وبالهندسة المتناهية الصغر والرياضيات العليا وحساب المحتملات والميكانيكا الفلكية والجيوديسيا . هنالك لعمري نوابغ بين العلماء انصرفوا للرياضيات النظرية ، امثال ابيل الذي كشف عن قواعد واسس حساب التكامل ، وايفارست غالوا الذي وضع نظرية الفئات والاجناس ، فمات الاول بائساً ، كما قتـل الثاني في حادث مبارزة . وفي اثر المعطيات العملية لحساب المتناهي الصغر التي تم الكشف عنها في الحقبة الكلاسيكية على يد نيوتن وليبنتز بعـد أولير وفوريه ولوجاندر ، وضع غوشيه مبادىء الدالة التحليلية والمعادلة التفاضلية ريثما يتمكن ريمان من وضع الأساس الحقيقي للدالة الجبرية بعد ان اقترح فرضية هندسية جديـدة غير اقليدية .

كل الانجازات العلمية التي حققتها العـلوم التجريبية تتصف بطابع علمي صرف . ومناهضة منه لنظرية نيوتن حـول الابتعاث البصري ، راح فرسنل يؤيـد النظرية الرحوية التي كان لاح لهويجنز بعض ملامحها الاولية . واذ ذاك اخـذ بيو وأراغو ودافيـد بروستر يوضحون للملأ ظاهرة استقطاب الضوء . وبفضل حاشدة (بطارية) فولطا ، اخذ اورستيل يفسر عملية زيغان الابرة المغنطيسية ، تم تمكن امبير من ان يضع اسس الكهربائية المغنطيسية ، اساس الملـف الاولي والمغنط الكهربائي والتلغراف البرقي . وعلى عكس ذلك ، كتب لفـرادي ان يكشف عن اسرار ظاهرة اخرى هي الحث ، اساس الدينامو . وبالاتفاق مع جاكوبي فقـد توصل الى اكتشاف الكيمياء الكهربائية المتعددة التطبيق في مجـال صناعة التعدين : كالفلفنة والتذهيب والتفضيض ، وصب امهات احرف الطباعة والكليشهات في الطباعـة والحفر المبـاشر : ففي الحين الذي كان يعمل فيه كل من انطوان بكريل ودانيال على تحسين حاشدة فولطـا ، نرى سيبك يتصرف لدرس مؤثرات الكهرباء ، الحرارية التي سبق لـ « اوهم » ان وضع قوانينها .

كشف لافوازيه ولابلاس وفي اثرهم فورييه عن نظرية الحرارة التحليلية ، هذه الحرارة التي تجلت مظاهرها بشكل قوة حية جزيئية . فالعلماء غاي لوساك وبيوا وبرتوليه وبروست بما فيهم دالتن وقانون الانساب المتعددة وافوغادرو الذي كشف عن ثقل الجزئي ، بقوا عند هذا الحد .

لا شك في ان رامفورد ودايفي هما أول من ظنا بالعلاقة الموجودة بين الحرارة والعمل . ويعود لسادي كارنو احد اولاد لازار كارنو ، الفضل في اثبات التكافؤ بينهما ، في بحث وضعه من قبل لم يكترث له احد . فكان اساس الديناميكا الحرارية التي لفتت اليها أنظار روبرت ماير وجول في الابحاث التي وضعاها في هذا المجال . فالمحافظة على الطاقة واندثارها او انحلالها ، والميكانيكا التطبيقية اتخذت اساساً لها هذه الابحاث .

ومنذ لافوازييه اخذت الكيمياء المعدنية تكشف تباعاً عن اسرارها الدفينة ونواميسها . كذلك اخذت الكيمياء العضوية تحسر هي الاخرى عن اسرارها ، عندما تمكن شفرويل من ان يستخرج الشحوم على اختلافها من الحوامض الدهنية ومن الغليسرين ، كما استخرج بللوتييه وكافنتو القلويات من المواد النباتية . فالمعارك العلمية احتدمت حول نواميس العلم الجديد فراح دالتن لاول مرة يقول بالنظرية الذرية ويبسطها وراح القائلون بالتكافؤ الذري يهاجمون بعضهم بعضاً : جان باتيست دوماس والذريون وعلى رأسهم برزيليوس الذي قال بنظرية « ثنائية » في التفاعلات الكيميائية والكهربائية التي تصحبها ، ولم تلبث ان سالت نظرية التعادل او التكافؤ ، هذه النظرية التي نهض بها جرهاردت ، ورتز وكيكوليه بينما راح بوتليروف يوضح النظرية الايسومترية او نظرية التقايس والنظرية التجزئية .

وقامت معارك اخرى في مجالات العلوم الطبيعية . فقد سبق لديدرو وبوفون ان استثمرا نظرية الارتقاء والتطور كما ان روسو راح يشدد ، من جهته على ناموس الانتقاء الطبيعي او بقاء الاصلح ، وهي نظريات ادخلت الشك والارتياب على عقيدة خلق الكون ، وبالتالي الديمومية او الاستقرار كعقيدة دينية . وراح احد تلاميذ بوفون هو لامارك يثير جدلاً حامياً عندما وضع عام ١٨٠٩ كتابه المعنون : « فلسفة علم الحيوان » حيث اخذ يعرض نظرياته وآراءه حول تطور الانواع وتغيرها زارعاً الارتياب في نظرية الثبوت او نظرية الاستمرار التي يبدو ان لينيه قال بها ، وعلّم . وفي بحث له مشهور حول « تصنيف الثدييات » اخذ كوفييه الذي يعد من مؤسسي علم التصنيف المقارن وعلم الاحاثة او البانتيولوجيا ، ينشر عام ١٨١٢ ، كتابه الموسوم : « خطاب حول جوائح الكرة الارضية » ، وذلك ليفسر لنا عن طريق الكوارث الطبيعية ، كيفية ضياع الانواع البائدة وزوالها . فعودة هذه الانواع الى الحياة من جديد لا يمكن ان يكون الا هبة من الله . فقد سلموا بوقوع هذه الكوارث او الجوائح الجيولوجية – وهو قول يؤيده كوفييه – الا انهم رفضوا الاخذ بالنظرية « البركانية » التي تقول بالظهور التدريجي للقشرة الارضية البرانية التي تبنى القول بها ليبل فيما بعد . واذ ذاك اصطدم كوفييه بصديقه جوفروا سانت هيلار الذي تبنى في كتابه « الفلسفة التشريحية » النظرية التي تقول بسلم الكائنات . فأثارت هذه القضية ضجة حملت اكاديمية العلوم على التدخل في النقاش العلمي . وقام غوتيه يكتب عام ١٨٣٠ لايكرمان بعد ان تبادر الى اذنه انه يهتم بقضية *Les Trois Glorieuses* ، يلفت نظره الى ان

« المناقشة تدور على ما هو اهم من ذلك بكثير» . الا ان كوفييه عاد فانتصر بعد الموقف الرسمي الوطيد الذي وقفه وانتصر معه ، الى حين ، خصوم نظرية النشوء والارتقاء التي تبنّى مقالتها الفلاسفة الطبيعيون وغوتيه نفسه .

ففي الوقت الذي توطدت فيه ابحاث بيشا حول علم التشريح اطلت علينا نظرية الكائنات المتناهية الصغر بفضل المجهر الذي ساهم في اختراعه اسرة دولوند. فاذا بالعالم امام كشوف جديدة واسرار جديدة . فما هي لعمري هذه المادة التي يدعوها هوغو فون موهل : البروتوبلازما ؟ فالخلية لا تتولد الا من الخلية كما يؤكد فيرشوف *Virchow* بعد هارفي وشليدن وشوان . وعلى هامش الجدل الذي قام حول نظرية النشوء تبدو العلوم الحياتية على اتم استعـــداد للانتقال الى مرحلة جديدة مهمة جداً .

ومهما يكن من الامر فالتاريخ الطبيعي علم يأخذ بمجامع القلب . وعندمـــا راح جوفروا يقدم للملك شارل العاشر في سان كلو ، ظرافة اهداها اليه محمد علي ، اظهرت الجماهير حمـاسة عارمة افاد منها المتحف الوطني . ويستوحي كونت تعاليم بلانفيل خصم كوفييه اللدود ليشيد نظريات علم الاجتماع. وسانت بوف يتنطح من جهته لوضع التاريخ الطبيعي للعقل البشري ، ويأخذ اسكندر همبولدت بوضع كتابه : « الكون » الذي جاء شبه موسوعة في العلوم الطبيعية .

كشوف الهندسة الصناعية

عبثاً نحاول ان نعرف بالضبط الوقت الذي استطاعت فيه الآلـة ان تحدث فيه تغييراً واقعياً في ظروف الحيـــاة واحوالها في الغرب ، فالعقل المتعدد – الفنون ، الثقيف يداعب احلاماً معسولة ، وفي هذا يكتب كونت قائـــلا : « مما لا شك فيه قط ان طبقة المهندسين ستبقى العامل المباشر الذي لا بد منه لتأمين التحالف بين العلماء ورجال الصناعة ، هذا التحالف الذي سيرفع البنيان الاجتماعي الجديد » . هنالك على ما يبدو شيء من الاستعجال لدى انبياء العصر الذي ينعون متأسفين هـــدر القدرات العقلية والطاقات الفكرية كما يأسفون الاسف الشديد لهذا السير المشوش والمخالف للمنطق الذي يسيره التقدم البشري

ففي السنة التي مات فيها واط – ١٨١٩ – لم تكن الآلة التي استنبطها استطاعت بعد ان تقضي على مطاحن الماء والهواء، كما ان الساقية لا تزال هي التي تتحكم بالمكان الذي يصلح لاقامة منسج الحياكة . وبالرغم من هذا كله فظهور كشف البخار سيبقى العلامة المميزة لهـذه « الثورة الصناعية » التي رأت النور في القرن الثامن عشر والتي كانت عصب القرن التاسع عشر بطوله وهذا البخار ليس بالواقع سوى الماء الغالي ، مهما كان الوقود المستخدم لرفع حرارة هذا الماء الذي استحاله الى حالة الغليان بدلاً من ان يكون سائراً يتدحرج فوق الحصى . وقد بذلوا قصارى العناية لادخال تحسينات على طريقة واط ليفيدوا منها الى الحـــد الاقصى ، فطلعت علينا المرجل ذات الموقد الداخلي . وفي سنة ١٨٢٩ خرج علينا آل ستيفنسن بقاطرتهم الاولى:

الصاروخ (*The Rocket*) على الشكل الاسطواني وجاءت النتيجة ترفع الطاقة التي يولدها الاحتراق الى العشر . ومن جهة اخرى كان الناس خارج انكلترا يفتقرون جداً للاشخاص الفنيين المتخصصين بصنع هذه القاطرات وتركيبها . وقد عرفت انكلترا ان تحافظ طويلا على السبق الذي سجلته في هذا المضمار اذ كان لديها عام ١٨٣٠ نحواً من ١٥٠٠٠ من الآليات البخارية بينما لا يتوفر منها لفرنسا سوى ٣٠٠٠ ولبروسيا ١٠٠٠ .

فقد عرفت هذه الجزيرة ان تزاوج بين فوائد الحديد والفحم الحجري لسد حاجات الصناعة المعدنية التي فاقت بكثير المستوى الذي سجلته هذه الصناعة في دول القارة . فقد اخذت ترسل الاخصائيين المهيئين لاعمال النقب والحفر. وكان حفر الدهاليز واستخراج الفلزات لا يزال يقوم على سواعد العمال . ولم يلبث ان حل التقفيص المعدني محل الآجر او الطوب . واخذت آلات الجر التجارية تجر العربات الى سطح الارض محمولة على روافد من الخشب نُضت عليها قضبان من الحديد عرفت باسم *Rails* ، كما تم تحسين ملحوظ في طرق الضخ واساليبه الفنية . وأطل على العالم في انكلترا المصباح الذي وضع تصميمه الكيميائي همفراي دايفي فجاء هذا الاختراع ضمانة نسبية ضد انفجار غبار الفحم ومع ذلك ترددوا كثيراً في التعمق والتوغل في بطن الارض . فقد اقتصر التنقيب عن الفحم والمعادن في المقاطعة الريفية على الحفر عند سفح التلال . وفي سنة ١٨٣٣ فقط تجرأوا على فتح عرق في قلب الارض على عمق ٥٤ متراً .

وصناعة الصب التي تستعمل كوك الفحم لم تكن من المستجدات ولا عملية نزع الكربون بواسطة تسويط الحديد (*Puddlage*)، وهي عملية تقتضي العامل جهداً شاقاً (اذ كان عليه ان يحرك الصب المصهور بواسطة مسعر من الحديد يعرف باسم *Rungard*). وهذه الطرائق الميكانيكية التي عرف الانكليز ان يدخلوا عليها ، في القرن الثامن عشر تحسينات ملحوظة زادت كثيراً من فعاليتها ، أولتهم اسبقية ظاهرة في مجالات الصناعة على انواعها . فمتلات الحديد ، ثمنها في فرنسا ضعفا ثمنها ونصف في انكلترا . وتمكن الانكليزي ولكنسن من استعمال الكوك وقوداً في المعامل التي انشئت لصب الحديد في الكروزو عام ١٧٨٢ . اما بلجيكا فلم يقم فيها مثل هذا الفرن ، قبل عام ١٨٢٢ ، وقام واحد منها في سانت انجلبرت عام ١٨٣٢ ، وفي الروهر عام ١٨٤٧ . وجروا على الطريقة ذاتها في عملية تسويط الحديد . فالكوك قيد الاستعمال في نيوويد ، عام ١٨٢٤ ، وعند ستوم في الروهر عام ١٨٣١ ، وفي سيليزيا بعد ذلك بخمس سنوات . واذا كانت صناعة الزجاج تخلت عن وقود الخشب لتقبل على المواقد ذات الشمرية ، فصناعة الخزفيات الانكليزية اعتمدت طريقة ودجوود الفنية التي يعود وضعها الى عام ١٧٦٠ هذه الطريقة التي ضمنت للخزفيات الانكليزية الرواج اينما كان .

وتمركزت حول حرفة الخزاف ، مهنة التجار هـذه المهنة التي يجب ان تراعي مقتضيات دولاب الطاحونة او نول الحايك . الا ان الآلة البخارية تأثرت من عدم توفـر الدقة في تركيب الدواليب . ولذا اخذوا يفكرون بالفوائد التي تعود على الصناعة بصنع آلة متحركة توصّل العلم الى صنعها بعد قرن من المحاولات والتجارب ، بعد استلهام اجهزة الساعـة والمواد التي توفرها صناعة الخشب. فقد خطرت لـ « براماه » من قبل، صورة عن المكبس المائي كما وضع ولكنسن صورة لمثقب يستعمل في صنع المدافع ، وموديسكي صنع دولاباً معدنياً للقلوزة البراغي وفارة للنجارة ، كما اخترع مـــارك إيزمبـــار برونل المنشار المستدير . وتمكن فيربيرن الذي اخترع مكوكا من المعدن للنسيج ان يدخـــل تحسينات ملحوظة على مثقب إشعاعي . وتوصلوا بين سنة ١٨٣٨ – ١٨٤٢ الى اختراع المدقة الحديدية التي تعمل على البخار وتستطيع ان تقوم بتركيب لحـام اكبر القطع المعدنية وأدقها على السواء . وكان من نتائج اختراع هذه الادوات المتنوعة ان مهدت السبيل لظهور العديـــد من المهندسين الميكانيكيين امثـال فرنسوا كافيه .

وقد حقق النول الميكانيكي انتصاراته الاولى اذ ساعد كثيراً على تسهيل اعمال الحياكة والنسيج الخاصة بصنف حديث من الخيطان مأخوذة من مادة القطن . ففي الوقت الذي تمكن فيه الاميركي ايلي هويتني ان يخترع عام ١٧٩٣ محلج القطن الذي حمل معه الثروة والازدهار بانشاء ما يعرف بحزام القطن في بلاده، فقد حرص الانكليز على ان يحتفظوا بسر صنع الادوات الخاصة بصناعة النسيج والحياكة . وبمساعدة احد الهاربين المدعو ديكسون ، مكن رسلر احد سكان مدينة ملهوز المدعو شلمبرجيه من ان يبني مصنعاً يعنى بصنع الآت النسيج . وقـــد أدخلت تحسينات على فن طباعـــة الاقمشة على يد برو ، وعلى نول الحياكة نفسه على يد السويسري بودمير الذي استوطن بولطن وعلى يد احد سكان ملهوز المشارك مع كوكلي هو ميلمان ، هذا النول الذي اخترعـــه كارترايت من قبل والذي يعمل بالبخار . كذلك هنالك تحسينات لحقت طبع الاقمشة باختراع اسطوانة نحاسية ، كما ان المكوك المدبب كان باعثاً على ازدهار هـــذه الصناعـــة في نوتنغهام قبل ان يتم ادخالها بالحيلة الى فرنسا . كذلك شاع استخدام آلة *Jacquard* في صناعة التخريم او الدانتلا التي بعثت النشاط الصناعي في مدينة كاليه. وصناعة الكتان نفسها عرفت بدورها انقلاباً ثورياً بفضل المكوك الذي اخترعه سكان مدينة غنت المدعو بوفانس ثم ادخل عليه كروكس ولاسيما جيرارد فيما بعد تحسينات ملحوظة . وقد سجل مطلع القرن في عداد الانجازات العلمية التي سجلها اختراع الانوال الخاصة بنسيج التريكو والصداری بدون خياطة والتطريز الآلي ، ناهيك عن المشبك الذي اضفى عـلى المنسوجات الحريرية المصنوعة في ليون ما امتازت به من نعومة ودقة ومتانة . ولكي نتبين اهمية هـــذا التطور التقني يجب ان نتيقن ان حائكاً ميكانيكياً يعمل في صناعة القطن اصبح ينتج سبعة اضعاف ما كان ينتجه حائك آخر يعمل باليد .

من المستجدات في الكشوف العلمية آلة الخياطة الآلية التي اخترعها خياط متواضع للالبسة هو تيمونيه . وكان من بعض نتائج هذا الاختراع ان احدث ثورة في مصنوعات الالبسة وعمل على ترويج ما يعرف بـ *Sweating system* .وقد ادخل فيها بعد هو وسنجر في الولايات المتحدة تحسينات هامة حيث آلة تركيب الالعاب وآلة خياطة الوجه والنعل مكنت صناعة الاحذية من تأمين الانتاج بالجملة .

ومما يلفت النظر في هذا التطور التقني العظيم هو ان المواد الاولية في التغذية بقيت خاضعة لوسائل العمل التقليدي . فاستخدام الآلة في مجــال الزراعة هو في اول مراحله . فالحاصدة الميكانيكية التي اخترعها الاميركي ماك كورميك لم تفرض نفسها على الاستعمال الا بعد مدة طويلة . ومطاحن الماء والهواء ستبقى قيد الاستعمال على نطاق واسع ولمدة طويلة ، والخباز لا يزال يستعمل يديه في توضيب العجين وتهيئة الخبز ، كما في السابق ،مـع انه عـام ١٨١١ اختراع معجن آلي لا يزال غير متقن ، والكرّام لا يزال يستعمل رجليه في عصر العنب او المعصرة ، وتخمير الشمير لصنع الجعة يقتضي له عناية كبيرة . والوسيلة المثلى لحفظ اللحوم تبقى التمليح والتدخين ، والالبان لا يمكن حفظها وصيانتها الا بشكل جبنة ، يجب استهلاكها بسرعة ومحلياً والا تعرضت للفساد سريعاً . وقد اشار أبير الى الوسائل التي تضمن مكافحة الفساد والتعفن عن طريق الحرارة العالية التي تسبب التعقيم ، ولم يحن بعد الوقت الذي يمكن فيه استخدام التبريد الاصطناعي . فصناعة سكر الشمندر وحدها تتطور بسرعة بفضل الطريقة التي توصل الى استنباطها اشار بفضل تكريره بالحامض الكبريتي وبازالة لونه بواسطة المــادة السوداء عن طريق استعمال مداحل اسطوانية الشكل تمتص العصير .

لم نلاحظ من ناحية اخرى اي تقدم يطرأ على فن البناء ، ومع ذلك فقد ظهر منذ عام ١٨٢٤ سيمنت بورتلاند الذي يلتصق ببطء ، ولا في مجال التدفئة . ولما كانت بريطانيا مهتمة بتصريف محصولها من الفحم الحجري فقد جرت محاولات لصنع وجاقات ومدافىء من ذوات الموقد المسيج ، واجهزة توزيع البخار المائي على المنازل .

والاستصباح بواسطة الغاز المستخرج من حطب الوقود ومن الفحم الحجري لعدم وجود الغاز الطبيعي الذي اخذ الاميركيون بضبطه واستغلاله في بلادهم ، شق طريقه نحـو الاستعمال منذ التجارب الاولى التي قام بها لوبون وموردوخ . وقد راحت لندن تباهي باريس وتدل عليها بسبقها لها على استعمال الغاز في التنوير والاضاءة العامة . وسيمضي نصف قرن قبل ان تتمكن منازل البورجوازيين ، في المدن الفرنسية من تقدير نعمة التمتع بالغاز في كل ادوار المنازل . والمصطلح عليه هو عادة قنديل زيت الكولزا المستخرج من بزر السلجم بعد ان ادخل عليــه أرغان بعض التحسينات بعد ان راح كنكيه يتبجح بانــه صاحب الفضل في اختراعه ، وقــد ادخلت عليه تحسينات فيما بعد على يد جيرار وفرانشو ، كما ان الناس بقوا يعولون على استعمال

الشمعدان الحقـــير المقرف . وستحل الشمعة في نهاية الامر محـــل الشمعدان التي نرى في اسمها شيئاً من اثر الجزائر التي كانت تمد سكان البندقية بشمع العسل الذي اخذ يدخـــل ممزوجـاً بصنع الشموع مـع مادة الشحم . وقد سبق لشفرويل ان اشار الى الدور الذي يمكن للحامض الستياري لعبه في هذا المجال . وقد توصلوا فيما بعد الى تأمين نوع من التصبن والى صنع فتيلة صالحين للاستعمال . ومن الاجهزة الاساسية في الملاحة البحرية المنائر التي يعمل فيها قنديل من طراز أرغان، هذا القنديل الذي استطاع رمفورد تزويده بعدة فتائل متراكزة والتي تضاعفت طاقة الضوء فيها بواسطة جهاز عدسية وعاكسة فريسنل .

وليست اقـل اهتماماً بالملاحظة والتقدير العالي التطورات التي امكن للغرب ادخالها على صناعة الكتاب والجريدة والصورة ، رغبة منه في الترويج لها ونشرها على الملأ . فقد درجوا الى الآن ، على استعمال الورق المصنوع من الياف القنب والكتان بعد مزج عجين الورق بالمُـلام (وهي طريقة اكتشفها لويس روبرت في مصانع ديدون في أسون ، اذ ان الالة الخاصة بصنع رب الورق لم تكن معروفة الا في انكلترا) . وسكب احرف الطباعة وصبها كان يتم بواسطة قوالب امهات الحروف او باليد . كذلـــك أدخلت تحسينات على حبر الطباعة وعلى فن صنع الكليشهات ، وهي طريقة مكنت من توفير النسخ باعداد غير محدودة . كذلـك تمكن اللورد ستانهوب من اختراع نموذج لا مثيل له من امهات الحروف .

وتمكن اللورد ستانهوب نفسه من اختراع مكبس من المعدن ترك بعيداً وراءه المكبس الذي كان اخترعه غوتنبرغ وحل عام ١٨١٠ محل الآلة التي وضعها كونيغ السكسوني بالاشتراك مع الطباع اللندني بنسلي . وقد كان سبق لجون والتر مدير جريدة التيمس ووصف لكونيغ طريقة الدفع الميكانيكي التي ارتسمت صورتها لنيكلسن مدير جريدة الجورنال الفلسفي عندما وقع نظره على الاسطوانات الطابعة للاقمشة . ففي ٢٩ تشرين الثاني ١٨١٤ ، جرى طبع هـــذه الجريدة الكبرى في لندن لاول مرة على طابعة تعمل بقوة البخار المحركة للآلات . وبعد ذلك بقليل اخترع كونيغ مكبساً يعمل على عجلتين كما اخترع روسليه ، عام ١٨٣٧ ، مكبسا ذا رد فعل . ومهما يكن ، فالطبلية كانت تركز مسطحة على ارضية من المرمر . وكان لا بد من الانتظار الى سنة ١٨٤٦ حتى يتمكنوا من تركيبها على الاسطوانات نفسها . وهـــذا الشكل الاسطواني هـــو الذي سيهيء السبيل للتركيب الطابعة المعروفة بـ الروتاتيف بحيث اصبح ميسوراً ، منذ ذلك الحين ، سحب ٨٠٠٠ نسخة في الساعة بدلاً من ١١٠٠ نسخة عام ١٨١٤ وبذلك أطل على العالم عهد الدورية ذات الانتشار الواسع .

فلا عجب قط ان تفيد صناعة الكتب من هذا التطور العظيم الذي طرأ على فن الطباعة . ولم يلبث ان تمكن الذوق الفني في الطباعة على انواعها واستبد بالانتاج الفكري . ففي باريس نشطت اعمال النشر في دار النشر ديدو وازدهرت. وصناعة الحفر التي اصبح الآن بامكانها

استنساخ الصور والرسوم انتشرت وعم استعمالها بسرعة على اشكال متنوعة ، كالحفر على الخشب وفقاً لطريقة بيويك ، والحفر على الحجر او الطباعة الحجرية التي توصل اليها الممثل المسرحي سنيفلدر . وانفتح الباب على مصراعيه امام الجورنال المصور الذي عُرف باسم مغازين . كذلك عرفت طباعة العملة الورقية ان تفيد هي الاخرى من هذا الاختراع (وبذلك عرف جاكوب بركنز الاميركي ان يعقد الامور في وجه مزوري النقد) ، وهواية جمع الطوابع البريدية ستطلع بعد حين لتوفر للعاملين على تكوين المجموعات الفنية ، اللذة والفائدة معاً .

وفي سنة ۱۸۲۹ ، اخترع برايل بالتعاون مع فوكو الكتابة النافرة لتعليم العميان ومكفوفي النظر .

ذروة السرعة في وسائل النقل

لم تنقطع العناية طول القرن الثامن عشر بتحسين شبكة الطرقات وتطويرها بشكل يسهل الاتصالات والانتقال . ونحن لا نقصد هنا التأكيد بان الطرقات التي كان يسلكها الانسان ماشياً على الاقدام او ممتطياً صهوة احد الحيوانات او راكباً احدى العربات كانت في وضع يركن الانسان اليه . فمن الحوادث الحرية بالذكر مثلاً ان تيوفيل غوتيه ، في الرحلة التي قام بها الى اسبانيا عام ١٨٤٠ كان يشكو من ان العربة التي أقلته لم تكن لتستطيع التقدم الا بفضل قبضة من العمال تسير في ركابه ، اذ « كانوا يعملون على التخفيف من حدة كر العجلات في المنحدرات والمعطفات الخطرة ، والسهر على متانة السرج واستقراره ، وسلامة الازمّة ولارسنة والقدرة على كبح البغل الحرون الجفول » . وبالفعل لم يكن في اسبانيا ، اذ ذاك من الطرقات الموصوفة « معبدة » ما يتراوح طوله بين ٣٠٠٠ و ٦٠٠٠ كلم . تم شقها خلال خمسين سنة ولم يتوفر شيء من هذا في صقلية قبل منتصف القرن التاسع عشر ، وجادة موسكو في بطرسبرغ لم ينجز شقها الا في سنة ١٨٣٤ ، وعلى عكس ذلك تماماً كانت شبكة الطرقات الفرنسية التي بلغ طولها ٣٠،٠٠٠ كلم ، قامت السياسة التي اوحت بنائها على مطالب وطنية واعتبارات سياسية والرغبة في الظهور والتأثير في الخارج ، وكانت الرئيسية منها باتجاه المانيا وسويسرا وايطاليا الشمالية . وعلى هذا الشكل وتلك السياسة سارت الدولة البروسيانية ، رغبة منها في تيسير العمل بالوحدة الجمركية (*Zollverein*) . اما في مملكة البلاد الواطية ، فقد نشطت الشركات والهيئات البلدية فيها للنهوض بطرقها . وفتحت سويسرا من جهتها طريق الفريزون وجبل سان غوتار .

ولعل ما هو اصعب وأشق من هذا كله هو صيانة هذه الطرق . فقد راح كل من نافييه وبكوف ينصحان عبثاً بكشط الطريق بعد كل مطرة ، بينما راح بولونسو ولاموراندير بوصيان باستخدام المداحل الضاغطة التي فكروا بفائدة استعمالها منذ عام ۱۷۸۰ . وهي عكس الطرق الفرنسية التي كانت تُعد ، اذ ذاك ، اجمل واحسن الطرق في العالم كله ، كانت الطرق في انكلترا تتمتع بسمعة عاطلة لما كانت عليه من ضيق وتعرج وتقاطع الحواجز . أفلم يكتب يونغ عن الطرقات التي تنطلق من لندن باتجاه

اطراف البلاد ، بأنها على الوضع الذي تركها الله فيه بعد الطوفان ؟ اذ كان شق هـذه الطرق وصيانتها تقع على شركات محلية (*turnpike trusts*) قوامها اعيان المنطقة ووجـوهها ، تقوم بجباية رسوم الدخولية واستيفاء عوائد عينية . ومع ذلك اخذت شبكة الطرق فيها بالامتداد والاتساع اذ بلغ طول هذه الشبكة ٣٢،٠٠٠ كلم عام ١٨٣٠ وارتفع الى ٥٠،٠٠٠ كلم عـام ١٨٥٠ . وقد تطورت على الاخص الوسائل التقنية في شق الطرق : اذ غلب عليها بتأثـير بلفورد، السطح المقبب للطريق بحيث يسمح هذا الشكل بتصريف المياه المتسربة، كما اوصى ماك آدم في هذه الابحاث التي عقدها وحث فيها على الاهتمام بطرق البلاد ، برصف الطرق بالحصى فيسهل دحـــل الطريق كما يسهل بالتالي تأمين الشكل المقبب لهـــا . وطريقـة (تحصيب) الطريق التي دخلت الى بلجيكا عام ١٨٣٠، لم تنتشر في فرنسا الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر .

والاميركيون ، رغبةً منهم في التغلب على مشكلة المسافات، أخذوا ، على الاجـــال، بهذه الطريقة الفنية ، عام ١٨٤٠ ، وبذلك جعلوا صالحة للسير هذه المسالك السيئة *corduroy roads* كما كانوا يصفونها لمشابهتها كثيراً شريط المخمل والتي لم تكن تفضل قط الطرقات المعروفة في الغرب باسم *Plank roads* التي اتبعوا في شقها الطريقة الروسية اذ فرشوهـــا او بالاحرى دقوها بالواح الخشب من جذوع الشجر .

وكما في السابق ، فالطريق يسير عليها جمهرة من المشاة ومن اصحاب الحرف وعمال المناجم بينما الموسرون يمتطون خيولهم او يدرجون في عرباتهم ، في الوقت الذي تأخـــذ فيه الطرقات العامة بالانتظام . فالحافلة البريطانية تتمتع بسمعة طيبة . فهي تقطع الـ ٦٠٠ كلم التي تفصل بين لندن وأدنبره في ٤٢ ساعة ، اما عربة *Quick silver* فلا يقتضي لها اكثر من ٤ ساعات ونصف لقطع المسافة بين لندن وبرايتن، وبعد ١٨٣٠ تقطع المسافة بين لندن وبرمنغهام بسرعة ٢٣ كلم في الساعة . اما في الشق المقابل من خليج المانش ، فالانتقال بالعربة من باريس الى مدينة رين ٤ ايام، والى مدينة ليون ٦ ايام و١٢ يوماً الى ستراسبورغ ، في عهد الامبراطورية. ومدة الوقت تهبط الى النصف بين١٨١٥ و ١٨٤٠ ، اذ كانت العربة تقطع ٦ كلم في الساعة بدلاً من ٣ ، وهي عربة ضخمة ثقيلة زنتها ٤ اطنان وتشحن من ١٦ - ١٨ راكباً في حجراتها الاربع من درجات مختلفة . ومنذ عهد الديركتوار كانت عربة البريد التي تؤمن نقل البريد تنقل ايضاً من ٣ - ٤ ركاب فكانت عربة خفيفة تجرها ٤ جياد وتقطع ١٠ كلم في الساعـــة حوالي عام ١٨١٥ ، ثم ارتفع المعدل الى ١٥ كلم عام ١٨٤٠، وتبلغ بوردو وليون وستراسبورغ في ٤٠ ساعة، تسير «كهبوب الريح »كما يكتب هوغو ، اذ ذاك . فاذا كانت الرحـــلة لا تعوزها المناظر الشيقة امثال : السائق الطروب الهازل ، والكسول احياناً وغالباً السكران ، وفرقعة السوط ينهال على اقفية الخيل ، والموسيقى عنـــد الانطلاق ، وحدوث ما ليس بالحسبان من المفاجآت ، ووقوع الحوادث المثيرة . فقد كان من مميزاتها ومفارقاتها غالباً : المقاعد الضيقة

ارتجاجات لا نهاية لها ، والزمهرير هنا ، والحر هناك، تارة يغوصون في الوحل وطوراً يغشاهم الغبار ،وأسرّة لا يمكن الاطمئنان اليها في هـــذه الخانات المشبوهة،بقطع النظر عما تتعرض له العربات احياناً من تحطم العجلات .فاذا كانت المسافة اصبحت تقطع بوقت أقل ، فظروف السفر لم تتغير هي كثيراً .

ففي الوقت الذي سجل فيه النقل ارتفاعاً في معدل الواردات بفضل ازدياد النشاط التجاري، فقد سجلت اسعار النقل فيه هبوطاً محسوساً. فكانت كلفة الرحلة من باريس الى بوردو في عهد لويس الرابع عشر ، ١٢٤ ليرة ، فاذا بها تهبط الى ١٠٨ فرنكات ، في عهد نابليون والى ٧٤ فرنكاً عام ١٨١٠. غير ان الجر العادي للطن الواحد كان يكلف ٢٠ سنتيماً عام ١٨٤٨بينما كان بمعدل ٣٣ سنتيماً عام ١٨١٠ ، اما الجر السريع وشحن البضائع فقد كان اكثر كلفة.فالبضائع لا تسير بسرعة اذ كان الشحن من باريس الى مدينة ليل يقتضي له ٤ ايام . ويقتضي ١٤ يوماً من باريس الى مرسيليا ، ولما كانت كلفة نقل الرسالة مرتبطة بوزنها وثقلها كان على قاطن باريس ان يدفع ٢٠ سنتيماً عن تحرير يبعث به الى فرساي ، وفرنكاً و ١٠ سنتيمات الى مرسيليا ، فيما كان على قاطن لندن ان يدفع فرنكاً و٤٠ سنتيماً على رسالة من لندن الى ادنبرة . ومــع ذلك ، فالبريد كان يوزع ١٠٠ مليون رسالة ، في فرنسا حوالي عام ١٨٤٠ ، مقابل ٣٠ مليون رسالة في عهد الوزير تورغو . وبعد ان ادخل رولاند هل تعديلات على تشريع قديم ،عمل على تبني رسم موحد هو بنس واحد (١٠ سنتيم)، كما ان الجمهورية الثانيـــة وضعت من جهتها رسماً موحـــداً مقداره ٢٠ سنتيماً الامر الذي افضى الى زيادة غير متوقعة في عدد الرسائل المتبادلة .

كل هذا والطريق تخدم في الدرجة الاولى ، المدن الرئيسية : فهي تتجاهل مصالح النواحي والملحقات اذ كان يترتب على ذوي العلاقة في المقاطعات والاقاليم ان يسهموا متضامنين في مــا يصون طرق المواصلات في الناحية،وقد صدر في فرنسا،عام ١٨٣٦ ،قانون اناط العناية بالطرق الرئيسية بأموري الطرق لا سيما تلك التي تربط بين المناطق، فجعلتها على عاتق البلديات . ولن تلبث حركة السير ان اعتمدت طرقات ثانوية في الوقت الذي اخذت فيه سكة الحديد تستأثر تدريجياً بطرق المواصلات الرئيسية .

حمى الاقبال على الممرات والاقنية المائية

لما كان نقل البضائع والاحمـــال الثقيلة يكلف غالياً على الطرق البرية ، فقد استأثر النقل النهري بالاهتمام واستبد بالخواطر ، واصبح من الوسائل التي لا ندحة عنها ولا بد من التعويل عليها امام هـــذا التطور الذي طرأ على صناعة التعدين واستغلال المناجم واستثمارها.ولذا بادر الانكليز الى ربط مصابّ أنهرهم الكبيرة بالمراكز الصناعية الرئيسية . فقد تم فتح قناة *Severn* كما ان مشروع *Shropshire Union* ضاعف نشاط الـ *Trunk* الكبير وبالرغم من وجود ٢٨ هاوساً على طول

القناة الكاليدونية، فقد استغني عن المرور على مقربة من جزر الاركاد المحفوفة بالمخاطر. وهبطت بالتالي كلفة النقل بين ليفربول ومنشستر الى سبعة امثالها ، كما ان سعر الاسهم في هذا المشروع الاستثماري ارتفع عشرين ضعفاً . الا ان عدم وجود اي اتفاق بين الشركات ينظم المقاييس والرسوم سبب هبوطاً سريعاً عند ظهور الخط الحديدي .

والشرعية التي عـادت الى آل بوربون افادت كثيراً من تقليد مرعي الاجراء كما افادت من الغاء رسم الدخولية على ايدي الثورة . فقد اشترى النظام الجديد الاقنية وشمّر عن ساعد الجد لانجاز المشروعات التي كان بوشر بها في عهد لويس السادس عشر، وفي عهد لويس فيليب برزت بوضوح شبكة الترع المائية التي شدت الاحواض المائية ، بعضاً الى بعض . صحيح ان شبكة الاقنية كانت غير كاملة وتفتقر كثيراً للتجانس فيما بينها : فقد امتنع على سفينة شحن قادمة من الفلاندر مثلاً المرور عبر قناة الاردين ، كما ان الكباري القائمة على نهر الرون في مدينة ليون وقفت حائلاً دون الملاحة بين نهري الساون والرون . الا ان دخول البخار كقوة محركة ذهب بكل هذه العوائق .

جاء في توصية لغرفة تجارة ستراسبورغ ان « على نهر الرين ان يؤلف اداة وصل بـين كل الشعوب» . فقد كان شحن بضاعة من درسدن الى همبورغ يكلف اكثر من نقلها بين مرفأ نهر الايلب ومدينة نيويورك . فقد سبق لمؤتمر فيينا (١٨١٥) ان دعا الدول الواقعة على مجرى الرين للتعاون فيما بينها للقيام بتحسينات على مجراه . وقد ظهرت السفينة البخارية لتعمل في وقت مبكر بـين مدينتي روتردام وكولوني ، ولم تعتم ان شقت طريقها الى ستراسبورغ. ولم يباشروا في تنظيم مجرى هذا النهر الا في عام ١٨٥١. وقد حدث رغبة جامحة بكل المرافىء الواقعة على سواحل البلاد الواطئة الى اجتذاب الحركة التجارية ونشبت على أثر ذلك منافسة حادة فيما بينها زادها حدة وتعقيداً دخول السكة الحديدية الحلبة . فبينما راحت روتردام تتحرر من حوائل الزويدرزة بانجازها قناة البحر الشمالي الكبرى، كان حوض نهر الموز يحاول تيسير اتصاله بمرفأ انفرس بين ليبج وشارلروا، وبين هذه الاخيرة وبروكسل . وراحت بروسيا والدول المجاورة لها تطلق حرية النقل التجاري على نهر الإيلب. وقد عقد اتفاق روسي –بروسي يرسم خطة تؤمن قيام اشغال بقصد تحسين الملاحة على نهر الفستول ، في الوقت الذي كانت فيه فيينا تخطط هي الاخرى ، للاستفادة من نهر الدانوب . وتوصل نيلز أركسون عن طريق قناة ترولهاتن الى تفادي شلالات غونالف فيسّر بذلـك وصـول الخشب والحديد السويدي الى مضيق كاتيغات .

اما في روسيا والولايات المتحدة الاميركية المعروفتان بمساحتها الشاسعة فقد ألفت البحيرات والانهر الضخمة فيهما طرق مواصلات طبيعية مهمة للغاية ، مع ما هي عليه من حاجة ملحة لاصلاح مجاريها ولربطها بعضاً ببعض بشبكة متجانسة من الاقنية والترع. فالسبق القصير الامد الذي

سجلته الامبراطورية القيصرية في هذا المجال ، لم يـدم طويلا امام هذه الانجازات الضخمة التي تحققت في العالم الجديد . فقد بقي نهرا الدون والدنيبر منعزلين . وقامت شركة روسية للسفن التجارية تعمل على نهر الفولغا وكاما، واذا كان نهر النيفا يتصل ببحيرتي لادوغا واونيغا وفالفولغا بقي منفصلا عن خليج فنلندا الى عام ١٨٥٠ . كل هذا يبقى تافها زهيداً اذا ما اخذنا بعين الاعتبار الامكانات الضخمة والطاقات الواسعة التي ستحظى بها السفافة القديمة . وعلى عكس ذلك هنالك شعور عارم في اميركا بوجوب ربط نهر المسيسبي وروافده المديدة باحواض المحيط الاطلسي الساحلية ، وهذه بالبحر الداخلي القائم عند حدود كندا . فقد ألفت مواعين الشحن الهبوط من نهري الاوهايو والمسيسبي حتى اورليان الجديدة، حاملة اليها من السهول والمروج الفيحاء ، الحبوب ولحم الخنزير المملح ، كان سكان الولايات الشرقية يشدون الرجـال لنقلها براً على عربات النقل البدائية ، راسمة في سيرها دورة هـائلة . واختصاراً منهم للمسافات وتفاديا للموانع الحائلة والعقبات القائمة ، راحوا يضعون الخطط لانشاء ما يلزم من الترع والاقنية الموصلة ، عندما خطر لفولتن التصعيد في نهر الهدسون على السفينة التجارية الجديدة «كليرمونت» التي تم بناؤها في برمنغهام . وضربت المعول الاولى التي بوشر بها عام ١٨١٧، ايذانا بشق الخندق الذي سيمتد الى بحيرة ايريه والبالغ طوله ٦٠٠ كلم . الذي تم الفراغ منه بعد جهود وشـــاقة استمرت سبع سنوات بكاملها ، وكلفت ٤٥ مليوناً من الدولارات سيسمح بوصول ٣٠٠،٠٠٠ طن ، عام ١٨٢٥ ومليوني طن ، عام ١٨٦٠ . وعن طريق هذه القناة ارسلت شيكاغو اول شحنة لها من الحبوب . والطون الذي كان نقله يكلف ٥٠٠ فرنك هبطت كلفة نقله الى ١٠ فرنكات في اقل من عشر سنوات وهكذا جاءت حركة النقل التجـاري هذه تكرّس اسبقية مرفـــأ نيويورك في مضمار التجارة في العالم الجديد . ومنذ ذلك الحين قامت منافسة حارة بين الولايات الاميركية والمدن الكبرى الواقعة على الاطلسي ، اذ راحت كل من هذه الولايات والمدن تحاول جاهدة الوصول الى احواض الغرب حيث عدد كبير من الاقنية كان على وشك ان يؤلف شبكة متجانسة من هذا الترع المائية . مما لا شك فيه قط ان هذه التصاميم الموضوعة لم يحالفها النجاح . فشبكة بنسلفانيا التي تألفت من قناتين تربط بينها جادات منحدرة السطح تجتازها العربات المشحونة ، لم تتجاوز لنشبورغ ، الامر الذي حمل بلطيمور على تفضيل سكة الحديد . ومع ذلك ، فالولايات المتحدة التي ترك لنا ميشال شفاليه باعجاب كلي وصفاً دقيقاً لمجاريهـــا المائية القابلة للملاحة النهرية ، بلغ طول شبكتها هذه ٧٠٠٠ كلم عام ١٨٣٥ ، وبذلك هيـــأت اسباب تغلب البخار . وهذا الحماس لم يلبث ان خمد وانطفأت جذوته بسرعة امام طلوع البخار في انكلترا بالذات .

ظهور سكة الحديد

من اليسير ان يتصور المرء ان استخدام الانسان للبخار وتسخيره له كوسيلة من وسائل النقل الحديث كان ثورة طارئة . فقد عاش والحق يقال جيل كامل من الناس تنازعهم عاملا الامل والشك حول مستقبل القطار والخط الحديدي . فما عسى ان تكون عليه يا ترى ، سكة الحديد ، هذه السكة التي تتألف من خطين متوازيين من الخشب ،

ثم خطين من الصب واخيراً من الحديد ظهرا في اواخر القرن الثامن عشر، احسن المدنون واصحاب المناجم ، في انكلترا ، استخدامه لنقل عربات الفحم . ولكن هل يكفي ان يلتصق الجانت بالخط الحديدي حتى لا تبقى العربة تتأرجح في مكانها ؟ ليس من عنصر حاسم في الامر منذ العربة التي صنعها كونيوت قبل ان يخترع ستيفنسن عربة *Puffing Billy* عام ١٨١٤. فقد شهد عام ١٨١٤ نهاية عظمة نابوليون كما شهد ظهور القاطرة التي تجر ثماني عربات تزن معاً ٣٠ طناً بسرعة ٧ كلم في الساعة [١] وهي آلة باهظة التكاليف كما يقولون ولا تصلح من جهة ثانية الا لنقل الفحم لمسافة قصيرة . فهي عبارة عن فكرة خطرت لمدنٍ فتقت بها مخيّلته نزولاً عند مقتضيات المنجم . وعندما خطر للمركيز دي لور سالوس ، عام ١٨٢٣ ان ينشيء له خطاً حديدياً ينقل عليه وقود الفحم من سانت اتيان الى منطقة اللوار ، لم يفكر بغير الخيل والحمير كأداة لجر العربات . ومع ذلك ، قام جورج ستيفنسن ، عام ١٨٢٥ بتجربته الحاسمة على خط دارلنغتن ستوكتن للتدليل على الخدمات التي تؤديها القاطرة . وتمت التجربة في ٢٧ ايلول امام حماس جميع الذين شاهدوها . فقد استطاعت ثلاث قاطرات تعمل على البخار ، قوة الواحدة منها ٥٠ حصاناً – كما تروي الخبر جريدة التيمس – ان تنقل ١٣ عربة محملة بالبضائع وغير ذلك من المواد المختلفة ، على خط حديدي مرتفع الصعيد . فقد وصلوا هذه العربات وعربة اخرى تحمل السلطات والمدعوين والمساهمين، بقاطرة نقالة عرفت باسم *Experience* . وتألف القطار من ٣٤ عربة بينها عربة تحمل فرقة الموسيقي تصدح بانغامها الشجية ، بينما كان يرفرف على احدى العربات ، علم كتب عليه : « خطر فردي لقاء منفعة عامة » وعند انطلاق اشارة معينة اخذ القطار يتحرك فراحت الجماهير تهتف هتاف الفرح . وراح بعض الفرسان الخيالة يحاولون إستباق القطار الا انهم لم يلبثوا ان شعروا بانه فاتهم كثيراً . فالمسافة التي كان الانحدار فيها قوياً بلغت سرعة القطار معها ٢٦ ميلاً (٤٠ كلم) في الساعة . وفي سنة ١٨٣٠ ، فاز ستيفنسن وابنه روبرت بالجائزة ضد ادكسون ، وهي جائزة وضعها تجار لانكشير لمن يفوز بالسبق بين ليفربول ومنشستر . فقد جرت قاطرتهما ١٢ طناً بسرعة ٢٢ كلم في الساعة. فالحادث لم يقل اهمية عن حادث *les trois glorieuses* في المدى التاريخي .

فبينما كان الشباب المتحمس في فرنسا يدفع المهندسين ومعظمهم من خريجي البوليتكنيك ومن انصار السان السيمونية ، ويطالبون بالسكك الحديدية ، نراه يصطدم هنا بتنكر البعض للفكرة كما تلقى الفكرة هنالك عدم رضى الآخرين ، كما اصطدمت بمعارضة الذين رأوا في هذا المشروع ، اذا ما خرج الى حيز الوجود ، مساً بمصالحهم ، ويتعللون بغلاء الحديد ، رأينا الفكرة ذاتها تفوز برضى الرأي العام الانكليزي كما انها نزلت منزل الرضى من الاميركيين . وفي إثر إيفانس فكر ستيفانس ان يربط بين المدسون وبحيرة ايريه باختراع يدخل فيه الخط الحديدي

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٥٩٦ (من الطبعة العربية) .

والآلة البخارية ، فيكون ذلك افضل من وصلها بقناة مائية . وقد كان نجـــاح التجربة ان حمل بعض رجال الاعمال في بنسلفانيا على شراء قاطرة من انكلترا . وها هي بلطيمور تندفع بكليتها في الامر فتستخدم اول ما استخدمت الحصان والشراع ، فالقاطرة فـــازت في السنة التالية . وانهالت الاموال على المســاهمين فسهّل هذا الاقبـــال مد فروع الخط الى واشنطون، ومنشستر . وفي الوقت ذاته سارت الآلة البخارية على خط شـارلستن – همبورغ . ولما كانت السفينة الشراعية تسبب مشاكل وتثير المتاعب فقد كتب النجاح لاحسن صديق او رفيق الذي باستطاعته ان يقطع ٣٤ كلم في الساعة جاراً وراءه أربع عربات والذي انتهت رحلته بانفجـار عقب ان جلس السائق الزنجي على الصمام ليمنع البخار من الصفير . فالقاطرة *Old Ironsider* التي صنعها بلدوين وتلـــك المسماة *Thumb* التي جرى صنعهمـــا في احواض وست بوينت اصبحتا حديث القوم . وبالرغم من بعض الحوادث المبكية المضحكة التي رافقت تجربتهـــما ، فقد رسمتا مصير هذه الوسيلة الجديدة من وسائل النقل . ومنذ ذلك الحين ، ســارت الولايات المتحدة في الطليعة وتخطت اوروبا بمراحل ، فمن ٦٥ كلم للاولى مقابل ٣١٦ في اوروبا (منها ٢٧٩ لانكلترا) عام ١٨٣٠ ارتفعت الولايات المتحدة الى ٤٥٠٩ مقابل ٣٥٣٤ لاوروبا، عـــام ١٨٤٠ – وبعـد ذلك بعشر سنوات يصبح لدى الولايات المتحدة ١٤٤٠٠ كــلم من الخطوط الحديدية قيد الاستعمال وتأخذ في الامتداد والتغلغل في الداخل. صحيح ان هذه الشبكة ليست بعد كلها متجانسة فيما بينها . فتفاوت البعد بين الخطوط يختلف بين خط وخط وشعبة وشعبة وعملية التفريغ وانزال الشحن المعد للفنادق تفرض على القطار التوقف ليلاً بعض الوقت . ومع ذلك فقد راحوا يقطعون المسافة بين بوسطن ونيويورك باربع وعشرين ساعة بدلاً من ٨٠ ساعة. وفي سنة ١٨٥٤ كانت خمسة خطوط تجتاز جبال الابلاش . وهكذا يبدو واضحاً ان الولايات المتحدة الشمالية حققت لها اسبقية ملحوظة في اعتمادها على الخطوط الحديدية .

ففي اوروبا العتيقة لا يزالون بعيدين البعد كله عن هذه الانجازات البنّاءة الطموحة النيرة التي يقترح ميشال شفاليه الاخذ بها والاقبال عليها ممثلة « بشبكة البحر المتوسط » ، اي القيام بشق قناة مائية تربط كل الخلجان الواقعة في اوروبا على سيف هذا البحر بأهم المراكز الصناعية والمدن الكبرى . فالطريق والنهر هما قوتان . وجاءت ردة الفعل وفقاً لطبيعة ومزاج ومصالح كل بلد من هذه البلدان المعنية بهذا الامر . فمن جهـة الجنوب والشرق نرى انهما يفتقران كلياً لرؤوس الاموال اللازمة كما يفتقران للفنيين والتقنيين . فها هي ايطاليا التي تنبأ لهـــا أزغليو بأن انشاء السكة الحديدية فيها « سيخيّط الجزمة » لا تملك ، عام ١٨٤٦، سوى بعض شعبات من هـــذه الخطوط (خط ميلانو – مونز ، وخط بادو – البندقية ، وخط ليفورنو – بيزا ، بقطع النظر عن خط مقاطعة كمبانيا ، هذا الخط الذي انشأه فردينان دي نابولي للذته الخاصة وجهز كل محطة تقع عليه بكنيسة صغيرة ، وحظر السير عليه ليلاً وايام الاعياد) . اما هنغاريا فستبقى طويلاً لا تملك غير الخط الدائري الذي يلتف حول بودابست (بعد ان كانوا يرددون فيها القول بأن

كل من ينظر الى القطار في سيره على الخط يصاب بالجنـون . وفي روسيا كان على القيصر ان يضرب بعرض الحائط المخاوف التي جاشت بها نفوس «المصابين بمرض العصر» يعارضون فكرة بناء خط موسكو – بطرسبورغ. ومن جهة اخرى تحافظ انكلترا على سبقها في هذا المضمار وعلى التقدم الذي سجلته على كل جيرانها . فهي البلد الوحيد الذي يتمتع بشبكة حديدية تربط ما بين مدنها الرئيسية وحواضر البلاد الكبرى . وقد اقبلت بشيء من الهوس الجنوني على بناء هذه الشبكة التي استمر العمل فيها من ١٨٤٠ – ١٨٤٧ بالرغم من المنافسة الحادة التي ابداها اصحاب العربات ومعارضة بعض الشركات المالية ولا سيما معارضة *Turnpike Trusts* وكل من يعتاش مـن صناعة الجر ، وبالرغم من المضاربات على الاراضي. ان و. شابلن الذي كان في حيازته عـام ١٨٣٦ نحو من ٣٠٠٠ عربة نقل و ١٥٠٠٠٠ حصان جر رأى انه من الايسر والاسهل نقل الطرود البريدية بالقطار الحديدي ، وقبل ان يترأس شركة خط لندن والجنوب الغربي . وقـد احدث انشاء خط حديدي بين بروكسل ومالين تحولاً في الرأي العام الذي اخذ يعطف عـلى الفكرة بعد ان تنكر لها فاخذ يظاهر الاقتراح الجريء الذي كان يرمي الى انشاء خط حديدي يربط ما بين انفرس – كولوني وهو مشروع تقدم به الوزيران روجيه ولوبو . وقـد تعللوا في معارضتهم لهذا المشروع بانه يجر الخراب على اصحاب عربات النقل ويدهك الارض الصالحة للزراعة ويدخل الرعب على الماشية والحيوانات ويجفلها . فبعد سنة ١٨٤٣ ،قام في هذه المملكة الصغيرة من الخطوط الحديدية ما يوازي مـا كان منها في فرنسا . وكان من حسن وضع شبكتها ان اجتذبت اليها كل الحركة التجارية في اوروبا الريفية . اما البـلاد الواطية التي تخلفت عن جارتها في هذا السبق ، فلا عجب قط ان تفقد جانباً من الارباح التي كانت تعود اليها مـن الحركة التجارية وحركة النقل التي كانت تتجه اليها .

كبير جداً عدد رجال المال والاعمال والاقتصاد ورجال الادارة في المانيـا الذين ادركوا كما يجب، الفوائد والمنافع التي يحملها الى المانيا المنقسمة على نفسها سياسياً وعلى الاتحاد الجمركي الذي قام فيها التخلف عن الركب في هذا المجال . ولكن كيف العمل وقد راح الاطباء يؤكدون ان السرعة التي يتعرض لها المسافر تعرضه لفقد بصره وبالتالي للعمى، كما ان بعض المصالح الفردية الخاصة وفقدان الثقة التي يجب ان تقوم بين الدويلات الالمانية وقلة رؤوس الاموال، كل هـذه التعللات قامت وانتصبت في وجه القائلين بالتطور في هذا المجال والقائلين بوجوب الاخـذ باسبابه . ففي عام ١٨٣٥ فقط ، وتحت ضغط ليست استاذ الاقتصاد السياسي في جامعـة توبنجن وبفضل المبادرة التي اخذها شارير، عمدة نورمبرغ ، تم انشاء فرع خط نورمـبرغ – فورث . وقد وجه البروفسور ليست نفسه ، نداءً الى سكان مقاطعة ساكس دعـاه « البراءة الكبرى » للخطوط الحديدية، يهيب بهم الى معاضدة خطة تطوير المواصلات الحديـدية واخذ يجمع اشتراكات المساهمين بقصد بناء خط يربط بين ليبزيغ ودرسدن ، هذا الخط الذي جرى تدشينه باحتفال عظيم ، اقيمت فيه اقواس النصر واشتركت فيه اجواق الفتيات . وراحت كل مـدينة

تطالب بوصلها وربطها بجارتها او بأقرب نهر منها ، وكل واحدة ترغب في ان تصبح عقدة مواصلات. الا ان الحكومات المستبدة كانت في حذر من هذه المشروعات الخاصة: اذ ان القانون البروسياني كان يقيم مراقبة شديدة على كل مشاريع الاستثمارات وراحت بعض الدويلات الالمانية تحتفظ لنفسها مسبقاً بحق استثمار الخطوط الحديدية فيها. فمن المفارقات الحرّيّة بالملاحظة ان تلعب السلطات العامة في المانيا هذه التي تفتقر اصلاً الى حكومة مركزية دوراً اكبر من الدور الذي قامت به الحكومة الفرنسية. اذ لم تعتم ان اصبح لديها ٥٠٠٠ كلم من الخطوط الحديدية مقابل ٣٠٠٠ في فرنسا وهي شبكة تتألف من خط رئيسي يربط بين اكس لاشابل وبوزن، ماراً بهانوفر وبرلين ويقطع الانهر الكبيرة في شمالي البلاد . ومن هذا الخط تتشعب فروع نحو بريمن وهمبورغ كانت قيد الانشاء . ولما كان الرين الأوسط لا يفي تماماً بالغرض فقد تم وصل فرانكفورت بمدينة بال ، كما ان بروسيا ارتبطت بالنمسا واتصلت بها عن طريق سيليزيا وبوابة مورافيا .

وطالت فترة التردد في فرنسا وانتصب فيها جبهتان: المجددون التقدميون الجريئون، والنظاميون الرجعيون. من هنا السان سيمونيون ومهندسو الكباري والطرقات، ومن هناك رجال المال المتحفظون وفريق النبلاء الحذرون، والمنقسمون على انفسهم ذوي الموقف المتزعزع، وحكومة لويس فيليب الذي يتأرجح بين الأخذ باقتراحات له غران ومارتن دي نور ، وبين تحفظات المجلس الوطني وتردده . فلم يكن الى سنة ١٨٤٢ سوى بعض فروع قائمة . وعبثاً يحاول كل من اميل بيراير في جريدة « الناسيونال » وفلاشا في جريدة « الدستوري » وشارل دي فربيه في جريدة « الكريدي » وشفاليه في جريدة « الديبا » امتداح سياسة الانشاءات العامة ويحثون رجال الاقتصاد على وجوب تبنيها . صحيح ان جيمس دي روتشيلد اقتنع في نهاية الامر ليغامر بتنفيذ خط يربط بين باريس وسان جرمين ، تحت سمع الباريسيين وبصرهم، تأميناً لما فيه الترفيه والتسرية عنهم . وقد ساهم الجيش الفرنسي ببناء جسر أنيير . وجرى تدشين الخط باحتفال كبير ،عام ١٨٣٧ وعند افتتاح خط نيم – بوكير راح احدهم يقرظ شعراً فوائد القاطرة، منشداً :

ما احيلى القاطرة اللعوب اللاهثة
بداعب عرف شذاها النسيم العليل
مري باعربة الجود والكرم
مخترقة من ارضنا السهل والجبل
دخانك الاقتم هو خير بذار
بفيض الخصب من الاثلام والبركات

وهذا الحماس يتجاوب مع نشوة الطرب يهز مشاعر ميشليه وهو في القطار من لندن الى ليفربول فيقول : خمسون فرسخاً باربع ساعات. ليس ما يستطيع وصف هذه السرعة الجنونية

التي نجتاز معها كأننا مع قصة من قصص الخيال ، هـذه المناظر الغناء. نحن لا نعدو ، نحن نطير فوق الحقول المنبسطة وفوق الصخور والبطاح ، نمر سراعاً فوق الكباري المعلقة والقناطر التي تذكرنا بما تحمله من فن وملاحة ، في كل لحظة والتفاتة ، بهذه المباني الاتروسكية والرومانية. نحن نحوّم فوق المهاوي والاغوار » .

اما في فرنسا فالمسافات رحبة هي وشاسعة ، واصحاب رؤوس الاموال يفضلون ريعاً تكفله الحكومة ، بينما اكثر المشاريع الاستثمارية تعيش فيها عيشاً نباتياً. وراح اراغو يحذر الناس من « هذه الاحلام التي يعلقونها على قضيبين من الحديد » . ففي عهد حكومة غيزو فقط ، وبفضل حركة ازدهار قصيرة الامد ، صدر قانون ١٨٤٢ الذي اوجب على الدولة معاضدة المشروعات الخاصة وموازرتها ، انما تحت مراقبتها الرسمية واشرافها الفعلي . فتأسست في البلاد شركات جديدة ، واخـــذت الاسهم المالية تترى في حمى من المضاربات ، وقامت ورشات احتدمت بالنشاط . فالازمة التي استبدت بالبلاد شلت الاعمال لا بل عطلتها تماماً . فالذهاب من باريس الى ليون ، عام ١٨٤٨ كان يضطر المسافر ان يستقل القطار الى كوباي ، ليعود فيستقله من جديد من ميلون الى تروى واخيراً من ديجون الى شالون . ولكن لا مندوحة له من ركوب القارب او العربة بين كورباي وميلون — وتروى وديجون ، وبين شالون وليون . ومع ان ركوب القطار يكلف ٢٥ سنتيما للكلم الواحد مقابل ٦٠ للعربة ، فالعربات تسير اسرع وتسير توا .

ففي ديوانه الشعري *Les Destinées* ، تتنزى ريشة فيني بشيء من الشك المقيم عندمـــا يقول :

هذا الثور الحديدي الذي يدخن ويلهث ويخور
فاي عاصف فيه يُطلق هذا الاعمى الهائج ؟

من التلغراف البصري الى التلغراف البرقي

عالج القرن الثامن عشر البطء في المواصلات بالاختراعات الجديدة يكشف فيها عن اسرار القوى الطبيعية ، ويأتي بها علاجاً اولياً نشراً لافكاره وبثاً لها بالسرعة المرتجاة . فالاهتمام بتوفير وسائل الاتصـــال والاعلام عن بُعْدٍ لايزال يستبد بالخواطر حتى بعد ان اكتشف الانسان التلغراف البرقي . ففي سنة ١٨٣٨ فقط ، اعتمدت الحكومة الروسية طريقة شاب للاتصال السريع بـــين فرصوفيا وبطرسبورغ ، هذه الطريقة التي كان لها في فرنسا اذ ذاك ٥٠٠ محطة فمكنتها الاتصال بين باريس وطولون في اقل من ١٥ دقيقة. واتفق عام ١٨٣٧ ان كان الانكليزي هويتستون ، والالزاسي ستانهايل الاستاذ في جامعة ميونيخ ، والاميركي مورس ، ان تقدموا في وقت واحد تقريبـــاً ، بشهادة اختراع جهاز خاص للمخابرات السريعة عن طريق استخدام شاحنة فولطا بعد التجارب التي قام بها غوس وويبر حول المغنطيسية الكهربائية فاستنبط هويتستون طريقة المحطـــات للتغلب على عنصر المسافة وعامل المقاومة ، بينما راح ستانهايل يقترح الاخذ بالشبكة الوحيدة

تكون الارض فيها سلك رجوع ، في الوقت الذي استنبط مورس طريقة جديدة مبسطة جداً تتألف من علامات ترسم على لفافة من الورق . فبدلاً من تسجيل الاشارات الرمزية تسجل البرقية نفسها . واستطاع مورس ان يتبادل البرقيات بين واشنطون وبلطيمور عام ١٨٤٤ . ولم يمض كبير وقت حتى راح كل من برنار وولف بالاشتراك مع ارنست ورنر سيانس ثم رويتر المعروف بصداقته لغوس يستخدمون طريقتهم هذه في هذه الوكالة للاخبار التي انشأوها . اما التلغراف البصري فقد احتفظوا به في مصالح الجيش والبحرية .

ازدهار السفن الشراعية وبدء العمل بالبخار

كانت تنقلات الانسان على البحار حتى الآن مرتبطة الى حد بعيد بمزاج الارياح والاهواء التي حاول جهده ان يكبحها او يتحكم بها بشكل او آخر . والعمل في السفن الشراعية كان مليئاً بالمخاطر والمشقات اذ تقتضي القائمين به والناهضين باعبائه واحكامه ، الكثير من المهارة والجرأة ورباطة الجأش . فعلى من يرتضي حياة البحر مهنة له وحرفة ان يقنع بفراش خشن وحجرة ضيقة ، ضئيلة النور ضعيفة الانارة ، فاسدة الهواء كثيراً ما تفح منها رائحة العطن ويعيث فيها الجرذان ويعبث بها الهوام. اما طعامه فقوامه المعجنات والمملحات والتبلغ غالباً بماء مز أجاج . فهو ابداً عرضة للامراض تترصده المخاطر بين الصخور ومهاوي البحر واغواره . وتطل عليه من سطحه واعماقه ، فيسير على بركات الرحمن مستوثقاً بالظروف والامكانات الآنية ، ويقلع ملؤه النشاط كلما سمحت له الظروف وافتر له القدر ببسمة الامل . فوكالات السفر البحرية اخذت بتنظيم اسفار في مواعيد محددة بين نيويورك وليفربول ، شهرية في بدء الامر ثم نصف شهرية بعد حين ، كما قامت وكالات اخرى في لندن والهافر تنظم السفر الى شواطىء الهدسون، في رحلة يقتضي لها من اسبوعين الى ثلاثة اسابيع ، ذهاباً من الشرق الى الغرب ، ومن ٣٠ — ٤٠ يوماً إياباً في الاتجاه المعاكس ، والمهم في هذا كله تأمين الطمأنينة والسلامة اكثر من الوقت .

وبالرغم من هذا كله فقد قطع الاوروبي مسافات شاسعة فوق البحار يخترق عبابها قبل ان يتاح له السيطرة على القارات والتحكم بالمسافات. فبعد ان اعتمدوا في اواخر القرن الثامن عشر السدسية *sextant* في تحديد خطوط الطول وقياس ارتفاع الاجرام السماوية وابعادها اكثر من اعتمادهم على الاسطرلاب ، استطاع الميقت او الكرونومتر بعد التحسينات التي ادخلها عليه كل من بريغيه وابرهيم لويس ان يسجل تطورات عظيمة في قياس الوقت بدقه كلية . ولن يلبث رجل البحر حتى يرى تحت تصرفه خرائط مفصّلة لرحلات فصلية مرتكزة على رصد مهب الارياح . اما البركار فلن يصبح في مأمن من الاضطرابات التي تحدثها الحجوم المعدنية الواقعة على مقربة منه الا بعد لأي من الزمن .

فكيف السبيل والحالة هذه الى استبدال السفينة الشراعية بأداة للملاحة تكون اسرع واكثر ايحاءً للطمأنينة ؟ وفكرة استخدام البخار كمحرك في الملاحة وجدت لها رواجاً اكبر

بعد نجاح تجربة السفينــة التي تعمل على الفراشات في المياه الداخلية التي قـــاموا بها في العالم الجديد . وكانت نقطة الانطلاق هذه التجارب والاختبارات التي قام بها جوفروا دّبانس على نهري الساون والسين ولاسيما التجربة التي قام بها فلتن على سفينــة Clermont في خليج هدسون . هنالك عام ١٨١٥ نحو مـائة بيروسكاف (وهو الاسم الاول للسفن البخارية) تعمل على الحطب كوقود لها لوفرة هذه المدة ورخص ثمنها بينما ارتفع هذا العدد عام ١٨٣٠ ، الى ٥٠٠ بيروسكاف . وهكذا طلع علينا الـ *steamboat* ممهداً السبيل لظهور الـ *steamer* . ولكن هل باستطاعة المركب البخاري الذي اطلقه دل وثمسن على الكلايد ان يستجيب لمقتضيات رحلة بحرية طويلة ؟ فقد ارادوه للملاحة القريبة من الشواطىء ولاجتياز البحار الضيقة كبحر إيرلندا مثلاً . فليس من الغريب قط ولا ما يدعو للعجب ان تجتاز « السافاناه » شمالي المحيط الاطلسي عام ١٨١٩ ، بخمسة وعشرين يوماً ، فلا تصل الى مرفأ ليفربول الا بعد ان استعانت بالشراع . وقد ذهبوا بها الى كرونستادت الا انها لم تجذب بشيء اهتمام الاميرالية الروسية ، فاضطرت للنكول راجعة الى اميركا مستعينة في ذلك بالقلوع مرة اخرى . فقد برهنت التجربة على ان العجّل الذي يحرك الفرّاشات لا يعطي النتيجة المطلوبة ، اذ ان حركة السفينة من الاسفل الى المقدمة تكشفه تارة وتغطيه طوراً . ومن جهة اخرى ، ان تعشق العجلات الذي يتحكم بالآلات يفقد السفينة الكثير من قوة الدفع بعد ان يفقدها المرجل ذو المربعات قسماً كبيراً منها . فهي من جهة ثانية لا تصلح كسفينة حربية اذ انها هدف سهل المنال لرماية العدو . اما اذا ما عـــادت سفينة الفنكس بسرعة ٩ عقد تذيع في فرنسا على الاهلين خبر سقوط مدينة الجزائر عام ١٨٣٠ ، فالسفن التجارية لم تكن لتخلو اذ ذاك من محاذير سيئة . اما كان يقتضي لها من وقود الفحم ما يملأ كل الفراغ المخصص فيها للشحن؟ والسفينة انتربرايز وصلت كلكوتا عام ١٨٢٥ بعد رحلة استغرقت ١١٣ يوماً ، منها ٨ ايام قضتها تمتار الماء والوقود في مدينة الكاب . والى هذا كان لا بد من ان يحسب المرء حساب اخطار الحرائق والانفجارات الطارئة ، وهي اخطار لم تكن نادرة الوقوع على خطوط الملاحة . فالسفر في عرض الاوقيانوس ، بدون انقطاع او توقف ، على ظهر سفينة تشحن الفحم ليس باقل خطر من رحلة يخططون الى القمر تنطلق من ليفربول ، كما يؤكد ذلك العالم الرياضي لاردنير ، عام ١٨٣٥ . فليس من غرابة قط ، والحالة هذه ، ان يتردد نواجذة البحر ، قبل الاقدام على تعريض اموالهم للخطر .

ومع هذا لم تمر ثلاث سنوات حتى وقعت التجربة التاريخية المشهورة التي قامت بها السفينة سيريوس والسفينة الاخرى *Great Western* اللتان عرفتا كيف تستفيدا من البخار والشراع معاً ، اذ قطعتا الاوقيانوس ، بين ليفربول ونيويورك ، الاولى في ١٦ يوماً ونصف والثانية في ١٣ يوماً ونصف . وعلى الاثر يتعهد البحار السكتلندي صموئيل كونارد بنقل البريد على اربع سفن بخارية اولاها بريتانيا التي قطعت المسافة بين ليفربول وبوسطن بـ ١٧ يوماً محققة بذلك الاقتراح الذي تقدم به المهندس إيزمبير كنفدوم برونيل ، الى شركة *Great Western Rail Way*

بعد خطها حتى اميركا وذلك باستخدامها سفن بخارية في اسفار مطردة .

واخيراً هل في مكنة السفينة البخارية لعمري ان تستغني الى الابد عن الاشرعة التي تحتاج الى ايد عاملة كثيرة ؟ فقد اتجهت السفانة نحو تحقيق هذا المطلب باستعمالها المروحة القائمة على مبدأ برغي ارخميدس ، هذا المبدأ الذي خطر لبعضهم ، منذ القرن الثامن عشر استعماله وتطبيقه ، والذي قام باخراجه الى حيز الوجود في وقت واحد تقريباً احد بناة السفن في بولوني هوسوفاج ، ومزارع انكليزي هو بتيت سمث واركسن نفسه ، بين ١٨٣٢ – ١٨٤٤ . وستمر ١٥ سنة قبل ان يعم استخدام هـذا المحرك الحلزوني او الدوامة . كذلك سيتم بالبطء نفسه من حيث التطبيق والافادة من خدماته ، الاختراع الذي وضعه هول عندما وضع المكثف السطحي الذي يرفع من حرارة المرجل ويزيد كثيراً من طاقتهـا الآلة المزدوجة التي ستوفر الكثير من الوقود لن تظهر للوجود قبل عام ١٨٦٠ .

وفي غضون ذلك تعرف السفينة الشراعية ان تدافع عن نفسها بنجاح بفضل عناية الاميركيين انفسهم وتفوقهم الذي عرفوا اثناء حروبهم عام ١٧٩٣ و ١٨١٤ ، ان يفيدوا الى حـد بعيد ، مما لديهم من احراج وغابات كثيفة ظليلة . وزادوا ثلاثة اضعاف من حجم اسطولهم فجاوؤا في المرتبة الثانية بعد انكلترا ، كما انهم راحوا يقلبون النظر في كيفية التغلب على اسطول الملك جورج من حيث السرعة واستباقه ، وذلك بتنعيم شكل السفينة دون ان يلحقوا اي ضرر او اي وهن بمتانتها . وفي هذا السبيل اخـذوا يبنون سفناً شراعية يزيد طولها ٦ او ٧ اضعاف عرضها ويجهزونها بعدد اكـبر من الصواري يباعدون فيما بينها . وهكذا طلع علينا نوع جـديد من السفن من طراز *Clipper* وهو نوع ادق قيادة لعمري وان كانت سعته دون سعة الطراز المعروف بـ *Brick* ، تسير برشاقة وسرعة ناشرة ٤٠٠٠ متر مربع من الاشرعة ، لها من الطاقة ما يساعدها على اجتياز المحيط الاطلسي من الشرق الى الغرب بـ ١١ يوماً لتعود إياباً بـ ٤٠ يوماً . فبلغت سرعة السفينة *Lightning* عام ١٨٥٥ نحواً من ٣٣ كلم في الساعة اي ١٨ عقدة ، وهي سرعة لن تتخطاها السفينة التجارية الا بعد مرور ٢٥ سنة . والذي جعل منها بحق ملكة السفن الشراعية ورجح جانبها الى حين واولاها الافضلية على منافستها هو قدرتها على القيام بالرحلات الطويلة . الا انه بالنظر لاعمـال وتهريب الافيون الى الصين في اعقـاب ١٨٢٥ والاتجـار الحر بالشاي الهندي بعد ان الغت انكلترا عـام ١٨٣٣ ، الحكر الذي تمتعت به شركة الهنـد الانكليزية ، واكتشاف مناجم الذهب في كل من أوستراليا وكاليفورنيا ، اوجب التعويل على سفينة الـ *Clipper* واستخدامها في هذه الرحلات الطويلة ، من كلا جانبي اميركا ، من جهة بين اميركا وآسيا ، ومن اخرى بين اوروبا نفسها والقارات الاخرى . فمنذ سنة ١٨٢٦ دشنت السفينة *red rover* الاتجار بالافيون مع كلكوتا وهونغ كونغ . وفي سنة ١٨٤٥ انطلقت سفينة « قوس قزح » من نيويورك لتبلغ كنتون بعد ٩٢ يوماً . وفي سنة ١٨٤٩ قطعت السفينة الشراعية *Oriental* المسافة بين هونغ كونغ ولندن بمثل هذه المدة من الزمن . والسباق على الاتجار

بالشاي بين الشركات الانكليزية والاميركية استمرّ الى ان فازت انكلترا بالسبق على منافسيها بعد عام ١٨٥٠ . وتمكنت السفينة *Cap hornier* من ربط شمالي الاطلسي وكاليفورنيا بثلاثة اشهر بدلاً من ستة اشهر او سبعة اشهر لتدور حـــول الطرف الجنوبي للعالم الجديد في طريق رجوعها من ملبورن التي تأتيها متبعة طريق الكاب ورأس الرجاء الصالح . فالغوانو والنترات المتوفر بكثرة على سواحل جبال الاندس يصل اوروبا بالطريق ذاته .

وهكذا صانت الـ *Clipper* شرف السفينة الشراعية من الهوان والاستخفاف ، فالبخار لم يكسب بعد قصب السبق . ففي عام ١٨٥٠ يبلغ حجم السفن الشراعية ١٠ ملايين طن بينما ليس منها للسفن البخارية غير ٧٥٠ الف طن . ومهما يكن ، فحجم الاسطول البريطاني يتضاعف ، وسيكون تحت تصرف الاوروبيين ، عام ١٨٧٠ نحو من ١٤ مليون برميل مقابل ٣ او ٤ ملايين ، عام ١٨١٥ .

الفصل الرابع

الدفع الرأسمالي والبورجوازي

« فقد اتخذوا لهم من وكالتهم معبداً ومن مكتبهم
كرسياً للاعتراف ومن مفكرتهم توراة ومن مستودع
بضائعهم مصلى . فاجراس المصفق تقرع عند السلام
الملائكي ، والذهب الرنان اصبح معبودهم ، والاعتماد المالي
دينهم ودئدانهم » .
(هنري هاين : رسائل من برلين)

حقبة نسيطر عليها حاجة ملحة للنقد

سارت التكنولوجيا قدماً الى الامـــام . فهل توفر لهم الاسواق التجارية مـا يطمع المجتمع بتحقيقه من اهداف تسعى الوسائل التقنية الى تحقيقها . وكما حدث في القرن الثامن عشر ، عهد اشتداد الحاجة للنقد وللسيولة ، نرى ان انتاج المعادن الثمينة اخذ بالهبوط، اذ لم يعد هذا الانتاج ليتجاوز ٢٠،٠٠٠ كيلو من الذهب قبل سنة ١٨٤٠ ، بينما ارتفع هذا الانتاج ، بين ١٨٤٠ – ١٨٥٠ الى ٥٥،٠٠٠ كيلو ، ليسجل بين ١٨٥١ – ١٨٥٥ انتاجاً يقدر بـ ٢٠٠،٠٠٠ كيلوغرام . وحركة ارتفاع الاسعار التي ظهرت منذ الربع الثاني من القرن الثامن عشر توقفت تماماً بمداعادة السلام واستتبابه تماماً في القارة . فاذا ما عدنا نتملى النظر في الكشوف البيانية [1] ونحلل ارقامها لاحظنا هبوطاً ملحوظاً يستمر حتى عام ١٨٥٠ .

رافق حركة الاستثمارات هذه نزعة الى احداث تخفيض في الاجور بعد ان توفرت في معظم البلدان ، اليد العاملة ، وهي نزعة تأرجحت بين فرض الحماية الجمركية وبين النزعة الى التوسيع

---

(١) راجع الكشف البياني ، من ص ٨٨ . كذلك من المستحب الرجوع الى الكشوف البيانية الاخرى المنشورة في المجلد الخامس من تاريخ الحضارات العام ، ٥٩٣ ـ ٥٩٥ (الطبعة العربية).

في الحرية التجارية . فاذا كان رأس المال يدر ربحاً صافياً فلم يكن مع ذلك ليخرج من صناديقه بسهولة . ولعل خير من يرسم لنا صورة واقعية عن الوضع السائد اذ ذاك هو هذه الشخصيات التي يمثلها الاب غرانديه لبلزاك ، والبخيل في رواية « اجراس كورنفيل » ، ولا سيا شخصية مردستون وشقيقته في روايةدافيدكوبرفيلد، ورواية السير رالف نيكلباي لديكنس، حيث نرى غوبسك يقرض بفائدة ٥٠ و ١٠٠ ٪ . وعند اقل بادرة او اشارة خطر تظهر في وضع شركة تجارية او مصرف مالي ، يتهافت الناس على المصرف ويندفعون لسحب ودائعهم . فالمهم قبل كل شيء في دنيا الاعمال ، هو تاريخ الاستحقاق وشهرة ومكانة اقوى المحلات التجارية وارسخها ، فتصبح تحت رحمة مدين لا يستطيع وفاء ديونه . ولذا كثيراً ما يلجأ ارباب المال والاعمال الى استعمال القوة والاكراه ، والسجن يؤلف عندهم سيفاً مصلتاً فوق رأس الدائن العاجز بعد ان انزله الشارع منزلة السارق .

الدول : مصاعبها المالية ومشكلاتها

من الامور التي لها دلالتها في فرنسا ، بعد اعادة الملكية ورجوع الشرعية اليها ، الرغبة في عصر موازنة الدولة وتشحيلها ، على اعتبار ان كل انفاق لا كبير مبرر له يلحق الضرر بالوضع المالي العام الذي تتسكع فيه البلاد . ففي بريطانيا العظمى نفسها ، بلغ من ضعف الثقة بالوضع المالي بحيث ان التغطية الذهبية للبنك الاهلي فيها ، عجزت مرتين عن منع الذعر يدب بين الاهلين كما عجزت عن منع حوادث افلاس بالجملة .

ومن جهة اخرى ، فالرجوع الى التعامل من جديد بالنقد المعدني كان من شأنه ان يسبب هبوطاً في الاسعار . فالسوق يرتاح الى الطمأنينة ويؤثرها على التوسع في حركة الاعمال .

فالتداول بالأسينياه ، ترك في فرنسا ذكريات مريرة استمرت طويلاً في الخواطر والاذهان. فمثلا قيمة القسيمة لم يتجاوز الالف فرنك،والقسائم ذوات الخمسين فرنكاً ، لم تدفع قيمتها قبل ١٨٦٥ . والبنك الاهلي في بروسيا فرض عليه نظام شديد ووضع تحت مراقبة شديدة من قبل الدولة البروسيانية حتى انه لم يتمتع بحق حسم السندات المالية الا في سنة ١٨٤٦ وكذلك بحق التسليف . فحكومات النمسا وروسيا واسبانيا وادارة صغار الامراء الايطاليين كلهم في عسر مالي وحاجة ملحة للنقد .

ان اجبار المصارف في الولايات المتحدة الاميركية على دفع السندات بالعملة المعدنية أثار صعوبات كثيرة بين وزارة المال وبين خصومها من كبار المزارعين في الولايات الجنوبية ، والرواد في الغرب، وصغار الملاكين في الشرق الشمالي الذي راحوا يشكون من فداحة الضرائب ورسوم الايجارات المحددة بالعملة المعدنية . وعندما راح جاكسون ، عام ١٨٣٦ ، نزولاً عند ثورة الشعب وتحقيقاً لمطالبه ، يتجاوز امتيازات البنك الاهلي ، حدثت في البلاد ازمة عنيفة امتدت عقابيلها الى جميع ارجاء اوروبا .

كبار رجال المال والحكومات

يجيد ستندال الملاحظة ويعبر بعمق عندما يقول : المصرف هو رأس الدولة . فالبورجوازية حلت محل حي سان جرمين ، واصبح المصرف بالتالي بالنسبة للطبقة البورجوازية ما كانته طبقة النبلاء بالنسبة للشعب ، . فقد طلعت على البلاد اوليغارشية مالية لم يعد في وسع الحكومات تجاهلها والاغضاء من شأنها ، معظم اعضائها ينتمون للطائفة الانجيلية . وقد اخذوا يشيرون الى هذه الفئة، منذ عام ١٨١٥ ، باسم كبار رجال المال ، وانخرط في صفوفها بعض اصحاب المصارف من اليهود الالمان ، امثال هاين . وقد تمتع اصحاب هذه الاقلية بسمعة مالية قوية واخذوا يتحكمون بمصرف فرنسا الذي رأى النور تحت جناح وحماية المالي الكبير بيريغو منسكان نيوشاتل . وقام في لندن آل بيرنغ، هذا البيت المالي الذي يعود اصله الى ابن قسيس في مدينة بريمنهو فرنسيس بيرنغ ، مدير شركة الهند والذي مد يداً مسعفة لبيت في المشاريع التي نهض بها . وبعده طلع اسكندر الذي اصبح فيها بعد اللورد أشبرتن الذي آل اليه الاشراف ، بين ١٨١٥ – ١٨١٨ ، على الاعمال المالية الضخمة التي جرت في هذه الفترة؛ثم دخل شريكاً مع آلهوب في امستردام وباريس . وقد تمكن احد حفدته هو اللورد نورثبروك ان يتولى مقدرات وزارة الخزينة ثم وزارة المالية.وقد تحلى افراد هذه الفئةبالفطنة والحذق وحسن الاطلاع وهي كلهامنهذه الصفات التي ميزت كبار رجال المال اذ ذاك . فقد اتقنوا الى حد بعيد ، معاملات الكومسيون (الوساطة) في كل ما يتصل بشراء وبيع السفاتج والسندات المالية واسهم المعادن الثمينة لحساب الغير ، كما تمت لهم في الوقت ذاته خبرات واسعة في الاعمال التجارية الكبيرة ، كما هي حال آل ايشبورن في مدينة بريسلو الذين هيمنوا على مصانع نسيج الكتان وتجارة البن ، كما ان آل هتزمان اصحاب مصانع الاصواف ، انشأوا لهم شركة للتأمين ، كما ان انطوان برلييه أسس مع شقيقه كزمير مصرفاً له ، وامتلك مصانع لتكرير السكر ومعامل للنسيج ، ومسبكا للحديد والصب في شايو ، كذلك تعاطى تجارة غاز الانارة .

لم تسجل الاسواق المالية حتى عام ١٨٣٠ تطوراً كبيراً . فالمصافق او البورصات التي نشطت اذ ذاك ولا سيما بورصة الاسهم المالية في لندن لا تتداول بسوى قسم ضئيل من الاسهم العائدة لبعض المحلات الصناعية ، فالاعمال التي تستأثر بالانتباه والنشاط هي المعاملات العائدة للقروض التي تجريها الدول والتي كان يرغب فيها كثيراً اصحاب رؤوس الاموال وتحوز رضاهم . فالمصارف الكبرى تلعب هنا بالفعل دور المصالح الادارية في تأمين الخدمات العامة .

ثروة آل روتشيلد

لاحظ جنتز مستشار مترنيخ ورفيقه في مؤتمر فيينا ، بما له من شدة الفراسة ودقة الملاحظة ، ان آل روتشيلد « يتمتعون بفريزة مدهشة وموهبة ممتازة يتبينون معها احسن الحلول العارضة يختارون الافضل بين حلين جيدين ». فقد كان المؤتمر المذكور فرصة طيبة عرضت امام هذه الاسرة التي كتب لها ان تبرز وتلمع من بين هذه

البيوتات المالية الكبرى التي كتب لها ان تلعب بمقدرات الدول في القرن التاسع عشر .

يعود اصل هذه الاسرة البعيد الى الطائفة الاسرائيلية في مدينة فرانكفورت حيث كان جدها الاول أمشل - ماير يتعاطى بنجاح، اعمال الصرافة ويدير بكل جدارة اعمال منتخب هس كاسل ومصالحه العديدة. وقد رزقه الله خمسة اولاد عرفوا بـ « سادة فرانكفورت الخمسة » ، تسلم اكبرهم المدعو أمشل ادارة اعمالهم في فرانكفورت بينما استقر اخـــوه سلومون في فيينا واتجه اخوهم الثالث ناثان ، وهو اكفؤهم وألبقهم الى لندن ، بينما توجه جاكوب او جيمس الى باريس ، واتخذ اصغرهم كارل مقراً له في نابولي . واعتاد هؤلاء الاخوة ان يعقدوا - كل سنة في المدينة الامبراطورية الحرة ، اجتماعاً لهم يستعرضون فيه سير العمل في محلاتهم على ضـــوء بيانات وكشوف دقيقة ، ودراسة الاوضاع العارضة. وسواء أصحت عملية مضاربة مالية ضخمة قاموا بها بمناسبة معركة واترلو التاريخية ام كذُبت ، فقد كرست هذه العملية شهرتهم وجعلتهم اشد اطلاعاً على بواطن الامور وخفاياها ، من رؤساء الدول وملوكها . فقد اصبح آل روتشيلد المولين الاوائل لدول الحلف وشركائهم . ويقوم سر النجاح الذي اصابوه ، بتأمينهم نقل مبالغ ضخمة قد تكون صورية او وهمية ، بـين انكلترا وشركائها ، في ظروف صعبة ، خطرة من الحرب القائمة، في وقت كان نقل مبالغ ضخمة من المـــال لمسافات بعيدة ، محفوفاً بالاخطار . فاتخذوا لحلهم شعاراً ان دل على شيء فعلى ما جاشت به نفوسهم من اعتداد وطموح بعيد وهو شعار تألف من الكلمات الثلاث اي : إتفاق ، مهارة ، نزاهـة .

وهكذا لم يبق في وسع الملوك الاستغناء عن خدماتهم. ومعظم عمليات القروض الكبرى التي وقعت بعد عام ١٨٢٠ تمت على ايديهم وبواسطتهم . وكافأهم الامبراطور فرنسوا باعطائهم لقب بارون . ولما كان من المهم جداً لديهم ان يسود الامن بين الدول والشعوب بحيث ينصرفون هم لاعمالهم التجارية والمالية بطمأنينة ، فقد حرصوا جهدهم على تأمين اسباب التفاهم بين الملوك والامراء. ففي الوقت الذي كانوا فيه يُتهمون بتحسين وضع ابناء ملتهم في العقيدة والدين الذين كثيراً ما كانوا يتعرضون للاضطهادات ، فقد راحوا يعملون على توطيد اسباب النظام بعد ان عاد السلام الى اوروبا . وكيف لا تقلق خواطرهم وتجزع نفوسهم على ثرواتهم الطائلة بعـــد ان اصبحت اسطورية ومضرب الامثـــال بين الناس ؟ فقـــد راحوا يستثمرون اموالهم في مشروعات عديدة على شاكلة آل فوجرز قديماً . فقد حازوا على مناجم الزئبق في ادريا كما راح ناثان يعمل لتأمين سيطرته على مناجم المادن في الوقت الذي كان فيه سلومون الذي يسيطر على مناجم وافران فنكوفتش للصب يعمل على تأسيس شركة لويد النمساوية للاسفار البحرية. كذلك عنوا بتجارة الشاي والتبغ. وامتلكوا لهم اماكن للراحة والاستجمام والترفيه عن النفس، وابتنوا لهم دارات وقصوراً جميلة يقيمون فيها الحفلات الواسعـة ويستقبلون عليـة القوم بكل مظاهر البذخ والأبهة . وقد عرف ناثان وابنه ليونيـل ان يتغلغلا في صميم الارستوقراطية البريطانيـة ، بحيث راحت مدينة لندن تنتخب عام ١٨٤٧ ليونيل ممثلاً لها في مجلس العموم. إلا انه لم يتمكن

من القيام بالمهمة الملقاة عليه والمشاركة باعمـــال المجلس . واعادت البلدية انتخابه من جديد عام ١٨٥٨، وجرى تعديل نص القسَم لاجله ليتمكن من القيـام بواجباتـه كعضو في المجلس . وكارل الذي اصبح شخصاً مرغوباً به في نابولي ، عرف ان يكسب ثقة الادارة البابوية . فقد قدم له البابا يده ليقبلها وعلق على صدره الاوسمة البابوية. امـــا جيمس البارون الذي كان اصهب الشعر ، احمر الوجه والذي كان يتكلم الفرنسية بلهجة المانيـة ظاهرة ويقيم من الولائم والمآدب السخية ما يدهش الناس لما فيها من بذخ واسراف، فقد راق له ان يلعب دور نصير الادب والادباء والفنانين . فقد اخذ على عهدته مؤازرة ميربير – كما اخذ تحت جناح حمايته برليوز وهاين ، وسلف بلزاك ما يحتاج اليه من مال بعد ان قدم له مؤلفاته واخذ يجمع الآثار الفنية .

ومع انه دخل في خدمـة آل روتشيلد صحفيون أمنوا لهم كل اسباب الدعـــاوة وعضدوا مشاريعهم – من ذلك انهم عرفوا كيف يصطنعون جنتز ويؤمنون موالاتـــه – فالنجاح الذي حققوه لم يؤلف مع ذلك تياراً موالياً للسامية. كان آل روتشلد مضرب الامثال في الغنى والثراء اذ كانوا يقولون : هو في غنى روتشيلد ، قول يردده الناس بشيء من الاعجـاب الذي يشوبه الحسد أو الغيرة فقد تعرضت عام ١٨٣٠ ، حياتهم للخطر . وفي سنة ١٨٤٨ اضرمت النيران في قصرهم الصغير في غابة فنسين على مقربـة من باريس كمـا ان سلومون اضطر للنجاة بنفسه والهرب من قصره الواقـع في فيينا بعد ان هاجمـه الثوار . وكان باستطاعة توسيـل وهو من القائلين بمذهب فورييه الفلسفية ان يصرح عام ١٨٤٤ وان يكتب وينشر عـام ١٨٤٧ ، رسالة بعنوان : « اليهود هم مـــلوك العصر » جاء فيها قوله : « ما من احد يعترف ويقدّر اكثر مني ، ما للامة اليهودية ، من عبقرية وموهبة عالية . فليس من ملك في فرنسا غير اليهود . فاليهودي هو الذي يملك عندنا ويحـكم . فاليهودي الانكليزي والهولنـدي والجنيفي يؤلف اليوم اسباط اسرائيل الاربعة ، اسرائيل الذي يدعي انه شعب الله المختار ، هذا الشعب الضاري ، المفترس الذي يعيش على الخطف والربا الفاحش ، والذي ينهش في جسم البشرية نهش النسور للجيف » .

الشعور بالحاجة الى توزيع احسن في الثـورة

ارستوقراطية المال الحذرة هذه، تهزها الى الاعماق نظرية السان سيمونية التي راحت تطالب بتوزيع أفضل للثروة بين الناس. والحال، فالتجارة والصناعة لا تزدهران إلا ضمن تسهيلات خاصة تؤمن لهـــا النجاح في عمليات الحسم والتسليف .

وقد جاء فريداً في بابه اقدام البلاد الواطية على تأسيس الشركة العامة لتشجيع الصناعة الوطنية بحيث يمكن اعتبار هذه الشركة أول مصرف نشأ في القارة لتشجيع الاعمال المالية . فقد اصيبت مشروعات لافيت في فرنسا بالفشل ، فجاءت محاولاته هذه نذيراً بطلوع محاولات بيرابر في عهد الامبراطورية الثانية .

وهذا النهج الجديد في الاعمال المصرفية لقي قبولاً في انكلترا التي اصدرت قانوناً خـــاصاً

يلبح انشاء شركات مساهمة للقطع ادارتها مشتركة بين رجال الصناعة والتجارة ، مهمتها تسهيل وتيسير الاعمال التجارية الكبرى . وسيمضي وقت طويل قبل ان تتمكن هذه الشركات من القضاء على ما اكتنف اعمالها ونشاطاتها الاولى من التشكيك والظنّة .

فالشركات المعروفة بـ *Commandite* أو شركات التوصية المساهمة هي في طريقها للظهور ، في ظروف اكثر ملاءمة تتيح لها الازدهار ، مفسحة الطريق امام الشركات المغفلة التي تمثل طرازاً او طوراً جديداً من اطوار ازدهار رأس المال ، وهي شركات توقع طلوعها بعد حين بعض بعيدي النظر في الشؤون المالية .

محاولة سيطرة رأس المال على الرأي العام . الاتجاه نحو الصحافة الرخيصة

كان المالي الفرنسي نيكر يعلق اهمية كبرى على هذه القوة الجديدة الطالعة التي كان يحلو له ان يسميها «الملك المجهول» الرأي العام . فقد استقر في روع الجميع ان المطبوعة ، على اختلاف لبوسها ، ولا سيما الصحيفة الدورية هي التي تساعد على خلق هذا الرأي العام وتكوينه . فاذا ما اخضعت الحكومة الصحيفة للتمغة وللكفالة المالية استطاعت ان تؤثر عليها وان تخضعها لحضانة رأس المال وكفالته . ويلاحظ مونتلمبير بكثير من الحذق والبصيرة ، وقد كان من كبار الصحفيين في زمانه « ان الدولة تجهل كيف تربح المعارك بدون التضحية بجنودها ولا تعرف ان تؤمن نشر الجرائد في البلاد دون ان تبذل فلوسها » . ولذا كان عدد الدوريات قليلاً ومحدوداً ، كما انها كانت تسحب اعداداً محدودة تكلفها غالياً . فالناس كانوا اذ ذاك يذهبون للمقاهي لقراءة الجريدة ، ولذا أخذت هذه المقاهي تشترك بالجرائد اجتذاباً منها لزبن جدد . فالرأي العام كان متعطشاً للاطلاع والمعرفة .

لا شك قط في ان الطابعة الميكانيكية كانت خير وسيلة وأفضل اداة في يد جون ولتر، مدير جريدة التيمس، اتاحت له عملية تضعيف النسخ بسرعة اكبر. ولما تبين لهذا الرائد، على ضوء الاختبار، بان البريد بطيء جداً في حركاته وتنقلاته بحيث لا يفي بالغرض، فقد خطر له ان ينشىء مراسلين . فأنشأ في هذا السبيل ادارة خاصة ادخل عليها البحار توماس فلتشر وغهورن تحسينات جمة عُرفت عندهم بالبريد القاري أو « بريد الهند » . وأخذت تظهر اذ ذاك وكالات للاخبار لم تلبث ان اتسعت شبكتها وامتدت في جميع الانحاء ، غايتها جمع الاخبار والانباء. انشئت اولى هذه الوكالات عام ١٨٣٥ بناء على اقتراح تقدم به شارل هافاس الذي ربط بين باريس ولندن وبروكسل ، بشبكة من المواصلات السريعة مستخدماً لها حمام الزاجل ثم الخط الحديدي واخيراً التلغراف البرقي .. وحذا حذوه في هذا المضمار رويتر احد مستخدميه وكذلك وولف، هذا في برلين وذاك في لندن . وفي الوقت ذاته راحوا يكثرون من الاعلان بقصد الدعاوة بحيث احتل قسم الاعلان في جريدة التيمس ، كل يوم ، ٦٠ حقلاً أو عموداً ، وهكذا اطل علينا الاعلان الصحفي والنبأ التجاري . فهنا يكمن على ما نرى ،

سر الصحيفة الرخيصة . واخذت التيمس تنشر كل يوم مئات الاعلانات التجارية الدقيقة ، وبذلك غطت النفقات الباهظة التي تتكبدها في سبيل جمع الانباء وتأمين الاخبار الجديدة المشوقة ، ودفع أجور المقالات العلمية والادبية التي كانت تستكتبها بعض الاقلام الشهيرة التي تتابع نشرها . وفي اميركا اخذ بنجمين داي يبيع جريدته بسعر سنتين للعدد الواحد ، مثبتاً الاعلانات التجارية بين الاخبار المشوقة .وراح غوردون بنيت يصدر جريدة المورننغ هيرالد التي عينت مراسلين لها في الخارج يمدونها بالاخبار ، مشددة على الحوادث المختلفة التي تثير الاهتمام .

وبعد ذلك بقليل أطل اميل دوجاردن وتمكن ، بعد محاولات شتى ، من اصدار جريدة يومية جعل اشتراكها السنوي ٤٠ فرنكاً بدلاً من ٨٠ ، وهكذا ظهرت جريدة « الصحافة » كما ظهرت في الحين ذاته جريدة « الجيل » بمساعدة أحد المتمولين يدعى دوتاك ، فامتنع على دوجاردن التفاهم وبالتالي التعاون معه . فاذا كان الفضل في رواجها يعود أصلاً للاعلان والدعاوة فقد كان من نشرهما الروايات المسلسلة المشوقة اثره البعيد في الترويج لهما. وبعد النقد الذي قوبل به النهج الجديد من جانب بعض الكتاب ، أخذ بعض حملة الاقلام الذين يتمتعون بشهرة واسعة امثال بلزاك وجورج صاند يساهمون في التحرير . وراح الكسندر دوماس واوجين سو يؤمنان لهما شهرة واسعة. وازدادت جريدة الـ *Débats* انتشاراً بين الناس وذيوعاً بنشرها مسلسلة رواية « اسرار باريس» ، كما راحت جريدة الدستور تنشر على الطريقة ذاتها رواية اليهودي التائه ، وبذلك عولت الجريدة اكثر فاكثر على الاعلان وزادت انتشاراً وأمنت بالتالي ارباحاً كبيرة . ووقّعت جريدة الديبا والدستور اتفاقاً مع الشركة العامة للاعلان ،هذه الشركة التي ألفها بعض أتباع سان سيمون ، امثال دو فرييه وبيرايز وارلس — دو فور .

وراح بلزاك يضع على لسان احد شخوص رواياته ، بشيء من الغلو هذا الكلام: «كل الجرائد جبانة ، مداجية ، وكاذبة ، لا اخلاق لها ، سفاكة. فهي مقتلة الافكار والنظريات والناس وبذلك نجاحها وازدهارها » .

بين تجار وصناع

فالاستثمارات الفردية والعائلية تشكل النظام المسيطر للآن . فنحن في عصر المسؤولية غير المحددة وفقاً للقوانين المعمول بها. فالمشروعات هي في الغالب بنت المبادرة الشخصية الجريئة ولذا تعرضت لمخاطر كثيرة.

فنظام التاجر الصناعي لا يزال هو المعمول به الآن على الغالب . فالتاجر يبيع السلع التي تخرج من مصنعه ويتصرف على هواه بما يتوفر له من رؤوس الأموال ، وهو مطلع على متطلبات الاسواق ومستلزماتها ويؤمن بنفسه المواد الأولية ليد عاملة متوفرة ، عُرفت بمهارتها اليدوية تتمتع بما تم له من صنعة ، بتقدير الجميع واحترامهم .. وقد لوحظ جيداً ان هذا النظام العائلي استمر الأخذ به والنهج على منواله في صناعة الحياكة . فالحائك العامل في منزله أو بيته سيصمد

طويلاً في وجه مزاحمة المعمل له بالرغم من البؤس والشح والتقتير الذي يرزح تحتـه . و«المشغل العائلي» سيصمد هو الآخر في وجـه المصنع حيث العمل اخذ يتجه نحو المركزية . ولعـل خير مثل نضربه على هذا النمط من النشاط الذي يجعل الصناعة مرتبطة بالتجارة تابعة لها ،هو المصنع الليوني (في مدينة ليون) اذ يبدو لنا صاحب المصنع تاجراً أو من كبار التجار احياناً ، يوزع النشاطات في مصنعه ويقسّمها بين معلمي الكار ورؤساء الورش يجري عليهـم الرزق والمرتبات كلاً بحسب درجته من الفن والصنعة والتقنية . والنشاطات التي يضطر للتخلي عنها هـذا النظام الصناعي العائلي هي التي تتمثل في الحياكة والنساجة . إلا أنـه يبقى محتفظاً بالنشاطات التكميلية كصنع الملابس التحتانية والقبعات وما أشبه . وسيُعرف هذا النشاط في الصناعة باسم « النظام المعرّق » .

ومع ذلك فقد برز في المجال التجاري نشاطات جديدة كتجارة الفرادى او المفرق وتجارة الجملة التي جاءت وسيطاً بين الصناعة والتاجر الصغير وهكذا أطلت علينا بيوتات تجارية كبيرة تعنى بالاستيراد او بالتصدير . وفئة الوسطاء والعملاء زادت كثيراً من نشاط الحركة التجارية. كذلك ظهر للوجود « العميل الرحالة » . فها هو كوبدن يقطع كل يوم ٤٠ كيلومتراً يعمـل في سني حداثته عميلاً في صناعة الموسلين ، وقسمات هذا العميل خلدهـا بلزاك في الصورة الـتي وضعها « لغوديسار » المشهور .

فاذا ما طمحت التجارة بالجملة لتوفير السلع والبضائع لاصحاب الدكاكين والباعـة بالمفرق ، فقد أخذ الدكان والاعمال التي تتم فيه يرتدي طابع محل تجاري له شأنـه . فقد زالت من الوجود معالم تاجر الفرادى الصغير والدكان المتواضع الحقير أمام ما اصطلحوا على تسميته بالمخزن الكبير، هذا الطراز الجديد من المحلات التجارية التي تعمل على إرضاء زبائنها وتلبية رغائبهم وفقاً لامزجتهم وأهوائهم . فمن الرواد في هذا المجال نرى في باريس البقال باريسو الذي حـذا حذو لابيل جاردينيير وتخصص ببيع ملابس النساء الداخلية ، ثم اعتزل العمل في وقت مبكر بعـد أن جمع ثروة لا تقل عن ٣ ملايين. والسعي وراء « الجديد » والرغبة في حيازته ، ساعـد على ظهور مخازن كبيرة ، منها مثلاً المحـل التجـاري المعروف بـ (*Les Deux Magots*) ، ومخزن (*Le Bonhonme Richard*) والمخزن المعروف بـ (*Les Trois Quartiers*) . وقـد رأت الجريدة الهزلية شاريفاري في هذا الطراز من المحلات التجارية، ما أطلقت عليه اسم المخـازن العملاقة وراحت تعطي عنها بصورة هزلية رسوماً وصوراً معقدة . وبتخصصه ببيع المصنوعات من الجلس الممتاز ، وباحترامه الوزن الدقيق الى اقصى حد استطاع البقال بونرو أن يحقق له شهرة واسعة في هذا المجال ، جاء ينافسه اياها فيما بعد صاحب محلات بوتين الذي باشر بانشاء مراكز فرعية للتموين في الملحقات .

عاد عدد كبير من اصحاب المصانع لابناء طبقة النبلاء . فأبناء هـذه الطبقة في انكلترا

يهيمنون على عدد كبير من المؤسسات الصناعية . وعلى هذا قس أيضاً في بروسيا ابناء طبقـــة (*Junkertum*) .وقد لعبت التجارة دوراً كبيراً في تطوير ما يعرف بنظام الفبارك. ففي معظم الحالات نحن أمام عامل بدوي متواضع يستثمر لحسابه الخاص طريقة جديدة استحدثهـــا، أو اختراعاً اكتشفه، وتحت تصرفه المال اللازم لاستثماره باشراف او اشراك أحد ارباب المال . فها هو ستيفنسن يتعاون معه الكويكر بيازالثري المقيم في ارلنغتن؛ وها هو ماسون صانع الريَش والاقلام في منشستر يستثمر الاختراعات التي تمت على يد الكنغتن في عمليـــات التفضيض والتذهيب . وصنع وليم كوكريل لحساب سيمونيس وبيوليه في فرفييه ، آلات الحلاجـــة والحياكة التي شوهدت لاول مرة على القارة . واضاف احد اولاده المدعو جون الى مصانعه العديدة في سيرانغ حوالي عشرين معملاً وزعها على بلجيكا وفرنسا والمانيا وبولونيا . واوجـين شنيدر ، حفيد أحد القواد من تلاميذ الفوج الاول الذي تخرج من مدرسة الفنون العليـــا (البولتكنيك) كان رفيق الحال لما دُعي لاستلام ادارة مسابك بازاي الواقعة على مقربـة من سيدان ، واستطاع مع شقيقه أدولف أن يبعث النشاط في معامل كروزو بعـــد أن أصيبت بالخمود . وقد عملا فيها بعد في مصرف سيايز الذي كان شريك توصية في شركة شنيدر وشركاه . وتمكن فرنسوا وندل من اعادة النشاط الى معامل ديانج ، وذلك بفضل مؤازرة أحد الطرفين في ميلهوز وبتطبيق الطريقة الانكليزية في عملية تسويط الحديد . كذلك كانوا مهندسـين آ.ل موني ودوريان وتالابو الذين استعانوا بالاموال الموضوعة تحت تصرفهم لاستثمار ثقافتهم الفنية .

نحن هنا أمام معين لا ينضب من أرباب الصناعة عرفوا بنشاطهم وجهادهم وكفـــاحهم في مواجهة مسؤولياتهم الواعية . وهذا المصنع الموجود في محيط ريفي يؤلف مؤسسة مغلقة عـلى نفسها . فهي ملك سيدها ورئيسها، يوجهها كما يوجه عقاراً يديره على هواه ، لا تترك ابويتـه للسلطات العامة أي باب لتتدخل في اموره الا فيما يتعلق بالمحافظة على النظام والامن الداخليين وضبط العامل ، وذلك بما لها من أسوار عالية هي أشبه ما يكون بسجن يبرز كقلعـة تسيطر عليهـا الاقطاعية الصناعية .

الاقتصاد : تطـوره ومشكلاته
حماية الصناعة

بالرغم من التغييرات التي طرأت على النظام السياسي والنهـــج المتبع ، فقد استمر الانتاج وحركة المبادلات التجارية في نموها الصاعد .

فالانتاج تضاعف على الاجمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ – ١٨٤٨ . ففي انكلترا وحدها زاد انتاجها من الحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليه من قبل ، كما زاد انتاجها من الفحم أربعة اضعاف عما كان عليه عام ١٧٨٩ . وزاد انتاج فرنسا من الفحم والصب والحديد ثلاثة أضعاف ما كان عليهعام ١٨١٥ .ونلاحظ حدوث مثل هذه الزيادة لدى كل من بروسيا وروسيا. أما في الولايات المتحدة الاميركية ، فالتطور الذي تم عندها خلال هذه الحقبة هو جدير بكل

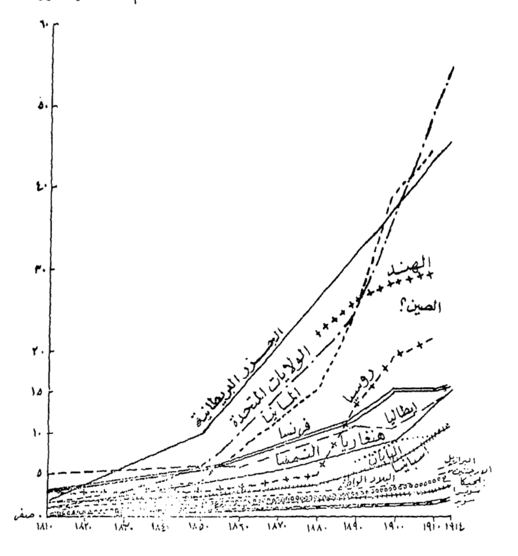
اهتمام وتقدير . فقد زاد انتاج الفحم عندها عشرة أضعاف ، كما ان انتاجها من الحديد زاد ١٢ ضعفاً . وقطاع النسيج الذي يأتي في طليعة القطاعات الاخرى في تلك البلاد بنشاطه ، زاد بالنسبة ذاتها .

ومع هذا ، فالتقدم يبدو أدنى مما حققه القرن الثامن عشر في هذا المضمار ، ومن التطور الذي تم فيما بعد . فقد تطورت الحركة التجارية في الدول الغربية ٤٠٠٪ بين ١٧١٧ و ١٧٥٠ بينما تطور هذه الحركة بين ١٨١٥ – ١٨٥٠ لا يتعدى قط ١٥٠٪ . والسبب في ذلك هو ان الاستهلاك لم يتطور بسرعة أكبر . فالسوق الريفية ، وهي عنصر هام في الموضوع، لها قدرة محدودة على الشراء في وقت لم تكن الطاقة الانتاجية فيه كافية لتلبية الطلب . اما العمال أو الشغيلة فهم في وضع زري ، على الاجمال . فرب العمل يتشدد كثيراً تجاههم مع أن الوضع المسيطر اذ ذاك لم يكن ليخلو من مخاطر تهدده . فالعالم الرأسمالي يعاني أزمات عديدة ليس ريفية فحسب بل أيضاً يشكو انكماش الاسواق المالية .

ومهما بلغ من تفاؤل علماء الاقتصاد الاحرار من تلاميذ آدم سميث ، فلا يمكن تجاهل الصعوبات الكامنة . فقد نفى الاقتصادي الاميركي جون ستيوارت مل عام ١٨٤٨ : « الركود الشامل الذي يعاني منه الوضع » . وقد سبق لسيسموندي فصرح : « بأن هذا هو الوضع نفسه في كل الازمنة » ، وأن الازمة هي نتيجة محتومة لهذا التطور الذي بلغه الرأسمال الاقتصادي ، هذا النشاط من الاقتصاد الذي شجبته المدرسة التي تطالب بنظام عُرف فيما بعد بالنظام الاشتراكي .

ولذا راحت المصالح الكبرى تتجه بأنظارها نحو الدولة. وفي هذا السبيل أصدرت انكلترا بعد عام ١٨١٥ ، قوانين الحبوب تسبيجاً منها حول ما يعرف عندهم (*The Landed interest*) محافظة منها على ريع الأرض والدخل العقاري . أما في فرنسا فالتحالف القائم بين البورجوازية وبين كبار الملاكين حمل الحكومة على اتخاذ سياسة حماية شديدة. وفي الولايات المتحدة الاميركية، لا يتطور النظام المعروف بـ (*Factory System*) الا في ظل تعريفات حماية تفرض رسوماً عالية. وعلماء الاقتصاد في بروسيا الذين وضعوا الاتحاد الجمركي المعروف *Zollverein* ، انما رموا من وراء تشكيله الى ايجاد سوق وطنية تشبهاً برجال عام ١٧٨٩ . ومما له من مغزى خاص، الموقف الذي وقفه ليست الذي راح يضع عام ١٨٢٧ ،بعد أن تبين نظام الحماية، الذي تعيش فيه الولايات المتحدة في ظله ، وهو نظام شمل قارة بأسرها ، كتابه المعنون : « محاولة اقامة نظام اقتصادي سياسي جديد » تدليلاً على حسناته لمجموعة من الولايات تستطيع أن تكفي نفسها بنفسها». ان مثل هذا النظام الاقتصادي الوطني هو سليل هذه الروح التجارية التي جاشت بها نفوس الملوك والامراء ، هذه الروح التي جرى التعبير عنها عام ١٨٤١ ، خير تعبير ، في الكتاب الموسوم : « النظام الاقتصادي الوطني » وقد راق الكتاب في عيني الامبراطور نقولا الاول فأمر بنقله مع الكتاب السالف الذكر الى الروسية .

هذه السياسة الفطرية او الانانية القائمة على الحماية الجمركية كانت تسيء في الصميم الى الرأسمالية الفتيـــة التي تنبض بالتفاؤل . ولما كان تلاميذ آدم سمث منطقيين مع انفسهم توجب عليهم التسليم بقانـــون توزع العمل بحيث يشمل العالم اجمع. ان معاهدة ايـدن ـ رينفال المعقودة عام ١٧٨٦، تركت وراءها



الشكل ٢ ـ عدد المدن التي يتجاوز عدد سكانها المائة الف
(وفقاً لاحصاء بيرو العام المنقح)

في فرنسا ذكريات مريرة . فقد رأى فيها كل الذين قالوا بان القلق الذي يشعر به العالم لا يمكن التغلب عليه لعدم تمتع التجارة بسياسة حرة واسعة ، درساً مفيداً وعبرة لمن يعتبر . فقد اخذت انكلترا الخطوة الاولى في هذا المجال ، انكلترا التي كانت اول من عانى من نتائـــج سياسة الحماية الجمركية . فاصحاب المصانع من التجار في تلك الجزيرة ، ايقنوا صادقين بانهم يحـــرّون

البلاد الى سياسة تؤدي الى رفع اسعار الخبز والى الاضطرابات الأجتماعية فيها . فقد وقعوا الى جانب انصار بيل وهسكسن اللذين عملا على التخفيف من تأثير قانون الملاحة واجازا للاجانب الاتجار مع المستعمرات على شرط المعاملة بالمثل ، وحولا حظـــر الحبوب الى مرقاة متحركة الدرجات تشبها منهما بالقانون الفرنسي. واخذ كوبدن وسكان منشستر بشن حملة شديدة ادت بالبلاد الى انتهاج سياسة تؤمن حرية التجارة والتخفيف من الرسوم الجمركية ، وهـو تصرف لم يلبث ان انتقلت عدواه الى بلدان اخرى ونهجوا نهجه في الخارج .

هذا لا يعني قط ان حرية التجارة ربحت القضية وكتب لها النصر ، ومثل هذا الأمر لن يتحقق ابداً بصورة كاملة . وعندما نشر بستيا ، عام ١٨٥٠ كتابه المعنون : « المؤتلفات الاقتصادية » الذي نادى فيه بسياسة حرية التجارة المطلقة ، راح العالم الاقتصادي الاميركي كاري يصدر ، هو الآخر كتابه الموسوم: «انسجام المصالح» ويطالب على طريقة ليست بتضامن القوى الانتاجية القائمة في بلد واحد . فدنيا الاعمال تتحرك دوماً بين طريقتين او مذهبين تضمن لها احداهما الطمأنينة المؤقتة بينما تفتح الاخرى امامها منافذ جديدة وانطلاقات اوسع .

مدن الامس ومدن الغد

ففي نظام اقتصادي من هذا النوع ، المدينة هي التي لها الكلمة القطع والرأي الاول . من الطبيعي ان تطورها السريع مربوط الى حـــد بعيد بالسياسة الاقتصادية التي تنتهجها البلاد . فالتطور الذي عرفته الوظيفة التجارية والمركزية الصناعية الى حد ما ، عاد على المدينة بفوائد جزيلة عادت عليهـا بالخير دون ان نسقط مـــن حسابنا التقدم الذي لا يمكن تجاهله والذي اصاب المصالح العامة وتناول المهـــن الحرة . الا ان حركة التكييف فيها جاءت على غير ما يرام . فقد بقي مظهرها الخارجي على ما عهدناه من قبل والملامح الجديدة التي اقتبستها تمت لها بسرعة وبشكل تعوزه اللباقة والبراعة .

ايانا ، مع ذلك ، والظن بسيطرة المدينة . فالنمو الذي حققته المدينة في انكلترا حـــري بكل تقدير واهتمام . هنالك في انكلترا ، بقطع النظر عن المدن السبع – باستثناء لندن – التي تجاوز عدد السكان في كل منها ١٠٠،٠٠٠ نسمة ، ١٨ مدينة أخرى بدلاً من سبع ، تجاوز عدد السكان في كل واحدة منها ٥٠،٠٠٠ ، فالعاصمة قفز عدد سكانها من ٩٨٨،٠٠٠ الى ٢،٢٦٣،٠٠٠ نسمة . وغلاسكو من ٧٧،٠٠٠ الى ٣٢٩،٠٠٠ نسمة . وبرمنغهام من ٧١،٠٠٠ الى ٢٣٢،٠٠٠ نسمة . ومنشستر وضاحيتها سالفورد من ٩٥،٠٠٠ الى ٤٠١،٠٠٠ نسمة . أمـــا في الولايات المتحدة فقد قفز عدد سكان مدينة نيويورك من ٨٠،٠٠٠ الى ٥٠٠،٠٠٠ نسمة ، وفيلادلفيا من ٤٠،٠٠٠ الى ١٢٠ الف نسمة ، بينما مدينة اورليانز الجديدة وسنسناتي وبوسطن وبلطيمور لا يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠،٠٠٠ نسمة . أما البر الاوروبي ، فالنمو المدني ليس فيه مـــا يصدم الحواس اذ أن هذا النمو اقتصر على العواصم دون سواها بينما لا تتطور رومـــا وبعض المراكز الصناعية سوى القليل . فباريس التي تضاعف عدد سكانها اذ انه قفز من ٥٤٨،٠٠٠ الى

١٬٠٥٣٬٠٠٠ ، تأتي بعيداً في الطليعة . فالمدينة التي يتراوح عدد سكانها اجمالاً بين عشرة آلاف وثلاثين الفاً تتوفر لها النسبة التي تلائم مثل هذا المجتمع البشري كما تتفق ووسائل الانتقال والتنقل الرئيسية التي تنعم بها وهي السير على الاقدام .

أما من حيث النشاط التجاري والصناعي فلم يأت بأي إثر ملحوظ للتطور. فالحياة في المدينة هي استمرار في وتيرة واحدة واطار واحد يتسم بالجمود الملازم لطابعه القديم . وعلى هذا تبدث المدن الاسبانيه لتيوفيل غوتيه ساحرة فاتنـــة لا تتحرك . فمدينة بورغوس الفخورة حيث الصعلوك يتدثر بعباءته بوقار بحيث تخاله امبراطوراً متجلبباً بالارجوان، ومدينة فالادوليه والتي بامكانها أن تستوعب ٢٠٠٬٠٠٠ نسمة ، لا تعد غير ٢٠٬٠٠٠ نسمة ، فتبدو نظيفة ، هادئـة ، جميلة تبشرنا طوالعها بقرب الشرق . ومدريد نفسها ببيوتها المبنية من روافد الخشب والقرميد أو من قوالب الشيد ، ومدينة طليطلة حيث المنازل لها مظاهر الدير والسجن والحصن وأحياناً الحريم ، بعد أن تعرف أن الاسلام مر من هنا ، وغرناطة التي تبدو موزعة بين الطراز العربي والطراز الغوطي ، حيث « قباب الكنائس تواكب مآذن الجوامع » ، بينما تبدو قرطبة اكـثر طابعاً افريقياً من أي بلد آخر في الاندلس كلها . ففي هذه الرحلة يقوم بها غوتيه عام ١٨٤٠ الى الاندلس لا نرى فيها شيئاً ينبىء من قريب أو بعيد بطـــابع القرن التاسع عشر البورجوازي والعمالي .

فالمدينة القديمة تحشر نفسها داخل اسوار نصف متهدمة تتراكم فيها الحوانيت والدكاكين كما تتراكب منازل السكن فيها بعضاً فوق بعض . فهي تستوعب من السكان اقصى مـــا تستطيع استيعابه ، ولم يوضع لها أية خطة أو تخطيط ينظم امتدادها وتوسعها في المستقبل . والحـــد الفاصل بين المدينة والريف يرفرف فوق قرية أودسكرة برزت من الارض استجابة لمقتضيات النقل . فمدن برمنغهام ومنشستر وليفربول تثير الدهش في نفس المسافر بعد أن يرى كيف أن نواتها القديمة توارت بين ما نشأ فيها من أرباض وضواح واسعة لم تلبث أن غلبت عليها الجدة بما تم لها من اتساع وبما توفر فيها من خدمات تؤمنها مؤسسات مدنية ، كما يشهد ميشليه على ذلك : فالطريق بين روشدايل وليفربول أصبحت كناية عن شارع طويل تقوم على جـــوانبه بيوت ومساكن تتعادل ارتفاعاً وعرضاً ولوناً . وهذا التماثل أو التشاكل لا يلبث أن يبعث في النفس السأم والملل . « بينما مدينة ليدس ، اكبر مدن النسيج في انكلترا تفترش بشكل مـــدرج المرتفعات المطلة على النهر كأنها تزهد في السهل لا تنزل اليه الا لماماً، فتبدو وكأنها قفير نحل وقد ارتفعت مداخنها الضخمة في الجو أشبه ما تكون بمسلات فرعونية تنفث دخانها الاسود فينعقد قباباً قاتماً يغطي كاتدرائيتها » .

فانكلترا هي البلد الوحيد في اوروبا تقريباً حيث نرى المساكن في لندن وفي بعض المدن الصناعية مبنية بالقرميد ومن طراز الـ *Cottage* ، ينبئك منظرها الخارجـــي عن طلوع العصر

الصناعي في البلاد. والمعامل لا تقوم في الريف بل بالقرب من الاحياء القديمة على الغالب، وأحياناً تختلط بها، كلما قام في احيائها مساحات تتسع لبناء المصنع أو المشغل، كما انه من مصلحة الدكاكين والمخازن أن تقوم في حركة المرور. ومن بعض نتائج هذا الوضع أن البورجوازية وأبناء طبقة الشعب يبقون على مقربة بعضهم من البعض. فلا يبتعدون كثيراً عن أماكن عملهم، مع العلم أن هذا التمركز يجد فقراء الحال بينهم على السكنى في مآو واكواخ يكاد لا ينفذ الى داخلها الهواء ولا النور. ومع ذلك فمن النادر جداً ان تخلو مدينة ما من احياء جميلة فخمة المباني يبدو على ساكنيها الثراء، درجوا على اعدادها وتهيئتها منذ أواخر الاجيال الوسطى أو بفضل هبات أو وقوفات تعود الى القرن الثامن عشر؛ اذ أن جانباً من البورجوازية الثرية والارستوقراطية تسكن قصوراً خاصة بها أقيمت لهم على جنبات الشوارع الرئيسية، حولها ساحات واسعة مسوّرة يتألف من مجموعها أحياء وحارات رتيبة، تكشف بمظهرها هذه الفوضى والضوضاء المخيمة على الاحياء الشعبية، وعلى الاحياء التجارية. وقد تكاثر عدد الاثرياء الذين راحوا يبنون لهم منازل كبيرة تتوفر فيها أسباب الراحة والرفاه. ومع ذلك هنالك نزعة تبدو في انكلترا أشد منها في أي بلد آخر على القارة، الى اقامة مبان سكنية للاستثمار، لم تلبث أن تصبح الطابع الذي يميز المدن الحديثة.

فقد جمعت لندن بين حي المدينة، محور رجال المال والاعمال، وبين حي وستمنستر بحي تجاري يعج بالنشاط ووسعت مرفأها وأرصفتها الى ما وراء جسر البرج وغطت السهل المترامي أمامها بالوف المنازل المتماثلة شكلاً كما شغلت مساحات واسعة من الريف.

أما باريس فبالرغم من أن المزارعين أقاموا حولها نطاقاً من المزارع والبساتين قبل أن ترتفع في ضواحيها التحصينات العسكرية التي أمر الرئيس تيير باقامتها فلا تزال مدينة سحر وفتنة، مقصد كل من لم يرها، واليها تتجه الانظار، تحمل الخير والشر (وفقاً للأقدار والحظوظ) الى ساكنيها، وتخلف الأسف والغصة في قلب من يغادرها بعد ان سكنها ردحاً من الدهر. فالسكان يزدادون كثافة في القلب و«الماريه» وفي ضاحية سانت انطوان. فاذا ما راح ذوو اليسر والثروة من أبنائها يطلبون الهواء الطلق باتجاه الغرب، راح الشغيلة من سكانها يحتشدون قريباً من مكان عملهم. وهكذا راح فريدريك سوليبه يصف لنا «كيف ان سكان المدينة يندفعون بكليتهم ايام الآحاد وفي عطلاتهم، الى الخارج بحثاً عن الهواء النقي، مخترقين الابواب والمنافذ».

الا ان معظم المدن لا تزال تبدي طابعها الريفي لما عليه من صغر الحجم. فقد كتبت جريدة برمنغهام عام ١٨٢١ تصف لنا كيف ان الناس في الريف يقفون مشدوهين أمام منظر الواجهات وهم متراصون، يخشون ان يقعوا تحت عربات الجر وعربات النقل التي تتخطى الارصفة غالباً نظراً لما كانت عليه الشوارع من ضيق، بينما الجزارون وتجار الخيل يساومون في جدل لا ينتهي، الفلاحين والمزارعين بشأن قطعان الماشية التي تغص بها الازقة. وتحتل الجانب الاكبر من جادة

الطريق ، مع ما عليها من أسراب الدجاج، وقطعان الخنازير غادية رائحة بحرية ،تامـــة بينما يتدافع صبيان الازقة ويتراشقون بالبيض الفاسد وكتل الوحل والزبـل ، هذا يكدش رغيفه ممسكاً به بين يديه بينما الكلاب في نباح لا ينقطع حبله والمستعطون يملأون الشوارع . وما أن ينهمر المطر مدراراً حتى تستحيل الأزقة والشوارع بركاً من الوحل والمغاصات. فالوحل يغطي برمنغهام كما يغطي غرينوبل ، هذه المدينة « النتنة» كما ينعتها ستندال. ومثل هذا الوضع يجعل برودون يتململ قائلاً : « ترى جيداً انه يكفيني ما تعثرت به طوال حياتي من أوحال ليون ! يا لها من مدينة قذرة ! عسى ألا يتحول عدم الاكتراث بهندامي، هذه التهمة التي يلصقونها بي، الى اتهامي بالاوساخ . فكيف النجاة من هذه الحمأة ، ومن هذه الاقذار التي لا حصر لها ؟ ليس في المدينة من دورات مائية جارية : فالماء ينقل على الظهور واكتاف الحمالين ، وليس من مجارير لتصريف القاذورات والمياه الملوثة . فالقذارة والمرض يسيران دوماً جنباً الى جنب » .

وعندما تكون المدينة صغيرة ، تشعر وكأن الريف يسحقها سحقاً . فما هي سيدان ، هذه المدينة القديمة ،المحصنة التي ماتكاد تعطى فيها اشارة اطفاء النور حتى تقفل منها الابواب. هي عبارة عن شبكة من الازقة الضيقة المعتمة حيث تكثر الحفر والاخاديد المليئة بالمياه الآسنة تفح منها الروائح الكريهة ، سكانها عمال وشغيلة يعملون في صناعة النسيج ، يروّحون عن نفوسهم في هذه الاحياء والحارات المحيطة بالبلدة او يعتنون بحدائقهم وبساتينهم . لنضرب مثلاً على ذلك بلدة سان ديزييه التي كان لها من السكان ، عام ١٨٤٦ نحو من ٧٠٠٠ نسمة ، ١٣٪ منهم يعملون في زراعة الكرمة ، و ١٩٪ عمال مياومون ، و ٧٪ يعملون في الحـدادة . فالكرامـون يقطنون أكواخاً في ضاحية جيني ، ثم يليهم باتجاه الوادي البحارة والمتعاشون من البحر . كما يسكن في ضاحيـة نو الحـــوذية وسائقو العربات وصانعوهــا ، والبيطريون والمنجـدون والحمـــالون والباعة الجوالة. ويقوم مقابلهم بناة السفن والشخاتير بينما يتوزع الحدادون على مربعات سكنية لا يزيد عدد سكان المربع الواحد ، على مائة نسمة . أما ابناء البورجوازية ، فقد سيطروا على الشوارع القائمة في وسط المدينة ، بينهم بعض اصحاب الدكاكين ، وبعض المحامين والملاكـين . وهذا الحي هو أحسن بناء الا انه قليل السكان اذ لا يوجد فيه اكثر من ١٧٠٠ شخص لا غير .

ومدن العالم الجديد لا ماضي لها ولا تقاليد،ليس فيهاما يلفت النظر سوى اتساعها ورحبها ، « فشوارع مدن الاتحاد ، كبيرة كانت أو صغيرة ، تبدو مستقيمة الزوايا وعريضة . ولشوارع فيلادلفيا عرض كبير يستلفت الانتباه ، تنتصب الاشجار من كلا جانبيها ، كما يروي خبر ذلك عاملان فرنسيان . « هنالك منازل عديدة ، مغطاة واجهاتها بالمرمر الابيض ، والحركة في هذه المدن ناشطة قوية . ترى في نيويورك الى جانب العربات التي تجرها الجياد، حافلات تسير على خطوط حديدية ، تتسع الواحدة لأكثر من ١٠٠ راكب بكل ارتياح . صحيح ان عدداً كبيراً من هذه المدن يبدو حقير المنظر . ففي شوارع بوسطن وازقتها كانت قطعان الخنازير الى وقت

قريب تسرح فيها وتمرح وتتكفل بالقضاء على النفايات والاوساخ المتراكمة في مدن الغرب التي تبدو وكأنها ورش لا حدود لها ولا سدود . الا ان هذه المدن كالفطر ، تنمو بسرعة كلية ، وتبشر بضخامتها الهندسية بقرب طلوع هندسة المدن الحديثة .

البورجوازي في عهد الملك لويس فيليب

فالبورجوازية ماضية في تصعيدها . فهي التي تفرض الذوق وتعطي القياس في كل بلدان الغرب . ومما هو حري بالملاحظة ان الشعب فرض ذوقه في كل ما يتعلق بالهندام واللباس. فالسروال هو الذي يتحكم بالذوق والجة في طريقها الى الزوال. فالبورجوازي يتميز عن السوقة بالريدنغوت وزيه وقبعته، بينما يرتدي الاخير سترة. وهذا البورجوازي ينتعل السكربينة أو البابوج الخفيف او حذاء ناعماً ويضع حول عنقه عقدة كبيرة . واما سيدة المجتمع الراقي ، فهي تتفنن في تأمين الانسجام والتناغي في كل ما يتصل بملابسها وزينتها مجاراة منها للذوق الرومنطيقي . فهي تحلم دوماً بالفساتين المطفطفة الاكمام والاردان وتكثر من استخدام الدانتيلا والشرائط، ولا تستغني عن أكمام الفرو ، كما انها تتفنن في عقص شعرها وتقصيبه وتحليته . فالهندام الخارجي هو الذي يدل على هوية صاحبه : « أخواجا » هو أم « عقيلة » ام « كريمة » من ابناء العصر ؟

فالمال وحده العنصر الذي يحدد مركز الفرد ومكانه في هذه البورجوازية وداخلها . فالمال وحده يوليه المركز الاجتماعي والاحترام اللائق . في قمة السلم الاجتماعي نرى أرباب البذخ من اصحاب المصارف، كما يحتل الدركة السفلى منه البقال او العطار « الحشو الذي لا بد منه ولا غنى عنه للحياة الاجتماعية » كما يسميه بلزاك. ويتوزع بين مختلف درجات السلم كل من تعاطى التجارة أو حاز عقاراً له طابع صناعي . وهكذا ترى القوم في بلدتي بارمن وابرفيلد ، كما يؤكد انجلس « غارقين بين الارقام والاعداد في عمليات حسابية لا تنتهي بحماس؛ وتكالب لا نظير لها . وفي ساعات معينة، في المساء يخرجون لقضاء السهرة فيلتهون بلعب الورق ، ويبحثون في امور السياسة العارضة ويدخنون ليعودوا الى منازلهم عند الساعة التاسعة ليلاً ».

عاملان يوليان المرء أهميته وشأنه : الوظيفة العامة والمهنة الحرة . ففي بلدان مثل فرنسا وانكلترا والولايات المتحدة الاميركية ، ليس ما يحد من اطماع الفرد او يصد من طموحه ومن تطلعه الى المراكز الكبرى في خدمة الدولة . غير ان ابناء طبقة النبلاء من كلا جانبي المانش يكافحون للاحتفاظ بالمراكز العليا : في الجيش والسلك الدبلوماسي . ففي أوروبا الوسطى وروسيا ، لا ترقى العامة من الناس الى مراتب الادارة الا بفضل إنعام خاص من أولي الامر او بفضل مواهب وكفاءات خاصة تفرّد صاحبها وتميزه . الا ان ابواب القضاء مفتوحة على مصراعيها امام ابناء البورجوازية . فالطبيب سواء وجد في المدينة او في الريف، هو في مستوى النبيل منزلة ومقاماً يتعادل مع أصحاب العقارات الكبيرة . « فقد اصبح – كما يؤكد بلزاك – من دعائم الحضارة والمجتمع » . ان ما يحمله في الصدر من علم يوليه شأناً عالياً ينهض بأطماعه السياسية .

فالعيش على النهج البورجوازي ، يقتضي له منزلاً تتوفر فيه كل التسهيلات ووسائل تأمين التعليم والتربية للاولاد ، وتأمين بائنة للبنات ، هذا فيما يختص بالرجال . اما عند المرأة ربــة المنزل ، فأن تزور وان تزار . هنالك درجات متفاوتة في الوضع الاجتماعي . ففي مدينة نانت مثلاً كانوا يقسمون المجتمع عام ١٨٣٥ الى ٨ طبقات او درجات في السلم البورجوازي وفقاً لنهج الحياة ، اعلاها مرتبة من يبلغ ريعه السنوي ١٢،٠٠٠ فرنك، يستطيع معه ان يدفع ١٠٠٠ – ١٢٠٠ فرنك ايجاراً في السنة لمنزله ، وعنده عربة وحوذي واسطبل . اما من تراوح ريعــه السنوي بين ١٨٠٠ – ٢٠٠٠ فرنك فهو من صغار البورجوازيين. باستطاعة البعض ان يرتادوا المدن المائية ويختلفوا الى المسابح التي اخذت تظهر هنا وهنالك، كما ان البعض الآخر يقنع بارتياد المتنزّهات القائمة على مقربة منهم . والكل يتوق لارتياد دور التمثيل ودور اللهو . ان معظم اصحاب معامل النسيج وكبار التجار في مدينة ليل من آل سكريف وآل ماتون مثلاً ، لهم صروحهم ودوراتهم الباذخة . وبعد انسحابهم من حياة العمل نرى اشخاصاً امثال كولمبيه – بتّور واغاش دسمد يحيون حياة بذخ اصحاب القصور .

وبفضل الدور الذي مثله تيير في مجـالات الصحافة والادب والسياسة ، ارتقى حتى اصبح وزيراً للملك لويس فيليب ، وهي وظيفة كانت تدر عليه مرتباً يتراوح بين ١٠٠ الف و ١٢٠ الف فرنك في السنة . وقد در عليه كتابه « تاريخ الثورة » مبلغ ٥٠ الف فرنك ودخل عضواً في مجلس ادارة جريدة « الدستور » وبذلك عاد اليه قسم من الارباح . وعندما تزوج عام ١٨٣٣ انفق على فرش دارته عشرة آلاف فرنك . وكان معه نقداً ٦٠ ألف فرنك وملك قصراً في شارع سان جورج باعه فيما بعد بمـائة الف فرنك كما ملك منزلاً في مدينة اكس . وقد كلف جهاز عروسه عشرين الف فرنك وجلبت معها بائنة تقدر بثلاثمـائة الف فرنك تدر في السنة ريعاً صافياً قيمته ١٥ الف فرنك . وتراه يشتري الخيل والعربات ويجمع التحف والكتب النادرة ويسافر محوطاً بمظاهر الابهة ويتعاطى المضاربة بالعقارات .

وهذا النموذج الممثل بجوزف برودوم وجيروم باتورو وقيصر بيروتو الذي كان يمثل الاناقة ويتحدث عن الشرف وينادي بالانسانية المثالية والذي كان يزعم انه يخشى الشعب ، يدعي انه من الشعب ويتبجح بأنه يتكلم باسم الشعب ، هو نفسه سبب نفرة وامتعاض لهؤلاء الذين يتهمونه في ذوقه الفني والتبجح بنزاهة الضمير والوجدان، ويهزؤون من رضاه عن نفسه . وهذا النموذج المثالي يبدو على أتمه في هذه الصورة التي وضعها الرسام النغر لبرتن الاب مؤسس جريدة الديبا. فصوره لنا غارقاً في كرسيه الكبير ويداه مسبلتان على ركبتيه ، شامخاً بأنظاره ، معتداً بنفسه وستبرز لنا صورته من جديد بعد عام ١٨٤٨ ينصب ويجهد ، ويشيد فريتاغ بذكراه في كتابه المعروف *Droit et avoir* .

في فجر هذا العصر الصناعي الذي تتجه اليه البورجوازية بخطى حثيثة ، تطلع علينـــا الرومنطيقية ، لتحرر قوى الاستقلال بعد ان عقلها النقد الاجتماعي وكبتها عندما استبطر شأنه .

الفصل الخامس

الحركة الرومنطيقية
وعودة الشرعية الى أوروبا

الروح الرومنطيقية
بين جيل وآخر

أي متى ظهرت ، يا ترى ، الحركة الرومنطيقية الـتي تجلت بوضوح وبرزت على أتمها في مستهل القرن التاسع عشر ؟ هل منذ عام ١٧٧٧ ، بعد ان شن كلنجر ، في هذه السنة بالذات، هجومه على المذهب العقلي، في مأساته الموسومة : « *Sturm und Drang* » (عاصفة وصراع) التي ينم عنوانهـا عن زخم التيار واندفاعه الشديد ، او منذ عام ١٧٧٣ ، تاريخ وصول «غلوك» الى باريس ؟ فقد تخلى غلوك عن النهج الايطالي وسار على طريق « رامو » رامياً من وراء ذلك الى اخضاع الموسيقى للشعر وادخال الطبيعة في المأساة الموسيقية . وقد مهد رامو في مسرحيته *Les Indes Galantes* لطلوع برليوز كما انه جـاء بالدليل على ان مؤلفات موزارت تتنزى بالزي الجديد الذي رسخ وتوطد في النفوس .

ففي الحقبة التي تلت العاصفة الثورية والنابوليونية مباشرة ، برز للعيان من جهة ، الشعور بالقلق ، ومن جهة أخرى التمرد على الحياة الرتيبة التي تشوبها الروح البورجوازية . ولذا بـدا هذا الشعور متشائماً على شيء من مظاهر التدين ، ومن الحنين الى الوطن المألوف . فقد اخذ من الشعوبية النزعة نحو النظام الاجتماعي ، وقد فُتِنت الشبيبة البورجوازية بهذه النزعة الجديـدة واقبلت عليها بشغف ، فجاءت الاستجابة عندها وفقاً لمشاغلها الخاصة ، وبذلك اصبحت الروح ذات نزعة متحررة ووطنية الاتجاه ، تتجه تحت تأثير العاطفة ، شيئاً فشيئاً ، نحو مثالية من الاخوة الديموقراطية جاءت بلسماً خففت نوعاً ما من أوصاب البروليتارية وآلامها . وهكذا لن تلبث المثالية ان التقت بالتفاؤلية التي ميزت العصر الماضي . فهي في نظر ستندال الذي عايشها: « عامل لا يبصر ولا يسمع في خدمة مستقبل غامض » .

بين الاتباعية والابداعية : رضع غوتيه وبيتهوفن من بعده

وصف دليكلوز في يومياته : الابداعية (الرومنطيقية) « بالحواء» مع العلم ان هذه الحركة انطلقت تحت مظـــاهر الاتباعية او الكلاسيكية وتطورت تحت جناحيها . والفنانان دافيد وأنغر ليسا بمنفردين . فالجماهير التي وقفت مشدوهة امام تمثال « تأليه هوميروس» والتي قابلت بتصفيق حاد طالما ، يحتفظ بمثل هذه الحماسة لراشيل . الا ان الفكرة التي ارتسمت في الاذهان عن التاريخ القديم برزت اقل مطابقة للصورة المألوفة او الصورة التقليدية . وقـــد اطلت علينا رؤى عن الحضارتين الاغريقية والرومانية ، ألصق بالتاريخ واعلق بالواقع التاريخي واخذت تبدو شيئاً فشيئاً الصورة الادبية التي علقت في الخواطر عن بشرية خالدة . ومما له دلالة خاصة بهذه الحركة هو اكتشاف شكسبير بعد جهل العالم له ، فأنزله فولتير منه منزلة خــاصة ، واشاد به لسنغ عالياً وترجمه شليغل وتيك وادخله كارامزين الى روسيا فأدخل الغبطة على روح بوشكين . وقصة فوست التي دخلت المسرح على يد مارلو احد معاصري شكسبير ، حملت لسنغ على معالجتها وتدبرها قبل ان اصبحت موضوع اهتمام غوتيه .

فالتحولات التي خضع لها فوست انما تدل على تطور الفكرة عند غوتيه . فصورة فوست البدائية رمزت اليها صورة برومونية المتحمس في رواية *Sturn - Drang* الى آخـــر تجسد من تجسداته العديدة الحلولية الطابع والصيغـة مروراً بفوست المنـاضل الذي يهوي الى الارض . ففي هذه القصة رمز للبحث عن الحقيقة ، عن طريق الثورة اولاً ، ثم عن طريق التكامـــل المتناغي للقوى العقلية المنسجمة . فمبدع فوست وخالقه هو هذا الاديب الاولمبي الخـلاق الذي يهيمن من عُلٍ على الظروف والصروف ويتحكم بها بحيث تتم له المطـــابقة ويحصل التلسيب بين افكاره وبين الوظائف التي شغلها في بلاط ويمار ، وهذا التجريد الموسوعي العقلاني الذي يسمى وراء البحث العلمي محمولاً على اجنحة التفاؤل البشري . فهو يطري الى ابعد حد هذه الحرية التي يجود ابطاله بأرواحهم دونها ، هؤلاء الابطال المتمثلون بـ : غوتز واغمونت وفوست ، ويؤمن ايماناً عميقاً برسالة الشاعر . وسيبقى في نهاية الامر الشاعر الكلاسيكي الامثل في الادب الالماني ، بما له من انشاء جزل ولغة سامية .

يتمتع بتهوفن بشخصية لا ترام ، كما يقول فيه غوتيه نفسه . فقـــد توفرت له خصائص وسمات مفردة : عنفوان شباب لم يلبث ان استحال نزعة قوية تدفعه نحو العظمة الوقور ، ومفهوم اكمل للاثر الفني بوصفه منجاة من عاطفة الحب المشبوبة ، والسمي الرصـين بحثاً عن الوحدة وراء التناقض ، بين القوى الخيرة ، وقوى الشر ، هذا التناقض الارستوقراطي الطابع هنا ، والشعبي الجماهيري ، هناك ، الذي يذكرنا بأبحاث جان جاك روسو في انعزاليته الاجتماعية في ما جمع بينهما ووحد من قالب كلاسيكي ، والكلاسيكية الموسيقية الحقة التي عمر بها الجو الذي استنشقه باخ وهندل . فالمعجزة البيتهوفنية تقوم في ان سيد بون نفخ روحاً جديدة في الانغام دون

'ن يبدل بشيء في الفنون . فبعد ان وسع من الاركسة وباعتماده على المِعزف كوسيلة اولى في الانشاء والتنغيم ، وعن طريق ادخاله الحزن أو الشجى في التعبير الشخصي ، فتح الباب على مصراعيه امام المدرسة الابداعية الرومنطيقية . فالكمال الفني الذي بلغه موزارت قد يُدخل اليأس على نفوس الشباب . اما السمو الفني الذي حققه بيتهوفن ، فيبعث النشاط والتجدد بعد ان حرر الفن من ربقة التقاليد .

الرومنطيقي وحلمه الدفين

يحلو لهذا الرومنطيقي ان يلفت اليه الانظار بطريقة أو بأخرى من طرائقه الغريبة كالمظهر الخارجي والذوق ، والمزاج ، والطبع . فهندامه او زيه « مدروس الى اقصى حد » كما يقول فيه تيوفيل غوتيه . فقد سبق للبون غوزلان ووضع لنا عنه صورة هذه بعض قسماتها المميزة : بزة رسمية ، سوداء اللون مزررة مما اتصل بالبطن حتى الشريان السباتي ، وياقة فضفاضة مسترخية ، الى سحنة ممتقعة اللون ، مستديرة ، عليها شيء من اللامبالاة ، لون وجهه ينم عن القلق المنبىء بموت قريب ، اذ عليه ان يحيى حياة ملؤها العنف والنضال او يزول من الوجود . وبالفعل فاللورد بيرون ، هذا اللورد الذي صدمه الواقع فجاء مزيجاً من المرارة والقحة عبر عن الطريقة النرسيسية التي لا تتوقع شيئاً من البشر ، وذلك قبل ان يجود بنفسه بكبر في مدينة مسولونغي ؛ وساندور بتوفي يُقتل في ساعة الوغى ، في معركة سجسغار ، عام ١٨٤٩ ، وحوادث البراز تخترم بشكل مبكر حياة بوشكين وله من العمر ٣٧ سنة ، كما تودي بحياة ليرمونتيف وهو ابن ٢٧ سنة ، وغالوا ، هذا العالم صاحب الفكر الرياضي ، يموت وهو ابن ٢١ سنة . وها هو كليست يقتل عشيقته ثم يحطم رأسه امام جثمانها ؛ وجيرار دي نرفال يشنق نفسه في احد الازقة ؛ والممثل نورّي يقذف بنفسه من النافذة خلاصاً من الحياة . واذا اتفق وقام ، انتهت حياته بالجنون ، او الادمان على الكحول ، امثال لينو وشومان وبو ، فهناك غيرهم امثال نوفاليس وشيلي وكيتس وليوباردي وشوبرت وشوبان وديلاكروا وابيل تتخاطفهم حوادث المرض والعوز والبؤس واليأس . كم هو كبير عدد هؤلاء الامراء في هذا العصر الذين يبدون كريشة في مهب الريح ، على شاكلة شارل البير ، وفريدريك غليوم الرابع ، ولويس الاول ملك بافاريا ، بينما لويس نابليون المصاب « بالنَّومشة » يعيش في احلامه ويؤمن بطالع نجمه .

ولما كان الفرد هو قسطاس نفسه وله نمطه الخاص في العيش ، راحت روح الثورة تدفعه للوقوف في وجه الاعراف والتقاليد المعمول بها فزقاقية اللغة وريشة ديلاكروا الثملة ، وموسيقى برليوز « الرهيبة ، المفزعة ، البركانية الاثر » ، كلها ذرائع ووسائل لاستشاطة البورجوازي وإثارته . فبيرون يستشيط غيظاً ضد التصنع والتزمت المغالي ، ورياء اللغة ودجل التعبير ، وبوشكين لا يتورع عن ابراز معايبه ونقائصه ، واوروز دوبين ، بارونة دوديفان تحتسي الـ *Punch* وتدخن السيكار ، وتظهر تارة بلباس الغندور المتأنق الانيق ،

وطوراً بلباس البوهيمي . « يعجبني ذوو الطبائع والغرائز الشاذة ، واني لواحـــد منهم » يصارحنا بلزاك في مساراته جورج صاند .

من يستطيع على شاكلة برليوز ، ان يسمر الهلع بواسطة موسيقـــاه الرهيبة ، في نفوس مستمعيه ، ومن يستطيـــع على شاكلة جريكو ، ان يجمع جثث الموتى في مرسمه ، ليؤلف لنا هذه القطعة الموسيقية المعروفة بـ « طوف المدوزة » ، هؤلاء بالذات يذهبون فريسة التأمـــل والتفكير . هذا ما يمتدحه نوفاليس بخواء النفس وهذا هو الملّس عند هوفمان وتيك ، وهذه هي رائحة الضباب الذي يغشى المقابر ، مطلب غسبار ـ دافيد ـ فريدريك ، ومنظر المستنقع الآسن ومنجم الفحم الذي يجتذب اليه أنيت دي دروست ـ هولشف ؛ هذا هـو لويس سولر الذي يجد لذته ومتعته المفضلة « واقفاً امام قــبر » او في دير حيث يسود الصمت والسكون او امام صرح قديم منعزل » ، على ضوء « قمر ممتقع اللون » ، هذا القمر الذي يوحـــي لاندرسن اقاصيص غريبة عذبة . فالصورة التي خلفها لنا هوغو تعبر عن اللذة التي تجيش في صدر من يرزح تحت الكابوس او ما يوحي الشعور بالضغط المرهق. معبود كورو، رسام المناظر المشهور، هو ان تكتحل عيناه بهذا الوشاح المهفهف الذي يتألف من هذا الضباب الفضي ، الذي يترك الاشياء قلقة ، لا تستقر على وضع او حال . هنالك من ينقطع للرحلة والسفر بروح طامّة او بروح ملول كما ان البعض يؤثر المشاهد الهادئة التي تكثر بين الناس داخل أسرهم ، ومعظمهم يحاول ان يجد في الطبيعة سلواه وعزاءه. فاذا ما رهب فينيي برودة هذه الام الشرسة الطباع، واذا ما نقم عليها ليوباردي لامبالاتها وعدم اكتراثها لهذه البشرية البائسة ، واذا مـــا غاص لامرتين في احشائها واذا ما نظر اليها ميشليه كما هي على علاتها ، بعجرها وبجرها ، وهو يقول : مـــا من شيء في الطبيعة لا يثير فيّ الانفعالات ، فأنا اكرهها واعبدها سواء بسواء ، كما امقت المرأة واعبدها » . ولما كان الزواج يقيد صاحبه ويفرض عليه شيئـــاً من العبودية ، فأنا احتقره واسخر منـــه ، فالاتحاد البورجوازي يجب الا يقوم الا على العاطفة التي يجب ان تتمتع بكل حرية ، وها هو غريلبرسر وهيبل يجعلان من المرأة بطلة مسرحياتهم التي تذكرنا عن قريب بمسرحية راسين .

البيئة وأدوات التعبير

هذه الشعوبية المستنيرة، الارستوقراطية الطابع، والطبقة البورجوازية العليا اللتان اتخذتا من فرنـــا موطناً لها ومستقراً ، لم تختفيـــا قط من الوجود . فالصالونات ونوادي المجتمع الراقي ونصراء الادب والفنانين من الامراء ، لم تتمكن الثورة الكبرى من القضاء عليها او ان تستأصل شأفتها من البلاد. فاذا ما سلمنا جدلا بأن فرنسا خسرت كثيراً في هذه العملية، فسيطرتها الفكرية لم تتأثر كثيراً من هذه المغامرة الكـبرى . من المعروف باتفاق الآراء ، ان باريس هي مدينة الذوق الرفيع ومقياس الشهرة الواسعة . الا ان الظروف لم تعد تماماً كما كانت من قبل. فقد مرت بسماء فرنسا عاصفة هوجاء ، والمستقبل يبدو عندها وكأنه على كف عفريت . ومن جهة اخرى، فالخطل الذي ذهبت اليه المغامرة النابوليونية

والحركة اليعقوبية التي سبقتها ، تسببت في ردة فعل هوجاء ضد الروح الفرنسية ، كما عاد كل ذلك على القومية الفرنسية بمثل هذا الخسف .

ولذا فليس بعجيب قط ان يصاب في الصميم هذا الاتساق أو الانسجـــام «الفلسفي » الذي طبع النماذج الفرنسية وميزها في القرن الثامن عشر . وعندمـــا كان المهندسون والنقاشون ، والرسامون ، والمذوقون يقومون بعملية الخلق والابداع كل في فنه ، كانوا كلهـم يستوحون النماذج الفرنسية ويستلهمونها . ولذا لا نرى في الفن هندســـة رومنطيقية . فالارستوقراطي والبورجوازي الذي يبتني له منزلا يستوحي ما وقع تحت انظاره من نماذج قائمة ، عندمـــا لا يرغبون في بعث الطراز القوطي . فالرغبة الجنونية بتقليد كل ما هو انكليزي فرشت بلدان القارة بالحدائق والجنان التي تبدي طابع الجزيرة المزدانة بالخرائب او الآثار المزيفة . وهكذا زالت من الوجود النقوش والمحفورات – باستثناء « رود » الذي يؤلف وحده خروجاً على القاعدة . ولذا راح العاملون في النقش ، يتجهون على الغالب ، نحو الموضوعات التي يعالجها النقاشون عادة ، مثال ذلك الرسام باري المتخصص برسم الحيوانات والذي لقب بحق « ميكالو انجـــلو الكواسر » ، وأفيد انجيه المتخصص برسم الاشخاص ، ودانتان الابن المتخصص بالرسم الهزلي او الكاريكاتور . ففي الوقت الذي يتوارى فيه فن الرسم التشكيلي عن المسرح ، يطل علينـــا فن التصوير على مسند ويزدهر بشكل لم يكن ليتوقعه احد .

وهذا النوع الذي يأتلف كما يجب ، والهوى او الرغبة ، كما يطابـــق معارض الصالونات والمتاحف ، والذي يصف بدقة كلية ، هــذه اللخبطة العجيبة ، وهذه الفوضى المـاكرة المتقلبة باستمرار ، هذه الفوضى التي « توحي الغبطة » كما يؤكد بلزاك ، وتوحي السماجـات البشرية ، والهلع ، او توحي هذه الطبيعة الذاتية او الغنائية الموحشة او المعبرة عن سرائر النفس الدفينة ، فن شخصي يستمد كل قوته من اللون . ولذا كانت عناية أنغر بالرسم على نسبة صدق محـاربته للريشة الثملة .

كذلك تتوفر للموسيقى وسائل هائلة لتعبر عن انفعالات النفس وتثير الاخيلة . فهي تنبعث وتتجدد بالتأليف بين هذه الانغام والتعبير عن المبادىء والقواعد التي يقوم عليها ائتلاف الانغام وانسجامها . فهي تتوخى التنويع وتهدف للتأثير على القلب اكثر من تأثيرها على العقل . وهكذا يطل على الناس عهد المعزف الذي له من الايقاع المدوي ما لا يتوفر بعضه للبيانو القديم . فكبار صانعي المعازف امثال ايرارد وبلايل عملوا على انتشاره وجعله في كل منزل ، وفي متنـــاول البورجوازية الحديثة العهد . فالمعزف هو الآلة الموسيقية الفضلى لدى شومان وشوبان وليست . وجل ما يريده الموسيقاريون الكبار او يطمعون فيه من القيثارة مع بغانيني ، ومن الفيولونسيل والناي مع الآخرين ، هو الخلق الفني . وساكس ، رب الآلات الموسيقية النحاسية النافخة ، كما يسميه مايربير ، جدد الحياة وبعث النشاط في آلات النفـــخ وزاد عليها اختراعــــه الكبير

مثلا بالسكسفون .

فاذا ما ابرز الكونسرتو موهبة النبوغ الموسيقـــي ، فقد عقدوا الامـــل على القصائد الرومنطيقية المعروفة بـ *Leids* والتي تلائم تماماً بين النغم واللفظة لكي تعبر عن اعمق خوالج النفس البشرية ومشاعرها الدفينة . فموسيقى الحجرات المغلقة التي تتجه من عدد معـين من المستمعين تأتي ادنى مرتبة من المسرح الغنائي الذي طلع علينا بعهده الذهبي ، هذا المسرح الذي يعمـل في سبيله، العديد من المؤلفين واضعي نصوص الاوبرا . هذا المسرح الذي يفتر عن *Belcanto* وعن رقص جميل ميزته الكبرى قربه من افهام الجماهير . من هذه التواريخ المفردة روائع ويبر المسماة *Freischuty* عام ١٨٢١ ، و *Le muette de sorici* أحد آثار اوبير ، ١٨٢٣ ، ومقطوعـة « روبير العفريت » من تأليف ميير بيير عام١٨٣١ ، و«اليهودية » من وضع هاليفي عام ١٨٣٥ .

والمسرحية الرومنطيقية هي من نفس المعين والمصادر . فالعاطفة الجماعية تعتمد الحركـة والشعارات المثيرة وبكل ما يثير الحنان والشفقة . فالعاطفة الجماعية تجد فيها كما يجد المؤلف نفسه ما ينفعها . فهاهو هوغو يباشر معركة هرناني التي يكتب له فيهـا الفوز عام ١٨٣٠ ، كما ان مسرحيته « سقوط البورغراف » التي صدرت عام ١٨٤٣ جاءت تعلن للملأ ان ساعـات الرومنطيقية الكبرى قد ولت ومضت . من المفيد ان نلاحظ هنا ان في الوقت الذي تفقد فيه الاستدارة البيانية ، ما لها من سحر وفتنة ، كان الشعر الغنائي او الوجداني قـد اعطى معظم روائعه الادبية هذا الفن الذي يفرغ المرثاة الغنائية ، في القصيدة الفلسفية ، والذي عرف كيف يمازج بين المسارة والسرد الملحمي. فمنزلته من الادب منزلة الرسم من الفنون التشكيلية، لا حد لصوره وصيغه واشكاله كما لا حد قط لموضوعاته ، ويعبر بصورة ذاتية او شخصية ، أكان ذلك تعبيراً عن المشاعر الدفينة او تعبيراً صادقاً عن فكرة او خاطرة وجدانية .

فالرومنطيقي، بما له من اسلوب بيـــاني فخم يحول دون ابراز الحقيقة عنده ، بما لها من قوة ، سواء اراد تحلية الامور او تسويدها ، يستعمل بكل ما اوتي من قوة ، حتى ولو لم يكن شاعراً ، هذا الاسلوب التقني الجديد ، اعراباً عن سخريته وتهكمه . ففي الوقت الذي يتـاح فيه لشارليه ولرافيه الترويج لشخصية « الجندي المُمنّ » ، ولشخصية « العرّيــف الصغير » ، سلستين نوتويل تذويق مؤلفات هوغو وغوتيه واسكندر دوماس وتحليتها بالصور و الرسوم ، ولديكروا تحلية فوست لغوتيه ، عرفت الطباعة الحجرية (الليثوغرافيا) ان تؤمن لها ازدهار التصوير الهزلي .

ففي الوقت الذي اتاح فية فن الفكاهة عند الانكليز خلال شخصية بكوريك لديكنز ، وجعله نموذجاً لا يقل شهرة بشيء عن شخصية روبير ماكيه ، كما ابدعت الفكاهة الاميركية شخصية نيكربكر لواشنطون اروين ، نرى بلزاك من ناحيته ، يضع امامنا ، شخصيات ذات مفارقات متعاندة متضاربة ، فيهوي بالسوط على عابدي المال ، كما نرى سانت لوف يمد حملة النقد المعاصر بالنقد

الدقيق الذي كان بمثابة مرآة تنعكس على صفحتها ، كل المدرسة الرومنطيقية .

رومنطيقية رجعية المفعول

للتاريخ مدلول يعمل عميقاً في ربط الحاضر بالماضي . فقد سبق للقرن الثامن عشر ان وضع تفسيراً عقلانياً للتطور البشري دون ان يذكر بشيء المسألة التي طرحها بوسويه . فقد شدد كل من فيكو وهردر على هذه القوة التي توجه العالم ، حلولية هي عند الاول ، عضوية وخاصة بكل شعب ، عند الثاني ، اي ردة هجومية للاعقلانية[1] الى ان وقعت اذ ذاك الهزة العنيفة عام ١٧٨٩ التي استبدت بالفكر والمفكرين امثال بورك وجوزف دي مستر وبونالد الذين تسلحوا بدليل الديمومة ، حجة الكنائس والارستوقراطية . والتاريخ الذي يسير في ركاب العناية الربانية والسلطات المنوط بها امر المحافظة على الامن ، يتبنى هو نفسه فكرة الاستمرار والديمومة ، وبذلك ربط نفسه بهذه الاصول الرجعية .

وقد تكفلت المعرفة الواسعة والبحث عن العنصر الجمالي او الصورة الذهنية ، بالباقي . ليس من وجوب قط لرذل او التنكر لما جاء به اليونان واللاتين : فالنزعة الانسانية جاءت والحق يقال ، مثيرة ، مهيجة . ففي الحين الذي راح فيه نيبهور يكشف عما للتقليد الشعبي الشفهي من قوة عند تيت ليف ، نرى الاعجاب بالهيلينية يثير الهمم ويحرك المشاعر . ومع ذلك فالحركة الاستشراقية التي طلعت علينا ، والاعمال الوحشية المرعبة ، ونبش معالم الحضارة في كل من مصر وايران والهند ، كل ذلك وسع كثيراً من آفاق المعرفة البشرية ، حتى هذه النظريات الحدسية المتعلقة بالأصل او العرق الآري للشعوب الغربية ، هذه النظريات التي راودت الاذهان اذ ذاك ، لم تأت بأي فائدة للتراث الكلاسيكي لشعوب حوض البحر المتوسط . فالدروس التي استفدناها من آسيا وافريقيا اختبارات اكثر وشعوراً اعمق بالتقاليد . أفلم ينزع ديلاكروا الى ان يرى في الاسلام تكملة للحضارة الهيلينية او حصيلة هذا القران الذي تم بين الشرق والغرب ؟

فالكشف العظيم هو الكشف من الاجيال الوسطى . وسار شليغل في اعقاب لسنغ عندما هتف قائلاً : « ليل الاجيال الوسطى ؟ ليكن ، انما هو دليل متلألىء بالنجوم الزواهر . انها لحقبة عجيبة مدهشة ، كل ما فيها مشوق وأخاذ ، فاضلة ، ساذجة خصبة بالمعجزات والخوارق ، ليس اصغرها لعمري هذه التقوى المسيحية المستبدة بالنفوس ، وعندما يروح شاتوبريان يتغنى في كتابه « نبوغ المسيحية » بعودة الايمان الى البلاد على يد ابن الثورة وجنديها ، يحقق هذا كله بوصفه ارستوقراطياً محباً للجمال . اما هؤلاء الناصريون ، هؤلاء الرسامون ، المأخوذون بالجمال الديني ، فقد تبنوا الحياة الرهبانية . ثم من المانيا هذه التي ينعتها ماكنتوش بوصفه لها : « المعتوهة بصورة ميتافيزيقية » ، حيث لاقت الروح التقوية رواجاً عظيماً . وهذه الاقاصيص

---

(١) انظر تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٥٨٦ (الطبعة العربية) .

الاسطورية ، اقاصيص البطولة ، كالساغا السكندينافية والرواية البطولية الاسبانية المعروفة بـ romancero » ولا سيما الالمانية منها ، وفوست وغيرها من هذه القصص الشعبي المعروف باسم Maerchen واغنية رولان ، لاقت او ستلاقي شهرة منقطعة النظير ، بحيث تكاثرت وانتشرت الى حد بعيد اقاصيص الابوكريفا او المزيفة . وفي الوقت ذاته عرفت الروايات التاريخية ازدهاراً رائعاً . فقد أمدنا ولتر سكوت بانتظام مدهش بأقاصيص رسمت نهجاً خاصاً احتذوه في كل مكان وكان له اتباع ومريدون في كل قطر وصقع : روايات بطولة تبهر بألوانها الزاهية اظهرت ، على الاجيال ، احترامها للتقاليد والاعراف الشعبية . وهذا القصص التاريخي، امد الى هذا كله ، المسرح بمادة خصبة استلهمها من قبل كل من شكسبير ، وكالدرون ولوب ودي فيغا .

وقد كان هذا الجو جد مؤات للمؤرخ الطلعة اذ جاءت القصة تستند الى الوثيقة التاريخية وتنهض على الدليل الاثري . فقامت على الاثر جمعيات علمية ،في كل مكان تقريباً، تولت تصنيف النصوص وتحقيقها، وحاولت فك ما تحمل من رموز في خطوطها وردها الى اصولها.من ذلك مثلا الجمعية الخاصة بدراسة التاريخ الالماني التي رأت النور على يد المؤرخ شتاين عام ١٨١٩ ، ومدرسة القراطيس او معهد الوثائق الذي تأسس في باريس عام ١٨٢٢ ، وهذه الكشوف العلمية التي حققها غيزو . وعلى هذا الاساس وضع اوغسطين تييري وميشليه تاريخ الاجيال الوسطى بعد ان تفننا في التوفيق بين مراعاة اللون المحلي وبين التفاصيل الدقيقة ، محافظة منها على احترام المصادر ونصاعة التعبير .

والاجيال الوسطى هذه تبدت صورتها لكل واحد كما تبدت على صحيفة مرآته . فهي تمثل في نظر سيسموندي عهد الاستقلال الذاتي للمدن ، كما رأى فيها فيلنوف بارجمونت عهد السلطة المسلسلة التي نفر منها سيسموندي . ولم يلبث ان رأى فيها كل شعب صورة لما يرجو ولما يطمع اليه . فهذه الرومنطيقية الابداعية ذات المفعول الرجعي ألبسوها لباساً سياسياً واجتماعياً واقتصادياً حتى وثورياً . فما من مكان قط استشرى فيه هوس الاصول التاريخية المتوسطية بين افراد الشعب كله مثل المانيا اذ راحوا فيها يستبدلون الـ Aufklrrung بالروح القومية الموعودة نافرين من هذه الشعوبية العقلانية ومن الروح التحررية البورجوازية . فمنذ عام ١٧٩٩ واجه نوفاليس هذه المعضلة الثنائية : اوروبا المسيحية ، فحلها باختيار او بتحقيق الامبراطورية المقدسة بشكل جديد تحت اشراف الكنيسة « الخيرة » الملائمة للطبيعة البشرية ، حتى اذ ما كاد يتوارى ، اشتد التيار بعده ، عنيفاً ، غلاباً مطالباً باعادة الهيرخية او الملكية الشرعية . ومع ان المدرسة الشعرية في انكلترا تطورت باكراً ، رافعة لواء الثورة ومنادية بسلطان الحب ، فقد ترك ودسورث عليها طابع الروح المحافظة المهذبة ، كما كانت لذة سكوت الخاصة ان يبعث التجدد والحياة في بريطانيا العظمى التقليدية المحافظة في الصميم . من دعاة الشرعية ومؤيديها ، هوغو في دواوينه ولامرتين في « تأملاته » اذ راح كلاهما يتغنى ، عام ١٨٢٥ ويشيد عالياً

بتكريس شارل العاشر ، وبلزاك نفسه يتجه آنذاك نحو الشرعية . بعد عام ١٨٣٠ . ومـــع انهما من اقحاح الوطنيين الايطاليين ، راح منزوني يضع : « الاناشيد المقدسة » ، فاتحـاً بذلك نقاشاً حاداً مع سيسموندي حول الدور الذي لعبته الكنيسة في ايطاليا ، كما راح سلفيو باليكو يروي علينا بكلمات تتنزى بالرضوخ وروح الاستسلام المسيحي ، قصة اعتقـــاله . والكل يتفادى او يحاول ان يتفادى هذه البورجوازية الواقعة تحت تأثير عبودية العجل الذهبي .

هيغل واستبدادية الدولة

راحت المثالية الفلسفية تقدم هي الاخرى ، خدماتهـــا لقضية الشرعية ، كما راح كل من غــوتيه وكانت وفخت يستجيب عالياً للاتجاه الذي اتخذته الثورة الفرنسية . فقد بقي غوتيه ، على الاقل اميناً للمثال الجمهوري كما راح فخت بدوره يرسم لنا نظريته عن الدولة معترفاً لها بحق الاكراه وحق الركون اليه . ومن هذه الثنائية التي قال بها كدنت والتي اعترف فيها بقدرة العقل على معرفة مظاهر الاشيـاء دون كنهها يفضي بنا الى القول بالأحدية الغائية ولو بصورة ذاتية .

واذ ذاك طلع علينا هيغل الذي راح يقول بمثالية مطلقة مناقضاً بذلك تعالـيم القرن الثامن عشر . فعملاً بمنطق ديناميكي هو الديالكتيكية الجدلية ، فالافكار المتحركة توجد الواقع وتخلقه وتدفع بالكائن دوماً ليتجاوز باستمرار وضع وجوده . ولذا فالمطلق عنده هو وحده الذي له وجوده الخاص وينزع دوماً للتحيز بفضل فكرة الدولة المثلى الملكية الطابع من اساسها ، هذا الشكل السياسي الوحيد الذي باستطاعته وحده ، التوفيق بين الحرية والسلطة . اما الفرد هذه الفكرة المجردة التي لا قوام لها ولا كيان فلا وجود له قط بذاته . فالدولة هـــي تجسيد لله على الارض لها وحدها الحق بالسيادة المطلقة والاستئثار بها .

وبعد ان دعي هيغل عام ١٩١٩ للتدريس في جامعة برلين راح يثبت ان الصورة المثلى لهذه الدولةهي الدولة البروسيانية . فقد واخذ هذا الفر الغي المتوجه بأنظاره نحو الماضي يبرر ، بطريقته الخاصة ، الشرعية التقليدية . وقد كان لا بد لنظريته هذه عملا بمبدأ رجوع الامور الى نقطـــة الانطلاق ، من ان تؤول الى راديكالية واضحة ، فقد انتصب في وجه الابداعيـــة الرجعية ، هيغلية محافظة او متزمتة ، كما قام في وجه ابداعية مستقبلية ، هيغلية ثورية .

عودة النظام في اوروبا الى الشرعية

وهذا الصراع العملاق الذي وضع وجهاً لوجه ، هنا النظام الاوروبي القديم وامتداداته الاستعمارية ، وهناك القوى البورجوازية الجديدة والجماهيرية ، استمر قائماً . فقد اتصل بشبه الجزيرة الايبارية التي اعلنت الثورة وامتد الى اوروبا نفسها حيث انصار الحرية ومؤيدوها استمروا ماضين في كفـــاحهم . فالانتصار الذي حققه للملوك في ساحة القتال ذهب جزافاً كما ان قرارات مؤتمـر فيينا بقيت حبراً على ورق وكلمات فارغة ، اذا لم يقم في اوروبا نظام دائم يفرضه القائمون بالثورة المعاكسة هو نظام ديني ملكي ارستوقراطي .

ان قيام شعور ديني رومنطيقي لدليل على وجـــود يقظة دينية . فارتدادات فريدريك شليغل وستولبرغ وهولر،واعتناق آل راتسبون اليهود للكثلكة ، واعتناق ستاهل البروتستانتية ، يشير بوضوح لا يدع مجالا للشك الى مــــا في المسيحية من قوة جذب واغراء . فنوادي مونستر ومونيخ لها روادها الكثيرون . ففي الوقت الذي راح فيه هنغستنبرغ المدافع الاكبر عن اللوثرية الاصيلة ، يهاجم المذهب العقـــلي بعنف ، دوت في جميع ارجاء فرنسا صرخة انذار واستنفار اطلقها كل من لامنيه في كتابه « محـــاولة حول اللامبالاة في امورالدين » وجوزف دي مستر في كتابه الموسوم : « حول البابا » مشيدين بالدور الذي يمكن للبابوية ان تلعبه في هذا المجال . ويحاول الاب بلميس ، سيراً منه على خطـى بوسويه ، الكشف عن « التغييرات » التي لحقت بالكنائس ، والملـل الانجيلية . فاذا مــــا عاد الكاثوليك ، ولو متأخراً ، الى الدراسات الكتابية التي تخلوا عنها فترة للأوساط البروتستانتية والعقلانية ، فقد برزت الدعوة للتعلـــيم وفي اوساط النخبة الفكرية ، بعودة بيوس السابع الى روما وباعادة الرهبنة اليسوعية الى الوجود ، (كما ان الاب لاكوردير سيقوم بتجديـــد الرهبنة الدومنيكية في فرنسا) . وقد تكاثر عدد الرهبانيات التربوية والتأملية والخيرية ، ولا ســـيما الجمعيات التي تعنى منها بشؤون المرأة . فنحن امام حركة عارمة من ازدهار الجمعيات الخيرية ، والكتب الجيدة والدراسات القومية وجمعيات القديس يوسف للدفاع عن المسيحية . وممـا هـو ابرز من هذا كله ، اعمال الارساليات الدينية التبشيرية التي نشطت لنشر المسيحية ، وحمـــل الصليب الى البلدان التي لم تعرف شيئاً عنه ولا عن المصلوب شيئاً ، كما انها اخـــذت توزع على المؤمنين الاشياء التقوية وتقوم بالكرازة بالانجيل من مكان الى مكان آخر .

ومع تسليم الادارة الرومانية في روما بفوائد الادارة العلمانية فقد اضطرت للخضوع لهـذا التيار الذي يؤيده المتزمتون الذين فازوا باقرار التشريع القديم ، والنزول عند « اصـــلاحات البارونات » ، وديوان التفتيش والى توصيات « مجمع الايمان» الذين نجحوا ، في مجمع الكرادلة عام ١٨٢٣ ، وانتخبوا عام ١٨٣٠ للكرسي الرسولي ، احد ابناء الرهبنة « الكاملدولية » المعروف بتزمته في امور الدين وتقشفه ، هو البابا غريغوريوس الرابع عشر . فبعد ان كرر حـــرم المذاهب الفلسفية والجمعيات السرية ، فلم يتورع قط في توجيه اللوم الى رؤساء الحكومات لما هم عليه من فتور ديني ، طالباً اليهم مؤازرتهم بحيث يتعاون التاج والهيكل . الا ان المفاوضات التي بوشر بها لعقد معاهدة دينية (كنكورداتو) بين الكرسي الرسولي والدول الاخـــرى ، هذه المفاوضات التي تتسم دوماً بالدقة وتحف بها المخاطر والصعوبات لم تلته الى ما يرضي مطالب الكرسي الرسولي .

فالكرسي الرسولي يضع نفسه في موضع حرج عندمـــا يطالب للكنيسة الكاثوليكية بامتيازات ومنافع بعد ان يرفض منح مثلها للكنائس الاخرى . فهو يتجاوز عن السماح لليهود

باقامة حبي لهم في روما ، كما يتجاوز عن تركهم تحت رحمة الدول عرضة للاضطهـــاد في دول اوروبا الوسطى (مع العلم ان الكاثوليك لا يتمتعون بحرية اكبر في روسيا)، في الوقت الذي راح فيه يطالب سويسرا والبلاد الواطية وبروسيا بالمزيد من الحرية للكاثوليـــك . وباسم الكاثوليك يعارض بشدة قانون الشهادة في انكلترا كما يعارض بشدة امتيازات الكنيسة الانكليكانيــة في ايرلندا . وبفضل هذا الجو من التساهل استطاع اوكنيل والرابطـــة الكاثوليكية ان يحققا معاً الانتصار الذي حققاه عام ١٨٢٦ ، مسجلين بذلك المرحلة الاولى من مراحل سحب اعتراف الدولة بالكنيسة ، كما ان الكاثوليك الاحرار في فرنسا طلبوا من الحكومة ان تتقيـد بأحكام دستور عام ١٧٨٩ الخاص بحرية التعليم فيها . وما عسانا ان نقول ، من جهة اخرى عن هـؤلاء المؤمنين والكهنة الذين راحوا ، في كل من ايطاليا وكرواتيا وهنغاريا والامارات الرومــــانية يسهمون سراً وعلانية ، بالحركات التحررية التي تقوم بها الاقليات في هذه المناطق في سعيها نحو الحرية . ألم ينعت وزير الدولة «الباني» قبيل اندلاع الثورة البلجيكية بـ« مرعب» التحالف الذي تم بين الكاثوليك والاحرار ضد الملك غليوم الاول البروتستانتي ! ومع ذلك فهذه الهتافات التي تنطلق من حناجر الجماهير التي تجمعها وحدة العقيدة او الوحدة القومية والحربية ، قبيل عـــام ١٨٤٨ ، موجهة ضد البابا بيوس التاسع أتاحت لمترنيخ ان يقول فيها : « توقعت كل شيء ما عدا قيام بابا متحرر » . كل ذلك سراب غرار يمكن تبريره .

ففي الوقت الذي تطل فيه على المجتمعات الكالفينيــة في فرنسا « يقظة» الجبلية وتتكتل في بروسيا الكنائس التوثرية والاصلاحية ، يقترح فيه المفكر السويسري فينه الكبير على اوروبا ، الاحتذاء بالولايات المتحدة الاميركية . وقد لقي اقتراحه استجابة لدى غـيزو ولدى بعض الفئات في فرنسا وجنيف ولا سيما في اسكتلندا . وكان المسيحيان النبيلان مونتلمبير وتوكفيــل معجبين جداً بالديموقراطية الاميركية حيث اخذت جميع الطوائف الدينية تتنافس فيما بينهـا بعد ان نعمت البلاد بفصل الدين عن الدولة . وفي انكلترا حيث راح جماعة يطالبون في اثر ولبرفورس واشلي وتوماس ارنولد مع اتباع الكنيسة العريضة الاخذ باصلاحات تحررية ، كما قام من جهة ثانية فريق مناهض للكنيسة العليا عرفوا باسم «المتسامحين» كانوا من غلاة الطائفة الطقسية يطالبون برفع ولاية الدولة للكنيسة الرسمية ، فانتهوا في تطورهم الديني عند نهج بيوزي الذي لم يكتب لطريقته الاكتمال ، والبعض منهم عند نهج نيومان والرجوع بالتالي الى الكثلكـة . ان روح الكفاح الذي جاشت بها بعض الطوائف الدينية المنشقة (لا سيما ملة المتوديست منهــا) تبلورت عن عدائها العنيف للبابوية ، هذا العداء الذي لم يكن ليبزه شدة الا النفرة من المذهب اللاعقلاني .

وهكذا بالنسبة لوضعها الداخلي ، وفي عجزها عن الصمود في وجه الاندفاع للمطالبة بالحرية لم تستطع المسيحية في اوروبا ان تؤلف لمدة طويلة ، ضمانـــة للنظام الذي يدعو للمحافظة على النهج .

السلام الاوروبي عن طريق شرعية النظام الملكي

أفلم يخطر ، مع ذلك، للقيصر اسكندر الاول ان يؤمّن الوحدة بين المسيحيين عندما راح يقترح على الحلفاء،وضع الحلف المقدس تحت حماية « الثالوث الاقدس غير المنفصل» ؟وماذا يهم ان تأتي الموافقة، كما أتت المبادرة من صفوف بعض المتصوفين او ادعياء التقوى ، وان يكون غوتيه رأى في هذا الاقتراح « خير محاولة وامثلها جرت لخير البشرية جمعاء » هذه الحركة «الطنانة الجوفاء »، كما يصفهـا مترنيخ ، والتي لم يرَ فيها سياسيو تلك الحقبة ، سوى المقاصد البعيدة وتحقيق السيطرة الـتي راودت القيصر ، من خلال صليبية اوروبية جديدة ضد الاتراك .

والحال، ان العدو الذي يجب وضعه تحت الانظار هو « تنين الثورة » . ان الخـير الاكبر الذي حلم ميثاق عام ١٨١٤ بتحقيقه ، هو « تأمين الراحة والهدوء لاوروبا عن طريق اقامـة توازن عادل بين دولها » ، اذ كان المنتصرون عاجزين كما انهم غير راغبين في اعادة اوروبا الى حدودها الجغرافية التي كانت لها عام ١٧٨٩ ، فالحق العام هو نتيجة موافقتهم ، وبعبارة اخرى هو هذه الشرعية التي تؤلف بالنسبة للنظام القديم ، ما تمثله طبقة الاشراف المستحدثة بالنسبة لطبقة النبلاء الاصلية . فالقضية لا تخرج عن كونها قضية اتفاق بين الدول المنتصرة الاربع التي انضمت اليها فرنسا البورجوازية لتؤمن معاً النظام الحقيقي ، اي توازناً يأتي في صالح هـذه « السلطة الحماسية الادبية » .

وسلطات هذا الديركتوار الاوروبي تبقى غامضة ، مبهمة، ولذا كان لا بـد من التشاور وتبادل الرأي فيا بينها كلما دعت الحاجة الى ذلك . وهكذا اصبح مترنيخ رجل المؤتمـرات اذ راح من مؤتمر فيينا الى مؤتمر فيرونا ثم الى مؤتمر مونيخ ـ غراتز يحـاول توطيد اسس الوئام السائد بين الملوك .

الا ان هذه المؤتمرات تبقى دونما جدوى تذكر اذ لم يكن هنالك من قوة بوليسية او حربية تعضدها او تسندها . وبالفعل فقد كان الكونت سدلنتسكي بمثابة كلب نيوفاوندلند الحـارس للامبراطورية النمساوية ، بعد ان عهدت اليه ، عام ١٨١٧ مهام دقيقة قام بمسؤولياتها مدة ثلاثين سنة أولته حق الاشراف المزعج على المانيا برمتها وعلى ايطاليا متقصياً اثر اللاجئـين السياسيين ومتعقباً لحركاتهم وسكناتهم في ارض غربتهم في كل من سويسرا وفرنسا . فقد عرفت هـذه البلدان نظاماً من الاستثناءات القضائية منها هذه المحاكم التي قامت في عهد لويس الثامن عشر وفي عهد اعادة الشرعية في فرنسا للمرة الثانية والمعروفة بـ « المجلس العدلي » التي لا تقبـل احكامها اية مراجعة امام اي قضاء ، والمحاكم الاستثنائية التي قامت في كل من نابولي ومودينا وتورينو ، في عقب الثورات التي طلعت على تلك المدن سنة ١٨٢٠ – ١٨٢١ ، وعقوبة الشنق في اسبانيا اثناء الحركة الرجعية التي شجرت عام ١٨٢٣– ١٨٢٤ .فالشرطة البوليسية والمراقبة تحد من حرية الكلام وتحكم افواه الجامعات والصحافة ، وتجور على المسرح . ففي فرنسا بـين

١٨١٥ – ١٨٣٠ ، ما من مسرحية تمثلت قبل ان يتم فحصها بالتدقيق فيها جملة جملة ، ثم راح النظام الملكي الجديد المعلن في تموز يفرض غرامة مالية على المتجاوزين لقرارات الحكومة . وقد صدر عام ١٨٣٧ امر في ميلانو يمنع تمثيل رواية بوليوكت لكورناي ، مع انه جرى استبدال كلمة « المسيحيين » فيها باتباع الزرادشتيه . وانكلترا نفسها خضعت ، ولو لأمد وجيز لنظام خاص عرف عندهم بنظام القوانين الستة هذه القوانين التي اقرتها ، عام ١٨١٨ ، حكومة المحافظين في عهد ليفربول ، اضف الى هذا كله التدخل المسلح من قِبَل كل من فرنسا في اسبانيا ، والنمسا في ايطاليا ، وروسيا في بولونيا .

وهذا النظام الملكي والمحافظة عليه يتوقف الى حد بعيد ، على الموقف السلبي المفروض بالقوة او المقبول به من سكان الريف ، مع الملاحظة هنا متانة موقف الحكومات المحافظة في هذه البلدان حيث تسيطر الملكية العقارية الضخمة . ففي الوقت الذي راح فيه القانوني الالماني الشهير سافيني يؤكد حق العرف ويعليه على الحق الطبيعي والقائلون بأن الملكية حق إلهي ، ومعظمهم من النبلاء ويشيدون عالياً بفضائل السلم الاجتماعي المسلسل ، تولي طبقة الاشراف ولاءها للملوك : فكلا الحزبين : الاحرار والمحافظين ، يقفان موقفاً عدائياً من السلطة الشخصية ، في بريطانيا العظمى . وفي فرنسا يقف المتطرفون موقف المدافعين عن حقوق المؤسسات التمثيلية ويعلنون انفسهم ملكيين اكثر من الملك . وفي اسبانيا الوسطى يستمر الخنوف على اشده بين البيروقراطية الملكية وبين المجالس التمثيلية . وفي كل مكان يبقى صامداً في موقفه لا يتزحزح ، من يتمتع بامتيازات مالية او قضائية ، او عسكرية . ولعل ما هو افضل من ذلك ، هنالك عدد من كبار النبلاء يتبجحون بالحرية ويؤيدون مطالب القوميات . مما لا شك فيه قط ان الخوف من الاضطرابات والاستمساك بعرى السلام حملا البورجوازية على تبني اعادة الشرعية والوقوف الى جانبها . فاذا لم يكن للدول من حليف افضل غير المصرف (ارباب المال) فالهم الاكبر الذي يقض مضجع الحكومات الدستورية هو ان يُعتَرف بشرعيتها . فالملك لويس فيليب يتمسك باصرار بالتأييد التقليدي . وبفضل ماله من محتد كريم ، استطاع ليوبولد ساكس كوبورج ان يدخل بارتياح مصف الاسرة المالكة .

كان من العسير على القوى الاجتماعية المحافظة ان تتغلب على هذه الخصومات او العداوات المستعصية التي كثيراً ما كانت الباعث الحقيقي لهذا الصراع الذي كثيراً ما يقوم بين الدول . فنظام الحكومات الخمس يفضي بأصحابها الى الجمود الموصول بينما سياسة الوضع القائم التي تارسمها فيينا وارتضتها قاعدة لها ، وجدت في وجهها الى جانب هذه الاطماع التي جاشت بها نفوس بعض الامراء ، النزعات القومية التي لا تزال تتفاعل وتتطور بالرغم من كل شيء .

الفصل السادس

الحركات القومية والقضية العمالية في أوروبا
الروح التحررية والابداعية المتفائلة

جاء في كتاب بيوناروتي : « مؤامرة في سبيل المساواة »
« ليست الحرية سوى القدرة المحدودة على التملك »
(مؤامرة في سبيل المساواة ، المعروفة بمؤامرة بابوف ، ١٨٢٨) .

الاحرار

بقي الحزب الثوري حتى عام ١٨٣٠ ، كما يؤكد كورنو ، يشد بنواجذه مستمسكاً بنظريات وافكار القرن الثامن عشر ، كما ان توكفيل يؤكد هو الآخر ، من جانبه : بأن تاريخنا (تاريخ فرنسا) بين ١٧٨٩ — ١٨٣٠ ، اذا ما نظرنا اليه عن بُعد ، نظرة شاملة ، ليس سوى مشهد صراع عنيف قائم بين النظام القديم بما له من تقاليد وذكريات ، وآمال ورجالات ، يتمثلون خير تمثيل ، في طبقة الارستوقراطية ، وبين فرنسا الجديدة بقيادة الطبقة الوسطى » . وجماعة الثورة هذه ليست سوى طبقة الاحرار . وقد حدد غيزو الطبقة الوسطى : « هذه الطبقة التي لا يعيش افرادها على المراتب والاجر ، والتي ينبض الفكر عندها وتجيش الحياة فيها بالحرية ويتخلل نشاطها بعض الفراغ ، والتي تستطيع ان تخصص جانباً ملحوظاً من وقتها لبحث القضايا العامة ، اي هذه الطبقة التي تجد نفسها على بعد متساو بين الامتيازات الماضية ، وبين هذه الطبقة المنصرفة للعمل اليدوي » .

وهذه الروح المتحررة، قوام الشرعية وعدة الشرعية الدينية على الاخص، تقترح نظاماً هو خير الانظمة وافضلها ، والهدف الاسمى لحقبة تاريخية طويلة من حقب التاريخ امتدت الفسنة ، هو الملكية الدستورية التي يوجهها اعيان البلاد الذين جرى انتخابهم من بين المواطنين الذين تتوفر لهم عن طريق الثروة التي تمت لهم، ونعمة التعليم التي صقلت نفوسهم، الامكانيات السياسية . فالجمهورية التي رسخ دعائمها صاحب الفضل واشنطون ، لها بالطبع المعجبون بها والقادرون لفضلها . غير

ان معظم اصحاب الفكر الحر يفضلون عليها نظام الملكية : « فلو لم يكن من نظام ملكي ، يقول كازيمير بيرييه ، لهبط النظام الى درك الديموقراطية ، وبذلك تكون البورجوازية قد اضاعت سيادتها . والحال يجب ان تتمتع البورجوازية بهذه السيادة لاسباب مبدئية ، لأنها أكفأ الجميع » .

واذا كان بروز البورجوازية له ما يبرره ويزكيه ، فهي تعتبر نفسها والحالة هذه ، تتمتع بصورة طبيعية بالحرية لان لديها من الاستنارة ما يجعلها تدرك جيداً ان سعادة الجنس البشري تتوقف قبل كل شيء ، على التنعم بالحريات الفردية التي تأتلف مع تطور الجسم البشري ويؤمن سلامة المقتنيات . ولهذه الاسباب ، فالافضل هو النظام الانتخابي او التمثيلي القائم على اساس دافعي الضرائب والصالح للوقوف معاً في وجه الفتن الجماهيرية والثورة المعاكسة .

فالروح التحررية حتى الرومانية منها ، تشجب الملكية القائمة على حق الهي وترفض كذلك التسليم بأي سلطة للاديان والكنائس وستجردها مما تتمسك به من حقوق الاحوال الشخصية ، وتعلمن الزواج ولا تقبل بخدمات الكاهن او خادم الدين في التعليم الا لغرض ادبي واخلاقي . وهذا العداء للاكليروس ، يقابله لا سيما في البلدان الكاثوليكية الدعاوة الدينية . فبين ١٨١٧ — ١٨٢٩ ، اصدرت دور النشر ٣١٦،٠٠٠ نسخة من مؤلفات فولتير ، و ٢٤٠،٠٠٠ نسخة من مؤلفات روسو . وقد ادت هذه المنافسة الحادة في قضايا الدين ، والدعاية أو الدعاية المضادة لها ، الى حروب اهلية ، في كل من سويسرا والدول الايبرية .

والى هذا ، فمن آدم سمت وجان بابست راي الى جون ستيوارت مل ، راح علم الاقتصاد السياسي بعد ان انتسب الى الكلاسيكية ، يضع القواعد الذهبية التي تنهض عليها المصلحة الشخصية القائمة على تفهم صحيح للامور والاوضاع ، وعلى المنافسة الحرة . وهذا يعني حتماً الاقتصاد الحر الا فيما يتعلق بمصالح الدولة التي تمتزج بمصالح البورجوازية .

الحركة الرومنطيقية والقوميات

من مفهوم الحرية والصفات المعقودة عليها ، القدرة على إثارة وتحريك الشعور والهابها . فبيرانجيه يجعلها ، في فرنسا عروس قصائده واغانيه الشعبية ، وهكذا سكريب في مفكراته واوبير في موسيقاه . ففي صفوفها وعداد الناهضين بها ، نرى الحداة المتغنين بها ورجال الاقتصاد الى جانب العاملين في الدعوة لها والفلاسفة والمؤرخين والمناضلين حيالها . فهي تعتمد ، الى حد بعيد ، على اصوات الناخبين في الانتخابات العامة واعضاء الجمعيات السرية واحياناً على الثوار والمحاربين في الشوارع . ففي وضع من هذا النوع الموصوف ، التحررية انما تعني الكفاح ضد السلطة الشخصية تارة ، وطوراً الصمود في وجه الاجنبي الدخيل ، هذا الصمود الذي كثيراً ما يصطبغ بالمطالب الوطنية او القومية .

فالثورات الاميركية والفرنسية كانت في الاساس ردات فعل شعبية ، في وجه الحق الملكي

الألمي القديم . وهل يصلح لعمري التلويح وحده بحقوق الانسان مبرراً لهذه الرغبة الجماعية التي تهيب بالامم الى النهوض بعد ان يجيش في عروقها الحياة ؟ فيكو يجد هذه القوة في الكون ، في الامة الـ *Volksgeist* عند هردر ، اما فخت فيشدد منجهته على الـ *Urvolk* بينما يراها هيغل في الفكرة ذاتها التي يعمل التاريخ على تحقيقها . وما عسانا ان نصف به هذه المؤازرة المؤاتية تشد ازر الحركة اتفاقاً يقدمها احدهم هو شارل البير فريسة الاوهام والهواجس والظنون، هـذا التلميذ الاثم لجوزف دي مستر ، او يتبرع بها آخر من صف فريدريك غليوم الرابع ، هذا الفنان السقيم المزهو بالامبراطورية المقدسة ؟

والى هذا ، فمهما كان من سحر الفتوحات الفرنسية التي لا يمكن لمؤرخ ، مهما اعماه التعصب وضيق الصدر ان يتجاهلها ، ومن هذا الاثر المدوي الذي تركته في النفوس والقلوب الامجـاد التي سجلها الامبراطور الكبير ، هذه الامجاد الآخذة ذكرياتها بالانتشار والذيوع ، فلا مجـال لنكران عنصر المفاجأة - العنصر الاسطوري ، في التاريخ بحيث لا يمكن للمؤرخ ان يجهل قط الاثر العظيم الذي تركه التوسع الفرنسي في القارة، فساعد على بعث المطالب الوطنية المتعددة بين الشعوب التي وقعت ضمن هذا الفتح . ففرنسا لا تزال ، حتى في سنة ١٨٣٠ ، تعطـي اشارة الانطلاق والتقدم الى الامام . الا ان بيكر يضع عام ١٨٤٠ في وجه النشيد الوطنـي الفرنسي « المرسلياز » ، النشيد الالماني *Wacht um Rhein* واذا بنشيد هوفمان دي فالمرسليبن : « المـانيا فوق الجميع » يدوي عالياً مطالباً بألمانيا واحدة موحدة :

من الموز الى النيمن

من الاديج الى البلت

فمن هذا الريفي السلافي الذي يشدو متغنياً ويرقص معبراً عن تعلقه الشديد بهذا المـاضي المجيد ، الى هذا العالم الالماني الذي يكتشف بغبطة ويفهرس ويفسر ويشرح بشغف هـذه النصوص والوثائق التي تشهد عالياً بخلود ثقافته الوطنية ، تم عمل عظيم ساعد كثيراً ، شيئـاً فشيئاً ، على ابراز سمـات ارض هذه الجماعات التي تجيش في صدورها الرغبة في الظهور والتجلي وعلى اثبات ما أوتيت من نشاط زاخر وما فيها من العضلات المفتولة . وهذه المطالب الوطنية تتجند في سبيل تحقيقها اجيال متعاقبة من الكفاءات والطاقات المشحونة المتعددة الالوان ، فتوحي الشعر وتحرك الاطماع السياسية وتسخر الموسيقى ، وتجند الغناء ، والرسم ، والتصوير والنقش والحفر ، وتستغل القانون والاقتصاد السياسي . وكل شعب من هذه الشعوب يهيم بليلاه ويغني على هواه .

فالهوى او الغرض قلما يعتمل في قلب هذه الشعوب التي لم يكن لديها من سبب يحملها على التذمر من هذه القرارات التي اتخذت عام ١٨١٥ . فالكبرياء التي يحمل جون بول (انكلترا) يتيه عجباً وهو المعروف بكرهه لكل ما هو فرنسي ، لا قبل لها بهذه المطالب التي تعلن عنها

ايرلندا الفتاة ، كما ان السويد لا يمكن ان تهضم او ان تتقبل اي فكرة ترمي لنسخ المشاركة بينها وبين النرويج، والدانمارك ليست على استعداد للاصغاء الى اي مطلب الماني يرمي لاسترداد مقاطعتي شلسويغ وهولشتاين . ولم تكن هولندا احسن استعداداً للتسليم بانفصال بلجيكا عنها. وايطاليا تتحرك وتمور جنباتها تحت تأثير الحركة الانتفاضية التحررية التي اطلقتها جمعية الفحامين السرية . الا ان قيام الدولة البابوية عليها جعلتها تواجه مشكلة وجدان ، فراحت الرومنطيقية القومية تبث في شبه الجزيرة « *Italia fara da se* » ايطاليا فخورة بذاتها. فخورة لعمري الا ان لا اثر لها ولا شأن ، وكثيراً ما أطل عليها النهار بفجر اليم . والحركة الالمانية المتأرجحة بين بروسيا والنمسا وعدد من الامراء من الصف الثاني، والتي تتقاذفها البروتستانتية والكاثوليكية والمتعرجة بين الاتحاد الجمركي والسوق النمساوية، والمشبعة بروح التقليدية القضائية تحلم بتحويل هذا الـ *Bund* العاجز، المستضعف، الى رايخ تجهل تماماً ما اذا كان سيأتي على نطاق المانيا العظمى او المانيا الصغرى. واطل البعث السلافي على العالم على اثر اتصاله بالعلم الالماني ، كحركة رجعية قامت في وجه الروح الالمانية المستبطرة ، رافعاً لوائي العلم والفن، مستعيناً على تحقيق اغراضه الوطنية . بالفيلولوجيا تارة ، والشعر طوراً، هذا الشعر الذي يرقص على انغام موسيقى جياشة. فليس افضل من شوبين على لعب دور السفير المتجول الذي يبعث الاسى اينما حل، وينشر الشجى في قلب شعب خذلت اقداره فتعس . الا ان وقوع القوميات السلافية في اوروبا الوسطى تحت سيطرة عدد من الدول القومية جعلها في حيرة من امرها لا تعرف ما ذا كانت تستجيب للدعوة الصقلبية: قيصرية كانت ام ثورية ، او انها تنضم تحت جناح شقيقتهم الكبرى روسيا التي تُقلق منها البال و تُشغل الخاطر .

واوروبا الفتاة هذه ، سواء رهبوا امرها او رغبوا فيها ، ذات الملامح الغامضة تستبد بقلوب السياسيين ، وتشغل بال الدبلوماسيين ، فتغزو الادب وتوحي الفنون . فقد بذلت دماً غالياً ذكياً من هذه الاضاحي والشهداء تقدمهم قرابين على هيكل الفداء ، وقام من بينها الابطال يناضلون ويكافحون في سبيل الرؤى الحلوة والاحلام المعسولة، فنزح بنوها بالألوف . وقد احسنت باريس وفادتهم. فها هو متشيافتش يغنينا امجاد بولونيا ويصف لنا اخلاق وعادات واعراف بولونيا هذه، المضطهدة والمهيضة الجناح والتي لا تُغلب مع ذلك ولا تُقهر. وهاهو هاين حفي بهذه الصداقة والضيافة بعد ان وفرتها له المدينة المضيافة غِبّ ان تفهمته واكتنهت سره، هذا الانسان الثقيف الذي تخيفه غرائز ما وراء الرين الحربية ، واخوة « حلف الشعوب المقدس » ، الذي يحيي بيرانجيه طلوعه، والذي يحتفظ فيه كل من كينه وميشليه لالمانيا هردر بمركز ممتاز . يا لها من فكرة جبارة !

من لا يعلق قلبه وعقله بحب هذه الامة الكبيرة كما يتصورها ميشليه ويشيد بها ؟ نموذجي ، مثالي ، على كل حال ، كتابه الضخم « تاريخ فرنسا » الذي انتهى من وضعه ، بطله الاول

والأخير هو الشعب الفرنسي ، وليس غير الشعب الفرنسي بنزواته وغضبه ، بأفراحه واتراحه بأحزانه ومباهجه ، هذا الشعب المجاهد الصابر ، الحبيب الى قلوب ابنائه .

وضع العمال في المصنع
بؤس البروليتاريا

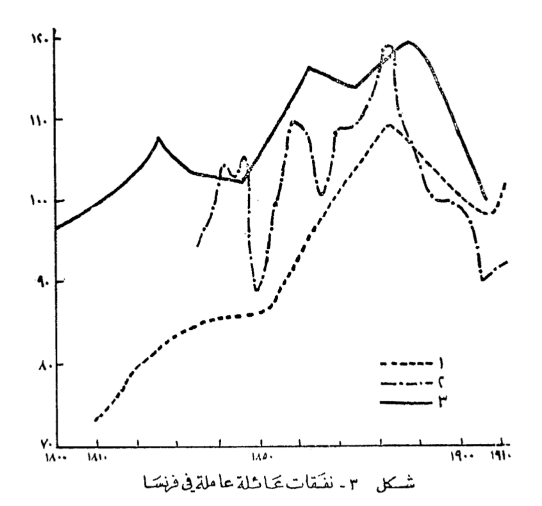
اخذ البعض يتساءل عما اذا كان الوطن يعير اي انتباه لهؤلاء الذين يعولون في تحصيل أودهم على سواعدهم وقوامهم البدنية . فالريف لا يزال يحتضن عدداً كبيراً من اصحاب الحرف الصغيرة الذي ليس بوسعه ان يستغني عنهم فحسب ، بل انه في الريف ايضاً اشياء كثيرة تُصنَع فيه لها أدواتها وعدتها يقتضي لها الكثير من الوقت والعناء والمراس الطويل لتدر على صاحبها دخلاً متواضعاً يدخل المسرة الى نفسه ويعتبره مسعفاً في تحمل اعباء الحياة. ومن الامور التي استأثرت بالانتباه والملاحظة وضع عمال النسيج ، هؤلاء العمال الذين يعملون معزولين ، فرادى في القرى والدساكر ، وضع يأتي دون وضع العمال في المدن المتمركزين في المصانع والمعامل ، يخلّدون التقاليد التي سجلتها مصنوعاتهم الفنية من الابنوسيات والبرونزيات والخزفيات والزجاجيات والمنقوشات فبرزوا نخبة مختارة من رجال الفن والصنعة . وهذا العامل ليس أسوأ وضعاً من وضع زميله او رصيفه عامل النسيج في انكلترا وفي مقاطعات الفلاندر او رينانيا او سيليزيا . الا اننا نرى في بعض الاوساط التي يتمركز حولها العمال ، في المناجم مثلا او في مصانع حياكة الاجواخ او معامل صناعة الحديد ان العامل الذي يتناول اجره من صاحب المعمل تقلقه مزاحمة الآلة له وتزيد من اليد العاملة بكثرة . ويلاحظ احد علماء الاقتصاد والاحرار هو ادولف بلانكي ، عام ١٨٤٨ « ان الصناعة اخذت تتمركز حول معامل ضخمة هي اشبه ما تكون بقشلاقات او سرايات او اديار ، يتكدس العمال فيها بالمئات ، واحياناً بالألوف ، يعملون في مختبرات يصرّد فيها النور والهواء تصريداً ، يرتبط فيها العمل بالآلة ، فيبقى مثلها ، عرضة للحدثان ولتقلبات العرض والطلب » .

فمع تباين ظروف العيش تبايناً ملحوظاً بين بلد وبلد ، وبين حرفة وحرفة ومهنة ومهنة ، فمن الثابت على العموم هو ان هذه الظروف لم يطرأ عليها أي تحسن يذكر في القسم الأول من هذا القرن ، بينما تكاليف العيش السنوية لدى الاسرة العاملة، في فرنسا مثلاً كانت دوماً بارتفاع مطرد الى عام ١٨٢٥ وما تكاد تنتهي إلى اقرار حتى تأخذ بالهبوط فيها بعد[١] . فمعدل كلفة الحياة يرتفع اكثر بكثير من معدل الاجر الحقيقي الذي يدفع للعامل ، فمرتب عامل المنجم الذي كان ١٠٠ عام ١٨٩٢ ، كان ٣٦ عام ١٨٠٥ ، و ٤٢ عام ١٨٣٠ و ٤٩ عام ١٨٥٠ . وقد حدث هبوط في قطاع النسيج لا يمكن تجاهله او نكرانه . فمن ٨٠ عام ١٨٠٠ هبط الى ٦٥ عام ١٨٢٠ ، والى ٤٠ عام ١٨٢٧ ، والى ٤٥ عام ١٨٥٠ . والأدلة كثيرة تشهد غالباً على ما في هذا القطاع من تفاوت وتناقض ومفارقات . فالعامل في مصانع كروس – روس في مدينة

---

(١) راجع الكشوف البيانية المثبتة في الصفحات (٨٨ ، ٨٩ ، ٩٠) .

ليون الذي يعمل في صناعة الحرير ، هبط اجره الى النصف في هذه الأزمة – ازمة الهبوط – التي وقعت بين ١٨٢٤ – ١٨٣٠ . فدزينة المناديل في مدينة روان ، يتراوح ثمنهـــا ، حسب

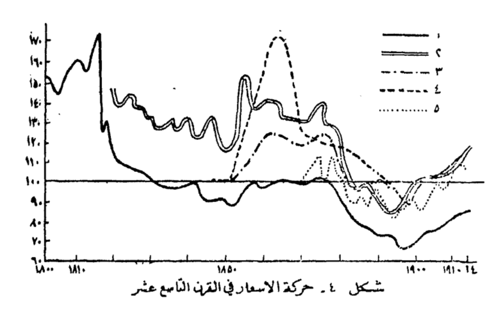


شـكل ٣ - نفقات عائلة عاملة في فرنسا

١ ـ عائلة بدون اولاد ٢ ـ عائلة من ٩ اشخاص في باريس ـ ٣ ـ عائلة من ٤ اشخاص (مأخوذ من الاحصاء العام في فرنسا . والدليل ١٠٠ وضع على اساس سنة ١٩٠٥ للحالة الاولى ، وعلى اساس سنوات ١٨٩٥ – ١٩٠٠ للحالة الثانية ، وعلى اساس سنة ١٩٠٨ للحالة الثالثة .

عرض المنديل من ٥ – ٣٠ فرنكاً ، عام ١٨١٥ ، بينما هبط ثمنها الى سعر يتراوح بـــين فرنك ونصف و ٤ فرنكات ونصف عام ١٨٣٠ . اما في انكلترا ، فعامل النسيج الذي يعمل في بيته ، كان ربحه في الاسبوع ، عام ١٨٤٠ يتراوح بين ٧–٩ شلن بينما بلغ ربحه ٣٠ شلناً حوالي ١٨٣٠. والرقم القياسي عند سويربيك يشير الى هبوط في هذه الحقبة ، في اسعار البضائـــع والسلع . فالرقم القياسي هو ٩٣ لفترة ما بين ١٨٣٨ – ١٨٤٧ ، بينما كان ١١١ في السنوات بين ١٨١٨ –

١٨٢٧ ، فكان باستطاعة العامل المذكور ان يحصل على الكمية نفسها من دقيق الثريد والعصيدة، بينما يحصل على نصف هذه الكمية من دقيق القمح ومن الزبدة . اما اللحم ، اما الجمة فلا اثر لهما على مائدته .

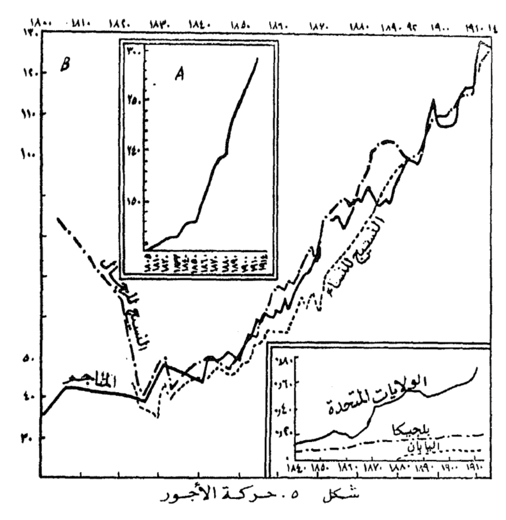


شكل ٤ ـ حركة الاسعار في القرن التاسع عشر

١ ـ وفقاً لدليل سلبرلنغ وسوربيك : سعر الجملة البريطاني (معدل ١٠٠ : ١٨٦٦ ـ ٧٧) .
٢ ـ سعر الجملة الفرنسي وفقاً للاحصاء العام في فرنسا (معدل ١٠٠ : ١٩٠٠ ـ ١٩٠١) .
٣ ـ وفقاً لمعدل ستانلي جونز : الاسعار البريطانية (معدل ١٠٠ : ١٨٤٥ ـ ١٨٥٠) .
٤ ـ وفقاً لجداول الايكونوميست : الاسعار البريطانية (معدل ١٠٠ : ١٨٤٥ ـ ١٨٥٠) .
٥ ـ اسعار الجملة الايطالية : وفقاً لجدول فوساتي : الانتاج في ايطاليا (معدل ١٠٠ : ١٨٧٠).

حري بالملاحظة هنا هذا العدد من المطبوعات التي اخذت تطـــل علينا منذ عام ١٨٣٠ واصفة البؤس الذي تتردى فيه الطبقة الكادحة . ان تحديد الحياة عند العامل في مدينة نانت: « ان تحيى هو ان لا تموت» كما يؤكد لنا ذلك الدكتور غيبان عام ١٨٣٥ . وهذا الوصف يشدد بالاخص على الظروف القاسية التي تكتنف العمل : حرارة مرتفعة او واطية ، عدم توفر النور ضيق المبنى ، ورطوبة المكان، مضار المواد المستعملة وأذاها في صحة العامل ، اختلاط الجنسين والاعمار . ويلاحظ ادولف بلانكي « ان العاملات في مصانع كروس — روس تربح الواحدة منهن « ٣٠٠ فرنك في السنة ، بمعدل ١٤ ساعة عمل في اليوم الواحد على انوال تكون معهـــا العاملة مربوطة بسير من الجلد ومعلقة بحيث تستطيع استخدام رجليها ويديها معاً في هـــذه الحركة الدائمة المتواقتة التي لا بد منها لتنسج ما وزنه غالون » . وفي احد معامل النسيج في مدينة أنتسي ، جاء في احدى العرائض المؤرخة عام ١٨٤٨ ما يلي : « هنالك مراقبون لا

وجدان لهم ولا ضمير ، يسيمون العمال والعاملات المكلفين بأشغال الوصل ، القسوة الفاحشة بحيث ان عدداً كبيراً مهماً يقضون نحبهم تحت الضرب المبرح » . ولكن اي زريبة يجد العامل عند خروجه من المعمل ؟ قليلون جداً أرباب العمل الذين يعنون ببناء منازل لائقة للسكن يركن



شكل ٥ . حركة الأجور

A - دليل الاجور في فرنسا ، المعدل ١٠٠ : ١٨٠٦ (وفقاً للاحصاء العام في فرنسا)
B - الاجور في فرنسا في المناجم وصناعة النسيج ؛ معدل ١٠٠ : ١٨٩٢ (وفقاً للجداول التي وضعها ف. سميان تحت عنوان : الاجر والتطور الاجتماعي والنقد) .
C - الاجور بالساعة في حياكة المنسوجات القطنية (وفقاً للجداول التي وضعها ف. فان هوت ، بعنوان : تطور صناعة النسيج في بلجيكا وفي العالم) .

اليها العمال . فالقبو او الكهف ينتظرهم في مدينة ليل وفي ليفربول ، والزريبة في هوايتشابل ورنس وروان ، والبيت الخـَرِب العالي الجدران النتن الساحة في ليون . وفي الداخل فراش من

القش قلما عرف الشرشف او الحرام غطاء في الليل ، حيث يستلقي رازحين ، ثمبيٖ ، شخصان او ثلاثة ، «يصعب عليك وصفه ، او التعرف اليه »، مما وقعت عليه انظار ادولف بلانكي في روان وشاهده مارتن نادو لدى البنائين العاملين في معمل كروز ، في باريس ، او هذا المراقب على زرائب عمال الحياكة الفلمنكيين . فخلال المجاعة التي اشتدت وطأتها عام ١٨٤٥ – ١٨٤٦، يأخذ العمال بنبش جيف الخيل ويتناهشون في تخاطفهم الكلاب والهررة ، ويلاحظ عدد من المسافرين ان العاملة في انكلترا تنتفخ سحنتها من كرع كؤوس مشروب الجن، كما ان شعرها وسخ قذر . وكثيراً ما يصادف ادولف بلانكي في روحاته وغدواته في روان اولاداً : «شاخوا وهم بعد احداث ... ضمرت اجسادهم وقصرت قامتهم بحيث لا يستطيع المرء ان يتبين، ولو بصورة تقريبية ، اعمارهم كما يجد في مدينة ليل « صبية احدودبت ظهورهم وتقوست اجسامهم ، وشوهت اعضاؤهم ، معظمهم عرايا ليس ما يستترون به ، وقد فشت بينهم الامراض على اختلاف انواعها : كمرض الخنازير والزهري والتدرن الرئوي وراحت تحصدهم حصداً بعد ان تأصل فيهم الادمان على المسكرات واعتبر بغاء البنات من الموارد المادية التي يعولن عليها عادة».

فمن اصل ٣ مواليد في باريس واحد منها يولد سفاحاً ، وواحد من ٥ في مدينة ميلهوز ، عام ١٨٢٧ ، ويموت منهم قبل أن يبلغ الخامسة الثلث في بعض شوارع ليل . ويروي لنا أشيل بينو « أن معظم العمال يشاهدون اولادهم يموتون دون ان يبالوا بشيء واحياناً بكل ارتياح» ، كما ان البعض منهم يعتبر نفسه سعيداً ومحظوظاً اذا ما وجد عملا له،الا ان بينهم من يهرب من العمل ويتفاداه . وعلى كل فالمستعطون والمتشردون الذين لا حرفة لهم ولا عمل تغص بهم الازقة والطرقات كما في الماضي . ان محافظة الاور–واللوار كانت تضم ، عام ١٨٣٣، نحواً من ١٧،٥١٦ معوزاً بينهم ٨٨٦١ من المستعطين. وفي عام ١٨٣٩ ، ارتفع عدد من يلتمس الصدقة الى ١١،٦٧٧؛ وفي سنة ١٨٤٥ ، كان من المطلوب مد يد المساعدة وتأمين الاسعافات لـ ١١٤٣ من اصل ٦٨٥٢ في مدينة نوجان – له – روترو . وفي عام ١٨٢٨ ، هنالك في محافظة الشمال ١٦٣،٠٠٠ عامل من اصل ٢٢٤،٠٠٠ مسجلة اسماؤهم في سجلات الاحسان والاسعاف . وفي كتابه : «بين الماضي والحاضر » يرينا كارليل انكلترا تختنق بالغنى والثراء الفاحش ، بينما هنالك مليونان في اصلاحيات الاحداث ، و ١،٤٠٠،٠٠٠ من المعوزين الجياع . « هنالك طيف بشع يرزح على صدر اوروبا هو طيف الشيوعية » . كما يؤكد ماركس في بيانه ، عدا عن خطر الاملاق والفقر المدقع .

تنظيم العمال
الاضطرابات العمالية العفوية

فالشعور بعدم الاطمئنان والخوف من الوقوع فريسة البؤس لاعجز من ان تحمل العامل على الاخلاد للاستكانة والركون الى الدعة والسكون . ففي المانيا حيث التحسس بالروح النقابية او المهنية لا يزال عميقاً في النفوس ، فقد اتخذ اصحاب الحرف القديمة الطراز من هذا الشعور

"تكتلة" لهم لتنظيم صفوفهم وللصمود في وجه القانون الذي ينظم المنافسة الحرة في مجال العمل . وقد بقيت قوية وطيدة ، هذه الرابطات او الجمعيات المهنية ، مثل : رابطة ابناء سليمان المعروف اعضاؤها باسم « Gavots » ، ورفاق العمل ، ودورة فرنسا وغيرها التي مهما باينت بينهما المصالح الخاصة لا تزال مع ذلك تشدها عاطفة من التضامن والتعاضد بين ابناء المهنة الواحدة ، والعمل على توجيههم التوجيه الصحيح .

وفي وسط هذه الجمعيات والأخويات الحرفية اختمرت الفكرة النقابية التي من اهدافها الرئيسية السعي للتخفيف من الاضرار والاذى التي يتعرض لها ابناء المهنة : كحوادث العمل ، والمرض والبطالة ، وذلك عن طريق الصناديق الخيرية التي تغذيها التبرعات . وقد عدت باريس وحدها في عهد عودة الشرعية الى البلاد ، ١٣٢ جمعية مهنية ضمت ١١٠٠٠٠ عضو بينهم ٢٦٠٠ من عمال المطابع الا ان هذه الجمعيات تفتح ابواب عضويتها على الاخص للعمال الذين تمت لهم الخبرات الفنية وبعض المهارات بعد ان توفرت لهم درجة ما من التعليم ايقظت فيهم روحاً اقتصادية . واولى التعاونيات التي ظهرت في الولايات المتحدة وفي انكلترا جاءت وفقاً للأوينيّة ، هذا المذهب الذي قام وفقاً لنظريات Owen في الوقت الذي طلعت في فرنسا احدى هذه التعاونيات باسم « الرواد المنصفون » التي اتخذت اساساً لنشاطها المبادىء التي قال بها وعلم روشدال ، كما قامت تعاونية اخرى على اساس المبادىء التي قالت بها المدرسة البوشيزيانية التي كانت تطالب بادارة حكيمة . والاتحاد النقابي الوطني الكبير الذي بنى عليه أوين آمالاً كبيرة ، والذي اصيب بالتفسخ والانحلال من كثرة المطالب والاهداف التي وضعها نصب اعينه . فلم يحن بعد طلوع عهد النقابية حتى السلمية منها والنفعية .

فالعمال وأصحاب المهن مقتنعون جميعهم بالضرر والاساءة التي تسببها لهم الآلة . فالآلة هي عدوتهم الأولى وخصمهم الكبير ومنافستهم الجديدة . فمن انكلترا حيث عم استعمال الآلة في اوائل القرن التاسع عشر ، اطلت على دنيا العمال نزعة تحطيم الماكينات في المصانع . فالعامل او الانسان الذي يعتمد كلياً على سواعده وقوته البدنية لكسب معاشه يقف ، وهذا امر طبيعي ، في وجه كل قوة اخرى تزاحمه او تقف حائلاً دون تأمين معيشته ، او التي تتسبب في تخفيض اجره او مرتبه . ولذا تكاثرت حوادث تحطيم الماكينات والآلات في كل من فرنسا وبلجيكا وبريطانيا وسويسرا نفسها . فقد انطلقت الحركة من مدينة فرفييه في آب عام ١٨٣٠ ، مطالبة « بتحطيم الماكينات » . وعمال المطابع الذين تمردوا ضد الملك شارل العاشر في تموز ١٨٣٠ ، راحوا يطالبون بعد ذلك بسنة ، بالتخلي عن المطابع الآلية .

فالعهد عهد غليان يلف الريف والمدينة على السواء . وقد انضم عمال الكرمة في مدينة بيزنسون الى المظاهرات احتجاجاً على توحيد الرسوم ، عام ١٨٣٠ . والثورات البلجيكية التي نشبت في السنوات ١٨٤٥ — ١٨٤٦ في المقاطعة الفلمنكية عمت المجتمعات الريفية كما عمت مدينة

غنت . وهذه الفتن والاضطرابات التي تكرر وقوعها لا يقوم بها العمال الفحامون في مناجم انزين او اللوار او الفحامون في المناطق الانكليزية ، بل ايضاً اصحاب الحرف والعمال المياومون العاملون في المرافق الزراعية . وهكذا نرى العمال يمسكون عن العمل ويضربون في ولايات البيامونت ولمبارديا والبندقية ، في الاشهر الاولى من سنة ١٨٤٨ . وقد برزت الحركة تظاهرة في الشوارع على شاكلة مظاهرات الشوارع في الثورة الكبرى . فالعمال والصناع ينضمون الى اصحاب الدكاكين والمخازن والمستودعات والى جماعات البورجوازيين في الفتن التي وقعت عام ١٨٣٠ و ١٨٣٢ ، و ١٨٣٤ ، وفي شباط ١٨٤٨ ويثورون لشؤونهم الخاصة عام ١٨٣١ وفي حزيران ١٨٤٨ .

قمعت السلطة الفتنة التي نشبت في ليون عام ١٨٣١ بعد ما لاحظ المعاصرون ما للحادث من خطر وشأن . فقد كتب سان مارك جيراردن حول هذه الحادثة في جريدة الديبا قائلا : ان الفتنة التي نشبت في ليون اظهرت للناس امراً خفياً هو هذا الصراع الداخلي في مجتمعنا والقائم بين طبقة الملاكين وطبقة الفقراء المعوزين . . . وراح يشهّر بـ « هؤلاء البرابرة »، من نوع خاص الذين « يشكلون خطراً » على هذا المجتمع « والقائمين في ضواحي مدننا الصناعية وأرباضها » . وهذه الكلمات ردد صداها ماركس في كتابه : « بؤس الفلسفة » حيث جاء « فالبربرية أطلت برأسها من جديد وطلعت هذه المرة علينا من احشاء حضارتنا واصبحت من اجزائها المقومة » . وهذا لا يعني قط ان نظرية سياسية جديدة هي التي تحفز العمال في صناعة الحرير ، هؤلاء « المنبوذين » كما يصفهم لامرتين ، بل هذه النقابة التي دعا الى تأسيسها معلمو الورش والمصانع للحد من تعنت تجار الحرير والتي تعمل من وراء العمال وتعتبرهم رفاق عمل . الا ان جل ما يطلبه هؤلاء العمال المتمسكون بتقاليدهم المرعية هو رفع اجورهم . « نحن نجاهد ونكافح لتأمين خبزنا اليومي ، ولتوفير العمل لنا » كما يصرحون . ولما كانوا يخشون عاقبة الحركات التي يقومون بها ، نراهم يتراجعون عن موقفهم ويفسحون بذلك المجال للجنود لاسترجاع المدينة التي سيطروا عليها مدة من الزمن . فقد اسفرت هذه الحركة عن سقوط اكثر من الف بين قتيل وجريح ، الا ان اثنين حكم عليهما بالشنق بعد ان قبض عليهما الثوار وهما متلبسان بجريمة النهب والسلب . ومن الملاحظ انه لم تقع حوادث عنف على اصحاب الممتلكات الخاصة او العامة .

وباستطاعة المجلس ان يشدد فيما بعد قائلا : « ان الصراع الطبقي بين البروليتاريا والبورجوازية برز الى الصف الاول في تاريخ اكثر بلدان اوروبا تقدماً وتطوراً » .

حرية العمل والنضال دونها

واذ خشي محافظ الرون ان يرموه بتهمة الضعف ، رفع الى اولي الأمر تقريراً مسهباً جاء فيه : هنالك بين ٦٠،٠٠٠ و ٨٠،٠٠٠ من العمال كانوا بالفعل يتضوررون بؤساً . فلم يكن بالامكان مقابلة مظاهرتهم السلمية اعراباً عن

مطالبهم المشروعة بإطلاق النار عليهم الا اذا كنا بالفعل ننوي افناءهم بالجملة ». فقد بلغ من شدة خوف اصحاب الاملاك ، في باريس ، عام ١٨٣٤ ان راح تيير يعلن عالياً : « لا مكان للرحمة قط » ، كما راح الجنرال بوجو يصرح بدوره : « يجب قتل الجميع ، لا رحمة على الاطــلاق . كونوا بدون شفقة ... يجب القضاء على ٣٠٠٠ من العصاة » . واذ ذاك توقفت مذابح شارع ترانسنونين . وقد جاءت حركة القمع ، عام ١٨٤٨ ، أشد منها واقوى .

فالمحافظة على النظام انما تعني التسييج حول العمل ومنع او حظر كل ما يمسه او يوقفــه . فالتشريعات الاجتماعية التي صدرت اذ ذاك في اي مكان ، انزلت الاعتصاب بمنزلة الجناية ، كما ان اي اخلال بالقوانين التي توصي باحترام الملكية وصيانتها كان جزاؤه التوقيف، وربما السجن مع الاشغال الشاقة . وقد تناولت احكام من هذا النوع ، بضعة آلاف في السنة الواحدة .

فالمجتمع غير ملزم بمساعدة من وقع فريسة العوز ، وتوفير ما يؤمن أوده دون ان يقوم بأي عمل . ولهذا استمرت انكلترا في اخذها بنظام فرض الاصلاحيات على المخالفين . فالحركة الاصلاحية التي ادخلت على « سجن البؤساء المعدمين » ، عام ١٨٣٤ هي من بعض نتائج المساعي الحميدة التي قام بها المتأثرون بتعاليم بنتهام ، والمنشقون عـن الكنيسة الانكليكانية في انكلــترا والاحرار من اتباع الـ *Broad Church* وبعض اعضاء حزب المحافظين الاجتماعيـــين زاد صعوبة عملية الاختيار بين العمل الاجباري ، والتشغيل في المدينة والمهاجرة . وهكذا نستطيع ان نتفهم اليوم بصورة ادق تعلق المحافظين الالمان بالروح التعاونية النقابية القديمة ، هذه الروح التي عرفت كيف تصمد في وجه الاجراءات الاصلاحية التي حصلت بين ١٨٠٧ — ١٨١٢ والتي رؤي اكثر من مرة جعلها الزامية .

اما في فرنسا حيث القوانين المعمول بها تحول دون بعث الروح النقابية ، فقد راح بعض من الكاثوليك يقترحون ، بعد ان تبينوا العجز الذي يشل عمل المؤسسات الخيرية الفرنسية ، الاخذ بطريقة التحكيم وتشكيل مجالس نقابية مختلطة وانشاء تعاونيات . « علينا ان نشجع العامل على استكمال تهذيبه خلقياً وعلى اكتساب طبائع اكثر انسانية وذلك عن طريق تقوية وسائل التملك والحيازة عنده وانشاء توفيرات له » . هذا ما كتبه زوبير الكلفيني ومن رجـــال الاعمال في الألزاس . ففي كل مكان ترتفع الدعوة مطالبة بالادخار والتوفير .

وقد عدت انكلترا نفسها مجدوة الحظ اذ انها تقدمت غيرها من الدول في وضـــع قوانين العمل في المصانع ، هذه القوانين التي خولت العمال حق الاحتكام لدى السلطات العامة عندما يتجاوز ارباب العمل حقوق الحريات المعطاة لهم ، وهي قوانين ترمي لحماية الولد . وبالرغم من انشاء هيئة تفتيش خاصة بالعمل ، كثيراً ما عبثوا بالنصوص المتعلقة بسن تشغيل الاولاد ومدى يوم العمل وضربوا بها عرض الحائط ، ولا سيما الامتناع عن تشغيلهم ليــلاً ، فيغضي المفتش او المراقب مأمور الشرطة عن المخالفات . وصدر قانون جديد ، حدد بموجبه يوم العمل للولد

بست ساعات ونصف ، و ١٢ ساعة للنساء اللواتي حظر عليهن العمل في المناجم منذ عام١٨٤٢، كما انه عملاً بأحكام الوثيقة ، نشطت الدعاية لاصدار قانون يحمل ساعات العمل في اليوم عشر ساعات فقط . واتخذت بروسيا الاجراءات الاولية للتسييج حول مصلحة العمال الصغار ، الا انها جاءت غير وافية بالمرام . اما في فرنسا فاذا ما وقفت المؤسسات التشريعية الى جانب ارباب العمل لعدم وجود دائرة خاصة تعنى بالتفتيش ، فلم يكن هذا الموقف ليملي عليها وجوب التصرف في مصلحتهم . ولذا فقد اقرت الجمهورية الثانية قانون العمل بـ ١٢ ساعة عمل في اليوم .

احلال المدرسة محل المصنع ، سياسة تتفق ومتطلبات التقنية والاخلاقية. فغيزو البرتستانتي يلتقي هنا مع مطالب النحل الانكليكانية البريطانية . ولذا راح يقترح عام ١٨٣٣ المباشرة بتعليم مدرسي يتولاه اعيان من رجال الدين والدنيا . « لتحسين وضع العمال يجب قبل كل شيء تنقية نفوسهم وتوطيدها وتنويرها » . وراح مسيحي آخر مشهور هو مونتلمبير، يعلق على هذه القضية قائلاً : « هنالك شيء ما تم في فرنسا مع تقدم التعليم العام : هو الحركة الاجرامية » .

الرومنطيقية الاجتماعية وانبياء المدينة الفاضلة

مما لا مراء فيه قط ان الجريمة الاجتماعية تلاقي السخط في اصحاب الضمائر الحية ، وتهيج المشاعر في القلوب الحساسة . وهذا الشعور الغامض في اعماق النفس يستحيل ، شيئاً فشيئاً عاطفة انسانية عارمة كما ان الرومنطيقية الوطنية تحتدم جذوتها امام التهمة التي يرمون بها الوطنيين من انهم سيبقون غير مبالين بنداء الوطن . فالجمعيات والهيئات العاملة في حقل الاصلاح الاجتماعي كثيرة هي،ولكل واحدة شعاراتها وتعاليمها ومراسمها ، وكلها تنطق باسم المسيحية وتنزل الله على الارض وترسم لنا صورة للسيد المسيح متسربلاً بلباس الثوار ، بزي ابن البروليتاريا . فعلى البشارة الجديدة ان تُعلَن ويكرز بهابانتظار اليوم العظيم. فبعد اعلان حقوق الانسان وبعد اعلان ابناء الشعب ، والبيان الصادر عن *Les Egaux* ، يطل علينا قانون ايمان السان سيمونيين وبيان الفورياريين المعنون : « الديموقراطية المسالمة » الى جانب الكتاب الذي اصدره برودون بعنوان : « ما هي الملكية »؟ الذي يخاطب فيه الطبقة الرابعة على شاكلة الاب سييس في تساؤله : « ما هي الطبقة الثالثة » ؟ ريثما يطلع علينا البيان الشيوعي والبيان المعروف ببيان الستين وبيان الدولية الاولى .

والشعراء الفنانون ، كل منهم مؤمن برسالته . فقد جمع احد رجال المال المعروفين هو اولند رودريغس من اتباع السان سيمونيين ، عام ١٨٤١ ، تحت عنوان : « قصائد العمال الاجتماعية ، نخبة من قصائد عامل القبعات كلود دسبو ، وقصائد الساعاتي لويس فستو ، والاسكافي دي لابونت ، وعاملة التطريز اليزا فلوري ؛ والشاعر الغنائي بيرانجيه قدم لهم ديوانه الشعبي : « حورية القوافي » ؛ ووضع لامنيه على شرفهم « كتاب الشعب » ، وهوغو يطمئنهم من جهته

ويؤكد لهم قائلاً : « نحن كلنا عمال ، حتى الله نفسه . والفكر عندكم يجهد فوق ما تجهد اليد وتتعب » . ولوكونت دي ليل ينشر في جريدة « لافالنج » العديد من القصائد ؛ والموسيقار ليست يضع للعزف قطعة يسميها « ليون » ويقدمها للعمال في صناعة الحرير ، تخليداً لثورتهم و لامرتين يكرس لهم احدى مؤلفاته (*Harmonies*) ويمتدح عالياً في مجلس النواب الممثل الوحيد لطبقة الحظ العاثر .

هنالك عدد كبير من الكتاب في المانيا الفتاة ، امثــــال بورن ، وهرويغ وفريليغراث يعبرون عن مثـُل الجماهير الشعبية ومطالبها؛ والبؤس الذي يرسف فيه العمال اوحى الى توماس هود « انشودة القميص » كما اوحى لإليوت « قوافي قانون القمح » ، ولديكنز اروع المشاهــد التي تهز المشاعر ، بعنوان : « الازمنة العصيبة » ولدزرائيلي روايته المشهورة « *Sybil* » الـــتي تمور صفحاتها بالالوان والتي تدور حول واجبات الطبقة الارستوقراطية ، اذ من اولى واجبات هذه الطبقة مد يد رقيقة للبائس ضد البورجوازي الذي لا شفقة عنده ولا رحمـة . واستطـاع هرزن من ان يثني بكلنسكي عن مثاليته الفن للفن بحيث يكن المزيد من العطف على الشعب « اسوة بمارات » . وراح ايوتفوس ينادي بتحرير اليهود ، والغاء النظام الاقطاعي في هنغاريا ، وتصوير المجتمعات التي يخيم عليها البؤس اتخذ هو الآخر اتجاهاً مثيراً ، بينما حرص الطليعيون في الحركة الرومنطيقية على الباس الاخلاق العمالية شكلا مثالياً . وعلى مثل هـذا النهج سار هاين في كتابه : « رحلة الى هارز » . لم يكن المطلوب منهم وضع خطة شاملة للاصلاح الا انهم وضعوا اصبعهم على الداء .

وهذه المرأة التي يشتد التملق اليها والتي لا تزال مضطهدة ومزدراة في المجتمع ، تعبر بدقة عن مطالبها الرئيسية . فلاخوات برونتيه سلقن بألسنة حداد ما تخفيه التقاليد المرعية من رياء . وتروي لنا فلورا تريستان،هذه المرأة السفاح التي عرفت زواجاً مشؤوماً ، قصة حياة بائسة . ويشدد السان سيمونيون على وجوب تحرير شريكة الرجل وقرينته. ويطالب كتاب معروفون امثال جورج صاند ودانيال سترن غير مبالين بهزء الهازئين وعذل العاذلين ، بحق المرأة في التعلم وحقها كمواطنة . وتقدمت نوادي السيدات وجمعياتها ، عام ١٨٤٨ بطلب المساواة وبالزواج الحر المبني على الحب المتبادل .

وقد رؤي ، تحريراً للرجل ، ان يصار الى تنظيم المجتمع من جديد. وهكذا قامت حركة رجعية ضد التحررية الطبيعية تمثلت في هذه النظريات والآراء حول التعاون والتعاضد . والسان سيمونيون يوصون باستخدام الدولة في هذا السبيل بعد ان يجردوها من شكلها السياسي، كما يستخدمها لويس بلان لتحقيق الجمعيات العمالية ، الا ان أوين ينصح ابناء البروليتاريا بان يتدبروا امرهم بيدهم وان يحكوا جلدهم بظفرهم ؛ ومدرسة فورييه لا تعتمد الا على التجمـــع الواعي او التلقائي ، كما يوصي برودون من جهاته بالاعتماد على تبادل الخدمات . ومعظم هذه

المذاهب الاجتماعية كما يبدو اما انها لا تعلق اية اهمية على الآلة او الماكينة ، واما انها تعكس بوضوح النزعة العمالية . فهي تتمنى ، على العموم سعادة هادئة في احضان الطبيعة . وانبيـاء المستقبل السعيد هؤلاء المسالمون ، يرمون الى انقاذ البشرية من الاضطرابات ومن تشليت القوى جزافاً بشكل لا يقل بشيء عن رغبتهم في انقاذهـا من البشاعة . فسان سيمون يشجب « استثمار الانسان للانسان » وهو اصطلاح يتبناه الكتاب ويمضي مثلا في الارض ، ويدعو كلاً من المهندس والصيرفي والعامل الى التعاون العام للتغلب على البؤس . وهذه الشيوعية التي نادى أوين وكابه والتي تفتر عن بسمة الامل لا تقل رضى عن الديموقراطية المسالمة التي نادى بها أتباع فوريه ، عدوة العنف . ومقابل « الانسجامات الشعرية » للامرتين ، والانسجامات الاقتصادية لبستيا ، يجب ان نذكر الانسجامات الاجتماعية التي قال بها اصحاب هذه النظريات. فراح البعض يصفهم بأنهم غـير واقعيين او عمليين ، اذ انهم كما يقول فيهم انجلس : « لا مندوحة لهم من التعويل على العقل لوضع اسس بنائهم الاجتماعي الجديد». فالخط الذي رسموه يلتقي بتوماس مور عبر فلاسفة القرن الثامن عشر .

مارکس وردة الفعل التي قام بها

من بين هذه النداءات التي طلعت علينا ، هذا النداء الذي أحدث اكبر واضخم دوي في العالم والذي اطلقه ماركس بعنوان : « نداء الحزب الشيوعي » بعد ان تعاون على وضعه في اواخر عام ١٨٤٧ ، كل من كارل ماركس وفريدريك انجلس ، كلاهما عضو في هذا الفريق الثوري الالماني ، من سكان مقاطعة رينانيا ، العامل في المنفى . كان ثانيهما ابن عامل يعمل في صناعة النسيج ، نشر بحثاً بعنوان : « وضع الطبقة العاملة في انكلترا »، عقب اقامته القصيرة في منشستر درس خلالها التنظيم الذي كانت عليه الصناعة في تلك البلاد. « فقد ظهر له - كما يؤكد لنا - بأن الامور الاقتصادية التي لم يعرها التاريخ ، حتى ذاك ، أي وزن وكاد يهملها بالمرة ، تؤلف ، أقـله في عالمنا الحديث ، قوة تاريخية حاسمة هي اساس الصراع القائم اليوم بين الطبقات ». اما الاول منهما ، فهو سليل اسرة بورجوازية من اصل يهودي وعلى مذهب هيغل الفلسفي ، خرج من نقده للمثالية التي قال بهـا هيغل ، الى نقد الاقتصاد السياسي . فبعد ان احتفظ من الفلسفة الهيغلية بالنهج الديالكتيكي الذي يحسب حساباً كبيراً للحقيقة المتغيرة وانتهى للقول بفلسفة مادية غير اخـلاقية ولا فردية — كما يقول النفعيون — بل تاريخية ، اي انها ترى في العلاقات الاجتماعية القائمة نتيجة احتياجات انسانية وذرائعها المتحركة . وبعد ان اتخذ موقفاً له المبدأ القائل : « بأن ليس ضمـير الانسان هو الذي يحدد نهجه في هذا الوجود ، بل ان النهج الذي يسير عليه الانسان هو الذي يحـدد ضميره » ، راح يؤكد مع الجناح اليساري للهيغيلية ، ان الانسان هو الذي يخلـق فيه فكرة الله وليس الله هو الذي يخلق الانسان . وهكذا وصل الى فكرة تحول الانسان . وهذا التحول ليس في وسع الانسان منعه الا بتغلبه على المتناقضات الحاصلة من صراعه مع الطبيعة ، وبتجـاوزه

المستمر للظروف الخاصة التي تكتنف حياته . فاذا ما رأى نفسه ، في آخر المطاف مضطراً ليعلن في بيانه « بأن تاريخ المجتمع البشري برمته ، لم يكن حتى يومنا هذا سوى تاريخ طبقاته المتصارعة فيا بينها » ، فلأن هذه الطبقات تتكيف وهذه الفئات الاجتماعية هي التي تتصارع فيا بينها، وصولاً منها للتحكم بوسائل الانتاج . ففي مجتمعنا البشري اليوم يقوم صراع بين الطبقة البورجوازية والطبقة الاقطاعية ، كل منها تعتمد نظاماً اقتصادياً خاصاً بها . فبمجرد استيلائها على الملكية العقارية ، تؤلف البورجوازية ، بالضرورة ، طبقة مخاصمة او منازعة ، بينما تروح البروليتاريا تسعى بالضرورة ، هي الاخرى ، تأميناً لحريتها ، للقضاء على هذه الخصومة التي تسببت بانشاء البروليتاريا . وقد تبين ماركس في الدولة الحديثة ذريعة او آلة في خدمة الطبقة المسيطرة . ففي تحطيمه لها تحرير بالتالي، للانسان . الا ان الفرد لا يمكن ان يتحرر الا ضمن طبقته وبواسطتها . نحن هنا امام غائية انسانية يرجى معها ان يبلغ الفرد البشري تفتحه الكامل في مجتمع لا اثر للطبقات فيه . ففي البروليتاريا مناط هذا الامل المعسول . ومع اسقاطها مبدأ العدالة ، فالماركسية لا تتعرى ، والحالة هذه ، من كل مثالية .

ومهما جاءت فكرة ماركس ونظريته الفلسفية، اصيلة فهي تتصل بنظريات ريكاردو حول الدخل والربح والاجر ، ونظريات سيسموندي حول تجريد الرأسمالي لصاحب الاجر، من كل شيء . فهي تعيد الى الاذهان اقوال بيكور الذي كثيراً ما ردد بأن الآلة تفضي الى الحشد في الصناعة ، وهذا الاخير الى وجوب وضع آلة الانتاج تحت ملكية المجتمع وسيطرته . فأمام ما نرى من مفارقات البذخ والبؤس في البلدان الأكثر تطوراً في اقتصادياتها التي تنهض على التبادل التجاري الحر ، نرى بالاضافة الى ذلك ، هذا الاقتصاد يجيش بعوامل وتفاعلات ثورية من جراء تصادم المجتمعات الديموقراطية والراديكالية، واليعقوبية والوثائقية . فلا يمكن فصمها عن هذه الحركة الدولية التي تعمل ضد النظام القائم الذي اتخذ محاوره الكبرى في كل من لندن وبروكسل ولا سيما باريس . فقد كان لاقامة ماركس في باريس ومكثه الطويل فيها، تأثير عميق على بنياته السياسي .

الديموقراطيون والثوريون الراديكالية والوثائقية

تجر العجلة الصناعية التي تزداد سرعة يوماً بعد يوم وبشكل لا يقاوم (ميشليه ، ١٨٣٤) وراءها القوى الديموقراطية التي تعتمدها الروح التحررية في صراعها ضد النظام القديم ، وادهى ما تخشاه هو ان يتم طلوعها . وهكذا تسببت البورجوازية في بعث الطبقة الرابعة ، وليس من يدري قط ما اذا كان بالامكان تأمين الاتفاق فيما بينها ، وفي اي مكان ، في هذه الشعوب التي تعتمد النظام النيابي او التمثيلي .

ليست الديموقراطية في الظاهر سوى فرد تشبع بالروح التحررية ويسلم بالاقتراع العام . «صوت الشعب هو من صوت الله» ، هتف الشاعر ، وعبثاً يتحدث لامرتين عن القفز في المجهول،

فهو لا يسعه الا التسليم بأن الامر قضي به على هذا الشكل . يحدثنا كورمنين عن « الايمان بسيادة الشعب » . ولكن هذه الرمزية ، يعترف ارستوقراطيون مشهود لهم بالاطلاع الواسع امثال شاتوبريان وتوكفيل ، بما لها من قوة وسحر ، لنهوضها على المنطق واعتمادهـا عليه . فالاقتراع الشعبي المستنير المثقف ، من شأنه ان يقي ، في اضعف الايمان ، من العنف ، وان يطأطيء برأسه امام الكفاءات .

فمهما بلغ من غموض النظام الجمهوري ، فالمعاصرون الذين عاشوا تجربته المريرة يعيدون الى الاذهان ، ذكر الحوادث الكالحة التي حدثت عام ١٧٩٣ . اما في ايطاليا والمانيا ، فحظ هذين البلدين منها مربوط بقدرتهما على تحقيق وحدة الامة . كذلك شأن اي انسان يرد الحروب الى خناقات الملوك بعضهم مع بعض ، يتمنى من الصميم طلوع عهد الجمهورية العامة .

أما فرنسا ، فالبلبلة السائدة فيها يغذيهـا هذا الوضع الديموقراطي الخـاص القائم على النظرية النابوليونية . صحيح ان روبسبيير وسان جوست ، لهـما هما الآخران ، أنصارهما ومريدوهما . غير ان نابوليون فهو يتمتع في البلاد بشيء اشبه ما يكون بالعبادة وقد رسخت على الأصل واعرقت بين صفوف صغار القوم على الاخص . ففـي حـالة وقوع اي اضطراب ، فالوريث الشرعي لهذه الاسطورة التي تأخذ بمجامع القلوب يبرز للجميع كالمنقذ الوحيد للنظام ، هذا النظام الذي يراه قادراً على الخلق والتجديد . فاللبس والغموض يفيدانه ويزيـدان من الحنين اليه والتلهف عليه . « عد نابوليون ، وانزل قصرك وكن ابناً باراً للجمهورية » ، هذا ما كانت ترددد احدى الاغنيات الشعبية ، عام ١٨٤٨ .

فاذا لم يقم في انكلترا ما يمس بعاطفة الولاء للنظام الملكي ، هذا النظام الذي وطد اركانه وشدد من دعائمه حكم الملكة فكتوريا السديد وادارتها الرشيدة ، فالقلق الاجتماعي المسيطر على البلاد يضع وجهاً لوجه هذا النصف مليون من اثرياء القوم هنالك ، اصحاب الامتيـازات والاعفاءات ، مع هذه الملايين الثمانية من الفقراء المعوزين . فقد ساد تلك البلاد مزاج خاص من الراديكالية المتصلة بحبل وثيق بالبيوريتانية المتزمتة التي يتردد على لسانها القول المأثور : العمل صـلاة » ، شعار ديموقراطية الاكفاء أمام الله . وبفضل الحالة الفقرية الآخـذة بالاحتدام ، تستبد بالأفكار اكثر فأكثر ، فكرة الصراع الاجتماعي المكشوف الذي يدعو اليه علانية فرغوس اوكنور ، وفرونتير اوبريان ، وكلاهما ايرلنديان ، ومن ابناء ايرلندا المتحررين ، راح الاخير يترجم الى الانكليزية كتاب بيونارّوتي عن بابوف ، فربط بين براءة الشعب التي تطـالب بالاقتراع العام ، والغاء طبقة اللوردات ، وبين وثيقة اعلان حقوق الانسان التي صـدرت في فرنسا عام ١٧٩٣ . غير ان الصدام العنيف المتوقع لم يحدث وذلك لاضطرار زعماء الوثيقـة للتسليم بأن كوبدن وبيل بكسبهما معركة الرغيف بسعر رخيص ، اقاما الدليل على ان امام النظام الرأسمالي دور كبير يجب ان يلعبه . فانجلس الذي وضع آنذاك كتابه حول الطبقـة

العاملة في انكلترا ، وماركس عضو العصبة الشيوعية فكرا عميقاً بنتائج موقفهما هذا . وهكذا ختما بيانهما بالدعوة الى تضامن البروليتاريا في جميع انحاء العالم همـــا بحاجة لمناصرة الثورة وللوقوف الى جانب الثوار في القارة . فاذا ما راح الراديكاليون في فرنسا على طريقة لودري – رولن ، يشجبون بحماس ، أكثر مما جرى في المانيا ، الاشتراكية (استعمل هذا الاصطلاح لأول مرة ، عام ١٨٣٧) فلم يتورعوا عن التحدث عن الجمهورية الديموقراطية والاشـتراكية . ومهما يكن ، هنالك في باريس اوغست بيانكي وانصاره ، وكلهم شيوعيون ملحدون ، يعتقدون بوجود مؤامرة انقاذ . والحال فقد لعب فيليبو بيوناروتي ، حتى ساعته الاخيرة ، دوراً بارزاً ، اذ كان بمثابة اداة وصل بين جمعية الفحامين والبيانكيين والوثائقيين ، وبـــين اليعقوبيين والبابوفيين من أنصار الثورة الفرنسية ، وبين دعاة اليعقوبيـــة الجديدة وانصار البابوفية الجديدة الذين أخذوا يعون اكثر فأكثر ، القطيعة القائمـــة بين البورجوازية والبروليتاريا .

عهد الجمعيات السرية والدسائس وثورات الشوارع في اوروبا الغربية

في عهد سيطرة الحلف المقدس ، راحت المنظمات والفئات السرية التي وضعت نصب اعينها تقويض السلطات القائمة وهدمها ، تنظم صفوفها في الخفية. وقـــد رمت من وراء نشاطها السري هذا الى توفير عنصر المفاجأة ، وبغتة أطلت الفتنة برأسها ان لم نقل حركات الانقلابات العسكرية .انها أمر ضروري ولا شك ، ولكنهامزاج خاص ايضاً . فالرومنطيقية تتعشق الظلام والانقلابات العسكرية .

فاذا لم يكن من الراجح، الظن بأن مؤامرة ماسونية كانت وراء ثورة عام ١٧٨٩ ،فليس ما يؤيد الادعاء كذلك بأن الماسونية هي التي بيتت للحركات الثورية التي وقعت بعـــد الثورة الكبرى بأربعين او بستين سنة . فقد اقامت لها علاقات صريحة مـــع الحكومات منذ اليوم الذي تقدمت منها بطلب التساهل الفعلي . فهي ثورية المسلك والطابع ، في هذه الاقطـــار الواقعة الى الجنوب من اوروبا ، تحدياً منها لهـــذه النظم الملكية الكنسية او المستبدة التي تنتصب في وجهها وتسد عليها الطريق . فقد جعلت فلسفة الانوار منها في روسيا ، حركة محافظة تحترم النظام الجاري الاخذ به.ومما لا شك فيه مع ذلك ان الثورةالموصوفة ***décabriste*** التي انطلقت عام ١٨٢٥ ، سببها المباشر اغلاق المحافل الماسونية عام ١٨٢٢ ، بعد ان استمرت البابوية ، منذ القرن الثامن عشر على شجب الماسونية بعنف كلي وتحريمهـا . ولذا استمر الصراع بينها وبين الكنيسة الكاثوليكية . وهذه المنظمات او الجمعيات التي نعتها كل من البابوات إقليمس الثاني عشر ، وبندكتوس الرابع عشر بـ « ضارة » تؤذي ليس فقط باستقرار الدول وهدوءها ، بل تؤلف خطراً شديداً على النفوس » .

ففي البراءة الرسولية التي اصدرها البابا ليون الثالث عشر عام ١٨٢٦، «يلاحظ ان من هذه

الجمعيات الماسونية القديمة التي لم يفتر لها نشاط قط ، طلعت علينا عدة جمعيات سرية اشد كراهية منها ومقتاً » . فيذكر منها منظمة « الفحامين » التي « وضعت نصب اعينها قلب الحكومات الشرعية والقضاء على الكنيسة » . رأت جمعية الفحامين هذه النور في مملكة نابولي واستطاعت ان تقيم لها شبكة من الفروع غطت كل ايطاليا وامتدت الى كل من فرنسا واسبانيا. وقد عرفت ان تكتسب لها اعضاء كثيرين بين افراد جيش نابوليون . حاولت هذه المنظمة عام ١٨٢٠ – ١٨٢١ تنظيم فتنة ضد الشرعية في فرنسا . وبالمقابل نشطت دعاية قوية في الاوساط العسكرية ، في كل من بولونيا وروسيا . واثارت بمناسبة وفـــاة القيصر اسكندر الاول فتنة (*décabriste*) . الا انه انطلاقاً من ١٨٣٠ ، اقتصرت الانقلابات العسكرية على اسبانيـــا. وحدها . والمطالب الشرعي بالعرش النابوليوني ، حاول عبثاً مرتين مغادرة جزيرة ألبا .

ففي هذه الجمعيات ذات النزعة الجمهورية التي تكاثر وجودها ، لا تزال روح الفحـــامين تغمرها وتسيرها . فالغاية المتوخاة من الدس والتبييت الاعداد لانقلابات جديدة . وكلما توارى العنصر العسكري عن الانظار بتواري « قدامى » الحروب المظفرة ، ازداد بالتالي اقبـــال العناصر المستنيرة واعضاء المهن الحرة وحـــتى العمال على الانخراط في هذه الجمعيات التي جاشت في نفوس اعضائها فكرة الجمهورية الديموقراطية والاجتماعية .

ولما كانت اقلية ضئيلة من اصحاب الامتيازات هي التي تستأثر بالسلطة ، كان يكفي على ما يبدو لاسقاطها ، مهاجمتها على حين غرة . « فيوم » الثورة ، حيث يصفـــى الوضع في بضع ساعات – هو عبارة عن حرب في شوارع العاصمة . فخطط المدينة تستجيب جيداً لمحاربـــة جيش نظامي يضطر للتناور والتحرك بين الاحياء والحارات والمنازل المرتفعة ، وهو اعجز من ان ينتشر او ان يستعمل بنجاح المدفع ، بينما يسمى الثوار من جهتهم ، الى تحويل هذه المنازل الى حصون مرتجلة يطلقون النار منها على افراد الجيش بنجاح او على الواقفين امـــام الشرفات او على السطوح .

والمهم في هذه الفتنة، المتاريس التي تقام في الشوارع. فأمر اقامتها يسير اذ يتخذ منها الثائر ملجأ يطمئن اليه ويخلق منه مركز دفاع جديد لا يمكن القضاء عليه بنيران البنادق ، فيحد من تقدم صفوف الجند الذين يحاولون اجبار الحي على التسليم ، كما يساعد الثوار على الالتفاف حول المباني الحكومية للاستيلاء عليها . ووضع حد للفتنة المشتعلة المسلحة يقتضـــي الجيش المزيـــد من الضحايا ، الا اذا ضعفت المقاومة امام عناد الثائرين وصمودهم . ففي الحالة الاولى تطلع علينـــا المذابح الهائلة ، في باريس عام ١٨٤٨ ، ومعارك فيينا في تشرين الاول ١٨٤٨ . ثم يتدخل عنصر التهدئة على طريقة هوسمان وينتهي الامر بسيطرة المدفع . اما في حال نجاح محاولة الانقـــلاب هذه ، تأتي الخسارة في الارواح اقل . وتتوقف اعمال القتل مع توقف الحرب واعمال المقاومة . ان قمع الفتنة وانكسارها قد يؤدي الى هدر دمـــاء كثيرة ، ويزج الالوف في السجون ، كمـــا

أن عدد الذين يأخذون بالنزوح الى الخارج ومغادرة البلاد فسيتضاعف يوماً بعد يوم .

تهجرون قبلنا هذه الارض اللعينة
بعد ان يقف الله فيها الى جانب الاقوياء
حيث الفقير يرسف في السرداب عبداً وترذل ذريته
وحيث المجاعة لا تستطب الا بالموت الزؤام

(لويس مينار « تحية الثوار » حزيران ١٨٤٨)

الثورات الاوروبية ١٨٣٠ - ١٨٤٨

فعهد الثورات الذي اطل علينا عام ١٧٨٩ ، لم ينته بانتهاء نابليون .

فالهزة العنيفة الاولى التي تعرضت لها مقررات مؤتمر فيينا عام ١٨١٥ ، وقعت ١٨٢٠ – ١٨٢١ ، وهي هزة تعرضت لها بالاحرى مقاطعات الجنوب المتخلفه في تطورها ، ولم يلبث ان قمع التدخل العسكري هذه الفتن التي قامت في شبه الجزيرة الايبارية والايطالية على اكتاف اقليات ضعيفة العدد والعُدد . الا ان الثورة التي انطلقت في اليونان طال حبلها وانتهت بالفوز بفضل اطماع الدول الكبرى المتنافسة في المنطقة ، امثال روسيا وانكلترا وفرنسا .

اما الثورات التي شبت عام ١٨٣٠ – ١٨٣١ ، وفي سنة ١٨٤٨ – ١٨٥٠ ، فقد ارتفع لهيبها عالياً فاكتوت اوروبا بنيرانها اللافحة . ولم يبق في مأمن منها غير الامبراطورية الروسية . والسلطنة العثمانية التي لم تنج من الحريق ومن سقوطها فريسة بيد محمد علي ، صاحب مصر ، الا بفضل دسائس الدول الكبرى . ومما لا مراء فيه هو ان التوقيت المتزامن لم يكن من الدقة بحيث تستقيم له اسباب النجاح . فاسبانيا والبرتغال اللتان لم تعرفا الاستقرار طويلا عرفتا فترات من الاضطرابات الداخلية . والاتحاد السويسري استطاع ان يقضي على الاقليات القديمة قبل وقوع الاصطدام العنيف عام ١٨٤٨ .

«وها هي الثورة الفرنسية تتأجج نيرانها من جديد وتندلع -كما يصرح توكفيل عام ١٨٤٨- بعد ان تماثل الوضع وتشابهت الظروف » ، ودكتاتورية السلامة العامة لم تظهر الا لفترة قصيرة. وبصورة استثنائية ، في كل من روما والبندقية ، وبودابست . واتفق كذلك ان الدفع الرومنطيقي هبط وانحط بالسرعة ذاتها التي ارتفع فيها وانكشف الحلم عن خيبة امل مريرة وتحطمت الجهود . وعلى كل فقد علمنا ترميدور ان لا ينتظر طويلاً ، فارتفاع اللهيب لحظة ويخف ، فتضطر المجالس الدستورية للاخذ بتسويات غرارة ، والحصون التي وقعت في ايدي الثوار لم تلبث ان افلتت من ايديهم ، كما ان القوميات الثائرة سرعان ما يصيبها البهر وعسر التنفس .

وعندما برزت بلجكا للوجود انهارت بولونيا ، من جهتها . ففي غربي البلاد بورجوازية

مستنيرة ؟ بينما في الشرق ارستوقراطية عقارية هي اعجز واضعف من ان تقف في وجه نفوذ الملكية المتمتعة بالكثير من الامتيازات. فعلى مكيفيكس ان يحسب الف حساب لتزارتورسكي .
والثورة في بلجكا انطلقت ضد جوزف الثاني ، قبل عام ١٧٨٩ وجاء زوال جمهورية كراكوفيا قبيل عام ١٨٤٨ ، تكريساً لاقتسام بولونيا نهائيا ، هذا الاقتسام الذي شرعوا به في الربع الأخير من القرن الثامن عشر .

وبعد ان فتنتها النزعة التحررية ، لم تماش البورجوازية التيار الاصلاحي الاجتماعي الا بمقدار ما تكنه هذه الاصلاحات من احترام للملكية الخاصة وتوطد اصولها . فالغاء عبودية الارض يؤلف لعمري اجراء من اهم الاجراءات التي طلع بها علينا القرن . فالمؤتمر الوطني في فرنسا اعطى المثل الصالح في هذا المضمار ، فسارت على النهج ذاته بريطانيا العظمى ، كما ان الجمهورية الثانية جاءت تدعم قرار الجمهورية الاولى وتشدد عليه . والتقاليد التي كرستها ثورة عام ١٧٨٩ ، قضت بتحرير الفلاح من جميع العبوديات الاقطاعية ، وثورة ١٨٤٨ التي رفعت بعيداً حتى حدود روسيا ، عبودية الارض والرسوم السيادية ، جعلت اوروبا الوسطى ، في وضع مطابق لوضع دول الغرب من هذه الناحية . الا ان الخوف المستحوذ على العامل يرغم على اتخاذ موقف معاكس ، كل هؤلاء الذين يرون فيه ، ناقلا للفوضى ، والموصل الى الجماعية . وهذا الهاجس الكبير الذي جثم على صدر سنة ١٧٨٩ ، واستحوذ على الفلاح والبورجوازي الفرنسي خلال ازمة المواد الغذائية الحادة ، كان من بعض نتائجه ان دك معالم العهد القديم من الاساس ؛ والازمة الاقتصادية التي اشتدت حلقاتها بين ١٨٢٦ – ١٨٣٢ ، عرفت ان توحد تارة ، وان تقيم الواحدة ضد الاخرى طوراً البورجوازية والبروليتاريا دون ان تحرك طبقة الفلاحين طبعاً.
أما أزمة ١٨٤٥ – ١٨٤٨ ، فبالرغم من انها شجعت سكان الريف في بلدان اوروبا الوسطى على التحرر ، فقد عجزت عن تحريك الطبقة الثالثة (طبقة الشعب) وفشلت بالتالي في ما رمت اليه من دك النظام القديم دونما رجعة ، بينما اثارت في فرنسا موجة جديدة من الهلع الكبير ، الذي اثاره « المطالبون باقتسام الثروة » و « الحر ». « ضاع كل شيء » في ٢٤ شباط (فبراير) ١٨٤٩ ، كما زعم بلزاك ، « ويبدو انكم يا سيد اراغو لم تذوقوا ابداً طعم البؤس » ، اجابه احد ثوار حزيران . وقال بوجو لتيير عام ١٨٤٩ : « يا لهم من وحوش ضارية . كيف يسمح الله للامهات ان يتصرفن على هذا الشكل ! هؤلا لعمري الاعداء الحقيقيون وليس الروس او النمساويون ! » . وبالفعل فالعامل نفسه يتورع كثيراً في تصرفه عندما ينصرف للمطالبة بحقوقه ، اذ ليس من غريزة توجهه الى ما فيه ضمانة مباشرة ، وهو حقه في العمل يلوح به عالياً على رؤوس الأشهاد ، بينما يجهل تماماً ، وهو امام البورجوازي الذي يبادر في الحال الى خلع قبعته عندما يقف امام الجندي ، كيف يفك القيود التي تكبله ، ولن يلبث ان يرى نفسه بين احتمالين لا ثالث لهما : اما الموت واما الرضوخ والاستسلام .

« أفضل عندي بكثير ٩٣ على ٤٨، كانهوغو يصرح وهو في طريق الاغتراب والنفى. أفضل الف مرة رؤية الجبابرة يتمرغون في الخواء على رؤية المغفلين الاغبياء يتخبطون في حمأتهم » .
حكم قاس لعمري ، انما يعبر احسن تعبير عن المرارة التي تنغص حياة هؤلاء المثاليين ، ثمانية واربعين ساعة التي تلي هزيمتهم . درس قاس لعمري لهؤلاء الديموقراطيين والاشتراكيين الذين يضطرون للتطلع الى المستقبل ، بعد ان يتفحصوا بدقة الامكانات المتوفرة،كما فيه عبر ايضاً للكنيسة الكاثوليكية نفسها التي يترتب عليها تجديد رسالتها بصورة اوضح . الا ان هناك بعض الافتراضات تفرض نفسها بعد لم يعد بالامكان الركون الى أوهام الرومنطيقية، والتعويل عليها بالكلية .

الفصل السابع

بروز الذات الاميركية في وجه الاستعمار القديم
الدفع الاستعماري الجديد بعد فترة من التمهل

هنا نصبنا علم الحرية ، وهنا امتحان لقدرات الناس على
حكم انفسهم بأنفسهم » .
(وولت هويتمان في كتابه : « حشد القوى - ١٨٤٦)

تقهقر الاستعمار الاوروبي القديم في العالم الجديد

بدت على نظم اوروبا الاستعمارية في اميركا عوارض التفسخ والانحلال ، وذلك نتيجة حتمية لهذه المنافسة الحادة التي اقامت الدول الاوروبية الكبرى بعضاً على بعض ، من جهة ، ومن جهة ثانية ، نتيجة النظام الاستعماري نفسه الذي كان موضع نقد وتذمر . وهذه السياسة الاستعمارية التي اعتمدت على « الاستثناء » انتهت الى الفشل التام في هذه الاقطار التي تعذر على العرق الابيض فيها التفكير ، والسعي الى رفع كثافة السكان بين الملونين . فقد قام في وجه هذه السياسة معارضة شديدة من قبل المعمرين الاوروبيين في هذه الاقطار التي ألفوا فيها العنصر الاقوى . ومما لا شك فيه قط ان قيام الولايات المتحدة الاميركية وتحقيقها الاستقلال الناجز ، بعث الامل وحرك الهمم بين الاقوام المطالبة بحقها الطبيعي في الحياة ، كما ان مبادىء ثورة عام ١٧٨٩ ، ونفوذ فرنسا الادبي وسيطرتها كان له الاثر البعيد في ما وراء المحيط . ففكرة التحرر تغلغلت بين شعوب المستعمرات وايقظت فيهم الوعي ورغبة صادقة في التحرر السياسي تخلصاً من ربقة القيود الاقتصادية التي احكمت فرضها البلد الام [١] .

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، المجلد الخامس ، ص ٣٤٤ و ٥٩٠ (الطبعة العربية) .

فاذا ما اعتبرنا ، من جهة ، ثورة اميركا اللاتينية ، مرحلة حاسمة في القضاء على الاستعمار المستحكم في بلدانها والقائم على « الاستئثار » ، فقد لعب مع ذلك الانكليز ، في هذا المجال دوراً بارزاً . ففي حروبها ضد نابوليون ، اضطرت بريطانيا للرد على الحصار البري الملن ضدها لانتهاج سياسة اقتصادية اكثر انطلاقاً لتتجه من اسواق العالم الجديد . فقد ظهر لها بوضوح ، بعد عام ١٨١٥ ماعليه الاسواق الاوروبية من ضيق ، كما قام في وجهها سياسة من الحماية الجمركية كان لها صداها في حمل الولايات المتحدة الاميركية على رفع رسومها الجمركية، كما ان الازمة التي نشبت في المملكة المتحدة حملت هذه الجزيرة القائم نشاطها على التجارة ، على تحرير اسواق قارة بأسرها واستخلاصها من سياسة « الاستئثار » التي اخضعتها لها دول شبه الجزيرة الايبرية . وفي الوقت ذاته راح اسطول صاحب الجلالة بمارس في المحيط الاطلسي حق الزيارة (او حق التفتيش) وهو حق اعترفت له به المعاهدات الدولية المعقودة عام ١٨١٥، مكافحة منها لاعمال النخاسة . كذلك ان نشاط حركة الهجرة بين البيض وانشاء مستعمرات إسكان « لا سيما بريطانية » ، اوجب البحث عن بديل جديد او صيغ جديدة في ادارة وحكم هذه المقاطعات النائية حيث يغلب العنصر الاوروبي ، بحيث ان افضى استقلال الولايات المتحدة الاميركية وبالتالي بلدان اميركا اللاتينية ، الى نظرية جديدة او نهج جديد في الاستعمار هو نهج الحكم الذاتي الذي عرف ان وفق بين مطالب البلد الام ومصالح مستعمراتها عبر البحار .

تحرير اميركا اللاتينية
حروب الاستقلال

في عام ١٨١٥ ، كادت الشرعية تعود بكامل مستلزماتها الى دول شبه الجزيرة الايبرية والى ممتلكاتها الواسعة في القارة الاميركية ، ولما كانت قوى الثورة في هذه المقاطعات سيئة التسلح ، ومشتتة تتوازعها اراض شاسعة ، فقد باءت المحاولات التحررية التي قامت فيها بالفشل، مع العلم ان البريطانيين المنهمكين بحروبهم مع فرنسا ومع الولايات المتحدة الاميركية ، لم يكن في وسعهم قط التدخل في هذه الثورات ومعاضدتها بصورة ناجعة.

فكيف تغيرت الحال بأخرى وانقلب الوضع غيره يا ترى ؟ فالصعوبات التي اعترضت سبيل الثورة وارتهنت نجاحها بقيت لعمري قائمة ، كانعزال مراكز الثورة بعضها عن بعض بما يباعد بينها من مسافات شاسعة تغشى الحشائش والاعشاب والغابات الملتفة في غرناطة الجديدة ، او تفترشها السهول المرتفعة الجرداء المترامية الاطراف بين البيرو والشيلي ، سهول اولمبيا الواقعة بين الشيلي ولابلاتا وسلسلة جبال الاندس الشاهقة الارتفاع حيث تكثر الغياض والبطائح والمستنقعات ، والمعارضة الشديدة التي قوبلت بها الثورة من جانب كبير من الطبقات الموجهة التي لم تسقط من حسابها احتمال قيام الهند بحركة تأثرية ، وتأرجح الكنيسة وترددها اذ كانت تتهيب التسبب بزوال سلطة تقليدية صديقة ، والخصومات العنيفة والمنافسات الحادة التي جاش بها زعماء الحركة فتفرقوا معها مشارب ومطالب اذ توقعوا ان تتصدى لحركتهم التحررية قوات

أشد تدريباً ، وأكفأ تسلحاً وقيادة مما تم لهم من هذا كله ، وعدم توفر أية صناعـة لديهم تستطيع مـدهم بالسلاح وتزويدهم بالعتاد الحربي الذي لا بد منه لتسليح فرق المتطوعة من ابناء الريف واضطرارهم للتمويل ، قبل كل شيء ، على الاسعافات التي قد تصلهم من الخارج . ومع ذلك ، وبالرغم من هذه النواقص، هنالك امكانات تتوفر الآن لم تكن متوقعة من قبـل غذت فيهم الامل بالفوز والنجاح ، تمثلت في حركة القمع العنيفة التي قامت بها السلطة الحاكمة فولدت في النفوس احقاداً مشبوبة وبغضاً ازرق وضغائن عنيفة ، كما امكن ان يعولوا، من جهة اخرى، على تدخل الدول البحرية الكبرى التي تهيمن اساطيلها على البحار ومؤازرتهـا بصورة اوسع ، وفعالية اكبر واوقع ؛

واشتدت روابط التعاضد والتضافر بين طلاب الحرية وناشديها من كلا جانبي المحيط ، كما اشتدت روابط التضامن بين الاميركيتين الشمالية والجنوبية . فالثورة التي ارتفع لهيبهـا في لشبونة، عام ١٨٢٠ اجبرت الملك جان السادس على مغادرة البرازيل والعودة الى البـرتغال ، تاركاً جماع السلطة فيها لابنه دون بدرو . كما ان الثورة الاخرى التي نشبت في قادش اربكت فردينان السابع وشلت فيه كل حركة . غير ان استئثار الاحرار بالسلطـة ، في شبـه الجزيرة الايبيرية ، ولو لأمد وجيز ، شجع الكنيسة في تلك المستعمرات الثائرة ، على الوقوف الى جانب حزب الاستقلال ، فساندت ثورة إيتوربيد في المكسيك . وتفادياً للمحاذير التي يثيرها اعلان الجمهورية في الريو ، راح كبار الملاكين ينادون بدون بدرو ، امبراطوراً على البلاد ، بينما تطرح بريطـانيا بكل ثقلها في كفة الميزان التي يرفرف فوقهـا خط الثورة ، ولم يصعب عليها وجود المغامرين والعسكريين المسلكيين الذين يتطوعون لتنفيذ المهام التي سيعهد بها اليهم .

ومنذ عام ١٨١٩ ، استقبلت واشنطون ممثلا لبوليفار بعد ان سبق لها واعترفت بجمهورية كولمبيا الكبرى والمكسيك .

اظهرت الولايات المتحدة كل استعداد لديها لتقدم لهما كل ما يحتاجان اليه من مساعـدات مالية وعتاد حربي. وبعد ان احتجت حكرمة لندن ضد تدخل فرنسا وضد مؤازرتها لفردينان السابع ، اقترحت على الاميركيين اصدار تصريح مشترك بتأييد استقلال الجمهوريات الجديدة . فاذا لم يشأ مونرو الارتباط بأي وعد صريح ، فقد ساعد التصريح الذي اذاعه عام ١٨٢٣ ، في توطيد هذه الجمهوريات الناشئة ، كما رأى كاننغ ، من جهته ، ان يعترف بالامر الواقع ففي سنة ١٨٢٤ ، حدث في أياكوشو انهيار آخر مركز للمقاومة الاسبانية في تلك البلاد ، ولم يبق لمدريد سوى جزيرتي كوبا وبورتو ريكو . اما تحقيق مثل هذه النتائج المحسوسة ، فقـد تمّ بعد سبع سنوات من الجهاد العنيف والحروب الدامية ، كانت محكاً قاسياً لشجاعة هـؤلاء الثوار المطالبين بالاستقلال، ولقوة احتمالهم ولمهارتهم تحت قيادة زعيم ارتُجيل ارتجالاً هو الزعيم (كوديلو) الذي اعطى كل طاقاته .

وقد لمع في هذا الصراع المحتدم اسمان ، وبرزت شخصيتان هما : بوليفــار وسان مارتن ، كلاهما من مواليد المعمرين الاغنياء ، متمليان من الفنون الجميلة وامجاد تاريخهم القـــديم . برز اولهما في كركاس وطلع الثاني في بونس ايرس. كلاهما على اطلاع واسع على امور اسبانيا لاقامتهما ردحاً من الدهر في اسبانيا . فالشاب الفنزويلي ذو العاطفة المشبوبة والذي فقد زوجته وهو ابن ٢١ سنة ، طوف في جميع اطراف اوروبا وقبس من التجربة والخبرة ما حنكه في العمل الذي ندب نفسه له ، متوجهاً بأنظاره نحو الاجنبي ولا سيما نحو الانكلوسكسون ، بعد ان تبين ما هم عليه من قوة وبأس وبعد أثر ، يعلو قامته رأس جاش بعظائم المقاصد ، جذاب ، شديــد الفتنة ، له القدرة على ان يجر وراءه الجنود دون ان ينفر منه كبار الملاكين . وقد أوتي من قوة الاحتمال وطول الاناة ما لا يتوفر بعضه للقليل ، مع ما تعرض له من مسببات اليـــأس وبواعث القنوط . فقد عرف ان يفرض النظام وروح الانضباط على افراد جيشه ، الا انه عجز باعتباره زعيماً مؤقتاً ، ان يؤلب حوله كل القوى الراغبة في الاستقلال .

ومع رغبتها الصادقة بتجريد اسبانيا والبرتغال من كل مستعمراتهـــا ، فقد حرصت الدول الاسكنديناقية ، مع ذلك على ألا تشجع كثيراً قيام اميركا لاتينية موحدة. وبوليفار الذي كان يخشى كثيراً وطأة او ضغط وحدة سياسية من هذا العيار ، نزع في الصميم الى انشاء اتحاد فــدرالي شبيه بهذا الاتحاد الذي تم في اليونان قديماً على يد فيلبس المقدوني. فكانت مدينة كورنثس مركزاً له . ولكن هيهات ان تلعب بناما دور كورنثس، اذ ان كولومبيا الكبرى ليست بمقدونيــا ، ورومان هـــذا العصر القابعون في جزيرتهم ، في المحيط الاطلسي ، حريصون على زرع بذور التفرقة والانشقاق .

وهكذا برزت اميركا اللاتينية لدى وفاة المنقذ الاكبر (ليبيراتور) سوقاً ضخمة مشرعة الأبواب امام سادة البحار وارباب التجارة والاعمال ، لم تلبث ان ازدادت تفسخــاً ، كما ان الفوضى استحالت فيها مرضاً عضالا .

توسع الولايات المتحدة وامتدادها

في الوقت الذي عجزت فيه اميركا اللاتينية اثر تحررها ، من تشكيل اتحاد فدرالي فيها ، اخذت الولايات المتحدة الاميركية بعد الحرب المظفرة التي خاضتها ضد انكلترا بين ١٨١٢ – ١٨١٤، تتسع وتمتد جغرافياً بسرعة مدهشة حتى انها أطلت في الغرب على مشارف المحيط الهادي ، وما ان طلعت سنة ١٨٥٠ حتى كانت حدودها من هذه الناحية بارزة للعيان ، واضحة ، واقتسام اميركا الشمالية الذي بقـــي مرجرجاً لا يستقر تماماً على وضع معين واحد اوحد، مستقيم ، انتهى الى وضع ثابت . فالروس اقتطعوا لأنفسهم المقاطعة المعروفة بالاسكا التي كونت عبر مضيق بهرينغ استطالـــة طبيعية لسيبيريا ، والقسم الذي كان اسبانياً لعهد قريب، اقتصر الآن على المقاطعات الواقعة حول المنطقة

الاستوائية بعد ان اقتطع الاميركيون الاراضي الواسعة التي ألفت قسماً من المكسيك في الشمال. وجاءت معاهدة اوريفون توزع بصورة حبية القسم الاكبر من هذه القارة بين بريطانيا والاتحاد الاميركي . ومع انه لم يخطر لسياسيي واشنطون اذ ذاك ، ان يضعوا خطة شاملة يستشرفون فيها صوى تطورهم الصاعد في المستقبل والعمل على تحقيقها ، فقد جاءت ، مع ذلك ، عوامل عديدة كالاسكان والحاجة المستمرة الى اراض جديدة ومحاربة الهنود واستئصال شأفتهم ، والرغبة الخفية في التحرر من الضغط البريطاني وحتى من الروس في الشمال ، والحد من الامتداد اللاتيني ، وغير ذلك من ظروف عارضة ، ساعدت على تحييز هذه الرغائب وتحقيقها . الا انه جال في رأس أولي الامر من الاميركيين ، افكار توسعية برزت بوضوح من خلال الازدهار التجاري الذي نعم به الاتحاد الاميركي وبناء اساطيل تجارية وحربية ضخمة ، ساهم ، انهاك اوروبا بحروبها المتصلة ، على تحقيقها . وهكذا قامت ضد الشركات الروسية والانكليزية ، ولا سيما ضد الشركة المعروفة بشركة خليج هدسون الاميركية للفراء ، بادارة ألماني مهاجر يدعى استور كان خير من يمثل مصالح الجمهورية الفتية ، هذه المصالح التي راحت اميركا تدافع عنها ، محذرة بلسان رئيسها مونرو ، من مقاصد الروس واهدافهم التوسعية ، وباخراج بريطانيا شيئاً فشيئاً من هذه الشراكة في السلطة على مقاطعات الاوريفون .

صحيح ان الاستيلاء على هذه الاراضي جاء متقطعاً . فقد ترك تحقيق مراحل الاستيطان والاسكان الزراعي والراعوي والتعديني ، مساحات شاسعة غير مشغولة . فالابيض يتطور على حساب الهندي الاحمر بعد ان يسلبه ارضه التي يظعن اليها ويتحرك فيها على هواه ، هذه المنطقة التي لا تعرف الهدوء ولا الاستقرار لما يحف بها من مخاطر ، فيضرب خيامه في ارض معادية ، في هذه المنطقة المتحركة المتنقلة التي يعرفها الاميركي بالحدود ، والتي شهدت صراعاً خفياً ، لا يرحم ولا يلين منذ القرن الثامن عشر ، لا ينتهي الا في اواخر القرن التاسع عشر . والقائمون بهذا الصراع الخفي الغامض هم على الغالب ، رواد مغامرون في بحثهم عن الاصفر الرنان ، وقد اجتذب سناؤه من بعيد هذه الألوف المؤلفة ممن سال لعابهم على بريقه ولمعانه ، فتركوا لنا في سعيهم اليه وتكالبهم عليه حوادث لها وصف رائع في هذه القصص والروايات التي تركها لنا فنيمور كوبر و واشنطون ايرفن .

وفي اثر هؤلاء يهبط العطاش الظامئون الى الاستقلال ، الى الوحدة ، هؤلاء الهزازون الذين يعيشون في هذه الحيرة المحمومة ، بانتظار المدينة الفاضلة ، المثلى ، رمز المدينة السماوية ، بعيدين عن الخطيئة والخطاة ، بمعزل عن المشركين الضالين . ولعل ابرز هذه الجماعات ، جماعة المورمون الذين يهبطون ضواحي البحيرة المالحة الكبيرة ، حيث يؤسسون لهم مملكة القديسين : صهيون الجديدة . وهذا الغرب البعيد يفتن بسحره الاخاذ ، هؤلاء الاوووبيين الذين اخذوا يرون في اميركا ارض الميعاد الجديدة التي عليها يتوقف تحقيق هذه المثل الخيالية التي راودت افكار

وخيال اتباع هذه الجماعات الدينية التي طلعت جديداً ، امثال الـ *Owénistes* في نيو هارموني من اعمال ولاية انديانا ، والـ *Icariens* في مدينة نوفو ، من اعمال ولاية ألينوي ، وفي تكساس ايضاً فئة الـ *Sociétaires* واخيراً وليس آخراً اصحاب بدعة الـ *Mennonites* كما يتوارد على حوض نهر المسيسبي ، بأعداد تأخذ دوماً بالارتفاع والاتساع ، البريطانيون والايرلنديون ، والالمان والسكندنافيون الذين غادروا بلادهم تحت وطأة البؤس والمسكنة او تحت عوامـــل الضغط السياسي الذي كثيراً ما تعرضوا له .

واميركا الفتاة هذه التي بوتقت انسانيتها بخشونة وغلظ اقصرتها على تربية الماشية والأعمال الزراعية على نطاق واسع ، في هذه المروج والسهول المترامية الاطراف ، ذات التربة المعطـــاء والاقليم القاسي . فما يكاد المعمر يطل بقامته الفارعة الطول من وراء جبال الابـلاش الملتفة الأحراج، حتى يفضي به المطاف الى سهول جرداء ، حيث تغمره وحشة مخيفة، عليه ان يتدبر امره بأي حل وحال . ولما كان لا مال عنده، كان عليه ان يستلف ويستدين ليؤمن حاجته من البذار معولاً على الموسم لتسديد دينه . وهذا الغرب البعيد النائي الذي يصقل الطباع ويوحي الى ساكنيه الشعور بالمساواة ، ويحرك روح المغامرة في النفس ، يدور بالفعل ، في فلك الولايات الشرقية مع انه يمد المؤخرة بالكثير من حاجاتها للحبوب واللحوم ، وهكذا تنظر الى الساحل المنبسط امام المحيط الهادي نظرتها الى مستعمرة نائية . كان الاتحاد الاميركي يضم عام ١٨٥٠ نحواً من ٢٣ مليون نسمة ، بينما لم يتجاوز عدد سكانه عام ١٨٢٠ ، تسعة ملايـين لا غـير . فكان خط العرض، المار بمدينة بتسبرغ المحور الذي يمر فيه العمود الفقري للاسكان، بينما محور الانتاج الصناعي يقع في بلطيمور وضواحيها . فشبكة الخطوط الحديدية جمعت بين شيكاغو وسان لويس قبل عام ١٨٥٢ ، ومع ان الولايات الأطلسية اخذت تتحسس بهذه الروح الاستقلالية التي جاش بها الغرب ، فلم تكن على استعداد قط للتخلي عن سيادتها وسيطرتها .

روح واشنطون وجيفرسون الديموقراطية

وهذه الجمهورية الفتية تلفت النظر بمؤسساتها ونظمها الوطيدة. فها هو ميشال شيفاليه يقف مشدوهاً امام الانجازات المادية التي حققتها ، والطاقات الاقتصادية التي تتوفر لها . فتوكفيل يرى في هذه الاوضاع التي تمت لها دليلا قاطعاً على متانة هذه الديموقراطية ورسوخهـــا ، وبشيراً بمستقبل زاهر عظيم . فهل نجحت يا ترى الحرية على التأقلم في هذه الديار دون ان يطرأ عليهـا أي زيغ او انحراف أو ان تصاب بأي سوء ؟

فالتطور الديموغرافي الذي أخذت بأطرافه لا يمكن رده الآن الى هجرة كثيفة واسعة . فالنازحون اليها بين ١٨٢٠ – ١٨٤٥ يزيد عددهم قليلا على المليون . ففي عام ١٨٥٠ ، نرى مهاجراً واحداً يدخل البلاد مقابل ٩ ولادات . فالشعور الاميركي الاصيل يستبد قويـــاً بالسكان الذين اخذت نفوسهم تجيش بروح اميركية صرفة .

وهذه الأوساط الاجتماعية التي استقر عليها وضع هذه الامة الجديدة هي التي تتولى التوجيه في البلاد وتستأثر بادارتها . فسكان الريف في هذه الولايات المعروفة بانكلترا الجديـــدة وفي بنسلفانيا من ذراري البيوريتيين الملتزمتين في امور الدين والمتوديست الذين جاؤوا البلاد من قبل بكثير ، قد حافظوا على بساطة النفس في اخلاقهم ومعايشهم ، فانقطعوا للأعمـــال البدوية ينتجون شيئاً من كل شيء ، واتخذوا من قراء الكتاب المقدس عـــادة لهم واستمسكوا بروح الديموقراطية المحافظة .

اما على الساحل حيث تكثر الخلجان العميقة ومصبات الانهر العريضة ، فقـــد قامت بورجوازية ناشطة انقطعت للمشاريع والانشاءات البحرية والاعمال التجارية الواسعة : كتجارة الرق وتجارة الروم وصيد السمك ، وكلها اعمال عادت على اصحابها بثروات واسعة استثمروها في تجارة الشاي والتوابل فالحرير وانشأوا دور صناعة ضخمة لبناء السفن ، امنت للاتحاد ردحاً من الدهر ، اقوى اسطول تجاري شراعي في العالم ، واسست لها صناعة ضخمة للنسيج والحديد تبشر بمستقبل عظيم . وهؤلاء الأغنياء الحديثو النعمة الفوا في البلاد طبقة من النبلاء توطدت علاقاتها مع الانكليز واقتبست الكثير مما طلعت به الحضارة البريطانية وشمخت بأنفهـــا على الملكية وطبقة النبلاء في البلد الأم سابقاً . وقد تجلت ثقتها بنفسها على الوجه الاتم. فهذه المثالية التي يمثلها خير تمثيل أمرسون ، هذا الوزير التوحيدي المذهب والطريقة التي صرح عنها عام ١٨٣٧ قائلاً : « طال اصغاؤنا لهواتف اوروبا وموحياتها . فقد حان الأوان لأن نمشي على ارجلنا وان نعمل بأيدينا وان نعبر عن خوالجنا وهواجسنا وافكارنا » .

وهذا التطور الصناعي الذي حققه شعب انكلترا الجديدة ونيويورك وبنسلفانيا ولّد في نفوس القوم هناك عقلية اقتصادية سيطرت على العقول . فمنذ عام ١٧٩٠ ، اقيم في مـــدينة بتسبرغ مصب كبير للحديد، وارتفع عام ١٧٩١ أول مصنع في البلاد للنسيج في ولاية رود ايلاند وفي سنة ١٨١٠ ، استعملت لويل احد مساقط نهر مريماك لتوليد القوة المحركة، فأنشأت في هذا السبيل شركة خاصة اشترت الارض وشيدت عليها مصنعاً وبنت مدينة ، فبلغ انتاج العمـــل ٣٨،٠٠٠ نَوْل لحل القطن عام ١٨٤٠ . الا ان عدم توفر اليد العاملة وقلة كفاءتها وغلاءها جعل المصنع المذكور يمول اكثر فأكثر على الآلة . كما ان ارباب العمل المذكور اتخذوا الطريقة الابوية في معاملتهم للعمال . وهكذا نرى في لويل ٥٠٠٠ امرأة ينزلن بنسيونات يقوم عـــلى ادارتها ارامل تدفع اجورهن من حسومات يقتطعها ارباب العمل ، مع تأمين الوسائل الصحيـــة والتقيد بأوقات الخدمة الدينية في مواعيدها المعينة. وعبثاً قامت نقابات عمالية مطالبة بتطبيق العمل على القاعدة التي تقول من الستة الى الستة بدلاً من شروق الشمس الى مغيبها ، وعبثاً يخطب فرنسيس رايت نصير المرأة واحد انصار فلسفة أوين حول صراع الطبقات امام حشود من حزب العمال . إلا ان ارباب العمل أصموا آذانهم امام هذه المطالب متعللين بحرية العمل وراحوا يسمون للتحكم

بالاسواق الداخلية . كان باستطاعة الاثرياء ان يؤمنوا حاجاتهم من انكلترا ، امـــا الاصناف المحلية الصنع فيجب ان تخضع لنظام التعرفة ، بعد ان صدر بذلك عام ١٨١٨ قانون كان بالنسبة للسفن الأجنبية بمثابة قانون الملاحة في انكلترا. وهذه السياسة المستوحاة من مبدأ مونرو يمكن اعتبارها بمثابة استقلال البلاد الاقتصادي .

ومن حسنات قانون الجمارك هذا ان ادى الى تغذية ميزانية الاتحاد، كما أتاح للحكومة فرصة لتأمين وضع سليم لمالية الدولة . وقد برز ، في الشمال ، نفوذ رجال المال وذلك بانشاء البنك الوطني وانتهاج سياسة تخفيض النقد المتداول في البلاد ، وهي سياسة سببت الكثير من المتاعب والازعاج للمدينين والمتعهدين في الغرب. وقد غصت سجون بوسطن بالمئات من الموقوفين لتأخرهم عن تسديد ما يستحق عليهم من ديون . وراح الجنوب الذي كان يعتمد في معايشه على محصول التبغ والقطن يتذمر من فداحة نظـــام التعرفة الجمركية فألف شيئاً من التحالف بين صغـــار الملاكين وكبار المزارعين ضد هذه الاوليغارشية المالية والصناعية كان من بعض نتائجه ان حمل الى الحكم انصار جكسون الديموقراطيين ، عام ١٨٢٨ .

من الامور المتعارفة في الولايات المتحدة أن للحكم هناك قاعدتين يقوم عليهما تتمثلان في هذا الفريق من اصحاب الاعمال في الشمال ، وارستوقراطية كبار الملاكين في الجنوب ، هـــذه الارستوقراطية التي امدت البلاد حتى الآن، بالقسم الاكبر من السياسيين الذين جلبوا الاستقلال الى البلاد وشكلوا الاتحـــاد ، امثال واشنطون ورجالات فرجينيا ، بينهم : جيفرسون وماديسن ومونرو الذين تعاقبوا ، مع آل ادامز من سكان بنسلفانيا ، على رئاسة الاتحـــاد الأميركي .

ففي مثل هذا الوضع الاجتماعي الذي لا ينصرف فيه الأبيض للعمل في الأرض بملء ارادته قام في البلاد نظام اقتصادي اساسه الزراعة نهض على مزدرعات واسعة امتدت من ضفاف نهر البوتوماك حتى بلغت مشارف خليج المكسيك ، قوامه اليد العاملة والملكية العقارية الكبيرة وهو نظام لم يلبث أن اكتسح بنسلفانيا على يد فريق من الهولنديين والمهتزين (الكويكرز) ، وامتد الى ولايتي ماريلاند وفرجينيا اللتين تألف منهما ما يعرف هناك بـ « نطاق التبغ ». فـــلم يكن من النادر قط في هذه الولايات أن نرى بـــين اصحاب الأطيان الكبيرة ، من يملك ٢٠٠،٠٠٠ هكتار واكثر. الا ان جمهرة المزارعين كان معظمها يتألف، في كارولينا وفرجينيا على الأخص ، من الملاكين المتوسطين الذين تتراوح الثروة العقارية لدى الواحد منهم من ١٠٠ – ٣٠٠ هكتار بحيث ان ١٠،٠٠٠ أسرة فقط كان للواحدة منها ٥٠ عبداً من أرقاء الزنوج. هنالك لعمري طبقة من فقراء البيض تتألف من الـ *Crakers* ومن الـ *Sandhillers* أفرادها اميون كسالى ، يسكنون الزرائب ويكنون بغضاً ازرق للزنوج. وكان هؤلاء الزنوج يقطنون ، على

الغالب زرائب واكواخ ضيقة ويجبرون على العمل بين ١٦ و ١٨ ساعة في اليوم الواحد، وضعهم في فرجينيا أرفق منه في اية ولاية اخرى ، وسيء جداً في مزارع الأرز في ولاية كارولينا ، يعيشون حياة الحرمان والبؤس متسكعين في جهل مدقع، ومع ذلك عُرفوا النكتة وخفة الدم، يهوون الغناء على الطريقة الافريقية الشعبية (الجاز)،كما عرفوا ان يفوزوا خلال خدمتهم ، بثقة اسيادهم ، يراعى جانب الزنجية المرضع التي فرضت نفسها . فاذا ما كان الدين يوصي ابناء حام بالخضوع والخنوع ، فاللامبالاة التي تقرأ على سيماءهم تخفي وراءها الكثير من المشاعر الدفينة. الا ان الغاء النخاسة وتحرير عدد كبير من الزنوج ادخل في روع البعض ان تجارة الرق تلفظ انفاسها الاخيرة . الا ان اختراع هويتني المحلاج في عملية حلج القطن واشتداد الحاجة الى الزنوج ، في كل من اوروبا وانكلترا الجديدة ، بعث المزيد من النشاط في هذه التجارة . واقبل الجنوب على تنشيط زراعة القطن،وعرى بشيء من الهوس الجنوني من اشجارها الاراضي التي تطل على مشارف خليج المكسيك حيث غلبت زراعة القطن الطويـــل التولة ، والقطن القصير التولة . وكلها زراعات يقتضي لها الكثير من اليد العاملة.وبالرغم من تزايد اليد العاملة ونموها المتصاعد فقد عجزت ، مع ذلك ، عن الوفاء بمطالب زراعة القطن وحاجتها للعمال بعد أن اخذ الانتاج يتضاعف كل عشر سنوات . وقد ركن المزارعون الى اسواق النخاسة لتأمين حاجتهم من اليد العاملة من الزنوج ، مما ادى الى ارتفاع اسعارهم حتى ان بعض البلدان راحت تنظم عملية تربية « ماشية الملونين » دون ان يؤمنوا أمور تغذيتهم بالقدر الكافي ، واستطاع تجـــار النخاسة في كوبا وغيرها أن يؤمنوا لهم ارباحاً طائلة ، كما ان التشريع اخذ ينزع الى الحد من تحرير العبيد والحؤول ما امكن دون هربهم من المزارع .

فالمزارع يقطن عادة منزلاً رحباً له شرفات عالية تقوم على حنافي الأعمدة وينعم بأثاث وثير هو على الغالب من صنع انكليزي ، متخرج على العموم من جامعة هارفرد او أية جامعـــة أخرى وتمت له ثقافة عالية ، ويستسلم للذة المطالعة في اوقات فراغه ويستقبل في منزله عدداً كبيراً من الأصدقاء ، ويهوى الصيد والقنص وسباق الخيل ومشاهدة مصارعة الديكة ، ويقيم الولائم الفنية ، ويشترك بادارة الناحية ، كما يُعهد اليه عادة بادارة الشرطـــة ، كما يتولى الاشراف على العمال في مزدرعاته ، ويبهجه أن لا يمثل إلا لصوت الانسانية ولمطالبها الحقة ؛ إلا أن وضعه مرتبط الى حد بعيد بتقلبات المواسم والاسعار ، اذ كثيراً ما كان يحيا في مستوى يفوق امكاناته المادية ، ولذا كثيراً ما رأى نفسه بحاجة للاستدانة والاستلاف من التاجر الذي اعتاد شراء محصوله من القطن أو التبغ . ولما كان كثير الاعتداد بمنزلته ، فقد تألم كثيراً في قرارة نفسه من هذه التابعية التي اقصر عليها أرباب الثروة وأصحاب رؤوس الامال في الولايات الشمالية .

والدستور الذي عمل به منذ عام ١٧٨٩ ، جاء مطابقاً للروح الذي جـــاشت في صدور

أصحاب اليسار والدعة ، ويتفق تماماً مع ذهنية بلاد تتعدد فيها الملل والنحل ، لا يحسن أتباعها الانقطاع الى عاداتهم ومناسك عقيدتهم الدينية الا في ظل التسامح الديني . فقد أعجب توكفيل بالطريقة التي تتوزع معها السلطات العامة في البلاد التي جاءت وفقاً لما فصله مـــونتسكيو في كتابه «روح الشرائع» وبالنشاط الذي تزخر فيه المجتمعات البلدية هنالك ، وهذا الورع المدني الذي يبعثه في النفس مخافة الله والاحتكام الى المحكمة العليا عند طغيــان الهيئات السياسية وخروجها على القانون. صحيح ان الشكل الاتحادي تغلب ، في نهاية الامر على صيغة التحالف ، وكل ما لا يدخل بشكل او بآخر في اختصاصات مجلس الكونغرس او حكومة الاتحاد ، يبقى ضمن اختصاصات الولايات او الشعب . فالنزعتان الاتحادية والجمهورية اختفتا تماماً ، في هـــذه الفترة التي سيطرت فيها المشاعر الطيبة . فالتسويات النافعة والمفيدة أنيط امرهـــا بهذه المؤسسات التي تعمل بطواعية ومرونة ، منها على الأخص التسوية الحبية التي تميز بها حل مشكلة الميسوري ، هذا الحل الذي تم وضعه ، عام ١٨٢٠ ،وضمن المستقبل وأمنه، وأجل البت بقضية ما اذا كان سيعوّل على العبد او اليد العاملة الحرة في بلاد الغرب . وقد خشي على النظام من أن يؤول انتخاب جكسون للرئاسة ، الى الاخلال بحبل الامن في البلاد ، بعد ان وصـــل الى الرئاسة الاولى على اكتاف حلف من المتذمرين كرس الاخذ بالنظام المعروف *Spoil System* هذا الرئيس الذي جيء به من الغرب ، ووضع حداً لسلسلة حكام فرجينيا وتصدى للامتيازات التي يتمتع بها رجال المال ، وخفض رسوم الجمارك . الا ان الحزب الديموقراطي وانصار الرجوع الى « عهد المشاعر الطيبة » — الاحرار — قاموا بتنازلات متبادلة . فالى عام ١٨٥٠ ، تاريخ الاتفاق الذي تم بشأن كاليفورنيا ، استمر الاندفاع نحو الغرب حتى حدود المحيط الهادي، على حساب المكسيك ومصالحه الحيوية ، دون ان تثير قضية الرق في البــلاد اي اضطربات يخشى منها . وقد خرج الاتحاد من هذه المشكلات اقوى وارسخ وضعاً . فعقد مع انكلترا معاهـــدة تضمن حياد قناة يحتمل انشاؤها عبر قناة بناما . وهكذا اصبح الاتحاد دولة كبرى محترمـــة الجانب. وتمت لها عام ١٨٦٠ ثروة زادت ثلاثين ضعفاً عما كانت عليه عام ١٨٠٠ ، كما ان دخلها القومي زاد ستة اضعاف .

ضربة تنزل بالاستعمار القديم: الغاء الرق

فالنظام الاستعماري الذي ساروا عليه في البلدان الحارة ارتكز ليس على شد المستعمرة بالبلد الام شداً وطيداً فحسب ، بـــل ايضاً على استثمار اليد العاملة الملونة فيها ، فعولوا عليها في استثمار الارض واستغلالها الى اقصى حد . والحال فقد قام في القرن الثامن عشر تياران ضد الرق ، من هنا فلسفة الانوار باسم حقوق الانسان ، تبنتها معظم الملل والنحـــل الدينية في انكلترا من مثوديست وانجيليين وكويكرز ، وبعض الكاثوليك ، وفقاً لبعض تعالــــيم المسيحية فراحوا يهاجون نظاماً مضاداً في الصميم الاخلاق ، ومن هنالك ، الاقتصاديون المتحررو النزعـة الذين

راحوا ينتقدون شكلاً من أشكال العمل لا يفسح مجالاً لأي محرك او مشوق للربح الشخصي . وراحت هذه النظريات المشبعة بالروح الانسانية ، وهذه الحجج التي تقوم على الواقع تصدم بشدة مصالح بعض الفئات الخاصة والتقاليد القوية المعمول بها في البلاد . ففي الوقت الذي راح فيه دستور الاتحاد الاميركي يحدد بحكمة بالغة ، عام ١٨٠٨ ، كتاريخ اقصى لتحريم الرق ، كان قانون إلغاء الرق في المستعمرات الفرنسية الذي اصدره المؤتمر الوطني في فرنسا ، قد بقي حبراً على ورق ، اذ ان بونابرت ابطل هذا القانون ، عام ١٨٠٢ ، مما سبب فقدان جزيرة سان دومنيك الى الابد . والقرار الذي اتخذه جيفرسون عام ١٨٠٧ تنفيذاً للوعد الذي قطعه الدستور الاميركي ، والدعاوة الناشطة التي قام بها ولبرفورس وبعض اصدقائه في هذه الفئات الدينية ، حملت مجلس العموم البريطاني على اتخاذ قرار يحظر النخاسة والاتجار بالرق ، كما ان كسلريغ نال من بعض الدول الكبرى الممثلة في مؤتمر فيينا قراراً بتحريم هذه التجارة الوحشية ، وهو قرار اعيد إقراره من جديد في معاهدة اكس لاشابل وفي معاهدة فيرونا . ونابوليون ، خلال فترة المائة يوم ، ولويس الثامن عشر في معاهدة باريس الاولى قطعا على نفسيهما مثل هذا التعهد . الا ان تطبيق الوعود والاتفاقات شيء وقطعها آخر ، لا سيما وقد اشتد الطلب ، في العالم الجديد على الزنوج ، إثر التطور الذي عرفته مزدرعات القطن والسكر . فقد استقبلت جزيرة كوبا اكثر من ١٠٠ الف رق من الزنوج بين ١٨١٠ - ١٨٢٠ ، واستوردت البرازيل منهم اكثر من ٤٠،٠٠٠ اسير زنجي في السفن التي ترفع العلم الفرنسي ، حسبما جاء في تقرير قيادة العمارة البريطانية [1] .

وقد اثارت قضية حق تفتيش السفن مشاكل حادة بين بريطانيا العظمى ومعظم الدول الاخرى التي ابت عليها القيام بمهام المراقبة البحرية . ففرنسا والولايات المتحدة تسلمان بمثل هذا الحق على اساس المعاملة بالمثل على ان تتم المراقبة بالاشتراك معاً . ولم ترضخ اسبانيا لهذا القانون الا عام ١٨٣٥ ، بعد وفاة الملك فردينان ، والبرتغال عام ١٨٣٩ ، تحت التهديد بمطاردة السفن التابعة له ، والبرازيل عام ١٨٥٠ ، في اثر ظهور الاسطول البريطاني امام شواطئه . فبالاضافة الى المعاهدات الـ ٢٦ التي تم وضعها ودخلت دور التنفيذ ، يجب ان ننوه هنا بهذه المعاهدات الثنائية الاخرى التي عقدتها بريطانيا مع رداما ملك مدغشقر ومع سلطان مسقط ، بغية إحكام نطاق المراقبة في المحيط الهندي .

مما لا شك فيه قط ان النخاسة لا يمكن ان تنقطع حركتها تماماً ، بل تبقى على شيء من النشاط الخفي طالما لم يتقرر بعد إلغاء الرق بصورة رسمية قاطعة . أفلم تحذر الجمعيات المطالبة بالغاء الرق من ان نظام المراقبة والتفتيش الجاري الاخذ به من شأنه ان يحمل تجار النخاسة على

---

(١) راجع تاريخ الحضارات العام ، مجلد ٥ ص ٣١٦ من الطبعة العربية .

ممارسة تجارتهم هذه بصورة افظع واكثر فظاظة من ذي قبل .

ونشطت على الاثر دعاية قوية مطالبة بالغاء الرق ، اختلفت نتائجها وتباين مفعولها بـــين بلد وآخر .

فالموقف الذي ستقفه الولايات المتحدة من هذه القضية ، سيكون حاسماً . الا ان تحرير العبيد وعتقهم لقي فيها معارضة قوية من قبل كبار المزارعين لم يتزحزحو عنهـا قيد أنملـة . صحيح ان الرق يجد الكثيرين ممن يشجعون عليه في اوساط عديدة . فأمام السياسيين واوساط رجال الاعمال الذين يترددون متأرجحين في مواقفهم ويخشون الانقسام الذي يلوّح اكثر الجنوبيين حماسة باللجوء اليه ؛ وامام موقف القساوسة الذين يستشهدون بنصوص التوراة التي تعترف باستعباد سلالة حام ، فقد وجدت جماعات الكويكرز والانجيليين والممدانيين ، وحتى الكاثوليك انفسهم امام شعور عارم يأخذ بالازدياد كل يوم ، اكثر فأكثر بين صغار التجـار واصحاب المخازن والعمال والمعمرين في الغرب حيث لا يرون فائدة تذكر من عمل الارقاء . فمع شجب الكويكرز لاعمال العنف والقسر ، فقد راحوا مع ذلك ينصحون باعتماد اسلوب مقاطعة المواد الاستهلاكية التي يؤمن انتاجها انصار الرق و « من لف لفهم » . فقام من يقترح اعادة الزنوج الى افريقيا وطنهم الاصلي . وفي هذا السبيل أسست مدينة فريتون ومونروفيا . ولن تلبث ليبيريا ان اصبحت جمهورية مستقلة ، كما اطلت علينا مدينة ليبرفيل . وفي سنة ١٨٣١ ، قابلت اميركا ثورات اوروبا ، بالنداء الذي اذاعه منضد الحروف ، الاميركي غاريسون في جريدة « ليبراتور » ، وبالثورة الدامية التي قادها الزنجي نات ترنر فجعلت الجنوب يرتعـد هلعاً . ومنذ ذلك الحين اخذت المشاعر بالهيجان . ومع ذلك فلم يكن ثمة ما يمكن اعتباره تهديداً مباشراً للرق . هنالك مصالح عديدة يهددها اصدار قانون بالغاء الرق وتحريمه . ولم يقنع الجنوب بمواجهة الدعاية ضد الرق بدعاية معاكسة ، ورفع التوراة في وجـه التوراة . فـقد انتصرت عام ١٨٤٨ سياسة السيطرة والتحكم التي كان يمثلها في تكساس . وبعد ذلك بسنتين فرض الاتفاق الذي اعلنت بموجبه كاليفورنيا ولاية جديدة ، والمكسيك الجديدة ، فضاء حراً ، وجوب اعادة الزنوج الفارين الى اسيادهم الاول . وهكذا فالمصير القاتم بقي جاثماً على صدر الولايات المتحدة يشل منها الحركة وليس من يستطيع التنبؤ بموعد زحزحته او رفعه .

حل عام ١٨٤٨ ، وفي السابع والعشرين من نيسان من هذه السنة ، قررت الجمهورية الثانية في فرنسا ، إلغاء الرق في كل الاراضي والممتلكات التابعة لها . كان لا بد من ثورة شباط ليتمكن شولشر من الحصول على قرار التحرير .

فاذا ما سبق الفرنسيون الدانمارك وهولندا على دروب تحرير الرق ، فلم يكن الاسبانيون في جزر الانتيل ، ولا البرازيل ، من جهتها ، على استعداد بعد للسير على النهج ذاته . وعلى

عكس هاتين الدولتين ، ها هي انكلترا نفسها تطلق الاشارة الاولى في هذا المضمار. فالصعوبات الاقتصادية التي قامت في تلك البلاد في اعقاب عام ١٨١٥ اجبرت انصار كاننغ القائلين بالنظرية النفعية ، على معاضدة وجهة نظر الفريق المغاير لهم في الرأي ، هذه النظرية التي اعتنقها بدورهم انصار ربنتام وتوصل في نهاية الامر المحافظون والاحرار الى التعاون فيما بينهم ، وثم تبني قانون عام ١٨٣٣ الذي يتحول بموجبه الارقاء الى عمال متدربين كما واجه امكانية التعويض على اصحابهم المتضررين في هذا القانون . وقد ادى هذا الاجراء الى تعقيد الامور في جزيرة جامايكا التي كانت تعاني الصعاب ، وفي مستعمرة الكاب ايضاً . فبدلاً من ان يرضخ سكان هذه المستعمرات لاحكام القانون الجديد ويحرروا اليد العاملة الملونة التي تعمل في خدمة كبار الملاكين ، فضل المعمرون في تلك البلاد ، وجلهم من اصل هولندي ، مغادرة المستعمرة. وقد اعطي السكان الحرية التامة برفض المواطنية او باعطائها لمن يجري تحريرهم من الارقاء بحيث ان الالغاء النهائي للرق ارتبط الى حد بعيد باصلاح النظام الاستعماري في تلك البلاد .

الاتجاه نحو امبراطورية بريطانية متحررة

نشأ في اميركا الشمالية ، وفي النصف الجنوبي من الكرة الارضية مناطق ضخمة للاسكان لدى البريطانيين ، تعوض عليهم الخسارة التي فقدوها من ثورة الولايات المتحدة ونيلها استقلالها التام في أواخر القرن الثامن عشر . ولما كان قد صرف النظر عن نظام الاستثناءات الذي برهن الاختبار عن عدم جدواه ، فقد رؤي استنباط حلول جديدة تتفق ومستلزمات الوضع الجديد والمزاج الانكلوسكسوني المعروف بنزعته الفردية . فهذا التوسع ليس فيه ما يضير قط اذ انه يحمل الخير كله للبشرية جمعاء ، اذ يفضي الى تطوير هذه الاقطار البكر بالسرعة والحرية المطلوبتين . فالحرية الاقتصادية تجر وراءها الحكم الذاتي .

وتوالت الهجرة من الجزر البريطانية ، معتدلة اذا ما قيست بالزخم الذي اتسمت به حركة النزوح في منتصف القرن التاسع عشر ، الا انها جاءت اقوى وانشط من اية حركة مماثلة في اي بلد اوروبي آخر . فمع ان السواد الاعظم من النازحين يتجهون شطر الولايات المتحدة ، فقد تزايد سنة بعد سنة، عدد الذين قصدوا البلدان التي يرفرف فوقها علم صاحب الجلالة البريطاني. فالازمة التي اخذت بخناق البلاد ، في اعقاب ١٨١٥ وتسريح الجند من الخدمة العسكرية ، غذى هذا التيار الذي تضخم من جراء تأزم ظروف العيش واشتدادها على ابناء الطبقة الفقيرة . فقد ركب البحر مهاجراً ، عام ١٨٤٣ ، نحو من ٦٠،٠٠٠ ، وقد ارتفع العدد الى ٢٦٠،٠٠٠ ، عام ١٨٤٧ ، ثم الى ٣٠٠،٠٠٠ عام ١٨٤٨ ، حتى بلغ معدل من يغادر البلاد ١٠٠٠ شخص في اليوم الواحد . وهكذا اطلت علينا في خريطة هذه البلدان الشاسعة ، ولايات جديدة ، عمّرها البريطانيون . وحركة الهجرة هذه نشطت باتجاه الكاب واتجاه كندا وبرزت في مقاطعة الناتال وكولومبيا البريطانية وتضخمت في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية في اوستراليا ومقاطعة اوستراليا

الجديدة الغربية ثم في مقاطعة اوستراليا الجنوبية ، ومقاطعة فكتوريا ومنها اتصلت بزيلاندة الجديدة . هذه الانشاءات الاستعمارية الجديدة أثارت مشاكل جديدة ارتبط بعضها بالارض والبعض الآخر بالنظم السياسية .

فمنذ القرن الثامن عشر تمتعت الملكية العقارية ، في بريطانيا بامتيازات متحررة من كل قيد وشرط تخالف تماماً ما عرف من الامتياز الاقطاعي المعروف باسبانيا ، باسم *Encomiénda* وهو امتياز يعطى مدى الحياة . وقد لوحظ شيء من بعذقة الاراضي المقتطعة لبعض الشركات الخاصة في هذه المستعمرات القائم انشاؤها على براءة ملكية ، او في تلك المستعمرات التي يقطعها التاج البريطاني . ولن تمتم المضاربات المالية ان استبدت بها فتأخر من جراء ذلك نموها . وقد كانت قوة الجذب في الولايات المتحدة اقوى منها في هذه المستعمرات واشد ، اذ كان العمل الحر فيها يعطي مردوداً اطيب . ولذا عمدوا الى وضع تخطيط عام قام على ثلاث عناصر يجب توفرها معاً : هي الارض ورأس المال والعمل . وفي سنة ١٨٣٣ ، نشر ويكفيلد كتابه المشهور بعنوان : « انكلترا واميركا » عرض فيه بصورة جلية واضحة النظام الذي ارتبط باسمه . فقد قدم الدليل على صحة هذا النظام وحسن جدواه اذ اسس منذ سنة ١٨٣٠ ، شركة اوستراليا الجنوبية . ثم جاء بتجربة اخرى في زيلاندة الجديدة حيث ارتدت هذه الشركة طابعاً دينياً . وفي عام ١٨٤٢ صدر قانون يعرف بقانون *Torrens* فرض القيام بعملية مسح شاملة للاراضي البور ، وحدد منها سعر الفدان الواحد .

وقد وصل الى اوستراليا بين ١٨٣٠ – ١٨٥٠ ، اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ مهاجر انكليزي بينهم عدد كبير عجز عن دفع ثمن الاراضي المقتطعة لهم ، فعملوا في خدمة مربي الماشية او في المدن . اما في الكاب فقد ادى بيع الاراضي بالمزاد والغاء نظام الرق فيها الى مشاكل وصعوبات مع البوير ، بعد ان تعذر عليهم ايجاد مراع تفي بالظمن بمواشيهم وعجزهم عن توفير اليد العاملة مما اضطرهم للاتجاه شمالاً الى مقاطعة فالد . اما في المستعمرات الكندية حيث قام نظام الاراضي المحمية الخاصة بالاكليروس والتاج ، فقد كان من العسير فيها توزيع الاراضي بحرية .

ومهما يكن من الامر فنظام مستعمرات الاسكان اقتضى الاعتراف للمستعمرة بصلاحيات ومسؤوليات عليها ان تقوم بها وتتحمل اعباءها . فمنذ عام ١٧٩١ ، اعترفت انكلترا في اعقاب تحرر الولايات المتحدة ونيلها الاستقلال الناجز ، لمقاطعتي كندا العليا وكندا السفلى ، بانشاء نظام تمثيلي في كل منهما . وفي الكاب ، بالرغم من المنافسة الحادة القائمة بين البريطانيين ، وبين البوير ، اضطرت السلطات هنالك لمسايرة الاهلين و العمل على ارضائهم ، بالاعتراف لهم شيئاً فشيئاً ، بامتيازات معينة ، بعد ان برهنوا عن ارادة قوية في التوسع باتجاه مقاطعة الفالد . وقد نال آخر الأمر هؤلاء الذين اغتصبوا الاراضي (*The Squatters*) في مقاطعة غال الجديدة الجنوبية المعروفين بفرديتهم ، شيئاً من أوليات النظام التمثيلي .

اما الحادث الخطير فهو هذه الازمة التي اخذت بخناق كندا وادت فيها الى تطبيق برنامج دورهام ، عام ١٨٣٩ . ولما كانت اكثر المستعمرات البريطانية المكتظة بالسكان وموضوع اشتهاء القومية الاميركية ومرامي اطماعها التوسعية ، ونظراً لهذه الاقلية الفرنسية القوية التي تمتعت فيها بنظام تمثيلي ، اجتازت كندا فترة من الاضطرابات الحادة . فالقانون الدستوري الذي صدر عام ١٧٩١ وقضى بفصل كندا العليا عن كندا السفلى ، امّن السيطرة في البـــلاد لارستوقراطية عقارية ، او تجارية ، واعترف ، في الوقت ذاتـــه بمركز ممتاز للكنيسة الانكليكانية فيها . وقد أهاج مثل هذا الاجراء ، المزارعين وعمال الارض من الكاثوليك واتباع بعض الطوائف البروتستانتية . فألفوا من بينهم معارضة انتصبت في مجالس الأقليات . فالاضطرابات التي وقعت عام ١٨٣٧ ، اقامت لندن واقعدتها . فبينا مال اللورد بروغهـــام وبعض اعضاء الحزب الراديكالي الى منح كندا استقلالها ، راح اللورد دورهام ، من ناحيته ، يقوم بتحقيق دقيق حول الموضوع ووضع عند انتهاء تحقيقه تقريراً كان صدوره حدثاً تاريخياً في تلك البلاد ، اذ اقترح بأن تتمتع كلا الولايتين بالحكم الذاتي ، لكل منهما مجلس تمثيلي منتخب ، ومجلس اداري معين وحاكم له اختصاص رئيس وزراء . وهذه المؤسسات المنقولة عن النظـــام البريطاني جرى توسيعها فيما بعد لتشمل الولايات البحرية في ايكوسيا الجديدة وبرونسويـــك الجديدة ، كما انها طبقت فيما بعد ، على كل من الكاب واوستراليا .

وهكذا اطلت علينا هذه الامبراطورية المتحررة ، في هذا الوقت الذي سيطر على الانكليز النظام الانتخابي القائم على اساس الضريبة وسياسة حرية التجارة .

عودة الى التوسع والتبسط في كل من البحر المتوسط والهند

فاذا ما توقف الاخذ بالسياسة الاستعمارية القديمة ، من جهة الغرب وفي النصف الجنوبي من قارتنا الارضية ، فقد سيطرت هذه السياسة واعتُمدت اساساً واتخذت قاعدة ، تمشوا عليها من جهة الشرق . وهذا الانحراف زامن فترة بسط النفوذ البريطاني على الهند برمتها ، لم يفت الاجيال الماضية معرفة شيء مما يتصل : بطريق الكاب وشعوب البربر القاطنـــة في المغرب ومصر ، والسلطنة العثمانية الآخذة بالانحلال والتفكك ، واستثمار هذه الارخبيلات الآسيوية الواقعة الى الجنوب من آسيا والى الجنوب من الهند ، وما للعالم الاصغر من فتنة وسحر ، وما الى ذلك كله مما يتصل بالقضية الشرقية التي ألف الاوربيون شؤونها . وهكذا قامت العلائـــق التجارية وتوطدت واخذت الاطماع الاستعمارية تبرز وتتضح .

فلم تكن الحركة التجارية بحاجة لأكثر من وكالات تجارية واسكلة بحرية عـــلى طول الشواطىء الافريقية التي تسير وارائها في رحلة طويلة من هذا النوع . فلما كانت مدينة الكاب للهولنديين وجزيرة موريس للفرنسيين ، فقد فرض البريطانيون سيطرتهم بشدة على هذا الطريق السلطاني . فالقسم الداخلي هو موضوع اهتمام بعض الرحالة المستكشفين ، وهو ميدان رحب

لأسواق النخاسة والاتجار بالرق . فالاهتمام تركز حول مسالك البحر المتوسط . فمنذ الحملة الفرنسية على مصر ، راحت الدول الكبرى ، محافظة منها على مصالحها الحيوية ، تضع الخطط التي تخدم مصالحها في الغرب وتنهض بها على الوجه الأكمل . فقد خطر لميشال شفاليه ان يوصل الى مصر ، شبكة الخطوط الحديدية . وعندما انتظم سير بريد الهند البري خطر للمهندس (انفانتين) القيام بمشروع ضخم هو فتح قناة السويس . واعلنت الحرب بشدة على القرصنة ورجالها ، فراح الاسطول الانكليزي يقصف بشدة مدينتي الجزائر وطرابلس وقام اسطولهم بمظاهرة بحرية وعرض القوى ضد الداي الى ان جاءت الحملة الفرنسية ، عام ١٨٣٠ ، تضع حداً لحكمه وادارته. وفي حادثتين تركز الاهتمام بمصر واشرأبت اليها الانظار : هنا رغبة في توطيد الجهود التي يبذلها محمد علي باشا لخلق دولة قوية له على ضفاف النيل ، وهنالك من جهة ثانية فريق يخشى كثيراً من بروز اسرة مالكة طموحة ويوجس شراً من سيطرتها على هـذا المفترق الدولي الهام . فكلا الفريقين يراقب عن كثب وضع المضايق والممرات المائية الهامة ، فتشهد القسطنطينية طوراً جديداً من هذا الصراع العنيف الناشب بين روسيا وانكلترا ، للسيطرة على هذه الممرات التي تعد من اهم مفاتيح البحر المتوسط .

ان عدم التسليم بالانتقاص من هيبة الدولة وضرورة السير الى الأمام لترسيخ نفوذ الدولة ، كل هذه الاعتبارات تفسر لنا البطء والصعوبات التي رافقت عملية فتح الجزائر وهي عملية جاءت بنت الخاطر ولم يخطط لها من قبل . فالتصرف الفرنسي في هـذه الناحية من الناحية الافريقية الشمالية يشبه الى حد بعيد ، مسلك انكلترا وتصرفها ، في الناحية الجنوبية . فنظراً للمسافات الشاسعة ، ولقيام هذا الجدار الذي يؤلفه البويرز في وجه تقدم الانكليز شمـالاً ، اقتضى التغلغل الانكليزي في هذه الاقطار الجنوبية طوال القرن بكامله ، بينما إخضاع الشعب الجزائري كاد يفرغ منه في الوقت الذي سقطت الملكية في فرنسا ، في تموز .

واهم من هذا كله واوسع ، هذه الأهداف التي رسمتها انكلترا من حروبها الطويـلة في الهند . فهي امام كتلة بشرية من ٢٠٠ مليون نسمة تختلف عنهم عرقاً وأصلاً وفصلاً ولغة وديناً ونمط عيش ، ليس فيهم ما يجمع او يوحد ، وامامهم غاز طامع فيهم يرى نفسه بعيـداً عن قواعده ، قليل العدد والعدد ، انما تجيش نفسه بالجرأة والاقدام ، مبطن بـدبلوماسي مراوغ . وهنا ، كما في الجزائر ، فقد حل تدريجياً محل الاحتلال المحدود اشراف عام على البلاد بأجمعها. صحيح أن وضع امراء الهند ساعدوا جزئياً على تأمين نجاح هذه المغامرة الضخمة . وهكذا استطاع خلفاء كورنواليس ولسلي من هاستنغز الى اوكلاند الى ألمبورو أن ينفـذوا من الهند الرطبة الى الهند الجافة ، وأن يبسطوا نفوذهم حتى مشارف ايران ، وأن يحتلوا السواحـل الجبلية الممتدة من الخليج الفارسي حتى بورما . فالهدف الأساسي لسياسة لندن الدولية في هذه المنطقة هو إخضاع أمراء هذه المقاطعة أو تلك لسيطرتها والتحكم بثغورها ومسالكها. فاذا

كان لا بد من ضمان حرية الطرق الموصلة بين اوروبا والشرق الادنى ، استلزم ذلك وجـــوب السيطرة التامة على المحيط الهندي مما ادى الى احتلالهم لسنغافورة ولمضايق مالقا، ولمضيق عدن من جهة الغرب، وهما بمثابة جبل طارق . فسنغافورا ومالقا يتحكمان الى حد بعيد بشواطـــىء الهند الصينية وبالامبراطورية الهولندية في الانسولاند والممتلكات الاسبانية في الفيليبين . ففـي الوقت الذي تنصرف فيه البلاد الواطية لحروبها الاستعمارية رامية منها لبسط سيطرتهـــا على جاوا وصومطرة بعد ان اعيدت هذه اليها ، راحت بريطانيا العظمى تسعى لبسط سيطرتها على اسواق الشرق الاقصى . وانتهزت مناسبة حرب الافيون ، فاحتلت هونغ كونـــغ وارغمت الصين على فتح منافذها للغرب . فبعد ان تحولت تجارة الحرير والشاي باتجاه البحر ، فلن تلبث ان وقعت ضمن الشبكة التجارية التي يشرف عليها الانكلوسكـــون .

وفي هذا الوقت بالذات توفد الامبراطورية الروسية تجار الفراء عندها الى آلاسكا فتهـــدد بذلك الاميركيين في عقر دارهم في المحيط الهادي ، كما تدفع ببعض القوزاق على الطريق السرية التي يسلكها تجار الشاي ، باتجاه واحات آسيا الوسطى . صحيح ان بيروفسكي يفشل تماماً في محاولته الوصول الى خيوة وسط الصحراء ، فقد استطاع مورافييف العاموري ان يظهر امـام ساخالين . وقام نيفلسكي بتأسيس مدينة نيقولايفسك ، فهلع لب انكلترا لهذه الانجـازات . ومع ذلك صمدت مقاطعة القفقاس طويلا امام الفتح الروسي ، واذا ما تمكن الروس من تطويق هذه المنطقة الجبلية واستطاع الجيش الروسي النفاذ الى قلب مقاطعة جورجيا راذربيجان ، فستبقى المنطقة الجبلية على عصيانها وتمردها ، مدة طويلة ، وهنا ، كما في الجزائر ، وكما في الهند وماليزيا، يحاول العالم الاسلامي ان يصمد ويواجه القوة بالقوة .

ففي الوقت الذي حاول بعضهم فيه استشراف المستقبل امام روسيا وانكلترا ، تحـــافظ اوروبا الغربية من وراء انكلترا على سبقها ، هذا السبق الذي يؤلف لها خير حافز لاستـــثمار موارد العالم الغنية .

القسم الثاني

قوى الغرب وتوسّع الأوروبيين العالمي

في السنة ١٨٥٠ ، بدا النظام الاوربي ، الناتج عن معاهدات سنة ١٨١٥، وكأنه قد عاد الى نصابه ، وفي السنة عينها ، زال خطر الحرب الاهلية الى حين في الولايات المتحدة بفضل التسوية الكاليفورنية ، وانمـــا ، منذ السنة ١٨٥٤ ، بينما بلغت أزمـــة الرق ذروة حدتها في العـالم الجديد ، اندلعت الحرب – للمرة الاولى خلال القرن التاسع عشر – بين الدول الكبرى في العالم القديم ؛ فابتدأت بذلك اعمال حربية لن تنتهي الا في السنة ١٨٧١ . انهار النظام الاقليمـــي المقرر في مؤتمر فيينا والهيمنة العسكرية الفرنسية ؛ وحققت كل من ألمانيا وايطاليا وحدتهـما ، وسيطر الربخ البسماركي بدوره على اوروبا البرية الجديدة التي عرفت ، منذئذ ، السلام المسلح . اما الحرب الانفصالية فقد حررت مستقبل اميركا الانكلوساكسونية مما يعترض سبيله .

توطدت اركان الولايات المتحدة ، وعرفت اوروبا انقساماً لم تعرفه من قبل : وقد بـدا ، منذئذ وكأن مصير هذه الاخيرة يتردد حائراً .

ولكن الحقيقة على غير ما يبدو ، اذ ان قوى القارة الصغيرة ما زالت سائرة قدماً في نموها الحثيث . فاستمرت حركة توسع بريطانيا العظمى التي لم تدخل طرفا في حروب القوميـات ؛ وما لبثت فرنسا أن دخلت دور النقاهة بسرعة ، فساورتها رغبة متزايدة في اثبات وجودها خارج اوروبا ؛ وما زالت الكتلة الروسية تنوء بثقلها على آسيا ؛ ولن تلبث ان تبرز « السياسة العالمية » التي اختطتهـــا الامبراطورية الالمانية المتميزة بقوة هائلة . ولعل الحضارة الاوروبية أشعت حينذاك اشعاعاً فائق القوة .

الفصل الأول

المنعطف الحربي خلال القرن
الحروب القومية في أوروبا
والحرب الانفصالية في الولايات المتحدة
(١٨٥٤ - ١٨٧١)

من حرب القرم الى الحرب الفرنسية الالمانية ، حرب الانفصال وانقلاب الوضع في البر الاوروبي لمصلحة المانيا

تميزت السنوات ١٨٥٣ - ١٨٧١ بمزيد من الاضطرابات . فهبت على الغرب ريح حربية . وكان ميدان المعركة الاول شواطىء البحر الاسود . فقد حالف نابوليون الجديد انكلترا، وهاجم بجيوشه روسيا. ولكن نتيجة حرب القرم هذه لم تكن هزيمة للامبراطورية القيصرية وقيام ازمة داخلية فيها فحسب ، بل عجلت التوسع الاوروبي شطر الشرق واندلاع الحروب القومية في اوروبا نفسها في آن واحد : فمن جهة شعر مهزومو سيبستوبول ، الذين ابعدوا مرة اخرى عن المتوسط ، بحاجة الى الاندفاع نحو آسيا الوسطى والشرقية زاد من حدتها نشاط عمل فرنسا وانكلترا على الطرق البحرية المؤدية الى آسيا الجنوبية . ومن جهة ثانية ، برزت حركات الشعوب بسرعة في المانيا وايطاليا والدول الدانوبية بسبب انعزال النمسا وعداء الامبراطورية الفرنسية الثانية لمقررات مؤتمر فيينا الاقليمية . فأدى ذلك ،بدون انقطاع تقريباً ،الى الحرب الايطالية في السنة ١٨٥٩ ،وحرب دوقيتي شلسفيغ وهولشتاين في السنة ١٨٦٤ ، والحرب بين النمساوية - البروسية والنمساوية - الايطالية في السنة ١٨٦٦ : فبدلت خريطة اوروبا تبدلاً كلياً ، ولم تنج ملكية آل هبسبورغ الا بثنوية نمساوية - هنغارية .

عقب هذا الهيجان في العالم القديم هيجان في العالم الجديد . فحين تخلخل التوازن غير الثابت بين شمال الولايات المتحدة وجنوبها بارتفاع عدد سكان الشمال ونمو اقتصاده ارتفاعاً ونمواً لا

بقارمان ، انتهى الجنوب الى تقرير الانفصال ، فكانت الحرب الاهلية التي نشبت في السنة ١٨٦١ نزاعاً مسلحاً بين فئتين اجتماعيتين تكاملتا وتضامنتا زمناً طويلاً ، وانتهى الامر بينهما الى عداء ازرق . لا شك في ان لمذهب إلغاء الرق ، الذي زاد انتشاراً منذ السنة ١٨٥٠ ، واحرز الغلبة في الانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٦٠ بنجاح لنكولن ، أثره الكبير في تصدع الاتحاد ؛ ولكن الازمة المالية الاقتصادية - أزمة ١٨٥٧ - قد شددت اصحاب المزارع في موقفهم الحذر من رأسماليي الشمال ، بخلقها تيار حماية الصناعة الوطنية في الاوساط الصناعية . اجل انها حرب اجتماعية ، ولكنها حرب ضارية ، استطال عهدها ، لا نظير لها آنذاك في ما اسفرت عنه من تقتيل وتخريب .

أما اذا خرج منها الاتحاد اكثر قوة ، فان ضعفه العابر قد شجع مع ذلك بعض مطامع الدول الاستعمارية القديمة . وان الغزوة الفرنسية للمكسيك ، التي يعتقد البعض بأنها « الفكرة الكبرى » التي راودت حكم نابوليون الثالث ، قد جرت على مقربة من اميركا العاجزة عن فرض مبادىء « مونرو » . فهل هي فكرة لاتينية يا ترى ؟ أم هل هي نظرة الى المنطقة البرزخية بين الاطلسي والهادي في الوقت الذي تعد فيه العدة لفتح ترعة السويس ؟ ولكن القصد قد تصدع بناؤه منذ ان رفضت اسبانيا ، شأن انكلترا ، التورط حتى النهاية ، وحاولت عبثاً انتزاع الجزر « الآندية » الغنية بـ « الغوانو » . فان حكومة لندن ، التي عملت بوحي الاختباء ، آثرت منح كندا نظام الممتلكات . فكانت نتيجة المغامرة الفرنسية تقهقراً للنفوذ الاوروبي في نصف الكرة هذا .

بعد أن صُدّ في المكسيك ، فكّر نابوليون الثالث بالاعاضة مما ناله في المناطق الرينانية . ولكن عداءه المتأخر للوحدة الالمانية ، بُعيد « سادوفا » ، قد جعله وجهاً لوجه امام بروسيا فكانت له « سيدان » بمثابة « واترلو » لنابوليون الاول .

في السنتين ١٨٧٠ - ١٨٧١ ، استكملت الدولتان الايطالية والالمانية عناصر وحدتهما ، الاولى بالاستيلاء على روما ، والثانية بسحق فرنسا التي خسرت الالزاس وجزءاً من اللورين بعد ان كانت استردت السافوا ونيس . اجل لن تتجدد الحروب الكبرى طيلة نصف قرن لأن المانيا الجديدة بحاجة للاستراحة . ولكن اهواء الشعوب لم تهدأ ، وهو السلم الذي عبر عنه بالسلم المسلح ما سيميز العلائق الدولية في اوروبا حتى السنة ١٩١٤ .

بعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية للعهد الحربي

حاول بعضهم تقدير كلفة هذه الحروب : مليار ونصف المليار للحرب الايطالية ، ومثلها لحرب السنة ١٨٦٦ ؛ وبين ١٣ و ١٥ ملياراً للحرب الفرنسية الالمانية ، وقرابة ٣١ ملياراً لحرب الانفصال . وما ان سدد تعويض المليارات الخمسة حتى استعادت الموازنة الفرنسية توازنها مرة اخرى . الا ان الاقتصادين النمساوي والروسي قد تأثرا اكثر من الاقتصاد

الفرنسي، وامضت حكومة الولايات المتحدة زهاء ١٥ سنة في محو آثار عجز مالي ثقيل الوطأة . وعلى اي حال ليس رأس المال ما تحمل هذا العبء في هذه الجهة من المحيط الاطلسي او تلك : فهي رسوم الاستهلاك والرسوم الجمركية ما وفر النصيب الاكبر من الواردات الاضافية التي يتوجب على جمهور السكان أن يؤمنوها ؛ اما تضخم الاوراق النقدية « ذات الظهر الأخضر » فقد سهلت المضاربة وانتقال الثروات الى اميركا .

رافقت الحروب ارتفاع في الأسعار ، كما حدث بين السنة ١٧٨٩ و ١٨١٥ . ارتفعت نسبة الكسب الرأسمالي : ارباح الصيارفة عن طريق القروض (اصدر منها « ارلنفر » واجداً في اوروبا لحكومة جنوبي الولايات المتحدة ، ولكن ثلث القيمة خصص لتجهيز السفن التي لم تسلّم) ، ارباح المبارة(مورغان، كرنجي، روكفلر، واتامايكر ، فاركورهار، هاركنس في الولايات المتحدة) هاركنس ببيعه الروم والوسكي ، وفاركوهار ببيعه المحامل لنقل الجرحى) ؛ أرباح مصانع الآلات الحربية والذخائر : كروب في اسّن ، وشنيدر في الكروزو، وارمسترونغ وفيكرز في انكلترا ، والاسوجي نوبل في روسيا ، و « دي بون دي نومور » في اميركا (زوّد هذا الاخير الطرفين المتحاربين في حرب القرم) رمنغتون وهوتشكيس اللذان لجأ « غمبتا » الى خدماتهما . وحققت الكيمياء وصناعة استخراج المعادن نجاحات سريعة .

مميزات الحروب وعدد الحرب في منتصف القرن

تميزت النزاعات المسلحة التي ادمت اوروبا بقصر مدتها وسرعة تقرر مصيرها لأن القوى بمعظمها تتجابه منذ الاصطدامات الاولى. اجل حافظ معظم الدول على الجيش التقليدي المحترف، وبقيت القوى المتقابلة في جبهة القتال محدودة العدد نسبياً . الا أن الجيش الوطني البروسي قد ارتفع عدد أفراده منذ الاصلاح الذي فرضه بسمارك في السنة ١٨٦٢ – ١٨٦٣ ؛ وقد هزم هذا الجيش على التوالي جنود الامبراطورية الثانية والفرق التي ارتجلتها حكومة الدفاع الوطني عائدة في تنظيمها الى أساليب السنة ١٧٩٣ .

أما في الولايات المتحدة ، فقد جرت حرب ناهكة، حرب شاملة يلعب الارتجال فيها الدور الاول في النهاية ؛ ولكنها تستلزم وقتاً طويلا واستهلاكاً عظيماً في الرجال والعتاد ؛ وما زال اختصاصيو « وست بوينت » المحترفون يأنفون من ارسال الجيوش بأعداد كبرى الى جبهة القتال ، فكانت النتيجة ان الشمال أحرز السيطرة بقوة النار وبالعدد على السواء .

ان فترة السلم الطويلة التي عقبت السنة ١٨١٥ لم تكن موافقة للطلوع بتعاليم عسكرية جديدة. وتأمل المعنيون بالأمر في مآثر كبار القادة من أمثال فردريك الثاني ونابوليون: فاكتفى « جوميني » الذي أخضع كل شيء للعقل المفكر ، بعدد صغير من القواعد الثابتة ونادى بتوفير القوى ؛ ونادى « كلوسفتز » ، الذي خص المبادرة بنصيب اكبر ، بأهمية القوى المعنوية ، وترابط السياسة والحرب ، وتراءى دور القطار الحديدي . أما عملياً فان الجيش النمساوي كان

يذهب الى المعركة كما الى لعبة شطرنج ، والجيش الفرنسي ، الذي فاتته عادة العمليات الواسعة ، لم يستخلص من حملاتـه على الجـــزائر سوى دروس شجاعته و « حسن تصرف » . وعاش العسكريون البروسيون ، بعد ليبزيغ وواترلو ، في مناخ الثقة الجافة نفسه الذي عاشوا فيه بعد انتصارات فردريك ، فتلمسوا طريقهم قبل ان يسيروا على خطى « مولتكه » الذي انضجـه عوزه في بدء حياته وبعض خيبة الآمال في تركيا ، وخدمه مبدأ جمع كافة المجندين في فرقة واحدة – مما يسهل احداث رحلات كبرى على بعض الاستقلال – فاختـــار استراتيجية على طريقة كلوسفتز ، وعـــين من ثم على رأس الجيش أركان حرب يعرفون كيف يتحملون مسؤولياتهم ، وفضل على « المركز الحسن » الذي يسعى وراءه المشاة ، المناورة التي وسع من أجلها دور المدفعية .

استمرت المنافسة بين الرماية والدرع ، ففي سيبستوبول وحول ريشموند شلت حركة المهاجم زمناً طويلاً أمام الخطوط المحصنة ؛ ولم يحاول الالمان الاستيلاء على متز بالقوة ، كما أن باريس قاومت طيلة خمسة أشهر . ولكن الاسلحة الهجومية حققت بعض التقدم : فان ابتكار كبسولة التفجير ، والطلقة النحاسية ، والرصاصة المستديرة – المخروطية الشكل ، كان بمثابـة انتقال من البندقية الزنادية الى السلاح المفرض الذي يحشى من المؤخرة ، من نوع « درايز » المعتمد في الجيش البروسي ، أو من نوع « شاسبو » الذي اختاره الجيش الفرنسي . واذا كان المدفع المسدس ومدفع الرصاص–رشاش الكولونيل « دي رفّي »–اللذان ابتكرا في أميركا ، أثار في فرنسا ، في السنة ١٨٧٠ ، آمالاً ليس لها ما يبررها ، فان المدفـــع المفرض ، الذي انكب على دراسته الكولونيل « تروي دي بوليو » والذي يطلق قذيفة مقوسة المقدمة تعرف بالقنبلة ؛ قد احتل مركز المدفع الصقيل الذي يطلق القذائف الملأى والمستديرة ؛ ولكن الحشو من المؤخرة واستبدال الشبه بالفولاذ لن يعتمدا الا شيئاً فشيئاً .

وتنافس الدرع والقذيفة على البحر أيضاً . فقد كان حدثاً هاماً ابتكار مدفع « بكسان » لاطلاق القنابل ، الذي جعل السفينة الخشبية عرضة للتدمير ، وهو هذا المدفع ما أتاح للروس تدمير الاسطول التركي في « سينوب » . زد على ذلك أن « فولتن » قد ابتكر القذيفة الناسفة التي استخدمها المدافعون عن « كرونستات » وسيبستوبول ، وبنى الجنوبيون لقذفهـــا اول سفينة تسير تحت الماء . ولكن الاختراع المضاد له قيمته الكبرى ايضاً . فقـــد سبق لفولتن واركسون ان فكرا بتصفيح هياكل السفن . ثم ظهرت السفن المعدنية والآلات البخارية في السنة ١٨٥٠ : توفق « غوياس » الى تعويـــم خمس مدفعيات استخدمت في القرم ، ثم حققت « دوريان » في السنة ١٨٥٩ ، السفينة الحربية المدرعـة مستعينا بتصـاميم « ديبوي دي لوم » اطلق عليها اسم (*Gloire*) المجد ؛ ولكن الانكليز ما لبثوا ان حققوا سفينة حربية تنافسها هي « المحارب » .ولم يمض وقت قصير حتى حققت في الولايات المتحدة السفينة (*Monitor*) التي صممها اركسون للشماليين ، فكانت لا ترى بسهولة ولا تقاوم الامواج بقوة ، ولكنهـــا كانت

مدرعة بصفائح حديدية سميكة جعلتها تقف بالمرصاد ا (*Merrimac*) سفينة الجنوبيين الخشبية المزودة بجهاز معدني في طرف مقدمتها ، وتكيل لها الضربات الواحدة تلو الاخرى . فخشيت بريطانيا العظمى فترة من الزمن على زوال هيمنتها ، فبنت بسرعة سلسلة من « المدرعات » التي زودها « ارمسترونغ » بالابراج .

بيد ان النجاحات التقنية لم تكن من التقدم بحيث تتجاوز الخسائر في الارواح خسائر حروب الثورة والامبراطورية تجاوزاً يذكر . فان معركتي « ريزونفيل » وسان - بريفا اللتين تعتبران اهم المعارك الدامية في السنة ١٨٧٠ قد اسفر كل منهما عن ٣٣٠٠٠ ضحية ؛ والحال ، اسفرت واغرام عن ٤٠٠٠٠ قتيل وواترلو عن ٥٠٠٠٠ . وبالامكان اضافة الوفيات المعزوة للامراض . فتقدر ضحايا حرب القرم بمجموعها بـ ٨٠٠٠٠٠ شخص تقريباً، وحرب السنة ١٨٧٠بـ٦٠٠٠٠٠ وحرب الانفصال بـ ١٣٢٠٠٠٠ .

ولكن الشاعر لا يريد ان يفقد الامل :

« لا ! لا ! ليس مصير الانسانية
أن تجلس بلا حراك عند عتبة المدافن الباردة ...»

(فكتور هوغو ، « السنة الرهيبة »)

الفصل الثاني

عصر الايمان المطلق بإمكانات العلم

« نتمسك بعقيدة التقدم تمسك المؤمن بعقيدته ... »

(فاشرو)

رسالة الغرب

كانت حرب الانفصال حدثاً عابراً في مرحلة ارتقاء تميز بسرعته ، فلم تضعف عند الاميركي شعوره بأنه معدّ لدور عظيم ؛ ولكن المنازعات القومية قد عجزت هي ايضاً عن صرف الاوروبي عن اعتقاده بأنه يحمل مشعل « الحضارة » . ولا يشك « فوريه » في ان مفهوم الحضارة نفسه لا ينطبق على « الفترة الخاصة من الحياة الاجتماعية التي بلغتها الامم الاوروبية » . ويسخر « ماكولي » من أولئك الذين يرغبون في تثقيف الهندي وفاقاً لمفاهيمه الخاصة : « حين نعلم فلسفة سليمة وندافع عن الحقيقة في التاريخ ، نكون كمن يكتتب بالاموال العامة لعلم فلك من شأنه اثارة الضحك في مدرسة للفتيات الانكليزيات ، او لقصة ملوك يبلغون ثلاثين قدماً ارتفاعاً ويتولون الحكم آلاف السنين ، أو لجغرافية لا ذكر فيها الا لبحور من الزبدة أو من السائل الحلو الكثيف الذي يبقى بعد تبلور السكر » . والسبب في ذلك ان تفوق الثقافة الغربية لا يمكن ان يكون موضوع جدل . وقد قال « برودون » في هذا المعنى: « ان قدسية الانسان مصونة ، وما علينا ، نحن العرق المتفوق بالنسبة للاعراق المتخلفة ، سوى رفعها الينا ، ومحاولة تحسينها ، وتقويتها ، وتثقيفها ، وتشريفها . ورأى « بول لروا–بوليو » ، وهو صهر « ميشال شيفالييه » القائل قول « سان – سيمون » ، ان ما يتوجب على « الشعوب العصرية » هو « عدم التخلي عن نصف الكرة الارضية لأناس جهلة وعجزة » . واستند «تيودور روزفلت » ، على غرار معاصره غليوم الثاني ، الى الرسالة التقليدية المتوجبة على هذا الشطر من البشرية الذي يطلق عليه الربان « ا . ت . ماهان » اسم « واحة الحضارة في صحراء البربرية » ، وتمنى من صميم فؤاده « استملاك الاعراق العادمة الاهلية » لمصلحته . ورأى ماركس من جهة ثانية ان مهمة ارشاد المجتمعات وقيادتها تعود الى البروليتاريا المتنورة ، أي بروليتاريا البلدان المتطورة.

مسألة الثقافة

فالأمر الهام من ثم هو المعرفة ، هو التربية التي قال عنها فولتير انها « المنبع الخصب لكل نظام وهدوء وسعادة » .

ان نقطة الانطلاق هي محاربة الامية ، ذلك العيب المخزي . لقد اسهمت المطبعة والمدرسة في ذلك . وما كانت الثانية لتعطي ثمارها لولا التقدم الذي احرزته الاولى . ولكن اذا رغب الانسان في القراءة والكتابة – اذ أن الكتاب والصحيفة والاعلان آخذة كلها بالانتشار والرسالة تنقل بسعر منخفض – فليس معقولاً ان يطلب من التعليم الابتدائي فوق ما يستطيع اعطاءه ، ومهما يكن من فضل هذه الثقافة الأساسية ، فهي لا تعدّ للمهنة. من هنا نشأ الميل الى تعليم مهني لا يفصل فصلاً كبيراً بين النظرية والتطبيق العملي، ويوسع في الوقت عينه افق الكتاب المدرسي. ولكن نادراً ما قهرت الصعوبة ، فقد استمر التفريق بين من يتوجب عليه تأمين قوته وبين من يستطيع متابعة تحصيله العالي ، وقد ساعدت على هذا التفريق التمييزات الاجتماعية السائدة .

ولكن ما هي قيمة تعلم آداب قديمة يتذوقها أبناء الارستوقراطية والبورجوازية في الكليات والجامعات ؟ هل في الثقافة الكلاسيكية القديمة ، التي أرضت اهواء النخبة ، استجابة دائمة للحاجات ؟ لذلك كان للقرن التاسع عشر ايضاً مجادلته بين الاقدمين والمعاصرين . فقد قال أراغو من اعلى منبره : «لا يصنع سكر الشمندر بالكلام الحلو ؛ ولا يستخرج الاشنان من ملح البحر بالأبيات الشعرية » ، بينما دافع لامرتين عن قضية « الحقائق الاخلاقية التي تأتينا عن طريق الدروس الادبية » . فهل ان الآداب هي والعلوم على طرفي نقيض ؟ ان مستلزمات القرن واقع ثابت ، والاختيار المتفاوت الحرية – بحسب الأمزجة القومية – أتاح التنويات بين الانظمة الفكرية المختلفة . ومهما يكن من أمر فالحقل العلمي اتسع بسرعة . ولم يبق سوى تدبير التوفيقات الضرورية بين المختبر والمصنع : تحققت المحالفة بعض الشيء بين الفني والعالم ؛ وهي المانيا التي ارشدت الى الطريق في اوروبا. واذا ما زال ممكناً ان يكون المخترع في الغالب ممتهناً وضيعاً ، فقد اصبح الاختراع ، اكثر فأكثر ، ثمرة الدرس. ولكن العائلات صاحبة الامتيازات لم تفقد مكانتها . فعائلة « هرشل » وعائلة « ستروف » تمثلان وحدهما مائة سنة من علم الفلك . وقد سيطر اسم عائلة « كاندول » زمناً طويلاً على تاريخ علم النبات . وفرضت عائلة « بكريل » نفسها في حقل علم الطبيعة منذ منتصف القرن . واكبت عائلة « لينورمان » بكل نجاح على علم الآثار . ويمثل الاخوة « سيمنس » العشرة جيلاً من الفنيين يثير الاعجاب والدهشة: فقد اعطوا مثلاً نادراً في نجاح وتوسيع تطبيقات العلم على الصناعة .

نمو الروح العلمية : الاثر الوضعي

ازدادت ثقة العلم بنفسه اكثر فأكثر، فأوضح اسلوبه وتنظيمه. لقد خلف مذهب العقليين الكرتزياني الذي استند الى بصيرة العقل مذهب عقلي يرتكز ارتكازاً أساسياً الى الاختبار . يضاف الى ذلك من جهة ثانية أن القرن قد نبذ نبذاً نهائياً المنطق الصوري الذي علمته الفلسفة الكلامية والذي ليس ابتداعياً ،

وأرسخت البرهنة على الاستدلال الحسابي الذي يفتح الطريق باستمرار امام الاكتشاف . وقد جمع « جون ستيورات ميل » قواعد الاستنباط بواسطة المعطيات المقنعة . وبينما أخضع «غالوا» الحساب نفسه للاختراع ، لم يبق « كلود برنار » على الاختراع الا ليجعله في خدمة الاختبار ، مقاومة منه للمنطق الكرتزياني الذي أخضع الاختبار للتصور الذهني : ليس للفكر ان يخضع الاختبار امام متطلبات فكرة تتكون ببصيرة العقل ؛ اذا كان هنالك بصيرة عقلية عرافية ، فان الاختبار يستدعي بصيرة عقلية رقابية . وليس من الصعب استشفاف ما ينطوي عليه هذا الموقف من خصب وامكانات . فهو ما سيوفر لعلوم الطبيعة عدّة فكرية طيّعة وبعيدة الغور . ولكن مذهب ماركس المادي الجدلي قد اقترح كذلك، انطلاقاً من الواقع، نظرة «ديناميكية» على العالم تنطبق على تصرف البشر . زد على ذلك ان علماء الرياضيات قد قدموا النتيجة بعد اليوم على اقامة البرهان .

لا ريب في ان المذهب الوضعي قد ابتغى من العلم أن يعين بوضوح صفاته المميزة ومداه وحدوده . ومن حيث هو يدّعي تحديد « الحالة النهائية الحقيقية للعقل البشري » ، فقد عين للعلم موقعه بالنسبة لعلم المعقولات والنظريات المنطبقة على مفهوم الغائية ، وأسند اليه مهمة اكتشاف السنن النهائية للظواهر باستخدام البرهنة والملاحظة معاً ، واقترح عليه ، كمثل أعلى ، جمع كافة آرائنا حول الكون في مجموعة واحدة من الحقائق المترابطة ترابطاً عادم الانفصال ، وطلب اليه اخيراً خدمة التقدم البشري قبل أي شيء آخر ، فربط بذلك الدروس العلمية بعلم الطبيعة الاجتماعي أو علم الاجتماع .

معرفة الكون

لاحظ « كورنو » ان الرياضيات اتجهت « اتجاهاً تغلب عليه الصفة النظرية حين كان القرن يبدي مزيداً من الاهتمام بالناحية العملية » . فما زالت موضوعَ الساعة التوابعُ والاعداد والمجاميع الحسابية ، تلك المسائل الكبرى التي أكبّ على ايضاحها « ويرستراس » و « هرميت » و « كرونيكر » والعديد غيرهم ممن حجب اسماءهم لمعان اسم « هنري بوانكاريه » . فلم يكتف هذا الاخير، في المجلدات الثلاثين والبيانات الكثيرة التي نشرها ، بايجاز مجهود سابقيه ، كأن يعود الى توابع « فوكس » مثلاً ويطبقها على الهندسة الاوقليدية ، بل تناول في ابحاثه المعادلات التفاضلية ، والكميات الصغرى ، وحساب التكامل، ومسألة الاجسام الثلاثة (سبق للآلية النيوتونية ، ان حلت مسألة الجسمين) ، واهتم بالعلائق بين الظواهر الكهربائية والظواهر الضوئية . وان « ريمان » الذي ابتدع هندسة غير اوقليدية قد وجد نفسه منساقاً ، منذ السنة ١٨٥٤ الى اقتراح فضاء ذي أربعة ابعاد ، والشعور شعور بعيداً بالنسبية . وقد وضع المعالم على هذه الطريق الاخيرة كل من « هاملتون » بنظرية الجمل الجبرية الخيالية ، و« كايلي » وسيلفستر بنظرية الثوابت .

وهكذا فتح علم الرياضيات امام علم الطبيعة آفاقاً غير منتظرة . ولكن ذلك لم يمنع الانسان من ان يروّض الوقت ،وقته ، لاجل راحته وتسهيل اعماله: حدد ساعة وسطاً واختار

من ثم خط طول أصلياً (هو خط طول « غرينوتش ») ، ورسم اقساماً وهمية مغزلية الشكل لتحديد الوقت وتوحيده في مختلف الدول ، وسينشيء مكتباً دولياً للساعـــة . وتحت قباب المراصد ، التي ارتفع عددها ارتفاعاً مطرداً ، وزودت بالمراقب الجبارة ، وأجهزة التصوير ، ثم بالمناظر الطيفية ، رسم خريطة السماء بصبر وطول أناة ، وثابر على اكمالها بالكواكب الـــتي حقق هويتها واوضح طبيعتها وابعادها وحركاتها . ثم عين « فيزو » سرعـــة الضوء بواسطة عجلة مفرضة ،وبرهن « فوكو » ، الذي أكب على البحث نفسه ، ان الارض تدور حول محورها بواسطة رقاص جعله يتذبذب بعد ان علقه بخيط تحت قبة الـ « بانتيون » . ثم سار فن التحليـــل الطيفي قدماً بفضل « كيرشوف » و « بونسن » و « هوغنز » و « ميلر » (مولد علم الطبيعـة الفلكي) . واصاب « ماكسويل » بتفسيره ان الضوء نتيجة تموجات مغنطيسية وكهربائيـــة مشتركة . ودنت الساعة التي سيحقق فيها « هرتز » الموجات الكهربائيـــة . فبدت الموجات منذئذ وكأنها تؤلف مجموعاً ضخماً ، ابتداء من الموجات وراء البنفسجية التي لا تتجاوز بعض اجزاء مئوية من المليمترات حتى موجات « هرتز » التي تبلغ ألوف الكيلومترات . أفليس في هذه الظواهر الضوئية والتموجية والكهربائية والكيميائية دليل وحدة هي وحدة الكون نفسها ؟ .

زماناً« مرسلين برتلو» واللورد« كلفن »: المدرسة الآلية

في بيان نشره في برلين في السنة ١٨٤٧ ، طرح « هلمهولتز » مسألة ذاك الشيء المبهم الذي يظهر في الآلة البخـــارية والكهرباء والنور نفسه : مسألة الطاقة . والحال ، فان « ماير » و « جول » و« كلوزيوس » ، و « كارنو» من قبلهم ، قد عينوا سنن علم القوة الحرارية ، التي طبقت على درس الغازات فقادت « ماكسويل » و « بولتزمن » الى النظرية الحركية ؛ وفي الحقل العملي ولّد الضغط والتذويب صناعة التبريد .

بعد صياغة سنن دوام وتلف الطاقة ، بقي هنالك اخضاع المادة العضوية نفسها لقواعـــد الطاقة الآلية . وقد توصل اليها الكيميائيون فعلاً ، ولو بعد مجادلات عنيفة : ألم ينبىء « دوما » بأن الكيمياء ستصبح قادرة على مجاراة الطبيعة الحية ؟ فبعد مرور عشرين سنة ، جاء تحليـــل كلورور الالومين على يد « سانت كلير – دفيل » ، وتركيب الكحول الخشبي انطـــلاقاً من عناصره على يد مرسلين برتلو ، بحكمان لما قاله . وهكذا فان بعض الاجسام ، التي كانت تبدو ثابتة ، قد تحللت ، في بعض الظروف الحرارية ، الى عناصرها ،فلحق مدلول التوازن غير الثابت بسنن علم القوة الحرارية . وفي السنة ١٨٦٣ تحقق تركيب الاستيلين انطلاقـــاً من عناصره بمجرد تدخل الشرر الكهربائي . ثم جاء على التوالي دور البنزين والنفتالين والشحوم . وأيـــد « برتلو » تأكيد الدانمركي « تومسن » بأن الحرارة المتكونة بالتفاعل الكيميائي قابلة القياس ، فقام علم حراري كيميائي الى جانب علم القوة الحرارية .

كـلّـف بالاختبار وامتنع بقدرة العلم القاهرة ، فتخيل بفضل العلم مستقبلاً عظيماً جـــداً

للانسانية . وجدّ على غرار « نوبل » في اتقان المتفجرات ، ولكنه انتج الـ « اوزون » صناعيا ووفر لمعاصريه وسيلة تعقيم الماء وتخيل للسنة ٢٠٠٠ غذاء قوامه صفائح آزوتية : آمن بالتقدم اللامحدود واسهم في وضع الكيمياء في خدمة التدمير . انه لوجه عادم المثيل والنظير . وقد وصف « ميشليه » كتابه « الكيمياء العضوية المبنية على التركيب » وكأنه «العسلج الذهبي» في هذا الفرع الذي بلغ اشده .

ان « ملك الكيمياء » هذا – كما اسماه « جول لو ميتر » ، الذي استقبله في الاكاديمية الفرنسية – قد مات في السنة ١٩٠٧ ، سنة وفاة اللورد كلفن ، الممثل العظيم الاخير للايمان المطلق بامكانات العلم . كان « وليم تومسن » عبقرياً عملياً اكثر منه نظريا ، فاكتشف المبدأ الذي سبقه « كارنو » الى اكتشافه ، وحسن خصوصا اجهزة كهربائية كثيرة ، وادار عملية انزال السلك البحري الاول عبر الاطلسي ، وكتب العديد من المقالات والبيانات وترأس جمعيات علمية كثيرة في بريطانيا العظمى وسواها . احيط بالتكريم وأغدقت عليه الدرجات الرفيعة ولكنه لم يتوار عن مسرح هذه الحياة قبل ان يشهد هبوط المذهب الآلي الذي . ع عنه اكثر من اي عالم آخر .

معرفة الحياة والانواع الداروينية

بعد مبارّزة « كوفييه » وجوفروا سانت – ايلير » ، بدا النصر وكأنه حليف مذهب ديمومة الانواع ونظرية التبدلات الفجائية . الا ان بعض معطيات الجيولوجية وزمن ما قبل التاريخ وعلم الاحاثة قد امالت العديد من الطبيعيين الى مذهب التحول الذي قال به « لامارك » .

والحال ، اصدر شارل داروين ، في السنة ١٨٣٩ – ١٨٤٠ ، « يوميات ابحاثه » الذي دوّن فيه ملاحظاته خلال سفرته البحرية في المياه الجنوبية : فقد لفتت انتباهه الاختلافات في النوع الواحد بين جزيرة واخرى . لقد سبق له ان عرف الجيولوجي « ليال » ، المناوىء للمذهب الذي ينسب التبدلات التي حصلت على الارض الى الفيضانات والزلازل ، كما قرأ مؤلفات « مالتوس » . ارتأى ان الصراع من اجل الحياة ظاهرة عامة تتم بواسطتها عملية انتقاء طبيعية . واصل استقصاءه ، وفي السنة ١٨٥٩ اصدر كتاب « منشأ الانواع » الذي بيع منه ١٢٥٠ نسخة في فترة قصيرة ونقل الى ست لغات .

كان الانتباه متجهاً آنذاك الى الانواع الضخمة من الحيوانات المنقرضة : الزحّاف الاريش ، والطير الانيّب . وقد وضع « اوسبورن » بياناً بانسال الهر منذ الدور الجيولوجي الثالث . ولكن ماذا عن اصول الانسان ؟ فهل ستكتشف يوماً بقايا « بشر سابقين للطوفان » كما انبأ بذلك « بوشيه دي برت » ؟ في الواقع عثر فجأة على جد انسان نيندرتال في السنة ١٨٥٢ ؛ ثم جاءت الاكتشافات الحاسمة في منطقة « بيريغور » ، في « اورينياك » و« غريمالدي » . ولم يخش بعضهم من اقامة نسب بين القرد والانسان .

قام في الوقت نفسه ، منذ ان حقق « بوهل » جبلة خلايا الاجسام الحية ، نقاش حاد حول

تركيب الخلية ودورها ، وهما موضوعان هامان عني بهما التقليديون ، المناوئون لمبـــدأ التطور والتناسل الذاتي . فبينما كان الداروينيون يرفضون التناسل الذاتي ، تمنّع بعض العلماء من امثال « باستور » و « كلود برنار » عن السير وراءهم حتى النهاية . ولكن « هكسلي » شدد على اوجه التجانس بين الانسان والقردة في السنة نفسها (١٨٦٤) التي ندد فيها البابابيوس التاسع عشر برقيم مشهور ، وما لبث « فريتز مولر » ، بعده بوقت قصير ، ان ربط بين علم تخلق الجنين والانتقاء الطبيعي . افترض هكسلي ان المادة العضوية الاصلية موجودة في قعر البحار ، بينـــما طبق « هتكل » ، الذي ربط نظرية الخلايا بمذهب داروين ، سنة « بار » المعروفة بسنة نشأة الحياة ، على الجنس البشري . وقال الفيلسوف « هربرت سبنسر » نفسه بمذهب تحولي ينطبق على حقل المعرفة بكليته ابتداء من تمثل السديم حتى القول بصيرورة اجتماعية متناسقة .

كان سبنسر من اولئك الذين لا يعتقدون بصراع الانواع اعتقادهم بأثر البيئة . وقد نقـــل آنذاك « هيات » و « كوب » من اميركا لاماركية حديثة حملت « اوب » على الطلوع بنظرية التفاعلات بين المادة الحية والظواهر المحيطة بها . اما « موريتز فاغنر » فقد قال بتجمع الانواع المتشابهة بدلا من الانتقاء الطبيعي ، بينما استند « هوغو دي فريز » الى السنن التي وضعها الراهب النمساوي « غريغور مندل » ، وعاد ، تحت اسم التحولية ، وعن طريق التناسل ، الى نظرية التحولات الفجائية . فجلي من ثم ان مواقع الداروينية قد ضعفت منذ ان قامت بهجومها القوي .

الصراع من اجل الصحة
كلود برنار والثورة الباستورية

مهما كان من امر النظريات حول اصل الانواع وتطورها ، فقـــد ولد شيئاً فشيئاً ، بفضل علم الوظائف وعـــلم الحياة ، طب جديد قدمت له الجراحة مؤازرة قيمة . أتاحت الملاحظـــة العلمية للانسان معرفة جسمه والعوامل المرضية التي تهاجمه معرفة فضلى : فساعدتـــه بقوة على تخفيف الالم وبعث الآمال المتزايدة في الحياة .

ومهما كان من اختبارية الطب حتى في منتصف القرن — فهو ما زال ينعت الحـــمى التيفية والزحار بالأمراض « العفنية » — فانه قـــد استفاد من اعمال « لايناك » و « بروسيه » و « اندرال » و « برايت » الذين قطع علم الامراض العضوية بفضلهم المرحلة الهامة اعـــداداً لعلم الاعراض المرضية الصحيح . ولكن الجراحة ما زالت تقاسي من جهل طرائـق استئصال الجراثيم وتأمين المناعة .

على الصعيد العلمي ، يجب انتظار « كلود برنار » لاحراز تقدمات حاسمـــة . اثبت تلميذ « ماجندي » هذا وجوده للمرة الاولى في السنة ١٨٤٩ ببيان حول كيفية هضم الشحوم ، ولا سيما باكتشاف وظيفة الكبد السكرية التي تسيطر على عملية التغذية كلها . وبعد ان افضى بـــه الامر الى ان يرى في السكر الوقود الذي يحترق في الانسجة ويأتي به الدم مع الاوكسجين ، وان ينسب الى الاعصاب الاشتراكية دور منظم حركة الدم ، ويدرس فعـــل السموم في الاعضاء ،

نشر كتابه « دروس في علم الوظائف الاختباري وتطبيقه على الطب » ، ثم « مدخل الى درس الطب الاختباري » الذي كان بمثابة الانجيل لعالم الطبيعيات والعالم بصورة عامة ، والذي اولى فيه الافتراض والاستقلال أهمية كبرى ، وأوصى بمناقضة الآراء السابقـــة ، وأراد اسناد الطب الى سنن ، شأنه في ذلك شأن علم الطبيعة . وحين أدركته المنية في السنة ١٨٧٨ ، كان قد توصل بالفعل الى اثبات وحدة النطاقين الحيواني والنباتي، واعتاق علم الوظائف من الاختبار وعلم المعقولات ، وتحقيق احد آمال « اوغست كونت » . ان هذا الانسان الذي تمـــيز بهيئة مهيبة وطيبة قلب وطلاقة وجه ، قد استمال اليه الناس وأشع من حوله اشعاعاً قوياً . خلفه في « كلية فرنسا » « برون – سيكار » الذي نجح في مواصلة درس الافرازات الداخلية ، فدفع من ثم بدرس الغدد دفعة الى الامام . وتخصص احد تلامذته « بول برت » في فحص الوظائـف الحاسية وظواهر التنفس ، قبل ان يتفرغ للديموقراطية الجمهورية ويلقى حتفه في ال « تونكين

الا ان امنية كلود برنار الاولى كانت تحرير الطب من ضـلاله المعتاد . وقد اكب احـ ـد الكيميائيين من جهته على تحقيقها . كان « لويس باستور » قد تقدم في السنة ١٨٥٧ ببيان حول الاختمار الكحولي ؛ وقد خلص فيه الى وجود الخمائر والمواد القابلة للاختمار معاً ، والعلاقة بين تعفن الضمة – وهي جرثومة قوسية – وحياتها بدون هواء . اجل لقـــد سبق ل « لبيبغ » وأعلن وجود مثل هذا الدور ، ولكن باستور قد اظهر علمياً كيفية حدوثه . ثم انتقل الناس الى التساؤل عما اذا كانت الاجهزة العضوية المجهرية لا تهاجم الكائنات الحية . وقد صادف أن أصيب دود القز بمرض مجهول ، فاكتشف باستور جسيمات بالغة الصغر تنتقل بواسطة البيوض ، هـي البكتريات . وقد اثبت الجراح السكتلندي « ليستر » آنذاك ان الفساد الذي يحـــول دون شفاء الجروح مرده هذه الجراثيم التي اتقاها بالتطهير او تأمين المناعة ضد العفونة . عند ذاك توفق الدكتور « كوخ » من « برسلو » الى زرع جرثومة الفحم التي اكتشفها « دافـين » و « ابرت » والتي كانت تفتك فتكاً بالمواشي . درس باستور بيانه ولاحظ اتفاقاً ان جرثومـة هيضة الدجاج ، تمنّع الدجاجة ضد المرض اذا ما لقحت بها ، ثم لقح بالفحم ،في السنة ١٨٨١ ، خمسين خروفاً بعد ان طعم ٢٥ من بينها بنسبة خفيفة من الجرثومة (وفاقاً للطريقة التي اتبعها « جنر » في اعداد لقاحه ضد الجدري) ؛ فلاحظ الجمهور ان الخرفان غير الملقحة وحدها قـد ماتت . انه لاكتشاف على جانب كبير من الاهمية : فلن تلسب الامراض بعد اليوم الى الاعتلال بلا تمييز ؛ لقد امسك بالجراثيم ؛ ورووقبت اعمالها ، وحوصرت بحيث امكنت محاربتهـــا في معركة مباشرة وناجعة . وقد بلغ مجد باستور ذروته حين شفى ، في السنة ١٨٨٥ ، ولداً عضه كلب كلِب .

قضى باستور عشرين سنة في المجادلات الحادة قبل ان يتغلب على المقاومات والآراء المقبولة قبل التحقيق . ولكنه انتصر في النهاية ، وقد استعد جيش من التلامذة للحلول محله في مقاتلة الجراثيم والطفيليات . فان احدهم « تويليه » قد توفي في الاسكندرية حيث كان مكباً عـــلى

دراسة هيضة وبائية ؛ وتوفق آخر، هو«شامبرلان»، الى إحكام مطهرة بالبخار المضغوط ومصفاة مائية صحية ؛ وتخصص بعضهم في الكيمياء الزراعية : « رولين » ، « فان تيغم » ، « اميل ديكلو » الذين استكشفوا بتدقيق الحقول المختلفة التي تعيش فيها النباتات ولحقوا بـ« شلوسنغ » و « مونتز » و « فينو غرادسكي » في بحثهم عن بكتريات العـالم النباتي : فحققوا اكتشافاً عظيماً حين اثبتوا ان الاختمار سبب تكون الآزوت في التربة .

في هذه الاثناء واصل سواهم تحقيق هوية اصاغر الجراثيم – كـ« كوخ » مثلا الذي اكتشف جرثومة مرض السل ، بعد ان درس الفحم ، ثم اكب على دراسة جراثيم الهيضة والملاريا ومرض النوم والبرص ، الى ان ادركته النهكة فتوفي هو نفسه بعد اصابته بمرض السل – فعمت معالجة الامراض السارية معالجة وقائية . وقد احرز تقدم جديد بالمعالجة المصلية التي توفق اليها « شارل ريشيه » فدشن بذلك الطريقة الدوائية ؛ ثم طبق « اميل رو » و « فون بهرنغ » الطريقة على مرض الذباح (دفـتريا) الذي حقق « كلبس » هـوية جرثومته في السنة ١٨٨٣ ، وركب مصله في السنة ١٨٩٤ ؛ ومن جهة ثانية امتدت حمية المعالجة الكيميائية ضد الفساد التعفني الى حالة الامراض المتسببة عن الاوليات .

اتسع حقل الابحاث امام الغربي ، الآخذ في السيطرة على العالم ، كلما وُجد وجهاً لوجه امام الادواء والأوبئة في المناطق الحارة . نشط منذ زمن بعيد في معالجة الملاريا والقضاء عليهـا في الحوض المتوسطي : في السنة ١٨٨٠ لاحظ « لافران » الحيوانات الدموية في قسطنطينة ؛ وجاء بعده « رونالد روس » ، الطبيب في جيش الهند ، بعين بعوضة الاجمة كناقـلة للملاريا فحاربها بنجاح في كوبا وباناما ومصر ؛ ثم اهتم الاطباء الايطاليون المتخصصون في معالجة المـلاريا ، الذين شق « غراسي » الطريق امامهم ، بتطهير مناطق المستنقعات في بلادهم وجعلهـا صحية . وشن الهجوم على الهواء الاصفر حين حقق « فنـلاي » الطبيب الكوبي ، هوية جرثومته . واكتشفت جرثومة الطاعون الدبيلي في « كانتون » في السنة ١٨٩٤ بفضل « يرسـين » ، تلميذ معهد باستور ، والياباني « كيتاساتو » . واوضح « سيموند » ان الجرذ الاسود ينقله الى الانسان . وحقق الدكتور « فورد » من غامبيا وبعثة « بروس » هوية الحشرة الـتي تسبب مرض النوم . وسوف يبرهن « نيقول » و « كونت » و « كونساي » في السنة ١٩٠٩ ، ان القمل هو ما ينقل الحمى النمشية . وقد وضعت ابحاث في الجغرافيا الطبية والطفيليات ترشد الى مراكز الاعـداء بين سكان المناطق الحارة .

الا ان العرق الابيض لم يستطع التغلب على عدة امراض خطيرة ، بالاضافة الى انـه نقل بعضها احياناً . فقد تفشت الامراض الجنسية بفعل الخوف من الاقرار بهـا . ووصف الاطبـاء ظواهرها واشاروا الى معالجتها بالزئبق . واكتشف « نيسر » جرثومة السيلان الابيض في السنة ١٨٧٩ ؛ وانمـا يجب انتظار السنة ١٩٠٥ حتى يتوفق « شودين » و « هوفمن » الى عزل جرثومة الداء الزهري ، والسنة ١٩٠٦ حتى يكتشف له « واسرمن » الدواء الشافي – بانتظار معالجته

بالبزموت . وبدا السرطان اكثر غموضاً ايضاً . واذا كان علم الأمراض الرئوية قــد اكتشف جراثيم الالتهابات الرئوية ، فان تشخيص التصوير بالاشعة ليس كل شــيء ، وليس للمطهرات والمصل مفعول اكيد . أما السل ، وهو المرض الاجتماعي الناجم عن البؤس والتعب ، فقــد استلزم حماية ترتبط بظروف فضلى للعمل طال انتظارها؛ يضاف الى ذلك ان المعالجة الجراحية لا ترقى الى ابعد من السنة ١٩٠٨، تاريخ تجميع الهواء في الصدر الذي اعتمــده «فور لانيني» . وقد اخذ الاطباء يستشفون استشفافاً بعيداً دور نقص بعض المواد في الجسم ودور الاضطرابات الغددية؛ ولم تدرس الامراض الوراثية فعلاً الا منذ اكتشاف السنن المندلية (نسبة الى «مندل») حوالي السنة ١٩٠٠ .

بيد ان طرائق المعالجة قد تحسنت تحسناً مستمراً . فمقابل طريقة معالجة الداء بضده التي بقيت رائجة ، كان لطريقة معالجة الداء بمثل خواصه من الدواء انصارها من الاتباع المتحمسين الذين آثروا تخفيف الادوية بالمزج تخفيفاً مفرطاً . وقد اثبت كلود برنار ولا سيما برون – سيكار اهمية المعالجة بواسطة السوائل الحيوانية . ثم برزت المعالجة الكيميائية في اعقاب الدروس التي قام بها « اهريش » . ثم نادى « ارسونفال » بالمعالجة بالعوامل الطبيعية ، ثــم أدى تطبيق الموجات الهرتزية على المعالجة الى تعزيز فعالية المعالجة بالماء وبميــاه الينابيع في الينابيع نفسهــا الــتي سهلتها وسائل النقــل الجديدة . الا ان التردد على ينابيع المياه المعدنية قــد استلزم ، بالاضافة الى مستوى حياتي مرتفع ، معرفة علم خصائص المياه ونواميسها معرفــة يقظى . لا بل برزت معالجة مناخية حقيقية في اعقاب ابحاث « بول برت » و « جوردانيه » حول نتائج انخفاض الضغط الجوي في الجبــال ، كما اتضحت اهميــة الاشعاعات الشمسية والجفاف والبرد .

تميزت انطلاقة الجراحة بمزيد من الجرأة ايضاً وهي في ذلك مدينة بالكثــير للمطهرات . يضاف الى ذلــك من جهة ثانية ان باستور قد فضل استعمال المواد المطهرة ، وقد اتضح فــيما بعد ان تفضيله كان في محله . وتوجب كذلك ادخال ألم المريض في حساب المعالج : وهم بعــض الاميركيين من اشار باستعمال روح الحوامض الممزوج بالكحول او اول اوكسيد الآزوت ؛ وقد نشر احدهم ، سمبسون ، في السنة ١٨٤٧ ، بياناً حول اهمية الكلوروفورم (البنج)التخديرية. فأصبح باستطاعة الجراح ، منذئذ ، اجراء عمليته بأمان. وهكذا بات استئصال الزائدة الدودية عملية سهلة في السنوات ١٨٨٠ – ١٨٩٠ ، في حال ان اصابة هذا العضو بالتهاب حاد قد اعتبر حتى ذاك التاريخ احد اعظم الامراض فتكاً بالانسان . وخطت جراحة الاعصاب خطواتهــا الاولى بفضل نظرية طلع بها « بروكا » في السنة ١٨٦١ حول تعيــين وظائف مختلف اقسام الدماغ . واستفاد علم جراحة العين من الاكتشافات التي توفق اليها هلمهولتز ، ولا سيما «غراف» الذي فكر بازالة السادّة بعملية دائرية . وبفضل النجاحات التي احرزتها تقنية علم الامراض النسائية ، سار في طريق الزوال سبب غير نادر من اسباب الوفاة : استخدم الطريق المهبــلي حتى السنة ١٨٩١ ، تاريخ اعطاء الافضلية للطريق الجوفي بفضل طاولة عمليات « ترندلنبورغ »

وأجرى « بور"ا » و « سالجر » العملية القيصرية بنجاح ؛ ولم يستفد فن التوليد من تقدم استعمال المواد المطهرة فحسب ، بل من التحسينات المدخلة على ملقط الجنين ايضاً .

وهنالك حقل من ادق الحقول لم يعد وقفاً على الاختبار والرأي المقبول قبل التحقيق : اعني به حقل الامراض العقلية . فبعد ان احرز علم فراسة الدماغ نجاحاً فضولياً نراه يدخل في طور اختباري ، بحيث لم يعد المجانين موضوع تدابير امن وسلامة فحسب : فان « فالنتين مانيان » و « اميل كربلين » ومدرسة « ادنبرا » قد توصلوا ، من اجلهم ، الى الغاء الاقتسار . وقد رأت النور بعض الطرائق الدوائية ولمع في طب الامراض العقلية اطباء مشهورون . وأخذ أحدهم ، « لومبروزو » ، على نفسه اثبات قيام العلائق المحتومة بين النظام الوظيفي الطبيعي والإجرام . ولا ريب في أن نظريته حول المجرمين منذ ولادتهم ، التي شرحها في مؤلفه الهام ، « الانسان المجرم » (١٨٧٥) قد أثارت مجادلات عنيفة : ولكنه نشر في السنة ١٨٨٨ « الانسان العبقري » الذي جمع فيه بين علم الوظائف وعلم النفس . ورأى بعضهم ان الكائن البشري يأتمر بكليته بالمراكز العصبية التي يرتبط بها الفكر نفسه .

المعرفة التاريخية والاجتماعية

ما عساها تكون قيمة العلم اذا لم يتح هذا الاخير معرفة كيفية التطور البشري وسببيته ؟ لقد جعل « كونت » من درس الظواهر الاجتماعية قمة بناء الفلسفة الوضعية . وارتكز الجدل الماركسي الى حركة الحقل التاريخي . وبالاضافة الى أن توسع آفاق هذا الاخير قد أثار فضولاً متزايداً والى انه قد امسى سلاحاً سياسياً ، فليس من شك في ان مذهب العقليين المؤمنين بامكانات العلم الشاملة قد حرك الحاجة الى تفسير الاحداث تفسيراً افضل . فحدث من ثم في الوقت نفسه تعمق في البحث وتوسع في الحقل التاريخي . وقد بدت المهمة مزدوجة : يجب اثبات الواقع بواسطة العلم الواسع في التاريخ ، ولكن العقل البشري يرغب في استخلاص العام من الخاص . وقد كتب « فوستيل دي كولانج » ما يلي : « ان يوما واحداً نقضيه في التأليف يجب أن تقابله سنوات نقضيها في التحليل » . واكد فوستيل هذا نفسه ان التاريخ « ليس فناً بل علماً بحتاً » ، بينما رأى « رينان » ان « التاريخ فن وعلم سواء بسواء » . وأنجز عمل توضيحي عظيم في حقل الوثائق سهلته نجاحات العلوم المساعدة ، لا سيما علم الكتابات وعلم الآثار ؛ ولكن أسرى الآراء العقائدية والآراء المقبولة قبل التحقيق قد استسلموا أبداً للميل الى رسم لوحات عريضة . وهكذا فان « تين » الذي ادرك مهمته خير ادراك لم يتخل يوماً عن العمل المنسق النظامي ، وليس كتابه « أصول فرنسا المعاصرة » سوى دفاع عن نظريته . كما ان فوستيل دي كولانج ، المشهور بتدقيقه ، قد استخلص من الديانة المنزلية دون غيرها مؤسسات « المدينة القديمة » . ولم ير لا « سيبل » ولا « سوريل » تشابك المعطيات التي تدخل في تفسير الثورة الفرنسية . بيد أن المؤرخين اتجهوا شيئاً فشيئاً شطر الموضوع المحدد أو المجموعة التي يجب أن تكون عملاً جماعياً .

لم تستخلص اهمية العوامل الاقتصادية الا ببطء كلي . وكان « ليست » و « شمـولر » في طليعة من تولوا هذا الاستخلاص ؛ ولكن يجب انتظار آخر القرن حتى تظهر الماركسية في هذا الحقل نظرية مقبولة للبحث. اما التاريخ فقد برهن عن جرأته في معالجة مسألة الاصول الدينية. اجل ان التاريخ قد طبق في نقد التوراة الطرائق نفسها التي استخدمها في كشف حقيقـة نشأة روما او المسألة الهوميروسية . الا ان الباحث الذي تحوم حوله شبهة العداء لحقائق ايمـان حـي يأخذ على عاتقه مهمة غاية في الدقة . فقد سبق لكتاب « حياة يسوع »، الذي نشره شتراوس في السنة ١٨٣٥ ، ان أثار مجادلات حادة . ثم جاءت مؤلفات « فورباخ » و «برونو بوير » التي اعتبرت باعثة للشقاق : هل تصمد الفصول الاولى من سفر التكوين امام اكتشافات مـا قبل التاريخ الطبيعي ؟ ومهما يكن من الامر ، فان «حياة يسوع » التي لطفها رينان وأبعد عنها كل ما هو اسطوري ، قد أثارت ردة فعل عنيفة وكلفت مؤلفها منبره في كلية فرنسا . فقد وقف رجال الاكليروس موقفاً دفاعياً قوياً وانشغل الكثيرون منهم باثبات التوافق بـين تأكيدات العلم واقوال الكتب . ولكن ذلك لم يحل دون اتساع الهوة بين المؤمنين المتمسكين بالروايـة التقليدية وبين الوضعيين والعقليين والقائلين بحرية التدين الذين اعتبروا انفسهم احراراً في مناقشة الاناجيل كما هم احرار في مناقشة اية شهادة أخرى .

بينما كان التاريخ متجهاً ، ولو ببعض الصعوبة ، شطر التعريف بمـاضي الانسان في جميع مظاهره ، كان علم الاجتماع يبحث عن نهج واسـلوب . كان رأي ماركس ان التركيب يجب ان يرتكز الى الجدل وقوة الصراع بين الطبقات ؛ أما هربرت سبنسر فقد اعتقد بوضع قواعـد مذهب تطوري يكون نتيجة تكيف المجتمعات تدريجياً على البيئة . ثم جاء « دورخـايم » يقاوم المدرسة الآلية التي يمثلها « باريتو » و « والراس » والمدرسة المعنية بعلم طبائع الانسان التي يمثلهـا « جايمس فرايزر » ـ وهو من سار على خطى « فردريـك ماكس مولر » باهتمامه بتفسير الاساطير ـ ، والمدرسة المعنية بعلم النفس التي يمثلها « تارد » و « فوييه » ، فحـاول بقوة وضع الشروط التي قد تتيح لعالم الاجتماع القيام بعمل علمي حقاً ؛ وقد نشر كتابه «قواعد الأسلوب الاجتماعي » في السنة ١٨٩٥ ، فكان له بدوره صداه العظيم .

الايمان بامكانات العلم والعلم الاخلاقي النفعي

لاحظ « كورنو » زوال الميل الى الحقيقة الفلسفية البحتـة » . فالواقع الاختباري قد فرض نفسه فرضاً على الانتبـاه . واذا صدق كلود برنار ، فان العقل البشري قد تفرغ منذ اليوم الى « دراسة الظواهر الطبيعية في واقع الأشياء الموضوعي » . زد على ذلك ان رينان قد اعلن منذ السنة ١٨٤٨ : « العلم دين ؛ العلم وحده قادر على تمكين الانسان من حل المسائل الازلية التـي تفرض طبيعته حلها بالحاح » . ولكن الاختبارية النفعية تنتهي عند « جون ستيوارت ميل» الى إدبار مماثل أمام علم المعقولات . وان مذهب الطبيعة المؤمن بامكانات العلم الشاملة قد حمل « تين» على رد النشاط الدماغي الى تصادم الذرات العقلية . ورأى اتباع المذهب الظـاهري من امثال

« بان » و « جايمس ميل » ان الوجدان ليس سوى توارد افكار وصور (ولن يرى اتبـــاع الظاهرية الحتمية ، من امثال « مودسلي » و « هكسلي » ، في الوجدان ، سوى مجـرد وميض فوسفوري دماغي) . وعاد « بوخنر » و « فوغت » و « مولسكوت » الى صيغ « كاباني » (الدماغ يفرز الفكر كما تفرز الكبد الصفراء ، مثلا) ، وقد عاصرت بياناتهم تحقيقـات عـلم الوظائف . وافتتح « ووندت » في ليبزغ مختبراً لعلم النفس ، واسس « فشنر » عـــلم النفس الطبيعي ، وربط « ريبو » بين علم النفس وعلم وظائف الجهاز العصبي . فتبخر كل مفهوم سام او لم يعد سوى وهم خادع .

ولكن نشاط الفرد ، مهما بلغ من ارتباطه بعلم الوظائف ، لا يفسر تفسيراً مقبولا الا على الصعيد الاجتماعي . ان هذا الوجدان الاجتماعي المتفاوت الطواعية ، يشكـل الترياق الواقي من الحتمية المطلقة المستحيلة ، عند ماركس كما عند سبنسر ، وعند جون ستيورات ميل كما عند « رينوفييه » . ومن جهة ثانية ليست الحرية في نظر هذا الاخير ، كما في نظر « كانت » ، سوى مبدأ اسامي مسلم به من مبادىء العقل العملي . وأعطى « هكـّل » مذهب الواقع الواحـــد الذي قال به معنى فلسفة البهجة الخلاقة ، وأبان « ووندت » بجلاء هيمنة الارادة .

يتضح من ثم ان الايمان بامكانات العلم الشاملة عارم بالنشاط والقوة الفاعلة . ومادياً كان أم مشبعاً بالنفعية ، فانه لا يبتعد عن علم المعقولات السامي الا ليكتفي بالواقع . وسيعلن «وليم جايمس » ان « الفكر حقيقي لانه نافع ، وانه نافع لانه حقيقي » ، كما سيظهر مـذهب العملية ايضاً كعلم اخلاقي موضوعه العمل .

الفصل الثالث

استكشاف الأرض
وانتشار المثل الأوروبية

معرفة الارض وتمثيلها

انطلق الانسان الغربي بفرح وبهجة الى فتح الكرة الارضية . وان ما دفعه دفعاً الى امتطاء المغامرة هو الهوى والشجاعة والكلف بالرسالة والعلم ، لا سيما وان عالم المجهول ما زال واسعاً جداً .

غذّت الرغبة الحارة في المعرفة مجموعات المؤلفات وروايات السفر وكتب الارشادات والتعليمات . فقد بيع ٥ ملايين عدد يومياً من « اخبار لندن المصورة » التي ظهرت في السنة ١٨٤٢ . وقد عرفت « مغامرات روبنسون كروزويه » نجاحاً مطرداً منقطع النظير ؛ ونقلت الى كافة لغات اوروبا ، فأوجدت الكثيرين من امثال روبنسون ، السويسري ، والاميركي ، و « روبنسون البالغ من العمر اثني عشرة سنة »،و« امثال روبنسون الحقيقيين»، ولا سيا مغناة « او فنباخ » الهزلية . واشتهر عدد من ارباب القصة الاجنبية : « ماريات »، مؤلف« مغامرات بيتر سمبل » ، والاميركي « ملفيل »، والسكتلندي « ستيفنسون » ، و « لوتي »، الملاح المحترف الذي تذوق جمال الكون اثناء تجواله فيه تذوق الفنان المتوحد . وأوجد « جول فيرن »القصة الجغرافية . فتجول هو ايضاً في العالم ، دون أن يغادر مكتبه، وجمع بين السبق العلمي ومشاهدة المناظر والمجتمعات مشاهدة صحيحة ، وخلق اشخاصاً يستهوون الفتيان ، ك« فيلياس فوغ » الذي يدور حول العالم في ثمانين يوماً ، والقبطان « نيمو » الذي نسير على خطاه ٢٠٠٠٠ عقدة تحت البحار ، والقبطان هاتراس الذي انتصر على القطب الشمالي ؛ وهي الماساة الاسطورية ؛« نجم الجنوب » ، ما لفت انتباهه ، في السنة ١٨٦٧ ، الى افريقيا الجنوبية ؛ أما فكرة الدوران حول العالم فقد أوحى بها اليه ، في السنة ١٨٧٢ ، اعلان لوكالة كوك . وسوف يتولى دور الراوي الفرح في « كتب الغابة المتلبدة » احد قرائه ، روديارد كبلنغ ، الذي كان ، من جهة ثانية ، صديقاً لابن « توماس كوك » .

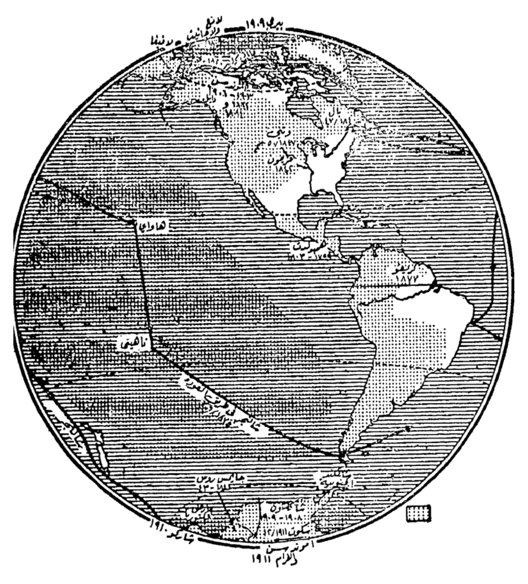
لم يعد قط من مدرسة خلو من خريطة قارات العالم الخمس وخريطـة الوطن الأم . واذا وفر الاطلس تمثيلا اكثر دقة ، فان الأداة العلمية المثلى ، التي جاءت ثمرة عملية مسح وقياس ارتفـاع استغرقت وقتاً طويلا ، هي الخريطة الطوبوغرافية : وهكذا فان المسقط المخروطي الشكل الذي صححه « بون » قد استخدم في رسم خريطة بقياس ١/٨٠٠٠٠ احلت في فرنسا محـــل خريطة « كاسيني » .

اسهم علم طبيعة الارض ، والجيولوجية ، والجغرافية الطبيعية اسهاماً متوازيـــاً ، ان لم يكن تضامنياً ، في معرفة الكرة الارضية . فقد أمكن وزن هذه الاخيرة وقياسهـا . اجل ، لقد تعاقبت النظريات حول طبيعة القشرة الارضية ، فحلت الواحدة محـل الاخرى ؛ ولكن تفسير نواتىء الارض بات اذ ذاك أكثر ارضاء واقناعاً حين نشر « سويس » الفيّنيّ في السنوات ١٨٨٣ – ١٨٨٨ ، بروح شاعر وعالم واسع الاطلاع ، كتابه « وجه الارض » . وقــد صرح « كورتلين » آنذاك ايضاً : « لا اقرأ من المؤلفات الخيالية سوى النشرة الجوية احياناً » ؛ ولكن علم المناخ الذي اتقنه نمساوي آخر ، هو « هان » ، قد اثبت في العهد نفسه تقريباً ، ان درس التيارات الهوائية الكبرى وانواع الطقس المختلفة قد سجل نتائج قيمة مهدت لها دروس مهندس البحرية الاميركية « موري » ودروس « لو فرييه » .

هي حاجات الملاحة بصورة خاصة ما يجدر بنا ان نعزو اليها النجاحات الجديـدة المحققة في علم البحار . فبين السنة ١٨٢٠ والسنة ١٨٥٠ أدت اسفار « ديمون دورفيل » و « ويلكس » الى رد القارة الجنوبية أبعد الى الجنوب . وبالاستناد الى المعلومات التي دونها « موري » في خريطة جميلة للتيارات البحرية ، أو في « توجيهاته الملاحية » القيمة ، ابتكر « بروك » مرجاسا سهـل تحديد الاعماق البحرية ، واتاح البخار كذلك سهولة استخدام الملفاف لانزال اجهزة المراقبة واخراجها . ولعل اهم حدث هو الرحلة التي قامت بهـــا بين السنة ١٨٧٢ والسنة ١٨٧٦ ، السفينة « شالنجر » ، التي عادة بمعلومات وفيرة جداً اوردتها لجنة برئاسة « ويفيل طومسون » في ٥٠ مجـــلداً . وفي السنة ١٨٨٥ سيّر « البير الاول » امير موناكو بعثته العلمية الاولى . وفي السنة ١٨٩٩ ، تألف في كوبنهاغن مجلس دولي دائم لاستكشاف البحر .

الاستكشافات البرية

حوالي السنة ١٨٦٠ اشير في الخرائط الى الاراضي المجهولة في القسم الاكبر من افريقيا وفي آسيا الوسطى والجزيرة العربية و « امازونيا » . وما زال تكون الجبال وحياض الانهار يخفي مفاجـــآت كثيرة ، والاستكشافات البرية تسفر ابدا عن وقوع ضحايا كثيرة . فركوب مخاطر الصحارى الشاسعة الاطراف ومناطق النوامي الحرجية يقتضي صوفية حقيقية وجلداً غير اعتيادي. وهو الجمل الافغاني القادر على البقاء ١٣ يوما بدون تجرع الماء ، ما استطاع وحده اجتياز الصحراء الاوسترالية ؛ ولم يفلح « لابرين » في اجتياز الصحراء الافريقية الكبرى الا بمعونة جنود من قبيلة «شامبا» يمتطون الجمال ؛ كما ان « برازا » ، على الرغم من رغبته في الظهور بمظهر المسالم ، قد اصطحب ٣٠ بحاراً ورقيباً ، و ٣٠٠ بحـار



شكل ٦ ـ اكتشاف الارض في القرن التاسع عشر

سنغالي ، ١٢٠٠ جذاف اوكندي او ادومي وقرابة الف حمال باتكي وبابوندي وخمسة زوارق بخارية ؛ وجهز مستودعاً في « ليبرفيل » وانشأ ٢١ محطة ومركزاً عسكريا بين الشاطىء والكونغو . زد على ذلك ان امر المهمة الحامل توقيع احد الملوك لم يكن شيئا يستهان به : فقد استحصل « ناشتيغال » على مثل هذا الامر من ملك بروسيا لتقديمه الى الشيخ عمر في « بورنو » ، وقصد «جوزف هاليفي » مأرب،مدينة ملكة سبا القديمة ، مرتديا زياً اسرائيليا، ومزودا بكتاب توصية من حاخام صنعاء ؛وتنكر « بالغراف »-على غرار « كاييه » في الصحراء الافريقية – بزي اسلامي ليتمكن من دخول صنعاء عاصمة الوهابيين . ولم يهمل كذلك امر المال والبضائع . فكشفت القارات اسرارها .



كانت هنالك مسألتان في افريقيا : مسألة الانهار الكبرى التي تصلح دون غيرها لربط ساحل بآخر عبر السباسب والاحراج ، ومسألة الصحراء الافريقية الكبرى التي تمتد بين المتوسط والمناطق السودانية . يضاف الى ذلك مسألة النخاسة ، لان النخّاس يحرص على ان يضل المسافرون المسالك ، ويحرّك الزعماء البلديين ، ويقاوم بالحيلة ، وحتى بالعنف ، كل دخول يرتدي طابع العداء للرق . ففي منتصف القرن نجح « بارت » و « ديفربيه » و « رولف » و « ناشتيغال » ، ببذل جهود خارقة ،في اجتياز الصحراء وبلوغ الساحل النيجيري و « تشاد » . واسدل في الوقت نفسه الستار الذي كان يخفي الشبكة المائية في المنطقة الاستوائية : اهتدى ليفنغستون الى ينابيع الزامبيز وينابيع الكونغو ؛ اما ستانلي الذي انطلق للبحث عنه فقد

قام بجولة كبرى في المنطقة الكونغولية . وفي السنة ١٨٨٠ بدأت عملية تقاسم الاراضي .

لم يكن قلب آسيا اسهل منالا . بينما كان الروسيان « تشرسكي و « برجفلسكي » يدخلان الاراضي المرتفعة في الشرق الاقصى السيبيري ، كان «ريشتوفن »يتجول في اصقاع الصين ويصفها . ولكن العائق المخيف كان « سطح العالم » الواسع الذي توفق فيه برجفلسكي الى اكتشافات هامة ، اعني بها ينابيع الـ « يانغ تسي » و « تاريم » و « لوبنور » ؛ ولم يستطع لا « مانتغ » ، ولا الاخوان العازريان « هوك » و « غابيه » مشاهدة «لاسا» الا باخفاء شخصيتهم ؛ ولم يحقق غيرهم هذه الامنية . فقد الف الارتفاع حاجزاً : واذا استطاع هواة تسلق الجبال اقتحام اعلى القمم شموخا في اوروبا ، فان قمم آسيا قد تحدت جرأة الانسان الابيض .

فتح القطبين

القطب يجتذب كالمغنطيس ؛ ومثال القبطان « هاتراس » ليس من نسج الخيـــال . سارت السفن الشراعية أولاً على خطى كوك في البحار الجنوبية ، فجر صيد الحوت اعظم الملاحين جرأة الى أبعد من القواعد المأهولة . وبرزت الرغبة كذلك ، في عهد مبكر ، في اكتشاف مجاز بين الاطلسي والهادي شمالي اميركا وآخر الى الشمال من العـــالم القديم . ولكن الصعوبة قامت في وجوب تمضية فصل الشتاء في مناطق يمتد فيها الليل بين أربعة وستة أشهر ، ومقاومة الجبال الجليدية التي قد تتداخل وتسحق السفينة : فهكذا انتهى في ظروف فظيعـة الاميركي « لونغ » ، ومن معه على السفينة « جانيت » ، خلال رحلة الى المجاز الشمالي الشرقي ؛ وفي هذا التاريخ نفسه تقريباً عرفت بعثة « غريلي » النهاية نفسها في « غرينلند » حيث عثر على جثث مرعبة ابلترت اعضاؤها العلوية والسفلية ، بسبب دفع الجوع ببعضهم الى أكل لحـــوم البشر . فمست الحاجة من ثم الى التجهز بأدوات خاصة والتزود بغذاء ملائم . وليست البعثة الى القطب مما يلائم الشماليين فحسب ، فهي توجب ارتداء البسة شعوب المناطق المتجمدة والتدهن بالشحوم . وفي أواخر القرن ، كان « نانسن » و « بيري » و « اموندسن » قد تلقوا درساً من الاختبـار ، فلم يتركوا شيئاً للمصادفة : بنى « نانسن » السفينة « فرام » القادرة على مقاومة ضغط الجليد ؛ وتزود بمؤن تكفي لمدة خمس سنوات وفكر حتى ببعض اسباب اللهو ؛ وتعلم بيري تقنيـــة الاسكيمو الذين ادخلهم في خدمته وامتحن رجاله ومعداته على جليد الارض الغرينلندية .

بعد أن تلاشى الاعتقاد بوجود قارة جنوبية ، بقي التقدم ، ما أمكن التقدم ، فوق الامواج المتلاطمة باتجاه القطب الجنوبي . وفي سبيل تحديد موقع القطب المغنطيسي الجنوبي ، وضـــع ويلكس وروس رسماً تقريبياً لحدود القـــارة المتجمدة الجنوبية الحقيقية وتعرفوا الى براكينها وخلجانها الواسعة . ثم توقفت النجاحات : اذ اقتصروا العمل على صيد الحوت والاستيلاء على الجزر والارخبيلات الصغرى المتناثرة في مياه المحيط المتجمد الجنوبي .

يرد هذا التوقف الى أن مسألة مجازي الشمالي الغربي والشمالي الشرقي كانت اشد استهواء . فقد عند البريطانيون في بذل الجهود لاكتشاف الاول ، وانتهى « ماك كلور » ، الذي انطلق للبحث عن بعثة « فرانكلن » المفقودة ، الى الدوران حول القارة الاميركية من الشرق الى الغرب . ثم

نجح « نانسن » ، و « اموندسن » من بعده ، في اجتياز « غرينلند » . أما مجاز الشمال الشرقي ، فقد توصل « نوردنسكجولد » الى عبوره بالسفينة « فيغا » بعد أن امضى الشتاء في الجليد على بعض المسافة من مضيق « بيرنغ » . عند ذلك دفــع وهم « بحر القطب الطليق » بالسفينة « تجتهوف » ، ثم بالسفينة « جانيت » ، نحو الشمال ؛ ولكن حوض البحــر المتجمد الشمالي لم يستكشف إلا في أعقاب حيدان مركب « نانسن » ، « فرام » ، عن طريقه طيلة ثلاث سنوات ، فاستفاد المهندس الاميركي « بيري » من ذلك وسار تكراراً على رأس بعثات قرّبته شيئاً فشيئاً الى القطب الشمالي الذي توفق الى بلوغه في السنة ١٩٠٩ بواسطة مزالج تجرها الكلاب .

كان القطب الجنوبي أكثر بعداً وأشد وعورة ، ولكن المستكشفين ما لبثوا أن بلغوه هــو ايضاً . لقد تعددت المحاولات بين السنة ١٨٩٧ والسنة ١٩٠٥ ؛ فــان شاكلتون قد اقترب من الهدف وبلغ نقطة ترتفع اكثر من ٣٠٠٠ متر وتبعد عنه أقل من ٢٠٠ كيلومتر ، ولكنه افتقر في النهاية الى المؤن ؛ وأخيراً ظفر اموندسن النروجي ببلوغه في السنة ١٩١١ ،بينما لاقى سكوت حتفه في عاصفة ثلجية .

معرفة الكون

ولكن ما هي بالضبط الشعوب المختلفة التي يتألف منها الجنس البشري ؟ لقد وقع مدلول العرق موقع الرضى من الرومنطيقيين الذين تكلموا عن العــرق الفرنجي والعرق الكلتي والعرق الجرماني ؛ فالعرق يفسر كل شيء ، وحتى السلوك الفكري ؛ وسوف يبث « غوبينو » فكرة وجود عرق آري ، هو أنبل الأعراق البيضاء و مُعَد للمهام المخصابة . وقد قام نقاش حاد بين القائلين بوحدة النوع والقائلين بتعدد الانواع . لا بل لم يعرف ما اذا كان يجدر الكلام عن علم طبائع الانسان أم عن علم خصوصيات الشعوب . وكان مقدراً للصوفية العنصرية ، بفعل تشوش الآراء ، أن تغذي ، في أواخر القرن ، الاهواء القومية والتوسعية الاستعمارية .

الا أن هذه النظرية الساذجة قد صادفت مقاومة شديدة تولاها اولئــك الذين ارتأوا ، ك « ميشليه » مثلاً ، ان البيئة والحياة المشتركة أعظم أهمية من الدم أو شكل الرأس في تكييف الشعوب والأمم . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن « كارل ريتر » ، الذي يبدو الممهــد الحقيقي لجغرافية بشرية تفسيرية ، قد حاول ، منذ السنة ١٨١٧ ، وصف البلدان وسكانها وصفاً يستهدف اثبات تبادل الارتباط . وفي هذا الاتجــاه سار من بعده « برغهوس » و « بيترمن » و « ركلو » . وبينما يقترح « راتزل » ، المتشبع بالنظريات الحتمية ، درس العــلائق القوية بين الدول وسياستها وبين المعطيات الطبيعية ، تشبث « فيدال دي لا بلاش » و« ماكندر » بالتوسع في مدلول طريقة الحياة الناجم عن تعاون صادق بين النوع والطبيعة قادر على تفسير التعدد الفائق في طرائق التكييف ، ومن ثم تفسير النماذج البشرية . ونزولاً عند طلب « لافيس » ، وعلى طريقة ميشليه ، سوف يقدم « فيدال دي لا بلاش » لكتاب مفصل في «تاريخ فرنسا »من وضع مجموعة من المؤرخين ، بـ « لوحة جغرافية » متنوعة الألوان .

دور اللغة في انتشار الثقافة الاوروبية

نظر الغربي الى الاداة والنسيج والطريق والخط الحديدي، وحتى الى المسكن، كما الى وسائل عمل في الاجزاء الأخرى من العالم، ولكنه لمس الحاجة الى افهام غيره فوائد وجوده. واذا وجد موافقاً أن يتعلم بالضرورة لغات تختلف كل الاختلاف عن لغته، فقد بدت له أفضلية انتشار لغـات تنقل بسهولة تأثيره وحالته النفسية. وقد رأى سابقة تثير الانتباه في قوة انتشار اللغتين الاسبانية والبرتغالية في العالم الجديد.

من دواعي الأسف أننا لا نستطيع أن نتعقب ذاك الهجوم اللغوي الذي قام به المهاجر والمستعمر والتاجر ومعلم المدرسة والمرسل، بواسطة الصحيفة والبيان والكتاب - وكتاب التوراة بصورة خاصة. وهكذا فان اللغة الفرنسية، التي احتفظت بمركزها في جزيرتي هايتي وموربس، قد احرزت تقدماً مطرداً في كندا وأفريقيا الشمالية (حيث اقتبست بعض المفردات عن العربية) والشرق الأدنى وحتى الشرق الأقصى. ولكن كم كان اشعاع اللغة الأنكليزية أعظم قوة: فان الأماكن الكثيرة التي تحمل أسم فكتوريا وادوارد وجورج في العالم لدليل على عظمة البريطانيين العالمية؛ وإنما تفاهمت الشعوب بواسطة اللغة الانكليزية في الهند؛ واللغة الانكليزية ملكت سيدة في كافة الطرق البحرية. إلا أن الاتصالات بين الشعوب قد خلقت لغات مشتركة غريبة: ففي «لويزيانا» عرفت البقاء لغة عامية فرنسية - زنجية، «غـامبو»، وفي آسيا الشرقية يتكلم الحمال والعامل والتاجر لغة عامية تعرف بال «بدجن الانكليزي». ومن الصعوبة بمكان احياناً كتابة لغة بالاحرف اللاتينية أو الانتقال من كتابة الى أخرى (ان مثل ال «كوك نغو» في فيتنام مثل استثنائي على وجه العموم). يضاف الى ذلـك من جهة ثانية ان الدولة المستعمرة آثرت في المستعمرات تنشئة البلديين عن طريق لغتها الخاصة: فالطريقة البريطانيـة المعتمدة في الجامعات الهندية تعكس الاساليب السائدة في اوكسفورد وكمبردج، ولم يهتم الهولنديون إلا في عهـد متأخر بـ «مدرسة شعبية» تعلّم فيها اللغة الماليزية واللغة الجاوانية.

انتشار المسيحية

اعتبر الاوروبي والاميركي اللذان حركتهما الحرارة الدينية ان الحملة الصليبية لم تتوقف قط. لذلك فان المذاهب التي تنتسب للمسيح قد نمت نمـواً مطرداً؛ زد على ذلك ان العالم الجديد الذي بُشر فيه بالانجيل واستُعمر في آن واحد قـد زاد من الحيوية المسيحية. اما دعوة الرسالة، التي عرفت فترة من التوقف، فقد نمت مجدداً يساندها الاستعمار الذي ساندته هي بدورها.

برزت قوة الارثوذكسية، التي ساندتها اجهزة الدولة الروسية، في مـا بين الشرق الادنى وآسيا الشرقية. بيد ان علينا في الدرجة الأولى تقدير الأهمية التي ارتدتها تقوية الكاثوليكية في مركزها. فان ما فقدته الكنيسة الرسولية الرومانية في ايطاليا، في المجال الزمني، أمـام تيار الحركة القومية، قد حاولت بنجاح الاستعاضة عنه في المجال الروحي بتحديدمركزها بدقة ليس من الالحاد فحسب، بل من المبادىء العصرية أيضاً. الم يؤكد المجمع الفاتيكاني في السنة ١٨٧٠

ان خليفة القدس بطرس «يمتلك.. العصمة التي اراد المخلص الالهي ان يقلدها كنيسته في تحديد العقيدة حيال الايمان والاخلاق» ؟ وبفضل الوحدة وتسلسل السلطان حقق العمل الكاثوليكي ، آنذاك نتائج قيمة خارج اوروبا. فقد سبق لبيوس السابع ان احيا جمعية اليسوعيين واعاد إنشاء جمعية الرسالات في الخـــارج . واستفاد خلفاؤه من الظروف (ضعف الامبراطورية التركية ، واحتلال الجزائر ، والتدخل في الصين) لاحداث نيابات واسقفيات رسولية جديدة . وقـــد جمعت جمعية نشر الايمان وحدها ٢٦٨ مليوناً ، تبرع الفرنسيون بـ ١٧٤ منها ، بين السنة ١٨٢٢ والسنة ١٨٩١ . فاستطاع بيوس التاسع ولاون الثالث عشر تقسيم اوقيانيا ، وافريقيا ، وآسيا من ارمينا الى اليابان ، الى دوائر كنسية . وقد برزت أسماء شخصيات شهيرة : الأب « هوك » وصاحبا السيادة « اوغدار » ، « رسول الكونغو » ، « ولافيجري » ، مؤسس الآباء البيض ، والاب « دي فوكو » الذي كان ناسكاً اكثر منه مبشراً على كل حـــال . وبينما لم يكن هناك أكثر من ٣٠٠ مرسل خارج أوروبا في السنة ١٨١٥ ، نرى عـــددهم يرتفع الى ٦١٠٠ في السنة ١٩٠٠ ، بصرف النظر عن جوقات المربين . فسارت الهند في الطليعة لجهة عـدد الاهتداءات ، تليها الهند الصينية والصين ، والف الشرق الادنى منطقة ثالثة من حيث الاهمية ، متقدما على افريقيا . اما اذا اخذنا عدد السكان بعين الاعتبار ، فاننا نرى ان النجاح المحرز في بعض الجزر كان اكبر منه في البلدان المذكورة . ولعل المهتدين بلغوا بين ٤ و ٥ ملايين تقريباً .

اعتمدت البروتستانتية على مستعمرات التوطين الكبرى التي اسسها الهولنديون – في الكاب – ولا سيما البريطانيون؛ ثم اشعت الولايات المتحدة بدورها بكل غيرة . فاسفرت « يقظة » القرن الثامن عشر عن ولادة مؤسسات كبرى لنشر المسيحية المصلَّحة : الجمعية المعمدانية التبشيرية ، وجمعية لندن التبشيرية ، اللتين تأسست على غرارهما منظمات عديدة لا تقل عنها غيرة تبشيرية متقدة . ففي السنة ١٩٠٠ كانت ٢٤٩ جمعية بروتستانتية تتولى أمر الانفاق على ١٦٠٠٠ مبشر ؛ كما ان جمعية الكتاب المقدس باعت أو وزعت ٤ ملايين انجيل طبعت بـ ٣٥٠ لغة ؛ وتراوح عدد المهتدين بين اربعة ملايين وأقل من ثلاثة (بحسب المؤلفين) ، وتوزع بين الهند ، وافريقيا الجنوبية واندونيسيا ، وجزر المناطق الحارة ، والصين . وكانت المكاسب هنا ايضاً اكبر منها في المستعمرات الصغيرة الخاضعة لوصاية ادارية شديدة .

ليس من ينكر فائدة التدخل السياسي للدفاع عن الايمان . أجل قد يحدث أحياناً ان تتأذى الارساليات من التدابير التي تتخذها بعض الحكومات بحق بعض الجمعيات . ولكن عداء الجمهورية الفرنسية الثالثة للاكليروس لم يعتبر يوماً مادة من مواد التصدير . لا بل غالباً ما اتخـــذت من الدفاع عن المصالح الدينية حجة لتبرير توسعيتها الاستعمارية . ولذلك غالباً ما نرى قضية الانجيل تختلط في نظر البلديين بقضية الاجنبي الذي يريد السيطرة عليهم .

يضاف الى ذلك ان الشكل التجاري الذي ارتداه التبشير الديني قد اغاظ هؤلاء البلديين . فقد اشتهر العديد من المهتدين الصينيين باسم « المسيحيين من اجل الارز » . ولم ينس اليابانيون

يوماً « الاغراء بالحرير والبندقية »الذي استخدمهاليسوعيون لاستمالتهم . وهو الطبيب المبشر ، القس « شارل غتلوف » ، من ركب السفينة كترجمان في خدمة شركة « جاردين وماتسون » لبيع الافيون من الصينيين في السنة ١٨٣٢ ، بعد ان قبض منها مساعدة مالية . ودخل الاب « فيناز » اليسوعي « تاناناريف » في السنة ١٨٥٥ متنكراً برفقة عميل مصنع فرنسي للاسلحة. ولا شك ، في رأي « ستانلي » ، ان الافريقيين جميعهم ، اذا ما اخذنا همجيتهم بعين الاعتبار ، يفضلون التاجر على المرسل المبشر ؛ بيد ان هذا الاخير سيلعب في افريقيا الشرقية دوراً اعظم من دور الاول ، اذ ان الكتاب المقدس يجب ان يسبق بالة البضائع ؛ في حال ان العكس هـــو ما حدث في افريقيا الغربية .

تناسقت المنافسات بين الارساليات من جهة ثانية مع الخلافات بين الدول. فقد استمر النزاع حول الاماكن المقدسة تتخلله حوادث مفجعة في أغلب الاحيان ؛ وقام هذا النزاع في الهند بين الكاثوليك والبروتستانت ، وبين الاكليروس البرتغالي في « غـــوا » والارساليات الكاثوليكية الفرنسية ، وفي الصين بين العازريين في « مكاوو » واليسوعيين ، وبـــين هؤلاء والآباء الانكلوساكسونيين ، وفي « هاواي » بين الاميركيين والبريطانيين ؛ وفي مدغشقر لم تخف المنافسة بين الكاثوليك والبروتستانت الخصومة الفرنسية الانكليزية .

فمن الوهم الخادع من ثم الاستنتاج بان المسيحية قد حققت مكاسب حاسمة . وبصرف النظر عن مقاومة متباينة العنف قابلتها بها السلطات التقليدية في الشرق الاقصى ، يجب الاعتراف بان الاسلام قد صمد في كل مكان ، لا بل حقق نجاحات ذات قيمة في افريقيا وربما في آسيا دونها نجاحات المسيحية .

انتشار الروح الانسانية ؛ مواصلة مكافحة النخاسة

كتب لاون الثالث عشر الى صاحب السيادة « لافيجري » ما يـــلي : «اني اكبر علو الهمة الذي تبرهنون عنه حيثما اقتضى ذلك خـــلاص البشر » . ولكن هذا العمل الروحي لا ينفصل عن المحبة التي تستهدف التخفيف من الآلام الارضية وتتصل بدورها بصراع العلمانيين من اجل الانسانية .

كانت مكافحة المرض مع التعليم مهمة الارساليات الرئيسية ، دينية كانت هذه الارساليات ام غير دينية . فان « بنات المحبة » اللواتي اسس جمعيتهن القديس « منصور دي بول » قد انشأت في الجزائر والشرق الادنى ومدغشقر والصين ملاجىء للاطفال ودور ايتام ومستوصفات وادرن مستشفيات دخلت في عدادها مستشفيات البرص احيانـــاً . وكان الكثيرون في الهند ، من بين المبشرين البروتستانت ، أطباء وممرضين ؛ ولما كانوا متزوجين ، فقد سعوا الى ازالة عـادة تعدد الزوجات ورفع مستوى المرأة . وكان تحسين الصحة وحفظها ، في نظر الاوروبيين والاميركيين ، احد حقوقهم الاولى في اقرار السكان البلديين بفضلهم .

اعتبروا ان للاستعمار ما يبرره اذا ما نجح في استئصال احدى افظع آفات عالم المناطق الحارة طغياناً ، اعني بها النخاسة . فكان عليهم ، والحق يقال ، اقفال هذه السوق الكبرى ، بسبب

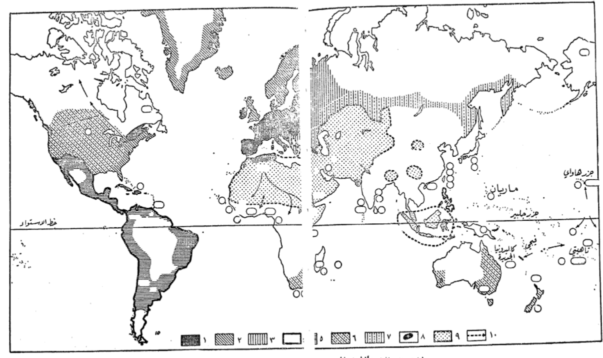
تُعهدهم اياها في مغارسهم في العالم الجديد. ولكن ما هو السبيل الى استنزاف النبع الذي يغذيها ان لم يكن بمراقبة القارة الافريقية بكليتها ؟

كان المستكشفون والمبشرون يُعلمون بالآفة ، ويفتدون بعض المساكين ويعتقونهم . ولكن عملية استئصالها كانت تستلزم بوليساً دولياً وحملات عسكرية منظمة . الا ان « الجمعية الدولية الافريقية » التي اخذت على عاتقها فتح ابواب افريقيا امام الحضارة عقدت في « بروكسل » في السنة ١٨٧٦ جلسات ظهر فيها « ليوبولد » ملك بلجيكا بمظهر « المحسن الى الزنوج » ، ولكنها ما لبثت ان تحولت عن هدفها الى استعمار رابح يخدم مصالح الملك . ولن يحدث شيء حاسم قبل سنة ١٨٨٠ .

في هذه الاثناء مارست انكلترا الضغط على سلطاني زنجبار ومسقط للحيلولة دون النخاسة بين شاطئي المحيط الهندي ؛ واستحصلت من جمهورية افريقيا الجنوبية على وعد بتلطيف حالة الزنوج ؛ وعاتبت خديوي مصر واستحثته للتدخل في « دارفور » . ولكن النخاسين ، بعد ان اقصوا عن المحيط الهندي ، صمموا اكثر فأكثر بالمقابلة على الاحتفاظ بالطرق التي يسلكونها بين السودان والبحر الاحمر . وفي الوقت الذي اعترفت فيه الدول المجتمعة في برلين ، في السنة ١٨٨٤ — ٨٥ ، بدولة ، الكونغو المستقلة ، موجبة عليها مكافحة النخاسة ، سقطت الخرطوم في ايدي الثورة المهدية ، وربما بدا موت « غوردون » باشا ، الذي كان يعتبر فارساً من فرسان المسيح ، في قرن لا يعير الفروسية اهتماماً يذكر ، تحدياً لاوروبا المسيحية المناهضة للنخاسة . فعقد في بركسل في السنة ١٨٨٩ مؤتمر جديد واجه اتخاذ تدابير قانونية ، ولكن النخاسين لم يزولوا من السودان الا بعد سحق الدراويش على يد كتشنر في السنة ١٨٩٨ ، وسحق ملك « اويداي » ، « رباح » ، على يد الجيوش الفرنسية في السنة ١٩٠٠ .

لا ريب في واقع العاطفة الانسانية التي املت هذه المكافحة . ولن يستوقفنا هنا سوى النجاح المنقطع النظير الذي احرزه كتاب « كوخ العم توما » من تأليف السيدة « بيشر ستو » الذي نقل الى معظم اللغات الغربية وطبع اكثر من ٥٠٠ طبعة وصيغ حتى بابجدية العميان . ولا نستطيع كذلك ان ننعت بالمراءاة كلمة التهدئة التي ترد باستمرار في كتابات المستعمرين حين يعلن هؤلاء عزمهم على وضع حد للحروب الداخلية ، والجرائم الطائفية الطابع ، والاتاوات المرتفعة التي تفرضها الاقطاعيات البلدية . فقد استهدفت اتفاقية بروكسل في السنة ١٨٨٥ واتفاقية برلين في السنة ١٨٩٠ ايجاد حق دولي حقيقي ، بتنظيم الفتح وتوصية الفاتح بتحسين مصير السكان والغاء النخاسة وتجارة الاسلحة وبيع الكحول . وفي السنة ١٨٨٨ اصدر لاون الثالث عشر رقيماً اثنى فيه على مبادهات الكردينال لافيجري .

كان من شأن هذا العطف الكريم ، في اعتقادنا ، تبرير الوصاية التي توجبت ممارستها على حضارة متفوقة . فهو قد وفر عليها الاستناد الى حق الاقوى ، لا سيما وانه اتفق كل الاتفاق والرغبة ، الصادقة ايضا ، في استثمار الكرة الارضية استثماراً أبعد بصيرة .



شكل ٢ - الانتشار المسيحي

١ - بلدان كاثوليكية أو ذات أكثرية كاثوليكية في اوائل القرن ؛ ٢ - بلدان بروتستا ات ا كثرية بروتستانتية في اوائل القرن ؛ ٣ - بلدان ارثوذكسية في اوائل القرن ؛ ٤ - بلدان اميركية او آسيوية كانت الكاثوليكية الدين الرسمي فيها في اوائل القرن ؛ ٥ - مناطق ان بها ا سيحية (اكثرية كاثوليكية) ؛ ٦ - مناطق انتشرت فيها المسيحية (اكثرية بروتستانتية) ؛ ٧ - مناطق انتشرت فيها المسيحية (اكثرية ارثوذكسية) ؛ ٨ - مسيحيو وأرم ؛ ٩ - مناطق يسيطر فيها الاسلام ؛ ١٠ - مكاسب الاسلام .

الفصل الرابع

ارتفاع عدد السكان ونزوحات الأوروبيين الكبرى

نمو عدد السكان في اوروبا والعالم

كان ارتفاع عدد سكان الارض في النصف الاول من القرن الثاني عشر اسرع منه في القرن الثامن عشر ؛ وقد برزت هذه الظاهرة بروزاً أوضح بعد السنة ١٨٥٠ . فاذا سلمنا بأن عدد سكان الارض كان ٥٠٠ مليون في السنة ١٦٥٠ و ٧٠٠ مليون في السنة ١٧٥٠ ، فاننا نرى العـــدد يرتفع الى ضعفه بين السنة ١٦٥٠ ومستهل القرن التاسع عشر ، بينما هو يتضاعف مرة ثانية بين السنة ١٧٥٠ والسنة ١٨٨٠ . كما نرى ان معدل الارتفاع في النصف الاول من القرن التاسع عشر أعلى منه في النصف الاول من كل من القرنين الـسابقين ، الا في آسيا . وعلى الرغم من ان سكان آسيا قد تجاوزوا ابداً نصف سكان الارض ، فان هيمنة هذه القارة قد ضعفت . وكذلك فان اميركا لم تحتل بعد سوى مركـــز وضيع على الرغم من تقدمها الملحوظ . أما الكتلة الاوروبية الآسيوية فقد جمعت بمفردها ثلاثـة ارباع السكان . ولكن ما يستوقف انتباهنا بصورة خاصة هو سكان اوروبا : كان اكثر من خمس سكان الارض في السنة ١٨٠٠ ، فارتفع الى اكثر من الربع بقليل في السنة ١٩٠٠ . فاذا اعتبرنا ان هذا العدد قد بلغ ضعفه على الاقل خلال القرن التاسع عشر ، وان مساحة اوروبا تأتي في المرتبة الرابعة بين القارات الخمس — وفي المرتبة الاخيرة ، اذا لم تدخل فيها روسيا — فاننـا ندرك الطاقة الديموغرافية التي تنطوي عليها .

يجب الا ننسى ، بالاضافة الى ذلك ، ان اوراسيا انما نمت بذاتها . فان افريقيا قد استقبلت اكثر مما اعطت ، والامريكتين لم تقدما اي عنصر للهجرة ؛ كما لم تقدم اوقيانيا اي عنصر ايضاً . والحال ، نحن نرجح ان الذين هاجروا آسيا اقل عدداً من أولئك الذين هاجروا اوروبا . ففي السنة ١٩٠٠ ، يجب ان نضيف الى الـ ٤٠٠ مليون اوروبي كل البيض الذين جـاؤوا الى القارات الاخرى من أوروبا او انحدروا من ارومة اوروبية : لذلك فان ابناء اوروبا قـد مثلوا آنذاك

ثلث الجنس البشري[1] .

---

(١)

عدد السكان بالملايين

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	١٨٧	٢٦٦	٤٠١
آسيا	٥٧٥	٧٦٠	٩٠٠
افريقيا	١٠٠	١٠٠	١٢٠
اميركا الجنوبية	٦	٢٥	٨١
اميركا الوسطى واميركا الجنوبية	١٩	٣٣	٦٣
ارقيانيا	٢	٢	٦
	٨٨٩	١١٨٦	١٥٧١

نقلا عن تقديرات ويلكوكس وساندربارغ

نسبة توزيع السكان

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	٢٠،٩	٢٢،٣	٢٥،٥
آسيا	٦٤،٦	٦٤،١	٥٧،٢
افريقيا	١١،١	٨،٣	٧،٦
اميركا الشمالية	٠،٥	٢،٦	٥،٢
اميركا الوسطى واميركا الجنوبية	٢،٦	٢،٥	٤
ارقيانيا	٠،٣	٠،٢	٠،٥

كثافة السكان

	١٨٠٠	١٨٥٠	١٩٠٠
اوروبا	١٨،٧	٢٦،٦	٤٠،١
آسيا	١٣،٧	١٧	٢١،٣
افريقيا	٣	٣،١	٤
اميركا الشمالية	٠،٢	١،١	٣،٤
اميركا الجنوبية واميركا الوسطى	١	١،٢	٣،٤
معدل الكثافة	٦،٧	٨،٧	١٢

(نقلا عن ساندبارغ)

نسبة الزيادة

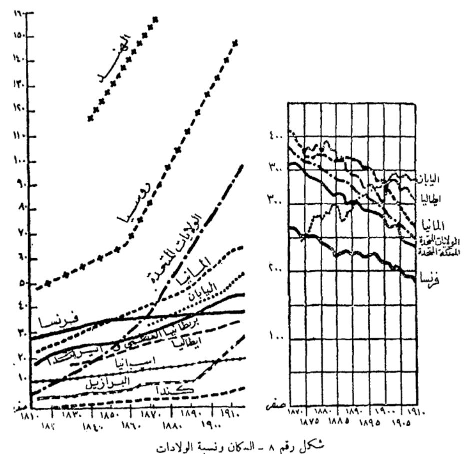
	١٧٥٠-١٨٠٠	١٨٠٠-١٨٥٠	١٨٥٠-١٩٠٠
اوروبا	٣٤ ٪	٤٣ ٪	٥٠ ٪
آسيا	٢٨،٥ »	٣٣ »	١٨ »
افريقيا		٠ »	٢٠ »
اميركا الشمالية	١٤٥ »	٣٠٠ »	٢٢٢ »
اميركا الجنوبية واميركا الوسطى	٥١ »	٧٣ »	٩٢ »
ارقيانيا		. »	٣٠٠ »

(بكل تحفظ للفترة ١٧٥٠ - ١٨٠٠)

الزيادة السنوية ٠،٧٠٧ بالمئة بين ١٨٠٠ و ١٨٥٠ ؛ ٠،٨٢٣ بالمئة بين ١٨٥٠ و ١٩٠٠

النزوحات الاوروبية الكبرى

كان لنزوحات السكان التي حدثت ابتداء من السنة ١٨٥٠ اثرها البعيد في المعاصرين. ولا ريب في ان ارتفاع عدد السكان في اوروبا قد كان لها محركاً ودافعاً، واستحث تطورها التقني والاقتصادي، واوجد فيها تيارات هجرة أتاحت بعض التوافق بين العرض والطلب في سوق العمل، وسهلت على العموم نشأة المدن الكبرى، ولا سيما مراكز الصناعة الكبرى والتجارة الناشطة. ولكن المقايضات الداخلية لم تكن كافية، فنزح عدد كبير من الاوروبيين عن اوطانهم، نزوحاً مؤقتاً او نهائياً، رغبة منهم في تحسين مصيرهم.

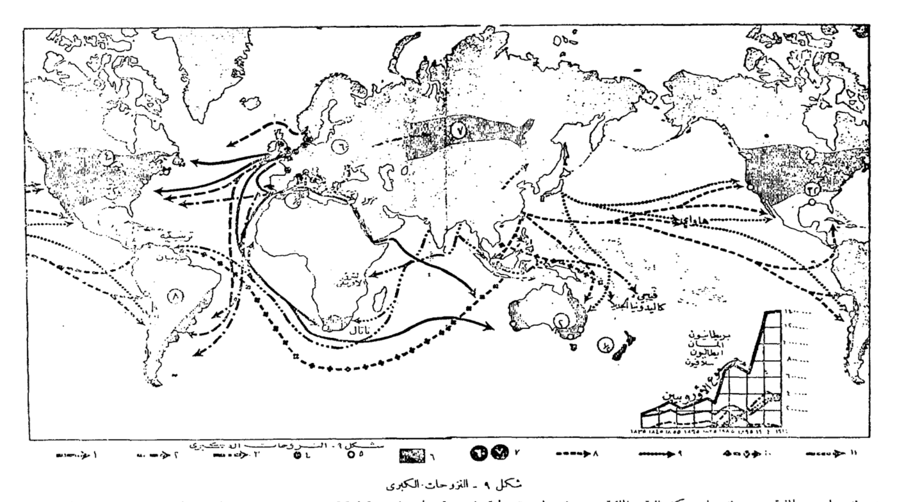


شكل رقم ٨ ـ السكان ونسبة الولادات

الى اليسار: سكان بعض البلدان بملايين النسمات (نقلا عن احصاء « بيرو » العام)

الى اليمين: نسبة الولادات لا ... ١٠ نسمة (نقلا عن « هوبر »، بونل »، « بوفر »: « سكان فرنسا » وعن احصاء « بيرو »)

وما كانت هذه الهجرة لتتحقق في القرن الثامن عشر. فان ظروفاً مؤاتية كثيرة ـ انخفاض كلفة وسائل النقل، وعدم قابلية المدن لاستيعاب كافة النازحين عن الارياف، وحرية المهاجر في التوجه الى مناطق واسعة خالية من السكان والاستيطان فيها ـ قد توفرت في الوقت الذي



شكل ٩ - النزوحات الكبرى

١ - نزوحات بريطانية ؛ ٢ - نزوحات سكندنافية والمانية ؛ ٣ - نزوحات متوسطية واوروبيةوسطي واوروبية شرقية ويهودية ؛ ٤ - مرافىء المهاجرة الاوروبية ؛ ٥ - مرافىء الاغتراب ؛ ٦ - مناطق اغتراب الاوروبيين ؛ ٧ - اعداد المهاجرين (دوائر سوداء) والمغتربين (دوائر مرقنة) الأجمالية بالملايين ؛ ٨ - نزوحات صينية ؛ ٩ - نزوحات يابانية ؛ ١٠ نزوحات هندية صينية وماليزية ؛ ١١ - نزوحات هندية .

الرسم البياني يبين تصاعد المهاجرين الاوروبيين

بدت فيه تقديرات « مالتوس » وشبكة التحقق في كل مكان تقريباً ، بين الاطلسي والمتوسط ، وحتى الاورال في وقت لاحق قريب . فكان هذا الوقت هو البرهة السريعة الزوال: فبالامس اعتبرت الروح التجارية نزوح الرعية مضرة باقتصاد الامير ، وغداً ستفرض الوطنية قيوداً اما على الخروج واما على الدخول عبر الحدود . ومنذ السنة ١٨٤٦ ، نادى « ثورنتون » ، تلميذ « مالتوس »، بهجرة « على نطاق واسع » في كتابه « تضخم عدد السكان وعلاجه » . فنشطت الدعاوة ، دون اي عائق ، في اغراء المساكين ؛ واخـذت بعض الجمعيات الدينية وشركات الملاحة على عاتقها امر النقل والايواء ، ورضيت الحكومات ، وتولت بعض دول مـا وراء البحار دعاوة تشويقية . ولم يكن مهما ان يتم السفر في ظروف صعبة (فقد زعـم بعضهم ان ٠٠٠ ١٥من اصل٠٠٠ ٩٠ مسافر من بريطانيا العظمى قد ماتوا في الطريق او بعد انزالهم الى البر في السنة ١٨٤٧) ، اذ ان اليقين من وجود اراض وعمل مضمون كان حافزاً قوياً للمعوزين .
اما أولئك الذين ارغمتهم الازمات السياسية او الاضطهاد الديني على الجلاء او الانتفاء فكانوا اقلية ضئيلة (عدة آلاف من الفرنسيين بـعد السنة ١٨٤٨ ، وعدة آلاف من سكان الالزاس واللورين بعد السنة ١٧٨٠) : فالمليون يهودي شرقي الذين دخلوا العالم الجديد بعد السنة ١٨٨٠ قد فروا من البؤس ومن الاضطهاد الروسي (« بوغروم») على السواء . وقد سبق لـ « ميشليه » في السنة ١٨٣٥ ان شاهد ذلك جيداً في ليفربول : « جـاء الآن دور المهاجرين المساكين الذين يُدفعون دفعاً الى ظهر السفينة . انهم لقطيع بشري بائس . . . لا مفر من أن يسافروا . صغار الحاكة يتضورون جوعاً في جوار منشستر » . هذه هي هجرة الكادحين .

تراوح عدد المهاجرين ، حتى السنة ١٨٤٠ ، بين ٣٠ و ٤٠ الـف شخص في السنة : اي ٠٠٠ ٥٠٠ ١ منذ السنة ١٨٠١؛ وكان جلهم من الصناعيين اليدويين الذين افقرهم المعمل والمصنع . ثم ارتفع هذا العدد في السنة الواحدة ، بقفـزة اولى ، الى ٠٠٠ ٢٠٠ وحتى الى ٠٠٠ ٣٠٠ ؛ ويرد ذلك الى خطورة ازمة ١٨٤٥ – ١٨٤٨ ، والغاء الفدادية في اوروبا الوسطى – الذي حرر الفلاح من ارتباطه بالارض – ، والاندفاع وراء الـذهب في كاليفورنيا واوستراليا : وهم البريطانيون والايرلنديون والالمان خصوصاً من هاجروا باعداد كبيرة ؛ فان ٨٠٪ مـن مجموع المهاجرين بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٥٠ ، و ٥٠٪ حتى السنة ١٨٧٥ ، انتسبوا الى انكلترا ، وايرلندا وحدهما . ويقدر عدد المهاجرين بـين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٨٠ بـ١٣ مليوناً . ثم مرت فترة توقف نسبي في السنوات ١٨٥٧ – ١٨٧٥ التي توافق انطلاقة صناعية ملموسة في اوروبا والحرب الاهلية في الولايات المتحدة . ولكن التدفق تجدد وتعاظم مرة اخرى بعـد السنة ١٨٨٠ : فنزح عن اوروبا ١٣ مليوناً خلال عشرين سنة فقط ؛ نسبة اقل من البريطانيين والنسبة نفسها من الايرلنديين والالمان ، يضاف اليهم السكندنافيون ؛ اما الجدة الكبرى فهي بدء هجرة سكان اوروبا الجنوبية والشرقية : البرتغاليون والاسبانيون اولا ، ثم رعايا فرنسوا – جوزيف والقيصر .

حركة انتقال الشعوب والشعوب الجديدة الاوروبية المنشأ

سجلت الجغرافية من ثم انقلاباً عظيما يلفت الانتباه فيه واقعان هامان : فمن جهة اخذ شطر كبير من اليهود يجتاز الاطلسي بحيث اصبحت اميركا ، بعد روسيا ، موطن اكبر عدد منهم في العالم ؛ يضاف الى ذلك ان شعوبا صغيرة عدة ـ كالايرلنديين والبرتغاليين ـ كادت تتوزع مناصفة بين ديار الاغتراب واراضي الجدود ؛ ومن جهة ثانية ، امتدت شبكة المجتمعات المنظمة تنظيماً اوروبياً الى القارة الاميركية كلها تقريباً ، واوستراليا وزيلندا الجديدة ، ومناطق افريقية معتدلة المناخ ، وحتى الى بعض مناطق آسيا . فأسهم المهاجرون في استثمار الكرة الارضية ونشروا في الوقت نفسه الحضارة الاوروبية ، بحيث ان وجه هذه العوالم الاوروبية الجديدة ، الذي لم يكن مماثلا كل المماثلة لوجه اوروبا القديمة ، قد اعاده الى الذكرى ، على الرغم من ذلك ، بصورة مؤثرة جداً .

الفصل الخامس

فتح المحاصيل الكبرى الحيوانية والنباتية

طلبت اوروبا من العالم مساعدته على التغذية والاكتساء .

القنص والصيد

ان التقنيات الصناعية لم تضعف فروع الاقتصاد الاساسية بل قوتها ودفعت بها الى الامام .

فان ردة الفعل الدفاعية ضد الحيوانات المؤذية قد افضت الى ما يشبه القضاء عليها في الغرب ، ولكن حيوانات المناطق الاخرى كانت كذلك مطمح حرصاء لا يعرفون للشفقة معنى . ففذت الجبال المرتفعة والاراضي المتجمدة حول القطبين الاسواق العالمية بالفراء ؛ وفي المناطق الحارة طورد الظبي والغزال ولا سيما الفيل في عملية استثمار استباحت كل تجاوز ووحشية . ولا عجب من ثم اذا انقرضت بعض الانواع ، واذا ما توجب ، للمحافظة على الحيوانات المهمة ، ايجاد احتياطي طبيعي او اللجوء الى تربية الحيوان (تولت افريقيا الجنوبية تربية النعامة) . وقد بلغ من الحاح الطلب ان صناعة الفراء قد اكتسبت خبرة واسعة في فن استخدام كل قنيص موبر .

وعلى الرغم من ان الانسان لم يعد ليتقيد بالصوم ، فانه قد مال اكثر فأكثر الى طلب غذائه من البحر . وقد تحسنت عدته لتحقيق مطلبه ، بينما كشفت المياه عن اسرار حياتها العضوية . فان البخار والمروحة وهيكل السفينة الحديدي قد اتاحت بناء سفينة الصيد التي كان باستطاعتها ، اذا ما زودت بالمحروقات الكافية ، اطالة رحلة الصيد وتعقب السمكة عن كثب وحتى معالجتها محلياً . وقد بوشر في السنة ١٨٧٥ استخدام الشبكة التي تجر تحت سطح المياه . وبفضل التبريد ، بات باستطاعة السفينة المزودة بالجليد توسيع نطاق عملياتها . وقد ولد مرفأ «غريمسبي» في السنة ١٨٥٨ وجهز « بالخط الحديدي المركزي الكبير » الذي سارت عليه قطارات نقل

لاسماك الاولى . وبرز نشاط ملحوظ في البحار الضيقة والساحلية، وعلى شواطىء اوروبا الشمالية الغربية ، واميركا الشمالية في الغرب والشرق على السواء ، وآسيا الشرقية . فأثار هذا النشاط منازعات بين الفرنسيين والانكليز حول مياه « الارض الجديدة » الغنية بالاسماك ، وبين الانكليز والاميركيين في مياه « بيرنغ » ، فأقر مؤتمر عقد في لاهاي قانوناً دولياً للصيد ، كما استهدفت احدى الاتفاقيات حماية الانواع المهددة بالانقراض .

كان الحوت في عداد هذه الأنواع . فقد جد الصيادون في اثره الى ان زال من نصف الكرة الشمالي منذ السنة ١٨٥٠ . فتحول الصيد الى المحيط المتجمد الشمالي حيث قام به النروجيون بمهارة فائقة وولع عظيم . وقد روى « ملفيل » هذه الملحمة في « موبي ديك » .

تحولت حياة اهل البحر : فطال غياب الصياد ، وامسى اقل استقلالاً ، وازدهرت المشاريع الرأسمالية بفضل معدات تميزت بمزيد من الفعالية .

استخدام الشجرة

قضت المجتمعات العصرية على قسم كبير من احتياطي الاشجار الحرجية في اوروبا الغربية ، وجر الاستعمار الى الافراط في قطع الاشجار في جنوبي الولايات المتحدة وشرقيها . وكانت الكميات المتوفرة في تناقص مستمر حين تكاثر استخدام الاشجار على الرغم من اللجوء الى الفحم الحجري .

ثم جاء دور الاحراج الواسعة في المناطق المحيطة بالقطب الشمالي التي لم تشك بعد من الاعتداءات البشرية : فغدت اسكنديناقيا وفنلندا وكندا دولاً منتجة كبرى . فقدمت شركة « خليج هودسون » خشب البناء بصورة خاصة حتى منتصف القرن وزودت مصانع السفن بخشب الصنوبر ، ثم جاء عهد الالواح الخشبية الطويلة المقطوعة من جذوع ضرب من أشجار الصنوبر وعهد الاشجار التي لم تعر اية اهمية حتى ذاك التاريخ . فوظفت رؤوس اموال جديدة في مشاريع هامة كثيرة كـ « شركة الورق الدولية » التي ابتاعت ٣٠٠٠٠ كيلومتر مربع . وقد امتلك اللورد «نورثكليف» صاحب صحيفة اﻟ« دايلي مايل » ٦٠٠٠٠٠ هكتار في جزيرة « الارض الجديدة » وبنى في « غراند فولز » مصانعه الورقية الخاصة .

لم تكن احراج المنطقة الحارة اقل فتنة وسحراً بأشجارها الثمينة . الا ان اميركا الجنوبية والهند واندونيسيا قد تقدمت على افريقيا في هذا المجال بفضل وسائل النقل . فبينما استخرج العفص من شجرة اﻟ « كبراكو » في الارجنتين ، استخرجت الكينا والكوكا من اشجار جبال « اندس » . وعاد « لاكوندامين » باسم المطاط الذي لن يستخدم صناعياً الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ؛ ومنذ السنة ١٨٧٠ ، انتشرت حمى الذهب الاسود في الاحراج الامازونية : فجال جامعو صمغ المطاط في الاحراج المظلمة لتأمين طلبات الزبن الموصين الذين نقلوا المحاصيل المجموعة عن طريق الانهر . وستبلغ هذه الحمى ذروتها في السنة ١٩١٢ .

ما زال الغرب مفتتناً بالعطور التي وفرتها له المنـــاطق الرطبة المرتفعة الحرارة : واذا كان استقطـار الفحم المعدني قد وفرّ له صباغات صنعية تزاحم قرمزية غواتمالا ونيلج الصين والهند، فأنه ما زال يتجه نحو الطبيعة الغنية بالنباتات للحصول على الجاذبة والقرنفل والاترجية . فوسع زراعة الخشخاش المنوّم التي وفرت له ارباحاً طائلة ، واستخلص من الكوكا احدى لذائذه الخفية . وادخل في سلسلة الزراعـات المتقنة عالم التوابل : اشجار القرفة ، واشجار الونيلية ، واشجار الفلفل واشجار القرنفل ، التي كانت تنمو ، كما يتسنى لها النمو ، بعناية البلدين الكسالى . ولم يأبه للضرر الذي سيلحق باشجـــاره الزيتية الخاصة، فطلب من الهند زيت السلجم لمصباحه واستعمله في غذائه كما استعمـــل الفول السوداني وزيت البلح وجوز الهند ، والسمسم ، واستخدم الخروع للتداوي والتصوير .ووسع كذلك صناعة المنسوجات التي أتته من المصادر عينها : قنّب سيام الذي اسماه «حرير كانتون »، والرافيا ، وقنب مانيلا أو « اباكا » ، والقنب المكسيكي ، والقنب الهندي بنوع خاص . والجه أكثر من اي يوم مضى شطر الشرقين الأدنى والأقصى في طلب الخز أو الحرير الخام بعد انتشار مرض التغلغل الطفيلي الذي اصاب دود القز في مقرّاته نفسها ؟

بيد أن ما اراد توسيعه واخصابه في الدرجة الأولى هو زراعة القطن . فان الخبازيات النهمة قد انتشرت في أكثر من مليون كيلومتر مربع حين افتقرت بعض المراكز الصناعية الرئيسية في اوروبا الى المـــادة الخام بسبب الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأميركية . ومهما يكن من أهمية نهضة وانطلاقة زراعة القطن الاميركي – الذي لن ينافسه قطن آخر – فان صاحب المصنع في « لانكاشاير » أو « ميلهوز » أو « شمنيتز » لن يستطيع الاكتفاء بمون واحـــد . لذلك تم الاتفاق على انتاج القطن ، حيثما سمحت الحرارة بذلـــك ، على أن تؤخذ بعين الاعتبار المياه ، والتربة التي يجب ان تكون خصابة ، والسواعد التي يجب أن تكون كثيرة : فسيُنتج من ثم في ارض « بيرار »السوداء، ووادي الـ« غانج » ،وعلى جنبات النيل ودارياـ بواسطة الري ؛ ثم في البرازيل وجزر الانتيل الانكليزية الصغرى والصين ؛ وأخـــيراً في المكسيك و « كوينسلند » ونيجريا و « اوغاندا » . وفي اوائل القرن لم يغط النسيج النباتي الأول سوى ١٢٪ من حاجات البشر ، بينما هو غطى أكثر من ٥٠٪ في اواخره .

ولم يكن توسيع زراعة اشجار الشاي والبن والكاكاو اقل الحاحاً في المناطق الحارة ، لا سيما وان الاشربة المصنوعة من ثماره كانت مرغوبة جداً . فان الاحتكار الصيني القديم ، الذي غذى تجارة رابحة عن طريق كانتون وآسيا الوسطى منذ ان زرع البريطانيون في اسام وسيلان، والهولنديون في جزر الـ« انسولند » ، شجرة الشاي التي حسنو انواع محصولها . على ان آسيا لم تفقد مرتبتها الممتازة . فان البن ، الحبشي الاصل ، الذي احتكره العرب تحت اسم « مخا » قد وجد في اميركا ارضه المختارة . فقد اعتنى به الهولنديون في جاوا والانكليز في سيلان ،ومن جاوا انتقل الى«غويانا»،بينما استورده الفرنسيون الى الـ«ماسكارانيه» والانتيل،وزرع البرتغاليون

شجرته بدورهم في منطقة « برنامبوك » و « باهيا » ؛ ثم بلغ « ساو باولو » التي وافقته تربتها الحمراء » ومناخها ؛ وانتقل اخيراً الى أرض كولومبيا « المعتدلة » والمزارع الفنزويلية ، وتسلق منحدرات الـ « كورديليير » ، وغزا اميركا الوسطى . إلا أن البرازيـل انزلت منه الى الاسواق قدراً من الأكياس لم يعد انتاجه معه عمليه رابحة . فليس من اقتصاد أوهى من هـــذا الاقتصاد المرتبط بالطلب الغربي . ولكن اقتصاد الكاكاو ليس بالاقتصاد الافضل : فان الأكوادور تدين له بما تدين كولومبيا او ساو باولو للبن . وكان الكاكاو شراباً مفتخراً في اواخـــر القرن الثامن عشر ، وقد عرفه هنود اميركا ، فانتقل من ثم الى اسبانيا . ولكنه احتل فجـأة مرتبة رفيعة حين انزل السويسريان ، « بيتر » و « لندت » ، الشوكولاتا الى الاسواق ، فوظفـــت رؤوس الأموال في مغارس البرازيل وفنزويلا والاكوادور ؛ ثم انتقلت شجرة الـكاكاو الى مستعمرة الشاطىء الذهبي حيث أغرى البريطانيون الزنوج بانتاج عائلي . وبفضل ذلـــك لاحت في أفق القارة الافريقية ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، زراعة لن تقل شأنـاً عن زراعة شجرة الشاي في آسيا وشجرة البن في اميركا .

ولكنها لن تستطيع مزاحمة هذه الأخيرة طويلاً على المرتبة الأولى في تجارة الموز. أجل لقد عني المستعمرون الانتيليون باشجار الموز التي تظلل اشجار الـكاكـــاو والبن ؛ ولكن موز « كاناري » كان موضوع تقدير اعظم. فتبدل الوضع في أواخر القرن حين ابتاعت بعض الشركات الاميركية – وعلى رأسها « شركة الثمار المتحدة » – اراضي واسعة جـداً في اميركا الوسطى ؛ يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، أن أحد فروع هذه الشركات ، « الدرز اند فيفز » ، قـــد احتكرت تجارة الموز مع الكاناري .

الثمار والبقول على الخوان في الغرب

ليست ثمرة الموز سوى واحـــدة من الثمار الكثيرة التي دخلت اوروبا واميركا الشمالية حديثاً . وقد تنوع الغذاء من ثم، بصورة عامة ، تنوعاً وفيراً ، ولا سيما في المدن . ولم تأت الكميات الكبرى من الثمار والبقول التي طالبت بها المدن من الأرياف المحافظة على الطرائق التقليدية فحسب، بل من بعض الأراضي التي اكتشفت، بفضل هذه الزراعة ، مصدر ثروة لم تحلم به قط . ويجدر التذكير هنا باستفادة هولندا وبريطانيا الساحلية و « كورنواي » الانكليزية وبعض المناطق المتوسطية من زراعة بواكير الثمار . فان هنالك ، الى جانبي خطي السرطان والجدي، مستعمرات اتقنت انتاج النبيذ والزبيب والزيتون والبواكير المختلفة الكثيرة . أما مناطق زراعة شجرتي التين والبلح فكانت محاذية لهذه الأراضي وأبعد نحو الصحراء . وقد اتسعت كذلك اتساعاً عظيماً أراضي زراعة الحمضيـات : ففي السنة ١٨٦٠ ابحرت سفينة تجارية من فالنس، وأفرغت في لندن شحنتها الكاملة من البرتقال . وفي السنة ١٨٨٣ وصل خط حديدي بين كاليفورنيا الجنوبية وشرقي الولايات المتحدة . وما لبثت كاليفورنيا وفلوريدا والانتيل ومستعمرة الـ « كاب» وأوستراليا واليابان أن انتجت التفاح الذهبي على غرار البلدان المتوسطية القديمة .

التنافس والحرب بين الشمندر وقصب السكر

ارتفعت نسبة استهلاك السكر ارتفاعاً كبيراً. فلم يعد البريطاني ليكتفي بثلاثة كيلوغرامات للشخص الواحد كما في اوائل القرن، بل اصبح بحاجة الى ٤٠ ؛ واستهلك الفرنسي منه ٢٣ بدلا من ٢ ؛ واستهلكت المانيا ٧ ملايين قنطار في سنة ١٩٠٠ مقابل مليون واحد حوالي السنة ١٨٥٠ ؛ ولن تلبث الولايات المتحدة ان تؤلف سوق البيع الاولى لهذا الصنف . اجل ان في ذلك لدليل يسار : ولكن مـــا يلفت الانتباه من جهة ثانية ان هذه المادة الغذائية قد رغب فيها سكان المناطـــق الشمالية اكثر من سكان المناطق الجنوبية ، وابن المدينة اكثر من الفلاح . لذلك لم يعد قصب السكر ليكفي بعد السنة ١٨٥٠ ، فانتزع الشمندر مركزه ، بعد ان احرز نجاحات ملموسة : ولكنه تأخر عـــابر منيت به المناطق الحارة ، عند الغاء النخاسة ، امام اوروبا واميركا الشمالية اللتين حمتا الثورة الزراعية واسستا المزيد من معامل السكر في كنف الحماية الجمركية . ولكن الاشياء عـــادت الى حالها بعيد الثورة الكوبية التي وافقت في الزمان فترة تدن في الزراعة : وقد افضى الى ذلـــك المجهود الذي بذله في آن واحد الهولنديون في جاوا، والبريطانيون في الهند وجامايكا وموريس، والبرازيليون في بلادهم، واليابانيون في فورموزا، ولاسيما الخطوة التي خطتها كوبا « وبورتوريكو » الى الامام في كنف الولايات المتحدة . ثم اوجدت الاتفاقات الدولية المساواة بين الزراعتين ، فتوزع قصب السكر والشمندر ، مناصفة تقريباً ، انتاجاً استهلك الغرب ثلاثة ارباعه .

توسيع مساحات زراعة الحبوب

كان الجـــدب بالامس يعني الحاجة الى الخبز . ومن جهة ثانية قابلت التجمعات البشرية المناطق التي كانت فيها الحبوب مرتكز الغذاء . ولذلك كانت معركة الارز في آسيا ومعركة الحنطة في اوروبا معركتين حيويتين في نظر المجتمعات المرتفعة عدداً ؛ ولكن كانت هنالك معركة الذرة الصفراء عند الهنود الاميركيين ومعركـــة الذرة البيضاء والجاورس في افريقيا . وقد اشار « ماتيو دي دومبال » الى الصيغة التي توافق اوروبا الضيقة : « ان الاهراءات الحقيقية لليسار هي الدورات الزراعية المتقنة » . ولكن الزراعة الوفيرة الانتاج متعذرة في المساحـــات الواسعة التي يجب ان « تصنع فيها الارض » اولاً . فهي المساحة الصالحـــة للحراثة مـــا يعول عليه حين يكون المقصود فتوح الارض البكر بواسطة المحراث .

انه لظاهرة عظيمة تقدم جبهة مستصلحي الاراضي عبر المروج او السباسب من الشرق نحو الغرب في اميركا الشمالية ، ونحو الشرق عبر سيبيريا ، ومن الشواطىء نحو الداخل في المناطـــق الجنوبية . ومن الطبيعي ان الامكانات وطرائق المعيشة قـــد اختلفت بين فريق وآخـــر : فشتان بين « المزارع » الاميركي الذي استفاد من الخط الحديدي والآلة الزراعية ، وبين الفلاح الروسي المشدود الى عادات جدوده في اعتماد الزراعة الجماعية . اما وجه التشابـــه فهو ضعف الانتاج الذي يعيض عنه ضعف الاستهلاك محلياً ؛ بحيث اعطت اراضي زراعة الحبوب فـــائض انتاج بيع بمعظمه في الاسواق العالمية . ضف الى ذلك ان الطرائق والتقنيات قـــد افادت من

الاختبار : فقد شوهد قمح شتوي ، هو القمح « التركي الاحمر » ، يزرع في اراض واسعة بين « كنساس » وداكوتا ؛ وقمح ربيعي ، هو الـ «مزمار الاحمر» الفاليسي المنشأ ، يغزو «اونتاريو» و« مانيتوبا » و « ميناسوتا»و«داكوتا»؛ ثم بلغت اراضي زراعة القمح في تقدمها المناطق نصف الصحراوية التي وافقت ، بفضل « الزراعة البعلية » ، نوعاً من الحنطة اعظم قدرة على مقاومة الجفاف والبرد ، هو « المركيز » ، الذي استحصل عليه بتهجين «المزمار الاحمر» والقمح الهندي . اما في الهند فقد وجه الانكليز جهودهم شطر البنجاب والسند حيث ساعد الري على انتاج قمح ربيعي .

بيد ان اعظم نجاح هو نجاح اميركا الشمالية التي افادت من تنظيم تجاري متين مرتكز الى الاهراءات ، ووسائل نقل سريعة ، وصناعة طحينية متقدمة . فقد خصصت لزراعة الحبوب ، بما فيها زراعة الذرة الصفراء ، مساحة ٧٠ مليون هكتار في الولايات المتحدة ، و ٧ في كندا ؛ فتوفر ٥ ملايين طن من طحين الحنطة في السنوات ١٨٩٠ — ١٩٠٠ . وباتت «مينيا بولس» و « شيكاغو » و « وينيبغ » تؤمن الخبز لـ ١٠٠ مليون نسمة . اما الارجنتين واوستراليا والهند فقد اسهمت ، بامكاناتها المتواضعة ، في تسليم اوروبا الغربية ما تحتاج اليه ، اي ١٢ مليون طن بالاضافة الى ما كانت تسلمها اياه اوروبا الشرقية على غير نظام .

تقهقرت امام القمح الحبوب المعروفة منذئذ بالثانوية ، لان الخبز الابيض كان دليل حضارة متقدمة .

ولا يخلو من المغزى كذلك التقدم البطيء في انتاج الارز الذي لم يعره الغرب اهتماماً يذكر . ولكن الغرب قد توفق ، بجعل بورما تلعب دور ممون الجماهير الآسيوية الشاكية من التغذية الناقصة ، الى ان يتحكم بتموين شطر هام من هذه البشرية .

نجاحات تربية المواشي

ان المروج والسباسب التي يسهل اعدادها لزراعة الحبوب تصلح لتربية المواشي ايضا . لذلك نرى ان تربية المواشي ارتبطت بالزراعة في البلدان الاوروبية التي زاولت الزراعة منذ القدم . اما فتح الارض البكر فغالبا ما تم بواسطة القطيع الذي يمكن ان يكون موضوع مضاربة مانعة .

هذه هي حال الخروف الذي انكفأ في اوروبا الغربية والوسطى امام النباتات المفيدة المغذية ، ووافق المساحات الجافة الشاسعة في الغرب الاميركي والسهل الروسي ونصف الكرة الجنوبي . وتعطينا اوستراليا على ذلك مثلا عظيما. فان الحدث الرئيسي بالنسبة لها ليس انزال ٧٥٠ محكوماً من لفظهم المجتمع في خليج (سدني) بامرة « ارثور فيليب » في ٢٦ ك٢ ١٧٨٨ ، بل انزال ٢٩ خروفاً . ففي السنة ١٨٢١ ارسلت بالات الصوف الاولى الى انكلترا، وفي السنة ١٨٦٠ ارتفع عدد الاغنام الى ٢٠ مليون رأس ، والى ١٠٠ مليون في السنة ١٨٩٠ . وعلى الرغم من الجفاف الرهيب الذي حصل في السنة ١٩٠٢ ، ومن جرد الارانب للارض ، اللذين اضرا اضراراً

كبيراً بعد ذلك بهذا العدد الضخم من الاغنام ، فان صحة المثل الاسباني السائر تتحقق في هذه القارة القليلة السكان : « اقدام الخروف من ذهب ، والأرض التي تظهر فيها آثار اقدامه تتحول الى ذهب » . فبات بمقدور العالم ، الذي لم يستهلك قط أكثر من ١٠٠٠٠٠طن صوفاً في اوائل القرن أن يستخدم ٣٠٠٠٠٠ ١ طن حوالي السنة ١٩٠٠ ، فاصبح الانفصال نهائياً بين المناطق المنتجة والمراكز الصناعية .

وهنالك واقع آخر كان من شأنه تشجيع تربية المواشي ، اعني به أهميه اللحوم والاجبان في تغذية المجتمعات الجديدة . لا ريب في أن مجهود أوروبا الشمالية الغربية ، التي حسنت فيها المراعي التي ترويها امطار كافية ، قد تكلل بالنجاح : فعلى غرار الزراعة ، ارتدت تربية الأبقار والغنم طابع التصميم على انتاج عظيم . ولكن النشاط الزراعي في البلدان الجديدة ، التي توفرت لها المراعي الطبيعية الواسعة والحبوب المغذية ، قد تقدم كل مجهود . فان « منطقة الأبقار » ، حيث اعتمدت في تربية المواشي الطريقة البدوية ، مع ما استلزمته من رعاة بقر وحراس (*Gauchos*) ، ليست سوى المرحلة الأولى من النشاط في هذا الحقل ؛ ثم جاء دور المحطات الثابتة ، او مزارع التسمين ، التي غذت صناعة المعلبات ؛ ثم اخذت ترتسم انطلاقة الحليب : فقد دخلت كندا وزيلندا الجديدة وأوستراليا الى جانب الولايات المتحدة في منافسة الشمال الغربي الأوروبي في قيمة المنتوجات ، وقد سهلت الذرة الصفراء ومصالة الحليب ، بالاضافة الى ذلك ، نمو تربية الخنازير ، ونجاح الا « مارغارين » (مزيج حليب وشحم حيواني حققه « ميج – موريس ») وشحم الخنزير . ولم يكن أقل شأناً كذلك تقدم تربية الطيور والدواجن ، بفضل الانتقاء التزاوجي وبسبب طلب متعاظم للحوم والبيض . أما النحل فقد اصبح موضوع استثمار أكثر تنظيماً قياسياً : فبعد « ريو مور » ، جاء هوبير و « دزيرزون » اللذان اكتشفا التناسل الذاتي لدى العاملات البياضات ، و « لانغستروث » و « دادان » اللذان ابتكرا القفران ذات النحت المتحركة . كان الغذاء الحيواني المنشأ لا يزال نادراً ومتوسطاً في القرن الثامن عشر : فلا مجال من ثم للتقليل من أهمية التبدل الذي حدث في هذا النطاق ، اذا ما اردنا فهم ارتفاع مستوى المعيشة العام في الغرب منذ منتصف القرن اللاحق .

انتشار الغربيين ونتائجه غير المقصودة على الانواع النباتية والحيوانية

الا ان الانسان قد تأثر ، على الرغم من ذلك ، بالنتائج غير المرتقبة التي اسفرت عنها اتصالاته . وقد لاحظنا ان استيراد اصواف المناطق الجنوبية كان كافياً لانتشار أكثر من خمسماية نوع نباتي جديد حول مراكز صناعة الجوخ في جنوبي فرنسا . ويفسر شراء الحبوب من الشرق الأوروبي دخول بعض انواع نباتات البورات الى فرنسا. وقد انتقلت من العالم الجديد الى أوروبا آفة الارمداد التي فتكت منذ السنة ١٨٤٧ بالكرمة المتوسطية القديمة ، بينما قاومتها الانواع الاميركية مقاومة فضلى . وانطلاقاً من نصف الكرة الغربي ، انتشرت كذلك آفة العفونة وقمل الشجر المثمر . وكان الصرصور الذهبي قد تردد الى الباذنجانيات البرية في الولايات المتحدة قبل

أن يفتك فيها بالبطاطا ، وظهر في أوروبا مرتين بين السنة ١٨٧٦ و ١٨٨٠ .واتلف داء الكرمة كذلك الجفون الأوروبية التي زرعت في اميركا قبل أن ينتقل الى أوروبا ويحدث فيها الكارثة التي لم تعالج إلا جزئياً بعملية تطعيمها . وظهر داء اوراق البن العربي في سيلان ، ثم انتشر في أقل من عشرين سنة في كافة البلدان الواقعة حول المحيط الهندي ، وتسرب اخـــيراً الى قلب افريقيا . أما الدوري النهم فقد دخل اميركا بعيد السنة ١٨٥٠ ثم اوستراليا حيث جاء الأرنب بدوره يحدث اضراراً أكثر مثولا للعيان ايضاً . واذا استُصوب في بوهيميا إدخـــال الجرذ المسك الذي ابتغاه الكنديون من أجل جلده الفروي ، فانه من جهة ثانية قد تكاثر تكـاثراً خطراً في موطنه الجديد .

الفصل السادس

العبقريــة الصناعية في أوج انتاج الفحم الحجري وعنــد ظهور الفولاذ

« واأسفاه ! ان المطحنة التي تدور ، تدور ثم تموت » .
(« فيرهايرن » ، « الامسيات »)
« ايها الغزاة القساة القلوب ، انما انتم آتون لتحرموني من شعلة عروقي ... »
(« غوردو » ، « اغنية الفحم الحجري»)

ترويض القوى الطبيعية وسيطرة الفحم الحجري

سارت الحضارة الصناعية بخطى حثيثة بعد السنة ١٨٥٠ : فارتسم حينذاك الخلاف في اوروبا بين بلدان الحصان البخاري وبلدان حصان الجر ، وتوصل الاميركي الشمالي حقـــاً الى استثمار ثروات قارته ، وحقق الغرب في العالم تفوقاً مادياً ساحقاً .

لم تتخل المياه قط عن وظيفتها كقوة فاعلة . فبالاضافة الى الخدمات الضرورية التي مـــا زالت تؤديها ، من غسل نسائج وتسقية شفار وتوفير الانبجـاس القوي المضغوط الذي يستخدمه المنجم للتحليل ، نراها تحرك آلات الرفع وتغذي مضخة « ابولد » المبعدة عن المركز وتتيـح تركيب المصعد وتولد الكهرباء بواسطة العنفة . واذا ما تدنى شأن المطحنة الهوائية والسفينة الشراعية ، فان الهواء المضغوط قد حرك كذلك المعـــاصر والمثاقب وامن المتانة لفرملة « وستنكهوس » .

اجل ان البخار ، الذي هو وليد الماء على كل حال ، قد استقطب العديد من المعجبين ، كما ان تحقيقاته قد اخرست المرتابين . الا ان المهندس والعالم قد أخذا منذئـــذ يبحثان عن محرك

أعظم فاعلية : اما بواسطة الهواء الساخن كما توخاه « اريكسون » و « فرانشو » ، واما بواسطة الغاز كما ارتأى « هوغون » ، وكما ارتأى بعده « لنوار » و « اوتّو » و «لانجن» ، واما بواسطة محروق سائل ايضاً . ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق تحققاً نهائياً ، وقد عجزت الكهرباء نفسها التي اثبتت قدرتها على اضاءة فُضلى ، عن توفير قوة دافعة كافية . فالمجال ما زال واسعاً امام الفحم الحجري .

امتد المنجم ونشر الدخان ولوث الاراضي المجاورة الهادئة ؛ وجمع البشر بمئات الالوف في هذه « البلدان السوداء » حيث اخضعهم لعمل شاق مضن ؛ وغالباً ما تسبب بالموت واثار الاحقاد ، ولكنه عرف كيف يستميل الناس اليه . وتعمق الدهليز بفضل المطرقة القارضة والمثقب (مثقب «كافي» حوالي السنة ١٨٢٠ ، ومثقب « سومايه » بعد ذلك بعشر سنوات) ؛ وبفضل اجهزة فضلى للتدعيم والضخ والتهوية والافراغ (بواسطة سلة مزودة بفرملة ابتكرت في السنة ١٨٥١) . وسهلت الآلات استنزاف المياه والغسل والغربلة ؛ ولكنها لم تخفف الجهد اللازم لقطع الاشجار ودحرجتها واعدادها للتخشيب ولردم الحفر . فتضاعف الانتاج تضاعفاً متبايناً جداً . ولكن نسبة الاستهلاك ارتفعت ارتفاعاً عظيماً جداً . فتنوع استعمال الفحم : استخدم وقوداً في المدن ، ثم مست الحاجة اليه في القاطرة وفي صناعة الحديد والحديد المصبوب والفولاذ ؛ وسير العديد من الانوال ، واحدث ثورة في صناعة الورق والزجاج ، واوجد معمل السكر الشمندري ؛ وكُرّر فأعطى غاز الانارة الذي حل محل الزيوت والنفط؛ والقار الذي استخرج منه البنزين والاتيلين ، ومواد تلوينية كثيرة ؛ وحوامض الفينول على انواعها التي استخدمت في الطب الدوائي وصناعة الجلود ، واملاح حمض البكريك القابلة الانفجار .

يقدر العارفون ان استخراج الفحم قد انتقل من ٩ ملايين طن حوالي السنة ١٧٩٠ الى ٩٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ؛ ولكنه ارتفع حتى ٣٠٠ في السنة ١٨٨٠ وناهز الـ ١٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ . وقد كتبت صحيفة التايمس يوماً : « ان الاماكن الغنية بالفحم الحجري امست وكأنها حجر الفلاسفة المعاصر ... » ورأى فردريك سيمنس في الفحم « قياس كافة الاشياء » ، وسيذهب «مكسيمليان هاردن» الى ابعد من ذلك باعلانه : «لا خلاص بدون الفحم ». فقيست القوة منذ ذاك التاريخ بالوحدات الحرارية التي يولدها الوقود المعدني . ومهما يكن من الامر فان سلاح المحارب وقلم الدبلوماسي يجب ان يحسبا حساباً لمعول عامل المنجم . ومنذ السنة ١٨٧٠ انتجت مناجم الـ « رور » ضعفي ما تنتجه مناجم فرنسا . وعلى نقيض هذه الاخيرة ، تجمعت داخل حدود البلدان المنتشرة بين الـ « أبالاش » والـ « دونتس » اغنى طبقات الفحم الحجرى في نصف الكرة الارضية الشمالي : الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، المانيا ، ولا سيما بريطانيا العظمى التي تقدمت غيرها في الاستثمار واستفادت من تسهيلات كبرى لعقد الصفقات .

كانت الاولوية البريطانية ساحقة في السنة ١٨٥٠ (٥٦ مليون طن) ؛ ولن تزول الا قبيل

السنة ١٩٠٠ ، حين احتلت الولايات المتحدة بدورها المرتبة الاولى . ولكن بريطانيا العظمى احتفظت ، حتى بعد هذا التاريخ ، بالسيطرة على الاسواق من حيث نسبة المبيعات : واذا هي تراجعت بعض التراجع في اوروبا الوسطى امام المنافسة الالمانية ، فانها ما زالت تزود الموانىء البحرية بالوقود . فكانت نتيجة وجود الفحم الانكليزي في كل مكان الوجود الانكليزي في كل مكان ايضاً: وان لندن التي توفرت لها هذه الامكانية العظيمة قد سيطرت في كل مكان ايضاً.

ارباب صناعة الحديد والفولاذ

في القرن التاسع عشر انطلق عصر الحديد . فقد تحققت انتصارات تقنية تثق بنفسها وبالمستقبل : بناء الجسور المعدنية الكبرى في « بروكلن » و « فورث » و « غارابيت » - وقد بنى هذا الاخير « ايفل » ، « رجل الحديد » ، رجل البرج - ، وبناء هذا البرج الساحر نفسه فوق معرض السنة ١٨٨٩ . وغزا المعدن المروض حياة الغربي ودخل في كافة ادواته المألوفة . فالريشة بقيت ريشة حتى ولو صنعت من الفولاذ ، واستمرت المرأة في حمل لحى المشد وان لم تكن لحى حوت حقيقية .

تحتمت هزيمة الفحم الخشبي الذي كان يغذي « الكور الكاتالاني » ؛ لقد انتقلت السيطرة الى الفحم الحجري المقطر: انه لتحول بطيء لعمري، اخّرته في أماكن عديدة نوعية المنتوجات المحققة حتى ذاك التاريخ والمصالح المشتركة القائمة بين الحدادين واصحاب الاحراج . وازدادت طاقة المصاهر بفضل اكيار « كوبر » : فقد بني منها ما انتج ٥٠٠ طن في اليوم الواحد ، وحتى ٩٠٠ طن في الولايات المتحدة . وتحسن التصفيح الذي تناول الفولاذ ايضاً .

وكان انتاج الفولاذ المستوفي كافة الشروط هدف الطرائق التقنية التي مثلت ثورة حقيقية في صناعة الحديد والفولاذ خلال القرن . فقد اعطت بعض المعادن الحديدية غير الخالصة فولاذاً سائحاً عن طريق التكليس في مصهر مزود بمرايا عاكسة للنور ؛ وأنتج في أميركا فولاذ عرف بالفولاذ المزوج بالكربون ؛ وتحقق الفولاذ « الدجاجة » في « بتسبورغ » في السنة ١٨٤٠ ، والفولاذ السائح في السنة ١٨٥٣ . وفي هذه الاثناء فكر « هنري بسمر » الذي كان قد هوى تعطيل الطوابع البريدية واستخراج عصير قصب السكر واختراع مضخة مبعدة عن المركز ، بتحويل الحديد المصبوب تحويلاً مباشراً الى فولاذ سائح بواسطة تيار هوائي مضغوط ؛ وكان تحوله هذا يبعد كربون الحديد المصبوب السائح فلا يبقى الا الاستعاضة عن الكربون بواسطة حديد مصبوب ممزوج بالمنغنيز او الكبريت . وكان ذلك في السنة ١٨٥٦ . فاستقبل الاختراع في البدء استقبالاً حماسياً ، ثم تغلب الارتياب ، فاضطر بسمر لان ينشىء بنفسه في « شفيلد » مصنعاً للفولاذ بحسب نظريته . وما لبثت فوائد طريقته ان برزت شيئاً فشيئاً ، مع انها لم تنطبق على المعدن غير الخالص المزوج بالفوسفور واستلزمت مادة خاماً نقية جداً .

ثم ابتكرت طريقة اخرى : هي طريقة اذابة الحديد المصبوب مع الحديد اللدن . وكان

هذا الاختبار قديم العهد : وقد سبق لـ « ريو مور » و « هاسنفراتز » ان اشارا اليه. فقد عاد اليه « لويس لو شاتلييه » في السنة ١٨٥٦ بواسطة كور مزود بالمرايا يحترق فيه الكربون احتراقاً بطيئاً ، ومن شأنه إتاحة استخدام نفايات الحديد وقراضاته . ولكن العملية لم تنجح نجاحاً تاماً إلا في السنة ١٨٦٤ حين استخدم الاخوان « اميل » و « بيير مارتين » كوراً زودت جدرانه باوكسيد السليسيوم ومولداً للغاز من صنع « فردريك سيملس » . فتم انتاج الفولاذ بشتى درجاته وبكميات كبرى . وانتقل استخراج المعدن الغير الخالص من ٤ ملايين طن إلى ١٨ مليونا بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ .

في هذه الأثناء تحسنت السقاية وتعلم الناس الاستفادة من المعادن غير الخالصة الممزوجة بالفوسفور . وكان « غرونر » قد اثبت أن القاعدة الكيميائية وحدها قادرة على تثبيت الجسم الممزوج بالفوسفور والخالي من الماء ؛ ولكن لما كان جدار الكور مزوداً بأوكسيد السليسيوم ، فان القاعدة كانت تحلل هذا الأوكسيد . والحال وجد للمسألة حلان في السنة ١٨٧٧ – ١٨٧٨ : فمن جهة فكر « توماس » و « جلكرست » بتلبيس الحول بكربونات الكلس المزدوج والمغنيزيا؛ ومن جهة ثانية اعتمد « بورسيل » و « فالران » تلبيساً مماثلاً لكور « مارتين » . فقفز الاستخراج قفزة جديدة ، وبلغ ٢٧ مليون طن في السنة ١٨٩٠ و ٤١ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

تسبب هذا التطور السريع في التقنيات في انتقال المشاريع من مكان الى آخر . فقد كانت المؤسسات الصغرى من قبل موزعة هنا وهناك على مقربة من الاحراج والمياه . ثم برزت الحاجة الملحة الى حديد وفحم حجري يتوفران معاً . ففي انكلترا مثلاً تجمعت المصانع في « مدلندس » ومنطقة « غلاسكو » الغنية بالحديد ؛ ولكن منجم الفحم الحجري لا يلبث أن ينزف ولا يكفي: فتنتقل المصانع نحو البحر الذي تأتي عن طريقه المعادن غير الخالصة من البلدان الأخرى، وتستخرج هذه المعادن كذلك من الطبقات الجوراسية بين « كليفلند » و « غلوستر » ؛ ولكن هذه المعادن لم تكن كثيرة الانتاج بسبب امتزاجها بالفوسفور . بيد أن طريقة توماس لم تحل دون فقدان الجزيرة أولويتها ، لا سيا وقد سُلّم فيها بافضلية طريقة مارتين . وتأخرت بلجيكا كذلك تأخراً نسبياً لأن الحديد قد نزف فيها . وأحدق الخطر بفرنسا التي انقذها منجم اللورين الصغير . ولكن هذا المنجم الأخير لم يكف المانيا ، فكان أن الصناعات الحديدية والفولاذية الكبرى في انكلترا وألمانيا قد استوردت حاجاتها من بلدان لا تستخدم كل ما تستخرجه من المعدن غير الخالص (فرنسا ، اسوج ، اسبانيا) أو تصدره بكليته (الجزائر) . وفي روسيا ، تأخر الأورال نسبياً أمام تقدم الـ (دونتس) . وفي الولايات المتحدة باتت بتسبورغ عاصمة صناعة استخراج المعادن وتنقيتها ومعالجتها ، وحتى في السنة ١٩٠٠ ، اجتذب اليها كرنجي ، المالك فيها سعيداً ، معدن « ماركيت » الادبس اللون بفضل فتح قناة « سولت – سانت – ماري » . إلا أن المؤسسات العاملة لحساب البحرية قد اقتربت من الاطلسي ، والجنوب أخذ يتجهز شيئاً فشيئاً ، وقامت مدن الحديد والفولاذ في السهول الكبرى بعد اكتشاف أهمية المناجم الحديدية

في منطقة البحيرات ، دون أن يؤدي ذلك الى تخفيض انتاج هذا المركز المظيم . فأكد كرنجي حينذاك أن الولايات المتحدة « سوف تستطيع سد حاجات العالم بأجمعه » .

تنوع المعادن غير الحديدية والاملاح

كان الفولاذ من ثم امتزاج حديد وكربون . أما صناعة انواع الفولاذ الخاصة فقد استلزمت معادن غير حديدية كثيرة كان بعضها جديداً ، كالتونغستين والمنغنيز والنيكل .

صنع الشبهان من امتزاج النحاس والخارصين ، وحل محل الورق المقوى في صناعة اسطوانة الخرطوشة ؛ وبفضل لدانته استخدم في صناعة انابيب المصابيح وصناعة الصنابير ؛ وماثل المجوهرات وارتدى مظهر البرونز المذهب . ومن حيث ان النحاس مادة حسنة الايصال فقد استخدم في مصانع التقطير والتمحيص ومعامل السكر ؛ ودخل في خدمة الكهرباء . أما الزئبق فقد استخدم في اذابة المعادن الأخرى وأضفى على المتفجرات خاصيات فاعلة ، واستعين به لمعالجة المصابين بالداء الزهري . وأمنت علب المحفوظات ازدهار الحديد الابيض (التنك) الذي ليس سوى حديد ملبس بطبقة رقيقة من القصدير . واستخدم البورق لبرنقة الزجاج وطلي الخزف الصيني والتصوير. وتمت كذلك تقنيات خاصة سيقوم لها التحليل بالمجرى الكهربائي عوناً كبيراً ؛ وهو هذا التحليل ، بصورة خاصة ، ما سوف يحقق آمال « وهلر » و « بونسن » و « سانت كلير دفيل» باتاحته تحليل الألومين، ولكن اذا استثمرت أوروبا ثرواتها خير استثمار ، فانها لا تستطيع مقارنة مواردها من النحاس والرصاص والنكل بموارد اميركا : وليست جزر (كاسيتريد) المعاصرة من بعد قائمة على مقربة من شواطئها بل في ارخبيل الـ « سوند » .

بين الاملاح ما زال ملح الطعام ، المقوي والمدر للبول ، والضروري للانسان والحيوان ، يستخرج من الملاحات الساحلية ومناجم الملح . وليست هذه المادة ما افتقرت اليها أوروبا . ولكن الحاجة مست الى املاح أخرى في الزراعة ومن أجل خصائصها الصناعية . فأوجد «ليبيغ» في « جيسن » و « جان باتيست دوماه» و « جلبير » و « لوز »من بعدهما ، الكيمياء الزراعية ، مع ان المزارعين ما زالوا يفضلون الأسمدة العضوية على انواعها : الدمن والاشنة ومقذوفات البحر والغوانو . وقد غذى هذا الأخير ، الذي ليس سوى فوسفات كلسي تكون من دبوقاء الطيور ، تجارة كبرى خلال نصف قرن في كافة ارخبيلات المنطقة الحارة ، لا سيما وأن استثمار جزر « شنشا » في « بيرو » قد استمر منذ السنة ١٨٣٠ حتى السنة ١٨٧٥ . ثم اكتشفت أهمية املاح الفوسفات الموجودة في بعض الصخور اما بشكل عقد أو بعر الشيطان ، واما بشكل حجارة طبشورية فوسفورية . وفي الوقت نفسه لفت الانتباه إلى شواطىء اميركا الجنوبية نفسها ملح البارود الذي صنع منه عمال المناجم بارودهم والذي كان من شأنه انتاج سماد ازوتي من النوع الجيد . وبسرعة ذاعت شهرة هذه الاملاح ، فاستفاد الشيليون من الحرب المعروفة بحرب الباسيفيكي في ١٨٧٩ — ١٨٨١ وانتزعوا من « بيرو » و « بوليفيا » المناطق الغنية بنترات السوديوم في جوار صحراء « اتاكاما » . ومن جهة ثانية وفر الملح الطبيعي المعروف بالـ « كاينيت »

والمركب من سلفات المغنيزيوم وكلورور البوتاسيوم ، الاشنان للزراعة الأوروبية المتقدمة ، ثم توفق « جوزف فوغت »، اثناء بحثه عن الفحم الحجري في السنة ١٩٠٤ ، الى اكتشاف كلورور البوتاسيوم الطبيعي في الالزاس العليا .

امبراطورية الكيمياء الواسعة الاطراف

كانت نتيجة توسع المناجم أن الغرب امتلك مواد خاماً وفيرة ومتنوعة جداً تطلبتها عبقريته الصناعية وتفتحت في تحويلها. وقد سلكت في ذلك طريقين .

فان الكيمياء قد اشتركت اشتراكاً فعالاً في المعركة من أجل الحياة وغدت عاملاً قوياً من عوامل الموت . حاربت الأمراض التي تصاب بها الانواع النباتية كالكرمة، وحفظت المأكولات (حين حقق « شارل تلييه » - بعد « جاكوب بركنس») - التبريد الاصطناعي بواسطة روح الحوامض الخشبية والكلورور الكلسي ، قامت السفينة « البراد » في السنة ١٨٧٦ برحلتها الأولى ذهاباً وإياباً بين اميركا الجنوبية وأوروبا)؛ وحسنت عملية التخمير واشتركت في اعداد الجعة. وساعدت على مزج الخمور بسوائل أخرى وعلى غشها أيضاً ؛ ووسعت نطاق الانبيق والكحول التي تعاظم استهلاكها تعاظماً مخيفاً ، والتي صلحت ، اذا ما أفسدت ، للتدفئة والانارة والصباغة وصناعة البرنيق على اختلاف انواعه. ومن بين فروعها الأولى انتاج الحامض الكبريتي الذي لعب دوراً رئيسياً في صناعة الأسمدة الفوسفاتية والقلي والمواد الملونة والعطور والمتفجرات ، والذي صنع بواسطته الحامض الأزوتي والحامض الكلوري. يضاف إلى ذلك أن صناعة القلي قد تجددت بالطريقة المرتكزة الى محلول النشادر التي احكمها « سولفاي »و « شلوسنغ » : وأن هذا الملح قد أعطى ماء(جافيل) بامتزاجه بالكلور؛ وصلح للتبييض اذا ما أضيف اليه كبريت أو كربونات؛ واذا ما أضيف اليه البيكربونات سهل الهضم واختمار العجين واشترك في تركيب معجون « بوردو » لمكافحة طفيليات الحدائق، واذا ما أضيف اليه حامض البور أصبح مطهراً واستخدم في صناعة الجلود الرقيقة . واذا ما عرف الكيميائي كيف يحسّن توشية النسائج (انتقلت التوشية من لونين في النسائج الهندية والنسائج القنّبية في السنة ١٨١٣؛الى ٨ بفضل « كوشلين » في السنة ١٨٥٦ والى ٨٥ في السنة ١٩٠٠) ،فانه لن يلبث أن يبتكر العديد من الألوان بفضل « رونج » و « باير ». ولكنه بانتظار ذلك سيبتكر ، بمجرد إضافة الكافور الذي يخفف من الخصائص التفجيرية التي يتميز بها السلولوز الازوتي ، والسلولويد الذي صنعت منه الامشاط واطواق القمصان واطراف الاكمام (هذه هي البياضات الاميركية) ، والذي حل محل القشرة والند،والذي استخدمه «ايستمن » في صنع الأفلام الفوتوغرافية . ثم ان تثبيت الصور بواسطة الاملاح السريعة التأثر بالنور قد أحرزت نجاحات عظيمة جداً .

اودع الانسان فكره الورق اكثر فاكثر يوماً بعديوم. فجاءت الكيمياء عوناً له بواسطة المعجون الخشبي الذي عالجه بالكلور والقلي والاشنان والنشادر. وفكر « مونغولفييه » بخشب الزيزفون؛ وفي السنة ١٨٦٠ ، عند الساعة الخامسة مساء،خرجت « الصحيفة الاميركية الشمالية » من المطبعة

بينما قطعت شجرة الحور التي ضحي بها من اجلها في الساعة العاشرة من صبيحة النهار نفسه .

« ولكن الانسان يحارب الاحراج الهادئة ...»

(« اغان واناشيد » ا « فيكتور دي لابراد »)

قبل الولاعة الفوسفورية ، مثل الثقاب خير نجاحاته في اشعال النار : جمع بين مفاعيل الكبريت والفوسفور وبين الخشب ، بعد ان اقترحه « رومر » « وبريشل » في النمسا ،فحسنه « لوندستروم » و « جونكوبنغ » . فبدأ القرن الثامن عشر ، الذي لجأ ابداً الى ضرب الصوانة بمدن لاشعال الصوفان وكأنه ، بالمقارنة ، اقرب الى العصور الاولى . وكان غاز الانارة موضوع رضى لسكان المدن ، فتقدم تقدماً حثيثاً سهله ليس صنبور « اوير » فحسب بل مضرم« بونسن » ايضاً . وتوجب على الشمعة الشحمية ان تحسب حساباً للاستيلين ولا سيما للمصباح البترولي الذي بدا عملياً واقتصادياً . وفرض الهيدركاربور نفسه بصورة مفاجئة في اعقاب احكام الاجهزة المزودة بالفتيل التي يصعد فيها الزيت بفعل الخاصية الشعرية ؛ ولكن لنجاحه تفسيره في نجاحات استخراجه وتقطيره : فان حمى البترول التي انتابت اميركا غداة الاستبار الذي اجري في السنة ١٨٥٩ في « تيطوسفيل » على يد الكولونيل درايك – الاندفاع نحو « اوهايو » – قد رفعت الانتاج من ٣٠٠٠ هكتوليتر في السنة الاولى الى قرابة ٤ ملايين منذ السنة ١٨٦٥ .وبينما تأسست شركات قوية لاستثمار هذا المصدر غير المرتقب للثروة ، واجه بعضهم الطاقة الحرارية ، وبالتالي مصدر القوة الفاعلة ، التي قد يوفرها هذا الوقود السائل اذا ما ابتكر محرك موافق .

تباشير الكهرباء الجديدة

لا شك في ان المستقبل يخبىء في طياته تهديداً للبترول كعامل انارة بفعل نجاحات الكهرباء . فان « بلانتيه » قد اخترع المركم ، و « غروف » فكر بأول مصباح كهربائي ، و « رايت » استحصل على شهادة اختراع قوس كهربائي توفق « فوكو » الى تطبيقه عملياً بعد حين : كان كل ذلك مجرد تباشير . ولكن الجدة المشجعة تحققت في السنة ١٨٦٩ حين وفر «غرام» بدينمه تياراً قادراً على تغذية المصدر الضوئي. ثم حقق « جابلوشكوف » شمعة من الفحم المركوم . اما المصباح الكهربائي الاول المضيء في الفراغ فيجب نسبته الى « سوان » . ولكنه لم يضيء سوى برهة قصيرة . فأخذ اديسون يبحث آنذاك عن خيط ثابت ؛ وفي سبيل الحصول عليه اوفد البعثات الى كافة الجهات ، وبعد ان امتحن الخيط القطني ونشارة الصنوبر وشعر اللحية، استقر اختياره على نوع من الخيزران الياباني. ثم جاءت السنة ١٨٧٩ : فاحدث الاكتشاف ضجة كبرى . وقامت اول شبكة توزيع منذ السنة ١٨٨٢ في نيويوك ؛ ثم أنشيء صف انوار في مقدم اوبرا باريس ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ، كان بالامكان مقارنة اضاءة « مبنى عام » بمعدل ١٦ شمعة في المتر المربع باضاءة « رواق المرايا » التي لم تعط سوى ٢٫٥ فقط. ولكن الشوط لم يبد خاسراً ، لا بالنسبة للغاز الذي كان اقل كلفة ولا للمصباح البترولي الذي كان اكثر ملاءمة للمساكن الوضيعة والارياف .

جهز « برجيس » اول شلال مائي في السنة ١٨٦٩ فولدت الكهرباء المحققة شعوراً قوياً بأن

التيار الذي سينتج سيكون وفيراً . وجاء التلغراف والهاتف الكهربائيان نمطين ثوريين لنقل الفكر . وشق التحليل بالمجرى الكهربائي ، في الوقت نفسه ، الطريق امام تحويلات عظيمة في المادة : وبحسب الطريقة التي اشار اليها « ارنست – ورنر سيمنس » ، استخدم « هـــول » في اميركا و «كيلياني » في المانيا و « هـــيرو » في فرنسا فرناً لاذابة معدن الالومينيوم بواسطة القوس الكهربائي ؛ ثم طلع « مواسان » بصناعة الكربورالكلسي ومركبات الحديد والمعادن الاخرى . ولن يلبث الشرر ، الذي يشعل امتزاجاً غازياً قابلا للاحتراق ، ان يولد المحرك المبني على هذه الظاهرة : وهكذا فان الكهرباء ستسهم ، بمفالطة غريبة ، في فتح آفاق وامكانات جديدة امام البترول .

الهجوم الآلي

لقد افضى كل شيء الى انتصار الآلة التي بدت وكأنها لا تعرف الكلل وتتفوق على الانسان تفوقاً كبيراً بالسرعة وبمزيد من الاتقان والدقة فياغلب الاحيان . ففي السنة ١٧٧٦ كان عشرة اشخاص ينتجون ٤٨٠٠٠ دبوس : فجاءت الآلة ، بعد مـــرور مئة سنة ، تنتج ١٨٠ دبوساً في الدقيقة اي ما يعادل مليونين بالنسبة لهؤلاء العمال العشرة . وفي الولايات المتحدة انتج عامل النسيج ٩٦٠٠ يردة من النسيج القطني في السنة ١٨٤٠ خلال ١٣ساعة عمل في اليوم؛وفي السنة ١٨٨٠ بات ينتج ٣٠٠٠٠٠يردة خلال عشر ساعات عمل في اليوم.وبينما كانت امهر عاملات صناعة الجوارب تنجز بين ١٥٠ و٢٠٠ عقدة في الدقيقة،انجز النول المستقيم ٥٤٠٠ ، والنول الآلي ٤٥٠٠٠ ، والنول المستدير ذو الابر المتصلة حتى ٤٨٠٠٠٠ .وبواسطة آلة « ماك كورميك » الحاصدة التي يجرها حصانان ، جمع المزارع الاميركي سنابل سبعة هكتارات بينما لم يستطع فلاحان اوروبيان ، في الوقت نفسه ، حصد اكثر من هكتار واحد .

تطلبت الآلة وقتاً للعمل منظماً بكل دقة . وباستطاعتنا تحـــديد السنوات ١٨٥٠ – ٦٠ تاريخاً لانطلاق صناعة الساعات صناعة منسقة ، وهو فيلبس من احكم زنبرك الـــرقاص في السنة ١٨٦١ .

« ايتها الساعة ! الاله الناحس ، والمخيف ، والعديم الاحساس ... »
« بودلير »

حققت الآلة اكثر الاشغال دقة ، فانتشرت انتشاراً عظيماً ، سواء في اعمـــال الخشب (آلات النجر والنشر والتفريض والتلسين) ام في اعمال المعادن (المخارط،والمثاقب،والمناشير المتصلة الاطراف ، والمثاقب اللولبية) . وقد احكم « هويتوورث » دقتها بعد « مودسلي » و « كليمان » .

حافظ القطن ، بين النسائج ، على تقدمه التقني . فاعتمدت آلات غازلة جديدة ، نـــول « روبرتس » الذي عمل آليـــا ، والنول المستمر الحــــركة الذي ابتكره « بار كورتيس » و « مادسلي » . وارتفع عدد الصنانير في النولالواحد من ٣٠٠ او ٤٠٠ الى ١٢٠٠ . وازدادت كذلك سرعة المكوك في الحياكة . وبشر النول الآلي ، الذي ابتكره الاميركي « نورثروب » ،

بتغييرات هامة جداً : فاللحمة تستبدل آلياً حين ينقطع احد الخيوط، وباستطاعة حائك واحد ان يراقب لا آلتين فقط او اربع الآت بل حتى ٤٠ و ٥٠ آلة. أجل، لن تعرف آلة « نورثروب » في اوروبا قبل السنة ١٩١٤ . ولكن الانتاج في الساعة قد تحسن في كل مكان (ارتفع خلال قرن في بريطانيا من ١٠ الى ١٠٠ في الغزل ومن ٤ الى ١٠٠ في الحيـــاكة) . وزودت صناعة الغسل بآلات تؤمن عمليات التقصير والمضمضة والتنشيف والتنظيف الكيميائي. وكانت آلة التطريز مصدر ثروة « سان غـــال » ؛ كما ان آلة « بوناز » للخياطة والتطريز ، التي اخترعت في السنة ١٨٦٣ ، قد استعملت لصنع الالبسة والاثاث ، ونـول « موشليه » واقـق تخريم النسيج الدقيق . فانتشرت آلة الخياطة انتشاراً سريعاً وتحسنت،تحسناً مطرداً، فاحتلت المركز الاول في صنع الالبسة . واستخدمت الآلات في خياطـة القفافيز وتثبيت العقب وخياطة الساق وجمع وجه الحذاء والنعل . وتوفرت لصناعة الفراء اجهزة تدلك وتصقل .

واذا ما زال الحجر ينحت باليد ، فان الانسان قد استخدم آلات لرفع الاثقال ؛ وجلب الى مراكز عمله القراميد والآجر والانابيب المصنوعة كلها آليا بواسطة الطواحين الهارسة والكسارات المبعدة عن المركز والخارط . وفي صناعة الزجاج وفرت الناقلة الآلية على العامل الاقتراب من الفرن ؛ وقضت الآلة النافخة على طريقة استخـدام القصب المثقـوب الذي كان ينفخ فيـه بـالـفم .

وجاء انتصار الآلة كاملاً في صناعة الورق . فقد استخدم « مـونغولفييه » ، في هـرس الخرق الرثة ، الآلة العاجنة المخترعة في اميركا ؛ واكتملت اجهزة صناعة الورق بآلة تقطيع الخرق وآلة رفع المعجون ومنظم الحركة وجهاز التصفية والمساطح . وكان الحدث الاكبر في حقل الطباعة ظهور الالة الدائمة الحركة التي احكمت شيئاً فشيئاً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥ بفضل استخدام الصفائح المستديرة والوشيعة التي تطبع الوجه والظهر: فبينما لم يطبع سوى ٨٠٠٠ طلحية في الساعة وعلى الوجه فقط في السنة ١٨٤٥ اصبح بالامكان طبع ٩٦٠٠٠ طلحية من ١٢ صفحة في السنة ١٩٠٠؛ ولم تؤمن الآلة الاسطوانيه الدائمة الحركة طي الطلاحي فحسب ، بل جمعها حزماً من ٥ و ١٠ او ١٥ طلحية بحسب المراد .

والى السنة ١٨٦٧ يعود تحقيق الآلة الكاتبة الاولى على يد الاميركيين « شولز » و « دنسمور » اللذين اشترى (رمنغتون) شهادتيهما . ولكن طموح الآلة بلغ حد منافسة آلات الطرب نفسها أو اقله حد تسجيل الاصوات : وهذا كان الهدف من الحـــاكي (الفونوغراف) الذي ابتكره اديسون في السنة ١٨٧٧ .

فهل كان من أمل في تحقيق نتائج على مثل هذه الأهمية في انتاج المواد الغذائيـة يا ترى ؟ انه لجلي أن الآلة الزراعية أعجز من أن تنظم هذا الانتاج على غـــرار الآلة المستخدمة في الصناعة ، ولكن من شأنها تلافي نقصان السواعد والمساعدة على فتح مساحات جديدة ما كانت الزراعة بدونها لتنتزعها من الطبيعة الغامرة . وهكذا فقد اهتدت إلى أرضها المختارة في اميركا

الشمالية حيث نستطيع ملاحظة تقدمها في عهدين ثلاثينيين : عهد الآلة الحاصدة ابتداء من السنة ١٨٥٥ ، وقد عقب عهد الحراث الحديدي ، ثم عهد الحاصدة الرابطة . ويجب هنا ان نعترف لـ « ماك كورميك » بفضله الأول في تحقيق حركة اسنان المنشار تناوبياً . وقد سهلت المسلفة استخدام المبذر الآلي فغدت تتدحرج وتدور وتهرس ، بينا جمع الحراث في هيكله حتى أربعة اجهزة حارثة . وأتاحت الآلة الدارسة ، الكندية الأصل ، التي ادارها فريق من ستة رجال ، درس ١٥٠ هكتولتراً بينا لم يستطع الرجل الواحد درس أكثر من ٣ بواسطة المدقة . وفي صناعة الطحين التجاري تخلى الرحاعن مركزه لمسحق مستديرمن الحديد المصبوب المسقي؛ و'نظف القمح بالنساسيف والغرابيل ، ونخل الطحين بالمناخل. واذا تأخر اعتماد المعجن الآلي في صناعة الخبز، فان الآلة قد لعبت دوراً هاماً في صناعة البسكوت والمعجونات الغذائية،ومعامل التصفية ، وصناعة الشوكولاتا. وفي المسالخ جزرت الآلة الحيوانات ونظفتها بالفرشاة وأفرغتها وقطعتها وملحتها . وفي المزرعة أخذت آلة مبعدة عن المركز تحل محل المخضة ، ودخلت مصنع الالبان مفرزة الكُثأة الدائمة الحركة .

لا يعني ذلك أن التيار كان عارماً لا يقاوم ، وأن طرائق العمل القديمة كان محكوماً عليها بالزوال في كل مكان. فكل ما حصل هو أن التضاد قد أتضح وبرز بين مهنة واخرى وبين بلد وآخر . ويجب ألا ننسى من جهة أخرى أن المسألة غالباً ما كانت مسألة دفع إلى الامام . فبالإمكان مثلاً تسيير الآلة الدارسة بساعد الانسان ، أو المدورة ، أو البخار ، ولكن ما هو المحرك الذي يجب استخدامه في الماجنة الآلية ؟ وكيف يجب جر الالة الزراعية ؟ وفي هذه الحال الأخيرة ما زال الحصان مفضلا على القاطرة البخارية التي عرضت منذ السنة ١٨٥٠ .

أكب القرن من ثم على زيادة قوة الجهاز الحراري: فخفف ضرر نقاط فقدان مفعول مكبس المحرك في سيره ، وحد من التخثير في الاسطوانة ، وزاد مساحة الاحماء ، ولجأ إلى الانفجار المزدوج والثلاثي وحتى الرباعي بواسطة الطريقة المركبة . ولكن هذا المحرك ما زال ثقيل الوزن ، كبير الحجم ، متوسط الفعالية بالنسبة للوقود المحرق . وعلى الرغم من ذلك فقد قدر بعضهم أنه أدى لأوروبا واميركا ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عملا يوازي عمل مليون عبد .

المعارض

تباهى ذاك العهد بتحقيقاته ، فطاب له تعدادها واظهارها . ففي السنة ١٨٥١ جمعت لندن ١٧٠٠٠ عارض في قصر البلور حيث أحل « باكستون » ، في مساحة تبلغ ٩ هكتارات ، الحديد والزجاج محل الحجر والقرميد ، وفي السنة ١٨٥٥ ، قام في باريس قصر الصناعة مع « رواق للآلات »تحرسه أربع قاطرات صنعت على شكل أبي الهول. وفي كل عرض جديد توسع نطاق المعرض وتعاظم الاقبال . وعلى غرار لندن التي دعت العالم في السنة ١٨٦٢، وجهت اليه باريس الدعوة في السنة ١٨٦٧ لزيارة قصر الـ «كوليزيه» المعظم ذي الاروقة الدائرية السبعة التي كان أحدها « رواقاً جديداً للآلات » : فكتب « هوغو » : « هذا هو الميثاق السلمي

المظيم » . وفي السنة ١٨٧٣ أقامت فيينّا معرضاً في إطار اله براتر » ، وليون في إطار «الرأس الذهبي » ؛ وفي السنة ١٨٧٦ أقيم معرض في فيلادلفيا التي جعلت منه احتفالاً بالذكرى المئوية للاستقلال الاميركي ؛ وفي السنة ١٨٧٨ ، أقيم معرض جديد في باريس التي شيدتاله « تروكاديرو » وعرضت المصنوعات الخزفية . ثم أقيمت المعارض على التوالي في « سيدني » ، و « ملبورن » ، و « امستردام » ، و « انفرس » ، و « اورليان الجديدة » ، و « برشلونة » ، و « بروكسل » ، وشيكاغو التي أحييت في السنة ١٨٩٣ ذكرى اكتشاف كولومبوس لاميركا . ولكن اعظـــم المشاهد كانت المشاهد الباريسية بمناسبة الذكـرى المئوية للسنة ١٧٨٩ ، والاحتفال بنهاية القرن الرسمي في السنة ١٩٠٠ : فقصدها الزائرون بعشرات الملايين للتمتـــع برؤيتها . « ان السنة ١٩٠٠ ... سوف تكون نهاية قرن كامل من الجهود المدهشة في حقلي العلم والاقتصاد » ، كما جاء في مرسوم صدر في السنة ١٨٩٢ . «وسوف تكون كذلـــك عتبة عصر يتنبأ العلماء والفلاسفة بعظمته وستبلغ وقائعه حيث لم تبلغ احلام مخيلاتنا في الارجح ... فمعرض السنة ١٩٠٠ سوف يشكل تأليف القرن التاسع عشر ويحدد فلسفته » .

وسواء كانت المعارض شاملة أو دولية ، فانها توزّن السير الظافر للحضارة الصناعية

الفصل السابع

الانطلاقة الكبرى لوسائل المواصلات في عهد البخار

انتصار الخط الحديدي

ان حلم سان – سيمون باحتلال الكرة الارضية بواسطة الخط الحديدي قد تحقق ما بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ : نصف قرن كان جديراً باسم « عصر الخط الحديدي » الذي اطلق عليه . ولكن الجسر على الخطوط الحديدية بقي عمل الغرب بصورة خاصة . ففي السنة ١٨٦٠ تقاسمت اوروبا والولايات المتحدة ، بما يقارب التساوي ، ١٠٨ ٠٠٠ كيلومتر ، بينما لم يتجاوز طول هذه الخطوط في اجزاء العالم الاخرى الـ ١٥ ٠٠٠ كيلومتر ؛ وفي السنة ١٩١٠ كان نصيب الولايات المتحدة ٣٨٠ ٠٠٠ واوروبا ٣٣٠ ٠٠٠ من اصل مليون كيلومتر ونيف في كافة انحاء العالم .

لقد جند بناء الخطوط الحديدية رؤوس اموال عظمى وافضى الى ولادة اجهزة خاصة قوية ، حين لم تتولّه الدولة مباشرة ، والى قيام اشغال عظمى . ودفع كذلك بصناعة المعادن ، واضفى على الآلة البخارية كل رونقها ، وكثّر الاعمال الفنية .

ان الخط الحديدي ، الذي اخترق الارياف ، قد استلزم تسوية ترابية متينة ، وقد صنعت العوارض من خشب السنديان الذي حفظ من الفساد بحقنه بالكريوزوت او بكلورور الزنك . ثم حل الخط الفولاذي محل الخط الحديدي ، كما استعيض عن الجسر الحجري بالجسر المعدني .

وان في اختراق الجبال ما يثير الاعجاب في هذا المجال . ففي التسلق امتحان للبخار ، وفي فتح الانفاق امتحان للتقنية . وسوف يستخدم الماس والمثقب المحرك بالهواء المضغوط للتغلب على الحجارة الصلبة ؛ وسوف يلبس الرواق بالحديد المصبوب لا بالخشب ، وتؤمن التهوية بواسطة الآلات الجاذبة الهواء او النافثة . وجاء تحقيق نفق « سنيس » مشجعاً جداً من هذا

القبيل على الرغم من ان انجاز الرواق على ارتفاع ١٣٠٠ متر وبطول ١٣٦٠٠ متر قد استغرق ١٥ سنة . وبفضل الخبرة المكتسبة ، تحقق نفق « غوتار » في عشر سنوات ، بطول ١٥٠٠٠ متر تقريباً ، بواسطة المثقب الآلي وبالرغم من عذاب العمال الذين اضطروا الى تحمل حرارة بلغت ٨٦ درجة مئوية . ثم فتحت الانفاق بالتفضيل في اسفل الجبال (نفق سمبلون سيفتح على ارتفاع ٧٠٠ متر) ، فصرف النظر رويداً رويداً عن النفق في المرتفعات ، كنفق «سمرنغ» الذي فتح منذ السنة ١٨٥٤ بعد ١٤ نفقاً ثانوياً و ١٦ جسراً .

فلم يلبث النفق من ثم ان بدا افضل من الجسر لاجتياز الانهار العريضة والاقسام المستطيلة الضيقة من البحر . فحفر الانكليز نفقي « مرسي» و «سفرن» (طول هذا الاخير ٧ كيلومترات) والاميركيون نفق « هدسون » . ولكن العقبة السياسية حالت دون تنفيذ مشروع اتصال تحت مضيق « با ـ دي ـ كاليه » ، كما ان الاتصال بين شبه الجزيرة السكندنافية والمانيا قد تم بواسطة سفن خاصة مجهزة بخطوط حديدية لنقل القطار ، بين « ساسنيتز » « روغن » و « مالمو » .

احرزت القاطرة تقدماً حاسماً منذ ان فكر المهندس الانكليزي بين « كرامبتون » بوضع العجلات المحركة في مؤخر مسخن البخار لا تحته ، وهي عجلات مترابطة ‹ثناء› تتناقل حركة دورانها . وفكر النمساوي «انغرت» للخطوط السريعة الانحدار ، والفرنسي «بتيبه» لقطارات نقل البضائع ، بأجهزة محكمة خاصة . فارتفع الوزن شيئاً فشيئاً من ٢٥ و٣٠ طناً الى ١٥٠ طناً ، فاستطاعت القاطرة جر مقطورات يبلغ وزنها ٢٠٠٠ طن . واستعيض عن المكبح اليدوي القديم بالمكبح الآلي او المائي او المكبح العامل بالهواء الخفيف الكثافة او الهواء المضغوط . وأحكم تسيير القطارات البخارية التي تسير بالحبال على منحدرات الجبال (في ريغي وبيلاط ، في جبال الالب ، وفي جبل واشنطن ، في اميركا) . ووفر الابراق الكهربائي عوناً مفيداً لنقل الاشارات . كما اتاحت العربة السهلة التوجيه للمقطورات السير في منعطفات الخطوط واطالة القاطرة والمقطورة .

باتت المقطورة اكثر راحة . فأنيرت بغاز زيت المنضد بعد ان كانت تنار بزيت السلجم . ثم أجريت محاولة إنارتها بالكهرباء على خط « لندن » ـ « برايتون » . وتمت التدفئة بواسطة مساخن يغذيها البخار . وبسبب المسافات بنى الاميركيون مقطورات للنوم مع منتفعاتها ومقطورات للاستقبال وحتى مقطورات فخمة استطاعت العائلات الثرية بواسطتها الانتقال دون ان تخالط المسافرين الآخرين . وجهزت القطارات التي تصل دول العالم الجديد بجسور ضيقة تتيح التجول بين مقطورة واخرى اثناء سير القطار . وفي السنة ١٨٨٠ اضيفت الى قطار خط الباسيفيكي مقطورة تحتوي على مطبعة اصدرت فيها صحيفة يومية تنشر الاخبار الواردة برقياً في المحطات . وازدادت السرعة ازدياداً مطرداً . فمن معدل ٢٨ كيلومتراً في الساعة حوالي السنة ١٨٥٠ ارتفعت الى ٧٤ في انكلترا و ٥٩ في اميركا في السنة ١٨٨٠ . وبعد انقضاء

عشر سنوات تجاوزت سرعة القطار بين نيويورك و « بوفالو » ١٠٠ كيلومتر في الساعة . كما أن السفر من باريس الى مرسيليا لم يعد ليستغرق سوى ١٤ ساعة . وفي نصف قرن انخفضت الكلفة الى نصفها وحتى الى ثلثها بحسب البلدان .

اذا استثنينا بريطانيا العظمى وبلجيكا وجزءاً من المانيا ، لرأينا ان الخطوط الحديدية لا تؤلف شبكات في بلاد اخرى قبل السنة ١٨٦٠ . اما في فرنسا فان الاتصال بين باريس وصدن الحدود الكبرى او المرافىء فقد بدت تباشيره في الافق. وقد بذل الجهود الكبير في هذه البلاد في عهد الامبراطورية الثانية واوائل عهد الجمهورية الثالثة. فارتسمت حينذاك بوضوح في اوروبا الغربية شبكة خطوط حديدية هامة تقع الى الشمال من جبال «البيرينيه» وال «ابنين» وجبال الالب الشرقية. ولم تشمل هذه الشبكة شبه الجزيرة الايبيرية والسوق الايطالية والبلدان الواقعة الى الشرق من خط الطول المار بـ «دانزيغ» و «بودابست»؛ ولكن ايطاليا الشمالية استفادت منها بفضل الانفاق الالبية . وأخذت سويسرا تلعب دور الانطلاق في وسط اوروبا . وبينما اتصل الغرب بالنمسا بواسطة نفق « ارلبرغ » ، نرى النمسا ، التي حققت نفق « سودباهن » على طريق تريستا ، تمدد شبكتها نحو الدانوب الشرقي والبلقان وتتصل بالقسطنطينية وتصل اوروبا الوسطى بالشرق الادنى .

وفي اميركا الشمالية لم يطرأ على البناء اي توقف . فهي الولايات المتحدة مـا وضعت في السنة ١٨٦٩ اول شريط معدني يصل بين الاوقيانوس والآخر . انهـا لفكرة جريئة اخرت الحرب الاهلية تحقيقها ، على الرغم من ان الاعمال ، التي تقررت منذ السنة ١٨٦٢ ، قد شرع فيهـا في السنة التالية . وقد اشرف القائد « غرنفيل م. دودج » على هذا المشروع اشرافه على حملة عسكرية : فجند اليد العاملة في « الغرب الاوسط » من بين الجنود المسرحين والمهاجرين الايرلنديين واستخدم الصينين في كاليفورنيا . وقد واجه عقبات كثيرة اهمها الهنود — وقبيلة « سيو » بصورة خاصة — ونواتىء الارض وفقدان اليد العاملة ، ولا سيما التنافس بين شركة « الاتحاد الباسيفيكي » و« الشركة الباسيفيكية المركزية » اللتين كان على حكومة الاتحاد ان تفصل في خلافاتهما . زد على ذلك ان المنحدرات كانت سريعة والجسور خشبية ، والسرعة محدودة ؛ ولكن اكتمال العمل قوبل بحماس منقطع النظير ، وسوف تنجز خمسة خطوط هامة اخرى بين المحيط والمحيط ما بين ١٨٦٩ و ١٨٩٣ ، بما فيها ذاك الذي انشأته الحكومة الكندية بين « هاليفاكس » و « فانكوفر » مروراً بـ « كيبيك » بغية تحقيق ضم كولومبيا البريطانية الى ميثاقها الاتحادي .

وجاء الجهود الروسي مماثلا ، وان متأخراً ، بمساعدة رؤوس اموال الغرب على كل حـال ، وبغية توسع نحو الشرق الآسيوي يقابل التوسع الذي قاد الولايات المتحدة وكندا حتى الباسيفيكي. فأنجز الخط القزويني اولاً ، الذي سوف يكمله الخط الارالي في السنة ١٩٠٥ ، وهـو اقصر من الاول واكثر استقامة : وهذان الخطان هما في آسيا الوسطى شبيهان بالخطين المارين في الصحراء

الافريقية . وبدت الصعوبات في سيبيريا ادهى منها في امـــيركا : طبقات ارضية متجمدة او تسرب مياه اثناء ذوبان الجليد ، وانهـار عريضة يجب اجتيازها ، ومسافات شاسعة ، وكثافة سكان متدنية جداً ، يضاف اليها نواقىء جبال « بايكال » المستعصية . ولكن الطرق المعـــدة للخيل لم تعد لتفي بالحاجة امام الاستعمار المتوقع والمستقبل المنشوري . فشرع اذن في اطول خط حديدي في العالم منذ السنة ١٨٩١ وصل الى « فلاديفوستوك » في السنة ١٩٠٢ بفضل اتفاق عقد مع الصين اجيز بموجبه اجتياز منشوريا الشمالية .

كان الخط الحديدي أداة توحيد جلى لاميركا الشمالية وللامبراطورية الروسية . وقد خدم كذلك الشراكة الجمركية في الدول الالمانية ، وعرف الريخ البسماركي خير معرفة ما هو مدين له به ، فلم يتركه في ايدي الافراد . وفي ايطاليا ايضاً كان عوناً لامرة « سافوا » على إرساخ سلطتها ، فجمعت حكومة روما الشركات الخاصة واشترتها . ولكن الشركات الخاصة ما زالت تتقاسم الارض الفرنسية ؛ تلك هي الشبكات الست ، ولكنها اتجهت كلها الى باريس باستثناء شبكة الجنوب . ومنذ السنة ١٨٥٣ ، وضع اللورد دالوزي تصميماً لشبكة هندية تكون خير صلة بين بلدان وشعوب غير متلاحمة وربما خير وسيلة لارساخ السيطرة البريطانية .

نبض الخط الحديدي بطاقة كبرى وكاد يتمخض بخلق الامم ، وكان بالاضافة الى ذلـــك قادراً على اصدار احكام بالموت . فكان ممكناً ان يتسبب في الاضرار بالطريق المائية وحتى ان يقضي على بعض التجارات (سيكون الخط المنشوري سبب زوال قوافل نقل الشاي التقليدية بين بكين وسيبيريا) . ولكنه احيا المقايضات الـــتي ادارها ، والمشاريع الـــتي استخدمته ، والمناطق التي اجتازها وانتهى اليها . وقد نقل بـــين ٤٠٠ و ٥٠٠ مليون مسافر وبـــين ٢٠٠ و ٣٠٠ مليون طن من البضائع حوالي السنة ١٨٥٠ ، و ٤ مليارات مسافر و ٥ مليارات في كل من السنوات ١٩٠٥ - ١٩٠٧ .

سباق الطرق البرية ودفاع الطرق المائية

على الرغم من مقاومة يائسة ، كان على نقل البضائع بالعجال ان يعترف بخسران قضيته حيثما مر الخط الحديـــدي . فكانت الضربة قاسية للطريق البرية التي توجب عليها من ثم تحديد اطماعها فلن تكون بعد اليوم سوى رافد الخط الحديدي وتكون سعيدة اذا ما اتصلت بمحطة القطار الحديدي وحافظت على وظيفة توزيع ما ينقله القطار. كانت كافية للعربات والمشاة والدراجات. ولكن اذا لم تتوفر المصلحة القديمة للنقل البري ، فغالباً ما لا يكون هنالك شيء البتة . امـــا الطريق الزراعية فقد استفادت من النشاط التجاري الذي أنمته الخطوط الحديدية ، وتحسنت .

واذا ما أبدت الطرق المائية بعض المقاومـــة في ظروف أفضل ملاءمة ، فمرد ذلـــك الى انها كانت تتقاضى اجور نقل أقل ارتفاعاً بالنسبة للوزن . وما زال الجدل قائماً بين انصار كل من طريقي النقل المذكورتين . اما الحقيقة فهي ان النقل المائي يتقهقر اذا ما اعتمد معدات واجهزة

قديمة العهد . ففي انكلترا مثلا اشترت شركات السكك الحديدية وسائل النقل المـــائي ، وفي فرنسا كادت الملاحة تتلاشى في بعض الانهر كالـ « لوار » والـ « آليه » ؛ ولكن الرأي العـــام أقلقته قوة أسياد الخط الحديدي ، ومنذ السنة ١٨٧٣ ، كرس اكثر من مليـــار فرنك لاعادة انشاء وتوسيع شبكة يكون مركزها في المناطق الصناعية الشمالية والشرقية .

أحست المانيا بحماس حقيقي للملاحة الداخلية . فاستخدمت ما استطاعت الى ذلك سبيلا الطرق الطبيعية الممتازة التي تؤدي الى بحر الشمال وتؤمن المواصلات بين مختلف مناطق رينانيا ، ولكنها نظمت كذلك تموين برلين بالخامات وجعلت منها مركزاً صناعياً من الدرجة الاولى . وكان الشريان الكبير الذي يشكله نهر الرين موضوع عناية يقظى : سدود في حوض « كولونيا » تقويم منعرجات ، وتنظيم مجرى في الوادي الضيق وما قبله من جهة الينبوع ، وحفر احواض بالغة الاتساع في المرافىء التي جارت المرافىء البحرية من حيث حمول السفن ؛ وانخفاض أجور النقل انخفاضاً جعل النهر ينظم ويحرك ويقلب تيارات مقايضة كـــبرى ، ويجتذب المؤسسات الصناعية ، ويسهم في ازدهار الـ « رور » وكافة انحاء المانيا الغربية ، ويتحكم برقعـــة واسعة تؤلف سويسرا جزءاً منها ، ولم تتجاهلها بريمن وحتى همبورغ ، وتنازعتها كذلك المرافـــىء البلجيكية والهولندية . واذا كانت قناة « دورتموند » - « امس » مخيبة للآمال ، فقد ارتسمت الخطوط الكبرى لطريق نهرية كبرى تصل الغرب بالشرق .

ولم يكن تجهيز الحوض الدانوبي اقل فتنة واغراء . ولكن انتاجية الاعمال كانت اقل شأناً . فبعد أن توفقت معاهدة باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، الى تحرير النهر من كل عائق سياسي ، تنظم الامن فيه بوثيقة ملاحة وتولت الملكية النمساوية الهنغارية تنظيم تدفق مياهه ؛ وتحول الانتباه بعد ذلك الى مختنق « الابواب الحديدية » ومجاز « سولينا » اللذين يغلقان الممر الضيق العميق الماء الصالح للملاحة : والسبب في هذا التحول مرده الى اهمية النهر المتعاظمة لتجارة الحبوب .

استمر التضاد بين روسيا والولايات المتحدة المتشابهتين من حيث اهمية شبكة النقل الطبيعية فيهما . فقد فتحت روسيا قناة الـ « نيفا » ، وانجزت شبكة « ماري » ، التي كانت تكملة لطريق تبلغ ... ٤ كيلومتر بين بحر قزوين وبحر البلطيق . ولكنها لم تستخدم سوى ثلث انهارها ولم يتجاوز طول اقنيتها مجتمعة الـ . ٨ كيلومتر ؛ يضاف الى ذلك ان نهر الـ « فولغا » الذي سار فيه اكبر عدد من السفن لم يتصل بالانهار الصابة في البحر الاسود . اما في اميركا ، فلم تعمق قناة « ايريه » القديمة تعميقاً مستمراً فحسب ، ولم تنظف مصاب الميسيسبي فحسب ، بل اصبحت البحيرات الكبرى بحراً داخليا حقيقيا تنشط فيه حركة نقل عظمى ايضا .

وقد امنت السفينة البخارية ، في البرازيل بواسطة الامازون ، وفي الصين بواسطة الـ « يانغ تسي » ، توغل التجارة الى مناطق شاسعة شبه خالية من الطرقات والخطوط الحديدية بمساعدة رؤوس الاموال الاوروبية اجمالا . كما انها سهلته احيانا بالاشتراك مع الخط الحديدي ، على النيل والكونغو و « البارانا » مثلا .

تقهقر السفينة الشراعية وتفوق السفينة البخارية

على غرار عربة المسافرين التي عرفت ذروة اكتمالها حين كان مقدراً لها أن تنحني امام القطار الحديدي ، كذلك بلغت السفينة الشراعية أوج عزها حين أخذت السفينة البخارية تقصيها عن البحار .

ان السفينة الشراعية السريعة الحركة ، المعدة للأسفار البحرية الطويلة ، قد لعبت دوراً لامعاً حتى أواخر القرن. فان السفينة البخارية المزودة بالمروحة لم تتفوق عليها سرعة إلا حوالي السنة ١٨٨٠ ، وللسرعة ثمنها على كل حال . ولذلك استمرت الملاحة الشراعية ، في طرقات كثيرة ، لنقل المشحونات الثقيلة. فالبناء المعدني قد ساعد على إطالة هياكل السفن : فانتجت بين السنة ١٨٩٠والسنة ١٩٠٠ السفن الطويلة الكبرى المزودة باربعة وحتى بخمسة صوار،التي جابت البحار الواسعة في نصف الكرة الشمالي ، وشحنت النكل من كاليدونيا الجديدة وقنب مانيلا وقصدت الـ « شيلي » والشاطىء الغربي من الولايات المتحدة . ودافعت بعناد وشجاعة عن سمعتها. ولكنها غالباً ما واجهت الصعوبات بين الاطلسي والباسيفيـكي حول رأس « هورن » – الرأس الوعر – بينما توقفت منافستها في مضيق « مجلان » . وهو فتح ترعة السويس بصورة خاصة ما كال لهـــا ضربة قاسية (فالقنـــاة اضيق من أن تساعد على السير يمنة ويسرى ، والأرياح نادرة في البحر الاحمر) . واخيراً ازداد الامان بواسطة السفينة البخارية وكان التأمين على الأشرعة مرتفعاً. ففي السنة ١٩١٣ بلغ محمول ٢٣٠٠٠ سفينة بخارية ٠٠٠ ٥٠٠ ٢٦ طن ومحمول ٦٦٠٠ سفينة شراعية ٠٠٠ ٩٠٠ ٣ طن ، فكتبت صحيفة الـ « تايمس » بحزن : « ان غياب السفن الشراعية يولد فينا التأثير الذي يولده غياب صديق قديم » .

قال « وليم مورس » عن السفينة البخارية « أنها كاتدرائية العصر الصناعي » ، وقـد اثارت حماس روسكين نفسه : فان هذا الأخير يحمد الله الذي أتاح له رؤية الباخرة التجـارية الكبرى التي هي اشرف ما انتجه الانسان ، ذاك الحيوان العائش في جماعة. فقد تعاظم قوامها واتضحت خطوطها الخاصة التي لا تخلو من الأناقة .

في السنة ١٨٥٢ انزلت الى البحر السفينة الأولى المعدة لنقـل الفحم ، « جون بوَر » ، وهي سفينة بخارية مزودة بمجلات . فتعددت من ثم مستودعات الوقود على الطرقات البحرية . ومن جهة ثانية اقاحت موانىء التموين بالمحروقات تموين مسخن البخار بالمياه العذبة لأن مياه البحر قد تتاكله . فقام آل بورن مؤسسو « شركة الملاحة البخارية في شبه الجزيرة والشرق » ينشئون مستودعات الفحم وخزانات المياه واحواض إصلاح السفن في السويس وعدن وبومباي وكلكوتا. وحوالي السنة ١٨٧٠ استخدم المختر الذي وفر الماء، والآلة المركبة التي وفرت الفحـم . زد على ذلك أن هذه الالة قد زادت من السرعة ايضاً .

لكارديف يعود الفضل في قوة الاسطول البريطاني ، وللهيكل المعدني كذلك . والسبب في ذلك أن المروحة لا تلائم إلا هذا الهيكل . وقد اعتمدها آل بورن في السنة ١٨٥١ في السفينة حملايا التي عين لها السير على خط مدينة الكاب ؛ ولكن استعاضتهم عن الخشب بالحديد استهدفت

كذلك تجنب العفونة والاهتراء وتعرض الخشب للنمل الابيض في مياه المناطق الحارة ؛ وبالمقابلة احتفظوا بالعجلة في المتوسط الذي تفتقر موانئه الى احواض لاصلاح السفن . وكانت شركة « كونار» قد انزلت الى البحر سفنها الخشبية الاربع المزودة بعجلات ذات لوحات ؛ وفي السنة ١٨٥٤ كان في حوزتها سفينة حديدية ، « برسيا » ، التي كانت تستهلك ١٥٠ طناً من الفحم الحجري في اليوم وتعبر الاطلسي في تسعة أيام بدلاً من اربعة عشر بفضل آلاتها المزودة برقاص جانبي ؛ وفي السنة ١٨٦٢ كسبت اربعاً وعشرين ساعة بفضل المروحة ، ولكن جهازاً من الحبال والحال احتفظ به فيها لمساعدة الآلات عند الحاجة . أما البارجة نابوليون ، من الاسطول الحربي الفرنسي ، وقد بنيت وفاقاً لتصاميم « ديبوي دي لوم » ، فقد بلغت سرعتها ١٣ عقدة في السنة ١٨٥٣ . وبهذه السرعة عبرت سفينتا النقل «بيرير» و«مدينة باريس» الاطلسي في تسعة أيام . وجهزت السفينة بمزيد من وسائل الراحة : فان مالك السفن «اسماي» ، الذي اسس شركة « الملاحة البخارية البحرية » قد زود السفينة « اوسيانيك» بغرف وردهات بنيت في الوسط لا في المقدمة ، وبقاعة للطعام تمتــد على طول السفينة ؛ وفي السنة ١٨٦١ ظهرت الشرعة الخفيفة التي غطت الشرعة الرئيسية لايواء المسافرين .

حين استخدم الفولاذ بدلاً من الحديد ، اجازت متانة الهيكل وصلابتها قياسات كبرى وسرعة متزايدة . وقد استحدثت حيازيم جانبية عززت ركانة السفينة . وأعطى مسخن البخار والآلات المحركة ، بفضل المروحة المزدوجة ، طاقة فاعلة كبرى ، بينما تدنى استهــلاك الوقود نسبياً . فانتقل معدل محمول السفن في السويس من ٧٦٦ طناً في السنة ١٨٧٠ الى ٢٠٠٣ في السنة ١٨٩٠ و ٢٨٣٣ في السنة ١٩٠٠ . وبلغت السرعة القصوى ١٨ عقدة في السنة ١٨٨٠ و ٢٥ في السنة ١٩٠٥ . فقامت المنافسة من أجل « الشريط الازرق » بين الشركتين البريطانيتين «كونار» «والنجم الابيض» ، وبين شركــة « الخطوط البحرية بين همبورغ واميركا» . فدفعت الى انزال سفن الى البحر تتميز بمزيد من الحجم والسرعة (فان قوة آلة السفينة «بريطانيا» كانت ٥٠٠ حصان بخاري في السنة ١٨٤٠ ، بينما بلغت قوة آلة «الامبراطور» ٦٨٠٠٠) .

دُفع من ثم بصناعة بناء السفن الى الامام . وقد صنعت المعامل البريطانية وحدها ثلاثة ارباع البواخر بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٥ ، ثم خمسيها فيما بعد .

انخفضت اسعار الشحن . فان كلفة نقل مد القمح الاميركي إلى انكلترا ، التي كانت ٦٠ سنتيما في السنة ١٨٦٠ ، قد هبطت الى ١٥ سنتيماً في السنة ١٨٨٠ والى ٥ في السنة ١٩١٠ . ولم يتــم السفر في ظروف فضلى فحسب ، بل نقلت البضائع بسعر متدن ايضاً . فوحد البحر العالم أكثر من أي وقت مضى .

المرافىء البحرية الكبرى

أوجدت السفينة المرفأ ، فجددته وأحيته الاساطيل البحرية . ووصل الخط الحديدي كذلك بين المرافىء وبين بحر وآخر ، فتقاربت بذلك أوجه الاوقيانوسات المتقابلة أو المتدابرة . فلعبت أوروبا اكثر فأكــثر دور برزخ حقيقي لا

بل دور برازخ عدة بين الاطلسي والمتوسط ، واميركا الشمالية دور الجسر بين الاطلسي والباسيفيكي .

استندت حياة المرفأ بالامس الى كل ما من شأنه الاجتذاب اليه . وغالباً ما استخدم للحرب والنشاطات الاقتصادية معاً . فان « لو هافر » قد بقيت مرفأ عسكرياً حتى السنة ١٨٢٤ . وفي برست و شربورغ ، كانت الوظيفة العسكرية مثاراً للوظيفة التجارية . إلا أن التخصيص لم يعد شيئاً نادراً . فمرفأ صيد السمك هو لعمري من انجازات القرن التاسع عشر . و كارديف مدينة بنموها للفحم الحجري ولبواخر نقله ، وقد قدّر بعضهم أن نسبة ارتفاع عـدد سكانها كانت ... ١٠ نفس لكل مليون طن تصدرها الى الخارج ؛ وفرت لهـا لندن وبريستول وليفربول المواد الغذائية ، وبلغت دائرة عملها شانغاي نفسها . وانشىء في اقرب النقاط الى البحار العميقة مرفأ السرعة الذي ترسو فيه السفن فترة قصيرة . وفي أمكنة أخرى أخذت الوظيفه الاقليمية بعين الاعتبار . أما الوظيفة الدولية ، وهي اوسع نطاقـاً ، فقد تجزأت بفعل توسع الشبكات الحديدية والنهرية : فتنازعت انفرس وروتردام وامستردام المناطق القائمة ما وراء رينانيا التي نازعتها اياها بريمن وهمبورغ، بينما تزاحمت جنوى ومرسيليا على مداخل أوروبا الآلبية . وأما لندن التي كادت تحتكر اعادة التوزيع فقد تقهقرت نسبياً ، ولكن نيويورك مدينة لاعـادة التوزيع هذه بثروة طائلة جداً . وعلى الطرقات البحرية الكبرى ازدهرت المرافىء المجهزة خير تجهيز كالكاب وبومباي وسنغافورة وهونغ كونغ .

إلا أن السفن المتعاظمة قوة والمتكاثرة عدداً استلزمت احواضاً أكثر عمقاً واتساعاً. فالمطلوب تأمينه هو الدخول والخروج والتحميل والتفريغ في أقصر وقت ممكن . وبرز من ثم مثالان ، يشكل أولهما غزو اليابسة للبحر بواسطة سدود مبنية وأرصفة تعزل الاحواض المقتطعة بمحاذاة الشاطىء ؛ وهذا المثال غير نادر في المتوسط : فحين لم يعد جون مرسيليا الطبيعي ليكفيهـا ، تقدمت نحو الشمال الغربي حيث بنت حوض «لاجوليات»،ثم الحوض الامبراطوري أو الوطني ، ثم حوض «لابيذيد»وحوض«مدراغ».أما المثال الثاني فيقوم بالحفر في اليابسة عند مصاب الانهر الواسعة ، كما في لندن وليفربول وانفرس وهمبورغ ونيويورك . وبغية تجنب معـاذير الارساء قرب الارصفة في النهر ، جهزت لندن احواضاً واسعة جداً في نهر التايمس لتعويم البواخر. ولما كانت البرك وراء السدود قد اتسعت ، فقد امتدت انفرس الى ٩٠ هكتاراً منها . ثم ووجهت مسألة المداخل ، المقضة بالنسبة لروتردام ، ضحية تراكم الرمـل في الممرات الضيقة القائمة على الانهار الرينانية :وهذا ما حمل «شور»على تولي عمل جبار بجرفه الرمل من أحد هذه الممرات على طول ٣٣ كيلومتراً وعمق ٩ امتار تحت مستوى البحر اثناء مده. وانشئت اجهزة قوية منجسور قابلة التدوير ، ومحطات لربط السفن بالقلوس ، وآلات لرفع الاثقال ، ومستودعات في الاماكن المردومة بالاتربة وفي المـلاجىء البحرية للسفن . وجلي أن كل ذلك قد فرض تقنيـة متقدمة جداً .

فتح الترع: السويس وباناما

لو نظرنا إلى شكل القارات لرأينا أن الاطلسي يؤلف اداة اتصال كبرى بين نصفي الكرة الارضية ، وان العالم الجديد يشكل حاجزاً يحول دون الملاحة حول الارض ، وان افريقيا تشكل كتلة مماثلة تحول دون المرور من الغرب الى الشرق بين الاطلسي والمحيط الهندي . ولكن الكتلتين البريتين الرئيسيتين تبدوان وكأنهما تتلاشيان في وسطهما . فان البحار المتوسطة تخترقهما ولا تبقى منهما في هذه النقطة سوى برازخ ضيقة ما كانت لتحول ، الا بنوع من السخرية ، دون الملاحة حول الارض عند خطوط العرض الوسطى .

كان مقدراً لفكرة ايجاد طريق مائية بين المتوسط وبحر الهند أن ترى النور في الدرجة الاولى . لقد رأت النور منذ القرن الثاني عشر مشاريع كثيرة استهدفت فتح هذا « البوسفور الجديد » ، كانت ستستوقف السانسيمونيين وتستهوي محمد علي : فتأسست شركة مهمتها اعداد الدروس لفتح قناة ، اشترك فيها « انفانتين » و « ارليس – ديفور » و « بولين تالابو » مع ستيفنسون الابن ، بعد ان ثبت لهم ان مستوى المياه في المتوسط لا يختلف عنه في البحر الاحمر .

إلا ان احد محاذير المشروع كان انه يخدم النفوذ الفرنسي في نظر المسؤولين البريطانيين الذين صرفتهم مصالح كبرى ، من جهة ثانية ، عن ان يمدوا له يد المساعدة . فما زالت الطريق المألوفة هي طريق الكاب ، كما ان نقل البريد والمسافرين ، الذي يرتدي طابع السرعة ، ما زالت تؤمنه ، منذ ١٨٣٩ – ٤٠ ، مصلحة « البريد عبر اليابسة » التي كانت تستخدم السفينة في المتوسط حتى الاسكندرية ، ثم بين السويس وبومباي ، بعد اجتياز مصر بطريق النيل وبطريق برية . أجل كان الانتقال يستغرق عشر ساعات من الاسكندرية إلى رشيد ، وستة عشر ساعة من رشيد الى القاهرة ، وثمانية عشر ساعة من القاهرة الى السويس ، يضاف اليها الوقت الذي يُضاع في المحطات بين مرحلة وأخرى ، مما يرفع مجموع الساعات الى ٨٠ أو ٨٥ . فكان يقتضي شهر لقطع المسافة بين مرسيليا وبومباي ، في حال ان السفر بين لندن والهند ، عن طريق الكاب ، كان يستغرق ثلاثة اشهر . ولكن قناة النيل قد حسنت ، ومرفأ السويس قد جهز تجهيزاً حسناً ، والقاهرة قد شيد فيها فندق توفرت فيه وسائل الراحة بما فيها حوض للسباحة ، وجُند الوف الجمال والجمالين لعبور الصحراء . اما كان يكفي لذلك خط حديدي ، بني بين السنة ١٨٥٥ والسنة ١٨٥٩ على كل حال ؟

في هذه الاثناء كان « فردينان دي لسبس » ، القنصل السابق في الاسكندرية ، والمشدود بصلة القربى الى الامبراطورة « اوجيني » وبصلة الصداقة الى الامير محمد سعيد ، ابن محمد علي ، يتقدم سواه في تنفيذ المشروع : اطلع على آراء السانسيمونيين ، وتميز بطبع متكبر ، وكان فارساً ماهراً ، فتوصل الى اقناع سعيد باصدار فرمان يمنح الامتياز بموجبه لمصلحة شركة عالمية قدم لها المهندس النمساوي ، « نغرلي » ، مشروع قناة دون سدود ؛ واخذ على عاتقه انجاز المشروع بـ ١٦٠ مليونا ، وتجول في اوروبا لجمع الاموال اللازمة ، واستحصل من صندوق التوفير الفرنسي على اكتتاب بـ ٢٠٧ ٠٠٠ سهم من اصل ٤٠٠ ٠٠٠ سهم قيمة كل منها ٥٠٠ فرنك وتخلى منها عن

٨٥٠٠٠ سهم للخديوي الذي اصدر امرا بمصادرة ٢٠٠٠٠ فلاح . فشرع في فتح الترعة في شهر نيسان من السنة ١٨٥٩ .

ولكن عشر سنوات قد انقضت دون ان تحول اليها المياه . فقد قامت صعوبات سياسية : اعترضت انكلترا لان الفرمان لم يعرض على موافقة الباب العالي؛ وحين توفي سعيد في السنة ١٨٦٣، وجب مراعاة جانب نوبار ، وزير خارجية خلفه المتردد ، اسماعيل . وكان هناك مسألة اليد العاملة المقضة ، التي استغلهـــا خصوم القناة : فقد بلغ من الاحتجاج على التسخير ان الشركة ارغمت على استخدام عمال احرار براي نابليون الثالث نفسه الذي احتكم اليه في هذا الموضوع؛ اما العمال البالغ عددهم ١٥٠٠٠، فقد جاؤوا من المحاحوض المتوسط المختلفة، ولكنهم تقاضوا اجوراً مرتفعة ورفضوا جبل الطين بايديهم: فارغم ذلك على الالتجاء الى الآلات ، ولاسيا بجارف الرمل البخارية ، بعد ان ضحي عبثاً بالعديد من العمال. وحين تحققت الغلبة على العائق التقني الرئيسي، واعني به سحي الوحول السوداوية اللون ، قام عائق جديد هو انتشار الهواء الاصفر والتيفوس. اجل لقد تبدل الرأي العام الانكليزي شيئاً فشيئاً في هذه الاثناء بعـــد ان ادركت الاوساط المنشسترية الفائدة التي ستجنيها التجارة من هذا النجاح . ولكن ما زال هناك الشاغل المـــالي، لان الاكلاف قد تجاوزت التقديرات الى حد بعيد : وقـد فشل الاكتتاب بموجب سندات في السنة ١٨٦٨ ، لاسباب مختلفة منها حملة قامت بها الصحافة البريطانية ، ولكن الهيئة التشريعية انقذت الموقف باقرار اصدار بشكل انصبة . واخيراً احتفل في السنة ١٨٦٩ بايصال البحرين بمشهد شرقي فاتن : اذ رافقت السفن الذاهبة من بورسعيد الى السويس ، مروراً بالاسماعيلية ، الانوار التزيينية والموسيقى والرقصات الشعبية .

ان القناة البالغة ١٦٢ كيلومتراً طولا و ٢٢ متراً عرضاً و ٨ امتار عمقاً قد فرضت قيادة السفن بحذر وبسرعة محدودة (يتم التلاقي في « المحطات » ويستغرق عبور الترعة ثلاثة ايام). ولكنها استفادت من وجود السفينة التجارية ومن اتساع حركة المقايضات بين اوربا واراضي الشرق ، مشجعة بدورها هذا الطراز من السفن ومسهمة اسهاماً قوياً في الانطلاقة التجارية المثنية. وبدا بين ليلة وضحاها وكان العالم القديم كله قد اقترب من اوروبا الغربية ، وكانت نيويورك نفسها قد اقتربت من المحيط الهندي . فان « جول سيغفريد » قد امضى سنة وعشرين يوماً في السنة ١٨٦٢ للانتقال من مرسيليا الى بومباي ، وفي السنة ١٨٧٢ لم يمض « فيلياس فوغ » الآتي من لندن سوى ثمانية عشر يوماً لبلوغ المرفأ الهندي . وتدنت اجـور النقل الى ربعها بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٨٠ . الا ان السنوات الاولى كانت صعبة مالياً لان محمول السفن المارة في القناة لن يبلغ الارقام التي قدرها « لسبس » المتفائل الا في السنة ١٨٨٨ . وحين تقوت الشركة بفعل الوجود البريطاني في مصر والاتفاقية الدولية المعقودة في الاستانة ، اخذت توزع ربائح مغرية وقررت توسيع وتعميق القناة وتجهيزها بالانارة الكهربائية. فكان ان سهم الـ ٥٠٠ فرنك الذي سعّر بـ ١٦٣ في السنة ١٨٧١ ، قد ارتفع الى ٥٠٠٠ في السنة ١٩١٤ . وجملة القول

ان القناة ربما كانت « اعظم انجازات القرن » .

انتظر الرأسماليون نجاح قناة السويس للاهتمام بالبرازخ الاخرى . فان قناة كورنثوس، التي فكر بها نيرون ، قد تحققت بين السنة ١٨٨٣ والسنة ١٨٩٣ ؛ وحققت المانيا في السنة ١٨٩٥ الاتصال بين البلطيق وبحر الشمال بواسطة قناة « كيال » التي ستكون مشروعاً خاسراً على كل حال ؛ وفكر بعضهم بحفر ترعة « كرا » ، ودرست بعض اللجان مشروع قناة بين الاطلسي والمتوسط . ولكن المغامرة الكبرى كانت مغامرة باناما .

ان فتح قناة في هذه الجهات كان، والحق يقال ، اقل إفادة لاوروبا منه للاميركيين. فبالنسبة لمصر : فتنة المكان ، مفترق اجزاء العالم الثلاثة ، والضرورتان المتوسطية والآسيوية ؛ اما هنا فطبيعة تسيطر عليها امطار غزيرة ، واحراج واسعة وغابات متلبدة ، ومنطقة غير آهلة ، على شواطىء محيط لا يسلك بعد الا نادراً . وعلى الرغم من ذلك فسحر المشروع كان أخاذاً ، لا سيا وان البرزخ يضيق باطراد بين تهوانتبيك (١٩٧ كيلومتراً) حتى باناما (٧٠ كيلومتراً) . فالقرن السادس عشر قد استرسل في خياله في صدد مثل هذا المشروع ؛ وهمبولدت فكر به في السنة ١٨٠٨ . وحين افتتح بوليفار مؤتمر باناما في السنة ١٨٢٦ اقترح غوتيه بدوره فتح القناة ، ونادى كلاي بعمل جماعي . جاءت السنة ١٨٥٠ : حين سمع الناس صوت نداء الذهب الكاليفورني . فعقدت الولايات المتحدة اتفاقاً مع كولومبيا بغية اعلان حياد البرزخ في اضيق نقاطه ؛ ولما كانت انكلترا تحتل بليز وشاطىء الـ « موسكيتو » ، وتسلم باهمية جون فرنسيكا، عقد الاميركيون معها معاهدة تنم عن حذر متبادل بمنعها كل تحصين في تلك الجهات ، ثم حققوا ، على الرغم من تفشي الملاريا ، مشروع خط حديدي بين كولون وباناما . امـــا في الواقع فقد ارادوا كسب الوقت وآثروا العمل بمفردهم .

في السنة ١٨٦٩ فتحت ترعة السويس للسفن واجتاز اول قطار « الجبال الصخرية » . وعلى الرغم من العودة الى مشاريع فتح القناة ، اما على تهونتيبيك ، وامـــا على نيكاراغوا ، فلا شيء يدعو بعد للاسراع في العمل . فان المصالح البحرية ومصالح الخطوط الحديدية قـــد تضافرت للحيلولة دون تنفيذ مشروع اجمع الرأي على اعتباره محفوفاً بالاخطار . فهل تركب اوروبا الخطر يا ترى ؟ اما اميركا فقد وقفت مرة اخرى موقف التريث والتبصر والسخرية . فأوصت بعثة « وايز – ركلو » (١٨٧٦ – ٧٨) بباناما ؛ ثم حصل « وايز » على الامتياز في بوغوتا ؛ ثم انعقد المؤتمر الاول للدروس الذي رفض اقتراح ايفل حفر قناة ذات سدود ووافق على اقتراح لسبس حفر ترعة عميقة يكون مستوى مياهها موازياً لمستوى مياه المحيطين ؛ ثم وضع مشروع تقديري بالاكلاف التي بلغت ١١٧٤ ميلونا ؛ ثم اسس لسبس الشركة العالمية للقناة ما بين المحيطين ، التي احاطت الشروع في العمل بمزيد من الدعاوة، على الرغم من انها لم تجمع سوى ٣٠ مليونا ، بدلا من ٤٠٠ ، عن طريق الاكتتاب، واصطدمت بمناخ قاس قتال وبفيضانات النهر المتكررة وانهيارات جانبي الترعة . فانتهى مشروع هذه القناة الى الفشل وانفضّت الشركة في السنة

١٨٨٩ بعد ان لجأت الى الرشوة لحمل البرلمان الفرنسي على منحها قرضاً مقابل اسهم ودون ان تتمكن من حفر قناة ذات سدود . وبعد هذه الفضيحة السياسية والبرلمانية والمالية والمصرفية معاً التي انتهت بالحكم على لسبس وابنه وايفل ، مست الحاجة الى قيام شركة بديلة اخرى . فعرفت اوروبا بذلك فشلا ستستغله اميركا .

سبق لـ « غرانت » ان اعلن بان ما يلزم الولايات المتحدة هو « قناة اميركية بمال اميركي ، في ارض اميركية » . فاستمرت المنافسة مع انكلترا في نيكاراغوا ، وفي السنة ١٩٠٧ ، سوف ينشأ خط حديدي في تهوانتيبيك . اما في الواقع فهي باناما ما يترصده الاتحاد . فقد استفاد من النزاع الجنوبي الافريقي لاتقاء مطالبة بريطانيا ؛ فأعلنت المعاهدة الموقعة لهذا الغرض حياد القناة قبل حفرها ومنحت الملتزم ، في الوقت نفسه ، حق تحصينها واقفالها في حالة الحرب. وبات بمقدوره من ثم ارغام كولومبيا على الاعتراف بدولة باناما التي تخلت عن كل ما يحتاج اليه بنـــاء الترعة وحمايتها . وبينما تولى الزعيم غوتهلز ، الاختصاصي في بنـــاء السدود ، ادارة المشروع الفنية ، قضت الحملة التي تولاها روس على البعوض الذي ينقل الهواء الاصفر والملاريا ؛ ثم زود بالمعدات ٤٥٠٠٠ عامل (من بينهم ٣٠٠٠٠ زنجي) استهوتهم الاجور المرتفعة ، ففتحوا الممر المـائي الذي سيدشن في ١٥ آب من السنة ١٩١٤ . وقد بلغ ما انفقه الاميركيون على هـــذا المشروع ١١١٥ مليونا بعد ان كرس له الفرنسيون ١٢٧٤ مليونا .

كانت باناما فكرة طلع بها القرن التاسع عشر ، وهي ستسهل في القرن العشرين ارتقــاء اميركا بجعلها الباسفيكي والشرق الاقصى اقرب الى نيويورك منهما الى لندن .

الاتصال البعيد

بعد السنة ١٨٥٠ نما نقل البريد نمواً فجائيا . فان معدل الرسائل في المـانيا مثلا كان ١,٥ للشخص الواحد في السنة ١٨٤٠ ، و١٢,١ في السنة ١٨٧١ ، و ٥٨,٦ في السنة ١٩٠٠ . وقـــد بيع في الولايات المتحدة مليون ونصف المليون من الطوابع البريدية في السنة ١٨٥٠ ، و ٣٩٩٨ مليوناً في السنة ١٩٠٠ .

ومما يثبت كذلك توسع الشبكة التلغرافية المعتمدة رمـــوز « مورس » ، التمديدات التي بلغت ١٦٠٠٠٠ كيلومتر من الشريط حتى السنة ١٨٥٨ ، والتي ستبلغ ستة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وقد ارسلت في اوروبا ٩ ملايين برقية في السنة ١٨٥٨ و ٣٣٤ مليوناً في السنة ١٩٠٨ (منها ٧٠ مليوناً الى الولايات المتحدة) . ومنذ السنة ١٨٦٠ اتاح جهاز هوغ الاكتفاء ببثة واحدة للحرف الواحد وطبع الحرف مباشرة ؛ وخطر لـ « هويتستون » ان يطبق على جهاز مورس طريقة احكام جهاز نول « جاكار » بشكل دائرة الساعة ؛ وبفضل « الطريقة الازدواجية » التي انتهت اليها دراسات « ستيرنز » ارسلت في الوقت نفسه برقيتان في اتجاهين معكوسين ؛ ثم وصلت آلة « ماير » الباعثة عدة اجهزة بخط واحد واتاحت طريقة « بودو » الرباعية بث... ٧ كلمة في الساعة

بدلا من ٢٠٠٠ بواسطة جهاز هوغ ، وهو عدد سيرتفع الى ٢٠٠٠٠ بفضل البث على تيارات مختلفة القوة .

استهوى الابراق الدول المفتقرة الى الطرقات والخطوط الحديدية . فان ايقاف الاعمدة الخشبية ومد الخطوط اسهل من توطيد عوارض السكة الحديدية بالقطع الحجرية . ولذلك كان لبلاد ايران في السنة ١٩٠٥ ، ٩٦٠٠ كيلومتر من خطوط التلغراف مقابل ١٣ كيلومتراً من الخطوط الحديدية ، ولبلاد الصين ٣٥٠٠٠ مقابل ٥٥٠٠ .

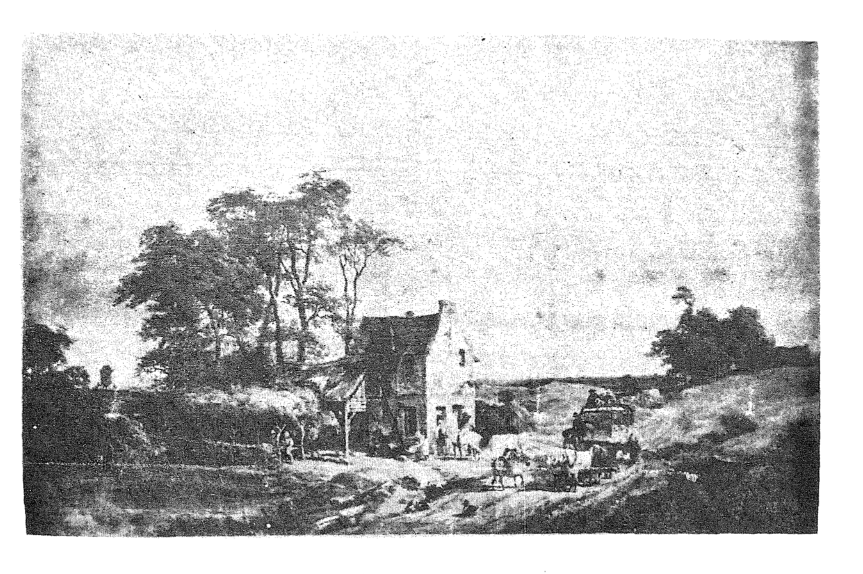
ولم يقف البحر حاجزاً في سبيل الخط التلغرافي. فمنذالسنة ١٨٤٥ ، وبفضل صمغ المطاط، غط الاميركيون حبلا سلكياً تحت نهر الهودسن. ولكن السنة الحاسمة كانت سنة ١٨٥١ . فقد ساعد المهندس كرامبتون مواطنه «جاكوب برايت» على تحقيق الاتصال بين دوفر وكاليه. وفي السنة ١٨٥٣ غط الحبل السلكي تحت قناة الشمال من جهة وتحت بحر الشمال من جهة اخرى. ثم حاول جون «ووكنز برايت» اقامة خط تحت البحر المتوسط ، بين الشاطىء البروفنسي وكورسيكا وسردينيا اولا ، ثم بين هذه الاخيرة والجزائر . واثناء حرب القرم انشىء خط تحت البحر بين فارنا و بالاكلافا .

تكوّن آنذاك مشروع اتصال عبر الاطلسي . فأسس الاميركي « سيروس – وست فيلد » شركة اسندت الى مؤسسة « غلاس واليوت» في لندن صنع حبل سلكي يبلغ ٣٦٥٠ كيلومتراً طولا بغية ربط جون فالنتيا وترينتي – باي على شاطىء الارض الجديدة . الا ان العملية لم تتكلل بالنجاح بعد ثلاث محاولات فاشلة ، الا في ١٢ آب ١٨٥٨. وفي ١٦ منه وجهت الملكة فكتوريا رسالة الى الرئيس بيوكانان : فاستغرق نقل بعض الكلمات ١٧ ساعة و ٤٠ دقيقة، ولم يرد الجواب الا في ١٨ منه . زد على ذلك ان الحبل قد انقطع ، فبردت الهمة فترة من الزمن . ولم يتحقق المشروع اخيراً ، بعد شتى الصعوبات ، الا باستخدام حبل سلكي اعظم متانة يبلغ وزنه ٢٤٠٠٠ طن ، من انتاج معمل هنلي في وولويتش . ثم انشئت شبكة عالمية بلغت ١٢٥٠٠٠ كيلومتر طولا في السنة ١٨٩٠ ، و ٥٠٠٠٠٠ في السنة ١٩١٤ ، تسيطر عليها لندن القادرة وحدها على الاتصال مباشرة بمعظم بلدان الارض (مراكز ٢٢ شركة من اصل ثلاثين تقريبا موجودة في الشارع نفسه). فبدا ما كتبه «ادمون ابو» في السنة ١٨٦٤ دون الواقع الى حد بعيد : « لا يقتضي في ايامنا اكثر من شهر حتى تدور الفكرة دورة كاملة حول الارض » . وحين احتفل بيوبيل « وليم طومسون » (اللورد « كلفن ») في غلاسكو في السنة ١٨٩٦ ، بعث اليه ببرقية عن طريق الارض الجديدة وسان فرنسسكو وواشنطن اجيب عليها خلال سبع دقائق .

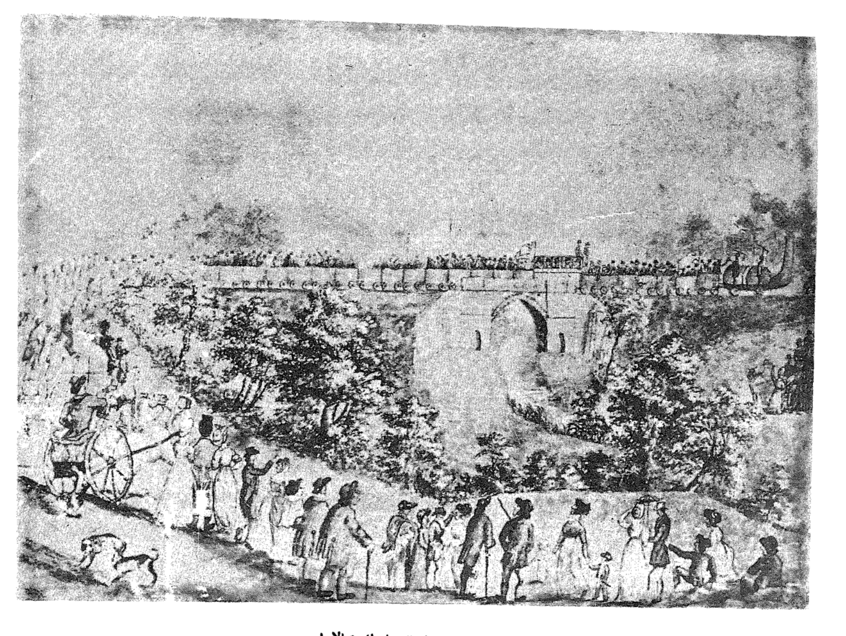
ولكن الكهرباء اثبتت قدرتها على نقل الصوت ، اي الكلمة . فأبصر الهاتف النور ، بعد ابناع طويل الامد ، في السنة ١٨٧٦، بفضل العالمين الاميركيين « اليشع غراي» و«غراهام بل».

فحقق هذا الاخير الاتصال الاول على مسافة ٣ كيلومترات . وكان الاختراع مرتكزاً الى قدرة الكهرباء على ان تنقل الى مسافات بعيدة الارتجاجات التي تسجّل على صفيحة رنانة ويعاد تسجيلها على لوحة اخرى عندما تبلغها الارتجاجات المنقولة. وقد اصبحت الطريقة عملية بفضل الميكروفون الذي ابتكره هوغ وبفضل الملف المغناطيسي الذي ابتكره اديسون والذي يوسع الارتجاجات. فافتتح المكتب الاول في نيوهـافن في السنة ١٨٧٨ والثاني في باريس في السنة ١٨٧٩ . فبلغت الاجهزة ، في السنة ١٩١٠ ، اثني عشر مليوناً في العالم ، منها ثمانية ملايين في اميركا الشمالية ، وثلاثة في اوروبا . وقد اعلن وليم طومسون آنذاك : « عجيبة العجائب » .

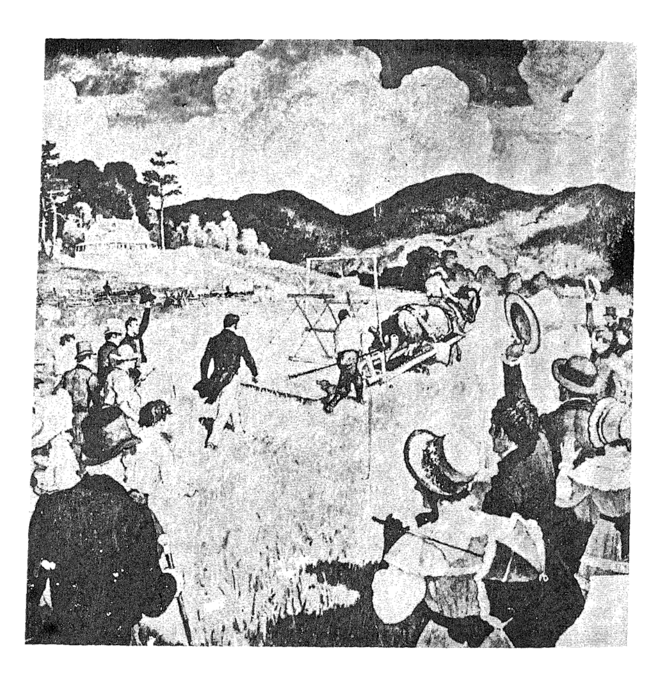
ولم يكن اقل إثارة للعجب الحاكي الذي يسجل الصوت والذي توصل « شارل كرو » الى اكتشاف مبادئه واديسون الى تحقيقه في السنة ١٨٧٨ ، سنة مؤتمر برلين .



١ — عجلة للمسافرين تصل الى المحطة .



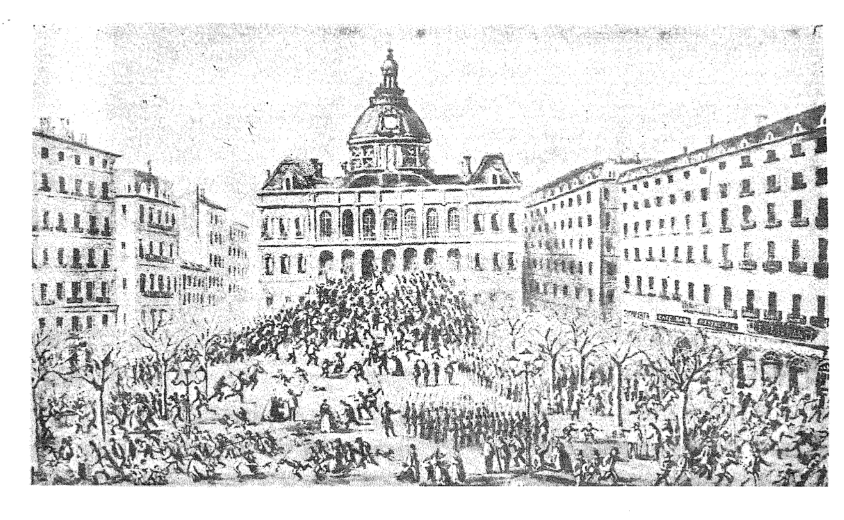
٢ — نقل المسافرين بواسطة البخار للمرة الاولى .



٣ — تجربة الآلة الحاصدة التي اخترعها سيروس هول ماك كورميك (١٨٣١) .



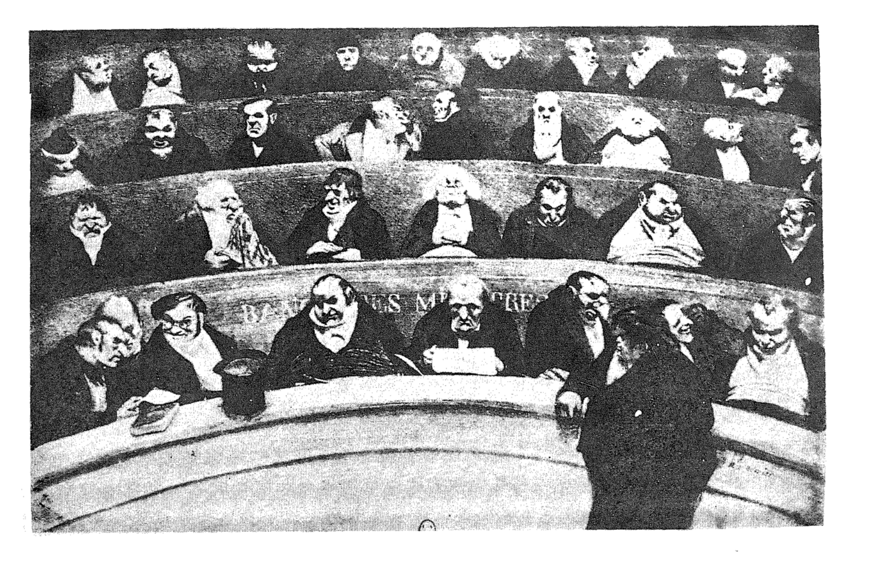
٤ — الحرية ترشد الشعب (٢٨ تموز ١٨٣٠) .



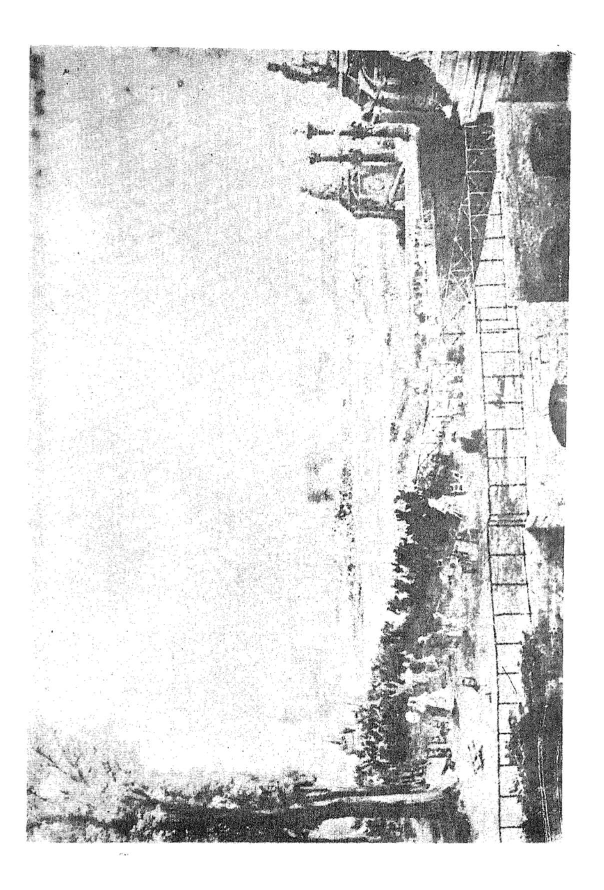
٥ – المجلس الثوري في (سانت اتيان) في السنة ١٨٧١ .

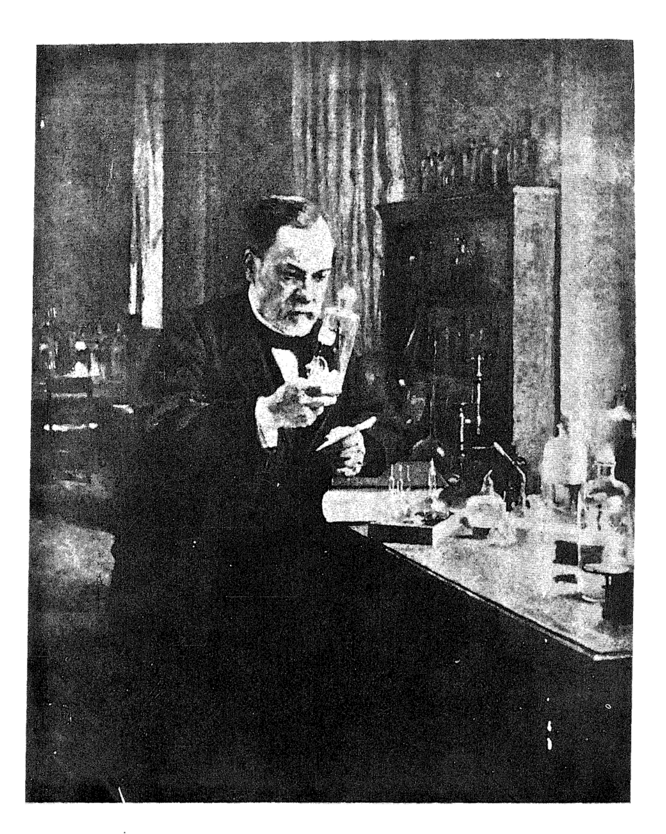


٦ — حرية الصحافة .

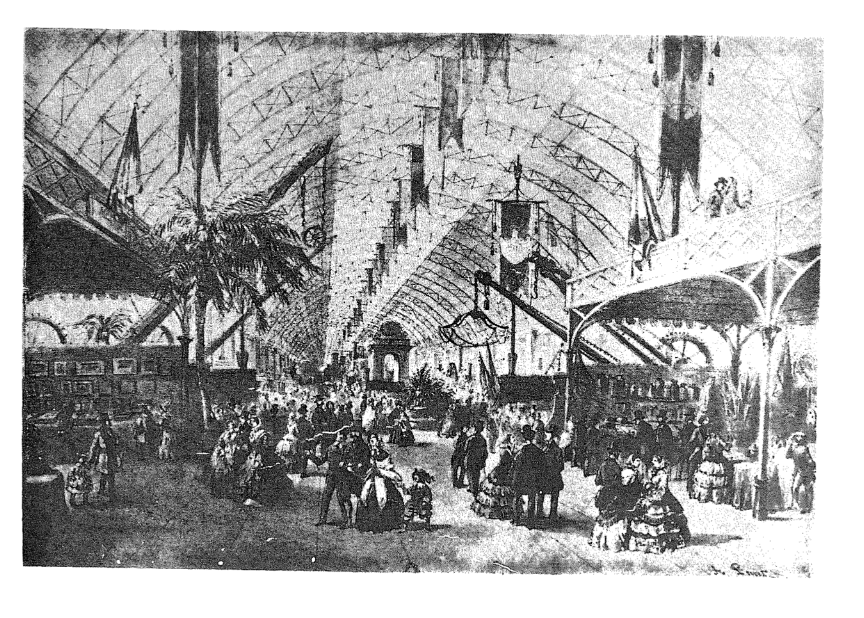


٧ — مقاعد المجلس التشريعي (١٨٣٤) .

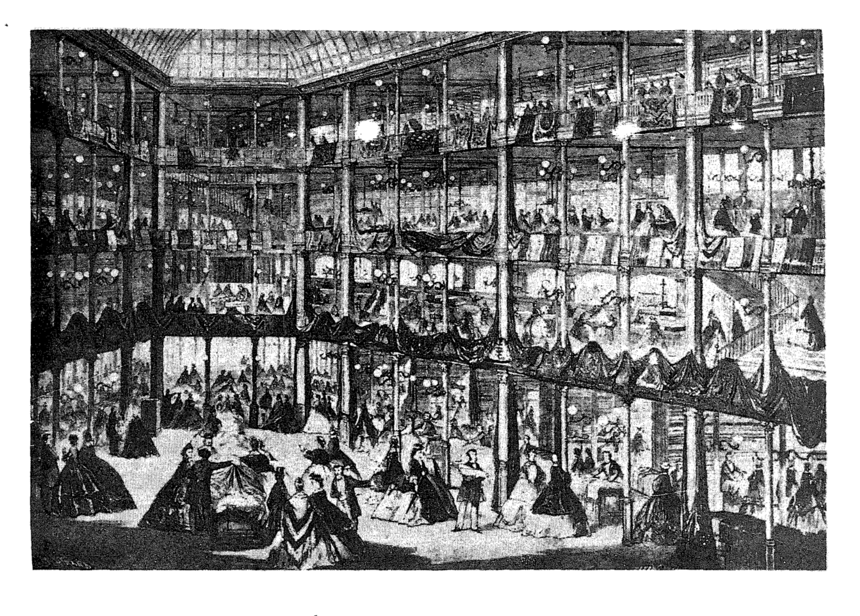




٩ – باستور فى مختبره .



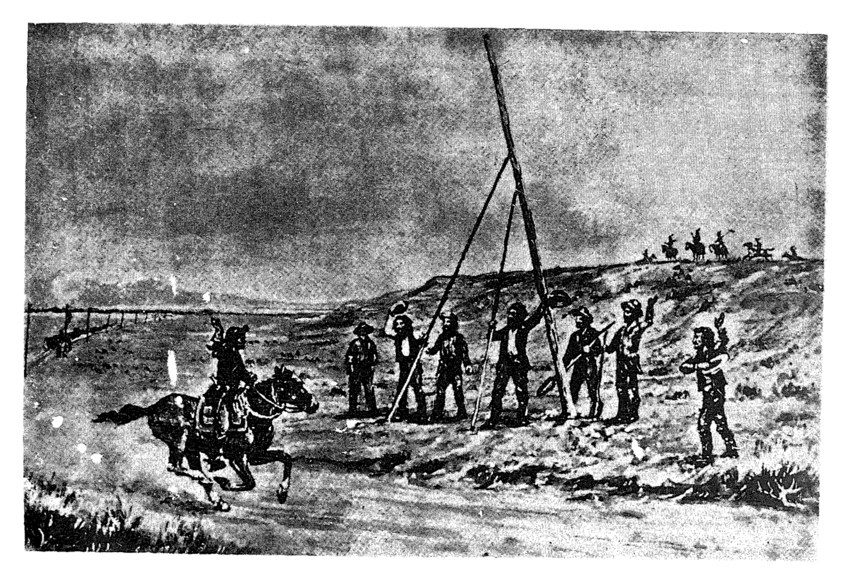
١٠ — معرض باريس العام في السنة ١٨٥٥ — مشهد لرواق الآلات .



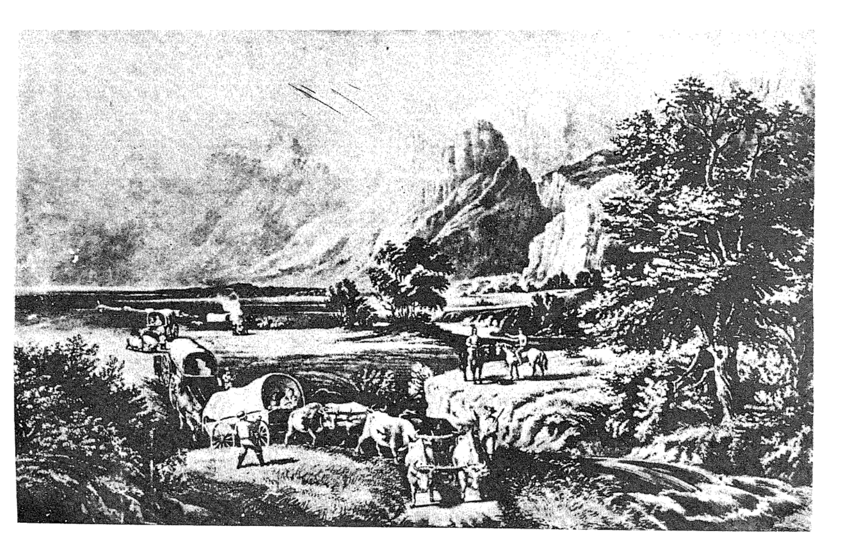
١١ — مخازن (زاوية الشارع) حوالي ١٨٦٠

١٢ — مقطورة الدرجة الثالثة .

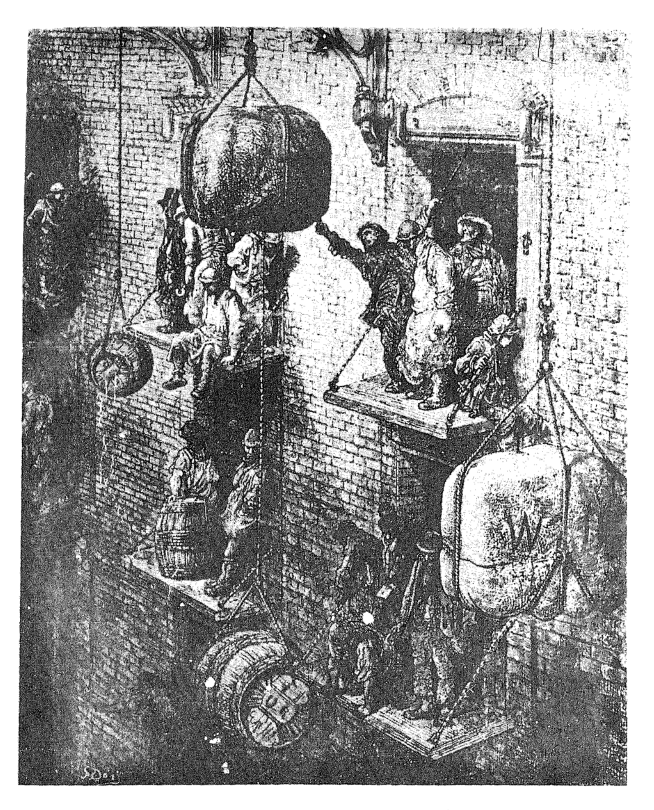
١٣ – تدشين قناة السويس .



١٤ — انجاز اول خط تلغرافي بين الولايات المتحدة وشرقيها في السنه ١٨٦١ ٠



١٥ – طلاب الذهب الاميركيون في طريقهم نحو كاليفورنيا (١٨٤٩) .



١٦ – مؤسسة تجارية في مدينة لندن .

الفصل الثامن

انطلاقة الرأسمالية في الغرب

رسالة الغرب الرأسمالية

«غزت البورجوازية كافة انحاء الكرة الارضية بدافع الحاجة الدائمة الى اسواق جديدة، فكان لزاماً عليها الدخول الى كل مكان، والاقامة في كل مكان، وخلق وسائل اتصال في كل مكان. وباستثمارها السوق العالمية، طبعت البورجوازية الانتاج والاستهلاك في كافة الدول بطابع الوطنية الشائعة. وبفضل سرعة اتقان ادوات الإنتاج ووسائل الاتصال، ادخلت البورجوازية في تيار الحضارة حتى اكثر الامم تخلفاً وهمجية ...» هكذا تكلم «ماركس» و«انجلز» في السنة ١٨٤٨ في «البيان الشامل للحزب الشيوعي». وهذا يعني أن طبقة اجتماعية معينة، هي البورجوازية، «ثمرة النمو الطويل العهد» وعدد من الثورات في طرائق الانتاج والاستهلاك، قد دفعت بأوروبا الى فتح العالم. والمقصود بهذا الفتح فتح تجاري اولاً، وفتح صناعي ثانياً. ولكن ماركس وانجلز يتكلمان عن نمو «البورجوازية أي الرأسمالية». لذلك فان نظاما معيناً، اقتصادياً واجتماعياً معاً، يميز اوروبا ويفسر توسعها قبل ان تشمل في توسعها هذا اميركا الشمالية وبعض انحاء العالم الاخرى وتبعث فيها حركات مماثلة.

وفرة المعادن الثمينة
سيادة الذهب

رأينا ان القرن التاسع عشر هو قرن الفحم الحجري والحديد، ولكنه في الوقت نفسه قرن الذهب والفضة ايضاً. فقد برزت مناطق جديدة غنية بالذهب، هي اعجب ما عرفته البشرية في تاريخها: كاليفورنيا، «مونت – مورغان»، «كلونديك»، «كمبرلي»، «ويتووتر سراند». بيد ان الكثيرين قد خشوا من ان يفقد المعدن الابيض والمعدن الاصفر، اللذان لم يعودا نادري الوجود، صفتهما الذاتية الرئيسية؛ وعلى نقيض ذلك، ابتهج كثيرون غيرهم ممن رأوا الصلة الوثقى بين النشاط الاقتصادي ووفرة المعادن المعروفة بالثمينة. ومهما يكن من الامر، فان الغرب هو الذي استثمر هذه الكنوز لمصلحته، وهي الاراضي الانكلوساكسونية التي ورثت الامتياز الذي كان في فترة من الزمن امتياز الامبراطوريات الايبيرية.

اذا نظرنا الى الذهب وحده ، واعتبرنا ان معدل الانتاج السنوي قبل اكتشاف اميركا هو ١ ، فان هذا المعدل يرتفع الى ٤٥ في اواخر القرن الثامن عشر ، والى ١٠٠٠ في السنة ١٨٦٠ ، والى ٢٨٠٠ في السنة ١٩١٤ . وهذا يعني أن المعدن الاصفر الذي دخل في التداول، في الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ الى السنة ١٨٧٠ ، يوازي ما دخل منه بين السنة ١٥٠٠ والسنة ١٨٥٠ . وازدادت كذلك كمية الفضة ازدياداً عظيماً : فبعد ان تجمع منها ١٤٠ مليون كيلو بين السنة ١٤٩٣ والسنة ١٨٥٠ ، ارتفع وزنها ٢١ مليوناً بين السنة ١٨٥١ والسنة ١٨٧٠ و ٦٧ مليوناً بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٣ .

قبل ان تتخلى المكسيك للولايات المتحدة عن كاليفورنيا بتسعة ايام ،عثر «مارشال »،صانع العربات ، صدفة على بعض قطع المعدن الاصفر في جوار « ساكرامنتو » . فاندفع الناس وراء الذهب اندفاعاً منقطع النظير . وقد جاؤوا من كل مكان : استخدم بعضهم مسالك « لارامي » او مقطورة « سانتا — في »—وكانت المسافة تستغرق خمسة اشهر — وسلك البعض الآخر طريق « باناما او «ماجلان»، فكان سفرهم في البحر مضنياً لا بل مهلكاً احياناً؛ووصل قرابة ٢٠٠٠٠ من آسيا . اما نتيجة هذا التدفق ، الذي ادى الى خلو الحقول والمصانع من اليد العاملة ،فكانت تنشيط بناء وحركة السفن ، واستقرار ٣٠٠٠٠٠ شخص في كاليفورنيا ، واكتشاف الزئبق في «نيو المادان» وإلحاح الحاجة الى تحقيق الاتصال بين الباسيفيكي والاطلسي بواسطة القطار الحديدي.

وكان « الهواء الاصفر » قد انتقل الى اوستراليا ، القارة الخالية من السكان تقريباً ، التي اطلق عليها ، بمعرفة غريزية غريبة ، اسم « الشاطىء الذهبي » في الخرائط البرتغالية القديمة . وخشية من اختلال النظام والانضباط بين المجرمين المبعدين اليها البالغ عددهم ٤٥٠٠٠ حاول حاكم ولاية «وايلز الجديدة» الجنوبية اخفاء سر الاكتشاف الذي توفق اليه احد الرعاة في شهر شباط من السنة ١٨٤٩ ، في مقاطعة باثورست . ولكن سفر المهاجرين المستعمرين قد احدث انقلابا، وقد تعذر من جهة ثانية منع هذا التدفق حين توفق المهاجر هارغريفز العائد من اميركا، الى اكتشاف ذهبة تبلغ قيمتها ٤٠٠٠ جنيه استرليني واثبت تشابه التربة بين منطقة ساكرامنتو ومنطقة ماكاري .ومما شجع البحث عن الذهب ان مستعمرة فكتوريا ، التي تنظمت في السنة ١٨٥١ ، خصصت مكافأة لمن يكتشف ذهباً في اراضيها . وهكذا تم العثور على منجم بالارا وبنديغو الشهير . وقد بلغ من تدفق الحفارين ان عدد سكان فكتوريا قد ارتفع الى اربعة اضعافه خلال اربع سنوات .

اما مجتمع هؤلاء الباحثين عن الذهب فمجتمع غريب . لقد عاشوا في اكواخ خشبية مسقوفة بصفائح حديدية او تحت خيام بسيطة.وقاسوا الامرين من الغبار والاذبة والتهاب الاعين والحمى التيفية . وبرهنوا عن بطولة ، على طريقتهم الخاصة ، وسنوا لانفسهم قانوناً ديموقراطياً مختصراً احترموه احياناً . ولكن حالة الحدة الدائمة التي سيطرت عليهم جعلتهم قادرين على القيام باسوأ اعمال العنف . وقد جرهم تفاوت العدد بين الجنسين الى الفجور ، والدعارة كما ان تجارة

النساء في كاليفورنيا جعلت من الانسان الابيض منافساً رهيباً للرئيس الهندي الذي صعب عليه جمع النساء في حرمه . اضف الى ذلك ان الحفار العامل لحسابه قـــد افسح مكانه شيئاً فشيئاً للعامل المأجور الداخل في خدمة الشركة الرأسمالية التي اعتمدت تقنية اكثر اتقانا .

خلال اربعين سنة سيطرت اميركا الشمالية واوستراليا على سوق المعادن الثمينة. فقد اجريت بين «ارض النار» وآلاسكا اعمال تنقيب منظمة . وجمع الباحثون الذهب الرسوبي من نهر فرازر في كولومبيا البريطانية . واستفادت « ليدفيل » في الكولورادو من بحث واسع مماثل في منحدر « بيكس بيك » : ففي اقل من سنتين خرجت من الارض مدينة مبنية بالقرميد جمعت بـــين ١٥ و ٠٠٠ ٢٠ و ٠٠٠ مغامر ، و خمس كنائس و ٢٠ فندقاً ومسرحين وقرابة مائة قـــاعة للاجتماع والرقص ، يضاف اليها الكثير من الحانات والمقامر ؛ وكان فيهـــا بائعو المشروبات ومديرو المحال المذكورة اسياداً مسيطرين ؛ وصدرت فيها اربع صحف منها اثنتان يوميتان . ولكن الفضة كانت اوفر من الذهب ، ممزوجة بالرصاص والنحاس وحتى بالزئبق ، واعتبرها بعضهم نوعا ثانوياً من المعادن الاخرى التي تعيرها الشركات الصناعية اهتماماً اكبر احياناً. ففي ليدفيل مثلا اهتم الناس على التوالي بالفضة ، والرصاص الممزوج بالفضة ، والزنك ،وهو النحاس ما انقذ « بوت » و « هيلينا » و «اناكوندا» .

تسبب الذهب بعد ذلك في تدفق بشري جديد في اقصى الشمال الاميركي : « كلونديك» و«آلاسكا» . فقد نزل بين ٣٠ و ٠٠٠ ٤٠ باحث في سكاغواي واجتازوا الجبال التي تفصل بين الباسيفيكي وال « يوكون» وانحدروا بواسطة الزوارق او الاطواف على نهر ال « لوَمس » حتى داوسون سيتي : فاغل المنجم ١٠ ملايين دولار في السنة ١٨٩٨ ، وحتى ٢٢ في السنة ١٩٠١ . وفي السنة ١٩٠٠ حدث تدفق جديد باتجاه شبه جزيرة سيوارد قبالة مضيق بيرنغ ؛ ففي «نوم» التي تسيطر عليها ارياح جليدية ، وحيث انشئت على جناح السرعة حانة وبيت دعارة وملهى، عثر في الرمال ،في اشهر معدودة ، على ذهب تبلغ قيمته اكثر من مليون دولار . وفي السنة ١٩٠٩ ،تكلم الناس عن بحيرة «بوركوبين» بعد ان اظهر فيها حريق طارىء شرايين مرو ابيض.

وعلى الرغم من كل هذا ، فان نصف الكرة الارضية الجنوبية كان قد انتزع ، منذ ١٥ سنة تقريباً ، صولجان الذهب من اميركا التي احتفظت بصولجان المعدن الابيض . ففي اوستراليا توالت الاكتشافات : في مونت مورغان من اعمال كوينسلند وفي «بروكن هل » من اعمال وايلز الجديدة. وحدث ان احد المهاجرين،مالك الارض التي سيجمع فيها الاخوة مورغان وولم دارسي ثروة طائلة ، باع الاكر بجنية استرليني دون ان يعلم بما كانت تخبئه ارضه ومات حزناً . ولكن اوستراليا لم تكن اقل ثروة معدنية واجتذاباً للباحثين : فقد اكتشف الذهب في الصحراء على مسافة ٢٠٠ كيلومتر من « برث » ، ثم اكتشفت كنوز « كولغاردي » على مسافة ٣٠٠ كيلو متر من برث ، في منطقة تتميز بمناخ حار جداً ، وهو الجمل ما انقذ المشروع من الخطر بنقله الماء والمؤن والمعدات ، قبل ان تبنى اقنية جر المياه والخطوط الحديدية . فضمن ذلك للاثارة

الاوسترالية المرتبة الاولى في السنة ١٩٠٣ .

بيد ان العالم عاد الى الحديث عن افريقيا : وهو عود طبيعي الى بدء ، اذ ان هـــذه القارة كانت قد اعطت اكبر كميات من المعدن الاصفر . اجل لقد بذلت محاولات فاشلة بغية الوصول الى كنوز السودان الاسطورية انطلاقا من الشاطىء الذهبي وعبر السهول المعشبة . ولكن مـــا ذهب بعقل الناس آنذاك هو هضبة « فلد » الجنوبية . فقد توفق احد الـ « بوير » ، في السنة ١٨٦٣ ، الى اكتشاف الحجارة الكريمة الاولى ، ثم اشهر اكتشاف « نجم الجنوب » حقول الماس حول كمبرلي . وكانت شركة « دي بيرز مينننغ » ، التي تولت الامر ،على علم بان الذهب لم يكن بعيدا . فقد اكتشف في السنة ١٨٧٧ في « غريكوالند » ، ولكن حكومة «بريتوريا» حاولت منع الباحثين من فحص الارض لمعرفة ما يحويه جوفها من المعادن فيمنطقة ويتو وترستراند التي قدر بانها اغنى المناطق ثروة معدنية؛ اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الباحثين ما لبثوا ان واجهوا طبقات صوانية تمتد تحت الاتربة والصخور الرملية . ولذلك مست الحاجة الى استخدام الوسائل الآلية ، ولم يتمكن من الاستمرار في العمل سوى المشاريع الكبرى القوية وحدها . وصادف في السنة ١٨٨٧ ان « ماك ارثور » و « فورست » من غلاسكو توفقا الى فصل الذهب عن كبريتور الحديد بواسطة التحليل بالجرى الكهربائي او بالزنك . فأسست شركة دي بيرز فرعا لها هو شركة « الحقول الذهبية في افريقيا الجنوبية » التي عقدت اتفاقات مع شركة شارترد لصاحبها «سسيل رود» وشركة نوبل ، وقد نص الاتفاق مع هذه الاخيرة على ان تقدم النيتروغليسرين القادر على تفكيك المعدن الخام . وقد تغلبت هـــذه المصالح الكبرى في النهاية على اشمئزاز وكراهية البوير بعد تدخل انكليزي مسلح . وكما ان النترات كان سبباً لحرب الباسفيك ، كذلك لم يكن الذهب غريباً عن حرب الـ « ترنسفال » . وهكذا فقد كان مقدراً لافريقيا الجنوبية ، التي بلغ انتاجها من الذهب الناعم ٢٢ طن في السنة ١٨٩١ ، ان تنتج . ١٨ طنا في السنة ١٩٠٦ و ٢٨٣ في السنة ١٩١٢ ؛ كما كان مقدراً لها ان تتفوق بدورها على اوستراليا والولايات المتحدة .

الخلافات والاتفاقات المالية

ادت وفرة المعادن الثمينة الى وفرة النقد . اضف الى ذلك ان حيازة مخزون معدني هام قد سمحت باصدار كميات اكبر حجما من النقد الورقي . فاعتاد الناس استخدام الورقة النقدية كعملة رائجة .

كان النقد المعدني في نظر الساعين وراء الربح التجاري هو الثروة بعينها ، بينـــما نظر اليه القائلون بمذهب الحرية نظرهم الى وسيلة مقايضة . ولكن سوء الطالع اراد ان لا يكون اداة قياس ثابتة . فهل يتحقق توحيد القواعد النقدية القومية على الاقل يا ترى ؟ لا شك في ان قيام « الاتحاد اللاتيني » في السنة ١٨٦٥ كان سيراً في هذا الاتجاه ؛ الا ان البلدان الانكلوساكسونية لم تقبل بفرنك المائة سنتيم كما لم تقبل من قبل بالنظام المتري .

ولم يكن اختيار العيار النقدي اقل صعوبة . فقد قام نقاش مستمر بين انصار المعدن الواحد

وانصار المعدنين . فقبل السنة ١٨٥٠ ، وبينما لم تعرف آسيا سوى الفضة ، كانت بريطانيا قد اختارت العيار الذهبي ، واختارت اغلبية الدول الاوروبية الاخرى والولايات المتحدة عمليا العيار الذهبي والعيار الفضي معاً . ولما كان تدفق الذهب قد صادف بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٧٠ طلب المزيد من الفضة في الهند والشرق الاقصى ، اهتم المسؤولون بالنتائج التي قد تستتبعها اولوية المعدن الابيض . ولكن هذا الاتجاه قد انقلب شيئاً فشيئاً حين تدنى انتاج الذهب وخطا استخراج الذهب بالمقابلة خطوة كبرى الى الامام . ثم جاء الانحطاط الاقتصادي واعاد رباطة الجأش الى انصار المعدنين الذين ساندهم « بارونات الفضة » في الولايات المتحدة . ولكن لمعان نجم الترانسفال واوستراليا وآلاسكا قد اتاح الفرصة لانصار العيار الذهبي لاعتباره قادراً على الوفاء بالحاجات ، بينما كانت قيمة الفضة آخذة بالتدني .

مهما يكن من الامر ، فان الارتباط المتبادل بين حركات الاسعار وحجم النقد المتداول قد بدا وكأنه تأيد تأيداً واضحاً . وعلى غرار «بودين» و«كانتيون» وكثيرين غيرهما ، فكر علماء الاقتصاد القائلون بمذهب الحرية بان نمو حجم المعادن الثمينة مفيد ، وقد سبق لميشال شفالييه ان حيّا ارتفاع انتاج الذهب معتبراً اياه « حدثاً على جانب كبير من الاهمية للجنس البشري بأجمعه » . وكان ماركس قد عارض وحده تقريباً هذه النظرية الكمية للنقد ، اعتباراً منه ان ارتفاع الاسعار مرده الى الكسب الرأسمالي . فكانت من ثم معركة النقد : مظهر المنافسة ؛ والاتفاقات النقدية : مهادنات مؤقتة او جهود لتقاسم الاخطار والمكاسب على السواء . ولكن بعض الاستقرار قد لوحظ على الرغم من الازمات والثورات .

نمو سوق رؤس الاموال والجهاز المصرفي

كتب «كورسل سنوي» في السنة ١٨٤٨ : « لا يُحصل دائما على الاعتماد بطرق المواصلات ؛ اما بالاعتماد فالحصول على طرق المواصلات امر مضمون » . وفي كتابه «تاريخ المصرف» ، قارن « ماك لود » الاعتماد بفيضان النيل المخصاب . وقد سبق للسانسيمونيين ان اعتبروه علة قيام كل مشروع كبير .

فالمال من ثم ضروري للعمل . ولكن اين يوجد المال ؟ اعتبر التوفير احتياطيا اساسيا . والتوفير توفير اقتصاد لعمري ، وقد تبارى الصحافيون والسياسيون الاحرار في تعظيم هذه الفضيلة . ولكن من المستحسن ان يتخذ هذا التوفير شكلا اشد نشاطاً .

هذا هو منذ الآن مثل التوفير – التأمين . فالتأمين يستجيب لحاجة الامان ، ولكنه خلاق من حيث هو يتصل بالقرض الطويل الاجل . وقد اهتمت الادارة باكراً بفروعه الثلاثة الرئيسية : التأمين البحري ، التأمين ضد الحريق ، التأمين على الحياة . وفي اواخر القرن ، أمنت ٨٥ شركة بـ ٢٢ ملياراً . وقدر بعضهم ، باتخاذ المعدل ١٠٠ في السنة ١٨٥٠ ، ان حجم التجارة العالمية قد بلغ المعدل ٦٥٠ في السنة ١٩٠٠ وحجم المبالغ المؤمنة بلغ المعدل ٢٥٠٤ . وتعددت

اتحادات التأمين الدولية واجرى التأمين على التأمين على نطاق واسع. وربما كان هذا القطاع خير القطاعات لتقدم الراسمالية المـــالية . وكانت معظم الشركات التي تأسست في سويسرا شركات تأمينية . كما كانت الصلة وثيقة بين التأمين والتجارة والملكية العقارية .

بقي المصرف المؤسسة الرئيسية للاعتماد. فقد وفر لاوساط الاعمال مساعدة لا بد منهابشكل حسم. فبينما تأرجح معدل الفائدة تأرجحاً بطيئاً (انخفض شيئاً فشيئاً من ٥ الى ٣ ٪ بين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٩٠٠) ، بقي الحسم خاضعاً لحركات فجائية وغير منتظمة. وقد حـــاولت مصارف الدولة الكبرى ، كمصرف انكلترا ومصرف فرنسا ، تنظيم نسبته . وفقدت السفتجة بعض جدورها بفعل التسهيلات الجديدةفي وسائل المواصلات. الا ان لندن قد احتفظت بمركزها الممتاز ، لا بل حسنته ، في ما يعود للسفاتج في المناطق الخارجية . وانتشر استخدام الشك في العالم الانكلوساكسوني اولا ؛ وقد سهل الى حد بعيد تسديد الحسابات بمجرد معاملات كتابية. وليست اوراق الدفع للخزينة سوى اشكال مختلفة للتسليف القصير الاجل . واذا ما لجأت الحكومات الى القرض ، فانها قد توجهت الى الموفرين توجها مباشرا اكثر منه في السابق؛ولكن ارباح المصارف ما زالت هامة جداً .

هو التسليف الطويل الاجل ما اتاح توظيف رؤوس اموال كبرى في الحقل الصناعي والتجاري. فتوسع فرع الاموال المنقولة من ثم توسعاً عظيماً . وقد نشر «برودون» في السنة ١٨٥٣« كتاب المضارب في المصفق » احتجاجاً على « عصر اتخذ المصفق واعماله لوحة وصايا إلهية » والمصفق فلسفة » والمصفق سياسة » والمصفق علماً اخلاقياً » والمصفق وطناً وكنيسة » . ونمت صحافة مالية ، وقامت الصحف الكبرى بدعاوة فعالة لخدمة اصدار الاوارق المالية . ثم جاء التشريع في حينه يخفف من وطأة تجارة المال . ففي السنة ١٨٥٨ صدر قانون يوسع حريات « الشركات المالية المتحدة » ؛ وفي السنة ١٨٦٣ والسنة ١٨٦٧ ،شجعت الامبراطورية الثانية قيام الشركات المحدودة المسؤولية . واذا لم يصدر سمـــاسرة «لومبارد ستريت » في لندن سوى نشرة يومية واحدة في السنة ١٨٦٠ ، فانهم قد اصدروا ١٦ نشرة يومية حوالي السنة ١٩٠٠ انطوت على ٤٠٠٠ بيان بالاسعار . فتعاظم دور شارع فيفيان في باريس ، و « وول ستريت » في لندن ، و « اورانينبورغرستراس » في برلين . وفي مصفق باريس بلغ مجموع النقد المقايض ٤٨٥٠ مليوناً في السنة ١٨٣٠ ، و ٨٩٨٠ مليوناً في السنة ١٨٥٠ ، و ٢٥٦١٢ مليونـــاً في السنة ١٨٨٩؛ ثم بلغ ٨٧ ملياراً في السنة ١٩٠٠ .

استلزم توزيع الاعتماد اجهزة اكثر عدداً واعظم تخصصاً. ففي اساس النظام احتفظت مصارف الاصدار بمركزها الممتاز ، منظمة نسبة الحسم ، ومزاولة دور تسوية وتعديل (دور المكتب المركزي) ، وموافقة على تسليف السلطات العامة . ولكن مصارف الاعمال المساهمة قـــد تكاثرت ، وجرت في الوقت نفسه عملية توزيع بين المصارف الحديثة منها ، التي اهتمت بشؤون التوفير ، وبين بعض المؤسسات القديمة — المصرف الفرنسي السامي مثلا الذي يعود الى النصف

الاول من القرن – التي تخصصت في رقابة الاعمال الكبرى. ولم يتم هذا التوزيع دون منازعات؛ فالمنازعة بين « بيرير » و « تالابو » في فرنسا واوروبا البرية على امتلاك خطوط المواصلات الكبرى ليست سوى احد هذه الخلافات المعروفة جيداً ؛ وبعد ان تغلبت على مصرف التسليف ، استفادت مجموعة « روتشليد » في السنة ١٨٨٢ من تضعضع الاتحاد العام الذي كان يحاول بدوره منازعته السيطرة. اضف الى ذلك ان مثل هذه التنازعات امر مألوف في الولايات المتحدة. وقد كان لها صداها البعيد في الحياة السياسية . ومهما يكن من امر ، فان العالم المـــالي قد وطـــد مركزه الاجتماعي .

نمو المشاريع الرأسمالية

قال « باستيا » عن المنافسة : « انها اكثر القوانين تقدمية ومساواة وجماعية من بين القونين التي وكلت اليها العناية الالهية تقدم المصائر البشرية » . بفضل هـــذا المنبه ، وفي مناخ الحرية السياسية والقضائية ، ارتفع عدد المؤسسات الصناعية والتجارية ارتفاعاً سريعاً . وهو اتجاه استفاد ، من جهة ثانية ، من توسع عملية التسليف ، وتقسيم العمل ، والنجاحات التقنية ، وحاجات الحضارة الغربية .

وجدت الحرفة الصغرى والحانوت علة وجود جديدة في هذا التخصص . وما زالت المهارة اليدوية ، التي انقذت الكثير من الصناعات التقليدية ، ضرورية جداً في الانتاج الصغير الحجم . وتقدمت بعض فروع الصناعات المنزلية لانها استخدمت صناعيين يدويين ابعدوا عن عملهم او يدا عاملة نسائية : وهذا ما حدث في صناعة الالبسة والخياطة وصناعة الملابس الداخلية. ونمت تجارة التفصيل ، على الرغم من ان المخازن الكبرى قد انتشرت انتشاراً عظيماً ايضاً .

ولكن الحدث الذي لفت الانظار هو التوسع الذي عرفته الشركة المحدودة المسؤولية. فان الاموال الطائلة التي وظفت في المانيا بعد السنة ١٨٧١ قد ادت الى قيام ٧٨٠ شركة خلال سنتين ، وان الشركات الـ ٧٩٣٩ التي احصتها الادارة الاميرية الفرنسية في السنة ١٩٠١ قد ارتفعت رؤوس اموالها الى ٣٦ ملياراً . ولكن مشاريـــع كثيرة لم تعرف سوى وجود سريع الزوال . فكل ارتفاع في الاسعار بعث ازدهاراً جديداً ، وكل ازمة او كل هبوط ادى الى الافلاسات . هذا هو الانتقاء الطبيعي في نظر الاقتصاديين الاحرار : انما الغلبة للاذكياء والاقوياء في النهاية : فـلا يمكن من ثم ان يتوالى تكاثر المشاريـــع الى ما لا نهاية له ، لان ذلك قد يضر بانتاجية الاعمال نفسها .

وينجم عن ذلك ان نظام التنافس يفضي ايضاً الى الحصر الذي يفضي بدوره الى الاحتكار ويميل طبعاً لملاشاة هذا النظام . ولكن التخصص ادى منذ البدء الى هذه النتيجة : ان القطاع المستثمر حديثاً عرضة لان يسيطر عليه عدد صغير جدا من المشاريـــع .

شوهد تأيد هذا الاتجاه الآخر منذ البداية في صناعة الحبال السلكية وصناعة النفط كلما جدت جدة في صناعة المعادن او الكيمياء . وكانت الصناعة المنجمية الالمانية احدث عهداً من الصناعتين البريطانية والفرنسية فتجمعت وانحصرت اكثر منها. فلم يقل عدد الشركات الفحمية

عن ٧٠٠ في الأرخبيل بينما نحن نرى في الرور ان اربع او خمس مؤسسات قد أشرفت على صناعة الفحم منذ السنة ١٨٨٠ . وهو الحصر الافقي ما برز في البداية . ولكن « كيردوف » و « ستنس » ثم « تيسن » ، انطلاقاً من الفحم الحجري ، و « كروب » ، انطلاقاً من صناعة المعادن ، قد اشرفوا منذئذ على اشكال اولية للحصر العمودي بايجادهم اسواقهم الخاصة للبيع ووسائلهم الخاصة للنقل . ومنذ تأسيسها في السنة ١٨٣٧، اتجهت « شركة الجبل القديم » طبعاً الى تنظيم صناعة الزنك تنظيماً يخدم مصلحتها . وبعد معاهدة التجارة المعقودة في السنة ١٨٦٠، جمعت « لجنة المصاهر » العدد الاكبر من ارباب صناعة الفولاذ الفرنسية . وبالاختصار اذا ما كان مناخ البلدان الحديثة المهد في الانتاج الكبير اكثر ملاءمة للحصر ، فان الحصر يبدو تلقائيا وكأنه تدبير دفاعي غريزي لاتقاء الاخطار يُتخذ اثناء الصراع الذي يقوم بين مؤسسات متفاوتة القوى .

تعاظم دور مقرض المال واتسعت في الوقت نفسه المسافة بين المتعهد والمساهم . وربحت الشركة المساهمة على حساب المشروع الفردي او العائلي ، بحيث قامت صلات وثقى بين مؤسسات الفرع الواحد ومؤسسات الفروع المختلفة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان التجمع المصرفي كان شرطاً ونتيجة معاً لادارة رأس المال ؛ وقدولد بدوره التجمع الصناعي والتجاري . ولكن الاتفاقات قد نجمت على الرغم من ذلك من تنسيق جغرافي للنشاطات سهله تقصير المسافات وتوسيع الآفاق . وقد استهدفت بصورة طبيعية تحسين تنظيم العمل بتجمعات جديدة تتيح مطابقة العرض على الطلب مطابقة اكثر دقة . وهذا ما عبرت عنه مفردات خاصة : « موافقة كرام الاخلاق » ، « الشراكات » ، اسواق البيع ، الجمعيات ، النقابات ، الاستثمارات ، التجمع الافقي والتجمع العمودي ، الانصهار ، الضم .

الوجوه الرأسمالية الكبرى

« ان مستقبل فرنسا لا يختلج بعد اليوم في شارع سان — دنيس ، وساحة « غريف » ، الارض الكلاسيكية لاندلاع الثورة ، بل في شارع فيفيان وساحة « فندوم » ، عند « بيرير » وعندكم » . (من رسالة « جول فاليس » الى جول « ميريس » ، ١٨٥٧) .

يتوقف النجاح على الانسان الذي يقود الزورق ، ذلك « الانسان المسكوني » ، الجريء والمتبصر ، القادر على التضحية بصحته وملذاته اليومية ، سعياً منه وراء القوة المادية والمال ، واقتناعاً بأن عليه ان يلعب دوراً مفيداً ، وبأن على المجتمع عدم مطالبته بالعظمة والثروة لانه يعمل للتقدم العام ويوزع المهام ويستطيع ان يظهر بمظهر نصير الانسانية . وقد اعرب له جوريس عن تقديره واحترامه : « ان في الانتاج البورجوازي وقوته وتجدده التقني المستمر ومسؤولياته المتجددة ابدا لدافعاً عظيماً لطاقات العمل عند من يشرفون عليه » .

تعايشت الفئات الرئيسية الثلاث تعايشاً كاملاً : التاجر الذي تقلقه بصورة خاصة حاجات

السوق وامكاناتها (الرأسمالية التجارية) ، والصناعي الذي يستنزف نشاطه في الحقل التقني (الرأسمالية الصناعية) ، والصيرفي الذي يجمع رؤوس الاموال ويستخدمها(الرأسمالية المالية). وربما كان من العبث محاولة تمييز مرحلة اولى قد يمكن ان تكون مرحلة المؤسسين ، التي قــد تليها مرحلة ثانية تعرف بمرحلة المحققين . ولا شك في ان عباقرة الاجيال السابقة غالباً مــا اصبحوا آباء لسلالات كبرى ، ولكن استثمار طريقة او فكرة او موقف قـــد يؤدي في كل آن الى بروز مؤسسين جدد . وغالبا ما انحدر حديثو العهد بالثروة من اصل وضيع : فاذا مــا ذكرت اميركا « روكفلر » و « وفاندربلت » كابني فلاحين ، و « كرنجي » كابن حائك ، وهاريمان كابن راع معوز ، واذا كان « سلفردج » ، مؤسس المخازن الكبرى في شيكاغو ثم في لندن ، قد بدأ حياته خادماً في ميدان السباق ، فان هيربو و شوشار كانا بائعين عاديين قبل ان يؤسسا الـ «لوفر» و «جاندورف» و«تياتس» و «ورتهايم»، مؤسسي المخازن البرلينية الكبرى ، قد كانوا من قبل اصحاب حوانيت صغرى، شانهم في ذلك شان بوسيكو؛ كما ان «باس» ، ملك صناعة الجعة الانكليزية، كان حوذيا ، و«جوسنغ ماسون» الذي اسهمت ريشته المعدنية في اثراء برمنغهام قد كان بياعاً جوالاً في الطرقات والارياف .

بيد ان غيرهم قد تحلى بثقافة تقنية وحتى علمية : بسمر، اميل راتنو ، سيمنس . وقد تردد معظمهم في امرهم قبل ان يهتدوا الى الطريق التي سيجدون فيها الشهرة والثروة . ودان بعضهم بالكثير للحروب والازمات التي اتاحت لهم تحقيق مضاربات جريئة . ولكن لكل الفروع «مغامريها الفاتحين » : فان براسي قد فرض نفسه متعهداً للخطوط الحديدية ، وجوزف طوم في البناء ، وموند في صناعة ملح القلى ، وكوهلمن وبيشيناي في صناعة الكلور ، و ريتز في العمل الفندقي ، وبولنك في المصنوعـــات الصيدلية ، و كروسلي في صناعة طنافس هاليفاكس ، و وورث وغيلدرو و باكين في الخياطة ، و مارينوني في الطباعة وغوردون بنت و ويلميسان و ميلو و جان ديبوي في الصحافة ؛ وما زلنـــا نتذكر كبار بنائي السفن من امثال كونار و اسماي و ويلرايت وبورن و الان و رود ولكن « هبوليت وورمس » هو من زود مرافىء التموين بالفحم الحجري ، وجدد « بوتين » طرائق تجارة الافاويه ، ولكن لويس دريفوس قد نظم تجارة الحبوب . واذا حافظ المصرف – العالي المفاخر بتقاليده على مركزه ، فانه قـــد اضطر لان يفسح مكاناً لـ « بيرير » وهنري جرمان وتشرنوسكي و لازار . وغني عن البيان ان المؤسسات الموطدة الاركان قد حافظت على مستواها او استمرت في سيرها الصاعد احيانا . وما زالت كذلك في سيرها الصاعد اعمال عائلة روتشيلد التي لم تترك فرصة تفوتها دون استثمار اموالها؛واذا ما تقهقر مصرف بارينغ الشهير قديماً فان تقهقره لظاهرة استثنائية. وقد توالت اجيال عدة عند آل شنيدر و وندل و دميدوف وكروب في الصناعة المعدنية الثقيلة وآل بوجو وجابي وكوشلين في الصناعات الآلية ، وآل دولفوس وشلومبرجيه في خيوط الخياطة وآل ميكيليه–نوبلو في الصناعات القطنية المختلفة، وآل سان في صناعة الانسجة الكتانية والحبال،

وآل داربلاي في صناعة الورق ، وآل فيلورين في انتاج الحبوب ، وآل هنسي وكولزنبيه وكوانترو و برنو في صناعة المشروبات . ويلفت الانتباه كذلك ان توظيف الاموال في الاملاك الغير المنقولة ما زال مرغوباً فيه جداً : ففي نيويورك، كدس استور وجيرنت، ثروات طائلة ببيع الاراضي للبناء ، في حال ان ارستوقراطية الاعمال في أوروبا قد ابتاعت القصور واعادت تذهيب اشعرة الشرف القديمة .

تجنيد اليد العاملة المأجورة

ما كان هؤلاء العظماء ليستطيعوا شيئاً الا بتجنيد الجماهير المكرهة على بيع طاقتها العملية . وبفضل هجرة الارياف الواسعة تعبأ جيش المأجورين الذين هاجر بعضهم الى اميركا ودخلوا في خدمة مشاريعها . زد على ذلك ان المرتكز الى الكسب قد أبعد الوسط الزراعي عن الاعمال التي تستهدف مجرد سد الحاجات الاولية ، وان توسع المدن قد اغنى نشاطات موافقة لتوسع الاسواق .

اذا كان نظام الاجور مرتبطاً بالنظام الرأسمالي ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير يعتبر قوة العمل سلعة تخضع لسنّة العرض والطلب . وانما يميل مذهب الحرية الاقتصادية الى تأمين العمل بهذه السنة . لا بل ان ماركس ، الذي عاش الصراع المتكرر ضد النظام التعاوني من جهة ، وضد الرق والفدادية من جهة اخرى ، قد استخلص من ذلك ان استثمار المأجور يفسر الكسب الرأسمالي . وقد استطاع توكفيل ان يكتب ما يلي : « ماذا نفعل حين نمنح الزنوج مؤقتاً من امتلاك الارض ؟ اننا نضعهم في موقف العامل الاوروبي» . اما كورنو فقد شك في ان الغيرة على الاعتناء بخير البشر ستفلح في التوصل الى إلغاء الرق . بيد ان العبودية كانت تبدو منافية للاستثمار الموسع الذي يستجيب لمتطلبات الغرب . والدليل على ذلك ان المطالبة بالغاء الرق لم تجد سنداً اثبت من اوساط الاعمال ؛ فان ستيفنس الصناعي المشهور من بنسيلفانيا ، و « جاي كوك » الصيرفي ومؤسس شركة الباسيفيكي الشمالي هما من ادارا عملية تجديدالبناء . وهذان الرجلان نفساهما هما من استصدرا قانوناً غايته اعمار الغرب بالمستعمرين الاحرار . ولذلك فان الاقتصاد الرأسمالي ، الذي توفرت لديه وسائل الانتاج ، قد استطاع دون غيره تجنيد الفلاح المبعد عن حقله والفدادي السابق والعبد السابق المجردين عن الاراضي .

حرية المقايضات

حدثت في منتصف القرن ثورة تجارية حقيقية . كانت الرأسمالية منطلقة مع نفسها ، فأرادت تحطيم العوائق القائمة في سبيل حركة انتقال البضائع انتقالاً حراً . فحدث تيار قوي يقول بحرية المقايضة في الفترة الممتدة من السنة ١٨٤٠ حتى السنة ١٨٧٠ ، وهي الفترة التي تحقق فيها ارتفاع سريع في حجم المعاملات ، وانتشار التسليف ونمو وسائل المواصلات . وهي بريطانيا العظمى ، المتمتعة بمركز صدارة لا ينازعها اياه منازع في حقول المال والتجارة والتقنية ، التي اعطت المثل بسلوكها هذه الطريق ؛ فمدرستها المنشسترية هي التي قامت بحملة ناشطة من اجل سوق عالمية موحدة ، مستندة في دعاوتها الى

الفوائد التي يجنيها السلم والتقدم – المرتبطان ارتباطاً وثيقاً على كل حال – من تضامن اشد قوة بين الشعوب والافراد على السواء بفضل تقسيم العمل تقسيماً مبنياً على العقل .

أجل كان محتوماً لمثل هذه الحركة أن تصطدم بالروح القومية . ولكن التجارة الحرة ، بشكل معاهدات تجارية تفرض تخفيضاً ملموساً على رسوم الاستيراد والتصدير ، قد وافقت الدول الصغرى – بلجيكا وهولندا – التي تعيش من تجارة مرور البضائع . لا بل ان اسبانيا وروسيا نفسيهما قد تخلتا عن موقفهما المتصلب المعاكس . ولكن فاتحة عهد الاتفاقات الناصة على المقايضة الحرة تعود في الواقع الى الانقلاب الجمركي الذي قام به نابوليون الثالث ضد مجموع ارباب المهن المتمسكين بمذهب حماية الصناعة الوطنية .

ان هذه السياسة التي شجعت المقايضات بين الدول وكانت حافزاً لتجديد التقنيات ، قد كانت في الوقت نفسه بمثابة ناقوس نعي « الحصرية » المزعزعة قبلا . ثم خطت بريطانيا العظمى خطوة اخرى الى الامام ، فألغت الحقوق التفضيلية ؛ ومالت الى منح المستعمرات « الحكم الذاتي » ، فوافقت حيالها على معاملة الباب المفتوح . ثم زالت « الحصرية » الفرنسية بدورها بعد السنة ١٨٤٨ . فزالت شركة الهند الانكليزية من الوجود بعد ثورة الجنود البلديين . وعلى غرار نظام الامتيازات الذي بموجبه منحت الامبراطورية العثمانية « الفرنجة » بعض الحصانات ، فتحت الدول الآسيوية ابوابها تحت ضغط الاوروبيين السلمي او المسلح . وفي الاتجاه نفسه – الميل الى الباب المفتوح – عدلت دولة الكونغو الحرة في السنة ١٨٨٥ عن فرض اي رسم على دخول البضائع الاجنبية . وحتى في السنة ١٩٠٦ سنرى وثيقة « الجزيرة » حول مراكش تستوحي فكرة المقايضة الحرة .

وعن طريق الاتفاقات الدولية سُوّي حبياً عدد معين من المسائل التقنية والاقتصادية التي تهم مجموع الامم . فقد تأسست سبعة أجهزة دولية قبل السنة ١٨٥٧ – بما فيها لجنة الدانوب الاوروبية التي تأسست في معاهدة باريس في السنة ١٨٥٦ ؛ ورأت النور ١٢٨ لجنة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . فنجم عن ذلك قيام اتحادات دولية كان عددها ٧ في السنة ١٨٦٤ ، ثم اصبح ٢٣ في السنة ١٩١٤ . وكانت هذه الاتحادات في البدء اوروبية في الدرجة الاولى ، ثم شملت او استهدفت شمل كافة اقطار العالم . وقد عني معظمها بالمواصلات وانتقال البضائع . أما أول اتفاقية من هذا النوع فهي الاتحاد التلغرافي الذي تأسس في السنة ١٨٦٥ . وفي السنة ١٨٧٤ أبصر النور في برلين الاتحاد البريدي العالمي الذي سيعاد تنظيمه في اتفاقية روما في السنة ١٩٠٦. وفي احد المؤتمرات اختيرت باريس مركزاً لاتحاد من اجل توحيد النظام المتري بين الدول ، وأقر في اتفاق آخر تنظيم الطرق البحرية . وعقدت مؤتمرات اخرى ، من اجل الكونغو في برلين (١٨٨٤ – ٨٥) ، ومن أجل تدويل قناة السويس في القسطنطينية (١٨٨٨) .

الحركة العالمية الدائرية للمقايضات

اذا كانت التجارة بين الدول تقدر بمليارين ونصف المليار حوالي السنة ١٨٠٠ ، فقد ارتفعت الى ٢٧ ملياراً في السنة ١٨٥٠ والى ١٠٠ في السنة ١٩٠٠ . ويقدر الخبراء ان معدل التجارة في بريطانيا العظمى قد ارتفع خلال قرن من ١ الى ١٤ ، وفي فرنسا الى ١٥ ، وفي ألمانيا الى ٣٤ ، وفي الولايات المتحدة الى ١٤٩ . الا أن بريطانيا العظمى قد احتفظت بالمركز الاول باحتكارها سدس مجموع المعاملات التجارية العالمية .

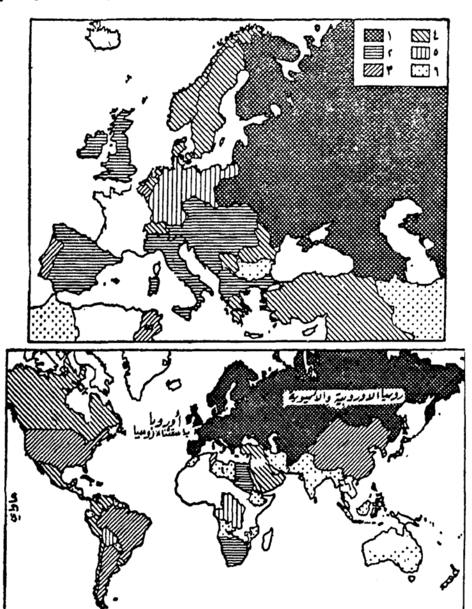
واشتدت المنافسة وتقسيم العمل اتجاهين أساسيين . فكان هناك أولاً نوع من التوزيع الافقي للنشاط بين الدول المتطورة صناعياً ؛ وكان ذلك نتيجة عجز كل منها عن أن تكفي نفسها بنفسها : فان فرنسا وبريطانيا العظمى مثلا قد تبادلتا شراء الكثير من المصنوعات الرائجة. ثم حدث تقسيم عمودي للعمل : فمن جهة طلبت اوروبا من القارات الاخرى الخامات الزراعية والصناعية ، بغية تحويلها بنفسها ؛ ومن جهة ثانية زودت الدول الجديدة النامية بالمصنوعات . وقد سهل توظيف رؤوس الاموال هذه الحركة الدائرية ، لأن رؤوس الاموال تنشط استثمار المناطق المتخلفة وتزيد من قدرة سكانها على الشراء . وجملة القول ان العالم كان سائراً في طريق التحول الى مجموعة اقتصادية وحيدة عظيمة مرتبطة بالرأسمالية الاوروبية ، وانه جاز للبريطانيين الاعتقاد بأن موقفهم خير موقف لجني خير الثمار من مثل هذا النظام .

إعلام واسع وإعلان ناشط

ارتكز حسن سير التجارة العظمى الى معرفة السلع التجارية والحاجات. ولكن الجهاز القادر على تجميع كافة المعطيات لم يكن متوفراً . فقد انشئت دوائر استعلامات في لندن أولا ، ثم في نيويورك وباريس ؛ وتوفر لبرلين ٧٥٠ ٠٠٠ جذاذة في السنة ١٨٩٠ . وعقدت مؤتمرات الاحصاء الاولى وتناولت موضوع المعارض عندما سنحت الظروف . وابرزت صحف عديدة كالـ « اقتصادي » (ايكونومست) و « صحيفة الاقتصاديين » ، و « الاقتصادي الفرنسي » معلومات ومستندات وفيرة. وفي السنة ١٨٧٩ عقد في بروكسل مؤتمر للجغرافية التجارية .

كانت السوق الدورية ، من قبل ، ملتقى الشارين والباعة . ثم تلاشت اهميتها ولم يبق منها حوالى السنة ١٩٠٠ سوى سوق النماذج وسوق العرض . ومرد ذلك الى ان التفاوض في المعاملات التجارية اصبح يجري في المصافق أي في اجهزة دائمة تقرر فيها الصفقات نقداً ولآجال معينة في الدرجة الاولى . فمعقد البيع المؤجل قد نظم المعاملات التجارية التي تتناول كميات كبرى من السلع بين اطراف تفصل بينهم مسافات كبرى . ولكن المضاربة قامت الى جانب وظيفة المصفق الطبيعية ، من حيث أن البائع يرجح تدني الاسعار لأنه يكسب عند التسليم، بينما يحسب الشاري حساب مكاسب الارتفاع ؛ ومما يؤيد ذلك ان التفاوض غالباً ما تناول سلفاً وهمية وكان أشبه ما يكون بالمراهنة . فقد تناول التفاوض حصيد قمح او قطن مقبلا ومنسوجات او مصنوعات معدنية لم تخرج بعد من المصانع . ومنذ السنة ١٨٤٤ ، مست الحاجة في لندن الى

تشييد بناء لـ « لمقايضة الملكية » بغية التخلي عن البناء القديم لـ « مقايضة المخزونات» ثم تأبـــند التخصص شيئاً فشيئاً ! فتقرر مصير القطن في ليفربول والهافر وبريمن ونيويورك، ومصير الحرير



شكل رقم ١٠ ـ الثروة الفرنسية في الخارج

١ ، توظيف اكثر من خمس مليارات ؛ ٢ ، بين مليار وخمسة مليارات ؛ ٣ ، بين ٥٠٠ مليون ومليـــار ؛ ٤ ، بين ١٠٠ مليون و ٥٠٠ مليون ؛ ٥ ، بين ٥٠ مليونا و ١٠٠ مليون ؛ ٦ ، اقل من ٥٠ مليونا .

« نقلا عن التحقيق الذي اجري في السنة ١٩٠٢ »

في ليون وميلانو ، ومصير الحبوب في انفرس ومرسيليا وشيكاغو . وكان من عدد العمليات في لندن ان مراكز الاجتماع قد تكاثرت : فقصر الهم في « مـــارك لاين » على الحبوب ، وفي

« منسغ لاين » على الشاي » الخ . وفي ما مضى، اختلف سعر الحبوب بين منطقة انتاج واخرى:
ولكن التجارة الكبرى توصلت شيئاً فشيئاً الى فرض الاسعار وفاقاً للحصيد والطلب العالميين .
ومن ضفاف الـ « ميشيغن » الى ضفاف الـ « مرسي » ، ومن مونتريال وسيدني وبوينوس ايرس الى
لندن اعطيت المعلومات يومياً ، بواسطة التلغراف ، حول اهمية المخزونات والحاصيل المرتقبة
وطلبات البضائع والاسعار المتداولة . وركزت مؤسسات الحرير اهتمامها على ظروف الصناعة ،
التي غدت بمثابة تحكيم تقني حقيقي في موضوع النوعية .

وتعاظم دور الوكالات . فسارت « هافاس » قدماً في طريقها الصاعدة: وقد توصلت شبكة
فروعها ، التي كانت على اتصال تلغرافي يومي بالوكالة الام، الى ضم الصحافة الفرنسية في الولايات.
وغدت « رويتر » في لندن اكبر جهاز اخباري في العالم : فان الابن الثالث للحاخام «اسرائيل
بير » قد امن الخدمة بين العاصمة الانكليزية والبر الاوروبي منذ السنة ١٨٥١ ؛ وفي السنة ١٨٥٩
فاز بموافقة صحيفة الـ « تايمس» على نشر البرقيات حول الحرب الايطالية؛ وخلال حرب الانفصال
اعطى الاخبار بواسطة مركب بخاري يلاقي السفن الآتية من اميركا في عرض البحر ؛ وفي
السنة ١٨٦٦ استحصل على امتياز حبل سلكي يصل لندن بالهند مباشرة.

كان « بارنوم » مثال المخترق العصري ، وربما عاد اليه فضل ترويج اللون الاعلاني :فبعد ان
عرف « طوم بوس » الشهرة بواسطة الدعاوة ، دون آراءه حول من جمع الثروة باستغلال فضول
البشر وسرعة تصديقهم المفرطة (« خدائع العالم » ، ١٨٦٥). فلجأ الثلاثي « موريسوف » —
« بار » — « هولواي » آنذاك الى الاعلان لتمجيد الاقراص الدوائية، وزاد « غوردن بنيت » من
نسخ صحيفته « نيويورك هارولد » بفضل ادراجات يشتبه في مغزاها الاخلاقي . ودان اميركي
آخر هو « سلفردج » للاعلان الصاخب بنجاح مخزنه في ساحة لندن . وقابل الدعاوة لصابون
« بير » الدعاوة لصابون « سن لايت » ، واستخدم ليبتون طرائق جديدة بـ « بارنوم » لتصريف
شايه في الاسواق الانكليزية . وقد اشمأز كثيرون من المصباح السحري الذي عكس على عمود
نلسون دعاوات للساعات او المواد الصيدلية . فدخل الاعلان نهائياً في الاعراف الصحفية التي
اسهم في افسادها اسهاماً كبيراً، ولكنه لم يسد مسد المقال المدفوع الذي كان يخدم ، بحجة
الاعلام ، هذه الصفقة التجارية او تلك . فاستمر الاستيلاء على الرأي العام بواسطة المال .

وقد جندت الرغبة في هذا الاستيلاء كذلك البيانات والجداول الاعلانية التي وزعت في
الطرق العامة او ارسلت الى المنازل . فلا عجب من ثم اذا ما علمنا بأن طوماس هولواي كرس
نصف مليون دولار لتعريف الاميركيين بأقراصه الدوائية في السنة ١٨٥٠ . فهل يجب ان
نرفض شهادة الراعي الالماني الذي ذكر انه استلم ١٣٥٥٧ صفحة من المنشورات التجارية في
السنة ١٨٩٩ ؟ ان من المسلم به ان الدعاوة في فرنسا حوالي السنة ١٩٠٠ قد كلفت زهاء ١٠٠
مليون خصص اربعون مليوناً منها للاعلانات في الصحف . ولكن الاعلان قد غزا المناظر
الطبيعية . فبواسطة الاعلانات المعلقة على الجدران فرض الاعلان فرضاً على البصر في شوارع

المدن والطرقات وقاعات الاجتماع والمسارح . فقد اعتبر الاعلان الملق اداة نظرية للدعاوة وقد ولد بولادة الطبع على الحجر ومكابس الطباعة الكبرى ، وبدافع الرغبة في مقابلة الانتاج الكبير بتوزيع كبير على مستواه . فكان الاعلان مزعجاً بملازمته للرائين ولكن أثره الجماعي كان عظيماً جداً .

دين اوروبا على العالم

كانت الرأسمالية الاوروبية في موقف المسلف الجليل الفائدة . اجل ان هذا الموقف كان منطوياً على اخطار كثيرة ؛ ولكنه قد وفر لهـــا دخولات كبرى وسمح لها في الوقت نفسه بتنشيط الحركة التجارية الدائرية . فكان من ثم عدد صغير جداً من البلدان بمثابة صيارفة للدول الاخرى لقاء دخل تقتطعه منها . وباستطاعتنا تقدير هذا الدين بـ ١٥٠ ملياراً حوالي السنة ١٩٠٠ يعود اكثر من نصفها الى بريطانيا العظمى . وقــد توزع قرابة ثلث الاوراق التجارية الفرنسية في الخارج . ويجدر لفت النظر هنا الى ان توظيف الاموال في المستعمرات لا يمثل سوى نسبة مئوية ضئيلة جداً .

كان التعويض الفرنسي لألمانيا مفيداً لمشاريع الحكومة الالمانية في الدرجة الاولى ؛ ولكن حصيلة التوفير الجرماني ، بعد أزمة السنة ١٨٧٣ ، ولا سيا بعد السنة ١٨٨٠ ، قــد سلكت بالتفضيل طريق الخارج (وقد تشكى بسمارك نفسه من ذلك لدى مصرف « بلايخرودر ») : فقد اتجهت اما بشطر الولايات المتحدة او اميركا اللاتينية ، واما شطر اوروبا الوسطى المجاورة . واذا بدأت الولايات المتحدة تصدر الرساميل الى اميركا اللاتينية ، فان المال الاوروبي ما زال يستثمر فيها. ولما كان المكتتب البريطاني منتسباً على العموم الى الطبقات الاجتماعية الميسورة ، وواقفاً على وضع السوق التجارية ، فقد ساند ، في اوروبا وسواها ، معظم المشاريع التي تتطلب مصنوعات بريطانية . فهو قد فكر ، قبل السنة ١٨٥٠ ، بالبر الاوروبي القريب خصوصاً ، مــع اهتمامه منذ ذلك الحين بأميركا . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، توسع افقه واهتم اكثر فأكثر بالبــلدان النامية وبمستعمراته .

ما زالت بعض رؤوس الاموال المتوفرة توظف في انحاء اوروبا . وقد سارت في اتجاهــين منفصلين هما الشرق والجنوب اللذان كانا اعجز من ان يجهزا بالادوات بوسائلها الخــاصة . ففي الشرق اصبحت الامبراطورية الروسية ، منذ السنــة ١٨٨٠ ، المستعمرة الاوروبية الرئيسية للرأسماليين الفرنسيين .

ان الشرق لميدان عمل واسع : مشاريع خطوط حديدية ومرافىء ومناجــم ، وقروض للحكومات الفقيرة ، وعمليات اخرى كثيرة ، مغرية ومحفوفة بالاخطار معاً ، قد تنجم عنها ملابسات سياسية شتى . وكان هنالك ميدان مفضل آخر للمسلفين : امــيركا اللاتينية حيث احرزت سوق لندن تقدماً ما زالت تحافظ عليه . اما الشرق الاقصى فقد كان له سحره القوي على الرغم من بروزه متأخراً ؛ وهنا ايضاً كانت السيطرة للندن .

وحبذا لو نستطيع تقدير النفوذ الذي توصلت اليه المؤسسات التجارية الكبرى في البلدان التي عملت فيها : فانها كانت دولا حقيقية داخل بعض الدول .

ازمات الرأسمالية

لم يكن ارتقاء الراسمالية منتظماً . وقد سبق لـ « سيسموندي » ان تنبأ بحتمية الازمات الدورية التي تلازم نظاماً يحكم على نفسه بالاكثار من الانتاج احياناً بفعل اقتطاعه الارباح من اجور اليد العاملة . لا بل برهن ماركس وانجلز ان الراسمالية منتهية حتماً الى الاضمحلال بفعل متناقضاتها . وقد مثل «جوغلار» الازمات بمراحل الانتقال من عهود الازدهار الى عهود التقهقر التي شبهها « باريتو » و « والراس » تلميذ « كورنو » بالحركات التذبذبية . وقد عزاها « جيفونس » انذاك لاسباب كونية .

بدت الظاهرة وكانها حركة دورية ، يتألف الدور فيها من مرحلة مؤاتية ومرحلة غير مؤاتية ويستغرق عشر سنوات تقريباً . وهذا ما حدث منذ السنة ١٨١٥ ؛ وهذا ما سيحدث بعد السنة ١٨٥٠ ، اذ تعاقبت الازمات الهامة في السنوات ١٨٥٧، و١٨٦٦، و١٨٧٣ ، و ١٨٨٢ — ٨٤ ، و ١٨٩٠ ، و ١٩٠٠ — ٠١ ، و ١٩٠٧ . ولكن بينما كانت الازمة ، في السنة ١٨٤٧ ، ازمة نظام قديمة او ازمة من الطراز السابق للرأسمالية، التي تبرز في القطاع الزراعي اولا والتي يكون عاملها الرئيسي افتقاراً الى المواد الغذائية ، نرى على نقيض ذلك ، في السنة ١٨٥٧ ، ان الجهاز الرأسمالي نفسه هو ما تحل به الازمة قبل غيره ، في اهم مركز من مراكزه ، اي في لندن . وكان سير الازمة منذئذ وفاقاً للترتيب التالي : المؤسسات المالية اولا ، ثم الصناعة والتجارة ، واخيرا الارياف . وقد بدا ان الازمة تنشأ ابدا من افراط في المضاربة يتسبب في انهيار مصرفي جزئي .

فهل كانت الازمات ازمات نمو ، مفيدة بعض الشيء ، وعاجزة على كل حال عن ايقاف النظام الرأسمالي في سيره ؟ ام ازمات مشؤومة وسيئة العاقبة لا تترك طبيعتها المزمنة اي شك حول نهاية الرأسمالية ، باعتبار ان فترات الانطلاقة ليست سوى هنيهات سريعة الزوال ؟ ومهما يكن من الامر فقد اتفق الاحرار والاشتركيون على ملاحظة انخفاض معدل الفائدة وحاجة السوق الملحة الدائمة الى التوسع : وهو تطور يرافق التقدم الاقتصادي في نظر الاولين ، ويؤدي الى اشد التسلطات خطراً على مستقبل البشرية في نظر الآخرين .

التقلبات الطويلة الامد
السنوات الجيدة ١٨٥٠ - ١٨٧٣

بعد هزات السنة ١٨٥٧ والسنة ١٨٦٦ ، استؤنف العمل استئنافاً بيناً؛ ولكن الاسعار تدنت تدنياً حقيقياً بعيد ازمة السنة ١٨٧٣، ولم ترتفع نسبة الفائدة بعد انخفاضها ، واستمر الهبوط في الاوراق النقدية والهبوط في الارباح بصورة عامة . فقارن المعاصرون عصرهم بالعصر الذي سبقه وتساءلوا عن معنى انقلاب على مثل هذا الوضوح والتمادي في الاتجاه . فعاودت سكان الارياف ، الذين عانوا من هذا الهبوط اكثر من غيرهم ، ذكرى « السنوات الجيدة » : التي

سبقت الحرب الاهلية بالنسبة للمزارعين وأصحاب المزارع في اميركا . وعلى الرغم من استقرار السلم في اوروبا ، فقد بدا لعالم الاعمال ان الاعمال كانت اكثر سهولة قبـــل السنة ١٨٧٠ ؛ ولم يكن القلق الذي أثاره السباق الى التسلح ليفسر الجمود السائد .

فاذا ما درسنا الاسعار ، استطعنا الخلوص الى وجود مرحلة استئناف عمـل تعقب مرحـلة الهبوط التي عرفها الربع الاول من القرن ، وتبتدىء بعد ازمة السنة ١٨٤٧ – ١٨٤٨ ، لا بل قبل ذلك في انكلترا . ويظهر الخط البياني المنحني انخفاضاً يكاد يكون مستمراً ، ثم ارتفاعاً قوياً بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٥٦ يليه تقلبات بقيت اسعار البضائع معها اعلى منها في المرحلة السابقة[1]. واذا اتخذنا المعدل ١٠٠ اساساً للسنة ١٨٥٠ في فرنسا ، كان معدل مجموع الارباح ٣٥٨ ، ومعدل الارباح الصناعية ٣٥٦ ، ومعدل الاجور ١٧٥ ، وكلفة المعيشة ١٢٣ ، في السنة ١٨٧٠ . ولكن الحركة كانت مماثلة في كافة البلدان الغربية .

لوحظت آنذاك حركة تجارية ناشطة ؛ فسالت مياه نهر الحرية الاقتصادية غزيرة ؛ وبدا نمو الاسواق السلمي امراً ممكناً بسبب توفر وسائل الاثراء دون اثارة الاطماع . وانطوت الاساليب الاستعمارية نفسها على مزيد من الرفق والتلطف . فعرف هـــذا العهد بالعهد المنشستري . وعلى الرغم من الازمات العابرة والحروب ، التي ربما اسهمت في نمو الانتاج والاستهلاك على كل حال ، فان المناخ العام ، الذي كان مشجعاً ، قد حمل على التفاؤل .

هبوط السنوات ١٨٧٣ - ١٨٩٠
ونهاية الموجة ١٨١٥ - ١٨٩٠

انحنى الرسم البياني للاسعار مرة اخرى بعد السنة ١٨٧٣ . فتكاثرت الدلائل المكدّرة : مزيد من المنافسة حول سوق يبدو نشاطها مصاباً بالضعف والارتخاء؛ تدن جلي في الطلب بالنسبة للعرض ؛ هبوط نسبة المكاسب ؛ وجدير بالانتباه ان هذه الوقائع الثلاثة ترتبط ارتباطاً وثيقاً . وأبطأت في الوقت نفسه حركة الدخل الحقيقي للشخص الواحد التي لوحظت منذ السنة ١٨٥٠ . ولكن سلماً دائمـا ، وان مسلحاً ، قد عقب الحروب القومية الاوروبية . فبدا العرض متفوقاً على الطلب بفضل النجاحات التقنية ؛ لا سيما وأن القيمة الشرائية لم ترتفع ارتفاعاً كافياً بسبب استثمار اليد العاملة استثماراً مفرطاً . وأدى بروز البلدان الحديثـة الى اشتداد المنافسة ، فتضرر منتج الارياف بصورة خاصة بسبب افتقاره الى الادوات المتقنة : فأدى انخفاض المحاصيل الريفية الى انخفاض شامل سريع الخطى . وصمدت الاجور في البدء صموداً دونه صمودها خلال الفترة المقابلة التي دامت من السنة ١٨١٥ حتى السنة ١٨٤٨ : ولم ترتفع الاجور الاسمية ارتفاعاً مطرداً فحسب ، بل لوحظ ارتفاع الاجور الحقيقية ايضـــاً . الا ان الازمات الدورية كانت ثقيلة على العامل ورب العمل على السواء . فكان على المشروع ان يبذل جهداً توفيقياً كبيراً ،

---

(١) راجع الرسوم البيانية في الصفحات ٨٨ - ٨٩ - ٩٠ .

بالسعي وراء انتاجية متزايدة ، واعادة التنظيم لجهة التجميع ، وتوسيع العمل. واشتدت حدة الصراع من اجل التصريف في الوقت نفسه الذي اشتدت فيه حدة المعركة الاجتماعية . ولكن التغييرات المدخلة على الادوات ووسائل العمل انقذت مؤسسات كثيرة : فان معمل « هولنز » للغزل ، في احدى ضواحي « نوتنغهام » ، الذي هبطت ربائحه من ٢٦ الى ٩٪ ، قد تحول الى نسج صنف اسكتلندي جديد واستغنى عن الوسطاء بتعامله مباشرة مع الباعة بالتفصيل ؛كما ان معمل « فورتمن » للغزل في « غنت » قد جُهّز بأنوال جديدة واستبدل آلات التحضير بحلالات آلية .

يتضح من ثم ان الهبوط الكبير قد استعجل التقدم التقني ودفع بالرأسمالية الغربية الى الضغط بمزيد من القوة على مناطق العالم الاخرى .

يجب لفت الانتباه ، بالاضافة الى ذلك ، الى ان ارتفاع الاسعار ونسبة الفائدة في السنوات ١٨٥٠ - ٧٣ كان سريع الزوال . اوليس الانخفاض الذي ابتدأ منذ السنة ١٨١٧ هو ما استعاد حقوقه بعد السنة ١٨٧٣ ؟ لذلك فان الواجب يقضي بادخال مفهوم موجات تكاد تتجدد قرناً بعد قرن ، هي اعظم تمادياً من التقلبات الطويلة الامد . فيكون امامنا موجة جديدة تمتد من السنة ١٨١٧ حتى السنة ١٨٩٥ وتشمل ٨٤ سنة تقريبا ، وتذكرنا بالموجة التي امتدت من السنة ١٧٣٣ حتى السنة ١٨١٧ ، وتميزت بارتفاع تطاول عهده جداً ، وبموجة اخرى ابعد عهداً امتدت من السنة ١٦٤٠ حتى السنة ١٧٣٢ وتميزت بالانخفاض عموما . وربما بلغت الرأسمالية الحرةذروتها اثناء هذه الموجة تقريبا، مستفيدة من النجاحات التقنية وتوسع الاسواق التجارية . وجملة القول ان كل ما حدث قد حدث وكأن النظام الاقتصادي ، بعد ان استفاد من تدني الاجور اولا ، ثم من تبدل الاجور بالنسبة للاسعار والمكسب خلال الارتفاع العابر ، قد وجد نفسه في موقف دقيق حين تدنت الاسعار والمكاسب مرة اخرى وصمدت الاجور في وجه الاتجاه نفسه .وفي سبيل التغلب على المحنة ،ربما رضي بتغييرات تتناول منه التركيب، واستنجد بالعبقرية الصناعية ، وسلك طريق التسلطية متحمسا ، ولجأ عند الحاجة الى الطرائق التي قد توحي بها اليه القومية .

القومية الاقتصادية تستعيد مكاسبها : العودة الى مبدأ الحماية

ان الهبوط الذي طال عهده من السنة ١٨٧٣ حتى السنة ١٨٩٥ قد كال الضربات القاسية للمقايضة الحرة . وعبثا حاول القائلون بهذه السياسة تقديم الادلة على ان الانانيات القومية مسؤولة عن القلق السائد ، لأن توزيع العمل بين الدول ما زال ناقصا . اما الخصوم فقد نسبوا لها هبوط الاسعار والمكاسب . وكان الحدث الهام في هذا المجال تحول العناصر الزراعية الى مبدأ حماية الانتاج الوطني ؛ فجاءت آفة الكرم نفسها ، التي قضت على آمال الكرامين في فرنسا تدعم هذا المبدأ مثلا . فتحول كافة المستائين بأنظارهم نحو الدولة وطالبوا بمساعدة

موظفي جماركها . اما الحكام فقد استجابوا لنداءات هؤلاء المنتخبين دون صعوبة لأن الرسوم ستساعدهم على دفع نفقات الخدمات العامة والتسلح . يضاف الى ذلك ان الاوروبيين استطاعوا بذلك اتهام الولايات المتحدة التي استفادت من الرسوم الضئيلة لتصدير محاصيلها ومصنوعاتها ورفضت تسهيل بيع سلع العالم القديم . ولكن العصيان قام في وجه بلاد المدرسة المنشسترية : فمشت المانيا البسماركية على رأس المتمردين ، وانتصر مبدأ الحماية بسرعة نسبية حتى في بلجيكا ، ولم ترفضه سوى هولندا وبريطانيا العظمى . وبينما كانت الحروب الجمركية قائمة بين فرنسا وايطاليا ، وبين المانيا من جهة وروسيا واسبانيا من جهة اخرى ، وبينما كانت الولايات المتحدة تعزز تكراراً اجهزة الحماية ، قام حلف « التجارة السمحاء » يحاول اقصاء « التجارة الحرة » عن وطنها الام .

وهكذا احتمت الرأسمالية الغربية في مواقع مذهب الحماية الدفاعية ، فأطلقت الحرية للقومية وتميزت بمزيد من التسلطية . انه لمصير محتوم ، سينتهي اليه البريطانيون انفسهم حتى ولو رفضوا التنكر للكوبدنية التي تتصل ذكراها ، بالنسبة لهم ، بذكرى عظيمة اخاذة .

فيتضح من ثم بعد البحث والتدقيق ان النظام الاقتصادي السائد في اوروبا واميركا الشمالية سينتهي حتما بالاولى ، وبالثانية من بعدها ، الى التوسع بفعل الظروف والاتجاه الطبيعي .

الفصل التاسع

الأستعمار الاوروبي
ونشأة السياسات التوسعية الكبرى

« المستعمرات احدى ضرورات الحياة العصرية ... »
(فرنشسكو كريسبي ، في ٢ ايار ١٨٨٨)

« ان المقياس الوحيد الواجب اعتماده في كل مشروع استعماري هو درجة فائدته ومجموع العائدات والمكاسب التي يجب ان يدرها للوطن الام » .
(« اوجين اتيان » ، مقال في ال « تان » ، ١٨٩٧)

اتفاق الظروف القومية في اوروبا والاستعمار في منتصف القرن

بعد القضاء على سيطرة الاسبانيين والبرتغاليين البرية في اميركا ، لم يبق في منتصف القرن سوى امبراطورية واحدة عالمية حقا ، هي الامبراطورية البريطانية ؛ فمعظم الممتلكات الهولندية كانت مجموعة في جنوبي شرقي آسيا ، ولم تستطع فرنسا حتى ذاك التاريخ سوى التمكن هنـــا وهناك في بعض النقاط الدائرية من افريقيـــا واوقيانيا والهند الصينية . والحـــال توفق الاوروبيون خلال سنوات قليلة ، في النصف الثاني من القرن ، الى الاستيلاء على الشطر الاكبر من افريقيا (١١٪ فقط في السنة ١٨٧٥ ، و٩٠٪ في السنة ١٩٠٢) ، ومجموع الاراضي الاوقيانية تقريبا (٩٨٪ مقابل ٥٦٪) ، بينما تكونت نهائيا حدود الولايات المتحدة الواسعة في اميركا الشمالية . واذا ما استثنينا المغرب وليبيا ، فان المستعمرات الاوروبية قد تحددت آنذاك بما يقارب ثلاثة اخماس اليابسة واكثر من نصف سكان الكرة الارضية ، بصرف النظر عن اوروبا .

لم تشكل المنازعات القومية حجر عثرة في سبيل هذا التوسع . واذا كانت الحروب الكبرى التي نشبت بين السنة ١٧٩٢ والسنة ١٨١٥ قد اعاقت مؤقتا المجهود الاستعـــماري الفرنسي

والهولندي ، فانها قد أدت من جهة ثانية الى توطيد الوجود البريطاني خارج اوروبا ؛ ويجب انتظار السنة ١٩١٤ حتى نرى دولة تفقد مستعمراتها حين ينقطع اتصالها بها . لا بل ان النصر الالماني في السنة ١٨٧٠ وقيام المملكة الايطالية قد استعجلا في الواقع ظهور تيـار استعماري قوي . فمن جهة افضت ادعاءات روما الى تحويل البحر الابيض المتوسط الى حلبة منازعات ؛ ومن جهة ثانية اسهمت السياسة الاميركية في تحريك رغائب الدول الاستعمارية التقليديـة ، ودفع فرنسا الى الانقضاض على افريقيا ، وروسيا على آسيا ، ووقوف فرنسا وروسيا معاً ضد بريطانيا العظمى التي ما كانت لتقف موقف اللامبالاة من اقتسامات جديدة . ولعبت المصادفة نفسها دوراً هاما في ارشاد منافس جديد ، هو ليوبولد ملك بلجيكا ، الذي استغلهـا بمهارة ، الى طرق القارة السوداء . وبعد ان قطع توزيع الانصبة شوطا بعيداً ، اعلنت المانيا، ربما بعد فوات الاوان ، عن عدم رضاها واستهلت سياسة استعمارية رهيبة .

استمرار مذهب المناهضة للاستعمار

بيد ان التوسع الاستعماري قد صادف خصوما يناهضونه . فصادفهم في الدرجة الاولى بين اولئك الذين تخوفـوا من توزع القوى الوطنية . ألم يبد نابوليون الثالث هذه الملاحظة في السنة ١٨٤١ : « نحن نفقد الجزائر بحرب لا هدف لها . . ان هذه الممتلكات النائية ، الباهظة الاكلاف في ايام السلم والمسببة المصائب في ايام الحرب ، تشكل سببا من أسباب الاضعاف » ؟ وقد قاوم حملة المكسيك شطر هام من الاعيان المحافظين والمعارضة الجمهورية : وقد لاحظ المدّعون العامون آنذاك ان الرأي العام يعتبرها « باهظة النفقات ، . . . ولا نتيجة لها » . واتفقت احزاب اليمين والراديكاليون في عهد الجمهورية الثالثة على طلب منع ارسال الجيوش الى خارج اوروبا : فقـد صاح كليمنصو في السنة ١٨٨٢ قائلا : «يجب الا نحاول ارتداء عنف اسم الحضارة الخداع » . وفي السنة نفسها اعلن بسمارك في الـ « رايخستاغ » : « لن نعتمد سياسة استعمارية ما دمت مستشاراً » . وقـد امتنع سواد البلجيكيين عن مساندة ما انتواه الملك ليوبولد .

وغالبا ما استُند الى الاعتبارات العاطفية والانسانية ، ووقفت الاشتراكية موقفـا معاديا بيّنا من السياسة الاستعمارية لانها نظرت اليها نظرتها الى احدى طرائق الرأسمالية التسلطية . ولكن يجب لفت الانتباه الى ان النفور قد تجلى زمنا طويلا في صفوف الرأسمـاليين الاحرار بصورة خاصة . فقد اكد « ايف غويو » في السنة ١٨٨٥ : « اذا ما رغبنا في ان نمثل تمثيلارمزيا ما كلفه من ضحايا الـ ٢٥٠٠٠٠ مهاجر مستعمر الذين استوطنوا الجزائر ، لتبين لنا ان كلا منهم يجلس على اربع جثث ويحرسه جنديان » . ولا يخلو من مغزى ذاك الاتجاه القوي الذي ارتسم في بريطانيا العظمى بين السنة ١٨٤٠ والسنة ١٨٦٠ واستهدف شمل المستعمرات بـ « الحكم الذاتي » والتوقف عن كل فتح جديد . وقـد كتب « دسرايلي » نفسه الى « ملمسبوري » في السنة ١٨٥٢ : « كل هذه المستعمرات اللعينة ستصبح مستقلة بعد سنوات ، وهي بمثابة رحىـا

معلق بعنقنا » . وقد سلّم « روجرز » ، امين سر الدولة لشؤون المستعمرات ، بأن « مصيرها الاستقلال » . وفي السنة ١٨٦٣ صدر كتاب « غودوين سميث » المشهور، «الامبراطورية»، الذي اقترح فيه المؤلف انفصالاً حبياً بين بريطانيا العظمى وبعض البلدان ككندا واوستراليا . وفي كتابه ، « المستعمرات » ، اعلن الرحالة الالماني العالم باصول الشعوب ، « ادولف باستيان » ، عداءه الصريح للفتح الاستعماري . أضف الى ذلك الانطباع القوي الذي تركته قصة « ماكس جافلار » ا « ادوارد دوز – دكرز » الذي بسط ، باسم « مولتاتولي » المستعار ، تجاوزات طريقه « فان – دن – بوش » الاستعمارية في الهند النيرلندية . اما السياسة السلمية ، والمتحفظة على كل حال ، التي سيعتمدها « غلادستون » المنشستري ، فلها ما يبررها على ضوء نفعية تجارية عززت موقفها المعادي للتسلطية الاستعمارية نجاحات « الازمنة الجيدة » : فان استثمار الثروات العالمية لا يبرر البتة تملك هذه الارض او تلك بموجب مبدأ قومي وحتى تحضيري ، ولكنه يستلزم منافسة حرة باعتماد سياسة الباب المفتوح . ولذلك كان كافياً ان يحمي « بلمرستون » حرية البحار التي بفضلها تأمنت ثروة بريطانيا العظمى وكافة الشعوب المتطورة .

ديمومة التقليد الاستعماري والخطوط الاولى لمذهب تسلطي

ابدى « كوبدن » هذه الملاحظة التي لا تخلو من الغم : « تتمسك الطبقة الوسطى بالمذهب الاستعماري تمسك الارستوقراطية نفسها به ، وليس العمال اكثر المية من هذه وتلك » . اما المجاز فقد أسف على ان العمال « يتمتعون بكل طمأنينة مع الراديكاليين المحافظين والاحرار باحتكار انكلترا الاستعماري وباحتكارها السوق العالمية » . فقد ساد الرأي من ثم ان التخلي عن المستعمرات عاقبته الانحطاط .

اهتمت الحملات العسكرية في النصف الاول من القرن بتنمية فرق الاختصاصيين المؤهلين للحرب والادارة في المناطق الحارة ؛ فأعد هذا الاعداد الجنود والموظفون المرسلون الى الهند والجزائر الذين استفيد بعد ذلك من خبرتهم في مناطق آسيوية وافريقية اخرى . وقد تجددت تقاليد قديمة في كثير من العائلات الفخورة بالانتساب الى « رسالة الجندية » او « الخدمة » . وامنت الامبراطوريةالثانية استمرار المجهود الذي ما زالت انكلترا تبذله، اقله لتوطيد مراكزها . وقد جاهر بلمرستون بما يلي : « لا تتخلوا ابداً عن رأس دبوس يحق لكم الاحتفاظ به وتعتقدون ان باستطاعتكم الاحتفاظ به » .

ربما مت ذلك بصلة الى المفهوم التمديني للصليبية المسيحية ، السلمية او المسلحة . وكان هذا المفهوم قد استعاد قوته بفعل الحماس الذي اثاره تيار القوميات . فبينما ما زالت بعض الشعوب منشغلة بهاجس وحدتها ، تولت شعوب أخرى رسالة اوسع آفاقاً . ألم يقدم كيريافسكي على الشعوب الاخرى ، حوالي السنة ١٨٣٠ ، « الشعبين الفتيين الطريين العود » ، اي الشعب الروسي والشعب الاميركي ؟ اضف الى ذلك ان صدى السلافية الرومنطيقية الشاملة قد تردد في مؤلفات

« كاتكوف » و « أكساكوف » بفكرة الدور المجيد الذي تـدخره العناية الالهية لروسيا الارثوذكسية ، وان دوستويفسكي ارتأى ان « كل شعب قوي يؤمن ويجب ان يؤمن ، اذا أراد لنفسه حياة طويلة ، بأن خلاص العالم متوقف عليه وعليه وحده » . وقبل ان تستغل الداروينية وينشر « غوبينو » كتابه « محاولة في اختلاف الاجناس البشرية » ، جزم « اغاسيز » و« كاترفاج » بتفوق الجنس الابيض ، وتكلم « كوربه دي ليل » عن « الاجناس المتفوقة بالطبيعة » ، وكتب « كارليل » الذي امتدح الحكام ، ما يلي : « ان جزيرتنا الصغيرة باتت ضيقة بسكانها ، ولكن اتساع العالم يكفي لستة آلاف سنة » . وفي أسلوبه الديني ، عظّم « شارلز كنفسلي » ، العزيمة الجماعية ، بينما تغنى « تنيسون » بالبطولة في خدمة السياسة البلمرستونية . وحين نشر « شارلز ديلك » كتابه « بريطانيا العظمى » افتتن قراؤه ، قبل أي شيء آخر ، بالنشيد المخصص لعظمة ما وراء الاوقيانوسات فبات ممكناً ان يأتي دسرايلي ويحل الحزب التوري من العربة المنشسترية ويعين له مهام اعظم نبلاً ويجعل من فكتوريا امبراطورة الهند . وعلى الرغم من أن غلادستون ، الذي جاء بعده ، قد اصدر اوامره بالجلاء عن أفغانستان والترانسفال ، فان الحملة التوسعية قد عرفت منذئذ نشاطاً مطرداً : فان « سيلي » ، تلميذ « داروين » ، قد عرض في كتابه « توسع انكلترا » ارتقاء مهيباً منذ اليزابيث ؛ كما ان « فرود » ، تلميذ كنغسلي ومنفذ وصية « كارليل » ، قد طاف في الماضي والعالم البريطانيين ، فرأت النور « عصبة فكتوريا » و« عصبة الامبراطورية » و « عصبة الامبراطورية البريطانية » ، وارتسم في الافق مثال جديد للسياسة الخـارجية . وجرى تحول ذو مغزى الى فكرة امبراطورية سيدة مسيطرة تكفي نفسها بنفسها ، هو تحول « جوزف تشمبرلن » ، تاجر البراغي ، الغلادستوني والمنشستري .

عملت الوطنية والرأسمالية معاً – وهذه الاخيرة ، تحت ظل التأخر الاقتصادي – في اتجاه التوسع الاستعماري . فان « ديبون – هوايت » ، كان بمثابة ممهد الطريق حين عين للدولة مهمة « اغناء البشر باضافة المستعمرات والاسواق النائية والاسواق الجديدة الى وسائل انتاجهم او مقايضاتهم » . ولكن « ليست » و « روشيه » كانا قد عارضا كذلك المدرسة السميثية ، فأخذ الناس يصغون اليهم في المانيا حيث افلحت الجمعيات الاستعمارية ، يساندها مجهزو السفن والصناعيون ، في ارغـام بسمارك على « كانوسا » جديدة ، بانتظار « السعر الجديد » الغليومي . فأعاد « بول لروا – بوليو » حينذاك طبع كتابه « الاستعمار عند الشعوب المعاصرة » وفاز بحمل القائلين بمذهب الاحرار على اعتناق هذا المبدأ : « ان الشعب الذي يستعمر هو شعب يبني ركائز عظمته في المستقبل » . وقد برر « فرّي » مبادهاته بربطه بين العظمة والمصلحة : فمن جهة « تأسيس المستعمرة يعني ايجاد سوق » ، ومن جهة ثانية « للأجناس المتفوقة حقوقها حيال الاجناس الدنيا » . وهو سيوجز برنامج الرأسمالية الاستعمارية بعد ذلك في جملة واحدة : « السياسية الاستعمارية وليدة السياسة الصناعية » .

الخطاط الشركات الممتازة القديمة

بعد انهيار النظام التجاري القديم ، عرف الديمومة بعد السنة ١٨١٥ عدد معين من المشاريع الكبرى المبنية على الاحتكار . اجل لم تجدد الملكية ، ولا نابوليون ، شركة الهند الفرنسية ، ولم تزدهر اية مؤسسة من مؤسسات هذا العهد باستثناء الشركة الهولندية الجديدة التي تعاطت حتى السنة ١٨٧٥ تجارة رابحة في الا « انسولند » والشرق الاقصى . وحين تجديد عقدها لم تفقد شركة الهند الانكليزية امتياز التجارة مع الصين فحسب ، بل رأت امتيازها في الهند ، المحدد بعشرين سنة ، يرتدي طابع مجرد مستودع للتاج . ثم حُدّ بعد ذلك من صلاحياتها ، وما لبثت المؤسسة المحترمة ان انهارت بعد ثورة الجنود البلديين في السنة ١٨٥٧ .

كان في نية معظم الشركات القديمة الممتازة استثمار المناطق الحارة . والحال كان عـــدد منها قد عرف الديمومة في الشمال الاميركي الغني بالفراء . لا بل ان الشركة الروسية الامـــيركية وشركة الشمال الغربي وشركة خليج « هودسون » قد تنازعت بشراسة المناطق المخصصة للقنص والممتدة من آلاسكا الى الاوريغون واللابرادور . واتحدت الشركتان الاخيرتان بغية التمكن من مقاومة الشركة الاولى التي كانت تزود سوق بطرسبورغ وتمارس في الوقت نفسه في آلاسكا احتكاراً وضع حداً له ضم هذه البلاد الى الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ . وبعـد ان قامت شركة خليج هودسون بعمل ناجح باهر ، اضطرت بدورها الى الانحناء امام الاستعمار الحر الذي غزا الاوريغون ؛ ثم تأسست كولومبيا البريطانية ؛ وحين ابتاعت كندا منها ، في السنة ١٨٦٩ منطقة « روبرت » (مانيتوبا) ، الغنية بالاحراج ، تولت استثماره بوسائل جديدة . ولكنهـا ما كانت آنذاك سوى شركة رأسمالية ، شأنها شأن غيرها .

الشركات التعاقدية الجديدة

كانت الفترة ١٨٥٠ – ١٨٧٠ ، وهي فترة المقايضة الحرة ، اقل الفترات موافقة للامتياز . ولكن حين احرز مذهب حماية البضائع الوطنية بعض التقدم ، بدت المشاريع الحاظية بالعطف والتشجيع ، التي تمهد الطريــق للاستثمار الاستعماري ، مغرية للرأسمالية التوسعية .

مارست اهم الشركات اعمالها في ظل الوصاية البريطانية او الالمانية . وقد اهتمت كلها تقريبا بالقارة الافريقية حيث رأت امامها مثل الجمعية الدولية التي اسسها الملك ليوبولد بغية استثمار الحوض الكونغولي . وهكذا تواجهت في هضاب افريقيـــا الشرقية « الشركة الـــبريطانية لافريقيا الشرقية » التي حملت اسم « الشركة الامبراطورية البريطانية الافريقية » ، و « الشركة الالمانية لافريقيا الشرقية » التي أسسها الدكتور « بيترز » . ثم أسس عدد من التجار الانكليز «الشركة الافريقية المتحدة » التي حملت « اسم الشركة الملكية النيجيرية » بعد اتحادها بشركة « التجار الافريقيين في الشاطىء الذهبي » .

على الرغم من حداثة عهد هذه الشركات التعاقدية الجديدة ، يبدو انها كانت ذات شأن عظيم في تاريخ التوسع الاستعماري . فحين اضمحلت « الشركة الملكية النيجيرية » التي لم تعش سوى

١٣ سنة ، دفعت لندن ٢٢ مليوناً للاستيلاء على ما يعرف الآن بـ « نيجيريا » التي يبلغ عـــدد سكانها ٢٥ مليون نسمة وتوازي مساحتهـــا ضعفي مساحة فرنسا . وكانت هـذه الشركة مدينة لضابطين بريطانيين ، هما « جورج توبمان غولدي » واللورد « ابردير » اللذان بلغا الـ « تشاد » بعد ان اجتازا الحـــاجز الحرجي في سواحل غينيا . وكانت قـد وقعت اكثر من اربعماية معاهدة مع الزعماء البلديين ووفرت فائدة سنوية قدرها ٦٪ لمساهميها. وحين ارغمت على التخلي عن احتكارها امام حملات التجـــار في الوطن الام ، لم تتوار عن مسرح نشاطها بل استمرت في استخدام موظفيها من ذوي الخبرة واستحصلت على حق استيفاء الرسوم المنجمية لمصلحتها الخاصة طيلة تسع وتسعين سنة . وقد ادت خدمة جلى للعظمة البريطانية في افريقيا الغربية .

ولكن اشهر هذه الشركات التعاقدية اطلاقاً هي «الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي اسسها « سسيل رودس » .

شركة سسيل رودس التعاقدية

لم يكن « نابوليون الراس » ملكاً متربعاً على عرش ، ولكنه كان ملك الماس والذهب ، واسس لانكلترا امبراطورية جنوبية. كان ابن رجل دين ، وقصد « ناتال » للاعتناء بصحته الهزيلة ، فسمع نداء « روسكين » « لاستثمار الاراضي البائرة » ؛ وكان عازباً ونافراً من النساء ، فاخذ يفكر في نفسه قائلا : « ان اخضاع الشطر الاكبر من العالم لشرائعنا سيكون بمثابة نهاية كافة الحروب » . وكان مسالماً على غـرار « كوبدن » ، فوضع الاستعمار والرأسمالية في خدمة « السلام البريطاني » . سار في البــدء في تيار البحث عن المـاس في كمبرلي ؛ فاشترى امتيازات الاستثمار وجرب حظه . فوافاه الحظ حين اعتمد ، على غرار روكفلر، التقنية والتجميع معاً. وقد ضمنت شركته ،«دي بيرز مييننغ»، في السنة ١٨٩٠ ، رقابة سوق الماس . ثم وقع اختيار رودس كـذلك على ذهب الترنسفال ، فأسس شركة « حقول الذهب في جنوبي افـريقيا » التي اشرك فيها آل « روتشليد » . ولكنه ما لبث ان اصطدم بالتشريـع « البويري » .

وهو لم يكن تاجراً مغامراً فحسب . فقد كان مولعاً بالحضارة الاوربية ، التي يؤلف العنصر البريطاني خميرها ، فتخيل امبراطورية افريقية تكون قاعدتهـا مدينة « الراس » وقمتها قنـاة السويس حيث تمر طريق لندن–بومباي عبر البحر المتوسط الذي يصبح بحراً بريطانياً. وانما يجب اسهام البوير لتحقيق ذلك – لا سيما وانه كان يحتقر الزنوج . امـــا اذا لم يستجب انسال الهولنديين لندائه ، فانه سوف يسحقهم. ولكن مشروعه يستلزم السرعة لان الالمان والبرتغاليين ينحدرون باتجاه المنطقة الحارة الواقعة بين « لمبوبو » و « زامبيز » . فاعرض حكام « الراس » انفسهم عن تبني المشروع . لذلك تحول رودس بانظاره نحو لندن حيث اعتمد على صــداقاته في عـالم الاعمال واسس « الشركة البريطانية لافريقيا الجنوبية » التي استلمت في السنة ١٨٨٩

صك التعاقد الذي خولها « تنمية بيشوانالند والمناطق الواقعة ابعد الى الشمال » .فبني على الفور معمل « فورت – سالسبوري » في قلب الغابات ، وراء بلاد البوير ، على الطريق التي يسلكها البورتغاليون . وعندما اصبح رئيس وزراء « الراس » ، اخرج البورتغاليين من المنطقة المتنازع عليها واشترى من شركة « البحيرات الافريقية » منطقة شمـــالي الزامبيز وسحق مقـــاومة الـ « زولو » ، فضمن له ذلك اعتبار البوير في « الراس ».وفي السنة ١٨٩٥ ، احتلت «روديسيا» مكانها على الخريطة . ولم يبق سوى ضم جمهوريتي « اورانج» والترانسفال ؛وسوف يحققه بعد انتزاع موافقة المسؤولين البريطانيين . ثم اجهز الذهب والامبراطورية على استقلال البوير حين وافته المنية في السنة ١٩٠٢ .

جمعية ليوبولد الثاني الدولية الافريقية

كان ليوبولد الثاني استبدادي المزاج ، ومحتالا ومتصلبا ، ومنتسبا الى اسرة مالكة مرموقة،ومفتقراً الى المال ،وشغفاً بمعرفة العالم ومكبلا في تصميمه على العمل بفعل النظام السياسي في مملكته نفسها ، ولكنه تميز بؤهلاته لان يكون مؤسس امبراطورية عظيمة .فقد كتب منذ السنة ١٨٦١ : «لما كان التاريخ يعلمنا ان للمستعمرات قسطها الأوفر في تكوين عظمة الدول وازدهارها ، فلنحاول بدورنا الاستحصال على مستعمرة» .فتحين الفرص،وكان على استعداد لشراء الفيلبين او الكاناري او اي ارخبيل اوقيانوسي آخر ، الى ان وقع اختياره على افريقيا الوسطى البكر . واذا هو عقد في السنة ١٨٧٦ مؤتمراً في بروكسل من اجل حملة شديدة تستهدف « العلم والانسانية والتقدم » ، فانه لم يلبث ان ادرك الفائدة الشخصية التي باستطاعته ان يجنيها من مؤسسة مجردة عن الغاية في مستهل نشاطها . وفي سبيل الاستيلاء على البلاد ورسم خريطتها ، فكر بـ « غوردون » وتوجه الى « برازا » واستمال « ستانلي » ودفع الثمن غالياً . وفي سبيل الحصول على رؤوس الاموال ، طرق كافة الابواب . ثم لجأ الى الحيلة وتقدم شيئاً فشيئاً في تنفيذ مطلبه ، فعرف كيف يبعد عن مصاب النهر الدول الاستعمارية القديمة التي كانت تطالب بحرية التجارة ، الى ان اناط مؤتمر برلين (١٨٨٥) هذه الحرية بجمعية الكونغو الدولية التي انفرد بعد ذلك في تحويلها الى دولة الكونغو المستقلة ، ثم حمل المجلسين التمثيليين البلجيكيين على منحه حـق « رئاستها » وانصرف الى توسيع حدود الدولة باتجاه البحيرات الكبرى في افريقيـــا الشرقية .الا انـــه صادف صعوبات مـــالية حالت دون مشروعه بالاستثمار فأوصى بالكونغو لبلجيكا في السنة ١٨٩٠ واستحصل على قرض بقيمة ٢٥ مليونا وعلى اجازة باستيفاء رسوم الدخـول . اضف الى ذلـك من جهة ثانية انه لم يتقيد باي تعهد ، فجند اليد العاملة بالقوة واحتفظ لنفسه بمكاسب اراضي التاج الواسعة وسلم الاراضي الاخرى شركات لم تنسه ولم تنس ذويه عند توزيـع الربائح .فـكان ما كان من التهافت الجنوني على جمع العاج والمطاط،وكان ما كان من « فظائع الكونغو ».ولكن ليوبولد قد امتنع بغطرسة حتى وفاته عن التسليم بان عليه تأدية حساب للرأي العام .

تدخل الدول الاوروبية الاستعمارية لخدمة المصالح الرأسمالية : مثل تونس ومثل مصر

كتب « ديلك » ما يلي : « حيث تكون المصالح يجب ان تكون السيطرة ». اجل لم يحظ الاختبار الكونغولي بمساندة الامة البلجيكية المباشرة ؛ بينما حال تدخل القوة البريطانية في « الراس » دون حراجة الوضع وتأزمه المحتمل . فـــماذا اعوز « بريتشارد » للسيطرة على « تاهيتي » ان لم يكن مساندة لندن غير المشروطة ؟ وبامتناعها عن التدخل المعلن ، اطالت فرنسا وانكلترا على السواء عمر الحكومة «الهوفية»، وربما كان « سربا بنتو » توصل الى توحيد انغولا وموزمبيك لو استطاعت لشبونة مساعدته مساعدة فعالة . وعلى نقيض ذلك ، درجت الشركات الرأسمالية على رفع البيرق بجسارة كلما خاضت الدبلوماسية ، وحتى القوة المسلحة ، غمار المعركة . لذلك فان ارتباط السياسة بالاعمـــال ، ظاهراً كان ام مستتراً ، يفسر معظم الفتوحات الاستعمارية . واذا فات النجاح حملة المكسيك ، فانه قد توج حملة تونس وحملة مصر تتويجاً كاملاً .

مثلان نموذجيان وتشابه عجيب . ملكان مسلمان يغرقان في الديون بسبب رغبتهما في العيش ببذخ وتفخل ؛ بلادان تتميزان بمركز وموارد من شأنها اثارة الاطماع ؛ دولتان حريصتان على حقوقهما وقادرتان على دعم مطالب رعاياهما . هنا وهناك غزو رؤوس الامـــوال الاوروبية الذي سهله وضع الاقتصاد المتردي ؛ في مالية باي تونس ومالية خديوي القاهرة ازمة لا يمكن معالجتها معالجة مؤقتة الا بقروض جديدة ؛ ثم رقابة دولية يفرضها المقرضون الجـــازعون الجشعون ؛ تحسن مؤقت وجزئي تعزز الادارة المالية بفضله مراكزها بوضع يدها على الرهون والكفالات وجميع الموارد الاميرية . وحدث اخير : فبينما خضع الباي للحماية الفرنسية ، اقيل الخديوي اسماعيل خلفه توفيق الى القبول بوجود الجيش البريطاني . فمن جهة ازالت حكومة باريس الخطر الايطالي والحقوق الايطالية ، ومن جهة اخرى صرفت حكومة لندن النظر عن امكانية لم تنظر اليها بعين الرضى هي امكانية مشاركة فرنسا لها في الحكم . وكانت النتيجة فتح ابواب البلادين لنشاطات الغرب الصناعية والتجارية تحت ستار الوصاية السياسية والادارية والعسكرية .

دور الضابط الاستعماري فاتح ومدير

« وفي افريقيا نفسها ، ماذا احببت يا ترى سوى نشوة دامت سنتين ، نشوة النسيان الخالصة ، نشوة الشمس ، والنور ، والكمال الفني بكل ما للكلمة من معنى ؟... » (ليوتي ، في السنة ١٨٨٢) .

لقد برزت وجوه كبيرة ، مؤسسون ، و « فنيو » استعمار . فكان هناك المستعمرون الاداريون : موظفو دائرة الاستعمار مثلاً ، « جايمس فيتز - جايمس ستيفن » الذي أمسى ، ابتداء من السنة ١٨١٣ ، وطيلة خمس وعشرين سنة ، الرئيس الحقيقي للامبراطورية بعـــد انحطاط النظام « الحصري » ، او اللورد « كارنارفون » الدافع الى الاتحادات ؛ وفي فرنسا ، مـــديرو الوزارات ، من « فيلو دي سانت ايلار » الى « غاستون جوزف » الذين يبقون في مراكزهم بينما

يتعاقب الوزراء ؛ او ذاك المدير الآخر ، البلجيكي « اميل بانتغ » الذي كان يذكر « افريقيا الباقية مدفونة في عزلتها والمنبطحة انبطاح عبدة جسيمة عند اقدام اوروبا اللامبالية » ويريد ان يجعل منها « حقلاً حراً لكافة النشاطات التجارية » فيشجع انعقاد المؤتمرات الدولية، ولكنه يصطدم برغبة الملك ليوبولد في الكسب .

عمل جنود الفتح بهذه الارشادات او تجاوزوها ، متعرضين لمسؤوليات كبرى احياناً ، وقد واطأم على الذنب المسافة وصعوبات عملهم اليومي . « بهجة النفس تكمن في العمل » ، هذا هو الشعار الذي اقتبسه ليوتي عن « شلي». ألم يتكلم يوماً عن « العمل،العمل المقدس والالهي . . . » هو الذي لم يرد ان يكون سوى « محارب وزعيم قبلي » ، و « سيد اقطاعي شاب » ؟ فقد كتب من تونكين : « انني اسير الحياة والعمل المباشر ؛ فبعد قضاء يومنا في المقدمة ساعين وراء شق طريقنا بالفأس بين الاشجار الكثيفة ، وباحثين على الارض عن دلائل المرور ، وسائرين في الماء حتى الركبتين ، ومتسائلين باضطراب ، عند نهاية المرحلة ، عما اذا كان الارز سيصلنا ام لا ، وعما اذا كنا سنجد دليلا يرشدنا الى الطريق ، وتكون النتيجة ، بعد استسلامنا للنوم ، عاصفة هوجاء تبلل خيم الجنود ، اؤكد لكم ان الوقت لا يتسع لتفحص النفس ، التي لا يمنعها ذلك من ان تكون في احسن حال » . وفي رأي سسيل رودس ان على كل مستعمر ناجح ان يتقن لعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم. اما غوردون الذي كان صوفياً حقيقياً يضع سيفه في خدمة الايمان وتحت تصرف السلطة المدنية على السواء ، فقد اكثر في « يومياته » من الاستشهادات التقوية .

حكم الدبلوماسيون على مبادهاتهم بأنها كانت متهورة احياناً وبأنها لم تخدم المصالح الكبرى دائماً . فهم قد درجوا على انتقاد الدوائر الادارية والسياسيين الذين كانوا يحتقرونهم . كانوا قساة في ادارتهم ولكنهم كانوا يتباهون بمعرفة البلدي على حقيقته وباحترام عاداته وبعدم التقيد بمذهب اداري معين . وقد جاء في كتاب « غالياني » « مبادىء التهدئة والتنظيم » : « لا شيء يجب ان يكون اكثر مرونة من تنظيم بلاد يجري تطورها باشراف موظفين حازمين تستخدمهم الحضارة الاوروبية والاستعمار الاوروبي » . كما جاء ايضاً : « كل عمل سياسي يجب ان يميز العناصر المحلية الصالحة للعمل ويستفيد منها ويلاشي العناصر المحلية غير الصالحة للعمل ويقضي عليها » .

انحدر جيل اول من الحروب النابوليونية ، حروب اسبانيا وروسيا التي تطلبت صبراً وجلدا ومعرفة صحيحة للسكان والموارد . وقد تخرج من هذه المدرسة رجال من امثال « بوجو » ، و « شارلز – جايمس نابير » ، و « غـو » الذين انتصرا على المهرات والسيخ ، و « باسكيفيتش » و « مورافياف» (كارسكي وأمورسكي) و بيروفسكي ، ابطال الفتوحات في القفقاس وآسيا الوسطى وسيبيريا الشرقية .

ثم جاء اولئك الذين خرجتهم افريقيا السوداء والهند نفسها، ونخص بالذكر منهم «فيديرب»

الذي لم يكن من نواصي الناس مثل بوجو ولم يكن له مطامحه السياسية كمحافظ اجتماعي ، بل كان ابن حانوتي فقيراً وتأملياً وعنيداً ومثالياً ، فاتكل على غزاره على الملاحظة المباشرة ، وسيطر على السنغال بوسائل محدودة ، وأسس دكار ، وحارب النخاسة وادخل التلغراف الكهربائي ، وتمسك بالمدرسة العلمانية الفرنسية وبالتعليم الفرنسي الاسلامي العلماني ؛ وغالياني : السكيت ، والحريص على الخبر الثابت والنشاط العملي ، والفاتح في السودان والتونكين ، والاداري القدير في مدغشقر ، والقادر بدوره على اعداد تلامذة كثيرين اشتهر بينهم ليوتي الذي سيطبق المبادىء الواقعية خير تطبيق في الامبراطورية الشريفية . وبالمقابلة تخرج من جيش الهند بناة الامبراطورية الافريقية البريطانية : « روبرت كورناليس » المنتصر على الجنود البلديين ، الذي سير في السنة ١٨٦٧ حملة اثارت الاعجاب على النجاشي ثيودوروس (فقد نقل كل معداته ومؤنه على ظهور الفيلة ثم فتح طريقاً عبر الاحراج) ؛ و « ولسلي » الذي ارغم الـ « اشانتي » على الخضوع ، واشترك في النزاع ضد الـ « زولو » ، وهزم جيوش عرابي باشا في السنة ١٨٨٢ ودخل القاهرة ، ولكنه اخفق في محاولة قام بها لانقاذ الخرطوم التي كان يحاصرها الدراويش ؛ و « روبرتس » الذي كان مع نابير في الهند وفي الحبشة قبل ان يقود في السنة ١٨٧٩ الحملة العسكرية على كابول ، وفي السنة ١٨٨٦ الحملة العسكرية على بورما ، وقبل ان يستلم قيادة الجيوش التي ستتغلب على البوير ؛ و « كتشنر » الذي انتصر في الخرطوم ثم في الترانسفال .

الحروب الاستعمارية

ربما كان القرن التاسع عشر قرن الحروب الاستعمارية . ولعل سنة واحدة لم تنقض منه دون ان ينفذ الاوروبيون عملا حربياً في احدى نقاط القارات الاخرى .

اذا ما استثنينا الروس ، تبين لنا ان كل هذه الاعمال استلزمت مجهوداً بحرياً . فان الحملة على الجزائر قد عبأت ٦٧٦ سفينة تنقل قرابة عشرين ألف رجل . وقد تألفت الوحدة المعدة لمهاجمة « ماجونغا » في السنة ١٨٩٤ من ١٥ الف محارب . فيتضح من ثم الدور المنوط بالبحارة. اجل لقد عاد لـ « كوربيه » امر قيادة الهجوم على الشواطىء الصينية ، ولـ « فردريك بوشان – باجيه » قصف الاسكندرية بالمدافع في السنة ١٨٨٢ ؛ ولكن القيادة العليا للحملة قد اسندت احياناً لضباط البحرية ، كـ « دي بتي – توار » في اوقيانيا ، و « سيمور » في الصين ، وقد ذهب البعض الى الكلام عن « كوشنشين امراء البحر » في عهد الامبراطورية الثانية . وكان مشاة البحر السلاح المفضل في الجيوش المعدة للانزال الى البر ، وقد برز بينهم مستعمرون لامعون من أمثال القائد « بريير دي ليل » .

باستثناء حملات قليلة لم تستغرق وقتاً طويلا ، اعترضت معظم الحملات ظروف صعبة ، فتطلب النهوض بها وقتاً غير قصير وخسائر فادحة في الرجال والعتاد . اما العائق الاهم فكان المناخ في اغلب الاحيان . وقد باء الهجوم الاول على قسنطينه بالفشل بسبب الجوع والبرد

والعناء . وعلى الرغم من جلد الجيوش التي قادها بيروفسكي ، فانها كانت ضحية شتـــاء قاس في سيرها على « خيفا » ؛ اما في المكسيك والتونكين ومدغشقر ، فهي الحرارة الرطبة والحميات ما فتك بالجنود . وقد تم هجوم ولسلي على الاشانتي في أشد الظروف صعوبة ، عبر مستنقعات السواحل اولاً ، والغابات الكثيفة ثانياً . لذلك كانت الانهار عظيمة الاهمية عـــلى الرغم من الشلالات التي تتخللها : فان ستانلي قد استخدم الكونغو ، وكتشنر النيل ؛ كما ان « مارشان » قد انتقل من الكونغو الادنى الى النيل الاوسط عن طريق الـ « اوبانغي » والـ « مبومو » .

انطوى كذلك عدم معرفة السكان ولغاتهم وطرائق معيشتهم واسلوبهم الحربي معرفة كافية على صعوبات خطيرة . اجل كان تفوق الاوروبيين التقني ساحقاً ؛ ولكنهم بصرف النظر عن اضطرارهم للتكيف وفاقاً لطبيعة البلاد وسكانها ، ما كانوا ليحققوا النصر بوسائلهم الخـــاصة وحدها . فكانت المسألة من ثم مسألة تجنيد الفرق المساعدة. ففي الهند جرب الانكليز اختباراً تكلل بنجاح عظيم على الرغم من خطر احدق بهم في احد الظروف : اسندوا المحافظة عـــلى الامن الى السيخ والـ « غورخا » ؛ وجند « بوجو » الـ « زواـاوا » (زواف) والفرسان والقناصة المغاربة واستخدمهم ضد غيرهم من المسلمين ؛ وسيطر فيدرب على السنغال بواسطة القناصـة الـ « اولوف » ولجأ لابرين الى الـ « شامبا » للمحافظة على الامن في الصحراء الكبرى .

الولاة المدنيون

اذا حدث ان اسندت السلطة مباشرة الى احد العسكريين ، فان موظفـي الادارة الاستعمارية قد اختيروا قانوناً من بين الموظفين الذين ينتسبون الى ملاكات مدنية خاصة . ولكن غالباً ما توجب على المستعمرين النهوض بالاعمـــال الحربية والاعمال الادارية في آن واحد ، فتكاثرت الخلافات بين العسكريين والمدنيين. وقد تصرفت كل دولة بحسب مزاجها وبمقتضى الظروف. فطرأت على النظام الاستعماري الفرنسي بنوع خاص تبدلات كثيرة ؛ ويجب انتظار الجمهورية الثالثة حتى يعود الحكم في المستعمرات ، بصورة عامة ، الى السياسيين (« لانسان » ، « جونار » ، « دومر ») ، او كبار الموظفين (« بول كامبون » ، مثلا) .

اختارت بريطانيا العظمى في صفوف ارستوقراطيتها موظفين تحلوا بصفات نادرة وعرفوا، في كنف ادارة المستعمرات المركزية ، كيف يجدون في مختلف انحاء الامبراطورية البريطـانية الحلول الموافقة للحاجات الطارئة دون ادخال اي تبديل على السياسة الاستعمارية التقليدية . فقد اجاد ممثلو العائلات الكبرى هؤلاء ، في الحقل الاستعماري ، تطبيق مبادىء الاختباريـــة التنظيمية . وقد اتوا مأثرتهم الرائعة في فتح الهند وادارتها معا . فهكذا تولى المركـــيز « دي دالوزي » بنشاط الاعمال الحربية وجهود التطوير التقني . ثم بدأ اللورد كاننغ سلسلة نواب الملك التي ضمت شخصيات قوية من امثال اللورد « الجن » ، واللورد «ليتون» واللورد «ريبون». واختير كذلك اختياراً موفقا الحكام المعدون لتمثيل جلالته في المستعمرات المتمتعة « بالحكم

الذاتي » . ونذكر منهم على سبيل المثل اللورد كرومر حاكم مصر الاول .

الحميات والمستعمرات

بينا كانت « الحصرية » سائرة في طريق الزوال والتطور متجها اما نحو الحكم الذاتي واما نحو التمثيل بالوطن الام ، في المناطق المأهولة بالاوروبيين او في المستعمرات القديمة ، بدت الحماية اكثر ملاءمة من الوصاية المباشرة لاهداف ووسائل اوروبا الرأسمالية في المناطق المحتلة حديثا . ولا يعني ذلك ان الاحرار المنشستريين قد ابتكروا الطريقة : فقد سبق لـ « دوبلكس » ان طبقها ؛ كما كان البريطانيون في الهند والهولنديون في « جاوا » متمشين عليها . وفكر المسؤولون في تطبيقها في الجزائر والسنغال وكوشنشين . ووجد الروس فائدة في ابقاء بعض خانات تركستان النافذين في مراكزهم . واستسهل فرّي الذهاب الى تونس بالتدرع بمدّ يد المساعدة للباي ، وصرح غامبتا بما يلي : « لا جلاء ولا ضم » . ولجأت حكومة لندن الى حيلة مماثلة لتبرير تدخلها في القاهرة . واستحصل « دودار دي لاغريه » من ملك كمبوديا على الاعتراف بحق فرنسا في حمايته من تعديات جيرانه السياميين والفياتناميين ، كما استحصل « اوغست بافي » على الاعتراف نفسه من الزعماء اللاوسيين . وقد جرت الامور عموما على هذا النحو كلما رأت الدولة المستعمرة نفسها امام انظمة توخت هي خيراً من مداراتها .

الا ان الضم كان واجبا حين كانت السلطة البلدية مجزأة او لا شعبية او معادية جداً . فتصبح المستعمرة آنذاك مستعمرة سيطرة او إفراد : تبقي الادارة الاوروبية على الزعماء المحليين في مراكزهم وتجردهم في الوقت نفسه من السلطة السياسية وتخضعهم لرقابة شديدة ؛ وقد تستبدلهم بكفلاء عاديين تختارهم من بين البلديين الآمنين ؛ وتدير مباشرة شؤون البلاد وفاقا لما ترى فيه مصلحة السكان العامة . وقد استخدم البريطانيون هذا النظام في الهند حيث لم يكن نظام الحماية كافيا ؛ ثم استخدم على نطاق واسع في افريقيا السوداء ، وحتى في مدغشقر ، بعد قلب الملكية الهوفية .

المنافسات الكبرى والتقسيمات

خلال القرون السابقة تسببت المنازعات الاستعمارية في حروب بين الدول الاوروبية . والحال ، كما ان سياسة المعاهدات مع الزعماء البلديين قد اعتبرت خير سياسة ، كذلك سوّيت الخلافات الدولية بطريقة المفاوضة .

تخلص العالم الجديد اكثر فأكثر من هذه المنافسات . فباسم المونروية التي كانت تتوخى ابعاد الاساليب الاستعمارية عن القارة الاميركية ، انتهجت الولايات المتحدة طريقة الشراء للحصول على المناطق التي ما زال الاوروبيون يتملكونها فيها : وهكذا تم انتقال هام في السيادة في السنة ١٨٦٧ حين تخلت لها روسيا عن آلاسكا . ولكن الدانيمارك باعت كذلك من بريطانيا العظمى قطاعها الغيني ، كما باعت اسبانيا من المانيا « بالاوس » و « ماريان » و « كارولين » .

الا ان مناطق الاحتكاك الكبرى قامت في اماكن اخرى . فقد اتصل اهمها شأنا من

الغرب الى الشرق ، من مضيق جبل طارق الى المحيط الباسيفيكي الغربي ، على جنبات البحار الداخلية ، والبرازخ والمضائق التي تتيح انتقالا يسيراً بين الكتلتين الاوراسية والافريقية ، ثم على الاراضي الساحلية الجنوبية والجنوبية الشرقية من آسيا. وقد تعاونت فرنسا وانكلترا فيها على ابعاد روسيا او اختلفتا اختلافاً متكرراً. وتأزم الوضع في المتوسط بعد السنة ١٨٧٠ عند نزول ايطاليا الى الحلبة. وامتد البراز الانكليزي الروسي الى كافة انحاء آسيا الوسطى ، ولا سيا عند مشارف الهند. ويجدر لفت الانتباه هنا الى ان الحدث الحربي الوحيد الذي جرى في اوروبا نفسها بسبب المنافسات الاستعمارية — حرب القرم — مرده الصراع من اجل السيطرة على اكثر بقاع هذه المنطقة اثارة للتنازع ، الشرق الادنى.

لم يعد صحيحاً ان الخصومة بين بريطانيا العظمى وروسيا كانت قائمة بين امبراطورية بحرية وامبراطورية برية. فالدولة التي كانت مسيطرة على البحر كانت مصممة على الاستئثار من جهة اليابسة. وفي هذا المجال يبدو احتلال الهند بكاملها سابقة ذات مغزى. ولكن الحدث لم يعد لينطوي على اي طابع استثنائي ، اذ ان احدى مميزات الاستعمار آنذاك كانت الحصول على قواعد برية كبرى. وجاز لـ « جول فري » ان يؤكد : « اما اليوم فهي القارات ما يطلب ضمه ، وهو العالم الاوسع ما يطلب اقتسامه ». وان في تقسيم افريقيا لخير تمثل على هذه السياسة. الا ان منافسة قامت من اجل السيطرة على الباسيفيكي.

على غرار ما حدث في الماضي ، سويت الخلافات على العموم بين دولة ودولة بفضل اتفاقات تلزم الطرفين. وباستثناء جزر « الهبريد الجديدة » ، حيث ادخل في السنة ١٨٨٧ ، لم يعش نظام « الامتلاك المشترك » حياة طويلة في اي مكان : فهو لم يدم لا في مصر ولا في « ساموا ». وعلى نقيض ذلك ، اذا لم يعط التحكيم بدوره سوى نتائج هزيلة ، فانه قد اثار في السنة ١٨٨٤ حدثين جديرين بأن نتوقف عندهما : فمن جهة ، النداء الموجه الى البابا ، الذي سلك سلوك البابا اسكندر السادس وفصل في الخلاف الاسباني الالماني حول الكارولين ؛ ومن جهة اخرى ، انعقاد المؤتمر الدولي في برلين. فكان على هذا الاخير « ان يستدرك المنازعات التي قد تثيرها في المستقبل الاستيلاءات الجديدة على شواطىء افريقيا ». وفي الواقع ، كان اعتقاد بسمارك بأنه سيلعب فيه الدور المفيد نفسه الذي لعبه في مؤتمر السنة ١٨٧٨ حول المسألة الشرقية. وكما حدث في السنة ١٨٧٨ ، جرت المناقشات الهامة وراء الكواليس حيث عينت حدود الدولة الكونغولية. ولكن لم يمض وقت طويل حتى تجدد السباق ، بحرارة لم يسبق لها مثيل ، من اجل احتلال المناطق الداثرية. الا ان فكرة عرض المسائل الاستعمارية الشائكة على محكمة دولية لم تضمحل قط ؛ فهي التي ستوحي بالدعوة الى مؤتمر « الجزيرة » في السنة ١٩٠٦. ومهما يكن من الامر فان ريشة الدبلوماسيين قد وجدت لها عملا دائما ؛ فقد رسمت على خريطة العالم الاشكال الهوائية للانصبة التي آلت في النتيجة الى الدول الاستعمارية المختلفة دون ان يتعرض السلم الاوروبي للاخطار

مصير السكندينافيين الشرف في الشمالي الاطلسي

ان المؤسسات الاستعمارية السكندينافية تتصل في الارجح بنزوحات « الفيكنغز » القديمة . وكان السكندينافيون خير بحارة وصيادين وقناصة في المياه الشمالية ؛ فتأثروا بهذه الصفة بسحر المياه الجنوبية ؛ وما كانت الجزر والاسواق التجارية في المناطق الحارة لتستهويهم استهواء يذكر . وبينا كانت النشاطات الزراعية والصناعية كافية لتشغيل السويد ، اضطر النروجيون ، المرتبطون بهم منذ السنة ١٨١٥ ، الى حصر توسعهم في الاستيلاء على « سبتزبرغ » والمطالبة بـ « جان مايان » وارخبيل « فرنسوا - جوزف » و « غرينلند » . ولكن الدانماركيين نظروا دائماً الى هذه الارض الاخيرة ومعادنها واسماك مياهها الوفيرة نظرهم الى مُلك خاص . فهنا تقوم حدود امبراطوريتهم التي تضم بالاضافة « فار اوير » و « اسلندا » . زد على ذلك ان اسلندا كانت سائرة في طريق الاستقلال : تعرضت لامتحانات قاسية وعانت من المناخ وثورات البراكين والزلازل والمجاعات واوبئة الجدري ، فتخلصت شيئاً فشيئاً من حالتها السيئة باحياء الزراعة وصيد الاسماك وفازت بجمعية محلية ، والغاء « الحصرية » ، ثم باستقلال ذاتي حقيقي في السنة ١٨٧٤ ؛ فأرشدت بذلك ارلندا جارتها الى الطريق التي يجب عليها سلوكها .

الانحطاط الايبيري

اغتنم الاسبانيون والبرتغاليون بذكرى ماض اعظم سحراً ايضاً ، ثم بفعل كارثة لا دواء لها. فلم يبق في حوزة كلا الشعبين سوى بقايا متناثرة على طرقاتها الامبراطورية القديمة ، ولا وسائل لديهما لتحقيق نهضة متوخاة .

انهارت الامبراطورية البورتغالية انهياراً سريعاً في النصف الاول من القرن بانفصال البرازيل عنها ، وباحتلال الهولنديين لبعض جزر السوند ، كجزيرة « فلوريس » مثلا ، التي خلت من الحاميات العسكرية ، وبالتخلي عن شطر كبير من غينيا والغابون . ثم تلاشت الاسواق التي كانت لشبونة تحتفظ بها في الهند والانسولند على السواء . الا ان محاولة اصلاحية قد جرت بفتح المستعمرات للتجارة الخارجية ، ونقل الممتلكات في المستعمرات الى ايدي المهاجرين المستعمرين ، وبالغاء الرق . ثم تعللت البورتغال بأمل تحقيق السيطرة على افريقيا الجنوبية والوسطى ، ولكن آمالها تحطمت في مؤتمر برلين ، وقد وسم مطلع عهد كارلوس الاول بمعاهدة مذلة وقعها في السنة ١٨٩٠ . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان انغولا وموزامبيك اقتضتا من النفقات فوق ما درتاه من المداخيل ، وعم الرأي في اوروبا ان البورتغال قد تسلم بالتخلي عنهما مقابل تعويض كبير .

تعذر على الحكومات الاسبانية المتعاقبة التفكير بأي مشروع خارجي حتى السنة ١٨٥٠ بسبب الاضطرابات الداخلية . وقد حاول القائد « اودونل » ، بدافع النفوذ الشخصي ، تجديد عهد الحملات الصليبية بانقاذ حصون سبتا ومليلا التي ما زالت قبائل الريف تهاجمها بدون انقطاع ؛ ولكن مناورته امام طنجة و « لاراش » وتطوان لم تدم طويلا بسبب تدخل انكلترا . وجرت بعد ذلك محاولة هجومية فاشلة في اميركا اللاتينية : اشتركت اسبانيا في حملة المكسيك ولكنها

انسحبت منها مع انسحاب بريطانيا العظمى ؛ وانزلت جيوشاً في « سان – دومنغ » ، ولكن الاهالي الثائرين طردوا الجيوش منها ؛ وارسلت اسطولا الى شواطىء الباسيفيكي واستولت على الجزر الغنية بالغوانو ، ولكن تحالف الدول الآندية ارغمها على الانسحاب . وبعد ذلك ثارت كوبا على سيطرة احتفظت بميزات « الحصرية » ، وازدادت حالة القلق خطورة في الفيلبين و « بورتوريكو » اللتين عانتا الامرين من اهمال الادارة وتغافلها . وكانت كارثة السنة ١٨٩٨ قريبة الحصول حين احتل الاسبانيون ساحل « ريو دي اورو » الصحراوي وزعموا حينذاك انهم يقومون « بأول عمل في سلسلة اعمال سياسة افريقية » ستتيح لهم تعزيز موقفهم عند المطالبة بتقسيم المغرب المحتمل .

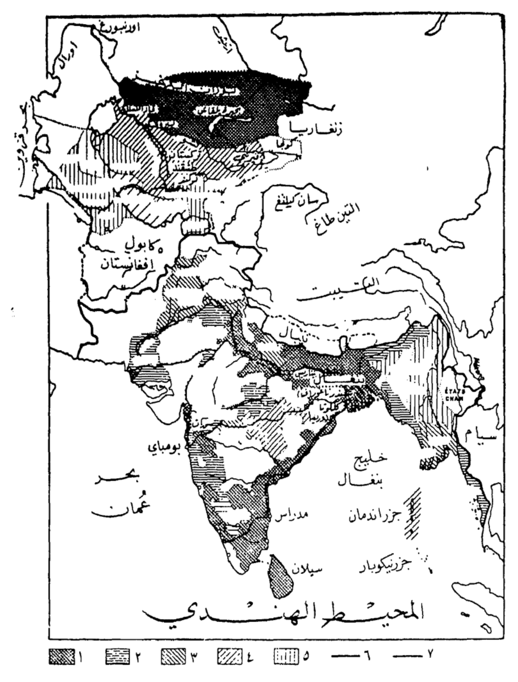
استمرار العظمة النيرلندية

في الوقت الذي نظر فيه الأب « دي برادت » الى البلجيكيين نظره الى « اناس عادمي الفضول في المعرفة وغرباء عن كل ما يجري خارج بلادهم » ، كان للهولنديين تقليدهم الاستعماري الراسخ. اجل كانت لهم خسارة « الراس »وسيلان ضربة قاسية ؛ولكن مملكة هولندا حققت السيادة ، أقله نظرياً،في السنة ١٨١٥ على مستعمرات شاسعة اوسع من رقعتها بستين ضعفاً ومأهولة بأربعة اضعاف سكانها:وتتألف هذه المستعمرات من مجموعتين متميزتين متباينتين شأناً يغلب فيهما المناخ الاستوائي،مجموعة الهند الغربية (بعض جزر الانتيل ، كـ « كوراسو » وسورينام) ، ومجموعة الهند الشرقية المتكونة من ارخبيل السوند والشطر الاكبر من بورنيو و « سيليب » والمولوك. فكان ذلك كافيا لنشاط شعب صغير جلود ومتبصر : تفرغت هولندا منذئذ لهذه الممتلكات دون ان تحاول توسيعها محاولة تذكر . فهي بعد اليوم لا تتقدم ولا تتراجع ، بل تثبت اقدامها .

امبراطورية الروس الاوراسية

واصلت روسيا ، عبر سهولها اللامتناهية،حرباً هي أشبه بحرب استرداد الاراضي من الاسلام الذي لم ترده الى الوراء بل دخلت بعيداً في الاراضي التي يسيطر عليها . ويبدو من جهة ثانية ان النزاع القديم بين الحضر والبدو كان لا يزال قائماً لان التقدم الروسي عنى كذلك اقامة الفلاحين المزارعين في البقاع النائية من منطقة البورات الواسعة الاطراف. واذا كانت سيبيريا اخيراً،في مناطقها الشمالية الشرقية ، امتداداً لطبيعة روسيا القاسية ، فان امبراطورية القياصرة لم تتصل بالبحار الباردة فحسب ، اذ كان باستطاعتها النزول الى الممر المنشوري حتى وسط عالم الشرق الاقصى ، بل بلغت في الجنوب المناطق الطورانية ومناطق ما وراء القفقاس التي تذكر بالمناطق الحارة . ولا يجوز ان نرى في هذا التقدم تصميماً على فتح المنافذ الى المحيطات فحسب : فهناك هجرة شعب مطرد التكاثر الى مناطق قليلة السكان ، وجاذب الموارد التكميلية .

« ايه روسيا ، ألا تشعرين بأنك منطلقة نحو المجهول على غرار الـ « تروبكا » الجامحة التي لا يستطيع احد اللحاق بها ؟ » (« غوغول » ، « النفوس الميتة ») .



شكل ١١ ـ البريطانيون في الهند ، والروس في آسيا الوسطى

١ ، احتلال بريطاني حتى السنة ١٨١٥ وتوسع روسي في اوائل القرن التاسع عشر ؛ ٢ ، تقدم بريطاني حتى حاكمية اللورد « دالوزي » العامة (١٨١٥ - ١٨٤٨) ؛ ٣ ، فتوحات اللورد دالوزي حتى ثورة الجندين البلديين في الجيش البريطاني (١٨١٥ - ١٨٥٧) ؛ ٤ ، تقدم الروس ومكاسب البريطانيين بين السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٧٠ ؛ ٥ ، تقدم الروس والبريطانيين بعد السنة ١٨٧٠ ؛ ٦ ، حدود امبراطورية الهند ؛ ٧ ، الخطوط الحديدية الرئيسية المبنية في القرن التاسع عشر .

اديرت العملية بجلد وطول اناة منذ زمن بعيد. اما الوسائل فكانت هي هي ابداً: القوزاق، التجارة ، « البخشيش » ، والمفاوضة عن طريق الدين كلما كان ذلك مفيداً. فكانت روسيا ارثوذكسية في البلقان والشرق الادنى ، واسلامية في خيفا ، وبوذية في منغوليا .

تميز هذا الاستعمار ، من جملة ما تميز به ، باسهام القوزاق فيه اسهاماً رئيسياً . اشتركوا في كافة الحروب الاوروبية ، وسيشتركون فيها في المستقبل ؛ ولكنهم خدموا بمزيد من الاندفاع ايضا في هذه الثورات التي تذكرهم بثوراتهم . وجند القيصر فرسانه المتفوقين من بين طوائف الـ « ستانتساس » التي كانت تعيش من تربية المواشي وتروض الجياد بحب تفضيلي . وكانت قيادة كل من فرق القوزاق الاحدى عشرة (فويسكوس) – لآلىء التاج الاحدى عشرة – مسندة الى قائد يدعى « اتامان » . وكان القوزاق محاربين لا يبالون بالتعب ، يأكلون الاسماك واللحوم والخبز المجفف ، ويشربون الماء ويمتطون صهوات خيولهم بدون مهاميز ، ويقبضون على السوط الجلدي ، ويرتدون ثوباً كبيراً يعرف بالـ « بورقا » : يتسلحون بحربة ، وسيف دون غمد ، ومسدس ، وبندقية قصيرة خفيفة ، ويتوجهون بدون خريطة ولا بوصلة مهتدين بالشمس والنجوم . واذا دان معظمهم بالارثوذكسية – وقد انتمى بعضهم الى شيع « راسكولنيك » – فقد يحدث ان يكونوا مسلمين في « ترك » او « كوبان » ، وبوذيين في ما وراء بحيرة « بايكال » ؛ وكان بعضهم يهوداً . واشتهر قوزاق الـ « دون » بقيادة «بافل يعقوبلفيتش دي رينِنكامبف » في حروبهم ضد فارس ، وفي بولونيا والقفقاس وهنغاريا والقرم . ثم عمد القيصر ، رغبة منه في توطيد فتح القفقاس ، الى تنظيم قوزاق كوبان ، وقوزاك ترك مقطعاً اياهم بعض الاراضي في هذه المناطق . واشترك قوزاق الاورال في حملة بيروفسكي . وكان « سكوبليف » بطلهم في تركستان وفي حملة البلقان في السنة ١٨٧٧ ؛ وكانوا يلقبونه بالـ « باشا الابيض » . وتألفت في «سميرتشنسك » فرقة من قوزاق سيبيريا لمراقبة تركستان . واضاف مورافييف الى الفرقة المقيمة في ما وراء بحيرة بايكال فرقة الـ « امور » مجنداً افرادها من بين الـ « بوريات المغوليين» البوذيين ، المشهورين بالقنص واحتساء الشاي . وكان هؤلاء بمثابة المراكز الامامية للسيطرة على الشرق الاقصى التي لن يربطها الخط الحديدي بروسيا الاوروبية الا في اواخر القرن .

كانت هذه الامبراطورية اكبر من ان تدار بالضبط اللازم : فان مسألة المسافة لم تحل الا جزئياً بانشاء الخطوط التلفرافية وببناء خطين او ثلاثة خطوط حديدية كبرى . فقد بقي هناك شيء ناقص لم يكتمل ، أعني به وضع اليد على الارض ، بسبب عدم اتصال المناطق المأهولة . ولكن الخطر الروسي كان جديا على حدود هذه الكتلة الضخمة التي بدت وكأنها ستسحق آسيا بكاملها في يوم من الايام .

تأسيس امبراطورية استعمارية فرنسية جديدة

جمع الفرنسيون شيئاً فشيئاً العناصر التي ستتألف منها ، خلال مئة سنة ، احدى أوسع الامبراطوريات الاستعمارية ، دون ان يسيروا على مخطط مدروس ودون ان تحركهم الحاجة الى مناطق قادرة على استيعاب المهاجرين ، ولكنهم كانوا في ذلك حريصين على الدفاع عن مصالح لم تكن دائماً

مصالح مادية .

لم يبق من الممتلكات الماضية سوى بعض اجزاء مستعمرات المناطق الحارة التي تصادم حول ادارتها التقليد التجاري ورأي مواليد المستعمرات من الفرنسيين ومبادىء السنة ١٧٨٩ . وقد اثبتت الجمهورية الثانية وجودها القصير الامد بالغاء الرق واستهلال سياسة التمثيل ؛ وفي عهد الامبراطورية الثانية زالت « الحصرية » نهائياً من الوجود .

كان الحدث الهام احتلال الجزائر الذي اثار بعض الاسئلة : امتداد للوطن الام ؟ أم تمايش مع البلديين وفاقاً لنظام مختلط ؟ تلمس المستعمرون طريقهم الى ان تأيد عمل فرنسا في المناطق الحارة بارتسام عالمين استعماريين مختلفين ، احدهما في افريقيا والثاني في آسيا : فحوالي السنة ١٨٦٠ ، وفي ظل الحرية الاقتصادية ، بدت الحماية بمرونتها كخير نظام لادارة مناطق مختلفة كل الاختلاف كافريقيا الشمالية والسنغال وكوشنشين؛ ولكن فرنسيي الجزائر قد قاوموا فكرة « المملكة العربية » .

كانت الجمهورية الثالثة مرتابة حيال المستقبل ومرغمة على الوقوف موقف الارتقاب ، فاختارت في البدء سياسة التمثيل التي كان مدعواً للاستفادة منها لا مستعمرات الجزائر القديمة فحسب بل السنغال والمؤسسات الاستعمارية في الهند ايضاً . ثم تألفت كتلة افريقية ، من المتوسط – بجبهة زادت اتساعاً على هذا البحر – حتى خليج غينيا و « دارفور » وحتى الكونغو الاسفل . وجرى تجمع آخر في داخل المثلث المرسوم بين جيبوتي وشاندرناغور و « سانت – ماري » في مدغشقر ؛ وارتسمت كتلة ثالثة في الهند الصينية . واذا اضفنا الى ذلك ان فرنسا موجودة في اميركا واشتركت في اقتسام اوقيانيا ، اتضح لنا ان امبراطوريتها قد تميزت بوجودها في كل مكان على غرار الامبراطورية البريطانية . وانما تقابلت نزعات مختلفة اتصل بعضها بالفلسفة الجمهورية الديموقراطية وبعضها الآخر بالموضوعية النفعية ، او كانت توفيقاً بين المبادىء والوقائع . واضطرت الانتهازية،بالاضافة الى ذلك، الى ان تأخذ بعين الاعتبار المعارضة المقاومة للاستعمار ، فقامت بتبديل الصيغ وفاقاً للظروف والحالات ، وتبرير « الاستبداد المستنير » الذي يعتمده الحكام، وافساح المجال في الوقت نفسه للمشاريع الرأسمالية. ولم يكن هناك وزارة مستقلة للمستعمرات قبل السنة ١٨٩٤ : بل اكتفي بمجلس أعلى استشاري انشىء في السنة ١٨٨٣ ، ومديرية ترتبط اما بوزارة التجارة واما بوزارة البحرية ، بينما ارتبطت محميتا تونس وأنّام بوزارة الشؤون الخارجية . وترقبت التجمعات الاقليمية (اتحاد الهند الصينية ، وافريقيا الغربية الفرنسية ، وافريقيا الاستوائية الفرنسية) انشاء ملاك الحكام الاستعماريين في السنة ١٨٨٧ . يضاف الى ذلك ان ردة فعل مذهب حماية الصناعة الوطنية قد شجعت السياسة المعروفة بسياسة الربط التي كانت التدابير الجمركية نفسها ممكنة التطبيق بموجبها في الوطن الام والجزائر والمستعمرات القديمة ومدغشقر. اما بصدد المحميات والممتلكات الاخرى فيجب التفاوض مع الاجانب .

ان توثيق الروابط هذا بين فرنسا وممتلكاتها قد صادف في الزمن فترة الهبوط الاقتصادي . فاعتمدت الانتهازية والاختبارية طرائق جديدة . وقابل اللامركزية الادارية والتجمعات الاقليمية توجيه نحو الاستقلال المالي الذي كان من شأنه تشجيع التجهيز دون ان يتحمل الوطن الام نفقات كبرى .

دخلت «فرنسا الكبرى» هذه في التراث العاطفي الفرنسي ، مع ان الفرنسي لم يُجد تحديدها كما يجب التحديد . ولكنها لم تعرف ، لمدة طويلة ، سوى تقدم بطيء جداً ، لأنه كان ينتظر منها اكثر مما يسلّم باعطائها .

التفوق البريطاني

منذ أواخر القرن الثامن عشر تجدد ارتقاء بريطانيا وسيرها قدماً . فقد حلت محل امبراطوريتها الاولى ، التي كانت تجارية وتمثلت في اميركا اكثر منها في القارات الاخرى ، امبراطورية ثانية ارتسمت حدودها حوالي السنة ١٨٥٠ وبلغت الذروة في السنوات ١٨٧٠ — ١٨٨٠ . تلك هي امبراطورية العهد الفيكتوري : امبراطورية المقايضة الحرة ؛ امبراطورية بريطانيا العظمى التي اصبحت بدون منازع اعظم دولة بحرية وتجارية وصناعية ومصرفية ايضاً . زد على ذلك من جهة ثانية ان الهيمنة البريطانية قد بلغت، كما يبدو ، من الرجحان الذي لا يقاوم ما جعل بعضهم يعتبرون استخدام القوة وحتى عرضها عملية نافلة كان لها ما يبررها قبل تلك الايام ؛ فليس من حاجة الا للمفاوضة والتجارة لترجح الحجة البريطانية . الا ان وجود الامبراطورية كان ضمانة جليلة الفائدة للتقدم .

تألفت الامبراطورية من عناصر ثلاثة موروثة عن العهود السابقة ما زالت تتقدم تدريجياً : المستعمرات الستراتيجية ، المناطق الحارة ولا سيما الهند ، ومستعمرات الاسكان في المنطقتين المعتدلتين .

كان المضرب العظيم الذي حاكته انكلترا على سطح الارض على وشك الاكتمال . وقد طنبته شبكة كثيفة من الاسواق التجارية ونقاط المساندة ومرافىء التموين ، وفاقاً للطريقة الاستعمارية البورتغالية . فحيثما وجد جون امين ونقطة يسهل اقتراب السفن منها على الطرق البحرية ، هناك يكون البريطاني. امعن في البحث عن الجزر وحتى عن الجزيرات في المضائق، وجعل منها محطات بحرية لتزويد اساطيله بالمياه والمواد الغذائية والمحروقات وتموين السفن الاجنبية . وعلق فيها اسلاكه التلغرافية . وانطلق منها ، عند الحاجة ، لاستطلاع الوضع التجاري في القارات القريبة . واستخدمها كقواعد للعمليات البحرية وحتى البرية . فامتلك من ثم معظم الجزر المتناثرة امام الشاطىء الاطلسي في العالم الجديد ، التي كانت بمثابة الركائز لجسر عظيم يصل اوروبا بافريقيا الجنوبية (حتى ولو كانت ترفع علما ايبيريا) ، والجزر المتناثرة كذلك في المحيط الهندي — الذي احتفظ به لنفسه — او المحيطة به ، والجزر التي تسيطر على مدخل بحر الصين . واضاف بيريم الى عدن لمراقبة باب المندب مراقبة فضلى ،

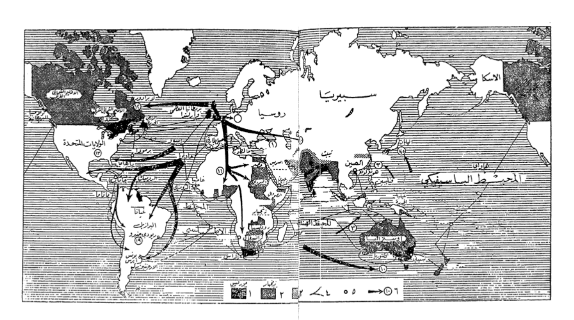
وهونغ كونغ الى سنغافوره لاستقطاب تجارة الصين ، وحين شعر بأنه ما زال بحاجة الى محطة اخرى ، استولى على جزيرة « لابوان » أمام ساحل بورنيو الشمالي ، التي انطلق منها لاحتلال بورنيو الشمالية البريطانية ؛ وخلال السنة ١٨٧٨ ، حين اشتدت الازمة بينه وبين روسيا ، وضع يده على قبرص في المتوسط الشرقي ؛ ولم يكتف بانزال جيوشه الى جزر البحرين وكشم في مضيق اورموز لمراقبة الخليج الفارسي ، بل وقع اختياره على رأس جارك قبالة مسقط ، وجزر كوريا - موريا جنوبي الجزيرة العربية ، وجزيرة سكوطرة عند مدخل خليج عدن ؛ وباستيلائه على جزر « فيجي » احتفظ لنفسه باحدى المحطات الفضلى على الطريق البحرية عبر الباسيفيكي من الشمال الى الجنوب . وكانت هذه المواقع بمثابة نوافذ على الاراضي المجاورة : سنغافورة على الدول المالزية ، ولابوان على بورنيو ، وعدن على مؤخرتها العربية ، ولاغوس على نيجيريا ، و « ممباز » على افريقيا الشرقية ؛ بالاضافة الى زنجبار التي قايض هليغولند بها في السنة ١٨٩٠ .

الهند الغربية والهند الشرقية : لوحتان دلتا ابداً على الممتلكات الكبرى في المناطق الحارة . فمن جهة ارخبيل « وندوورد » وارخبيل « ليوورد » في الانتيل ، وجامايكا الجميلة ، وكبرى مستعمرات « غويانا » ، وبقعة من « هوندوراس » حول « بليز » ؛ ومن جهة اخرى الهند وملحقاتها . وفيما بينهما ، اي في افريقيا ، مستعمرات لا اهمية كبرى لها : غامبيا و « سيراليون » وسوقا اكرا ولاغوس على الشاطىء الغربي . فقد انحصر الاهتمام كله بالهند التي لم يدخر الانكليز وسعاً في سبيل استثمارها وحماية حدودها . اليها اتجهت كافة الطرقات التي سهرت عليها غيرة مفرطة : الطريق القديمة التي زاد نمو افريقيا الجنوبية البريطانية من تعزيزها ، والطريق الجديدة التي كادت تصبح بدورها طريقاً بريطانية بعد احتلال مصر . وقد تلاحمت حينذاك الحلقة الاخيرة من السلسلة الامبراطورية التي امتدت بين لندن وبومباي مروراً بجبل طارق ومالطا والبحر الاحمر .

ولم يعتد بكندا وافريقيا الجنوبية والمستعمرات الاوسترالية للاسكان بقدر ما اعتد بها لمساحاتها الكبرى . بيد ان الاوروبيين اخذوا يتوافدون عليها بأعداد كبيرة ، ونمت فيها حياة على الطراز البريطاني . فأخذت تترعرع شخصيات قومية قوية في هذه الاراضي التي اكتسب فيها المهاجر عادات جديدة اضافها الى اخلاق الوطن الام .

والحال ، في الوقت الذي ما زال غلادستون يثبت فيه انه المعبر الامين عن الحرية المنشستريه ، وبينما تواصل في الوقت نفسه ، في الوطن الام ، وفي مستعمرات الإسكان ، وحتى في مستعمرات المناطق الحارة ، تطور نحو نظام تمثيلي اوسع عدداً ، دخلت الامبراطورية الثانية في مرحلة تحول .

هي نتيجة الهبوط الاقتصادي ما جعلت المنافسة اشد حدة والحمى الاستعمارية اعظم خطورة في حين بدأ التسابق الى التسلح . فاتخذت الدولة البريطانية احتياطاتها على طريق



شكل ١٢ — الع بريطانية في القرن التاسع عشر

١ ، الممتلكات البريطانية في السنة ١٨١٥ ؛ ٢ ،التوسع الاقليمي خلال القرن التا شر ؛ ٣ ، مناطق النفوذ ؛ ٤ ، الخطوط التلغرافية البحرية الرئيسية التي تملكها شركات بريطانية؛ ٥ ، موانىء التموين والمحطات البحرية الهامة ؛ ٦ ، وجهات وقيم الاموال البريطانية ال ، بلايين الفرنكات ، في السنة ١٩١٣ . (نقلا عن « هربرت فايس » في «اوروبا مصير في العالم»)٠

الهند عبر السويس ؛ ولكنها ما كانت لتستطيع البقاء بعيدة عن اقتسام افريقيا واوقيانيا الذي سوف يتحقق بكل سرعة . اضف الى ذلك من جهة ثانية أن القوميات الفتية استيقظت في داخل مستعمراتها الاسكانية التي سبق ومنحتها الحكم الذاتي : فاذا اصبح بمقدور ممتلكة كندا في شبابها ان تنفتح على اميركا الشمالية ، فان اوستراليا وزيلندا الجديدة اخذتا منذ ذاك الحين تنشطان في الجزر الاوقيانوسية الصغرى ، وانطلاقاً من « الراس » تأسست شيئاً فشيئاً افريقيا جنوبية بريطانية واسعة الارجاء . وهكذا بينما كانت بريطانيا تعزز حدود الهند باستيلائها على الممرات الايرانية والهملاوية وبضمها بورما ، هجمت بجيوشها على افريقيا حيث اقتطعت مستعمرات واسعة جديدة . وكانت مكاسبها الاقليمية عظيمة جداً بين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٢ : ١١ مليون كيلومتر مربع .

باتت الامبراطورية برية اكثر منها بحرية . وبعد اليوم تمثلت فيها الجماعات البشرية المتأخرة حضارة والمتخلفة تطوراً تمثلا اقوى ، فتعاظم التضاد سياسياً بين هذه المناطق التي كان الوطن الام حريصاً على الاحتفاظ بها وبين المجتمعات الاوروبية الطابع التي ستكوّن الممتلكات . ولكن بريطانيا اهتدت بمرونة الى خير صيغة تلائم مزاج كل منطقة . واذا قضت الحاجة بأساليب مختلفة ، واذا اقلقت بعض القوى الانفصالية ، الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة ، فان التضامن قد عززته الحاجة الى دفاع مشترك واعتماد مبدأ الحماية التجارية اعتماداً مطرداً .

وفي آخر القرن كان العالم البريطاني محافظاً على تلاحمه وعلى الاعتزاز بتفوقه .

المستعمرون الاخيرون : من الارث البلجيكي الى المطامع الالمانية والايطالية

في السنة ١٩٠٠ ، كان اقتطاع المستعمرات قد بلغ مرحلة متقدمة جداً ، وهي الدول القديمة ، ولا سيما فرنسا وبريطانيا العظمى ، ما اصابها النصيب الاوفر . ولكن دولاً استعمارية جديدة قد برزت .

فان الدولة الكونغولية ، التي كانت ثمرة مبادهة ملكية ومعاهدات دولية لم تضمن مستقبلها ، سوف تخضع لرقابة حكومة بروكسل : انها أوسع الانصبة مساحة واكثرها تجانساً واوفرها ثروة واصعبها استثماراً .

كان بسمارك قد اشرف على ولادة « الدولة » المستقلة . فهل هو لم يصمم بعد على تحمل مسؤولياته يا ترى ؟ ام هل أنه كان راغباً في مراعاة جانب انكلترا ؟ واذا كان هذا هو واقع الحال ، فماذا تستطيع المانيا ، ان لم يكن الاستئثار بما تبقى بعد التقسيمات الكبرى ؟ وهكذا تكونت ، في اقل من عشرين سنة ، مستعمرات المانية شملت مجموعتين ، الاولى في افريقيا (جنوبي غربي افريقيا) وهي نصف صحراوية وتتميز بعدم الاتصال وصعوبة الاستثمار ، والثانية في الباسيفيكي (في ساموا ، وغينيا الجديدة ، ومجموعة الجزر المجاورة) ، وهي نائية جداً وقليلة التجانس . ومن جهة ثانية لم يبتغ بسمارك سوى تشجيع مشاريع مواطنيه ؛ فهو في

كل مكان تقريباً قد اراح نفسه من شجون الادارة ملقياً اياها على عاتق الشركات المتعاقدة ، وحين حل « الرايخ » محل هذه الاخيرة ، وجد نفسه أمام « مقاطعات موضوعة تحت حماية الامبراطور » لا ترتبط الا بالمستشارية الامبراطورية . وبعد بسمارك لم يبق من اهمية لهذه المستعمرات ، في برلين ، الا بالنسبة للسياسة التوسعية الجرمانية ؛ فقد تمتعت فيها الشركات ذات الامتياز بكل حرية ، وأتت التجاوزات نفسها التي اتتها الامتيازات البلجيكية او الفرنسية.

ولكن ألمانيا ، التي عجزت عن ارضاء حاجات هجرة واسعة وحاجات رأسمالية تزايدت مشاريعها ، والتي لم تمتلك اي موقع من المواقع الهامة الرئيسية ، والتي كانت مع ذلك في موقف ملائم للمطالبة ، اذ ان ممتلكاتها كانت محاطة بممتلكات الدول الاخرى ، ارغمت بالضرورة على اللجوء الى التهديد الجدي للحصول على فوائد جديدة .

كانت ايطاليا دون المانيا قوة ، ولكنها ،على الرغم من ذلك ، كانت راغبة في الاستيلاء على تونس : فخاب املها مرة أولى . ثم توجهت بانظارها الى افريقيا الشرقية : ولكن قواعد انطلاقها (اريتريا والصومال) كانت ضيقة ، فانتهى هجومها على الحبشة في السنة ١٨٩٦ بكارثة كبرى . وجملة القول انها كانت غنية بالرجال وفقيرة بوسائل العمل ، فلن ترضى ولن تقنع ، بل ستوجه اطماعها شطر ليبيا .

بيد ان مجالات المنافسة قد ضاقت حين استفادت الولايات المتحدة من الانحطاط الاسباني ودخلت المعترك بدورها . فحول المناطق الاخيرة التي لم تدخل في فلك احد – المغرب ، والشرق الادنى ، والشرق الاقصى – كانت الدول الاستعمارية ، القديمة منها والجديدة على السواء ، في حالة ترقب وتأهب . وفي الشرق الاقصى برز شريك مضارب اخير هو اليابان .

لقد بلغ توسع اوروبا الاستعماري ذروة اشرف منها على الانحدار .

القسم الثالث

الحضارة الأوروبية
في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

بلغت اوروبا في هذه الحقبة من تاريخها ذروة القوة والسيطرة . فهي تنعم بما تمّ لها من سؤدد وسيادة وسلطان . هنالك لعمري ، في الشرق والجنوب منها، مناطــق ريفية لم تتأثر كثيراً بالتطور الرأسمالي . فالمدينة هي التي تبعث في الغالب ، الحركة والنشاط وتدفع بها الى الامام بسرعة . ففي الاطار المدني ، البورجوازية هي التي توجه الانتاج وتشرف على توزيع الـثروات وتتحكم بالمدينة التي تنعم بالحرية وتكيف ما يقوم فيها من نظم ومؤسسات.

ومع ان عملية تفاعل العناصر التي تؤلف قوام الحضارة الاوروبية تنمو بسرعـــة وتنشط باستمرار، فالتنوع لا يزال يستبد بالنظر في هذه القارة التي تفيض ، بالرغم من صغرها، بالمفارقات الاقليمية والاجتماعية . فالاثراء في قلب كل دولة من دولها المتعددة يرسم منحنىً تلحظ العين بسرعة ما فيه من نقاط سود يرسمها الفقر . فاذا ما ارتفع فيها المستوى العام للحياة ، فحقوق البروليتارية فيها آخذة بالتضخم .

والى هذه كله فالنفوس في غليان موصول ومعين الفن فيها ابعد من ان يجف او ينضب .

الفصل الأول

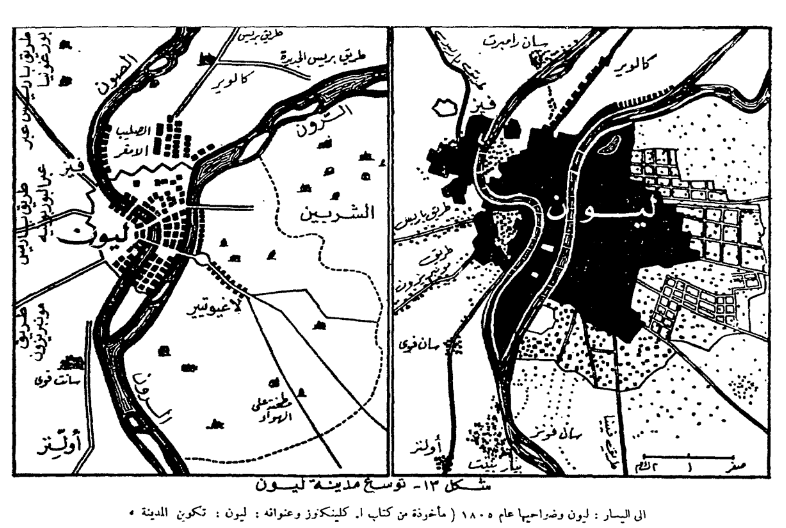
المدينة ودفعها الشديد

«اخضعت البورجوازية الريف المدينة وخلقت مدناً جبارة» . (بيان الحزب الشيوعي- ١٨٤٨) .

ازدياد السكان في المدن

اتخذت المدن في النصف الثاني من القرن التاسع عشر مظهراً من الضخامة والاتساع لم يسبق له مثيل للآن . كان سكان الريف، حتى عام١٨٥٠، اوفر عدداً منهم في المدن ، باستثناء انكلترا . واخذت حركة الاحتشاد والتجمع في المدن تزداد بسرعة . وهذا التجمع والتمركز تم بالطبع على حساب الريف، واخذ يتطور ويتضخم. فهو ناجم عن حركة نزوح سكان الريف ، ولا يمكن رده بصورة من الصور للنمو والتزايد الطبيعي لنسبة المواليد في المدن . ففي فرنسا مثلا نرى ان المجتمعات التي يمكن وصفها بالمدينية (وهي التي يجب الا يقل عدد السكان فيها عن ٢٠٠٠ نسمة) ارتفع عدد السكان فيها ، بين احصاء ١٨٤٦ و ١٨٩٦ ، الى٦٣٧٩٠٠٠ وهو عدد يشير ليس الى مجموع الزيادة العامة فحسب بل ايضاً الى نسبة امتصاص المدن من سكان الريف ما مجموعه ٣٢٦١٠٠٠ نسمة . وهنا لا بد لنا من الملاحظة ان سير هذا التطور كان اسرع في مقاطعات الغرب والوسط منه في الشرق والجنوب ، وهكذا برز لنا بوضوح كلي تفوق مديني يزداد يوماً بعد يوم في وجه هذه القارة الاوروبية التي لا تزال بعد ريفية في صميمها .

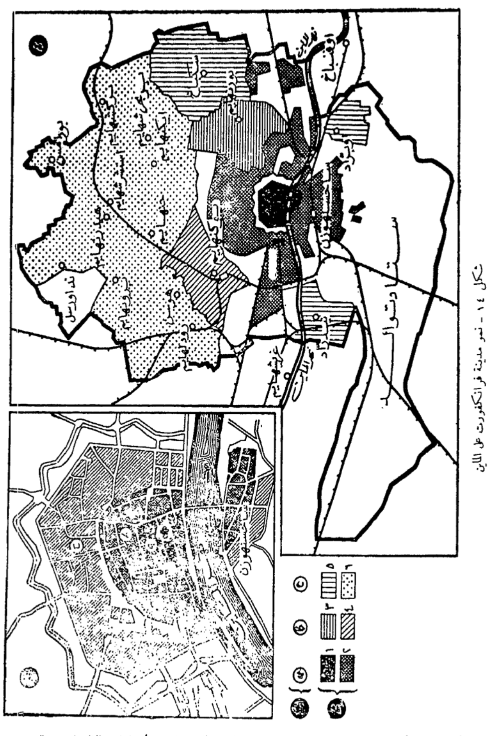
هنالك حوالي ١٨١٥ ، اقل من ٢ بالمئة من سكان اوروبا يقطنون نحواً من عشرين مدينة يتجاوز عدد سكان الواحدة منها ١٠٠ الف نسمة ، بينما نرى عام ١٩١٠ ، ست مدن يزيد عدد سكان الواحدة منها على مليون نسمة ، و ٥٥ مدينة يزيد عدد سكان الواحدة منها على ١٠٠ الف فتضم معاً ١٥ بالمئة من المجموع العام للسكان في اوروبا . فالمرتبة التي تحتلها عواصم



شكل ١٣ - توسع مدينة ليون

الى اليسار : ليون وضواحيها عام ١٨٠٥ (مأخوذة من كتاب ا. كلينكلوز وعنوانه : ليون : تكوين المدينة ، ص ٣٥٠) .

الى اليمين : ليون عام ١٩١١ « مأخوذة من كتاب ف. درتاك : « تاريخ منطقة ليون » صفحة ١٣٩ « رسوم بيانية من وضع ل. ترونار » .

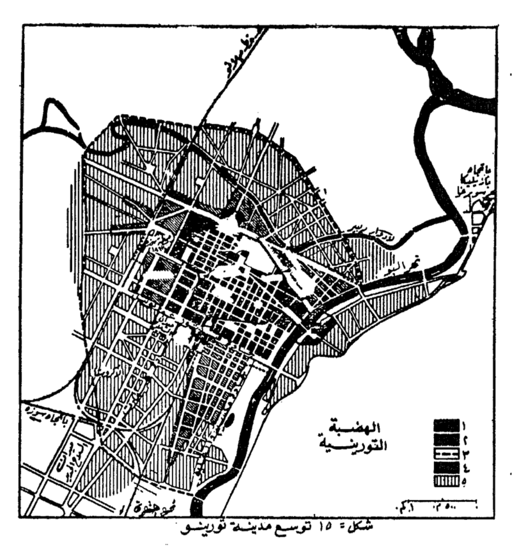


شكل ١٤ - نمو مدينة فرانكفورت على الماين

اولا - فرانكفورت عام ١٨٥٣ يبدو في الرسم : ١ - الالستادت على مقربة الجسر القديم؛ ٢ - النمو الثاني؛ الامتداد الاول الذي تم في القرن الثاني عشر . ←

ثانياً ـ نمو فرانكفورت في القرن التاسع عشر : يظهر الرسم المدينة القديمة بأحيائها : الالستادت والنوستادت فيهما ٤٠٠٠٠ نسمة عام ١٨٠٠ ، وتأخذ المدينة بالتوسع والامتداد وراء السور الذي اقيم في القرن السادس عشر . تبلغ مساحة المدينة اذ ذاك ٦٧٨٢ هكتاراً . كما يرتفع عدد سكانها عام ١٨٦٦ الى ٨٠٠٠٠ نسمة ، وتأخذ المدينة بالتوسع على حساب المساحات الواقعة وراء السور ، بحيث اصبحت تعد ، عام ١٨٩٥ ، اكثر من ٢٨٠٠٠٠ وارتفعت مساحتها الى ٨٠١٤ هكتاراً .

الدول تلفت النظر وتستبد بالانتباه والملاحظة . فقد ضمت لندن ، عام ١٨٨٠ ، نحـــواً من ٤ ملايين من اصل ٣٠ مليوناً انكليزياً ، وضمت باريس قرابة ٣ ملايين من اصل ٣٧ مليوناً فرنسياً



شكل = ١٥ توسع مدينة تورينو

١ ـ جرى تحصين المدينة في مطلع القرن التاسع عشر (٢٨٠ هكتاراً) تسع ٦٥٠٠٠ نسمة.

٢ ـ امتداد على عهد شارل البير .

٣ ـ حدودها عام ١٨٥٣ (١٦٦٢ هكتاراً).

٤ ـ منطقة جرى اعمارها حوالي عام ١٨٨٥ (٢٥٠ الف نسمة).

٥ ـ امتداد المدينة في اواخر القرن التاسع عشر (٦٠٠٠ هكتار ، و ٤١٥٠٠٠نسمة عام ١٩١١) .

(مأخوذة من كتاب ب. غريبود)

فالزيادة في قرن واحد بلغت ٣٠٠ بالمائة في مـــدينة بطرسبورغ ، و ٣٤٠ بالمائة في لندن ،

و ٣٤٥ بالمائة في باريس وبلغت في فيينا ٤٩٠ بالمائة ، وفي برلين ٨٧٢ بالمائة . فسكان لندن اذ ذاك يعادلون سكان بلجيكا .

والطابع العالمي والدولي لسكان المدن الكبيرة يشتد ويبرز باستمرار . فتيارات الهجرة الضخمة تتجه اليها . فالايرلنديون والسكندينافيون والعديد من سكان القارة ينزحون الى لندن . بينما السلافيون والمجر واليهود يقصدون فيينا . فمن مجموع سكان مدينة ميونيخ ، في عام ١٨٩٥ ، ٣٧ بالمائة فقط ولدوا فيها . اما في مدينة سانت اتيين فعدد من ولدوا فيها هم ٥٠ بالمائة .

المدينة القديمة وتوسع المدينة الحديثة

فاذا ما ساعد القرن على تأمين النمو للمدن القائمة ، فقد عمل بالاكثر على صقلها وافراغها .

صحيح ان المنجم والمصنع ساعدا كثيراً على خلق مدن جديدة كانت مواقعهـــا في الامس القريب خواء . والامر يتم ، بالاحرى مع المصنع الذي يقوم عـــادة حيث تتوفر امكانات التوزيع . وقد جاء الخط الحديدي هنا يقوم بعملية غربلة او تخير افادت منها بعض التجمعات اكثر من البعض الآخر ، كما ان فن الملاحة وتطورها ساعد كثيراً في نمو المرافيء وامتدادهـا . ولا بد من الملاحظة هنا ان النشاطات السياسية والادارية والفكرية حتى والدينية منها لعبت هي الاخرى دورها البارز في نمو المدن وتوسعها .

ولما كانت المدينة ترتبط بالريف الذي يحيط بها ارتباطاً وثيقاً فتؤلف منه سوقـــاً وبندراً تجارياً ، فقد عرفت كيف تحافظ على اسباب وجودها . فقد تجلت صورتها لموريس باريس عام ١٩٠٩ كما يلي : « هاهي منذ اجيال تحتل الرابية نفسها التي تقوم فوقها الآن . هاهي ذاتهـــا تقريباً ، باستثناء سورها الذي فقد الكثير من متانته الاولى . فقد استحال الحيز الذي شغله حدائق غناء وجنات خضراء وضعت فيها سلواها ومتعتها. ففي كل يوم ، وفي الساعات والاوقات ذاتها نرى هذه الايدي التي تعتني بها ... »

كثيراً ما يحدث ان هذا الماضي الماثل امامنا لم يلحق به عصر الصناعة الكبرى الذي يسيطر الآن، اي اذى، وهذه المظاهر والرؤى المتتالية تحيى معاً وتتراكب بعدان تتخلى عن ميزاتها الفارقة. فالمدينة القديمة هي التي تحدد موقعها على العموم، وعلى كل خطة توضع لتجميلها ان تحسب حساباً لها وان تتكيف ومقتضيات هذا الوضع الطوبوغرافي . وتبذل حركة تطوير المدينـــة كل جهد مستطاع لتحترم آثار المدينة وخططها التاريخية ، فلا تمسها معاول الهدم . ولذا فتراكم المنازل وتراكبها بعضاً على بعض كثيراً ما يجري في هذه الاحياء التاريخية . وقد يجري هـذا الاحتقان قبل ان تتيح وسائل النقل السريعة على اختلاف انواعها ، مراعاة حركة البناء والامتداد لتوفير الفراغ والساحات فيما بينها . ففي برلين حيث الاتساع والامتداد تم باكراً وبسرعة غريبة » فقد بلغت كثافة السكان في قلب المدينة ، عام ١٨٩٠ ، ما معدله ٣٧٥ شخصاً في الهكتار الواحد ، مقابل ٢٥٠ نسمة للهكتار بالنسبة للمدينة كلها . ومع ذلك فبفضل حركة الامتداد

والاتساع ، لم يعد مركز القلب ليمثل ، في لندن ، سوى ٥٫٨ بالمائة من مجموع السكان عام ١٨٩١ ، بينما كان معدله ١٥ بالمائة عام ١٨٠١ ، بعد ان فقد قلب المدينة ٧٠ بالمائة من سكانه. أما في برلين ، فالاحياء *Alstadt* والـ *Ferderichstadt* يسجلان تأخراً او بالاحرى تقهقراً بين ١٨٧٥ – ١٨٩٦ ، اذ هبط معدل السكان فيها من ١٧٫٦ الى ٧٫٣ بالمائة . وفي باريس ، هدمت الامبراطورية الثانية الاحياء العائدة فيها الى الاجيال الوسطى او الى عهد الملكية المطلقة ، وذلك بما يوازي مساحة ٥٠٠ هكتار من اصل ٣٣٧١ هكتاراً هي مساحة المدينة داخل الحصون التي امر بتشييدها الملك لويس فيليب. فقد امر بفتح ثغرات او فجوات واقام ميادين او مساحات في قلب المدينة ، وبنى دوراً للحكومة رحبة ، كما امر بهدم المنازل السكنية الحقيرة المنظر ذات المساكن الضيقة لتحل محلها مبانٍ بورجوازية ضخمة . فهاهو برودون يحدثنا عن « المدينة الجديدة الرتيبة ، المملة التي انشأها هوسمان ، مع ما لها من جادات مستقيمة الزوايا وفنادق ضخمة وأرصفة بديعة ، مقفرة ، ونهرها الكئيب الذي لم يعد يرى ينقل سوى احمال الحجارة والرمل مع مرائب وعنابر قائمة لدى منتهيات الخطوط الحديدية، التي بعد ان حلت محل مرافىء المدينة وموانئها القديمة ، افقدتها سبب وجودها لهذه الساحات والميادين ودور التمثيل الجديدة وطرقها المرصوفة بالحصباء ، وهذه الطوابير من الكناسين ، وهذه السحائب الخفيفة ، من الغبار المتصاعد . واخذت الاحياء ترتدي طابعاً خاصاً مميزاً ، لكل منها منظره الهندسي الخاص . هنا الاحياء الخاصة بالتجارة بالجملة ، وهناك احياء محطة سكة الحديد ، واحياء الادارات العامة .وهذه الحواجز والفواصل المادية لم تلبث ان حملت طابعاً اجتماعياً مميزاً اخذ يبرز من خلال ارادة البورجوازية . « فالعملاء أبعدوا بقسوة عن قلب المدينة » ، كما يلاحظ اوغسطين كوشين. اما في منشستر حيث يسكن اصحاب الفبارك والمصانع، عام ١٨٣٠، يسكنون منازل ، اسودت جدرانها من تراكم السخام عليها ، منازل كانت تحيط بها اكواخ العمال وزرائبهم ، فلم يلبثوا ان نزحوا الى ضواحي المدينة حيث يتوفر الهواء الطلق ، بعيدين عن كل اتصال بطبقة البورجوازيين والمياومين الذين اخذوا يتكدسون في احياء تفتقر الى الوسائل الصحية .

وعلى جانبي الشارع الذي خططوا له من عهد قريب ، ترتفع هذه المباني والعمائر المعدة للاستثمار ، من ابرز انواعها هذه العمارات ذات الواجهة الجميلة ، بينما الظهر منها يطل على ساحة داخلية ظليلة ، والطابق العلوي يحتفظ به للخدم والعشم وقد قسم دائرياً الى حجرات ذات سقف سندي يدخلها النور من منافذ في السقف . والطابق او الدور الواحد يقسم الى شقق او مساكن ، يضم كل واحد منها عدة غرف كبيرة ، رحبة بعد ان ضحّوا بالمطبخ والقسم الصحي ، اذ ان غرفة الحمام لم يهتموا بها إلا فيما بعد . فكل شيء في المبنى جرى تصميمه على اساس تجاري برسم الايجار .

ويقوم حول المدينة جادة دائرية او صف من مراكز الدخولية . وتجاوز هذا الخط الى

الى الوراء يعتبر حدثا هاماً في تاريخ تطور المدينة وامتدادها ، اذ يحررها ، الى الابـد ، من النطاق المضروب حولها ويفتح امامها مجال التوسع والامتداد . وقد قـام حول باريس عدد من هذه المناطق الدائرية استحالت فيما بعد حارات واحياء جميلة متعددة المركز ، وقـد حدّ من طاقتها على التطور والاتساع سلسلة الحصون التي انشئت حولها عام ١٨٤٠ . ولم تخضع لندن لمثل هذا الارتفاق الذي يحد من قدرتها على التوسع . وقد حل نطاق من المباني والعمائر محـل الاسوار بعد ان أزيلت من الاساس وُهدمت عـام ١٨٥٧ ،وأزيلت كذلك تباعاً من مدينة انفرس اسوارها عام ١٨٥٩ ، وكذلك من مدينتي بال وبرشلونة ، عام ١٨٦٠ ، ومن كوبنهاغن ، بـين ١٨٥٧ و ١٨٧٢ ، ومن كولوني عـام ١٨٨١ ، وامتدت ميلانو الى ما وراء سلسلة الحصون التي كانت تحميها ، كما ان مدينة امستردام تجاوزت كثيراً نطاق شبكة الاقنية المائية والترع التي كانت تحيط بها . وعمر حي المحطة بالمباني السوقية حيث اخذت تظهر سلسلة من الفنادق والمقاهي، ولن تلبث المـدينة حتى غطت الضواحي القريبة فاصبحت بدورها احيـاءً عـامرة اصبحت واسطة العقد بين الريف والمدينة .

بحثاً عن هندسة خاصة بالمدن

هنالك رغبة شديدة في ادخـال تعديل اساسي عـلى هـذا الطراز المعماري المسيطر على الاذواق في بناء عمارات ضخمة ، بالجملة . ففي مذكراته يعترف هوسمان « بانه كثيراً ما ضحى بالخط السوي في البناء » ويأسف كثيراً لان عهد الامبراطورية الثانية لم يشهد مهندساً خلاقاً يحاول اجراء تجديد في فن العمارة بحيث يراعي الموجبات الجديـدة » . وبالفعل ، فالعصر كله يتعثر في تردده ، ويكثر من التقليد كما ان ابتكاراته تفتقر الى الإصالة .

وبشعور من الوجل والجرأة ، والتردد والاقـدام ، خيل للكثيرين في هذا العصر ان عليهم او باستطاعتهم ان يقلدوا ، على هواهم ، الفن القديم او الفن الغوطي او فن عهد النهضة والانبعاث . ولذا نراهم يندفعون وراء التجديد والتقليد . فقد علقت باريس بالفن الايطالي في عهـد النهضة محتذية بذلك حذو العصر الذهبي الكبير (القرن السابع عشر) فتحيي بذلك الفن الكلاسيكي الروماني ، كما يظهر ذلك جلياً لمن يتملى النظر في كنيسة الثالوث الاقـدس وسان فرنسوا كسافييه ، والاوبرا واللوفر الجديد ، كما يحلو لفارنييه الاكثار من تزويق الأوبرا بشكل ينبو عن الذوق السليم ، كما ان دو كـنوى عمـد هو الآخر، الى تقليد الفن الكلاسيكي في هندسته لمحطة الخط الحديدي الشمالية ، ويحذو حذوه هيتورب في بنائه المحطة الشرقية . الا ان بلتار الذي تولى بناء الهال الذي اكثر فيه من المـواد المعدنية آثر ان يضفي على كنيسة القديس اوغسطين ، مظهراً بيزنطياً . اما البريطانيون المحافظون فقد مالوا بالاحرى الى الطراز الغوطي بينما اخـذ الاحرار منهم بالطراز الكلاسيكي كما نتمثل ذلك في قصر بوكنغهام مثـلا وفي اروقة كاتدرائية سانت بول ، والطابق الارضي لمسلة نلسون، بينما ارتدت مباني الجامعة في لندن طرازاً يونانياً . اما في فيينا فالطراز المسيطر عليها هو المعروف بطراز فرنسوا جوزف . فقد تمثل في الكنيسة

التذكارية ، الا ان مبنى المصفق (البورصة) ومسرح هوفبرغ والمتاحف التي قامت فيها ، فمعظمها من طراز فن عهد النهضة . وقد استلهم *Poelaert* الفن الكلاسيكي في تجديد رسم وشكل قصر العدل الضخم في بروكسل .

والهندسة قلدت على اقدار مختلفة من النجاح، المتعارف من فنون القرن الثامن عشر كالجادات والميادين العامة والحدائق . واستعملت على نطاق واسع ، فن الحفر لتزيين القصور ومفارق الشوارع الكبرى ،بالتماثيل والانصاب . ولما كان الحجر يوحي دائماً فكرة الضخامة ، فقد حاول بعضهم استخدام المواد المعدنية فيأتي مظهر البناء من الخارج منمنماً مهفهفاً ... فالمهندس لابروست يكثر من المواد الحديدية في المكتبة الاهلية في باريس ، وفي مبنى سانت جنفيف مخففاً بذلك من تراكم الاعمدة . فالاحجام الدقيقة المشوقة، الهيفاء، تليق كثيراً بالمباني الخاصة بالمعارض ومحطات السكك الحديدية وبالهالات .

تطور الخدمات البلدية الصحية

اثار نمو المدن السريع وامتدادها مشكلات متعددة،متعاظمة، فاذا ما حفظ لنا تاريخ تطور باريس اسماء يتمتع اصحابها بالشهرة وبعد الصيت امثال : رمبوتو وهوسمان وبوبيل ، فبروكسل تفخر وتدل برئيس بلديتها أنأباش ، معاصر هوسمان وزميله في الوظيفة محافظاً ، كما اشتهر جوزف شمبرلن بوصفه اميناً لمدينة برمنغهام .

فقد عدت لندن ١١،٠٠٠ شارع اي ما يعادل طول ٨٥٠٠ كلم،كما بلغ معدل طرق باريس ٢٣٤٥ كلم ، رصف معظمها بالحجارة والبلاط واقيمت الارصفة العريضة على جانبيها. ورصف الطرق بالخشب ، أُخذ به عام ١٨٨٠ ، كما لجأوا الى تزفيت الطرق بعد ذلك بقليل وتم للنقل ثلاثة انواع من الوسائل : الامنيبوس او سيارة كبيرة للركاب ، وعربة الجر والخط الحديدي على سطح المدينة او تحت الارض،ثم الترامواي: مكهرباً كان او غير مكهرب. وغاز الاستصباح يبلغ استعماله الذروة عام ١٨٩٠ ، فهو وسيلة سهلة للتدفئة لم تلبث ان عمت المطابخ . أفيبقى بعد هذا جائزاً التعويل في تأمين المياه على الحمالين والسقاة ، ولذا رأت ادارة المدن العودة الى استعمال قناطر الجر هذه القناطر التي عول عليها الرومان ، من قبل . فكانت باريس اول من فكر بين المدن باستنباط الماء من تحت الارض بواسطة الآبار الارتوازية ، ولعل اول بئر من هذا النوع هي بئر غرينيل. وراح المهندس بلغران يحاول جمع مياه بعض الينابيع المعروفة في المنطقة ، فارتفع استهلاك الماء لدى الفرد الواحد من ٦٨ لتراً الى ٢٤٠ لتراً في السنة . وبنت مدينة مدريد قناة لجر المياه طولها ٧٠ كلم . ومدينة منشستر تزودت بالمياه من كمبرلاند . وتصريف المياه القذرة او الملوثة عملية ضخمة تطلبت نفقات باهظة . فقد احدث بوبيل (محافظ باريس) ثورة في تلك المدينة عندما اصدر امره بان تطرح النفايات في صناديق خاصة ليتولى عمال من قبل البلدية فيما بعد ، جمعها ، ونقلها ، دون ان يبالي بمعارضة ٤٠٠،٠٠٠ من جامعي الخرق والاسمال .

احشاء باريس ، هذه هي التسمية التي اطلقها زولا عندمـــا راح يتكلم عن هال باريس . فالمدن الكبرى في الغرب تعول ،في تأمين موادها الغذائية ، ليس على هذه المناطق المحيطة بها فتؤمن لها حاجات من الخضراوات والحبوب فحسب ، بل ايضاً على هذه المناطق النائية عنها . ففيينا تستقدم حاجاتها من اللحوم من مقاطعات الالب والحبوب من هنغاريا ، والجعـــة من بوهيميا . وسكان مدن مقاطعة الروهر يؤمنون حاجتهم من البطاطا من المانيا الشرقية ، ومن هولندا ، والحنطة من اميركا ، والخضراوات من هولندا ، وفرنسا ، والخس عـلى انواعه من مناطق البحر الشمالي ، والفاكهة والاثمار من فرنسا وايطاليا . وهكذا ندرك الآن كيف ان الالمان تمكنوا من اخضاع الباريسيين عن طريق تجويعهم .

الشارع في عبثه ولهوه وملذاته

وهذه الاقوام المحتشدة في هذه المدن العملاقة تعيش جماهيرياً ، لهـا ساعاتها من الغضب والحب . فباريس لا تغتفر للمجلس في فرساي «مجلس ابناء الريف» كما يلقبونه ،منافسته لها على لقب « العاصمة »، فتعرب عن هياجها وعن ثورتها عندما يتقدم احد امراء آل هوهنز ولرن ليرشح نفسه لعرش اسبانيا. ويحلو لهـــذا الشعب الباريسي التهكم «بالتونكيين »، ويتحلق حول بيرانجيه ويصفق له ويظهر عداءه للسامية خلال « القضية » (قضية اليهودي دريفوس) ويهتف للقيصر مردداً :

لرؤية القيصر كما يجب
قم باكراً واحضر بسرعة
ولا تتمهل في سريرك

وقد تفاءل ادوار السابع خيراً خلال زيارته لباريس ، من موقف الشعب الفرنسي موقفاً حيادياً من الاتفاق الودي ، وراح شعب مدريد ، عام ١٨٨٢ ، يحيي الملك ألفونس الثاني عشر ، اثر عودته من زيارة قام بها الى المانيا ومر فيها على باريس (التي اظهرت استياءها وغضبتها) يهتف قائلاً : «ليحي الملك الرامح»، وهذا لم يمنعه قط من ان يحتج بشدة على انزال فرقة المانية في جزيرة باب . البزة العسكرية لها اغراؤهـا لعمري : فها هو ابن لندن او زائرها الاجنـــبي يسارع لمشاهدة حفلة تغيير الحرس امـــام قصر بوكنغهام ، وابن باريس كابن برلين ، يهرول في سيره لمشاهدة حفلة استعراض للجيش تقام في احياء العاصمـــة . فالتماثيل والانصاب الوطنية والشوارع تمسّد باسماء مشاهير الوطن ؛ والمبني التذكاري يلعب الدور ذاته الذي لعبه الضريح من قبل .

وجاذبية الشارع أقوى من اي وقت مضى . فالمناظر المتنوعة تأسر الانظار وتسبي الالباب، بعد ان تكون شوارع العاصمة قد تألقت بالانوار السواطع ليلاً . والنساء والفتيات لا يتحرجن قط عن الخروج ليلاً . وفي باحات المقاهي يحتشد النظارة والزبن يتحدثون ويتسامرون، محدقين بعضهم لبعض . وفي باريس اصبح للشوارع وجـــاداتها البديعة سحر وفتنة دونها سحر القصر الملكي ، والاقبال على احتساء اكواب الجعـــة اصبح من الامـــور التي غزت اعراف

الامبراطورية الثانية بعد ان جاءتها من المانيا . فواجهات المخازن الكبرى تلفت اليها الانظار والاعلان يجتذب النظر .

بين الاخلاق الباريسية والاخلاق البورجوازية

فالموضة او الازياء ، تخرج من باريس وتتحكم بالاذواق في الوقت الذي تفخر معه لندن بأنها محور الاذواق الرجالية ، كما ان فيينا هي محور الموسيقى المرقصة . هنالك لعمري انماط من الحياة هي من صميم حياة الشعب او الجماهير . فالعامل يتخلى عن ارتداء « البلوزة » او السترة بينما يتمسك بارتداء الكاسكيت او القبعة . فهو يشعر بانه في محيطه وبيئته لدى مشاهدته هذه الاعياد التي تقام عند حاجز العرش او في سوق المعجنات والحلويات ، اكثر مما يشعر به عند مرأى الشانزليزه . له العابه المفضلة كالكرة والبلياردو والدومينو والورق . فهو يتردد على الخمارة ويأتي الى هذه « الدوّاخة » ، كما ينعتها زولا في وصف لها أخاذ . الا ان هذا المجتمع الذي تتحكم به البورجوازية ، كثيراً ما نظر اليه نظرته الى غريب بعيد عنه .

فقد حرص البورجوازي على ان يتميز عن العامل . فهو يلبس الريدنغوت والجاكيت . فاذا ما اعرض عن السوالف ، فهو شديد الاهتمام والعناية بلحيته وشاربيه . اما امرأته فتتبع بيقظة واهتمام شديدين تطورات الزي السائد (الموضة) التي لها غرائبها ومستهجناتها السنوية واحياناً الفصلية ، فتسبب لها نفقات غير ملحوظة كما تقتضيها المزيد من اوقات الفراغ . فسواء حصرت نفسها في مشد او فضلت الشكل المبهم ، وسواء أفضلت القبعة الكبيرة او اختارت القصيرة ، فهي تهتم الى حد بعيد بأحذيتها وتفضل منها ما كان على الزي ، وبقفازاتها ، والحطة اوالطرحة ، والنقاب او الخمار ، وبالمروحة اليدوية . ولما كانت دواعي حياة العصر تحفزها اكثر فاكثر الى الحركة والتنقل والى ركوب العربة ، كان عليها ان ترفع اطراف فسطانها الذي يشكو من الطول اجمالاً . فهي تدل حوالي عام ١٨٩٥ ، بحقيبتها الصغيرة تودعها منديلها وبعض اغراض زينتها . فالالبسة لا تتطور الا حوالي عام ١٩٠٠ ، فالرجال يفضلون بالاكثر السروال والقبعة المستديرة الشكل ، وقبعة القش ، بينما تؤثر السيدة التايور والحذاء الواطي الكعب . فالرياضة البدنية وركوب الدراجات والاستقبالات وارتياد المناظر في الاوبرا ، أمور معقدة وتدعو للبذخ .

اما الدار او المنزل ، فقد حرصوا على ان يوفروا له احسن ما يكون من المفروشات والاثاث والرياش . فقد اخذ الناس يكثرون من الدمى والصحون المزخرفة بشتى الالوان ورسوم الاسرة ، كما حرصوا على ان يؤمنوا لهم غرفة للطعام فرشها من طراز هنري الثاني ، وغرفة للنوم من طراز لويس الخامس عشر او لويس السادس عشر . وكثيرا ما يتدلى من السقف الثريات الجميلة ، كما حرصوا على تزيين المداخن بالشموع . اما المائدة فترفل عادة بالاطايب من الالوان وصنوف الاطعمة ، ولذا كثرت جداً الكتب والمطبوعات التي تدور حول المطبخ واعداد الطعام . والملاعق والشوك والسكاكين هي مفضضة على طراز دبولز وكريستوفل وهلفن . والبيانو يضفي على البيت مسحة من الثراء والغنى ولا يفترض في اصحابه مواهب موسيقية عالية ، ويصطحب الغناء عادة .

فهو الآلة الموسيقية المفضلة لدى الطبقة البورجوازية الحديثة العهد . وبانتظار تهيئة البائنة قبل الزواج، تنصرف الفتاة لاشغال الابرة والتطريز. اما تبادل الزيارات في ايام ومواعيد محـــددة مسبقاً ، فهذه من الامور والواجبات التي تتقيد بها السيدات في المجتمع ، اما الصالونات الادبية في المنزل ، فمثل هذا الامر لم يعد موضوع اهتمام .

وكثيراً ما يلتقي في هذه الصالونات والنوادي ممثلو الطبقة البورجوازية العليا وابناء طبقة النبلاء القديمة ، على الطريقة الانكليزية ، كنادي جوكي كلوب ونادي الاتحاد .

والاقبال على جمع الاشياء القديمة والتعلق بحفظها يلتقي والغريزة المحافظة التي ميزت هذا العصر. فهذه الهواية تخدم المتاحف والمجموعات الفنية الغنية الكبرى. فاذا ما خطر يوماً لاحد هؤلاء الهواة ان يلقي نظرة عابرة على المجموعات الفنية الخاصة المتوفرة في باريس ، كان لا بد له من ان يقضي سنة كاملة قبل ان يشبـع فضوله ، كما يؤكد لنا عام ١٨٦٠ ، وليم بورجير . كل بورجوازي من علية القوم يحترم نفسه يرغب صادقا في ان يؤلف له مجموعة منها محتذيـــاً في ذلك حذو ابناء الطبقة الارستوقراطية ، والهبات الخاصة تتوافر وتتكاثر بحيث يمكن انشاء متاحف عامة . فآبل غييمه يحرص على جمع غرائب الشرق الاقصى ثم يهبها للدولة، والصراف سرنوش، والبارون دافلييه ودوقة غاليارا وآل كونياس – جـــاي ؛ وآل روتشيلد ، وهبوا الدولة مجموعاتهم النادرة .

وهواية جمع الكتب تستهوي الاذواق ، اذ ذاك ، فمن ناطور العمارة الى ساكن السقيفة العلوية، الكل يقرأ الروايات المسلسلة التي تحرص الجرائد المعنية بالإعلام والازياء على نشرها تباعا. وقد توفر من هذا كله ادب روائي رخيص هو من القصص الشعبي او القصص البوليسي .

ومثل هذا الهوس يستحوذ على النفوس فيقبلـون بحماس على المسرح الغنائي. فالفن كل الفن يقوم باستثمار اللحن او النهج الغنائي على الوجه الاكمل . فاناشيد روسيني ومدرسة ماير بير وبوالديو وهيرولد وأوبير ومن لف لفهم تنتشر بين الجماهير الشعبية. وبعد هذا الجيل الذي صفق عالياً « للافريقية » و « لليهودية » تطل علينا الميلودراما التي تغص صـالات العرض بالمستمعين اليها من الهواة ، منها الـ *Mignon* تأليف امبرواز تومـاس ، وفوست، وميراي لغونو، وكارمن لبيزه ، ومانون لماسنه ، وباريس تقوم وتقعد لواغنر الذي قاد المعركة ، سنة ١٨٦١ وخسرهـا حول *Tannhauser* وكل مدينة لها شيء من الشأن تعمل على انشاء مسرح لها وفرقة موسيقية ، ملازمة له ، و «موسم» فني، تنظم هذه الجوقات رحلات لها تطوف معها الولايات والمقاطعات. والآلة تفيد كثيرا من التقنية التي ازدهرت في هذا العصر ، كما ان فـــن التزيين والتحلية يتطور بسرعة ، وعرف فن الضوء ، كيف يفيد من غاز الاستصباح ، ثم من الكهرباء .

وهذا الشعب يرغب في ان يلهو وان يعبث . فـــالى جـــانب المسارح الـــتي تسير في نهجها على تكريم المؤلفين الاتباعيين (الكلاسيكيين) ، كالكوميديا الفرنسية التي برز فيها نبوغ

ممثلين امثال : بروهان ومونيه –صولي وروزين برناردت (التي اشتهرت باسم ساره برنار) ، فقد عمل بمعزل عن الاوبرا مسرح المهرجين ومسرح بيجازيت ومسرح الامم، ومسرح المستحدث (*Nouveautés*) . وهذا الفن الباريسي الاصيل : الفودفيل او الملهاة الذي يقول عنه سانت بوفانه : مثال لا يخرج كبيراً عن مثال هذا الجيل الذي لا مثالية له ، فن يضعنا وجهاً لوجه امام رواية يشاهدها المرء وهو متكىء الى درابزون الشرفة « موضوع هواية الطبقة الوسطى التي لا تحلم بشيء احسن »، وبعد هذا النجاح المنقطع النظير الذي سجله سكريب امكن للابيش ان يطلع علينا،فيلعب لوحده،او مع بعض المساعدين له نحواً من١٠٠مسرحية،بين ١٨٣٦-١٨٧٦ واكثر سخرية منه واوفر، كما برز كل من اميل أوجييه واسكندر دوماس الابن الذي تمكن من أقلمة مسرحيات ذات فكرة معينة او تصف لنا اخلاق المجتمع . والاوبريت التي تداني الفودفيل ، تبتعد عن الاوبرا المضحكة على نسبة ما يصبح هذا الفن الاخير دراما تقف عند منتصف الطريق من القصص الوصفي، اذ كان من المفروض القيام بحركة معاكسة لما يسميه تيوفيل غوتييه الفن الهجين الحقير الذي جاء خليط من طريقتين للتعابير تعارض احداهما الاخرى حيث يسيء اللاعبون تمثيل ادوارهم بحجة انهم مغنون ويغنون بصورة شاذة تحت ستار انهم يقومون بعملية تمثيل . كان على الاوبريت ان تضحي بعنصر المرح وحرية الموضوع بدلا من التضحية بالموسيقى التي كان يطلب إعداد الجو الملائم لها . ومع ذلك فالمؤلفون امثال لوكوك واودران وبلانكيت ومساجيه اتقنوا، الى درجة عالية، فن التلحين او التوزيع الموسيقي للاوركسترا، وقاموا بردة معاكسة ضد هذا الفن الذي وصفه برليوز « بالزقاقي » والسافل او الواطي ، والكثير الحركات ، ضد هذا الفن الذي بفضل النجاحات التي حققتها « هيلينا الجديدة » و « الحياة الباريسية » رواجاً عظيماً .

هنالك مع ذلك لذاذات ايسر منالاً وأيسر اخذاً واشد وقعاً. فقد اقبلت باريس على المراقص حيث تقع العين على ما يذهل ويدهش ، امثال ميمي ، تاب تاب ، وبيبيه والبطينة ، كما استسلمت لهواية السيرك الذي تملك الاذواق وسارت شهرته بفضل العاب بارنوم ، فعرفت باريس اربع فرق منه في وقت واحد ، حيث أخذ القوم بألعاب الخفة التي قام بها مازوربيه ، صاحب الوجه الصبوح ، واوريول ، هذا المهرج الذي ليس من يعدله ، ثم الاخوة برانكوني الذين وضعوا تحت اعين النظارة العاب السيرك الاولمبي الذي لم يلبث ان حل محل سيرك الشاتليه . وفتح مسرح فولي برجير ابوابه في باريس حيث تألب الناس لمشاهدة الضواري والكواسر والالعاب البهلوانية ، ومشاهد العري والعاب الخفة . وراجت كذلك المقاهي الغنائية حيث يستطيع المشاهد ان يدخن ويشرب على هواه ، فعدت باريس منها عام ١٨٨٠ نحواً من ٣٠٠ مقهى .

الحضارة المدينية : مساربها وعوراتها

كل ما في المدينة ليس باللائق . ففي بعض احياء باريس امثال الـ *Salpêtière* ، والمحطة والبيت الابيض ، وفي اماكن ومواقع كثيرة على الخط الدائري تقوم العُلب الليلية وبيوت المشاغلة والتسري .

ولستراسبورغ مثل هذه ، هي الاخرى ، اشهرها الـ (Ponts - Couverts)ومثل لذلك لمدن روبيه وليون ومرسيليا . اما في لندن، فمقابل الاحياء السكنية الغنية الى جهة الغرب، يقوم حيها القذر ، الوسخ East - End ، واحياؤها الفقيرة القـذرة . ويرى ماكس اوريل في لنـدن مزيجاً بشعاً من الجعة والانجيل ، وخليطاً من مشروب « الجين » والتوراة ، والسكر والرياء، والاوساخ مما لا يرى في غير مكان ، والبذخ الجنوني والبؤس المدقع ، والازدهار والانحطاط وغير ذلك من المفارقات والمتناقضات الصارخة، وهؤلاء البائسون الجائعون ، الحيارى، وهذا الفريق الفارق بصلف وعلياء في الفن واللذاذات .

فهذه الزرائب والحشود البشرية التي هي اقرب الى السائمة منها الى الناس ، هي نتيجة هـذا الازدحام والقذارة معاً . ففي عام ١٨٨٥ ، كان معـدل الغرف التي يسكنها شخصان ١٤ ٪ في باريس ، و٢٨ ٪ في برلين وفيينا ، و ٤٦ ٪ في بطرسبورغ . وجاء في احصاء حول بروكسل ، عام ١٨٩٠ ان ٤٩ اسرة تملك مسكناً خاصاً بها و١٣٧١ تضم ثلاث غرف على الاقل ، و ٨٠٥٨ للواحدة منها غرفتان فقط ، و ٦٩٧٨ اسرة لها غرفة واحدة،و ٢١٨٦ اسرة تسكن غرفـة علوية تحت السقف ، و ٢٠٠ في كهف او دهليز ارضي.

ففي عهد ديكنز،آوت ارصفة لندن وعنابرها١٠،٠٠٠ سارق.وهايد ـ بارك حيث لا تظهر الارستوقراطية نهاراً الا على صهوة الخيل،هو مكان يتعرض من يجتازه ليلا لخطر الموت ، وكلمة « مخضب بدمائه»هي على كل شفة ولسان . ففي فرنسا ٢٢شخص من كل ١٠٠،٠٠٠ من سكان المدن يقدمون لمحاكم الجنح مقابل ١١ في الريف ، عام ١٨٨٠ وحوادث الانتحار هي تقريبـاً، وبصورة ثابتة بنسبة اهمية التحشدات .

ففي لندن ، عام ١٩٠١ نحو ١٨ ولادة لكل ١٠٠٠ شخص في همبستيد ، و٢٥ في بتنـال غرين ، وفي تورينو ٢٤،٦ ولادة في الحي الارستوقراطي سان فرديناندو، و ٤١،٥ في حي سان لورنزو الفقير . اما معدل الحياة ، فالاحصاءات تقـدم لنا ارقاماً في غاية التضارب والتضاد . فالاحصاء الذي وقع ١٨٧٣ - ١٨٧٥ ،كان معدل الوفيات ١٥،٧ في المقاطعة الثامنة في باريس، بينما بلغ هذا المعدل ٣٦،٢ في حي ١٩ ، عام ١٩١١ ، مقابل ٩،٦ و ٣٢،٤ .اما في برمنغهـام فقد انخفض الى ٢٦ عام ١٨٥٠ ،والى١٧عام١٩١٠ ،بعد ان تطورت الامور الصحية في المدينة، وارتفعت اسبابها . وتعلل مقاطع مستمدة من نصوص كثيرة ان سبب هذا الوضع انما يعود كله الى تأثير الزرائب والاحياء الفاسدة في المدينة، فكلمات السكر والسرقة والبغاء والامراض ترقص على لسان الشعراء وتتدافع الى شفاههم عندما يتحدثون عن المدينة اللعينة .

من خلال الأنوار التي تعبث بها الارياح
بيوت البغاء تتألق نورها في الشوراع
(بودلير : ازاهير الشر)

الهرب من المدينة

كثيراً ماجاشت نفس ابن الضيعة حسداً من ابن المدينة على عيشه، في الوقت الذي يفكر هذا الاخير بمناسبة لتغيير الهواء الذي يستنشقه. وهكذا نرى ان حضارة المدينة طلعت علينا برغبة جامحة وميل قوي للتنقل والانتقال طلباً للذة وانتجاعاً للصحة؛ وكلما توفر لابن المدينة بعض اوقات الفراغ وكان باستطاعته السفر شمر للرحلة متوخياً المواقع الجميلة واماكن الاستجمام. وكلمة سياحة اطلت علينا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، ويخرجها ليترِه في معجمه الشهير من الكلمة الانكليزية *Tourist* فقد جاءتنا هذه الحركة ونسميها اليوم هذه الرياضة، من الانكليز. الا ان الاسفار اصبحت عادة استبدت بالناس وطغت على الامزجة بعد طلوع السكك الحديدية، فكثرت بين ايدي المسافرين كتب الادلة والخرائط التي تشير بدقة الى معالم الطرق وخطط البلدانية. فالنادي البريطاني للرياضة البدنية للتصعيد في الالب، نشأ عام ١٨٧٧ وسميّه النادي الفرنسي ظهر عـــام ١٨٧٤، وتولى ادارة الثاني منهما شخصيات لها شهرتها الواسعة للترسيخ للرياضة البدنية وحركة السياحة، امثال: ادولف جوان وفيوله — لودوق، ودوق دومال والبارون نفليز. وطلع علينا بيارا بالخريطة المصورة التي تشير الى المواقع الاثرية المشهورة.

فاذا ما حرصت كل مدينة على ان تؤمن في محطاتها الكبرى ونهايات خطوطها الحديـــدية الرئيسية الفنادق الفخمة لاستقبال المسافرين والسياح، فالصناعة الفندقية فرشت مناطق برمتها ومقاطعات بكاملها بالفنادق والاوتيلات على اختلاف درجاتها. وعلى شواطىء البحر قامت مسابح اثيرة يرتادها المستحمون من كبار القوم واثريائهم ومشاهيرهم.

ورياضة الجبل راجت، هي الاخرى ايما رواج. فقد ام شامونيكس ٩٠٠٠ زائر عـــام ١٨٦٠، كما امها حوالي ٢٥٠٠٠٠ عام ١٩٠٠. واخذت سويسرا تصنّع السياحة في بلادها فدرّت عليها هذه الصناعة دخلاً طيباً. فسويسرا هي التي طلعت علينا بما نسمي *Palace*، وآدمز الغى مائدة الضيوف ليقدم لهم بديلا عنها غرفة الحمام. ورؤوس الاموال التي استثمرت في صناعـة السياحة بلغت المليار، عام ١٩١٠. والرياضة الجبلية استفادت من هذه الحركة الناشطة لتحسن ستثمار قنن الجبال وقممها، وفتحت بذلك الطريق امام رياضة التزلج على الثلج.

فقد هبط فيشي ٧٠٠٠ ضيف او زائر عام ١٨٥٢، و ٦٠ الف عام ١٨٩٠، ومدينة بلمبيه تجمع ينابيعها العديدة عام ١٨٥٧، حتى ان مترنيخ دعا ممثلي الحلف المقدس لقضاء فـترة استجمام في مياه كارلسباد، ونابوليون الثالث يتردد كثيراً على فيشي ويقوم بمفاوضة كافور في بلمبيه، بسمارك بأني وبياريتز. وعدد كبير من المفاوضات الدولية جرت في مراكز المياه المعدنية: في ايشل، وغاستاين، وبادن. والبرقية التاريخية التي ارسلها غليوم الاول الى بسمارك في تموز ١٨٧٠، انما انطلقت من ايلو حيث كان العاهل الالماني يستجم.

وفي ميادينها وساحاتها المعشوشبة اخذت انكلترا تحيي العابهـا المفضلة: التنس والغولف

وكرة القدم ولعبة الكريكيت، واخذت عادة التزلج تغزو باريس منذ عام ١٨٦٠ / ٦١ على بحيرة لونشان. اماهواية القنص والصيد بواسطة الكلاب فبقيت الهواية المفضلة لدى الطبقة الارستواقرطية وكبار ممثلي البورجوازية الذين لهم من مذخور وفرهم ما يسمح لهم بالانصراف لهذه المتعة. اما صغار القوم فيقنعون منها بصيد صغار الطير ودقيق الطرائد بالبندقية. واخذ الطب يدعــو للرياضة البدنية ، واقبلت عليها المدرسة تشجع في صفوفها الرياضة ولا سيما الالعاب السويدية التي روج لها ايما رواج آل لنغ ، الاب والابن. وقامت جمعيات رياضية في جميــع البلدان تدعــو الشباب للالعاب الرياضية في الهواء الطلق ، ومثل هذه الجمعيات لها موسيقاها واعيادها الموسمية، من هذه الجمعيات من وضع نصب اعينها اغراضاً وطنية كجمعية السوكول عند التشيك مثلاً ، التي رمت الى تغذية الروح القومية في قلب الشباب الرياضي .

الفصل الثاني

استقلال الذوق

استقلال كل من الكاتب والفنان

كلما تقدم بنا العصر نعمنا بالمزيد من انتاج الادب والفن. وقد تم لنا ذلك بفضل هذا التطور المزدوج في مجالي الفن والاثراء وتوفر اسباب الفراغ والتعليم والتقنية. فالمنشورات على انواعها تتوفر في كل مكان وعن كل شيء. فالجريدة تنير وتزود قراءها بالمعلومات وتثير الفضول في نفس القارىء. وقد طغى الكم على النوع وليس بمستغرب. ومهما يكن فقد ادى انتشار الثقافة الى طلوع نشاطات فنية كانت من قبل وقفاً على اقلية ضئيلة ونفر قليل، كالموسيقى مثلا. لنعد بالفكر الى هذا الحد الذي سيطر على فيدنا فترة من الدهر وكأن المرء فيه شعر بانتقاص من كرامته اذا لم يأت اهتمامه بفنون المسرح دون اهتمامه بمهام الحياة وشؤونها الدنيا. فتألفت جمعيات فنية، عنت باقامة الحفلات الموسيقية، منها في باريس مثلاً، الجمعية الوطنية الموسيقى، وجمعية بادلو للموسيقى، وكرلون ولامور، وكلها رمت لتصحيح الذوق وصقله وتهذيبه، كما ان جمعية الحفلات الموسيقية في الكونسرفاتوار الوطني التي نظمها ابنيك اخذت تعرف عبقرية بيتهوفن الى الرأي العام الفرنسي. فاذا ما حل النصراء من رجال المال الذين لا تتوفر دوماً لهم ثقافة عالية محل النصراء الامراء، فكثيراً ما رأينا نصيراً ذكياً مستبداً يحل محل هوي يبسط للفنان يداً رفيقة دون ان يفرض عليه الامور او الاشياء الاثيرة لديه. فالتوصية حملت دوماً شيئاً من الاستبداد والتسلط. فعلى هذا الهوي الا يأخذ بعين الاعتبار والملاحظة، هذا الخيال المجنح الخلاق، بل عليه ان يؤكد حكم الاندية الادبية والفنية.

فكان لا بد، والحالة هذه من ان يدافع الفنان عن حريته وان يصمد في وجه الضغط الذي يتعرض له من الجمهور. فقد تكاثرت المذاهب والمدارس الصغرى لتفي بمطالب الجماهير، فراحت في تعنتها توصد ابوابها في وجه العديدين. وهكذا راح الالهام يصون نفسه من هذه

الزقاقية . هنالك اتجاه بارز يرمي الى صبغ الفن بالديموقراطية . فقد استطاع الجيل الرومنطيقي ان يفرض نمطه كما يفرض الطغيان ذاته . ومع ان الرومنطيقية بقيت لها القدرة على التعبير عن لواعج النفس بعد عام ١٨٤٨ ، الا انها كانت اعجز من ان تشبع الغرائز في ثورتها على الاعراف والتوافه . فثورة الشباب التي اتسمت بالرومنطيقية قبل عام ١٨٣٠ ، قامت عام ١٨٥٠ تقف في وجه الرومنطيقية . الا ان مراكز العبادة هذه تألقت اكثر من كل وقت مضى ، الى جمع اتباعها وضمهم بعضاً الى بعض . فعبق الجو بهذا الاريج وهذه الالوان الزاهية والانغام الساحرة ، كما يؤكد بودلير لنا ذلك .

والحال ، فالبورجوازي لا يستطيب كثيراً ما يخرج عن الحد الوسط . وفي هذا لعمري كل جاذبية الربح وسحره – في هذا العهد المعروف بالعهد الواقعي – الذي قابل ، بإعراض كلي حرفة الادب والفن لعجزهما عن تأمين الخبز لمحترفيهما . فقد سبق للشباب الرومنطيقي واحتج بشدة على ما يكتنف العيش من صروف وظروف قاسية ، وشروط راح برودون يفرضها على الفنان في عهد لويس فيليب . فقد راح ميليه ، في مطلع حياته الادبية يقلد بعض آثار القرن الثامن عشر بعشرين فرنكاً للقطعة الواحدة ويصور يافطات . فقد باع صورة «البشارة» ١٨٠٠ فرنك ، التي بيعت ، بعد ذلك بقليل بـ ٥٥٣٠٠٠ فرنك عند بيع مجموعة سكريتان وراح بعض هؤلاء الفنانين يتساهلون ويتنازلون عن غلوائهم في سبيل استدراج توصيات وطلبات جديدة . وراح الناس يتذوقون اللوحات المرسومة بريشة فلاندرين وشاسريان بينما رفضوا ان يعرضوا الصورة: « جنازة في اورمانس » بريشة كوربيه ، في متحف باريس للفن ، عام ١٨٥٥ ، فاضطر لعرضها في كشك من خشب . والمحكمون الفنيون لم يعاملوا معاملة احسن آثار مانيه . وقد أحيل الى القضاء اصحاب هذه الآثار الادبية او الفنية : أزاهير الشر – ومدام بوفاري – وتيريز راكن – ومادلين فيرات ، والمدوّخ ، بحجة انها انتهاك للآداب العامة . فقد ترك لنا « مورجر » وصفاً لحياة بوهيمية ، حياة على هامش العالم البورجوازي الذي يحرص على دفع بعض بنيه الى سلوكها ، ثم يروح ويصفهم بخارجين على المجتمع . ويذهب ستيفن زفايغ الى اطراء مناخ باريس الغريب « المشبع بالسذاجة ، وبهذه اللامبالاة المتسمة بالحكمة والرصانة » ، هو الذي « خرج من مدينة فيينا هذه» الطائشة ، اللعوب » وقد وقع الانفصال حقاً: فقد اعلنت مونمارتر ومونبارناس تمردهما في باريس نفسها واصحاب الشهرة لم يعودوا من خلق النوادي والصالونات ، ولا وقفاً على الاغنياء ، بل من صنع المقاهي – المساقي والاهراءات . وقد يحدث ان اللغة المحلية في هذه الاماكن لم تعد مفهومة لدى الطبقات العليا . هنالك ضوء خافت يضيء بعض المطلعين او المريدين ، الا ان هذا الضوء لا يبلغ المدينة .

وهذه الثورة ضد الالتزامية او العرفية – وهي ليست بشيء جديد – ظهرت في جميع البلدان على اقدار متفاوتة ، فها هو احد الكتاب الروس يتأوه عالياً نادباً حظه التاعس لوقوعه تحت كابوس الروح السلافية ويندب حظه لان ادبه ليس من هذا « الادب المتهم » . فبعد ان استعرض شعراء ايطاليا وقصاصوها البلاد الذي يتضرس به الوطن المضطهد المهيض الجناح في

تطلعهم بإعجاب لهذه الاعمال التي تم انجازها برعاية الاسرة المالكة سعيداً في سردينيا. والفكر الالماني القلق ، المضطرب دوماً ، يعرض جانباً عن هذه المغريات التي توفرها له سياسة بسمارك الوطنية ، فيتيه حائراً بين الفلسفة الراديكالية وبين اللاعقلانية. اما في الجزر البريطانية ، فقد انتصب في وجه هذا الرياء الذي طبع العصر الفكتوري ، هذه الفردية بما اتصفت به من سخرية ومرارة . فلا يسيرون معها بالضرورة على خطى اوسكار وايلد الذي حُكم عليه لخروجه عن جادة الادب، متجاوزاً هذا التشكك اللااخلاقي، برفضهم لسهولة التعبير فطلعوا علينا بمعظم هذه الآثار الادبية التي وصلت الينا ..

اتكون هذه الحضارة المدينية في اوروبا، اسفيناً او اداة طرد بعد ان سجلت في حسابها مثل هذا التطور ، يا ترى ؟

مخلفات المدرسة الرومنطيقية

وهذه الرومطقية ، الغنائية السادرة في تأملها والعاطفية، سر قوتها وسر بقائها ، في قدرتها على ورودها ورد الاحلام والخيالات المجنحة والحماس الوطني. وهذه البنابيع التي كانت تصدر عنها زاخرة ، فياضة اصبحت الان اشبه بخط دقيق يكاد يضيع بين هذه التيارات الجديدة التي اطلت علينا من هذه البلدان التي شهدت طلوع ادب وطني قومي ، فقد كان بوسعها ان تردفه بدفع شديد، فلا نراها تشكو من اي ضعف او وهن في المجال الموسيقي .

وهذا الحس العاطفي والمادة الشعريه الدفينة بقي يستمد منها نبراته المثيرة . فالحب المشبوب طي الضلوع والمتمطي بين ثنايا لواعج النفس ، يلهم هؤلاء الادباء صفحات تمور بالحرارة والوهج والدفء كالاديب الانكليزي روسق ، والاديب الاسباني بكر ، ومعظم الشعراء السلافيين والرومان والسكندينافيين. والطابع المميز لآثار روبرت بروننغ هو الطابع السيكلوجي، وهو غو الذي ادركته الشيخوخة وراح يعاني من اعراضها ، اخـذ يعنى اكثر فاكثر ، بامور الحياة والموت هذه القضايا التي عالجها الكاتب النرويجي بجارسن منذ ١٨٨٠ . ومع ذلـك فحماسة الناصريين تبرز على اتمها في المانيا ، في ما عرف بـالفن المثالي الذي لمـع فيه ماكس كلنجر ، اشهر وابرز نقاش على ما نرى ، منذ طلوع دورر ؛ وهذه الردة التي ظهرت في انكلترا ضـد الاكاديمية او التقليدية الفنية والتي كان بعض نتائجها هذا الازدهـار المدهش السابق لرافائيل والذي يتمثل على اتمه في هونت وروسق ، وميلاي ، وبورن – جونز الذين حرصوا جميعاً على ان ينموا فيهم البدائية الفنية ، التي راح رسكن ، هذا الناقد الذواقة الذي راى « في كل فـن كبير، شكلا من اشكال العادة، رسكن هـذا الذي كان همه الاول والأخير ان يطهر البشرية وينقيها مما علق بها من عورات وشوائب، من هذه اللطمة التي لحقتها من جراء وقوع نظرها على هذه المناظر البشعة التي طلعت بها علينا الصناعة » . وهذا الحنين القوي الى الاجيال الوسطى نجده من جهة عند « هيبل » ، كما نجده من جهة ثانية عند وليم موريس وولتر كراين اللذين

حاولا تجديد فن الزجاج الملون وصناعة السجاجيد والفسيفساء ، او عند غوستاف مورو هـذا الفنان الذي عني بفن التمنمة والتزويق الناعم .

والاشاحة عن المدينة والهروب منها يولد بالتالي النزوع الى الدخيل او الدخيل المستجلب من الخارج ، الذي يبعث الشوق الى تنويع المناظر . « اني امقت كل ما توافقوا على وصفه بحضارة وما طلع علينا من نظريات المساواة » . يصرح لوتي ، كما ان موباسان يكتب بدوره قائلا : « لن ارى بعد الآن اناساً لابسين الحداد ويشربون الافسانت وهم يبحثون شؤون مشاريعهم التجارية » . فاذا ما راح برودون يستعيد بلذة ظاهرة ذكريات حداثته، عهد كان يحرس قطعان البقر ، ويستحضر كوربيه امامنا الاعمال التي تقتضيها العناية بالارض . والاقبـــال على تصوير المناظر الطبيعية ، هذه النزعة التي اطلقها بربيزون لقيت رواجاً عظيماً وكانت امتـــداداً لفن السمفونيات الراعوية .

وقد ذهب بعضهم الى ابعـــد من ذلك حتى انهم اوغلوا ، غير هيابين ، في مجال المستهجن ، فالخوف من المجهول الذي يرزح على الصدر ، عرف ادغار بو ان يفيد منه الى اقصى حد وبعنف كما اجاد ذلك مريميه بمهارته المعروفة ، وغوتييه بذوقه الرهيف ، وجيرار دي نرفال بجماليته . وسيستمر موباسان وكذلك الرمزيون بعده ، في سيرهم على حافة اللاعقلانية .

وهذا العصر يصر على ربط الحاضر بالماضي.من ذلك مثلا مناظر البطولة التي يرسمها لنا ، على غرار هوغو في اثريه الخالدين : « القصاص » وملحمته « اسطورة الاجيال » ، وتنسون ، وولیم موريس وماثيو آرنولد ، وفريتاخ في روايته «الجدود»،وتولستوي فيروايته: «الحرب والسلم» . ولهذا السبب بالذات لقـــيواضعو القصص التاريخي ارتياحاً لدى الرأي العام واقبالا شديداً منه ثم ان الاستمساك بالارض الام والتعلق بتاريخها،قدم منجهة ثانية، للشعر الملحمي،موضوعات قوية. ومع انهذا القصص خضع لمستلزمات الواقعية واحياناً راعى، مبدأ الفن لاجل الفن، فالرومنطيقية، بقيت تكأة لهذه الآداب الحديثة العهد ، تعتمد على بعث المآتي العظيمة التي تتنزى ، على اقدار متفاوتة بين الكبر والصغر ، بأسطورة هذه المآتي والانجازات التي عرف القصص الشعبي ان ينفخ فيها الحياة . وهكذا اخذت بمعاضدة حركة البعث القومي التي سار في خدمتها منذ عـام ١٨٤٨ في هذه البلدان الواقعة بين البلطيق في الشـــمال والبحر الابيض المتوسط ، في الجنوب ، وعرفت ان تعضدها وتهيء لها اسباب النجاح ، كما احسنت تمجيد الذكريات الوطنية بـــين الاقوام السلافية ، وسكان شبه الجزيرة الايبرية . وفي هذا المجال ، يستلهم كاردوتشي الموحيات التي استوحاها بيرس غالدوس او فركليكي . فنحن في عهد تدوي فيه الدنيا بالاناشيد الوطنية وتشهد ابداعاً موسيقياً في الحقل الوطني .

ومن هذا المعين الرومنطيقي الذي لا ينضب ، تتفجر باستمرار تيارات الهرمونيا . فمنذ ان توارى عن الانظار الممثلون الحقيقيون لهذه المدرسة ، امثال ويبر ، وشوبرت ، وشومـــان ،

وشوبان ، وليست ، جرت عبثاً محاولات تمهد لطلوع مناهج أو مدارس جديدة . فكل هؤلاء الذين يكتبون وفقاً لروح العصر ، لا يستطيعون مقاومة الرغبة في استخدام الطريقة الاحتفالية وباستلهام الموضوعات التي كانت عزيزة على قلوب جيل الثلاثينيات . فشكسبير ما زال مصدر وحي والهام لكثير من المواضيع ، وفوست يعي اكثر من كل وقت مضى ، الموضوع المفضل . فالعبور من ليست الى واغنر تم بصورة طبيعية مع ما صحبه من عنصر الخوارق والمعجزات .

القيادات الرجعية ضد الرومنطيقية : الواقعية ، الطبيعية ، الفن اللاشخصي

مما لا شك فيه قط ان الرومنطيقية لاقت ، منذ عهد بعيد حركات عديدة مناهضة لها . فكثيراً ما قرأنا عن الحركة السابقة للرومنطيقية ، وهي حركة معادية اطلت من نواح عديدة : من بلزاك وميريميه ، كما أطلت علينا من ستندال . وكم راح بيالنسكي يتمنى ، قبل عام ١٨٤٨ ، ان يطلع علينا شعر واقعي (وهي امنية تحققت على يد نكراسوف. وضحكة غوغول لم يكن فيها شيء من الرومنطيقية ، الا ان ريبنان بقي قريب الصلة بميشليه . وفلوبير بسحنته الحمراء وبصوته القاصف والذي تجلت له افاريز ضخمة ، يوضح لنا قائلا : « الطبيعي عندي هو الشاذ الغريب ، المستهجن هذا الزعيق الميتافيزيقي او الميثولوجي » . فلا يحق للروائي ، اياً كان ، « ان يعبر او أن يبدي اي رأي في اي موضوع يطرق » . عليه ان يبذل جهداً كبيراً لئــلا يودع الورقة اي شيء من قلبه » . وزولا نفسه يعترف قائلا : « انا اكره الرومنطيقية وامقتها لهذه التربية الزائفة التي لقنتها ، فأنا لا أزال احمل في نفسي اثرها وهذا ما يهيجني بالفعل » ، فيجمح به الخيال .

ما من احد لاحظ ان المذهب الواقعي انتشر بيسر اكبر في هذه البلدان التي سيطرت عليهـا الثورة الصناعية . وليس من يستطيع ان يتجاهل ما للوضعية والروح العلمية من تأثـير بعيد في هذا المجال ... ! « ان ما أرغب فيه ، يصرح ديكنز على لسان احد شخوصه ، هو الوقائع ... فالوقائع او الاحداث هي الشيء الوحيد الذي نحن بحاجة اليه على هذه الارض ... علينا ان نلغي المخيلة وان ننتزعها عنا الى الابد » . فانتشار الزندقة على هذا الشكل ليس بغريب قط عن هذا الاقبال على الامور الخلاعية والمقذعات فلم يعد ثمة من موضوعات سامية اوخسيسة محطة . كل شيء يمكن ان يصبح موضوعاً بعد ان تحيز واصبح واقعياً . فاذا اعـــترفنا للماضي ببعض الشأن ، فعلى شرط تجريد الوقائع التاريخية من العنصر الاسطوري الذي يقلقها . وعلى هــــذا الاساس انزل ريبنان يسوع الى الارض ورده الى المحيط الذي وُجد فيه وفسره من خلال الناس الذين عاش بينهم . وهكذا تسقط فتنة الاجيال الوسطى ويزول سحرها ، هذه الاجيال الـــتي تبعث الرعب بما فيها من ايمان وبرص ومجاعة ، حسب ما يقوله لوكنت دي ليـــل . فالتاريخ القديم وعهد الانبعاث ليسا بأفضل منها . فعدم التأثر والتجرد من الفرض ، يمكن صاحبه من تشريح مجتمعه بتؤدة ورسم اخلاق المجتمع بكل صراحة . فقد قامت عبقريات خصبة وقوية جــددت المسرح واعادت اليه حيويته ونشاطه ، منها اميل اوجييه ودوماس الابن ، في فرنسا ، وهيبل

وهوتمان ، في ألمانيا ، والثالوث الشمالي الذي تألف من بجرسن وابسن وستراندبرغ ، وفي روسيا تشيخوف . اما انكلترا فيمكن ان تباهي ب :تاكراي وجورج اليوت ، وبولوير لتن ومريديث ، طليعة سلسلة طويلة لا تقل خصباً وشهرة في حقل القصة والرواية تتمثل على خير شكل بفونتان في المانيا ، وكيلر في سويسرا ، وتورغنيف ثم دستويفسكي وتولتسوي،مهما كان من روحانيتهم فقد وصفوا لنا بدقة لا ترحم ولا تأخذ بالوجوه ، بألوان صارخـــة ، الطبقة الارستوقراطية الروسية العليا ؛ وعمل فلوبير مع الاخوة غونكور ، على الترويج للمذهب الواقعي، هذا المذهب الذي حرثه الفونس دوديه بكل دراية والذي وصل به زولا الى حافة المذهب الطبيعي.وعرفت ايطاليا ، هي الاخرى المذهب الواقعي (الموسيقي والأدبي على السواء) ، هذا المـــذهب الذي يتمثل على أتمه في هؤلاء الروائيين امثال فرغـــا وكمبوانا والموسيقار مسكاني وليونكا فالّو وبوتشيني .

وكوربييه من رجال الطليعة بين الفنانين الذين تصدوا بشدة لا بل بعنف لهـــذه التفاهات الرومنطيقية ، كانوا من جند المذهب الواقعي . وقد عرفوا ان يجتذبوا اليهم ميليـه الذي يرى انه : « لا حرج قط من استخدام اللفظ الزقاقي اذا ما صلح للتعبير عن السامـــي الجزل ، وكلاهما يؤلف « كتلة » انتصبت في وجه هذا الرياء الاجتماعي . امــــا في البلدان الاخرى ، فتصوير الواقع عنى بالاحرى ، بتحديد التفاصيل بكل دقة . ونختصر القول على كل من ينادي بمبدأ الفن للفن ان يطرح جانبا كل عاطفة شخصية .

فهذا الشاعر الذي يحرص على نحت وصقل عمله الاثري نحت الصائغ لقطعة ذهب بـين يديه وصقلها ، يبتعد كثيراً ، ولا شك ، عن عنصر التأثير . وهنا عودة ثانية الى النمنمة الـتي نشاهد رواجها عند السابقين للنزعة الروفائيلية ، كما انها عودة الى الانشودة . غير ان المذهب الوضعي ترك اثره البعيد في لوكونت دي ليل، وفي «تين» ،ولا سيما في هؤلاء الذين على شاكلة براغا زعيم مدرسة كوامبرا ، يرون في الحادث الواقعيمظهراً جمالياً.واذ كانوا مهتمين كثيراً بتحديد الجمال فقد برزوا لنا خير من يمثلالفلسفة الجمالية . فشخصية رسكن مع باتر تسيطر تماماً على هذا الفريقفي انكلترا، وبيرمز لو والون رفوسمير في هولندا، مع تين وواغنر ونيتشه ، كل هؤلاء عبروا عن هذه الفكرةالصحيحة الكامنة تحت هذا النشاط الفني الناصع والمشرق الذي يرى فيه العالمالاجتماعي غويو التعبير الاسمى لهذا التجاوب الجماعي في الشعور .

ان مثل هذه النزعة تتفق تماماً وعودة الكلاسيكية او الاتباعية . فقد تبنى تيوفيل غوتيه عبارة افلاطون عندما يقول: « الجمال هو تعبير عن الواقعي الحيز » . و« تين» معجب الاعجاب كله لهذه الحياة الاغريقية المتواقعة . فنظريات انغر وتعاليمه استمرت في سيرها نحـو الامام ، بعد ان عرف كيف يصمد في وجه العواصف الرومنطيقية ، وبوفيس دي شافان ربط بـدوره فن التصوير بالرسم الهندسي رغبة منه في تأمين الانسجام والمساوقـــة . ومن مندلسوهن الى برامز وسان – سايئس وفوريه ، عرف التقليد ان يصمد بعد ان تمسك بتأليف موسيقي آسر

وفقاً للقواعد التي وضعها القرن الثامن عشر ، بينما راح كاردوتشي يقترح الطريقـــة اليونانية اللاتينية . الا ان تذوق التاريخ القديم يتباين الآن نوعاً وقدراً . فاذا ما راح اناتول فرانس يعب بلذة ظاهرة من أريج فلسفة أبيقور، فرينان بدوره استعمل حبراً سرياً ، كما وجـــد فن الرثاء تلامذة مخلصين ، وفيلسوف التشاؤمية شوبنهاور ينتهي بشكل طبيعي، الى فن، يرى فيه كل الخلاص .

« فالرومنطيقي الذي اتقن فنه لم يلبث ان اصبح ابداعياً ، ولهـــذا السبب عينه انتهت الرومنطيقية ، الى البرناسية» ، كما يؤكـــد فاليري . ويرى تيوفيل غوتيه من ناحيته : « على الكاتب ان يعرف كيف يتحكم بشعوره ويكبت احاسيسه في كل ما يكتب » ؛ ولوكونت دي ليل هذا الجمهوري من تلاميذ فورييه ومريديه، ونصير الغابة ضد المصنع وضد تعديات الصناعة، والمستسلم بكليته الى بدائية تقول بالاشتراكية ، لم يعد ليرغب في عليائه وكبريائه واشمئزازه ، الا الانقطاع الى هذه اللذائذ الوضعية . فمعرفة الايقاع والانغام هي فوق كل معرفـــة ثم تأتي التفصيلات الدقيقة فتكمل ما ينقص . وهذه الدقة التي تميزت بها شاعرية كادوتشي وشادت عظمته ، سيعرف جوزيه – ماريا دي مريديا ، الذي طلع من الجزر ، على شاكلة لوكونت ، كيف ينميها بدوره ويعني بها في ديوانه *Les Trophées* بحيث ان كل مقطع من مقاطعها « سجل منتهى الدقة ومنتهى الجزالة » ؛ وهذا الفن الذي يتسم بالقوة عند الشاعر الايطالي صاحب : «الاناشيد البربرية» ، والذي يتنزى بالعلم والدقة ، والذي يعنى الى اقصى حد، بالصيغة المتناهية الكمال ، لا يخلو دوماً من مسحة من الكآبة والسأم . فالامثولة كان لها دوي عظيم : فظهرت عام ١٨٨٢ « الاناشيد القديمة » كما ان « الاناشيد المفجعة » لن ترى النور قبـــل عام ١٨٨٥؛ وفي هذه الغضون ينشر بودلير ، عام ١٨٥٧ ديوانه الموسوم « ازاهـــير الشر » كما ينشر فرلين عام ١٨٦٦ : « الاناشيد الزحلية » ؛ وفي سنة ١٨٥٧ ، وضع واغنر : « مذكرة تريستان » . وهكذا أطل علينا شعر جديد ، رمزي الطابع وجد الطريق امامـــه ممهدة بهذا الانشاء الجزل الدقيق .

الدرسة الانطباعية

في عام ١٨٧٤ راح ناقد فني يعلق على احد الرسوم يوقع اسمـــه كلود مانيه فيصفه «بالفن الانطباعي » بينما دليل المعرض يشير اليـــه بعبارة « انطباع » الشمس الطالعة . « يا لنا من مساكين ، وسنبقى مساكين » طفق يردد الفنانون بعد ان اطلقوا عليهم هذا الوصف التعريفي .

وقد شاء بعضهم ان يرى في مذهب الاخوة غونكور ظهور مدرسة ادبية جديدة يرمي الى وصف الاشياء كما تبرز للعيان في اوضاعها المتبدلة . فهم يشددون على الالوان وعلى المظاهر . ولما كانوا من الاوائل بين من ادخلوا الفن الياباني الى فرنسا ، فليس من عجب قط ان يقعوا تحت تأثيره المباشر . وقد اطلق جول لوميتر فيما بعد على نقوده الذاتية عنوان : «انطباعات حول المسرح » . وأناتول فرانس نفسه لا يستعمل تعبيراً آخر عندما يعرض افكـــاره الشخصية في

كتابه : « الحياة الادبية » .

نحن الآن امام شيء من هذا ، في الموسيقى . وشابرييه الذي ُعرف ببراعته وتفننه سار هو الآخر في اتجاه أفضى به الى مذهب دي بوسي . ولا يسعنا هنا الا ان ننوه بالرواد من الموسيقيين الانطباعيين ، امثال موسورغسكي الذي ُعرف بقدرته على تنويع التدوين الموسيقي . وقـــد يكون استبقى ، من هذه الناحية في كتابه الموسوم : « بوريس غودونوف » الرغبة الـتي طالمـا اعرب عنها دي بوسي ، وهي الاحتفاظ بما يسمى طابع العفوية او الطابع الزئبقي .

ان اسلوباً من هذا النوع ، وقد يكون شيئاً آخر – ظهر مع ذلك بين الرسامين . فالفنان الانطباعي يرى كزميله الفنان الموضوعي بين الامور المستمدة من حياة العصر ، اشياء طيبة . الا ان الاول منهما يأخذ على الثاني اعتقاده بمظاهر وظواهر دائمة مستمرة، كما يأخذ عليه انصرافه للرسم القاتم ، في مرسمه السيء الانارة والاضاءة . والحال ، فالمهم في الامر هنا ليس هذا الشيء بذاته ، بل الضوء الذي يكشفه او يبرزه . فالحادث الثوري وقع بالفعل عام ١٨٦٣ عندمـــا عرض مانيه في صالون المرفوضين رسمه المشهور باسم : « ترويقة على الحشيش » وهـــي صورة وضعها في الهواء الطلق . وعلى شاكلته نرى مونيه مأخوذاً « بهوس الضوء وحمـــى النور » . والحال، فالنور او الانارة تتغير وتتبدل بتغيير الظروف والاحوال الطارئـــة . ومن ثم فالشيء الماثل امامنا هو هـــو ذاته في كل الحالات اذ ان لاتغير ولاتبدل في ذاتيته . ممـا لا شك فيه اننا هنا امام تأثير الـ *Estampe* الياباني الذي لقي في فرنسا نجاحاً عظيما بعد ١٨٧٠ عندما أخذت امبراطورية الشمس المشرقة تلفت اليها انظار العالم ولا سيما الاوروبيين ، كما اننا ايضاً امام تأثير الفن الهولندي والاسباني ايضاً كما هو ثابت. وهذه الثورة مدينة بنوع خاص لعلم البصريات الجديد الذي استنشاطه التصوير الفوتوغرافي ومظاهر المشهد الصناعي: فالرمادي والاصفر يغشيان كل شيء حيث تغيم الالوان وتبهم وتشتد بالتالي الحاجة لنور ساطع . فالفنان الانطباعي لا يمزج ألوانه على الملّون (لوحة الالوان) . فهو حريص على ان يضع جنباً الى جنب الازرق والاصفر ليحصل بها على الاخضر . فهو يحل المركب ويترك للعين مهمة التركيب عن بعد . وهكذا فهو يضاعف اخف المؤثرات وادقها ، والهواء الطلق يوفر له اللقطات الآنية، كما يفعل المصور الفوتوغرافي اذ يأخذ المشاهد بنت ساعتها .

وكلود مونيه الذي يعتبر خير ممثل لهذا الطراز الفني لم يلتقط من الديكور العـارض سوى المناظر الآنية ، والمناظر الهروب ، اذ ان الموضوع لا شأن له بحد ذاته . فالابـداع او السمو يكون في رسم « الخواء » . وسيزلي يضحي بمهام الارض في سبيل السماء ، ورينوار الذي برهن عن روح استقلالية كبيرة والذي انطلق من كوربييه الى مونيه ليكون اكثر فأكثر على مقربة من ديلاكروا، آثر الواناً تهيج الحواس وتثيرها. لا يمكن اعتبار ديغاس في عداد الفنانين الانطباعيين المؤمنين ، هذا الرسام الحافظ ، اليقظ ، انقطع المرقم (البستل) وتوصل به الى نتائج مدهشة فاذا كان من العسير وضع هوسلر في مرتبة مونيه فقد دشن ليبرمان ، مع ذلك ، في المـــانيا ،

مدرسة القطيعة او الانفصام ، هذه المدرسة الفنية التي تنتسب للانطباعية وعرفت بدورهـــا رواجاً وازدهاراً كبيرين في البلدان الشمالية ذات الجو السويدائي . وبوفيس دي شافان مــدين بهذا الصفاء الذي عرف به لقضايا من هذا النوع سيطرت عليه واستبدت به .

واغنر والاتجاه نحو الفن اللاعقلاني

كثيراً ما وصف نفسه بـ *tondichter* اي شاعر الموسيقى الذي جمع في شخصه كل التيارات الفنية الذي عرفها القرن . رومنطيقي ، فقد وكانه ، كل حياته ، اقله في انفتاحه للموسيقى . فقد واجه ثورة ١٨٤٨ كما يواجه حدثاً داوياً بصيب النظام الاجتماعي فطلع علينا سيغفريد فوضوي يتحدى الآلهة . وقد وقف في كتابه : الفن والمناخ ، ضد هذه الحضارة المجردة ، السوية الصور وراح يلوم فرنسا التي غـــذت ، من راسين الى سكريب ، ما هو تقليدي ، في سبيل « النبوغ » كما لم يوفر في موقفه هذا ، اليهودي ، اي روتشيلد مرمزاً من تعابير *Glaubiger* الى دائن المـــلوك وملهي المؤمنين ، ومندلسون ومايربير مع العلم ان اليهودي يمكن ان يرجع انساناً اذا ما تجرد من يهوديته . ففكرة التجديد تسيطر عليه ، هذه الفكرة المتحكمة باتباع المدرسة الرومنطيقية بالرجوع الى الهرمونيا ، الى الانسجام والوحدة . يجب ان نوحد بين الشعر والموسيقى . ومن هـــذه الفكرة طلع علينا « برباعية خاتم آل نيبلونجن » فوضع نص النشيد واحكم الحبكة بين التأويل الموسيقي والمشهد . وتطالعه فلسفة شوبنهور القائلة بالفن المنقذ . ويتجه فنه بعيد عام ١٨٤٨ ، نحو الرمزية الـــتي تجلت بكل معانيها في كتابه : « تريستان » . وبعد الفشل الذي اصابه بـ « تانهوزر » في باريس ، لاذ بمرفأ السلامة الذي وفره له لويس الثاني ، ملك بافاريا . ومنذ ذلك الحين وضع كل آماله في المانيا المتجددة . فالقطعة التي وضعها بعنوان : *Les Maitres Chanteurs de Nuremberg* هي تجلي لسمو العبقرية المتحررة التي انقذت في شخص ، لوثير المانيا من هذه الصيغ والقوالب الضيقة ، وبهر مسرح بيروث ليشهد تمثيل وقائع سيغفريد الذي برز الآن بطلا قومياً وكذلك برزت شخصية برسيفال المنقذ .

واستبداد موسيقى واغنر بالناس واستئثارها بأذواقهم يتفق وطلوع الوحدة الالمـــانية . قليلون جداً الموسيقيون الذين لم يؤخذوا بسحر هذه الموسيقى ، ولم يستطع كل من قـــام منهم بحركة رجعية منهم ، امثـــال دوبوسي ، ان يتفادى سحر الرمزية . « خرجت مخبولا من مشاهدتي *Felstspielhaus* ، صرح فيما بعد ادوار هريو بعد ان استمع وشاهد الرباعية *tétrologie* عام ١٨٩٦ ليس ما هيأني ، انا الكرتزياني الحديث العهد ، لاستمتع بهذا المشهد الموسيقي الضخم ، هذه الميتافيزيقا الموسيقية ، هذا الصدام بين القوة والحب ، ولاحتمال مرأى تشنجات ألبرنيخ القزم والحركات السحرية التي ترسمها الحلقة الساحرة في دورانها الذي لا ينتهي حول المرسة » .

وقد خطر لليـــت ان بوسع واغنر ان يحقق حلم المسرح الموسيقي ذي المـــدلول الفلسفي العالي . والأثر الواغنري هو الذي حققه نيتشه . فبعد أن وضع جانباً العقلانيـــة السقراطية ، واعتقد بالسائل الحيوي الديونيسي الذي يستطيع ، اذا ما تعاون مع القوة الابولينية ، ان يخلق

الانسان الكامل . فقد نزع نيتشه بارادته نحو القول بمبدأ حياتي سام ، الا انه يأخذ بعد قليل ، بمهاجمة موقف واغنر من قضية الفداء أو الخلاص ويتطور ، بعد موت واغنر عام ١٨٨٤ ، باتجاه فلسفة نيورومنطيقية شخصية ، صرفة ، كان لها تأثير كبير في اخريات القرن التاسع عشر .

الابداع الشعري المستقل والرمزية

ربما كان بودلير بين الاوائل ممن انبروا للدفاع عن واغنر مع استمراره في جهاده ذوداً عن كوربييه . فقد اطلق هـذا الرجل الغريب الطباع ، الوجيم، الصعب التصنيف، كما يقول فيه هوغو «قشعريرة جديدة». وفرلين الذي يستحق هو الآخر الشفقة ، والذي تأرجح بين الايمان والتهتك وسيطرت عليه ابسط الغرائز مشترطاً « توفر الموسيقى قبل كل شيء » ، متصرفا بكل حريته بالانظمة ، دونما التزام ، مزدرياً بهذه الاصنام وبهذه التماثيل ؛ وقد رُفع على الهيا كل رسميا بعد عشرين سنة من وفاته . وبأسلوب يفيض بالجرأة التي لم تعرف لها شبيها من قبل، راح رامبو ، محمولا على اجنحة الاحلام والخيال الشرود ، يرصف امام اعيننا، صوراً لم تخطر يوماً عـلى بال ، باحثاً عن الشك للشك ، ثم يلفه صمت طويل وينقطع للرحـلة والسفر . وعندما توفي هوغو ، بعد واغنر بقليل ، طلـع علينا مالارميه بنظمه التقليدي ينشر على الملأ عدداً محدوداً من قصائده الرنانة الداوية ارادها « ساحرة » تفيض نقاء فكرياً . وهذه الرمزية جاءت كما ارادهـا واغنر ، اذ شدت وثيقاً ، بين الموسيقى والشعر . وهذا الفريق من الشعراء المعروفـين بـ *Décadents* ومن يليهم من الشعراء الرمزيين ، وصفوا انفسهم بشعراء فرنسا الشباب في الحي اللاتيني « قـلة ممن فتحت لهم الابواب ، فتقبلوا بارتياح كلي » ، البيان الجمالي الجديد الذي طلع علينا به موريا س.

فاذا كان المراد بالرمزية هذا الفن الذي استسلم ، بعد ان تسلح بالشعر المرسل، للشعور وحده وللعناصر الموسيقية ، وقام بحركة رجعية ضد البيان الوصفي واستخدم الايحاء واكثر من المجاز الشعري ، هذا التيار ارتدى اذ ذاك ، اتساعاً كبيراً . فقد غزا بلجيكا وتمثل فيها على خير وجه بمترلنك وموكل بقطع النظر عن فيرهارن . وقد تمثل في انكلترا بالشاعر بريدجس وسونبرن كما ترك ميسمه في الثالوث الشمالي ، وجانب الكاتب الايطالي دانونزيو وترك فيه اثره، كما ترك ميسمه في الكاتب السويسري سبتلر ، ودخل روسيا مع تيوتشيف « فت » . فألهـم المسرح كما ساعد في تمهيد الطريق امام الثورة التي قام بها دوبوسي في الموسيقى.

حركة انقطاع او انفصام تام عن المذهب العقلي او مذهب التعقلية . وفي سنة ١٨٨٩ اخـذ برغسون يطلع على الناس بنظرية الاكتناه . ونتبين بين هذه التيارات الفكرية والفنية الدقيقة تباعداً تقدمياً نحو النظرية الموضوعية . وهكذا جاءت خاتمة حقبة عظيمة لعمري .

الفصل الثالث

الريف يأخذ جزئيًا بأسباب التطور

فاذا لم ترجح كفة المدينة عددياً من الوجهة السكنية ، فقد سجلت مع ذلك، في جميع انحاء اوروبا شأناً لا ينكره الا كل مكابر عنيد . فعلى العالم الريفي ان يتكيف وان يتطور بما يتلاءم وهذا الوضع . ويحق لنا هنا ان نتساءل ما اذا كان بالامكان ان نقارن بين « الثورة الزراعية » و « الثورة الصناعية » ، يا ترى ؟

اكتظاظ الريف بالسكان ونزوحهم الى المدينة

وهذا الازدياد السريع في حركة السكان في المدن يقابلها انخفاض نسبي في حركة السكان في الريف . فالاسر التي تعيش على مرافق الزراعة انخفضت نسبتها في كل من ايرلندا وفرنسا . فالريف لم يعد في فرنسا سوى ٠٠٠ ٤٩٢ ٢٣ نسمة عام ١٨٩٦ ، بينما كان عددهم ٠٠٠ ٧٥٣ ٢٦ ؛ وبلغ من وضع بعض البلدان من هذه الناحية « ان راحت تنعي الارض التي تحتضر » :

فالسهل كئيب تعب ، ليس من يحمي حماه
والسهل حزين يحتضر وقد ابتلعته المدينة
(فيرهارن « المدن الاخطبوطية »)

ومع ذلك ، فهذا الوضع لا يعني قط ان الهبوط النسبي الذي طبع معظم الدول الاوروبية يكوّن انخفاضاً مطلقاً فلا نزال نشهد في كل من انكلترا والمانيا تزايداً مطرداً وان جاءت حركته اضعف مما كانت عليه في الماضي . أما في الجنوب والشرق من اوروبا ، فهذاالنمو يطّرد بصورة محسوسة .

فكل مرة تعجز الارض عن إعالة سكانها او تعجز عن الاحتفاظ بهم ، ترميها باكتظاظ السكان . ومع ان المدن لا تعوّل في معايشها على الفلاحين الاوروبيين وحدهم ، فكثيراً ما نراهم يتخلون عن بعض انتاجهم الطيب طمعاً بالربح او نزولاً عند مقتضيات القانون (فتصدير

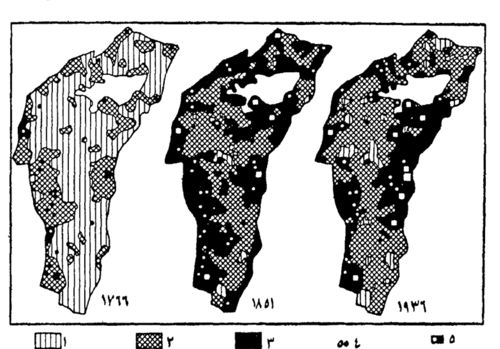
الحنطة في روسيا مثلاً ليس نتيجة فائض الموسم ، بل زهداً بالخبز الابيض) . فكثافة السكان في الريف يمكن اعتبارها على شيء من الشدة في عام ١٨٥٠ ، اذا ما قارناهـا بنسبة المحصول . ولما كان معدل الوفيات لا ينخفض الا قليلا او انه يبقى على حاله ، فقد كان من المتوقع ان ترتفع هذه الكثافة على اقدار ملحوظة لولا حركة نزوح السكان الى المدن او هجرتهم خارج اوروبا .

ومهما يكن ، ولكي يتجنب الفلاح النتائج الوخيمة التي كان لا بد ان يفضي اليهـا ازدياد السكان ، كان عليه ان يبقى حيث هو ويعمل عـلى زيادة موارده ، او ان ينزح عن ارضه ويرحل بعيداً .

فهو لن يتخلى عن ارضه بملء ارادته . ولذا نراه على شاكلة من تقدمه من السلف الراحل ، كثيراً ما يؤجر خدماته . فالهجرات الفصلية او الموسمية ازداد الاخذ بهـا بفضل طرق المواصلات والنقل الميسرة ، وهي هجرة تسببها دورياً الحاجة لليد العاملة ، في هذه المزدرعات الضخمة ، في بعض المواسم الفصلية ، كالقمح والكرمة . فمواسم الحصاد في سهل *Beauce* يجتذب اليه عدداً كبيراً من الحصادين يأتون من بين سكان مقاطعة بريتانيا او من البلجيكيين. كما ان هذه المواسم في مقاطعة الساكس تجتذب العديد من البولنديين للعمل فيها . والانسان لا يتردد عن ركوب البحر اذا ما دعاه داعي الهجرة الى ذلك . فها هو الاسباني والبرتغالي والايطالي ينزحون الى اميركا الجنوبية اثناء الشتاء الشمالي للعمل فيها خلال فصل الصيف ، فوضع العامل الفصلي او الموسمي ليس فيه قط ما يرغب او يشوق . فأيام الشغل عنده مضنية ، مرزحـة ، بينما يبقى عاطلا في ما تبقى من ايام السنة . وهكذا يساعد ذويه ويؤمن لهم اسباب العيش، كما ان الملاك الرأسمالي يستثمر الى اقصى حد في مزارعه هذا الرديف الآني من اليد العاملة .

وهكذا ترى كيف ان المجتمعات الريفية اخذت بالتفكك والانحلال في اوروبا الوسطى بينما ينصرف صاحب قطعة الارض الصغيرة للاستدانة في سبيل استثمارها وتوسيع نطاقها . أما في المانيا فالاسر التي يعمل بعض افرادها في الزراعة ، اخـذ عددها بالتناقص بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ بينما يزداد ، من جهة اخرى ، عدد الاجراء والخدام العاملين في المزارع . ففي جنوب انكلترا حيث الاستثمارات الضخمة تشغل ٨٠ بالمائة من مساحة الارض ، نرى تيار الهجرة فيها يجرف عدداً اكبر مما يجرف في الشمال . والهجرة اشتدت في شرقي المانيا أكثر منهـا في غربيها ، ولكي تحد الحكومة من تيارها الجارف فرضت النظام المعروف عندهم *Rentenguter* الذي يقضي باقطاع العمال المياومين أراضي بموجب عقود خاصة تخولهم استثمارها . وهذا التدبير اتخذ مثله في كل البلدان التي تقوم فيها املاك واسعة للدولة كما اصاب ارلندا وشبه الجزر الواقعة الى الجنوب من اوروبا على البحر الابيض المتوسط ، والبلاد الاخرى الواقعة الى الشرق من اوروبا. فاذا ما راح ملاك كبير يفرز ارضه قطعاً صغيرة للاستثمار اجتذب اليه عـدداً من الفـلاحين المزارعين ، فأدى ذلك بقسم من الـ *Pntza* المجرية الى انشاء عدد من القرى الجديدة قامت حول

مزارع معزولة عرفت عندهم باسم *tanyos* عمرها اقوام من غاليسيا وآخرون من سلوفاكيا .
اما تلك المناطق الجبلية كجبال الالب وسلسلة الجبال الوسطى حيث وصلت عملية احياء الاراضي الموات الى حدود المناطق الزراعية فقد عادت عليها هذه الحركة بالحيف والخسارة لصالح السهل،



شكل رقم ١٦ - كثافة السكان الزراعيين في ألزاس السفلى

١ - اقل من ٧٥ نسمة في الكيلومتر المربع، ٢ - من ٧٥ - ١٥٠ نسمة ، ٣ - اكثر من ١٥٠ ، ٤ - مجمعات سكنية تعداد سكانها اقل من ٥٠,٠٠٠ ، ٥ - مجمعات سكنية تعداد سكانها اكثر من ٥٠,٠٠٠ .

الى الغرب : منطقة الكروم وكوشيرسبيرغ . الى الشمال : منطقة هاغنو وغابتها . الى الشرق : منطقة الرييد على طول نهر الرين .

يلاحظ التزايد الفلاحي حتى منتصف القرن ثم الجنوب الذي مارسته ستراسبورغ ومنطقتها .

(نقلا عن جوبيارالحياة الفلاحية في الزاس السفلى ، ص ٣٢٩) .

اذ راح المزارع الفصلي يستقر فيها بعد أن اطمأنت نفسه الى ظروف العيش المؤاتية . فمنطقة الـ *Velay* مثلا كانت في وضع أخف من غيرها ، اما في ضواحي مدينة سانت أتيان ، فالهبوط لحق بالاخص المقاطعات الريفية حيث اخذت تنشط صناعة صغيرة للتعدين ، بينما الصناعة الضخمة تقتل الحرف المتشتت بعضها عن بعض كما انها تستقطب اليد العاملة المتوفرة .

هذه التغييرات السكانية انما تشير صراحة الى المساوىء التي يتأذى منها الريف. فاذا ما أدت حركة النزوح هذه الى التخفيف بعض الشيء من الضغط الذي يحدثه اكتظاظ السكان على وضع إقتصادي محدود النشاط ، فقد اضطرت طبقة الفلاحين التي بقيت مـلازمة للارض للاخـذ باصلاحات جزرية تساعدها على قهر الصعوبات التي تتعرض لها والتحكم بها .

تطور التقنيات الجديدة واستثمار أصلح الارض

من المبادىء التي تعتمدها الهندسة الزراعة وتنهض عليها هي ان الزراعة مظهر من مظاهر الصناعة ووجه من وجوهها المتعددة ، تخضع مثلها لمقتضيات العلم والتقنية . فعلم النبات وعلم الحيوان، والاقتصاد الزراعي اساسها كلها العلوم الطبيعية والفيزيائية والكيميائية وعلم الاسواق بما تقوم عليه من فنون التسويق والتنفيق . ولذا انتشر التعليم المهني وذاع . ولا شك ان رأس المال لعب هنا دوره البارز بحيث ان الفلاح المتعلم هو على الغالب ملاك ، ينعم ببعض الثراء . ولكي يتخلص المستثمر الصغير من المصاعب التي يعاني منها ، كان عليه ان يتغلب على ما طبع عليه من روح فردية وان يبرهن عن استعداد للعمل بروح تعاونية . فالمفارقات تبقى كبيرة ، واضحة بين من يرسفون في قيود العادات القديمة البالية ، وبين من اخذوا باسباب التجدد، يجاهد الفريق الاول منهم ويناضل في ظروف وصروف غير متساوية مع الجهود التي يبذلون . فليس بغريب قط ان تلعب "سنة الاصلاح وقانون الاكفأ لعبتها المعروفة هنا ايضاً .

ومن جهة اخرى فهذه الاقطان والاراضي الزراعية القديمة في اوروبا لا تصلح جميعها على السواء للاجهزة الميكانيكية . فقد تركت فرنسا المانيا تبزها في هذا المضمار وتتجاوزها بعيداً . فقد كان لالمانيا عام ١٨٨٠ من الحاصدات الميكانيكية ١٢ ضعفاً مما كان لفرنسا منها ، وضعفان من الدراسات التي تعمل على الخيل ايضاً . فبلدان اوروبا الشمالية ، تتبنى قبل غيرها من البلدان الاوروبية الاخرى المماخض الآلية ، لان صناعة الالبان فيها اصبحت موضوع عناية وتخصص مستمرين .

فاذا ما اخذت الزراعة بالتقهقر في هذه الاراضي المرتفعة الواقعة على سفوح الجبال بعد ان تخلت عنها يد الانسان العاملة ، فالاعمال المتعلقة باحياء الاراضي الموات تتقدم باطراد مستمر . وعلى هذا هبطت في فرنسا مساحة الاراضي البور بين ١٨٨٢ - ١٩٠٨ من ٦،٢٠٠،٠٠٠ الى ٢،٨٠٠،٠٠٠ هكتار . وحلت الاراضي الحرجية محل الاراضي السبخية في محافظة غسكونيا . كما ان اعمال تجفيف الاراضي تسير على قدم وساق في مقاطعات سولوني والبراين والدومب ، خلال الامبراطورية الثانية التي قامت ببناء سدود في مقاطعة «كامارغ»، وبذلت جهوداً جبارة باستمرار لاستصلاح الاراضي المنخفضة عن سطح البحر (*Polders*)، واستخلاص بطون المناجم من رواسب المياه وابتنزاح الرمال من هذه الاراضي المتمدة من مقاطعة با دي كاليه الى مشارف سكندينافيا . ومثل هذه الجهود تخصص لمقاطعة كمباين ، ولهذه السهول المنبسطة التي تمتد على شواطىء هولندا والمانيا، واراضي الجوتلاند والسويد السيئة التصريف . وانفرس تستعمل نفاياتها وقمامتها المنزلية لتسميد السبائخ الواقعة على مقربة منها ، فتعطي مواسم طيبة من الخضراوات والبقول ، ومواسم طيبة متأخرة القطوف من البطاطا ، واعمال تصريف المياه، واقامة السدود والحواجز المائية تفتح لزراعة الحبوب ، مساحات واسعة من اراضي الجسر التي كانت معرضة من قبل لطغيان المياه . اما في ايطاليا الشمالية ، فقد استعملت اقنية الري على نطاق واسع بحيث استطاعت قناة كافور ان تروي ٢٠٠،٠٠٠ هكتار من الاراضي الزراعية ، كما انه وضع

فيها برنامجاً واسع النطاق لاستصلاح الاراضي شمل كل انحاء الجزيرة الايطالية. ومشكلة التشجير هي موضوع اهتمام الجميع منذ ان تبينوا الاخطار التي تتهدد التربة من جراء تعرية الارض من الشجر وتعرضها للانجراف مع المياه المتدفقة شتاء من سفوح الجبال نحو البحر .

كذلك بذلت عناية كبيرة لتحسين قدرة التربة على العطاء والانتاج . فالعهد الذهبي الذي غولوا فيه على سواد الغوانو والذي يقع بين ١٨٥٠–١٨٨٠ ولى وأدبر لتحل محله مخصبات جديدة طلعت علينا بهـا الكيمياء الحديثة جـاءت مسعفاً كبيراً للسواد الحيواني . واستعمال السماد الكيماوي الذي نجح نجاحاً باهراً في هذه الناحية ، كان فعله بطيئاً في نواح اخرى ، مما اتاح للفلاح مردوداً اكبر وادى بالتالي الى نتائج اطيب في المحصول . وللنهوض بتربية الماشية ، عن طريق الانتخاب الطبيعي والتأصيل ، واستيلاء عروق جدية ، ومكافحة الاوبئة والجوائح الحيوانية فقد نصح خبراء الزراعة بالتعويل على تسميد الارض بالسواد الطبيعي ، واعتماد انتخاب افضل في الحيوانات الداجنة ، وتأصيل في النبات ، وكلها ذرائع ووسائل علمية ادت الى محصول اطيب في البطاطا مثلا اذ اعطى الهكتار الواحد في المانيا ٢٠ طناً عام ١٩٠٠ ، لقاء سبعة اطنان ونصف في فرنسا ، واعطى محصول الشمندر ١١٪ من المادة السكرية بدلا من ٧٪ . كذلـك بذلت عناية اكبر في عمليات التطعيم والدرخ ، كما اشتدت اعمال المكافحة ضد الامراض الطفيلية في النباتات اللازهرية ، وهكذا تغلبت زراعة الكرمة على مرض الارمداد ومرض العفن الفطري وعلى الفيلوكسيرا .

فكيف السبيل بعد لتطبيق هذه الاكتشافات وفقاً للبيئات الجغرافية ؟ فاذا ما اقتصرنا على المساحة ، فالمسائل التقليدية لا تزال هي المسيطرة حتى الآن . فالطريقة الزراعية القديمة المتعددة المزروعات ، وهي الطريقة التي تمليها الغريزة والحكمة ، وذات المردود الضعيف ، تصمد في كل مكان وتقاوم تيار التجديد. فهي تلائم تماماً نشاط صغار الملاكين ، وهذا الفلاح الذي لا ارض له ولا املاك ، لا يقبل التخلي راضياً عن العادات والاعراف المعمول بها في مجتمعه والمعول عليها في بيئته . ففي الجنوب الاوروبي ، يتألف معظم الريف مما يعرف عندهم بـ *Saltus* اي من اراضي الرعي تجاور ما يعرف عندهم بالاراضي الصالحة للزراعة التي درجوا في استثمارها وفقاً لنظام التحويل الزراعي . كم هو كبير عدد البلدان التي تمتد حلقاتها من البلدان السكندينافية حتى سلسلة جبال شيارا مـورينا في اسبانيا وفي البلقان ، اصبحت عملية الاحتشاب عندهم من ذكريات الماضي البعيد .

والعلاقات في الحياة والاتساع الذي تتخذه في المجتمع هي التي تعمل على تعديل ذهنية ابن الريف . والعلامتان الفارقتان اللتان لا تدعان مجالا للشك هما التخلي عن نظام الدورة الزراعية وفقاً لما درجوا عليه منذ القديم ، والعزوف عن تعاطي زراعة الحبوب وتربية المـاشية . ففي هذا انهاك للارض من جهة يوجب الركون الى تسميدها ، ومن جهة ثانية ضمان نجـاح التخصص وترسيخ لاصول الزراعة الاحادية ، مع العلم ان نجاح تربية المـاشية يستدعي استبدال عملية

الـ *Emblavure* بالعشب وزراعة النباتات العلفية والبطاطا التي تحل بشكل اجدى وانفع محل الارض البور . فبعد الفصل بينهما، تختار كل من زراعة الحبوب وتربية الماشية، الاراضي التي تلائم بالاكثر، كل واحد منها . وتربح الواحدة منهما ، من حيث الانتاج والمحصول، مـــا تكون خسرته من المساحة ، بينما يسجل الثاني ازدهارا اكبر . وهذا الانفصال الارضي يعود بالخير على زراعة الكرمة والحدائق وبساتين الخضرة . غير ان الفصل يستدعي تبادل الخدمات ، والاخذ بنظام يرمي لتقديم الانتاج الزراعي الذي له قيمة اكبر من الوجهة التجارية . فالاكتفاء الذاتي يعني ان تنتج البلاد ليس كل ما تحتاج اليه ، بل القدرة على تأمين ما لا تنتجه البلاد بسعر منخفض . فكل بلد يحدد نوع الاختصاص الصالح له حسبما يحدده علماء الاقتصاد الحر . فبعد ان عزفت انكلترا عن تأمين حاجتها من الحبوب محليا لتحصر جـل نشاطها الزراعي بتربية الماشية ، فقد كانت اول بلاد تقوم بمثل هذا الاختيار ، وهو تصرف لم يلبث ان حذا حذوه كل من هولنـــدا وسكندينافيا وسويسرا ، والدول الاخرى التي لا تتوفر لهـــا امكانات اكبر كفرنسا مثلا تركت لمختلف مقاطعاتها ومحافظاتها ان تختار على ضوء مصلحتها وحاجتها ، نوع النشاط الزراعي الذي يلائم طبيعة تربتها . فالكرمة تنوعت نصوبهـــا ، وتلونت عروقها في الجنوب ، حيث جاءت التجربة تثبت بانه من المقاطعات الواقعة على الساحل الغربي ، لا يمكن ان يعول عليها لتأمين البواكير في انتاج الثمار . والسهول الغربية اثبتت صلاحيتهـــا لانتاج الحنطة والشمندر فنشطت ، في المقاطعات الجبلية ، تربية الماشية ، وهو نشاط تتقاسمه مع السهول الرطبة. فالخط الحديدي والملاحة يسهلان نقل المحاصيل التي تعطي البلاد مردوداً طيباً . فالمدينة هي التي تنظم وتغني حركة المبادلات . فهي تشتري لتبيع ، وتمد الريف بالآليات الزراعية وتقدم له كل مـــا لا يستطيع توفيره او صنعه .

التطور الزراعي يتوالى بين مواسم خصبة وسنون عجفاء

ترتبط الثورة الزراعية ارتباطاً وثيقاً بتقلبات طويلة الامد، بعيدة المدى. فقد عقد الريف سنة ١٨٥٠ ، آمالاً طيبة على المواسم ونشطت بالتالي الحركة في المدن كما زاد فيها النشاط التجاري . فالاستهلاك، ازداد ووسائل النقل الجديدة سهلت عملية مد الاسواق المحلية بحاجاتهـــا الاولية. وقد صحب ارتفاع الانتاج الزراعي، ارتفاع عام في الاسعار[١]. ومع ازدياد انتاج الارض ارتفعت بالتالي قيمتها التأجيرية . ففي فرنسا ارتفعت قيمة الاملاك بين ١٨٥١ – ١٨٧٩ ، من ٦٠ مليار فرنك الى ٩٠ ملياراً، كما ان ربع الارض ارتفع في المدة ذاتها ، من ٧٠ – ٨٠٪ . وفي بوسنانيا تضاعفت قيمة الفدان الواحد بين ١٨٥٧ – ١٨٧٠ كما ارتفعت اربعة اضعاف في بروسيا الشرقية . وتحسنت جداً الأساليب الزراعية ، واستطاع مزارعون كثيرون ان يؤمنوا وفـراً طيباً لهم. فنحن في صميم هذه الحقبة التي تواجه فيها بلدان اوروبا الوسطى زوال النظام السيادي

(١) راجع الكشف البياني ص ٨٩

عندما راح العهد القيصري يلغي عبودية الارض . وحركة نزوح طبقة الفلاحين التي اخذت اذ ذاك بالاشتداد ، اثارت شيئاً من الارتياح ، بين العديد من الاسر . وهكذا ساهم قسم كبير من الريف في شبكة المبادلات والمقايضات ، مع العلم ان منافسة الدول التي طلعت حديثاً لم تكن بعد شمروا بها بصورة ملحوظة .

وقد اكفهر الجو بعد عام ١٨٧٥ . فازدادت الصادرات الاميركية ، والروسية ، كما أن المنافسة الدولية احدثت هبوطاً في الاسعار : الا ان البلدان التي كانت تنتج كثيراً في سبيل التصدير تضررت بنسبة البلدان الاخرى التي تسير على النهج القديم. وقد انخفض مدخول الارض في فرنسا ٣٠ ٪ في هذه الفترة الممتدة بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ ، و ٦٠ – ٧٠ ٪ فيهذه المناطق التي تعول على زراعة الكرمة التي فتكت بها آفة الفيلوكسيرا . وقيمة الارض نفسها هبطت من ٥٠ مليارا الى ٣٠ مليارا في بريطانيا العظمى ، بين ١٨٧٥ – ١٩٠٠ ، في هذا الوقت بالذات الذي ارتفعت فيه قيمة بيوت السكن من ٣٥ – ٦٥ ٪ .

واستمر التطور السابق في سيره الصاعد وزاد بنسبة الميل الى الهبوط . ونشطت حركة الهجرة في الريف والنزوح منه ، وهي حركة لم تقتصر على ايرلندا وبريطانيا العظمى، بل تعدتها الى بلدان اوروبا الوسطى واقطار اوروبا الجنوبية والشرقية على السواء. فالمزروعات التقليدية ، وفي الدرجة الاولى منها الحبوب ، سجلت خسائر كبيرة اضطر معها المزارعون ، اكثر مما فعلوا في الماضي ، الى تحسين طرق استثمار الارض باستخدامهم وسائل وادوات جديدة للحصول على انتاج اكبر : وهكذا انصرفت العناية للمزروعات التي تؤمن مردوداً اكبر :كمية اصغر من القمح ومقداراً اكبر من اللحم وكمية اكبر من الهكتولترات في الهكتار الواحد . وتم الفصل تماماً ، في هذه الحقبة بين الحبوب وتربية الماشية . فقد استحالت مساحة ١٦،٠٠٠ كيلومتراً مربعاً من الاراضي الزراعية في انكلترا الى مراع . فقبل عام ١٨٥٠ ، كانت بلدان اسكندينافيا تبيع مواسمها من الحبوب لتشتري اللحوم . ولكن منذ عام ١٨٩٢ لم تعد تنتج سوى نصف ما كانت تنتجه من القمح ، وثلاثة محصولها من الشوفان ، الا انها ضاعفت عدد الماشية فيها ، واخذت تصدر الزبدة . وقام الدانمارك بثورة جزرية في اقتصاده الزراعي ، وارتفع الى البلدان الطليعة في تربية الماشية . وسويسرا اتجهت هي الاخرى نحو مصير زاهر للمراعي الجبلية. وايرلندا نفسها حققت تقدماً محسوساً في هذا المضمار بعد ان تخلت عن زراعة الحبوب لتشجيع المروج الخضراء والمراعي للماشية وبيعها من الانكليز. وتخصصت هولندا بانتاج المواد الغذائية ذات القيمة الغذائية كالحبوب وانواع الجبنة والزبدة والزهور . فالحدائق والبساتين تقام بسرعة في الجنوب بينما تهدد الكرمة جوائح طارئة . فبلدان اوروبا الوسطى وغربيها هي التي اخذت ، على الاجمال، بأسباب حركة التكييف والتنسيب هذه ، بينما لا تزال الاقطار الشرقية منها في طور زراعة الحبوب .

وهذا لا يعني قط ان الجهود المبذولة لتأمين حركة التطور ودفعه الى الامام كانت كافية .

فالازمة تصيب بالاحرى هذه المناطق التي لم يطرأ تبدل يذكر على نمط العيش فيها . وبفضل هذه الغريزة التي رُكبت فيها بالفطرة ، اخذت الطبقة العاملة في الزراعة تلتمس من الدولة حمايتها. فسياسة الحماية الجمركية ليست بعلاج بحد ذاتها . فهي ليست باكثر من مسعف آلي – اذ تفسح امامهم الامل بتحسين الاسعار . ومع ان هذا التدبير له كل مساوىء المخدر الوقتي ، فلم يكن بوسع الحكومات الا النزول عنده . ومن جهة ثانية ، فقد اخذ قسم من سكان الريف بمبدأ تأليف التعاونيات ، كما اخذ قسم آخر – ولا سيما هذه البروليتاريا العاملة في الحقل ، بمبدأ النقابية .

الملكية الضخمة :امكاناتها ومساوئها

ليس بمستبعد قط ان ملاكاً من اصحاب الاقطان الكبيرة تتوفر له الدراية الكافية ولديه الوسائل الكفيلة،من راس المال واليد العاملة الرخيصة ، ان يأتي في طليعة حركة التجدد هذه ، فيأخذ ، كما حدث لآل بولزني في ايطاليا ، باستصلاح جانب من السهل الالمـاني وسهل المجر . والمألوف عموماً هو ان يؤجر ارضه حصصاً لقاء نسبة من ريع الارض وغلتها . وقد ينزل به هبوط اسعار الارض ، كما حدث في انكلترا مثلاً ، ضربة مؤلمة ، كما ان الاجراءات الرسمية والتدابير التي عرفت، فيها باسم (قانون الاراضي الزراعية ، وطدت جانب المزارعين والمتعهدين الزراعين الذين تمتعوا باحكام قانون الايجار) ، بحيث ان راس المال المخصص للاستثمار ينفصل عن الرأسمال العقاري.في سنة ١٨٩٠، كان المتعهدون الزراعيون يستثمرون ٢٨ مليون فدان، في الوقت الذي كان فيه اصحاب الاقطان يستثمرون بانفسهم خمسة ملايين فدان لا غير . فالصورة المرتسمة في الاذهان تصور لنا طبقة بورجوازيةتنعم في بحبوحةوارستوقراطية لا تزال تحتفظ باملاك وعقارات ضخمةجداً،فالاراضي المرجية تعدل ٦ ملايين هكتار،درت عليها ريعاً بلغ ٣٥٠ مليون،وفي بعض الاملاك المتوسطة الحجم بلغ الريع نحو نصف مليون).وفي ارلندا، وضعت الازمة البلاد امام مجاعة وهو وضع اوجب على مجلس العموم البريطاني، عام ١٨٧٠ ، سن قانون خول المستأجر حق المساومة حول قيمة الايجار دون ان يربطه ذلك بشيء.صحيح ان الفقر لا يزال ضارباً اطنابه ، الا ان تيار المهاجرة وحركة الاصلاح التي بوشر بها امران بشرا بطلوع عهد افضل طل على المستأجر الصغير الذي توصل ، شيئاً فشيئاً ، الى ان يتحرر من الرسوم التي رزح تحتها في الماضي . ووقع في ولاية غروننغ تطور شبيه بالتطور الذي وقع في انكلترا استحال معه المستأجر مشاركاً في الملكية . وهـذا النظام هو المعمول به في مناطق كثيرة في شمالي المانيا وشرقيها. والمطالب الزراعية التي كان على اولي الامر في الرايخ ان يعنوا بها وان يهتموا لها نمت عن المشكلات التي تخفيها ما يعرف عندهم *Junkertum* .

اما في النمسا وايطاليا وشبه الجزيرة الايبيرية ، فالاملاك العقارية الضخمة كانت تتسبب في اطالة البؤس والاضطرابات في البلاد . فالكنائس والاديار وابناء الارستوقراطية العلمـانية لا

يزالون يتمتعون بسيطرة مقيته ، منفرة ، مرزحة قلما تتيح لهذه الطبقة المتخلفة من الفلاحين والمزارعين فرصة لتحسين اوضاع معيشتهم .

ففي هنغاريا ١٠ ملايين هكتار من الاراضي الزراعية ، الخصبة هي في قبضة ٢٣٠٠٠ من كبار الملاكين . بينما ١٬٢٤٠٬٠٠٠ هكتار يتقاسمها ١٬٢٧٩٬٠٠٠ من صغار الملاكين. فقد حاز احد امراء استربازي وحده ٢٣١٬٠٠٠ هكتار كما حاز احد امراء آل فستتيك ٨٨٬٠٠٠ هكتار ؛ هنا زرائب واكواخ مبنية من قوالب اللبن ، مغطاة بالقصب ، وهنالك صروح وقصور باذخة ، فخمة يقطنها عظماء البلاد . وفي مقاطعة بوكوفينا نرى ٤٤٬٧٪ من مجموع مساحة الارض يملكها ٢٥٧ شخصاً وان ٢٦٪ من هذه المساحة موزعة بين ١٩١٠٠٠ ، بينما في ترانسلفانيا ٣٦٫٢ شخصاً يملكون ١٨ بالمئة في حين يملك ٤٠٤٢٬٠٠٠ شخصا ٣٩٬٦ بالمائة ويؤلف المرابعون في ايطاليا مع العمال المياومين، السواد الاكبر من الشعب الايطالي. فايطاليا لا تعد من أصحاب الاملاك سوى ٤٠٠٬٠٠٠ بينما سويسرا تعد ٣٠٠٬٠٠٠ من الملاكين. فصاحب الارض يؤجر أرضه عادة ، حصصاً صغيرة بموجب صك ايجار ينص على اقتسام الارباح والخسارة *Mezzadria* او *Boaria* ، ما لم يلزمها الى متعهد عام يستأجر لها اليد العاملة الرخيصة . ففي مقاطعة توسكانا ٩٣٬٧٪ من الاراضي المستثمرة، لا تزيد مساحة القطعة الواحد عن ١٠ هكتارات ، وهي تمثل ١٩ بالمائة من مجموع الاراضي الزراعية في البلاد ؛ بينما ٢١٬٦ بالمائة يملكها ٠٫١ بالمائة من الملاكين، و ٣٢٬٤ بالمائة يملكها ٠٫٢ بالمائة. والصورة تكاد تكون مماثلة في كل من اسبانيا والبرتغال . فالعقارات التي تبلغ مساحة الواحد منها ١٠٠٠ هكتار توازي من ٥٠ – ٧٠ بالمائة من مساحة مقاطعات اسبانيا الجنوبية (أي بمعدل ٣٠٠٠ لـ ٢٤٨ شخصاً بينما يصيب معظم المزارعين ٣ هكتارات للشخص الواحد . فالقانون الاسباني الذي صدر عام ١٨٨٩ يؤثر التعامل مع الملتزم الواحد بحيث يسهل الدفاع عن مصالحه من جراء هبوط الاسعار مثلا ، والقوانين التي تسهل مبدئياً حق التملك بقيت بالاحرى حبراً على ورق . وقد نجم عن هذا كله ، كما حدث في ايطاليا ، اضطرابات مزمنة تسببت في حركة مهاجرة واسعة النطاق .

تطور الملكية الصغيرة ومشكلاتها والاستعمار المباشر

حطمت الفردية في النظام الزراعي ليس المجتمع القروي فحسب بل ايضاً هذا الطوق الذي وضعه حول عنق المستثمر اصحاب العقارات الضخمة . من الامور المرعية الاشادة بحسنات الملكية الصغيرة التي تكسب اكثر من استثمارها الارض مباشرة . الا ان صغر القطعة الزراعية وتشتتها قد يولدان شيئاً من الضآلة في المواسم يجعل نظام الاستثمار مهدداً بخطر الزوال. ان استملاك الارض من قبل من يستثمرها بقي عرضة للطوارىء اذ لم تكن المراحل التي عرفها هذا النظام متشابهة بين بلد وآخر . فالايجار الدائم او صيغة شريك في الملك كثيراً ما افضيا الى وضع قد لا يختلف كثيراً عن الاستملاك. ففي سكندينافيا والدانمارك حيث عقب عملية توزيع الاملاك السيادية عملية اخرى قامت على تجميع هذه القطع عن طريق التسوية او المبادلة،

نال الفلاحون بموجبها القدر الكافي من الاراضي المنسية . الا ان هذه الاملاك الصغيرة الحجم او المساحة اخذت تضيق وتصغر لحاقاً ، عن طريق الارث والتوزيع المتعاقب بحيث اصبح وضعها وضع اراض اشتدت حولها رغبة الطامعين بها. فقد رأينا كيف عرف صغار المستثمرين في انكلترا الذين لا تزيد مساحة ارض الواحد منهم عن ٢٠ إيكر (٨ هكتارات) بالاكثر ان يتفادوا الطوق الذي حاول فرضه عليهم النظام الاقتصادي المعروف بنظام الامتلاكية واصحاب المزارع الضخمة، يملكون نصف الوحدات الزراعية اي ما لا يزيد على ٦ بالمائة من مساحة الاراضي الزراعية . فاذا ما اعتمدنا اساسا الاصلاح الفرنسي لعام ١٨٨٢ ، نرى ان المزارعين كبارهم ومتوسطهم يملكون معاً ثلاثة ارباع مساحة الاراضي الزراعية ، بينما ملايين من صغار الفلاحين يملكون الربع لا غير . وهكذا يشتط بعيداً من يقول او يعتقد ان ارض فرنسا الزراعية هي بتصرف صغار الفلاحين ، بل الاصح والاقرب الى الصواب القول في انها تخص في غالبيتها الكبرى ، الملكية المتوسطة ، اذ ما وضعنا في هذا الصف المزارع التي يتراوح حجمها بين ١٠ — ٥٠ هكتاراً . فمن اصل ٥٠٠٠ ٦٧٢ ٥ مزارع ، هنالك ٠٠٠ ١٧٦ ٢ يملك الواحد منهم اقل من هكتار من الاراضي الزراعية . ولما كان عدد القطع الزراعية في البلاد يبلغ ٠٠٠ ٢١٤ ١٢٥ قطعة ، فالمعدل الوسط للقطعة الواحدة يتألف من ٣٩ آراً . ومثل هذا التوزع والتشتت انما يعني ان عدداً كبيراً من المزارعين كان يعاني الضنك الشديد ويضطر بالتالي للقيام بعمل اضافي .

الغنى والفقر في قلب طبقة الفلاحين

ليس من طبقة ريفية اليوم كما في الماضي بل طبقات ريفية تتباين فيما بينها من حيث الوضع العام ونمط العيش .

فاذا ما اقصرنا الكلام هنا على فرنسا ، مثلا ، هل يصح لنا ان نأخذ بعين الاعتبار بعض التأكيدات العامة ؟ ففي عام ١٨٧٠ ، يؤكد بيغوي ان اي رعوية عادية كانت الف مرة اقرب الى رعوية من القرن الخامس عشر او من القرن الخامس او الثامن من اي رعوية في يومنا هذا » . ولنصغ الى ما يرويه لنا الاب « تيانون » بعد ان رسم اميل غيومين لنا صورة قاتمة عن حياة النكد التي يحياها المرابع ، وذلك في كتابه الموسوم : « حياة أحد البسطاء » فيقول : « قوتنا خبز الشوفان المجروش ، لونه لون السخام ، يجرش تحت الاسنان كأنه ممزوج برمل خشن من هذه الرمال التي تسقيها السواقي . وهم يؤكدون لنا ان ترك النخالة في الطحين تزيد من خاصيته الغذائية . اما الحساء او الشورباء فهو اللون والصنف الرئيسي : شوربا البصل صباحاً وفي المساء، اما عند الظهيرة فشوربا البطاطا مع الفاصوليا واليقطين مع لحسة من الزبدة . اما شحم الخنزير ، فلون نادر جداً وصنف يترك لايام الاعياد المعدودة .

« ويضاف الى هذه الالوان احياناً بعض المقالي التي يصعب مضغها بحيث تنغرز فيها الاسنان ولا تستطيع الخلاص منها بسهولة ، وبطاطا مشوية تحت الرماد ، وفاصوليا مسلوقة يضاف اليها

كمية قليلة من الحليب يكاد لا يتغير لها معه لون » . ومع هذا أفلا يجوز لنا ان نجاري جوريس في تساؤله : « كيف يتدبر هذا الفلاح امره من موسم الى آخر، في عمل هو هو، واسعار محاصيله دوماً في هبوط، وهذه الديمومة في عمل روتيني، وتدني سعر قمحه وسعر ماشيته، ونبيذه ومحصوله من القنب ، ومن الزبيب والحليب ، وأمام هذا الجفاف ، والقحط ، وهذه الضربات المتتالية ، لا يستسلم لحكم القضاء والقدر، استسلامه له امام هبوط البرَد وهبوب العاصفة واشتداد الجفاف، ومع ذلك فهو يشعر ببعض التعزية « لاول مرة في حياته لمشاركته حياة المجتمع » . علينا ان نقر ونعترف ، مع ذلك ان الفلاح ، كان غذاؤه على وجه العموم، احسن مما قرأنا له من وصف . فخبزه اكثر بياضاً . فقد ازدادت كمية البطاطا التي يتناولها كما ازدادت كمية النبيذ الـتي يشتريها ، او الجعة او شراب التفاح الذي يشربه حسب ظروف المكان. فهو الآن يتناول القهوة ويستهلك السكر ويأكل اللحم اقله مرة في الاسبوع وفي ايام الاعياد . الغذاء عنده اوفر حجماً وكمّاً منه نوعاً وصنفاً . وشبح المجاعة تضاءلت اسباب ظهوره واوضاع سكنه تحسنت قليلا . فاذا ما قلت رؤية الغرفة الواحدة سكناً للعائلة الواحدة بكاملها ، فلم يكن ، مع ذلك من النادر قط ، ان نرى اهل الدار يتقاسمون مع ماشيتهم بيتاً واحداً هو مسكن واسطبل معـاً يفصل بينهما حاجز رقيق. وشيئاً فشيئاً ، فقد حل القرميد محـل القش على السقف ، وكابوس الحريق لم يعد المفزعة التي ترزح كابوساً على صدر العائلة . وقبل ظهور الكهرباء لم يكن التنوير شيئاً عملياً ومأموناً والعتمة كانت دوماً تسير جنباً الى جنب مع قلة التهوية . أما الفرش او الاثاث فغاية في البساطة ، مع ان الخزانة او الدولاب هي دائماً هنالك من طراز ما . والكرسي حلت محل الاسكملة، كما ان الناس ازدادوا اقبالا على المقعف او صوان المائـدة . فالالبسة الداخلية والاسرّة اشياء اخذوا يهتمون لها والكل يراعي فيها الزي المسيطر في المنطقـة على الاذواق الا ان الفلاح اخذ يتبرم من شيوع هندام ابن المدينة .

فالوصف الذي تركه لنا زولا عن فلاح قليل الكلام ، عنيف الطبـاع ، متأفف من نـير الضرائب والقرعة العسكرية قد يبدو قاتماً اذا ما أطلقناه على هذه الفترة الواقعة بين ١٨٦٠ – ١٨٧٠ ، بينما يبدو مغالياً او مبالغاً فيه عندما يصورونه لا يلين ولا يستجيب للتطور ولا يأخذ بأسبابه ، يحمل في قلبه للارض التي هي بعنايته تعلقاً شديداً ، لين العريكة امام ممثل السلطة ، وذا طبع مستقل يجعل منه من مؤيدي السلطة المطلقة دون ان يدري . واذا كان عليه ان يخرج طوعاً واختياراً من عزلته وان ينزل للمدينة ليبتاع منها ما هو بحاجة اليه ، ساعـده ذلك على اثارة الفضول فيه ، وراح يشعر ، ولو بصورة غامضة ، بالحاجة للتحوط ضد طوارىء الحياة[١] .

---

(١) ما هي بالفعل نسبة ارتفاع الاجر لدى سكان الريف ؟ فالعامل في الزراعة كان يقبض في اواخر القرن الثامن عشر في انكلترا تسعة فرنكات في الاسبوع ، و ١٢ فرنكا حوالي ١٨٥٠ ، و ١٥ فرنكاً حوالي ←

فبينما يرى البعض ان العامل في الارض هو من هذا الفريق الذي يـــذهب فريسة القوي ، ويرى غيرهم بأنه حليف قوي في وجه الديماغوجيين، فهو ينظر نظرة تقدير للنظـــام التمثيلي ويؤمن بسحر ورقة الاقتراع التي يطرحهافي صندوق الاقتراع. فاللعبة السياسية لم يعد في مكنتها تجاهله قط .

١٨٨٠ . اما في فرنسا فكانت اجرته في السنة ٤٠٠ فرنك عام ١٨٤٠ و ٨٠٠ فرنك عام ١٨٨٠ . اما اجر خادم في مزرعة فكانت اعلى اجرة العامل اليومي غير الممون او المكفى . فالاجر في الريف دون مـــا هو عليه في المدينة ، ووضع المرأة في كلا الحالين مجحف جداً بحقها ، اذ كان معدل الاجر الذي يدفع للعامل في الحقل ، عام ١٨٨٢ ، هو ٢٠٢٢ فرنك للرجال و ١٠٤٢ فرنك للنساء العاملات في الحقل ، بينما يدفع للعامل ٣٠٥٨ فرنكات وللعاملة ١٠٧٧ فرنك في المدينة . ومع ذلك فقنتال القمح كان يساوي ثمنه معدل ١٦٠ ساعة عمل للعامل عام ١٨٤٠ ، بينما لم يكن يكلفه سوى ٧٠ ساعة عمل ، عام ١٩٠٠ .

الفصل الرابع

المدينة المتحررة
بين القوى المحافظة والاشتراكية

« لا بد للحرية من العقل »
ادمون بينو - « مساوىء التربية والتعليم العام »
كاديس ١٨٦٧

الدول القومية وعبادة القومية

اوروبا في القرن التاسع عشر هي مجموعة من الدول تنهض كلها على اساس قومي وطني ، ولم يبق فيها سوى وضع جغرافي واحد اساسه اسرة وراثية تتعاقب على الحكم هي اسرة آل هبسبورغ ، التزمت لها سياسة قامت على التنازلات إرضاء للقوميات المختلفة التي تألفت منها . فآل رومانوف يعتمدون بالاحرى الشعور القومي الروسي لتدعيم امبراطوريتهم بينما تنمي تركيا عجزها عن إضرام شعلة الوطنية الخافتة في البلاد . فقد تبدى لاحرار البورجوازيين ان الأمة هي مشاركة شعور ومصالح متبادلة واحترام حقوق الانسان والمواطن. ويقابل الانتساب الحر الى الأمة رابطة الدم الواحد والتفكير الواحد الذي يوجب على افراد المجتمع الواحد ان يعيشوا معاً. إن اقتطاع الالزاس وقسم من اللورين ، عام ١٨٧١ دليل كاف على بطلان الاحتجاج بالحق التاريخي دون ان يثير ذلك عاصفة من النقد والجدل .

كل شيء يدعو لبعث الشعور القومي بين افراد الشعب الواحد: المدرسة والتجنيد الاجباري وخدمة العلم وتطور طبيعة العلاقات التي تشد اجزاء الوطن الواحد بعضها الى بعض ، ووحدة النمط في العيش والنهج المشترك في الحياة . فعظمة الوطن وجماله هما من هذه الموضوعات التي تهم الشعراء وتهم رجال الفن . فالقصص التاريخي الوطني ينشط ويروح الشعر يتغنى بهذه الامجاد والذكريات الوطنية المشتركة . والموسيقى تستلهم انغامها من هذا الادب الشعبي الذي

يلهب القلوب والعقول معاً ، ويصبح التاريخ معيناً للتوكيد ان الماضي يهيء الحاضر ويبرز الايمان بطلوع مستقبل زاهر امام الامة . والروح القومية بفضل ما لها من شعبية تعمل على قتل الروح الاوروبية لما لها من طابع ارستوقراطي وبورجوازي . فهي اقل اخذاً بأسباب العقل ، وألصق بالشعور والعاطفة .

الاقليات وحقوقها ضمن الامة

ذاب في هيكل الأمة ما فيها من فئات خاصة وطبقات ومجتمعات دينية أو مهنية . فالتسليم العام بالوضع القائم ليس سوى شيء فكري أو عقلي . فقانون الدولة اساسه ارادة الاكثرية . وقد يقوم احياناً وضع خاص نجم عن ضغط أو التزام ما .

والاقليات الدينية هي على الاجمال أكثر الفئات الخاصة رعاية واحتراماً . فمن مبدأ التساهل الذي طلع به القرن الثامن عشر ، طلع مبدأ الدولة العلمانية اي الحيادية . فالروح الليبرالية بالاضافة الى عدم اللامبالاة الدينية من شأنها ان تجعل حياة الكاثوليك اسهل وأيسر في هذه البلاد التي تتألف اكثرية السكان فيها من البروتستانت ، والعكس بالعكس . ومع ذلك فالبرلمان الانكليزي لم يقر قانون فصل الدولة عن الكنيسة الا في عام ١٨٦٩ . وبفضل هذا القانون تم تحرير الايرلنديين الكاثوليك من تابعية الكنيسة الانكليكانية . وسياسة الفصل بين الكنيسة والدولة على مثال ما حققته اميركا لم تنتصر في فرنسا إلا في عام ١٩٠٥ .

وتحرير اليهود حركة لها مغزاها ومدلولها هي الاخرى . فقد جاءت نتيجة ، حتمية لهذا التطور الذي خضعت له فكرة المساواة ، في العالم ، وتقهقر روح العصبية الدينية ، كما ان هذه الحركة قابلت ، ارتفاع شأن الرأسمالية . فقد شهد عام ١٨٤٨ تحرير القوميات في اوروبا الوسطى ، وفي هذا الاتجاه سارت ايضاً كل من اسبانيا والبرتغال ، بينما حركة الاضطهاد الديني نشطت في الشرق من القارة الاوروبية وحركة معاداة اليهودية التي تغذيها هذه الاقليات القوية النفوذ في كل من اوروبا الغربية والوسطى ، وهذه الملايين من هؤلاء البؤساء التعسين في اوروبا الوسطى ، لم يخبُ نارها في اي مكان. هنا دليل قوي على رسوخ بعض الاوهام في عقول الناس بالرغم من التطور الذي قطعه التحرر الفكري في العالم .

فقد عجزت لندن عن التوفيق بين وحدة امبراطوريتها وبين النزول عند مطالب الايرلنديين الحقة . فمن هذه المفارقات الصارخة ، مقاومة الشعب الايرلندي للضغط البريطاني اصبح رمزاً للتحرر بينما المضطهد المتعسف هو هذا البريطاني الذي يضرب المثل باحترامه للشخصية الانسانية . والقضية البولونية تشبه من وجوه عدة ، القضية الايرلندية : صراع دولة مستعبدة في سبيل تحرير ارضها ، وتأمين حريتها السياسية والدينية وتحقيق استقلالها السياسي ، يقابلها من الجانب الآخر مسائل تتعلق بأمن الدولة المسيطرة لتبرر موقفها المتصلب الذي لا ينهض على دليل تاريخي بل هو حجة القوي التي عرفوا ان يدعموه في الوقت اللازم ، والرايخ الذي اقتطع الالزاس واللورين ، والذي رفض ان يعيد الى الدانمارك مقاطعة الشلسويغ ، والامبراطور الملك الذي راح من فيينا وبودابست

يستخدم القومية الالمانية والجرية لكبح جماح الاقليات الواقعة تحت سيطرته ، والقيصر الذي يرغب في لجم المقاطعات البلط ، والفلنديين والبولونيين، يحتج بسلامة الدولة وامنها ، وهو عذر سهل يبرر كل فتح . فالتناقض يبرز بين حق الاكثرية ، وبين سوء استعمالها لهذا الحق . فالدولة التي تهب عليها روح الحرية تبدو عاجزة . فسويسرا وحدها وجدت الحل المرتجى من نظـــام الاقضية الذي ارتضته نهجاً سوياً لها .

الابقاء على الوظيفة الملكية ومقاومة الارستوقراطيات

ولهذه الاسباب التي ذكرنا لم ينتشر النظام الجمهوري . فقـد شابهت جمهورية الدوقات ، في فرنسا ، بصورة مدهشة ملكية برلمـــانية والملكية في بريطانيا تستعيد قسماً من شعبيتها . وعلى شاكـلة بلجيكا ما كاد معظم الدول البلقانية تفوز باستقلالها حتى تولى رئاستها ملوك جاؤوا من الاسر المالكة في اوروبا .وفي ايطاليا تتم حركة التجمع والالتفاف حول الاسرة المالكة في السافوي ، كما تـتم في المانيا حول اسرة هوهنزولرن . وما كادت النرويج تنفصل عن السويد حتى اقـــامت فيها النظام الملكي .

فعهد المشاحنات السلالية ولى وأدبر.فالملوك الذين تشدهم بعضاً الى بعض وشائج وطيدة من التزاوج والمصاهرة، أملكوا بحق الهي، كما هي الحال في كل من بروسياوالنمسا، او ملكوا بدون ان يحكموا ، كما هي الحال في كل من لندن وبروكسل ، يؤلفون من بينهم عشيرة يسودهـــا التضامن والتعاضد ، وهي صفات تلعب دوراً رئيسياً في العلاقات الدولية .

والى كنف النظام الملكي تلجأ الكنائس التي تتمتع بامتيازات خـــاصة والارستوقراطيات العلمانية . فالكاثوليكية والانكليكانية واللوثرية تحترم كالارثوذكسية، التقاليد التي تقول بعضـد العرش للهيكل . وهذه البلاطات الملكية ، سواءٌ اتسمت الحيـــاة فيها بالبذخ او بالبساطة تستمر حية ناشطة . فبعد ان وقفت في وجه تجاوزات السلطة الملكية ، راحت طبقات النبـلاء تطالب بقيام مؤسسة تقيها شر الديموقراطيات الساحلة. ويكفي ان نلقي نظرة عابرة الى هذا الفريق السياسي لنتبين الدور الكبير الذي تلعبه هذه الطبقات مناصفة مع كبار ممثـــلي البورجوازية والعاملين في خدمتها ، امثـــال بسمارك وهوهنلو ورصفاؤهما في كل من انكلترا ، في شخص دربي وسلسبري ، وفي فرنسا ، اقله الى بروز ممثلي « الطبقات الاجتماعية الحديثة » بطلوع غمبتا ثم برويل وديكاز .

تطور المصالح العامـــة الكبرى

فالطبقة البورجوازية التي ثارت ، عام ١٧٨٩ ضد امتيازات العهـد القديم وضد الاستثناءات العديدة التي كان ينعم بها ،تصدت كذلك لروح الغطرسة والاستبداد في الادارة ، هذه الروح التي لم تكن سوى اداة الدولة الحـديثة في تطورها الصاعد . ولذا راح غيزو يصرح قائلاً : « ان فرنسا دولة يوجهها الموظفون ». وفي المانيا بين ١٨٨٠ — ١٩١٠ ، ارتفع عدد الموظفين العاملين في مصلحة البرق والبريد ومصالح الخطوط

الحديدية من ٤٢٥،٠٠٠ الى ٧٠٠،٠٠٠ . وراح فرنسوا جوزف يتبجح بأنه الموظف النموذجي في الدولة . ومهما بلغ من تعلق انكلترا بسياسة الحكم الذاتي المحلي ، فقد شعرت بشديد الحاجة الى موظفين يؤمنون خدمة المصلحة العامة .

هنالك مصالح تقليدية يتدبر امرها موظفو «السلك» من عسكريين ودبلوماسيين واداريين . فالسلك لا يدخله الا اصحاب الاستحقاق والاهلية ، ويقتضي ، الى جانب المؤهلات الشخصية شيئاً من اليسر المالي والثروة ، يشد بين اعضائه روح من تضامن الزمالة ، وهي روح تضمن الاستمرار ، فيهما يقوم سر كل نجاح . ولذا راح الموظف الكبير يردف الرجل السياسي ويحل بديلاً عنه على رأس وزارة حكومية او على رأس حكومة كلما دعت الى تأليفها مصلحة السلطة العليا .

فالعدالة في البلاد والشرطة هي من هذه المصالح التي تقع مسؤولياتها على كاهل الدولة التي يؤول اليها مهمة السهر على السلامة العامة وحفظ النظام في البلاد الذي يفترض فيه احترام الاشخاص والحفاظ على ممتلكاتهم . فاذا ما توفر للقاضي بعض الاستقلال في عمله ، واذا ما تطور الاخذ بنظام المحكمين فقد كان لا بد من وجود هيئة عليا للامن العام يؤمن ، تدخلها المكشوف او الخفي، الاستمرار للحكومة او سقوطها. فحوادث الثاني من كانون الاول (ديمسبر) ١٨٥١ ، يجب اعتبارها ، قبل كل شيء عملية بوليسية ، في الدرجة الاولى ، كما ان سقوط الامبراطورية في ٤ ايلول ١٨٧٠ جاء نتيجة لاقصاء البوليس من قصر البوربون . « فالنظام الادبي » يعتمد عليها قبل كل شيء ، ومدير البوليس لابين يغذي علاقات طيبة مع هذه الجمهورية الراديكالية التي يخدمها بكل اخلاص .

فالمصالح العامة في الدولة العصرية: كالبرق والبريد والخطوط الحديدية والتعليم، تتولاها هيئة من المواطنين ذات طابع ديموقراطي لا بل شعبي ولكنهم ليسوا عيالاً على الدولة اذ ان مقتضيات الاقتصاد الحر تستلزم عدم وضعهم على نفقة الجماعة .

مشكلات التعليم العام والتعليم المهني

ومع ان الامية لا تزال البلاء الاعظم الذي يعاني منه المجتمع، فالتعليم الالزامي لم يدخل الا متأخراً جداً في التشريعات الحديثة التي لم تدخل حيز التنفيذ في كل مكان . فالتعليم الابتدائي سجل تطوراً اكبر كما نلاحظ ، في البلدان الشمالية والمانيا وفرنسا وسويسرا . ومع تفاوت الاعتمادات المرصدة له في موازنة الدولة العامة ، فستبقى هذه المخصصات دون الاعتمادات المخصصة لاغراض الدفاع بكثير .

ومهما يكن فقد ارتفع حول المدرسة وقضايا التعليم جدل طويل وصراع مرير ارتسمت صورته في ذهنية الطبقات الادارية التي تقاذفتها تيارات مختلفة كضرورة الاخذ بفكرة التطور والتمسك الغريزي بالنظام. فبعد بستلوزي، راح فريق من امثال لانكاستر وفروبيل ومونتزينو ينبذون بشدة

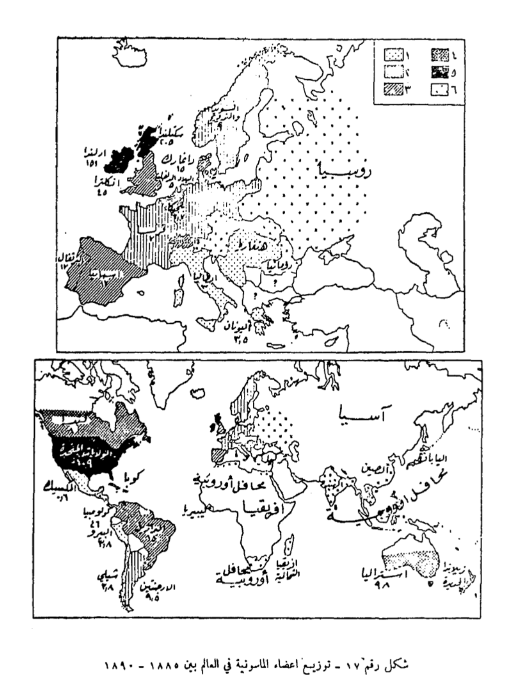
التقريرية او الجزمية . فالانتقائي فكتور كوزين ، اتخذ قاعدة عمل له المبدأ القائل : « ان كل المواطنين من ابناء البلاد ، مهما كان دينهم او مذهبهم ، لهم حق تلقي التعليم » . الا ان حق احتكار التعليم الجامعي الذي كان لا يزال يقول به ويبرر القيام به ، رفض الاحرار المتعنتون القبول به من حيث المبدأ ، كما ان الكنيسة الكاثوليكية لا يمكن لها ان تسلم به . ومن جهة اخرى ، هل بالامكان تصور تعليم علماني يحترم في وقت واحد كل المعتقدات الدينية، ويستطيع ان يؤمن الوحدة الفكرية في الوطن ؟ ثم هل من الموافق ومن الحكمة ، من وجهة المحافظة على المجتمع البشري ، ان يكون الله بالضرورة حاضراً في المدرسة ؟

سجلت فرنسا في هذا المجال حادثاً تاريخياً يتمثل في قانون « فلّو » الصادر عام ١٨٥٠ ،هذا القانون الذي جاء يوفق بين نظريتين : النظرية المسيحية والنظرية الوطنية القومية . وفي بلجكا تمكنت المدرسة الطائفية من تقرير مساواتها رسمياً بالمدرسة العلمانية اذ ان النسبة العالية من الطلاب الذين ينتمون اليها امنت لها مساعدة السلطات العامة على قدم المساواة مع منافستها الاخرى . ففي الحين الذي راحت فيه الامبراطورية الالمانية تفرض وجوب التصريح عن الدين في التعليم الرسمي الوحيد ، قررت بريطانيا العظمى ، مراعاة لمزاجها الخاص ، الوقوف بجانب التنويع دون ان تلغي التعليم الديني من مناهجها التربوية؛ فالدول البروتستانتية تميل نحو التساهل المبدئي ، هذا التساهل الذي ينطبع ، من الوجهة المبدئية على الاقل ، بالفكرة المسيحية ، بينما تنتصب العلمانية في الدول الكاثوليكية في وجه المدرسة الطائفية.

هبوط في الايمان التقليدي وتطور الفكر الحر

فالجدل حول المدرسة ليس سوى مظهر من مظاهر الصراع الذي احتدم بين الكنيسة والحركة العلمانية التي لا تعني بالضرورة ، مناهضة رجال الاكليروس ، بينما تعلم الاخرى ان لا خلاص للجنس البشري خارج التعاليم الدينية الموحى بها .

ان انصراف العقول عن الدين وزهد الناس بالعبادات والطقوس التقليدية امر لا يختلف فيه اثنان . وقد اشتدت وطأة هذا التحول في المناطق الصناعية او في تلك المناطق التي اكتظت مدنها بالسكان دون ان نستطيع الجزم ما اذا كان اصاب البلدان الكاثوليكية اكثر من البلدان البروتستانتية، الا انه أبعد عن الارثوذكسية وعن الطقوس التقليدية المعمول بها جانباً كبيراً من العنصر الاسرائيلي . ويؤكد الاب بشرت ، عام ١٨٥٦ . « ان المهمة الملقاة على عاتق عصرنا هذا هو إعادة الطبقات الكادحة الى جادة الايمان ... » . وقد خشي غليوم الثاني كثيراً من إعراض الناس المتزايد عن الدعوات الكهنوتية . ففي فرنسا كانت حوادث السيامات الكهنوتية ارتفع عددها ، عام ١٨١٥ ،لتهبط بعد حين ، ثم تعود فترتفع قليلاً بين ١٨٧٠ – ١٨٨٠ لتهبط من جديد . هنالك ١٢٠٠ راعوية ، حوالي ١٨٤٨ ، واكثر من ٤٠٠٠ حوالي عام ١٩٠٠ ليس من كاهن او قس يقوم على خدمتها . فالاكليروس الذي قلت بضاعته من العلم والثقافة ، ضؤل استعداده للقيام بالمهمة الملقاة عليه . وقد لاحظ لامنيه، منذ عام ١٨٢٧ ، هذا الوضع المستحكم ،



شكل رقم ١٧ ـ توزيع اعضاء الماسونية في العالم بين ١٨٨٥ ـ ١٨٩٠

١ ـ ٥ اعضاء من ١٠٠،٠٠٠ نسمة ؛ ٢ ـ من ٥ ـ ١٠ ؛ ٣ ـ من ١٠ ـ ٥٠ عضواً ؛ ٤ ـ من ٥٠ ـ ١٠٠ عضو ؛ د ـ اكثر من ١٠٠ عضو ؛ ٦ ـ وجود اعضاء بدون تحديد عدد .

عندما يقول : « يجب رد قوة اعداء المسيحية ليس الى انهم يعرفون كثيراً،بل الى ما هم عليه من جهل الطبيعيون المدافعون عنها ، فلا الفنون التشكيلية ، ولا الهندسة يتخذان بــدأ من التقوى الدينية . » ففن السان سولبيس » يفتقر اصــلاً للانطلاقة ، والموسيقى الكنسية اصيبت ، هي الاخرى بالخسف ، والموسيقارليست عجز تمامــاً عن التعبير الصحيح للطقوس ، هذه الطقوس التي حاول غير انجيه ان يبعث فيها النشاط والتجدد .

وقد احتدم الجــدل والنقاش الديني بين البروتستانت . فالكنيسة الانكليكانية تجتــاز ازمة حادة بعد ان هزتها اعادة السلطة الى الكنيسة الكاثوليكية ، في تلك البلاد وراحت المشاحنات تتجاذب الكنيسة العليا ، والكنيسة العريضة والكنيسة السفلى . والظــاهر ان اليقظة استنفذت كل نتائجها ، وفي بروسيــا والبلاد الواطية ، احتدمت المعركة الدينية بين مستقيمي الرأي واصحاب الرأي الحر بحيث لم تلبث هــذه المشاحنات ان امتدت الى الكنائس الانجيلية في كل من سويسرا وفرنسا . وحف الخطر من كل صوب بالطقوس التقليــدية من جراء احتدام نقد الكتاب المقــدس . والارثوذكسية اليهودية نفسها المعروف عنها تمسكها الشديد بأسباب الدين تعرضت لهزات هدامة جاءتها من هذه الحركة الاصلاحية ، الموجهة ،ضد التلمود،كما اصيب الولاء للغة العبرية بالتراخي والانحلال من جراء الانحطاط الذي استشرى بين هذه المجتمعات اليهودية في الغرب التي اخذت تُعرض عن استعمال اللهجة اليديدية هذه اللهجة العبرية الهجين من الالمانية والسلافية : وبالمقابل ، فقد انتشرت اللاتفريقية بمختلف الوانها فتغلغلت بين المؤمنين الذي انقطعوا عن ممــارسة مراسم العبادة فاستحالوا جاحدين ملحدين . فسانت بوف يحدثنا عن : « هذه الابراشية الضخمة التي تغطي كل فرنسا والتي تعــد الوف الاتباع من هؤلاء القائلين بالربوبية وناكري الوحي ، او المنصرفين الى مخاطبة الارواح والاستسلام لمراسم العبادة الطبيعية ، والحلوليين الوضعيين .

من الصعب تحديد الدور الذي لعبتــه الماسونية . ففي عام ١٧٨٥ ، بلــغ عدد المحافل الماسونية في العالم ١٧,٠٠٠ محفل ضمت أكثر من مليون من الاعضاء ، نصفهم في اميركا ، بينهم اكثر من ٢٠٠،٠٠٠ من البريطانيين . فالجمعية ليست بثورية . فملوك البلدان البروتستانتيــة وانسباء هؤلاء الملوك من الأمراء يشرفون على مصير هذه الجمعية . ففي الدول الكاثوليكية عرفت هذه الجمعية ان تجتذب اليها عدداً كبيراً من موظفي الحكومــات الذين يحبذون الروح العلمانية ويعملون على الترويج لها وعلى مناهضة رجال الدين . ويجهد خصومها على التشهير بها بشكل لا يخلو من المبالغة ، ويبينون للناس مالها من قوة ونفوذ . ولكن ، أليست بعد هذا كله ، كما يقول فيها اناتول فرانس : « جمعية » ... تؤمن الترفيع المتبادل » !

مقارمة الكنائس لها مصانعتها للدولة المتحررة

ومهما وجدت نفسها مهددة ، فالاديان التقليدية عرفت ، مــع ذلك ، كيف تحتفظ بما لها من مواقع حصينة ، كما ان قدرتها على الكفــاح والنضال لم تن ولم تضعف .

فعندما وطدت البروتستانتية اقدامها ورسخت اصولها في بلد ما تعمل على انشاء علاقــات

طيبة مع الدولة التي كثيراً ما ترعى مصالحها ، وتفتي بوصفها الحكَم ، في هذه المنازعات التي كثيراً ما تنشب بين النزعات المحافظـــة والنزعات المتحررة . ومع أن المعاهدة الدينية (الكونكوردانو) المعقودة بين الدولة والكنيسة اعترفت بوضـع الكلفينيـة في فرنسا ، فقد آثر اتباع هـــذه الكنيسة ان يعتمدوا على انفسهم ورضوا بفصل الكنيسة عن الدولة هذه السياسة التي اقترح فينه الأخذ بها والنهج عليهـــا باعتبارها شرطـــاً اساسياً في عملية الاصلاح . وهذه الروح الاصلاحية التي كان بوسعها القيام بحركة تبشيرية واسعة النطـاق ، لعبت دوراً بارزاً في اعداد هذه القوانين الانسانية وفي قضية التعليم العام واخذت تنزع للحؤول دون تشتت الراعويات وتباين المذاهب العقائدية ، وذلك بالاتجاه نحو اعمال البر والاحسان، منها مثلا ، مؤسسة جيش الخلاص ، هـذه المؤسسة التي تشكلت على غرار الرهبنة اليسوعية ، ولاقى تأسيسها نجاحاً تاما ، وقد غدت هذه الاعمال الايمان في النفوس ليتلاءم تماماً مع تجمع القوى .

واستمرت الكنيسة الكاثوليكية تعلل النفس بحشد القوى وجمع الطاقـــات الخيرة إلا ان النجاحات التي حققتها في كل من انكلترا والبلاد الواطية لم تفض قط الى وضع حد لهـــذه الانفصالات التي أدت اليها سياستها المتصلبة ، وهكذا أدت اعمال هرناك الى توضيح وجهة النظر اللوثرية وجلائها ، بينا سياستها الرامية لتوطيد السلام تدور على نفسها فقد نجحت سياسة تأييد سيادة البابا . وبعبارة أخرى ، ففي الوقت الذي يتوطـــد فيه الشعور القومي وترسخ الروح القومية بين الشعوب في المجال العلماني ، فقـــد نزعت ، من جهة أخري ، الى الهبوط في قلب الكنيسة . فعملية التوحيد تمت لمصلحة الليتورجية والفلسفة القومية ، التي عرفت رواجاً كبيراً وتجدداً جديدين ، قوّت من امتيازات الكرسي الرسولي . ان اعلان عقيدة الحبـــل بلا دنس ، والوضوح الذي ميز فهرس الكتب والتعاليم الحرة *Syllabus* لدى الكنيسـة الكاثوليكية ، هيأ إعلان عقيدة عصمة البابا ، هذه العقيدة التي تم إعلانها في مجمع الفاتيكان عام ١٨٧٠ ، معلنـــاً بذلك الراعي الدائم . وهكذا فالكنيسة الكاثوليكية في ردتها العفوية في الدفـــاع عن النفس ، زادتها مركزية وجعلتها تتجه بالتالي نحو الحكم المطلق . فأمام هذه الروح التحررية قامت روح مسكونية ، بعد أن استشرت الروح العلمانية بين الدول ، وادخال هذه الروح على وسائـــل المواصلات التي تعمل على حشد الخدمات في المدينة الخالدة .

فاذا ما زاد إعداد الكهنة العلمانيين صعوبة ، فقد عرفت المؤسسات الرهبانية من جهتهـــا ازدهاراً أدى الى تأييد نفوذ الكرسي الرسولي . فقد أدى القرن التاسع عشر من هـذه الناحية الى دمل أحد الجروح التي فتحها القرن الثامن عشر ، اذ ساعد على إعسار الاديار ، كما ادى الى تأسيس عدد من الرهبانيات الجديدة . وهذا التجدد والبعث للحياة الرهبانية ساعد كثيراً على القيام بحركة التبشير بين المنشقين من المسيحيين وفي هذه البلدان التي لا تزال على الوثنية ، بحيث اصبح من الممكن التحدث الآن عن حركة اصلاحية معاكسة ، في اوروبا نفسها ، الخصم فيهـا الملحد المعطل أقل منه الهرطوقي . وتكاثرت المشاريع الدينية التي وضعت نصب اعينهـا تجديد الروح المسيحية عن طريق المحبة والكرازة والتبشير .

ابتعدت مظاهر العبادة عن المفهوم الجنسيني ، وهذه الروح الرمزية التي انطلقت من ايطاليا عمت الكثلكة جمعاء . وتجلت للناس عواطف تقوية تمثلت في هذه الاحتفالات والمظاهرات العبادية ، وتبلورت على اتمها في هذه الزياحات وهذه المزارات والحجيج الى الاماكن المقدسة . وقد اتجهت عواطف المؤمنين الى يسوع الرؤوف ، الرحيم . ولذا راح المطران هولست يتكلم عن « عصر القلب الاقدس » الذي تكرست له الشعوب ، وعن مريم العذراء . والعبادة المريمية تألقت آنياً بهذه الظهورات العجائبية كا لـ *salette* ولبرناديت سوبيروس . وقد كان من سخر لورد العجائبي ان جذبت اليها وفوداً ضخمة من حجاج المسيحيين ، اذ ضم حج واحد اكثر من ١١٠ آلاف حاج عام ١٨٧٢ ، كا انه وفد على لورد من الحجـــاج بين ١٨٧٠ – ١٨٧٨ اكثر من ٦٦٠,٠٠٠ .

وقد ابت على البابا بيوس التاسع تقواه ونفسه البارة مصانعة العصر ، وأعرض عن الخدمات التي كان يمكن للدراسات اللاهوتية ان تؤديها مع دولنجر ، ووقف موقف المدافع عن العقيدة التقليدية ، في تشهيره لاضاليل العصر ، في البراءة البابوية *Quanta Cura* وفي دليل الكتب المحرمة *Syllabus* الذي اثارت لهجته الصريحة وعبارته الشديدة ردود فعل عنيفة بين الفرقاء الذين وقعوا مع الكرسي الرسولي معاهدات الكونكوردات بين الدولة والكنيسة . ولذا فقد تأزمت في اواخر حبرية البابا بيوس التاسع العلاقات بين الكرسي الرسولي والدول كا قامت صعوبات مع كل من اسبانيا والنمسا . ونهج بسمارك نحو الكثلكة سياسة عدائية تمثلت في منهج الـ *Kulturkampf* (الصراع في سبيل الحضارة) ، كا ان غمبتا اعلن الحرب ضد « النظـام الأدبي » عندما أخذ يصرح : « الروح الاكليريكية ، هذا هو العدو بعينه » . فاذا ما تسلح خلفه البابا لاون الثالث عشر بمرونة سياسية اكبر ، فلم يستطع الا المضي في موقف الكنيسة المتصلب من تعاليم العصر ، كا حذّر من المساوىء والمخازي التي يذهب اليها « العقل ، عندما يشتط في مداهناته وتدليساته وتغذيته حب العظمة الفارغة ، وكلها أمور محببة لقلب الانسان » .

وقد حدث مع ذلك ما نم عن بعض التحسن في الوضع . ففي البراءة التي نشرها بعنوان : *Immortale Dei* يصرح البابا قائلا ان الكنيسة لا يمكن ان تقف موقفاً معاديا من أي « تساهل عادل » ، ولا تبدي العداء للحرية المشروعة الحقة وهي محاذير أقل وطأة وأخف اثراً . ويؤكد في براءته انه لا يمكن شجب اي شكل من اشكال الحكم ، اذا ما احترم حقوق المؤمنـين ، وحقوق رجال الدين . وقد بدا طلوع عهد من التقـارب الى انصـار الجمهورية في فرنسا الذين قلقوا من انتشار الروح الاشتراكية ، وراحـوا يتمنون لو يصار الى « تهدئة » . ولذا راح البابا ليون الثالث عشر يوحي بوجوب الولاء للانظمة الشرعية القائمة ، بينما رسم في براءته الجديدة برنامجاً خاصا بطبقة العمال ، اطمأن العمال الى مبادئه المعتدلة .

ولم تحل الفوارق والخصومات القائمة بين الكنائس والمجتمع العلماني من عقد هذه الاتفاقات والتنازلات التي لا بد منها . أفليست العبادة من هذه الخدمات العامة ؟

ومن ثم فهذا المجتمع العلماني ، في سعيه الحثيث لتأمين استقلاله عن السلطة الكنسية تردد كثيراً قبل ان يقطع صلاته بالدين وشؤونه . ففرنسا لم تقر الطلاق النهائي – مع ان مبدأ الطلاق اعترف به منذ عام ١٧٩٢ – الا عام ١٨٨٤ ؛ ثم ان الاقبال تدريجياً على الزواج المدني لم يلبث ان انتشر في البلدان الأخرى . والسويد لم تسلم به الا لغير اللوثريين كالبرتغال الذي أقره لغير الكاثوليك . والنمسا اجازت الطلاق لغير الكاثوليك ، ولم تسلم كايطاليا ، إلا بانفصال الزوجين . فالبلدان البروتستانتية ، اختلف موقفها بنسبة تباين الروح التحررية فيها . فلنسمع ما يقوله هوغو هنا : « كل حضارة تبدأ بنظام ثيوقراطي وتنتهي الى نظام ديموقراطي » .

من الاقتراع الضرائبي الى نظام الاقتراع العام ومن حكم النبلاء الى حكم الديموقراطية

في براءته المعنونة *Diuturnum* الصادرة عام ١٨٨١ ، يذكر البابا ليون الثالث عشر : «انه اذا ما اردنا ان نحدد مصدر السلطة في الدولة علينا ان نصغي الى ما تعلمه الكنيسة بهذا الصدد بوجوب البحث عنه في الله » ، ثم يضيف قائلا : « فاذا ما ربطنا هذه السلطة بارادة الشعب نكون استهدفنا للشطط ، من حيث الاساس ، ونكون أولينا السلطة اساساً وَهِناً سريع العطب ، لا قوام له » .

وقد وضع العاملون على توطيد النظام التمثيلي نُصب اعينهم ، ضمان الحريات الفردية . فقد كانت انكلترا ، في هذا المجال ، مثالاً يحتذى ، اذ ان سياسة الصراحة التي درجت عليها تلك البلاد العريقة في نظمها القانونية –بما فيها من ملاكين وذوي أهليات– امنت الاستقرار للحكومة والسير بمقدرات البلاد وتوجيهها التوجيه الصحيح . ان نظاماً من هذا الشكل كان من شأنه في نظر الاحرار ، ان يحول دون استئثار الفرد او فئة معينة ، بالسلطة . ولكن هل كان بوسع مثل هذا النظام ان يبقى بعيداً عن السلطة الشخصية ، كما تستطيعه الديموقراطية ؟

فالنصوص الدستورية تفسح المجال ، عادة ، لمواجهة المجلس الادنى المنتخب من قبل الشعب بمجلس اعلى تعينه السلطة التنفيذية او يجري انتخابه من قبل هيئة انتخابية مصغرة . ومع ذلك فهذا النظام – باستثناء فرنسا حيث كان يعمل به منذ عام ١٨٤٨ – مع العلم ان الامبراطورية الثانية عرفت ان تتلاعب به بما يتفق ومصلحتها – لم يستقر في اوروبا إلا بصورة تدريجية . هنالك ، بالطبع بعض تغيير يطرأ على مفهوم الحرب والحزبية ، اذ اخذت قاعدته بالاتساع ، بحيث تمتع الشعب بأطر اتخذها من بين النبلاء والاعيان : حزب الطبقة الذي اخذت الاشتراكية تدعو الى قيامه ، لخير الطبقة العمالية ، الامر الذي بعث الريبة والتشكيك في هذه المستجدات الخطرة .

الضرائب والموارد المالية في الدولة

هل يترتب علينا ان نرى في هذه الدولة الحديثة « وضعاً من نسج الخيال ، كل واحد فيه يحاول ان يعيش على حساب الغير » ، كما كان يقول بستيا ، او « لجنة ادارية تتولى شؤون البورجوازية المشتركة » ، كما جاء على لسان ماركس ؟ كل هذا والنبلاء يعارضون ما وسعهم ، فرض الضرائب على الثروات التي جمعوها .

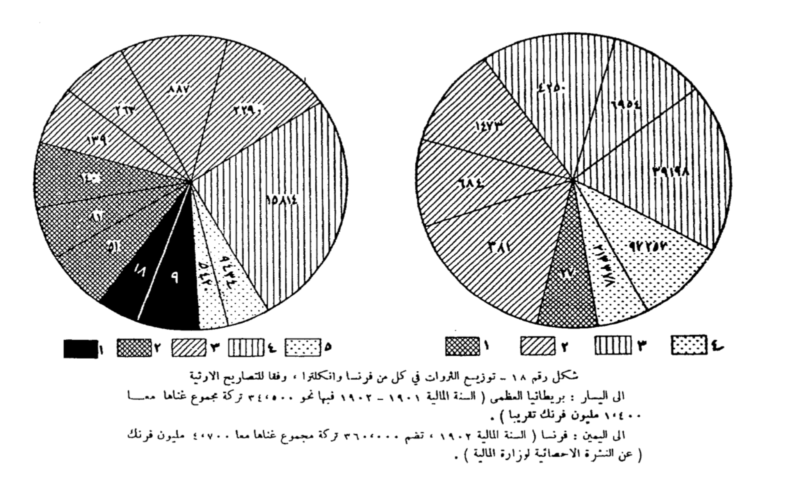
والحال ، فان تضخم موازنات الدول ، سنة بعد سنة ، اثار في صفوف الاحرار المتشددين موجة من الاستياء والتذمر ، فزاد من ضغط الحكومات على دافعي الضرائب، وربطهم اكثر فاكثر باصحاب رؤوس الامـــوال . فقد بلغت النفقات العامة في فرنسا المليار عام ١٨٣٠ ، ثم ارتفعت الى مليارين عام ١٨٦٩ لتصبح عام ١٩٠٠ ،اربعة مليارات بحيث ان ٢٦ مشروع موازنة جاءت تشكو العجز سنة بعد سنة عام ١٨٧٥ . فالدولة تغطي نفقاتها عادة بفرض الضرائب . الا ان الملاك واصحاب رؤوس الاموال كانوا دوماً يحاولون التخفيف من وطأة الضرائب المباشرة التي تكل امر جبايتها الى مأمورين يعدونهم انفسهم جدول دافعي الضرائب في الوقت الذي نراهم يتدحون فيه منافع الضريبة غير المباشرة او غير الملحوظة التي تستند الى الاستهلاك المحلي. وكانت الضريبة الفردية التصاعدية على الدخل التي تبنت مبدأ الاخذ بها الحكومة البروسيانية حيث للموظف هيبة وسطوة كبيرة ، كما تبنتها الحكومة الانكليزية ، كبديـــل عن تخفيض التعرفة الجمركية ، وقد اثارت في فرنسا ، صراعاً عنيفاً لم يخرج فيه الحزب الراديكالي منتصراً الا قبيل الحرب العالمية الاولى ، بمؤازرة الحزب الاشتراكي .

ولما كانت الضرائب التي تجبيها الدولة لا تفي بالحاجة كان لا بد لها من الاستدانة والاستلاف وقد بلغت الديون المستحقة على الدول الاوروبية ما اربى على ١٣٦ مليار بحيث ان هذه الديون المتوجب وفاؤها ، لو وزعت على المواطنـــين لأصاب الفرد الواحد منها فرنكاً في سويسرا ، و ٢٣ فرنكاً في فرنسا ، عام ١٩٠٠ .

ازدياد حركة الثراء العام وتفاوت الثروات

حدد آدم سمث معنى الثروة في الشعب « حيازة كل الاشياء اللازمة للحياة والمسهلة لها » . ويلاحظ بعضهم عـدم الدقة الملازم لهذا التعريف . ومع ذلك فنمو هذه الثروة المطرد ليس من ينكره ، اذا ما تمثلت هذه الثروة بنقد متداول لم تتغير قيمته خلال القرن . وعلى هذا الاساس فقد قدّر سوئيبر ، ثروة بروسيا ٧٨٥٦ مليوناً عـام ١٨٧٦، بينما ارتفعت الى ١٠،٢٠٨ ملايين عام ١٨٩٠ ،وذلك على اساس ضريبة الدخل التي لم تكن تطال غير ٨٠٠،٠٠٠شخص من أصل٢٢ مليون نسمة . ومنذ عام ١٨٩١ كانت حصيلة الضرائب التي تصيب مليونين ونصف من دافعي الضرائب ، ٥٨٦١ مليوناً ، عام ١٨٩٢ ، و ٨٨٥٤ عام ١٩٠١ . فالضريبة الموضوعة على التجارة والصناعة في انكلترا اعطت ١٠٦ ملايين ليرة انكليزية تقريباً عام ١٨٤٣ بينما اعطت ٣٢٠ مليون ليرة ، عام ١٨٨٠ ، والضريبة A (على رأس المال) اعطت تباعاً ١٨٨ و٤٠٧ ملايين ليرة،بينما الضريبة E (الاجور) درت ٩٣و ١٧٧ مليون ليرة . وقد قدر بعض علماء الاقتصاد دخل كل من بريطانيا العظمى وفرنسا والولايات المتحدة الاميركية ٤٠٠ ،و ٢٧ و ٦٠ ملياراً عام١٨٩٥ ، لقاء ٧٥ و ٦ للاولى والثانية عـــام ١٨١٠ ، و ٣٥ لأميركا عام ١٨٧٠ .

من العسير جداً التحديد بدقة ، توزيع هذه الثروة ، بين مختلف طبقات المجتمع او بـــين الافراد. فالاحصاء الذي جرى في انكلترا ، عام ١٨٧٨-١٨٨٨، يشير الى ان ١٨ بريطانيا يحوز الواحد منهم اكثر من ٢٥ مليوناً (روتشيلد ٦٧ مليوناً، وكل من بيرنغ وبورتلاند ٣٨ مليوناً).



شكل رقم ١٨ ـ توزيع الثروات في كل من فرنسا وانكلترا ، وفقا للتصاريح الارثية
الى اليسار : بريطانيا العظمى (السنة المالية ١٩٠١ ـ ١٩٠٢ فيها نحو ٣٤،٥٠٠ تركة مجموع غناها معا ١٠٤٠٠ مليون فرنك تقريبا) .
الى اليمين : فرنسا (السنة المالية ١٩٠٢ ، تضم ٣٦٠،٠٠٠ تركة مجموع غناها معا ٤٠٧٠٠ مليون فرنك (عن النشرة الاحصائية لوزارة المالية) .

ويدل الكشف الموضوع للتركات الموزعة على ان التفاوت يقل بالانتقال من انكلترا الى ايطاليا ، الى فرنسا وبروسيا . وهكذا نحصل على ٣٠,٠٠٠ و ١٥,٠٠٠ و ١٠ او ١١,٠٠٠ ، و ٥,٠٠٠ الى ١,٦٠٠ صاحب ثروة تزيد ثروة كل واحـــد بينهم على مليون. فالعالم الاقتصادي فوفيل ادخل منذ عام ١٨٨٣ ،في حسابه ٢٠,٠٠٠ عـــائلة من اصحاب الملايين توجد في انكلترا، ثم اضاف قائلا : « ان هذه ثروات تزيد بكثير على المعدل، في بلاد لا يتجاوز عدد سكانها ٣٨ مليون نسمة . فليس في العالم كله على الاطلاق بلد يضم مثل هـــذا العدد من كبار الاغنياء اصحاب الثروات الطائلة » . ويمكن لنا ان نضيف هنا ان الفاً من كبار الملاكين يملكون ثلث مساحة البلاد او ان ٥٪ من سكان البلاد يجمعون في ايديهم نصف الثروة المنقولة ، وانه يوجـــد في خدمة الاسر الغنية مليون من الخدم والحشم ، وان ٢٠٠,٠٠٠ رأس من الخيل تدرب كل سنة على فنون الصيد في هذه الاطيان الضخمة .

ففي الحقبة الواقعة بين ١٨٤٣ – ١٨٨٠ ، ارتفع عدد البريطانيين المسجلة اسماؤهم في جدول فئة (D) من اصحاب الـ ٥٠,٠٠٠ ليرة ، ثمـــانية اضعاف ونصف ، بينما معدل الزيادة في الفئات الاخرى تضاعفت ثلاث مرات لا غير . وفي بروسيا ، نقلت الزيادة في الحقبة الواقعة بين ١٨٩٦ – ١٩٠٢ ، وفقاً لجدول ضريبة الدخل ٧٣,٤ بالمائة لدى من زاد دخلهم على ٩٠,٠٠٠ مارك ، و ٣٦ بالمائة لدى اصحاب الدخل الذي يتراوح بين ٣,٠٠٠ و ٦,٠٠٠ مارك . وهكذا يمكن لنا ان نؤكد ان تجميع الثروة تم في ايدي اقلية ضئيلة .

اضرابات اليد العاملة وتطور الروح النقابية

تفاقم الاختلاف بين اصحاب رأس المال والعمال في هذه الحقبة الواقعة بين ١٨١٥ – ١٨٤٨ في الوقت الذي زاد حرجاً وضع اصحاب الاجور ، كما لا بـد من الملاحظة هنا ان حوادث الاضرابات والبطالة اخذت تتناقص بعد عام ١٨٥٠ ،وهو هدوء يمكن رده الى عوامل عديدة، منها فشل الثورات والفتن التي نشبت والضغط السياسي وعـــودة النشاط الى الحركة الاقتصادية ، والتخفيف من اسباب البطالة والارتفاع الاسمي ، ان لم يكن الفعلي للاجور . فبعد ان خابت آمال هذه الطبقة واتعظت بحوادث الدهر ، اخذت تفكر بتنظيم نفسها لتحصل على ما ترضى عنه من الوجهة المسلكية فتصبح بالتالي ، اكثر تحصناً ضـــد النظريات الثورية التي تتملقها .

وقد شهدت انكلترا ازدهار الروح النقابية عقب عهد الوثنية التي نادى بها بعض المصلحين الاجتماعيين من انكلترا التي جاءت رومنطيقية اكثر منها سياسية حرفية،عهد النقابية العمالية . وبذلك اخذ أوين ثأره . غير ان هذه الاتحادات لم تضم في صفوفها سوى نخبة ممتازة من العمال اصحاب التخصص الاعلى مرتبا . ومع ذلك ، وبالرغم من حظر الاتحاد لم تمت في فرنسا روح المقاومة وبقيت خافتة تحت الرماد تترقب سنوح الظروف المناسبة للظهور والانطلاق من جديد.

ان ارتفاع تكاليف الحياة والتعقيدات التي جرت اليها حرب الانفصال (في الولايات المتحدة) في صناعة النسيج كانت السانحة لانطلاق الهيجان منذ عام ١٨٦٠ وعلى غرار النقابات العمالية ظهرت حركة نقابية لا طابع سياسي لها في المانيا . وراحت حكومات فرنسا وبروسيا وساكس ، حرصاً منها على ارضاء العمال واستمالتهم ، تمنحهم حق تشكيل اتحادات عمالية ، وهو حق جاء في الوقت الذي طلعت فيه علينا الدولية الاولى التي تبينت ما تخفيه الحركة النقابية من شأن وقوة وما يمكن ان تقدمه من فوائد جمة ، فراح اعضاؤها يستميلونها للعمل الثوري . وعقدت الحركة النقابية العمالية في انكلترا مؤتمرها العام الاول وراحت تشجب فيه اعمال العنف التي وقعت في مدينة شفيلد ، كما اعربت عن ارتياحها لاصلاح قانون الانتخاب عام ١٨٦٧ . واذ ذاك ، اخذ العمال في المناجم وصناعة التعدين يتحركون ، فتكاثرت الاضرابات العمالية في الروهر وسيليزيا والماينو وسورانغ وأنزين وريكاميري واوبين والكروزو . واخذ الاضطراب يحتدم ويشتد الى ان ظهرت فتنة الكومون في باريس ، وهذا الحادث يؤلف تاريخاً بارزاً في حركة البروليتاريا مع ان الباعث الاول والوحيد لهذه الفتنة الشعبية التصميم هو الوقوف في وجه الرأسمالية . وامكن قمع اعتصاب ثان في سيليزيا العليا حين ظهر فجأة قانون يعترف ببعض حقوق العمال النقابية .

وقد اتضح الآن ان الازمات تزيد من ضنك وبؤس صاحب الأجر المحدود وتحمله على الثورة. فهي تتركه في وضع يبقى فيه عرضة أكبر للمخاطر ؛ إلا ان موقفه يصبح أقوى مع رجوع الازدهار مع انه لا يفكر بالمطالبة بحقوقه . فاذا ما راح يطالب بزيادة في الأجور فجهوده تنحصر في تخفيض ساعات العمل والشغل لمدة ثمان ساعات ، وهذا أقصى ما يحلم به .

وقد اثارت أزمة ١٨٧٣ موجة جديدة من الاضرابات والاعتصابات في انكلترا اشترك فيها العمال العاملون في القطاع الزراعي. إلا ان القانون المعروف بقانون رب العمال والعامل الذي صدر عام ١٨٧٥ أدى الى شيء من التهدئة؛ فالظروف المتحكمة اذ ذاك توضح لنا صعوبة نهوض المنظمات العمالية في فرنسا وتبين لنا سلسلة حوادث الفشل الذريع الذي اصيبت به الحركة العمالية في المانيا والولايات المتحدة الاميركية .

ففي الوقت الذي تزداد فيه الهوة عمقاً ، تميل موازنة العامل الى تحقيق التوازن بسهولة أكبر حتى ان الأجر أخذ احياناً بالارتفاع ، على شريطة أن تكون حركة تشغيل العمال مرضية . فالاضرابات تخف حوادثها بينما تزداد الحركة النقابية قوة وبأساً في فرنسا ، وتأخذ بتنظيم نفسها في المانيا ، وتتكاثر في بريطانيا حيث قامت اتحادات عمالية جديدة فتحت صفوفها لعمال غير متخصصين . واليد العاملة في كل مكان في الريف تتململ وتتحرك دون أن يطرأ أي تحسين على دخلها بل انه مال الى الهبوط احياناً ، وراح الجمهوريون في فرنسا يعترفون للعمال بحق تأليف نقابات لهم ، كما راح بسمارك ، من جهته ، يجري تغييراً في الصورة بوضعه خطة للضمان الاجتماعي.

وحدث اثر تحسن وقتي في الاسعار ، عام ١٨٨٦ ، سلسلة من الاضرابات العنيفة ولا سيما في

مقاطعات الهاينو وليياج ، وفي بريطانيا العظمى والمانيا . وقامت موجة شديدة من هـــذه الاضرابات، عام ١٨٨٩ ،وعطل عمال الارصفة في الجزيرة كل نشاط في موانىء انكلترا لمدةخمسة اسابيع متوالية ، وفازوا بمطالبهم بفضل ما لقيت حركتهم هـذه من عطف عليهم لدى الرأي العام ولتضامن العمال الاوستراليين معهم . ونال عمال المنـاجم في منطقة الروهر من الامبراطور غليوم الثاني ، بعد ان تخلى عن بسمارك وصرفه ، وعداً بتطبيق مبدأ العمل لمدة ثماني ساعات في اليوم . وعلى أثر الحوادث الدامية التي وقعت في ديكازفيل ، يحاول َغسْد ، على غرار هندمان عبر المانش ، ان ينقل الحركة العمالية النقابية ، الى الماركسية ، كما ان البلاد الواقعة في الجنوب شهدت ، هي الأخرى ، حوادث دامية عديدة .

واخذت اسعار الحاجيات تهبط، بعد عام ١٨٩٠ ،وتميزت سنوات ١٨٩١ و ١٨٩٣ بالازمات الشديدة التي شهدتها . وقد قابل هذه الحركات تصلب من قبل أرباب العمل في مواقفهم ، في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية ، لا سيما وقد اخذت الحكومات تجزع شديداً لحوادث القتل والاغتيالات ، بعد ان سادت الفوضى نتيجة لردة فعل قوية فسالت الدماء غزيرة في مدينة فورمي ، كما ان المضربين حققوا لهم بعض النجاح المحلي في مدينو كارمو. وقد ُغلب عمال المناجم على أمرهم في مقاطعة السار والروهر ، وتحول قسم من نشاط اتحاد العمال الى الجمعية الفابيـانية عدوة العنف والضغط ، كما اتجه بلوتييه نحو العمل السياسي البرلماني ، واستطـاع ان يثير بنجاح كلي ، في بورصات العمل، فكرة انشاء نقابة ضخمة مستقلة تماماً عن الاحزاب السياسية،عُرفت بالتحالف العمالي العالي . وتم شيء من هذا الانقسام بين اعضاء الحركة العمالية في ايطاليا نفسها ، وفي اسبانيا ايضاً . اما العمال في المانيا فقد وضعوا ثقتهم بالحركة الديموقراطية الاجتماعية التي راحت تطعن بقدرة الحركة النقابية .

الحركات الاشتراكية والفوضوية عام ١٨٦٠ الدولية الاولى وكومون عام ١٨٧١

وضع رايبو ، عام ١٨٥٢ ، بحثاً نشره في « موسوعة الاقتصاد السياسي » جاء فيه : « ان الحديث عن الاشتراكية يكاد يعني نعياً لهذه الحركة والقاء رثاء فيها . فالجهـــد المبذول لنشر الاشتراكية انقطع ، ومدلولهـــا غمض وجف . فاذا ما استمر الشغف لهذه الحركة ، فتحجب ستار آخر وتحت تفريرات أخرى » . وبالفعل ، فهذه الحركة الثورية التي اصيبت في الصميم والتي تلبّس نشاطها الواناً واشكالاً شتى : كالمؤامرات والجمعيـات السرية ، واقامة الحواجز في الشوارع والأزقة ، اقتضى لها عشر سنوات لتعيد تنظيمها ولتتخذ لها عبرة وعظة من تجربتها الأولى .

والساعة الحاسمة في نظر ماركس هي فترة التريث والانتظار الجاهدة،انتظار الحادث الاغرالضخم «الرأسمال» الذي انصب على وضعه ونشره فاصدر منه الجزء الأول.وقد كرسه لتحديدخصائص الرأسمالية وتوضيح مميزاتها بدقة ، فكلمات السر والشعارات التي جاش بها « البيان » هي التي شقت طريقها ونيداً والحق يقال ، الى العقول والنفوس . فالمفهوم الرومنطيقي عنـــد المحبذين

للانقلاب بالقوة يُعد سراً وفي الخفاء، وتقوم بتنفيذه أقلية حازمة صلبة العود والرأي ، يتمثل على الاخص ، في تلاميذ بلانكي « الشيخ » و « السجين » . وقـــد اصطدم نفوذ ماركس بالدعوة للاشتراكية على الطريقة اللاسالية ، وبالروح الفوضوية. ولاسال الذي رضخ لاحكام قانون الاجور الشديد، ألزم نفسه بعدم الدفاع عن المطالب التي تقدم بها العمال ، كما رأى نفسه مضطراً للتفاوض مع بسمارك حول الشروط التي قد تؤول الى الاتفاق بين الدولة المشبعة بروح العطف الابوي وبين الطبقة العمالية ؛ وهو وضع يعيد الى الذاكرة التنازلات التي قام بها برودون الطاغية في الثاني من شهر كانون الاول ، بحيث ان انصاره زرعوا في قلب الحركة الاشتراكية الديموقراطية ، جرثومة الاتفاقات التي يمكن التوصل اليها في مفاوضة زعماء الرايخ. ومما هو اوسع من هذه الحركة وأرحب، النظرية الفوضوية؛ فالروح التحررية المطلقة تكتسح فرنسا وسويسرا وقسما كبيراً من البلاد الى الجنوب، وتتغلغل بين العمال وبين فريق من طبقة البروليتاريا من انصاف سكان الريف وأنصاف سكان المدن، الذين لا يرون في جماهير الثورة الاجتماعية غير بغض السلطة وكرهها ، والرغبة في التحرر منها . وها هو ماركس يلتقي مع برودون ، برودون هذا الذي نشر على الملأ شعارات هزت كل شيء في طريقها ، منها مثلا تصريحه : « ان الاشتراكية ليست بشيء ، ولم تكن شيئاً للآن ولن تصبح شيئاً في المستقبل » ، وكلمته المأثورة الأخرى : « من المستحيل ان لا تفضي الاضرابات التي تعقبها زيادة الأجور الا الى التشديد بالمطالبة بأكثر، وهذا شيء واضح وضوح ٢ + ٢ يعملان ٤». وقد رد ماركس على ذلك قائلا : « نحن ننكر هذه التأكيدات في الاساس باستثناء القول ان ٢ زائد ٢ يعملان ٤ » ، ماركس هذا الذي رأى في كل تنازل تقوم به الرأسمالية تنازلاً يفضي بالتالي الى اضعافها وايهانها .

والحال فالنظرية الفوضوية (على مذهب برودون) التبادلية، الفدرالية، المضادة للاكليروس، اذا ما التقت بالبلانكية في شعارها : « لا إله ولا رب عمل » ، ليست ببعيدة قط عن الجماعية الفدرالية المضادة لكل سلطة ، هذه النظرية التي راح باكونين يحاول نشرها في جميع انحـــاء اوروبا . « انا أمقت الشيوعية – راح ينادي هذا البوهيمي في مؤتمر السلام والحرية المعقود عام ١٨٦٩ ، لانها تؤلف نفياً للحرية ، اولا ، ولأنه يستحيل علي ان اتصور شيئا بشريا يفتقر كليـا للحرية ».وباكونين الذي يُسلّم بقانون الأجور الحديدي يرفض رفضا باتاً دكتاتورية البروليتاريا ويقف بجانب البؤساء ، بجانب الفلاح الروسي الموجيك . وقد رفض ماركس الدعوة الى ثورة اشتراكية اوروبية تقتصر على عالم الزراعة وتنحصر في هذه الاقوام الروسية والسلافية العاملة في مجالاتها . ففي زعمه ان البروليتاريا الواعية القائمة في فلك دولة رأسمالية هي وحدها تستطيع ان تفعل وتعمل بنجاح ، كما راح يحذر من هؤلاء الذين لا طبقة لهم في *Lumpenproletariat* الذين ليس بوسع الفوضوية تفاديهم . أهو احتقار الالماني للسلافي – هـذا السلافي الذي يجيش صدره بكره بغيض للمزاج اليهودي؟ اهو احتقار هذا البورجوازي الصغير المستكين، في قلب الفرنسي برودون ؟ هنالك من ظن ذلك وقال به . الا ان تشابه هذه النزعات وتعارضهـا أمر واقعي ،

قائم بالفعل . فهو ينغّص العيش على الحياة الدولية .

وفي عام ١٨٨٤ ، جرى عماد الجمعية العمالية الدولية على يد النقابات العمالية والعمال المتخصصين في فرنسا الذين وقّعوا المنشور المعروف بـ « بيان الستين » الذين كانوا تعاونيين اكثر منهم نقابيين . ومع ذلك ، فقد تولى ماركس نفسه إعداد خطبة الافتتاح ، وأخذ بمناهضة كل من البرودونية والباكونينية ، وراحت منذ ذلك الحين ، الاختلافات والشقاقات الداخلية تعمل على اعيائها ، مع انها بقيت توحي الرعب وتسمر الخوف في قلب الحكومات . وامتدت مظاهراتها الى كل مكان ، حتى الى الولايات المتحدة واميركا اللاتينية . الا انها عجزت كلياً عن قطع الطريق على الحرب ، وعن انقاذ الكومون في باريس عن طريق إثارة ثورة شاملة في اوروبا ضد المجتمع البورجوازي .

وما هي الكومون ، يا ترى ؟ فتنة طارئة قام بها سكان باريس ، بعد ان انزل بهم الحصار الطويل الذي تعرضوا له ما انزل من آلام وعذابات وحرمان ، وبعد ان شاهدوا هول الهزيمة التي أصيبت بها فرنسا في الحرب ، وعملية استسلامها ، والفوز الانتخابي الذي حققه النبلاء « الريفيون » . وقد تسربلت سربال سلطة بروليتارية ، وهي سلطة وهنة لعمري ، محصورة في مدينة ، ضخمة منعزلة ، محدودة الموارد ، والتي رفعت ، بالرغم مما انتابها من انقسامات ، العلم الاحمر ، وأقرت فصل الدولة عن الكنيسة ، وألغت العمل ليلاً في الافران والمخابز ، وشجعت قيام « جمعيات تعاونية ذات رأس مال مشترك لا يمكن التصرف به او مسه » ، واقترحت وضع منهج فدرالي ، شعوبي للدولية ، له اتجاهان رئيسيان يمكن لهما ان يتلاقيا . فبعد ان غُلبت على أمرها في معركة طاحنة ، دونها بكثير أهوال ثورة ١٨٤٨ ، فقد خلفت وراءها دوياً تجاوبت اصداؤه بعيداً . وأدت هزيمتها الى هزيمة الشيوعية الدولية الأولى ، الأمر الذي اتاح لتيير ان يلاحظ معقباً : « لم يعودوا يتحدثون عن الاشتراكية ، وحسناً فعلوا ، فقد تخلصنا منها » .

نشأة الاحزاب الاشتراكية وتاليف الدولية الثانية

حدثت انطلاقة جديدة عندما راح تلاميذ لاسال وماركس الالمان يشكلون عام ١٨٦٩ ، الحزب الذي عُرف بالحزب الاشتراكي الديموقراطي . صحيح ان مؤتمر غوتا وضع برنامجاً معتدل اللهجة ، خصه ماركس بنقد لم ينشر الا سنة ١٨٩١ . وقد عد هذا الحزب اذ ذاك ، مليوناً ونصف مليون من الاعضاء ، كما انه تمثل في مجلس النواب بـ ٣٥ نائباً . وقد استمد هذا الحزب ما عُرف به من روح الصراع والمقاومة من هذا الاضطهاد الذي اصطلاه به بسمارك اكثر من إرداته الثورية ، واذ اصبح بعد وقت قصير من الزمن القوة الصناعية الاكثر والاحسن تنظيماً في اوروبا جمعاء ، فقد قدمت المانيا للعالم اجمع نموذجاً للاشتراكية النيابية حسنة التنظيم والانضباط عُرفت بالحذر والحسبان .

وهذا النموذج الجديد للاشتراكية برز كثير التعقيد والتشعب في البلدان الاوروبية الأخرى .

ان تطور المؤسسات والنظم التمثيلية ، وتوسيع القاعدة الشعبية للانتخابات ، وقصور المكاسب التي حققها النقابيون ، والنتائج الضئيلة التي أدت اليها الاضطرابات ، كل هذا وما اليه ، ساعد على ظهور الاحزاب الاشتراكية على المسرح السياسي بعد ان تقاسمتها فئات المطالبين بالحرية المطلقة ، والحزب الاصلاحي والحزب الماركسي ، وهي احزاب أخذت توصي بمجابهة الاحزاب البورجوازية ، على اساس من المعارضة المنهجية .اما الحزب الاصلاحي فقد تعرض للغوص في الوحل ، في تعاونه مع السوسيال ديموقراط الذين يكرهون الجماعية . وقد أطل علينا من جهة أخرى ، في الاطار الوطني ، بصورة اوضح ، مزاج خاص يؤذي حركة يجب ان تتصف بروح دولية . وهكذا طلع علينا عدد لا يحصى من الفئات والاحزاب السياسية ، اخذت لها لبوساً شتى : إصلاحياً (المستطاعية في فرنسا ؛ النزعة الشرعية او التطورية في ايطاليا) ، بينما لبس الآخرون لباس الماركسية (هذا وضع حزب العمال في غسد) وحزب العمال في بلجيكا الذي اتخذ قاعدة شعبية له التعاونيات ، ووطد نفسه حزباً بلدياً وفقاً للتقاليد البلدية المرعية في البلاد الواطية ، ومن الوان الحزب العمالي الثوروي الحزب المعروف بـ *Communalisme* الذي كان يرمي الى اقامة سلطة بلدية فوضوية او شيوعية الذي ابتعد بدوره عن اتحاد العمال الاشتراكيين في فرنسا ؛ كما ابتعد عن مذهب الاستطاعية *Possibilisme* الذي هدف الى السيطرة على المصالح العامة بينما تألف المذهب الغسدي مع بلانكية اللجنة المركزية الثورية . فقد أوجد له انصاراً في الشمال ، وفي الوسط حيث تقوم صناعات التعدين بينما تعتمد الاستطاعية على منطقة باريس .

وخلافاً لما يجري على القارة ، بقيت بريطانيا العظمى مستمسكة بالنشاط النقابي ، اذ آثرت المنظمات العمالية ان تؤثر على الحزبين التقليديين معاً في البلاد دون ان تلحق أي تشويش أو اضطراب باللعبة البرلمانية المعمول بها . فقد انتخبت ، عام ١٨٧٤ ، عاملين اعضاء في مجلس العموم ، و ١١ نائباً من « العمال الاحرار » الذين اعطوا اصواتهم لغلادستون ، كما ان حزب الاصلاح الاشتراكي ، راح على مثال رسكين ، يحلم بالمدن ذات الحدائق ، وبمناهج تربوية كالجمعية الفابية ، مثلا (انشئت عام ١٨٨٤) . وعندما رأى حزب العمال المستقل النور عام ١٨٩٣ ،فقط كان ظهوره دعماً قوياً للنظام البرلماني .

وعندما توفي ماركس ، عام ١٨٨٣ ، بدا للناس وكأنه اعظم بكثير مما كان في حياته . والجزء الاول من كتابه : « رأس المال » صدر عام ١٨٦٧ ، وترجم من بعد ، الى الفرنسية فالانكليزية وعرف عدة طبعات له بالالمانية . وقد تابع انجلس رسالة المعلم وانجز العمل العظيم . كذلك تُرجم « البيان » الى عدة لغات ، والنداء الذي وجهه الى ابناء البروليتاريا بالاتحاد والالتفاف حول العلم الاحمر ، تجاوبت اصداؤه في جميع اطراف العالم . وقد كتب فيه ادوار فيان قائلا : « ان منزلة ماركس من هذا العصر ، بالنسبة للعلوم التاريخية والاجتماعية ، هي منزلة دارون من العلوم الطبيعية . هذان الاسمان يبرزان فوق العلم الحديث . فما من احد سام

مثلهما على تسليح العقل البشري وتحريره كما فعلا » .

هنالك جهود يبذل لتنظيم الشيوعية الدولية وجعلها فوق كل النزعات الاشتراكية وخلال المعرض الدولي في باريس عام ١٨٨٩ ، عقد مؤتمر سيطر عليه الماركسيون اتخذت فيه توصية بهذا المعنى وفيه اتخذ القرار بجعل اليوم الاول من ايار في كل سنة يوم مظاهرات عامة في جميع انحاء العالم ، بحيث يطالب العمال في كل صقع ومصر ومدينة ، السلطات العامة بجعل ساعات العمل في اليوم ثماني . وقد تميز اول ايار عام ١٨٨٦ ، في مدينة شيكاغو بفتنة لاهبة ، أخمدت بالدم .

عهد الاغتيالات الفوضوية

وقد نبذ انصار الحرية المطلقة الماركسية والمذهب الاصلاحي ، على السواء لشجبهما كل دعاوة ذات طابع انتخابي ، وقد هبت على روسيا منذ عام ١٨٧٠ موجة جارفة من الارهاب . وعقد المذهب الفوضوي ، في لندن ، عام ١٨٨١ ، مؤتمراً كان من بعض مقرراته اللجوء الى «اعمال العنف» ، ورفع العلم الاسود . وستصبح الولايات المتحدة من جهة ، واوروبا الغربية من جهة ثانية ، مسرحاً لحوادث الاغتيال توجه ضد الافراد وضد المقتنيات . وحركة الاضطرابات هذه اشتدت في كل من فرنسا وبلجيكا ودول جنوبي اوروبا ، دون ان تستثنى دول اوروبا الشمالية . وقد نهض الايرلنديون بهذه الحركة في الجزر البريطانية قاصرين دعوتهـا للاضراب على بعض الاوساط التي اظهرت بعض الاستعداد لتقبل نظريات برودون وباكونين الهدامة . وعملت هـذه الحركة في كل من ايطاليا واسبانيا ودول اميركا اللاتينية ، على إثارة الفتن وحرضت على القيام بها . ووقعت محاولات اغتيال عديدة ضد الملوك ورؤساء الحكومات في الوقت الذي استهدفت فيه حركة القمع توجيه ضربة شديد ضد الاشتراكية . وتحت مكافحة الاعمال الموجهة ضـد الروح العسكرية اخذت الحركة المطالبة بالحرية المطلقة تتغلغل بشدة بين النقابات وتوجهها نحو نهج سياسة مستقلة عن الاضراب وخاصة نحـو المطالب التي تهدف صراحة الى الثورة .

الصراع المفتوح ضد الاضرابات العمالية وضد الاشتراكية

« الارض مغطـاة بجثث القلى . ففي هـذا المشهد المريع درس وعظة » (تيير — ٢٢ ايار ١٨٧١) .

وراحت المحاكم تصدر احكامها تباعاً ضد هذه النظريات وضد الرجال الذين يقفون في وجه النظام الرسمالي ، واخذوا يصورونهم ، بالكلام والكتابة ، اعداء السلطة الشرعية والحريات . فيهم الخطر كل الخطر على الامة وعلى السلام الدولي . فانضمت الكنائس الى العلمانيين للتدليل على ما هو عليه هذا الفريق الآثم من شر خبيث . وراح البابا بيوس التاسع يشجب بقوة هذه التعاليم التي ينعتونها شيوعية « وهذه الانظمة المنوعة ، وهذه الاضطرابات التي تهدف » الى مخالفة الشرائع السماوية والارضية » ، كما ان البابا ليون الثالث عشر . هاجم بمثل هذا العنف والشدة « هذه الطائفة » التي ترمي الى هدم حق التملك ، هذا الحق الذي هو من حقوق الانسان

الطبيعية ، والتي تغذي في النفوس ، « حقد الفقراء على اصحاب الاملاك » .

وارباب الاعمال يلجأون الى السلطات العامة عندما يرون انفسهم مهددين بالخطر، وكثيراً ما يأخذون المبادرة بأنفسهم . «فأنا حر باستخدام من ارغب باستخدامه في معاملي ومصانعي»، كان يصرح شنيدر لوفد من العمال جاء لمقابلته في كانون الثاني (يناير عام ١٨٧٠ ؛ «وافضل الف مرة ان تخمد النار في مسابك معاملي وتنطفيء الى الابد ، على ان انصاع تحت الضغط والتهديد » . وافضل جواب وانجع رد على محالفات العمال هو الطرد من الخدمة وهي طريقة كثيراً ما اعتمدها ارباب العمل من الانكليز ، منذ عام ١٨١٥ . وقامت بين ارباب العمل اتفاقات بالتراضي ، فتألفت في ايطاليا محالفات ليس بين ارباب الصناعة فحسب ، بل ايضاً بين الملاكين واصحاب الاقطان الضخمة الذين اخذوا ينظمون حركة المقاومة في وجه المطالب التي يتقدم بها المرابعون والعمال المياومون .

المعاملة الابوية والتشريع الاجتماعي

حدد الخبير الاقتصادي المتحرر لاروا بوليو الاشتراكية بانها « حالة مرضية » . فكيف يمكن ، ياترى ، معالجة هذا المرض ومداواته ؟

بلغ من حدة القضية العمالية بحيث لم يعد من المستطاع تجاهلها ولا مواجهة حلها بالبطش والعنف . وراح المعنيون بالامر يقلبون الرأي ويمدون الابحاث والتحقيقات حول هذه المشكلة الاجتماعية ، موجهين الاضواء الكشافة لاكتناهها على الوجه الصحيح، معربة عن حقيقة العذابات والضنك الذي يكتنف وضع العمال ، والذي راح كل من ميلرميه وفيلنوف بارجمونت يميطان اللثام عنها ، قبل عام ١٨٤٨ . فقد ارتسمت ، من جهة ، حركة ، تعاطف اشتراكية من وحي مسيحي ، قابلها من جهة اخرى، بين احرار البورجوازيين، حركة ، انسانية علمانية ، وحدت بينهما رغبة مشتركة في تخفيف ، ان لم يكن في ازالة ، هذه المساويء والشرور التي تكتنف الطبقة البرولیتارية ، وذلك عن طريق الاخذ باصلاحات لا تتعرض ، من قريب او من بعيد ، لمبادىء الملكية الخاصة ، ولا تضر قط بحرية العمل ، فعلى الطبقات الموجهة ان تتفهم الوجبات المترتبة عليها ، كما على الطبقات المرهقة ان تعترف باخلاص ونزاهة ، بالانجازات الاجتماعية التي تحققت لخيرها ونفعها .

وقامت البروتستانتية هنا بحركة اجتماعية شديدة جاءت تتجه لهذا العمل الاجتماعي الطيب الذي قامت به بعض الطوائف ، ووفاقاً للمبدأ الذي قال به وعلم بنتهام . فقد خطر لدزرائيلي نظام ملكي يستن له سياسة ابوية نحو العمال ، ولم يبد قط ان عضو المحافظين هذا كان بعيداً عن بسمارك في النظرية التي قال بها للضمان الاجتماعي . وقد خيم على النقابية العمالية جوديني بعث الدفء في الجمعية الفابيانية، ودفعت نحو حزب العمال العصبة المسيحية الاشتراكية وفي المانيا كانت فلسفة فخت والفلسفة الهيغلية قد مهدتا الطريق امام نظرية الدولة الابوية او الدولة العطوف .

ومن جهة اخرى ، فقد وجدت النقابات في المنهجية التاريخية عذرا لها وتبريراً لفوائدها ، هذه المنهجية التي انبثقت منها مدرسة روشير وهيلدبراند وبرنتانو، التي كانت تدعي بأنها تنبثق من الواقع وبأنها تحسب حساباً للتطور سيراً منها مع مذهب التقليدية الذي قال به الفقيه سافيني . ومهما يكن، فقد أطلت علينا حركة اشتراكية طموحة تبنتها الدولة في إثر ردبرتوس بعد ان تشبع لاسال من كتابه : « وسائل اجتماعية »، وكذلك شمولر وادولف وغنر . والمنهاج الذي وضعه أيزيناخ هو بمثابة اعلان حرب حقيقي ضد مذهب كوبدن الذي كان من بعض تأثيره على بسمارك ان غرس فيه اليقين ووطد فيه الاعتقاد بان الامبراطورية الالمانية ستعرف كيف تصبح ، بعد لأي قصر ، نموذجاً يحتذى للدول الابوية .

وقد قام بين البروتستانية الفرنسية والفلسفة الوضعية اكثر من نقطة اتصال استطاع رينان ، في اعقاب حرب ١٨٧٠ ان ينتقد «حب الذات» مصدر الاشتراكية، والحسد مصدر الديمقوقراطية، كا اعجب تين بالروح التجريبية التي تمـت للبريطانيين اعداء التجريد الكاسح . فهم يتمنون ، على شاكلة ليتريه ، حكومة رائدها العقل ، إصلاحية بحكمة وتعقل . فعقلية هؤلاء الجمهوريين الذين يشكلون الدولية الثالثة ويوجهونها تبرز ايضاً في هـذه المحـافل الماسونية حيث تدرس الموضوعات الانسانية الطابع وتناقش . فهي مدينة بعض الشيء لهـذه الفلسفة التي قال بهـا رينوفييه الذي بعد ان شدد على ما للانسان من منزلة وكرامة، وعلى فكرة العدالة ، راح يوصي بفكرة التضامن والتعاضد التي تلقي على الدولة الديموقراطية واجبات شديدة من المتوجب عليها القيام بها في جو مشبع بالحرية . وها هو السيد له بلاي الذي عرف ان يربط بإحكام بين الفلسفة الوضعية والكاثوليكية الاجتماعية ، راح هذا الباحث القدير يشيد بفضائل الاسرة ويعتمد على الاخلاق اكثر من اعتماده على التشريع في سبيل تحسين العلائق بين العامل ورب العمل ، ويرجـو ان يعامل هذا ذاك كا يعامل الاب ابنه . ولكن كيف السبيل لنجعل من المعمل او المصنع شيئاً اشبه بالاسرة ؟ اليس بالعمل على إعادة الروح النقابية ؟

هنالك فريق من الكاثوليك المحافظين يتطلعون الى النظام القديم بمـا تحلى به من مراتب مسلسلة ومن طابع مسيحي، وننذر كل من المركيز دي لاتور والكونت دي مون - وكلاهما من ضباط الجيش المحترفين اعجبا وهما في الاسر في المانيا ، بالانجازات العظيمة التي حققها المطران كثلير ، نفسيهما لتأسيس نواد للعـمال الكاثوليك . وراح الاتحـاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية واتحاد فريبورغ الذي بعث فيه المطران فرميلود النشاط ، يسلقان بألسنة حـداد النظام الرأسمالي و «عبادة العجل الذهبي» وتجلت فعلاً عام ١٨٨٦ الديموقراطية المسيحية بظهور الجمعية الكاثوليكية للشبيبة الفرنسية . وراح ليون هارمل من جهته يقوم بعمل رسولي خليق بكل تقدير في اوساط اصحاب المعامل الكبرى . واخذت هذه الارادات الطيبة تتوقع صدور إشارة مامن قداسة البابا . وتردد البابا ليون الثالث عشر في الامر ، وشجب النشاط الذي كان يقوم به فرسان العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، وابى على نفسه ان يؤازر هـذا الفريق

من ابناء فرنسا الذين لا كلمة مسموعة لهم عند الزعماء الجمهوريين . ومع ذلك فرؤساء الاساقفة غيبونز وايرلند اخذا يعطفان على النقابيين الاميركيين ، كما ان رئيس الاساقفة مانتغ راح يبذل وساطته لصالح عمال الارصفة المضربين في لندن . وتداء « الالتفاف » او التجمع حول الجمهورية الفرنسية الذي توقع الفاتيكان منه ان يحمل « التهدئة » الى البلاد ، قد يعني ايضاً اتفاقاً ضد الاشتراكية . من هنا تبدو اهمية البراءة البابوية التي يمكن اعتبارها البراءة الكاثوليكية الاولى للحركة الاشتراكية . وفي خطابه للحجاج الفرنسين الذين قابلوه برئاسة دي مون ، راح البابا يؤكد بأن « القضية العمالية والاجتماعية لا يمكن لها ان تلاقي حلها المرتجى والعملي في الشرائع المدنية الصرفة حتى في افضلها . فالحل الامثل يتوقف كثيراً على الضمير والوجدان » .

كان من المفروض على السلطات المدنية والكنيسة ان تتعاون معاً وفقاً لتقاليدهما لتأمين القيام باعمال الاسعاف والوقاية . الا ان اعمال المؤاساة كانت تروح بالاخص الى المرضى والمشوهين والاولاد الذين تخلى عنهم والدوهم ، وقليلاً جداً الى الاسر المستورة . وقد جاء في تقرير وضع عام ١٨٧٤ : « التشريعات الفرنسية التي تنظم الاحسان اساسها المبدأ القائل ان واجبات المجتمع الادبية ان لا يترك متألماً ما دونما علاج . فالاحسان الموجه للمعوزين لا يمكن المطالبة به كواجب مفروض » .

شهدت المانيا أول ما شهدت طلوع الدولة الوالدية ، وذلك عندما صدر فيها اول تشريع يجعل الضمان الاجتماعي إلزامياً . وقد تبلور مفهوم هذا الضمان ، شيئاً فشيئاً وتجلى على أتمه بانشاء تعاونية وصندوق نقابي . ثم صدر قانون آخر اولى الحكومة صلاحية تشكيل ادارة خاصة أنيطت بها مهمة مراقبة النقابات المهنية التي تنشأ فيها صناديق اسعاف . ومع ذلك فبسمارك يتردد كثيراً قبل ان يخطو الخطوة الحاسمة وذلك لارتباطه باتفاق مع حزب الاحرار . وراح الكاثوليك في المانيا والحزب الانجيلي يطالبون بتشريع يسيج حول العمل والعمال بحيث يقطع الطريق على الدعاية الاشتراكية . وفي بيان له منشور ، راح الحزب الوسط في الرايشتاغ يعرب عن تمنياته باستصدار قانون خاص ينظم العمل والعمال . وبعد ان اعتمد مستشار المانيا على حزب المحافظين والحزب الكاثوليكي ، فاز بالتصويت على الضمانات الثلاث : ضمان الحوادث ، ضمان المرض وضمان الشيخوخة والعجز عن العمل . إلا انه رفض ضمان البطالة والاضراب . وبعد ان راح يستشهد بفكرة الطمأنينة ، دعا أرباب العمل والعمال للتعاون معاً تحت رعاية الرايخ كما عزم عزماً اكيداً على تنظيم العمل بما يضمن ازدهار الاقتصاد الالماني . ولما كان الامبراطور مشبعاً بروح السلطة ، دعا غليوم الثاني الى مؤتمر دولي للنظر بامور العمل يعقد في برلين عام ١٨٨٩ ، راح فيه ممثله الشخصي يؤكد قائلا : « لما كان العمال لا ثقة لهم باخلاق البورجوازية ، فهم يتوجهون بمطالبهم نحو التشريع الرسمي » .

وقد اعترف للعامل بحرية تشكيل الاتحادات العمالية مع حق تأليف الجمعيات ، وهي تنازلات محسوسة نعم بها العامل . كان ذلك ضربة شديدة توجه للروح التحررية الفردية بنوع

خاص كما تؤلف الى حد ما عودة الى فكرة التجمع المهني والمسلكي . ولما كانت هذه الحركة الاصلاحية لا تطبق على الموظفين والعمال العاملين في خدمة الدولة ، كان باستطاعة ارباب العمل ان يستفيدوا منها فائدة كبرى . ولما كان القانون الفرنسي الصادر عام ١٨٨٤ يخضع النقابات للتفتيش ويقصر نشاطاتها على «الدرس وعلى الدفاع عن مصالحها الاقتصادية والصناعية والتجارية والزراعية » كان المطلوب ، حسب رأي غسد ، تطبيق قانون لوشابلييه على « مقتضيات الرأسمالية المستجدة » وبدرجة اقل إلغاء هذا القانون . ومهما كان من الامر ، فالاعتراف للطبقات المتنافسة بحق تنظيم صفوفها ، لا يساعد على التهدئة والمسالمة ، الامر الذي اولى النقابة المختلطة هذا الحق الذي تتمتع به في بعض الاوساط الكاثوليكية . والحال ، لم نر في أي محل كان ، طريق التوفيق والتهدئة تعمل بصورة فعالة (من ذلك مثلاً الطريقة الفرنسية التي توصي بتأليف لجنة محكمين اعضاؤها منتخبون بين العمال وارباب العمل او لجنة من المحكمين ، كما هي الحال في كل من المانيا وانكلترا)

والتشريع الذي صدر بشأن «العمل: مداه وظروفه» ، كان هو الآخر كردة فعل ضد النظرية التحررية [1] . تاريخ معقد ومتشعب تألف من توصيات واحكام عديدة ، تطرح دوماً من جديد على بساط البحث امام الشارع الذي يرغب في وضعها موضع التنفيذ .

قليلة جداً هذه القوانين التي تعرضت لسكن العمال . فالقوانين التي حددت في انكلترا نماذج في بيوت السكن في المدن ، توجب على المالك القيام بالاصلاحات التي تقتضيها اوضاع البيوت . وراحت بعض المدن الانكليزية ، كمدينة برمنغهام مثلاً ، باقتراح من تشمبرلن ، تدرج في التصميمات التي تضعها لتحسين المدن ، مساكن العمال . وفي المانيا كانت الدولة توزع مساعدات للمدن ولارباب العمل تعطى للشركات وتعاونيات البناء . وهكذا تصرف اصحاب معامل كروب وغيرهم من ارباب العمل . الا ان المتبع ، على الاجمال هو ان هذه النزعة الابوية والرأسمالية كانت تؤثر تشييد ابنية خاصة للايجار تؤمن لاصحابها دخلاً في السنة . فالمستخدم قلما يتمكن ، بالنظر للأجر الضئيل الذي يتناوله ، ان يستمتع بمنزل لائق مستوف لجميع الشروط .

آمال وحدود الحركة النقابية

عندما يتعاون الناس ويشاركون في انتاج بعض السلع او في تنفيقها ، لا يفعلون ذلك بالضرورة بدافع منهم الربح والإثراء ، وهي فكرة كثيراً ما راودت خواطر اعضاء الجمعيات الراغبة في الوصول الى طريقة

---

(١) بقيت هذه الظروف قاسية على الاجمال . فالعامل في المنجم بقي ، كالسابق عرضة لامراض عدة كذات الرئة والسل ، كما ان العمل في معامل الكبريت وعيدان الثقاب كان يعرض العامل للتسمم وبالتالي للموت ، وكذلك العمل بالقصدير في معامل القصدير ، وصانع السكاكين عرضة للهيب لعدم استعمال ما يقيه لفح النار ، وكذلك الزجاج الذي ينفخ بواسطة انبوب الحديد ، وهو عمل يسبب تشقق الشفاه وانتفاخ الوجنات وظهور بثور في مجرى اللعاب ، ويعرض صاحبه للفتق ولانتفاخ حويصلات الرئة .

كاملة للتنظيم او للتجديد الاجتماعي عن طريق الحرية الشخصية وفي حدودها . « فالمهدون العدُل »الذين قامو في روشدايل ، عمدوا ، بادىء الامر ، الى تشكيل تعاونية للاستهلاك ، الغاية منها بيع حاجيات ذات منفعة عامة يشتد عليها الطلب ، بادنى سعر ممكن ، مع حسم صغير على الربح يكون بنسبة الكمية التي يشتريها الزُبن الذين هم بالضرورة من حملة الاسهم في التعاونية . وقد انتقلت العدوى والعمل بهذا النظام الى حرف اخرى ، كالخبازين مثلاً. وهكذا استطاع مخزن روشدايل ان يقترح على زبائنه تنفيق بعض الحاجيات التي تولى صنعها . ولما رأى الشارع بكل ارتياح هذا المشروع ينمو ويتطور ، فلم يلبث ان اضفى عليه وجوداً شرعياً وصفة قانونية . وحدث بعد ذلك ان بعض المحلات التجارية التي تبيع بالجملة ، في منشستر وفي غلاسكو ، وسعت في نشاطها التجاري بحيث امتد الى اطراف العالم ؛ وقد بلغ من إقدامهم وجرأتهم ان اشتروا بعض مزدرعات الشاي في سيلان واراضي زراعية واسعة في كندا وحقول النخيل في سيراليون ، حتى ان بعض هذه المحلات استحال مصارف تعاونية ، واقبلت على صناعة البسكوت ومعلبات اللحم والالبسة والمفروشات حتى والتبغ ، بعد ان كان متشل ومكسويل وامثالهم روح النشاط والحركة فيها .

وهذه التعاونيات الانتاجية بدت مغرية جذابة في نظر بوشير ولويس بلان في فرنسا . الا ان الشركاء في مشروع الاستثمار هذا صعب عليهم ان يدركوا ان مصلحتهم تقوم في استثمار ارباحهم في مشروعات تتيح لهم التوسع تدريجياً في الاعمال . وكان جواب تيير لاعضاء المجلس التأسيسي الذين راحوا يطالبون ، عام ١٨٤٨ ، باعتمادات خاصة : « ليس بثلاثة ملايين يجب ان تطالبو ، بل بعشرين مليوناً . فانا على استعداد كلي لمنحكم اياها ، اذ ليس بكثير قط ان ارفع مثل هذا المبلغ لأثبت لكم خواء هذه الشركة وعدم كفاءتها » ، ومع ذلك فقد جرت بعض التجارب في باريس . فقد عهدت الكومون الى بعض اللجان الخاصة بمهمة ادارة بعض المصانع التي تخلى عنها اصحابها ، كما ان مؤتمرات العمال التي تم عقدها بعد عام ١٨٧٠ اخذت بمناقشة الموضوع . الا ان الاشتراكيين بقوا متحفظين حيال هذه القضايا . ورأى غسد ، على غرار بلانكي ان هذا النوع من التعاونيات لن يلبث ان يحمل البروليتاريا على النعاس. حقق المشروع بعض التقدم حوالي ١٩٠٠ . اما عند البريطانيين ، فبالرغم من الدعاية التي قام بها القسيسان موريس وكنغسلي والمحاميان لدلو وفانسيتارت نيل ،فقد دام إعراض الحركة النقابية والرأي العام طويلاً ، ولم تسجل القضية اي تقدم الا عام ١٨٨٤ ، مع ظهور جمعية العمل التعاونية .

اما خطة إشراك اصحاب الاجور بالارباح ، فقد جاءت اقل توفيقاً ورواجاً . فقد راح عامل رسّام يؤسس عام ١٨٢٧ لحسابه الخاص محلاً استطاع ان يقنع بعض العمال بمشاركته والمساهمة به . الا ان مشروعه هذا لم يلبث ان اصبح برمته بين ايديهم . وراح المدعو غودين ينظم هو الآخر ، في مدينة غيز ، مشروع استثمار عائلي ، الا انه اضطر بعد قليل للتخلي عن مشروعه

للعمال العاملين فيه . وهنالك بعض المشاريع من هذا النوع قامت علـى هذا الأساس ، بينها مطابع ، وال Bon Marché ومناجم بريغز –في يوركشير ، وشركة الغاز في مدينة لنـدن ، ومعامل الجمة البرلينية لصاحبها بوروشرت . فقد تعرضت كلها لهـذه الخصومات والمنافسات التي وقعت بين الاشتراكيين واصحاب العمل .

الا ان التسليف الزراعي سار بنجاح . ومثل هـذا المشروع قلما يخدم مصلحة طبقة البرولیتاریا الذين لا تتوفر لهم الامكانات والطاقات المالية ، مثلما يخدم مجموعة من صغـار الملاكين الفلاحين الذين يحتاجون في اعمالهم ومشروعاتهم لعملية تسليف طويلة الاجل . فقـد وضع برودون اصبعه على الجرح وحاول وصف العلاج اللازم لبرئه عندما اخـذ يفكر بإنشاء مصرف شعبي . الا ان النجاح اصاب هذه المشاريع التي قامت في المانيا ، كالمشاريع التي تمت على يد رايفيزن وشولز ، تخصص اولهما في الامور الزراعية كما اتجه الثاني للجميع من سكان المدن والريف على السواء . وقد فتحت مصارف من هذا النوع في جميع البلاد .

والازمة التي ألمت بالريف ، في ذلك الوقت ، ساعدت كثيراً على نشر نظـام التعاونيات الزراعية التي تعاطت على السواء ، الشراء او البيع او الاثنين معاً . ومثل هذه المشاريع تروق للفلاح الذي يتمكن ، بمثل هذه الطريقة ، من ان يؤمن له ، كل ما يحتاج اليه من الادوات الزراعية والأسمدة ويجد اسواقاً لتنفيق محاصيله . وهكذا قامت في الدانمارك وازدهرت تعاونيـات للزبدة ، كما قامت في مقاطعة الجورا ، تعاونيات للاجبان والفاكهة .

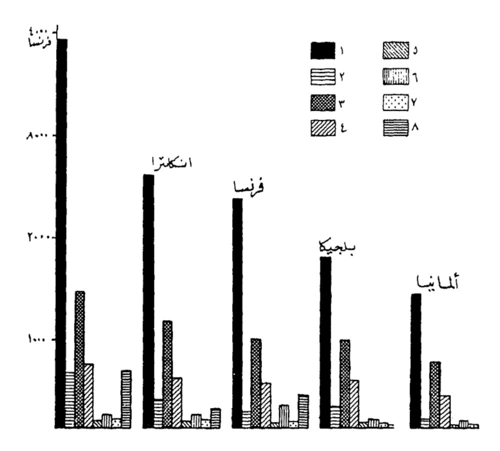
فالتعاونية ، على هذا الشكل تصبح طريقة سهلة من مصالح المهنة . فكل همهـا ان تحصل تخفيضاً محسوساً لاعضائها في اسعار الكلفة وزيادة في ارباحهم ، مع العـلم ان اعضاء المجتمع لا يفيدون منها بالضرورة .

وفكرة تعاونية التوزيع التي تتجه من المستهلكين عرفت الازدهـار والرواج بفضل هذه الازمات الاقتصادية التي وقعت بين ١٨٧٥ – ١٨٩٥ . وراح بعض رجال الاقتصاد « العلماء » ، امثال والراس ومنجر يبثون بين الناس فكرة تقديم الاستهلاك على الانتاج ، وهي فكرة تبنتها مدرسة نيم بعد ان بعث فيها شارل جيد النشاط . وفي السويد وبلجيكا عن طريق فورويت ، وفي انكلترا بواسطة كتابات ويب ، راح الناس يحلمون بجمهورية اشتراكية لهـا القدرة على إشباع احتياجات الناس دون إلحاق الضرر بأجور يحـل فيهـا الحسم المضاف الى الرأسمال محل الربح .

ويرى معارضو هذه الحركة وشاجبوها ان النظام التعاوني الذي فشل في اجتذاب رؤوس الاموال اللازمة ، عجز كذلك عن فرض نفسه في قلب النظـام الرأسمالي ، واذ لم يكن في وسعه ان يبيع بالدين ، كان لا بد من ان يفشل في تغيير او تعديل الظروف التي تكتنف حيـاة البروليتاريا .

الطبقة العمالية تحت وطأة مرض اجتماعي مزمن : الفقر

هنالك ولا شك فريق من اصحاب الاجور حسنت اوضاعهم المادية من جراء التحسن الفعلي الذي طرأ على مرتباتهم بقطع النظر عن التحسن الاسمي . الا ان التحسن المادي في بعض اوساط البروليتاريا على الاجمال هو اقل ظهوراً للعيان منه لدى البورجوازية . هل نحن يا ترى



شكل رقم ١٩ - الاجور والنفقات السنوية . مقارنة بين ٦٢٣ اسرة عمالية في صناعة الحديد ، موزعة بين ٥ بلدان

١ - المرتب ؛ ٢ - الايجار ؛ ٣ - الغذاء ؛ ٤ - اللباس ؛ ٥ - القراءة والمطالعة ؛ ٦ - المشروبات (بينهـا الكحول) ؛ ٧ - التبغ ؛ ٨ - الوفر .

(تحقيق قامت به وزارة العمل الاميركية ، منقول عن غولد : الوضع الاجتماعي للعمل ، ١٨٩٣).

امام حركة افتقار تصاعدية ؟ ان عملية مقارنة بين النفقات التي يستطيع رب عمل ، من جهـة تحملها ، ومن جهة اخرى ، عامل يعمل في المشروع ذاته ، تستطيع وحدها ان توفر لنا عناصر الجواب عن هذا السؤال . فالاحصاءات التي تمت في هذه الناحية انحصرت كلها في موازنـة العامل .

من هذه الابحاث والتحقيقات التي قام بهـا مكتب العمل في الولايات المتحدة الاميركية ، يتضح لنا ان العامل في الصناعة المعدنية ، مثلا، تستهلك اعاشته نصف مرتبه تقريباً او اكثر من ذلك بقليل ، ولا يبقى له بالتالي الا القليل لايجار منزله ولباسه وتغطية نفقات نثرية اخرى كالمشروبات والقراءة والتدخين ، اما السكن فيعود على الانكليزي والبلجيكي اغلى مما يعود على الفرنسي والالماني ، او انهم يكرسون له مبلغاً اعلى نسبياً . فالالماني يكتسي بثياب اقل جودة وأرخص بالطبع . واذا كان معروفاً عن الفرنسي انه اكثر تعاطياً للشرب ، فلأن النبيذ قد عد بين المشروبات الكحولية . فالتوفير يكاد لا يظهر على البلجيكي وعلى الالماني ، ويصبح محسوساً عند الانكليزي ولا سيا عند الفرنسي .

فاذا ما قارنا بين وضع العمال الاوروبيين والاميركيين لاتضح لنا جليا انخفاض الوضع عند الآخرين[1] . ومن ثم فالتوازن لا يمكن تأمينه الا بعمل المرأة ، ان الرجل ، انكليزياً كان أو فرنسياً ، لا يحصل الا ٣/٤ موازنة اسرته والبلجيكي ٣/٥ ، والالماني ٦/٧ ، والاميركي ٩/١٠ موازنته السنوية .

ان معظم الاسر العمالية التي قام بدراسة عنها في الحي الثالث عشر من احيـاء باريس كل من درمسنيل ومنجنو ، تخصص لايجـار سكنهـا من سدس الى نصف دخلهـا . وبعد حسم نفقة الايجار هذه ، لم يبق لـ ١٣٤ اسرة من اصل ١٨٦٦ اسرة جرى درسها سوى ٤٠٠ فرنك يجب ان تكفيها للسنة كلها . فالبعض من هذه الاسر يخصص من ١٥–٢٠ سنتيماً للفرد الواحد كمصروف يومي لغذائه ولباسه ، مع العلم أن كيـلو الخبز يساوي ٢٥ سنتيماً ، وكيلو اللحم فرنك ونصف ، والسكر ٧٥ سنتيما . فما من احد ينفق فرنكاً في اليوم على فرد واحـد . وفي بروسيـا حوالي عام ١٨٦٠ . كانت الفئات الاكثر فقراً تخصص من ٦٠ –٦٦ من دخلها لتأمين حاجتها من المواد الغذائية ، بينما أحسنهم وضعاً كان يخصص من ٨ – ١٠٪ من دخلهم . وكان العامل الالماني في برلين الذي يشتغل في مصنع الابنوس او في ادارة سكة الحديد يقبض ، عام ١٨٨٨ نحواً من ١٠٢٤ ماركاً ، يدفع منها ١٦٨ ماركاً اجرة غرفـة مع مطبخها (المطبخ دون نافذة) وكان ينفق على طعامه ٥٧٤ ماركاً ، ويغادر مسكنه صباحا بعد ان يكون تناول في الصباح كوباً من جريش القمح (بمثابة قهوة) مع حليب وسكر وينتقل على نفقته حاملا معه من المقانق ما ثمنه ١٠ *Pfennigs*، ويتناول في المساء حساء من الخضار والبطاطا. والعائلة تنفق من ٢– ٤ ليبرات من اللحم في الاسبوع، ولا تخصص اكثر من ٤٢ ماركاً للملبوس. وكتب المدرسة ثمنها ٩ ماركات ، كما كان عليها ان تخصص ٧ ماركات ثمن الصابون لاعمـال التنظيفات . الا ان وضع الاسرة لا يسمح لها بشراء جريدة .

فالضنك والعوز هما ابداً ضيفان ثقيلان يحلان على الاسرة بقطع النظر من هبوط الاسعار .

دليلان على تحسن الوضع الاجتماعي
صحة احسن واخلاق انعم

ولكن أكان من حق الناس في اوروبا ان يستسلموا لليأس ؟ ان مدى الحياة يستطيل على الاجمال. فمعدل الحياة ارتفع ، في فرنسا، بين ١٨٢٠ - ١٨٣٠ ، من ٣٨ الى ٤٦ ، والشيخوخة بين الناس خففت من تقهقر معدل المواليد في البلاد . فاذا كان هذا الانكفاء او الانحسار الذي يمكن رده الى تناقص البؤس والشقاء لا يزال يقلق بعض المواطنين ، فتناقص معدل الوفيات يجب ان يدخل خانة حسنات الحضارة . فقد كان معدل الوفيات ٣١ بالألف في اوروبا ، عام ١٨٥٠ ، فهبط الى ٢٦٪ خلال الفترة الواقعة بين ١٨٩١ - ١٩٠٠ .

وطال امد الحياة لدى الانسان لان الاسباب التي كانت تعجل من وفاته اخذت بالزوال الآن (كالحرب) او ان تأثيرها ضَعُف وخف . وبفضل التحسين العام الذي طرأ على وسائل التغذية سجلت مكافحة المرض تطوراً ملحوظاً ، تباين الشعور بها ، في اوروبا ، باختلاف البلدان والطبقات الاجتماعية ، وهو تقدم لا يمكن لاحد نكرانه . وهذه الأمراض التي تسير دوماً في ركاب الحرب كالوباء والتيفوس اصبحت الآن في خبر كان (مع أن الأول زرع الرعب بين الناس في سنة ١٨٨٤ - ١٨٨٧ ، وفي سنة ١٨٩٢ ، والثاني انتشر في جنوبي فرنسا عام ١٨٩٩ - ١٩٠٠) . ومعظم الامراض السارية ، تناقص عدد ضحاياها ؛ فالامراض الزهرية تحسنت كثيراً وسائل معالجتها[1] . وقد تراجع ايضاً مرض التدرن الرئوي في بعض البلدان ، كإنكلترا مثلاً ، بينما فتك فتكاً ذريعاً في فرنسا . كذلك تعاطي المسكرات الكحولية التي جرت مكافحتها بنجاح في انكلترا والتي أتت مكافحتها بنتائج طيبة في البلدان السكندينافية وفي هولندا ، عد من الاوبئة الجديدة التي اشتدت وطأتها في بعض البلدان ، من بينها فرنسا ، حيث ارتفع معدل استهلاك الخمور والمشروبات الكحولية ، كما ازداد عدد محلات بيع هذه المشروبات بكثرة. كذلك نلاحظ ارتفاع معدل الذين يدخلون مستشفيات الامراض العقلية ، ومعدل حوادث الانتحار . ومع ذلك فحوادث الاجرام يهبط معدلها .

ولما كانت غريزة الكبح في الانسان وعقيدة التكفير اخذت ترجح تدريجياً على فكرة التخويف وعلى الامل المعقود على التأديب الاصلاحي ، فقد اخذت الشرائع الجنائية تفقد شيئاً

---

(١) ففي ايطاليا حيث الوفيات كانت تعد بالملايين ، هبط معدلها بين ١٨٨٧ - ١٩٠٧ من ٥٣٤ الى ١٣ في مرض الجدري ، ومن ٨٨٢ الى ٢٢٥ في مرض التيفوئيد ، ومن ٥٩٥ الى ٢٥ للملاريا ، ومن ١١٥ الى ٨ ؛ في مرض الحصاف او البلاغرا . اما في انكلترا ، فقد احصوا، للفترتين الواقعتين بين ١٨٧٦ - ١٨٧٠ و ١٩٠١ - ١٩٠٥ ما معدله ٩٥٩ و ١٢٥ لضحايا الحمى القرمزية ، و ٨٤٩ و ١١٦ لضحايا التيفوئيد ، و ٥٣٥ و ٣٠٠ لمرض الواق (الشهقة) ؛ و ٢٠٨ و ١٦ لضحايا الخناق؛ و ٢٤٤٧ و ٢١٥ لضحايا التدرن الرئوي وهبط معدل الرجال المصابين برص الزهري من ٥٤ بالالف الى ٢١ بالالف في الجيش البروسياني ، بين ١٨٦٧ و ١٩١٣ ، كما هبط من ٩٥ بالالف الى ٥٩ بالالف في الجيش الايطالي بين ١٨٦٧ - ١٩٠٥ ، وهبط من ٧٦ بالالف الى ٥٥ بالالف في الجيش النمساوي الهنغاري ، بين ١٨٧٠ - ١٩١١ ، ومن ٥٤ بالالف الى ١٧ بالالف في الجيش الفرنسي بين ١٨٧٦ و ١٩١٣ ، ومن ٢٢٤ بالالف الى ٥٢ بالالف في الجيش الانكليزي في انكلترا بين ١٨٨٥ - ١٩١٣ ، كما ارتفع هذا المعدل في كل حرب استعمارية (تونس - الحبشة- الترنسفال).

فشيئاً من قوتها . ولم تطبق انكلترا منذ عام ١٨٢٣ ، وبلجيكا منذ عـــام ١٨٦٧ ، الا بصورة استثنائية ،عقوبة الاعدام ، بينما قررت البرتغال والبلاد الواطية ، وايطاليا فيما بعد ، إلغاء هذه العقوبة . وفي فرنسا اخذوا يواجهون تعديل احكام القانون الجنائي بقصد التخفيف من هـــذه العقوبة تدريجياً منذ عام ١٨٣٢ ، وبعد أن راح كل من بكاريا وهوارد ، ومن بعدهمابنتام، بمهاجمة عقوبة النفي والابعاد ، اصبحت هذه العقوبة مثالاً للجدل والنقاش الطويلين في البـــلاد ، فقد اتجهت الافكار الى الجزائر ثم وقع الاختيار على الغويان الى ان استقر في نهـــاية المطاف على كاليدونيا الجديدة . وهكذا احتفظوا بعقوبة اللومان او السجن المؤبد ليس فقط عند استبدال عقوبة الموت بالسجن المؤبد ، بل ايضاً لمن يحاول التعرض لحق التملك (ان شخصية جان فالجان مجرد شخصية خيالية او روائية او من يهدد امن الدولة وسلامتها) فالحكم على الضابط دريفوس كان له دوياً عظيماً ، وقد زالت بالتالي العقوبات الجسدية من نظام السجون ، بينما رأى فيهـــا البعض تدبيراً تأديبياً لا غبار عليه قط .

أما المرأة العاثرة فقد بقي مصيرها مؤلماً للغاية . وبالرغم من الدعوة لادخالها احـــدى دور الرعاية او ملجأ خاصاً فقد اخضعت لمراقبة شديدة محطة وغير ناجعة من قبل شرطة الأخـلاق التي لم تستطع أو لم ترد ان تضع حداً للنخاسة بين البيض ، كما ان اغلاق بيوت الدعارة في كل من برلين وفي انكلترا لم يضع حداً للبغاء . وقد تبدى للمراقبين بأن هـــذا النشوز يجب رده الى البؤس اكثر منه الى حب الرذيلة ، والى تخلي المضل عن ضحيته بعد ان يكون غرر بهـــا ، والى عمل القوادين او المستثمرين للنساء والى فرض الاقامة على بنات الهوى. وكان من تأثير الاعراف والعادات المعمول بها ان كثيراً ما أدت الى اقدام الفتاة التي تضع سفاحاً على قتل طفلها كما ان الولد غير الشرعي يبقى منبوذاً في المجتمع .

وبدون أن تصبح مساوية للرجل في الحقوق اخذت رفيقته مع ذلك تتحرر شيئاً فشيئاً من هذه المقعدات التي تحط من شأنها. فباستثناء فرنسا حيث الطلاق اصبح مشروعاً ،هنالك بعض البلدان،معظمها على البروتستانتية،أباحت للمرأة قطع الرباط الزوجي كلما كانت الزوجة في وضع يجلب لها الذل وتتعرض فيه للمهانة . وخلافاً لبرودون الذي لم يرَ في المرأة غير ربة مـنزل او خليلة ، فقد استطاعت المرأة على اقدار متفاوتة من النجاح ان تفتح أمامها أبواب الجـــامعة والمعاهد الثانوية ، كما فُتحت امامها ابواب المهن الحرة والوظائف العامة . فاذا ما أثارت حركة تحرير المرأة التي قامت في فرنسا بعض النساء امثال جورج صاند وفلورا تريستانوبولين رولان ، الحذر والتحرز اكثر من التعاطف والتشجيع ، فالدعاية التي قامت بها الآنسة فولستون كرافت ومطالبة جون ستيوارت مل بالاقتراع العام لم تذهب سدى . فقد اعترفت كل من انكلـــترا والسويد بهذا الحق ولو حصرته الاخيرة منها بالانتخابات البلدية . ومساهمة المرأة في تولي ادارة الشؤون العامة ، امر لا يثير اي اعتراض من قبل الذين لا يعترفون لها بحق المساواة المـــدنية فحسب ، بل ايضاً يقرون بمقدرتها في كل ما يتعلق بشؤون التعليم والصحة .

فاسمع ما كان يصرح به الاب فنتوراه بهذا الصدد : « الحضارة هي قبل كل شيء احترام المرأة » .

خطر السلام القائم على التسلح وضآلة مكاسب القانون الدولي

كان اميل جيرار دين يردد : « المدنية هي السلام » ثم يضيف قائلا : « الضمانة الوحيدة ضد القوي هي الوضع الذي تكون عليه المدنية » . في هذا يكمن الالتباس المخيف. فقبل عام ١٨٤٨ كان الحلف المقدس يتحكم بالدول الصغيرة اكثر مما كان يشركها في الحكم . ومع ذلك ، فاذا ما راح بعض المفكرين امثال جوزف دي مستر وفخت وهيغل يعتقدون بأن لا مندوحة عن الحرب ، فقد راح كثيرون غيرهم كالكويكرز واتباع بنتام ، والسان سيمونيين ، وتلاميذ فوريبه ومازيني وبرودون يحبذون تأليف بعض تشكيلات فدرالية من شأنها ، في نظرهم ، ان تضع حداً للحروب . وراح المطالبون باطلاق حرية التبادل التجاري ، في كل من انكلترا وفرنسا يدلون بدلائهم في هذا الاتجاه . فاجتمع في باريس ، عام ١٨٤٩ ، مؤتمر للسلام دُعي هوغو لترؤسه وأسندت نيابة الرئاسة فيه الى كوبدن ، وخرج المؤتمرون بالشعار التالي : « الولايات المتحدة الاميركية » ، وهذا الشعار نفسه كان شعار الجريدة التي اصدرتها عصبة السلام والحرية في اعقاب مؤتمر عقد في ما بعد ، في جنيف عام ١٨٦٧ .

وعادت الحروب للظهور من جديد ، ولم تلبث اوروبا ان عاشت في ظل سلام مسلح الحكم فيه ألمانيا البسماركية ، اذ راح المنتصرون في حرب ١٨٧٠ يدعون لانفسهم انهم حماة النظام الجديد في اوروبا ، بينما الفتوحات التي حققوها ، والقوة العسكرية التي تمت لهم ، أولتهم السيطرة على اوروبا، هذه السيطرة التي رفض البعض الاعتراف بها بينما خضع لها البعض الآخر ، وشجعت السباق الى التسلح ، وهو سباق كان يكلف اوروبا من خمسة الى عشرة مليارات فرنك كل سنة وكان يستدعي للخدمة العسكرية الفعلية من اربعة الى خمسة ملايين جندي بصورة مستمرة . وقد رضي بعضهم بهذا الوضع معترفين مع سبنسر بأن السلم المسلح هو شر اخف وله بعض الحظ بالاستمرار والديمومة ، مهما بهظت تكاليفه ومهما بدا سريع الزوال ، في الظاهر .

وفكرة اوروبا واحدة موحدة ، مسيحية ، ملكية كما تمنوها في بدء الامر ، عاد لتبنيها دونما نجاح يذكر ، انصار الجمهورية واصحاب حرية الفكر الذين انضم اليهم ، فيما بعد المطالبون بحرية التبادل التجاري . وفي اعقاب حرب ١٨٧٠ ، اخذت الحركة الاشتراكية تدعو الشعوب للوقوف في وجه مستثمريهم من اصحاب رؤوس الاموال ، وان يضعوا فوق كل اعتبار ، تضامن العمال العام وتآزرهم ، بينما مضت الكنائس والنفوس المؤمنة تبتهل وتضرع الى رب السلام ، لاشاعة السلام على الارض . وراح الفقهاء المشترعون والدبلوماسيون يبسّطون للناس مفهوم الحق العام ويعملون على توطيده . وتألفت جمعية تتولى ابراز هذا الحق والتشريع له والتسييج حوله ، كما ان اعضاء المعهد الدولي للقانون ، اخذوا بعقد مؤتمرات عامة سنة بعد سنة ، وراح مفكرون امثال لوريمر وبلونتشلي ومارتنز وفيور يطيلون النظر فيما عسى ان تكون عليه

المنظمات الفدرالية او الكونفدرالية ، كما رفع ايزمبير بذلك تقريراً عاماً رفعه الى مؤتمر العلوم السياسية عند انعقاده في باريس عام ١٩٠٠ .

وقد أثارت فكرة التحكيم الدولي مخاوف وظنون الدول التي كانت تخشى ان تفقدها هذه المنظمة شيئاً من حقوق السيادة والاستقلال . وعبثاً راح مؤتمر باريس المعقود عام ١٨٥٦ يوحي بالرجوع الى وساطة او تحكيم دولة صديقة ، قبل اللجوء الى السيف . وعبثاً ذهبت النتائج الطيبة التي أسفر عنها مؤتمر جنيف المعقود عام ١٨٧٢ للنظر في الاختلاف الناشب بين انكلترا والولايات المتحدة الاميركية بخصوص مقاطعة ألاباما ، فأثبتت هذه القضية ان الحكم الصادر عن مجلس العدل الدولي يمكن تطبيقه . ولعل اهم القرارات التي صدرت عن محكمة العدل هي تلك القرارات التي رمت الى تحسين اوضاع الحروب والتخفيف من ظروفها وويلاتها ، من ذلك مثلا مؤتمر جنيف الذي عقد عام ١٨٦٤،والذي دوّل الخدمات التي توفرها مؤسسة إسعاف عرفت بالصليب الاحمر الدولي ، والخدمات الصحية في الجيش ، واخيراً التوصية التي اتخذهـا مؤتمر بطرسبورغ عام ١٨٦٨ ، بعدم استخدام رصاص دمدم .

نتائج حقيرة جداً بالنسبة لهذه المخاطر التي هددت المجتمع الاوروبي المنقسم الى دول وطنية تحافظ جهدها على ما يشبه ان يكون هدنة ، بينما تتهيأ بحرارة واندفاع وبدون انقطاع للمعركة الفاصلة. هناك خطر كبير دائم يتهدد هذه المدنية التي تعمل باستمرار على تحسين وسائل التخريب والدمار ، كما تعنى من جهة اخرى ، بأسباب إطالة الحياة .

الفصل الخامس

بين المحيط الأطلسي والبحر الأبيض المتوسط
الدول الاوروبية

« قوام القومية لا يقوم على العرق ولا على اللغة »
(فوستيل دي كولانج - الى ممسن - ۱۸۷۰)

وجه بارز القسمات نافر التقاطع ، هكذا تبدو اوروبا في ديمومتها . فبالرغم من يسر المواصلات وسهولتها ، والمكاسب التي حققها هذا الطراز السوي ذو الطابع المدني والصناعي ، فقد عرفت غرائز الدول القومية فيها كيف تحافظ على سماتها وكيف تتحامى . وقد شهدت اوروبا عمليات تجمع جغرافي وتركيز قومي . قامت على اعتبارات قومية ، ان لم تفض الى فك اوصال الملكيات الدانوبية والروسية ، ساعدت على التجمع الالماني والايطالي ؛ الا ان تقهقر تركيا وسيرها من سيء الى أسوأ فتح المجال امام « بلقنة » ، شبه الجزيرة الواقعة جنوبي شرقي اوروبا . وقد برزت بعد هذا كله ، مفارقات عدة ، تمركزت في المنطقة الشمالية الغربية المتطور ، وفي المنطقة القلبية الشمالية ، والمنطقة الواقعة الى الجنوب والى الشرق ، المتميزة بضعف حيويتها وقلة نشاطها ؛ وفي قلب معظم هذه البلدان ، بين اوفرها انتاجاً صناعياً ونشاطاً تجارياً وبين هذه المناطق الريفية الطابع والمتأخرة في تطورها . ومن هذا التنويع والتباين المظيم في التفاصيل والجزئيات ، تبرز هذه الفوارق الكبرى التي تطبع كل عضو من اعضاء الاسرة الاوروبية .

بريطانيا العظمى الشديدة البأس في عهد الملكة فيكتوريا

في عام ۱۸۳۸ دشنت الملكة الفتاة فكتوريا عهدها الجديد الذي انتهى عام ۱۹۰۱ . اسم سعيد على ما يبدو . فقد بدا العهد الفكتوري كأيمن عهد في التاريخ الانكليزي ، فيه كاد يتحقق سلطان بريطانيا الاكبر ، وسناؤها الاغر .

ومهما بلغ من نشاط انكلترا ، قبل عام ١٨٠٠ ، فلطالما ارتفع صوتها بالشكوى من قـلة السكان فيها بينما تجارتها الواسعة واستثمار مستعمراتها الشاسعة الواقعة عبر البحار امنت لها ارباحاً مالية ضخمة ، بينما شكلت اطيانها الضخمة قاعدة متينة لمجتمع عقـاري وارستوقراطي . والحال فقد رأت انكلترا عدد سكانها يقفز بين ١٨٠١ – ١٩٠١ من ١٠ ملايين الى ٣٧ مليون نسمة . فاسمع هتاف كبلنغ المدوي : «، بنيّ، حملت كثيراً من البنين ولا يزال ثدياي ابعد من ان يجف حليبها » ؛ هذا هو الخصب الذي استشعره ملطوس بخوف ورعدة . فقد هاجر عدد كبير منهم ! اما الآخرون ؟ هذا النسغ الخصب فرض عليهـا في الوقت ذاته ، تحدياً اكبر وجرأة اشد ، فاستقدمت بحراً ما لم تستطع ارض بريطانيا وما تحت الارض فيها توفيره وتأمينه لهذا الشعب المتزايد .

فالمصير الغاشم وضعها طوعاً أو قسراً امام حتمية الاختيار : بين التجـارة او الزوال من الوجود. وامام هذه الحشود المحتشدة في المدن التي توفرت لها كل ما تطمع به وتريد: من اساطيل ورؤوس اموال وتقدم تقني منقطع النظير ، وامبراطورية استعمارية ولا اكبر، عرفت بورجوازية مدينة منشستر ان تقبض بقوة على دفة السفينة وراحت تطلب الخلاص والازدهار عن طريـق التبادل التجاري الحر . وهكذا فقد ضمنت الفوز والاستقرار لفترة نصف قرن ، على الاقل .

وهكذا استمرت انكلترا الشامخة ، القديمة العهد ، في تطورها الصاعد نحو الذروة ، امـام مرأى ومشهد اوروبا التي تهتز وتضطرب تحت الهزات التي تنهال عليها ، وقد قامت فيها ملكية شعبية ونظام تمثيلي مستقر ، وحكومة قادرة على تأمين الديمومة والاستمرار مع محافظتها على الحرية . وبفضل ما عرفت به من احترام عميق للتقاليد المرعية ، استمرت ادارة المنافع العامة في البلاد بيد فريق من سراة القوم أمّن لهم مـا كانوا عليه من غنى وثراء ، الاختصاص واوقات الفراغ . وعرفوا بوصفهم من اصحاب الاقطان الضخمة كيف يتكيفون ، ما وسمتهم الحيلة ، مع تطور الاقتصاد الزراعي المعمول به منـذ القديم ، وتعاونوا ، على اقدار متفاوتة ،مع كبار البورجوازيين الذين يوجهون اللعبة . وقد توفر للبلاد ؛ رأس مال حكيم ، فطن ، وعرف كيف يناور ويحشد ويستثمر، ليجعل من بريطانيا العظمى، اكبر سوق تجاري في العالم واغنى بلد دخلاً وطنياً في العالم . وهذا المجتمع البريطاني الثقيف ، المهذب الذي توفر له الى حد بعيد ، السكن المريح والاثاث واللباس ، والذي صقلته الرياضة البدنية ونشطته ، والذي تـذوق الاسفار ، وتعشق اللعب في الهواء الطلق ، يرى ان ثقته بالله وايمانه به لا حد لها ، تزكيها وتبررها فلسفة إنتفاعية لا ينكرها إلا كل متعنت مكابر . وهذا الاشعاع العظيم الذي عرفته البـلاد في الشعر والقصة والنقد ، وهذه الاصالة التي عرف الفنان الانكليزي ان يكتسبها ، كل ذلك دل بوضوح، على ما رُكز في الطبع الانكليزي ، من شعور صادق بالواقع ، وما أوتي من قوة التحليـل ، وما طبع عليه من ميل فطري الى مباهج الطبيعة وما فيهـا من فتنة وسحر ، كما ان إشراقة من الالهام تملت ثنايا الهندسة والموسيقى عند هذا الشعب .

إما المفارقات المتضادة فتطالعك عند كل مأتى عين ومحط بصر . فالجغرافية منها تتمثل على أصحها في هذه البقاع السوداء وهذا الريف المخضل المورق ، في هذه المدن التي غشاها السواد وجلببها السخام والتي كبرت وتضخمت بسرعة فائقة ، وفي هذه المدن الغافية التي شابت وهي بعد فتاة في شرخ شبابها.ما الاجتماعية من هذه المفارقات فامثلها هذه الفروق الصادعة الصارخة في تفاوت الثروة والغنى مما لا يتوفر بعضه في اي بلد من بلدان اوروبا الغربية ، مع العلم ان الانسان لا يتمتع في اي بلد كان ، بما يتمتع به الانسان البريطاني من ضمانات عدلية وقضائية . وهذا المشهد بالذات اوحى لماركس ببعض الاحكام النيرة : « ان العبودية التي يرسف فيها المجتمع البورجوازي ، هي على ما يبدو لنا ، الحرية الكبرى، لانها تمثل ، على ما يظهر ، استقلال الفرد الناجز » . ومنها ايضاً هذه الفكرة : « اية حرية ؟ وحرية مَن ؟ هي هذه الحرية التي في وسعها سحق العامل ؟ » . وهذا الوضع هو الذي اوحى لصاحبه عنوان كتابه : « حول انحطاط انكلترا» الذي اخذ فيه مؤلفه لو درو – رولن ان يتنبأ بسقوط بلد تقوده أقليةمن هذا الطراز. ومع ذلك ان ايلاء العمال حق الاقتراع العام ، هؤلاء العمال الذين ينعمون ببعض اليسر ، والأخذ بسياسة نقابية حكيمة ، فطنة ، يتكفلان وحدهما بكبح شعب لم تستهوه يوماً الافكار الثورية . صحيح ان الازدهار الذي حققته سياسة التبادل التجاري الحر ، لعب دوراً بارزاً في العزوف عن مسالك الوثبة . فقد عرف كوبدن وبيل ان يؤمنا السلام الاجتماعي لجيل كامل ، عبر الازمات الخانقة التي ميزت الحقبة الواقعة بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ ، الخوف في النفوس . فالى القلق الذي استحوذ على الريف يجب ان نضيف هنا الصعوبات التي اعترضت الصناعة البريطانية ، في كفاحها المرير ، احتفاظاً منها بزبائنها . ففي وجه طبقة من العمال متصلبة في مطالبها ، وفي وجه المنافسة الاجنبية العنيفة ، كان لا بد من التريث والتخفيف من سرعة السير امام إمارات من عسر التنفس ظهرت على البلاد . والقضية الارلندية الحادة اقتضت حلولاً سريعة . وهذه الامبراطورية التي رحبت اطرافها واتسعت جنباتها ، أخذت تتطور كما راحت ادارتها تبحث عن صيغة استعمارية جديدة في وقت اظلم الأفق واكفهر .

كفاح الشعب الايرلندي

في قلب المملكة المتحدة التي نودي بها عام ١٨٠١ ، وقعت الامة الايرلندية فريسة امة اخرى ظلمت لها واخذتها بالعنف والشدة . وبما انها بلد زراعي يقوم اقتصاده على الأرض ، فقد طلبت ان تنعم بارضها وارزاقها ، وبوصفها بلداً كاثوليكياً ، فقد راحت تطالب بتحررها الديني ، وبما انها ضمت الى بريطانيا العظمى قسراً وكرهاً منها فقد راحت تطالب بالغاء قانون الاتحاد هذا . فجل ما حققه اوكنيل هو الحصول على المساواة في الحقوق للكاثوليك . الا ان ايرلندا الفتاة هذه ، الرومنطيقية تجاوزته بعيداً في مطالبتها ، الشديدة بتشكيل دولة ايرلندية مستقلة من ضمنها الاقلية البروتستانتية في مقاطعة الاولستر ، وهو مصير رفضته الاقلية . وبعد لأي قصر وقعت الجائحة الغذائية عام ١٨٤٧ ،

وعقبتها حركة نزوح عارمة جرفت بسكان الجزيرة خارج البلاد والهيـــاج الذي سببه حزب الفانيان السيامي .

اخذت الجزيرة بالانحطاط والتدهور. فقد هبط سكانهـــا من ٨ ملايين الى خمسة فهي تعاني كثيراً من الأمية وتتسكع في البؤس والشقاء ، وهو وضع حرص كبار الملاكين على إبقائها فيه . أوتي شعب هذه الجزيرة خيالاً مجنحـــاً وذلاقة في اللسان وعرف باستمساكه بدينه وأرضه ، ويغنى أدبه الشعبي الغاليكي ، وقد تخلت طوعاً واختياراً عن لغتها الام لتقتبس لغة المغتصب ، فانزوت الروح الكلتية في هذه المقاطعات المستوحشة في الغرب التي قسا عليها القدر الغاشم .

وبوادر النهضة يجب ردها اصلا الى هذا التحول الذي طرأ على الارض التي تزرع حبوبـاً فحولت الى اراض للمراعي والكلأ . وقد انتزعت من ايدي الوف الفلاحين الاراضي التي كانت في حيازتهم.غير ان القوانين الزراعية التي اخذ غلادستون المبادرة الى وضعها(بعد ان رضي من قبل بفصل الكنيسة الانكليكانية عن الدولة ، وبالغاء العشر المترتب على الكاثوليك دفعـــه للكنيسة الانكليكانية هذه)،جعل من المتعهد الزراعي شبه شريك للمالك،ومن جهة اخرى، فالجهود التي بذلها بارنيل لحمل البرلمان، في لندن على قرار فصل في امر سياسة الوحدة، والمطالبة « بوطن قومي » ادخلت الرعب في قلوب البريطانيين ، فسقط المشروع في المجلس، عام ١٨٩٥ . واذا كانت ايرلندا عاجزة بعد عن تحقيق استقلالها فقد صرفت جهودهـا لتحسين تربية الماشية على ارضها وطورت صناعتها وسهلت اسباب التعلم لمن يرغب فيها من ابنائها ، وراحت تنمي الروح والاعراف الكلتية في ابنائها ورفعت من مستوى الحياة فيهـــا ، وايقظت فيهم الشعور بقواها الروحية . وهكذا ، فساعة الحرية لم تكن لتتأخر فتدق منذرة بالتحرر والاستقلال .

الازدهار يعم سكندينافيا

امام هذا التطور المعظم الذي حققه البريطانيون ، يبدو هزيلا وحريـــاً بالشفقة بالنسبة لمصير هـــذه المنطقة المجاورة لبريطانيا في الشمال . في هذه المنطقة المرتفعةمن خط العرض ذات التربة المسكة المفتقرة للفحم، وصاحبة الدور الثانوي المتواضع على المسرح الاوروبي منـــذ القرن الثامن عشر . فالدانمارك والسويد والنرويج التي تتقاسم الجزر واشباه الجزر المتناثرة بين المحيط الاطلسي والبحر البلطيقي ، عجزت تمامـاً عن ان تبعث الى الوجود هذا الاتحاد القديم الذي رأى النور في كلمار . فشبه الجزيرة السكندينافية الكبيرة هذه ، تم توحيدها موقتاً بالرغم من النرويج ، ولصالح السويد . وهذه المملكة السويدية النرويجية لا يتعدى سكانها ٣،٥٠٠،٠٠٠ نسمة ومليون دانماركي . فمعدل الوفيات فيها عـال جداً وكذلك الهجرة لاشتداد الفقر فيها ، الامر الذي حمل اكثر من ٨ ملايين سكندينافياً على النزوح تباعاً عن بلادهم الى اميركا ، خلال القرن التاسع عشر .

ليس في وسعنا هنا التبسط طويلا حول الاعجوبة السكندينافية . فبفضل عهـــد من السلام استتب طويلا (اذ ان الحرب الدانماركية الجرمانية عام ١٨٦٤ ليست سوى مرحـــلة قصيرة

اضطرب فيها الامن)، بفضل ما تفتحت عنه هذه البلاد من نشاط جم وبعد نظر حكيم . فقد حققت شعوب هذه البلاد درجة من اليسر والازدهار حسدتها عليها شعوب الجزر الواقعة الى الجنوب من البحر الابيض المتوسط . فنمر سريعاً بظاهرة تكـاثر السكان في هذه البلاد . فالثمانية ملايين التي ضمتها عـام ١٨٥٠ والـ ١١ مليون التي بلغتها عام ١٩٠٠ ، بقيت ارقاماً متواضعة . وهذه الزيادة الملحوظة في السكان يمكن ردها بالاكثر الى هبوط قوي في معـدل الوفيات منها الى ارتفاع نسبة المواليد .

وبخلاف البريطانيين لم ينزح السكنديناڤيون عن مواطنهم في الريف اسوة منهم بالارلنديين. فلم يزدد عدد السكان في كل من كوبنهاغن وستوكهولم على ٤٠٠ الف نسمة ، عام ١٨٩٠ . اما كرستيانيا (اوسلو اليوم) فلم يزد عدد سكانها على ١٥٠,٠٠٠ ، ولعل ابرز حادث ميز تاريخ هذه البلاد الحديث ، فهو الثورة الريفية . صحيح ان جبال النروبج الشرقية اقتصر نشاط سكانهـا على مقايضة محاصيلهم الزراعية . فالاسر القديمة فيها لا تزال تتمتع بالسيطرة على مقاطعات غودبرنسدال واوستردال . فالمنازل هناك معتمة ، والبياضات او الملابس الداخلية نادرة والجرب متفش ، الا ان زراعة البطاطا اتسعت وعمت اطراف البلاد ، كما اخذ الناس يعولون في غذائهم على السمك المملح. وقـد جرت في الوقت ذاته ، حركة تجميـع بين القطع الزراعية الصغيرة بينما انصرفت حركة عارمة من الاصلاح الزراعي الى توزيـع الاملاك الضخمة فنشطت في البلاد طبقة من الفلاحين انصرفت لاستغلال مزارعها المشتتة التي كان لها من الاتساع مع ذلك ، ما جعل منها وحـدة إستثمار مستقلة اخذت تزدهر ، محولة في تطورها الى اراض زراعية او صالحة لتربية الماشية ، الكثبان الرملية والبطائح التي تكونت بفعل الانهر والجليد . وحرية التبادل التجاري وجهت اقتصاد البلاد نحو تنفيق المحاصيل والبيـع ، وفتحت امام محاصيلها من الحنطة واللحوم والبيض والزبدة الاسواق البريطانية ، كما شجعت تصدير خشب الشوح . واذ كانت السويد عـاجزة عن منافسة الدول الكبرى الصناعية ، كما كان شأنها في السابق ، فقد اخذت ليس في بيـع ما لديهـا من فلز الحديد العالي القيمة فحسب ، بل ايضا اخذت في صنع ادوات وآليات تقنية متطورة ، ازدادت نشاطاً فيها بعد بفضل الشلات ومساقط المياه وكلها قوات محركة تذكرنا من قريب بهذه الطاقات الضخمة التي تتوفر لكندا .

والدنمارك الواقع عند مداخـل البلطيق والذي ضعف مركزه ووهن شأنه راح يقوي من قاعدته الزراعية . فقد ساعدت حركة التطور التي اخذ باطرافها على التخفيف من حدة معارضة التاج وإلانتها ، كما خففت مـن معارضة النبلاء والاكليروس اللوثري . وبعد ان فقد دوقية شلسويغ هولشتاين، اضطر الملك كريستيان التاسع للرضوخ لمطالب الاحرار في الوقت الذي دعم فيه سلطته ونفوذه بهذه المصاهرات التي عقدها مع العائلات الملكية. الاخرى وقامت في البلاد، حركة ادبية وفنية وعلمية حملت بعيد شهرة عاصمة السويد الجميلة .

وعلى غرار السويد فقد بقيت بعيدة عن لعب اي دور بارز . ولما كان هم الدنماركيين الاكبر صوت

مكانتهم رهبتهم الدنمارك ، فقد كان بامكان ابناء وحفدة برنادوت ان يتولوا ادارة الاتحـــاد السكنديناڤي . ولكن الحركة السكنديناڤية التي صاغتها الاوساط العلمية في البلاد ، جاءت على شاكلة الحركة الجرمانية والسلافية .كان اوسكار الاول مختصاً بالقضايا الجنائية ، فقد صرف همه الى مد البلاد بشبكة من الخطوط الحديدية وباصلاح قوانين البلاد ومكافحة المسكرات وفي عهد الملك شارل الخامس عشر ، خلعت السويد طابعها الارستوقراطي لترتدي طابعــاً متحرراً تقدمياً فأنشأ في البلاد مجلساً نيابياً حديثاً ،حل محل « طبقات » النظام القديم ، وعارض بشدة الاعتمادات الحربية ، وتجملت ستوكهولم وخيم على هـــذه السويد النشيطة التي اطلعت اركسون ونوبل ، جو من الاحترام والتقدير العالميين. ان ادخـال الخط الحديدي على البلاد والتلغراف لم يقتل فيهم ذوق *Stamning* الذي عرف ان يؤمن الانسجام بين الكائنات والاشياء . واقـــر الملك اوسكار الثاني حق الاقتراع العام ، كما كان عليه ان يواجه بفطنة ، الحركة القومية التي هزت النرويـــج .

اما النرويج فلم تكن تشعر قوياً بهذه الروابط التي شدتها للعرش في السويد ، وذلك لما بين البلدين من تباين في الامزجة وفي المصالح . والمجتمع النرويجي الديموقراطي القاعدة تألف اصلاً من اقوام احترفوا الصيد وعـــولوا في معايشهم على البحر ، فابعدوا عنهم المواطنين الدنماركين كما قضوا على كل نفوذ بينهم لطبقة النبلاء ، عيونهم وولاؤهم هي باتجاه مجلسهم التمثيلي . شواطؤهم المفتوحة بطولهـــا على البحر ، واستثمارهم لمطـــارح السمك الغزيرة الواقعة على مقربة منهم ، ونشاطهم كسماسرة نقل بحري ، كل ذلك مكنهم من تفادي الفقر والعوز . فقد كان لديهم عام ١٩٠٠ اسطول تجاري حل في المرتبة الرابعة بين اساطيل العالم التجارية الكبرى ، وبزّ الاسطول الفرنسي من هذه الناحية . وبحق تفاخرت الامة النرويجية بنوابغ رجالها المشهورين امثال غريج في الموسيقى وإبسن في الادب ونانسن في كشف القطب . فاشرأبت نفسها للاستقلال . وحققته دونما صعوبة او هدر دم ، عام ١٩٠٥ ، وأولت العرش اميراً دانماركيا ، اتخذ له اسم هاكون السابع حكم بمساعدة مجلس تمثيلي .

والنخبة الفكرية في السويد التي كانت دومـــاً تنزع للفكر والادب الفرنسيين ، لم تلبث ان وقعت تحت تأثير المانيا القوي واقامت معها علائق وطيدة ، مع بقاء بريطانيا العظمى مسيطرة من جهة العلاقات الاقتصادية .

بعث النشاط في هولندا وبلجيكا

سجل القرن الثامن عشر فترة تقهقر وانحطاط لهذا المفترق الجغرافي الذي تألف من البلاد الواطية ، اذ ان بروز بريطانيا العظمى من جهة ، وركود النشاط في منطقة الرين من جهة اخرى ، ألحق الخسف بهذه المقاطعات المتحدة ؛ وبلجيكا التي وقعت تباعاً تحت حكم النمسا ثم فرنسا ، لم تحسن النهوض بمرافقها الزراعية والصناعية فحسب بل لم تأت شيئاً لتشجيع وتنشيط الحركة التجارية في مرفأ انفرس.

ولقد شاهدنا رسيسا من النشاط خلال عهد اورانج – ناسو وملكها على البلاد . الا ان الشراكة بين الشعبين عرفت اياما صعبة بعد ان غلب على البلجيكيين الشعور بأنهم راحوا ضحية مؤامرة سياسية . وقد تركت هذه العلائق المسمومة شيئا من اثرها الوخيم عالقا في الاذهان طبع بالعنف الحركات التي ادت الى شطرها شطرين متميزين مستقلين .

الا ان وقوع هاتين المملكتين في صميم اكثر بلدان اوروبا اكتظاظا بالسكان ، اذ زاد عدد سكان بلجيكا على ٦ ملايين نسمة بحيث بلغ معدل الكثافة ٢٠٠ شخص في الكيلومتر المربع الواحد ، كما ان سكان هولندا زاد على خمسة ملايين بمعدل ١٥٠ نسمة للكيلومتر المربع الواحد ، مكنهما من الافادة الى اقصى حد من مركزهما الممتاز ولوقوعهما بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا مواجهة هذا السهل الممتد طولانيا على سيف البحر ، عند مصب ثلاثة انهر كبيرة ، وتحت تناولها مقادير ضخمة من الفحم ، مما يبعث الهمم والنشاط في هذه الحيوية التي جاشت في صدر هذه العرق الذي جاءت ازمة ١٨٤٧ – ١٨٥٤ امتحاناً جديداً له . ان التحسينات ادخلت على التقنيات الزراعية ، واستخلاص اراض جديدة من البحر ومن الرمول ، وهذه الاعمال الضخمة التي اقتضاها إستصلاح المسالك والاقنية النهرية ، والمرافىء وانشاء شبكة محكمة من الخطوط الحديدية والاقبال على التصنيع الآلي ، واعتماد سياسة التبادل التجاري الحر والمشاركة في الحركة الاستعمارية الضخمة واستثمار رؤوس الاموال المتوفرة في كثير من بلدان العالم ، كل هذه العوامل كانت اساساً لهذه النهضة ، المادية التي ألمت بمرافق البلاد المختلفة . فالوسط البشري يحمل الكثير من سمات البيئة البشرية في الارخبيل الانكليزي المجاور ، وبما توفر له من اخلاقية تميزت بالفطنة والدراية والارادة الصادقة والاقبال على ما يؤمن الراحة مع العلم ان هذه الشعوب اصبحت اقل قدرة على الخلق والابداع في امور الفكر والفن مما عرف عنها في الماضي ، فانقطعت بكليتها الى عمل دؤوب ، صبور وتمتعت بسلم طويل بفضل ما نعمت به من نعمة الحياد السياسي ان لم يكن قانوناً فبالفعل .

والتطور العظيم الذي اخذت هاتان الدولتان باطرافه وجاء متوازياً بعيداً عن كل اضطرابات مقلقة موجهاً لها وجهة النظام التمثيلي ، شدهما شداً قوياً الى بريطانيا العظمى. من جهة عرش تناوب عليه تارة آل اورانج وطوراً الى ساكس كوبورج ، تشبع عميقاً من هذه الامتيازات التي تمت له ، غير انه اضطر لمصانعة التمثيل الوطني والتواري امامه ؛ وبورجوازية رشيدة ، حكيمة حريصة عرفت ان تحتفظ طويلاً بنظام انتخابي اساسه النسبة الضرائبية ، تنكرت للحركة الاشتراكية واخذت باسباب سياسية ابوية متحفظة ؛ هنا في بلجيكا شعب كاثوليكي نشيط متحمس ، وهناك في البلاد الواطية ، كنيسة كلفينية ، متحفظة ، جفول ، يتعاونان في مناهضة الحركة العلمانية التي جاشت في صدر احرار الفكر من البورجوازيين . وقد دعم عهد التحرر الترضيات والتنازلات المتبادلة بين الاحزاب الدينية التي زادت نشاطاً وحيوية في توسيع قاعدة الاقتراع العام . وبعد ان انصرفت الطبقة العمالية فيها على تنظيم نفسها واكثرت من انشاء مما

ترغب فيه من نقابات وتعاونيات واستجابت لنداء التشكيلات السياسية التي تتلاءم معها، راحت تناهض الامتيازات التي يتمتع بها اصحاب الاملاك العريضة .

ومن مشاكل بلجيكا المعقدة الخاصة بهـــا ، انقسام الشعب فيها الى شـطرين متباينين لغة وحضـارة : شـطر فرنسي الطابع والميزة اخذ بالتوسع منذ عام ١٨٣٠ ، وشـطر فلمنكي راح يعرض بحماس مطالبه . أفيبدو غريباً ان تفكر بروكسل ، مثلاً ، بانتهاج سياسة اقليمية تذكرنا بالسياسة المحلية الاخرى التي سارت عليها سويسرا .

الديموقراطية الجبلية في سويسرا

هل بامكان الجغرافيا ان تفسر وان تعلل لنا كيف قامت في قلب جبال الألب ، دولة مستقلة ، مـع انه لم يسبق ان حدث شيء مماثل لهذا ، لا في شرقي اوروبا ولا في غربيها ؟ استطاعت اقاليم السهل السويسري ان تستقطب حولها الاقوام التي تمور في جبال الألب وجبال الجورا ، فألفت من مجموعها حمىً او ملجأ كان خيراً من هذه الوديان المعزولة عند اطرافها ، معواناً لها لتقي نفسها من تعديات الدول المجاورة لها .

وبعد ان تعرضت لغزو عابر طارىء من قبل الفرنسيين ، استطاعت سويسرا بعد ان بعثتها معاهدة فيينا الى الوجود ثانية وسيجت عليها بالحياد، عرفت كيف تتفادى الحروب التي استهدفت لها واستطاعت رفع مستوى العيش بين سكانها الآخذ عددهم بالنمو والتكاثر .

فمن مليون نسمة عام ١٨٠٠، ارتفع عددهم عام ١٩٠٠ الى اكثر من ثلاثة ملايين. وبلغ من شدة كثافة السكان فيها ان قام ٨٠ شخصاً في الكيلومتر المربع الواحد، وهي كثافة جد مرتفعة اذا ما اخذنا بعين الاعتبار ان ثلثي عدد السكان يتمركزون اليوم في مساحة من الارض مرتفعة على الاجمال . وهذا العدد الضخم من السكان الذي طبع البلاد من عهد بعيد ، كان معينا لا ينضب من المهاجرين واليد العاملة في الصناعة . صحيح ان المدينة فيها جاءت صغيرة على نسبة الناحية او المقاطعة ، مع ان سكان كل من زوريخ وبال في سنة ١٩٠٠ تجاوز ١٠٠,٠٠٠ في كل منهما ، الا ان الحرفة المسيطرة على الاسرة فرض قيامها في المناطق الجبلية ، كما ان النشاط الريفي تأثر بعيداً بالحركة التجارية . وهكذا لم تلبث سويسرا ان اصبحت بلاداً تدر الحليب واللبن اثر تضاعف الماشية فيها بين ١٨٥٠ - ١٩٠٠ ، وعرفت ان تكتسب لهـــا شهرة عالمية بأجبانها الدسمة وسكاكرها من الشوكولا . واذ كانت تفتقر اصلا للفحم الحجري فقد اتجهت الصناعة فيها الى المصنوعات الدقيقة ، فاستمرت فيها صناعة النسيج القديمة على ازدهارها المعروف ، بينما خلقت المصنوعات الميكانيكية الدقيقة ، عند هـــذا الشعب الذي توفرت له تربية مهنية قوية ومراس مهني ، طبقة من الصنعة المهرة . واستثماراً منها لموقعها ولطبيعتها الجغرافية ، عرفت هذه البلاد ان تجتذب الى خطوطها الحديدية ، الشبكة الاوروبية للمواصلات الحديدية فأوجدت لها مركزاً ممتازاً في المجال السياحي . ولم تلبث ان افاقت على عهد من الفحم الابيض بعد ان عرفت كيف

تسخر ما لديها من مساقط المياه والشلالات لتوليد الطاقة الكهربائية . فراحت البلاد تستثمر ثرواتها الطائلة في اعمال التأمين وفي مشاريع انشائية كبرى في الخارج .

وهكذا ازدادت شراكة المصالح وثوقاً وترابطاً وأدت بالتالي الى تقوية الشعور القومي والرغبة المشتركة في العيش معاً في رفقة . وهذا التكتل الذي تألف من هيئات ارستوقراطية وتعاونية من اعيان المدينة ومن مجتمعات ريفية ، هو الاتحاد الفدرالي السويسري ، تبدّى لنا ، عام١٨١٥ وكأنه حلف بسيط ضم الاقاليم بعضها الى بعض. فالتمسك الشديد بأعراف الجدود، ابقى حياً قوياً ، نفوذ الأسر القديمة . ومع ذلك فموكب الديموقراطية يسير دوماً الى الأمام ، بصدق وعزم وعزيمة ، بشيء ملحوظ في التحفظ والاعتدال . ولذا فلا عجب ان تتضح حركة التطور هذه ضد الأقليات والمجتمعات الريفية صاحبة الاطيان ، ضد « اسياد » برن ، وضد المقاطعات الكاثوليكية في الوسط ، بدافع من بعض الفئات الرأسمالية ولا سيما البروتستانتية ، في كل من زوريخ ، وبال ، وجنيف ولوزان . إلا ان هزيمة *Sonderbund* جاءت تبشر بدنو أجل *Staatenbund* وبقرب ظهور *Bundestaat* [١]، مع دستور سنة ١٨٤٨ الذي جاء اكثر اخذاً بالنظام الرئاسي الاميركي منه بالنظام الفرنسي ، واستمر الصراع قائماً بين السلطة الفدرالية والمقاطعات . وفي اعقاب حرب القوميات أدى تعديل الدستور ، عام ١٨٧٤ الى تقوية الطابع الاتحادي والعلماني للكونفدراسيون الذي تولى توجيهها الحزب الراديكالي الديموقراطي البورجوازي المحبذ لتطوير الخدمات العامة والتوسع فيها ، والمعادي لكل تشريع اشتراكي الطابع او النزعة ، وتحافظ كل مقاطعة بمنتهى الغيرة على حقوقها بتنظيم العمل وتنظيم التعليم فيها كما ترغب وترى ، ومساهمة الشعب بالحكم مباشرة تشتد باللجوء الى عملية الاستفتاء العام في كل مرة يتوجب فيها إقرار او التقدم بمشروع قانون هام .

يتمتع السويسري على العموم ، بأخلاق رضية . فقد اشتهر بثقافة فنية وبالعناية بالصحة ، لا يبالي كثيراً بالدراسات الادبية وبالفنون . وهو رصين ، مرح ، عملي التفكير ، ذو طبيعة فياضة .

الديموقراطية الفرنسية بين النظام والحركة

لم يتغير وجه فرنسا جغرافياً . هنالك حادث توسع من جهة الألب ، وقع عام ١٨٦١ ، وعملية اقتطاع من جهة الرين بعد ذلك بعشر سنين . اما التوسع والامتداد فيقع خارج فرنسا ، وعدد السكان فيها يبقى كما هو تقريباً ويؤمن للبلاد كثافة متوسطة ، وهذه ظاهرة تفسر لنا اشياء كثيرة عن الحياة الفرنسية . هل اشتط بريفو – برادول الرأي وذهب بعيداً في تشاؤمه عندما راح يؤكد : « نحن الفرنسيين ، سيكون لنا من الوزن – بالنسبة للعالم الانكلوسكسوني – مع الاحتفاظ بكل نسبة ، ما كان منه لأثينا

---

(١) انتقال البلاد من نظام الكونفدراسيون الى نظام الفدراسيون ، مع بقاء الاصلاح سارياً على الشفاه .

قديماً بالنسبة للعالم الروماني ، . فالمقارنة بين فرنسا والمانيا ليست قــط في مصلحة الأولى . فلم يكن عدد الالمان ، عام ١٨٧٠ ، ليزيد كثيراً عدد الفرنسيين ، بينما بلغ عدد الالمان، عام ١٨٩٠ خمسين مليوناً (اي ما نسبته ٩١ نسمة للكيلومتر المربع الواحد) . بينما كان عدد الفرنسيين ، في السنة ذاتها ٣٨ مليوناً (اي ٧٥ للكيلومتر المربع الواحد) . ففرنسا هي الدولة الكبرى في اوروبا التي فتحت ابوابها على مصراعيها امام الهجرة .

وقد ألفت قواعد شعبية ريفية جذور هذه الأمة التي لم تشعر بأي ضغط ديموغرافي . ومـع ان المدن الفرنسية تضخمت واتسعت ، فان معظم الفرنسيين فضلوا السكنى في مــدن صغيرة نسبياً قامت في محيط ريفي ، واذا ما احتلت باريس محلا لا يضاريها فيه أحد ، فهذا مرده أصلا الى ان المركزية الادارية والأدبية تضخمت في الوقت الذي تضخمت فيه مراكز النشاطـات الاقتصادية . فبالنسبة للجنوب ، أخــذ الشمال ينمو أكثر وكذلك الشرق بالنسبة للغرب . ونلاحظ حركة جذب واستقطاب باتجاه المراكز الصناعية الانكلو جرمانية دون ان يطرأ أي ضعف أو وهن على الروابط الوثيقة التي تشدها الى البحر الابيض المتوسط . وبدون ان نلاحظ أي قطيعة في التقاليد الريفية الفرنسية نرى تحولا أو بالاحرى إنصرافاً بطيئاً عن بعض الاقاليم، يفرغها من سكانها ، لا سيما في الوسط وفي الجنوب الغربي . فالمزارع الذي هو في الغالب صاحب الارض أو مستأجر لها ، لا تتوفر له الادوات والعدة الحرفية اللازمة لارضه ، كما انه لا يستأنس كثيراً لحركات التجدد ويعـول كثيراً على النائب ممثله في المجلس النيابي ليتولى الدفاع عــن مصالحه ، ولذا نراه يستمسك بشدة بالنظام التمثيلي ، ويرجو من الطبيعة الحليمة التي يعيش في ظلها ومن نظام تمثيلي يرضى عنه ،بتوفير غد له يطمئن اليه ويأتلف مع اطماعه المحدودة. وهذا العامل الذي يعمل في الصناعة الضخمة أو في المنجم، في هذه المناطق الصناعية الرئيسية ،يؤلف طبقة بروليتارية أخذت تعي مصلحتها الطبقية بينما عرف ان يحافظ على هذه الذهنيــة الفردية التي هي من مميزات العرق الفرنسي . واكثر من هؤلاء ، الصناعيون واصحاب الحــرف الذين يعملون لحسابهم الخاص أو لحساب هــذه البيوتات التجارية الكبرى ، وهم متشبعون بفكرة الاستقلال أو نتزاعون الى الاضرابات . فالحرف الحرة أو العامة التي يختلف الناس رأياً فيهـا والتي تتفاوت بينها الاجور ، تستقطب نسبة كبيرة من المواطنين في بلد شقت فيه البورجوازية طريقها الى الوظيفة ، بينما ظل صغار القوم فيها يجاهدون في سبيل البروز والظهور والتقدم . اما هؤلاء الاعيان من اصحاب الاطيان والعقارات الضخمة ، أو من رجال الاعمال أو من رجال الصناعة ، فحبهم للنظام ، والحذر الذي يقابلون به الافكار والنظريات الجديدة ، يمازجه كره لا يغلب لهذه التدابير ولهذه الاجراءات المالية التي من شأنها أن تمس دخلهـم ، كما يمقتون تدخل النقابة في تحديد عقود العمل. فبالرغم من اختلافاتهم على الصعيد الفكري وبمنأى مـن كل عقيدة ، فهم لا يرغبون بوساطة الكنيســة الكاثوليكية وبمساعدتهـا ، الا بالقدر الذي ترمي معه للدفاع عن المجتمع . فلا عجب ان تتأثر الحياة العامة عميقاً بمثل هذا الوضع .

هنالك من يدعي ان فرنسا ، في ظل النظام التمثيلي ، كانت دوماً تتردد بين النظام والحركة، هاتان النزعتان اللتان تتقاسمانها اجتماعياً وجغرافياً بحيث ان أقل بادرة تأرجح تبدو على الهزاز الانتخابي تكفي لترجيح هذه الكفة او تلك . والواقع ان جمهرة الفرنسيين لا تنزع الى « ردة فعل » ، تؤمن الغلبة للعناصر المحافظة وسلطة البوليس ، كما انها لا تميل الى التعاليم والنظريات الجريئة التي تقول بالتجدد الاجتماعي . يجب على اية خطة عامة او اي برنامج عمل عام ألا يحدث الأخذ به تغييراً كبيراً في الوضع السائد . هي ذهنية صغار البورجوازيين وصغار الملاكين التي تسيطر حتى على طبقة البروليتاريا .

بعد الهلع العام الذي استحوذ على الناس ، سنة ١٨٤٨ ، جاء الحكم الامبراطوري تدبيراً اعتباطياً سارت معه البلاد من سيء الى اسوأ ، اذ راح يعرض النظام للاعيان وللفلاحين ، والعمل لمن يرغب فيه ، ويحاول التسوية بين مبادىء عام ١٧٨٩ والسلطة. ولكن ما ان سنحت الظروف المؤاتية وتوفرت الوسائل ، حتى راح اعيان البلاد يعملون على اقامة حكومة تقدمية متحررة ، فجاءت كارثة عام ١٨٧٠ وسهلت لهم الأمر . وفي اعقاب الكومون ، كانت المطالبة بالعودة الى النظام البرلماني مطلب الأعيان من نصراء الملكية والاعيان من نصراء الجمهورية . إلا أن الفشل الذي اصيب به النظام الادبي ، أدى الى طلوع جمهورية معادية لروح الدين ولرجاله ، قنعت من الأمر بدستور عام ١٨٧٥ ، الذي جاء نتيجة اتفاق تراضٍ بين النزعتين . وموجز القول ان الجمهورية الثالثة جاءت وليدة ارادة أكثرية الشعب الفرنسي وكرساة انقاذ او خلاص طالما تمنوا الوصول اليه منذ عهد بعيد ،ربما منذ عام ١٧٨٩،وهو نظام سيكتب له البقاء لأن باستطاعته ان يفرض احترام النظام القائم ، وان يمهد السبيل امام بعض اصلاحات ، بأقل قدر من حكم الجمهورية ، كما يشير الى ذلك ، اناتول فرانس في كتابه : « التاريخ المعاصر». هي اعجز من ان تحقق « المشروعات الكبرى » ، وقد تكشفت عن كونها انتهازية ، "فرَصية" ، تقدمية معتدلة ؛ وقد خففت من عدائها لرجال الدين ، وتقوم « بتهدئة » ، وتسلك في سياستها الخارجية ، وفقاً لتقاليدها الدبلوماسية ، وتتحالف مع الامبراطورية الروسية وتكشف عن روحها الاستعمارية او الاستثمارية، كما انها خففت من الهزات السياسية تحت ستار عدم الاستقرار الوزاري في الحكم، وتغلبت بقدرة فائقة ، على عدة ازمات ، وراعت بفنها الناعم ، الاعراف المرسومة ، ويشتد منها الساعد على مرور الزمن والمراس الموصول . وطبيعتها الديموقراطية المعلنة لا تعيشها قط ، للسبب نفسه ، من وضع منهاج اشتراكي ، حتى ولا راديكالي .وقد عرَفت فترات كمن الخطر عليها « في اليسار » ، وعرفت جيداً ، مع ذلك ، كيف تدافع عن مكاسب الاعيان . وقد يفوتها القطار احياناً . فالمحطات والاماكن العامة الأخرى تفتقر كلياً الذوق ، والسكن لا يتطور بالقدر الذي تم لالمانيا وسويسرا . اما المطبخ الفرنسي فهو اطيب المطابخ والذها، والمناخ بعد هذا كله لطيف ، سليم .

وقد عرف الفرنسي،باقل سرعة من غيره في مجال انتاج المواد الاستهلاكية ، كيف يحافظ على

تذوقه الادبي والفني بسرعة الخـــاطر عنده ،وذوقه الرفيع وقدرته على التحليل والنقد ، كل ذلك جعله يبرز في مجال الفلسفة التجريدية والنقد التحليلي . ومـع انه أقل إقبالاً من جيرانه في الشمال على الاعمال الكبرى ، فهو لا يزال يفيض إلهاماً ووحياً ، في مجالات العلم والفن ، كما انه لم يعرض قط عن ملذات العيش الرضي .

اوروبا المتوسطية ومميزاتها الفارقة

لعل فـــرنسا هي البلد الوحيد الذي يستمد الدفء معاً من المراكز الصناعية في المنطقة الفحمية ومن شمس البحر الابيض المتوسط . فهي تشارك ، عن طريق اللانغدوق والبروفانس ، بهذه الحياة الساطعة التي تنعم بها البلدان المطلة على هذا البحر ، وتأخذ كثيراً من طبائـــع واخلاق هذه الاقوام المرحة الفرحة ، الطيبة القلب ، التي عرفت ان تقيم لها اسماً بعيد وشهرة عالية في عالم التجارة وفي عالمي الادب والفن .

ويرزح الوضع الاقتصادي في بلـــدان البحر الابيض المتوسط تحت ثقل الركود والجمود المتطاول . فالتيارات التجارية الكبرى غابت عن ساحته وانتفت عن شواطئه حيث تطالعك انماط من النشاط الصناعي والزراعي ، على الطريقة القديمة . هنالك لقاءات مدهشة يتناوب فيها الروض والبحر . فالصحراء تقف مارداً في وجه الحقل الزراعي ، كما يطرد البدو الحضر ويخنق الجبل الارض القابلة للحرث ، فالاقليم يفتقر اصلا للفحم فيضعف النشاط في الصناعات المعدنية كما ان المنطقة تفتقر جذرياً لرؤوس الاموال .

وتطل علينا ، مع ذلك ، طلائع نهضة تثقف وتطوير الخط الحديدي كما ان السفن البخارية اخذت تعول ، اكثر فاكثر ، على هذا البحر الذي يتمتع بوضـع جغرافي عظيم الاهمية لا سيما ، بعد ان تم شق قناة السويس ، فالآمـــال التي عقدها ميشال له شفالييه لن تلبث ان تتحقق . فمنذ عام ١٨٨٠ ، اخذ ربع اساطيل العالم يتردد على مرافيء البحر المتوسط ، مـوزعة في كل مكان ، الفحم والآلة والمنسوجات وتعود منها محملة الخمور والفاكهة والزيوت وفلزات المعادن مؤمنة الاتصال بين اوروبا وآسيا ، ثم ان استيطان الاوروبيين مناطق افريقيا الشمالية ومصر عاد بالنشاط على الحركة التجارية في هذه الاقطار ،كما نشطت بالتالي حركة الحج الى الاماكن المقدسة المسيحية والمناطق الاثرية القديمة . وأطل علينا عالم اليونان اولاً ثم عالم ايطاليا،بعد ان زحزحت الأولى عنها ،على غرار اسبانيا والبرتغال، نير الاسلام، كما زحزحت الثانية ،ظل الدولة البابوية ، بعد ثورة عارمة ، جائحة ، بقيادة دولة قارية ، شبيهة بقشتالة وليون ، هي دولة البيامونت .

تأخر اسبانيا والبرتغال عن الركب

مهما بدا الوضع الجغرافي للدول الايبيرية عظيماً فلم يعد يخولها مع ذلك،ايةميزة قط . فهما ابداً في تأخر وتقهقر واصبحتا في عداد الدول الثانوية ، فاسبانيا لا تفتقر الرجال ، اذ كان عـدد سكانها عـــام ١٨٠٠ يربو على عدد سكان انكلترا ، وقد اوشك هذا العدد ان يرتفع الى الضعفين ، عـــام ١٩٠١ وهي زياددة

بزّت نسبياً الزيادة التي حققتها فرنسا من هذه الناحية . اما البرتغال التي ارتفع عدد سكانها من ٣ ملايين الى ستة ، فمستوى العيش فيها بقي متدنياً .مما يلفت النظر عندها ، هـــذا التفاوت العظيم في توزيـــع السكان . فبينما كانت نسبة تكاثف السكان في البرتغال ٥٠ نسمة للكيلومتر المربع ، عام ١٩٠٠ ، كان معدل هذه الكثافة ، في مقاطعة بورتو ٢٢٠ نسمة وفي منطقة بجه في اقليم غلمتيخو ١٤ نسمة لاغير . كذلك قام في قلب اسبانيا منطقة مرتفعة تكاد تكون خالية من السكان تتكون من هذا الصيد الجبلي الوسيط،كما ان اسبانيا الساحلية تغص بالسكان من جهتها . وهذا التوزع الى جيوب او خلايا ،المتحصل عن طبيعة البلاد الجبلية ، من شأنه ان يخلق شيئاً من العزلة بين هذه المناطق فيغذي فيها النزعات والمطالب الاقليمية ، كما كان من شأنه ان يعرقل، الى حد بعيد ، استثمار الاراض . فاذ ما شكت اسبانيا دوماً من تصور شبكة مواصلاتها البرية فخطوطها الحديدية التي انشئت متأخرة وكلفت غالياً والتي تم انشاؤها بفضل رؤوس اموال فرنسية ومهندسين فرنسيين ، فقد كانت طاقتها ، من هذه الناحية محدودة للغاية . اما اسطول اسبانيا التجاري فلم يكن بوسعه ان ينقل اكثر من ثلث بضائعها .فالانكليز لا يزالون يسيطرون تماماً على الشواطيء ولهم موطيء قدم وطيد جداً في لشبونة .

اما مواردها المعدنية ، فمعظمها بيد الاجانب والصناعة الاستخراجية تبعث بها الى الخارج (ان ٦٠ ٪ من الاسهم والاعتمادات التجارية في اسبانيا ، سنة ١٩١٢ كانت للفرنسيين) . وهـذا الماضي الزاهي الذي عرفته الصناعات التعدينية ، في شبه الجزيرة الايبرية لم يبق منه غير الذكر الحميد ؛ وهذه الافران والمسابك الكبيرة التي قامت في مقاطعة كتالوني انطفأ الواحد منها بعد الآخر واصبحت أثراً بعد عين . وستطل على البلاد حركة بعث جديدة ، عام ١٨٨٠ تتركز في مقاطعات استوريا وبلباو حيث يتوفر بكثرة العاملان الاساسيان لكل صناعة : الحديـــد والفحم . وبالاضافة الى صناعة النسيج التي نشطت في هذه المقاطعات ، هنالك صناعات عديدة أمنت للمنطقة برمتها ، سبقاً ملحوظاً في هــذا المضمار ، لعبت معه اسبانيا دوراً شبيهاً بالدور الذي لعبته المنطقة البدوانية في ايطاليا ، مما ادى بالنهاية الى تقوية النزعة الفردية في المنطقة .

تعبر الجماهير عن رضاها وعن ارتياحها عندما تشبع بطونها . كانت البلاد تصـدر في مطلع القرن الحبوب الامر الذي يحرم المزارعين من هذه المواد الضرورية ، فتضطر الحكومة بالتالي لاستيراد حاجاتها من الخارج لقاء بيعها الخمور والفاكهة . فقد تباينت طبيعة الاقليم فيها ومناطق البلاد . فالمنطقة الشمالية الغربية الواقعة على المحيط الاطلسي امتازت بامطارهـــا الغزيرة ، الغارف والاندلس التي يبدو عليها شيء من الطابع الافريقي ، تؤلف ، في مجموعها ، صعيـــداً متوسطاً قاسياً ، تلين لزراعة الحبوب والمزدرعات في هذه الاماكن المطلة على البحر المتوســط . واستطاعت بعض المناطق المشهورة بزراعاتها الكرمة والخضروات والاشجار المثمرة ان تزيـد من انتاجها بفضل تصديرها هذه المحاصيل الى الخارج ، الا ان التطور العـــام في الريف اصيب بالشلل لفرط اهمال الارض ، وعدم العناية بالاملاك واستثمارها كما يجب . وهذا العصر الذي تميز

بكثرة اضطراباته وهزاته الاجتماعية وانتفاضاته السياسية ، حال دون قيام اصلاح زراعي عام، كما حال دون تطور التعليم وزيادة المدارس لمكافحة الامية التي يتسع فيها الفلاح وابناء الريف بالاخص .

استهلت اسبانيا القرن بحرب مريرة طويلة ضد الغزو الافرنسي والفتح النابوليوني ارزحت البلاد وافقرتها . والحزب التقليدي المعروف في البلاد والذي تألف من كبار الملاكين ومن الكنيسة ورجال الدين اخذ بصراع طويل مع الحزب الدستوري الحر الذي يسانده الجيش والماسونية والعناصر البورجوازية ؛ كل شيء يقوم على الجيش ويتوقف عليه . فالانقلابات العسكرية المتكررة في البلاد تقيم الحكومة وتقعدها ، وتعلو بها وتنزلها ، وراحت الحزبية العسكرية تتأرجح بين هذا الجانب وذاك ، كما ان النظام التمثيلي اصبح بعد تبنيه ، مجرد واجهة لا غير . والى هذا الوضع يمكن ان نرد بقاء هذه الاضطرابات قائمة في المناطق الشمالية لتغذي الحرب التي اثارتها قضية الملك كارلوس وتأليف الكيانات الاقليمية التي تسن القوانين التي تؤمن مصالحها ، والتي تنزع الى السيطرة على سياسة البلاد وتوجيهها ، والى قيام هذه الفتن المتكررة في الجنوب ، بين اصحاب الاملاك . والجمهورية التي اعلنت في البلاد ، عام ١٨٧٣ ، لم تكن موحدة الاهداف ، ولا متجانسة ، بل كانت فدرالية ، ولذا سهل على الجيش امر تصفيتها . وعندما طلعت على البلاد الحركة العمالية ، نزعت منذ اللحظة الاولى الى الفوضوية فسمرت الخوف في قلب البورجوازية واصحاب الامتيازات القديمة دون ان تستطيع اخضاعهم. وجاءت الحركة الاصلاحية التي قام بها الملك الفونس ، الذي اعلن « تمسكه كأسلافه بالكثلكة ، كما اعلن نفسه من جماعة الاحرار المخلصين باعتباره احد ابناء العصر » . فلم يتغير شيء وهدأت الحرب الكارلوسية الا ان السلطة المركزية لم تتوطد قط في البلاد. فالمجالس النيابية لا شأن لها والمرتبات الضخمة أجزلت لكبار ضباط الجيش على حساب موازنة وزارتي التعليم والزراعة، كما بقيت ناشطة ، جياشة الحركة القومية بين اقوام البشر ، واتخذت الحركة الكتلانية ، هي الاخرى ، بالاتساع والامتداد ، وتأزمت القضية العمالية. وبالرغم من هذه الامور ، فقد امكن للمؤسسات الدستورية ان تعمل وتنشط ، خلال نصف قرن ، اقله في الظاهر ، بحيث نشط للعمل في ظلها، المجتمع القديم الذي بقي حياً وسط مجتمع رأسمالي اكثر حيوية. وحصلت فترة شبيهة من الهدوء في البرتغال في عهد الملك الفنان لويس الاول . وفي احتياجها الشديد النقد راحت حكومتا مدريد ولشبونة تسنان القوانين دونما طائل . والمشكلة الاساسية المتمثلة بالاصلاح المادي كانت في نظر المفكرين واصحاب الحجى في البلاد ، مرتبطة الى حد بعيد ، باصلاح عام يتناول الاخلاق . وراحت الحركة الادبية الطالعة في اسبانيا تحاول الكشف عن طاقاتها القومية . كما ان الكارثة التي نزلت باسبانيا عام ١٨٩٨ ، وافقدتها القسم الاكبر من مستعمراتها اظهرت للملأ قسوة الجهد ومرارة السعي اللازمين لمقاومة التيار السريع الانحدار . وبدت في البرتغال محاولة لاحلال النظام الجمهوري محل اسرة براغرانس الملكية التي عجزت كلياً عن

اخراج ولاية لوزيتانيا من الورطة التي تعانيها .

مشكلات المملكة الايطالية الفتية

نقاط التشابه والتماثل كثيرة بين شبه الجزيرة الايبرية والايطالية . فالنمو الديموغرافي اكبر وانشط هنا منه هناك ، اذ ان عدد السكان فيها قفز من ١٨ مليونا عام ١٨٠٠ الى ٣٢ مليونا عام ١٩٠١ ، وبذلك بلغ معدل كثافة السكان ١٠٠ نسمة في الكيلومتر المربع الواحد ، في سهل البو واودية توسكانا ومقاطعة كومبانيا وعلى سواحل صقلية ، بينما بقيت مناطقها الجبلية وسهولها الجافة التي تركبها الحميات ، قليلة السكان ، تردف بقوة حركة الهجرة الى الخارج والاغتراب . نرى من جهة تقاليد صناعية تحافظ على ما لها من شهرة واسعة . كما نرى من جهة أخرى افتقار البلاد للوقود والمعادن . في البلاد طبقة فقيرة من الفلاحين معدمة ترسف في الجهل والامية وقمت فريسة الملكيات الضخمة ، كما تفتقر البلاد الى رؤوس الأموال . وقد مزقتها نزعات اقليمية تمتاها عهد طويل من التقاطع والتنابذ ، وحياة عارمة في المدن ضيقة الأفق ، محدودة المرمى والهدف . وقامت بين الشمال والجنوب منافسة حادة ومعارضة شديدة ، اذ كان الاول اكثر ارتباطاً باوروبا الوسطى وبالتالي اكثر التصاقاً بالقارة الاوروبية ، شعبه نشيط ، دؤوب على العمل والصناعة ، بينما لا يزال الثاني يحمل سمات القدم والعهد السحيق يتسكع في مساوىء الملكيات الضخمة . فالشمال هو الذي أعطى الوجود السياسي للبلاد وأمن كيان دولة فتية ، قوية عرفت ان تفرض نفسها بمساعدة أجنبية ، مع ان الجنوب كان أقل انقساماً سياسياً من الشمال . الا ان عملية التوحيد بين المقاطعات والافراغ السياسي الجديد للبلاد التي تمت على عجل ، لم تحل كل المشكلات التي اعترضت سير الدولة الجديدة . فالمهمة بدت شاقة ، مرزحة لهذه الدولة الحديثة ذات الامكانات الضيقة بالنسبة لدولة يتكاثر سكانها بسرعة ، كثيرة الاحتياجات .

طلعت عليها هذه الصعوبات في الوقت الذي تمت فيه وحدة البلاد . فالجنوب لم يكن ليرتاح كثيراً للتقاليد الادارية والعسكرية المرعية في تورينو . واسرة آل سافوى التي كانت تتمتع بالعطف والرضى في المناطق الشمالية لجبال الابنين ، كانت ، في الجنوب ، موضوع تشكك وتذمر . وقام في وجه حزب اليمين المناصر للملكية والمضاد للاكليروس في البيامونت ، رجال الاكليروس واصحاب النزعات الاقليمية في شبه الجزيرة الايطالية ، والحزب اليساري الذي ، بالرغم من نزعته المضادة الدين ، كان يشوبه شيء من النعرة المزتينية لم تكن باشتراكية ، وكان يجد العديد من الانصار ، بين هؤلاء الغاضبين في مملكة نابولي القديمة . وراح سكان البيامونت يهاجمون بعزم وصلابة أقوى مما تم لهذه الهيئات اللباردية والتوسكانية المتحالفة ، الامتيازات التي تنعم بها الرهبانيات والجمعيات الدينية في هذه المقاطعات التي تم توحيدها ، كما راحت تهاجم حروب المناوشات في الجنوب ، محاولين تأمين التوازن في موازنة الدولة وتوجيه ايطاليا للعمل والانتاج . وقد جاءت الاستجابة ضعيفة جداً ، لهذه الحركة الاصلاحية في هذه المناطق التي لا نفوذ فيها للبورجوازية وحيث تسيطر الملكية الضخمة ورجال الدين على الجماهير

الشعبية التي تتحكم في مهاوي الأمية والجهل المدقع . ومع فوز اليسار سيطر على شؤون الحكم في البلاد ، سكان صقلية . فوسعوا على ضوء مصلحتهم ، قاعدة التمثيل القائم على نظـــام الضرائب ومارسوا إفساد الضمائر على نطاق واسع ، وقمعوا هذه الانتفاضات والفتن التي سببتها المجاعة بين صفوف العمال ، وراحوا يمللون الآمال الكبيرة في الخارج ، وهكذا رأينا كريسبي هذا الماسوني الجمهوري القديم ينهج سياسة التسلط والتحكم بدون ان يتوفر له المـال ، ملوحاً بعظمة الرومانيين وحقوق هذا الشعب البائس . وبالرغم من هذا البطء ومن هذا التفاوت الذي ميز التطورات التي اخذ بها الشمال ومقاطعة توسكانا ، فقد أمن ، مع ذلك ، استخلاص الكثير من الاراضي وتوصل لانتاج ٢٤ هكتوليتراً من القمح في الهكتار الواحـــد مقابل عشرة هكتو ليترات في الجنوب ، كما تطورت فيما بعد كثيراً زراعة الشمندر السكري والحدائـــق وتربية الماشية . وهكذا زادت بروزاً المفارقات بين الشمال والجنوب ، هـذا الجنوب الذي نراه يتذمر باستمرار مدعيا انه مرزح ، مثقل كما ان البؤس الذي يخيم على الجماهير الريفية فيه حملهـا على المهاجرة بأعداد كبيرة . ان توفر اليد العاملة الصالحة في الشمال واستثمار رؤوس اموال كثيرة معظمها اجنبية ، وروح الاقدام والمبادرة في المجال الصناعي هي من خصائص الشمال الذي عرف كيف يفيد كذلك من القوة الكهربائية مع العلم ان النظام المصرفي فيه كان ضعيفاً وسريع العطب وان سياسة الحماية الجمركية التي سارت عليها البلاد التقدمية لم تفد كثيراً ، وانه الى جـــانب بؤس الفلاحين والقضية الزراعية يجب ان نحسب حساباً لبؤس الطبقة العمالية ومشكلاتها الحادة

وايطاليا تعتمل فيها تيارات اجتماعية عميقة الغور . وكان من العسير جدا على طبقاتها الحاكمة ان تبني لها قصوراً في الهواء على نفع او جدوى سياسة كبرى تسير عليها، تكلفها نفقات عسكرية مرزحة ولا على موازنة تشكو دوماً العجز وعدم التوازن . وهذه الطبقات التي تتحلى بالفطنة تولي عنايتها المحاصيل الزراعية والصناعية التي يؤمن بيع انتاجها تـأمين ميزان المدفوعات . الا ان ذكريات الماضي الحية في النفوس ، ومـــوقع البلاد الجغرافي حملها على الاهتمام بأسطولهـا التجاري ، الامر الذي ساعدها على اقامة علاقات واسعة مع دول كثيرة : هذه العلاقات التي ساعدت على استغلال ثروة اخرى تكمن على الاخص في هذه المناظر الطبيعية البديعة والآثار الخالدة الجديرة بكل احترام وثناء ، وقيام الكرسي الرسولي فيها .

اوروبا الـــوسطى تحت سيطرة المانيا البسماركية

بعد ان خطت خطواتها الاولى نحو الوحدة بمساعدة فرنسا، راحت ايطاليا تتابع طريقها بمساعدة بروسيا مستغلة الى اقصى حـــد حرب عام ١٨٧٠ . فقد بقيت انظارها مسمرة نحو برلين. وجاءت قضية تونس تشدها اكثر فاكثر بالدول الجرمانية . فشق طريق سان غوتار ثم في الوقت الذي عقد فيه الحلف الثلاثي الذي رموا منه الى عزل فرنسا ووضع روسيا تحت المراقبة .

واوروبا الوسطى التي كانت لاجيال عـــديدة ساحة حرب ومعارك طاحنة ، اخذت هي

الاخرى ، بالتجمع ، فتقاسمت بلدانها ، منذ الآن فصاعداً مملكتان : هما الامبراطورية النمساوية المجرية التي سيطرت على حوض الدانوب ، والريخ الذي وحّد بين المانيا الشمالية والمانيا الجنوبية تحت سيطرة بروسيا ، وقامت بين الامبراطوريتين منافسة حادة وخصومة عنيفة انتهت بينهما الى شيء من المصالحة تمت معها السيطرة للامبراطورية الالمانية .

الريخ الالماني مجال لتطورات عظيمة

في هذه الحدود الجغرافية التي تمت لالمانيا عام ١٨٧١ وهي تكاد لا تزيد كثيراً عما تم من امثالها لفرنسا ، جاءت المانيا الجنوبية ذات النزعة الاقليمية الخاصة والطابع الزراعي ، والمانيا الوسطى ، الجبلية الطابع ، المتجزئة ، الكثيرة المعادن والاحراج ، والمانيا الرينانية التي احتلت منذ عهد قريب مرتبة صناعية وتجارية من الدرجة الاولى ، وساكس الوافرة الغنى بمواردها الزراعية والصناعية ، والسهل الشمالي المترامي الاطراف المعروف بفقره ، الواقع سواده الاكبر في بروسيا والمطل على بحرين ، فالغرب والجنوب مناطق كاثوليكية ، بينما الشمال والوسط مناطق بروتستانتية ، في هذه البلاد ثلاثة اقاليم رئيسية : بولونية كاثوليكية الى شرق ، وألزاسية لورينية الى الغرب ، معظمها من الكاثوليك ، ودانمركية الى الشمال ، سيطرت في الشمال منها منطقة تميزت باصحاب الاملاك الضخمة ، كما قام في الجنوب والغرب منطقة اخرى ، اصحاب الارض فيها من متوسطي الاملاك وصغارهم . الى هذا كله تنوع كبير : كثير من العادات القديمة واحترام البزة الرسمية والوظيفة في الدولة ، والسلطة على الاجمال ،والرضوخ لابوية فعالة والاعتداد بالعمل الذي انجز بالتعاون المشترك والرغبة في المضي بجهود جماعي موصول . فلسنا هنا امام اتحاد كنفدرالي كما هي الحال في سويسرا ، ولسنا كذلك امام اتحاد دولي كما كان الوضع من قبل في الاتحاد الجرماني . فلبروسيا السيطرة السياسية وملكها هو الامبراطور ، كما انه من المتوجب على حكومة الريخ ان تقيم الحدود مع الدويلات التي تسهم في تشكيل *Bundesrath* والرايشستاغ المنتخبين من قبل الامة جمعاء ، كما انه يترتب عليها تأمين الخدمات والمصالح الفدرالية بمواردها الخاصة .

وهذه الوحدة التي تمت في غمرة الانتصارات الداوية هي بحاجة لسلطة قوية تثبت وجودها امام هذه النزعات الاقليمية والتهديدات التي تأتي من الخارج لتأمين الازدهار للبلاد . وبسمارك الرجل الحديدي اليد الذي انشأ الريخ بقيت يده على سكان سفينة الامة يتولى توجيهها وادارتها . فهو منصرف بكليته لتوطيد عمله وترسيخه .

ان ارتفاع الطاقة البشرية في البلاد ، بين ١٨٧٠ - ١٩٠٠ ، من ٤٠ - ٥٦ مليون نسمة جعل المانيا تتيه فخراً ، فانتشار اليسر وتحسن الاحوال الصحية خفض من معدل الوفيات وزاد في معدل امد الحياة دون ان يطرأ اي هبوط او انخفاض في نسبة المواليد التي بقيت قوية . وحركة الهجرة جرفت من البلاد عددا من الفقراء ، والاقبال على حركة النزوح الى المدن بلغ من إتساعه وقوة تياره بحيث اخذت البلاد تعول اكثر فاكثر ، على الصناعة والتبادل التجاري بعد ان عجزت الارض الممسكة عن تأمين الغذاء واسباب العيش لمن عليها . فبينما كانت البلاد في الامس

الغابر تصدر الحبوب والماشية الى الخارج، فقد اتخذت لها شعاراً الكلمات التالية *Verkehr* و *Handel* هذه الكلمات نفسها التي كانت شعار الاتحاد الجمركي المعروف بـ *Zollverein* فالعمل الريفي يأخذ بالالباب لنشاطه الجم ، محاولا ان يزيد من انتاجية هـذا السهل الرسوبي الممتد طولانياً من مونستر الى سيليزيا فيستصلح هذه الاراضي الرملية والبطاح العديدة ليجعل منها اراضي صالحة للزراعة تمتد من الـ *Geest* في الشمال الغربي حتى المقاطعات البولونية لتعطي اولى غلالها من البطاطا والشمندر السكري ، والخنزير وحشيشة الدينار دون ان يغني هـذا الانتاج عن شراء ما تحتاج اليه البلاد من الحبوب والثمار والخشب . فالارض تتوقع كل شيء من الصناعة ووسائل النقل بعد ان تؤمن لها ما هي بحاجة اليه من الآلات الزراعية والمخصبات ، ومثال هذه المحاصيل تتجة نحو مراكز السكن الكبرى المعروفة بضخامة استهلاكها . وهـذه الصناعة القديمة التي اعتادت ان تنتج عدداً كبيراً من الادوات والمصنوعات الرخيصة ، إنضمت اليها منظمات تجارية قوية سهل تأليفها توفر رؤوس اموال ضخمة ، بعد ان عرفت كيف تفيد من النظام الاجتماعي المسيطر على البلاد ومن جرأة الاساليب العلمية التي هي قيدالاستعمال. وقد برز باكرا ، عالم من الاعمال والمشروعات الجماعية رمت الى تأمين حركة بيع وتنفيق ضخمة في الداخل والخارج ، على السواء تتناول المنسوجات والمصنوعات المعدنية والمواد الكيماوية والبناء وهي نشاطات توزعت مقوماتها بين مقاطعات رينانيا وساكس وبرلين ومرافىء البحر الشمالي بفضل شبكة ممتازة من الخطوط الحديدية والاقنية المائية من المرتبة الاولى ، وبفضل اسطول تجـاري يبشر بطلوع نشاط واسع . فالبورجوازي هو الذي في شخصفربتاخ وآل سودرمان وآل هنريخ مان يطبع هذه الرصانة الهادئة الرزينة والثقيلة الوطأة نوعاً .

فأولو الامر يصرفون جهدهم الاكبر لتوحيد العمل واذكاء النشاط في قفير النحـل الذي تمثله الامة الالمانية . فالهدف الاول من السياسة الالمانية هو تسخير الربح في خـدمة الاقتصاد الوطني. ولهذا بذلت الجهود ليس لتوحيد التشريع في البلاد فحسب كتوحيد المكاييل والموازين واصدار نقد واحد موحد لكل المانيا ، هو المارك ، بل ايضاً رصد مبالغ طائلة للاشغال العامة وللنفقات الحربية، فالجيش الالماني يجب ان يكون الاول بين جيوش اوروبا كلها . واذا لم يكن في مقدور الريخ فرض ضرائب على الاشخاص المسجلة اسماؤهم ، وهو امر من اختصاص الولايات استطاع مع ذلك تأمين الموارد اللازمة ، عن طريق قروض داخلية ورسوم جديدة تفرض على الاستهلاك . والرجوع الى سياسة الحماية الجمركية ، عام ١٨٧٩ ، يجب رده جزئياً ، الى حاجة الخزينة . فبسمارك في نقاش وحوار لا ينتهي مع مجلس النواب لاقرار الموازنة العامة .

فقبل عام ١٨٧٠ كان ارباب الاراضي الضخمة، المحافظون والمعروفون بعصبيتهم البروسيانية والوثرية ، على خصام وجدل مع الوطنيين الاحرار هؤلاء البورجوازيين الذين يحرصون شديداً على النظام مع تأييدهم النظام البرلماني . وكان بسمارك قد قطع لهؤلاء ولأولئك ضمانة ، اذ قبل الاخذ بمبدأ الاقتراع العام ، ودون ان يسمح بتطبيق هذا القانون ، في جميع انحـاء الامبراطورية

الالمانية اذ ان صلاحيات الرايخشستاغ كانت مقيدة ومحـدودة ، بينما كان سلطان الامبراطور وصلاحياته واسعة جداً ، فبعد الحرب كان خوفه من الحزب الديموقراطي الاشتراكي الذي برز للوجود من عهد قريب اخف مما سببت له معارضة الحزب الكاثوليكي من قلق ، هـذا الحزب الذي يمكن ان تنضم اليه الاقليات البولونية والالزاس واللورين . فـراح يحاربهم بسياسـة Kulturkanpf يشد من ازره اللوثريون والوطنيون الاحرار . وفي عام ١٨٧٩ ، قلب ظهر المجن لهذا الفريق الذي طالما مالأه ، وعدل عن نظام التبادل التجاري الحر ، وقام بحركة تقارب من حزب الفلاحين المحافظين ، واستخدم ضـد الحزب الاشتراكي ، تارة الضغط والاكراه ، وطورا تشريعاً اجتماعياً لم يكن ارباب العمل يرضون الاخذ به بطيبة خاطر ، على طريقـة المطران كتلير واصحاب الاراضي .

وفي تلك الغضون راحت الازمة الاقتصادية الخانقة تفرض على البلاد في عداد ما تتطلب من مشاريع ، انشاء سوق واسعة تستطيع ان تزاحم الاسواق الكبرى في الخارج. الا ان الدفـع الاقتصادي يتوقف قبل كل شيء على التنفيق والتسويق وقد عقب عهد الوحدة ، عهد الامتداد عهد « السياسة العالمية » .

وعندما دشن الامبراطور غليوم الثاني « العهد الجديد » ، كان المجتمع الالماني قـد حقق نجاحات ضخمة في مجال الازدهار والرفاهية المادية صحيح ان نصيب الفلاح والعامل من هذا الرفه كان اقل جداً مما ناله كبار الملاكين وارباب العمال وكبـار الموظفين . غير ان الوفر المدخر العظيم الذي امكن تحقيقه ، وأهمية رؤوس الاموال التي امكن استثمارها ، كل ذلك جاء دليلا على نمو الطاقة المالية . وحركة تخطيط اصلاح المدن ، انما تدل ، مهما تباينت الآراء من الوجهة الجمالية ، كما يدل التصنيع ، على هذه الإدارة الجبارة ، نحو ما هو ضخم ، عملاق . ومهما يكن هذا التوزيع الموسيقي الذي تم على يد واغنر ، فكل شيء يخضع لمستلزمات الجماعة ومقتضيات الضخامة ، مدنية جماعية . فالانسان فيها يربط نشاطه الفردي بهذه الانشاءات الوطنية بقصد تأمين ازدهار المجموع . فالفرد يضيع في المجتمع . وهذا التعاضد والترابط يقتل روح الاصالة في الفرد . فمن رأي نيتشه : « القوة تخبل العقل » ، « ولا يمكن بصورة من الصور ، الادعـاء والتبجح بتحقيق انتصار الحضارة الالمانية » . فعبـارة القوة توشك ان تسكر المانيا الشاعرة بقيمتها والمشبعة بفكرة تفوقها .

الفصل السادس

أوروبا الشرقية ويقظة الصقالبة

لا نرى قط ان مصائر البشرية جمعاء منوطة باوروبا
الغربية وحدها (اسكندر هارزن ـ ١٨٥١)

بروز اوروبا الشرقية

بعد الخط الممتد من همبورغ الى تريستا ، تأخذ القارة الاوروبية بالتكشف والتضخم . فالمناظر التي تتعاقب تحت انظار المسافر تشير بانه يودع ، شيئاً فشيئاً استطالة العالم القديم في الغرب ليوغل اكثر فاكثر في قلب العالم القديم ، حيث تقع العين على اقطار اكثر اتساعاً وجبال شجراء وسهول فسيحة الأرجاء ، وطرق تندر وتقل ، وشبكة من الخطوط الحديدية مخلخلة العرى . وألوان الطعام تغيرت وتبدلت فحلت العصيدة محل الخبز ، وصرنا نلمح الواناً من الطعام بينها الـ *Barszcz* وهو مزيج من الملفوف والشمندر ، والـ *Braga* وهو ضرب من النبيذ المستخرج من الذرة البيضاء يشبه الـ *Kvass* الروسي (بينما يستطيب الالماني صنف الشوكروت مع الجعة) ، وتناءت المدن وتباعدت وهي اقرب الى القصبة من المدينة ، بكنائسها البيزنطية وشوارعها المتعرجة التي يبدو عليها الاهمال . في هذه المجتمعات البشرية ، كثيراً ما نرى تجمعات يهودية عديدة تؤلف احياناً غالبية السكان ، تستأثر بالتجارة واحياناً بالصناعة ، تتكلم اليهودية وتسكن حارات خاصة بها واحياء تنقطع اليها وتنعزل عن باقي الجماعات ، ترك شاغال لنا عنها العديد من الصور والرسوم . وقد تبلبلت فيها اللغات واللهجات المحكية وتنافرت لتصل احياناً الى عشر لغات مختلفة ، كما هي الحال مثلا في مدينة لفوف [1] كما تعددت الاديان والمذاهب والمعتقدات ، كما في فيلنا (حيث وُجد ١١ ملة أو طائفة) . ومدينة بوذابست هي بمثابة جزيرة من طراز أوروبا الوسطى في وسط ريف على الزي الشرقي . ودالماتيا تؤلف واجهة من طابع لاتيني هي الباب الخلفي او البراني للبلقان . وهذا التشيكي في براغ يختلف تماماً عن هذا السلوفاكي في تتراس اختلاف الاسرائيلي في فيينا عن ابن دينه في الكربات الروتينية أو في البوكوفين .

وتضم الامبراطورية الالمانية ضمن وحدتها المتراصة جزءاً - بولونيا - من اوروبا الشرقية ليجد نفسه في وسط اكبر واقوى شعب في اوروبا الوسطى . اما في حوض نهر الدانوب فالأمر يبدو اكثر تعقيداً .

---

(١) ـ بيا ليستوك . من هذه المدينة الاخيرة طلع الدكتور زمنهوف الذي وضع سنة ١٨٨٧ ، لغة الاسبرنتو .

الشراكة النمساوية المجرية في حوض الدانوب

على إثر معركة سادوا التي كان من بعض آثارها ان تبعد النمسا عن المانيا وتقضي على الاتحاد الكونفدرالي الذي انشيء عام ١٨١٥، توصلت فيينا الى تحقيق التفاهم مع بودابست ، هذا التفاهم الذي تحولت ملكية آل هبسبورغ القديمة بموجبه الى دولة مزدوجة قامت على الـ *Ausgleich* الذي تم عقده بين الطرفين عام ١٨٦٧ ، فخرج بموجبه الى عالم السياسة مسمى جديد هو النمسا ـ المجر أو المجر النمسا على حد سواء، فوضع بذلك مملكة القديس اسطفانس والنمسا على قدم المساواة ، وبعبارة أخرى اكثر لباقة دبلوماسية ، وحد بين ترانسليتانيا ما وراء النهر وترانسليتانيا عبر النهر .

وهكذا ضمنت اسرة هبسبورغ العريقة لنفسها البقاء وحمل رئيسها لقب الامبراطور الملك، رمزها النسر ذو الرأسين رمز الاستمرار والوحدة . وبالرغم من قلب الدهر له ظهر المجن ، فقد عرف الامبراطور فرنسوا جوزف ان يحافظ على مركزه ومكانته عن طريق انصراف البلاد الخاضعة له ، للعمل المثمر وطول عهده المديد في الحكم . فقد كان عهده عهد حكم مطلق ، خفف من حدته التكاسل الذي طبع حياة فيينا التي عرفت بنعومتها ورقتها . وكان تعلق السكان بالاسرة المالكة تعلقاً قوياً مخلصاً ، كما كان الجهاز العسكري فيها متيناً والشرطة يقظة .

وقد ألف الحوض الدانوبي ، الى هذا كله، مجموعاً طبيعياً متكاملاً متكافلاً لو تناثرت اجزاؤه وتفككت لأنزل ذلك به كارثة اقتصادية تأثر الجميع من عقابيلها الوخيمة . ومع انها ادركت متأخرة عهد التطور الرأسمالي والاقتصادي ، وكانت وسائل المواصلات فيها فقيرة ضيقة ، فلم تبرهن اسرة آل هبسبورغ عن مقدرة تستطيع معها رفع مستوى حياة الشعب المتأخر تحت حكمها . فاللجوء الى الغرب ، بعد عام ١٨٤٨، ورؤوس الأموال اللازمة للنهوض بأسباب التطور وقطع مراحله حثيثاً ، لم يسمح للامبراطور فرنسوا جوزف الوقوف في وجه الاتحاد الجمركي الألماني (*Zollverein*) فاستطاعت بروسيا ان تؤمن لها الغلبة في ساحة الوغى. الا ان الولايات التابعة للتاج بالوراثة كانت غنية بمواردها الجيولوجية وتتوفر فيها يد عاملة لم تكن متطلبة . ولا تزال مقاطعات ستيريا وكارنتيا والنمسا العليا والسفلى ولا سيما بوهيميا تنعم بشهرة صناعية واسعة عَرفت ان تحققها منذ عهد بعيد . واملاك التاج في هنغاريا ، وهي املاك ضخمة واسعة جداً ، تُردفُ بمواردها الزراعية والرعوية الغنية ، الغلال والمحاصيل التي تعطيها سيسليتانيا من الحبوب والشمندر والمراعي . وهكذا يمكن اعتبار هذه الشراكة الثنائية أو المزدوجة ، سوقين استهلاكيتين تكمل الواحدة الأخرى .

هنالك ، مع ذلك ، فوارق ونزعات لا بد للمؤرخ من ان يلحظها ويأخذها بعين الاعتبار . فالصناعة، في النمسا، كانت بحاجة لسياسة حماية جمركية ، ومثل هذه السياسة لم تكن هنغاريا تتمناها أو تريدها باعتبارها بلداً مصدراً للحبوب والمحاصيل الزراعية . ولذا كان لا بُد من التوفيق بين مطلب الزراعيين واصحاب رؤوس الأموال الصناعيين . وهذا ما رمى اليه بالفعل الاتفاق الذي توصل الجانبان الى عقده، واعادة النظر فيه كل سنتين، على ضوء الاوضاع الراهنة .

ومقابل الفوائد التي أمنها هذا الاتفاق الحبي رأت النمسا تعويضاً لها عن غبن لحق بها فرض تعريفة مرتفعة . وفي أثر أزمة عام ١٨٧٣ التي جاءت أخف وطأة على المنطقة الوسطى الشرقية منها في تلك المنطقة الصناعية الاكثر تطوراً، فقد انفتح في وجهها باب البلقان بفضل الاتفاقات التي تم عقدها مع كل من صربيا ورومانيا ، وبفضل التعريفة الاكثر رعاية عرفت مرافىء وموانىء البحر الادرياتيكي أمثال تريستا وفيومي ، ازدهاراً كبيراً .

فكبار الملاكين والبورجوازية هما القوتان الاجتماعيتان اللتان نسجت وقائع تنافسهما حيناً ، واتفاقهما احياناً ، وتطوراتها ، تاريخ هذه الملكية الثنائية . فالارستوقراطية التشيكية الالمانية في بوهيميا ، والبولونية في غاليسيا ، والمجرية في هنغاريا أحكمت السيطرة على مداخل السلطة ومخارجها . فقد عرفت ، بما تم لها من ثقافة وخبرات واسعة ، كيف تتخذ لها بدأ من الاستثمارات الكبيرة لادخال التصنيع الآلي الى البلاد ولتطوير الاساليب الزراعية فيها . فهذه الارستوقراطية تصدر الحبوب وتشحنها الى الخارج بينما عدد كبير من سكان البلاد يتضورون جوعاً ويضطرون للنزوح عن البلاد . صحيح ان هبوط اسعار المواد الزراعية ترك أثره العميق على الارباح وعلى ريع الاملاك ، ولذا راحت الاسر الكبيرة العريقة النسب تطالب بالحاح ، اكثر من أي وقت مضى ، ان توقف عليها الوظائف الكبرى ، كما اخذت تهتم ، من جهة أخرى ، بالنشاطات الصناعية .

وعندما اشتد ساعد البورجوازية اخذت بمهاجمة المؤسسات الارستوقراطية والاكليريكية ، كما اخذت تطالب بعلمانية الدولة وتحقيق الوحدة الادارية التي من شأنها ان تيسر كثيراً المعاملات الرسمية ، فقد استطاع اليهود ان يؤمنوا سيطرتهم على المهن الحرة وعلى مرافق التجارة في البلاد (ففي الجنازات والمعاهد العليا اربعة من اصل خمسة هم من اليهود الامر الذي شحن النفوس بعداء مستحكم للسامية) . وبدافع من رجال الفكر والادب هب على البلاد تيار اشتراكي قوي وجد له عدداً من المؤيدين والانصار بين العمال في فيينا والمراكز الصناعية الاخرى . ووقعت اضطرابات وقلاقل اجتماعية ، سنة ١٨٤٨ ، ومنذ ذلك الحين رأت الملكية الثنائية نفسها عرضة للاضرابات وللفتن الريفية .

فقد ألفت العناصر الموجهة في قلب الطبقات العالية ، اقلية ضئيلة رفلت بجميع اسباب الراحة والرفه في المجتمعات الكبيرة وفي القصور . فهل من داع الى رهن اراضيه وأطيانه هذا المالك الكبير الذي كثر لديه الحشم والخدم ، والذي تزخر مائدته بأطايب الوان الطعام وترفل باللذيذ الفاخر من الشراب ، والذي تم له من طاقم الفضية ومجموعات السجاد والطنافس والخيول الأصيلة والعربات ، والذي يقيم له الحدائق والرياض الغناء (فالاملاك التي تخص الارشيدوق جوزف في كونتية فيجر والتي نسقت على الطراز الانكليزي حدائقها وبساتينها ، تمتعت بشهرة واسعة من حيث تنسيقها) ويقوم في فيينا مجتمع ثقيف ، مهذب ، لطيف المعشر ، متساهل ، تعشق الادب الرفيع والموسيقى واشرأبت عيناه نحو المانيا والغرب .

وبالرغم من هذا فقد عانى الامبراطور الملك من صراع القوميات . فكبار الامراء وبورجوازيو بوهيميا او غاليسيا هم على استعداد للتفاهم مع فيينا على شروط معينة . والحقيقة التي لا مماراة فيهاهي ان العنصر الجرماني الذي طبع عميقاً المؤسسات والاذواق وصناعي التفكير في الامبراطورية النمساوية القديمة لم يجر اتفاقه مع العنصر المجري الا ليتمكن من الصمود في وجه الدفع السلافي . « صونوا حدودكم نحافظ على سلامة حدودنا » كان يردد واحد من هؤلاء الذين قادوا المفاوضات التي ادت الى هذا الاتفاق [1] وهذا التفاهم الالماني المجري آل في نهاية المطاف ، الى التحالف مع برلين وبالتالي الى احتلال البوسنة والهرسك ، وكلاهما من الاراضي السلافية السكان ، فالامبراطور فرنسوا جوزف لا يلبث ان يصبح ، بعد قليل« الرفيق الجميل » للرايخ، والمجري وسيط بينهما .

في حوض الدانوب ، كما نرى ، ناجحون وفاشلون . ولعدم قيام شكل فدرالي – قد يكون من المستبعد تحقيقه – بقي التعاون بين مختلف القوميات الواقعة تحت سيطرة آل هبسبورغ .

من البحر البلطيقي الى الادرياتيكي
قوميات مستعبدة تتململ وتتمطى

والقرن التاسع عشر الذي تميز بالاستقرار جغرافياً في اوروبا ، ساعد على ترسيخ التقسيمات الجغرافية الكبرى التي وقعت الى الشرق منها ، في القرنين السابع عشر والثامن عشر لمصلحة الملكيات الثلاث : النمساوية والبروسيانية والروسية . فالاتفاق الذي تم عقده ، عام ١٨٦٧ بعد ان حدد الاهداف وعين المهام الموكولة لكلا الطرفين، : إضعاف « الاجلاف » قطع سيسليتانيا : البولونيين والروتين في مقاطعة غاليسيا ، وباعد بين السلوفاك والتشيك والسلوفين والصرب والكروات في مقاطعة دلماتيا عن اخوانهم في الدم : الكروات والصرب في هنغاريا ، واحتفظ للامبراطوية النمساوية بايطاليي البترول وتريستا وبرومانيي بوكوفينا ، كما ادمج رومانيي ترانسلفانيا في ترانسليتانيا ، كل ذلك عملاً بالقول المأثور : « فرق تَسد » .

بقيت المقاطعات البلطيقية الواقعة الى الشرق،خاضعة منذ الاجيال الوسطى للنفوذ الجرماني. فالتجارة سيطر على مرافقها الالمان فجعلوا من مدينة ريغا مدينة حلوة جميلة ، كما استولى البارونات الالمان على الاراضي الزراعية . والتعليم في جامعة دوريات (تارتو) كان يعطى بالالمانية . الا ان عدداً من كبار الملاكين اضطر لبيع املاكهم في أثر عملية الاصلاح الزراعي الذي قام بها الروس ، عام ١٨٦١ . وهكذا ظهر في البلاد ، من جهة ، طبقة من صغار الملاكين ، كما ظهرت ، من جهة ثانية ، طبقة بورجوازية محلية ، بفضل ظهور الخط الحديدي وتطور المرافىء البحرية في هذه المنطقة . وقد نتج عن ذلك ، يقظة بين القوميات ابتدأت في مجال اللغة ثم تطورت الى المجال السياسي . فاذا ما رأت الحكومة الروسية ان توجه حركة اليقظة هذه ضد التيار الجرماني ، فلم تكن لترمي من وراء ذلك ، الى اطلاق حركة انفصالية ، بل

[1] في عام ١٨٨٠ ، هنالك ٩ ملايين الماني (منهم ٨ ملايين في النمسا نفسها) ، و٦ ملايين مجري ، مقابل ١٧ – ١٨ مليون سلافي ، و٣ ملايين ونصف مليون روماني وايطالي .

رمت الى تشجيع حركة « ترويس » هذه المقاطعات وطبعها بالطابع الروسي وذلك بتحريم استعمال اللغات واللهجات الاقليمية في التعليم والمنشورات الرسمية .

وفي غراندوقية فنلندا الظليلة الاحراج والغابات، القاسية المناخ والفقيرة والتي تتمتع بشيء من الاستقلال الاداري والثقافة الروسية واللوثرية التي تغلغلت بين نبلاء البلاد والبورجوازية، لم تنتشر كثيراً بين سكان الريف الذين يتكلمون اللغة الفينية . وقد ترك الحكم القيصري هنـــا للشعور القومي ان ينمو ويشتد بحرية، وذلك لاضعاف النفوذ الالماني المسيطر من عهد قريب، كما ان الامبراطور اسكندر الثاني جرد الاكليروس البروتستانتي من حـــق الاشراف على التعليم ، وراح يوسع من الحريات المحلية بهذا المرسوم الذي اصدره عام ١٨٦٩ في اعقاب مجاعة مخيفة تضرست بها البلاد. وقد اخذ الاقتصاد الفنلندي يتطور مع استثمار صناعة الخشب والصمغيات والقطران وصنع رب الورق وعيدان الكبريت . ونما عدد السكان فيها بسرعة . واذا اخذت الحكومة الروسية تنظر شزراً الى اشتداد الحركة الوطنية واستفحالها في المنطقة ، فقد آلت على نفسهـــا ان تربط بالامبراطورية الروسية ، سوقاً ناشطة ومقاطعة لها اهميتها الخاصة من الوجهـــة الستراتيجية ، تقع على قيد غلوات من ابواب عاصمتها . وسيصادف سوورمي اوقاتاً عصيبة جـداً في أخريات هذا القرن .

فكيف السبيل لعمري الى بعث الحياة في بولونيا وهي على ما نرى مقسمة الى ثلاثـة أجزاء لكل واحد منها محور جذب وسيره الخاص ؟ غير ان الامة البولونية المتزايد سكانها، المجاهدة، الفتية ، تحافظ على وحدتها الروحية . فهذه الآمال الرومنطيقية التي راودت خيالهـــا الجموح ، ذهبت في الارض هباء منثوراً بعد الفشل الذريع الذي أصاب الثورات التي قامت بها في المنطقة الروسية ، عام ١٨٣٢ و ١٨٦٣ ، على اثر الغاء جمهورية كراكوفيا ، عام ١٨٤٦ . هـذا الكيان المهلهل الذي بقي من الاستقلال البولوني . فالارستوقراطية البولونية فشلت تماماً في مقاومتهـــا الدول الثلاث التي تقاسمت بولونيا من قبل ، كما لم يكن بالامكان مجابهتها بنجاح . وجل ما أطل من أمل مرتجى هو احتمال قيام تعاون موصول بين كبار ابنـاء غاليسيا وآل هبسبورغ ، كما ان حركة الاغتراب السياسي الكبيرة في جميع أرجاء اوروبا عجزت في محاولتهـا إثارة أي رغبة في تعديل معاهدات ١٨١٥ ، كما ان انتصار بروسيا على فرنسا عام ١٨٧٠ ، والتفاهم القائم بـــين الاباطرة الثلاثة ، أبعدت عن الانظار مثل هذا السراب الغرار ، ومنذ ذلك الحـين ، غلبت على القائمين بالحركة « النظرة الواقعية او الموضوعية » ، أي النظرة الى الواقع بالعـين المجـردة ، أي محاولة الصمود في وجه كل حركة ترمي الى « جرمنة » و « ترويس » البلاد ، والاقبال على تقوية القوى الحية الناشطة في البلاد ، الفكرية منها والمادية . ومنذ ذلك الحين اخذت تـــبرز للعيان بولونيا اكثر اخذاً بأسباب العصر ، واكثر إقبالاً على أسباب التصنيع ، مع العلم ان نشاطاتهـا الرئيسية تسيطر عليها العناصر اليهودية والالمانية . كذلك اخذ يبرز الضمير الوطني اكثر تحرراً بـــين البورجوازيـين الاحـداث واكثر اشتراكية بين رجال الفكر والادب واكثرهم من طبقة

البروليتاريا الذين راحوا يعولون على الدور الذي ستلعبه ، في المستقبل الطالع ، حركة عمالية ناشطة . ففي الشطر الالماني ، راح الفلاحون ورجال الاكليروس الكاثوليكي يقودون حركة الصمود في وجه عملية « جرمنة » البلاد الواسعة ، في المدرسة والريف . أما في الشطر الروسي فقد آلت حركة « ترويس » البولونيين الى نشر الامية بين جماهير الشعب . وعلى عكس ذلك برز الوضع في غاليسيا ، أي في الشطر النمساوي حيث سيطر جو حليم خفيف الوطأة ، اذ تمتعت المقاطعة بشيء من الاستقلال الاداري والثقافي جاء يوثق من روابط الاتفاق الذي شد الروابط بين أعيان المقاطعة من جهة ، وبين حكومة فيينا التي أخذت تشجع تدريس البولونية في مقاطعة لفوف (ليوبول) ، هذه المقاطعة التي ألفت مع كراكوفيا ، مشعلا للآداب ومنارة للعلوم والفنون . وهذه البرودة التي دبت الى العلاقات بين روسيا وبين الامبراطوريتين المركزيتين الاخريين ، ساعدت بدورها على بعث الامل في قرب انبعاث بولونيا الى الوجود .

وتاريخ الاقلية التشيكية اخذ بجراه ضمن الملكية النمساوية . ففي بوهيميا نفسها ترى العنصرين الالماني والتشيكي تارة على وفاق وطوراً في خصام . فالاول منهما ، اي الالماني ، يحتل المنطقة الجبلية الغنية بمعادنها واحراجها ونشطت فيها ، كما هي الحال في ساكس وفي سيليزيا ، صناعة النسيج . أما الثاني ، فيسكن التجويف الجغرافي الذي يحيق بالعاصمة براغ التاريخية ، وبمدينة بلزن المعروفة بصناعتها الحديدية ويطالب عاليا « بحقوقه التاريخية » في هذه المقاطعات التاريخية التي خصت عرش الملك فنسسلاس ، اي باعادة مملكة بوهيميا الى الوجود ، ومن ضمنها مورافيا وسيليزيا . هنالك ارستوقراطية تشيكية ألمانية ألفت التعاون مع فيينا وراحت تعتمد في نشاطها السياسي ، على آل هبسبورغ ، كما قام من جهة أخرى ، بين بوهيميا والنمسا روابط اقتصادية متينة . وهذا الوضع بالذات حمل بلاتشكي على التصريح بعد الفشل الذي اصيبت به حركة الجامعة السلافية الفدرالية ، عام ١٨٤٨ ، قائلا : « لو لم توجد الامبراطورية النمساوية من عهد بعيد ، لوجب العمل على انشائها في الحال لخير اوروبا جمعاء » . ولذا جاء الاتفاق (بين النمسا والمجر) صدمة عنيفة للحركة النمسارية السلافية التي لم تكن لتحقق في قلب مقاطعة سيسليتانيا ، سوى تنازلات جزئية ، كازدواجية اللغة مثلا وكانشاء جامعة تشيكية . وبذلك اخفقت المساعي الى عقد اتفاق نمساوي تشيكي شبيه بالاتفاق المجري الكرواتي . والحال فالشعب التشيكي المعروف بخصب تناسله ، اخذ يحقق شيئا من السيطرة في هذه المناطق المتعددة ، وأخذت طبقة من البروليتاريا الصناعية وبورجوازية تجارية تزيل تدريجياً الطابع الجرماني العالق ببراغ وبلزن ، بينما راحت الطبقة التشيكية المفكرة ، تنبذ هي الاخرى ، الثقافة الالمانية . وقام في وجه حزب « قدامى التشيك » الذي أخذ نفوذهم الهبوط وحزب التشيك « الفتاة » الذي رفض التسليم أو القبول بسقوط الحقوق التاريخية ، وراح يطالب بانشاء دولة تشيكية ديموقراطية . وهكذا حوالي عام ١٨٩٠ ، وجه الاستاذ توماس مازارين التشيك والسلوفاك نحو الاتحاد معاً لدك السيطرة المجرية النمساوية . فقد حاول اجتذاب الفلاح السلوفاني في تتراس نحو بوهيميا وهو اكثر تطوراً موصياً بأن الهجوم

يجب ان يتجه ضد بودابست وفيينا على السواء .

بين الشعوب التي خضعت للملكية الهبسبورغية كان الشعب المجري هو اول من يستفيد من هذا الاتفاق . فاذا ما أطلت علينا حركة « مجيرَّة » قبل عام ١٨٦٧ ، واذا ما رفض الزعيم المجري كوسوت عام ١٨٤٨ للأقليات الاخرى، في مملكة القديس اسطفانس القديمة ما يطالب به هو اليوم للمجر، راح اولو الامر في بودابست يمارسون ضغطهم الشديد عندما وُضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ . « فعلى هنغاريا ان تبقى هنغاريا او تموت » ، بهذا كان يصرح كولومان تيزا . وهجوم المجري على الروماني اتسم بالعنف ، هذا الروماني الذي نزح من جبـــال ترانسلفانيا الشجراء ليستقر في مقاطعة باتات وضواحي بيهور ، وكذلك هجومه على الصربي القابع في مـــا بين النهرين البانوني ، بالرغم من الاتفاق المعقود بينهما عام ١٨٦٨ والموجه ضد الكروات عـــلى الاخص . وهذا المجري المتمركز في الوسط الذي يرى تحت تصرفه الموظفين ويستخدم في سبيل تحقيق اغراضه الثكنة والمدرسة والجريدة والاكليروس والاحصاءات بعد أن يجري فيها تلاعباً وتزويراً ، يحاول أن يبسط سيطرته على المناطق الدائرية . فقد جاءت النتائج مشوشة ، مضللة للرأي العام في الخارج . والضغط ولد دوماً ردات فعل عكسية ، فدفع بالسلوفاك باتجاه براغ ، وفتح الطريق أمام حزب وطني جديد في رومانيا ، وحمل الصرب على الاتجاه بنواظرهم نحـــو بلغراد ، وعمل على إثارة واهاجة الحركة اليوغسلافية التي الفت خطراً يحسب لها الف حساب في هنغاريا المجرية .

ويمتمل صقالبة الجنوب بتيارات متضادة . هنالك بالفعل ثلاث أقليات سلافية : اثنتان منها ترسفان تحت حكم آل هبسبورغ من عهد بعيد هما السلوفين والكروات وتتجهان بأنظارهما نحو فيينا ونحو روما كذلك، بوصف سكانها من رعايا الكنيسة الكاثوليكية ، ولا يزال طرياً في الاذهان ذكر مرور الفرنسيين في إلليريا والمناداة باستقلالها القصير . اما الاقلية الثالثة ، وهي اكبرها على الاطلاق ، فتتألف من هـــؤلاء الصرب المستقيمي الرأي أو العقيدة الذين خضعوا أجيالا طوالاً ، للسيطرة العثمانية ، مما حمل قسماً منهم على اعتناق الاسلام. من هنا: صربيا التي تحاول ان تلعب من بلغراد، نحو الاتراك ، الدور الذي لعبه البيامونت ، ومن هناك زغرب التي قد تصبح عاصمة اتحادية لثلاث اقليات هي كرواتية وسلافونية ودالماتية (*La Troyadna*) . وقد لعب الامبراطور فرنسوا جوزف آخر ورقة بيده هي حركة اوسترو سلافية اخـــرى . فالفريق الكرواتي بزعامة جيلاتشيتش قام يرد على تعنت كوسوت كرجع صدى لبالاتشكي : « لو لم تكن النمسا موجودة لوجب ايجادها في الحال » . برنامج يوغسلافي هـــذه المرة ، يضعه كرواتي ويدور حول الكروات . فبينما كانت صربيا تتحرك دائرة على نفسها ، فضلت فيينا ان تدخل في مفاوضات مع المجر وتوفقت الى ابعاد السلوفينيين عن الكروات فتلقي بهؤلاء الى ايـــدي المجر بينما تحتفظ هي لنفسها ، بهذا الحزب من مقاطعة دالماتيا التي تقطنه أقلية صربية كرواتية الى جانب اقلية ايطالية اخرى . فكان على كرواتيا ان تنزل عند هـــذا الاتفاق

الغامض الذي وقعه قوم يجيشون كراهية للحركة الصربية ، فلم يبقَ من ثم أي محل ، بعد هذا التدبير ، لالليريا . وتوترت على الأثر العلاقات بين بودابست وزغرب في الوقت الذي راحت فيه المملكة الثنائية ترافع عن الكاثوليك والمسلمين ضد الارثوذكس في مقاطعتي البوسنه والهرسك التي احتلتها عام ١٨٧٨ . وهكذا لم نَعُد ببعيدين عن هذا اليوم الذي ستشهد فيه الجامعة البوغوسلافية وقوع انهيار الامبراطورية النمساوية ـ المجرية وتفسخها لمنفعة صربيا الكبرى.

وهكذا من البلطيق الى الادرياتيك، اشتد هياج الاقليات الواقعة تحت الضغط بالرغم من التطور الذي اصاب مرافق البلاد الاقتصادية ، في الامبراطوريتين الالمانية والنمساوية . ومما هو انكى من هذا كله واوقع في النفس هـو ان تصبح هذه المنطقة مكمناً للخطر يهدد السلام في اوروبا .

تقهقر تركيا وبروز الدول البلقانية

والوضع السياسي في البلقان يبدو كثير المزالق واكثر ميوعة. فشبه الجزيرة البلقانية هذه التي تتقاسمها الجبال العالية وتجعل منها مناطق موصدة وحجيرات شبه مغلقة ، لا تضم ، بخلاف شبه الجزيرة الايبرية المقابلة في الطرف الآخر من البحر المتوسط ، أي صعيد في وسطها ، واصبحت على قاب قوسين وادنى من تحررها من نير الاتراك العثمانيين وعبوديتهم . نحن هنا أمام فتح مسيحي جديد . فقد حلت التجزئة محل الوحدة الاسمية ، وقد استفحل تدخل الدول الاوروبية في هذه المنطقة التي وقعت في صلب ما يعرف بالقضية الشرقية التي تعني النظر في أمر وراثة أو التصرف بتركة « الرجل المريض » ، اذ نرى من جهة ، الروس يشرئبون بأعناقهم الى القسطنطينية والى المضايق ، كما نرى من جهة أخرى البريطانيين يقفون في وجههم ويقطعون عليهم الطريق، كما نرى الضغط الجرماني المجري يشتد ليتجه من حوض الدانوب السفلي شطر بحر ايجيه ومنافذ البحر الادرياتيكي . لعبة متشعبة ، معقدة ، يملل فيها الاتراك النفس بالأمل ان يفضي هذا التنافس الى ترسيخ اقدامهم كما تملل القوميات التي تتحرك وتحور في هذه المنطقة النفس بأمل الاستقلال على ان تجد بين الدول الاوروبية الكبرى من ينصرها ويقف الى جانبها . وهكذا فطلوع هذه الدول البلقانية وإطلالتها على الدنيا ، تتم نهزة نهزة ، وفقاً لمـاجريات السياسة الاوروبية .

فقد فرضت هذه السياسة على السلطة العثمانية ، في مطلع القرن العشرين ، الاعتراف باستقلال اليونان ، وهي سابقة حرصت قوميات عديدة على تذكرها في اليوم العصيب . ولكن دولة اليونان هذه التي برزت عام ١٨٢٩ ، جاءت دولة فقيرة ، « قاحلة جرداء » في معظم مناطقها ـ هكذا تبدت للامارتين ، عام ١٨٣٢ ـ لا مال عندها ولا حكومة ، قوامها وكيانها يتألف من مقاطعة الاتيك وجزيرة أوبيه ومقاطعة البلوبونيز القديمة (الموره) وجزر السيكلاد ، وهي تتأرجح بين النفوذ الروسي والنفوذ البريطاني . ومع ذلك فسيتنازل لها الانكليز عن الجزر الايونية ، ثم حالفها الحظ فضمت اليها مقاطعة تساليا وفكرت جدياً بضم جزيرة كريت ومقاطعتي الأبير ومقدونيا ، كما اتجهت بأنظارها نحو شواطىء إيجيه الآسيوية : حركة ضم وتوحيد

جريئة لعمري ، اذا ما نظرنا الى ضعف وسائل التنفيذ والعمل المتيسرة لديها . فحق الاقتراع العام يفعل فعله ، كما ان الأقبال على العلم والتعلم ينبض في كل صدر . الا ان الاقتصاد الوطني يشكو من الفقر المدقع كما ان الحاجة الشديدة للفنيين ولرؤوس الأموال مقعدة لها مرزحة ، اذ ان تحصيل العلم يفضي بطالبه الى مزاولة المهن الحرة والى الوظائف العامة والى المراكز ذات المرتبك المغريات والى المعترك السياسي . واثينا التي كانت قصبة صغيرة عند الاستقلال ، ألبانية الطابع والسمة اكثر منها يونانية ، قفز عدد سكانها من ١٥ ألف عند المناداة بها عاصمة للبلاد الى ١٠٠،٠٠٠ شقت فيها الجادات الواسعة في وقت عجزت فيه مرافق الزراعة عن تأمين إعالة السكان الآخذ عددهم بالازدياد بسرعة ، فبعد ان عطلت قلة المواصلات وافتقار البلاد للادوات والاجهزة المسعفة كل حركة . وسوء توزيع الملكية في البلاد وتوزيع الاقطاعات التركية لم يحل قط دون بقاء اصحاب الاملاك الضخمة يرزحون تحت وطأة الضرائب والاعشار . فالاغريقي يؤثر التجارة ، وهنالك جانب كبير من الاغارقة يعملون خارج هـذه المملكة الصغيرة التي أمدتها بافاريا بملك من عندها عقبه ملك آخر من الدانمارك ، على أمـل أن يبقى هؤلاء الامراء فوق الحزبيات المحلية التي تتطاحن فيما بينها للاستئثار بأكبر عدد من المنافع . هذا هو لعمري وضع الاعجوبة اليونانية .

وهذه اليونان التي تؤلف شبه جزيرة صغيرة في قلب شبه الجزيرة البلقانية مع ما اليها من جزر متناثرة ، تشعر في الصميم ، انها تتصل بالبحر الابيض المتوسط بكل جوارحها . اما القوميات البلقانية الاخرى التي تتسم بالاحرى بالطـابع القاري الشرقي ، فهي تمور وتتحرك ضمن حدود مبهمة لا تستقر على وضع ولا على حال .

هنالك اين تأنه للحركة السلافية يحتل في هذه الجبال الوعرة المسالك ، عش نسر لا يرام ، يخضع لسيطرة العثمانيين . هذا البلد يعرف عند الاتراك باسم : كراداغ وعند الايطاليين بالجبل الاسود ، وعند اليوغوسلاف بـ *Tserno Gora* ويطل من عَل على نهـر كوتور (كاتارو) . وتؤدي الى هذه الامارة الشيوقراطية التي يؤول الامر فيها لآل بتروفتش نيغوش ومن اليهم من هؤلاء الاقوام الرعاة الذين يتراوح عددهم بـين ٢٠٠ و ٢٥٠ ألف نسمة ، الطريق الوحيدة المعبد لعربات الجر . فهو يكاد لا يظهر على الخريطة الجغرافية ، ومع ذلـك فقد كان حصناً حصيناً من حصون الحركة الصربية منذ ان لاقت صربيا دوشان حتفهـا في معركة كوسوفو الطاحنة .

وتبعث صربيا من جديد ، ولو ببطء فتقتطع محلا لها تحت الشمس ليس بـين انهار بانونيا ، بل عند ملتقى نهري الدانوب والساف فيجريا معاً في وادي موارافا باتجـاه مقدونيا . وهؤلاء الانكشارية الذين اتخذوا من قلعـة بلغراد حصناً حريزاً لم يهدأ يوماً لهم روع ولا بال منذ ان تلاحق على مهاجمتهم ، دونما ملل ، هؤلاء الفلاحون الخوارج الاشداء من سكان المقاطعات

المجاورة يربون قطعان الخنازير في غابة البلوط القريبة ، « غابة عذراء » في عيني لامارتين الذي زارها عـــام ١٨٢٩ . وميلوخ اوبرنيوفتش الذي اعلن نفسه رئيساً اعلى *Knez* للامة الصربية كان احد مربي الخنازير ، على شاكلة كارا جورج الذي تولى قيادة الثورة في عهد نابليون وراحت الامارة الصربية تجاهد صابرة ، دونها ضجة في الظاهر ، وتناضل في سبيل التحرر من ربقـــة الاتراك العثمانيين ، محاولة التوسع عبر مجاز نهر المورافا. الا انها عجزت عن الوصول الى احواض مقدونيا ، كما فشلت في محاولتها الاتصال بالشقيق الجبل الاسود . فقد استطاع الاتراك الاحتفاظ بالمجازات التي تفضي من تراقيا الى شواطىء البانيا والى البوسنة . وقد أقصيت ، هـــذه الاخيرة ، عام ١٨٧٨ ، من الدولة السلافية الجنوبية ، التي تخلت عنها روسيا وتركتها وشأنها ، برهة من الدهر ، لتقع تحت تابعية الامبراطورية الاوسترو – مجرية الاقتصادية . وبعد ان حيل بينها وبين البحر وانعدمت لديها كل الامكانات والوسائل الضرورية واصبحت عالة على القروض التي تأتيها من الخارج ، وبقيت مملكة آل اوبرينوفيتش ، حوالي عام ١٨٩٠ ، بلداً فقيراً سكانه الفلاحون يتكاثرون وينمون بسرعة تشدهم بعضاً الى بعض وشائج القربى والتماسك مع مجتمعهم . ومـــع ذلك،لن يلبث هذا الشعب الفخور، المناضل الذين لا يزيد عدد سكانه على مليوني نسمة ان يصبح مناط امل اليوغسلافيين الوطنيين الذين نظروا اليه نظر الايطاليين الى البيامونت فكان محـور وحدتهم وعمل على جبهتين : ضد الاتراك وضد النمسا والمجر .

وقد لعبت الـ *Munte* المولداف والفـــلاخ ، في مطلع القرن التاسع عشر دوراً يشبه الدور الذي لعبته *Chaumadia* عند صغار المزارعين والرعاة الرومانيين متخلين عن الـ *Cimp* او السهل، للاسياد الروس *Boiars* الذين اخضعوا المزارعين العاملين عندهم لعبودية الارض تجار الحي اليوناني المعروف بالفنار . في استنبول فالثورة اليونانية أقصت سلطة السلطان عن الفناريين واستبدلتهم بأمراء محليين من ابناء اليونان جرى انتخابهم من قبل الـ *Boiars hospodars* الروس . ومع ان هذه الارستوقراطية الاقطاعية حررت الفلاحين واولتهم ، عام ١٨٦٤ ، حق تملك الارض ، على غرار ما فعلته الحركة الاصلاحية الزراعية في روسيا ، الا انها لم تفقـــد شيئاً من سيطرتها وبأسها بهذا الاستقلال الذي ساهم نابوليون الثالث بتحقيقه . فهي تحكم رومانيا المولدو – فالاخ تحت ستار دستور معلن ، وتفتح ابواب البلاد امـــام رؤوس الاموال الاجنبية التي تطمح الى السيطرة على ثروات البلاد من الحبوب والخشب والبترول . وهذا الاستثمار حرص على ان يبقي متدنيا ، مستوى العيش في شعب خصب التناسل ، سريع الخاطر ، حاد الذهن .

والسياسة الحزبية التي تعلن عن نفسها متحررة ، لم تحُل قط دون ثورة الفلاحين ولا دون اضطهاد الاقلية اليهودية في البلاد والغالبة الوجود في المدن . هنالك نخبة صغيرة ثقافتها فرنسية تقطن قلب بخارست تقابلها هذه الجماهير الريفية التي تتسكع في الجهل والجهـالة والـتي تفتقر في الصميم لكل جهاز وآلة ، تشاطر الحيوانات الاهلية مسكنها الذي يتألف عادة من اكواخ من اللبن او من روث البقر المجفف سقفه المعروف من القش أو من القصب ، في جو قاس منفر. هذا وضع

تفح منه رائحة الروسي الذي يصدر الحبوب في الوقت الذي يتضور الفلاح فيه جوعاً . فالوفيات بينها عالية والانسال في خصب غريب . فرومانيا التي كانت تعد عـــام ١٩٠٠ خمسة ملايـــين نسمة هي اكثر دول البلقان سكانا. فضمهم لمقاطعة دوبرودجه القفراوية على البحر الاسود لم يعوض عليهم خسارتهم لمقاطعة بسارابيا الجنوبية التي اضطروا للتخلي عنها للروس . اما هذه الاتفاقات التي توصلوا الى عقدها مع فيينا ومع برلين بتأثير الملك شارل هوهنزولرن فهي لا تنسجم كثيراً مع هذه الوشائج اللاتينية التي كثيراً ما تبجح بها سكان رومانيا المعاصرون عند الدانوب السفلي .

والى الجنوب من هذا النهر تبرز بوضوح سيطرة الاتراك. فأينما أجلت النظر وقعت منك العين على الاملاك الضخمة و «الجفتلك» التي تعود لهؤلاء البكاوات والآغاوات، والفلاح فيها مشدود الى الارض شداً وثيقاً تابعاً لها يرزح تحت الجزية والخراج . فقد سجل الاسلام هنـــا ارتدادات كثيرة تفادياً من الأهلين للطرد ولمصادرة املاكهم وأراضيهم . وهكذا اعتنق الاسلام البوماك او بلغار الرودولف ، والالبانيون في الجنوب ، وعـــدد كبير من قـــرى ودساكر الصرب في البوسنة . ومن جهة ثانية فقد أقام مزارعون اتراك لهم ، هنا وهنالك ، مزارع عديدة . وفي وادي نهر الماريزا ، حيث خضع الفلاحون لعبودية مرزحة عرفوا هنالك باسم روملي او رومي اي روماني ، الا انهم في الواقع ، من عرق البلغار ، هؤلاء البلغار الذين يرجع أصلهم البعيد الى قبائل الهونز ، تمت صقلبتهم على نطاق واسع واعتنقوا الارثوذكسية واستمسكوا بأراضيهم . وأُتيح لهم ان يؤســوا امبراطورية دامت ردحاً من الزمن ، ولم يلبثوا أن رزحوا تحت ضغط البكاوات ، عرضة للسرقة والاعتصار من قبل التجار اليونان يقنعون ، طعامـــاً لهم ، بكعكة وبعض البندورة والبصل واللبن . فللمدن طابع تركي صرف بمآذنها الشاهقة واسواقها المسقوفة . ويبدو ان يقظة الضمير القومي في هذا الشعب تمت بصعوبة .

وفجأة أطلت علينا، بدافع من أطماع قيصر روسيا، عام ١٨٧٠ أكسرخا (امارة) بلغارية كما راح دعاة الروس يحثون الفلاحين المهتاجين على الثورة ويدعونهم لانشاء دولة كبرى لهم ، تمتد من البحر الاسود حتى مشارف مقدونيا في إطار هذه الاكسرخا . والحال فقد اعتاد السلطان ان يحرك البوماك والارناؤوط المسلمين ضد سرايا الكومتياجي المسيحيين . فالفظاظات الـــتي اقترفها هؤلاء الباشبزق ، المعروفـة في التاريخ « بالمآسي البلغارية » والاضطرابات التي وقعت في المنطقة وامتدت حتى البوسنة ، كانت السبب المباشر في اشعال الحرب البلقانية عام ١٨٧٧ ، كما كانت فرصة لتدخل الجيش الروسي فسجل على الاتراك انتصاراً كلفه غالياً . غـــير ان مؤتمر الدبلوماسيين الذي عقد في برلين ، في السنة التالية لم يقر سوى قيام « أمارة مستقـــلة اداريا خاضعة لولاء السلطان ، هي بلغاريا الجنوبية التي فصلوا عنها المقاطعة الجنوبية المعروفـــة باسم الروميلي الشرقية ، بينما اوقف التقدم الروسي عبر وادي سورافيا واعترف للامبراطورية الحق بادارة البوسنة والهرسك . والثابت ان الامير اسكندر باتنبرغ اي شقيق الامبراطور اسكندر الثاني اخذ منذ عام ١٨٨٠ ، يعتبر نفسه « امير بلغاريا الشمالية والجنوبية » الا انه لم يلبث ان

اختلف والقيصر واضطر ان يرفع استقالته كما اضطر خليفته الامـــير فردينان الاول من اسرة ساكس كوبورج الملقب « برئيس الدساسين » ان يمهد الطريق لمدة طويـــلة وان يراعي جانب الدول الكبرى وان ينمي الموارد اللازمة لأمة خصب الانسال فيها والتوالد لا يقل بشيء عمـــا هي عليه جاراتها من هذا القبيل ،مدفوعة الى ذلك بما رُكز في طبيعتها من حب للعمل ومـــا فيها من عطش ورغبة في العلم اذا ما ارادت يومـــاً ان تعاود سيرتها في جمع شمـــل كل الشعب البلغاري .

الا ان تركيا لا تزال تسيطر على ممر ضيق من الاراضي ينطلق من المضايق ويستمر بلا انقطاع حتى يتصل بتراقيا وجبال رودولف بمقدونيا والبانيا والأبير حيث يؤلف الاقـــوام فسيفساء مدهشة من الشعوب والاجناس. ويقوم الى الغرب من هذا الممر العرق الالباني، كاثوليكياً كان او ارثوذكسياً او مسلماً، ويعيش مستقلا في جبال صعبة المرتقى كثيرة الانحدار، تنتهي بسهل ساحلي ضيق يمتد على سيف البحر. أما في الوسط ، فتقوم مقاطعة مقدونيا، ذات الاسم الساحر ، وهي تتألف من كتلة الجبال الصعبة ومن الناس ساكني تلك الجبال ، وهم اقوام يفتقرون الى عرقيـــة واضحة المعالم ، ينظر اليونان الى هذه المنطقة باشتهاء وازورار، كما يحدجون بأنظارهم سالونيك حيث يؤلفون ، مع اليهود ، اكثرية هؤلاء اليهود الذين قدموا من اسبانيا واستولوا على مرافق البلاد التجارية، كما ان الصرب كانوا يطالبون بها لأنفسهم تحت ستار رابطة اللهجة المحكية؛ يجوبها ظعناً بمواشيهم ، اقوام من رعاة الالبانيين والفالاخ . وفي نهاية الامر يستقر الاتراك فيها وقـــد زرعوا فيها الفوضى باهمالهم الفاضح ، وعرفوا ان يستثمروا لمصلحتهم الخاصة المنافسات الحامية بين هذه الاقليات المتباينة الاجناس والعروق . واخيراً نجد في الطرف الشرقي من هـــذا الممر ، مقاطعة تراقيا التي تؤلف مفترقاً طبيعياً للطرق المتصالبة ، وهي مقاطعة تتميز بطابعها السهلي يتشبث الاتراك بملكيتها كما يطالب بها البلغار على السواء. فهي تضم الرأسين الجغرافيين المندفعين في البحر باتجاه آسيا، احدهما يحمل عاصمة السلطنة التي تسهر الدول الكبرى العظمى على سلامتها وبقائها بغيرة وحرص كبيرين .

فهذا الجزء من اوروبا الجنوبية الشرقية ، لم يعد اوروبياً بالفعل . فبعـــد ان رزح اجيالاً متطاولة تحت وطأة الاتراك الذين اهملوا شأنه وأساؤوا استغلاله ، فقد وقع فريسة سهـــلة للتقسيمات السياسية بين قوميات مخشوشنة ، مفتولة العضلات ، حربية المزاج فقيرة الحـــال ، عرضة دوما للفوضى والاضطراب ، وهو وضع لم تحاول الدول الاوروبية الكبرى التخفيف من حدته او ادخال اي تعديل عليه . وموقف ألبانيا يذكرنا حتما بموقف مقاطعة القبائل في الجزائر كما تذكرنا مقدونيا بسوريا . اما هذه المدنية الزراعية والراعوية بما لها من عادات مجتمعية ، واعراف قومية وانماط العيش السائدة بين اقوامها، فهي تذكرنا ، وبحق، بروسيا القريبة منها .

للامبراطورية الروسية منذ حرب التحرير التي خاضتها ضد الفتح النابوليوني نفوذ كبير . فهي الحامية للنظام التقليدي السائد في اوروبا ، وهي الهادفة باستمرار ، الى تحقيق « الحلم اليوناني القديم » متابعة فتوحاتها الداوية في قلب آسيا وأطرافها الشمالية الشرقية . الا ان حرب القرم وما رافقها من شؤون وشجون وماجريات كشفت بجلاء عن عورات هذا الحكم المطلق وعن خلخلته .

هنالك سلطة تفرض الطاعة العمياء ، وشعب يأخذ بالخرافات والاساطير ، واكليروس كهنته جهلة أميون لا اخلاق لهم ولا اعتبار ، يعمل في خدمة السلطان المستبد ويأتمر بحركات بنانه ، وطبقة من اسياد الارض يتمتعون بامتيازات عريضة شريطة السير في ركاب الحكومة والنظام ومساعدتها على ابقاء الفلاح تحت ولائها ، وطبقة من الموظفين هم من البساطة والسذاجة ما يخفف كثيراً من وقع تصرفهم الكيفي ، الا ان الكسل والاهمال والعجرفة أصارتهم مكروهين من الناس . (من المبادىء التي سارت بينهم ان الكل يسرقون ، وان يسوع المسيح نفسه كان سرق لو لم تكن يداه مسمرتين على الصليب) ، وشرطة بوليسية لها محاكمها الخاصة تخضع البلاد والشعب لمراقبة شديدة ضيقة ، ولنظام حجر صحي آسر شديد يتصل نشاطه خارج روسيا ويعمل بغير علم السفارات الروسية ،وجيش بطاش هو أداة لفرض هيبة الحكم وللنظام في البلاد ،واداة الفتوحات الاستعمارية ،الا ان عدم الانضباط فتّ في عضده . أما جمهرة الفلاحين فهي حيناً راضخة مستسلمة لمصيرها ، وحيناً متذمرة متأففة من وضعها المزرى المرهق ، نزّاعة الى ردود فعل بربرية وحشية ، تكره نظارها وتحقد على وكلائها ، ألفت الحياة المجتمعية ، وتكالبت على الارض بنهم ، متخاذلة في مطالبتها بالتحرر من رق الارض وعبودية الفدانة (ظهري مطية لك يا سيدي ، اما الارض فهي لي) ، عاجزة ، مع كل هذا ، عن ادخال أي تحسين على الوضع الزري الذي يكتنفها . هنالك طبقة بورجوازية ، متوسطة وطبقة من أصحاب الحرف منصبة على العمل (« فليس في روسيا من طبقة ثالثة او طبقة الشعب » كما تلاحظ بحق مدام دي ستال) . هنالك صناعة مرتبطة بالدولة رأسا او ببعض الاسر الشريفة ،أو بأصحاب رؤوس اموال اجنبية تحميها التعريفات الرسمية، تسير في تقاليدها المرعية ،لا تحيد عنها ولا تجدد فيها . (فالامبراطورية تتوقف عن تصدير ما تنتجه من الحديد عندما لا تلاقي شاريا او زبونا يرغب فيه بينما تستمر في بيع الحبوب) وبخلاف ما نشاهد في الغرب ، فالثروة المنقولة محدودة للغاية ، والحرف اليدوية تفتقر اصلاً ، للآلة وتفضل العمل الريف حيث تتوفر لها اليد العاملة . والمدن تشبه ، في سوادها الاكبر ، قرى وضياعا كبيرة منازلها من الخشب ، بعضها يستخدم كقلاع او حصون، لها احياؤها المقفلة ولها ما يعرف عندهم بـ *Kreml* ، والحركة التجارية في البلاد مشلولة لعدم وجود طرق المواصلات يسهل معها التنقل والانتقال ، وللتضييقات المفروضة عليها من قبل الاجراءات القانونية من جهة ولقلة النقد بين ايدي الناس ، من جهة ثانية .

كل شيء في هذا الهيكل الاجتماعي القائم في البلاد ، وفي العقلية المسيطرة على الناس يقف في وجه تطور رأس المال الحر الذي يعتبر بحق ، الخمير الذي يُطلع كل ثورة اقتصادية في البلاد، وسيؤول في نهاية المطاف الى زعزعة نظام الحكم القديم السيادي ، المطلق . فكيف السبيل الى إدخال اصلاحات على المؤسسات والنظم القائمة في البلاد دون إحداث هزة عنيفة في قلب هذه الطبقة الضخمة من الفلاحين الجهلة وبدون نقل هذه الهزة الى الاقوام الاخرى ، وبالتالي دون مس وحدة البلاد وإثارة التشكك في سلطة القيصر نفسه التي عليها يرتكز كل بناء الدولة ؟ وهكذا ندرك جيداً كيف ان كاتبا مثل غوغول او تورغنيف او سلتيكوف تشيدرين الذين رسموا لنا صورة ناصعة لهذا النبيل المنحرف الاخلاق ، ولهذا الموظف المختلس، لا يستنكفون عن التنبؤ بالمستقبل الذي ينتظر مثل هذه الروسيا العفنة .

ولكن لم يكن بدّ لهذه البلاد من ان تتبنى الاساليب والاشكال الجديدة التي يقتضيها الانتاج والتبادل التجاري . فوجودها ذاته يتوقف على هذا . فالفشل الذي منيت به الجيوش الروسية امام سبستوبول تعود اسبابه البعيدة التأخر ويجب رد بواعثه الدفينة لهذا الوضع الذي رسفت فيه البلاد . فالقوة الحربية لا يمكن ان تقوم لها قائمة ما لم يدعمها اقتصاد قوي صحيح ، وما لم تطلـّق البلاد الاساليب البالية التي سارت عليها . وعبثاً يُخضع القيصر نيقولا الجامعات في البلاد لرقابة خانقة ، ويفرض على الكتب والمنشورات مراقبة لا ترحم ولا تلين ، فهو اعجز من ان يمنع كل اتصال مع الغرب ، ولا يستطيع ان يكم الافكار والالسنة . صحيح انه حدث بعض التطور في البلاد منذ محاولة القتل التي قامت بها جمعية الفحامين السرية . فالافكار المتوارثة عن الثورة الفرنسية تنكفىء وتعود القهقرى في الوقت الذي تقوم في البلاد ردة ضد عقلانية القرن الثامن عشر ، التي تهافتت عليها الاوساط الارستوقراطية تتلقف مبادئها وتعاليمها . فقد حل محل الفلسفة الفولتيرية الفلسفة الهيغليانية التي غذت في البعض عبادة الدولة كما دفعت بالبعض الآخر الى الثورة والتمرد . وهكذا ظهر في البلاد ، في اعقاب حرب القرم ، تياران قويان تنازعا السيطرة على الافكار واستبدا بها: تيار « الغربيين » الذين شعروا عميقاً انهم قريبون من خصوم العهد كالاشتراكيين والفوضويين والليبرية البورجوازية اكثر هذه الحركة الليبرالية ، و « انصار السلافيين » الذين استقر في روعهم ان التقليد الروسي يمكن له ويترتب عليه ان يمهد الطريق لتعاون وثيق بين القيصر والكنيسة الارثوذكسية ، والموجيك (اي الفلاح الروسي) الذي يُشيد كورولينكو وتولستوى بفضائله العليا . ولكن كلا التيارين، ينظر على ما نرى الى المجتمع القروي صاحب المشارع واشكال العمل واهدافه ، نظرة ملؤها الارتياح والرضى . فاذا ما استسلم بعضهم لليأس وراحوا يصفون ما تقاسي النفس الروسية من عذابات اليمة ويصورن الشقاء والبؤس الذي يتسكع فيه المجتمع الروسي الغارق في الفوضى ، فمعظم القوم يؤمنون بقدرة البلاد على التجدد كما لا يسقط بعضهم من حسابهم احتمال قيامها بمهمة ثورية .

الازمة الروسية في عهد اسكندر الثاني- الاصلاحات وبوادر الحركة الثورية

من الواضح ان النهوض بالامة يرتبط ارتباطاً وثيقاً بنجاح عملية واسعة للاصلاح الزراعي. ان إلغاء رق الارض وتحرير الفلاح لا يزيلان من الطريق كل العقبات . فتحرير الفلاح دون تأمين وسائل العيش الكريم له هو بمثابة اعداد مستقبل مليء بالمخاطر والشرور . ولما كان لا يمكن التفكير مطلقاً بمصادرة املاك النبلاء دون التعويض عليهم ، كان لا بد من فرض فداء للأرض وفقاً لشروط ، ولو مجحفة نوعاً بحق الملاك ، بدلاً من شروط يرزح تحتها صاحبها الجديد . ومهما يكن ، فعلى السلطة ان تتحرك وان تقوم بعمل شيء ما . من هذه الاحداث التاريخية الحاسمة ، الثالث من آذار عام ١٨٦١ ، اذ فيه يعلن القيصر اسكندر الثاني الذي اخذوا يلقبونه ، ابتداءً من هذا اليوم « بالمحرر » ، تحرير الفلاحين . فجمهور الفلاحين يجزل غبطة وسروراً . الا ان خيبة الامل لن تتأخر .

والذي حصل بالفعل هو محدود بالفداء لصالح المجتمع الريفي . فالدولة تقدم ٤/٥ المبلغ المتوجب. فالمتملكون ينالون سبعة هكتارات بوصفهم مزارعين تابعين للتاج وقد تنخفض حصة الواحد الى ٣ هكتارات في الاراضي السيادية حتى تصل الى هكتارين في الاراضي ذات التربة السوداء ، اذ لا مصلحة للملاك في التنازل او التخلي عن شبر واحد من هذه الاراضي . فهم سيبقون يعانون الجوع الذي ستشتد وطأته مع التقسيم الجديد للارض بعد ان يتضاعف عددهم بفضل ارتفاع معدل المواليد في البلاد . فيستعبرون أنفسهم قد هُزىء بهم وراحوا ضحية السرقة بينما تشابك القطع الزراعية التي نالوها بالقطع التي بقيت للملاك السابق ستكون مثاراً لدعاوٍ كثيرة امام القضاء. كل هذا والنبلاء ينفثون احقادهم: فقد اقتطع من حسابهم ليس مبلغ مساوٍ للدين فحسب بل ايضاً لم يستلموا سوى سندات لن تلبث قيمتها ان اصيبت بالهبوط. فلا عجب والحالة هذه ان تبيع املاكها او ان تؤجرها للتجار. فالاملاك التي احتفظت بها لا تستغل بصورة احسن من قبل ، والفلاح الروسي لا يستطيع – لو شاء – ان يدخل اي تحسين على وسائل الزراعة. وبعض افراد هذه الطبقة لهم من الاراضي اكثر مما تستطيع استثماره (٧٥ مليون هكتار لم يستثمر منها سوى ٢٥ مليونا ، حوالي عام ١٨٨٠) كما ان البعض الآخر كان يشكو من الحرمان او من عدم حيازته ما يكفي منها (١٠٠ مليون) فقد كان هذا الاصلاح عملية فاشلة من كلا الوجهتين الاقتصادية والاجتماعية

ردة الفعل ، مكاسب الرأسمالية وبؤس الجماهير العمالية والزراعية في عهد القيصر اسكندر الثاني

ردت الجماهير الروسية على مقتل « المحرر » و « حسن النية » بالجمود . فمحصول سنة ١٨٨١ كان طيباً كما ان جهاز الدولة تمكن من السيطرة على الحركة الإرهابية ، ولم تشهد البلاد سوى بضع مؤامرات فردية منها المؤامرة التي وقعت عام ١٨٨٧ التي أودت بحياة أوليانوف الشقيق الاكبر للنين . فبعد ان عرف كيف يكسب الوقت باعلانه عن انشاء مجلس عام من الـ *Zemstvos* وتخفيضه معدل فداء الارض بعد ان جمله

إلزامياً وبانشائه مصرفاً للفلاحين يعنى بتسليف الهيئات الزراعية في القرى مـــا تحتاج اليه من الاموال لاستثمار اراضيهم وبتخفيض ضريبة الاعناق وساعات العمل في المصانع ، وبتنظـــيم الهجرة الرسمية الى سيبيريا . وقع القيصر الجديد الذي رأى في الحركة التحررية هـــذه شيئاً يبعث القرف في النفس ، تحت تأثير استاذه القديم بوبيا دونستزيف الاخصائي الكبير في القانون المدني الذي عين معتمداً امبراطورياً لدى السينودوس المقدس ، والذي راح يدعو الى «ملكية» اشتراكية ابوية على اساس من التسلسل الطبيعي . وقد اخذت ردة الفعل تميل نحو النبـــلاء ورجال الدين والوطنيين . ففي الوقت الذي انشىء فيه مصرف يعنى بمساعدة النبـــلاء الذين يعجزون عن استثمار املاكهم ، أعيد الى الـ *Barine* القديم الدور التقليدي الذي مثله من قبـل بوصفه قيما على الفلاحين ومرجعاً لهم في المناطق الريفية . وقـــد لعبت الارثوذكسية دورها المعروف في الضغط على القوميات الغريبة ، متبعة في سياستها تلـك اسلوباً منهجياً . ولم تلبث السلطة المدنية ان اشتدت وطأتها فضربت بيد من حديد الطوائف والملل الاخرى *Skopsy* (المنحرفين) والعقلانيين ، حتى الكاثوليك في بولونيا ، والاوثريين في الولايات البلطيقية ، وسببت انزعاجاً كبيراً للبطريرك رئيس الكنيسة الارمنية ولم توفر المسلمين في القفقاس حتى شملت البوذيين في آسيا واشتدت وطأة الاضطهاد خاصة ، على العنصر اليهودي الذي اصبح منذ ذلك الحين هدفـاً لتدابير عنيفة اتخذت ضده . وقد وضع اولو الامر في بطرسبورغ خطة لتحقيق الوحدة في البلاد . رمت فيما رمت اليه من اهداف الى « ترويس » فنلندا والولايات البلطيقية والبولونية وبسارابيا وطبعها بالطابع الروسي الى حد انها بعثت كردة فعل ، حركة انفصالية بين هذه القوميات التي راحت فريسة الضغط والارهاق . وفي الوقت ذاته وجد عهد الاستبداد هـــذا عوناً مالياً ودبلوماسياً وعسكرياً لدى حكومة الجمهورية الفرنسية في باريس دون ان يقطع علاقاتـــه بالامبراطورية الجرمانية .

وهذا الجهد المؤقت الذي بذله الحكم المطلق في روسيا لاعادة هيبته ونفوذه يجب ربطـه بحركة التطور الصناعي الذي اخذت روسيا بأسبابه ، اذ ذاك . فقد تهافتت رؤوس الأمـوال الاجنبية على هذه البلاد بعد ان أخذت بسحر غنى مواردها الطبيعية الهائلة ووثقت بصلاحها للاستعمار والاستثمار . فتفتحت المناجم وارتفعت في كل بقعة ومكان المصانع والمعامل التي اخذ سكان الريف البائسون يتجهون اليها من كل فج وصوب من جميع انحاء البلاد .

والاحصاء الاول الذي وقع عـام ١٨٩٧ ، دل على ان سكان البـلاد قفز عـددهم الى ١٢٥ مليوناً بعد ان كان ٥٧ مليوناً عام ١٨٥٠ ، كما اثبت ان مقابل ٣ ملايين مـن صغار المـلاكين ينعمون باليسر كما استقر في الاذهان ، هنالك ٢٢ مليوناً روسياً هم من البروليتـاريا يعملون في خدمة الصناعة ، و٣٦ مليوناً من صغار الفلاحين الملاكين الفقراء و ٤١ مليوناً من البروليتـــاريا المزارعين . ويشير الاحصاء بشيء من الرضى الى الارقام العالية التي سجلها الانتاج في البـلاد . اكتسبت الامبراطورية الروسية ، في بعض المجالات ، محلا مرموقاً بين الدول الاقتصـــادية

الكبرى ، إلا انها تبقى عاجزة عن تلبية حاجة الاهلين من الغذاء . فهي تسجل ادنى مستوى للعيش على الاطلاق في اوروبا وتشير غالباً الى صادرات البلاد العظيمة من القمح وتهمل تماماً الاشارة الى الفقر والمجاعة الضاربة اطنابها فيها .

وقد شجع *Rejtern* بوصفه وزيراً للمالية في عهد القيصر اسكندر الثاني مرافق الصناعة في البلاد ، وهي سياسة تبناها وسار عليها خلفاؤه في هذه الوزارة ، امثال بونج وفشنغرادسكي وفيت (الذي كان موسيقياً أعجب بليست وشرحه) . واقبلت روسيا تقترض من الخارج واستجابت الدول لندائها في هذا المجال . فالدين العام زاد خمسة اضعاف واربى على خمسة مليارات عام ١٨٩٥ كما ان النظام المصرفي تطور في البلاد بسرعة . والدليل التجاري الاعلى الذي كان بمعدل ١٠٠ في الفترة الواقعة بين ١٨٠٠ - ١٨٢٥ ارتفع الى ٩٧٢، للفترة الواقعة بين ١٨٧٤ - ١٨٩٩ في حين ان عدد السكان لم يرتفع الا ثلاثة أضعاف . وهكذا دخلت روسيا حلبة التجارة الدولية على حساب طبقة الفلاحين فيها التي أستبيحت كما ان الطبقات الشعبية فيها راحت فريسة ضرائب ورسوم مرزحة . ومهما يكن فقد ساعد تهافت رؤوس الاموال الاجنبية على توسيع شبكة الخطوط الحديدية ، واصلاح المرافىء والموانىء البحرية والاقنية النهرية ، والصناعات الاستخراجية والانتاج الميكانيكي والمنسوجات في كل من بطرسبورغ وموسكو واوكرانيا . من الرواد في هذا الميدان ولا سيما في حوض الدونتز ، الروسي بوهل الذي عرف ان يستثمر رؤوس اموال فرنسية والانكليزي يوث . وتولى فرنسيون من مدينة ليون ، ادارة شركة كاما التي راحت تعنى بانتاج الصب والصفائح الحديدية ، كما اشرف غيرهم على صناعة الحرير في منطقة موسكو . وشغل بلجيكيون ، والمان مراكز هامة في البلاد وفي هذا العهد راح السويدي لودفيغ شقيق ألفرد نوبل ، وهو من رجال الصناعة المشهورين اذ ذاك ، يتعهد بناء البوارج الحربية في كرونستادت . واخذ يدعو لبترول باكو كما راح يصمم الصهاريج وبواخر النقل الخاص بالبترول .

وأخذت المدن العمالية تنمو وتكبر بعد ان شيدت على عجل دون الاهتمام كثيراً بوسائل الراحة والترفيه . هنالك مساكن يفترش ساكنوها الارض العراء لا حصير فيها ولا فراش . وقد اعدت بعض الشركات لعمالها مباني ضخمة جهزوها بالحمامات والمغاسل وراح بعض ارباب العمل يفرضون على العمال شراء موادهم الغذائية من مخازن التموين التي انشأوها بالقرب من هذه المباني ، كما ان العمال راحوا يؤلفون لهم ، في بعض الاماكن تعاونيات لتأمين حاجياتهم . واليد العاملة غير مستقرة تفرض عليها ايام عمل شاقة وطويلة بأجر سيء وانتاج ضعيف ، كثيراً ما يتعرض العمال فيها لحوادث العمل ، ينمّون فيهم روح النقمة وحب الثأر والانتقام . ومنذ عام ١٨٨٠ ، قامت في البلاد إضرابات عديدة أدت الى هبوط كبير في الاجور كما ان ارباب العمل كثيراً ما عمدوا الى اقتطاع بعض اجور العمال اقتصاصاً منهم لسوء العمل . ولهذه الاسباب

راحت حكومة القيصر تحاول الحد من هذه التصرفات الصارخة وترسم سياسة اجتماعية ،تتسم بروحها الابوية .

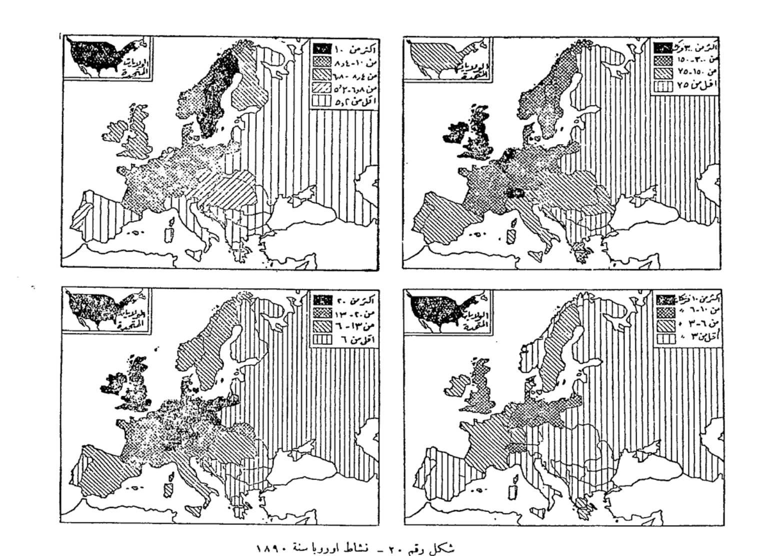
ومع ان الطابع العام للبلاد هو طابع ريفي فلم يستفد الفلاح الروسي كثيراً من فوائد الصناعة . من المفارقات الصارخة ، هذه الاراضي ذات التربة السوداء الصالحة لانتاج القمح . فقطع الارض في منتهى الصغر وحيث تشتد المجاعة فتصبح مخيفة (فقد ضربت مجاعة عام ١٨٩١ أرضاً تبلغ مساحتها مساحة فرنسا) اذ يضطر المنتج ان يبيع غلته في الخريف ليدفع ما يترتب عليه من الضرائب والاقساط السنوية المستحقةعليه ثم يضطر بعد ذلك لشراء حاجته من البذار بسعر أعلى مقتنعاً في غذائه وغذاء ذويه بطعام رديء . هنالـك سبعمائة ملاك يزيد مجموع ما يملكون من الاراضي على ٢٠٠ مليون هكتار . بينما ١٠٠،٠٠٠ من صغار الملاكين لا يزيد مجموع املاكهم على ٣،٤٠٠،٠٠٠ هكتار . وقد استطاع « اكلة » الاراضي ان يغتصبوا، شيئاً فشيئاً اطيب الاراضي المشاعية التابعة للهيئات البلدية ، بينما نرى فقراء الفلاحين ، في كل مكان ، في خصام موصول مع هؤلاء القولاق . من هذه البرولتاريا الريفية الآخذة دوماً بالازدياد والنمو قسم يتجه نحو المعمل او يلتحق ببعض ورش العمل ، كما راح قسم آخر منها يعلل النفس بأن يستقر يوماً في سيبيريا حيث تنتظره متاعب الحياة ومنغصاتها . وهكذا نرى الوفاً من هؤلاء البؤساء يجوبون الارض سيراً على الاقدام لا يملكون شروى نقير او ما يمكنهم من ركوب القطار فيتساقط عدد كبير منهم عناء ويموتون فريسة الشقاء والبؤس . فظروف العيش لم تتغير كثيراً عن تلك الظروف التي رسف فيها أرقاء الارض .ولم يعد الموجيك يردد : « ليس غير الكسالى لا يوجه لنا اللطمة » ، فهو لا يزال يرى كما في الماضي : « ان الله بعيـد عنه في الاعالي » كما ان القيصر بعيد عنه جـداً في قصره . ففي خضوعه دوماً للحياة الجماعية ولمقتضياته ، فهو يرى نفسه مضطراً لتكييف نفسه ضمن الجدار الذي يحيط بكوخه الحقير – عزبة الشمال – المبنية من الخشب ، لا نافذة لها ، يحتل الوجاق جانباً كبيراً من كوخه ، ينام فيه صاحبه مع اولاده بملابسهم ، أو خطة الجنوب، من اللبن وأحياناً من القش اليابس. ليس في هذا المسكن من صابون، وقد يفتقر أحياناً للاضاءة ، كما يفتقر لبعده عن الغابة للحطب ، فيقنع ، ولا اختيار له ، بالقش والتبن . فالازدحام انما يعني : الاختلاط والفساد . فالشاي عندهم من الكماليات (واعطاء بقشيس، في الروسية ، انما يعني: اعطاء شيء من الشاي) . وكثيراً ما يحتسون شراباً اشبه ما يكون بعصير التفاح يستخرجونه من نسغ الدردار وعصيره ، يعرف عندهم « كفاس » . فالنقص في المواد الغذائية والادمان على المسكرات يرفعان عالياً من نسبة انحلال الفساد . والامـل في الحياة يبقى ضعيفاً كما ان نسبة الوفيات بين الاطفال بقيت عالية جداً (فوالدا ليون تروتسكي مزارعان يهوديان ينعمان باليسر يفقدان أربعة من اولادهم الثمانية ، غير ان الخصب في التناسل هو مرتفع جداً ويكون معيناً للعديد من المعوزين والفقراء .

منظران مختلفان لروسيا : نخبة ادبية وفنية ممتازة وتأخر اقتصادي متصل

كانت روسيا ، منذ عهد بعيد ، مثار دهشة الاجانب لما تبديه حضارتها من اضداد ومفارقات . من جهة اخلاق شعبية ناعمة وان خشنت ملامسها، ومن جهة ثانية ، مجتمع رفيع مستسلم للذات . هنا ، الجهل والسذاجة الفكرية والعقلية ، وهناك ، مرونة عقلية فائقة .

الادب الروسي أدب غني واقعي ، روحاني يصف لنا الموجيك الخشن الطباع والمرح معاً ، والتاجر الجشع ، والملاك الفظ بقلب الطفل ، والجذاف العامل على النهر ، والمتشرد التائه الذي لا جذر له ولا ينتمي لطبقة . فمن بوشكين الى نكراسوف الى بلوك ، ومن غوغول الى دوستويفكي ، ومن تشيخوف وتولستوي الى غوركي يفتر الادب الروسي عن شعر او قصة أو اقصوصة بلغت سدرة المنتهى بما تمور به من خيال مجنح ونقد لاذع وجزالة ادهشت اوروبا المهذبة وسحرتها . فالرغبة في العلم والاقبال عليه لا حدود لها ، وحب الفضول والظمأ الى المعرفة لا يروي له غليل ، وبقفزة واحدة يرتفع الفكر الروسي الى ابعد الحلول جرأة . فالانجازات العلمية عديدة ، سواء التجريدية منها والعملية الواقعية . صحيح ان الالهام الهندسي الذي نبع من الوحي الديني خبا وكأنه جف وغار ؛ الا ان معظم المنازل السكنية والمباني هي مستوحاة من الطراز الكلاسيكي أو الطراز الغريب الذي غلب على اوروبا الغربية . ومع ذلك ، نحن أمام بوادر نهضة فنية روسية المصدر سلافية الينبوع، كما نرى ذلك في كنيسة المخلص في موسكو ، ومدارس الرسم الجديدة من الطراز الرومنطيقي او من الطراز الواقعي ، ورسم المناظر الطبيعية مع وفرة من التحف والنقش والحفر والرسم التزييني ، الا ان مظاهر الحساسية الروسية تجلت على اكملها في الموسيقى . فبينما نرى تشايكوفسكي وغلازونوف وروبنشتاين يقعون تحت سحر الموسيقى الالمانية ، نرى فريقاً كبيراً يستلهم بحق الادب الشعبي القومي والاغاني الفلكلورية ، والرقص القومي وأناشيد الطقوس الدينية امثال غلينكا ومن امثلهم دارغومسكي اولاً ، ثم « الخماسي » او الفريق المخمس الصغير *Koutchko* (او الكومة الصغيرة) كما كان يلقبهم بسخرية خصومهم ومنافسوهم . وقد برّز بينهم : بورودين ورمسكي — كورساكوف وموسورغسكي الذين خرجوا لنا بأنغام والحان موسيقية تأخذ بمجامع القلب لما تتسم به من سمو وروعة ومناغاة وانسجام . وقد تتلمذ على رمسكي كل من سترافنسكي وبروكوفييف وخوستاكوفتش . كذلك عرف رقص الباليه المستوحى من الرقص الشعبي نجاحاً غريباً ، وقع تحت سحره كثيرون من سكان المدن : « فالباليه المسكوبية هي ، ولا شك اكبر لذة يمكن ان يستمتع بها مشاهد » كما كانت تشهد بذلك مدام جولييت .

تمثل روسيا في الخريطة مساحة كبيرة اذ تؤلف مع مستعمراتها في آسيا كتلة واحدة . فهي في مقدمة الدول الاوروبية بكثرة سكانها. ويكوّن العسكريون لهم فكرة عن الجيش الاحتياطي الذي يتوفر لها كما يكوّن علماء الاقتصاد فكرة لهم للموارد الطبيعية الهائلة التي تتوفر لها . والحال ، فبالرغم من التطورات العظيمة التي حققتها خلال جيل ، فنشاطاتها لا تؤلف مع ذلك



شكل رقم ٢٠ ـ نشاط اوروبا سنة ١٨٩٠

اعل ، الى الشمال : الخطوط الحديدية : عدد الكيلومترات لكل ١٠٠٠٠٠ نسمة (معدل ٦٠٨)اسفل ، الى اليمين : عدد الرسائل والبطاقات البريدية المرسلة بالنسبة للفرد الواحد (معدل ١٣) . اعل ، الى اليمين : التجارة بالنسبة للفرد الواحد (معدل ١٧٣ فرنكا) . اسفل الى اليمين : نفقات الدول على التعليم العام بالنسبة للفرد الواحد .

شيئاً يذكر ، اذا ما قورنت بنشاطات دول اوروبا الغربية والوسطى . فمحصول روسيـــا من القمح في أواخر عهد اسكندر الثالث كان يوازي بالنسبة للقارة اجمع ١٥٪ من القمح ، يربى على ٢٥٪ من ماشيتها انما لا تنتج سوى ٢ بالمائة من الفحم ، و ٤ بالمــائة من الصب ، و ٣ من الفولاذ ، ولا تصدر سوى ٤ بالمائة من الرسائل ، وعلمها لا يرفرف الاعلى ٣ بالمائةمن مجموع السفن التجارية في العالم ، كما لا تساوي تجارتها مع الخارج سوى ٤،٦ بالمائة من مجموع الصادرات العالمية . اما مدارسها فلا تضم سوى ٢٤ تلميذاً لكل الف نسمة (١٧٢ في المانيا ، و ١٤٠ في السويد) .

فاذا ما سببت مناهج القيصرية وأعمالها القلق ، فالمراقبون السياسيون يشددون على مـــا «للعملاق الروسي من اقدام سريعة العطب » . وعندما اعلن القيصر نيقولا الثاني ، إثر اعتلائه العرش ، عام ١٨٩٤ ، عن عزمه بالدفاع عن مبادىء السلطة المستبدة ، كان الشك يخيم بالفعل حول حيوية هذا النظام بالنسبة للحاجات الكبرى التي يشعر الشعب الروسي اليها وبالنسبة للقوى الجديدة التي كانت تعتمل فيه .

القسم الرابع

الحضارات خارج أوروبا

اذا كانت اوروبا مدينة لتوسعها الخاص بارتفاع مستوى معيشتها واثراء ثقافتها ، فانها قد اوجدت بدورها مجتمعات جديدة على صورتها وزعزعت اكثر الاوساط البشرية اختلافاً عن وسطها . الا ان هذه الاوساط – المتنوعة جداً – لم تتطور الا ببطء ، وقد استساغ كل منها على طريقته ، وبنسبة متفاوتة ، ما أتى به الاجنبي . فان العالم الشمالي ، وافريقيا السوداء ، وشطراً كبيراً ممن اطلق عليهم بصورة عامة ، اسم البدائيين قد تقبلوا ما أتاهم دون ان يصدر عنهم ردة فعل تذكر . واخذ الاسلام ، بكليته تقريباً ، يرزح تحت سيطرة اوروبا ، ولكنه لم يتخل عن شخصيته المميزة القوية . وسلمت آسيا الرياح الموسمية تسليماً متفاوتاً بدخول الحضارة الاوروبية وقاومت جماهيرها الكثيفة طرائف اوروبا بتقليدية متصلبة ؛ واذا ما أخذت اليابان تذعن في النهاية لطرائق البيض ، فانها قد فعلت ذلك وكأنها تقصد مقاومتهم مقاومة أجدى . وكاد العالم اللاتيني الاميركي ، الذي كان بالامس اسبانيا وبورتغاليا ، لا يخفي الملامح التي تكوّن شخصية هذه الارض المميزة . ويجدر لفت النظر اخيراً الى ان العوالم الانكلوساكسونية نفسها في اميركا وافريقيا واوسترالي‍ا ، لم تكن ، ولم تستطع ان تكون ، صورة صحيحة لبريطانيا العظمى القديمة .

الفصل الأول

المجتمعات الشمالية الحقيرة

ادت الاستكشافات والتجارة ، حول الحوض القطبي الشمالي المتوسط الامبراطورية الروسية واميركا الشمالية ، الى اخراج شعوب اقصى الشمال من عزلتها . فكان هنالك الشعوب الرعاة التي اعتمدت في معيشتها على حليب الرنة ، لحمها وجلدها ، والتي وفرت لها الاحراج الشمالية بعض الموارد الاضافية : الى هذه الفئة انتسب قبائل الآسيويين القدامى ، الـ « اوستياك » ، والـ « صاموياد » ، والـ « تونغوز » ، وقبائل الـ « اتاباسكيين » الاميركيين. ولكن سواد هذه الشعوب قد تعاطى في الوقت نفسه تربية الرنة واستثمار الموارد البحرية. ونخص بالذكر منها شعب الاسكيمو الذي امتدت املاكه من غرينلند، حتى « الابرادور »، وقد اتاح له انتقاله الموسمي من منطقة الى منطقة اقتناص الكاريبو او الرنة الكندية والحيوانات الفروية وحيوانات المضائق الخاصة ؛ وكان يحسن استعمال الخاطوف ويستخدم المزلج الذي تجره الكلاب ، والكاياك او زورق الصيد الجلدي ايضاً . وكان يمسح جسمه بالادهان ويمتلىء من اكلها ؛ ويعيش منفرداً في الايغلو، او الكوخ الثلجي المؤقت ، طيلة فصل الشتاء البالغ القساوة في هذه المناطق .

ثم جاء الاجنبي ، وقد استهوته الحيوانات الغنية بالفرو والادهان والزيت والجلد والمواد القرنية والعاجية . فجلب معه للسكان السلاح الناري ، والاداة المعدنية ، والنفط الذي سهل الطهي والاضاءة ، والطحين والسكر والشاي مما جعل الغذاء اكثر تنوعاً ولذة ، والكحول وبعض الامراض ايضاً . وزاول القنص بوحشية فأفنى بعض الأنواع الحيوانية وقلب طرائق الحياة ظهراً على عقب . وهكذا فان اسكيمو اللابرادور قد اهملوا صيد الفقمة وبحثوا اكثر فأكثر عن الرنة الكندية والثعلب القطبي واستطابوا المأكولات الجديدة ، ولكن اوبئة الجدري والسل والداء الزهري فتكت بهم فتكاً ذريعاً ؛ فاضمحلوا اضمحلالاً تاماً في آلاسكا الشمالية . وكان ان السلطات الكندية والاميركية ادخلت الى مناطق الشمال الفسيحة الرنة السيبيرية التي اخذت تتكاثر تكاثراً فائقاً مطرداً وفكرت بتنمية الرنة الكندية والثور المسك في الارخبيل القطبي ؛ وذهبت الدانمارك الى ابعد من ذلك فعزلت « غرينلند » لتضمن فيها حماية العناصر الخلاسية المنحدرة من الاسكيمو والسكندينافيين معاً .

الفصل الثاني

التقدم السريع
في العوالم الانكلوساكسونية الجديدة

«... هذا العرق المحيط منذ اليوم بالكرة الارضية والمقدر
له ان يملأها كلها يوماً ... »
(تشارلز ديلك ، ١٨٦٨) .

الاعمار : مشابهات واختلافات

ليس في القرن التاسع عشر ، في اعتقادنا، من احداث اكثر إثارة للانتباه من تكون عالم انكلوساكسوني يشمل اميركا الشمالية كلها ومجموع القارة الاوسترالية وارخبيل زيلندا الجديدة وشطراً واسع الاطراف من افريقيا الجنوبية . واننا نطلق على هذا العالم صفة الانكلوساكسوني لان أناساً ينتسبون الى الارخبيل البريطاني او البلدان الاخرى المحيطة ببحر الشمال قد عمروا هذه المساحات الشاسعة ومهروها بطابع حضارتهم .

وهي اوستراليا وزيلندا الجديدة ، في الارجح ، ما تقدمان المثل على خير اعمار تجانساً . لقد تأخرت بريطانيا في استعمارهما ، ولكنها استعمرتهما بسرعة ، دون غيرها ، في النصف الثاني من القرن . ففي الفترة الممتدة من السنة ١٨٥٠ حتى السنة ١٩٠٠ ، بينما لم تتجاوز نسبة تزايد عدد السكان سنوياً ٠،٨ بالمائة في اوروبا ، بلغت ٢،٤ في الولايات المتحدة ، و ١،٦ في كندا ، و ٤،٤ في اوستراليا ، و ٦،٨ في زيلندا الجديدة . ولم تكن اوستراليا لمدة طويلة سوى منفى يبعد اليه المجرمون ؛ ومن جهة ثانية ، لم يبد مناخها ملائماً الا لتربية المواشي التي لا تستلزم يداً عاملة وفيرة . فحدث آنذاك ما عرف بال « اندفاع » وراء الذهب الذي جاء بُعيد

المجاعة في ايرلندا وحرّك الهجرة تحريكاً فجائياً : فارتفع عدد السكان الى المليون في السنة ١٨٦٠ ، وسوف يبلغ الخمسة ملايين في السنة ١٩٠٥ . واذا تدنت نسبة الولادات في هذه البيئة، فان نسبة الوفيات قد سقطت الى ١٠ بالمائة ، والبلاد قد نعمت بنمو طبيعي محترم . ولم يبلغ البدائيون او الآسيويون الـ ١٠٠ الف نسمة في البلاد . امـا الـ « ماوري » الذين انخفض عددهم الى ٤٠ الفاً ، فلم يكن لهم شأن يذكر في السنة ١٨٠٠ إزاء ٩٠٠ الف مهاجر مستعمر. ولكن هذه الدول الاوروبية الجديدة التي قامت في الجهة المقابلة لاوروبا على الكرة الارضية قد تميزت ابداً بطابع ضعف الكثافات البالغ .

في افريقيا الجنوبية كان البيض اقلية ازاء السود . فكان هناك اقل من ٥٠٠ الف بوبري في جمهوريتي اورانج وبرانسفال ، وزهاء ٣٠٠ الف اوروبي ، ثلاثة ارباعهم من البريطانيين في « الراس » وناتال ، حوالي السنة ١٨٥٠. ويجب انتظار التهافت على المناجم حتى تؤلف العناصر الآتية من الخارج خطراً جديا على مراكز المهاجرين الاول الذين كانوا يتباهون بأنهم«افريقيون». ومهما يكن من الامر ، فان اتحاد جنوبي افريقيا ، لم يضم غـداة تكونه سوى ٠٠٠ ١٣٢ ١ ابيض مقابل ٤ ملايين ملون (يدخل في عدادهم ١٢٢ الف آسيوي) . اما كثافة السكان فكانت اعلى منها في اوستراليا (٤ انفس في الكيلومتر المربع مقابل ١) ، على نقيض المهـاجرين الاوروبيين الذين كانوا دونهم في اوستراليا بصورة محسوسة،والذين لم يستطيعوا السيطرة عدديا.

ان أوجه الشبه كثيرة بين كندا والارض الاوقيانوسية الكبرى : اتساع الارجاء ، اقامة في مساحة ضئيلة من الارض قبل وصول مهاجري العالم القديم ، إعمار تدريجي متأخر دونـه في اوستراليا بالنسبة الى المساحة . وكما في افريقيا ، شعبان متقابلان : الشعب الفرنسي الاقـدم استيطانا والشعب البريطاني الذي لم يلبث ان تفوق عدداً ؛ الا ان مصالحة واتحاداً مجديا قـد تحقق هنا لمصلحة الفريقين . اجل ان جاذب الولايات المتحدة الملاصقة قد اخـلى المنطقة من بعض سكانها (اجتاز الحدود قرابة مليون نسمة بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٩٠٠) . الا ان عدد سكان البلاد ، التي اعلنت « مملكة » في السنة ١٨٦٧ ، قد ارتفع من اقل من مليونين في السنة ١٨٥١ الى اكثر من خمسة ملايين في السنة ١٩٠٠ . وصحيح كذلك ان مساحات شاسعة ما زالت شبه مقفرة بين الولايات القريبة من نهر « سان – لوران » وبين المحيط الهادي (بحيث لم تكن الكثافة العامة سوى ٠،٦) ، كما امتدت مساحات مقفرة واسعة في اوستراليا بين الولايات الشرقية والولاية الغربية . ولكن منطقة المروج الكندية كانت مدعوة لمستقبل لامع ارتسم في اواخر القرن بفضل تزايد عدد المهاجرين تزايداً مطرداً . وقد تجمع الناطقون باللغة الفرنسية في كندا السفلى حول كيبيك، ثم تكاثروا بسرعة وتقدموا نحو كندا العليا، ممثلين نسبة ٣٠ بالمائة من مجموع السكان ، بينما عمت اللغة الانكليزية الولايات البحرية وسيطرت في مقاطعة اونتاريو ومانكوبا في الغرب .

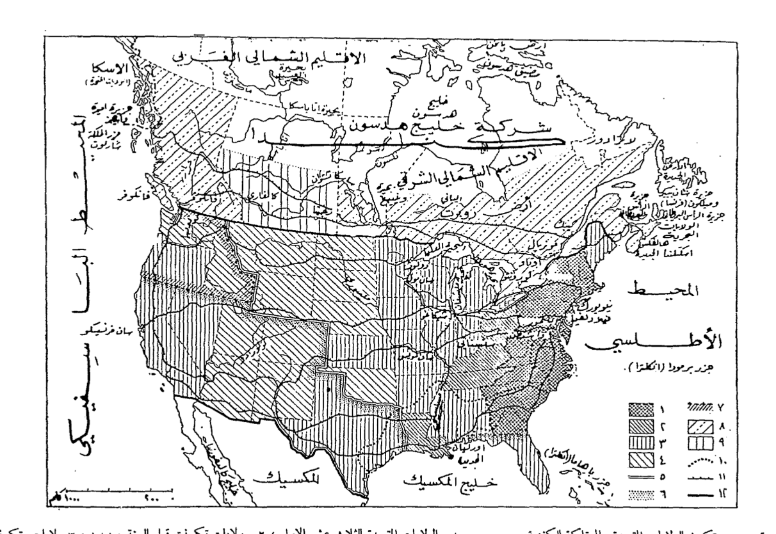
اجتذبت الولايات المتحدة وحدها سيلا بشريا دونه السيل البشري الى كافة المناطق الـتي

خفق فيها العلم البريطاني . ومرد ذلك الى امكاناتها الانمائية النادرة ، وربما الى استقلالها . سار الاستعمار فيها ، كما في كندا ، من الشرق الى الغرب ، وانطلاقا من الشواطىء البحرية ، على ان كل منطقة اميركية قد استعمرت قبل المنطقة الكندية المقابلة . وقد اثار فيهـــا وجود الزنوج والجماعات الآسيوية مسائل تعيد الى الذاكرة مسائل افريقيا الجنوبية ، كما ارتدى الصراع ضد الهنود ، في بعض الاحيان ، الطابع الوحشي نفسه الذي ارتدته الحرب الماورية . ولكن اذا لم تنتشر لغتان في الولايات المتحدة كما حدث في كندا ، فان عناصرها البشرية المتنوعة قد خضعت لعملية مزج حازمة اعطتها وجهاً مميزاً .

حوالي السنة ١٨٥٠ ، وعلى الرغم من أن المهاجرين أتوا من الارخبيل البريطاني وحده تقريباً ، كان مثال الـ « يانكي » الاميركي قد برز بصورة واضحة . وتفسير ذلك ان تكاثر سكان الولايات قد فاق المهاجرين الجدد منذ القرن الثامن عشر ؛ فلم يدخل البلاد اكثر من مليون شخص حتى السنة ١٨٤٠ ، ولم يتجاوز الداخلون الـ ١٠٠ الف شخص الا منذ هذا التاريخ . ولكن سكان الاتحاد كانوا قد بلغوا ٢٣ مليون نسمة ، حين ارتفعت نسبة الهجرة ارتفاعاً سريعاً بعيد الازمة الاوروبية بين السنة ١٨٤٦ والسنة ١٨٥٠ : ففي العقد السادس من القرن التاسع عشر ، بلغ عدد الداخلين ٠٠٠ ٥٠٠ ٢ نسمة مقابل ٠٠٠ ٧٠٠ ١ في العقد السابق ، و ٠٠٠ ٤٠٠ ٢ في العقد اللاحق ، على الرغم من الحرب الانفصالية ؛ وقد بلغ عددهم ٠٠٠ ٨٠٠ ٢ خـــلال العقد الثامن . وقد نجم عن ذلك ان نسبة زيادة الولادات للداخلين قد تدنت ، فأصبحت ٧ مقابل ١ بدلا من ٩ مقابل ١ في السنة ١٨٥٠ . وهي اوروبا الشمالية التي ما زالت تصدّر اغلبية المهاجرين ؛ غير انها ، بالاضافة الى البريطانيين ، أرسلت الايرلنديين والفلمنك والسكنديناويين والالمان . وقد حدثت آنذاك هجرة واسعة الى داخل القارة الاميركية ولا سيما الى المنطقة التي سيطلق عليها اسم « الغرب الاوسط » . ففاقت الجمهورية آنذاك كافة الدول الاوروبية باستثناء روسيا .

منذ السنة ١٨٨٠ ، باتت الهجرة اكبر حجماً واكثر كثافة ايضاً : فأدخلت ٥ ملايين نسمة في العقد التاسع و ٠٠٠ ٦٠٠ ٣ في العقد العاشر . ولكن نسبة الشماليين تدنت الى اقل من ٥٠ بالمائة وارتفعت نسبة اللاتين والسلافيين واليهود الشرقيين الى ٥٠ بالمائة . وقد ارتفعت نسبة المهاجرين الايطاليين وحدهم من ٦ بالمائة في السنة ١٨٩٠ الى ١٧ بالمائة في السنة ١٩٠٠ . وسيبلغ مهاجرو اوروبا الجنوبية والشرقية ٨٠ بالمائة من مجموع المهاجرين الذين يعبرون الاطلسي . وامام هـــذا العدد من المهاجرين الاجانب الجدد ، انخفضت نسبة المقيمين الى ٥٤ بالمائة ؛ وحتى الى ٢٠ بالمائة في نيويورك وشيكاغو .

في السنة ١٩٠٠ بلغ عدد سكان الولايات المتحدة ٧٥ مليوناً ، ولم تتجاوز كثافتهم الـ ١٠ في الكيلومتر المربع . ولكن لم يبق سوى سنوات معدودة امام الهجرة الحرة اذ ان الدلائل كانت تشير الى تصميم « يانكي » على مقاومة تتيح استمرار عمل البوتقة التوحيدي والتمثيلي .



شكل رقم ٢١ - تكون الولايات المتحدة والمملكة الكندية ١ - الولايات المتحدة الثلاث عشر الاولى ؛ ٢ - ولايات تكونت قبل السنة ١٨١٥ ؛ ٣ ولايات تكونت بين ١٨١٥ و ١٨٦٥ ؛ ٤ - ولايات تكونت بين ١٨٦٥ و ١٩٠٥ ؛ ٥ - الحدود الغربية المنطقة التي تخلت عنها فرنسا في السنة ١٨٠٣ ؛ ٦ - مناطق حصلت عليها الولايات المتحدة من اسبانيا (١٨١٩) والمكسيك (١٨٤٨) ؛ ٧ - منطقة حصلت عليها بعد تسوية اوريغون (١٨٤٦) ؛ ٨ - الولايات الاولى التي ضمتها المملكة الكندية (١٨٦٧ - ١٨٧٤) ؛ ٩ - ولايات كندية تكونت في عهد لاحق ؛ ١٠ - منطقة يمثل فيها الزنوج ٥٠٪ من مجموع السكان ؛ ١١ - الخطوط الحديدية الرئيسية ؛ ١٢ - حدود الولايات المتحدة .

الساحات الفسيحة والحريات العامة : الحكم الذاتي والاتحادات

اذن ضمت الولايات المتحدة مساحات شاسعة يقابلها عـــدد قليل من البشر . ولكننا لسنا هنا امـــام امبراطوريات أسستها قوة فاتحة تولت هي الوصاية عليها ووزعت فيها المهام. وقد ساد الاعتقاد ، منذ « توكفيل » ، بأن اميركا لا يمكن ان تكون الا ديموقراطية لأن كل شيء فيها يؤول الى السماح للفرد بالتضرع على هواه الى الله وبجمع الثروة دون اضرار بالغـــير . وكانت انكلترا قد اعترفت ، فيما يعنيها ، بأن المؤسسات التمثيلية توافق ممتلكاتها التي تنمو بدورها على غرار المستعمرات الثلاث عشرة التي كانت مغمورة في القرن السابق .

اعطت الولايات المتحدة اول مثل عن كيان اقليمي كبير يرتكز الى المبدأ الاتحادي . فقـد بدأ دستورها ، الذي كان بمثابة تسوية بين حاجات الدفـــاع المشترك واثرة الجماعات المحلية والاقليمية التقليدية ، وكأنه مثال الحكمة . وقد عرف الديمومة على الرغم من بعض التعديلات التي جعلتها الظروف ضرورية والتي لم تغير منه الروح . فجابه محنة الحرب الاهلية دون ان تتعين اعادة النظر فيه . وبات نفوذ السلطة الاتحادية منذئذ واقعاً لا يمكن انكاره او الاعتراض عليه ؛ وبدا كل انفصال مستحيلاً في المستقبل . فتواصل التوسع الاقليمي دون هزات جديدة : فكان هنالـــك ٣٦ ولاية و ١٢ اقليماً في السنة ١٨٦٧ ؛ وسوف تنشأ الولايات الـ ٤٨ في السنة ١٩١٢ .

بعد ان مرت كندا في ازمة شباب خطيرة ، حققت وحدتها ونعمت في الوقت نفسه بالحـكم ذاته الذي منحتها اياه «وثيقة» السنة ١٨٤٠ . وفي السنة ١٨٤٧ ،اقـــدم اللورد « إلجن » صهر اللورد « دورهام » ، على إسناد الوزارة الى الزعمـاء المصلحين في بورجوازية الاحرار ؛ وكانت هذه الاخيرة راغبة في بذل مجهود كبير للتجهيز ، فتاقت الى تحمل مسؤولياتها . فبدأ حينذاك عهد عمل بناء استهدف تخفيف حدة الخلاف تدريجيـاً بين الناطقين باللغة الانكليزية والناطقين باللغة الفرنسية . فاتجه الكنديون من ثم نحو فكرة الاتحاد التي تقبلتها لندن في النهاية بحسن الرضى وطيبة الخاطر ، لا سيما وان هذه الصيغة قد بدت ، بعيد الحرب الانفصالية ، قـادرة على إحباط بعض مقاصد الولايات المتحدة التوسعية على حساب كندا .

جمعت « وثيقة اميركا الشمالية البريطانية » - وهي وثيقة ولادة «الممتلكة» الاولى في السنة ١٨٦٧ - بين الحكم الذاتي على الطريقة الانكليزية والنظام الاتحـادي على الطريقة الاميركية . فقد اتحد ، بموجب ميثاق ، شطرا كندا وسكتلندا الجديدة وبرونسوبك الجديدة، ثم كولومبيا البريطانية ؛ وكما تقرر في الولايات المتحدة ، يمكن ان يقبل في الاتحاد كل اقليم يتقـدم بطلب لهذه الغاية ، على ان تؤخذ بعين الاعتبار درجة إعماره وتقدمه . فمن جهة تحافظ كل ولاية على حكومتها الخاصة ، ومن جهة اخرى يكون على رأس الاتحاد حاكم يمثل الملك ، وبرلمـــان ، شبيه بالكونغرس الاميركي ، يتألف من مجلس المـمثلين ومجلس الشيوخ . ولما لم يكن هناك رئيس

تنتخبه الامة ، فقد اسندت ادارة الشؤون ، على الطريقة البريطانية ، الى رئيس وزارة يختاره الحاكم ويكون مسؤولا امام المجلسين .

عرفت اوتاوا ، عاصمة المملكة الجديدة ، منذ ذاك الحين، نظام الحزبين نفسه المعمول به في لندن وواشنطن . وهم المحافظون – تحالف الملاكين العقاريين والبورجوازيين الكاثوليك والبروتستانت ، المعادين كلهم للراديكالية – من احرزوا الغلبة وتسلموا زمام السلطة اولاً . ثم قرب « الخط الحديدي الكندي الباسفيكي » المسافات بين الولايات السان – لورانية وبين كولومبيا البريطانية . وفي السنة ١٨٧٠ ،ادى الاتفاق مع خلاسيي النهر الاحمر وال «اسينيبويا» الى ادخال « مانيتوبا » في الاتحاد . ثم وضعت شرطة اوتاوا يدها على الاقاليم الشمالية الغربية حتى « الجبال الصخرية » بينما قضي على ثورة قام بها الخلاسيون والهنود؛ فمهد ذلك لقيام ولايتي « ساسكاتشوان » و « ألبرتا » . وعندما تسلم الاحرار بدورهم زمام السلطة ، تقدموا بمشروع تسوية تجيز استخدام اللغتين الانكليزية والفرنسية واخمدوا نار الخلافات الدينية والمدرسية ، واعدوا مشروعاً لإعمار الغرب واستثماره بسرعة ، وحافظوا على العلائق الطيبة بالوطن الام . ولكن المساواة في الحقوق، في نظر الديموقراطية الكندية – كما في نظر الديموقراطية الاميركية – لا تستلزم الحق في الحياة الا بقدر تأمين الفرد هذا الحق لنفسه بكده الشخصي .

كانت المستعمرات الاوسترالية الاولى ثمرة نشاط مربي الاغنام . وعلى غرار ولاية « وابلز الجديدة » في الجنوب ، قامت في ولاية فكتوريا ، التي انفصلت عنها ، وولايات اوستراليا الجنوبية واوستراليا الغربية وكوينسلند ، مؤسسات تمثيلية عملت عملها لمصلحة اغنى المهاجرين المستعمرين. الا ان اكتشاف الذهب أثار بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ حركة اجتماعية كبرى؛ فقد تزعزت سيطرة المهاجرين المستعمرين ، وبرز الاقتراع العام الى الوجود ، واعتمدت بعض المستعمرات نظام الوزارات المسؤولة . فقامت الى جانب اوستراليا الاولى ، اي اوستراليا قطعان المواشي الكبرى في المساحات الشاسعة ، اوستراليا اخرى انتظر فيها المأجورون القليلو العدد ، المتحالفون مع صغار المزارعين ، مساندة الدولة المطلقة ، لا سيما وان الحياة في اوستراليا اقل تعزيزاً منها في اميركا الشمالية . ولم يستطع الحكام ولا المجالس العليا احتباس التيار الديموقراطي الذي اتاح للمجالس المنتخبة بارادة الشعب تأليف وإقالة الوزارات التي زاد من ضعفها عدم وجود الاحزاب التقليدية . يضاف الى ذلك ، من جهة ثانية ، ان المجالس العليا باتت تعين ، منذ السنة ١٨٩٠ ، لفترة محدودة ، بواسطة هيئات انتخابية متزايدة العدد تدريجياً . وان مؤسسات اوستراليا المقتبسة عن مؤسسات الوطن الام قد تطورت بمزيد من السرعة ، وجاء النشاط التشريعي القوي يستجيب لانتظار حركة عمالية تطالب بتشريع اجتماعي .ولكن ذلك لم يبلغ حد التنازل عن الانانيات الاقليمية . لذلك فان الميثاق الاتحادي لن يبرم قبل السنة ١٩٠٠ ، كما ان « كومونولث » اوستراليا ، الذي تكون في هذا التاريخ،قد تمتع بصلاحيات اقل اتساعاً منها في المملكة الكندية .

كانت زيلندا الجديدة قد رفضت عرضاً بالاتحاد مع اوستراليا خشية منها ان تكون ضحية هـذا الاتحاد . فاقتبست هي ايضاً مؤسساتها عن مؤسسات بريطانيا العظمى ، ولكنها كانت خلوا من الارستوقراطية ، وسوف تعين الوزارة مجلسها الاعلى لمدة سبع سنوات . وقد عقد الاحرار البورجوازيون تحالفاً مع العمال في السنة ١٨٩٠ ،فمنحوا النساء حق الاقتراع والماوري حق التمثيل والمأجورين حماية اجتماعية واسعة . وسترتقي زيلندا الجديـدة في السنة ١٩٠٧ الى مصف « الممتلكة » فتصبح مساوية في الامبراطورية لكندا واوستراليا ، بينما تكون افريقيا الجنوبية في طريقها الى هذا النظام .

على نقيض الكنديين الفرنسيين ، رفض المهاجرون الهولنديو المنشأ ، هنا ، التعايش السلمي مع البريطانيين . وعبثاً اقترح السير « جورج غراي » ، بعد رحيـل البوير على نطاق واسع ، اتفاق شراكة بين الجمهوريتين البويريتين والناتال والراس لم تباركه لندن نفسها. ولكن المشروع سيبرز الى الوجود مرة أخرى : فسوف يتحقق الاتحاد الجنوبي الافريقي في اعقاب قتال دام ، وسوف تنظم الممتلكة الجديدة نهائياً في السنة ١٩١٠ .

مصير الاعراق الملونة

حالت الاوهام العنصرية في كل مكان دون اتحاد الانكلوساكسون مع الاعراق الملونة ؛ ونادراً ما تغلبوا عليها باعتبار المنتمين الى هـذه الاعراق مساوين لهم .

كان في اميركا الشمالية أناس تميزوا بقامة رفيعة وشعر اسود واملس وانف اقنـى وجلد اصفر اخطأ المهاجرون بأن اطلقوا عليهم اسم الهنود الحمر . زاولوا صيد الحوت وقنص الرنة الكندية ، في الشمال الغربي ، وقنص البقر الوحشي والزراعة في الوسط (وقد ظهرت حضارة الذرة الصفراء بين البحيرات الكبرى والجبال الصخرية الوسطى)، وكانوا اهل حضر في الجنوب الغربي ؛ فتنوعت نظمهم السياسية تنوعاً عظيماً ، ابتداء من القبيلة المنعزلة وانتهاء بالاتحادات العسكرية الكبرى . وربما بلغ عددهم المليون « متوحش » عند وصول المهاجرين .

فلا مناص من ثم من احد امرين : نقلهم الى منطقة أخرى أو تقتيلهم . ولن يقر للمهاجر المستعمر قرار حتى تحل مسألة الحدود هذه . ثم جاء قانون السنة ١٨٨٧ الذي استهدف التهدئة بهبة الاراضي وتحسين الحالة الصحية والتعليم : فحدثت الثورة الاخيرة في السنة ١٨٩٠ ؛ وزال « الاقليم الهندي » الاخير من الوجود في السنة ١٩٠٥ . اما الباقون على قيد الحياة – أقل من نصف مليون – فقد خضعوا للقانون العام او انفردوا في « مناطق خاصة » .

وكذلك لم يخضع الماوري ، البولينيزي المنشأ ، المتوحش والفنان ، للسلطة النيوزيلندية ، الا بعد معارك ضارية . فزرع الذرة الصفراء والبطاطا في اراض مشاعية وتزيا بطيبـة خاطر بالزي الاوروبي واعتنق المسيحية وتعلم التكلم باللغة الانكليزية .

وأبعد البدائيون الاوستراليون، البائسون والودعاء بالسليقة ، عن المناطق الكثيرة الصيـد

الى الصحاري . ثم طاردهم البيض مطاردة فعلية بمساعدة شرطة من الزنوج . وهم لا يشكلون اليوم سوى اقلية لا اهمية لها الا في نظر العلماء .

وصل الاوروبيون الى افريقيا الجنوبية اثناء هجرة قبائل الـ « بانتو » من المنطقة الحارة الى الجبال والهضاب المرتفعة الخالية من الذبابة الناقلة مرض النوم والموافقة لتربية المواشي والكثيرة الصيد . فقاوم زنوج افريقيا الجنوبية احتلال البيض لاراضيهم مقاومة طويلة وضارية. ولكن كلما خفت حدّة المقاومة المسلحة تكاثر عدد الزنوج الذين خضعوا للشروط المفروضة عليهم ، ورفع المنجم كذلك عدد الكادحين من الاعراق الملونة . ومن جهة ثانية اجتذبت المهن الشاقة هنوداً وماليزيين عوملوا المعاملة نفسها ونظرت اليهم العناصر الأخرى كما الى دخلاء. وكان للخوف من الاعراق ، التي اعتبرها البوير والبريطانيون متدنية واستغلوها، قسطه الكبير في التقريب بين هؤلاء واولئك .

وظهر عند الاوستراليين والنيوزيلنديين قلق مماثل أثاره فيهم الآسيويون – وجلهم من الصينيين – الذين لم يكن عددهم مرتفعاً ، ولكنهم كانوا مهرة في التجارة والحرف الصغرى وحتى في الزراعة . فأدى ذلك منذ السنة ١٨٥٥ الى فرض القيود الاولى على دخول الصفر ؛ وقد نعت احد رجال السياسة النيوزيلنديين منافستهم بـ « القذرة والمنافية للطبيعة والجائرة ».

ويشاهد القلق نفسه كذلك عند اميركيي الغرب امام تدفق سيل الصينيين . فقد ظهر هؤلاء إبان الاندفاع وراء الذهب : فقد جمعتهم بعض الوكالات من ماكاوو وهونغ - كونغ ، ثم اشتغلوا في اعمال بناء الخطوط الحديدية . ولكنهم اشتهروا كطهاة وخدام منزليين واتقنوا غسل الثياب وكانوا اهلاً لتربية دودة القز وتجاراً اذكياء . فلم تترد كاليفورنيا في السنة ١٨٨٢ في منع الهجرة ناقضة بذلك الاتفاق المعقود مع الصين ، وقد صادق المجلس الاعلى على هذا المنع . وسوف يتعرض التشريع لليابانيين في عهد لاحق .

اعتق الزنجي الاميركي منذ حرب الانفصال فاصبح من حيث المبدأ مواطناً على غرار الآخرين . ولكن الرق والخلاف الدامي تركا آثاراً وذكريات دائمة . فخلال عهد « التجديد » الناقم ، عاد رجال الانفصال الى صوابهم وملكوا انفسهم ، فقابلوا بالعنف والارهاب بعض اعمال العنف التي اتاها الارقاء السابقون (ويعرف هذا العهد بعهد «كوكلوكس كلان») وسيطروا مرة اخرى على المجالس التشريعية وحدوا ما استطاعوا الى ذلك سبيلا من الحقوق الممنوحة للاعراق الملونة بالتعديلات المدخلة على الدستور . فتجانب من ثم عرقان ، احدهما متشبع ابدا من تفوقه ومعاد لكل امتزاج وفارض على الآخر تمييزاً عنصرياً مذلاً . وعلى الرغم من ان عدد الزنوج قد انخفض نسبياً بالقياس الى مجموع السكان العام (١٢ ٪ في السنة ١٨٩٠ مقابل ١٤ ٪ في السنة ١٨٦٠ وزهاء ٢٠ ٪ في السنة ١٧٩٠) ، فقد ارتفع ، بعد مرور ثلاثين سنة على الحرب الاهلية ، الى ٦ ملايين ونصف المليون يضاف اليهم زهاء مليون من الخلاسيين . وقد

مالت هذه الاقلية طبعاً الى التجمع في الولايات القريبة من خليج المكسيك : فجاء تجمعها هذا تميزاً جغرافياً اضفى على التمييز الآخر مزيداً من الخطورة .

عاد معظم الزنوج الى العمل في مشاريع استثمار الاراضي بصفة مكترين او مياومين . ولما كانوا يميلون طبعاً الى الانتقال من مشروع الى آخر ولا يعطون انتاجاً كافياً ، انتشرت شيئاً فشيئاً اشكال مزارعة شدّتهم الى الارض . وقد فضل اصحاب الاملاك « العامل بالمحاصة » الذي لا يتوجب عليه سوى تقديم سواعده ويتقاضى اجره عيناً ، « والشريك » الذي يقدم الحيوانات والادوات ويحتفظ بثلاثة ارباع الحصيد ، على المكتري الذي غالباً ما كان يعجز عن الوفاء .

الزنجي يزرع القطن
والزنجي يجمعه
والابيض يقبض المال
والزنجي يستغني عنه

السيدة تسكن القصر الجميل .
والام الزنجية تقيم في الزريبة
والسيدة تحافظ على بياض ايديها
والام الزنجية تتولى كافة الاعمال الشاقة
والابيض يرتدي قميصه النشاة
ويجلس في مكان ظليل بارد
انه أكمل انسان خلقه الله .

اجل لقد ارتسمت حركة تستهدف السماح للزنوج بالدفاع عن مصالحهم في المعركة الاجتماعية . فقد كان باستطاعة النخبة ، بفضل العلم ، مزاولة المهن الحرة . ولذلك فقد قبل الزنجي في الهيئة الطبية في السنة ١٨٨٩ ، وفي المحاماة في السنة ١٨٨٩ . وقد نجح احياناً في الاعمال فاقتنى المساكن والعقارات التي اجرها بدوره . وبدأت رسالة المربين - واشهرهم « بوكر واشنطن » مؤسس جامعة « توسكجي » الزنجية - تعطي ثمارها حوالي السنة ١٩٠٠ . ولكن الكثيرين من الزنوج هجروا الارض بحثاً عن الثروة بين البيض في المناطق الاخرى ، فلم تفقد الروح العنصرية شيئاً من حدتها ، بل انتشرت حيثما حلوا . ومهما يكن من الامر فان العالم الاميركي كان متشبعاً بهذا الوجود غير المرغوب فيه والمحتوم معاً ، ولن يستطيع التمالك عن اقتباس « الجاز » الافريقي وعرض ملاكمي العرق المستحقر .

استثمار الاراضي الجديدة : من الاشكال البسيطة الى الاقتصاد التجاري الاكبر

في مجتمعات ارياف البلدان الانكلوساكسونية ، حل محل استثمار الارض البدائي استثمار واسع حقاً ولكنه مبني الآن على توزيع العمل توزيعاً مفرطاً . ولكن ما زالت هناك بعض النشاطات الابتدائية في اواخر القرن .

يجب هنا ان نضع جانباً مناطق الاقليم الحار حيث عرف المثال الاستعماري الديمومة وحيث

لم يستغن الابيض بسهولة عن المساعدة التي وفرها له الملونون . وخير مثل هام على هـذه المناطق هو جنوبي الولايات المتحدة . فالاقتصاد المنزلي يؤمن فيها الحاجات اليومية، بينما يتيح محصولان او ثلاثة محاصيل اساسية — القطن والتبغ قبل كل شيء — المقايضات مع الخارج . ولن يحدث فيها التحويل الجزئي الى الصناعة اي تبديل ؛ فذلك لن يزيل فقر فلاحين — بيض وسود على السواء — غير متعلمين ، ومفتقرين الى رؤوس الاموال وواقعين ابداً تحت رحمة الحصائد السيئة وانخفاض الاسعار .

لم تمارس زراعة الاصناف الكثيرة ، الاوروبية المنشأ ، الا بـين كندا وبنسلفانيا . يضاف الى ذلك ان تطوراً حدث فيها نحو اقتصاد الالبان والبقول والفاكهة . فظهرت هنـــا القرية كما عرفها العالم القديم . ولم يلبث المهاجر المستعمر الاميركي ان استهوته مساحـات المروج الفسيحة حيث اصلاح الارض اقل صعوبة منه في المنطقة الحرجية ، وحيث تسهل تربية المواشي وزراعة الحبوب . ولكن ضرر الجفاف في ما وراء الميسيسيبي كان كبيراً جداً .

اما في نصف الكرة الارضية الآخر فان جبهة الاستعمار ما لبثت ان بلغت حدود المساحات الجافة الكبرى . فبرز من ثم « المستعمر » الاوسترالي الذي مـــارس عمل الصوف ، وهو العمل المثمر الوحيد ، آخذاً بعين الاعتبار المناخ والحاجة الى اليد العاملة وطريقة « وايكفيلد. واحتل اعلى السلم الاجتماعي عدد محدود من كبار الملاكين : فقد امتلك اربعة منهم حوالي السنة ١٨٥٠ اقليما توازي مساحته مساحة بلجيـكا ، كما امتلك بعضهم بـــين ٥٠٠٠٠ و ٧٠٠٠٠ رأس من المواشي .

قامت في « الراس » فئة من الاشراف الريفيين البريطانيي المنشأ ، نظراء « المستعمرين » الاوستراليين ، ولكن الـ « فلد » عاد للمهاجرين المستعمرين الهولنديي الاصل،الاوفياء للاعراف البطريركية . فالعائلة البويرية لا تقرأ على العموم سوى التوراة، وتسعى لان تكفي نفسهابنفسها، وتضحي بكل شيء من اجل الماشية . انه لشعب نمطي ، لا يخضع ولا يقهر ، ساذج وكثـــير آراء سبق الوهم ، معاد للرأسمالي والزنجي اللذين ينازعانه مسالكه وطرقه .

منذ السنة ١٨٦٠ تعاظمت مشاريع الاستثمار الحيواني في الولايات المتحدة . فبرز آنـــذاك «راعي البقر» ،رجل«مناطق الابقار»، اي المناطق الواسعة الواقعة وراء الميسيسيبي التي اقتاد مواشيه عبر مسالكها في اتجاه خطوط الطول جامعاً بين حرارة ورطوبـــة الـ « تكساس » ومراعي « بلات » الصيفية . وبعد ان يسلم حيواناته في احدى « مدن الابقار » التي يلمع نجمها ويأفل بسرعة ، كان يقامر ويحتسي الخمرة بما ادخره من اجـــوره ، ويعتمد على مسدسه الذي يحمله ابدا في جيبه لبلص المسافرين وتوقيف وسلب القطارات الحديدية ؛ اما مآتيه فقد دونهـا كتاب « مشهد الغرب المتوحش » لـ « بوفالو بل ». ثم اضطر المثـــال الراعوي البحث الى ان يهاجر ابعد الى الغرب في الجبال الصخرية .

تقدمت الزراعة الكبرى على غيرها من الزراعات تقدماً حاسماً في منطقة المروج الاميركية وفي الـ « اونتاريو » . فقد حدد قانون السنة ١٨٦٢ المساحة التي يتناولها عقد المزارعة بـ ٤٠ الى ٦٠ هكتاراً . الا ان الجزء الاكبر من الارض باعته اما شركات الخطوط الحديدية واما الولايات والحكومات الاتحادية انصبة اوسع مساحة الى حد بعيد . ولكن محاصيل الارض لم تكن جيدة في اي مكان ؛ فسعى المزارعون بالتفضيل وراء اختيار الاحسن من النباتات والحيوانات ؛ واتسع نطاق الزراعة في المناطق الجافة بواسطة « الزراعة البعلية » ، ونشط انتاج الالبان في منطقة جديدة حول البحيرات الكبرى . اما الوادي الكاليفورني ، التي كانت بورة في الأمس ، فقد تحولت الى زراعة الحنطة قبل ان تكتشف انها مدعوة لأن تصبح حديقة غناء .

في اواخر القرن تناول التشريع الاوسترالي مناطق تربية الغنم الواسعة ، ولما تعاظمت حاجات السكان المتزايدين عدداً ، شوهد ، الى جانب المستعمر المستثمر ، المستعمر « المنتقي » الذي تعاطى التجارة ببيع «مزرعته المقفلة » حيناً واستثمرها حيناً آخر ؛ يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الدولة قد حاولت تشجيعه بـ « سياسة مائية » انطوت على حفر الآبار الارتوازية وبناء السدود لاعمال الري . وفي « وايلز الجديدة » اتاح المناخ المتميز بمزيد من الرطوبة تربية المواشي الكبرى التي بيعت لحومها في مراكز التبريد في الموانىء ، وقيام صناعة ألبان تراقبها السلطات العامة . بيد ان زيلندا الجديدة هي البقعة التي شابهت خير مشابهة دولة اوروبية مثل الدانمارك .

اجل لقد تمتع صاحب المزرعة على العموم برفاهية هي اقرب ما يكون الى الرفاهية البورجوازية . ولكنه كان مضطراً لبيع كل شيء حتى يشتري كل ما يحتاج اليه تقريباً ، فارتكزت موازنته في اغلب الاحيان الى الدين الذي جعله يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالقطاع الرأسمالي . ولذلك فرضت المدينة شريعتها على هذا المجتمع الريفي بتجبر لم يعرفه العالم القديم نفسه .

مدينة العالم الجديد

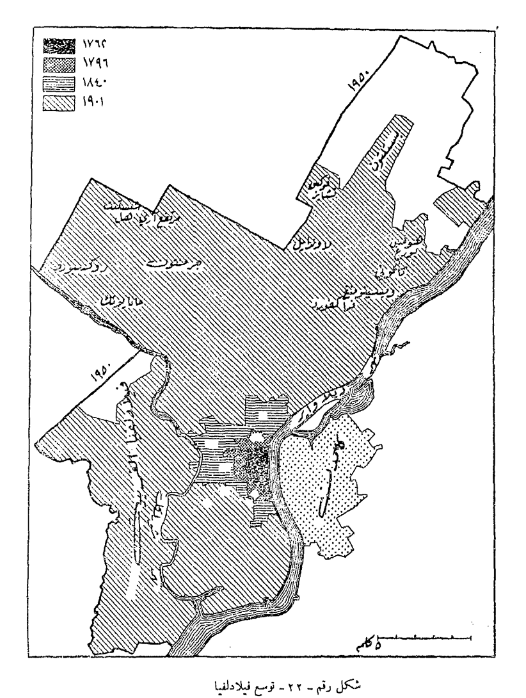
لم ترتد الظاهرة العمرانية طابع الاتساع العظيم الا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر . ففي السنة ١٨٥٠ ما زال ١٩ مليوناً من السكان من اصل ٢٣ ، يعيشون في الارياف . وكانت كافة مدن المناطق الجنوبية متواضعة جداً . اما في السنة ١٩٠٠ فقد عاش في المدن ٣٠ مليوناً اميركياً من اصل ٧٥ ؛ وكان هناك اكثر من ثلاثين مدينة يزيد سكان كل منها على ١٠٠ ٠٠٠ نسمة ويبلغ مجموع السكان فيها كلها ١٢ مليون نسمة . ومنذ السنة ١٨٧٠ قفز سكان شيكاغو من ٣٠٠ ٠٠٠ الى ١ ٧٠٠ ٠٠٠ ، وتجاوز سكان نيويورك الـ ٣ ملايين وسكان فيلادلفيا المليون . وفي هذا المجال كان التطور متواضعاً في افريقيا الجنوبية ، وناشطاً في كندا ، وسريعاً جداً في اوستراليا حيث جمعت سيدني وملبورن وادلايد ، في السنة ١٨٩٠ ، ربع مجموع السكان العام ، وحيث ضمت ملبورن وحدها نصف سكان ولاية فكتوريا تقريباً .

فنحن من ثم امام ظاهرة تكاثر المدن الجديدة السريعة النمو . وكانت المدينة ، على الجبهة الاستعمارية ، مجموعة اولية تضم الحانات والكنائس والمدارس ودور البريد لكل تقسيم اداري . فكانت من ثم استجابة لوظيفة المقايضة التي لم تلبث ان فرضت نفسها على اهالي الارياف .ولكن غالباً ما كان المنجم او المصنع سبباً لقيام المدينة . وفي مثل هذه الحال نرى ان اعتاد الاسماء يعيد الفكر الخلاق بقوة الى الذاكرة : بسمر ، اتنا ، كرنجي ، مونسن (اسّن ومونونغاهيلا) حول بتسبورغ ، وايرونتون ، وايرونمونتن ، وايرونوود في اماكن أخرى . وهنالك كذلك عواصم تأسست لايواء المصالح الحكومية والادارية ، كواشنطن مثلاً .

لقد ولّى الزمان الذي كان ممكناً فيه ابتياع « كل مستنقع شيكاغو اللعين » بزوج احذية عتيقة ، كما زعم بعضهم في عهد لاحق . وقد اعطى المثل « جون استور » تاجر الفراء بشرائه بعض الاراضي في نيويورك ؛ فان احد ابنائه ، الذي توفي في السنة ١٨٧٥ ، قد خلف وراءه ثروة تقدر بـ١٠٠ مليون دولار تشمل من جملة ما تشمل ٧٠٠ عقار على ضفاف نهر هودسن ؛ وفي السنة ١٩١٢ ، اصبح رأسمال آل استور ٤٥٠ مليون دولار بفضل ابتياعات جديدة وارتفاع الدخل العقاري. وفي شيكاغو ارتفع ثمن الـ ١٠٠٠ متر مربع من ٢٠ دولاراً في السنة ١٨٣٠ الى مليون دولار في السنة ١٨٩٢ .

ان في انتساق تقسيم المساحات الواسعة ، الممسوحة هندسياً ، ما يفسر التصميم الشبيه برقعة الشطرنج . فالى الشرق من الاطلسي يسير الشارع كما تسمح بذلك المنازل ، لأن تصميمه يفرضه رسم الاملاك غير المنتسق ؛ اما هنا فالمنزل يشيد على جانب الشارع . وينجم عن ذلك وحدة سياق مفرطة يسترعي الانتباه اليها ترقيم الشوارع . فان كثافة السكان في شيكاغو ، البالغة مساحتها ٤٤٠٠٠ هكتار ، وفي فيلادلفيا البالغة مساحتها ٣٥٠٠٠ هكتار ،هي ربعها في لندن للاولى وخمسها للثانية .

كانت نتيجة هذا الاتساع المفرط تشتيت المساكن التي كانت على العموم قليلة الارتفاع ومبنية بالقرميد . ولم تظهر الابنية المرتفعة الا بعد السنة ١٨٨٠ في الاحياء التجارية حيث اكتسبت الاراضي قيمة كبيرة جداً : وهكذا انتصبت ، حوالي السنة ١٨٩٠ ، عند رأس مانهاتن في المدينة المنخفضة ، القريبة من المرفأ ، زهاء ثلاثين بناء يتراوح عدد طبقاتها بين ١٠ و٣٠ ؛ وقد شيدها بعض الافراد الاثرياء او شركات التأمين او المصارف . وعلى مسافة قريبة من هذه الابنية الشاهقة التي اوت المخازن والمكاتب ، انبسطت منطقة من المساكن المدخنه والمهملة التي تخلى عنها تدريجياً لمساكين الفقراء ؛ فكان ان الكوخ الخشبي قد جاور ناطحة السحاب في بعض الاحايين؛ ثم انبسطت بعد ذلك مدينة صناعية جديدة احاطت بها احياء سكنية .فالقسم الشرقي من المدينة المنخفضة في نيويورك هو حي العمل الشاق ؛ وتكون مركز ثان للاعمال والسكن في وسط المدينة . فتجانبت مجموعات مختلفة قطعت مناظرها العامة الخطوط الحديدية



شكل رقم ـ ٢٢ ـ توسع فيلادلفيا

د . م ، وسط المدينة ؛ ح . ش ، الحريات الشمالية ؛ س . د ، سوثودرك ؛ ك . ، كنسنتون ؛ ح . ر ، حديقة الربيع ؛ م . ، مويا منسنغ ؛ ب ، باسيونك .

(نقلا عن اوبرهلتزر في « فيلادلفيا ، تاريخ المدينة وسكانها » ومعلومات البروفسور « لن م . كايز » مــن جامعة بنسلفانيا) .

والمؤسسات الصناعية . اما في ادلايد فكانت مدينة العمل ومدينة السكن منفصلتين تحيط بكل منهما الحدائق والرياض . وبدت المدن الاوسترالية من جهة ثانية احسن نظافة وافضل تنظيماً : فقد رصفت شوارعها بالاخشاب ، ولم تكن مساكنها المتشابهة لتظهر الفوارق الاجتماعية ، على نقيض مدن الولايات المتحدة حيث تميزت احياء الاغنياء عن احياء الفقراء تميزاً جافاً . وقد وصف المسافرون باعجاب مساكن الاثرياء الجميلة في بوسطن وفيلادلفيا ونيويورك ؛ وهكذا فان البارون « دي هوبنر » قد دهش حوالي السنة ١٨٧٥ في شيكاغو من « جادة ميشيغان الشهيرة ... ، حي كبار الاثرياء، ومساكنها البذخية الزاهية، الخشبية كلها، والمسقوفة بالجص ، والمبنية وفاقا لشتى الانماط، الايطالي ، والكلاسيكي، والمستهجن،والقوطي والروماني ، والمحاطة كلها ، اقله من جهة المدخل ، بحدائق جميلة صغرى » ... ولكن غبار الصيف واوحال الشتاء كانت آفات حقيقية . فقد لاحظ احدهم ان الجادة الخامسة في نيويورك تكاد لا تفضل غيرها تعهداً وعناية ونظافة ؛ اقذار في كل مكان ؛ وحاجة ماسة في كافة الفصول الى انتعال احذية من المطاط . اما في كندا، فقد ذكر احدهم ان الشوارع الوحيدة المرصوفة بالبلاط هي شوارع تورونتو و « وينيبغ » . ولكن الانارة افضل منها في المدن الاوروبية ، على ان البواليع ما زالت في حالة سيئة والمياه تنقطع احياناً . ومنذ السنة ١٨٧٨ ، دشنت « بوفالو » تدفئة مركزية بخارية ما لبثت ديترويت ونيويورك ان اعتمدتاها بدورهما . وتعددت وسائل الانتقال ، وعلى نقيض المدن الاوسترالية ، الهادئة نسبياً بفضل مركباتها العامة التي تجرها الاحصنة ، اذهلت المدن الاميركية الاجانب بضجيج السير في شوارعها .

تميزت المدن الاميركية كذلك ببرقشة سكانها العنصرية . ففي نيويورك ، كان للايطاليين والايرلنديين واليهود والزنوج احياؤهم الخاصة . ولم تُزل « البوتقة » قط هذه الخصوصيات ؛ ولكنها خلقت واضافت الى كل مثال خاص مثالاً اميركياً هو المثال المشترك .

حضارة الآلة في الولايات المتحدة والاعمال الكبرى

احتلت الولايات المتحدة بين العوالم الانكلوساكسونية مركزاً خاصاً متفوقاً حقاً . ولم تكن مدينة بـه للامكانات الكبرى التي وفرتها البيئة الطبيعية فحسب ، بل لطبيعة شعبها الخاصة ايضاً . وقد سبق لـ « توكفيل » ولاحظ ان « المصلحة هي الرابطة » الجامعة بين العناصر « المختلفة جداً » التي يتكون منها هذا الشعب . فان هذه الامة ، التي لا ماضي لها والتي لا "وثق تشدها الى الارض ، تألفت من جماعة من البشر وضعوا نصب اعينهم الرفاهية المادية التي حققوها بتخير الطرائق فعالية . وقد تميزت بغلواء الشباب المقتحم مغامرة كبرى والعامل في كل ما هو جديد .

حضارة جماهيرية ، كما هو محتوم . فالجغرافية نفسها قسمت القارة مناطق واسعة متشابهة . فقابل تشابه الطبيعة تشابه العمل البشري . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان الخيار لم يكن جائزاً

فاما يحكم هذا المجتمع على نفسه بالاملاق ، واما يقبل بالمنتجات « الموحدة » :

في كنف التعرفات الحامية ، وبفضل مجهود تقني كبير استهدف تخفيض النفقات العامـة وزيادة الانتاجية ، وبواسطة الاعلان الذي دعا الجماهير بالحاح الى زيادة استهـلاكه ، اصبحت اميركا بالتالي بلاد الصناعة النسقية وانتاج القطع القابلة التبديـل . ثم اتضح مكان كل من النشاطات جغرافيا ، بعد ان سهّل تعيينه بناء شبكة خطوط حديدية واسعة جداً . ورافـق تجمع رؤوس الاموال انتاج الكميات الكبرى ، بينما تكاثرت الى جانب المشاريع الكـبرى وفي ظلها الحرف المنزلية الصغري التي تجمعت في حي العمل الشاق .

جرّت اوروبا شيئا فشيئا الى الاستفادة من خدمات الآلة ؛ ولا غرو فان سكان العـالم الجديد مدينون لها بكل شيء . فهي التي تزرع الحنطة وتحلج القطن وتقتـل الحيوانات في المسلخ وتقطعها. فهم سوف يستلمون منها بملء رضاهم المواد الغذائية والملابس والاحذية النسقية، وسوف يأتمنونها على بناء منازلهم التي ستكون متشابهة بالضرورة . وهي توفر الكميـة وتسهم في الوقت نفسه في تخفيض الاسعار . ان عملها لعمري لعمل استبدادي . ولكنه عمـل مفيد في نظر الجماهير التي تطالب بحاجيات تكون في متناول ايديها .

لنتصور انطلاقة الصناعة . لقد ضمت ١٤٠٠٠٠ مؤسسـة في السنة ١٨٦٠ ، و ٣٥٥٠٠٠ في السنة ١٨٩٠ ، و ٥١٢ الفاً في السنة ١٩٠٠ ؛ وربما بلغ رأسمالها ٤٧ ملياراً في السنة ١٨٩٥ ، مقابل ٢١ في بريطانيا العظمى ، و ١٧ في المانيا ، و ١٤ في فرنسا . ومن المسـلم به من جهة ثانية ، ان ثروة الولايات المتحدة قد تضاعفت اربع مرات بين السنة ١٨٦٠ والسنة ١٨٩٠ (في حال ان الدخل قد تضاعف مرتين فقط) . ولم تعرف اية دولة اوروبية مثل هـذا التقـدم في حقول التجهيز وصناعة مواد الاستهلاك . وان علم الاحصائيات الذي دون هذه النتائج المرضية قد أصبح هو نفسه موضوع عبادة : فقد اخذ الاميركي يقدم الارقام كخير البراهين الثابتة عـلى تفوقه . ووطن نفسه على انه تقبل نصيب « الاعظم في العالم » ، وعلل نفسه منذ ذلك الحين بأنه سيتمكن قريباً من ان يكون موّان العالم كله .

الا ان هذه التقنية المتطورة تطوراً دائماً قابلتها منافسة حادة جداً اعتبرت ضرورة حتمية . اجل تقدمت الارستوقراطية بعض التقدم ، ولكن بورجوازية اعمـال كبرى نمت في النصف الاول من القرن ، فألفت طبقة منفتحة لأعداد كبرى تتجدد وتزداد ثروة في كل جيل . وقد دل اعجاب الناس « الرجل المكون نفسه بنفسه » : يولد فقيراً ويتصرف ، حـين يصبح من اصحاب الملايين ، — وسنتكلم قريباً عن اصحاب المليارات — تصرف « النحلة العاملة التي تودع القفير الصناعي العسل الذي ان يتأخر سكان القفير ، والجموع بصورة عامـة ، عن الاستفادة منه » . هكذا تكلم « كرنجي » .

كان اتساع الحقل المفتوح أمام النشاط ، واهمية المشاريع ، وحتى نزعة السكان المسرفين

الى استخدام المصنوعات الموضوعة تحت تصرفهم استخداماً سريعاً ، عوامل مؤاتية كلها لتقدم الاعمال . فأميركا بلد المضاربات المنيفة والارتفاع المدوخ في الاسعار ؛ فـلا عجب من ثم اذا ما تحركت المبادهات ، وتضخم حجم الوسائل النقدية تضخماً فجائياً ، وارتفعت الاسعار ، وارتفعت المكاسب بمزيد من السرعة ايضاً : كل شيء مرجو وجائز كما يبدو . وطبيعـي ان مثل هذا الدوار لا يمكن ان يدوم طويلا : فكما في اوروبا ، لا بل اكثر من اوروبا ، حدثت انهيارات مفجعة ؛ وحدثت بالتالي عملية اختيار طبيعية ، سقط الضعفاء ـ لالها الى الحضيض ، وتلتها عملية تمكين كانت نقطة الانطلاق لمرحلة صعودية جديدة .

كانت النتيجة الطبيعية لمثل هذه الحركة السريعة (على الرغم من التبذير الصناعـي) تقوية سيطرة رؤوس الاموال الكبرى . فمن أصل ٥١٢ الفاً ، استخدمت ٤٥٤ الف مؤسسة مليون اجير ونصف المليون ؛ ولكن ١٢ الف مؤسسة اخرى ضمت مليونين ونصف المليون : وربمـا راقب ٢٥ الف شخص نصف الاعمال الصناعية .

الفروع الكبرى لعالم الاعمال الاميركي

لا ريب في أن الحدث الرئيسي كان تقدم الصناعة الثقيـلة تقدماً عجيباً نادراً . فمقابل مليوني طن حديدا و ٤٠٠ الف طن فولاذا في السنة ١٨٧٥ ، انتجت الولايات المتحدة اكثر من ١٠ ملايين طن حديدا وزهـاء ٥ ملايين طن فولاذا في السنة ١٨٩٠ ، حين انتزعت الاولوية من بريطانيا العظمى . وقد توفرت لصناعة المعادن هذه موارد نادرة من الوقود والمعادن غير الخالصة . فهناك من جهـة استخراج الفحم الحجري الذي ارتفع انتاجه من ٧ ملايين طن في السنة ١٨٥٠ الى ٢٥٠ مليونا في السنـة ١٩٠٠ ؛ ومن جهة اخرى مناجم المعادن غير الخالصة التي احتلت الولايات المتحـدة، بالنسبة اليها ، المركز الاول ايضا . وقد تفاوت تجمع هذه الاعمال ، فكان في صناعـة الفحم الحجري دونه في صناعة النحاس مثلا التي اشرفت عليها خمس شركات خضعت هي نفسهـا لسيطرة رأسماليي بوسطن ونيويورك ، او في صناعة القصدير التي اشرف عليها « مور » ، ملك التنك ، بالاشتراك مع «شركة التنك الاميركية » .وهي ارادة روكفلر ما ادارت حقل تجارة النفط ، اذ ان شركة « ستاندرد اويل تراست » قد روجت زهاء ٩٠ بالمائة من هذه المـادة في الاسواق . وقامت كذلك مشاريع كبرى في صناعة الفولاذ ؛ وكان كرنجي على رأس احداها في بتسبورغ، ودعا الى تأليف تجمع يكون أعظم مشروع عالمي في حقل الفولاذ . وبعد خصام طويل وعسير خضع ثلثا الخطوط الحديدية لسيطرة بعض الفئات التي كان يرعاها « فاندربلت » ، و«بيير بونت مورغان » ، و « هاريمان » ، و « غولد » ، بينما اخرج « بولمن » من مصانعه في شيكاغو اكبر عدد ممكن من مقطورات السكة الحديدية . وترأس غولد كذلك شركة « تلغراف الاتحـاد الغربي » التي كادت تحتكر صناعة الاسلاك احتكاراً فعليا . ووزعت شركة « بل الاميركية للهاتف»،خلال عشر سنوات، مليوني دولار تمثل ارباح رأسمال يبلغ ١٠ ملايين دولار، وقامت بعد انتشار الاضاءة الكهربائية ثلاث قوى اخـرى : « ادسون جنرال اليكتريـك » ،

و « طومسون – هوستون » ، و « وستنكهوس » . وبدأ « دوبون دي نمور » عملا واسعا في المواد الكيميائية .

اذا انتجت صناعات الحديد والفولاذ والآلات والادوات الاجهزة التي تحتاج اليها النشاطات الاخرى ، فهي التغذية والمنسوجات ما احتل المركز الاول بالنسبة لقيمة رؤوس الامـــوال الموظفة . فان صناعة معلبات اللحوم مثلا قد عرفت شركتين او ثلاث شركات كبرى كشركة « ارمور وسويفت » في شيكاغو التي توصلت بمفردها ، في مصانعها الواسعة (٢٥٠ هكتاراً) الى تقطيع وتوزيع بين ١٠ و ١٢ مليون حيوان ، وزادت أرباحها بصناعة المنتجـات الثانوية: العظام والقرون للاسمدة ، الشحوم للصابون والكليسرين ، والدم للازرق البروسي ، وشعر الخنزير للفراشي ، وشعر الثيران للفرش. وبلغ التجمع كذلك شـــأواً بعيداً في تكرير السكر لمصلحة « شركة تكرير السكر »،بينما قام « ديوك » بدعاوة ناشطة للفائف التبغ وأسس «شركة التبغ الاميركي » .

ما زال الشمال الغربي منطقة صناعة النسيج الاولى ، وعلى الرغم من ان « شارع القطنيات » في كارولينا وجورجيا ، القريب من المادة الخام ، قد أخـــذ ينافس المناطق الاخرى منافسة جدية ، فان « ماساشوسلس » و « رود - ايلند » و « كونكتكت » ما زالت متفوقة في هذا المضمار . فان هذه الولايات قد تربعت مع بنسلفانيا على عرش المنسوجات الصوفيـــة ، ولكن « باترسون » هي التي بلغت ، في سنوات قليلة ، مستوى « ليون » و«ميلانو» فيصناعة الحرائر . وقد خرجت من مشاغل نيويورك وفيلادلفيا العائلية الوفيرة العدد الالبسة الجاهزة التي تسلّم الى تجار جملة يزودون بها المخازن الكبرى بدورهم ؛ وبرع المهاجر اليهودي في هذا العمل بفضل آلة خياطة انتجها مصنع « اليزابيت » ، فكان يفصل ويشرح ويصنع العُرى ويكوي، لحساب المخازن الكبرى .

وزادت في الوقت نفسه سرعة التجمع المصرفي . فليس هناك ، خارج الشمال الشرقي ، سوى ١٤٠ مؤسسة من اصل ٢٧٠٠ ، وكانت الحركة المصرفية تصدر عن « وول ستريت » الذي ارتفـــع مجموع معاملاته المالية الى ٣٥ مليار دولار في السنة ١٨٩٠ . اضف الى ذلك ان معظم الشركات الصناعية رغبت في ان يكون مركزها في « مانهاتن » حيث يخفق قلب « الاعمال الكبرى » .

ولم يعن كل ذلك ان اميركا اهتمت اهتماما كبيراً لاجراء مقايضاتها الخارجية في ظل علَمها الخاص . وقد قال كرنجي: « فلنترك البحر الهائج للوطن الام القائم في وسط الامواج ولنكتف بالارض التي هي تراثها القومي » ! لذلك كان الاسطول متأخراً تأخراً بينا عن اسطول بريطانيا العظمى : ففي السنة ١٩٠٠ لم يكن محموله نصف ما كان عليه في السنة ١٨٦٠ . زد على ذلك من جهة ثانية ان التجارة مع الخارج قد تعاظمت وان الميزان كان دائناً مع اوروبا: فاحتمى الاتحاد بتعرفاته ووسع تجارته مع آسيا واميركا اللاتينية ، فساعد ذلك على نمو كاليفورنيا ومرفأ« سان

، فرنسيسكو » . ولن تلبث الولايات المتحدة ان تصاب بداء الاستعمار الاقتصادي .

سياسة المصالح الكبرى في الولايات المتحدة

جاز لانغاز ان يكتب لاحد مراسليه في السنة ١٨٩٢ : « قد قدم الاميركيون للعالم الاوروبي ، منذ زمن غير قريب ، الدليل على ان الجمهورية البورجوازية هي جمهورية رجال الاعمـال ، حيث السياسة عمل تجاري كغيره ...» ويكاد الاميركيون يعترفون بذلك في الواقع .

قدم كرنجي كتابه ، « الديموقراطية الظافرة » ، للجمهورية العزيزة التي تتيح لاي شخص كان الارتقاء في السلم الاجتماعي بجده وكده ، وخلص الى القول : « لا تتم التسوية بانزال النـاس من مرتبة الى مرتبة بل برفعهم كلهم الى كرامة « المواطنية » التي هي ارفع كرامة يمكن ان يتوق اليها الانسان » . لقد ولى الزمان الذي جاز ل « توكفيل » فيه القول بأن الناس كلهم يسهمون إسهاما ناشطا في الشؤون العامة ؛ فقد ارتفعت نسبة الامتناع عن هذا الاسهام كلما ارتفعت نسبة المنتمين الى الطبقات الجديدة من المواطنين المفتقرين الى مزيد من الثقافة والى الخبرة في النظام التمثيلي . ولما كان كل شيء يُرد ، من جهة ثانية ، الى الصراع بين فريقين يعرف اولهما بالفريـق الجمهوري والثاني بالفريق الديموقراطي ، كان من الاهمية بمكان ، قبل أي شيء آخر ، ان يشجع الفريق الحاكم دائرة المصالح التي يتحرك فيها . فنجم عن ذلك ان المصالح الكبرى هي مـا قررت الاتجاه الحقيقي للتشريع والرئاسة . وصعب من ثم على اعظم الحكام نزاهة الوقوف في وجهها . ومرد ذلك الى ان الحملات الانتخابية باهظة الاكلاف ، ولا سيما حملات انتخاب الرئيس الـتي تستلزم مجهوداً اعلانياً كبيراً جداً . وان مثل « تاماني هول » الزعيم الديموقراطي الايرلندي في نيويورك ، الذي عمل بنصيحة «تويد» ، تاجر الكراسي المفلس ، واختلس قرابة ٤٥ مليون دولار في اعقاب حرب الانفصال ، ليس مثلا نادراً . فان « غرانت » ، الجندي الطاهر الذيل ، قد اغضى عن اختلاسات بطانة تتناول عمالاتها من المبّارة ؛ كما ان كليفلند ، الرئيس الديموقراطي الذي اكسب مـدينة « بوفالو » ، بوصفه محافظهـا ، دعوى على متعهـد البواليع ، وتجاسر ، بوصفه حاكم ولاية نيويورك ، على محاربة « تاماني هول » ، قـد انتهى الى إثارة استياء حزبه الخاص بامتناعه عن تطبيق « مبدأ تقاسم مكاسب الانتصار » على نطـاق واسع ، واستياء التجمعات النقابية التي لم يكن موافقا على قيامها ؛ ودان خصم كليفلند ، هارسون ، بنجاحه ، لانتقال الاصوات في ولاية نيويورك الهامة بواسطة حاكمها السريع التأثر بالعروض .

بالاضافة الى الامتيازات وتلزيمات الاشغال الكثيرة التي تسند لاصحاب التعهدات الخاصة – وهي معارك يومية – ، عادت للاتحاد كذلك المسائل الكبرى الجمركية والنقدية . فكيف تنظم العلائق التجارية بالخارج يا ترى ؟ فضل الديموقراطيون تخفيض التعرفة لأنهم لا يستطيعون الفوز الا بمساندة المزارعين والمستهلكين الذين اعتبروا ان السوق الاميركية المقفلة انما هي سوق تتسلط عليها الصناعة . اما المسألة النقدية ، وهي مسألة اكثر تعقيداً ، فقد فرقت بين رجـال الاعمال الذين طالبوا اما بنقد سليم واما بوفرة النقد التي تحرك الصفقات ، فقال الفريق الاول

باعتماد المعدن الواحد اساساً للنقد ، وقال الفريق الثاني طوعاً باعتماد المعدنين . وقد ضم هـــذا الفريق الاخير منتجي الفضة في المناطق الغربية ، والمزارعين ، الدائنين منهم والمصدرين ، الذين كانوا يفضلون التضخم . ثم انضم رجال الاعمال الكبرى الى الفريق القائل باعتماد المعدن الواحد (الذهب) خلال فترة تجدد الازدهار الممتدة من السنة ١٨٩٥ الى السنة ١٩٠٠ .

بقيت هنالك مسألة حرية العمل . فحين يتعرض التشريع للتجمع النقابي ، انـــما يستهدف الدفاع عن الفرد . ولكن انصار التحالفات الصناعية ، بالاضافـــة الى انكارهم على السلطات العامة حق التدخل في هذا المجال ، تـــذرعوا بمصلحة المجموع التي تخدم خدمة فضلى بتحسين تنظيم السوق . والحال اجـــاز العرف للولاية التعاقد مع المؤسسات التي تلعب دور الادارات العامة ؛ وفي سبيل اجتذاب رؤوس الأموال، كان باستطاعة المجلس الاشتراعي الاجازة لاحدى الشركات بشراء اسهم اية شركة أخرى ، مشجعاً بذلك « الاحتكارات » (وقد اعطت ولاية نيوجرسي المثل في السنة ١٨٨٨ لمصلحة شركة « ستاندرد اويل » المهددة بخطر الافلاس) . وليس « قانون التجارة بين الولايات » الذي استصدره كليفلند في السنة ١٨٨٧ سوى حـــق التحقيق في التصرفات السيئة المتناقضـــة وحرية التجارة . الا ان ولايات غربية عدّة قـــد استخدمته ضد شركات الخطوط الحديدية . ولكن « قانون شرمن لمقاومة التجمع النقابي » اسند أمر التقرير للقاضي . ولما كان روكفلر هو المقصود آنذاك ، فقد توصل الى كسب الوقت ووجد في مبدأ « الاحتكار » وسيلة للدوران حول القانون .

معارضة المزارعين في الولايات المتحدة

شعر سكان المروج منذ عهد مبكر جداً بارتباطهم بالمدينة ، فأثار هـذا الشعور منذ عهد جاكسون خصومة بين الشرق والغرب . وكان ممكناً ان يفكر هذا الاخير بمدّ يده للجنوب الذي يرتكز الى اقتصـــاد ريفي ايضاً : وهو تحالف استند اليه ديموقراطيو الساعة الاولى ثم تجدد عقده بين حين وآخـر . ولكن مجتمع « اصحاب المنازل » ، الملاكين المتوسطين ، كان مختلفا عن مجتمع المزارعـــين الجنوبيين . وقد نفر كذلك من التحالف مع طبقة الكادحين في المدن .

وهكذا كلما انفجرت أزمة ، قام الغرب بحركة سريعة الزوال . فبعـــد حرب الانفصال حدث اختلال بين اسعار المحاصيل الزراعية التي هبطت واسعار المنتجات الصناعية التي ارتفعت . فاعلن المسؤولون في احدى الجمعيات المعروفة باسم « النّبر » انهم اعتمدوا النظام التعاوني وحملوا احد عشر مجلساً اشتراعياً في الولايات على استصدار « قوانين نبرية » ضد التعرفات التفضيلية او التمييزية التي وضعتها شركات الخطوط الحديدية . ثم تعاظمت هـذه الحركة في فترة انخفـاض الاسعار الكبير الذي عقب ازمة السنة ١٨٧٣ واصاب القطاع الريفي بصورة خاصة . وقد بلغ عدد « النبريين » ١ ٥٠٠ ٠٠٠ في السنة ١٨٧٥ ، لا بل انضم شطر منهم الى « الاتحـاد القومي للعمل » بغية انجاح برنامج تضخمي ، وهو برنامج الاوراق النقدية . ثم رافق تجدد الازدهار في السنة ١٨٧٩ هدوء وقتي . وانما لوحظت منذ السنة ١٨٨٣ معاودة الهيجان بادارة « التحالف

القومي للمزارعين». فقد ارتسمت مرة أخرى حركة شعبية تقدمت بمرشح للانتخابات الرئاسية في السنة ١٨٩٢ . اما في السنة ١٨٩٦ فقد انضم المزارعون الى « براين » المرشح الديموقراطي وخسروا معه معركة اعادت الى الحكم لمدة طويلة الجمهوريين القائلين باعتماد المعدن الواحد ، المقربين لارباب الاعمال الكبرى . وسيستفيد الجمهوريون هؤلاء من عودة السنوات الخيرة . وقد اوصى كتاب « هنري جورج » ، « تقدم وإملاق » ، الذي صدر في السنة ١٨٧٩ ، بالصراع ضد الدخل العقاري بواسطة الضرائب التصاعدية : فلم تحدث هذه الاشتراكية الزراعية سوى صدى ضعيف .

العامل الاميركي
ونشأة النقابية في الولايات المتحدة

بات عمال الولايات المتحدة احدى اكبر الطبقات العمالية عدداً في العالم . ولكن اميركا كانت قد عانت لمدة طويلة من حاجة حقيقية الى اليد العاملة بسبب ضخامة الاعمال الواجبة التنفيذ : فتألفت من ثم طبقة اولى ، « يانكية » جداً ، متمسكة بالحرية الفردية وغير قابلة التأثر بالمذاهب المختلفة ، ومتقاضية اجورا على بعض الارتفاع . وفي الواقع كان لجاذب هذا الارتفاع اثره الكبير في الهجرة الواسعة التي حدثت في منتصف القرن . ولكن طبقات جديدة برزت ، متميزة بالفقر والامية والبعد عن كل رأي سياسي . وهي هذه العناصر التي قامت بالاعمال الصعبة لقاء اجور متدنية وغذّت حي « العمل الشاق » . وفي السنة ١٨٨٠بلغت نسبة اليد العاملة النسائية ٢١ ٪ – وهي اعظم ارتفاعاً الى حد بعيد في صناعة المنسوجات – وضمت الصناعة ١٧٠٠٠٠٠ فتى تتراوح اعمارهم بين العاشرة والخامسة عشرة (١٨ ٪). وقدروت «الأم» « جونز » ، المناضلة النقابية ، ان « معدل ساعات العمل في مناجم الفحم الحجري في بنسلفانيا كان ١٢ و١٣ ساعة ، او ١٤ ساعة احياناً » ؛ « وان لا قانون يحمي جسم عمال المناجم او حياتهم . وان العائلات تعيش في مساكن الشركة الحقيرة التي قد لا تقبل بها الخنازير نفسها . وان مئات الاولاد يموتون بسبب جهل وفقر آبائهم » . وقد بينت الاحصاءات ان العمال كانوا يعملون ستين ساعة في الاسبوع في السنة ١٨٥٠ ، وستا وستين في السنة ١٨٦٠ ، وتسعاً وخمسين فقط في السنة ١٨٩٠ (بينما ارغم المياومون الزراعيون على العمل بين سبعين واثنتين وسبعين ساعة) . ولفت انظار كافة المراقبين ارتفاع عدد حوادث العمل . فقد ورد في « مذكرات « جول هوريه » : «انها لمذابح دائمة . لا يتخذ اي احتياط للمحافظة على حياة العمال ؛ ولما كانت الشركات كلية الاقتدار ، والمحاكم واقعة تحت سيطرتها ، والقانون نفسه مسخراً لخدمتها لم تعر الامر اي اهتمام » . وسوف يسجل « ابتون سنكلير » ، في الفترة الممتدة من السنة ١٩٠١ حتى السنة ١٩٠٤ ، ٤١ ألف وفاة و ٢٥٠ ألف اصابة بجروح مختلفة . واذا ما نظرنا الى مجموع الفترة ١٨٥٠ – ١٩٠٠ ، لتبين لنا ان معدل الاجور لم يرتفع بنسبة ارتفاع الانتاج والارباح . فقد حدث ارتفاع بيّن ابان حرب الانفصال عقبه بعض التوقف ؛ لا بل تميز العقدان ١٨٧٠ – ١٨٨٠ و ١٨٩٠ – ١٩٠٠ بتدني القيمة الاسمية ، اذ ان العامل لم يشعر بالضيق نفسه خلال

العقد ١٨٨٠ – ١٩٠٠ بسبب هبوط الاسعار الزراعية . وكانت الاجور في الغرب ، المفتقر الى اليد العاملة ، اعلى منها في الجنوب بنسبة كبرى ؛ كما ان اجور عمال صناعة المعادن كانت اعلى من اجور عمال صناعة المنسوجات ؛ وربما بلغ الفرق بين اجور العمال الزراعيين واجور العمال الاختصاصيين نسبة ١ الى ١٠ .

يبدو ان اجر العامل الاختصاصي كان اعلى من اجر اي عامل ماهر في اوروبا [١] . ولما كان المأكل والملبس اقل ارهاقاً لموازنة العائلات العمالية ، فقد خصص للمسكن مبلغ اكبر (ويقدر ان ١٢ ٪ كان لهم بيوتهم الخاصة مقابل ١ ٪ في اوروبا) . ولكن المسكن اختلف اختلافاً كبيراً بين مدينة واخرى : فقد اشتهرت بلتيمور وفيلادلفيا بسعة العيش فيها (ويقدر ان بين ٩ و١٧ ٪ من البيوت العمالية كانت مزودة بغرف للاستحمام) ، على نقيض نيويورك التي كانت مساكنها متوسطة ، و « اورليان الجديدة » التي كانت تعتبر غير صحية اطلاقاً . وبصورة عامة لم يدخر العامل شيئاً من اجوره ، بل انفقها كلها يومياً وربما لجأ الى الاستدانة .

ان البيئة تعزز القناعة بان حظ كل انسان في متناول يده : وقد ابدى انغلز في رسالة يعود تاريخها الى السنة ١٨٩٢ هذه الملاحظة : « يتصور العامل الاميركي ان المجتمع البورجوازي هو ، بطبيعته ، وفي كل زمان ، تقدمي ومتفوق ولا يعلو عليه مجتمع . لا يفكر بالدفاع عن وضعه الا في نطاق عمله ، ولا يهتم اهتماماً كبيراً بالنشاط السياسي . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان السلطات العامة تقدم لارباب العمل مساعدة فعّالة : فالشرطة الاميركية تتدخل بقوة ، وحتى بوحشية احياناً ، والجيش يساندها اذا ما مست الحاجة الى ذلك . واذا ما تسربت الفوضوية الى داخل الحركة العمالية ، فان هذه الحركة لا تتأثر بالدعاوة الاشتراكية .

لقد قامت قبل السنة ١٨٤٨ حركة مطالبة بالحقوق ارتدت طابعاً نقابياً وتعاونياً . ثم ظهرت مرة اخرى « اتحادات عمال التجارة » اثناء الحرب الاهلية وطالبت بان تحدد ساعات العمل في اليوم بثمان واربعين ساعة . وتبنى « الاتحاد القومي » هذه المطالبة في برنامجه للسنة ١٨٦٦ ؛ ووقف كذلك موقفاً ايجابياً من التعاون وموقفاً سلبياً من التضخم ؛ ورغب في تحسين مصير الزنوج وتحرير المرأة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الهيجان طالما تجدد خلال « العهد المذهّب » الذي عمت فيه الرشوة وتكاثرت الفضائح المالية ؛ ولكنه استمر كذلك خلال فترة الهبوط التي عقبت ازمة السنة ١٨٧٣ بسبب توسع البطالة وتدني الاجور تدنياً نسبياً . وبينما لجأت بعض الجمعيات السرية ، كجمعية « مولي ماغواير » ، الى اعمال الارهاب في منطقة المناجم في بنسلفانيا ، انفجرت اضطرابات كثيرة كان اعظمها دويا اضراب عمال السكك الحديدية في بلتيمور وبتسبورغ في السنة ١٨٧٧ : ادخل المضربون مئات القاطرات الى مستودعاتها في بتسبورغ ، فأشعل فيها النيران بعض العملاء المحرضين ودمروها تدميراً تاماً ؛ وعلى الرغم من

---

(١) راجع الرسم البياني في الصفحة ٣٠١ .

اغضاء قوى الامن عن العمال ، كانت الكلمة الاخيرة للشركة التي صرفت العديد من المستخدمين واستبدلتهم بمهاجرين من اوروبا الوسطى .

في اعقاب هذا الفشل ، ظهرت « جمعية فرسان العمل » ، المنظمة التي كانت سرية من ذي قبل ، فأوصت بانهاض الطبقة العمالية عن طريق التربية والعمل على السواء . وبعد ان كان اعضاؤها متدينين ومسالمين جداً ، اصبحوا اشد ميلاً الى الكفاح تحت تأثير الاحداث. وقد تعاظم نفوذهم حين استحصلوا من « غولد » على اعادة استخدام عمال مصروفين بسبب انقطاعهم عن العمل . وفي السنة ١٨٨٦ كان عددهم قد بلغ اكثر من ٧٠٠ الف ، ويقال ان مشايعيهم بلغوا الملايين . فأجاب ارباب العمل على الاضرابات التي تجددت وتكاثرت مرة اخرى بالصرف المؤقت . وحين حدثت بعض الاضطرابات في مؤسسة « ماك كورميك » في شيكاغو بتأثير دعاوة الفوضويين، اتهم عدة مسؤولين في الجمعية باثارتها وادينوا .

برز حينذاك بدوره الاتحاد الاميركي للعمل الذي اقترح اقامة مظاهرة في اول ايار من السنة ١٨٨٦ للمطالبة بتحديد ساعات العمل بثماني ساعات . وقد رغبت هذه الجمعية الجديدة ، التي امتدت فروعها الى كندا ، في تنمية نقابية على اساس المهنة ورفضت بحزم فكرة الصراع الطبقي ، كما رغبت في مفاوضة ارباب العمل في تحسين وضع العمال تحسينا تدريجيا . ففازت بالساعات الثماني للنجارين ، ولكن اضراباً اعلن في مصانع كرنجي للفولاذ في « هومستد » وقمع بالقوة : فصرف ٢٥٠٠ عامل لانضمامهم الى الاتحاد المحلي ، فأتاح هذا النجاح لملك الفولاذ العظيم تطهير كافة المؤسسات التي كان يشرف عليها . وبعد مرور سنتين ، رفض الاتحاد مساندة اضراب اعلن في مؤسسة « بولمن » في شيكاغو ، فأعادت قوى الامن النظام الى نصابه. يضاف الى ذلك ان ردة فعل ارباب العمل ستشتد بعد تحسن الاحوال الذي ارتسمت دلائله منذ السنة ١٨٩٥ .

في بريطانيا خرج حزب العمال من اتحاد عمال التجارة ؛ اما في الولايات المتحدة فليس بعد ما ينبىء بترعرع اشتراكية ، حتى « بدون عقيدة » . وقد لفت الانتباه في السنة ١٨٩٢ ان مرشح اوساط المزارعين قد جمع مليون صوت وان الاشتراكي « دبس » لم يجمع سوى ٢١٠٠٠ .

فهل يجب علينا مشاطرة العالم الاقتصادي « سومبار » رأيه القائل ان مثل هذه الحركة السياسية تتحطم على « شواء البقر » ؟

فاتحة الحركة العمالية في اوستراليا

ولدت في المجتمع الاوسترالي اشتراكية « بدون عقيدة » بتأثير ظروف خاصة . فمنذ عهد مبكر ، رأى جزازو الصوف ، وعمال احواض السفن الذين يشحنون البالات ، وعمال البناء ، انفسهم في موقف ملائم للمطالبة بحقوقهم بنجاح. ولما كانت الدولة متولية اعمال فتح الطرق وبناء الخطوط

الحديدية والمدارس والمستشفيات، فقد اصبحت احد ارباب العمل الرئيسيين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان ديون الجماعة ارتفعت ارتفاعاً سيفضي بالضرورة الى فرض الرسوم على الثروة المجموعة والدخول : وقد عزز ذلك مركز اصحاب الاجور الذين يتعذر بدون مساندتهم تطبيق مثل هذه الرسوم .

بعيد السنة ١٨٥٠ حددت ساعات العمل في اليوم بثماني ساعات . ثم اعترف بالنقابية قانونياً . لا بل جعلت الحكومة النيوزيلندية من نفسها مؤمنة على الحياة وألزمت ارباب العمل بالاعتراف بمسؤولياتهم حين يتعاقدون مع النساء والفتيان .

الا ان الفشل الذي انتهى اليه اضراب كبير في السنة ١٨٩٠ ، بينما اعطت هذه الطبقة العمالية مثل التضامن الفاعل بمساندتها عمال احواض السفن اللندنيين، وجه اتحادات عمال التجارة شطر النشاط السياسي ، فتألفت احزاب عمالية تحالفت مع الجناح التقدمي في احزاب الاحرار . فكان ذلك نقطة انطلاق اشتراكية برلمانية شبيهة بالاشتراكية البريطانية ، وبعيدة مثلها عن كل برنامج ثوري . وكان همها الاكبر وقف هجرة الملونين بغية الدفاع عن الاجور المرتفعة .

الايمان والثقافة عند الشعوب الانكلوساكسونية الجديدة

كانت اميركا الوطن المختار والمبارك للشيع الدينية . ويصح هذا القول كذلك في البلدان الانكلوساكسونية الاخرى في ما وراء البحار . فان الكاثوليكية لم تتجانس مع اي شعب ، وفي اي مكان ، تجانسها مع سكان كندا الناطقين باللغة الفرنسية ؛ وبلغ عدد اتباع الكنيسة الرومانية في الولايات المتحدة في السنة ١٨٩٠ عشرة ملايين مؤمن ساعدوها على تشييد اكثر من ٨٠٠٠ بناء للعبادة . وهذبت البروتستانتنية العقول بقوة كذلك في كنائسها التي لا يحصى لها عد . وقال البناؤون الاحرار بوجود الله والدين الطبيعي وانكروا الوحي ، واحتلوا مراكز قوية . وكان لمذهبي التصوف والروحانية اتباع كثيرون . وتأثرت الطوائف اليهودية ، التي تعززت تعززاً كبيراً بهجرة اواخر القرن الواسعة النطاق ، بمذهب الاصلاح السياسي الذي قال به الحاخام « وايز » وبالنداءات من اجل اصلاح صهيوني . ويلفت الانتباه كذلك نجاح منظمات من امثال منظمة « جيش الخلاص » (وذلك بعد ان انتصرت الرغبة في الكمال على الصوفية الرمزية الغامضة القديمة) . وقد شاهد « بيير لروا – بوليو » ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، تطوافاتها التي كانت تنضم اليها جماهير غفيرة « في كافة مناطق البحث عن الذهب في العالم » في « كريبل كريك » في الجبال الصخرية، و « كولغاردي » في الغرب الاوسترالي، و « جوهنسبرغ » في الترانسفال ». ويعتبر « اندريه سيغفريد » انها « اسهمت اسهاماً كبيراً في طبع مدن (زيلندا الجديدة) بذلك الطابع التديني الذي يميزها » . والمقصود هنا هو الايمان العملي المطابق للتصميم على العمل في هذه الدنيا . وهو لم يدفع قط الى المجادلات اللاهوتية . ولم يفلح في معالجة عدم استقرار العائلة معالجة ناجعة ، وانما طلب منه توفير الخير والاطار لنشاط يستهدف

مقاومة الرذيلة والبؤس . وقد تولى هذه المهمة بصورة خاصة ، بالاضافة الى « جيش الخلاص » ، بعض الجماعات من الشبان : جمعية الشبان المسيحيين ، جمعية الشابات المسيحيات ، جمعية الشبان الكاثوليك .

تعهد هذه الطوائف مؤمنوها فلم تشعر بحاجة لطلب حماية الدولة . وعملت في مناخ حرية نادرة . واعتمدت الطرائق الاعلانية نفسها التي تعتمدها المؤسسات التجارية . واوصت بخدماتها لأجل خلاص النفوس كما يوصي رجال القانون بخدماتهم من اجل الطلاق . وقد اجريت تسويات مختلفة من اجل طبع المدرسة بطابع ديني : فرجحت في الولايات المتحدة كفة التعليم « العلماني » ، بينما اسندت كل ولاية من ولايات كندا امر تنظيم التعليم الى لجنتين مختلفتين ، لجنة بروتستانتية واخرى كاثوليكية . ولم يكن باستطاعة المواطن الا ان يختار بين العبادات الماثلة امامه . وقد حظر عدد من ولايات الاتحاد كل عمل في يوم السبت ، وكان هذا الحظر مشدداً في كافة انحاء اوستراليا وزيلندا الجديدة . واقرت بعض المجالس الاشتراعية في الولايات المتحدة مبدأ تنافي شغل وظيفة عامة وعدم التقيد بالمبادىء الدينية . وحدث احياناً ان اعفيت املاك الكنائس غير المنقولة من الضرائب . اما رجال السياسة فغالباً ما التمسوا حماية الاله الكلي القدرة ، وحدث في السنة ١٨٩٦ ان حكومة « ويلز الجديدة » الراديكالية توسلت اليه بالحاح وخضوع ان يمن على البلاد بالمطر . وساند رجال المال والصناعة المؤسسات الدينية التقوية . وجاهروا بان الالحاد وحتى اللامبالاة منافيان للاخلاق . وهكذا فان « بيربونت مورغان » ، المساهم الرئيسي في اوبرا « متروبوليتان » في نيويورك ، قد منع التمثيليات التي اعتبرها متنافية والاخلاق الحميدة. وفي السنة ١٨٧٩ حكمت محكمة الجنايات في الولايات المتحدة على الصحافي « بَنّت » بالاشغال الشاقة لمدة ١٣ شهراً بسبب مقالاته المناهضة للدين ، وقد رفض « هايس » ، رئيس المحكمة ، تخفيض العقوبة . وفي ناتال ، انتقد الاسقف الانغليكاني « كولنسو » بعض فقر الكتب المقدسة ، وكان بذلك سبب زلّة للمؤمنين ، فتحمست كنيسة جنوبي افريقيا اكثر من كنيسة انكلترا في المطالبة بعزله في السنة ١٨٦٣ .

كان المدرس خاضعاً لاشراف الهيئة الانتخابية المحلية ، وكان يُختار من المنطقة نفسها ويتلقى دروسه فيها ، ولكنه غالباً ما شكا من مركب نقص ولقن المبادىء التي يقرها المجتمع . وحوالي السنة ١٨٩٠ بلغ عدد المعلمين الابتدائيين المتخرجين من دور المعلمين في بنسلفانيا ١٥٠٠ فقط من اصل ٢٠٠٠٠ . وفي السنة ١٨٧٠ – كما اقر بذلك « كرنجي » – كانت نسبة الاميين ١٦ ٪ من المواطنين الاميركيين ، واذا تدنت هذه النسبة ، بعد مرور عشرين سنة ، الى ٧ ٪ لمواليد اميركا ، فانها ما زالت ١٣ ٪ للمهاجرين و ٥٦ بالمئة للزنوج . وبينما وفرت زيلندا الجديدة بفضل الدولة ، العلم لـ ١٣٠٠٠٠ ولد من ابناء السكان البالغ عددهم ٧٠٠٠٠٠ نسمة ، فان الترانسفال لم توفره الا لـ ٨٠٠٠ ولد من ابناء سكانها البالغين مليون نسمة تقريباً . وكانت بعض الشيع قد اسست الدور الجامعية الاولى في الولايات المتحدة : هارفارد وييل . ثم اسست الولايات

بعض الدور الاخرى . ولكن اصحاب الملايين هم الذين لعبوا دوراً هاماً في هـذا المجال : « بيبدي » في نيويورك ، و « هوبكنز » في بلتيمور ؛ وهنالك جامعة تعرف باسم « جامعة فاندربلت » ، وقد انقذ روكفلر جامعة شيكاغو بمنحها ١٢ مليون دولار ، بينما كرّس كرنجي مبلغاً مماثلا لتأسيس معهد للابحاث العلمية .

لم تكن الاخلاق الديموقراطية لتتنافى ووجود بعض الفئات المقفلة . فقد كان منها ست في بوسطن . وكان ظرفاء نيويورك يجتمعون في « سومرست » او في « نيكربوكر » . ولكـن الاميركي ، فقيراً كان ام غنيـا ، لم يقرأ كثيراً : فقد كانت تكفيه الصحيفـة التي توفر له بانتظام الاخبار المؤثرة والاخبار المتفرقة وتحمل على التقيد بالمبادىء السليمة . وقد لوحظ ان الطلاق كان اسهل منه في اي مكان آخر (طلاق من كل ١٥ زواجاً مقابل طلاق من كل ٣٠٠ في انكلترا) ، وبدت المغازلة وكأنها نظام معمول به . يضاف الى ذلك ان كافة هذه المجتمعات المدنية قد شعرت بحاجة ملحه الى الألاهي : فشغفت اميركا بمبارزات الملاكمة ؛ واوستراليا وزيلندا الجديدة بلعبة الكرة والصولجان ولعبة كرة القدم وسباق الجياد .

اذا افتقرت الحركة الادبية زمناً طويلا الى صفات ذاتية مميزة في دول الامـبراطورية البريطانية ، حيث تمتع المؤلفون الانكليز بنفوذ فعلي (كان لكندا وحدها مدارسها التي عبرت باللغتين عن فكر محلي خاص) ، فلا نزاع في ان الادب الاميركي قد لمع بنضارة الشعر ، ورقة التحليل السيكولوجي ، والحياة النابضة في وصف البيئة . فبرزت بين الادباء مواهب كبرى انتجت الكثير من المحاولات والقصص والروايات البالغة الأهمية .

ما كانت الولايات المتحدة من قبل لتجهل الرومنطيقية التي كان من شأن طبيعتها البكر ان تحرك اندفاقاتها . ثم جاءت الحرب الاهلية التي عظمها « وولت ويتمن » كامتحان مخصاب : « شاهدت البرق الحقيقي . شاهدت مدني الكهربائية . عشت لكي أرى ظهور الانسان ويقظة اميركا المحاربة » . اجل لقد قام ، منذ السنة ١٨٧٠ ، من يشكو من عيوب مجتمع الاعمـال والاوساط السياسية : وكان الغرب قاسيا ابداً حين شكا منها . وانما يجب انتظار السنة ١٨٩٠ حتى تميط الواقعية الستار حقا عن المفاسد ؛ وعلى الرغم من ذلك فان « كراين » قـد تعثر في فضيحة مع « ماغي » احدى « بنات الشوارع » ؛ ولكن « مارك توين » اكتسر من رغـوه بمحادثة معاصريه بلغة ماجنة وبالاستهزاء بالتعابير الاوروبية القديمـة المبتذلة . وسوف تبرز الطبيعة في عهد متأخر معنى القصة التشاؤمي في مؤلفات « درايزر » الذي سيشدد على التسلط الجنسي . فبقي ان فردية العالم الجديد النفعية قد ارتضت بنظريات سبنسر و « وليم جايمس » . استقبل الاول بحماس في السنة ١٨٨٢ ، ووجد صدى عظيما لدى رأي عام متفائل حقاً ؛ فدعا هذا الرأي العام الى التسليم بأن الحرية ومذهب الارتقاء يتزاوجان ويولدان التقدم . اما الثاني فقد نادى بالحاجة الى بذل الجهود ، ومثّل الحقيقة بالنجاح ، وأكد ان « الدين يتصـل بالحياة » وربط بين صحة الاخلاق وصحة الجسد ، واقترح مذهباً عملياً مطابقـاً لمقاصد شعب مولع

بالابتكارات العملية .

اما بصدد الحاجات الفنية ، فقد ارتأت هذه الشعوب الجديدة ، دونما خجل ، ارضاءهـا باقتباس افكار اوروبا وحتى منجزاتها . فقبل السنة ١٨٦٠ شغفت امـيركا بالمعبد اليوناني ، فشيدت الكثير من الدور الحكومية ذات الاعمدة والمزارع ذات المثلثات في أعلى مقدمتها ؛ ثم اهتدت الى النمط القوطي وأضافت بعض التفاصيل الاوسطية الى ابنية مربعة الشكل . وكل من توفر له المال اللازم اراد ، حوالي السنة ١٨٨٠ ، اقتناء مسكن على نمط مسكن « هوسمن » ، او قصر على نمط الحمراء ، او بيت خشبي على نمط البيوت السويسرية . ومع اعجابه بالروائع الاوروبية فقد نصح « ويتمن » بعدم تقليدها ، وفي نظر رجل الشارع ما كانت كنيسة القديس بطرس في روما لتوازي الكابيتول في واشنطن . ولكن ذلك لم يمنع « هانت » من اعـادة بناء بيت « كورنيليوس فاندربلت » على النمط الايطالي مضيفاً اليه قفص سلم قد يتسع لمحطـة سكة حديدية . وكان « فرانك لويد رايت » احد الاوائل الذين ابتكروا اشكالا جديدة ، واضحة ومتناسقة ، لا سيا في بوفالو وشيكاغو .

وبنت اميركا هذه نفسها مسارح فسيحة ، ولكنها لم تتوفق الى اعطائها الروح . وحـين نزلت « راشيل » الى البر الاميركي في السنة ١٨٥٥ ، اهتزت نيويورك كلها حبوراً ، وعرضت حلويات ومخدّمات وسجاير وقبعات ليلية حملتها اسم راشيل ؛ وفي اورليان الجديدة طلع صاحب احد المقاهي الخاملة اسم راشيل بشراب (« بوتش ») راشيل . وصفق رواد الحفلات الموسيقية لموسيقى الكلاسيكيين والرومنطيقيين بينما فضلت الجماهير المهزلة الموسيقية المليئة بالحـوادث المؤثرة المعقّدة .

لم تتمثل الفنون التصويرية بأسماء كثيرة : فـ « هويستلر » هو الاسم اللامع الوحيد بـين رسامين كثيرين لم تنقصهم الموهبة ؛ ولكن ليس هناك من مدرسة مجددة حقيقية .

وجملة القول ان هذه الشعوب الانكلوساكسونية الفتية قد تفرغت بحب تفضيلي للنشاطات التي تتيح لها احكام السيطرة على الفضاء والمادة ؛ وقد بحثت اول ما بحثت عن البهجة في الحركة ؛ واناطت فخرها بفتح القارات وتحقيق الرفاهية المادية .

الفصل الثالث

الأيام الصعبة في أميركا اللاتينية منذ حروب الاستقلال

اختلفت اميركا ، المعروفة عموما باللاتينية ، اختلافا عميقا عن اميركا الانكلوساكسونية . فكانت لها حضارة خاصة اقدم عهداً . وكان سكانها يقدرون بـ ١٩ مليون نسمة في اوائل القرن التاسع عشر ، فكانت هي من ثم متقدمة من حيث الاعمار ؛ ولكن معظم سكانهـا كانوا منتسبين الى الاعراق الملونة ، وكان البيض منذئذ اكثر منهم عـدداً في الولايات المتحدة . فلنقابل الآن احصاءات اواخر القرن : انها تشير الى اكثر من ٨٠ مليوناً في القسم الشمالي من العالم الجديد ، وهو اصغر مساحة بصورة ظاهرة ، بينما لا تشير الا الى ٦٣ مليونا في القسمين الاوسط والجنوبي من هذه القارة . فالزيادة من ثم كانت اقل منها في امـيركا الشمالية . وعلى الرغم من أن الزيادة بلغت ٧٣ بالمائة بين السنة ١٨٠٠ والسنة ١٨٥٠ ، و ٩٢ بالمـائة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ ، مما رفع معدل الكثافة من ١ الى ٣،٤ في الكيلومتر المربع ، فليس أمامنا بعد سوى نسبة عددية طفيفة من مجموع سكان العالم : ٤ بالمائة بدلا من ٢،٥ [1] .

انطوى التوزيع من جهة ثانية على مضادات تلفت الانتباه . فقـد احصي ١٥ مليونا في البرازيل التي لم تتجاوز كثافة سكانها العامة ١،٧ ؛ ولكن اذا هبطت هذه الكثافة الى ٠،٠٦ في « ماتو غروسو » و ٠،٠٤ في « أمازونيا » ، فانهـا ارتفعت الى ٣١٢ في منطقـة « ريو » . وقد بلغت ٥٣ في « سان سلفادور » ، و ٤ فقط في نيكاراغوا المجاورة . وكانت نسبة السـكان في الانتيل ، بصورة عامة ، ارفع منها الى حد بعيد في القارة القريبة .

---

(١) راجع البيان في الصفحة ١٠٠ .

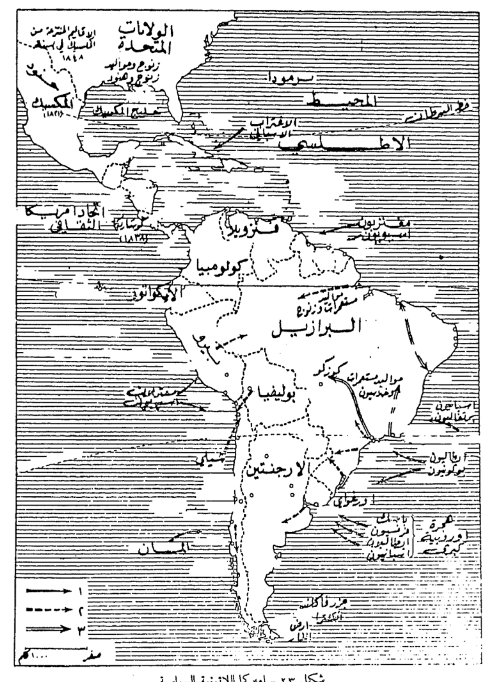
ربما كان باستطاعتنا ان نعزو هذا التدني الى وضع البـــلاد بالنسبة لخط الاستواء . فنسبة الولادات مرتفعة (٤٠ الى ٥٠ بالمائة في البرازيل) ، ولكن نسبة الوفيات مرتفعة جداً ايضاً . ومرد ذلك الى ان المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان هي حرم الهواء الاصفر (« الهواء الاسود » الذي فتك بـ ٢٨ الف ضحية في البرازيل بـــين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٥) . كما يرد كذلك الى ان الاجمية والزحار تسلطا على الاراضي المنخفضة والحارة قرب الشواطـىء ، وان الجدري والتيفوس قد عاثا فساداً في الهضاب المرتفعة . فالمناطق الجنوبية وحدها هي مـــا استهوى الاوروبيين ؛ ولكن الهجرة لم تتجه الا في عهد متأخر شطر هـــذه المنطقة الجنوبية النائية .

سيطرة مواليد المستعمرات والهجرة الاوروبية الجديدة

خلافاً لما حدث في اميركا الشمالية ، لم يتغلب العرق الابيض قط على العرق الاميركي بحصر المعنى — وقد اقترح بعضهم تسميته بالعرق الاميركي الهندي او الهندي الاميركي — الذي دافع عن نفسه بفضل المناخ والبيئة والعدد. وهكذا فقد ألف الهندي قوام سكان بوليفيا والبيرو لانه يتحمل الـ « بونيا » أو داء الجبال الاندية العالية ، اكثر من البيض . ولكن الاوروبي توفق في كل مكان الى اخضاعه لسيطرته . وقد تحقق اخضاع اميركا الحمراء هذا على مرحلتين : قوّض « فاتحو » القرن السادس عشر امبراطوريات الهضاب الاندية ؛ واضطر سكان المنطقة المعتدلة ، الـ « شاروا» في الاوروغواي والـ « آروكان » في « شيلي » ،الى الانحناء بدورهم خلال القرن التاسع عشر . وتأسست كذلك في هذه الاثناء ، بواسطة النخاسة ، ولمصلحة البيض، اميركا السوداء .

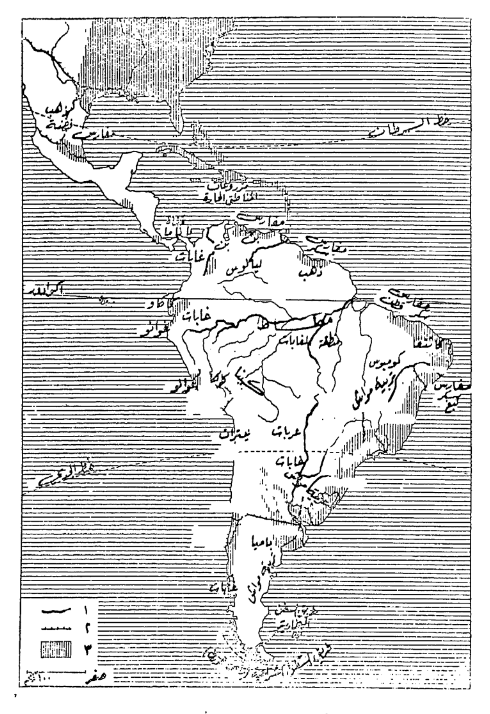
كان عدد مواليد المستعمرات ٣ ملايين فقط حوالي السنة ١٨٠٠ . وكانوا مصممين على الحلول محل اسبانيا والبرتغال. وعلى غرار ما حدث في فرجينيا، لم تعن الحرية ، في رأيهم، الغاء الاعمال الشاقة والرق . ولكنهم خلصوا من قراءة الفلاسفة الى العزم على انتزاع املاك الاكليروس والحد من امتيازاته . والسبب في ذلك ان ممتلكات الكنيسة كانت على جانب كبير من الاهمية : فهي قد شملت ، في المكسيك مثلا ،نصف المساحات المستثمرة . وقد فرضت صفة الاملاك الوقفية وجود الكنيسة في كل مكان .

وعرفت الديمومة الاملاك العلمانية الكبرى كذلك خلال القرن التاسع عشر . فحوالي السنة ١٨٨٠ كان لا يزال في المكسيك بين ٨و١٠ آلاف مشروع استثماري،ولكن مساحة بعض المزارع الكبرى قد بلغت ٦٠ وحتى ١٠٠ الف هكتار ، وقاربت نسبة الريفيين المحرومين من الاراضي ٩٥ بالمائة . ومن مواليد المستعمرات الـ ٣٠٠ الف في الشيلي، امتلك ٣٠الفاً كافة الاراضي الزراعية تقريباً ، و ٦٠٠ اكثر من نصف هذه الاراضي . وتقاسم السهل الفسيح في المنحدر الشرقي لجبال الاندس الجنوبية بعض كبار الملاكين الذين ادخلوا في خدمتهم خلاسيي المنطقـــة ، وأجروا المهاجرين الفقراء ، لآجال قصيرة ، بعض القطع الصغرى . وفي الهضبة البرازيلية ، حـدث ان



شكل ٢٣ ـ اميركا اللاتينية السياسية

١ ـ تيارات الهجرة ؛ ٢ ـ انتقال السكان ، الطرق التي سلكها العبيد



شكل ٢٤ ـ امريكا اللاتينية الأقتصادية

١ ـ طرق مائية طبيعية مستعملة ، ٢ ـ الخطوط الحديدية الاولى ، ٣ ـ مناطق تبدل فيه وجه الطبيعة تبدلا كاملا بفعل عمل الانسان ، على حد قول جيجر .

بلغت الاملاك الكبرى مساحة تقارب مساحة دولة اوروبية كايطاليا او انكلترا . وفي كل مكان ساد اقتصاد يستهدف تأمين الحاجات الاولية قبل اي شيء آخــر بسبب ضعف المقايضات وندرة النقد .

أتاح المنجم جمع ثروات طائلة وظفت جزئياً في العقارات . وانما لم يكن هناك رأسمــالية صناعية جديرة بهذا الاسم ، لأن اميركا اللاتينية كانت تصدر خاماتها ومحاصيل زراعتهـا دون ان يدخل عليها اي تحويل .

اكتفى الملاك من مواليد المستعمرات بالتمتع بحاضره . ففي بلدان كثيرة، كشيلي والبرازيل مثلا ، احب الاقامة في المدينة حيث عاش عيشة بطالة . واذا ما حدث ان اقام في اراضيـه ، فانه غالباً ما يكل امر ادارتها الى رؤساء خدامه . واذا جمع ثروة، فانه يفضل النفقات المفرطة؛ واذا حدثت أزمة فانه يقلل نفقاته او يستدين ؛ يلاطف امرأته ويخضعها لوصاية غيورة بعد ان تعتني بها المربية ؛ ولكنها امية وسريعة التصديق على كل حال .

كانت هذه الطبقة الريفية ، البطريركية الطابع ، غــير المولعة بالاستحداثات ، الانيسة والبليدة ، تثقل وطأة الضرائب على يد عاملة بائسة يفسر انتاجها الضئيل الخمود المسيطر على الحياة الاقتصادية كلها . هذا هو ثمن الفتح . والحال تجددت الهجرة الاسبانية والبرتغالية عـلى نطاق واسع في اواخر القرن . ولكن الحدث الجديد هو وصول الالمان ولا سيما الايطــاليين باعداد كبرى . فكانت النتيجة ان اميركا اللاتينية القديمة ، الهندية والخلاسية والزنجية عنصرياً في الواقع ، انقسمت نهائياً الى منطقتين مختلفتين كل الاختلاف : فمن جهة ، المنطقة الواقعة بين خطي الجدي والسرطان حيث توطد تفوق الدماء المختلطة والهنود ؛ ومن جهة اخرى ، اميركا بيضاء ثانية ، مماثلة للاولى ، اضيق رقعة منها واقل سكاناً، تقابل مستعمرات الراس واوستراليا وزيلندا الجديدة . وقد تحقق هذا الفتح الاوروبي الجديــد بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٤ ، فأوجد تضاداً اقوى منه في الماضي بين الارجنتين والاوروغواي والشيلي وحتى شطر من البرازيل الجنوبي وبين باقي العالم اللاتيني — الاميركي .

حياة السكان الهنود : بداوة وبؤس

هنالك مناطق واسعة لم يقم فيها سوى الهنود البرابرة تقريبا. فكان الـ « غوياهي » ، بين « بارانا » وباراغواي ، يأكلون كل ما يختص بالمولد الحيواني ، بما فيه من انواع الهوام كالزنابير والنحل الذي بحثوا عن عســله ايضاً . واشتهر الـ « بوتوكودي » او « ايموري » بأقراصهم الشفهية . وتسكع في البـؤس نفسه الصيادون الـ « بورانا » و الـ « كارايا » في البرازيل ، و الـ « شـانغو » في السواحــل الشيلية ، والـ « اونا » في جزر النار ، وقد افنى هؤلاء الاخيرين شيئا فشيئاً رجال المزارع ومرض السل. اما الـ « اباش » و الـ « الكومانش » في المكسيك الشمالي فكانوا بدواً يربون المواشي ، وقد انتشرت هذه الحياة البدوية في اقصى الجنوب، في منطقة « باتاغونيا » . وامــا الـ « شاروا » القساة، الذين

واجه البيض والخلاسيون شتى الصعوبات في اخضاعهم، فقد اعتمدوا الحصان في صيد الحيوانات على غرار الـ « تهوالتش » ، وكانوا يكتفون بضرب خيام من الجلد يحتمون بها من الرياح . وفي الشيلي ، تعاطى الاروكان ، الذين الفوا اتحاداً حربياً شبيهاً باتحاد الـ « ابروكوا »، زراعة الذرة الصفراء وتربية المواشي في آن واحد .

بيد ان اهل الحضر كانوا اكثر عدداً الى حد بعيد. ويمكننا الكلام عن حضارة الذرة الصفراء التي سيطرت على المناطق الواقعة بين الجبال الصخرية وجبال الاندس الجنوبية . فهناك منطقة الذرة الصفراء الشمسية الممتدة حتى المكسيك الوسطى : حيث يسحق الحب بواسطة الهاون ويستهلك بشكل طلم . وافضت هذه الزراعة الى قيام قرى ثابتة ، ونشطت صناعة الخزفيات التي استجابت للحاجات المنزلية والتزيينية . وتبدأ في بــــلاد الـ « مايا » منطقة الذرة الصفراء المروية التي غالباً ما تزرع في الاراضي المحرقة : فأضيف الى الطلمة معجون الذرة الصفراء الممزوج بالماء فقط . اما الحبوب فغالباً ما تزرع وفاقاً لطريقة بدائية جداً : ففي نيكاراغوا استعمل بعضهم اداة شبيهة بالسيف اكثر موافقة لحفر حفر البذار منها لحراثة الارض . وفي كل مكان استخرجت من الذرة الصفراء جعة (شيشا) مسكرة .

في اميركا الوسطى والانتيل وغويانا كان المنيهوت مفضلا في بعض الاماكن عـــلى الذرة الصفراء . ولكن الذرة الصفراء استعادت كافة حقوقها في جبال الاندس . ففي كولومبيـــا زرعت مع البطاطا والقلقاس الهندي . وفي شيلي دخلت حبوبها في اعداد كافة اصناف الاطعمة واستخدم لباس زهرها للف الدخان . وفي هضاب البيرو وبوليفيا المرتفعة ولدت قساوة المناخ والجفاف حضارة مشتركة تمكنت من مقاومة الجدب بواسطة زراعة المنحدرات والري. وقد استمر مثال الهندي القديم ، الذي خضع فيما مضى لتنظيم دولي صارم ، ثم التحق بالنظـــام السيدي في عهد الفاتح الاسباني ، فشاهد تعاقب الحكام ، جامد القلب غالباً ، على مزيد من الفظاظة هنا ، ومزيد من الوداعة هناك ، واحب الارض ، فتمسك بالاملاك المشتركة التي كانت غير قابلة البيع مبدئياً . ولكنه كان يخاف من الكد او لا يستطيع العمل بنشاط . ويرد ذلك الى سوء تغذيته . فاذا لم يحصل على الذرة الصفراء اكتفى بالبطاطا واللوبياء ؛ وقـــد احب بالتفضيل البطاطا المجلدة المطحونة التي دعاها « شونو » . وأعد حساء بأوراق « رجل الاوز » . وحصل على بعض الحليب من الجمل الاميركي والالبكة اللذين كان يحدث ان يربيهما ؛ ولذلك كان يفتقر الى الشحوم والمواد الآزوتية . واكثر من احتساء الشيشا ، وكان شغله الشاغل تحضير الـ « اكوليكو » وهي كتلة صغيرة من اوراق الكوكة يصنع منها كرية يضعها في فيه : يمضغها اثناء سيره او مزاولة اعماله فيتولد فيه النشاط . وكان بيته مبنياً بالصلصال المجفف بحـــرارة الشمس ، ومؤلفاً من غرفة واحدة لا نوافذ ولا سقف ولا ارضية لهـــا ولا سرير فيها . وكان ينام على فراش مصنوع من جلود الحيوانات . وقد رآه الرحالة « موسترز » ، في السنة ١٨٦٦ ، بعد بواسطة الحبال المعقدة . اجل لقـــد تمكن المستعمر من تقويض امبراطورية الـ « انكا »

وتبشيرها بالانجيل ، ولكنه لم يتمكن من تغيير طبيعة هذا الكائن الذي بقي متعلقا بشياطينه الاليفة والارواح التوابع وآلهة الجبل والثلوج والبحيرات ، وعبد الشمس والقمر . واستغله الزعيم والكاهن والقاضي استغلالا دائما فتلهى بالرقص والعزف على الشبابة والمزمار . واذا هو تعلم الاسبانية فلا ينسيه ذلك لغته، الـ « ايملرا » اوالـ « كيشوا » او الـ « تاهواتل » اوالـ « مايا » . وعلى الرغم من تمتعه بالحقوق المدنية ، لم تستهوه الوظائف العامـــة . ولم يكن من مشاركة حقيقية بينه وبين الابيض. يضاف الى ذلك انه حينما كان فرضت عليه اعمال التسخير والاتاوات. وقد خضع لنظام نصف فدادي في المنجم. وكاد لا ينجو من هذا النظام الا بمرافقة قطيع جمال اميركية او بمواكبة القوافل او بصناعة القبعات ، كما في الاكوادور، بموص خاص يحـــاك تحت الماء .

مصير الدماء المختلطة والزنوج

كان عدد السكان من الدماء المختلطة اكثر من عدد السكان البيض . وكان معظمهم من الخلاسيين المولودين من البيـض والهنود المتزاوجين ، يضاف اليهم نسبة دنيـــا من الخلاسيين المولودين من البيض والزنوج والـ « زامبو » المولودين من الهنود والزنوج. وقد نجح الخلاسي احيانا في الارتقاء في السلم الاجتماعي. وحدث أن جمع ثروة بتربية المواشي وادارة الاملاك وحتى باقتنائها احيانا ، واستثمر بدوره حينذاك الملونين الفقراء أو الارقاء . تعاطى حراسة قطعان الماشية ، فأصبح في فترة من الزمن ملك الارجنتين ، وانضم الى البولسيين فأسهم بنشاط في احياء الاراضي في الهضبة البرازيلية التي يمر فيها خط الجدي . وفي سالفادور تملك معظم الخلاسيين الاراضي فعرفوا بـ « لادينوس» ومن فرع الغواراني انحدر الـ «ملوك» المولود من ام برتغالية ،و الـ« شولو »في البيرو ، والـ «روتو» في شيلي، وكلهم عناصر نشيطة. وانتسب سكان باراغواي المحرابون الى الغواراني وخلاسييهم . وقد سال الدم الهندي في عروق زعماء (كوديلو) كثيرين . ولكن عامة الدماء المختلطـة لم ترتفع يوماً الى طبقة اهل اليسار . ففي الشيلي مثلا خضع الخلاسيون لاعمال التسخير وارتبطوا بكبار الملاكين من مواليد المستعمرات بعقود الحقت بهم المزيد من الغبن .

أقام الزنوج وخلاسيوهم حيث أدخل البيض الافريقيين اي من جهة الاطلسي ، من الانتيل حتى الريو . وفي اوائل القرن جاءت كذلك موجة من الانتيل نحو كولومبيا ومناطق غويانا ، وموجة اخرى من غينيا نحو « بارا » و « مارانهاوو » ، وموجة ثالثة من الكونغو وبنغويـــلا والموزامبيك نحو « باهيا » . واعتق ١٠٠ الف عبد في منطقة غويانا الانكليزية في السنة ١٨٣٨ ، و ٦٠ الفاً في المنطقة الهولندية في السنة ١٨٦٣ . ولكن الجماعات الكبرى عاشت في البرازيل. ففي السنة ١٨٧٠ ، كان في البرازيل البالغ عدد سكانها ١٠ ملايين نفس ، ١٢٠٠٠٠٠ زنجـي بينهم ٩٠٠ الف معتق ، و ٤ ملايين خلاسي من ابوين اسود وابيض بينهم قرابة ٥٠٠ الف عبد، ولم تطرأ على الخلاسيين والبيض زيادة تذكر حتى السنة ١٩٠٠ .

كان الرق ، على ما يبدو ، اقل قساوة منه في الولايات المتحدة : فقد كانت البرازيل في نظر الاميركيين الشماليين بمثابة « فردوس الزنوج » . ومهما يكن من الامر فان الحصول على الحرية كان هنا اقرب منالاً . ولكن الغاء الرق سيتطلب وقتاً اطول . واما في المزرعة فكان العبد يشتغل من مشرق الشمس حتى مغربها ولا يتوقف عن العمل الا ساعة واحدة يتناول فيها طعامه؛ وغالباً ما ضُرب بالسوط على ظهره العاري ، وطُلب منه عمل اضافي في الليل . فلا عجب من ثم اذا كان انتاجه ضئيلاً . وقد شكا اصحاب مزارع البن من الاجور الباهظة التي تدفع لليد العاملة المتوانية .

اضطر الزنجي والخلاسي الزنجي ، بعد تحررهما ، الى العمل كمزارعين او كعمال زراعيين ، ما لم يفضلوا العمل في المنجم . ولكن مستوى حياة هؤلاء المساكين ، المعجبين بأنفسهم ، الارقاء الكلام ، السريعي التهيج، لم يتحسن قط. فقد حافظوا بعناد على عاداتهم ومعتقداتهم الافريقية. وقد استطاع بعضهم تبيان اوجه الشبه بين حضارة الـ « ياروبا » وحضارة زنوج كوبا وباهيا ، وبين العادات في هايتي والعادات في مارانهاوو في داهومي ؛ وفي غويانا، ربما اعتقد الانسان بأنه عند الـ « فانتي » او الـ « اشانتي » . ولم تخف المسيحية الطقوس الوثنية اخفاء تاما : فقد دخل بعض الآلهة الافريقيين في عداد القديسين او بقوا موضوع تكريم وتعظيم ، وبقي للعبادات الافريقية تأثيرها الغامض .

التغلغل الاقتصادي وهزال وسائل النقل

كانت اشكال النشاطات متحركة لأنها كانت بدائية. واتصف عمل احياء الارض بطابع الوقتية لأن الاحراج لا تلبث ان تستعيد الاراضي التي ينتزعها الانسان منها . ولكن الزراعة نفسها مسرفة ؛ وقد قام الخلاف ابداً بينها وبين تربية المواشي والمنجم . فاذا تزاحم الناس على العمل في المنجم هاجر السكان المغارس وتركوا القطعان . واذا استُخرج كل ما في المنجم عادوا الى الاعمال الزراعية والراعوية . وكانت هنالك في البدء برازيل السكر والمناجم حول محور باهيا و « ميناس جيريه » ؛ ثم تدنت زراعة قصب السكر ، بينما حلت محلها زراعة القطن وشجرة الكاكاو والتبغ او اجتذبت الناس الى ابعد من مواطن هذه النباتات ؛ وبالمقابلة عرفت « غوياز » وميناس الازمة : فان مصاهر تنقية المعادن المنشأة في جوار الاحراج حول « اورو - بريتو » قد اخمد نيرانها الخط الحديدي الذي نقل الحديد الاجنبي . فعاد رعاة البقر الى قطعانهم في الهضاب الداخلية ، وعاد من تبقى من عمال المناجم والمصاهر الى « ساو باولو » التي كانت بحاجة ماسة الى اليد العاملة في مغارس شجر البن ؛ وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ عرفت المناطق الواقعة على خط الجدي بدورها ثروة مفاجئة . اما شيلي الراعوية فقد اكتشفت حوالي السنة ١٨٥٠ رسالتها الزراعية بامارتها الباحثين عن الذهب في كاليفورنيا بالحبوب . وأما السهل الارجنتيني فقد تغير وجهه تكرارا اذ تعاطى فيه السكان على التوالي تربية المواشي الكبرى وتربية الاغنام ثم تقسم الى عدة مناطق تميز كل منها بنشاط مميز .

يصح القول نفسه في سرعة التغيرات التي طرأت على الصناعة الاستخراجية . فعلى الرغم من أن مناجم الفضة في « بوتوسي » و « سرو دي باسكو » ما زالت مثاراً للفتنة ، فان دلائل النقص في المعدن كانت سبباً ، في منتصف القرن ، في انتقال الجماهير الى « الجبال الملكية » و « اورورو » من جهة ، والى جبال « كربايا » من جهة اخرى حيث اكتشف الذهب على ارتفاع ٥ آلاف متر. واستأثر استخراج الفضة في البدء باهتمام شيلي ثم توجهت الاطماع شطر النترات والنحاس . اما في المكسيك فقد تعاقبت فترات ارتفاع حمى البحث عن المعادن وهبوطها تعاقباً مطرداً .

كانت مسألة النقل احدى المسائل العسيرة جداً . لقد جعلت الطبيعة من قطع المسافات عملية طويلة وشاقة ، فابرز ذلك اهمية الطريق المائية الطبيعية للجماعات البشرية والكيانات السياسية . فبينما وقفت مناطق البرازيل الشرقية سداً في وجه الساحل الاطلسي ، اتاحت الشبكة الامازونية بلوغ لحف جبال الانديس من الشرق وغوياز و« ماتو غروسو » . وحين اقفل « روزاس » البارانا بين السنة ١٨٤١ والسنة ١٨٥٢ ، تحولت حركة النقل الى الاوروغواي ، فكان ذلك فاتحة ازدهار الجمهورية الشرقية . ولم يكن الهدف من حرب الباراغواي سوى امتلاك شبكة الطرقات الطبيعية المؤدية الى « لابلاتا » .

فما العمل للانتقال من حوض الى آخر ؟ ما زال العائق الاكبر الجبل الذي يحاذي المحيط الهادي . ولذلك استخدم النقل الكولومبي نهر « ماجدولينا » ووجه الدولة الكولومبية شطر بحر الانتيل. وكذلك وجهت الطريق التقليدية الى هضاب البيرو شطر الاطلسي الجنوبي: على هذه الطريق الفضية تمكنت « توكومان » من تنمية مغارس قصب السكر بتصريفها السكر في مناطق المناجم المرتفعة ، واستخدم الملح القريب من « بونيادي اتاكاما » لحاجات قطعان جبال الانديس قبل ان ينقل الى سكان الـ « بامبا » . ويتضح من ثم ما كان للزوامل ، ولا سيما للبغال ، من اهمية كبرى . فهي قوافل البغال ما كانت تؤمن النقل في جبال الانديس والهضبة البرازيلية . اما في السهل فقد امكن استخدام العربات التي تجرها الخيول او الثيران: فالارجنتيني كان يمتطي الحصان اذا كان مستعجلا او يستخدم العربة الثقيلة التي يجرها حتى سبعة حيوانات والتي اتاحت عجلاتها الكبرى اجتياز المخاضات .

جاذب الحياة في المدينة وبطء تطور الوظيفة المدنية

ان الاسبانيين والبرتغاليين المتوسطيين نقلوا معهم الى ما وراء الاوقيانوس ميولهم المدنية . وعلى الرغم من نموها البطيء ، لعبت المدن دوراً عظيماً جداً في هذه الحضارة الايبيرو - اميركية .

ذكرت مدينة العهد الاستعماري تذكيراً مدهشاً بمدينة شبه الجزيرة ، وذلك بكاتدرائيتها الفخمة ، وابنيتها العامة العظيمة ، وينابيعها الجميلة . وعرضت لنا باعتزاز « ساحة الاسلحة » و « سانتياغو » الشيلية شوارعها الاربعة التي تنتصب على جنباتها اشجار الحور الظليلة ، والاقنية

التي تمر فيها وتسمح برش الشوارع ؛ وتباهت « ريو » القديمة بمساكنها البرتغالية الانيقة ذات الشرفات . الا ان الحجر نادر بصورة عامة : ولم يبن بالحجر الجميل الصلب سوى ريو و « كوزكو » . فمواد البناء المستعملة عادة هي القرميد المشوي بحرارة الشمس الذي يجب طليه لاعطائه بعض البهرج . ولم تسقف البيوت الصغرى في اغلب الاحيان الا بالتبن الطويل ، وقد حدث ان الامطار المتساقطة بغزارة في ليما قد تسببت في انهيار السقوف . يضاف الى ذلك ان الناس كانوا يخشون الزلازل : فزلزال السنة ١٨٢٨ قد دمر عاصمة البيرو ، وزلزال السنة ١٨٥٤ دمر سان سالفادور . وفي كافة المناطق الحارة جمعت الغرف حول فناء تشاهد فيه بعض الطيور والحيوانات المؤالفة كالببغاء والقرد ؛ اما الاثاث فكان قليلاً . وافتقرت المدن الى النظافة ، لا سيما وان شوارعها لم ترصف رصفاً جيداً بالبلاط . وفي عهد مكسيميليان فتحت في مكسيكو جادة كبرى جديدة تؤدي الى شابولتيبيك زرعت على جانبيها اشجار الكينا وانشئت فيها ، بين مسافة واخرى ، مستديرات ازدانت بالتماثيل . ولكن ما ان تهطل الامطار الاولى حتى يتعرقل السير بسبب الاوحـــال . اما التدابير الصحية فغير متوفرة ، لا سيما في الاحياء المنخفضة من الموانىء البحرية . وهو الاطار الطبيعي ما اوجد الفتنة ، اذ ان النوامي قد حجبت الكثير من القباحات ، وقد اشتهر جون ريو منذ تلك الايام بجماله الفتان .

ان القرن التاسع عشر لم يحمل قط ؛ بل بنى بسرعة وبدون ظرافة . فالمدينة الجديدة في ريو عادية ومبتذلة على الرغم من اتساع شوارعها وظهرت بوينوس ايرس لمدة طويلة بمظهر حقير فالمدينة نمت بسرعة فائقة وابنيتها شيدت في مساحات ضيقة . اجل لقد تم توسيعها وفاقاً لمخطط هندسي على طريقة المدن في اميركا الشمالية ، وانتقلت مساحة رقعتها من ٤٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٨٠ لـ ٣٠٠ ٠٠٠ نسمة فقط الى ١٩٠٠٠ في السنة ١٩٠٠ لـ ٧٠٠ ٠٠٠ . ولكن الاوبئة فتكت فيها بالسكان فتكاً ذريعاً (١٣٧٠٠ في السنة ١٨٧١) ، ولم يتحسن تبليط الشوارع قط قبل السنة ١٨٩٠ . فمنذ هذا التاريخ انجزت اعمال كبرى لتزويد المدينة بميـــاه الشفة ولتجهيزها بشبكة بواليع ؛ وبدأ استخدام الغاز والكهرباء .

كان للمدينة وظيفتها الاقتصادية ، كما في اي بلد آخر . فقد استخدمت مستودعاً (هذا هو دور « لاباز » للكينا ، ودور ساوباولو للبن) ؛ ودانت توكومان و « سالتا » بالكثير لاسواق تجارة البغال ؛ ولم تنم الموانىء الا بنسبة نمو التجارة البحرية . ولكن بصرف النظر عن جمودها وعن تصميم البعض لها بغية ايواء الادارات العامة وتأمين حاجات الحياة الاجتماعية ، فقـد طبعت ابداً بطابـع اداري وسكني بارز . وبين سكان المدن كثر هم الذين تفرغوا للسياسة والمهن الحرة : فان نصف الذين تلقوا دروساً عالية قد فكروا بمزاولة المحاماة . ولكن الهجرة قـــد ضخمت الطبقة الكادحة الامية بنوع خاص .

تخلفت المواصم الكبرى تخلفاً محسوساً عن العالم الانكلوساكسوني ، وهي لن تبرز حقاً الا في اواخر القرن ، دون ان يبلغ سكان اي منها المليون نسمة . ويجدر لفت النظر مرة اخرى

هنا الى اننا نتكلم عن عالم يجاوز سكانه الـ ٦٠ مليون نسمة .

ولادة رأسمالية اميركية جنوبية وتدخل الرأسمال الاوروبي

ان الطابع العقاري الصريح الذي طبع به الاقتصاد قد سيطر طيلة القرن على كافة ارجاء اميركا اللاتينية . فكان هناك اغنياء اثرتهم الحنطة في شيلي، او اثرتهم الجلود واللحوم المملحة في مناطق « لابلاتا » . وبرز شيئاً فشيئاً في البرازيل بعض المستفيدين من زراعة البن : فان اول آل « برادو » المشهورين قد زاول تجارة البغال ، وتوصل احد ابنائه الى تملك مقصبة فسيحة ؛ وبين اولاد هذا الاخير اكتشف احدهم بدوره « ارضاً حمراء » جيدة جداً واصبح في السنة ١٩١٢ رب مزرعة تحتوي على ١٧٦٧٠٠٠ شجرة . واشترك معه احد اخوته في تأسيس شركة الخطوط الحديدية البولسية لخدمة المنطقة ؛ وضمت هذه الشركة بين كبار مساهميها رب مزرعة كبرى اخرى هو البارون « ايتابورا » ، وقد اصبح باروناً بانعام من الامبراطور « بدرو» الثاني. وأسهم المنجم كذلك إسهاماً كبيرا في توسيع عدد الاغنياء . ففي البرازيل ليس « ماتا » وحده من برز وبرهن بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٦٠ عن انه صيرفي ورجل اعمال ماهر واسس العديد من شركات النقل والعمل في المناجم . ولكن التوفير ما زال ضئيلا لان المال ينفق على شراء المواد الباهظة الاكلاف او يبذر في الميسر والمراهنات . يضاف الى ذلك وجود الكثير الكثير من الوسطاء الارديا ء :كالحتّار الذي يبيع بالتقسيط لقاء سندات توليه حق استيفاء ديونه بتملك المواشي او البيوت ، و « الصرصور » الذي يزيف صكوك التملك .

ما كانت اميركا اللاتينية ، والحالةهذه،لتستطيع التجهز بدون مساعدة الدول الرأسمالية. فهي المؤسسات الاوروبية ما انشأت معظم الخطوط الحديدية . ويجب الاعتراف هنا بأن خط ساو باولو رائعة من روائع التقنية البريطانية : اذ ان القُطُر تتسلق خمسة منحدرات متعاقبة زوّد كل منها بجهاز خاص للجر . وهي « شركة البيرو التعاونية » ، التي كان مركزها في لندن واستخدمت مهندسين اميركيين ، ما بنت خط « مولندو » و « اريكونيا » باتجاه كوزكو وتيتيكاكا . اما الخط الذي يمر عبر الاندس فقد بني قسم منه في البامبا في السنة ١٨٨١ ثم اسند « بارنغ » التزامه الى الـ « كروزو » بعد ان امن مبلغاً من المال ، ولكن الالتزام رسا اخيراً على « كوكريل » .

في التجارة الخارجية احتلت بريطانيا مركز الطليعة الاول بعد ان تراجعت الولايات المتحدة نهائيا حوالي السنوات ١٨٤٠ - ٥٠ .وباستطاعتنا ان نعتبر ان اميركا اللاتينية تعلقت اقتصاديا ببريطانيا العظمى .

لم يكن الوضع المالي في الدول الفتية وضعاً سليما : فالوظيفة العامة باهظة الأكلاف ، على انها لم تكن في مأمن من الرشوة بسبب تدني الرواتب . زد على ذلك ان الحكام لم يحافظوا على مراكزهم الا بتعهد انصار يتأكلهم الجشع . لا بل كان من شأن برنامج التعليم العام وحده،

بسبب ما انطوى عليه من طموح ، إلحاق العجز بميزانية تغذيها بكل صعوبة الجمارك والضرائب المفروضة على مواد الاستهلاك . فتوجب من ثم اللجوء الى التضخم الذي خفض قيمة النقد والى القروض الباهظة . ولذلك فان تاريخ الجمهوريات هو ، على وجه التقريب ، تاريخ التزاماتها نحو الادارات المالية الاوروبية .

وافقت هذه الاخيرة على السلفات الاولى ابان الحروب الاستقلالية . ثم توجب عليها الاستمرار في مساندتها لتجنب الافلاسات التي ستجعل مدينيها عاجزين عن الوفاء . وهكذا استدانت شيلي من لندن بفائدة ٦ بالمائة في السنة ١٨٢٢ ؛ وتوقفت عن الدفع بين السنة ١٨٢٦ والسنة ١٨٤٠ ؛ وفي السنة ١٨٤٢ عُقد اتفاق حصلت سانتياغو بموجبه على مال جديد ؛ وفي السنة ١٨٥٨ ، استحصلت من آل بارنغ على قرض ثالث ؛ وفي تاريخ لاحق ولت البلاد وجهها شطر مؤسسة « مورغان » . وفي البيرو ، رهنت الشيلي النترات الذي وضعت يدها عليه خلال الحرب الباسيفيكية عند مؤسسة « دريفوس اخوان » . ولم يندر ان حصلت الدولة الدائنة على رقابة الجمارك او رقابة الخطوط الحديدية . ونذكر هنا قضية مشهورة جداً هي قضية دين « جكر » على المكسيك الذي كان سبب التحالف بين انكلترا واسبانيا وفرنسا ، ثم تدخل هذه الاخيرة تدخلا متمادياً. ولم تكن النزاعات بين الدول من اجل النفوذ نادرة الحدوث ايضا. وباستطاعتنا ، من اوجه كثيرة ، ان ننظر الى الحرب الباسيفيكية وكأنها مبارزة بين المصالح البريطانية وراء الشيلي ، والمصالح الفرنسية والاميركية وراء بيرو وبوليفيا ، كان النصر فيها حليف المصالح الاولى. وتقع على رأس المال الاجنبي كذلك مسؤولية اختلافات مدنية كثيرة.

وحدة الثقافة والتصادم بين التقليد وفكرة التقدم

ان من شأن الطابع الايبيري في حضارة اميركا الوسطى واميركا الجنوبية ان يخلق فينا وهما خادعاً . فلا ريب في ان ربع السكان يتكلمون الاسبانية أو البرتغالية، ولا يزال هناك عدة آلاف من اللهجات البلدية . وعلى الرغم من ذلك فان هذا الجزء من العالم مدين للغة الفاتح بوحدة ثقافية معينة : لغة العلائق من اجل المقايضات الاقتصادية وتبادل الافكار في مناطق شاسعة . ويلفت الانتباه ان الاشكال القديمة قد استمرت في الارياف دون المدن التي خلقت اشكالا جديدة .

على الرغم من ان الانجيل نادراً ما نجح في الحلول نهائياً محل المعتقدات القديمة ، فان الكنيسة قد لعبت دوراً كبيراً في نشر اللغات والعادات الايبيرية . والمقصود بالكنيسة هنا كاثوليكية متسلطة ترغب في رقابة الحياة الخاصة والشؤون العامة على السواء . وحين استطاع الاكليروس الى ذلك سبيلا ، ابطل حرية المعتقد واخضع الحقوق المدنية للمعتقد الكاثوليكي واحتفظ لنفسه بحق التعليم . ولكن اعداء الاكليروس حملوا الكنيسة مسؤولية امية الجماهير . وهكذا فان نسبة الذين عرفوا القراءة من الاحرار في البرازيل لم تتجاوز ٢٣ بالمائة في السنة

۱۸۸۰ ، ومن العبيد ۱ بالمائة .

بيد ان التمتع بلغة رنانة جميلة والميل الى ملاذ الفكر قد اعطيا الشعوب اللاتينية الاميركية مدارس ادبية غنية بالانتاج . ففي البدء "قدّر كلاسيكيو شبه الجزيرة حق قدرهم ، ثم جاءت الرومنطيقية ، ونظم الشعر ، واكتشفت الواقعية والطبيعية بدورهما حقلا فسيحاً للتوسع والانتشار . فصدرت مؤلفات شخصية مبتكرة كثيرة تعبر عن الاهواء وتنطوي على وصف رقيق جداً للطبيعة البديعة . وقد تجانب في هذه المؤلفات انسلال الوقائع ووصفها الدقيق ، كما ان الشاعرية لم تضر بالنضارة .

عصفت بالنخبة المثقفة مثالية متأججة . فبرزت بقوة مقاومة الوصاية الكنسية (ضد اليسوعيين ومحكمة التفتيش بصورة خاصة) ، وكان لفكرة التقدم في الحرية سحرها الاخاذ . وعُمل بالقانون المدني الفرنسي في الجمهوريات بعد ان ادخلت عليه تعديلات تجعله يتفق والعادات الاسبانية ؛ اما القانون الجزائي في البرازيل فقد لعدده خير اعداد حقوقي كبير اختصاصي في القضايا الاجرامية هو «برناردو دي فاسكونسلوس». وبكل جدية حرر الحقوقيون،من قراء « روسو » و « بنجامين كونستان » ، البنود الصريحة للنصوص الدستورية ؛ لقد قابل عدم الاستقرار الفعلي توق الى تثبيت القانون .

انتشرت الماسونية وانضم اليها الناس بأعداد كبرى . فان « سارمينتو »، حامل لواء التعليم العام في اميركا الجنوبية ، ومؤسس الدار الاولى لتخريج المعلمين – في شيلي ، في السنة ۱۸٤۲ – ومؤسس المدرسة النموذجية في بوينوس ايرس ، ورئيس حزب الاحرار في الارجنتين ، ورئيس هذه الجمهورية بين السنة ۱۸٦۸ والسنة ۱۸۷٤ ، قد برز بين كبار باعثي محفل « الشرق الاكبر » ومحفل « المجلس الاعلى » . واشتهر الماسوني « غاريبلدي »باشتراكه في القتال من اجل استقلال اوروغواي.وعن طريق الماسونية الانكلوساكسونية تسربت الروح النفعية الى مذهب الاحرار. ولكن الفلسفة الوضعية هي التي احرزت اعظم النجاحات إثارة الدهشة في اوساط المثقفين الذين كانوا يبحثون عن قاعدة يسلكون بموجبها . لا بل ان تعاليم « كونت » ، التي فسرت تفسيراً حرفياً ، قد دفعت الى تأسيس بعض الكنائس ، ككنيسة « معبد الانسانية»، واحدثت بعض النهضة في العلوم الاجتماعية . وسعى الشيلي « لاستاريا » الى التوفيق بين كونت و « جون ستوارت ميل » وتوكفيل . وفي البرازيل والمكسيك ادى الخوف من الفوضى والمذهب الوضعي مشتركين الى ولادة حزب « علمي » ابتغى نوعاً من الاستبداد المستنير القادر على تحقيق امور عظيمة .

كان سبب الخلاف في النزاع بين الكنيسة وخصومها نفوذ الاكليروس على المجتمع والمدرسة والسلطات العامة ؛ ولكن « الكفاح الثقافي » قد استهدف كذلك الممتلكات الكنسية التي اتاحت للكنيسة ان تكون دولة داخل الدولة ، والتي طمعت بها هذه الاخيرة لان كاهل ميزانيتها كان مثقلاً بالديون . فقابلت اعمال العنف التي اتاها هذا الطرف اعمال عنف اخرى اتاها

الطرف الآخر . اما التسويات القليلة التي تحققت فلم تدم قط طويلا .

تعـذر الوحدة الاقليمية

لم تضع حروب الاستقلال حداً للسيطرة الايبيرية فحسب : فهي قد كرست تجزئة الممتلكات الاسبانية الواسعة الاطراف . وهي البرازيل وحدها التي استطاعت المحافظة على اراضيها : ولو ان الاوروغواي انفصلت عنها . ثم توفي بوليفار منهوكا في السنة ١٨٣٠ بعـد فشل مشروع كولومبيا – الكبرى . ولن تسفر المؤتمرات من اجل تحقيق الوحدة ، التي ستدعو اليها المكسيك ثم البيرو ، الى اية نتيجة ؛ فقد نشبت منذ ذاك التاريخ نزاعات دامية بين الجمهوريات الجديدة . وهكذا فان ١٦ دولة قـد تقاسمت في النهاية اراضي البر الاميركي الجنوبي حتى رأس هورن ، قبالة الاتحـاد الشمالي الاميركي .

نجد تفسير هذا التفتت في الجغرافية . فقـد كتب « همبولدت » ان « الدول المتجاورة لا تتصل في معظم الاحيان الا بالمضائق الاستوائية » . ولما كان للبحر جاذبه ، فان التجمعات الطبيعية قد جرت بدلالة اقرب سـاحل اليها . وكان للاحراج الامازونية نصيبها الاكبر في قيام فنزويلا على بحر الانتيل وفي الحد من توسع الممتلكات الغويانية الانكليزية والهولندية والفرنسية التي تمكنت من البقاء ، للسبب نفسه ، على حـدود البرازيل ، وعلى هامشها اذا صح التعبير . واوقفت الصحراء زمناً طويلا التوسع الشيلي في الشمال . وتكونت باراغوي وراء الخـطوط المائية والمستنقعات واشجار الغابات الشائكة في « شاكو » . فالحدود تعني من ثم منطقة لا خطاً واضحا ، وقد تجددت المنازعات حولها تكراراً .

لم تقم سوى فوارق جزئية بـين خريطة التقسيمات الادارية الاسبانية (نيابات ملكية وقبطانيات) وبين خريطة الجمهوريات . فان عواصم الامس قد احتفظت بوظيفتها الجاذبـة ؛ ولكن المنافسات القائمة بينها ، على غرار الاثرة الاقليمية التي عانت منها اسبانيا في العهد نفسه ، قد زادت حدة التنازعات الاقليمية . فقد عجزت الوحدة الثقافية والتيارات التجارية التقليدية عن الحؤول ، في جو اقتصاد لا يزال بـدائيا ، دون تفرق السكان بفعل المسافات . لا بل اذا كانت الدولة واسعة نسبياً ، اصبحت وحدتها قصيمة جداً . فان المنازعات تنفجر حينذاك بـين العواصم والولايات ، وبين المدن والارياف ، وبين الوحدويين والاتحاديين : ففي فنزويلا مثـلا ظهرت نزعة سكان السهول الاستقلالية عن سكان كراكاس ، ونزعة رعـاة المواشي المماثلة في البامبا الارجنتينية عن بوينوس ايرس . وغالبا مـا رجحت كفة الحل الاتحادي في النهاية : الولايات المتحدة المكسيكية ، والولايات المتحدة الكولومبية ، والولايات المتحدة البرازيلية ، والولايات المتحدة الفنزويلية ؛ وقد اتخذت الارجنتين كذلك شكلا اتحادياً .

كانت الحرب شبه دائمة بين هذه الدول الفتية التي تأكلها التحاسد والجر حكامها الى خوض المغامرات الخارجية بداعي النفوذ وتنازعوا الطرق النهرية النادرة والهامـة وثروات المناجم

الثمينة . وحدثت هـــذه النزاعات في كل مكان: بين كولومبيا والاكوادر ، وبين الاكوادور والبيرو ، وبين الجمهوريات الصغرى التي نشأت عن تفكك اتحاد اميركا الوسطى . وكان مسرح ثلاثة او اربعة منها نيابة لابلاتا الملكية القديمة التي كانت مناطقها النهرية الشمالية مطمع الطامعين؛ وانتهى اهم هذه النزاعات هولا ، بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٧٠ ، الى افنـــاء شعب باراغواي الصغير . وبعيد ذلك نشبت الحرب المعروفة بالحرب الباسيفيكية التي انتزعت الشيلي خـــلالها من بوليفيا والبيرو المقاطعات الغنية بالنطرون وأقصت الاولى منها عن الشاطىء .

في اواخر القرن فقط ، اخذت هذه الدول تنصرف شيئاً فشيئاً عن طريق اللجوء الى القوة الى الاجراءات المعمول بها بموجب الحق الدولي . واوحت الاضطرابات التي عانى منها هذا الجزء من العالم بتقارب اميركي شامل اعتبر ضرورياً .

مرض آخر واســـع الانتشار : الاضطرابات الدائمة في قلب الامم الفتية . حكم الزعيم الفرد وصعوبة ولادة النظام الدستوري

دانت الجمهوريات مبدئيا بالحريات وحتى بالديموقراطيـــة ، ولكنها في الواقع كانت فريسة احزاب تنازعت الحكم بعنف. فنادرا ما توفرت الشروط التي تسمح بقيام نظام دستوري. يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان حروب الاستقلال ابرزت دور الزعـــيم ، اي الـ « كوديلو » . فان بوليفار « وسان مارتين » ، اللذين سيخلد ذكرهما ، قد تركا بعدهما خلفاء ومقلدين . وقـــد تجلت رومنطيقية ادبية بجدت العزائم الفردية : فان « اندراد » قد ذكر بمآتي نابوليون ، كما ان « مونتالفو » ، في « المعاهدات السبع » ، قد احل بوليفار فوق بطل العالم القـــديم . وليس هناك من حكومة تولت الحكم الا في اعقاب انقلاب او انتخاب افسدت فيه ارادة الناخبـــين ، ثم كانت ضحية اللاشرعية والاضطرابات . ففي المكسيك تولى الرئاسة شخص كل سنة تقريباً خـــلال السنوات الست والثلاثين التي عقبت سقوط زعيمها الاول « ايتوربيد ». وفي فنزويـــلا نشبت ٥٢ ثورة في اقل من ١٠٠ ســـنة . وكانت بوليفيا مسرح ستين عصياناً عسكرياً ، وغيرت دستورها عشر مرات ، واماتت او سمحت باماتة ستة من رؤسائها. ولم تعرف باراغواي نظاماً غير الدكتاتورية . ويروى ان ضحايا ثورة السنة ١٨٧٩ في كولومبيا بلغوا ٨٠٠٠٠ .

ان حسم الخلافات على هذا النحو اتاح لبعض المـــلونين ان يلعبوا دورا هاماً . فان الرشوة والنداءات المهيجة والحقد المزمن على مواليد المستعمرات الاغنياء قد دفعت العامة الامّية وراء المغامر الجسور . اضف الى ذلك ان الكوديلو قد بدا وكأنه مواصل عمل الزعيم الهندي . فـكم من وجه اثار الاعجاب ؟ والى جانب بعض مواليد المستعمرات المهذبين تهذيباً ارستوقراطياً ، من امثال « روزاس » الشبيه بأشارف الاســبانيين ، « وبورتاليس » المحافظ على القيم التقليدية ، كم من ملون غريب الاخـــلاق ؟ وانما نكتفي هنا بذكر راعي الخنازير الهندي ، « كاريرا » ، الذي حكم غواتيمالا حكما استبداديا طوال خمس وعشرين سنة . واي انتقام كذلك حين يحكم المكسيك هندي من امثال « بنيتو جواريز » او خليفته الخلاسي « بورفيريو دياز » ، او حين

يحكم فنزويلا « بايز » الاسمي الطويل القامة الذي كان فارساً ماهرا نظير روزاس !

ورقة تولي الكوديلو السلطة وورقة اخرى تنتزعها منه . اليوم هو رســـول العناية الالهية الواجب الوجود ؛ وغدا سوف تلحق به كل شتيمة ؛ واذا ما استلم دفـة الحكم مرة اخرى ، استعاد شعبيته . ومن غريب التناقض انه انما ينتهك حرمة القانون بغية فرض احترامه احتراماً افضل . اما الكنيسة فترضى عمن ايدته او من هو بحاجة اليها ، وتعاني من النظام الذي تكون هي ضحيته .

ولكن مهما يكن من قساوته ، فان هذا النظام ، الذي كان وليد الفوضى ، كان علاجها ايضاً . يثقل الضرائب لمصلحته ، ولكنه يثقلها لمصلحة الدولة ايضاً . وقد ظهر ممثله بمظهر الموحد حين دعـــي روزاس في الارجنتين وبورتاليس في شيلي وجواريز في المكسيك . لقد تمثل بالاميين ولكنه اهتم اهتماماً كبيرا بالتعليم العام ؛ وتمثل بالعسكريين والحقوقيين ، ولكنه كان واسع الآفاق ، فوفر العمل بتأسيس المشاغل والمصانع . وجملة القول انه اعاد وصان وأمن للمستقبل الوحدة الوطنية ، وان تخلى عن بعض حقوقه للرأسماليين وللدول الاجنبية .

الاستمرار والتنوع البرازيليان

من غويانا الى مشارف لابلاتا ، ومن جبال الاندس الى الاطلسي امتدت سيادة واحدة ، كما في عهد السيطرة البرتغالية ، عـــلى اكثر من ٨ ملايين كيلومتر مربع . وعلى نقيض ما حدث في الاقاليم الاسبانية السابقة ، استمرت هذه الوحدة في كنف السلالة الشرعية ، سلالة « براغانس » فكان للبرازيل من ثم وجـــه مميز خاص .

لم يستلزم ابقاؤها على سلالتها الاوروبية اي ارتباط بالوطن الام القديم . وقـد حافـظ « دون بدرو » على كرسيه في ريو لانه برهن في برهة من الزمن انه برازيلي اكثر منه برتغالي . وعرف كيف يقتنع بنظام دستوري ترك له ، من جهة ثانية ، سلطة حقيقية ، ولا سيما الإشراف على ادارة مركزية ؛ وتحلى بالفطنة ابداً فاستقال في الوقت المناسب ، تاركاً ادارة شؤون البلاد لوصاية ، وفي الواقع للطبقات المسيطرة التي سيّرت بالحكم طيلة قصور ابن الامبراطور الشرعي وبالتمهيد لولاية مليك برازيلي حقاً . فلعب بدرو الثاني دوراً شبيها بذاك الذي لعبه في الماضي ماركوس اوريليوس ، وذلك بفصله في الخلافات السياسية وباهتمامه بالتحقيقات العملية قبـل اي شيء آخر .

كانت هناك في الواقع اربع دول برازيلية متجانسة اكثر منها متضامنة : برازيل الاحراج الامازونية منتجة الاخشاب الثمينة ، برازيل الهضاب الواسعة حيث يستمر النشاط المنجمـي ، برازيل مشاجر المناطق الحارة (هذه هي برازيل قصب السكر والقطن في باهيا وبرنمبوك وريو) ، واخيراً البرازيل الجنوبية التي اخذت منذ عهد قريب تتعاطى تربية المواشي . واذا اخـــذ المهاجرون الاوروبيون ، وجلهم من الالمان ، يستوطنون هذه المنطقة الاخيرة ، فان الهنود ما

زالوا يسيطرون على المنطقة الاولى ، بينما تميزت المنطقتان الاخريان بعمل الارقاء في خدمة الارستوقراطيين من مواليد المستعمرات والخلاسيين . وكانت النزعة الانفصالية خافية ابداً حين لا تظهر بمحاولات انفصالية معلنة : حينا في سيريا او برنمبوك ، وحيناً في بارا أو باهيا ، وآخر في ميناس ؛ وطوال عشر سنوات ، القت « ريو غرانده دو سول » الاهابة والخوف في جيوش ريو. كلما ازمات اضرت بالنمو الاقتصادي واثقلت كاهل الخزينة ، واوجبت تعهد قوة عسكرية وبحرية هامة . وكانت الكلمة الفصل الاخيرة للاسطول الذي يحاصر الثائرين . وقد اعتمدت في الوقت نفسه – في سبيل النفوذ والسيطرة على مداخل حوض « بارانا – بلاتا » – السياسة التوسعية البرتغالية القديمة باتجاه الغرب ، الى ما وراء خط « توردسيلاس » فأقحمت البرازيل في نزاعات دائمة باهظة الاكلاف لم تؤد الى اشباع مطامعها اشباعاً تاماً . فان الفشل الذي انتهت اليه الباراغواي مثلا لم يكن تعويضاً كافياً عن فقدان الاوروغواي .

توطدت الدولة البرازيلية شيئاً فشيئاً باستعانتها برؤوس الاموال البريطانية ، وبيعها المواد الغذائية والخامات وتشغيلها العبيد ، وتمويلها اصحاب المغارس والمناجم . ومنذ السنة ١٨٥٠ ، وطيلة ١٥ سنة ، ارتسمت انطلاقتها بمزيد من الوضوح : فقد تضاعف دخل التجارة الخارجية وتوسعت عمليات احياء الاراضي ، وظهر الخط الحديدي والتلغراف . وكان ذلك العصر الذهبي للقطن والسكر . ولكن حرب الباراغواي الرهيبة كلفت اموالاً كثيرة بلغت المليار ، فعقبتها مرحلة هبوط : ازمة سكر وازمة مناجم زادت من شدتهما ازمة الرق . فبين قانون السنة ١٨٧١ ، وقد اقرت بموجبه حرية الزنوج الذي سيولدون (قانون البطن) ، وقانون الاعتاق الشامل الذي صدر في السنة ١٨٨٨ ، تفاقم الهيجان والاضطرابات . فتخلى عن الامبراطور اسياد الارقاء ، كما تخلى عنه الاتحاديون والجيش نفسه الذي شكا من ضآلة الرواتب، فتخاذل امام انقلاب السنة ١٨٨٩ .

كانت الخطى الاولى التي خطتها جمهورية الولايات المتحدة البرازيلية عسيرة جداً . وقد ترتب على كل ولاية ، منذ ذاك التاريخ، ان تعيش لنفسها . فتجهزت « ساو باولو » بالادوات ونجحت في بيع بنها وازدهرت ، بينما عاشت باهيا وبرنمبوك في ضيق ؛ واستفاد الجنوب من الهجرة الاوروبية الثانية وربّى المواشي وزرع الحبوب ؛ ولكن منطقة الهضاب اعتمدت الاقتصاد الراعوي ببعض الصعوبة . وأثار زوال اليد العاملة العبدية مسائل خطيرة دارت كلها حول اعتماد اقتصاد جديد مبني على نظام الاجور. الا ان تزايد الطلب الاوروبي والاميركي الشمالي قد ساعد البرازيل الحديثة على النهوض . وقد اجتاحت حمى المضاربة مجتمع اصحاب المزارع وتجار اللحوم والجلود ؛ ثم ما لبثت هذه الحمى ان امتدت الى مناطق احراج امازونيا الغنية بالمطاط فتحسن التجهيز واتسعت المدن ، ولكن تفخل الفئات المثرية قابله بؤس الجماهير التي كان الجوع رفيقها الدائم . وقابل نخبة من كبار الحقوقيين والكتاب المنتجين من جهة سيطرة امية واسعة من جهة اخرى . وقد طبعت التناقضات الاجتماعية والاقليمية الجمهورية الكبرى الخاضعة لنظام

الانتخاب العام المباشر بطابع مميز لم تعرفه من قبل .

جمهوريتان راعويتان : الارجنتين والاوروغواي

كما في القارات الاخرى ، وفي المناطق المتقابلة بالنسبة لخط الاستواء ، تمتد جنوبي خط الجدي مساحات واسعة جرداء ، وتصبح الارض جافة والمناخ منشطاً ومقوياً . تنعزل المجموعة السكنية في البامبا ، شبيهة بالمزرعة البويرية او الانكلوساكسونية ، ويتعاطى اصحابها تربية المواشي . ويذكر نمو المدن الجديدة بالاراضي الجنوبية المقابلة ايضاً : فمنذ السنة ١٨٧٠ اقام في المدن زهاء ٤٠٪ من سكان الارجنتين ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ضمت « بوينوس ايرس » ٦٠٠ ٠٠٠ نسمة من اصل ٤ ملايين ونصف المليون . وهنالك نسبة اعلى من هذه : فان الـ ٢٠٠ ٠٠٠ شخص الذين عاشوا في « مونتفيديو » كانوا يمثلون اكثر من ربع سكان الاوروغواي . ويذكرنا مرفأ تصدير الاصواف واللحوم والجلود هذان بمرفأي ملبورن وسيدني .

ويبرز التضاد خصوصاً مع البرازيل ، غير المتجانسة ، والمتشلئة بفعل النتوءات : فنحن نتصور دولة كبرى واحدة في اطار واسع جداً وخال من النتوءات هو اطار السهل الذي تتجه مياهه كلها الى لابلاتا . والحال لم يتجاوز سكان بوينوس ايرس الـ ٢٥ الف نسمة حين قررت انكلترا فيها إبطال الميثاق الاستعماري الاسباني وأولتها كل اهميتها . وحتى في السنة ١٨١٦ اعلن سان مارتين في توكومان استقلال ولايات لابلاتا المتحدة قبل ان يذهب الى « ليما » ليبحث فيها عن مفاتيح مسكنه . وستبقى حدود الجمهورية زمناً طويلا بدون تعيين . ففي سبيل استمالة اقليم الـ « شاكو » ، وأقاليم المغارس والملح في منطقة جبال الاندس ، كان يقتضي الانتصار على البامبا التي لم تكن حلقة اتصال بل عائقاً جدياً . وقد اصاب سارمينتو حين قال : « ان المصيبة التي تعاني منها الجمهورية الفضية هي امتدادها ؛ الصحراء تحيط بها من كل جانب وتدخل الى قلب البلاد ؛ العزلة والمسافات الخالية من اي مسكن بشري تؤلفان الحدود المسلم بها بين الولايات المختلفة » . وهكذا فان البورة التي يسيطر عليها الجفاف واسراب الجراد وتمر فيها مسالك نادرة للعربات ، قد تحكمت بوسط البلاد وحتى بمشارف العاصمة وعزلت الولايات وخلقت الفوارق الاقليمية . ولكن الحقيقة التي يجب قولها هي ان البلاد افتقرت الى السكان الذين لم يبلغوا المليونين في السنة ١٨٧٠ .

تخطى المفكر « ريفا دافيا » اهل زمانه الى تجربة محاولة ديموقراطية تكون على رأسها نخبة سكان العاصمة . فحدثت ردة فعل انفصالية عنيفة كادت تؤدي الى قيام ثلاث او اربع دول مستقلة مكان الارجنتين المتفككة لولا شدة عزم «روزاس». سار روزاس على رأس عمال المزارع ورعاة المواشي وسحق الزعماء المحليين او فاوضهم واقترح على الارجنتينيين احتلال المناطق النهرية وتحدي اوروبا . اجل لقد انتهت فظاظته بقتله ، ولكن عمله بقي من بعده .

كانت ارجنتين السنة ١٨٥٠ من حق مواليد المستعمرات والخلاسيين الذين اسسوها . فكل

شيء فيها كان مرتبطاً بالراعي الذي يراقب ويطارد ويسلم القطعان التائهة: وقد عظمه سارمينتو في كتابه « فاكوندو » . ولكن بورجوازية اعمـــال نمت في بوينوس ايرس واتصلت بأوروبا ونازعت المزارعين المكاسب التي وفرتها لهم تربية المواشي . فان « اوركويزا» الذي دشن العهد الاتحادي ما زال أشبه بسيد عقاري كبير ؛ اما سارمينتو فقـــد أنبأ بتسلم البورجوازيين زمام السلطة .

وكما جرى في البرازيل ، حدثت ثورة بـــين السنة ١٨٧٠ والسنة ١٨٩٠. فمن جهة رفعت الهجرة الاوروبية عدد السكان من مليونين الى اربعة ملايين : مما زاد نسبة البياض في لون الارجنتين . ومن جهة ثانية تعاظم شأن الاقتصاد الراعوي تعاظماً كبيراً : فنمت في الوقت نفسه القطعان المعدة لانتاج الاصواف والقطعان المعدة لانتاج اللحوم ؛ وعقبت تسليمات اللحوم المجففة تسليمات اللحوم المملحة ، وبني البراد الاول في السنة ١٨٨٢ . ثم بوشر تنفيـــذ بعض المشاريع ببناء الخطوط الحديدية ، فارتسمت الشبكة التي ستنشأ في المستقبل وتوثقت روابط الاتحاد . وزاد نفوذ بوينوس ايرس الفخورة بمجتمعها الانيق وبنشاطها : وبرهنت ارجنتين سارمينتو وألبردي عن حرصها على التعليم الالزامي والدروس العلميـــة ؛ وفي السنة ١٨٩٥ ، عادلت التجارة الخارجية بأهميتها تجارة البرازيل التي كانت تفوقها سكانا .

بينما كانت الباراغواي عائشة في ضيق تحت سلطة دكتاتوريها الذين دافعوا بلا مراء دفاعاً حريصاً عن شخصيتها العنصرية ، ولكنهم جروها الى كارثة لن تنهض منها قبل القرن العشرين ، استفادت الاوروغواي من حسن طالع الارجنتين . فالرعاة سنوا فيها الشرائع على غرار مـــا جرى في الجهة المقابلة وراء لابلاتا ، وتوصلوا في السنة ١٨٩٠ الى جمع ٢٣ مليون حيوان مقابل ٧٠٠ الف نسمة . ولكن بورجوازية مونتفيديو ، المدينة الجميلة القائمة على رأس داخل في البحر نظير قرطاجة ، اتصفت بانفتاح فكري عظيم . اجل كان الصراع عنيفاً بين البيض ، الاسبانيي المنشأ والكاثوليك عموماً ، من جهة ، وبين الملونين ، الخلاسيين المستندين الى المحافل المـــاسونية عموماً ، من الجهة الثانية : ولكنه لم يمنع انفصال الكنيسة عن الدولة ، وإلغاء عقوبة الاعدام ، واقرار قانون العمل .

الشيلي : غرابة جغرافية ونجاح قومي

لم تسمح جبال الاندس بأن تحتل دولة واحـــدة كل عرض البر عند المناطق المتوسطة البعد عن خط الاستواء . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان قبطانية الشيلي العامة كانت تابعة للبيرو ؛ وعلى شواطىء الباسيفيكي قام الجسم المسيخ الذي تحاذت ولاياته ، على طول ٤٢٠٠ كيلومتر و ٤٠ درجة من درجات العرض كما تتحاذى خرزات السبحة ، وتميز بمواصلات برية بعيدة التصديق وبسواحـــل تكثر فيهـــا الرؤوس والخلجان . فكانت البلاد أشبه ما تكون بجزيرة تحيط بها الميـــاه والقمم المرتفعة وأحراج المناطق الباردة في الجنوب — حيث تقطع الاخشاب الضرورية لبناء السفن — والصحراء

الحارة في الشمال ، ويمتد في وسطها واد معتدل المناخ وخصب التربة .

تسلم وادي سانتياغو هذا زمام السلطة مستفيداً من مرفأ كبير هو فالباريزو ومن مجـــاز الا «كومبر» المؤدي الى البامبا الغنية بالخيول التي اولع بها أصحاب المزارع. وأضافت بعض العائلات الغنية من مواليد المستعمرات مكاسب زراعة الحبوب الى تربية المواشي . وتحقق الاستقـــلال بمساندة الانكليز . ومنذ ذاك الحين ، أمن الحزبان المتنافسان ، المحـافظون والاحرار - اللذان يعبران عن اتجاهين مختلفين في الرأي العام الارستوقراطي - تسيير عجلة الشؤون العامة دون صعوبات هامة .

ولكن الشيلي ما كانت لتحتل مركزاً هاماً في هذه المنطقة الضيقة . ففي سبيل السيطرة على الاحراج الجنوبية توجب عليها اخضاع الاروكان ، فدخلت صراعاً لن ينتهي الا في السنة ١٨٨٣ ارغمها على البقاء في حالة حرب دائمة . واستغلت كذلك صفاتها الحربية بشنها على بوليفيا والبيرو ، بغية الاستيلاء على الصحراء الشماليـــة الغنية بالمعادن ، حرباً لم تكن دون صراعها مـــع الاروكان عنفاً .

على الرغم من ان عدد سكانها قد تضاعف ، افتقرت الشيلي الى اليد العاملة ، وكانت الاجور فيها اعلى منها نسبياً في البلدان المجاورة . ولسنا نعني بذلك زوال البؤس ؛ فاستثمارات المناجم كانت أشبه بالجحيم . ولكن النترات والنحاس قد وفرا مداخيل اتاحت تجهيز البلاد بالخطوط الحديدية والمرافىء . وتعاظمت طبقة بورجوازية نازعت الاوليغارشية العقارية السلطة : فان ثورة السنة ١٨٩١ التي نهض بها الاسطول واستفاد منها رجال المال ، انتهت باستقالة « بالماسيدا» آخر رئيس سلك سلوك الاشارف . واذا ما اخذنا بعـــين الاعتبار النهضة الاقتصادية وحسن ادارة الاموال العامة وتقدم التعليم وتقسيم الاملاك الكبرى تقسيماً تدريجياً ، بدا لنا ان مستوى الحياة العام كان آخذاً في الارتفاع .

الجمهوريات الاربع في جبال اندس المرتفعة : نموها العسير

بعد تواري بوليفار وتبخر حلمه - وحدة النيابتين الملكيتين القديمة ، غرناطة الجديدة وليما - اشرف خلفاؤه على ولادة خمس جمهوريات خصيمة وفقيرة . ولكن الطبيعة نفسها قد ساعدت على التجزئـــة : فان قيام النيابتين قبل مشروع التوحيد كان مطابقـاً لتضاد كلي الوضوح بين المناخات الرطبة والمناخات الجافة في الجبال التي لم تتأثر بها تأثراً كبـــيراً ؛ فلن يتمكن اي مركز من فرض نفسه بعد انهيار السيطرة الاسبانية .

جمع البيرو بين المناطق المنخفضة التي يتعذر زرعها الا بواسطة الري وبين وعورة الهضاب التي تعتبر بين اكثر هضاب الكرة الارضية ارتفاعاً واقفاراً . انها ارض الهندي والخـــروف والجمل الاميركي والمعادن الثمينة .

اما الكتلة الكثيفة ، التي ارتبطت بنيابة لابلاتا الملكية بعلائق تجارية وانضمت اليهـــا في

عهد متأخر ، فقد حملت اسم « ليبرتادور » الجيد . ولكن اسمها لم يجعل منها دولة قوية : اذ لم يتجاوز سكانها المليوني نسمة في اكثر من مليون كيلومتر مربع في السنة ١٩٠٠ . وقــد بلغ السيل الزبى عندما فقدت بوليفيا منفذها الضيق الى البحر وانتزعت البرازيل منها بعـد ذلك اقليم « اكر » الغني بالمطاط . اضف الى ذلك ان سكانها الفقراء والمتخلفين لم يستفيدوا استفادة كبرى من ثروة الفضة التي ما لبثت ان انضمت اليها ثروة اعظم شأناً هي مناجم القصدير الوفيرة .

لم تكن البيرو اوفر حظاً . فان ليما، العاصمة القشتالية الساحرة ، كانت آخذة في التقهقر بسبب بعدها عن « الاراضي الباردة » أي عن المنطقة الهندية المرتفعة ، وقد مالت طبعــاً الى اعتبارها كاحدى ملحقاتها . وقد اضرت بها « اريكويبا » بفضل حسن موقعها بالنسبة لمراكز الغوانو ، ومناجم النترات ، و « كوزكو » وحتى منطقة مونتانا الامازونية الطابع التي اجتذب « مطاطها القشتالي » العديد من المهاجرين في اواخر القرن. اجل لقد اعتق الكوديلو «كاستيلا» الزنوج والهنود ، ولكن مسألة اليد العاملة اصبحت مسألة عسيرة،لا سيما وان الـ٩٠ الف صيني الذين نزلوا الى البر بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٨٠ لم يلبثوا ان اعتبروا غــير مرغوب فيهم . ولكن الدولة يجب ان تعيش من الغوانو والمناجم : أفلم يذهب « مانويل باردو » الى حد تقرير احتكار النترات في السنة ١٨٧٥ ؟ والحال فقد عجز الجيش الشغب والمتطلب ، الذي ترتبط به السلطة ، حتى عن الدفاع عن النترات ! وفقدان النترات يعني الافلاس ، لا سيما وقــد ثقلت وطأة ضريبة الملح على كاهل عامة الشعب. انه لتاريخ حكم معوز تخللته ثورات دائمة شاهدها الشعب دونما اكتراث .

عرفت الاكوادور ، الضيقة الرقعة ، مشاقات مماثلة . فان « كيتو » ، العاصمة الهنديـة القديمة ، القائمة على ارتفاع ٣ آلاف متر ، لم تتغلب على « غواياكيل »، سوق تصريف محاصيل مغارس المناطق الحارة . وازداد هنا التضاد الذي شاهدناه في البيرو بـين « الاراضي الباردة » و « الاراضي الحارة » . وادت ازمة قصب السكر الذي كان يزرعه الزنوج الى افقار اصحاب المغارس ، وما كانت شجرة الكاكاو بعد لتخلص البلاد من ورطتها . ولذلك فان الجبل القاسي والمتخلف قد فرض « فلوريس » وساند « غارسيا — مورينو » والمحافظين ورجال الاكليروس. وقد دخلت الاكوادور في نزاع دائم مع جيرانها ، فانكمشت رقعتها شيئاً فشيئاً وفقــدت في النهاية نصيبها من منطقة « مونتانا » .

ابعد الى الشمال تزول الانجاد في جبال الاندس وتزداد الرطوبة ، فتتجزأ كولومبيا جبالا وعرة المنحدرات ووديانا داخلية سحيقة موازية لخط الطول، بينما تعزلها عن شاطىء «شوكو» الباسيفيكي احراج كثيفة الاشجار . وذهب بعضهم الى حد القول انها اشبه بجزيرة جبلية تحيط بها الاحراج . وقد نشطت فيها تربية المواشي في « المناطق الباردة » الى جــانب المغارس في « المناطق المعتدلة » ، ووجهت شبكتا « مجدلينا » و « كوكا » حركة النقل فيهــا شطر بحر

الانتيل لمصلحة قرطجنة . واعطاها امتلاكها لمضيق باناما مركزاً دولياً قوياً لم يخــل من الاخطار .

تسلطت ذكريات غرناطة الجديدة على رجال بوغوتا الذين لم يرضوا بالتخلي عن فكــرة كولومبيا الكبرى على الرغم من ان حكم كولومبيا الحالية كان من الصعوبة بمكان بسبب انقسامها . فسكان المناطق المختلفة لا يرون مبرراً يوجب عليهم الانحناء أمام توجيهات سكان بوغوتا: فئات تجانبت وتألف كل منها من مواليد مستعمرات وخلاسيين وزنوج ومن بعض الهنود الذين لا شأن لهم . اضف الى ذلك ان الاقتصاد كان في حالة ركود : فقرطجنة لم تكترث لانكباس القناة التي كانت تصلها بمجدلينا ، والاسهام الاوروبي كان طفيفاً جداً . وكانت الاثرة الاقليمية والبؤس مصدر الاضطرابات التي ارتدت طابع الوحشية القصوى . وانتقل الحكم من المحافظة الاوليغارشية الى الراديكالية ، ومن مناهضة الاكليروس الى ردة فعل اكليروسية ، ومن الغاء حكم الاعدام الى مذابح بين انصار الفرقاء ، ومــن الاتحادية بــين الولايات الى الدكتاتورية الخانقة . واتضح التدخل الاميركي في النهاية وأدى الى خسارة بانامــا ، بينما هيأ نجاح زراعة القطن وشجرة البن لمستقبل قريب افضل ، بانتظار ظهور البــترول ، ذلك المورد غير المتوقع .

فنزويلا بين سكان السهول واصحاب المغارس

جاءت الثورة مبكرة في شطر غرناطة الجديدة المتجه نحو بحر الانتيل والمجاور لسباسب الاورينوك ايضاً : فقــد استطاع مواليد المستعمرات الاتصال بكوراسا وترينيداد من جهة ، والحصول على المساعدة والحماية في السهول . وكانت هنالك حركة نقل هامة بين مناطق تربية المواشي الداخلية الواسعة وبين المرافىء ؛ وكانت الجزر قد ادخلت الى مرتفعات غرناطــة الجديدة زراعة شجرتي البن والكاكاو واسترقاق الزنوج . فألف مربو المواشــي وأصحاب المغارس من ثم الفئتين الاجتماعيتين اللتين سيتيح اتفاقهما انماء فنزويلا ، وربما تفسر خلافاتها تاريخها المضطرب ايضاً .

ﻫم سكان السهول ، وسوادهم من الخلاسيين ، القساة والامين، الذين الفوا، بقيادة « بايز » « زعيم السهول » ، خير عناصر الجيش الذي جمعه بوليفار . ولكن الدستور الاتحــادي والاوليغارشي الذي خلفه « المحرر » ماكان ليحول دون الحروب الاهلية التي نمت ابانها الروح الانفصالية : فان انفصال « ماراكايبو » ، منافسة كاراكاس ، استعجل التطور نحـو الصيغة الاتحادية ، فقسم دستور السنة ١٨٦٤ البلاد الى ٢٤ ولاية . وفي فترة من الزمن ادار الكوديلو « غوزمان بلانكو » دفة الحكم بقوة : فنظم الجيش وناصر الادباء وسعى الى تنمية الاقتصاد وعادى الكنيسة التي كانت ممتلكاتها مغرية ، ولكنه لم يرض مع كل ذلك بالخضوع لاوروبا الاستعمارية . فقد نشب نزاع على الحدود بينه وبين انكلترا حول اراضي « يوروراي » الغنية

بالذهب ، دام ١٣ سنة . ثم تجددت الاضطرابات ، مصادفة في الزمان حدوث الازمة التي عانت منها تربية المواشي : فوجهت الاوبئة الحيوانية والحروب الاهلية ضربة خطيرة لسكان السهول الذين كانوا يرفضون الانحناء امام فنزويلا البن والكاكاو . وهنا كما في غير مكان تم الانتقال بصعوبة من اليد العاملة العبدية الى نظام العمل المأجور : وعلى الرغم من ارتفاع عدد السكان ، فان الهجرة الاوروبية ما زالت غير كافية ، لا سيما وأن منافسة المزارعين البرازيليين كانت مثاراً للخوف . زد على ذلك اخيراً ان هوة سحيقة قد باعدت بين الاقلية المتعلمة والغنية وبين كبار الملاكين والسكان الآخرين ، في هذه الجمهورية المدعية بالديموقراطية .

الجمهوريات الصغرى في اميركا الوسطى

يمكننا اجمال القول بأن النظام الاتحادي قد حد من تجزئة الكتلة الاميركية الجنوبية . أما في اميركا الوسطى ، فقد اخفق وعجز عن تحقيق اعادة التجمع . فقبطانية غواتيمالا العامة القديمة قد تجزأت بعد رفضها سيطرة المكسيك التي كانت متحدة بها في نيابة اسبانيا الجديدة الملكية .

دفع المناخ الحار والرطب نفسه بالانسان في كل مكان تقريباً الى « المناطق المعتدلة » . ولكن كثافة السكان متباينة تبايناً بعيداً والتكوين العنصري مختلفاً جداً . فبينما كانت غواتيمالا ، ولا سيما سان سلفادور ، اكثر أهلاً بالسكان من البلدان المجاورة ، تميزت كوستاريكا بنسبة كبرى نادرة من العنصر الابيض . ولكن هذه الأخيرة انفت من تحمل شريعة دول الملونين ، كما ان غواتيمالا افتقرت الى التفوق العددي الذي كان من شأنه ان يعيد اليها اولويتها السياسية القديمة .

سيطرت من ثم على هذه الدول حروب دائمة كثيرة ، كما سيطر على كل جمهورية اضطراب داخلي مزمن . ولم يحقق الغاء الرق التهدئة الاجتماعية . وهو أحد كبار اصحاب مغارس شجرة البن من انشأ في غواتيمالا الطريق الجيدة الوحيدة التي تستطيع اميركا الوسطى ان تفاخر بها .

لم تستهو اميركا الوسطى المهاجرين ، ولكنها اثارت اطماع الدول الاستعمارية والخلافات فيما بينها . واذا كثر الكلام عن قناة تفتح عبر غواتيمالا ، فان الخطوط الحديدية الاولى قد انشئت في باناما وتهوانتيبيك ، بينما فتحت القناة في النهاية في البرزخ البانامي .

ارتقاء المكسيك المتأخر

ما زال اسم المكسيك ، على غرار اسم البيرو ، يعيد الى الذاكرة امجاد الماضي العظيمة .

ولكن الواقع اراد ان تكون البلاد فقيرة . فان سواد السكان — ٦ ملايين حوالي السنة ١٨٠٠ ، و ١٣ مليون ونصف المليون في السنة ١٩٠٠ — خضعوا لمستوى معيشي متدن جداً . إلا ان هنالك نسبة من الخلاسيين ربما ساوت نسبة الهنود في اواخر القرن . وهذا هو بالضبط سبب حدة التضاد بين الارستوقراطية البيضاء الاسبانية الاصل وبين الملونين . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان شبه الجزيرة المرتفع هذا يمتد في جوار الولايات المتحدة والدول الاستعمارية

الموجودة في الانتيل . فقد سعى مواليد المستعمرات الى اطالة النظام الاسباني بشكـل ملكية محافظة تؤمن امتيازاتهم، كما رغب الاجانب ، فيما يعنيهم ، في قيام سلطة تضمن استثمار الثروات المنجمية استثماراً هادئاً : فكان هنالك ارتباط مزدوج . وسواء عمت الفوضى أو ساد النظام فان مصير المكسيك يخضعها لأحد هذين الارتباطين . ولم تحـــل الحكومة المقيمة في مكسيكو الا بصعوبة كلية دون تجزئة نيابة اسبانيا الجديدة الملكية القديمة : فمن جهة افلتت اميركا الوسطى من يدها ، ومن جهة ثانية ، اضطرت لأن تتخلى للولايات المتحدة عن مليون كيلومتر مربـــع ونصف المليون ؛ وبعـد انفصال تكساس ، تغلبت بصعوبة على انفصال سونورا وشيهواهوا في الشمال الغربي الصحراوي ، ويوكاتان وراء احراج تهوانتيبيك . ومهما يكن من الأمر فقد تغلب النظام الاتحادي الذي كرس ضعف السلطة المركزية .

عبثاً حاول « ايتوربيد » ، باسم « اوغسطين الاول » ، ان يقـلد الاباطرة بمساندة الجيش والاكليروس وكبار الملاكين في الهضبة الوسطى: فحين انقطع عن اغراء الجيش بالمال ، بدأ عهد الحركات الانقلابية والاضطرابات بالاستناد الى دستور جمهوري اتحادي . واشتهر « سانتا – آنا » بغرابة اطواره وتقلبه – فتارة اعتمد على الخلاسيين وأمر بأبعـــاد حتى ٢٠ الف من مواليد المستعمرات، وأخرى استند الى الاوليغارشية والاكليروس – وعــاش من القروض ولقط حيثما سقط ، فسيطر على عهد بلبلة لا يمكن وصفها أدت الى كارثة السنة ١٨٤٨ . ثم عرفت البلاد فترة حكم مركزي لم يكن اوفر حظاً . واخيراً استعجل الغاء الرق فقدان تكساس .

قام الراديكاليون – « الاطهـــار » – « باصلاح » على حساب الكنيسة لم يرض الهنود والخلاسيين (فهم الرأسماليون من اشتروا الممتلكات المصادرة) بـل تحول الى حرب اهلية وجر الى التدخل الاجنبي . أجل لقد حقق « جواريز » ، بعد اخفاق امبراطورية مكسيميليان المحافظة ، حكماً علمانياً افاد منه الخلاسيون والتعليم الشعبي . ولكن الأمية كانت عميقة الجذور، والفدادية الهندية لم تُلغ ، والحكومة لم تتوفق الى فرض هيبتها نهائياً .

حين استلم نائب جواريز ، بورفيريو دياز ، زمام الحكم بدوره ، بدا الظرف مؤاتياً « للعلماء » الراغبين في تطوير المكسيك وجعلها دولة عصرية ، حتى ولو انتهت السلطة الى دكتاتور .

ولكن الكوديلو استخدم هذه الطبقة المثقفة المتأثرة بالفلسفة الوضعية وسحق كل مقاومة ولصوصية معاً بواسطة قوى أمن حسنة التنظيم ، واشرك في مجهوده الاكليروس ، والملاكين ، والمضاربين الذين اثروا بفضل « الاصلاح » ، وانصرف الى ايحاء الثقة للرأسماليين الاجانب . فانشئت شبكة الخطوط الحديدية ووصلت بخطوط الولايات المتحدة ، وفتحت بعض المصارف ابوابها ، وارتفعت التجارة الخارجية الى خمسة اضعافها خلال ٢٥ سنة ، وتجملت مدينـــة مكسيكو واتخذت فيها التدابير الصحية الضرورية ، وجمعت بورجوازية من الخلاسيين ثروات طائلة . ولكن هذه النجاحات كانت اعجز من ان تخفي العجز المالي، والبؤس والجهل الشاملين، واستئثار الاجانب بالاراضي والمناجم .

غويانا والانتيل تحت السيطرة الاوروبية

من غرائب الظواهر ، بعيد الاستقـــلال ، ان بعض الدول الشمالية قد حافظت على ممتلكاتها. وتشمل هذه الممتلكات ، بالاضافة الى هوندوراس البريطانية ، غويانا بكليتها ومعظم جزر الانتيل. لا بل حدث في السنة ١٨٩٨ ان اقصيت اسبانيا عن مستعمرتيها الاخيرتين ، كوبا وبورتوريكو .

ان جبال غويانا ، المرتفعة وراء ساحل منخفض كثيف الاشجار، والمغطاة باحراج وسباسب المناطق الحارة ، وغير المؤاتية للاستعمار الاوروبي ، قد مرّت بأزمة حادة خطيرة . فقـــد افتقرت مغارس قصب السكر واشجار البن فيها الى اليد العاملة البديلة حين الغي الرق . بيد ان تحسناً نسبياً طرأ على الوضع حوالي السنة ١٨٩٠ بادخال الجاوانيين الى القطاع الهولندي والهنود الآسيويين الى القطاع البريطاني . اما القطاع الفرنسي فما زال يعاني من الأزمة .

ومرت جزر الهند الغربية كذلك بساعات عصيبة ايضاً .

خرجت بريطانيا العظمى بمكاسب كثيرة من التنازعات الدولية الطويلة . فعلى الرغم من ان الاسبانيين ما زالوا يملكون جزيرتين كبيرتين من جزر الانتيل ، وان الهولنديين احتفظوا بكوراساو ، والفرنسيين استعادوا المارتينيك و « غوادلوب » و « ماري – غالنت» ، فانها قد احتلت مركزاً ممتازاً في الوسط بفضل امتلاكها « جامايكا » وسلسلة شبه متصلة من الجزر ، من برمودا وباهاما الى مصاب الاورنيوك ، اي انها راقبت بالنتيجة المناطق المجاورة للمتوسط الاميركي والبرازخ .

ولكن الهزة الاجتماعية التي سببها الغاء الرق قد خلخل هـــذا العالم الذي كوّنه الاستثمار الاستعماري . فان الحرب العبدية التي اجتاحت جزيرة هايتي والتي لم تتماثل هـــذه الأخيرة من بعدها ، قد انتقلت الى جامايكا حيث لم يضمد اعتـــاق الزنوج جروح الاقتصاد . واذا اتاحت ثورة السنة ١٨٤٨ في فرنسا تبني مرسوم « شولشر » ، فان الامبراطورية الثانية حاولت العودة الى اشكال الأعمال الشاقة ، بينما سلمت هولندا بدورها بمبدأ الاعتـــاق . وبعد السنة ١٨٧٠ مثلت الجمهورية الثالثة مستعمراتها بالوطن الأم . اما اسبانيا فقد غضت الطرف بملء رضاها عن النخاسة التي وفرت لنخاسيها مكاسب كبرى؛ إلا أن الثورة التي اندلعت في كوبا وبورتوريكو ارغمتها على ان تحذو حذو الدول الأخرى . فلم يُسلم من ثم نهائياً بالقضية إلا بعد قرن كامل من المماطلات والتأجيلات . ويرد ذلك الى تصادف بروز دول جديدة ومنتجة لقصب السكر والقطن والبن والابازير والاخشاب الغريبة ، ومنافسة الشمندر لقصب السكر والكيميـــاء للنيلج . فاصيب الاقتصاد الانتيلي بضربة مزدوجة .

في جزر الانتيل الفرنسية ضحي بالمزروعات « الشريفة » . ولكن الادوات اللازمة لانتاج المواد الاساسية كانت بدائية ، والعمل كاد لا يكفي لحاجات السكان الكثيرين المتزايدين تزايداً سريعاً . يضاف الى ذلك تزايد متطلبات صاحب الملك كلما هبط انتاج المغارس . وحين استعاد

السكر محجوبة ، استفادت منه الامـــلاك الكبرى لان التكرير العصري يؤدي بالضرورة الى جمعه في « المعمل المركزي » . ففي السنة ١٩٠٠ احتل قصب السكر نصف الاراضي المزروعة في المرتينيك . وعلى الرغم من المؤسسات التمثيلية، فقـد بقي الفارق كبيرا بين كبار الملاكين وجمهور الزنوج الذين يكتفون بالقليل .

في جامايكا استمرت الحرب العنصرية حتى السنة ١٨٩٥ . وكثيرون هم الزنوج الذين رجعوا الى قلع الاعشاب واحراقها وذر رمادها على الارض الزراعية والى تربية المواشي البـــدائية . واستعمال البيض بالعمال الشرقيين المستأجرين الذين اثارت منافستهم اشتباكات مسلحة جديدة ؛ وقد اعتمدوا على الاجور المتدنية للمضاربة في اسواق السكر والبن ؛ ولكن الجمود كان كبيراً منذ السنة ١٨٨٠. وتأثرت كذلك تأثراً كبيرا بأزمة السكر جزر ترينيداد والدومينيك وباربادا، فاتجهت الاولى نحو زراعة شجرة الكاكاو والثانية نحو زراعة شجرة الليمون والثالثة نحو زراعة الـ « مارنتا » .

كانت كثافة السكان مرتفعة في بورتوريكو ، صغرى الجزيرتين الاســـبانيتين. ولكن الجزيرتين اهلتا بأكثرية من البيض الذين تعودوا ظروف الحياة المحلية . وبفضل الهجرة الاسبانية كانت نسبة الملونين آخذة بالتدني. وفي كوبا، توسعت زراعة قصب السكر توسعاً كبيراً في اراضي الغرب الجيدة ، بينما توزعت زراعة شجر البن والتبغ على مناطق مختلفة ، وحرس الرعاة الفرسان قطعان المواشي في « كاماغواي » الرملية . وهكذا ارتفع انتاج السكر من ١٢٠٠٠ طن في السنة ١٧٧٠ الى اكثر من ٧٠٠ الف في السنة ١٨٨٠ . وقـــد جمعت الثروات الكبرى بفضل المغارس والنخاسة ؛ ولكن فقراء البيض لم يكونوا اوفر حظاً من الزنوج وخلاسيي الزنوج والهنود .

عشية الحرب الانفصالية الاميركية ، بدأت الازمة الكوبية الكبرى . فبينما برز جـــاذب الولايات المتحدة ، نرى الوطن الاسباني الام ، الذي اهمل تجهيز الجزيرة بالادوات اللازمـــة ، يتجاهل الامية والحال الصحية السيئة في المستعمرة ، ويفرض على معاملاتها التجارية رسومـــاً مرتفعة ، ويضع العراقيل في سبيلها . ولا يخلو من المغزى ان زعيم الثورة « دون كارلوس مانويل سسبيدس » كان احد كبار اصحاب المغارس الاغنياء ؛ وحين طلب الى الزنوج امتشاق السلاح ، اسرعت مدريد الى الغاء الرق .

اتاحت قضية كوبا للولايات المتحدة التدخل مباشرة في الانتيل وتحويل ميزان القوى فيها لمصلحتها .

جمهوريتا هايتي

مهما قيل في ما عانته الجزر الخاضعة للسيطرة الاوروبية ، فان البلايا التي امتحنت بها هايتي تفوق بلاياها طرا .

ان تاريخ الارض الهايتية انما هو تاريخ فوضى مستمرة واقتصاد متهور .

منذ زوال السيطرة الفرنسية ، لم يترك الجزء الغربي من « ســـان دومنغ » القديمة ، الذي

استعاد اسم هايتي الاسبق ، سوى اثنين من رؤسائه ينهيان مدة ولايتهما . ولم يتردد احدهما ، « فوستين – نابوليون – روبسبير سولوك » ، الطاغية المعجب بنفسه ، في الادعاء بالكرامة الامبراطورية . وقد احرقت « بور – او – برنس » في السنة ١٨٧٩ والسنة ١٨٨٣ ، ولكن الجيش ضم ٧٠٠٠ ضابط مقابل ٦٥٠٠ جندي . ولم يكن هناك من طريق جيدة، ومعدل الرسائل التي ينقلها البريد هو رسالة واحدة للشخص الواحد كل ثلاث سنوات . ولكن هل يعرف احد بالضبط عدد مواطني الجمهورية ؟ فقد قدره بعضهم بمليون نسمة في السنة ١٨٠٠ ، بينما لم يقدره سواهم الا بـ ٥٠٠ الف الذي هو عددهم في السنة ١٨٠٠ . كل شيء كان متأخرا ولا سيما زراعة قصب السكر والقطن . الزنوج وخلاسيو الهنود والزنوج كانوا يتنازعون الاراضي ولا يتفقون الا على منع البيض من امتلاكها . وعلى الرغم من كل ذلك كان السكان مرحين ، يعتقدون بالسحرة والكهان الراقين ، ويمارسون تضحية الديكة والكباش البيضاء وحتى الاطفال ، ويجهلون القراءة والكتابة . وقد يحدث احياناً ان يدفعهم طبعهم الحربي الى مهاجمة الجمهورية المجاورة .

في أواخر القرن الثامن عشر كان الجزء الفرنسي من الجزيرة متفوقاً تفوقاً بيناً من حيث عدد السكان والثروة . ولكن نسبة الخلاسيين المرتفعة في القسم الاسباني قد خففت من وطأة الاختلافات العنصرية . اما الجمهورية الدومينيكية التي لم تخل من الاضطرابات ، فقد تميزت بمزيد من الحلم وتوفقت الى رفع عدد سكانها الى اربعة اضعافه ، والى تحسين تربية المواشي ونوعية التبغ . وقد كان من بعض مواليد المستعمرات وبعض خلاسيي الزنوج والهنود ، بقيادة احد مربي المواشي الحازمين ، « سانتان » ، ان فكروا بالتخلص من الاضطرابات بالرجوع الى السلطة الاسبانية ؛ ولكن الاتفاق الذي عقد في السنة ١٨٦١ لم يدم طويلاً . وخلاصة القول ان التأخر في الاستثمار بقي كبيراً جدا ، ومستوى الحياة متدنياً جدا .

مذهب مونرو وبزوغ فجر سياسة اميركية شاملة

اذا ظهر منذ زوال الامبراطورية الاسبانية والبرتغالية ، الشعور الذي ابدته رسالة مونرو بشراكة المصالح بين الجمهورية الاميركية الشمالية الكبرى واميركا اللاتينية ، فقد قابل براهين التضامن التي قدمتها الاولى موقف حذر غير خفي وقفته الثانية . ومرد ذلك الى ان سكان واشنطن ونيويورك احتقروا كل ما هو « داغو » ، اي من اصل ايبيري ، بينما سخر « داغو » بـ « غرنغو » ، اليانكي الوقح . يضاف الى هذا ان اعمال العنف التي كانت المكسيك ضحيتها في السنة ١٨٤٨ من قبل الولايات المتحدة ، والقحة التي سوت بها هذه الاخيرة مسائل البرازيل تسوية مباشرة مع لندن ، كانت كافية لجعلها مريبة في نظر اولئك الذين كانت تتظاهر بحمايتهم . وما كان اميركيو الوسط والجنوب ليجهلوا انهم وثرواتهم هدف التنازع على النفوذ بين الدول الأوروبية والولايات المتحدة . فهم لم يشعروا بالميل الى سياسة اميركية شاملة كتلك التي يقول بها مونرو الا اذا بدا لهم الدفاع المشترك ضرورياً ضد استعمار ما زالت اخطاره محدقة بهم .

الا ان الشعور بتضامن ضروري بين الدول الاميركية قد نما عند رجـال القانون وعلماء الاجتماع في الجمهوريات التي انهكتها حروب متكررة اعتبرت حروباً بين الاشقاء . وهكـذا فقد نشر اندريس بلـو «الشاعر الكبير وجامع القانون الشيلي» «مبادىء الحق الدولي» المشهورة التي استوحت مؤلفات القرن الثامـن عشر الكبرى وبشرت ببيانات القرن العشرين . وفي الاجتماعات التي عقدت في ليما «اقتُرحت صيغ جميلة من اجل التعاون بين الامم التي يجمع بينها دم واحد وثقافة واحدة . ومع ذلك لم يبد غريبا ان تستهوي بعضهم رؤيا التقارب على قـدم المساواة من الوطن الام القديم : فان كولومبيا وفنزويلا قد توجهتا الى اسبانيا لتسوية خـلاف على الحدود . وكان غيرهم اكثر واقعية ، وربمـا ارتضوا بالوصاية المقنّعة التي عرضتها بريطانيا العظمى الموجودة في كل مكان .

في السنة ١٨٨٩ ، بدأ عهد المؤتمرات الداعية لسياسة اميركية شاملة ، اي عهد « مونروية » تستجيب لحاجات دولة استعمارية . فهل كان على اميركا اللاتينية المنقسمة على نفسها والمتأخرة اقتصادياً ، حيث الـف الهندي والزنجي والمهاجر الابيض الكادح العناصر الرئيسية للسكان البائسين ، ان تتهرب من عروض الولايات المتحدة يا ترى ؟ ولكن هل هي ستتمتع طويـلا بحرية الاختيار ؟

الفصل الرابع

العالم الاسلامي

من آسيا الوسطى الروسية حتى المغرب

نطاق الاسلام : وحدة واستمرار واشعاع

لم تفقد الحضارة الاسلامية شيئاً من شخصيتها في وسط القارة القديمة . اجل لقد اخضعها الاوروبيون سياسياً شيئاً فشيئاً . ولكن العقيدة التي ارتكزت اليها قد حافظت على حيويتها ، ولم تتخل عن شرائعها المعيشية واستمالت المزيد من المؤمنين .

يوافق الاسلام من جهة ، وبصورة خاصة ، المساحة الشاسعة النادرة المياه ، او حتى الصحراوية ، التي تمتد من موريتانيا الى الهندوس السفلي وبورات تركستان : وهي تمثل ، على وجه التقريب ، فتوحات العرب الذين وجدوا فيها ظروفاً سكنية شبيهة بظروف بلادهم . ومن جهة ثانية ، تخطى دين النبي في عهد لاحق – يدخل فيه القرن التاسع عشر – حدود هذه المناطق باتجاه الجنوب والجنوب الشرقي وانتشر في مناطق المناخ الحار الرطب وحتى الاستوائي ، سواء في افريقيا وراء الصحراء ، ام في الصين الجنوبية ، حول المحيط الهندي ، وحتى في « المولوك » [1].

ما هو عدد هؤلاء المسلمين الذين يؤدون واجب الصلاة يومياً ، جاثين ارضا ، ومتجهين نحو القبلة ، اي نحو مكة ؟ ان رقم الـ ١٧٥ مليوناً الذي اعطاه « بلونت » في كتابه « مستقبل الاسلام » (١٨٨٢) هو دون الواقع في الارجح (لم يقدر المؤلف الانكليزي حق قدرها اهمية عدد المسلمين في الهند والاراضي الروسية) . ومهما يكن في الامر فاننا نعتبر هذا العدد قليلا

---

(١) راجع خريطة الصفحة ٥٣٩ من المجلد الرابع (الطبعة العربية)، وخريطة الصفحة ١٥٢-١٥٣ من هذا المجلد .

بالنسبة لمساحات على مثل هذا الاتساع . وبلفت الانتباه من جهة ثانية ان سواد المؤمنين يقطنون اشباه الجزر والجزر الآسيوية . ولكن الطقس القرآني يفرض في كلكوتا وباتافيا والقاهرة وفاس وتومبوكتو على السواء اللغة المقدسة نفسها ، والشريعة نفسها ، والاخلاق نفسها ، والمؤسسات نفسها . فان ما امر به الكتاب المنزل من الله يصلح لكل الازمنة التي ستسبق مجيء « المهدي » (المسيح المنتظر) . والوحدة قائمة في الاستمرار نفسه ؛ والتقيد المشترك بالوصايا ، والانتظار المشترك لليوم الذي سيظهر فيه رسول الرب . ولذلك فان الاسلام خليق ابداً باسمه المشتق من من فعل « اسلم » ، اي سلم امره الى الله . يعامل الانسان بمزيد من القوة تبررها مراعاته لحاجات الحياة وحتى لبعض مخالفاتها ، وتساهله بالتمتع ان لم يكن بالتجاوز ، باعتبار ان الحرمان ينطوي على مساوىء يعتبرها خطيرة . فهو مثلا ينظم تعدد الزوجات دون تحريمه ، ويبقي على الرق ويحاول في الوقت نفسه التخفيف من وطأته ، ويحرم المراباة ولكنه لا يمنع التجارة ؛ يحل المرأة في مرتبة دنيا ولكنه يصرفها في إدارة ثروتها الشخصية ويحيطها بشتى مظاهر الاكرام ؛ يوصي بالحج الى مكة دون ان يجعل منه امراً الزامياً ؛ يحصر اللجوء الى الجهاد ، او الحرب المقدسة ، في الدفاع عن الدين الحقيقي وهدي الاوثان . يخلق بين المؤمنين اخوة ومساواة تتنافيان ووجود طائفة مختصة بالكهنة او الاشراف .

الايمان يدفع بألوف المؤمنين كل سنة الى الاماكن المقدسة . وقد قدر بعضهم ان زهاء ٥٠ الف هندي و ٢٠ الف ماليزي وعدداً كبيراً من المغاربة والمصريين والاتراك والايرانيين يذهبون الى مكة يؤدون طقوس العمرة حول الكعبة ؛ وقد يأتون للقيام بهذا الواجب حتى من افريقيا السوداء والصين . ينزل معظمهم الى البر في جدة التي تنقلهم اليها سفن بريطانية . أما طريق البر التي تبتدىء في دمشق ، فطويلة وشاقة ؛ لذلك سوف يعلق السلطان عبد الحميد اهمية كبرى على بناء خط حديدي ينتهي الى ضريح محمد ، الى المدينة التي تفصلها عن مكة مسيرة احد عشر يوماً . وسوف يرفع الخط الحديدي الى اكثر من ٢٠٠ الف عدد الحجاج السنويين الذين لن يستخدم الطريق البحرية منهم بعد ذلك سوى اقل من نصفهم . واجتذبت الجماهير كذلك المدن المقدسة في بلاد فارس الشيعية ، ولكن على طرق اقل طولا ومشقة .

ساعدت هذه الروحات والغدوات على سريان الافكار والاشعرة . ولكنها في الوقت الذي احييت فيه بعض التيارات التجارية ، أسهمت في انتشار الاوبئة ايضاً . ففي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦٨ ، ظهر الهواء الاصفر في مكة ، ثم انتقل الى شواطىء افريقيا الشرقية والحبشة ووادي النيل : فأدت معاودة الوباء واشتداده الى الفتك بزهاء ٣٠ الف شخص في زنجبار في السنة ١٨٧٠ . وانتقل الطاعون كذلك من الهند والخليج الفارسي ، فانتشر في السنة ١٨٩٩ — ١٩٠٠ من جهة نحو مصر ، ومن جهة اخرى نحو افريقيا الشرقية وسنغافورة ، وحتى ابعد من ذلك في الباسيفيكي .

ما زال المؤذن في المغرب والسودان وتركستان والانسولند وفي كل مكان يوجه الدعـوة الى الصلاة (الآذان) من اعلى المئذنة . وفي كل مكان ايضاً، وعلى الرغم مما ادخلته الفنون الاقليمية من اشكال متنوعة على تصميم الجامع وتزيينه ، آثر الاسلام تجديد القديم على الابتكار . فان بيت العبادة الذي شيده محمد علي في القاهرة لا ينم عن اي فن عصري ، شأنه شأن جامـع الحميدية على كل حال ، مهما كان من رشاقة هذا الاخير . ولكن القصور الكثيرة التي خلفها بعض الامراء المتفخلين — قصر شيراغان ، لعبد العزيز (١٨٦٢ — ٦٧) ، وقصر يلدز الذي احتفظ به عبد الحميد بدوره لنفسه بعد زمن قصير في اسطنبول ، وقصرا القباري والمكس اللذان شيدهما سعيد في الاسكندرية (وقد تهدم ثانيهما بفعل ضرب القنابل في السنة ١٨٨٢) ، او قصر « بهية » في المغرب الذي شيد بين السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٠ للوصي على العرش احمد بن موسى — استجابت لمستلزمات المناخ وسمحت في الوقت نفسه للابتكارات التزيينية بأن تطلق لنفسها العنان ؛ وانما لوحظ تأخر في الذوق منـذ انتشار الفن الغربي المبتذل في اواخر القرن الثامن عشر .

يبدو شكل المدينة الاسلامية وكأنه ثابت لا يدخل عليه اي تغيير : تحاط بأسوار تفتـح فيها ابواب فخيمة ، وتغنى ، بالاضافة الى قصورها او سراياتها ، بعيونها العمومية ، ومدارسها ، وزواياها التي تكرس لخدمتها دخول الاوقاف ، وحماماتها التي يتوجب على كل مسلم صالـح ان يختلف اليها ؛ وتوزع هنا وهناك اسواقها المسقوفة التي تقوم على جوانبها الحوانيت ، وخاناتها التي تستخدم كمستودعات للبضائع او فنادق ، وتجمع فوضى بيوتها بين الاكواخ الحقيرة ومساكن الاثرياء التي يفرق فيها بين السلملك (او بيرون في ايران) المعد للاستقبال ، والحرم (او اندرون في ايران) المحفوظ للحياة الخاصة . ولكنها ، وان احاطت نفسها بتيقظ بالاسوار ، تحـرص ابداً على الفصل بين المسلم واليهودي والمسيحي ؛ فكأنها تعزل مجتمعاً يرى الخير في احترام الوضع الراهن ، من اجل حمايته وتثبيته على حاله .

التيارات الدينية في الاسلام وسلوك المسلم حيال العبادات الاخرى

كانت ردة الفعل لمخالطة المسلمين لغير المؤمنين اتجاهاً نحـو مزيد من التشدد او نحو موافقة ممكنة .

حاولت بعض الاتجاهات الاتفاق ومـا يعرف بالروح العصرية عن طريق التساهل . واننا نذكر منها البابية . التي انبثقت من المدرسة الفارسية الـتي كانت تكتفي بتفسير الامور العجيبة المتعلقة بحياة النبي تفسيراً رمزياً . فان «ميرزا علي محمد» الذي اختار لنفسه اسم « الباب » في السنة ١٨٤٢ ، وبدا من ثم وكأنه « المهدي »، قد طلع بتعليم يقتبس عناصر كثيرة من المزدية وفلسفة انسانية ماسونية الطابع ؛ أوصى بحياة مطابقة للطبيعة وبمزيد من الحرية الفردية وبمساواة المرأة للرجل ، فأحرز نجاحاً شعبياً جعل السلطة تعتبره خطراً عليها ، ثم أميت بأمر الشاه في الارجح . ولكن احد تلامذته ، بهاء الله ، صمم على نشر دين جديد يقرب بين البشر ويخدم قضية السلام ، فالتف حوله في اوروبا واميركا اتباع اكثر عدداً من اتباعـه بين

ابناء دينه من المسلمين . ثم تطورت البهائية بدورها ، بفضل عباس افندي ، ابن بهاء وخليفته ، نحو مذهب عقلي صرف . وبينما رجع الفارسي احمد خان بهادوس الى المعتزلية التي تقول بحرية الارادة ، اقترح جمال الدين الافغاني اسلاماً متحرراً، نابذاً في الوقت نفسه كل ما هو ،في نظره، مادية غربية . ثم جاء احد تلامذة هذا الاخير ، محمد عبده ،وطلع بنظريات اصلاح جـذري، مسلماً بأفضلية وحدة الزواج ومنفعة الربا وتحرير المرأة . وقد اتفق مذهبه العقلي ومذهب سيد خان الذي اوصى في الهند بدراسة العلوم ولم يعترف للروايات القرآنية الا بمعنى رمزي .

ولكن تصلبا كان سيحدث في قلب الاوساط المبالة لأن ترى في تبني الافكار الاوروبية بداية ارتداد الى الدين المسيحي ، أو اقله استسلاماً غير مقبول . فكما ان البابية لا يحسن فهمها الا في بلاد فارس ، كذلك يمكننا في الحقيقة ان نرى الوهابية ظاهرة مطابقة للوذعية العربية الخاصة . ولكن الاسلام ، شأنه شأن كافة الاديان ، قد عرف على الدوام انتفاضات استهدفت الحرص على نقاوة العقيدة . وهكذا جاء المذهب – المنبثق عن الطقس الحنبلي ، ابعد طقوس السنة عن الحرية – الذي بشر به محمد بن عبد الوهاب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر : خطّأ احترام الاولياء ، والتفخل ، والتبغ ، والمسكر ، والميسر ، وصمم بالاختصار على ان يعيد للاسلام نقاوته الاولى . فقد استجاب هذا المذهب لعبوسة عقلية البدوي في نجد الذي كان يثور ثائره بسبب الاعمال التجارية التي تجري بمناسبة الحج الى الحجـاز . وكان من جهة ثانية مظهراً من مظاهر الصراع بين البدو والحضر . وعلى الرغم من ان باشا مصر قد استولى بالقوة على المدن المقدسة وأخرج الوهابيين منها ، فان الوهابية التي انكفأت نحو الرمال قد تحصنت فيها وانتشرت من جهة في الهند ، ومن جهة اخرى بين القبائل الليبية حيث حفزت الى تأسيس اخوية جديدة اشتهرت بكره الاجانب هي اخوية السنوسيين .

هي الاخويات ما جمعت الطاقات الصوفية التي انطوى عليها الاسلام . تزايد عددها حتى بلغ زهاء المئة في اواخر القرن التاسع عشر . فكان منها خمس في تونس في السنة ١٨٨١ ، وليس بعيداً عن المعقول ان يكون عدد المشايعين المنضمين الى مثـل هذه الاخويات في الجزائر قد بلغ الـ ١٧٠ الف حوالي السنة ١٨٩٠ . لكل طائفة مرشدها اي الشيخ الذي يقيم على مقربة من ضريح المؤسس ، ومقدموها،واخوانها ؛ وكل طائفة تتعهد وقفاً هو الزاوية ؛ كما ان كل طائفة تسعى وراء هدف خاص هو الذكر اي المحبة والتواضع والفقر والعزلة . وانما يجب ان لا تسقط المنافسات من الحساب . وهنا يجب ان نذكر على سبيل المثل النزاع الذي قام في منطقة وهران بين الدرقاويين والتيجانيين وبين القدريين الذين كان عبد القادر في عدادهم . فقد ارتـدى بعض هذه الاخويات طابعاً ارستوقراطيا ، بينما ارتدى البعض الآخر طابعاً ديموقراطيا ؛ وقد انتسب سكان المدن بالتفضيل الى اخويات الفئة الاولى، بينما انتسب البدو الرحل الى اخويات الفئة الثانية .

انها لشبكة معقدة ومتحركة ، ولكنها شبكة انتقلت الشائعات بفضلها انتقالا سريعاً يثير الدهشة . ولنفكر هنا ان القدريين ، المشهورين باستقامة رأيهم ، قـد امتدت فروعهم من

افريقيا الغربية الى « يوتان » انطلاقا من مركزهم الرئيسي في بغداد . ولا عجب من ثمّ اذا ما قدمت الطوائف الدينية للاسلام قادة وجيوشاً مختارة للحرب المقدسة . فان الدور الذي لعبه السنوسيون بات من الشهرة بمكان. كان سيدي محمد بن علي بن سنوسي وهراني الاصل ومنتسبا للادريين ، فلفت اليه الانظار في مكة بصلابة عقيدته ، ثم اعتزل في السنة ١٨٥٥ في احدى واحات ليبيا وأسس فيها زاوية ما لبثت ان اشعت في كافة ارجاء افريقيا الشمالية الشرقية . فشكا تباعه من عدم اهلية سلطان الاستانة ورفضوا مدعياته بالخلافة وبشروا بمجيء مهدي في رأس السنة الهجرية ١٣٠٠ ، اي في ١٢ كانون الاول من السنة ١٨٨٢ . فسمع النداء ، ورفع حينذاك محمد احمد ، النجار النوبي ، لواء الحرب المقدسة . وكان مقدراً لثورة الدراويش ان تستكد الدولة البريطانية طيلة سنوات عديدة .

وفاقا للتقليد نعم المسيحيون واليهود الذين عاشوا في البلدان الخاضعة للشريعة الاسلامية ، بمجرد تساهل ديني . ولكن هؤلاء غير المؤمنين قد تُركوا وشأنهم في ممارسة عبادتهم ونوع معيشتهم شريطة دفع ضريبتي الخراج والجزية ؛ ولما كانوا ذميين،اي رعايا محميين ، حظر عليهم حمل الاسلحة . وبحسب الظروف المحلية ، اختلفت العلائق بين التعاون المعترف به (وهذه حال اروام الفنار) وعداء شبه معلن . وقد مارس شيعيو فارس سياسة هدي الى الدين الاسلامي نجم عنها قيام فئات جديدة سرية من اليهود . وفي السنة ١٨٦٢ دعمت بريطانيا العظمى مسعى قام به آل روتشيلد لدى سلطان المغرب ، ولكن المرسوم الذي حظر كل مناكدة ما لبث ان ابطل . واثارت اسطورة الاغتيالات الطقسية في سوريا التي تحتلها جيوش محمد علي موجة تعصبية صاخبة في السنة ١٨٤٠ ؛ وبفضل تدخل «كريميو» و «مونتفيوري» ، نجا اليهود المتهمون قبل ان يعلن فرمان بطلان الاتهام .

ارتضت الكنائس المسيحية بنوع من التسوية ضمنت بموجبه طاعة مؤمنيها ؛ ولكنها بحثت في الوقت نفسه عن الايد في الخارج . وبحجة حماية هذه الطائفة او تلك ، تعودت بعض الدول الاوروبية التدخل في شؤون الامبراطورية التركية . وأخفت هذه التظاهرات الدينية بعض الحركات القومية : فساندت القيصرية بعناد مستمر الاكليروس والمؤمنين والحجاج الارثوذكسيين ؛ واعتبرت الحكومات الفرنسية المتعاقبة نفسها ملزمة بدورها بالدفاع عن حقوقها التقليدية في حماية الطوائف الكاثوليكية الشرقية التي انعم بها السلاطين على « الفرنجة » . وغالباً ما عاد سبب المنازعات لادارة بيوت العبادة في الارض المقدسة .

كان اهم نزاع ذاك الذي نشب في السنة ١٨٥٣ بين روسيا من جهة وفرنسا وبريطانيا العظمى من جهة أخرى ونجمت عنه حرب القرم . وفي اعقاب ذلك ، طالبت اوروبا في باريس ، في السنة ١٨٥٦ ، بالحصول على ضمانة جماعية للسكان المسيحيين في الامبراطورية التركية : مساواة امام القانون وإلغاء ضريبة الخراج . ويرتدي هذا التاريخ اهمية خاصة لأنه يوافق اول مسعى جماعي بغية فرض الاعتراف بمبادىء تتنافى والشرائع الاسلامية على دولة اسلامية مستقلة. وانساق الاوروبيون

بعد ذلك في كافة مستعمراتهم او محمياتهم الى اجراء اصلاحات مماثلة . ولكن المسألة ما زالت معرفة ما اذا كان المسلمون يستطيعون القبول بمثل هذا التغيير دون التنكر لا يمانهم. ويجدر الاعتراف هنا بان الاسلام ، حيثما اختلط بجماهير تحركها العصبية الطائفية ، قابل هذه العصبية بعصبية مماثلة . فقد استمرت طويلاً في الهند والصين نزاعات مسلحة في اغلب الاحيان بين المسلمين وغير المسلمين.وما زالت الحال في افريقيا في مرحلة الحرب المقدسة، والحوادث الوحشية ترافق ابدا الدخول الى المناطق الوثنية .

ميزات الدولة الاسلامية وارهانها

لا يتصور الاسلام السلطة العامة الا بدلالةالدين.فليس للدولة مرتكز اقليمي ؛ وهي لا تعترف الا بجماعات طائفية ؛ ولا وجود لها على كل حال الا بفضل الفتح الذي ادى الى سيطرة المؤمنين . ليس المشرف على ادارتها سوى خليفة رسول الله او نائبه ؛ انه امير المؤمنين وامام ، ولكنه ليس له من منصبه حتى الحق في تفسير الشريعة لانها تأمر باسمه . ولما كانت الخلافة ، من جهة ثانية، نتيجة اختيار لا نتيجة حق ، فقد تعذر الاتفاق على النسب الشرعي ابتداء من محمد . وهذا يفسر التجزؤ السياسي العضال في العالم الاسلامي .

وانما يجب الا ننسى كذلك ، اذا كانت وثبة الفتح فعل شعب من الرعاة ، ان القريشي المكي ينتسب الى ارستوقراطية من التجار تحتقر الزراعة . ان عمل الارض جدير بالرعية التي عليها قبل سواها ان تدفع الضرائب . ولكن نصيباً كبيراً من الارض يجمد بسبب الممتلكات الموقوفة من اجل تعهد دور ايواء الغرباء والمدارس ؛ ويحدث ان القاضي ، ابن المدينة ، الذي يفصل في العقود ، يسهل مصالح ابناء المدينة ، بحيث يصبح الحقل ملكاً للمرابين . ويحدث اما ان تعود اراضي الارياف للمشاع ، او القبيلة ، واما ان تعود لملاك كبير من اعيان المدينة ، هو الآغا الذي يخشاه الفلاح بوصفه مزارعاً وملزماً بتقديم اتاوات عينية كثيرة. اما القبيلة فتحتفظ بقائدها وشيخها بسبب اختلاط الحق الخاص بالحق العام . وما الدولة في الغالب سوى هذه القبيلة التي لا حساب في داخلها الا لأواصر القربى والعداوات الشخصية . وحتى حين تضم في صفوفها البدو الرحل والتجار ، لا تنجح الا بصعوبة في معالجة تقلقل يكاد يكون طبيعياً ؛ وتتأرجح بين الاستبداد والتراخي ، وكلاهما تحكميان . وجملة القول ان الاسلام الذي فتح مناطق السباسب ومناطق الزراعات الحارة الرطبة ، لم يظهر الا على مجتمعات كانت مؤسساتها الاجتماعية اكثر بداءة من مؤسساته .

لا ريب في ان ديانة محمد تستجيب لفكرة شاملة : فان دار الاسلام تتسع للعالم برمته . وهكذا تتحد فيها شعوب مختلفة جداً . ولكن الغيرة المذهبية ليست هي القومية . فحتى القومية العربية والاسلام شيئان مختلفان . كما ان اللغة العربية ، التي هي اللغة القرآنية والكلاسيكية ، لا تحل محل اللهجات الاقليمية. وكثيراً ما يجد الناس اختلافاً بين الفقه والعرف

العالمي . ونادراً ما لا تضم الدولة الاسلامية ، بالاضافة الى عناصر مسيحية ويهودية قد يكون عددها كبيراً ، فئات اخرى مختلفة عنصرياً . وهذا ايضاً من مظاهر الضعف .

امام الاستعمار الاوروبي ، كان الاسلام ، المتخلف تقنياً واقتصادياً ، في وضع سيء اذ ان التضامن الديني لا يوفر وحده فعالية كافية . اجل ، حين شنت انكلترا الحرب على فارس في السنة ١٨٥٦ ، في اعقاب مساندتها لتركيا ، انتشر الاضطراب بين مسلمي الهند واسهم في اثارة الجنود الهنود في الحاميات البريطانية ؛ ولكن ذلك يشكل واقعة استثنائية . فالشاه قد فاوض القيصر بينما كان الروس في نزاع مسلح ضد الاتراك في السنة ١٨٢٨ – ٢٩ ؛ واستفادت لندن وبطرسبورغ من سوء العلائق بين الفرس والافغان ، كما ان مخاصمات السلطان لمحمد علي سهلت تدخل الدول .

وبانتظار بروز قوميات خاصة في الاسلام ، دقت ساعة اذلاله واستعباده .

الامبراطورية التركية : تنوع الشعوب

سارت الامبراطورية التركية في طريق التأخر منذ اواخر القرن السابع عشر ، ولكنها ما زالت في القرن التاسع عشر اكبر الدول الاسلامية مساحة واقواها نفوذاً . واذا ما ضممنا الى ممتلكات سلطان الاستانة الفعلية الاقاليم التابعة لسلطته ، فان نطاق ادارته ، البالغ ٦ ملايين كيلومتر مربع ، يشمل ، بين شبه جزيرة البلقان والمحيط الهندي ، وبين القفقاس وطرابلس الغرب ، بالاضافة الى شطر من اوروبا الجنوبية الشرقية ، افريقيا الشمالية الشرقية وكافة انحاء آسيا الامامية المعروفة بالشرق الادنى . وعلى الرغم من ان سكان هذه الامبراطورية لم يجاوزوا ٤٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٠ (يدخل في عدادهم ٩ ملايين مصري) فانها ما زالت تلعب دوراً رئيسياً في تاريخ العلائق الدولية ، لانها كانت تحتل مواقع هامة من الدرجة الاولى في قلب القارة القديمة ولا سيما الطرقات المؤدية من المتوسط الى آسيا الجنوبية .

لم يكن الاتراك في عقر دارهم حقا الا في بلاد الاناضول التي لم يقطنوا سوى بورة هضبتها . اما في المناطق الاخرى فقد عسكروا بين الرعايا من اهل الذمة او بين شعوب اسلامية اخرى . وقد وافقت الهضبة الاناضولية المرتفعة الكبرى ، القاسية المناخ والمفتقرة الى المياه والاشجار ، هؤلاء الرعاة الذين اعتمدوا في معيشتهم التقتيرية على اللبن (يوغورت) والقشدة (قيمق) والاجبان والجريش والبرغل وشواء لحوم الاغنام . وكانوا ينتقلون من مراعي الشتاء الى مراعي الجبل ويسكنون في اكواخ حقيرة او تحت الخيام المصنوعة من المرعز ويصطلون بنار الزبيل ويمارسون عبادة ساذجة ولا يعترفون الا بسلطة الآغا . وانحصرت الزراعة في بعض الاحواض او في السهول الدائرية الوبيلة جلها ؛ زد على ذلك ان لصوصية اكراد الجبال والشراكسة او مجرد عبث القطعان بالمزروعات كانا يخمدان نشاط الفلاحين . وكانت الاراضي من جهة ثانية من حق كبار الملاكين الذين يؤجرونها للمزارعين او يستثمرونها بواسطة الخدام ، حين لا تكون

موقوفة او ملكاً للدولة ؛ فكان الانتاج متدنيـاً بصورة عامة . وغذت صناعة الطنافس ، والمصنوعات المعدنية ، والمطرزات ، مع الجلود والحبوب والثمار والتبغ ، تجارة احتكرها الاروام والارمن واليهود في المرافىء البحرية . ورأت ازمير ، التي كانت تقاوم اوحال الـ « هرموس » مقاومة عسيرة ، اقواما كثيرين آتين من مرافىء الشرق الادنى يتـدافعون في متيهة شوارعها الضيقة الكثيرة . وقد بلغ عدد الاروام ١٠٠ الف من اصل ٢٠٠ الف ، وقد استوطنوا ، كما في العصور القديمة ، السواحل الايجية والجزر المعتدلة المناخ التي سيطر اليهودالاسبانيون جزئياً على التجارة فيها . وكانت طرابيزون على الساحل الشمالي منطلق قوافل الجمال والخيول نحو ارمينيا وفارس التي كانت تسلك طريقا قديمة سلكها الجنويون من ذي قبل .

تميزت الاستانة بسحرها . وامام باب البوسفور العجيب هذا ، اكتفى التركي بالاستئثار بالراس الممتد بين القرن الذهبي وبحر مرمرة . فمن جهة ، وعلى الاكام التي قامت على احداها السراي واجيا صوفيا ، اسطنبول العثمانية ، بقصورها وجوامعها وحدائقها ومقابرها ومساكنها الخشبية السريعة الاحتراق : وهي تؤلف اختلاطاً من العظمة الصامتة والاهمال ؛ ومن جهة القرن الذهبي الاخرى ، غالاطا ومنحدرات بيرا حيث يتجمع « الفرنجـة » اي الغربيون ؛ فكان لليونانيين والشرقيين والارمن واليهود احياؤهم حول المرفأ : يونانيو الفنار الذين مثلوا « مـلة الاروام » حول بطريركهم ؛ واليهود المنحدرون من اللاجئين الاسبانيين ؛ والارمن الذين عاش الكثيرون منهم عيشة يسار ورخاء . وجاشت المدينة بالحياة حول الخانات والاسواق التجارية في الشوارع القذرة والمستوخمة في الغالب ؛ كما نشطت بالتجارةالتي سيطر البريطانيون على نصفها . ولم يكن للصناعة الكبرى من وجود . وكانت حركة السير عسيرة : فمـا زال السور البيزنطي يحيط بالمدينة من جهة البر ؛ ولم يقم هناك فوق القرن الذهبي سوى ثلاثـة جسور مركبة من سفن متلاصقة ، كما لم يوجد شيء يؤمن الانتقال السريع من اوروبا الى آسيا . وقد تراوحت تقديرات عـدد السكان بين نصف مليون واكثر من مليون ؛ انها لمدينة غريبة ، جـامعة من كل طوائف البشر وغامضة ومنكمشة على نفسها معاً ، مشابهة للمتحف والسوق الدورية ، شائعة الصيت بذكرياتها وموقعها ، ولكنها عاجزة عن التأثير في الامبراطورية .

الى الشرق من هضبة الاناضول ، تنازعت تركيا وفارس وروسيا الارمن المختلطي الاصل ، المسيحيين جلهم على الرغم من تخلقهم بالاخلاق الاسلامية في طريقة حياتهم ، الذين عاشوا على اتفاق مع السلاطين ، لا بل نازعوا الفناريين مراكز مرموقة ؛ ثم سـقطت اشميادزين ، مقر الكاثوليكوس ، تحت سلطة القيصر الذي كان يعدهم بالاراضي وحرية العبادة ، فبدأت الهجرة باتجاه الشمال وساءت العلائق بالاستانة . حينذاك طمع الجيورجيون المتأثرون بالحضارة التركية ، والشراكسة ولا سـيما الاتراك بالمنطقة الارمنية التي ما زالت تحت اشراف السلطان . وتاق الاكراد الذين طمحوا بالاسـتقلال وتكلموا لهجات مختلفة ودانوا باسلام وثني الطابع ، الى النزول الى الاحواض والسهول المجاورة لبلادهم الحرجية الوعرة : وكما تصرف الالبانيون حيال

مسيحيي مقدونيا ، تعدوا تكرارا على الارمن الذين تميزوا هم ايضاً بالسجس والتقلب . وكان مقدراً للمنطقة الوعرة التي تشرف على حوض الفـــرات ان تعرف في المستقبل مذابح بشرية رهيبة .

الى الجنوب من طوروس وكردستان يبدأ العالم العربي الذي يضم طوائف مسيحية ويهودية كثيرة . في هذا الهلال الخصيب الذي يحيط بالصحراء العربية السورية تسيطر الاثرة الاقليمية . فسوريا هي مقدونيا ثانية تضاف فيها الشيع الاسلامية المختلفة الى الطوائف المسيحية المختلفة . في كل مكان نرى البدوي والحضري وسكان الجبال والسهول او الواحـــات يتعايشون ويتجابهون . كما نرى علويي جبل النصيرية ودروز جبل الدروز يعيشون في عزلة ، بينما يتعلق الموارنة بجبل لبنان الوسطي وتظهر دمشق وحلب بمظهر العواصم العربية ، احداهما مثال المدينة الواحة والثانية سوق مرتبطة بالجبال الشمالية ، وكلتاهما محطتان عند حـدود الصحراء . فقـد تكلم « لورتيه » في كتابه « جولة حول العالم » (١٨٨٢) عن « دمشق البهية المبنية مساكنها بالقراميد المجففة تحت اشعة الشمس والمطلية بطــلاء اصفر ذهبي ... والمروية بساتينها باقنية كثيرة ... ». وزرعت الحبوب والكرمة هنا وهناك ، اما في الاحواض المروية كسهل البقاع ، واما في المرتفعات المسقية بعض الشيء كجبل الدروز . ولكن فقدان الامن والجفاف يتحالفان في ظل هذا الاهمال الذي يلحق الضرر بأحسن المرافىء. اما الشرطة والقضاء التركيان فيكتفيان بايجاد التفرقة بين الجماعات المختلفة وبالحد من توسع المذابح الدورية .

كان من الممكن الاستفادة من الجزيرة فيما بين النهرين ومن دلتا منطقة بابل القديمة ؛ ولكن ضفاف الفرات لم تستهو سوى جماعات حضرية قليلة تسكن اكواخاً قصبية حقيرة . فالمـــلاحة شبه مفقودة بفعل الارياح العاصفة في الخليج الفارسي والاوحال التي تملأ مقره ؛ والحر شـــديد في بغداد ، التي لا يتعاطى سكانها تجارة الحبوب والتمور والاصواف فحسب ، بل النخاســـة لحساب احرام العالم الاسلامي كله ايضاً ، ويلجأون صيفاً الى السراديب المزودة بمنافذ الهواء ؛ ويدخل في عداد هؤلاء السكان ٥٠ الف يهودي من بقايا السبي برعوا في التجارة ووفرت لهـم المدارس بعد السنة ١٨٦٥ جمعية الاتحاد الاسرائيلي . اما البدوي فحاضر في كل مكان او على مسافة قريبة ، يضرب خيمته على ضفة الفرات ويجوب بورات الهـــلال الخصيب وكأنه السيد المطاع ؛ وهكذا فان قبيلة عنزه ، التي تضم ٣٠ الف فارس ، تقطع طريق الحج بين بلاد مـــا بين النهرين ونجد .

في اليهودية كما في سوريا ، ما تزال المدن والاديرة محصنة . الغور لا ينتج شيئاً بسبب افتقاره الى الري . ابن الصحراء يتوجه حيث يطيب له وينهمك في السلب والنهب ؛ ويفرض شيخه او اميره الخوة على الفلاحين او اهل المدن لمصلحة القبائــل القوية . ويخضع لهـذه الضريبة كثير من الحجاج ايضاً . وقـد وصف لامارتين يهودية خربة ، ولم ير في اريحا سوى اكواخ من الطين

الجفف ونساء لسن سوى « اناثى » . وفي السنة ١٨٧٥ ، اعتبر « فوغويه » ، انه يجب الكتابة بدموع الانبياء لوصف مثل هذا الجمال في مثل هذا الخراب » . وتأثر « غابريال شارم » في اورشليم بمظمة الاماكن وقذارة الشوارع وفقدان الامن فيها وتشابك الحقوق حول تملك اقل حجر والاستغلال الذي استهدف الحجاج الروس المساكين من قبل الاكليروس اليوناني ووفاء الطائفة اليهودية لذكرياتها الخاصة .

لم تكن الجزيرة العربية تركية الا بالاسم فقط . واذا اعترفت الحجاز بسلطة السلطان ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير قد توصل بعض الشيء الى فرض احترام سلامة طريق الحج . والى الجنوب من مكة خضعت عسير ، المهتدية الى الاسلام منذ عهد قريب ، للنفوذ الوهابي . وفي داخل الجزيرة العربية الواسع الاطراف، قامت فيالشمال صحراء النفود التي تجتازها الطريق المؤدية من كربلاء الى حائل ، العسيرة والمهددة ابدا بهجمات رجال قبيلة عنزه ، كما قامت في الجنوب صحراء اخرى تعرف بالربع الخالي ؛ وارتفعت بين هذه وتلك جبال نجد ، معقل الوهابيين : ففي الرياض ، المدينة الحريصة على نقاوة العقيدة ، شيد الامير قصراً شبهه الرحالة « بالغرايف » بالسجن الانكليزي في «نيوغايت». وتدرّت لندن البحرين في الخليج الفارسي ، وقد خضع لها ساحل شبه الجزيرة الجنوبي اكثر من خضوعه للاستانة . واختارت الحكومة البريطانية عدن المرفأ الوحيد الصالح للرسو في حضرموت وقربت اليها سلطان مسقط الذي تعاطى حتى السنة ١٩٠٢ نخاسة رابحة . ولم تكن عدن مستودعاً هاماً جداً فحسب ، بل كان من شأنها مراقبة اليمن التي كان ميناؤها ، الحديدة ، وخيماً . واشتهرت اليمن الشبيهة بلبنان أو مناطق الجزائر الجبلية بزراعة البن (مخا) ؛ وسحرت عاصمتها صنعاء ، القائمة على ارتفاع ٢٣٠٠ متر ، بحدائقها الغناء وجوامعها الثمانية والاربعين . وقد واجهت هذه المنطقة كلها بلاد الحبشة واشتركت في حياة المحيط الهندي الاقتصادية .

« الرجل المريض » : فشل التنظيمات والتغلغل الاوروبي في تركيا

افتقرت حكومة الاستانة الى الوسائل اللازمة لحكم سكان على مثل هذا الاختلاف في رقعة واسعة الارجاء . ويكفي هنا التذكير بسير البريد الذي اسند الى قبيلة تربية تقتني الجياد الاصيلة واقتضى له خمسة وثلاثون يوماً لنقل رسالة من العاصمة الى بغداد . ولما كانت السلطة الدينية التي يمارسها الباديشاه محدودة جداً ، فقد عولت الامبراطورية على اقطاعية عسكرية : السلطان هو القائد العام ؛ والتقسيمات الادارية تطابق الاقطاعات ، والسنجق في الاصل راية يحملها البيك . وتسلم الضرائب الى الاقطاعيين انفسهم الذين اقطعوا الاراضي ، الجفتلك ، بعد انتزاعها من المغلوبين على امرهم . فكانت نتيجة هذا الاختلاط بين السلطة والملك فساداً وابتزازاً . تثقل وطأة الضرائب بتعهد الجيش ، والجيش قد فقد الكثير من صفاته العسكرية بسبب عدم انضباطه وافتقاره الى العتاد العصري . فهنالك اقاليم واسعة قد شقت عصا الطاعة : الجبال التي يحتمي بها العصاة ، ومواطن البدو الرحل . يضاف الى ذلك

ان باشاوات كثيرين قد تصرفوا كما يطيب لهم التصرف . واخيراً ليس اقل التناقضات لفتاً للانتباه المركز الممتاز الذي افادت منه بعض الجماعات : الفناريون واثرياء الطائفتين الارمنية واليهودية في العاصمة ؛ والاجانب الذين اتاحت لهم « الامتيازات » مزاولة الاعمال التجارية بشروط مناسبة جداً . اما الحكومة التركية العاجزة فقد لجأت الى الحيل الآنية التي تراوحت بين التسوية المخجلة (ويكفي آنذاك ان تسلم الظواهر) واستخدام القوة . انها « الرجل المريض » في نظر اوروبا التي تراقب احتضاره بكل انتباه .

ان ما عرف آنذاك بالمسألة الشرقية هو من ثم المسألة التي طرحها انحطاط الامبراطورية العثمانية . واذا حسب بعضهم في الخارج حساب فوائد التجزئة بينما آثر البعض الآخر الابقاء على الحوزة (التي من شأنها تجنيب مضاعفات شتى وتأمين مراقبة الموارد مراقبة شاملة توفر نتائج فضلى) ، فان الاوساط الاسلامية نفسها كانت مقتنعة بأن نقاهة المريض منوطة بتعالجه . ولما كان النظر مصروفاً عن العودة الى الشريعة القرآنية المشددة التي تستتبع رفض كل تدخل اجنبي ، فبقي أن يعرف ما اذا كان القيام باصلاح على غرار الاصلاح في الغرب لن يستعجل الحركات القومية ،وبالتالي المصير المرهوب. والحقيقة هي ان تركيا بدت عاجزة عن المحافظة على انظمتها القديمة وعن التطور تطوراً حقيقياً . الا ان الدول ، رغبة منها في ارجاء موعد التصفية النهائية ، قد تجر الى اطالة حياة عليلة .

عاصر سليم الثالث الثورة الفرنسية ونابوليون وحكم حكما استبداديا على غرار بطرس الاكبر فحاول قبل سواه اعادة تنظيم الجيش ، ولكن الانكشارية الذين حالفهم الحظ اكثر من الـ « سترلتسي » جندلوه ، فنجم عن مقتله عهد اضطرابات استفاد الصرب واليونانيون منه لاعلان الثورة بينما اصبح باشا مصر محمد علي مستقلاً عملياً .

واذا أفلح محمود الثاني ، الذي علمه الاختبار ، في التخلص من الانكشارية ، السجسين ، فقد وجد نفسه في القضية اليونانية امام تحالف اوروبي وأمام مدعيات الباشا . وحين اضطر الى التخلي عن سوريا لصاحب الاقطاعة الخاضع له مبدئيا واللجوء مؤقتاً الى الحماية الروسية ، اخذ على نفسه التغلب على هذين الخطرين : اثار حفيظة المتمسكين بأهداب الدين بارتداء الزي الاوروبي وشرب المسكر والسماح بدخول البضائع الانكليزية معفاة من الرسوم وبيع عدن من بريطانيا العظمى واسناد امر تنظيم جيش جديد الى ضابطين بروسيين ، ثم أدركته المنية بينما الامبراطورية وكأنها تحت رحمة الباشا بعد انهزام جيوشه مرة اخرى .

في عهد عبد المجيد الشاب ، ورغبة منه في كسب الوقت وعطف اوروبا ، لخص رشيد باشا ، المستدعى من سفارة لندن ، في خطي شريف (١٨٣٩) او دستور غولخانه ، برنامج اصلاحات جريئة انطوى على بعض الضمانات القضائية وقمع التجاوزات الجبائية وتأسيس جمعية تمثيلية . ولكن ما ان ضمن له ميثاق المضائق حماية الدول الجماعية حتى آلت « التنظيمات » الى لا شيء تقريباً .

ولكن الباب الذي سانده الغرب في حرب القرم ، عقد قرضه الاول(بموجب « خطي همايون » في السنة ١٨٥٦) وسلم في الوقت نفسه بحرية العبادة والمساواة المدنية وحـق الاجانب في تملك العقارات .

نشأت بعد قليل في المؤسسات المدرسية الاوروبية (فتحت كلية غالاطا العلمانية الفرنسية ابوابها في السنة ١٨٦٨) طبقة مثقفة اسست بعض الصحف وتمنت قيام اصلاحات جدية وطالبت بمراكز عمل بصورة خاصة . وعلى الرغم من استحداث بعض الوظائف العامة لأجل ارضائهـا ، فانها قد اشتكت من تبذيرات السلطان الطائشة وحملتها مسؤولية افلاس يهدد ، كما حـدث في تونس ومصر ، بجر البلاد الى حماية مالية غربية . وأمام الفوضى المنتشرة في الولايات البلقانية تسبب طلاب الحقوق والفقه في اندلاع ثورة في الاستانة واستقالة عبد العزيز . فاضطر خليفته عبد الحميد الى منح الدستور او القانون الاساسي في السنة ١٨٧٦ الذي تأسس بموجبه نظـام برلماني . ولكن نفوذ منظمة « تركيا الفتاة » انهار حين خلع السلطان الجديد قناعه بعد ان ضمن حماية مؤتمر برلين . ولن يبقى من برنامج الاصلاحات سوى مشروع قانون مدني وضعته احدى اللجان بعد اعمال استغرقت ١٧ سنة .

ابتداء من السنة ١٨٨٠ ، بدا الرجل المريض وكأنه يستفيد من هدنـة . ولكن ادارة الدين العثماني الباهظ عادت لمجلس دولي ؛ واسترهنت دخول الجمارك والضـرائب وادارة حصر التبغ في سبيل عقد قروض جديدة . ومنحت في الوقت نفسه امتيازات كثيرة لاستـثمار الخطوط الحديدية والمرافىء . والحال كان في نية الحركة الاسلامية الشاملة،على غـرار الحركة الروسية المماثلة ، ارضاء قومية كان من شأن غزو رأس المال الاجنبي ان يكدرها . ولكن الامبراطورية العجوز لن تنجو من مصـير محتوم : فليس باستطاعتهـا الاستعانـة بأوروبا والتخلص منها في آن واحد .

فارس في عهد سلالة القجر

ان الغرابة هنا ، كما في الجزيرة العربية ، هي ان الصحـراء تتوسط البلاد وان الحياة تتدفق في الاقسام الدائرية . فحول حوض وسطي يكاد يكون مقفراً ، كان على فارس ان تصون مناطق حدود وعرة المنحدرات يستهوي الانسان ثلاث منها بسبب غزارة الامطار فيها وتستهويه الرابعة بسبب موقعها الساحلي. ولكنها على الرغم من ذلك لا تسيطر سيطرة تامة على كتلة الجبال الشرقية الضخمة .

اهل الحضر اكثر سكانها عدداً ، ولكنهم تجمعوا في مساحات ضيقة : المناطق القزوينية الشبيهة بالمناطق الحارة التي يزرع فيها الارز وقصب السكر وشجرة التوت والتبغ ، وواحات الاقسام الدائرية التي تمر فيها الطرق الداخلية . فلاحين او مدنيين ،كان اهل الحضر هـؤلاء فرساً واتراكاً وعرباً ويهوداً وأرمناً وزنوجاً ايضاً . فأين يجب من ثم تعيين مركز حقيقي ؟ لقد تبدلت الطوالع تبدلا سريعاً ، فكانت الاولوية تارة لاصفهان ، المواجهة لبغداد وشيراز ، الـتي

بلغت العظمة في عهد الصفويين ، واخرى لتبريز الواقعة على طريق البحر الاسود، وثالثة لمشهد، المدينة المقدسة التي جعل منها ناصرشاه عاصمته على مقربة من البورات الطورانية ، ورابعة لطهران .

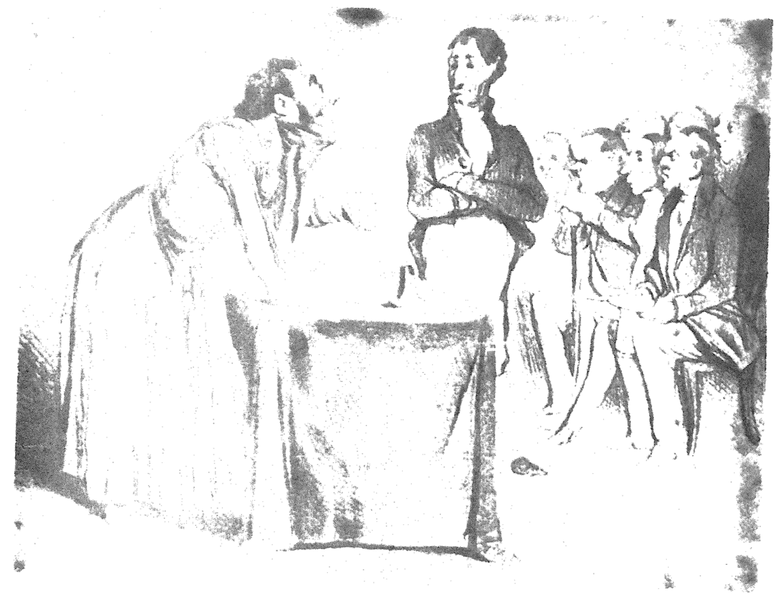
يجب في كل مكان ان يحسب حساب للبدو وانصاف البدو الذي يسرحون ويمرحون في تسعة اعشار المساحة العامة متأثرين بالمناخ الذي يدفع بهم من المنطقة الحارة الى المنطقة الباردة: اكراد ، وبلوش ، ولور ، وبختيار ، وتركان ، بحسب المناطق . المدن والقرى محصنة بسبب فقدان الامن الشامل .

كان من ثم لطرق الاتصال الكبرى اهمية قصوى: الطريق الطورسية المؤدية من طرابيزون الى مشهد مروراً بتبريز ؛ والطريق الشمالية الجنوبية المؤدية من رشت على بحر قزوين الى شيراز وبوشير على الخليج الفارسي مروراً بطهران وكوم واصفهان ؛ والطريق الكلدانية المؤدية من بغداد الى همذان ؛ وطريق كتا المؤدية من الهند الى مشهد في الجهة المقابلة . وتتضح بالتالي صعوبة مسألة السيطرة على هذه الطرق المختلفة الاتجاهات وهذه المنافذ العديدة ، لا سيا وان المركز لا وجود له في اي مكان من حيث هو بالضرورة في احدى نقاط الاقسام الدائرية . ولذلك اقدم كل قسم بدوره على اعمال حربية تستهدف الفتح والتوسع . ففي اوائل القرن التاسع عشر نرى الخجر التركان ، الآتين من حوض « اترك » ، يتركزون في طهران ويعيرون اهتمامهم فارس الشمالية الميالة طبعاً الى الوقوف في وجه الروس القادمين عبر القفقاس وبحر قزوين ، فارس المسهمة في الدفاع عن الجبهة الاسلامية الشمالية .

عبثاً شن المؤسس « الآغا محمد » وخليفته « فتح علي » حرباً لا هوادة فيها على القيصرية : فقد تكرست الهزيمة في السنة ١٨٢٨ بمعاهدة « تركانشاي » ، ثم تعرضت فارس لهجوم الافغان ففكرت بحماية انكلترا التي كانت تتطلع منذ ذاك التاريخ الى مرافىء الخليج الفارسي . ولكن الشاه اراد الاعاضة من خسائره الاقليمية في خراسان والقفقاس بفتوحات يحققها في الشرق؛ فتوفق الى جعل خراسان في مأمن من غارات تركان طوران وصد خان « خيوا »، ولكنه أخفق في افغانستان .

أدرك نصر الدين ، الذي سيموت قتلا في السنة ١٨٩٦ ، ضرورة العدول عن المغامرات. يضاف الى ذلك ان التقدم الروسي في تركستان ازال الخطر التركاني ، وان انكلترا من جهتها سوت الخلافات حول الحدود الفارسية الجنوبية الشرقية تسوية استعاد الشاه بموجبها سواحل الخليج الشمالية ، وبقي مبعداً عن الطرق المؤدية الى الهند . وأظهر نصر الدين شغفاً كبيراً بأحوال الغرب . فقصد العواصم الاوروبية حيث اثرت شخصيته الفاتنة في الناس . ولكنه كان مضطراً لأن يحسب للتقاليد والآراء السائدة حسابها .

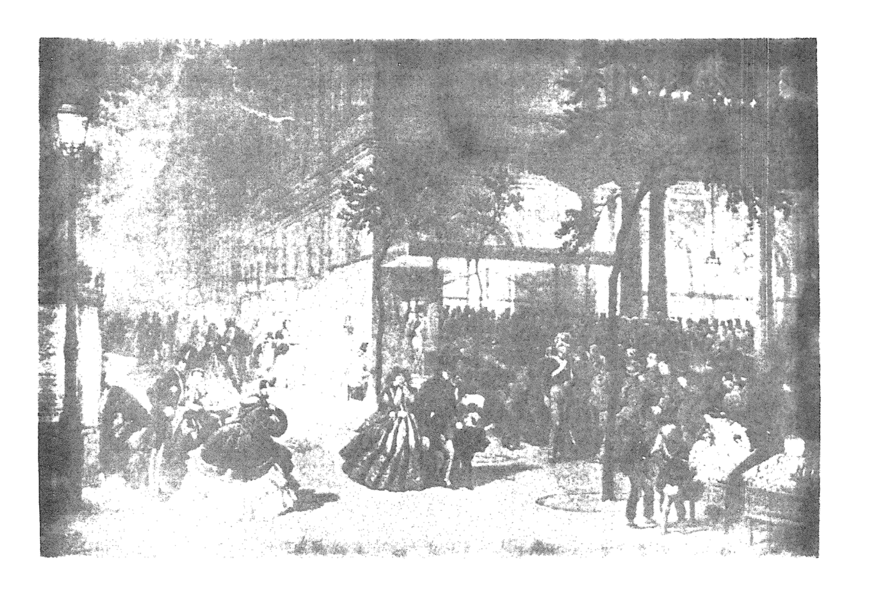
على من يجب الاعتماد لايجاد سلطة قادرة على تخليص فارس من وضعها المتردي يا ترى ؟



١٧ — جمعية المساهمين .



١٨ — جنون الاعلان .

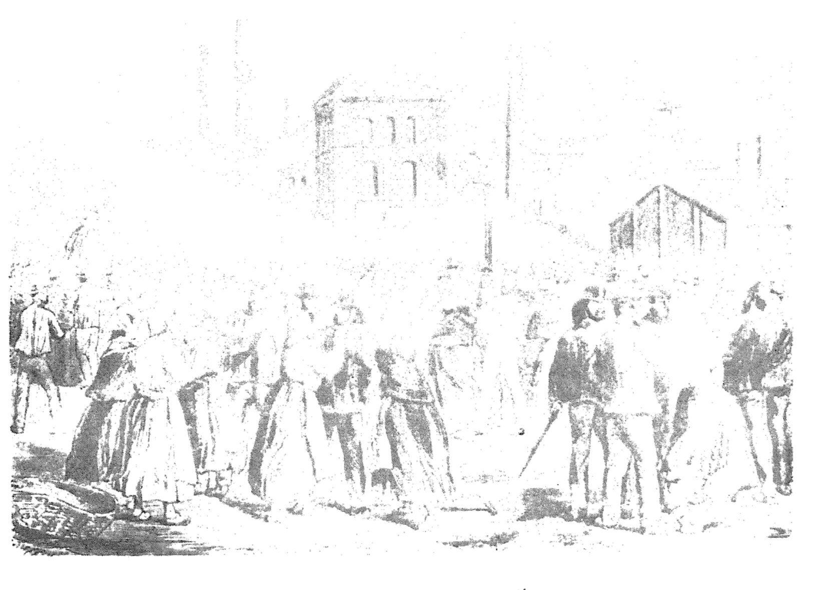


١٩ – صف المنتظرين امام مسرح (الممّسى – الهزلي)

٢٠ — الزيارة عند المزارع .



٢١ – اجتماع انتخابي في مشغل باريسي ، قبل الانتخابات البلدية .



٢٢ – مظاهرة نسائية في الـ (كروزو) (نيسان ١٨٧٠) .

٢٣ – الملكة فكتوريا تزور الاسطول الفرنسي في ١٣ تشرين الاول ١٨٤٤ .

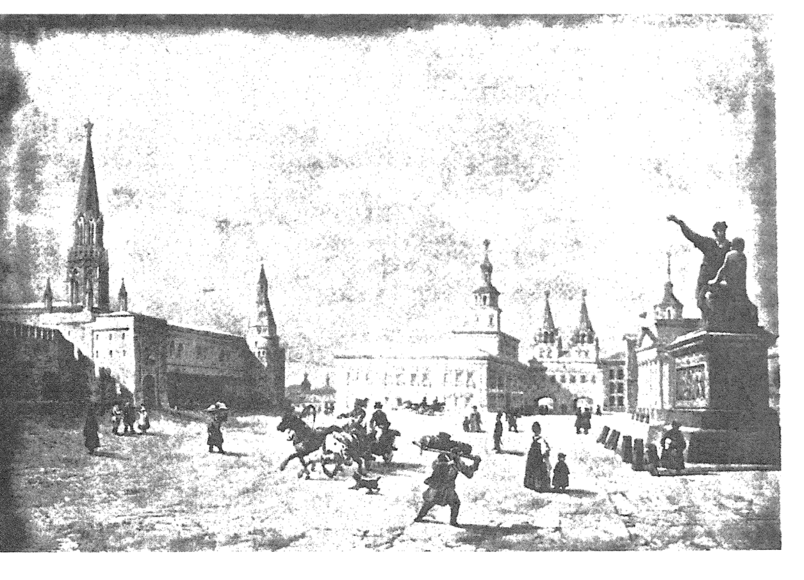


٢٤ — الامبراطورة اوجيني ومرافقاتها .



٢٥ – الزحمة في احد شوارع لندن .

٢٦ — دخول غاريبلدي الى نابولي .



٢٧ — الساحة الحمراء في موسكو، في السنة ١٨٤٤ .



٢٨ – برودواي ، في نيويورك ، في السنة ١٨٥٥ .

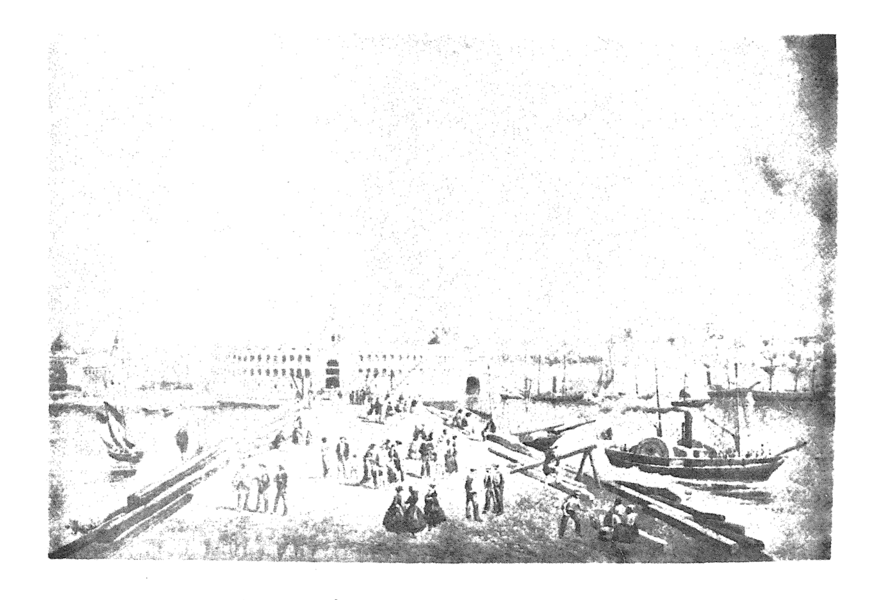
٢٩ – سنسناتي في السنة ١٨٦٠ .



٣٠ – دخول لنكولن الى مدينة ريتشموند ، عاصمة الولايات الجنوبية، (١٨٦٥)



٣١ — مكتب القطن في اورليان الجديدة (١٨٧٣) .



٣٢ – مدينة بوينوس ايرس في السنة ١٨٦١ : منظر مأخوذ من ساحة الجمرك .

يتمتع الاسلام الشيعي بقوة عظيمة ؛ وينجم نفوذه عن موقعه الغريب في قلب الاكثرية السنية : فانه يرتدي طابعاً شبه قومي على الرغم من أن رقعته تشمل القسم الاكبر من بلاد ما بين النهرين الخاضعة للآستانة . ولكنه أبعد ما يكون عن الوحدة . واذا هو انطوى على نزعة صوفية معينة ، فانه لم يتوصل قط الى ملاشاة الشيع التي تجد في ايران حقلا مؤاتياً . زد على ذلك ان الكتمان حالة نفسية تسهل قيام الجمعيات السرية . فهكذا انتشرت الصوفية التي تدفع الى الاختطاف في العزلة وتشيع اكرام الاولياء في اوساط الشعب . وتأيدت في الوقت نفسه تأيداً دائماً النزعة الزردشتية الى رفض كل سلطة غير القبول الاجماعي . وسبق لنادر شاه ان واجه تبني دين من شأنه التوفيق بين كافة الاديان التوحيدية . ثم جاء الباب بدوره كمنقذ ، ووجد نصر الدين نفسه ، عند توليه العرش ، امام حرب دينية واجتماعية حقيقية . وما البابية التي غلبت على أمرها في فارس بعد معارك دامية واضطهادات عنيفة سوى حركة اصلاحية انتهت الى الفشل .

لقد صمد زعماء المجتمع الذين وقفوا في وجه كل تغيير : المستفيدون من الاملاك الموقوفة الواسعة ، والاعيان المنتسبون الى كل الفئات الذين يديرون الحكم في خدمة الشاه ويعيشون في البلاد ، ولا سيما الحكام ، خلفاء المزاربة الحقيقيون . وقد عاد ثلثا الموارد للجيش والقصر .

تصرف الجيش ، الذي لم تدفع له اجوره بانتظام ، وكأنه في بلاد محتلة . وفي بلاط القصر ، اثار الشاه ، خليفة ملك الملوك ، اعجاب الجماهير بعظمته وكرمه الفائق ، ولكنه كان اسير الدسائس التي حيكت من حوله ، وقامت مهارة الحكم في نظره في التفاوض مع الحكام وزعماء القبائل. ونادراً ما أدرك الأمر هدفه اما لانه لا ينفذ واما لانه لا ينطوي على مزيد من القساوة . وعلى الرغم من ذلك فان مستوى حياة الفرس ، المشهورين بذوقهم المرهف واستهوائهم الموسيقى والمسرح ومهارتهم في الصناعة اليدوية ، كان متدنياً جداً . فهي الحرف الصغيرة الكثيرة التي حافظت على شهرة الفروش والطنافس والمنسوجات الحريرية والمخملية ودباغة الجلود وصناعة تحويلها ، ولكن طبقة التجار جمعت الثروات بالمراباة ، والدلالين اشرفوا على كافة الصفقات وجماهير الشعب شكت من الاملاك الكبرى وَالاوقاف. وعادت القرية للملك اولاحدى العائلات الكبرى او لاحدى المؤسسات التقوية ؛ فكان هناك ملاكون سيطروا بهذه الطريقة على ألوف الفلاحين. وقد ناء هؤلاء تحت وطأة الاتاوات فلم ينتجوا الا القليل، واستخدموا السماد البشري ورووا الارض بواسطة النواعير، وحتى بواسطة القرب المملوءة ماء. وما كان ملايين السكان الخمسة او الستة ليؤمنوا قط حاجتهم من المأكل ، وقد فتكت بعض المجاعات بألوف الضحايا (ويروى ان احداها قضت على نصف مشد) . وقد امنت الجمال والخيول نقل كل شيء . وجاء في كلام مأثور : « لو كان لدى الاوروبيين جياد شبيهة بجيادنا لما احتاجوا الى الطرقات » . وفي السنة ١٨٦٤ مد بين بغداد وبوصير السلك التلغرافي الذي وصله الاخوة سيمينس في عهد لاحق بخط لندن عن طريق تبريز. ثم منح الشاه رأسمالياً بريطانياً كبيرا هو البارون «جوليوس رويتر» (الذي

اشترى حاشية الامبراطور بالمال بهذه المناسبة) امتياز بناء خط حديدي بين بحر قزوين والخليج الفارسي ، وتأسيس عدد من المصارف ، وادارة الجمارك ، وحتى استثمار الاحراج والمناجم ، مقابل ٤٠ الف جنيه استرليني ؛ ولكنه ما لبث أن ابطل العقد بعد حين . وحين افتقر الى المال بعد رحلاته الى اوروبا ، سلم غلة التبغ والاتجار به الى شركة « التعاونية الامبراطورية الفارسية للتبغ» مقابل ١٥ الف جنيه استرليني وربع الدخل السنوي ؛ ولكن احد المجتهدين النافذين دعا المستهلكين الى الاقلاع عن التدخين ، فاستعاد الشاه الامتياز مقابل دفع نصف مليون جنيه استرليني . ومنذ السنة ١٨٨٩ خضعت مالية البلاد في الواقع «لمصرف فارس الامبراطوري » الذي حصل على امتياز اصدار الاوراق النقدية . فوقعت فارس بدورها تحت سيطرة الرأسمالية الاوروبية .

الدولة الافغانية بين البريطانيين والروس

على نقيض فارس ، تتكون افغانستان من مجموعة جبال وسطية تحيط بها البورات . ومنطقة كابول فيها تثير الاعجاب بحدائقها الغناء وخمورها التي يذكر مذاقها بخمور جزيرة ماديرا ؛ اما خزنه التي حملت اسمها سلالة الخزنويين في القرن الحادي عشر فتدين بالشهرة لاتقنية الري . ولكن طبيعة الارض وزعت السكان هنا وهناك وهنالك . وقد خضعت افغانستان زمناً طويلاً للسيطرة المغولية في الشمال والشرق ، وللسلطة الفارسية في الغرب . وحتى في القرن التاسع عشر حاول الشاه السيطرة على هيرات ، وأمير بخارى السيطرة على بوكشان ومنطقة بلخ(بختيار القديمة)، بينما شعرت قبائل المنحدر الشرقي بميل الى الدولة الانكليزية التي كانت مسيطرة على منافذ الوديان المنحدرة نحو الهندوس .

الأفغان سكان ارياف معظمهم رعاة او شبه بدو رحل يؤلفون خمسة اتحادات قبلية مؤلفة بدورها من قبائل صغرى (يبلغ عددها ٤٥٠) يدير شؤونها خانات منتخبون وجمعيات تضم زعماء العائلات . ويقدم هؤلاء المحاربون الأشداء، القانعون المتحذرون « الشرف الافغاني (نانجي بوختانا) على كل شيء ويطبقون فيما بينهم سنة « البدل » او الثأر . وتقوم في الشمال والشمال الشرقي منطقة باغستان المستقلة التي تقدم محاربيها البواسل لامير كابول ولاعدائه دونما تمييز . وقد عجز الافغان السنيون أبداً عن ان يطردوا من جبالهم الـ ٦٠٠ الف شيعيي المغوليي الاصل الذين يهاجرون راضين الى المدن حيث يقومون بأشغال شاقة . وهناك مليون « تاجيك» من أهل الحضر في هذه المناطق الشمالية وفي جوار هيرات : ولكن هؤلاء الذين تعاطوا الصناعة اليدوية والتجارة ما كانوا ليرضوا بالسيطرة القبلية .

ما هو في هذه الظروف شأن الامير المتربع على عرش كابول بقوة السلاح ؟ انه في حرب دائمة مع القبائل التي لا تعترف بسلطته ولا يستطيع هو اخضاعها .

بيد أن وجود بلاد افغانية متمتعة بالسيادة نظرياً كان نتيجة المخاصمة الانكليزية الروسية

في آسيا الوسطى . واذا منيت انكلترا في السنة ١٨٤٢ بفشل ذريع في ثغرة « كرد كابول » الرهيبة ، واذا لم ينقذ « روبرتس » حامية كندهار في السنة ١٨٨٠ الا بمسيرة غاية في الجرأة ، فان الدبلوماسية والرشوة قد نجحتا بالنتيجة في اسناد الحكم في كابول الى الامير عبد الرحمن الذي ترك فيه التفوق البريطاني أثراً كبيراً . ولم تدفع بريطانيا العظمى بين مليونين وثلاثة ملايين لمحميها فحسب ، بل ربطت بين البلاد ووادي الهندوس بطرق جيدة وبخطين حديديين يتجهان نحو ممري خيبر وخوجا . وأسهمت كذلك في صد الفرس ووضعت بلوتشستان تحت حمايتها فعززت بذلك هذه المواقع الامامية للهند .

إلا أنه استحال على امير كابول ان يستسلم كلياً للانكليز . فمهما كان من نفعية مساعدة بطرسبورغ، فانها انطوت مع ذلك على فائدة كبيرة للأفغاني هي ضمان تحالف بديل عند الحاجة ، لا سيما وان الضغط الروسي البعيد لم يبرز الا في عهد متأخر . ولكن الاستيلاء على مرو في السنة ١٨٨٤ قد فتح طريق هيرات أمام القائد كوماروف وكان مقدمة لاحتلال « بنجه » . ثم ما ا ث الروس ان بلغوا بامير .

وكان لأفغانستان فائدتها احياناً : ففي السنة ١٨٩٥ حافظت على منطقة فاخان الضيقة التي تفصل بين الامبراطوريتين الاوروبيتين على ارتفاع اكثر من ٣ آلاف متر . ولكنها في الحقيقة دارت في فلك الهند .

خضوع الاسلام للروس

في الحوض الجاف الواسع الاطراف الذي دخله الاسلام الى الشمال من ايران وضعت الحرب المقدسة الروسية تحت السيطرة القيصرية زهاء عشرة ملايين مسلم .

اقامت طلائع العالم الاسلامي هذه بين روسيا الوسطى والسهل السيبيري . فقد ألفت منذ ذاك الوقت على جانبي الفولغا مجموعة هامة تقدر بمليوني نسمة تنتسب الى الفرع التركي المغولي ولا يدخل في عدادها تتر القرم . فنمت « نجني – نوفغورود » عند حدود السلافيين الارثوذكس ، ولكن خازان ، عاصمة خانية الفرقة الذهبية بالامس ، قد شيدت المآذن منذئذ بين الكنائس . وبينها اعتنق الـ « شوفاش » المنحدرون من اصل فنلندي ، الدين المسيحي ، فقد مثل الاسلام ، ابعد الى الشرق في جبال الاورال ، الـ « بشكير » الذين اقلقوا القياصرة زمناً طويلاً بجسمهم ومساندتهم لـ « بوغاتشيف » : أخذت البلاد ترتدي طابعاً روسياً في أواخر القرن ، ولكن البدو الرحل الذين استخدمت جمالهم في الحملات على فارس وتركيا قد بقوا اوفياء للخيمة ولحليب الفرس المختمر .

وراء هذه المواقع الامامية ، انبسطت بورات صحراوية تحيط ببحري قزوين وارال وتكاد تكون خالية من السكان . ولكن حيثما كانت الحياة البدوية ممكنة عاش بعض الرعاة من امثال الـ « كلموك » البوذيين عند الفولغا الاسفل ، ولا سيما القازاق الكرغيز ابعد الى الشرق .

وكان هؤلاء اتراكاً مغوليي الطابع متمسكين ابداً باعتقاداتهم الشامانية وبعبادة الامـوات ، فمارسوا اسلاماً سنياً متساهلا . وقد شيد الروس فيـما بينهم خطاً من المراكز المحصنة وضعوا فيها حاميات من قوزاق اورنبورغ والدون ، رغبة منهم في ضمان مؤازرتهم . أما القبائـل الثلاث التي امتلكت ملايين الجياد والاغنام والابقار فقد تألفت من قبائل صغرى ، او «الول»، تضم كل منها بين ٣٠ و ٢٠٠ خيمة . وكان قوام غـذائها ال « عـيرن » او الحليب الخـاثر ، والشاي ، واللحوم .

في القفقاس تغلب الروس بصعوبة على مقاومة اللسغيين والشراكسة الذين هاجر قسم كبير منهم الى تركيا . وقـد خُططت الطريق العسكرية الى منطقة مـا وراء القفقاس عبر ممر « داريال » بـين ال « اوسيت » الايرانيي الاصل المتميزين بمزيد من الاستعداد للخضوع . اما شيعيو اذربيجان الذين يجوبون بورات « شروان » ويتطلعون الى ابناء بجدتهم في تبريز ، فلم يعفّ الفاتحون السلافيون عن استخدامهم في سياستهم الفارسية . ولكن الفاتحين هؤلاء الذين نشروا الامن والسلام في الفسيفساء القفقاسية ، وباشروا استثمار ثرواتها ، قد اضطروا الى الاكتفاء بترويس المسؤولين الاداريين .

الى الشرق من بحر قزوين ، سيطرت على الوديان المنحدرة من القمم المرتفعة رطوبة كافية لان تجعل من كل منها مصراً اخرى . وغذّت مجاري المياه واحات واسعة الاطراف . وكانت مواطن الحرير والقطن هذه ، حيث ازدهرت في العصور القديمة سوغديانا وبكتريانا ومرجيانا ، مهيأة ابداً لقيام الامبراطوريات . فان سمرقند تعتز بضريح تيمورلنك ؛ كما ان بابر ، فاتـح الهند ، هو ابن فرغانا . وقد تعززت حيوية الاسلام السني في بقاع عرفت بالامس حضارة يونانية ـ بوذية تتصف بالرقة . واذا استطاع الروس الاستقرار في « سميرتشه» ، او بلاد الانهار السبعة ، عند مدخل « زونغاريا » ، فانهم قد اصطدموا من جهة ثانية بدول اسلامية حسنة التنظيم في احواض « سيرداريا » و « اموداريا » و « مورغب » .

ان الاستيلاء على تركستان ، المدينة المقدسة ، وعلى طشقند ، قـد قاد جيوش القيصر الى ابواب فرغانا . وقد خضعت هذه الاخيرة للصين حتى السنة ١٨٣٥ ، ثم اسست خانية كوكند التي ضمت اهل حضر واهل وبر ؛ فأقام فيها التاجيك والسارت علاقات طيبة بسمرقند وقشغر على الطريق التي تصل بين تركستان الشرقية وتركستان الطورانية . وبعد ان حارب الروس اصبح خان الاوزبك التركي المغولي حليفهم رغبة منـه في التفرغ لصد اعتداءات بخارى ، ولكن فرغانا قد ضمت الى روسيا في السنة ١٨٧٦ .

اما بخارى ، اكبر الدول الاسلامية ، فارتضت قبل ذلك بالخضوع للسيادة الروسية . ولكن خانها نصرالله سار قدماً في تحقيق برنامج ينطوي على الكثير من الطموح . فقد جهز هذا الزعيم الاوزبكي الاخر جيوشاً دائمة وهاجم جاره زعيم خيوا ؛ ثم استولى على سمرقند وخوجند ، وطرد امير كوكند من فرغانا لفترة قصيرة ؛ لا بل انه فكّر يوماً بغزو افغانستان ، ولكن

دون اتفاق على ذلك مع الانكليز ؛ وقد اشتهر بالاضافة الى ذلك باضطهاده المسيحيين ووحشيته في قمع الحركات الثورية . ولكن ابنه لم يستطع الصمود في وجه الهجوم الروسي ، وبعد سقوط سمرقند ، مدينة الجوامع الـ ١٦٥ والمدارس الذائعة الشهرة ، ارتضى بأن يكون محمي القيصر ، وبأن يلغي الرق ويستقبل في جيشه مدربين روسيين . فقابل ذلك ، ومقابل التخلي عن منطقة ظرفشان الغنية تمكنت بخارى ، الواحة المشهورة بجوامعها الـ ٣٦٠ وفنادقها الـ ٣٨ ، واسواقها الـ ٢٤ ، والمتميزة بأكثرية من التاجيك ، من الابقاء على مؤسساتها الاقطاعية .

هوجمت خيوا من الوراء فسقطت بدورها . وقد تنازع الاوزبك والتركمان هذه الواحة وهذه السوق النخاسية الكبرى ؛ وهم السارت والتاجيك ، هنا ايضا ، من الفوا الاكثرية ودفعوا الجزية الملك الذي ابقاه الروس كذلك في مركزه بالشروط نفسها .

وكانت مرو مركز خانية تركانية ضمت ٢٤ قبيلة صغرى ، وانشئت فيها ٢٤ قناة للري . وقد صمدت فيها المقاومة التركانية بعناد ولم تنهر الا في السنة ١٨٨٤ . فبات ممكنا حينذاك أن يحور الخط الحديدي المؤدي من « كراسنوفودسك » على شاطىء بحر قزوين الى فرغانا النائيـــة دون أن يمر بصحراء تركستان الوسطى . ولن ينشأ خط حديدي مباشر بين موسكو وطشقند الا في السنة ١٩٠٥ .

نشر السلم الروسي الذي لم يتعرض تعرضاً يذكر للعادات المحلية ، مقتصراً على مراقبـة الغاء الرق ومنع بعض تجاوزات القانون الجزائي وتوطيد حرية الاديان والتجارة ، وتاركا للمـدن الاسلامية طابعها وشوارعها الضيقة القذرة وحماياتها . وقد آثر الفاتح ان يشيد لموظفيه وحامياته ومهاجريه المستعمرين ابنية خاصة به ، فأسس طشقند جديدة توازي باريس مساحة وجهزهـا بدار كتب ومرصد ، ومرو جديدة ، وحيا اوروبيا جديداً في سمرقند . واشترى الحـــرير ، وأدخل نوعاً اميركياً من القطن ، وانشأ مصانع للحلج وباع مصنوعاته في بـلاده . ولكنه لم يدخل اي تحسين على الري وتربية المواشي . وبعد أن تغلب على زعماء الاوزبـك والتركان ، لم يكترث قط لمكافحة الرياح البوارح والجراد والملاريا .

ان تركستان ، الغنية بذكرياتها وامكاناتها ، مدينة لمجيء الروس بأمنها ووحدتها الجزئية . ولكن مستوى الحياة فيها لم يرتفع ارتفاعاً يذكر .

مصر : ارض خصبة وفلاح بائس

في القرن التاسع عشر ، لفتت مصر انتباه اوروبا بعد حملة نابوليون . فتبارى رجال السياسة وعلماء الاقتصاد واهل القلم في تبيان مـــوقع البلاد الهام وغنى كنوزها الاثرية التي نبشتها اعمال التنقيب ، وثروة تربتها الذائعة الصيت .

اذا استثنينا الطوائف المسيحية – الاقباط وسواهم – واليهودية ، رأينا ان الشعب المصري يتألف ، بنسبة تسعة اعشار ، من الفلاحين المسلمين الذين تتوقف معيشتهم على فيضان النيـل

وهناك اقل من ٢٠ الف كيلومتر مربع من الاراضي الزراعية (اي اقل من مساحة بلجيكا) من اصل ٦٠٠ الف ، ويمكن تقدير عدد السكان بمليوني نسمة في اوائل القرن التاسع عشر : فتكون الكثافة ٦٠ في كل كيلومتر مربع من المساحة الضيقة الصالحة للحراثة المتكونة من الدلتا والوادي والفيوم . وليست مصر من ثم سوى اكبر واحة في العالم . فالعهود تتوالى وتستفيد من عمل المصري الشاق : والمصري يتحملها ولا يحب سوى ارضه . ولكن الارض ليست لمن يزرعها. فالاملاك الموقوفة تمثل اكثر من ربع المساحة المستثمرة ولا تنتج كثيراً . يضاف الى ذلك ان الملك ، بوصفه صاحب الارض ، يوزع الانصبة الاخرى لقاء جزية معينة ؛ وفي قطع الارض هذه المعروفة بالخراج يكون الفلاحون مسؤولين بالتكافل عن تأمين الاتاوات المفروضة وملزمين بدفع رسوم اضافية للري .

بعد مصادرة املاك المماليك، أمر محمد علي بمسح الاراضي مسحاً جديداً . فسجل كل قطعة، مدى الحياة ، باسم زعيم العائلة ، ولكنه احتفظ لنفسه بأملاك خاصة واسعة ووزع الاملاك الكبرى على ملتزمي جباية الضرائب و « شيوخ البلد » . وقد استهدف من وراء ذلك ان يضمن بعض المؤازرين بغية توسيع زراعة النباتات الصناعية الوفيرة الارباح . فأدى ذلك الى رأسمالية رسمية مارسها اقطاعي كبير .

لم يدخل بذلك اي تبديل على معيشة الفلاح . ولكن سعيد منحه حق التصرف بأرضه واسماعيل حق التملك الكامل لكل من يدفع مسبقاً الضرائب المتوجبة خلال عشر سنوات : واحتفظت الدولة لنفسها بحق الاستملاك دونما تعويض بحجة المنفعة العامة ، او بحق الاسترداد في حال التخلف عن تسديد الضريبة . وبالنظر الى تزايد عدد السكان بسرعة (ارتفع الى ثلاثة اضعافه خلال نصف قرن) ،تفاقم خطر تجزئة الاراضي ، وحين اقر مبدأ انتقال الملك بالوراثة بعيد السيطرة الفرنسية الانكليزية المشتركة على مصر، حدث من جهة ان ٧٠٠ الف عائلة لم تملك اكثر من خمسة فدادين (يساوي الفدان ٤٥ آراً تقريباً) ، ومن جهة ثانية ان ١١ الف شخص ملكوا اكثر من ٥٠ اي ما يوازي الضعف (لأن بعض الاملاك بلغت بضعة آلاف الفدادين ولا سيما مناطق الدلتا المكتسبة حديثاً) . ولكن المالك الاكبر كان الدولة التي احتفظت لنفسها بزهاء ٩٠٠ الف فدان . وأتاحت المراباة لجامعي الاراضي الخراجية توسيع ثرواتهم العقارية توسيعاً مستمراً. وحين اضطر خلفاء محمد علي للاستدانة، انتقلت املاك الدولة عملياً الى رقابة الرأسماليين الاجانب. وهكذا فان روتشلد قد ارتهن ٤٢٦ الف فدان في السنة ١٨٧٨ مقابل قرض بلغت قيمته ٨ ملايين جنيه استرليني ونصف المليون .

الفلاح هو بالتحديد من يشقى . يعد الارض بواسطة مسحاة بسيطة او محراث بدون عجلة ر مقلب ، ويمهدها بمعارضة خشبية بسيطة ايضاً هي « الزحافة » . اما معاونوه فهم الجاموس او

الحمار . ولكن العمل الاكبر هو عمل الماء ، اذ لا غلة بدون ماء . فيتوجب على الفلاح ان يستعد لوقت حدوث الفيضان . اجل لقد تولى محمد علي امر استبدال طريقة احواض الاغتيار القديمة بأقنية الري الحديثة . ولكن الفلاح ملزم ، حتى في هذه الحالة ، بعمل جماعي شاق لا يعرف الكلل . فعليه ان يراقب الاحواض والاقنية ويصلحها احيانا ، ويتعهد السدود ، ويزيل كل ما يعيق جريان الماء ، ويرفع الماء حين يكون منخفضاً ، اما بواسطة زنبيل واما بواسطة الشادوف البدائي ، وكلها اعمال منهكة . فيجمع من ثم بين هؤلاء المساكين تضامن وثيق لا سيما وان اعمال التسخير من اجل المصلحة العامة ضرورة حيوية بالنسبة لهم . يزرع القمح والفول بعد الفيضان والذرة الصفراء والخضار والنباتات الصناعية والارز في الخريف. ولا يغادر الفلاح أرضه . فهنالك بيته المصنوع من مور مجبول بالتبن ، ويستخدم في صنعه زبل البقر مكان الملاط . لا كوة فيه سوى الباب ، وهو لا يضاء ولا يدفأ بسبب الحاجة الى المحروقات . ولكن السقف المغطى بالتبن غالباً ما تلتهمه النيران . ارضه الترابية مغطاة بالحصر وليس عليها بالاضافة الى ذلك سوى صندوق للملابس . المياه الصالحة للشرب نادرة ؛ والدين والفاقة يحرمان الخمرة . قوام وجبة الطعام بصل ولفت وخيار وفول وعدس وأرز ، ولا سيما خبز الذرة الصفراء الذي ينقذ مصر من المجاعة . وجلي انه نظام غذائي نباتي قليل الفيتامينات ، لا يدخل فيه حتى حليب الجاموس . ويرتدي الفلاح قميصاً قطنية طويلة بسيطة ، ويكسي رأسه بكمة تعرف باللندة ، فيدعى بسببها بأبي لندة . ويسير حافي القدمين او يحتذي البابوج احياناً . اما امرأته المحجبة فلا ترتدي سوى ثوب واحد ، ولكنها تكثر من الحلي اللامعة . رمد العيون والبلهرسية وضعف الدم الناجم عن الديدان الطفيلية امراض منتشرة تسبب اضراراً كبرى . الملاريا والكوليرا ينتشران بين حين وآخر ؛ وهناك بعض الاماكن الموبوءة بالطاعون . وينضم السفلس الوراثي الى الضعف العضوي للقضاء على نصف الاولاد الصغار . وعلى الرغم من كل ذلك يتزايد عدد السكان ويتزايد معه البؤس .

الفلاح مسلم بعيد عن التعصب ولا يفهم لغة القرآن . يزور ضريح الولي اكثر من الجامع البعيد . يحترم الدراويش ويتصف بروح التعاون. زد على ذلك ان شظف العيش لا يجعله شكساً : فانه يهوى الغناء ويستخدم الشبّابة والمزمار ويضرب الطبل . انه سهل الانقياد وراض بتدبير الله عموماً .

مطامع محمد علي وخلفائه
السيطرة البريطانية

شبه عمرو بن العاص الشعب المصري بالنحلة التي يحكم عليها الانسان بجني العسل من اجله . وسوف يتكلم الانكليز عن الضحية الدائمة لمنطق العصا . وفي اوائل القرن التاسع عشر جاء محمد علي الذي أراد بدوره استخدام البلاد لبلوغ اهداف كبرى .

اثرى في تجارة التبغ ، وكان امياً وفطناً وعادم الضمير . ثم اعترف السلطان بباشويته على

مصر فقتل المماليك على ايدي البانيه، وما لبث ان أبعد الالبانيين السجسين بدورهم . وجند بعد ذلك جيشاً من بين الفلاحين واسند امر تدريبهم الى بعض المدربين الفرنسيين وابتغى السيطرة على الشرق . وكان بصيراً وقاسياً فاقتبس عن اوروبا تقنياتها ودغدغ شغفها بالتاريخ المصري والآثار المصرية ، وسخر لمرض تعاظم لا حدود له ارادة استبدادية على غرار بطرس الاكبر .

ما كان احد في الحقيقة لينكر ان العجز التركي أوقع البلاد في حالة يرثى لها. فالاسكندرية ليست آنذاك سوى ميناء صغير لا يتجاوز سكانه ٥ آلاف نسمة . ولما كان الباب قد احتفظ لنفسه بالمرفأ القديم القادر وحده على ايواء السفن ، فقد بقيت السفن الاوروبية خارجه معرضة للرياح العاصفة . وتعرض تجار الغرب ، المجموعون في مكان واحد ، لألف ظلم وظلم ؛ ولكن الفرنسيين تمتعوا مع ذلك ببعض الامتيازات . اجل كان من شأن عظمة الابنية الفاطمية والايوبية والمملوكية ان تترك اثراً عظيما في الناظر اليها : ٤٠٠ جامع بعضهااجملما في الاسلام ، جامعة الازهر الدينية الذائعة الشهرة ، المكتبة الغنية الضامة مخطوطات قديمة للقرآن ، كلية قصر العين الطبية . ويضاف الى هذه الابنية شوارع مليئة بالنضارة ، وتجار وصناعيون بدويون كثيرون؛ على ان اشكال النشاط قديمة العهد .

ان ما حلم به بونابرت ، وما نوى السانسيمونيون تحقيقه، قد رسمه محمد علي رسماً ايجازياً: برنامج اعمال كبرى خليق بالفراعنة . لم يبال بحياة الرعايا بل طلب منهم الاسهام في عمله وأراد ان يجعل من مصر ارضا توفر لصندوق ماله الدخول الوفيرة . عالج مسألة الري الرئيسية التي وجب برأيه ان تكون منظمة لا متروكة لأهواء الطبيعة . فنفذ جيش الفلاحين الزهيد النفقات تصاميم المهندسين الفرنسيين من امثال « لينان » و « موجيل » ، ونقل ١٠٤ ملايين متر مكعب من التراب ووضع مكانها ٣ ملايين متر مكعب من الحجارة المبنية . وعلى الرغم من التخلي عن مشروع سد عند الدلتا بعد جهود عشر سنوات ، اتسعت مساحات زراعة الحنطة والارز ، وأخذت البلاد ، بصورة خاصة ، تجني القطن المعروف بقطن « جومل »،وقصب السكر ، والنيلج والزيوت ، المعدة كلها للتصدير . ولكن شيخ البلد والمدير الاقليمي والكتبة الاقباط في الوزارات صرفوا الذهن والفطنة في تحصيل كل ما يمكن بيعه في الخارج من الفلاح . أما الارباح التي وفرتها النخاسة ، فلم تكن مستهانة ايضا .

أنفق قسم من الموارد على تجميل القاهرة وتنظيم الاسكندرية وبناء قناة تصل هذا المرفأ بشعبة النيل اليمنى . وكان الجيش والاسطول موضوع عناية واهتمام خاصين . ولكن أحلام التوسع العظمى لم تتحقق . وقد توفي الباشا شبه معتوه بعد أن سير مصر على طريق نهضة لم يستفد منها الشعب الذي عومل معاملة قاسية لم يعرفها من قبل ، ولن تتم الا في عهد الوصاية الاوروبية .

اذا صرف سعيد واسماعيل النظر عن مطامعهما في سوريا والجزيرة العربية وقبرص (لأن مدعياتهما استهدفت السودان وافريقيا الشرقية) ، فان احلام العظمة ما زالت تراودهما . ولكن السلالة غرقت في الديون أثناء فتح قناة السويس التي أضفت على مصر اهمية جديدة . وقد برهن سعيد عن بعض التساهل الديني ، ومنع الرق – اقله مبدئياً – وحظر العقوبات الجسدية، وحد من تجاوزات شيوخ القرى ، ولكن التقدم الاقتصادي لم يفد الفلاح كما لم يبرر النفقات المفرطة . وقد اطردت هذه الاخيرة في عهد اسماعيل الذي حصل من السلطان على لقب الخديوي واعتقد ان ذلك يسهل له الاستدانة من اوروبا . اجل لقد اقرت بعض المشاريع الجدية (كبناء الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة مثلا) . ولكن كم من انفاق مفرط مخالف للصواب الى جانب ذلك ! أفلم يفكر هذا الامير بأن تدرب جيوشه امام قصره في الاسكندرية على ارضية حديدية حتى لا يزعجه الغبار المتطاير ؟ فمن جهة خرجت بور سعيد من الرمال ، وظهر الغاز في المدن ، وتأسست صناعة سكرية ، ونمت زراعة القطن ، ومن جهة اخرى ابتز الموظفون المتدنية اجورهم اموال الفلاحين ابتزازا لم يسبق له مثيل في الماضي ، وبات افلاس الاموال العامة أمراً محتوماً .

بقيت مصر توفيق وعباس حلمي مرتبطة بالباب بروابط التبعية الاقطاعية ، ولكنها اصبحت في الواقع تحت رقابة البريطانيين الذين أقاموا ، بأمر « بارنغ » (اللورد كرومر) ، حامية عسكرية دائمة ، وأداروا الشؤون المالية ، واستولوا على الجمارك والشرطة والخدمات الصحية ، وأعادوا تنظيم الجيش لمصلحتهم . فأرسخ الفاتح من ثم سلطته في السويس واستطاع تبني سياسة القاهرة لحسابه الخاص في وادي النيل الاعلى .

أما الفلاح ، فالمسألة التي عنته هي معرفة ما اذا كانت احواله ستتحسن بفعل استثمار يتحقق بهمة ونشاط لم تعرفهما مصر من قبل .

الوصايات الثلاث في الجزائر وتونس وطرابلس

حين يتجه المرء المغادر مصر من واحة سيوا نحو الغرب ، يدخل في بلاد البربر الممتدة حتى الاطلسي .

نشأت عن الفتح التركي وصايات الجزائر وتونس وطرابلس، بينما توقفت سلطنة مستقلة في مراكش الى تثبيت اقدامها تثبيتاً متفاوت القوة . ولكن هذه البلدان الاربع خضعت خلال القرن التاسع عشر ، الواحدة تلو الاخرى ، لسيطرة الدول الاوروبية .

ومن غرائب المناقضات ان وصاية طرابلس هي آخر ما خضع لها من بين الوصايات الثلاث. فبين دلتا النيل والمغرب تتصل الصحراء الكبرى بالمتوسط ، مما اسهم في نمو طرابلس المعتمدة في معيشتها على القرصنة وعلاقتها بالسودان التي اتاها منها الجمالة ناقلو الذهب والعاج ومواكبو قوافل العبيد . وطرابلس المتميزة باسواقها الناشطة ، قامت في مكان « اويا » القديمة وضمت حياً يهودياً هاماً وقذراً ، وعدداً كبيراً من المالطيين والطوارق والزنوج . وفي السنة ١٨٣٥ ، آثر

الطرابلسيون ، امام خطر قبيلة اولاد سليمان الحرابة ، التي بسطت نفوذها بين الساحل وال «قائم» التشادي ، استدعاء الاتراك ثانية ، لا سيما وان سلطتهم كانت سلطة اسمية فحسب . فبذل هؤلاء وسعهم في السيطرة على المناطق الداخلية ، واستولوا على واحتي غـادامس وفزان ، ثم انشأوا ولاية بني غازي . وكان مقدراً لهذه الوصاية ، ربما بفضل فقرها بالذات ، ان تبقى عـثمانية حتى السنة ١٩١١ ، تاريخ التدخل الايطالي المتأخر فيها .

بيد ان المغرب (جزيرة الغرب) الذي يضم الجبال القائمة بين المتوسط والاطلسي والصحراء لم يصلح يوماً لان يكون اطاراً لدولة واحـدة . فكل ما في طبيعة ارضه ومناخه وطرائق المعيشة فيه قد اعده للتقسيم والتجزئة . وسوف يتوجب ان تفرض دولة اوروبية وجودها حتى تعرف افريقيا الصغرى هذه بعض الوحدة السياسية والادارية : فجاءت السيطرة من الخارج كما حدث في الماضي .

ما زالت الجزائر وتونس تعترفان بالخضوع للباب العالي . ولكن الموارد التي توفرها القرصنة كانت سائرة في طريق الزوال . فلم يكن « داي » الجزائر من ثم خاضعاً لتعاونية القراصنة او « طائفة الرؤساء » خضوعه لفرقة الانكشارية او « الاوجاق » ، كما ان باي تونس قـد استند الى البورجوازية التجارية ، اكثر البورجوازيات طابعاً عربياً في المغرب ، التي كان يهمها الاحتماء من غزوات البدو . فقد بدا الحفصيون ثم الحسينيون في افريقيا امراء سـلالات على بعض القوة . اما الداي ، الذي قال عنه مؤرخ اسباني انه « ملك عبيد وعبد رعاياه » ، فكان اداة في يـد الجيش . فبالنظر الى توليه السلطة اما عن طريق الدسيسة واما عن طريق القوة ، ولما كان بالاضافة الى ذلك جامحاً وتابعاً هواه ومقلقاً لجيرانه (ولذلك لن يمد له يد المساعدة لا باي تونس ولا الشريف المغربي في السنة ١٨٣٠) ، فـلم يتمتع بسلطة كافية لنشر الامن والنظام في الجزائر .

تتميز الجزائر بالتنوع بسبب اتساع رقعتها . فمن الطبقة العسكرية التركية والنساء البلديات انحدر ال « كولوغلي » الذين يؤمنون الحراسـة في حصون المدن ويمتلكون بعض البساتين ؛ يحتقرون البورجوازيين والصناعيين البدويين ويثيرون خوف وحفيظة سواهم . ويتعاطى المغربي او الاندلسي على العموم حرفاً تتطلب بعض الذوق ، بينما يتعاطى الزنوج ، المعتقون غالباً ، اعمال البناء المختلفة . ويزاول المزابيون ، المعتبرون كخوارج ، تجارة الاقمشة والمواد الغذائية ، ولكنهم نادراً ما يستقرون في مكان معين ، ، بل يعودون الى مزاب بعـد جمع الثروة . امـا الاسرائيليون سكان المدن فيؤلفون جماعات مستقرة ، ويبلغ عـددهم زهاء عشرين الف نسمة منهم ٦٠٠٠ في مدينة الجزائر نفسها و ٣٠٠٠ في قسنطينة ، وينحدر جلهم من اصل بربري ؛ ولكن عدداً كبيراً منهم ينحدر كذلك اما من اصل عبراني آرامي واما من اصل اسباني . ويتوجب عليهم ارتداء زي خـاص والاقامة ، على العموم ، في احياء منفصلة . ويعانون من

المظالم وحتى من اعمال العنف . وهم فقراء الحال بصورة عامــة ، ولكن بعضهم يتعاطون تجارة رابحة ويلعبون دور الوسطاء المفوضين مع الاجانب .

اما سواد السكان فيتألف من خليط من العرب والــبربر الموزعين على غير تساو بين المدينة والريف . اجل ان المدينة ، التي تحيط بها الاســوار بصورة عامة وتشرف عليها القصبة وبعض المآذن ، تبدو وكانها مركز ثقافة عربية ؛ ولكن العنصر البربري متفوق في الاسواق . زد على ذلك ان المدن المعتبرة « حضرية » لا تتجاوز العشر عداً .

لا يزال التضاد قائماً بين البدوي الذي ترتبط حياتــه بانتقال القطعان من منطقـــة الى منطقة وبــين الحضري او شبه الحضري . الجفاف عـــدو الجميع في كل مكان . والانسان يسيء مقاومته لانه نمطي وقــدري ولا يستخدم ســوى محراث مزود بباسنة صغيرة بدون سكين ومقلب ، وكانه مجرد كلاب يجره الحمار او الحصان او الثور ؛ يحصد بواســـطة المنجل ، وينظف الحبوب من التبن بواسطة المذراة ، ويجمع الحبوب في المطامير . اجل انـــه يعتني بحدائقه وبساتينه . ولكنـــه لا يتقن تربية المواشي ويجهل امر سكناها في الزريبـــة ويقدم لها الاعشاب التي تنبت بفضله تعالى . وغالباً ما يحدث ان تموت الابقــار والاغنام جوعاً باعداد كبرى . وتتسبب الحروب الاهلية والغارات بخسائر توازي تلك التي تسببها الكوارث الطبيعية . وباستطاعتنا كذلك ان نرد الى الفوضى والاهمـــال سوء الحالة الصحية في السهول الساحلية .

الف الناطقون باللغة البربرية مجمـــوعات متراصة في جبال قابيلية واوريس وبين سنوسيي منطقة تلمسن ، ولكن تعلمهم اللغة العربية وارتدادهم الى الاسلام لم يقضيا على عاداتهم القديمة . فقد قابل الشرع الاســـلامي العادة المحلية : وهكذا فان قبائل قابيلية لا تخضع الا لقوانينها ؛ وحتى اذا تجمعت العائلات المتصاهرة لتؤلف « الدوار » عند الرعاة و « القصار » في القرية ، فان هذين التجمعين لا يرتديان قط طابع الديمومة .

عجزت حكومة الوصاية عن تنشيط اقتصاد البلاد ، فلم تهتم الا لجمع الدخول . وقد تامنت لها الواردات بفضل الجمارك والمقايضات مع الخارج . وقـــد باع الداي الاصواف بواسطة يهود ليفورنو محققاً كسباً يوازي ٣٠٪ ويرتفع حتى ٥٠ ٪ حين يضاف اليه كسب التجار ؛ وقـــد اشترى هكتولتر الحنطة من المنتج بسعر يتراوح بين ٣ و ٨ فرنكات وبيع بسعر يتراوح بين ١٨ و ٢٠ في اوروبا . اضف الى ذلك ان الضريبة تفرض على القبيلة « الرعية » بالتخـــلي للحكومة عن بعض الحصاد والماشية ؛ وتجمع هذه الضريبة على يــد قبائل تعرف بالمخزن وتقوم بعملها مقابل تخفيض الرسوم المفروضة عليها وحتى اعفائها منها، وبمساعدة الحاميات العسكرية . واذا احتفظ الداي لنفسه بادارة منطقة مدينة الجزائر (ملكه الخاص) ، فقـد فوض بسلطاته الى بعض البايات في مناطق وهران وقسنطينة وميــديا . وبديهي ان الامور لم تجر بدون صعوبات . فان باي قسنطينة ، الكولوغلي الحاج احمــد ، قد القى الاهابة والخوف في كبار

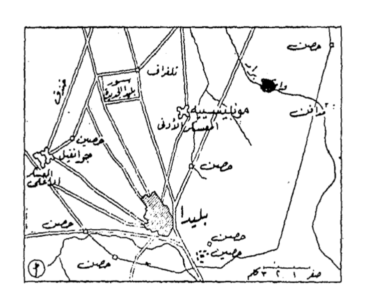
الاقطاعيين المدعين الانحدار من الفاتحين العرب (ارستوقراطية الـدم الازرق)، ولكن الداي محمد بن عمان لم يستطع اخضاع قابيلية (وستدوم الاسطورة القابيلية طويـلا). اما في منطقتي وهران وتتري ، فقد ساندت فاس بعض الجمعيات التي تنازعت النفوذ فيها : فبينما نادت بعض الجمعيات الدينية المتميزة بروح ديموقراطية ، كجمعية الدركاوة ، بالثورة على السيطرة التركية؛ برز في الارستوقراطية المتصوفة زعماء تاقوا الى تخطي النظام القبلي وســموا وراء السلطنة ، ومن اشهر هؤلاء الزعماء عبد القادر الذي سار على خطى الامراء العرب . وقـد استغلت القوى الروحية الاستياء العام الناجم عن البؤس ، قبل ان يستطيع الفرنسيون الاستفادة من الخلافات. وان عبد القادر لمدين بقسط كبير من شعبيته الى الغاء الضريبة العينية التي سبق ووعدت بهـا ثورة دركاوية . وجملة القول ان القبائل الرعايا كانت ترتقب اول فرصة للتحرر من نظام جائر . ثم جاء الفتح الفرنسي في وقته المناسب حين وجد السبيل ممهدا .

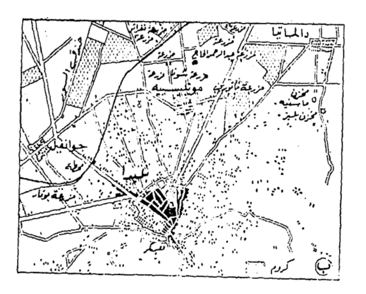
. عمل الفرنسيين في الجزائر

بسبب جهل الاماكن واللهجات ، خضعت الحملات الاولى على الجزائر لعامل الارتجال ، وساد الاعتقاد بان الاتفاقات مع الزعماء المحليين – احمد في منطقة قسنطينة وعبد القادر في منطقة وهران – ستكون كافية لضمان احتلال جزئي ؛ يضاف الى ذلك ان الرأي العام لم يكن معداً للتسليم بتضحيات كبرى . ولكن الحاجة مست بعد قليل الى حماية المهاجرين المستعمرين في منطقة التل ، كما مست ، امـام عبد القادر الاريب والخطر ، الى الاستيلاء على كل شيء خوفا من فقدان كل شيء. فكانت الحرب الكبرى مع ما تخللها من غزوات واعمال عنف وقد تولى عملياتها ضباط تعودوا ظروف القتال في افريقيا . وسهل عمل الفرنسيين فقدان الروح القومية وفشل التعبئة الدينية ، اي الاختلافات بين المسلمين . واذا لم تتحقق التهدئة النهائية الا بعد مرور زمن طويل ، فـان اضطراب السنة ١٨٦٥ وثورة السـنة ١٨٧١ الخطـيرة لم يكونا خطرا على السيطرة الفرنسية . وسوف يصبح بمقدور الاحتلال بعد ذلك التوسع تدريجياً في كافة المناطق الداخلية والسير على طرق القوافـل عبر الصحراء .

اقتنع الجيش شيئاً فشيئاً بان الجزائر انما هي عمله وتحقيقه ، ومن جهـة ثانية بان السلطة العسكرية وحدها قادرة على ابقاء فرنسا فيها . ولم يسلم « بوجو » يوماً بان راي المدنيين يجب ان يتقدم رأي العسكريين،وعارض استثمار البلاد على يد مهاجرين احرار في التصرف كما يطيب لهم التصرف ، او على يد رأسماليين يقتطعون منها او من دخول سكانها ما يطيب لهم اقتطاعه. وبالمقابلة درج الفاتحون شيئاً فشيئاً على تعيين او تثبيت الزعماء البـلديين في مراكز المسؤولية مفوضين الى تـدبيرهم امر جباية الضرائب ، فسهلوا بذلـك استمرار نظام اقطاعي تناوله بالنقد المطالبون بنظام مدني .

لما كان الاستعمار الاسكاني قد بدا ممكناً منذ البدء ، فقد تقابل منذ البدء عالمان مختلفـان .





الشكل ٢٥ ـ مثال عن الاستعمار الاوروبي . بليدا ومنطقتها

أ ــ بليدا في السنة ١٨٤٤ ، حين وضع الجيش يده عليها ،

ب ــ بليدا في اوائل القرن العشرين بعد استثمار المزارعين والكرامين لاراضيها .

(نقلا عن « ج. فرانك » في كتابه « استعمار الميتيجه » ص ٢٤٩ و ٥٦٤) .

ولكن استيطان الفرنسيين لا يمكن ان يتحقق الا على حساب البلديين . والحال لم يفكر أحـد بمنعه ، حتى ولا « بوجو » الذي كان يحلم بجنود فلاحين على غرار الرومان . فسارت الامور على غير هدى ، وفاقاً لحاجات الساعة او لاتفاق الآراء السائدة . وقد هاجر، اثناء الاعمال الحربية، بعض المساكين الذين أقاموا على مقربة من مدينة الجزائر ، وبعض المضاربـين الذين اشتروا بغية تحقيق الارباح عند البيع ، وبعض هواة الاختبارات الزراعية الكبرى . ثم تسببت ازمـة السنة ١٨٤٨ في هجرة عدد كبير من العمال ، وتبنى المجلس التشريعي مبـدأ انزال الجنود في المنازل والاحياء الآهلة الذي يتيح اغتصاب اموال البلديين بموجب القانون . واذا أعرب نابوليون الثالث عن رغبته في حماية القبائل ، فان ذلك لم يمنع الامبراطورية الثانية من اطلاق حرية العمل للرأسماليين الذين حصلوا على امتيازات واسعة : هذه هي سانسيمونية الاشغال العامة الكبرى، التي توفرت لها وسائل مالية عظيمة ؛ ولكن سد « هبرا » قد انهار ، والشركة الجزائرية العامة أعطيـت ١٠٠ ٠٠٠ هكتار دون اي تعهد من قبلها. ففترت همة صغار المهاجرين المستعمرين فترة من الزمن ، ولكنهم استعادوا التفوق ابتداءً من السنة ١٨٧١ : فتوزع خلال عشر سنوات اكثر من ٤٠٠ الف هكتار . ثم بطؤ الاستعمار الرسمي . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان الاتجاه نحو توسيع الانصبة التي بلغ معدل مساحتها الى ٢٥ – ٤٠ هكتـاراً ثم ٦٠ – ٧٠ هكتاراً ، ثم ٢٠٠ هكتار . فعاد الى الاملاك اعتبارها بعد أن تأمنت لها رؤوس امـوال وفيرة وتقنية متكاملة : وبعد عهد الاستعمار الديموقراطي في اوائل عهد الجمهورية الثالثة دخلت البلاد مرحلة رأسمالية زراعية صادفت في الزمن توسيع الاسواق للمحـاصيل الكبرى كالخمور مثلا .

لم تتحقق لعمري تقديرات « بريفو – بارادول » بأن افريقيا الشمالية قادرة على استيعاب ١٥ الى ٢٠ مليون فرنسي حوالي السنة ١٩٣٠ . ويرد ذلك الى ان الجزائر لم توفر للاستعمار الاوروبي الظروف المؤاتية نفسها التي وفرتها له كندا او اوستراليا . وحتى السنة ١٨٥٦ ، كان من ارتفاع نسبة الوفيات بسبب الحميات وسوء الحالة الصحية ان عدد الموتى بين المهاجرين كاد يوازي عدد الداخلين الجدد منهم . ففي السنة ١٨٤٩ فتك وباء الكوليرا بالسكان فتكا ذريعاً . واننا نذكر هنا على سبيل المثل ان سكان « بوفريق » قد تجددوا ثلاث مرات . غير ان بعض التحسن طرأ بعد السنة ١٨٦٠ ، فتضاعف عدد الاوروبين بين السنة ١٨٥٦ والسنة ١٨٧٦ . وكانت نتيجة مرسوم « كريميو » لمصلحة اليهود وقوانين تجنس الأجانب تكوين قومية جزائرية حقيقية، شبيهة بالقوميـة الفرنسية ، ولكنها تعي مصالحها الخاصة . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاوروبية قد اقاموا في المدن اكثر من الارياف ، فشيدت احياء جديدة في مـدينة الجزائر ووهران والمدن الرئيسية الاخرى . وأنجب الاسرائيليون اولاداً كثيرين ، وحرصوا على تعليمهم واعتمدوا الزي والعادات الاوروبية ؛ وتعاطوا تجارة العقارات، ولكنهم احرزوا النجاح في الصناعة اليدوية واتجهوا طوعـاً نحو المهن الحرة .

الا ان عدد المسلمين ارتفع ارتفاعاً سريعاً جـداً فبلـغ ٠٠٠ ٥٠٠ ٢ حوالي السنة ١٨٥٠ ؛ وحين تدنى حتى ٠٠٠ ١٠٠ ٢ في السنة ١٨٧٢ ، اعلن البعض ان الشعوب المتخلفة تنقرض امام الشعوب المتفوقة ؛ اما الحقيقة فان مرد هذا النقص هو انتشار المجاعة والتيفوس في السنة ١٨٦٧ واندلاع ثورة السنة ١٨٧١ .فقد قفز عددهم الى قرابة٣ ملايين في السنة ١٨٨١ والى ٠٠٠ ٨٠٠ ٤ من أصل ٠٠٠ ٥٥٠ ٥ في السنة ١٩١١ .

لم يتطور جمهور المسلمين تطوراً يستحق الذكر . ولم يستفد استفادة كبرى من مؤسسات الحماية والتربية ؛ زد على ذلك ان اول مستشفى بلدي لم يفتح ابوابه الا في السنة ١٨٩٤ . وقد فتكت الامراض بأعداد كبيرة منهم كل سنة ، لا سيما التدرن الرئوي والسفلس اللذان يبدو في الحقيقة انهما زادا انتشاراً منذ مجيء الفرنسيين . ولا شك في ان التعليم في المساجـد والمدارس والزوايا كان دينيا فحسب ، ولكنه كان يتيح للأولاد تعلم القراءة؛ فجاء الاسياد الجدد واستولوا على الاوقاف وقضوا على هذه المؤسسات . ولم تعط تجـارب المدارس العربية الفرنسية نتائج مشجعة . وبسبب عدم توفر الموارد والمدرسين لم تؤمن قوانين « فري » للمدارس العامة البلدية سوى بضعة آلاف من التلامذة ؛ اضف الى ذلك أن التعليم المقترح لـم يوافق دائـما الاوسـاط البلدية . واذا وفرت البلاد للفرنسيين حقلا غنيــاً للدرس والملاحظـــة وحصاداً وفيراً للمواضيع الادبية ، فان الفن الاسلامي ، بالمقابـلة ، مـا زال يتقهقر تقهقراً مطرداً : ارتسم اسـلوب هندسي فرنسي جزائري للابنية العامة ومقاصف المهاجرين المستعمرين ، ولكن قصر احمد ، باي قسنطينة ، كان خاتمة الابنية البلدية بحسب النمط التركي الجزائري . اما الفنون الصغرى ، المزدهرة جداً من ذي قبل ، فقد تأثرت بزوال القرصنة ، ثم عرفت ازمة خانقـــة لا علاج لها بسبب المنافسة الاوروبية وارتداد البداوة الى الوراء . فالنجاحـات التقنية تقضي على النشاطات القديمة قبل تحسين وضع المتخلفين . وهكذا فأن المجتمع الاسلامي قـــد قايض الطنفسة بالسرير الزهيد القيمة ؛ وحلت الشمعة محل السراج الخزفي ؛ وفـــقدت علب البارود المنقوشة مبرر وجودها حين اصبح من السهل شراء الفشك ؛ وهبط عدد الزوجات بفعل تبسيط اعمال المنزل ؛ فندرت في الوقت نفسه اليد العاملة اللازمة للحرف العائلية .

في المدينة عاش الكولوغلي والمغربي في ضيق ولم يتكيفا . اما البربر والعرب الذين اعتمدوا في معيشتهم على التيارات التجارية القديمة فقد خسروا الكثير بفعل الفتح الفرنسي الذي اوجد تيارات جديدة واسواقاً جديدة . فالتداول النقدي الوفير قـــد حل محل المقايضة واحدث انقلاباً في اسعار الحبوب والاصواف . وكيلت ضربة شديدة جـــداً لارستوقراطية الاشراف والزعماء والقادة الذين ثبتتهم فرنسا في البدء في سلطتهم ، والذين بلغوا ذروة نفوذهم في ظـــل « المملكة العربية » في عهد الامبراطورية الثانية ؛ فـلم يفقد الزعيم القـديم نفوذه فحسب ، بل فقد ثروته ايضاً بفعل الاقتصاد الجديد . وكان فقدان الاراضي بفعل تزايد عـــدد السكان اشد خطراً من كل شيء آخر. فقدخضع مليونا هكتار على الاقل لنظام القانون المدني. ولا عجب

من ثم اذا ما هاجر العديد من الرعاة خيامهم بسبب عجزهم عن تحسين تربية مواشيهم ؛ ولا عجب كذلك اذا ما هاجر القابيليون بعد هزيمتهم في السنة ١٨٧١ وتعاطوا الاعمال المأجورة او المشاركات الزراعية . وغني عن البيان ان هذه المهاجرات قد فككت بيئة مقفلة كل الاقفال واسهمت في استرخاء الروابط العائلية . ولكن شطرا من السكان المسلمين تعود الاساليب الجديدة ، فأحسن العناية بالاشجار والمواشي ، وزرع البطاطا ، واستفاد من زراعة التبغ وبيع الاثمار . اما سوادهم الاعظم فما زال يعيش عيشة زرية .

يجب الاعتراف ، على الرغم من كل ذلك ، بأن الوجود الفرنسي قد اوجد بلاداً جزائرية جديدة . اجل ، ما زالت الاحوال سيئة في اوائل عهد الامبراطورية الثانية ؛ فالمهاجر المستعمر ، المفتقر الى الموارد ، يعيش في ضيق ويعاني من نظام حماية لا يسلم باعتبار المحاصيل الجزائرية محاصيل فرنسية ؛ وانتاج الحبوب في تقهقر مطرد ؛ ولم يزل خطر وهم مزروعات المناطق الحارة ، ولا سيما القطن ، الا في السنة ١٨٧٠ . ولكن القانون الجمركي الذي صدر في السنة ١٨٥١ مثل المستعمرة بالوطن الام . فتأسست شبكة مصرفية . وفي السنة ١٨٦٠ دشن اول سد لتخزين المياه . ويجدر القول هنا ان سدود التخزين ، التي فضّلت بعناد على سدود الاسالة حتى السنة ١٨٨٧ ، قد خيبت الآمال . الا ان الانطلاقة باتت حقيقة واقعة عشية ازمة السنة ١٨٦٨ الرهيبة : فقد قابل تدفق المهاجرين الجديد تقدم سريع في توسيع المساحات المكرسة لزراعة الحنطة والبواكير وشجر الزيتون ؛ ودبت الحياة في التجارة بفضل الخطوط الحديدية والطرقات. وحوالي السنة ١٨٨٠ توسعت عملية القروض الزراعية وأدخلت الدرّاسات الآلية .

في هذه الاثناء أصبح اتفاق الظروف غير موافق لزراعة القمح التي مرّت في فترة توقف . زد على ذلك ان الجزائر اكتشفت مستقبلها في زراعة الكرمة . وقد برز الشغف بالزراعة الجديدة في اعقاب ازمة بيع اولى حصلت في السنة ١٨٩٣ ؛ فاحتلت الكرمة ١٥٠ ٠٠٠ هكتار في السنة ١٨٩٩ . وهكذا فعلى الرغم من عدم اهتمام المجتمع الاسلامي بالكرمة الا من أجل العنب فقط ، ضحّت البلاد بتربية المواشي واهملت الحبوب ، مع ان هاذين القطاعين حيويان جداً من وجهة النظر البلدية .

وفي عهد مبكر استرعت ثروات باطن الارض انظار الوطن الام والرأسماليين ؛ فدفع معدن الحديد الى تأسيس شركة «مقتى الحديد» ؛ ثم بوشر في الجوار استثمار الفوسفات . فاسهمت هذه الصناعة الاستخراجية في موازنة المقايضات في منطقة تفتقر الى التجهيز وتستورد كافة الادوات المصنوعة تقريبا .

ولكن السؤال الذي بقي بدون جواب هو معرفة ما اذا كانت فرنسا ستعتبر الجزائر كمجرد امتداد لاراضيها الخاصة . فان الجزائريين الفرنسيي الأصل والجزائريين المتجنسين ، وهم فرنسيون حقاً ، قد تمتعوا بحقوق المواطنية الفرنسية . ولكن ما هي حقوق المسلمين يا ترى ؟ ثم هل يقبل

الجزائريون بأن تدار شؤونهم في باريس ؟ لذلك فان تاريخ نظـام الجزائر السياسي والاداري بفسر الصراع ، الدامي أحياناً ، بين النزعات المختلفة ، دون ان تتغلب احداها ، في يوم من الايام ، تغلباً لا مراء فيه . اجل ان المسافة بعيدة بين « المملكة العربية » والنظـام المعروف بنظام الارتباطات ، وبين نوع من الاستقلال الذاتي والتمثيل ؛ ولكن الاستقلال الذاتي لم يكن يوماً حكماً ذاتياً ، كما ان التمثيل لم يستهدف البتة الجماهير الاسلامية . وبعد ثورة السنة ١٨٩٨ الفاشلة ، المعادية لليهود والمطالبة بالاستقلال الذاتي ، ساد شيئاً فشيئاً نظام التفويضات الذي منح المهاجرين المستعمرين مزيداً من الحقوق والحريات وابقى البلديين في وضع اجتماعي متدن . اما هذه الحالة التي ارادها الجزائريون الفرنسيون ، وهم اقلية ناشطة وهيئة انتخابية كبرى ، فقد وافقت مصالح الحكام في الوطن الام .

الحماية الفرنسية على تونس

هل ستستفيد فرنسا من اختبارهـا في الجزائر حين تسمح لهـا الظروف باخضاع وصاية تونس بدورها لسيطرتها ايضاً ؟

ان البايات الحسينيين الذين قامت بينهم وبين الفرنسيين ، جيرانهم منذ سقوط الجزائـر ، علائق صداقة وحسن جوار ، كانوا مصممين في الوقت نفسه على مواصلة العمل الاصلاحي الذي بدأه الحفصيون . فبعد ان ألغوا الرق وحرروا اليهود ، حاولوا توسيع منطقة الاحتلال او «بلاد الترك » واخضاع منطقة الانشقاق او « بلاد العرب» ووضعوا يدهم على مناطق طرق المواصلات واقطعوا مناصريهم بعض الاراضي ، واقاموا علائق طيبة اكثر استمراراً بينهم وبـين البـلدان المتوسطية الاخرى وشرعوا في تجهيز مرفـأ تونس ، ومارسوا على العموم سياسة عطف على بورجوازية المدن ، ولكنهم سلكوا كذلك طريق الانفاق المفرط والاستقراض . اضف الى ذلك ان بعض الاجانب الاوروبيين والمسلمين ، كالخزندار اليوناني مصطفى والشركسي خير الدين ، قد حرّضوهم على الاصلاحات والاشغال الباهظة الاكلاف . ولكن ميثاق السنة ١٨٥٧ الاساسي الذي استوحى اعلان حقوق الانسان وقضى باحـداث مجلس استشاري يضم بعض الاعيان ، لم يمنع زيادة الضرائب والمجاعة ، بالاضافة الى وباء الكوليرا ، من تمهيد السبيل لازمة خطيرة : فان محمد الصدوق ، الذي لم يبق امامه سوى عقد القروض الجديدة والافلاس ، قد خضع لسيطرة بعض الدول التي حركها الدائنون الجازعون ورجال الاعمال الطماع . فاختار فـرّي صيغة « السيد المحمي » المؤازر في ممارسة وظائفه . أي ان الادارة البلدية بقيت ، ولكن المقيم العـام ، الذي تعينه فرنسا ، كان المشرف على كل شيء ، ووزارة الخارجية الفرنسية ، تمثل الوصاية القديمة في النطاق الدولي . وغني عن البيان ان الشراكة لم توجد المساواة بين الشريكين ؛ فقـد أمنت مصلحة الدولة الحامية التي لم يخضع مواطنوها لقوانين البلاد .. أما ليوتي فسيفاخر بنظـام « لا يلغي مناصب الحكام القدامى » بل يتيح « استخدامهم » . وفي المؤتمر الاستشاري الذي تأسس في السنة ١٨٩٦ أمّن الفرنسيون لأنفسهم رجحان السلطة والنفوذ .

اكد كليمنصو أن الهدف الاول هو « فتح الوصاية اقتصاديا » ، وسلم فري بأن تونس يجب

« أن تعتبر ، حتى اشعار آخر ، مستعمرة لرؤوس الاموال » . والواقع هو أن الحماية قد استهدفت تنمية البلاد بدلالة المصالح الفرنسية . فشقت بعض الطرقات وربطت شبكة الخطوط الحديدية بالشبكة الجزائرية . ولكن فوسفات الساحل لم يسترع الانتباه الا في السنة ١٨٩٥ ، وخصصت قاعدة بنزرت العسكرية بالاعتمادات نفسها التي خصصت بها المرافىء الاخرى : فخلال السنوات الخمسة عشر الاولى لم يقدر أحد سوى الاهمية الستراتيجية والامكانات الزراعية في الولاية الافريقية القديمة . ولم يحل تسجيل الاراضي في سجلات الحكومة واصلاح الممتلكات الوقفية دون قيام املاك كبرى على غرار « انفيدا » التي باعها خير الدين من الشركة المرسيلية . وقد لوحظ ، بعد مرور عشر سنوات على توقيع ميثاق الحماية ، ان الفرنسيين كانوا يمتلكون ٤٣٣ الف هكتار سجل ٤١٦ الفاً منها على اسم ١٦ ملاكاً فقط : فان صغار المهاجرين المستعمرين لم تستهوهم الاملاك الواسعة ، والبلديين خشوا عملية التسجيل . لا بل اصبحت الارض الزراعية نادرة بينما تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً . فمنذ السنة ١٨٩٠ عُمل بعقد المغارسة لزراعة شجر الزيتون . وكما حدث في الجزائر تقدمت زراعة الاشجار المثمرة على زراعة الحبوب ، لاسيما وأن الكرمة أخذت تنتشر بسرعة . ولكن البعض اقضمضجعهم عدد الفرنسيين الزهيد (٢٤ الف مهاجر مستعمر او موظف يقابلهم ٧١ الف ايطالي ، على زهاء مليوني نسمة) ؛ وقد استحصلت روما في السنة ١٨٩٦ على بعض الامتيازات لرعاياها .

اذا عرفت تونس الهدوء ، فانها لم تتطور قط . فالبلدي فيها لا يزال يعيش حياة فقر وحاجة ، بسبب تعرضه للمحول وتأثره بتقهقر الحرف الصغرى . ولكن نخبة بلدية محدودة تهذبت في المدارس الاسلامية وفي المعهد الصادقي الذي فتح ابوابه في السنة ١٨٧٥ . ودرست اللغة الفرنسية كلغة اجنبية في المدارس الفرنسية العربية ، ولكن هناك عدداً من المؤسسات الكاثوليكية والكليات العلمانية . اما الخدمات الصحية فغير مرضية .

يبرز التناقض في العاصمة بين الشوارع الجميلة في المدينة الجديدة وتيه الشوارع الضيقة القذرة التي تحيط بالقصبة وتصل بين المدينة العربية والاسواق وحارة اليهود . أما في الارياف حيث يعيش المهاجر المستعمر الغني حياة ترفه ، فلم يطرأ على المسكن اي تبدل : البدوي يعيش تحت خيمته ، والبيوت اكواخ مسقوفة بالتبن الطويل والاعشاب ومؤلفة من غرفة واحدة يسوّدها الدخان ويغزوها القمل والبراغيث والبق .

الامبراطورية الشريفية قبل التدخل الاوروبي

ان مراكش اكثر أجزاء المغرب عزلة وأقلها تأثراً بالاسلام . استخدمها الغزو العربي ممراً للانقضاض منها على اسبانيا ، ولكنها التفتت ابداً الى روابطها الشمالية بشبه الجزيرة الايبيرية من جهة وروابطها الجنوبية بالصحراء الغربية من جهة اخرى . ومن تخوم الصحراء جاءت السلالات التي قاومت ، في منطقة فاس ومكناس ، حرب الاسترداد التي شنها الاسبانيون ،

اسياد حصون الحدود ، في سيرهم على تطوان .

هناك مغرب (مراكش) خارجية ، على حدود الصحراء ، منشأ القبائل العربية او المستعربة التي تسيطر على الواحات وغالباً ما تشن الغارات على السهول الاطلسية . فقد اقامت السلطنة رجالها الاوفياء في هذه الاراضي الجيدة وعودتهم الحياة البدوية . وأقامت هي نفسها بين الاطلس والريف حيث المدن الحضرية . الا ان الجبال المرتفعة تنتصب فوق السهول ، وتؤلف منطقة الانفصال التي تضم عظماء البدو المتحالفين رحضربي قراها المحصنة وقصورها المليئة بالمواد الغذائية . ويغلب فيها العنصر البربري لان الناطق باللغة العربية ، اذا ما استثنينا بدو الجنوب ، ليس سوى مدني او مزارع من مراكش الاطلسية . والحال يكاد ينحصر افقهم في الجماعة الصغرى التي تنضم ، كيفما تيسر ذلك ، الى القرية او القبيلة : وفي سبيل استمالتهم ، يجب اغراؤهم بجاذب البارود (المعركة) او الغزو . وقد يمكن من ثم تحديد الدولة المغربية بما يلي : حماية عربية الطابع ، ذات حضارة مدنية مغربية اندلسية ، على بلاد بربرية لم تخضع اخضاعاً تاماً . ولعل القاضي والشرع الاسلامي لم يضطرا يوماً الى مسايرة العرف ، والاسلام الى مسايرة الوثنية المستترة ، والحكم الى مسايرة صوفية زهدية توافق نزعة ديموقراطية خاصة ، كما حدث في هذه البلاد .

السلطان مطلق السلطة نظرياً ويسند قوله الى اصله الشريفي اي الى كونه منحدراً من النبي . أما في الواقع ، فجيش القبائل الثاني المرتبط مصيرها بمصير السلالة العلوية ، والموزعة على النقاط الهامة (فاس الجديد مثلا ، على مقربة من فاس البالي ، المدينة الدينية والصناعية القديمة) ، هو ما يشكل قوة الحكم الفعلية الوحيدة . فكل سنة تدير السلطة « الحركة » ، وهي حملة عسكرية لا تستهدف القضاء على المنفصلين العصاة استهدافها ايجاد تسوية معهم بالتوقف فيها بينهم . تسند اعمال الادارة والجباية الى القائد بتولية من السلطان ؛ وإذا كان القاضي ، الذي يعينه العلماء ، مرتبطاً بالشريف ، فان القاضي ، الذي يُختار من بين شيوخ القبائل ، يبقى مستقلا . وتقوم سياسة السلطة بارضاء القبائل الوفية ، ومعاملة القادة بالحسنى بغية شق المنفصلين واضعافهم ، ومراعاة جانب الجمعيات الدينية . اجل لم يعد هناك من ازمات سلالية . ولكن العلويين لا يقوون الا على المحافظة على التقاليد بالمحافظة على الظواهر والعمل ليومهم .

ولا نعني بذلك ان هؤلاء الشرفاء كانوا خلواً من الصفات والقيم . فان مولاي حسن ، الذي عاصر الثورة ونابوليون قد آثر انكماش البلاد على نفسها . واعتمد مولاي عبد الرحمن على البريطانيين منذ ان واجه خطر الفرنسيين بعد غزوهم للجزائر ، ولكن السلطة اضعفتها الثورات . وحين عجز محمد عبد الرحمن عن صد الغارات الاسبانية الا باللجوء الى خدمات لندن ، اضطر الى التخلي عن الكثير من حقوقه لاستمالة القادة ومقاومة هجوم جديد شنه الانفصاليون .

عندما اصبح مولاي حسن شريفاً في السنة ١٨٧٣ ، بدت المغرب التقليدية وكأن نهايتها قريبة جداً . وكيف يمكن ان يستمر استقلال بلاد عاجزة عن التخلص من أنظمتها البالية ؟

فان مؤتمر مدريد قد فرض عليها ، على الصعيد التجاري ، نظاماً دولياً يرغمها على معاملة كافة الدول معاملة الدولة المفضلة : فكان ذلك حرماناً لفرنسا وانكلترا من مركزهما الممتاز ، ولكنه كان في الوقت نفسه مثاراً للاطماع المديدة والمنازعات من اجل النفوذ فيها . والحال اصيبت السلطة بالنهكة في اكثارها من « الحركات » أو الحملات العسكرية دون ان تفلح في اعادة تنظيم جيشها وتحسين ماليتها. وجل ما توصلت اليه ، بقدر امكاناتها ، شل نفوذ الاجانب التجاري بغية المحافظة على روح قومية متحذرة .

عندما تولى السلطة مولاي عبد العزيز في السنة ١٨٩٤ كانت الزراعة آخذة في التقهقر بفعل غزوات البدو وثقل الضرائب ؛ وكانت الصناعة البدوية محافظة بصعوبة على تقاليدها الفنية الماضية ، كما أن التجارة ، التي أعاقها النقص في وسائل النقل ، وحالة المرافىء المتأخرة ، والاحتكارات ، واقفال الحدود ، والحاجة الى النقد ، كانت في حالة ركود . وكانت كل منطقة تعتمد في معيشتها على نفسها ، وكل حي وكل قرية يجزعان لسلامتها . ففي فاس ، التي شاهدها « ادمون دي اميسيس » نصف خربة ، لاحظ « شارل دي فوكو » ان «اليهودي ... يتنقل في «الملاح» بين الاقذار ويتعثر بالبقول النتنة ... »، ولكنه اضاف الى ذلك : «الاشياء الجميلة هي في المدينة العربية » . ولكن ما هي هذه الاشياء الجميلة ؟ جوامع وقصور وحدائق غناء تعيد الى الذاكرة عظمة دخلت في التاريخ ، بين اكواخ غير صحية وجداول تملأ مياهها جراثيم الحمى التيفية .فان طنجة ، المغربية واليهودية ، تعاني من تراكم الرمول في مينائها ، وليست كازبلانكا سوى مرفأ طبيعي خطر ، وموغادور ينزح عنها سكانها. وما هو عدد سكان المغرب يا ترى ؟ لقد تراوحت التقديرات بين خمسة ملايين واثني عشر مليونا .

اصبح الاستقلال رهناً بزوال المنازعات بين الدول ، يقضى عليه بتخلي لندن عن معارضة احتلال المغرب .

يتضح من ثم ان اوروبا اخضعت الاسلام في افريقيا الشمالية والشرق الادنى والشرق الاوسط على السواء . ولكن الاسلام لم يكن اوفر حظاً في مواقعه الامامية سواء في الهند ام في ماليزيا ام في الصين أم في افريقيا السوداء .

الفصل الخامس

بين خطي السرطان والجدي :
حضارات افريقية واوقيانية

تأخر تطور المعيشة
ما بين خطي السرطان والجدي

على الرغم من امتداد شكل الحياة البدوية الراعوية بعيداً الى الجنوب من خط السرطان (اذ نشاهده في هضاب الشرق المرتفعة وفي نصف الكرة الجنوبي) ، فان السكان ، ابتداء من السباسب والاحراج الملتفة الاشجار ، يعولون في معيشتهم على جني الثمار وصيد الاسماك والزراعة المتنقلة . وتساعد البيئة الطبيعية على نمو عوامل مرضية رهيبة : عوامل البلهرسيا وداء الخيطيات ومرض النوم . وهناك نطاق آخر لاشكال حياة بدائية ، اعني به اوقيانيا التي تمتاز من جهة ثانية بمناخ اكثر موافقة للصحة . وباستطاعتنا ان ندخل في ارخبيلات المحيط الكبير شطراً من الانسولند ، ولكن هذه الاخيرة عرفت في العصور القديمة اشكال حضارة اكثر تطوراً نشأت في الاصل في آسيا الجنوبية وشوهدت حتى في مدغشقر . وبينما تدخل الاستعمار الاوروبي منذ القرن السادس عشر في الغرب اي في اميركا الحارة ، ففي الشرق ، اي في الارخبيل الآسيوي الكبير وفي المحيط الهندي ، لم يستول على الاراضي الاوقيانية ومناطق ما بين خطي السرطان والجدي في افريقيا الا في القرن التاسع عشر .

تقدم الاسلام
والنخاسة في افريقيا

ان افريقيا ، المتراصة الرقعة والمتميزة بشواطىء تندر فيها المرافىء الطبيعية وانهار كبرى تعترضها الشلالات ، تفرض العزلة على الانسان بين الصحراء والغابة البكر . الا انها تتسع في نصف الكرة الشمالي حيث انبسطت منطقة بورية موازية لتلك التي تجاور المتوسط : هذه هي منطقة « الساحل » الجافة التي تمتد من مصاب نهر السنغال حتى للبحر الاحمر وتغلب فيها تربية المواشي . ويتواجه فيها او بالاحرى يتداخل فيها عالمان : العالم الابيض والعالم الاسود ؛ من جهة البربر والعرب

والحاميون – سواء تأثر هؤلاء بالحضارة السامية أم لم يتأثروا – ، ومن جهة ثانية الزنوج السودانيون . « فبلاد السودان » هي بلاد السود في نظر العرب وتقابلها « بلاد البيضان » . وغالباً ما تنازع الساحل هذا الشماليون المقيمون وراء الصحراء والجنوبيون سكان السباسب . وتؤدي طرق القوافل التي تصل بين اواسط افريقيا والشاطىء المتوسطي الى تومبوكتو وكانو وكوكا حيث تنتهي كذلك المسالك المؤدية اليها من خليج غينيا. ولا وجود خارج هذه الطرق، بموازاة خط الطول ، وابعد الى الشرق ، سوى الطريق المؤدية من البحيرات الكبرى باتجاه النيل والبحر الاحمر .

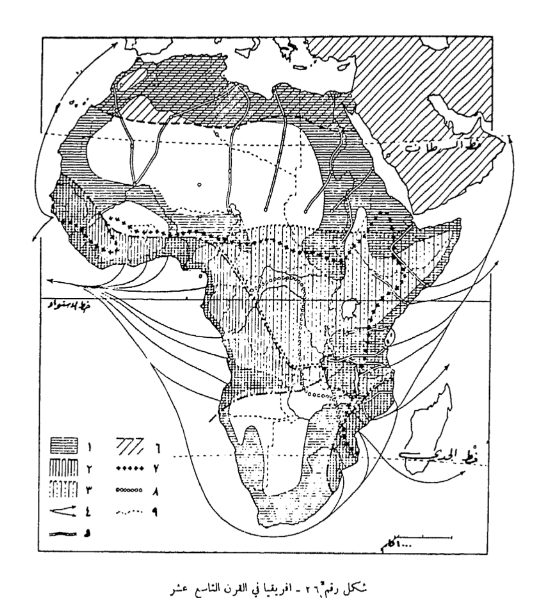
يبدو الاسلام في هذه المنطقة وكأنه واسطة نقل الافكار والتجارة والانظمة السياسية . فقد اجتاز الصحراء مع القوافل ولم يتوقف الا عند تخوم السباسب والغابات ؛ وتسلق كذلك الهضاب الشرقية انطلاقاً من البحر الاحمر والمحيط الهندي . انه موجود حيث يسيطر النظام الراعوي؛لأنه لم يتعرض للايمان بالارواح الذي دان به الحضريون المنعزلون في السباسب والغابات . يستخدم الجمل ، ولكن ما يكتشفه او يجده ثانية في السنغال وعند منعطف النيجر وفي تشاد هو الحصان، خير مساعد في اعمال الفتح. يهدي ويكيد ويكتسح وينظم الامارات والسلطنات السريعة الزوال . وينتزع من قلب القارة السوداء العبيد الذين يتّجر بهم .

بينما كانت تجارة اللحم البشري توفر للمسيحيين وسيلة لاستثمار العالم الجديد ، كانت تغذي اسواق المغرب والشرق الادنى الكبرى ؛ وكانت من جهة ثانية بمثابة حافز للتوسع الاسلامي وانتشار روح الحرب المقدسة معاً بين السنغال وزنجبار ، كما كانت توفر للاسلام مورداً ثميناً لسيطرته السياسية .انها لامبراطوريات اسلامية قوتها في عصبيتها الدينية، ولكنها امبراطوريات استرقاقية . وحين وافقت اوروبا الرأسمالية والانسانية على إلغاء الرق ، الذي لم تطو صفحته المخزية الا لتفتح صفحة الحسابات الاستعمارية من جهة ثانية ، قوضت الدول الاسلامية وألغت الرق معاً . ولكن الرقعة الواسعة التي انتزعت من القرآن بقيت في الحقيقة تحت سيطرته .

الصحراء الكبرى الاسلامية والنفوذ الفرنسي

ان الصحراء الكبرى التي تقارب مساحتها ٨ ملايين كيلومتر مربع لم تخل يوماً من السكان . فالبعض يجتازونها من طرف الى اخر والبعض الآخر يستقرون فيها . وهي شعوب افريقيا الشمالية الاسلامية التي كانت لها الغلبة فيها في النهاية بفضل تفوقها العسكري وعصبيتها الدينية وتنظيمها الذي اعدها للقيادة .

ان الصحراء الغربية التي تأثرت اكثر من سواها بالاسلام كانت نطاقاً مغربياً ، عربياً ، بربرياً، سيطر فيه سكان الواحات المغربية الجنوبية من الناطقين باللغة العربية ، اي برابرة توات وتافيلالة ، الرعاة المتنقلون الذين كانوا ينقلون ملح « تاوديني » الى تومبوكتو ويغذون احترام الامبراطورية الشريفية ؛ وان الشيخ « ماء العينين »، النخاس المنتسب لزاوية «شنقيط »، سوف



شكل رقم ٢٦ ـ افريقيا في القرن التاسع عشر

١ ـ المناطق المعروفة حوالي السنة ١٨٧٠؛ ٢ ـ حدود مناطق النخاسة القديمة (باتجاه اميركا وآسيا ؛ ٣ ـ حدود منطقة النخاسة في النصف الثاني من القرن ؛ ٤ ـ الطرق البحرية للنخاسة القديمة ؛ ٥ ـ طرق القوافل ؛ ٦ ـ مناطق بيع الارقاء المساقين برا ؛ ٧ ـ حدود الاسلام ؛ ٨ ـ حدود توسع المسلمين التجاري ؛ ٩ ـ الحدود الاستعمارية .

يقف بقوة في وجه الفرنسيين ، اسياد السنغال منذ « فيدَرب » ، الذين سيستولون على توات في السنة ١٩٠٠ . اما في الشرق فقد اقام برابرة يتميزون ببشرة داكنة هم ال « تيبو » او ال « توبو » الذين تكلموا لغة سودانية وراقبوا طرقات طرابلس الغرب وفزان الى تشاد ونازعوا جيرانهم الطوارق « كل وي » منطقة العير وواحة بلما المشهورين بملاحاتها .

اما في وسط الصحراء فالسيد هو الطارقي ، الملثم الوجه، الناطق باللغة البربرية، المتغطرس، الوحيد الزوجة ؛ تنعم زوجته بحرية كبرى ؛ ويعرف هو القراءة ويعزف على الربابة . يؤلف اتحادات حربية تشرف عليها طبقة من النبلاء ويدفع لها الجزية اصحاب الاخاذات والفدادين وتستخدم الارقاء العبيد في اعمالها . ولكل اتحاد مرشده المتصوف . ولكن الاسلام ينحني امام وثنية لا تقبل التنازل عن عقيدتها ولا تعارض قيام علائق دائمة مع غير المؤمن . تسيطر جماعة الطوارق هذه على المسالك التي تؤدي من جنوبي منطقة وهران الى منعطف النيجر وتنازع شانبا المنطقة الرملية في جنوبي الجزائر – اعني بهم اعداءها الناطقين باللغة العربية – سلاسل الواحات التي تنتثر بين مجازات الاطلس الصحراوي وتيديكلت ، وقد تقدمت جنوباً حتى ادرار وضفاف النيجر حيث قوضت تومبوكتو وغاوو . ومارس هؤلاء البدو كلهم الغزو وتقاضوا « الغفارة » او الفدية . فلا عجب والحالة هذه ان يخيم الانحطاط على الواحة : تسلم تمورها وحبوبها وبقولها ودخنها (بشنة)؛ وغالباً ما لا يبقى لها شيء يذكر لاستهلاكها الخاص.

حاول الفرنسيون اخماد الفتن بالقضاء على اللصوصية ، ويجدر بأهل الحضر ان يشكروا لهم عملهم هذا . ولكن تحويل التجارة الى طرق اخرى وإلغاء النخاسة ألحق الضرر بالجميع . فان بعثة « فلاترز » ، التي هلكت كلها ، كانت ضحية الدسائس التي حاكها لها النخاسون . وقد اخفق « فورو » بادىء ذي بدء ولكنه توفق الى احداث ثغرة في جبهة الطوارق واللحاق بـ « جولان – مينييه » و « لامي » في « تشاد » ، بينما اعترفت اتفاقية عقدت مع انكلترا بسيطرة فرنسا على كافة ارجاء الصحراء الكبرى . ومنذ ذاك الحين نادى بعضهم ببناء خط حديدي يصل بين افريقيا الشمالية وافريقيا الغربية . وفي سبيل استتباب الأمن في الصحراء انشأ « لابرين » وحدات هجانة من الشانبا ، وفي السنة ١٩٤٠ ، كان الاتفاق مع مرشد هوجر، المعارض لمجيء الاتراك الى فزان ، فاتحة خير للتهدئة في الصحراء .

الشعوب الاسلامية في السنغال والسودان

قلب التدخل الاوروبي الوضع الذي أتاح للبدوي منذ القرون الوسطى استثمار الصحراء الكبرى . وكان مقدراً له ان يعطي نتيجة مماثلة في الساحل السوداني والسنغالي وفي السودان نفسه . ولكن القسم الاكبر من القرن انصرم قبل عهد الاستعمار . واذا كان الفرنسيون في قلب السنغال منذ الامبراطورية الثانية ، فانهم لم يدخلوا تومبوكتو الا في السنة ١٨٩٥ ، ولم يوقع على الاتفاقات الدولية التي حددت ممتلكات الدول الا في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٨ .

في المنطقة التي لا تعرف سوى فصلين متباينين-لا يجاوز فصل الامطار ستة اشهر والامطار المتساقطة مترا – نرى النباتات تستبدل سيماءها الصحراوية بسيماء السباسب المعشبة والغابات القليلة الاشجار . هنا تسود تربية المواشي المتنقلة . ويُستخدم الحيوان للنقل لا للزراعة التي تستلزم عملاً مرهقاً في تربة صحراء متحجرة. ويبدو الحضري مفتقراً الى التغذية بالنسبة للراعي الذي يعتمد في غذائه على الالبان . وعلى جوانب النيجر وفي تشاد يعيش بعض السكان من صيد الاسماك . ولا يزرع الارز الا حيث تتيح زرعه المياه . ويعير السوداني الراعي الملح اهمية كبرى . وتنتقل السلع من يد الى اخرى بشكل مقايضة أو بواسطة الـ « كوري»، وهي محارة وحيدة المصراع تقوم مقام النقد . وتعطي البلاد ذهبها المسحوق للحصول على بارود الاسلحة النارية والاسلحة النارية نفسها . وتقايض الجلود والاصواف بنسائج قطنية . أضف الى ذلك ان عدد السكان ، حوالي ١٩٠٠ ، لا يجاوز المليون في السنغال والـ ٤ ملايين في كافة انحاء السودان . ولا تجاوز الكثافة من ثم ٢ و ٣ في الكيلومتر المربع : ولا عجب في ذلك بعد عهد توحيش طويل الامد مرده الفوضى المزمنة .

في هذه المساحات الشاسعة المفتوحة تتجانب افريقيا البيضاء وافريقيا السوداء ؛ ولكن التخليط بين اللونين مذهل جداً . فان الـ « هَوسا » الذين تشبه لغتهم اللهجات البربرية ربما ينحدرون من أصل سوداني أو من أصل حامي طرأ عليه بعض التحويل بمعاشرة السودانيين. أما أصل الـ « فولبا » (أو « فولا ») فاكثر غموضاً أيضاً : فهم ساميون في نظر بعضهم ، أو حاميون في الارجح ، ولكنهم سود البشرة ويتكلمون لغة سودانية ؛ عاشوا حياة راعوية واعتنقوا الاسلام وتنقلوا ابدا من مكان الى آخر وتسللوا الى مواطن سواهم من سينغمبيا حتى تشاد و « اداموا » ولعبوا دوراً كبيراً في السباق الى السيطرة .

أسهمت النخاسة في صهر الشعوب وادت في الوقت نفسه الى نهكة البلاد . فقد دانت لها المجموعات السكنية الكبرى بأهميتها . وفي كوكا ، من اعمال بورنو ، حيث شاهد « بارث » حرما يضم ٧٣ غلاما و ٥٠ فتاة ، ابدى احد المراقبين في عهد لاحق ان الفتيان الذين تتراوح سنهم بين ١٠ سنوات و ١٥ سنة مرغوب فيهم جداً وان الفتيات البالغات يُبعن بـ ٢٥٠ و ٥٥٠ فرنكا . ويروي رحالة آخر ان النخاسين في قرى « فوتاجالون » يتصرفون مع الاسرى تصرف سائقي الثيران مع القطعان . ويعادل ثمن الحصان ثمن ١٥ الى ٢٠ شخصاً . وهناك ما يحملنا على الاعتقاد بأن النخاسة تفاقم خطرها في هذا الجزء من افريقيا بعد التدابير التي اتخذها الاوروبيون لمنعها في جهات المحيط الاطلسي . ومهما يكن من الامر فانها دعمت قوة الزعماء المطلقي السلطة من امثال « ساموري » في منطقة النيجر و « رباح » في « اوأداي » . فان ساموري قد جند جيشاً من بين أبناء الاسرى ، الـ « سوفا » ، أو الانكشارية الجدد .

حجب الاسلام المعتقدات القديمة دون ان يحل محلها . فهنا لا يكاد رجل الدين يتميز عن ساحر القرية ، وقد اضطر في غير مكان ان يتخلى عن سلطته للشاعر الموسيقي المتنقل . ولما

كان الطقس الديني هو ما يؤمن التلاحم في المجتمع الاسود ، اصبح للجمعية الدينية شأنها الكبير. ولكن بينما حال كهان عبادة الارواح في اغلب الاحيان دون ارتقاء الزعماء المحليين (اثنان في فوتا يختاران عن قصد من بين العائلات المتنافسة) ، كان بمقدور الجمعية الدينية ان تثير حركات كبرى بين المؤمنين الذين يستجيبون لنداء الملهمين ، فيهبون للحرب المقدسة وللسلب والنهب أيضاً . فبات كاهن عبادة الارواح حينذاك امير المؤمنين . واستمال بسهولة قبائل البدو المخيمة على جوانب الطرق التي تسلكها القوافل والحجاج والنخاسون . فحدثت من ثم تجمعـــات ضمت بعض الشعوب ، وليس لمعظم محاولات تأسيس الامبراطوريات ، بـــين الصحراء والسباسب ، مصدر آخر وتفسير آخر . فبين السنغال الاعلى وغامبيا حاول الزعيم الديني محمدو الامين قيادة الـ « ساراكولي » ومثل الحاج عمر السنغالي جمعية التيجانية الديموقراطية النزعة ؛ واذا هو بسط سيطرته على فوتاجالون على حساب القدرية، فان شيعة الموريين المتفرعة عن هذه الجمعية الاخيرة قد ثبتت اقدامها في « كايور » بقيادة « احمدو بامبا » ونسيبه « لات ديور » . فقاتل الفرنسيون هذا الاخير وردوا الحاج عمر نحو النيجر . ولكن هذا الفاتح ترك خليفة واصل سياسته وعمله هو ابنه احمدو الذي قاوم الفرنسيين حتى السنة ١٨٩٣ . وفي غضون ثلاثين سنة تقريباً اسس الساراكولي « ساموري توري » ثلاث أو اربع امبراطوريات : انطلق من اواسولو فحاول السيطرة على ضفتي النيجر فوق تومبوكتو وهدد كذلك البلاد الموسية الباقية على وثنيتها ولم يمن بالهزيمة الا في السنة ١٨٩٨ . والى الشرق من النهر الكبير ، انهارت الدول الهاوسية ، التي عرفت من قبل بعض الازدهار ، امام هجمات الفولبا بقيادة احد حلفاء الحاج عمر ، «عثمان دان فوديو » ، الذي اصبح شيخاً في كانو وامتدت سلطته حتى الكامرون الحالية . ونعمت سلطنتا سوكوتو وكانو ببعض الاستقرار ، ويبدوا انهما خضعتا لحكم عسكري إستمر حتى الفتـــح الاوروبي : وفي مستهل القرن العشرين كانت هذه المنطقة السودانية اكثر سكاناً وأقل بؤساً .

كان حوض التشاد ، على نقيض ذلك مسرح قتال وحشي : نزاعات من اجل النفوذ بـــين البورنو والكانم والباغيرمي الذين يتقاسمون الحوض ؛ ونزاعات من اجل طرقات القوافل والملح والاسرى ، ولا سيما الطريق التي تؤدي الى كوفرا ومصر وشرقي ليبيا،عبر اواداي. وفي اللوحة التي رسمها « ناشتيغال » لاواداي ، يتكلم عن ازدهارها النسبي في كنف بعض الامراء العرب المطلقي السلطة الذين يهتمون بالمدارس والتجارة ، والنخاسة طبعاً . والحال كلما اقفلت طرقات الصحراء الغربية ، انتقل النشاط الى الطرقات المؤدية الى البحر الاحمر . فحين اضطرت القاهرة الى الكف عن تجارة العبيد ، تحولت هـــذه الاخيرة نحو الطريق الرئيسية المؤدية من اواداي الى الخرطوم على النيل الاوسط عبر كوردوفان . وكانت ثورة الدراويش بمثابة جهد اخـــير بذله منظمو القوافل بغية الاحتفاظ بخط المواصلات الاخير بالشرق الادنى . وكذلك ، فهو احـــد النخاسين ، رباح ، الذي جعل من اواداي حينذاك مركزاً لهـــذه التجارة وتوفق مؤقتاً الى السيطرة على مناطق التشاد . ولن تخضع اواداي اخضاعاً نهائياً الا في السنة ١٩١١ .

شعوب المنـاطق الغينية

ما ان تظهر السباسب وتتكاثف الغابات ، حتى يصبح القطيع ، الذي يهزله المناخ ويتعرض للذباب الناقل مرض النوم ، غير كاف لتأمين معيشة الانسان . وعلى هذا الاخير ، بالاضافة الى ذلك ، مقاومة الملاريا والزحار ومرض النوم نفسه . ولما كان يغتذي بالاطعمة النباتية ، فانه يستهلك طحين الـذرة الصفراء وطحين المنيهوت وزيت النخيل ، ويجد في جوزة شجرة الكولا مادة منبهة .

لم يرتفع كل هؤلاء السكان فوق مفهوم المقاطعة الصغرى. ولكنهم تكلموا لهجات سودانية، وقد اسس الغزاة الشماليون عدة ممالك دون ان يؤدي ذلك الى انتشار الاسلام .

وتقاسم الـ « موسي » والـ « اكاني » حوض نهري الفولتا . وقد حكم الاولين ملك ذو سلطة دينية ، هو الـ « موغو-نابا » ، « سيد العالم » ، « ملك بلاد المختونين » ، الذي كان بمثابة مولى اخاذة الـ « ناكومسي » النبلاء الذين يقلدهم وظائف وزارية وادارية . اما ملك الاكاني فيرأس مجلس الزعماء ولا يطاع حقاً الا في مقاطعته الخاصة كوماسي :قاتل اتحاد المقاطعات الصغرى المحرابة هذا الى جانب الـ « فانتي » ، سكان السواحل، الذين ساندهم البريطانيون. وفي داهومي تعين السلطة الملكية زعماء القرى وتتصرف في جمعية « دوكبوي » التي تضم الفتيان والشبان المدعوين لدور قيادي. ويجمع الارقاء من بين اسرى الحروب التي كانت مورداً كبيراً لشعب متأهب ابداً للقتال. فعلى كل محارب ان يأتي بأسير أو برأس جندي عدو مقتول . وتؤلف زوجات الملك والفتيات المكرسات لآلهة الحرب فرقة عسكرية من النساء .

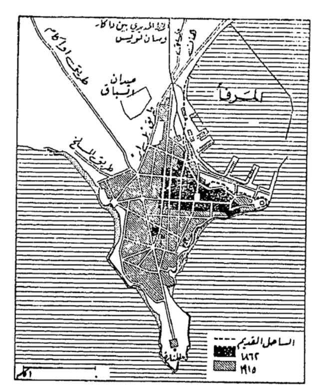
اقام الاوروبيون ، منذ زمن بعيد ، العلائق مع زعماء هذه المناطق وملوكها . فكان هناك « شاطىء العبيد » و « شاطىء الذهب » و « شاطىء العاج » بالاضافة الى « بنين »التي اشتهرت بمنتجاتها الفنية واضاحيها البشرية الشنيعة . فالذوق الجمالي هنا كان متقدماً عليه في السودان . وقد نمّت المصنوعات البرونزية والخزفية والاقنعة الخشبية والعاجية والمقاعد المنقوشة عن تقاليد قديمة في مهارة الصناعة اليدوية .

الاستعمار الاوروبي في افريقيـا الغربية وتشاد

ان فتح المنطقة الشاسـعة الممتدة بين الصحراء الكبرى وخليج غينيا - وهو عمل تطلب اجراءً طويلا - لم يكتمل الا حوالي السنة ١٩٠٠ . ولم تسوَّ الخلافات على الحـدود بين الدول الا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ .فسارت كل دولة قدماً لمنع سواها من تخطيها ، حتى ان الحدود الاقليمية تعكس تقلبات الاستيلاء . وقد ارتكبت اخطاء كثيرة .

رأى « فيدرب » على الرغم من واقعيته المأثورة،ان ثروة المستقبل في السنغال هي القطن قبل فستق العبيد ، كما غرر نفسه بذهب بامبوك . وحاول تأمين الاتصال بالنيجر عن طريق الرمول الداخلية ، ولم ير الاهمية التي تنطوي عليها اسواق غينيا والشاطىء العاجي كقواعد انطلاق لبلوغ النهر .

في كافة انحاء الساحل وفي السودان الاوسط ، كما شرح ذلك « غالياني » و « ارشينار » ، كان من مصلحة المستعمر الاعتماد على الفلاحين وحمايتهم واختيار الكفلاء من بينهم . وكان فيدرب اول من سار على هذه السياسة التي تضحي بالبدوي كما في الجزائر . يضاف الى ذلك رسوخ الارتياب بالرعاة المسلمين الذي يرد جزئياً الى القتال المرير الذي دار بين المستعمرين وبينهم . ومع المستعمرين جــاءت الارساليات ، الكاثوليكية والبروتستانتية ، فنازع الصليب الهلال السكان المخضعين . « انها لحرب صليبية حقيقية » ، كما يلاحظ الملازم « مانجين » . واشــار « بنجر » ،مدير الشؤون الافريقية ، الى «خطر الاسلام». ولكن فيدرب كان قد قدر الخدمات التي يمكن ان تؤديها الخواص الاسلامية .



الشكل رقم ٢٧ ـ نمو مدينة استعمارية : دكار
يوافق تصميم السنة ١٨٦٢ مشروع الحاكم « بينيه ـ لابراد » . تجدر الاشارة الى المكان الملحوظ للمدافن (م) وامتداد المدينة نحو رأس مانويل ؛ وفي الجنوب يشــير الحرف ح الى الحاكمية العامة) .
(نقلا عن تصاميم أطلعنا عليها « ر. باسكييه » الاستاذ في معهد الدروس العليا في دكار)

قوّض الاوروبي الـدول ، فاضطر بالضرورة الى الاستعانة بالزعامات المحلية التقليدية . ولا يعني ذلك ان التجزئة الأجتماعية بحسب القرى قد سهلت تعيين سلطات مسؤولة . ولهذا السبب آثر البريطانيون « الحكم غــير المباشر » واحترموا الزعامات القائمة جهد الامكان، حتى ولو تطلب منهم ذلــك تبرير تجاوزاتها ، عــلى ان يحـدد بالنتيجـة عــدد الموظفين . وفكروا بحــكم نيجيريا كما حكموا هند الامراء . امــا الفرنسيون فآثروا تمثيل زعمـاء المقاطعات الصغرى بالموظفين ؛ ولكن البـلديين كانوا « رعايا فرنسيين » ، واذا تمتعوا بحرية المعتقد وكان لهم محاكمهم الخاصة احياناً ، فقد فرضت عليهم واجبات ثقيلة : حرمان من مغادرة المستعمرة وتأسيس الجمعيات والاجتماع ، ضرائب عينية وغرامات ، تسخير من اجل العناية بالطرقات ، دفــع الضرائب ، والخدمة العسكرية وفاقاً لمقتضيات الحاجة .

عاد للدولة المستعمرة امر رفع مستوى المعيشة بتوفير الامن والنظام وتوزيع المهام على اساس سليم . ولكن الجهود استهدفت المزروعات والمناجم التي يمكن ان تغــذي التجارة مع الوطن الام . وعلى هـذا الصعيد كان النجاح في الشاطىء الذهبي ونيجيريا البريطانيتين اسرع منه في المستعمرات الفرنسية المفتقرة الى التجهيز : فاحتلت الاولى مركز الصدارة في انتاج الكاكاو واستثمر ت احراجها ومنغنيزها وماسها ؛ وســلمت الثانية كمية كبرى من الاخشاب وزيت النخيل . وعلى نقيض ذلك آلت سيراليون الى الهبوط منذ الغاء النخاسة وعاشت جمــهورية ليبيريا السوداء في ضيق على الرغم من جهود الكنيسة الميتودية . وكذلك عانت اقالــيم غينيا والشاطىء العاجي وداهومي الفرنسية من نقص وسائل النقل ومن الافتقار الى الموانىء الحسنة التجهيز ومن تبدد اليد العاملة التي كانت تأنف من العمل المراقب .

واذا استفادت السنغال من فسق العبيد ومن التجارة مع السودان ، واذا حسنت دكار شوارعها الواسعة المحفوفة بالاشجار واعدت ميناءها للملاحة الاطلسية الكبرى ، فان الداخل النيجيري ما زال متأثراً بويلات الحرب والجفاف ؛ وقـد عقدت عليه آمال كبرى مجهولة . اما اقاليم تشاد فليست آنذاك سوى منطقة حدود عسكرية لن تعرف التهدئة الا في غد قريب .

وقـد لوحظ ايضا ان ارتيابات الوطن الام قــد ظهرت على الصعيد الاداري . فلم تكن السودان و « الانهار الجنوبية » في البدء سوى اقــاليم ملحقة بالسنغال . كما ان افريقيا الغربية الفرنسية » التي تكونت في السنة ١٨٩٥ ، ستعرف تغييرات كثيرة . اما « المناطق المنخفضة التشادية » فستلحق بافريقيا الاستوائية الفرنسية : وهكذا سوف تفك حلقات التماسك بــين مختلف اجزاء المنطقة الساحلية لان وجود انكلــترا والمانيا حتى مشارف البحيرة الافريقية الكبرى سيقوض وحدة الممتلكات الفرنسية .

في السودان النيلي : الاطماع المصرية وامبراطورية الدراويش

تتجه طرق دارفور واوغنــدا واثيوبيا كلها نحو مصر . ولكن من يسيطر على مصر لا يسيطر على النيل ، ومنــذ القدم كان الحوض الأعلى محط انظار اسياد الدلتا رغبــة منهم في ضمان سلامة البلاد ومراقبة فيضان النهر .

في القرن التاسع عشر ، نشاهد اثناء ولاية محمد علي وخلفائه توسعاً مصرياً جديداً في وادي النيل الاعلى . ولم يصطدم الباشا الا بمقاومة ضعيفة ترد الى انحطاط الممالك العربية – الشيخيات وسنعار – في منطقة الشلالات الساحلية . ولكن الابتزازات الجبائية واحتكار التجــارة وغزوات عمــلاء الباشا ما كانت لتسهل الاحتلال المصري ؛ فالنخاسون وحدهم هم من استفادوا من هذه التصرفات لان محمد علي شجع النخاسة واسس مدينة الخرطوم لهذه الغاية .

وطمع اسماعيل بدوره ببسط السلطة الخديوية على كافة انحاء افريقيا الشمالية الشرقية . وقد آزره في تحقيق مطامحه بعض الاوروبيين من امثال الرحالة « صموئيل باكر » ، والجنــدي

المبشر « غوردون » الذي انعم عليه بلقب باشا ، ورحالة آخر هو « شنيتزر » الـــذي اعتنق الاسلام وحمل اسم امين باشا ، ولكنهم بذلوا في سبيل ذلك جهوداً كبرى لم تكلل بالنجاح . فحين شعرت حكومة القاهرة بخطر الافلاس يحدق بها ، اضطرت الى التخلي عن الاستفادة من النخاسة والى عزل حاكم بحر الغزال الذي كان هو نفسه نخاساً. واصبح السودان النيلي من ثم مسرحاً لثورة مهدية هائلة كان سببها العصبية الاسلامية والغاء تجارة رابحة معاً . فصمد امين باشا عند النيل الابيض الاعلى ، في ولايـة اكواتوريا التي ارغمه ستانلي بعد ذلك على الجلاء عنها لمصلحة بريطانيا العظمى على كل حال . ولكن سيطرة الخديوي انهارت ، وتعذر على الانكليز انقاذ غوردون في الخرطوم .

على غرار امبراطوريات السودان الغربي ، رأت امبراطورية الدراويش ، وليـدة الثورات والقبائل البدوية المتعصبة والنخاسين ، النور وماتت في فترة زمنية قصيرة جـداً . فقد عجزت عن استمالة السنوسيين والتغلب على مصر ، ولم تعرف بعض الراحة إلا بفضل انتصار احرزته على نجاشي الحبشة ، والخلاف الذي نشب بين هذا الأخير والايطاليين . وقـــد عانت البلدان التي اخضعتها من الاوبئة والمجاعة واصابة كل تجارة بالشلل. أجل لقد بلغت الحركة اواداي. ولكن الانكليز ، الموجودين في مصر ، توفقوا اخيراً في السنة ١٨٩٨ الى تنظيم حملة كتشنر التي هزمت الجيش المهدي وقضت على المطامع الفرنسية في طريق الكونغو ـ البحر الاحمر. فاصبح السودان النيلي ، باسم الخديوي ، السودان الانكليزي المصري .

اثيوبيا ، تيودوروس ومنليك

في وسط المنطقة الجافة التي تتصل بالبحر في افريقيا الشرقية ، تنتصب الجبال الاثيوبية وكأنها خزان مياه وملجأ جبلي . وقد جاءت الموجة الاسلامية تضرب شواطىء هذه الجزيرة المسيحية فعجزت عن غمرها .

انها لبلاد غريبة التقسيم الطبيعي ، كل واد فيهـــا يعيش في عزلة بقيادة زعيم . لا تسلتم بالتضامن إلا امـــام خطر كبير مشترك . الارض ملك طبقة سيدية من الرؤوس سوداوية اللون ومختلطة الدم . يبرز بين حين وآخر رأس الرؤوس ، النجاشي ، الذي يتمتـع بسلطة اسمية لا تجملها فعلية إلا الحرب وحدها . ليس من فارق كبير بين خرافات هؤلاء المسيحيين القائلـــين بوجود طبيعة واحدة في المسيح وبين وثنية ال « غالا » جيرانهم . تعدد الزوجات منتشر وشبه شامل ، وكل حبشي ميسور يتصرف في عدد كبير من الخدام المنزليين .

البلاد تعتمد في معيشتها على مواردها القليلة ، ولكنها تجني الأرباح من مرور البضائـــع التي تنقلها القوافل بين افريقيا الوسطى والمرافىء . وكان لنشاط الطرقات التجارية من ثم أثره في التاريخ السياسي . فبينما تقوم في مملكة امهرا مدينة غوندار ، ملتقى القوافل الهامة ، تنتهي الى تيغره المنتجات المنزلة الى البر في ماسوا ، والى شوا تؤدي طريق هرار . ولذلك تنافست هذه الرئاسات الثلاث تنافساً دائماً .

في اواخر القرن الثامن عشر ، اضعفت المنازعات بين الرؤوس طبقة الحبشي الهجومية فتراجع في كل مكان . ولكن نهضة تحققت في امهرا بفضل الرأس « كاسا » الذي نجح في إعادة جمع شتات الاراضي الاثيوبية وأعلن نفسه نجاشياً باسم تيودوروس ووضع سلسلة نسبه التي جعلت منه خليفة داوود ، ووجه رسائل الى القيصر يقترح عليه فيها ميثاقاً ضد الاسلام . وعندما استعان أحد منافسيه بالفرنسيين معترفاً لهم بحق الاقامة في اوبوك على شاطىء البحر الاحمر ، اعتمد تيودوروس على الانكليز . فكان ذلك منطلق التدخل الأوروبي .

عندما قاطع الانكليز على غير ترو، عجز تيودوروس عن صد جيش بقيادة السير نابير وآثر الانتحار . فعقب ذلك عهد جديد من الاضطرابات استفاد منه الخديوي ، ثم الدول الاستعمارية، للاستيلاء على الساحل الاريتري والصومالي . وحدث ان النجاشي الجديد ، « يوهانس » التغري الاصل ، قد لاقى حتفه في معركة ضد المهديين ، فوقع رأس شوا ، منليك ، بغية فرض نفسه ، معاهدة مع الايطاليين اعتبرتها روما بمثابة اعتراف بالحماية . ولكن هزيمة « عدوه » في السنة ١٨٩٦ قضت على مطامع « كريسبي » .

بعد الاعتراف بالاستقلال الاثيوبي توصل النجاشي منليك بسرعة الى بسط نفوذ جبلييه على سكان المناطق المتاخمة. الا أن اثيوبيا الكبرى التي حققها ما زالت محاطة بممتلكات الاوروبيين، ولذلك نراها تفاوض فرنسا في أمر ربط عاصمتها ، اديس ـ ابابا ، بالشاطىء بواسطة خط حديدي ينطلق من جيبوتي ويمر بهرار . والواقع هو ان الجبال الاثيوبية لم تجتذب التيارات العصرية بل رفضتها .

افريقيا البانتوية ونصيب زنجبار

الى الجنوب من خط وهمي يصل بين كامرون وزنجبار تمتد البلاد البانتوية التي تختلف نماذجها البشرية ولهجاتها (١٨٢ على الأقل) اختلافاً بيناً عن نماذج ولهجات السودان وغينيا . ولكننا نرى هنا ايضاً ازدواجية المناظر الطبيعية وانواع المعيشة ؛ فمن جهة الحوض الكونغولي ، نطاق الاحراج والسباسب الكثيفة ، ومن جهة اخرى اطار من الهضاب الممتدة من افريقيا الشرقية حتى الـ « فلد » الجنوبي والصالحة لتربية المواشي .

ان البانتو الذين يقطنون منطقة الامطار الغزيرة بين خليج غينيا والبحيرات الكبرى لم يخالطوا قط سوى الزنوج البلديين المرتبعين الذين ربما دانوا لهم بالقوام الوسيط والوبر الكثير واللون الداكن . ولكن بانتو الغابات ، على نقيض هؤلاء الزنوج الذين كادوا لا يعيشون الا من القنص وجني الثمار ، ولا يستقرون في مكان وينامون حتى في الاشجار ، قد اقاموا في قرى مؤلفة من اكواخ مستطيلة فنصوا في جوارها الحيوانات وتعاطوا زراعة متنقلة ، واستخدموا أداة بدائية شبيهة بالعصا تتيح لهم طمر البذار واستخراج البطاطا في الارض المحرقة الضيقة . وجعل منهم الجوع اكلة تراب احياناً ، كما ان الأمراض - الزحار ومرض النوم - فتكت بهم

فتكاً ذريعاً . وعلى مثل هذا الاقتصاد ، كان نظام المجتمع بدائياً . فلا حساب الا للتجمع العائلي وما يتبعه من زبن وارقاء . أما المسألة الكبرى فليست مسألة الارض بل مسألة اليد العاملة . ولم تضم الرئاسة الاقليمية سوى عدد محدود من القرى ؛ وهي تؤسس وتحل وفاقاً للحاجات الآنية ، كمملكة الـ « ماكوكو » عند الـ « باتيكي » مثلا . وما كانت نشاطات بعض القبائل الخاصة ، كالنقل المائي ونقل المعادن ومعالجتها ، حتى ولا الاعتقاد بالارواح ، لتقوى على ايجاد سلطات سياسية اوسع امتداداً .

يسود الاعتقاد ان بانتو الغابات وليد التكيف. أما بانتو البورات فيجاور في الشمال الحاميين والعرب والاسلام ، وفي الجنوب البرتغاليين والبوير والبريطانيين الاوروبيين . ولعل نزوحه نحو نصف الكرة الجنوبي نتيجة تقدم الحاميين المسلمين ، الماساي والواهوما (هؤلاء هم « الآتون من الشمال ») ، الذين اقاموا بين البحيرات الكبرى والمحيط الهندي مصطحبين الثور ذا الحدبة والجمل ذا السنام . وبينما زالت من الوجود ممالك « لوانغو » و « لواندا » و « لوبا » في الحوض الكونغولي ، ولم تخلف مونوموتابا سوى ذكريات عظيمة ، ما زالت اوغاندا تؤلف اطار دولة اقطاعية الطابع .

جاء الـ « كافر » والـ « ماتابيلي » والـ « بازوتو » والـ « بتشوانا » يربون ثيرانهم واغنامهم وماعزهم وحميرهم في مناطق خط الجدي بعد أن ردوا الـ « هوتنتو » والـ « بوشمان » الى الوراء . وكما حدث في السودان، تعاطوا زراعة الذرة البيضاء الى جانب تربية المواشي. وتنازعوا الطرق البرية والمائية فيما بينهم . وفي اعالي الزمبيز استقبل ليفنغستون استقبالاً حسناً في امارة تنظم غارات متكررة على جيرانها . وكان الـ « زولو » مهرة في استعمال الرمح والقوس والنبال محتمين بترس كبير من جلد البقر ، ولم يلبثوا أن قدروا فوائد الاسلحة النارية حق قدرها. وعند حدود « ناتال » و « فلد » اصطدموا بالبوير والانكليز الذين لم ينتصروا عليهم بسهولة .

كان الحدث الكبير ، من جهة المحيط الهندي ، التراجع البرتغالي امام هجوم عربي جديد صادف في الزمان تقدم الاسلام في داخل القارة الافريقية وانتقال النخاسة شطر الشرق . وقد برزت آنذاك قوة زنجبار التي نقل اليها امام مسقط عاصمته في السنة ١٨٤٠ . فظهرت مرة أخرى ميزات هذه الجزيرة الصغيرة الساحلية النادرة كموقع تجاري : وكان مقدراً لها ان تلعب، لحساب سلطنة اسلامية ، دوراً مماثلا لدور عدن وسنغافورة . فأدخل سكانها « السواحليون » المختلطو الدم (عرب وفرس وهنود ومالبزيون) زراعة القرنفل . واهتمت كذلك بمحاصيل الداخل ومنتجاته ولا سيما النحاس والعاج . ولكن اعمال الارض ونقل المحاصيل تتطلب يداً عاملة وفيرة : وسوف تستحق زنجبار اسمها (زنج — بر أي بلاد العبيد) . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان النخاسة قد اتسعت هنا اتساعاً بعيداً بفضل بيع الاسرى في اسواق المحيط الهندي الأخرى . وتجمع الشهادات كلها على الخراب الذي خلفته في المنطقة الممتدة بين « اوبنغي » و « كاتانغا » . وقد اشار ليفنغستون الى القرى الكثيرة التي احرقها النخاسون والى النساء

المشنوقات بسبب عجزهن عن اللحاق بالمواكب . والتقى ستانلي في طريقه الوف الخلائق المساوقة والمقطورة برقابها ؛ ووصف الزعيم البلدي باحثاً عنها في مخابئها وجامعاً اياها لحساب التاجر العربي ، على مثال « الشريف الانكليزي الذي يدعو ذويه لقنص ديك الخلنج او لاصطياد الغزال بواسطة كلاب المطاردة » ؛ واشار الى عملية سلب استهدفت ١١٨ قرية لم تسفر الا عن ٢٣٠٠ اسير . فأقفرت المنطقة على جانبي الطرق المؤدية من الساحل الى البحيرات الكبرى والحوض الكونغولي . وكانت النتيجة إبادة الفيلة وإفناء معظم السكان لسنوات طويلة .

بلغت زنجبار ذروة مجدها بين السنة ١٨٦٠ و ١٨٨٠ تقريباً . وقد بسط السلاطين حمايتهم على داخل البلاد حتى الكونغو والساحل البرتغالي ، وأقدم بعض الدول على عقد الاتفاقات معهم ، وبعض المؤسسات التجارية على تأسيس فروع لها في الجزيرة . الا ان إلغاء النخاسة ما لبث ان اصبح فعلياً وقرع ناقوس نهاية زنجبار المتجرة بالزنوج .

الاستثمار الاستعماري لافريقيا الباطنية

منذ السنة ١٨٨٠ عمدت الدول الاستعمارية الى تقاسم افريقيا الوسطى وافريقيا الشرقية وافريقيا الجنوبية . فارتسمت نطاقات ثلاثة : نطاق فرنسي بلجيكي يضم مناطق الكونغو باتجاه الاطلسي ، ونطاق انكليزي الماني بمحاذاة المحيط الهندي ، ونطاق ثالث ابعد الى الجنوب يسيطر عليه الالمان ولا سيما البريطانيون .

لم يكن الاوروبي ليستطيع التفكير الا باستخدام عمل البلديين من اجل تحقيق مقاصده . وقد رغب في تبشير الزنجي بالانجيل وإنقاذه من الرق وإفهامه حسنات استثمار أرضه استثماراً مبنياً على العقل . ولكن ما هو السبيل الى إرغامه على مقايضة محاصيل بخسة الاسعار – المطاط ، مثلا – بالملح والنسائج المرتفعة الاسعار ، والعمل في المدارس وبناء الخطوط الحديدية ، ونقل الاثقال ؟ فهو اما يردد بدون انقطاع « ميبامبي » (بلغ مني الجهد) و « كوكولو » (الرحمة) ، وأما يفر من العمل . وقد اعترفت جريدة التايمس في السنة ١٨٧٧ بأن « هذه الشعوب عنصر تصعب سياسته ... فهي تجهل الرغبات والحاجات المركبة التي تكون ما يدعى بالحضارة ، وان في ازعاجهم بدون داع في الحياة البربرية التي يعيشونها راضين وسعداء لمسؤولية كبرى » . اما « برازا » ، الذي حاول نهج سياسة تعاونية على غرار فيدرب ، فقد افتدى الارقاء وعقد الاتفاقات مع الزعماء ، وطالب بالحاح بان « تتحاشى الادارة العليا والتجارة العليا استغلال المستعمرة استغلالاً سريعاً ، ولمّا يعلم البلديون ما نريده منهم » . الا أنه لم يلق آذاناً صاغية ، كما لم تلق اذاناً صاغية نداءات ليفنغستون ايضاً . فقد تميز البلجيكيون والالمان بوحشيتهم . وندرج على سبيل المثل هنا ما أعلنه الدكتور بيترز : « يخضع الزنوج لدوافع أو لبواعث تختلف كل الاختلاف عما تخضع له نحن . اذا انا اعطيت الزعيم الزنجي ثوراً ، فلن يلبث ان يحاول سرقة كل قطيعي . واذا ضربته بالسوط ، فانه يسرع الى اعطائي بعض الماشية » . فاستخلص من ذلك النتيجة الطبيعية التالية : « اذا احسنت معاملة الزنجي ، اعتقد بأنك تخشاه . واذا اسأت معاملته ، اعتقد بانك متفوق عليه » . ولذلك فان الحجة الأخيرة غالباً ما كانت السوط

المصنوع من جلد فرس المـــاء الذي درج البرتغاليون على استعماله . وحين لا يكفي الضرب والغرامات والسجن ، تؤخذ الرهائن وتعتقل النساء والاولاد في المعسكرات . لقد سيطر على افريقيا الوسطى نظام استثماري لا يعرف للرحمة معنى .

استمرت مستعمرتا انغولا وموزامبيك البرتغاليتان في فقرهـــما وضيق عيشهما ، وبقيت النتائج غير مرضية في الممتلكات الفرنسية ، ولكن الكونغو البلجيكي والممتلكات الانكليزية الالمانية في افريقيا الشرقية عرفت نمواً اسرع حدوثاً. فقد انصرفت الدولة الحرة الى قنص الفيل اولاً، وانما توجب ايقاف التقتيل وحماية الجنس. ثم استثمرت الاخشاب الثمينة استثماراً وحشياً. وفي السنة ١٨٩٥ اندفع الناس وراء استخراج المطاط اندفاعاً جنونياً لم يدم سوى عشر سنوات تقريباً . ولكن عصر المناجم ارتسم في أفق كاتانغــا و « اواليه » . اجل كانت الشبكة النهرية ذات منفعة كبرى للمستعمرة ؛ ولكن ذلك لم يمنـــع ستانلي من القول : « بدون خطوط حديدية لا تساوي الكونغو فلساً واحداً » ؛ فدشن في السنة ١٨٩٨ خـــط « ماتادي » الى « ليوبولدفيل » .

بنى الانكليز والالمان كذلك خطوطاً حديدية تنطلق من الساحل وتسير في طرق القوافل: واتجهت افكارهم الى شجرة البن والمطاط ، فأهملوا تربية المواشي ، ولم يهملوا العـاج الذي كان يوفر لهم ارباحاً هامة . وتصرفت « الشركة ذات الامتياز » تصرفاً مماثلا في كلا جانبي الزمبيز : فبنت الخطوط الحديدية وعمدت الى قطع الاخشاب الثمينة واقتربت من كاتانغـا وشرعت على حسابها في انهاض « اساكل » الموزامبيك .

وعلى الرغم من التجاوزات الكثيرة ، فان النظام الذي فرضه البيض قـــد ادخل المناطق الافريقية الممتدة بين خطي السرطان والجدي في طريق اقتصاد جديد .

مدغشقر في عهد الهوفا ثم الفرنسيين

ان مدغشقر أكثر انتساباً الى الاراضي المتنـاثرة في المحيط الهندي وحتى في المحيط الهادي منها الى افريقيا التي تؤلف هي جزءاً منها . وكان « وليم اليس »، امين سر جمعية لندن التبشيرية ، وأحـــد الاختصاصيين في شؤون اوقيانيا ، بين الأولين الذين اشاروا في السنة ١٨٣٨ الى اوجه التقارب بين اللغة المالغاشية واللهجات البولينيزية (اسم النارجيل واحد) . أما « غرانديديه » ، الذي اتاح لنـا بمؤلفاته معرفة البلاد معرفة جيدة ، فقد شدد في اواخر القرن على بعض اوجه التقارب بين سكانهـــا وشعوب الهند الجنوبية . ولكن الواقع الذي سلم به الجميع هو ان معظم المفردات المستعملة عادة ماليزية المنشأ . وباستطاعتنا التأكيد من ثم ان الـ «مرينا» ماليزيون يتميزون بقصر القامة والجسم النحيل والبشرة الزيتونية اللون ، أتوا بعد كل من سواهم وحققوا التفوق.

تعرف المنطقة الغربية باسم « تحت الريح » وتتميز بالجفـاف والتربة المتحجرة أو الكلسية واساليب الزراعة المهملة (تافي) وقلة الاشجار وتكـاد لا تصلح الا لتربية المواشي وتشبه الفلد

الجنوبية : وهذا يفسر فقر الوسا كالاف ، والقبائـــل البدوية أو شبه البدوية الأخرى التي تربي الثيران الحدبة . أما المنطقة الشرقية المعروفة باسم « في الريح » والمتميزة بالرطوبة ، فقـــد حافظت على زراعات المنـــاطق الحارة . وقد خلف العرب آثاراً في « سميرانو » ، الى الشمال الغربي ، وفي المناطق الجنوبية الشرقية الآهـــلة بال « تيمورو » (« الساحليون ») ؛ وكانت « دياغو - سواريز » ملجأ للقراصنة ، وأسس الفرنسيون « فور - دوفين » في القرن السابـع عشر . وتشتت ال « بلسيميساراكا » الخلاسيون في الغابات الساحلية وتعـاطوا الصيد والزراعة وتربية المواشي واقتاتوا بالارز والاثمار والاسماك وسكنوا اكواخا من الخيزران ولم يلعبوا اي دور هام . اما ال « تسيميهيتي » الذين اتقنوا الزراعة في جبال « تساراتانانا» فكانوا سائرين في معارج التقدم .

اشتهر بين السكان ال « بتسيليو » والمرينا سكان المرتفعات والاحواض حول «تاناناريف » و « فيانارانتسوا» . احسن البتسيليو الزراعة وبرعوا في الصناعة اليدوية وضموا أربع طبقات : الاقطاعيين والاشراف والاحرار والفداديين ؛ وحين أخضعهم جيرانهم، اصبحوا اشبه بفداديي (« منتي ») المرينا . أما عند المرينا فقد اختلفت النماذج باختـلاف الطبقة الاجـــتماعية : فال « اندريانا » او الاشراف زيتونيو اللون ، على غرار الهوفا أو الاحرار وعلى نقيض ال «منتي» والعبيد أو « انديفو » . الارز قوام التغذية ، وليس للثور الاهمية الـــتي له في الغرب . البيت مصنوع من الخشب وحده في مدينة تاناناريف الملكية . وخلفت عبادات الارواح الكثيرة التي تتناول كافة اعمال الانسان آثاراً تذكّر بآسيا . وقام رب العائلة بوظيفة كهنوتية، وأدار مجلس القدماء (فوكون اولونا) شؤون القرية .

عدد سكان الجزيرة غير مرتفع ، وهو لم يتجاوز المليونين في الارجح (وان قدره بعضهم خطأً بثمانية ملايين) . ومرد ذلك الى انهم عانوا من سوء التغذية وامتحنوا بالملاريا في الشواطىء وبالبرص والطاعون وتعرضوا للزحار وذات الرئة ؛ ويبدو ان السفلس كان واســـع الانتشار ، وسيتسع كذلك فتك داء الغول بفعل التجارة الاوروبية .

الا ان دولة هوفية تأسست مستهدفة السيطرة على انحاء الجزيرة . فقد توفق « اندريانامبوا نيميرينا » في اواخر القرن الثامن عشر الى جمع المرينا واخضاع البتسيليو وتشكيل جيش وجباية جزية منتظمة بواسطة مجالس القرى . وكانت الارض ملكاً له يوزعها اقطاعات (مناكلي)على الاشراف الذين يشركهم بالحكم ، فبنى سدوداً وطرقات . ووفرت له الفدادية والرق اليـــد العاملة الضرورية . وقد صرح بما يلي : «يجب ان يكون البحر الحد الاخير لرزّاقي»؛ وأرسل الحاميات العسكرية الى المناطق التي أخضعها .

برهنت ملكية تاناناريف عن بصيرة ثاقبة حقيقية فعرفت زمناً طويلاً كيف تستغل التنافس الانكليزي الفرنسي وتستفيد من خـدمات الاوروبيين دون التسليم بشروطهم . واذا تفوقت

الارساليات البروتستانتية على الارساليات الكاثوليكية – (بلغ عدد البروتستانت ۳۰۰۰۰۰ على الاقل في السنة ١٨٩٥ مقابل ۷۰۰۰۰ كاثوليكي – فقد عقدت بالمقابلة معاهدة مع فرنسا في السنة ١٨٦٢ . ولكن العهد الحاسم كان الفترة الممتدة من السنة ١٨٦٤ الى السنة ١٨٩٦ التي سيطرت عليها شخصية « رينيلاياريفونا » الذي برز من بين صفوف الشعب واصبح رئيس وزراء الملكة « رازوهيرينا » ثم بعلا لـ « رانافالونا » الثانية و« رانافالونا » الثالثة. ففي السنة ١٨٦٨ ، بدا وكأن الدولة الهوفية سائرة نحو الـ « ميجي » ، عـ ـ لى غرار يابان « موتسو – هيتو » ، وبمساندة بريطانيا العظمى التي استعين بضباطها وخبرائها الفنيين : اعتماد البروتستانتية كدين دولة ، فتح مدارس توفر تعليما انكليزياً هوفيا ، احلال الموظفين الملكيين محل الاقطاعيين ، جمع الاعراف السائدة في مجموعات كاملة ، ومنع الأجانب من امتلاك الارض . فانتشرت الاخلاق الاوروبية انتشاراً بطيئاً ، ونمت الصناعة اليدوية وتقدم التعليم . ولكن الفدادية والرق لم يزولا .

ما كانت الحكومة الهوفية في الحقيقة لتحرز الغلبة لو نشب نزاع مسلح بينها وبين دولة اوروبية اخرى، اذا لم يتدخل الانكليز لمساعدتها . والحال نشب هذا النزاع حين ارادت فرنسا وضع الـ « ساكالاف » تحت حمايتها . ففي السنة ١٨٨٥ ، وبعد فرض الحماية الفرنسية على تونس ، اضطرت تاناناريف الى استقبال مقيم فرنسي . ولكن نظام الحماية اصطدم ببعض العقبات ، فتمت عملية « وضع اليد » بعد ذلك بعشر سنوات .

أزالت فرنسا نفوذ المرينا وواصلت في الوقت نفسه عمل الملوك الهوفيين وانتدبت غالياني الذي اعتمد سياسة أشبه بالاستبداد المستنير . فبعد ان استخدم القوة بغية اخضاع البلاد نهائياً عمد الى استخدام النخبة البلدية باخضاعها لسلطة موظفي الوطن الأم ؛ وألغى الرق ، ولكنه فرض خدمة خمسين يوماً في السنة للاشغال العامة (وهو فرض سيحوّل الى ضريبة) ؛ وراقب تعليم رجال الدين ، ولكنه قنع بأن تمد المدارس موظفين للدوائر ؛ والغى امتيازات الطبقات، ولكنه لم يقو على عزلة الفرنسي وحواجز المجتمع . وليس من شك في انه رغب في معالجة نقص وسائل النقل وحماية الجزيرة من الاستثمار العقاري على ايدي الشركات الرأسمالية الكبرى ؛ وانما نظراً لندرة رؤوس الاموال، لم يعد له استخدامها في قطع الاشجار والبحث عن الذهب وانتاج البن بالتفضيل على تحسين الماشية وتوسيع زراعة الارز . فاضطرت مدغشقر من ثم الى استيراد الارز والعدول في الوقت نفسه عن ابتياع سكر جزيرة « ريونيون » القريبة ونسائجها المفضلة على نسائج الرافيا. وانشئت مدينة على النمط الاوروبي تحت العاصمة القديمة ، ولكن العمران في المناطق الاخرى بقي في حالة يرثى لها . وبحسب الظواهر كان الملغاش راضياً بنصيبه .

جزيرتان تنتجان السكر : موريس وريونيون

كانت « بوربون » و « جزيرة فرنسا » الجوهرتين الفرنسيتين في بحر الهند خلال القرن الثامن عشر في عهد « ماهيه دي لا بوردونيه » . وهما تشابهان جزر الانتيل الصغرى بطبيعة ارضهما البركانية ، ومناخهما الحر والرطب – في كل منهما منحدر في الريح وآخر تحت الريح – ، وارتفاع كثافة سكانهما .

في السنة ١٨١٥ احتفظت بريطانيا العظمى بالجزيرة الاولى واعادت لها الاسم الذي اطلقه عليها الهولنديون اكراماً لـ « موريس دورانج » . الا انها بقيت فرنسية اللغة والروح ، ودانت بنجاح مغارسها للادارة البريطانية ولضمان تصريف سكرها في أسواق الوطن الام ولوفرة اليد العاملة الهندية . الا ان فتح ترعة السويس قد ألحق الضرر بتجارة « بور لويس » .

أما مصير جزيرة ريونيون فكان أكثر تقلباً . فبعد الازدهار الذي عرفته بفضل بن « بوربون » ، وقرنفلها نزلت بها كارثتان : اعصار السنة ١٨٠٦ والحروب الفرنسية الانكليزية . الا ان ادخال قصب السكر اثناء الاحتلال البريطاني أتاح تجدد الازدهار فيها . فبينما تأخرت زراعة شجرة البن وانحصرت اخيراً في المهابط القائمة تحت الريح ، ازدهرت زراعة قصب السكر والونيلية في « مساكن » المنحدر المروي ، اعني بها تلك الاستثمارات الكبرى التي أدارها « القادة » . وقد انتج السكر بكميات كبرى على حساب المزروعات الغذائية والغابات . فتضاعف عدد السكان بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٠ . وانشئت طريق دائرية جديدة ، كما شرع في بناء خط حديدي دائري ايضاً ؛ وبنيت بعد حين خطوط خاصة صغرى تؤمن الوصول الى الاملاك المدرّجة . ثم عانى قصب السكر من الحشرات الطفيلية ومنافسة السكر. فبدأ عهد انحطاط هذه الزراعة . وفشلت محاولة استحضار العمال الهنود الصينيين. فتضاءل حجم التجارة التي تعاطاها هنود من بونديشيري وعرب وصينيون ومؤسسات ايداع اقتصرت على بيع السكر من التجار في الخارج . فعم التشرد ، وعرفت بعض المناطق داء التهاب الاوعية اللمفاوية وزاد انتشار الملاريا ، فتدنى عدد السكان .

عهد المرسلين والتجار وصيادي الحيتان في الباسيفيكي

خلال القرن التاسع عشر ما زالت الجزر المتناثرة في المحيط الكبير معتبرة في نظر الاوروبين وكأنها تؤلف عالماً خاصاً متميزاً بعزلته وغرابة نماذجه العنصرية : وقد تضاربت الآراء في اصول وتشابه « الزنوج الشرقيين» – الميلانيزيين والمكرونيزيين – و«البرابرة البيض»، اي البولينيزيين ، على السواء . فقد تكلم كوك من قبل عن « فينيقيي العالم الشرقي » ؛ وتتبع بعضهم النزوحات البولينيزية انطلاقاً من مصر ، فطلعت احدى النظريات بأن هذه الشعوب انما هي بعض « اسباط اسرائيل التائهة » . ومهما يكن من الامر فان هذه الحضارات ، على الرغم

من انسجامها الكلي مع البيئة ، لم تكن لتتجاوز مرحلة الحجر المصقول [1] .

وصف الرواد المستكشفون جنة عدن حقيقية ، فقصد هذه المناطق بعدهم،وفي وقت واحد، رجال مقتنعون بأن هناك بشرية مستعدة لتقبل كلام المسيح واشخاص آخرون عللوا النفس باستثمار موارد الارض استثماراً سهلاً . اما الحكومات فوقفت موقفاً متحفظاً متحذراً ؛ فقد انتهى « غيزو » الى العدول عن سياسة الحمايات التي انتهجها امير البحر « دوبتي توار » : ولم يحتفظ الفرنسيون الا بـ « تاهيتي » . أضف الى ذلك من جهة ثانية ان المرسلين البروتستانت كانوا تواقين الى ادارة شؤون البلديين بأنفسهم .

بدأ التوسع المسيحي في تاهيتي في السنة ١٧٩٧ بوصول الـ « دوف » الذي ارسلته الجمعية التبشيرية في لندن . ثم اسرع المبشرون ، في كل مكان تقريباً ، الى محاولة استمالة الزعماء والتأثير بواسطتهم على السكان . فاوصوا بتحطيم الاصنام والاقلاع عن الاعتقاد بقدسية الاشياء واكل لحم الآدميين والحروب ، ودعوا كذلك الى الاقلاع عن العري والوشم والرقصات الطقسية ، ونادوا بوحدة الزواج وعظموا فضول العائلة وفتحوا المدارس ؛ وهاجموا احياناً ، في بولينيزيا ، امتيازات النبلاء . وفي جزر كوك ، انشأت جمعية الارساليات رقابة تيوقراطية حقيقية ، جاعلة من « المساكنة خارج وُثق الزواج » جرماً ، ومحظرة الخروج من الاكواخ اثناء الليل . وفي « غامبيبه » اشهرت السلطة العسكرية الفرنسية الاب « لافال » كمستبد « ضحكة » . فاهتدى بعض الزعماء خوفاً ، وارتد غيرهم احتياطاً . وفي اغلب الاحيان عمل البلدي بطقوس لم يدركها جيداً . أضف الى ذلك ان قدسية الاشياء قد استهدفت كبح غرائز شريرة تحررت الآن . فوهى تلاحم الجماعة وتشوش نشاط المجتمع . ولم تنس الارساليات من جهة ثانية واجبها في تأمين حاجاتها الخاصة ؛ فتعاطت التجارة وجنت الارباح من بيع الالبسة والادوات المعدة في الاصل لموعوظيها ، ولم تتوان عن جمع الثروات الطائلة عن طريق تجارة اللآلىء .

تدفق على الجزر مغامرون مختلفون كثيرون . فقد خطر لاحد التجار الاميركيين من مقايضي الفراء بالحرير في الصين ان ينقل خشب الصندل ويعرضه على زبنه الآسيويين . واهتم تاجر آخر بـ « خيار البحر » الذي رغب فيه مترفو كانتون لمذاقه وخواصه الناعوظية . ثم لفت الانتباه عرق اللؤلؤ وعرضت النسائج القطنية والسكاكين والبنادق وعرق السكر ؛ وبلغ من بعضهم ان احتجزوا الرهائن الى ان تُسلم الكميات المطلوبة . وعانت كافة الجزر التي تكثر صخور شواطئها تحت وجه البحر معاناة متفاوتة من الاصداف اللؤلؤية . ولم يندر ان استيق البلديون عنوة الى السفن لملء الفراغ الذي يتسبب فيه داء الخفر في صفوف البحارة . وقد استفاد ملوك بلديون كثيرون من جشع البيض : كملك هاواي الذي ارغم رعاياه على اهمال المزروعات الغذائية وقطع خشب الصندل ، فأحدث مجاعة في البلاد .

---

(١) « تاريخ الحضارات العام » ، المجلد الخامس ، ص ٢٠١ - ٢٠٨ (الطبعة العربية) .

لم تكن زيارات سفن صيد الحوت للشواطىء أقل تسبباً في المصائب . فقد عمد بحارتهـا الى المقايضة للحصول على المواد الغذائية الطازجة ، ولكنهم لم يمتنعوا عن اساءة معاملة السكان باغتصابهم النساء واختطافهم الرجال أو قتلهم اياهم . وهناك بعض المناطق ، كجزر « سوسييتيه » وفيدجي و « مارشال » و « كارولين » ، التي لم تنهض قط بعد الويلات التي حلت بها .

عهد المغارس والمناجم في اوقيانيا

بعد السنة ١٨٥٠ تمادت اعمال السلب والنهب . فكان مضيق « توريس » بدوره مسرح اندفاع وراء الاصداف اللؤلؤية ، فأطلق عليه اسم مشؤوم هو « بالوعة الهادي » . ولكن اشكالاً استثمارية جديدة رأت النـور ونمت نمواً عظيماً فاستتبعت اللجوء الشامل الى العمل الالزامي .

منذ السنة ١٨٣٥ ، لفتت جزر هاواي الانتباه بسبب السهولة التي توفرها لزراعـة قصب السكر . فاشترت بعض الشركات الاميركية الاراضي واستحضرت عمالاً صينيين ويابانيـين وفيليبينيين ، وبرتغاليين بعد حين . وولت جزر فيدجي كذلك وجهها شطر انتاج السكر بعد فشل زراعة القطن التي بنيت عليها الآمال اثناء الحرب الانفصالية .

ولكن اوقيانيا اعتبرت في الدرجة الاولى قادرة على انتاج جوز النارجيل ، وقد تكلـم بعضهم عن حضارة النارجيل ، اذ ان هذه الشجرة تؤمن معيشة سكان الجزر ليس بتوفيرهـا غذاء وشراباً كحولياً فحسب ، بل مواد بناء البيوت والمادة الخام التي يستخدمونها في صناعة شتى الادوات ايضاً . وفي العديد من الجزر اعتاش البلديون من تقديم الجوز الى زعمائهم المتعاملين مع التجار . وبسبب نقص اليد العاملة في « ساموا » لجأت مؤسسة غودفروا الهامبورغية ، الى العمال الميلانيزيين والصينيين ، دون ان تحقق نجاحاً كبيراً على كل حال ؛ ولجأت جزر فيدجي الى جزر « سليمان » للحصول على اليد العاملة .

كانت الحاجة اشد إلحاحاً الى اليد العاملة لاستثمار باطن الارض . فبعد ان اكتشف صيادو الحيتان الغوانو في ألوف الجزر الصخرية ، العارية والمقفرة احياناً ، عمـدت بعض الشركات الاميركية الى استخراج هذا السماد الثمين : وتوجب لذلك الاقتراب من الشاطىء عبر الصخور الناتئة فوق سطح البحر ، وتأمين العيش بمواد غذائية تستحضر مرة كل ثلاثة أو أربعة أشهر من هونولولو أو من « ابيا » ، ونقل اكياس السماد الى مكان رسو السفن؛ فوقعت ضحايا كثيرة جداً بين البولينيزيين لا سيما في جزر « فنيكس » . وحوالى السنة ١٩٠٠ كثر الكلام عن الفوسفات في « نورو » و « اوقيان » حيث استحضر عمال يابانيون لاستخراجه . وبوشر في كاليدونيـا الجديدة استخراج النيكل والكروم والكوبلت ، وقد اعاقه عداء الـ « كاناك » الذين لم يسلموا كذلك باستملاكات الاراضي للمهاجرين الفرنسيين من أجل زراعة شجرة البن وتربية المواشي ؛ وفي اعقاب ثورة خطيرة نشبت في السنة ١٨٧٨ ، طُلب العمال الصينيون بواسطة بيوت القمار ومحاشش الافيون في هونغ – كونغ وكانتون .

تفويض المجتمعات القديمة واقفار اوقيانيا حتى التقسيم الاستعماري

لا يرد تأخر تقسيم الجزر الى انتظار تقدم وسائل المواصلات واقامة خطوط تجارية منظمة واكتشاف بعض الثروات ردّه الى ركـود الاحوال التجارية الذي حرك المنافسة والمطامع بين السنة ١٨٨٠ و١٨٩٥. ففي السنة ١٨٥٠ كانت تاهيتي وحدها خاضعة لحماية، وحين قررت باريس ضم كاليدونيا الجديدة اليها وقفت اوستراليا موقفاً معارضاً. ولم يقدم البريطانيون بحماس على ضم جزر فيدجي. ورفض بسمارك مساندة مؤسسة « هانسمن » التي اقترحت عليه تأسيس مستعمرة في غينيا الجديدة. الا ان دخول المانيا الحلبة، عشية افلاس مؤسسة غودفروا في جزر ساموا، هو الذي استعجل عملية التقسيم بين بريطانيا العظمى وفرنسا والمانيا والولايات المتحدة. وكانت الدبلوماسية كافية لتنفيذ هذا العمل.

على غرار افريقيا ما بين خطي السرطان والجدي، عانت اوقيانيا الكثير من الويلات التي حلت وفتكت بسكانها. اجل ان في تقديرات الروّاد الاولين ما يثير الريبة؛ افلم يقدر كوك سكان تاهيتي بـ ٢٠٠ ٠٠٠ نسمة وسكان هاواي بـ ٣٠٠ ٠٠٠ — ٤٠٠ ٠٠٠ نسمة. ففي السنة ١٩٠٠ لم يجاوز سكان هذا الارخبيل الاخير الـ ١٢٥٠٠٠ نسمة، وما كان هـذا العدد ليضم الا ٢٠٠٠٠ بلدي فقط. وليس من شك في ان اراضي كثيرة قد فقدت ثلاثة ارباع السكان، ان لم تفقدهم عن بكرة ابيهم. وحين تنقلب النسبة فمعنى ذلك ان الهجرة تملأ الفراغ. فكما ان اوستراليا (اوستراليا وزيلندا الجديدة) قد اصبحت انكلوساكسونية بعد انقراض التاسمانيين والاوستراليين والماوري، أو سيرهم في طريق الانقراض، كذلك جاء الخلاسيون والآسيويون يعيدون إعمار معظم الفراديس الصغيرة المدنفة على الاقفار.

أجل لم يكن تدني نسبة الولادات حدثاً جديداً بسبب تضافر الحروب واكل لحوم البشر والامراض على ايقاف انطلاقة ارتفاع عدد السكان. ولكن المهاجرين المستعمرين قـد زادوا في الطين بلة. فقد قتلوا الاهلين أو انهكوهم بالاشغال الالزامية الشاقة او ابعدوهم بأعـداد كبرى (من اجل استخراج الغوانو، اختطف البيرويون والشيليون نصف اهـالي جزيرة « الفصح »، وثلاثة أرباع اهالي جزيرة « نوكوليلي » في أرخبيل الـ « اليس »؛ وكادت ميلانيزيا تقفر كذلك بسبب حاجة اوستراليا الى اليد العاملة). وباعوا اسلحة قتالة ومشروبات روحية. واذا هم لم ينقلوا امراض السفلس والسل والتدرن الرئوي التي يرجح انها قديمة العهد في الجزر، فقد نقلوا الجدري والحصبة بكل تأكيد. وقد أورد « لوتي » انطبـاع بشرية في حـالة الاحتضار بسبب ما كان لمجرد مخالطة البيض، وما جاؤوا به من مصطلحات واعراف ورذائل، من اثر انحلالي فاسد. وكان مقدراً كذلك لـ « غوغين » « البدائي »، الذي جاء الى تاهيـتي يتوسل فيها « الانخطاف والهدوء والفن »، غوغين، « البربري الذي حقد على حضارة مزعجة » ان يعاني الكثير من الواجبات الثقيـلة المفروضة على البلديين ومن الصغـائر الادارية.

« لم تلبث حياتي في « بابيت » ان اصبحت وقراً يضايقني . كنت مرة اخرى في أوروبا – اوروبا التي اعتقدت بأنني حصلت على حريتي بمغادرتها – وقد زادت على بشاعتها الاثرة الاستعمارية والتقليد المضحك السخري لأخلاقنا وطرائقنا ورذائلنا وألاعيبنا الحضارية التي تثير الاستهزاء ... » . فأين نحن من الاسطورة التاهيتية التي رواها بوغنفيل، لا بل هل كان حرياً بنا الاكتفاء بتوصية ديدرو : « تاجروا معهم ، واشتروا منتجاتهم ، واحملوا لهم منتجاتكم ، ولا تقيدوهم » ؟

الفصل السادس

الهند وآسيا الشرقية
أمام التوسع الغربي

« كنت اعتقد آنذاك بأن السيطرة الانكليزية مفيدة بالنتيجة لأولئك الذين تبسط عليهم » .
(غاندي ، « اختبارات الحقيقة ») .

« املاق حضارة النبات » في آسيا

توزع نصف البشر على السهول – الكبرى والصغرى – من مناطق الهند والشرق الاقصى في آسيا . لذلك كانت نسبة كثافة السكان مرتفعة في بعض هذه المناطق المعروفة بمناطق الرياح الموسمية . فنحن نعرف ، بفضل كتاب « احصاءات هندية » ، ان الكثافة قدرت في السنة ١٨٩١ بـ ١٥٣ نسمة في كل كيلومتر مربع من الاقاليم الخاضعة للادارة البريطانية وبـ ٢٠٠ وحتى ٣٣٠ احيانا في الكيلومتر المربع حيث يتجمع ٦٧ ٪ من السكان في ٣١ ٪ من مجموع مساحة البلاد . ويمكن اعتماد الارقام والنسب نفسها في اليابان وجاوا وصين الولايات الـ ١٨ والمناطق الدلتاوية في شبه الجزيرة الهندية الصينية . ويلاحظ من جهة ثانية ان ٢٢٢ مليوناً هندياً من اصل ٢٨٢ اقاموا في قرى لا يتجاوز سكانها الـ ٢٠٠٠ نسمة . وهذا يعني ان سواد الآسيويين من اهل الارياف .

تتألف طبقة الفلاحين هذه في الدرجة الاولى من اهل قرار يتعاطون الزراعة ولكنهم يحقرون – الا في اليابان – زراعة الغابات (لان الغابة نطاق بري) ويرفضون كل ما يذكر بالحياة الراعوية الخليقة بالبدو أو أشباه البدو في المناطق الجافة ، الذين تبعدهم عنهم تقاليد معيشية راسخة . ويلاحظ ان سكان اشباه الجزر يقرنون الجاموس والبقر الهندي في اعمال الحراثة ويستهلكون زبدة منقاة ، ولكن سكان الهند لا يأكلون اللحوم . أما سكان آسيا الشرقية ، الذين يربون الطيور الداجنة والخنزير – الذي يحرمه الاسلام – فلا يعرفون كيف تحلب البقرة

ويفضلون الاسماك . فنحن من ثم امام « حضارة نبات » قوامهـــا غذاء من الحبوب والبقول وأدوات يكاد المعدن لا يدخل فيها : حضارة الارز الذي ينتج في كل مكان تقريباً ، وحضارة الحبوب الاخرى بعد ذلك ، وحضارة الخيزران الذي يستخدم استخدامات شتى . وبالاضافة الى ذلك ، اذا لم تجد تربية المواشي مكانا لها في هذا الاقتصاد ، فلأن هذا المكان ربمـا بـــدا كبيرا جداً .

يرتكز كل شيء الى العمل البشري المضني . فزراعة الارز ، الشاقة بحد ذاتها ، تتطلب عناية فائقة . ولما كانت الارض نادرة وعزيزة وموضوع نزاع عنيف ومثقلة بالضرائب والمراباة ومجزأة الى مـــا لا نهاية له (على العائلة ان تكتفي بـ ١٥٠ آراً في الهند ، و ٥٠ في اليابان ، و ٢٥ في كوريا ، وتبدأ الاملاك الكبرى اعتباراً من ٣ هكتارات في دلتا تونكين) ، فأن هذه الزراعة تصبح اشبه بعمل الحدائق الدقيق جداً الذي يتوخى الفلاح منه اكبر انتاج ممكن. ومهما يكن من مهارة الفلاحين، فان مثل هذا الصراع اليومي يخبىء المفاجآت ويجر خيبة الامل احيانا . وهناك الحاجة الى الاسمدة التي تجمل من الدمال البشري مادة ثمينة في الصين . وهناك كذلك الصراع ضـد المياه التي تأتي بالفرين الخصاب ، ولكنهـــا تغمر الاراضي المزروعة (وفي اماكن كثيرة زاد قطع الغابات من خطر الفيضانات المخربة) : وقد حدثت ادهى كارثة في السنوات ١٨٥٠ - ١٨٥٣ حين انتقل نهر « هوانغ - هو » من مجراه الى مجرى « بي - تشي - لي » مبتلعاً الوف الضحايا ومخفياً مناطق كاملة تحت طبقة كثيفة من الرمول. وتسببت الاعاصير اللولبية الهابة على السواحل والامواج المرتفعة المتلاطمة ، والزلازل في اليـــابان باضرار كبيرة أخرى دورية . ولكن مناطق الجدب القريبة في آسيا تترك أثرهـــا الرهيب ايضاً . فسنوات الجفاف سنوات مجاعة في الصين والهند . وربما بلغ عدد ضحايا الاولى ١٤ مليوناً في السنة ١٨٤٩، وبين ٩ و ١٣ مليوناً في السنوات ١٨٧٧ - ١٨٧٩ بينما أتى الجراد بعد ذلك على مزروعات ١٣ ولاية من اصل ١٨ . أما في الثانية فقد نزلت البلية في مواعيد متقاربة : فقـد اماتت أكثر من مليون نسمة في منطقة « اوريسا » في السنة ١٨٦٦ و ٤ ملايين في هند الامراء في السنة ١٨٦٨ ، وفتكت بـ ٢٠٠ الف رأس ماشية في « رادجبوتانا » وحدهـــا ؛ وحلت بـ ٤١ مليوناً هندياً في السنة ١٨٧٧ وأودت بحياة زهاء ٤ ملايين منهم ايضاً ؛ ولكن الفاقة شملت ٧٧٤ الف كيلومتر مربع و ٧٠ مليون نسمة في السنة ١٨٩٥ ؛ وفي السنوات ١٨٩١ - ١٩٠١ هلـك نصف الاولاد الذين لم تجاوز اعمارهم ٥ سنوات في « بيرار » (وان بروكوفياف - وكان في سنه السادسة - ، الذي كان وقعُ ما حدث كبيراً عليه ، قد ألف حينذاك « القماص الهندي ») ؛ وفقـــدت المقاطعات المتحدة ٨٪ وولاية بومباي ٥٪ من سكانها . فلا عجب من ثم اذا ما توفق الفرنسيون ، في السنة ١٨٥٩ ، الى تجويع هوّيه باحتلالهم دلتا ميكونغ حيث تتزود عاصمة « انّام » بالارز ، واذا ما أمل كوربيه باستسلام حكومة بكين اثناء حملة السنة ١٨٨٤ - ١٨٨٥ باعتراض طريق القوافل الآتية من كانتون . كانت التغذية نباتية وبالتالي سيئة جداً . وان الفـــلاح في الصين

الجنوبية لم يستهلك الحنطة استهلاكه لا « كاو – ليانغ » (نوع من الذرة البيضاء) ، كما ان فلاح الهند لم يستهلك الأرز استهلاكه للجاورس أو لاصناف أخرى من الذرة البيضاء . واستهلكت كذلك البقول المجففة التي تحشو المعدة وتجنب اوجاعها . واعتبر الشاي ، على غرار الارز ، مادة بذخية احياناً. وقد استلزم هذا الغذاء المتماثل ابداً، العسير الهضم اجمالاً ، بعض التوابل وحساء البسلى الصينية وحصيلة هضم الاسماك الذاتي المعروفة عند الفيتناميين باسم نووك – نام . وكان من المجاملات الصينية الدارجة طرح هذا السؤال : « هل تناولت الطعام ؟ » وقد وفر احتساء المشروبات الروحية وتدخين التبغ مزيداً من الانشراح ؛ كما وفر مضغ الفوفل والتنبل اهتياجاً مستحباً . وقامت بين الهند والصين تجارة افيون رابحة .

بالاضافة الى سوء تغذيته ، لم يتوفر للآسيوي مسكن مريح . وقد يحدث احياناً في الصين ان تذيب امطار الصيف الغزيرة جدران مسكنه المبنية بالطين المجفف. وغالباً ما التهمت النيران في اليابان المساكن الخشبية الجميلة . أما الملبس ، وهو عادي اجمالاً ، فقد صنع في المنزل على العموم . وعاش شطر هام من السكان ، في المناطق الحارة ، مرتدين ثياباً رثة أو شبه عراة. وفي كل مكان شوهدت اعداد كبيرة من الزهاد والنساك والمتسولين . واذا كان البؤس من اسباب ارتفاع نسبة الولادات ، فانه يفسر في الوقت نفسه نسبة الوفيات المرتفعة ايضاً بين الاطفال وقصر الحياة . اضف إلى ذلك ان الأمراض التي يسهل انتشارها سوء التغذية وسوء التدابير الصحية تضم نتائجها الى نتائج المجاعة . فالكوليرا منتشرة ابداً هنا أو هناك في الهند : ويقدر بعضهم انها فتكت كل سنة بـ ٦٪ من السكان بين السنة ١٨٨٢ والسنة ١٨٩٠ ؛ ولكنها غالباً ما انتشرت في الشرق الاقصى ، وحتى في اليابان ، ايضاً . ولم يكن الطاعون أقل فتكاً ، بشكليه الدبيلي والرئوي : فقد هلك زهاء ١٠٠ الف شخص سنوياً في الهند بين السنة ١٨٧٨ والسنة ١٨٨٧ ، و ٨٠١ الف في السنة ١٨٩١ و ٧٢١ الفاً في السنة ١٨٩٢ . وهو قد ظهر في الصين احياناً . وقد انتشر فيها انتشاراً واسعاً بعد الحرب الروسية اليابانية . وغالباً ما انتشرت كذلك اوبئة التيفوس والحمى التيفية والزحار والجدري . وسيطر الـ « بربري » (أو « كاكيه ») على المناطق المنخفضة بين ماليزيا واليابان . وحوالي السنة ١٩٠٠ اصيب ١٣ الف شخص بالجذام في الهند وأكثر من ٢٥ الفاً في الهند الصينية ؛ ولكن الصين كانت المركز الأول لهذا المرض . ويعتقد بعضهم ان الملاريا تسببت في البنغال بوفيات تفوق كل ما تسببت به كافة الأمراض السارية الأخرى؛ يضاف الى ذلك انها كانت تعرّض الاجسام للنزلة الوافدة . وهناك، الى جانب هذه الأمراض كلها ، حميات فتاكة كثيرة .

رغب كل الناس في البيع بسبب نقص الوسائل النقدية . فقد امتلأت الطرقات بالفلاحين المترددين على الاسواق. وعوضاً عن استهلاك المواد التي لا تباع باسعار مرتفعة ، كان الفقير يعرضها بغية الحصول على بعض المال . وقد صرف ذهنه وفطنته في انتاج مصنوعات مختلفة لا تخلو من الذوق السليم . فانصرفت بعض القرى ، كما في الكونغو ، الى انتاج المصنوعات الجلدية ، بينما انصرف

غيرها الى صناعة المذاري والسلال والخزفيات والحدادة والحياكة . وكادت كل الأشياء تصنع باليد دونما حساب للوقت الذي تستغرقه صناعتها . ومهما كان من ضآلة المكسب ، فانه كان يوفر دخلا لا يستهان به . فهكذا أعد الشاي والتبغ وصنع الحرير في الصين واليابان ؛ وهكذا رأت النور المصنوعات التزيينية الكثيرة التي تتم عن ذوق فني رفيع جداً . أما في المدن فقد تكدس العديد من الريفيين ، وتعرضوا للفاقة والامراض ، ولكنهم توفقوا الى الارتقاء احياناً بمزاولة الأعمال التجارية . ويجب اخيراً ان يحصى بالملايين اولئك الذين استخدموا ، كالحيوانات ، لنقل البضائع أو المسافرين بواسطة المركبات الخفيفة ذات العجلتين ، والنقالات الشراعية في الصين الشمالية ، والزوارق ذات المجاذيف .

استمرار حالة الفقر والنزوحات الآسيوية: حاجات الاستعمار الاوروبي وجاذب العالم الجديد

كانت آسيا منذ القدم مستودعاً بشرياً كبيراً ، ومن ثم منطلقاً لنزوحات كثيرة : نزوحات النواقل باتجاه اوروبا والمتوسط ، ونزوحات سكان اشباه الجزر والارخبيلات باتجاه جزر المحيط الكبير ، ونزوحات الصينيين الى الفيلبين والجزر الماليزية . وخلال القرن التاسع عشر انقلبت الحركة في الجهة البرية ، ولكنها اتسعت على الطرقات البحرية ، في الوقت نفسه الذي تعاظمت فيه حركة انتشار الاوروبيين وفتحت ابواب اميركا على مصراعيها امام الهجرة . اجل لقد واصل الغرب السيطرة على الجماهير الآسيوية ، ولكنه ، في الوقت نفسه ، اجتذب هذه الجماهير خارج مناطقها رغبة منه في معالجة حالة الفقر معالجة جزئية ، وجني مكاسب مهمة أيضاً . واذا لم يكن مرغوباً فيهم دائماً ولم يستقبلوا استقبالاً جيداً ، فقد توزع المهاجرون الآسيويون ، من عمال مقترين أو تجار مهرة ، اما على ممتلكات الدول الاستعمارية ، واما على مختلف مناطق الامريكتين . وهما إلغاء الرق ونقص اليد العاملة المحلية ما اتاحا لهم العمل بصورة عامة . ولما كان الهندي احد رعايا الامبراطورية البريطانية ، فقد بحث عن الاقامة في مستعمرات هذه الامبراطورية ما بين خطي الجدي والسرطان : في جزيرة موريس ، أو افريقيا الجنوبية ، أو في الساحل الغربي من افريقيا ، أو في غويانا او في جزر المحيط الهادي . ولما كان الماليزي خاضعاً من جهته لهولندا فقد طلبته للعمل في مغارس سورينام ، كما طُلب الفيتنامي ، الخاضع لفرنسا ، للعمل في حقول ومناجم كاليدونيا الجديدة . وهي اوروبا التي فتحت باب الهجرة الصينية الكبرى بفتحها المرافىء الخمسة في السنة ١٨٤٢ بموجب معاهدة نانكين؛ وصادفت هذه الهجرة في الزمن عهد اضطرابات خطيرة في الامبراطورية السماوية . فمنذ السنة ١٨٤٦ ظهر العمال الآسيويون في كوبا والبيرو . ثم تضخم السيل وصب في اشباه الجزر والارخبيلات القريبة في الجنوب الشرقي الآسيوي ، وفي جزر الباسيفيكي وشواطئه النائية . وما لبث ان اتجه شطر منشوريا بعد ان اعترض سبيله هنا وهناك . وظهر اليابانيون بدورهم في هاواي وكاليفورنيا واوستراليا ، على الرغم من نفورهم من مغادرة بلادهم

ولكن هجرة البؤس هذه لا تمثل سوى نسبة ضئيلة جداً من الجماهير الآسيوية . يضاف الى ذلك ان اكثرية المهاجرين قد سافروا على امل العودة وحافظوا على غريزة التضامن القومي .

قوة التقليد

ان جمود التقنيات ونقص الموارد يستتبعان ديمومة المؤسسات الاجتماعية التي تكرس بدورها التعلق بالماضي . فيصبح الرضى بتدبير الله الفضيلة السامية الاولى . وقد قال « لاوتسو » : « ان من يكون قنوعاً يكون سعيداً ابداً » .

وتسهم حياة الجماعات ، الكلية القدرة ، في تغذية هذه الذهنية . فالفرد الخاضع لطبيعة لا يقوى عليها بسهولة ، يشعر بأنه ضعيف ومتروك لقواه وحدها . وهو لا يعيش الا بدلالة العائلة وبحماية العفاريت المنزليين ؛ ولا يقدم شيئاً على الاحترام البنوي وواجباته نحو اقربائه . ففي اليابان يكون الشخص « هي – نين » ، اي غير انساني ، اذا لم يَلق بالقرية التي ولد فيها . والمسكن الجماعي هو الطراز المألوف لأنه يستجيب لرغبات التعاون على العناصر والاعداء . ونجد روح التعاون هذه في المعمل الذي يغار على امتيازاته في المدينة والارياف على السواء . لا بل ان معظم الطبقات الهندية المقفلة ترتدي طابعاً مهنياً .

ولسلطة الدين تأثير مماثل . أجل ان الديانة الهندية تمر في أزمة . فالبراهما المثقفون ليسوا على اتصال بالجماهير التي يحتقرونها ، وتتساهل الطبقات الدنيا مع وثنية غليظة جداً حين لا تشجعها تشجيعاً . ويتميز سواد الملايين الخمسة من النساك والكهان الذين ضمتهم الهند حوالي ١٩٠٠ ، واعني بهم الـ « يوجي » ، بخرقتهم وكسلهم . اما المعابد فتزدان بمشاهد مُعجرية ؛ والمؤمنون يمسحون اجسامهم بزبل الابقار أو يشربون بول الحيوانات ، والحجاج يعبّون مياه الفانج الملوثة التي تطفو عليها جثث الموتى ، ثم ينشرون الاوبئة حيث يمرون . لقد عززت الديانة الهندية الطبقات المقفلة وشجعت الزواج في إطار الطبقة الواحدة وجعلت من المرأة شخصاً متخلفاً وأقصتها الى الـ « زانانا » . ولكنها حالت دون التبدل .

لا تدفع البوذية قط كذلك الى العمل لانها تعتبر الوجود شراً وتوصي بالحزم في الكفر بالمسرّات الخادعة . تحمل على حياة التأمل والمحبة . أضف الى ذلك ان الشعب يكرم ارواح الطبيعة حتى في بورما وكمبوديا وسيام حيث تفوق الفرع المعروف بـ « هينايانا » (المركب الصغير) ، وهو اقرب الفروع فلسفة الى فلسفة « غوتاما » غير الشخصية . وفي الصين تتفق بوذية الـ « ماهايانا » (المركب الكبير) – « فوكيو » في الصينية – مع سحر الـ « ين » والـ « يانغ » ، كما تتفق مع المبادئين الرسميتين الاخريين ، الـ « يوكياو » والـ « طاو – كياو » . وبينما تساعد الطاوية الانسان على تحمل المهانات ، تعيّن الكونفوشيوسية مبادىء الحكم البصير والضروري الذي تزيده السماء ويوافق التقليد . فلا حدود من ثم للسلطة الملكية لا في سيام ولا في كمبوديا . اما في اليابان فقد طابقت البوذية الخلق القومي : فان الـ « زن » الذي يرتدي طابعاً صوفياً ومشدداً ، يتصل بالشنتوية القديمة الشبيهة بمذهب الوهية الطبيعة والمنطوية على

عبادة الجدود والآلهة الحماة الكثيرين ، بينما تنادي الكونفوشيوسية ، خدمة للارستوقراطية ، بالتفاني في سبيل الميكادو ابن الاله وموزع الاعمال .

لم تنجح أية ديانة من الديانات الآتيه من الغرب في تحقيق السيطرة والنصر. ففي الهند اصطدمت المسيحية بالطبقة المقفلة وبعقيدة الوهية الكون الهندية وبالمواقع التي استولى عليها الاسلام ؛ ولم يجاوز تباعها المليونين في اواخر القرن التاسع عشر . وفي الشرق الاقصى اعتبرتها السلطات خطراً ، ولم تتأثر بها الجماهير تأثراً يذكر . أما الاسلام فقد استمر في تقدمه في السهول حيث بلغ مشايعوه ٦٠ مليوناً حوالى السنة ١٩٠٠. ولكنه لم يتألق لا بعلم فقهائه ولا بنقاوة ممارسته. ومع تجنبه عبادة الاوثان ، تأثر بالديانة الهندية وسلّم بأمور كثيرة للعادات والاعراف المحلية . واذا هو احتل المركز الاول في ماليزيا، فإنه لم يفلح هنا أيضاً في ازالة الطقوس الهندية وعبادات الارواح والحق الاندونيسي القديم .

ان آسيا هذه تنكمش على نفسها مترببة وكارهة الاجانب . ولا يعني موقفها هذا انها تريد حجب صورة عتيقة قد تخجل منها ، ولكنها تحتقر « البربري » في سمو حكمتها . فالأجنبي في نظرها كائن ادنى ، ونجس بصورة خاصة . والآسيوي يجيب الاوروبي والاميركي اللذين يدعوانه الى السير قدماً برفض تغيير حاله بالتطور .

الانحطاط الفني : اثر الغرب

اكد اللورد « كورزون » في السنة ١٩٠٤ « ان السيطرة البريطانية في الهند اعظم ما حققه الشعب الانكليزي ... سيطرة العدالة التي وفرت الامن والنظام والحكم السليم لقرابة خمس الجنس البشري كله ... على ايدي حكام لا يمثلون سوى عدد ضئيل بين المحكومين او بقعة زبد بيضاء صغيرة جداً في خضم محيط قاتم وصاخب ... » .

ولكن الشؤون الهندية ما زالت في السنة ١٨١٥ بادارة التاج وشركة من التجار معاً يرتبط الحاكم العام بكليهما ؛ وما زال كذلك وهم الامبراطورية المغولية قائماً . وسيدوم مثل هذا الوضع الغامض حتى ثورة الجندين البلديين في الجيش البريطاني ، على الرغم من النفوذ الذي ستتمتع به حكومة جلالته تدريجياً . انه لعهد امتد فيه الفتح البريطاني، بحسب اتفاق الحاجات الآنية ، وبدون تصميم ولا خطة ، الى كافة ارجاء شبه الجزيرة من جهة والى الاقاليم الشمالية الغربية من جهة أخرى . وقد تحقق بفضل حروب دائمة ضد شعوب محاربة، اسلامية بأكثريتها، كالمهرات والغوركا والسيخ . فأثارت الفوضى والمجاعات والابتزازات على انواعها في انكلترا ردود فعل قوية في الأوساط الاصلاحية والمنشسترية التي نسبت كل ذلك الى الشركة . اجل ان مشروع « ماكولاي » التعليمي لتثقيف البلديين المعدين لتسلم الوظائف الهامة يعود لزمان فتح خطوط الملاحة المنتظمة. ولكن نظام الهند لن يتبدل تبدلاً جذرياً الا في اعقاب ازمة خطيرة.

كان الحدث الحاسم من ثم الثورة التي اندلعت في اعقاب تمرد الجندين البلديين في الجيش

البريطاني في السنة ١٨٥٧ ، وكشفت القناع عن قلق عميق الجذور . فان إلغـــاء الرق نظريا في الارياف بغية اخضاع الفلاح لضريبة ثابتة ، وغزو قطنيات لانكشاير الذي وجه ضربة قويـة للصناعة اليدوية ، وزوال يد امراء كثيرين عاشت بقربهم البلاطات والمبارة ، وإلغاء الاضاحي البشرية والانتحارات الدينية ـ نظريا ايضاـ الذي صادف في الزمن أتتاد اختراعات «شيطانية» كالتلغراف مثلا ، كل ذلك خلخل مجتمعاً محافظاً على التقاليد تناولته الدعاوة المسيحية من جهـة والدعاة الوهابية المضادة والمقاومة الهندية من جهة اخرى . ثم جاء الاحجام عن تعيين خليفة للامبراطور المغولي الاخير ، والخوف من ارسال الفرق العسكرية الى القرم وخسـائر الجيـش البريطاني في هذه الحرب ، زيادة بالطين بلة . فثار بعض الجنود البلديين حـين تسلموا البندقية الجديدة « انفيلد » التي كان فشكلها مدهونابشحم الخنزيركا يقولبعضهم او بشحم البقر كا يقول غيرهم . وقد أقض الامتحان مضاجع المستعمر الذي استخلص منه درساً مفيداً .

بعد إلغاءالشركة بموجب وثيقتي السنة ١٨٥٨ والسنة ١٨٦١ ، لم يعد الحاكم العام،الذي اصبح نائب الملك ، ليرتبط الا بأمين سر دولة لشؤون الهند أطلق برلمان لندن يـده فعـين حاكـمي مدراس وبومباي تعييناً مباشراً . وقد صدر التوجيه العام بعد ذلك عن الوطن الام ، ولكن ممثلي السلطة تمتعوا بحرية كبرى في اتخاذ القرارات اللازمة محلياً . فاحتفظ الانكليز لأنفسهـم بكافة المراكز العالية وتخلوا للهنود عن الوظائف الثانوية في الادارة الاقليمية وفروع الادارة المركزية . وكان باستطاعة الهنود العمل في الادارة المدنية التي تتولى أعمـــال القيادة ، شرط احراز النجاح في امتحانات تجري في بريطانيا العظمى . واذا كان على الموظفين الاوروبيين معرفة لغات البلاد ، فقد كان من جهة ثانية على البلديين الموظفين في الادارة ان يدخلوا مدارس ثانوية توزع التعليم باللغة الانكليزية . ويتضح من برنامج ماكولاي ان المدارس الابتدائية لم تضم ، حوالي السنة ١٩٠٠ ، سوى ٤ ملايين تلميذ (نسبة الاميين بين الذكور ٩٠ بالمائة وبين الاناث ٩٩ بالمائة) ، بينما ضمت المدارس التكميلية والثانوية نصف مليون والجامعات اكثر من ٢٠٠ الف . ونظراً الى ان الضريبة العقارية هي التي تغذي الموازنـة في الدرجة الاولى فكان ان الفلاح هو من يوفر المال لتعلـــيم المثقفين الذين يتعاونون مع الدولة المستعمرة .

كادت الضرائب كلها توزع على الجماهير الريفية . وكان على هذه الاخيرة كذلك تأدية الرسوم غير المباشرة المفروضة على المشروبات الروحية والملح وتحمل ارتفاع الاسعار بصورة خاصة الناتج عن الرسوم الجمركية التي ألغيت لمدة وجيزة ثم ما لبثت ان فرضت مرة اخرى . ولكن تعهـد الادارات العامة والجيش كان يستهلك اكثر من نصف الواردات .

ما زالت القوى العسكرية مؤلفة من عناصر بلدية يتولى قيادتها ضباط بريطانيون وتساندها فرق بريطانية . ولكن ثورة الجندين البلديين أظهرت محاذير فقدان النسبة العددية بين البلديين والبريطانيين (كانت النسبة نسبة ١٠ الى ١) فخفض عدد البلديين . وانما صرفت العناية بالمقابلة الى اختيار الجندين بالتفضيل من بين السيخ والغوركا والبلوتش وحتى من بين افغانيي الحـدود

الشمالية ، ووضع الامراء البلديون تحت تصرف نائب الملك بين ٣٠٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠٠ رجـل يتولى قيادتهم ضباط بريطانيون ويشتركون في المحافظة على الأمن ، ان لم يشتركوا في العمليات العسكرية الخارجية .

اذا نجح من ثم عدة آلاف من البريطانيين في ادارة امبراطورية واسعة ، فيجب الا ننسى ان الأجناس البشرية الكثيرة والمعتقدات الدينية المختلفة والطبقات الاجتماعية المقفلة واللغات المتعددة قد سهلت عمل المستعمر الذي عرف خير معرفة كيف يستفيد من هذا التنوع. فان الولايات التي ادبرت مباشرة بمؤازرة موظفين بلديين كانت تحيط بالاقاليم التي استُنسب الابقاء على ادارتهـا التقليدية . وشدت اسياد هند الامراء هذه مواثيق شخصية الى سيدهم الاكبر ، خليفة المغولي المظيم . فقد فازت فيكتوريا بلقب قيصرة الهند ويمين اخلاص اصحاب الاخاذات .

ناهز عدد هذه الولايات الـ ٧٠٠ وبلغت مساحتها ١٥٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع (مقابـل مليونين الولايات البريطانية) وسكانها بين ٦٠ و ٧٠ مليون نسمة فقط مقابل ٢٨٠ (في السنة ١٨٩٠) . لم تدفع كلها الجزية ولكنها اعترفت كلها ببعض الأنظمة المتناولة الاخلاق وتنفيـذ الاشغال العامة وجمع الضرائب وحرية التجارة . واحتفظت لندن لنفسها بحق التدخل في حال العصيان . وقد اصاب اللورد « مايو » حين قال : « ان الابقاء على الامراء البلديين في مراكزهم لا ينتقص من سلامة الامبراطورية بل يزيدها قوة » . ولذلك لم يرَ الوطـن الام ضيراً في امتداح اخلاص اولئك الراجاوات الذين لم يجهل تمسكهم الكلي بصيانة امتيازاتهم . ولكن تبايناً مدهشاً يلاحظ بين هؤلاء الامراء : فالى جانب قوة وثروة ترافنكور وكوشين اللتين تقدر دخولهما السنوية بالملايين ، تظهر الولايات الـ ٨٨ التي تتألف منها منطقة كاتيافار بمظهر غير مرض من الضعف والفقر . وقد راعت انكلترا بصورة خاصة شهامة سكان الجبال الشمالية المتربصيـن المتحكمين بالمسالك المؤدية الى ايران او التبيت؛ وصادقت امير كشمير السيخي الاصل وجندت من النيبال فرقاً مشهورة بقيادة مهراجا من الغوركا واكتفت بإقامة مركز حراسة على مقربة من بوتان التي يتولى الحكم فيها احد عظماء اللاما . وجملة القول انها دخلت تقليد الحياة البطريركية والسلطة المطلقة الذي تتميز به كل سلطة قائمة . فاحتفظت من الماضي بما امكنها الاحتفاظ به .

استثمار الهند على ايدي البريطانيين

كاد الممسكون بزمام السلطة لا يختلطون بالسكان . وقد اقام الانكليزي في مدينته الخاصة التي وفرت له ظروف حياة شبيهة بها في الوطن الام . ففي كلكوتا برز الفرق الكبير بين « مدينة الطين » التي تكدس البلديون في أكواخها وبين « مدينة القصور » – ذات الطراز اليوناني الجديد – بحدائقها العامـة الجميلة وشبكة اقنيتها . وبرز الفرق كذلك بين « المدينة السوداء » الغير المرتبة في بومباي ، وبيـن مالابار هل ، « موطن السلطة والاناقة والثروة » التي أقصي عنها أثرياء التجار الفارسيين أنفسهم . وقامت كذلك دلهي الجديدة قبالة عاصمة الاباطرة المغوليين القديمة . وجهزت مساكن صيفية

في الجبال .

إلا ان هذا البعد بين الحكام والمحكومين لم يمنع الاول من إثبات وجودهم بايجاد اقتصاد جديد يحترم أشكال النشاط القديمة ويوفر لها في الوقت نفسه فوائد هامة . فقد استوردت الهند من قبل شطراً هاماً من مخزون الفضة العالمي لانها كانت تبيع أكثر مما تشتري إلى حد بعيد. ولكن السيطرة الاجنبية قلبت هذا الاتجاه رأساً على عقب : فالامراء أدوا ضرائب كبرى ؛ ووكلاء الشركة ، والموظفون من بعدهم ، قبضوا رواتب مرتفعة ، وجاءت البضائع « المصنوعة في انكلترا » تنافس المصنوعات الهندية بنجاح . فباتت الهند من ثم مدينة ؛ وتوجب عليها عقد القروض لتسدد نفقات الوجود البريطاني ؛ واستثمر الوطن الام أمواله استثماراً رابحاً في أسواق حصل منها على منتجات متنوعة . اجل ان انخفاض سعر الفضة قد زاد من حجم الصادرات ، ولكنه زاد من ثقل الدين ايضاً . وهي الشركة البريطانية التي رفعت طيلة القرن مستوى معيشتها على حساب ملايين الآسيويين .

اعتبر اللورد لورنس بأنه اتى عملا بطولياً بانتقاله من كلكوتا إلى دلهي في مدة اسبوعين فقط . ولا عجب في ذلك اذ ان أحد أعضاء مجلس العموم قد أكد في حينه « ان سكونتية انكليزية واحدة مجهزة بطرقات مطروقة لا تتوفر للهند كلها » . ولكن شبكة صغرى رأت النور في عهد دالوزي ، فسهل وجود « طريق الخرطوم الكبير » بين البنغال وبنجاب قمع الثورة الكبرى . فالخط الحديدي كان لعمري خير أداة للدولة المستعمرة : اذ ان الراحة والسرعة والاسعار المعتدلة قد جعلت من الخطوط ، التي بلغ طولها ٤٠٠٠٠ كيلومتر في السنة ١٩٠٠ ، أفضل شبكة خطوط حديدية في آسيا . وزودت المرافىء الكبرى بتجهيزات جيدة : فقد بني سد مثلا بين اليابسة والجزيرة القائمة عليها بومباي .

كان هنالك شغل شاغل آخر هو مقاومة المياه والجفاف معاً ، اذ ان السدود والخزانات والاقنية القديمة كانت غير كافية وفي حالة سيئة . فمست الحاجة إلى قناة توزيع في السهول الجافة . فأنشىء بين السنة ١٨٤٨ والسنة ١٨٥٥ ، على طول الف كيلومتر تقريباً ، الفرع الاول لقناة الغانج المعد لري ٢٧٥٠٠٠ هكتار . وأنشئت في عهد لاحق أقنية في البنجاب والسند املا من المسؤولين بأن تصبحا يوماً امصاراً جديدة . ولكن اقامة السدود في وجه المياه في دلتا انهار شبه الجزيرة وسع كذلك المساحات الصالحة للزراعة . وقد اكتسبت الهند بفضل ذلك مليونين ونصف المليون من الهكتارات . اما في البنغال الكثيرة الامطار فقد توجب احتباس المياه . وفي دكان احتبست المياه وانشئت الخزانات . ودرست من جهة ثانية امكانية استخدام الانهار للملاحة . وليست المقاصد المدروسة وحدها ما املى هذه الاعمال بل الحاجة الماسة الى محاربة المجاعات في الدرجة الاولى .

لا شك في ان المستعمر رأى فائدته في التخفيف من بؤس الفلاحين ؛ ولكن ما هدف اليه

في الـدرجة الاولى هو تكثير ريع الربيع ، الذي يمكن اضافته الى ريع الخريف ، لان الربيع الاول يعطي الحنطة في الشمال الغربي وانتاج ارز ثانياً في المنـــاطق الكثيرة الامطار : الا ان المواد الغذائية التي تستوقف الانتباه لا تغري السكان اغراء يذكر . فان المنتج الذي قد يصبح احد كبار ميارة القمح لا يحتاج الى مثل هذه الكمية لاستهلاكه . لقـــد مست الحاجة في المستعمرة الى السكر المتدني الاســـعار ، ولكن رؤوس الاموال وظفت في مقاصب جزيرة موريس . ولذلك اعتبر الافيون اوفر نفعاً لان احتكاره يوفر للخزينة دخلا كبـيراً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان المضاربة التجارية قد تحولت الى الشاي والبن في الدرجة الاولى : اجل ان الهندي لا يهوى قط هذه الاشربة ، ولكن بعض الشركات القوية استثمرتها في املاك واسعة واستخدمت لذلك يداً عاملة وفيرة العدد وصدرتها الى اوروبا : واذا ما تأخرت زراعة شجر البن بعد السنة ١٨٨٥ ، فان زراعة شجر الشاي قد تقدمت تقدماً حثيثاً .

ليس ادعى إلى الاسف من تأخر الصناعة البلدية امام مزاحمة المصنوعات الاوروبية . فبين السنة ١٨١٤ والسنة ١٨٤٥ هبط عدد النسائج المبيعة من ٠٠٠ ٢٦٦ ١ إلى ٠٠٠ ٣٠٦ ، بينا ادخلت بريطانيـــا ٥١ مليون يارد بدلا من ٠٠٠ ٨٠٠ . وهبط عدد سكان داكا ، مدينة النسائج الناعمة ، من ٠٠٠ ١٥٠ الى ٠٠٠ ٣٥ . وكان هناك مادتان هامتان للنسيج : القنب الهنـــدي والقطن . فأفاد الاول ، الذي صنعت منه أكياس الارز ، ليس من الحبوب المصدرة من بورما وجاوا فحسب ، بل من محول المواسم في الهند نفسها . اما الثاني فقد ارسخ ، منذ زمن بعيد ، شهرة البلاد ، وقد حققت الشركة ارباحاً طائلة ببيع النسائج القطنية العادية والنسائج الموصلية . ولكن انقلابا حـدث منذ ان انتشرت الحياكة الآلية في لنكشاير . فأضطرت المستعمرة منذئذ الى بيع القطن الخام وابتياع الملابس . وعلى الرغم من قصر الالياف ودونية نوعها غزت شجرة القطن الاراضي السوداء حول بومباي بعد حرب الانفصال ، فاستهوت الفـــلاح الساعي وراء جمع المال واضرت بالمزروعات الغذائية . ثم نمت صناعة الغزل الآلي بدورها بفضل التجهيزات المستوردة من انكلترا على الرغم من مقاومة منشستر الشديدة : وكانت هذه الصناعة ملك تجار اثرياء بينهم عـــدد كبير من الانكليز ، واشرف عليها اختصاصيون انكليز ايضاً . اما الفحم المعدني الذي استورد بحراً من ذي قبل ، فـلم يلبث ان استخرج من جوار بومباي وكلكوتا ، وقد وفر الوقود للقاطرات الحديدية .

اذا لم نأخذ بعين الاعتبار سوى ارقام التجارة الخارجية ، بدت النهضة امراً لا جدال فيه : فالمقايضات ارتفعت الى ٥٠٠ ٣ مليون في السنة ١٩٠٠ ، مقابل ٧٠٠ عند الغاء الشركة . ولكن الوصاية الاقتصادية تبرز في بيع حبوب باكثر من ٢٦٠ مليوناً ، بينا كانت البلاد جائعة ، وقطن خام ومنسوجات قطنية بـ ٣٠٠ مليون ، بينا هي اشترت نسائج بقيمة ٥٠٠ مليون .

تطور الهند الاجتماعي ويقظة الوعي القومي الهندي

لم يلبث سكان الهند ، الذين كانوا ١٠٠ مليون من قبل ، أن اصبحوا ٣٠٠ مليون يؤمنون حاجاتهم الضرورية بصعوبة . انه لنمو مخيف بلغت نسبته ١٠٪ بين السنة ١٨٨١ والسنة ١٨٩١ مثلا ، وستبلغ ١١٪ بين السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١١ ، وان تدنت الى ١٪ بين السنة ١٨٦١ والسنة ١٨٧١ ، والى ١٫٦٪ بين السنة ١٨٩١ والسنة ١٩٠١ بسبب المجاعات الكبرى والاوبئة الفتاكة . ولم تقو لا مقاومة البلايا ولا التقدم التقني بصورة عامة على تدارك ارتفاع عدد السكان المتزايد . أضف الى ذلك ان حال الفلاح لم تتبدل . فطرائق الاستثمار وأدوات العمل بقيت بدائية ؛ وانواع الحيوانات لم تحسن(وقد اوصي الاوروبيون بألا يشربوا حليب الأبقار التي غالباً ما كانت مصابة بالسل) . ناهيك عن أن ثمن المساحة المزروعة فقط أعطى ريعين في السنة وعن ان ربع الاراضي الزراعية الجيدة والمهملة فقط قد أعيد استثماره . ولم تفقد البلاد ، بفعل الهجرة والصناعة، سوى نسبة ضئيلة من اليد العاملة؛ واذا تقاضى عمال المشاغل والمعامل اجوراً متدنية (٠٫٤٠ فرنك الى ٠٫٧٥ للرجال ، و ٠٫٣٠ الى ٠٫٥٠ للنساء ، و ٠٫١٠ للأولاد المتراوحة اعمارهم بين ٥ سنوات و ١٢ سنة) ، فان العامل الزراعي المياوم كان اسوأ حالاً . وقد اعترف اللورد كورزون في السنة ١٩٠١ بأن معدل الدخل السنوي لا يتجاوز ٣٠ روبية أي ما يعادل ٥٠ فرنكاً .

على الرغم من أن الارض كانت ملك الدولة وأن المزارع يستثمرها لقاء دفع اتاوة معينة ، فقد تكونت املاك كبرى منذ ان اسندت الادارة المغولية الى بعض الفلاحين (زمندار وتالكدار) أمر جباية الرسوم وجعلت منهم كفلاء مسؤولين . وبعد ثورة المجندين البلديين صدرت سلسلة نصوص استهدفت تخفيف ادعاءات محتكري الاراضي . ولكن المستثمر الصغير (رايات واري) بات فريسة المرابي(ماروراري) بعد تقدم الاقتصاد النقدي . فصدرت نصوص أخرى تحدد حقوق الدائن وتعفي من مصادرة المعدات الزراعية . إلا ان الزمندار والتالكدار الاقطاعيين ، والمرابين على انواعهم ، قد سيطروا في الواقع على الفلاحين الذين كانوا ابداً تحت رحمة حصاد سيء .

سبق للورد بنتنك ان ثار على تضحية النساء المترملات وقتل الاطفال . ولكن « قانون الموافقة » الذي صدر في السنة ١٨٩٠ وحرّم الزواج قبل سن الثانية عشرة لم يعمل به قط ، واحجمت السلطات من جهة ثانية عن مساندة المصلح « مالاهاري » حين باشر حملته في هذا السبيل . وبغية تحسين حال الحجاج الذين كانوا يرتاحون من عناء السفر في الطرقات والساحات العامة ، فريسة التعب والجوع والمرض ، انشئت بعض المستشفيات ومحلات بيع المأكولات ؛ وتحقق تقدم آخر بفضل السكة الحديدية . ونزولا عند طلب نقابات العمال وشطر من الرأي العام الانكليزي ، تقررت بعض التدابير لحماية العمال في السنتين ١٨٨١ و ١٨٩١ ، ولكن ارباب العمل لم يتقيدوا بها .

ان ما تفاخر به بريطانيا العظمى هو تحديدها قوانين الاحوال المدنية واصدارها قانونـــاً جزائياً اوروبي الطابع وإقرارها لجنة المحلفين في الدعاوى الجنائية وسماحها للهنود بالمطالبـــة بلجنة مختلطة من المحلفين في الدعاوى التي يكون الاوروبيون اطرافاً فيها . لا بل رغب اللورد ريبون في ايلاء القضاة الهنود حق محاكمة الاوروبيين ، ولكن هؤلاء عارضوا ذلك .

لا مراء في أن هذا العالم المبرقش قد احرز بعض التقدم في طريق الوحدة . فقد حدث بعض الانصهار بفضل اتساع وسائل المواصلات الجديدة والنشاطات العصرية . وظهر بعض التجانس بفعل اعتماد المنتجات الاوروبية . ولم تفرض اللغة الانكليزية نفسها في الادارة وعالم الأعمـــال فحسب ، بل ان لهجات أخرى قد أخذت في الانتشار ايضاً كالـ « غوجاراتي » في الغرب بفضل الفرس ، والهندوستاني (وكتابتها سريعة معتادة) في كل مكان تقريبـــاً ، والـ « اوردو » التي تقابـــل الهندوستاني عند المسلمين . وأخرجت الصناعة من الذل بعض العناصر المنحدرة من الطبقات الدنيا ، فانفتحت الطبقة المقفلة بتلطف طابعها الديني ، وارتفعت أو انخفضت بدلالة دورها المهني . وبفضل المدرسة توصل العديد من الهنود الى تولي الوظائف العامة التي تستهويهم أو الى مزاولة الاعمال التجارية التي توفر لهم الثروات ، وألفت طبقة المثقفين الجـــدد (بابو) ، المنحدرة من اصل وضيع على العموم ، الافكار الاوروبية وابتغت المساواة في داخل الادارة المدنية . وكان المرسلون قد اسسوا الصحيفة الأولى باللغة الوطنية : فباتت الصحف تعد بالمئات في السنة ١٩٠٠ ، وقد صدرت باللغة الانكليزية أو باللغات البلدية الرئيسية .

تفيدنا الاحصاءات وجداول ضريبة الدخـــل – التي أقرت في اواخر القرن – بأن كبار الملاكين العقاريين هم المعابد والاديرة والزمندار . فاذا مثلت الأجور نسبة ٣٠٪ من محصول الجباية ، فأن الدائنين والصيارفة وكبار التجار يؤمنون ثلث هذا المحصول ، ويُحدد دخل ١٣٤٠ شركة مساهمة بـ ٥٧٥ مليوناً . وهكذا نمت الى جانب الراجا والنباب اللذين اضربهما الفتـــح الانكليزي والتطور الاقتصادي نسبياً ، رأسمالية بلدية ، عقارية وتجارية وصناعية معاً ، اخذت تعي مصالحها .

ولا عجب من ثم اذا مـــا استهدفت اعتراض المستعمرة سياسة انكلترا الجمركية وانتقد « الحصرية » الجديدة ونظام الحماية المعكوس . فمنذ السنة ١٨٧٠ ، ارتسمت في الأفق حركة « سوادسشي » ، التي هاجمت المصنوعات الانكليزية وعظمت الانتـاج البلدي ، ولكن الاحرار المنشستريين ارادوا اطلاق حرية دخول المصنوعات الانكليزية الى الهنـــد ومنحوا بالتفضيل امتيازات سياسية : فأقرت قوانين الحكـم الذاتي المحلي التي بموجبها منحت المدن والنواحي ثم الولايات مجالس تنتخبها الادارة والاعيان ؛ ثم انشأت لندن في السنة ١٨٩٢ ، الى جانب نائب الملك ، مجلساً تشريعياً يعين اعضاؤه بناء على اقتراح الهيئات الكبرى كغرف التجارة والبلديات ويتمتعون بصلاحية درس الموازنة وطرح الاسئلة . أضف الى ذلك أن الحاجة قد مست الى مخاتلة جمعية ، معروفة باسم المؤتمر ، اجتمعت للمرة الأولى في بومباي في السنة ١٨٨٥ وطالبت بتولي

الهنود مراكز القيادة وبالمساواة القضائية وحرية الصحافة الكاملة ورقابة الموازنة الفعلية .

اعتقد البريطانيون زمناً طويلا بأن الاختلافات الدينية وتعلق الجماهير بالماضي وانضمام المثقفين الى سياسة التعاون المخلص ستشل انطلاقة حركة قومية بلدية . وقد هوي عدد من المثقفين الهنود الأدب الانكليزي : فنظم « مدهو سودان داتا » الاشعار على طريقة بايرون ؛ وحمل « داتا » آخر اسم « دات » واصبح استاذ اللغات الهندية في جامعة لندن ونشر باللغة الانكليزية دراسات هامة حول حضارة بلاده . واشتهرت المدرسة الانكليزية الاسلامية التي اسسها السر سيد احمد خان في السنة ١٨٧٥ بانها تضاهي « اربعة جيوش » . وبذلت المحاولات كذلك في سبيل استغلال الاختلافات في داخل الديانة البراهمانية . فقد قوبل المتكلمون عن طرد الاجنبي، لأنه يدنس مياه الغانج ويمنع تضحية المترملات، بالمصلحين الذين استهوتهم الافكار الغربية . فلماذا التخوف من « براهما – سماج » ، شيمة « رام موهام راي » ودبندرانات طاغور الذين تأثروا برسالة يسوع فنادوا بمذهب الفداء الشامل الذي من شأنه التقريب بين المسيحيين والمسلمين والبراهمانيين وبتحسين مصير المرأة والغاء الطبقات المقفلة ؟ وكيف يجوز التشكي من شيمة « اريا – سماج » التي عين لها الباندبت سارا سفاتي كذلك رسالة نبيلة هي تعليم الأخوة البشرية ، كائناً ما كان تعلقها بعادات الجدود ؟ ومن جهة ثانية لم تبد صوفية راماكرشنا وتلميذه « فيفا كاننددا » ، اللذين لم يتمسكا بحرف العقيدة تمسكهما بحرارتها ، اشد خطراً من وضعية « غوز » الذي رغب كذلك في « وحدة الشرق والغرب » ، أو من تصوف « اني بزنت » . واذا كان رفض التعلق بالحياة أو اقله الزهد فيه قد تراجعا شيئاً فشيئاً امام المحبة الفاعلة، فيجب التهليل لمثل هذا التطور الذي حصل على مهل وعن غير قصد في الفكر الهندي .

بانتظار ذلك اصبحت المطالبات الهندية اعظم الحاحاً . ولا يعني ذلك ان المؤتمر الهندي قد حاد عن موقفه المتساهل : فالمجاعات والاوبئة اقضت مضجع الفئات النافذة التي تسيطر عليه والتي لا تطالب قط الا بحقها في ان يقال : « انا مواطن بريطاني » . ولكن حركة اشد عنفاً تعاظمت منذ السنة ١٨٩٤ : فان « تيلاك » المنتسب الى طبقة براهمانية مقفلة ، والصحفي والخطيب اللاذع ، قد اسس جمعيات رياضية على غرار الـ « سوكول » وطالبه جهاراً بالاستقلال ودفع مناصريه الى الـ « سوادسشي » وحتى الى الاغتيال . وقد اعتقد نائب الملك كورزون في السنة ١٩٠٤ ان باستطاعته التأكيد بخيلاء : « ان مهمتنا عادلة وسوف تستمر » . ولكن ذلك لم يحل دون صعوبات الغد التي ستواجهها السيطرة البريطانية .

بورما وماليزيا البريطانيتان

حصنت امبراطورية الهند من الجهة الشرقية بسلسلة من الممتلكات : جزر اندمان مع ميناءها الطبيعي الكبير « بورت – بلير » واصلاحيتها الكبرى للهنود والمسلمين والبوذيين ؛ وجزر نيكوبار الغير الصحية ؛ وارخبيل مرغي الذي يتحكم ببرزخ « كرا » وساحل تناسريم ؛ وشبه جزيرة مالاكا وموقعها الهام سنغافورة ؛

واخيراً ساراواك المتمدة في طرف بحر الصين الجنوبي التي تراقبها انكلترا منذ استيلائها على جزيرة لابوان : واضيفت الى ساراواك « بورنيو الشمالية الانكليزية التي وليت عليها شركة ذات امتياز وراقبت ، بفضل سندكان ، الممر الكائن بين الفيلبين الاسبانية والانسولند النيرلندية .

اذا ما نظرنا الى بورما من البحر لرأينا انها تضم دلتا الايراوادي الكبرى المشهورة بزراعة الارز وساحلا غنياً بشتى انواع الاسماك. وجاورت البنغال من قبل مملكة بوذية اسمها«الومبرا» في القرن الثامن عشر ، ففرضت سيادتها على « اراكان » و « بيغو » و « تنامريم » وهددت « اسام » . وبعد حملة عسيرة ثبتت شركة الهند اقدامها في اسام ومانيبور واستولت على اراكان وتناسريم . ثم احتلت، دون ان تصادف مقاومة، بيغو المشهورة بالكاد الهندي الذي يستخرج منه صباغ قاتم تصبغ به الاقمشة القطنية ، فتأسست من ثم بورما البريطانية . فانكفأت مملكة بورما منذئذ الى الداخل ولم تتمتع بعد ذلك الا بكيان مؤقت ، اذ ان الاستكشافات أثبتت اهمية المسالك المؤدية الى الميكونغ الاعلى والصين الجنوبية، وغنى البلاد بالحجارة الكريمة وخشب التك : فكان الضم الذي حطم، في السنة ١٨٨٥، محاولة«ميجي»واصطدام بمقاومة باسلة».

تضم بورما الجبلية ، بالاضافة الى ال « شان » وال « كاتي » والبيغوبين ، عدداً من القبائل الوثنية . وقد استطاع البريطانيون الاعتماد على البيغوبين وال « كارين » للوقوف في وجه الكاتي عند الحدود الصينية وال« كاين »المحرابين ؛ ولكنهم لم يحققوا التهدئة قبل توقيع اتفاقيات الحدود في السنة ١٨٩٣ . فوضعوا نصب اعينهم جعل الدلتا قادرة على تصدير الارز ؛ فمست الحاجة الى طلب يد عاملة اضافية اتوا بها من البنغال؛فاصبحت رانغون من ثم احدى‌اهم اسواق الحبوب في آسيا الجنوبية . ونقل خشب التك الى « مولمين » بواسطة الانهر التي نقل من قبل الى ضفافها على ظهور الفيلة . وفي جوار « ماندلاي » استخرجت الحجارة الكريمة وحفرت آبار البترول . وقد ابدى ليوتي هذه الملاحظة: « ما ان تحقق الفتح حتى بوشر العمل الجدي ؛ فبنيت ،انطلاقاً من المرافىء ، مئات الكيلومترات من الخطوط الحديدية التي حاذت الايراواوي الى ابعد من ماندلاي وما لبثت ان اتصلت بكلكوتا . لم تضع دقيقة واحدة ، وقد طبقت الطريقة الادارية السليمة المتحنة على ايدي موظفين يعرفونها تمام المعرفة ولا يتلمسون طريقهم ؛ فباستطاعة المهاجر المستعمر ان يأتي بعد ان أعد له سريره » .

ان شبه الجزيرة الماليزية، القليلة السكان ، لم تلفت الانتباه بمرزاتها بقدر ما لفتته بمغارسها. فان استثمار النارجيل والتوابل قد تحقق منذ اوائل القرن بواسطة عبيد يباعون في جزيرة « بنانغ » ؛ ثم اتسعت زراعة قصب السكر وشجرة الشاي وشجرة البن ، فلجأ المسؤولون الى عمال هنود وسيلانيين . ثم تعرضت الاحراج لعملية نهب حقيقية . ولكن اهم حدث كان ظهور مناجم القصدير التي أمنت الشهرة لـ « مالاكا » . فتدخل البريطانيون حين حدثت الاضطرابات بين عمال المناجم الصينيين في « بيراك » ؛ وقضوا في الوقت نفسه على اعمال القرصنة الماليزية

في تلك الجهات .

وكانت جزيرة «بنانغ»، التي احتلت في السنة ١٧٨٦ ، قد أثارت اهتمام ولسلي الذي سيعرف باسم ولنغتون ، فجددت « شركة الصهر المحدودة » تنقية القصدير في المعمل الذي كان الصينيون قد أسسوه فيها . ولكن سنغافورة فاقتها اهمية الى حد بعيد . فمنذ ان ابتاعها « رافلز » ، ممثل شركة الهند ، من سلطان جوهور ، أصبحت قرية الصيادين هذه ، المحاطة بالمستنقعات والمياه ، سوقا تجارية خارجية عظيمة تدفق عليها كل من تستهويهم التجارة ، والعمل في الزراعة والمناجم بموجب عقد اجار لمدة ثلاثمائة يوم . وفي السنة ١٨٦٩ احصى « لودوفيك دي بوفوار » في برج بابل هذا ١٠٠ الف صيني و٢٣ الف ماليزي و ١٥ الف هندي و ٧ آلاف جاواني و ٦ آلاف عربي وارمنياً وفرساً ويهودا ، وبضع مئات من الاوروبيين فقط . وقد بلغ عدد سكانها ١٦٠ الف نسمة في السنة ١٨٩٠ . وكان الناس يتجولون فيها بواسطة الحافلة الكهربائية أو الـ « جنريكيشا » اليابانية ـ كرسي ذو عجلتين يجره العامل الآسيوي الذي يضنيه هذا العمل . ومنذ السنة ١٩٠٠ اكتشف مصدر جديد للثروة هو مغارس اشجار المطاط التي اجتذبت رؤوس اموال كبرى ويداً عاملة وفيرة . وبفضل هذه القاعدة البحرية، راقبت بريطانيا العظمى مستعمرات المضائق القريبة من اليابسة وحلف الدول الماليزية الاسلامية المحافظة على سلاطينها وراجاواتها . فوطدت تفوقها ونفوذها بين المحيط الهندي وبحار الشرق الاقصى عند مداخل الارخبيل الاندونيسي الواسع الاطراف .

شعوب الانسولند

ان الارخبيل الذى اعادته بريطانيا العظمى لهولندا في السنة ١٨١٥ يجمع بين العالم الاوقيانوسي وآسيا معاً . وهو يقوم بين خطي السرطان والجدي ويؤلف الى الغرب جزءاً من منطقة الارياح الموسمية ويضم الى الشرق جزراً عديدة اكثر جفافاً . وتتجاور فيه مناطق مكتظة بالسكان ومناطق شبه مقفرة وتجانب حضارات زراعة الارز المتقدمة التي يتعاطاها اهل القرار حضارات الشعوب البدائية المتأخرة . وقد جاءه الاسلام من آسيا واقتطع فيه مناطق واسعة كثيرة السكان ، ولكن التأثيرات البراهمانية والبوذية القديمة قد طبعت روح البلدان الانسولندية ولغتها وفنها وتنظيمها بطابع لايطمس ولا ينطمس .

هنا كما في كافة انحاء آسيا القريبة ، تعاطى السكان البدائيون قطف الثمار والقنص والصيد . الا انهم تطوروا احياناً : ونورد هنا مثل الـ « كو ـ بو » في سومطرا الذين تحولوا الى زراعة الارز . ولم يختلف نوع معيشة بعض الشعوب الاندونيسية اختلافاً كبيراً : كالـ « باساب » في بورنيو مثلاً . ولكن معظم هذه الشعوب زاول اقله زراعة الـ « لادانغ » في الاراضي الحرجية المحرقة : هذا ما فعله الـ « داياك » في بورنيو الذين لم يؤمنوا معيشتهم من زوارقهم او من جمع محاصيل الغابات او من طحين نخل الهند ؛ وهكذا فعل كذلك الـ « باتاك » في سومطرا الذين اهتدى ربعهم الى الدين المسيحي على ايدي المرسلين اللوثريين . وانتشرت في معظم المناطق

الجبلية زراعة الـ « ساوا » المعول فيها على المياه المخزنة ؛ وقد نهضت بها الجواميس في الغرب والثيران في الشرق ؛ ولكنها استلزمت نقل الغراس ونزع الاعشاب المضرة ؛ وثبتت الفلاح في ارضه : فغالباً ما بني المسكن على الاوتاد وتحصنت القرية . وانتشرت كذلك في كل مكان تقنيات صناعة الخشب اليدوية وصناعة الخزف وصناعة المذاري والسلال ؛ واشتهرت شفار الخناجر المعروفة بالخناجر المالیزية ومجوهرات سلطنة « برونيي » في شمالي بورنيو .

المـاليزيون هم الاندونيسيون المستوطنون الشواطىء الذين اختلطوا بالشعوب الاخرى وتطوروا بتأثير الحضارات الهندية والعربية والصينية ، والاوروبية اخيراً . اجل قد يحدث لهم ان يحبوا الارض ويعتنوا بزراعتها ؛ ولكنهم يؤثرون البحر والتجارة والصيد وحتى القرصنة ؛ وينهمكون بشغف في المقامرة واللعب والمنبهات . ويلفت الانتباه انك تجد في جاوا وحدها الامثلة الثلاثة ، سوداني الغرب الذي يناقض بطبعه الخشن جاواني الوسط الهادىء الكسول ، بينا يبذل المادوري الشرقي ، اليابس الطينة ، مزيداً من الجهد في العمل .

ان الحضارة الهندية الغنية بذكرياتها قد عرفت الديمومة في وسط جاوا بابنيتها وشغل المعادن الثمينة والرقصات والمسرح « واجانغ » . وخلفت كذلك الطبقة المقفلة وروح الطاعة للراجا . وفي بالي حافظت الديانة البراهمانية على حرارتها التي جعلها الايمان المتأصل بالارواح اشد تحميسا وتهييجاً . وقد تمتع العرب ، على قلة عددهم، بنفوذ اكتسبوه من دين اصبح مسيطراً ومن مواهبهم التجارية . وقد وجدوا حتى في « المولوك » التي تصدر القرنفل والقرفة وجوز الطيب الى اوروبا . وهو اسلام غوجرات الذي انتشر في الجزر الكبرى . وكان له اشياعه المتعصبون في اتجه من أعمال شمال سومطرا وفي « بانجارسن » من اعمال جنوب بورنيو وفي لومبوك . وقد واصـل بنجاح نسبي هدي الوثنيين . وأرسل الى مكة عدداً كبيراً من الحجاج وضم اليه المهاجرين الى الهند الاسلامية . وأقام سلطنات قاومت الاوروبين مقاومة غير متعـادلة . ولم يفت الهولنديين الاستفادة من هذه الامكانات .

ارتفع عدد الصينيين من ١٠٠ الف في السنة ١٨٠٠ الى ٥٠٠ الف في السنة ١٩٠٠ . وقـد خشيهم الماليزيون ، وغالباً ما زاحموا العرب في التجارة،وكانوا وسطاء نافعين في اعين الهولنديين لاقامة العلائق بالامبراطورية السماوية ، فقتنوا املاكاً واسعة وباشروا استـثمار باطن الارض باللجوء الى العمل الالزامي .

استثمار الهند النيرلندية

ترك الهولنديون بملء رضاهم شركة الهند الشرقية « تحرث البحار». وانما اكرهوا شيئاً فشيئاً على احتلال الجزر الكبرى والصغرى احتلالاً فعلياً. وعلى الرغم من ذلك فقد حصروا مجهودهم العسكري فترة طويلة؛ الا انهم اضطروا بعد السنة ١٨٧٠ الى استباق دول ـ ألمانيا وبريطانيا العظمى في الدرجة الاولى ـ قد تنازعهم امتلاك الاقاليم التي لما يرفرف فوقها العلم الهولندي. اضف الى ذلك انهم أرغموا من جهة ثانية على جمع قواهم في سومطرا حيث

صادفوا خصوماً أقوياء . فان سلاطين اتجه ، في طرف الجزيرة الشمالي الشرقي ، قد دافعوا بعناد عن استقلال شجعه البريطانيون في البلاد . أما في جاوا فقد انتهى عهد الحروب منذ السنة ١٨٢٩ بخضوع سلطان « جوجساكارتا » . وفي بورنيو ، حيث سبقت انكلترا هولندا من الجهة الشمالية ، ثبتت هولندا اقدامها في شاطىء « بانجر ماسن » المشهور بفلفله وماسه ؛ ثم اخضعت بصعوبة المناطق الغنية بالذهب المعروفة بـ « الصينية » : سامبا ولنداك ؛ وان ما استهواها في بانجر ماسن هو الماس قبل الفلفل ؛ ولكن المناطق الداخلية في هذه الارض الكبرى بقيت بائرة ومقفرة . وكذلك لم يخضع الا « طوراجا » في « السيليب » للادارة المقامة في « ما كاسار » الى الجنوب وفي ميناهاسا الى الشمال . وعلى الرغم من قرب بالي ولومبوك من جاوا ، فانها لم تخضعا نهائيا الا في السنة ١٨٩٤ والسنة ١٩٠٨ . ولم تسيطر هولندا الا سيطرة اسمية على جزر السوند الشرقية حتى اليوم الذي جرت فيه القسمة بينها وبين البرتغال التي احتفظت بشرقي تيمور . وما عادت هولندا لتهتم بـ « فلوريس » وسومبا وممتلكاتها في غينيا الجديدة . فان عالم البابو قد أخمد همة تجار امستردام الذين اكتفوا بالمكاسب التي ما زالت المولوك توفرها لهم ؛ وقد اقتصر الاحتلال عملياً على الجزر الصغرى الغنية بالتوابل : ترنات ، باندا ، ولا سيما امبوان ، وتستثنى منها سيرام وهالما — هيرا الجبليتان والمغطاتان بالغابات . وفي الحقيقة انتقل مركز الثقل الاقتصادي نهائيا من المولوك هذه ،التي فقدت منزلتها ، الى الجزء الغربي من الانسولند ولا سيما جاوا .

اثناء الاحتلال البريطاني ، قاوم « رافلز » ، الحاكم بالوكالة ، الميثاق الاستعماري الاحتكاري وشجع التجارة الحرة واستبدل الضرائب بضريبة عقارية تحدد وفاقاً لمسح الاراضي .

بعد السنة ١٨١٥ توجب على الهولنديين بذل مجهود عسكري ومجهود مالي كبيرين . فعادوا من ثم الى الروح التجارية والاحتكار . ولم يكن المطلوب ان لا تكلف المستعمرات الوطن الام شيئاً فحسب ، بل ان توفي قسطها في اثرائه ايضاً. اضف الى ذلك ان «فان دن بوش» ، الذي كان على اتفاق مع الملك غليوم الاول ، لم يأت بجديد : فجدد هذا الاخير امتياز شركة الهند الشرقية وأعطاه شركة نيرلندية ذات امتياز ؛ وعمم نظام المزروعات الالزامية الذي لم يلغه الانكليز . فكان على الفلاح ان يعمل في الاراضي المخصصة لهذه المزروعات على ان يعفى من الضريبة العقارية. فبدا هذا البرنامج وكأنه مستوحى من الاستبداد المستنير وذهب بعضهم الى حد اعتباره برنامجاً يستهدف خير البشر .

لعل زراعة المناطق الحارة ، التي أدارها الاوروبيون وأعدوا منتجاتها للتصدير ، لم تعرف في أي مكان آخر مثل النجاح الذي عرفته . ولما كانت سياسة حكومة لاهاي لم تهدف الى تشجيع استعمار التوطين ، فهو الموظف من كان وراء نمو الاقتصاد الذي خضع لنشاط منتظم ومنطقي . فمن التطبيقات الموفقة للعلوم الطبيعية تحسين انواع البن وانتقاء اصناف القصب بغية

حمايتها من طفيلي خفي الواقح ، وتبليد الكينا البوليفية بانتظار تبليد شجرة المطاط البرازيلية . وقد وفر البن والشاي والتبغ والنيلج والسكر والفلفل والقرفة ارباحاً طائلة (فائض بلغ ٨٣٢ مليول فلورين بين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٧٧) . فكان للاختبار اثره حتى بعد ان استهدفه النقد : فان كتاب الانكليزي « موني » ، « جاوا ، او كيف يجب ان تدار المستعمرة» ، الذي صدر في السنة ١٨٦١ ، قد أثار حركة في الرأي العام اللندني من اجل ادخال النظام الى جزيرة جامايكا السائرة في طريق الهبوط والى الهند التي طولب بزراعة النيلج فيها .

ولكن التجاوزات اصبحت فاحشة . فان الرواية التي نشرها « ادوارد دويس ـ دكر » ، باسم « مولتاتولي» المستعار ، وتحت عنوان « ماكس هافلار » ، قد وفر لها مجرد علنية واسعة في السنة ١٨٦٠ ، حين كانت المبادىء المعادية للرق آخذة في الانتشار . فمنذ السنة ١٨٤٣ باتت الهند النيرلندية تعاني من الجدب ، لا بل كانت السنتان ١٨٤٩ و ١٨٥٠ سنتين مرعبتين . ولم يعد ممكناً اخفاء ابتزازات زعماء القرى الذين اعتبروا وكلاء مسؤولين والذين حصلوا على اراض وراثية مكافأة لهم على خدماتهم ، اقطعهم اياها الموظفون الهولنديون مقابل انتقاضات ، ومتعهدو المغارس ـ الذين قد يكونون صينيين احياناً : فقد فرض مئتان وحتى ثلاثمائة يوم عملاً وصودر الاشخاص لاجل تجهيز الطرقات والمرافىء ، واستمر في المطالبة بدفع الضريبة العقارية ، وما زال الوكلاء البلديون ، المختارون من بين الاقطاعيين ، يلجأون الى الاقتسارات ويجبون بقايا ضرائب السنوات السابقة .

في هذه الاثناء حدثت الازمة الاقتصادية في اوروبا بين السنة ١٨٤٥ والسنة ١٨٤٨ . وبموجب ملحق لدستور هولندا الجديد انتزعت من التاج ادارة الشؤون الاستعمارية . فكان ذلك بمثابة انكار لنظام « فان دن بوش » . وقضت قوانين زراعية بالغاء الاعمال الزراعية الالزامية ، كما زالت الحقوق التفضيلية بفضل النظام الجمركي الحر . ولكن الدولة والشركة ذات الامتياز تواريتا مجرد توار أمام بعض الشركات الرأسمالية التي لم تتخل ، من حيث المبدأ ، عن العمل الالزامي ، ولم تسلم به بادىء ذي بدء الا في زراعة الشاي والنيلج والتبغ والتوابل ، اعتباراً منها أن عدداً من هذه المنتجات اقل دخلا ؛ وعلى الرغم من ذلك فقد خصصت مساحات اضافية لزراعة شجرة البن وقصب السكر وشجرة الكينا ، كما اتسعت زراعة التبغ اتساعاً عظيماً في سومطرا ؛ ثم انخفض انتاج السكر والبن بدورهما بسبب انخفاض اسعارهما . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان رؤوس الاموال اخذت توظف في حفر آبار البترول وفي مناجم القصدير ومغارس اشجار المطاط . وتحول الانتباه ، دون ان يتحول عن جاوا ، الى الاراضي الواسعة الاخرى التي اخذت امكاناتها الكبرى تبرز شيئاً فشيئاً .

ولكن الواقع الهام ما زال الاولوية الجاوانية . ففي الجزيرة البالغة مساحتها ١٣٠ الف كيلومتر مربع ، كان عدد السكان زهاء ٢٨ مليون نسمة مقابل ٥ ملايين في أوائل القرن : ومما يجعل هذه الكثافة جديرة بالاعتبار ان جزر الارخبيل الاخرى كانت شبه مقفرة . وقد

تباهى الهولنديون بالنتيجة التي عزوها الى ظروف صحية وغذائية دونها الظروف المتوفـــرة للهند . اما الحقيقة فهي ان جاوا ، المتوسطة المساحة ، كانت أفضل إعداداً لادارة حازمـــة ولتجهيز أوفر دخلا . أضف الى ذلك ان خبرة دائرة الشؤون المائية في هولندا قد ساعـــدت كثيراً على تجنب تجدد المجاعات الكبرى بفضل تحقيق مشروع ري عظيم . اجل لم يدخـــل المدرسة سوى أقلية ضئيلة ، ولكن التلقيح ضد الجدري قد اعتمد بنجاح، والكوليرا والطاعون قد كوفحا ببعض الجدوى ايضاً . ولا مراء كذلك في نفعية المستعمر ، ولكنه احترم النظـام الاجتماعي جهد الامكان مكتفياً بالتوفيق بينه وبين حاجاته الخاصة . وعلى غرار البريطـانيين في الهند ، احسن معاملة السلاطين الذين قباوا بخدمته : ٤ فقط في جاوا ، ولا اقل من ١٤٣ في سومطرا . وقد ذكر « بوفرار » ان سلاطين جاوا انما هم « رهائن عاجزة رفعها المستعمرون على قواعد مرتفعة بغية تمويه الميثاق المعظم الذي يربط ، بالقوة والمحبة معا ، بين العرق المسود وأسياده الاوروبيين » . واحيط الوكلاء بالاحترام وأغدق عليهم المال ، ولكنهم كانوا عرضـة للعزل ، وقد اختيروا من بين العائلات الكبرى بغية نقل رغبات البيض الى زعماء القرى الذين مارسوا السلطة الفعلية الوحيدة برقابة الموظفين النيرلنديين .

ادار هذا الاستعمار عدد محدود جداً من الهولنديين لم يجاوز ٦٠ الفاً مقابل ٣٠٠ الـف صيني وزهاء ٣٠ مليون بلدي . وقد بقيت الدوائر والمخازن في باتافيا قريبة من المدينة القديمـة والمرفأ . ولكن المدن المرتفعة ، ك « ولـتردن » المشهورة بمساكنهـا المحفوفـــة بالحدائق ، و « بويتنزورغ » حيث يقيم الحاكم العام ، قد وفرت لمواليد الوطن الام الرفاهية والصحـة في منطقة استوائية المناخ .

نهاية السيطرة الاسبانية في الفيليبين

على نقيض الهولنديين ، حاول الاسبانيون ، في ممتلكاتهم الفيليبينية القديمة ، تمثيل السكان البلديين . فقـــد نجح اكليروس غيور وقوي في تبشير ال « تاغال » اللطفاء . ولكنه تمثيل على بعض السطحيـــة في الواقع : اذ ان عدم اكتراث الشعب النسبي قد سهل عمل « الاب » الذي حاول من جهة ثانية حماية رعيته من الزعيم البلدي . وتميزت الادارة بالخمول والبلادة . فلم تقرر مدريـد الاستيلاء على « مندناوو » و « جولو » حيث سيطر الاسلام في اوساط ال « موروس » (الذين يقابلهم الهنود) الا رداً على احتلال بورنيو وسيليب احتلالا فعليا . وبقي داخل « لوسون » موطن ال « ايفوغاوو » ، « المتوحشين » الذين برعوا في زراعة الارز في السطوح الترابية المتعاقبة .

تبدو الحياة في مانيلا مرحة وميسورة . ولكن التجارة ليست في ايدي الاسبانيين : فمنذ السنة ١٨١١ لا تتجه أية سفينة كبيرة نحـــو اسبانيا الجديدة ، بيـــنما تنقل السفن الانكليزية والاميركية ال « اباكا » (او قنب مانيلا) والسكر ، وتأتي بالارز والنسائج . وبالنظر الى تزايد عدد السكان تزايداً سريعاً (بلغوا ٥ ملايين في السنة ١٨٩٠) ، يتفاقم الشقاء والضيقـة

وفي السنة ١٨٧٢ تستلزم خطورة الاضطرابات إرسال قوى مسلحة اضافية . وفي عهد لاحق تتسبب ثلاثة حصائد ماحلة متوالية في جدوبة وعوز خطيرين .

نشأت طبقة خلاسية انيقة تلمّ بالاسبانية ، لم تخف استياءها من تهامل الوطن الام وامتيازات الاكليروس . والحال نفت مدريد بدون تروّ الى لوسون بعض المنادين بالحرية والاباحيين والماسونيين ، الذين اسهموا في نشر فكرة محاربة الاكليروس . وفي السنة ١٨٩٦ ، اعلنت بعض الجمعيات السرية (« كاتيبونام ») ثورة شاملة لم تقمع بسهولة ؛ لا بل ان الثوار، بقيادة اغينالدو، لم يلقوا السلاح الا بعد الحصول على وعد ببعض الاصلاحات . وحين لم يتحقق الوعد المقطوع لهم ، تحولوا الى الاميركيين الذين ساعدوهم على طرد الاسبانيين . فخاب املهم مرة أخرى اذ ان الاميركيين رفضوا التخلي عن الارخبيل . فنشب آنذاك صراع جديد ضار ؛ ولكن الفيلبينيين هزموا في السنة ١٩٠٢ فاستبدلوا نيراً بآخر .

الدول السيامية

كان احد الشعوب الـ « تاي » اوفر حظاً من جيرانه بنجاته من الوصاية الاستعمارية . وهو مدين بهذه النعمة لموقعه الجغرافي في وسط شبه الجزيرة الهندية الصينية، بين بورما الخاضعة للسيطرة البريطانية، والجزء الشرقي من شبه الجزيرة هذه الذي احتلته فرنسا .

تنطبق سيام جغرافيا على حوض « مينام » الذي استوطنه الـ « تاي » واسسوا فيه عدداً من الممالك حول « كسينغماي » في الشمال و « افو – تيا » في الجنوب . ثم حدث ان هَزم البورمانيون السياميين واخضعوهم ، فأسس هؤلاء إمارة جديدة مركزها بانكوك ، وباشرت سلالتهم الجديدة (سلالة شاكري) حركة توسعية باتجاه نهر ميكونغ وشبه الجزيرة الماليزية مخضعين في الوقت نفسه المنطقتين الجنوبيتين الجبليتين : مينام العليا ومينغ . وفي عهد مونغكوت اقفلوا حدودهم في وجه الارساليات التبشيرية المسيحية ، ولكنهم وقعوا معاهدات تجارية مع الدول الاوروبية وحاربوا فيتنام التي تقدمت بدورها نحو الغرب انطلاقاً من الجبال الأنامية من اجل السيطرة على كمبوديا. وتوصلوا في فترة من الزمن الى السيطرة على دول لاوس . وبُعيد التدخل البريطاني في « بيغو » ونزول الفرنسيين في كوشنشين ، اختار « شُ ونلالونغكورن » ، الذي ربته امرأة انكليزية وعلم اولاده في انكلترا ، الاعتماد نهائياً على لندن : فجهز بعض السفن الصغيرة بالمدافع وزود جيوشه ببنادق « موزر » . وحين اصر على الاحتفاظ بولايتي « باتمبانغ » و « سيمرياب » الكمبوديتين سعت ملكية « بنوم – بنه » وراء الاعتماد على فرنسا . فاضطر الى التراجع في السنة ١٨٩٣ ، ولكنه احتفظ بمنفذ عريض الى الميكونغ عبر حوض « سيمون » .

لم يكن عدد سكان سيام مرتفعاً – ستة ملايين نسمة (اي بمعدل ١٠ في الكيلومتر المربع) – وقد شمل ثلثاً من التاي الودعاء والصبراء والجاملين والراغبين في الاحتفالات والدائنين ببوذية تتفق وسلطة الرهبان ، وثلثاً آخر من الصينيين ارباب الاعمال في بانكوك ، وثلثاً اخيراً من الاقليات البورمانية والماليزية واللاوسية المقيمة عند حدود البلاد . وكانت الدولة السيامية

ملكية بطريركية : فان الملك ، « سيد الاشخاص والممتلكات » ، يتولى الحكم مع طبقة من النبلاء ، بينما تفرض على جماهير الفلاحين اعمال التسخير الملكية التي توازي شهرين أو ثلاثة اشهر عملاً . وقد صدّرت البلاد الارز وخشب التك . وافتقرت زمناً طويلاً الى الطرقات والخطوط الحديدية ، ولكن مؤسسة المانية جهزتها بشبكة تلغرافية . وقد تأمنت علائقها الاقتصادية بالخارج بواسطة سنغافوره .

فيتنام ولاوس وكمبوديا قبل التدخل الفرنسي

في الشرق ، كما في الغرب والوسط ، تبرز المضادة القوية بين الاراضي المنخفضة والجبال في شبه جزيرة الهند الصينية هذه التي تنازعها — كما يدل على ذلك اسمها — النفوذان الهندي والصيني . واذا كان النفوذ الاول قد اتسع في حوضي مينام وميكونغ في عهد الامبراطورية الخميرية ، فان ردة الفعل التي حدثت لمصلحة النفوذ الثاني توافق تقدم الفيتناميين على طول الساحل الشرقي وفي دلتا الانهر . اما التاي — سواء اعتنقوا البراهمانية ام لا — والبدائيين فقد احتموا بالجبال .

ان التجمعات البشرية الكثيفة في دلتا الانهر قد اعطت الشعب الفيتنامي ، المزدحم فيها ، تفوقاً لا جدال فيه . فحوالي السنة ١٨٩٠ قدرت كثافة السكان في تونكين بـ ٥٠ نسمة في الكيلومتر المربع ، وفي كوشنشين بـ ٣٠ ، وفي آنام بين ٢٠ و ٣٠ ، وجلهم في البلدان الثلاث من الفيتناميين ، مقابل ١٠ فقط في كمبوديا و ٣ في لاوس ؛ وبلغت الكثافة بين ١٥٠ و٢٠٠ في دلتا النهر الاحمر . اما في كمبوديا فقد ضم سهل « بنوم — بنه » ثلاثة ارباع سكان المملكة.

خلال النصف الاول من القرن التاسع عشر ، وبينما كانت الدولة السيامية آخذة في التجدد في حوض مينام ،توطدت شيئاً فشيئاً اركان امبراطورية فيتنامية مرتكزة الى امتلاك تونكين في الشمال وانّام في الوسط و كوشنشين في الجنوب . وقد نهض بهذا العمل « نغوين — انه » الذي حمل بعد ذلك اسم « جيا — لونغ » ، وكان اشهر ممثل لسلالة نغوين التي تولت الحكم في هويه . فطلب اسلحة من الفرنسيين من اجل تحقيق الوحدة ؛ ثم ولى وجهه شطر الصين ليلتمس منها التنصيب التقليدي وقبل منها باسم فيتنام (ومعناها بلاد الجنوب) واقتبس عنها مجموعة قوانينها وتنظيمها السياسي — الاداري وسخر النظام لاعادة بناء السدود في تونكين وانشاء الطرق وتخزين الارز . فتجبر ورفض هدايا لويس الثامن عشر ولكنه عرف الجميل فأكرم الفرنسيين الباقين في خدمته .

تربع من ثم على عرش فيتنام ملك مارس ، على غرار امبراطور الصين ، سلطة مستمدة من السماء ، وكان عليه ممارستها من اجل خير كافة رعاياه . ولكنه استند عمليا الى المثقفين المختارين عن طريق المباراة بين اولئك الذين حصلوا العلم في مدرسة تلقن الواجبات نحو العائلة والدولة . وأسهمت روح القانون ، الذي نشر في السنة ١٨١٢ ، في تحويل نشاط هذا الحكم

شطر التقليد الفلسفي والاخلاقي بالتفضيل على التجديدات التقنية . فاصبح واجب الملكية المطلقة ، والحالة هذه ، ضمان حياة الجماعة المرتكزة الى زراعة الارز وعبادة الجدود .

استلزمت زراعة الارز المنتجة طاقة بشرية عظيمة ، اذ ان الصيد والصناعة اليدوية ما كانا ليوفرا سوى دخول محدودة وان كانت جليلة الفائدة . وقامت في كوشنشين ، المحتلة حديثاً ، املاك كبرى كان مزارعوها (تاديان) المدينون تحت رحمة المرابين. وقد شد التضامن الضروري من أجل تنظيم العمل روابط الجماعة ، واتاحت التعاونيات (هوي) مواجهة الحاجات الملحة . وألف الـ « هو » او الـ « تو » الخلية العائلية التي تكتنف حياة الفرد في جميع مظاهرها ؛ وما زالت السلطة الأبوية اقوى سلطة حتى بعد ان حد منها قانون جيا - لونغ ؛ وقد جاء في احد الامثال السائرة ان سلطة الملك تنحني امام العرف المحلي .

تحذر خلفاء جيا - لونغ من مخالطة الاوروبيين ، بدافع من حرصهم على صيانة مؤسسات امبراطوريتهم ، فانتهجوا سياسة اضطهاد المرسلين وحظروا المسيحية . وقد جاء في مرسوم السنة ١٨٣٣ ان « هذه الديانة مجموعة من الأكاذيب » . وجزم « تو - دوك » بدوره في السنة ١٨٥٠ بانها « ديانة فاسدة لانها لا تنطوي على واجب عبادة الانسباء المتوفين » . لذلك ارتدت حملة السنة ١٨٥٨ ، التي استهلت التدخل الفرنسي في شؤون بلاد يطلق عليها الغرب اسم انام ، طابع الحرب الصليبية .

لم يبق من الامبراطورية الخيرية القديمة سوى مملكة على بعض الصفر مقتصرة على منطقة الميكونغ بين كوشنشين وشلالات « خون » . وبعد ان فقدت كوشنشين،اي منفذها الى البحر ، تعرضت هذه المملكة لغزو السياميين المتقدمين حتى « تونلي - ساب » . ثم خضعت لسيطرة سيامية فيتنامية مشتركة عقبتها حماية سيامية حقيقية . ولم يتمكن الملك « نورودوم » من التخلص من وصاية بانكوك الا بطلب حماية فرنسا .

بموجب حماية السنة ١٨٦٣ حق لفرنسا ان تتمثل بمقيم عام في بنوم - بنه كما حصلت على حرية التجارة والتملك لمواطنيها وحرية العبادة والتعليم للكنيسة الكاثوليكية . ولم يطرأ في الظاهر اي تبديل على التنظيم التسلسلي الذي يضمن تلاحم الدولة . ولكن هذه الاخيرة فتّ في عضدها بفعل خلافات العائلة الملكية ودسائس الزبانية التي توجب على السلالة مراعاة جانبها . ولم تتصف الحياة العائلية بصفتها الالزامية في فيتنام ، وقد حمل الفرد اسماً شخصياً . فتوزع السكان ، ولم تعرف زراعة الارز نشاطها في دلتا الانهر . آثر الكمبودي تربية الثيران والابقار الهندية ، والصيد في البحيرة الكبرى الغنية بالاسماك ، والقبض على الفيلة وترويضها. وتميزت البلاد في الدرجة الاولى بروح بوذية تأملية هي روح « المركب الصغير » . وقد وفر مثل هذه العبادة تعزية كبرى للمؤمنين. فان هذا الشعب الوديع والبليد والمولع من جهة ثانية بالرقص والمسرح والموسيقى قد انحنى دون مقاومة عنيدة امام الاحتلال الاوروبي .

اختلط الـ « مان » والـ « ميو » بالشعبين اللذين اتيا من الصين وعاشا حياة بدوية زراعية تعرف

بـ « راي » ، وواصلوا اغاراتهم عبر الجبال المرتفعة خلال النصف الاول من القرن . وتجمعوا ، شان التاي والـ « موونغ » ، في الوديان اللاوسية حيث يزرع الارز بمزيد من السهولة . وقد توفرت لهؤلاء الأخيرين تقنيات اكثر تطوراً من تقنيات الجبليين الذين لحقوا بهم ، او من تقنيات البدائيين (هؤلاء الـ « خا » هم انفسهم الـ « موي » الذين يتكلم عنهم الفيتناميون ، والـ « بنونــــغ » الذين يتكلم عنهم الكمبوديون ، وقد انتشروا حتى في انام الجنوبية بين مجاز « آي ـ لاو » والـ « دوناي ») . وان ما ميز التاي والموونغ اجتماعياً هو التنظيم الاقطاعي الذي بموجبه زرع الاسياد ارزهم بتسخير الفلاحين وأخضعوا الخا لنظام الفدادية . اما التاي الذين تأثروا تأثراً عميقاً بالروح البوذية وعاشوا في سهول الاحواض فمعيشتهم شبيهة بمعيشة الكمبوديين . واما المرأة فمنفتاحة وتحب التزين وتتمتع بحرية كبرى ، وتسكن مع زوجها في بيت اهلها .

ان تقسيم البلاد الطبيعي ليفسر تجزئتها الى امارات عجزت ابداً عن الاتحاد في دولة واحدة . وعلى غرار كمبوديا ، تعرضت اللاوس لغزوات السياميين والفيتناميين معــاً بسبب رغبة هؤلاء واولئك في الوصول الى الميكونــغ الاوسط . ولكن نائب القنصل الفرنسي ، « اوغست بافي » توفق الى وصل تونكين ولاوس وادخال الميو والتاي الجبليين في منطقة النفوذ الفرنسي . فوضعت لاوس تحت الحماية الفرنسية في السنة ١٨٩٠ ، وانحنت سيام في السنة ١٨٩٣ .

اوائل عهد الهند الصينية الفرنسية

في الوقت الذي تحررت فيه الضفة الشرقية لميكونــــغ الاوسط من السيطرة السيامية ، انجزت فرنسا تأسيس اتحاد هندو — صيني ضم تحت اسم الهند الصينية بلداناً وشعوباً غير متلاحمة .

توفق امبرالات الامبراطورية الثانية ، بوسائل محدودة جداً ، وبمناسبة حرب ضد الصين ، الى احتلال نصف كوشنشين ؛ وبعد ذلك بفترة قصيرة سقط النصف الثاني بدون قتال . ولم تستلزم الحماية على كمبوديا عملية عسكرية . ولكن الاستيلاء على انام وتونكين كان من الصعوبة بمكان : اذ لم يعتمد الامبراطور « تو — دوك » على مساندة الصينيين فحسب ، بل توجب على الجيش الفرنسي اجتياز مناطق جبلية وعرة والمحاربة في مناطق نائية قاسية المناخ مجهولة الموارد . فحتى بعد انحناء الصين ، وبعد اقامة الحماية في تونكين وانام ، استمر القتال حتى السنة ١٨٩٦ ، عنيفاً ومضنياً ، في الجبال القريبة من الحدود الصينية ، ولم تتوقف المقاومة الا بعــــد ان طبق « غالياني » ورئيس اركان حربه « ليوتي » خطة « بقعة الزيت » . واقتضى من جهة ثانية قمع ثورة نشبت في شمالي انام . وحاولت كمبوديا نفسها القيام بثورة للتخلص من معاهدة حماية جديــدة قاسية الشروط . وهكذا توصلت فرنسا ، بعــد صراع ودبلوماسية استغرقا اربعين سنة ، الى السيطرة على امبراطورية اوسع مساحة من اراضيها ، يتراوح سكانها بين ١٢ و ١٤ مليونــــاً موزعين توزعاً غير متساو على انحاء الهند الصينية المختلفة .

لم يكن لفرنسا مـــذهب استعماري في آسيا . فحتى السنة ١٨٨٧ ، ارتبطت كوشنشين

وكمبوديا بوزارة الحربية والمستعمرات ، وانام وتونكين بوزارة الخارجية . ولما كانت سياسة الحماية بواسطة الزعماء البلديين سياسة ذات حظوة حين تم الاستيلاء على كوشنشين ، عمد الاميرال « بونار » ، على نقيض سلفه الاميرال « شارنر » ، الى اعادة الادارة المحلية الى زعماء القرى . ولكن اندلاع الثورة اوقف الاختبار . فاتجه الاميرال « دي لا غاردبير » حينذاك الى اعتماد طريقة الابقاء على السلطات البلدية وربطها بادارات فرنسية يشرف عليها حاكم يعاونه مجلس استشاري خاص . ولما كان القانون الفرنسي لا يطبق الا على الفرنسيين ، ابقي على القانون المحلي بعد ان خففت العقوبات التي يفرضها . واتاحت اعمال المساحة توزيع الضريبة توزيعاً عادلاً ، وتألفت بعض فرق الجيش الانامية . وفي السنة ١٨٧٩ ، بعد ان آلت الادارة الى المدنيين ، احتفظ الموظفون الفرنسيون بادارة الشؤون العامة يعاونهم الاعيان الاناميون . والغيت اعمال التسخير في الطرق ، وانما مست الحاجة الى تغذية الموازنة الاستعمارية باحتكار ادارة الافيون والمواد الكحولية وبواسطة الرسوم على تصدير الارز ؛ فحدثت بعض التجاوزات .

اصبحت الحماية اكثر تضييقاً في كمبوديا في السنة ١٨٨٤ . وحين فقد الملك حقه المانع في تلك الارض ، لم يلبث ان اصبح في وضع مالي على بعض الصعوبة .

بوشر في الوقت نفسه تطبيق نظام الحماية على امبراطورية انام . فترأس المقيم العام في « هويه » مجلس الوزراء واشرف على ادارة دوائر الجمرك والاشغال العامة . ونعمت تونكين باستقلال اداري ، كما أقرت لها موازنة خاصة . وقد حاول « بول برت » ، الفيزيولوجي النابغة والكريم الاخلاق ، استمالة عواطف السكان . فأقام علائق ودية بالامبراطور الجديد « دونغ — خانه » المتحلي بالظرافة واللطف ، الذي قربه اليه ؛ ولكنه لم يتمكن من التغلب على عداء المجلس . وخفف من وطأة اعمال التسخير ، ووزع المساعدات المالية على الولايات التي خربتها الحرب ، واعفى من الضرائب المتأخرة ، واعاد بناء السدود . وكان علمانياً ، فاحترم العبادة البلدية وأوجب احترام الحرية الدينية . ورغب في التغلب على تقليدية المثقفين ، فأسس اكاديمية تونكينية لتنشئة معاوني الادارة الفرنسية وفتح مدارس فرنسية انامية على غرار المدارس المفتوحة في كوشنشين . وبعد محاولته تحقيق التهدئة في مناطق انام الشمالية والجنوبية ، توفي بسبب اصابته بمرض الزحار . وقد قاومه بعض المهاجرين المستعمرين والزعماء المحليين معاً .

في السنة ١٨٨٧ ، ورغبة في تخفيض النفقات وتنسيق نشاط الاقاليم غير المترابطة ترابطاً وثيقاً ، وجه « أتيان » ، ووزارة المستعمرات اللوم القاسي إلى الـ « كي دورساي » ، فأنشأ البرلمان الفرنسي الاتحاد الهندي الصيني وأسند ادارته إلى حاكم عام. ثم ما لبثت الدولة المستعمرة ان ضمت إلى هذا الاتحاد مدن توران وهانوي وهايفونغ المحصنة الهامة . ولكن الافتقار إلى موازنة عامة شل عمل الحكام العامين الاولين الذين تعاقبوا تعاقباً سريعاً . الا ان « لانسان »

الذي آثر « على الحماية الماضية اللامبالية والجائرة » « حماية امينة على احترام القوانين والاعراف والعقيدة والتنظيم الاجتماعي والسياسي والاداري في امبراطورية آنام » ، التمس محبة رعاياه او اقله ثقتهم : فأعفي من منصبه . وكان روسو اول من استحصل على قرض استعماري فسار بالهند الصينية نحو طريقة « دومر » الحازمة .

بوشر بادىء ذي بدء استثمار مناجم الفحم في « هونغاي » . ثم اكتشفت معادن مختلفة في تونكين لم تتوفر رؤوس الاموال لاستخراجها . ونقلت شحنة الشاي الاولى إلى فرنسا في السنة ١٨٩٤ . واذا كان صحيحاً من جهة ثانية ان الشبكة التلغـــرافية قد انشئت وان سايغون نمت نمواً اوروبياً ، وان هايفونغ جهز ميناؤها ، فان هانوي ليست بعد سوى مجموعة من القرى المتجاورة التي تحتاج الى مجهود تجهيزي كبير . واذا فاقت صادرات كوشنشين وارداتها ، فان كفة الواردات في الميزان التجاري في انآم وتونكين مـــا زالت راجحة .

ويجب الاعتراف بان البؤس قد تعاظم بتزايد الكثافة وان الاعيان لم يلقوا سلاحهم الا ظاهرياً .

الامبراطورية الصينية القـــديمة

بينما انتهت امبراطورية الهند المغولية الى الانحلال في القرن التاسع عشر ، اعادت السلالة المنشورية بناء الامـــبراطورية الصينية ، اوسع الدول الآسيوية اطلاقا الى حـــد بعيد . وقد ضمت اليها ممتلكات خارجية واسعة – منشوريا ، منغوليا سن – كيانغ ، تيبت – امتت حمـــايتها من جهة بدو البورات ، فناءت بثقلها على مصائر الهنـــد الصينية ، وتدخلت في النيبال ، وعقدت مع روسيا اتفاقات تعترف لها بحـــدود الـ « آمور » وخط « ساينسك » والالتاي ، فكانت في الحقيقة « ارض الوسط » (تشونغ كوو) ، او « الامـــبراطورية الكبيرة الخالصة » (تا تسنغ كوو) ، البالغة مساحتها ١١ مليون كيلومـــتر مربع ونصف المليون ، والمحمية من السماء . ومع ان شخصاً واحداً لا يستطيع تقدير عدد سكانها ، فبمقدورنا ان نحلها في المرتبة العددية الاولى (بين ٣٠٠ و ٤٠٠ مليون نسمة) .

وألفت كذلك أكبر مجتمع قروي في العالم ، منكب خير انكباب على العمل من أجل تأمين الغذاء اليومي في إطاري العائلة والقرية وفي كنف الجـــدود ، وناظر الى السلطة الامبراطورية الحامية كا الى شر لا بد منه . واذا لم يكن هناك من شعور قومي ، فان هذه الجماعات العقارية الكثيرة قد أحست ، بثقة وزهو ، بشعور انتسابها الى حضارة محـــترمة يكمن سر تفوقها في انها تعرف وتحفظ سر كل حكمة . يضاف الى ذلك انها استمدت قوتها من ضخامة عدد السكان نفسها . وأساغت الفاتح بالسهولة نفسها التي ازدرت بها بالاجنبي . وقـــد عرفت البقاء بالرغم من الكوارث الطبيعية والثورات السياسية ، حتى ولو اوجبت عليها دفـــع اثقل ضريبة ممكنة للبؤس والمرض والمجاعة .

على غرار معظم السلالات التي اختارتها الصين ، او بالاحرى قبلت بها ، شـــعرت السلالة

المنشورية ببعدها عن الشعب وارتباطها به في آن واحد بميثاق محبة متبادلة. وقد عاش الامبراطور في بكين في المدينة المحرمة ، اسير عادات بروتوكولية مهيبة تحميه وتراقبه معاً « البيارق » التي تسيطر حامياتها العسكرية على الولايات . ولكنه « هوانغ – تي » ، اي انه يعرف الخير ويستطيع توفيره . ويكفيه التقيد بالاوامر المدونة في الكتب الكونفوشيوسية التي تقوم مقام الدستور ، شأن الاوامر القرآنية . ومن حيث لم تكن هناك طبقة اشراف وراثية ، عول على الاستنهال في تعيين من يطالب منه خدمة السلطة اي تحديد الكلمة الواجب قولها والحركة الواجب القيام بها والعادة الواجب اتباعها : ابواب الامتحان مفتوحة للجميع وبمكنة افقر الناس ان يصبح نائب الملك . ولكن كبار الموظفين ، بالاضافة الى اختيارهم بنتيجة امتحان عن ظهر القلب ، وبدون اي شرط خلقي او ذهني ، قد الّفوا في الواقع هيئة متسلسلة السلطات ، ملزمة بالشكليات الضيقة ، متعودة نقل الاوامر ، ومسؤولة تجاه الرؤساء لا المرؤوسين . وعلى الرغم من واجب التجمل بالفضيلة ، لم يكن بالامكان تلافي الفساد . فكيف يؤمن الموظف معيشته ؟ لقد كان يتقاضى مرتباً ضئيلاً فاستغل نفوذه وقبض اجور خدماته وابتز اموال المكلفين . أضف إلى ذلك ان السلطة اعترفت ببيع الوظائف ، لا بل حددت اسعارها بمرسوم صدر في السنة ١٨٣٨ .

بيد ان آفة الدولة وآفة الموظفين الكبرى كانت الفقر والافلاس . فلا عجب من ثم إذا سادت الفوضى سيادة مزمنة . واذا صح انها كانت دواء لتطلبات السلطات ، فانها لم تحم الفلاح من الاختلاسات ، بل تخلت عنه للاقتسارات . فيكفي ان يكون الامبراطور ضعيفاً او محاطاً بمعاونين فاسدين حتى تتسع وتنمو . ويبدو ان الاباطرة المنشوريين كانوا بدورهم ، منذ اواخر القرن الثامن عشر ، ضحايا حياة البلاط الملأى بالدسائس الوحشية في معظم الاحيان . ولما كان الامبراطور يختار خليفته على هواه ، فقد اطلق العنان للمزاحمات وهو بعد في قيد الحياة ؛ وفي حال القصور الشرعي تنتهي السلطة إلى من يعرف كيف يضع يده عليها ، رجلا كان ام امرأة . لذلك ما زالت الاحبولة الحريرية هي طريقة الحكم . فيستنتج من كل ذلك ان ظاهر النظام ليس الا وهما خادعاً : ولا تستطيع شتى اشكال التهذيب المدروسة اخفاء التشويش الذي يشل الجهاز الحاكم .

وهنالك واقع خطير آخر : اعني به تدني عدد صغار الفلاحين الملاكين وانتقال الارض تدريجياً إلى ايدي ممثلي الادارة الذين يتعاطون المراباة اثناء جمعهم الضريبة واحقاقهم الحق . وكان من هزال الامن ان الكوارث الطبيعية والاضطرابات تعرض اراضي الجماعات لجشع الطامعين باحتكار الارض . اجل لقد حارب « كيان – يونغ » كبار الملاكين ؛ ولكن هؤلاء عادوا من بعده الى الهجوم بمحالفهم تزايد عدد السكان الذي حد من مساحة الاملاك الصغرى ومن موارد كل عائلة . وزاد في الطين بلة ان نمو التجارة مع الخارج ادى الى انخفاض قيمة الاراضي : فاستفاد اثرياء التجار من ذلك وضاربوا على قيمة الـ « تايل » الفضي التي تختلف بين سنة واخرى وبين

منطقة واخرى ، وربحوا كذلك من بيع السلع التي يبيعها الفلاح - وهو غالباً ما يكون صناعياً يدوياً - في المدينة مقابل بعض النقود النحاسية (سابيك) ، دون ان يفضي ذلك إلى تملص النشاط الصناعي من قيود تنظيمه الخانق. وقد نجم عن ارتقاء هؤلاء الاعيان والزعماء الريفيين تقوية الاثرة الاقليمية التي قاومت ابدا قيام سلطة مركزية على بعض القوة ، بسبب اتساع مساحة الامبراطورية .

لا تقوى وحدة الحضارة لعمري على إلغاء التنوع . وفي صين الولايات الثمانية عشر ، تختلف الصين الشمالية عن الصين الجنوبية . فان تربة الاولى الصفراء والخصابة لم تكفها مؤونة الجماعات بسبب جفافها وافتقارها الى الاسمدة وفيضانات الانهر الكبرى المخربة احياناً . وان هذه الصين التي لا تنتج حريراً جيداً ، والتي لا تنعشها الحياة البحرية قط ، عمدت ابداً الى مهاجمة المرتفعات الغربية ، وتطلعت الى « شان - سي » الغنية بالمناجم ، والمنحدرات التي يستطيع الاستعمار الريفي استثمارها ؛ صين معرضة لهجمات البدو ، اختارت السلالة المنشورية الاقامة فيها ، قريبا من منشوريا التي توفر لها جنود الحاميات العسكرية . ويقابلها صين حارة ورطبة وكثيرة النواتىء . وقد توفرت للشمال طرقات ومسالك تسير عليها العربة الثقيلة ذات العجلتين والنقالة الشراعية ؛ اما هنا فتوجب اللجوء الى الحمل المضني او الى الزورق الشراعي الذي امن المعيشة عن طريق الصيد والملاحة لعدد كبير عائم من السكان . وعاشت « هو - نان » في عزلة كارهة الاجانب ؛ وتوفرت ا « تشي - كيانغ » مرافىء كثيرة السكان والحركة ، ومنحدرات تغطيها اشجار الشاي ؛ وهناك « نغان - هوي » و « كيانغ - سو » و «فو - كيان» - ويطلق عليها اسم « الازهار العجيبة الثلاث » - التي تتعاطى كلها زراعة الارز والقطن وتربية دودة القز ؛ والى اقصى الجنوب قامت « كوانغ - تونغ » التي استفادت من الاحتكار الذي استحصل عليه تجارها وتعاملت مع الاوروبيين عن طريق « ماكاو » .

الى الغرب من المناطق الكثيفة السكان ، انتصبت مناطق الحدود الجبلية القليلة الكثافة . فقد ثبت الصينيون اقدامهم في حوض « سي - تشوان » الاحمر الاعلى الذي يشاع الكثير عن موارده المختلفة ؛ وامتدت حول هذا الحوض مناطق واسعة ما كان الصينيون ليشعروا فيها بأنهم في بلادهم حقاً : ففي قلب « كوي - تشيو » و « يونان » اللتين يجب اجتيازهما مروراً بـ «طريق العشرة آلاف سلم » لبلوغ تونكين ، يختلط الـ « لولو » والـ « ميار - تسو » والـ « تاي » بأبناء الامبراطورية السماوية الذين يكثر بينهم المسلمون ؛ وابعد الى الشمال تمتد « كان - سو » و « شن - سي » اللتان تؤلفان حدود امكانات الزراعة الصينية وتصلحان لتربية المواشي كما في البورات ، على الرغم من تربتها الرسوبية . اضف الى ذلك ان الاسلام استقر من جهة في كان - سو ، ومن جهة اخرى في يو-نان : ويبدو ان هذا التسرب المزدوج كان خطراً على بوذية وكونفوشيوسية الشرق الاقصى ، بينما وصل « الشياطين البيض » الى مداخل الصين عن طريق البحر وطريق سيبيريا في آن واحد .

دفـــاع الامبراطورية الصينية عن ممتلكاتها الخارجية

بين حملايا وسيبيريا خضع جزء كبير من آسيا الوسطى للصين منذ توسع السلالة المنشورية الجديد في القرن الثامن عشر . ولكن ما حدث هو ان بستاني السهل الاصفر اهمل هذه المساحات او تعرض لغزوات البدو الفجائية . اضف الى ذلك ان هذه الاراضي كانت منطقة استعمارية في نظر اهل القرار الصينيين المعولين في معيشتهم على الحبوب والاسماك ، دونما اكتراث لتربية المواشي التي توفر الحليب فسيطرت هنا حضارة الالبان والخيام التي استخدمت الحصان والجمل والقطاس لاعمال النقل ؛ ولو فرضنا ان الصيني عرف ساكن هذه الخلوات بالحنطة والذرة البيضاء ، لاعدها لطعامه بزبدة نامسة .

وكانت الصين موجودة في هضبة التيبت الشديدة البرد والمقفرة في ثلاثة أرباع مساحتهـا . فأرسلت اليها المقيمين او « امبوان » ؛ ونصّبت الـ « دالاي – لاما » ، زعيم أعظم طائفة بوذية تصلباً وتسلطاً ، الذي يمتلك الارض ويجبي العشر ويشرف على التجـــارة ويبيع المعجزات والصلوات . وصدرت اليها الشاي والتبغ . وأدركت اشعاع اللاما الروحي على العالم البوذي : فضمنت راحة الحجاج الذين يسلكون طريقاً مخيفة تؤدي الى التيبت من « سي – تشوان » او من « كان – سو » ؛ وراقبت علائق التيبت بالهند بواسطة مجازات لاداك ونيبال وبوتان . الا ان الاتفاق بين الانكليز ودول مناطق حملايا قد أثار حفيظتها . وحـين اضطر نائب الملك في الهند ، بعد زيارة موفد اللاما لبطرسبرغ ، رداً لزيارة بعض البوذيين الـ « بوريات » والـ « كلموك » الى التيبت ، الى الاستيلاء على سيكيم والقيام بمناورة عسكرية في لاسا في السنة ١٩٠٤ ، قبلت بكين ظاهريا باتفاق ينطوي على اقصاء كل دولة اخرى ، ولكنها عادت فاحتلت لاسا عسكريا منذ السنة ١٩١٠ . فكانت لها الكلمة الفصل مرة أخرى .

تناول الضغط الروسي مناطق الحدود الطويلة الممتدة بـين بامـــير والآمور حيث كانت الامبراطوريتان متقابلتين وجهاً لوجه . ولكنه تقابل بعيد اتضحت معالمه بتوطد سلطة القيصر على سيبيريا وتركستان الغربية . فقد وصلت الاورال ببايكال ، بين البوريات والـ « تايغا » ، وعبر الانهار الكبرى ، طريق الـ « تراكت » السيبيرية البالغة ١٦٠٠ كيلومتر طولا . وأسهـم سجن المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة في نرتشنسك ، ومعتقل « تشيتا » الذي جهزه رجال ثورة كانون الاول ، والاندفاع الجماعي وراء البحث عن الذهب في الالتاي باتجاه الـ « لينا » و الـ « فيتيم » ، واستمرار نفي المجرمين السياسيين ، في توطين السلافيين الاولين بين الـ « تونغوز » والـ « بوريات » الرعاة المتشتتين بين منغوليا والدائرة القطبية الشـــمالية . وأسس القوزاق في الوقت نفسه الـ « فويسكوس » في نقاط عدة من الحدود وتعاطوا الزراعة وتربية المواشي والقنص والصيد . وفي مؤخرتهم وسع ألوف الفلاحين الغرثى ، باتجاه الشرق ، اراضي زراعة الحبوب التي تكمل الاراضي الاوروبية السوداء ، بينما انشئت المدن الكبرى المتميزة بمساكنها الخشبية وشوارعهـا الضيقة ، « اومسك » ، و « تومسك » ، و « كراسنويارسك » ، و « اركوتسك » ، الـتي ألفت

سلسلة من المحطات نحو الشرق الاقصى . وبعد ذلك امتدت اراضي شرقي بايكال الغنية بالمناجم والمواشي ، التي تتصل بالمناطق البحرية وأماكن صيد الاسماك فيها ، وحتى بألاسكا نفسها . ومنذ السنة ١٨٩١ انشىء اطول خط حديدي في العالم بغية تأمين المواصلات في كندا الثانية هذه على غرار « الخط الكندي الباسيفيكي » ، فجاء يعبر عن تصميم روسيا القيصرية على التوسع قرب الممتلكات الصينية الخارجية ، اعني بها سن - كيانغ ومنغوليا ومنشوريا .

حرصت بكين على مراقبة طرق القوافل وطرق الغزو هذه . وان سي - كيانغ التي عرفت قديماً باسم « سرند » هي تركستان الشرقية التي اقام فيها الروس والتي تصلها بالغرب مجازات سهلة . فمن جهة تؤدي طريق الشمال (بي - لو) عبر زنغاريا وكولجا واورومتشي ، الى « لان - تشيو » ؛ ومن جهة ثانية تمر طريق الجنوب (نان - لو) ، عبر « ترك - دافان » (مرفأ الحور) ، في قشغر وتسير بموازاة التاريم الى ان تؤدي كذلك الى كان - سو وشن - سي . وان هذه الطرق التي اقام على جوانبها الرعاة وأهل القرار تمر كذلك في عدد من الواحات .

في نان - لو تولى زراعة السهول الرسوبية الضيقة اكلة خبز الحنطة او الذرة الصفراء الفارسيو المنشأ والمولعون بال « بيلاف » - الارز المتبل بالفلفل الاحمر - : جماعات سارتية شرقية ، وجماعات سوغديانية اعتمدت لهجة تركية قريبة من لهجة الاوزبك السارتيه . وكان رعاة « التنطاغ » اتراكاً ايضاً . فتطلع هؤلاء واولئك نحو الغرب الذي ابتاعوا منه الحبوب والاسلحة والادوات وباعوا منه الاصواف والجلود والطنافس واللبود . وقد سيطر على هذه المناطق اسلام غير متطلب ، اذ ان المرأة حرة ولا تتستر بالحجاب قط . وتجانبت المدينة الاسلامية والمدينة الصينية على غير تعامل . واحدق بهذه المناطق خطر خانات فرغانا . لذلك فرض اباطرة القرن الثامن عشر الجزية على زعماء القبائل هؤلاء . ولكن امتداد النفوذ الصيني كان سريع الزوال .

على غرار قشغاريا ، عانت زونغاريا الامرين من نتائج حروب الصينيين ضد المغول الغربيين ، المعروفين باسم « الوثنيين » ايضاً ، الذين ردوا في النهاية الى ما وراء الالتاي . فأقيمت حاميات عسكرية صينية في كولجا وبي - لو ؛ ووطن كبار المسؤولين الصينيين في الجهة الشمالية من تيان - شان مغولا من التوغورت الآتين من الفولغا ولا سيما من ال « دونغان » الفلاحين والصناعيين اليدويين المجتهدين ، ولكن المرتفعات بقيت مأهولة بالرعاة القازاق المسلمين والكلموك البوذيين . وما لبثت العلائق ان اقيمت بينهم وبين المراكز الروسية المبنية على طول نهر « ايلي » ، وان فتحت معاهدة كولجا ، التي ابرمتها بكين في السنة ١٨٦٠ ، ابواب ال « بي - لو » امام التجارة الاجنبية .

كانت آسيا العليا الاسلامية في حالة هيجان شديد حين اقتربت جيوش القيصر منها . ففي السنة ١٨٦٢ ، اندلعت ثورة في قشغاريا لم يلبث ان تولى قيادتها زعيم دونغاني اسمه يعقوب الذي يبدو انه سعى وراء اطماع سياسية كبرى : اعتمد على خان كوكند الذي زوده بالاسلحة

والاعتدة، وراسل سلطان الاستانة وحتى حكومة الهند، وابتغى تأسيس امبراطورية «الوثبة» جديدة تعترض الطريقين المؤديتين الى سن – كيانغ. فاحتل زونغاريا ثم سار قدماً نحو «بامير». فاعترف الروس به واستفادوا من الفرصة السانحة للاستيلاء على كولجا. ولكن الرد الصيني جاء عنيفاً منذ السنة ١٨٧٧ . فهزم يعقوب وقتل ، وتخلت روسيا عن كولجا بعد ان استحصلت على حق تعيين قناصل يمثلونها في بي – لو ونان – لو . فعمدت بكين ببراعة الى توطين جماعات منشورية وفلاحين آتين من وادي التاريم وتجاراً آتين من كان – سو وتركت للقضاة المسلمين حق الفصل في الدعاوى ، ولكنها احتفظت لنفسها بملء كافة مراكز القيادة .

اذا احدث في جامعة كازان منبر لتعليم الصينية ، فانها قد علمت اللغة المغولية أيضاً . لقد ولى الزمان الذي كان فيه الفارس المغولي يمتطي حصانه الضليع ويتسلح بالقوس والرمح ويؤسس الامبراطوريات . فان القبائل (خوشوم)، المتضامنة او المتحالفة بقيادة امرائها الوراثيين ، تعيش حياة خشنة حول الاخبية (يورت) اللبدية المرتبة بشكل « آوول » متجرعة حليب الفرس المحمض او حليب النعجة الخاثر وبائعة الاصواف من الصينيين . وقد شجعت بكين البوذية التي اضعفت الروح الحربية بحملها عدداً كبيراً من هؤلاء المتشردين على التبتل . فبات اللاماء في وجه المحاربين، خير اعوان الامبراطور الذي نصّب الخانات وأمدهم ببعض المساعدات المالية . وتمتعت اديرة « اورغا » بشهرة عظيمة ، وقد اقام الـ « جيتو – تومبا » ، الذي كان تجسيداً لبوذا ، على غرار الدالاي – لاما ، في دير « كورّن » . وقد مرت طريق الحجاج من التيبت الى منغوليا في « كوم – بوم » على مقربة من سن – ننغ حيث عاش رسول الجمعية اللاماوية . وكان لهؤلاء الرهبان فداديوهم الذين يعنون بقطعان الماشية ؛ وقد بلغوا ١٠٠٠٠٠ في اورغا. وقد ارتدت طابع الاهمية نفسه طريق الشاي الكبرى التي تؤدي من بكين الى «قلغان» والى اورغا ايضاً ، ثم تنقسم الى فرعين احدهما باتجاه بايكال والآخر باتجاه كوبدو وحوض الاوبي . وقد ذهب المستعمرون الصينيون في تقدمهم حتى مشارف « غوبي » الجنوبية حول الاوردوس . ولكن روسيا لم تبق عادمة النشاط والحركة . فقد استخدمت البوريات المغوليين وادخلتهم في فرق القوزاق وساندت « خامبا – لاما » « كياختا » التابعة لاورغا وانشأت مصلحة بريدية بين هذه المدينة و « تيان – تسن » ؛ وحاولت استمالة امراء منغوليا الخارجية الخاضعين لنفوذ الاورغا ، ولن يقر لها قرار حتى يعلنوا استقلالهم عن بكين بعد سقوط المنشوريين في السنة ١٩١١ .

الا ان المجاز المنشوري الواسع قد استهواها اكثر من كل هذه المناطق . اجل لقد اعترفت به للصين في السنة ١٨٥٨ . ولكن هذا السهل الخصب لا يمكن ان يترك الى ما لا نهاية له لرعاة وقناصة مصرّين على موقفهم العدائي لا يستثمرون المناجم والغابات ويحيطون انفسهم بمناطق حدود مقفرة تجنباً لوقوع مراعيهم في ايدي الفلاحين الصينيين الطامعين في زراعة الـ « كاو – ليانغ » والذرة البيضاء والبسلّى، وحتى الحنطة . فشجع رفع القيود المفروضة على الهجرة

تدفق المستعمرين الآتين من « بي – تشي – لي » ومن « شان – تونغ » . وسهلت الخطوط الحديدية التي بناها الروس هذا الغزو السلمي ايضاً . وفي السنة ١٨٩٥ اصبحت منشوريا لمعري موضوع تزاحم دولي منذ ان اخذت اليابان وروسيا تتنازعانها .

وفي بحار الباسيفيكي الساحلية اعتبرت الصين كذلك جزيرة فورموزا وشبه جزيرة كوريا منطقتين تابعتين لها . ففي فورموزا ـ تاي ـ وان ـ قام صينيو فو ـ كيان شيئاً فشيئاً باستعمار الاراضي ، فدفعوا امامهم ال « ايغوروت » وال « هاكا » البرابرة الذين لجأوا الى المرتفعات . وكانت « تشوسيان » ، « بلاد الهدوء الصباحي » ، مملكة خاضعة لسلطة بكين ، منعزلة جهد المستطاع ، تخشى المطامع اليابانية ، وتتصبر على السيادة الصينية النائية : وقد بلغ سكانها بين ٩ و ١٢ مليون فلاح متكاسلين يكادون لا يحصلون على قوتهم الضروري ولا يعنون العناية الكافية بطرقهم وجسورهم ، ويبيعون من الصين ال « جن ـ سانغ » ، المقوي المشهور ، والورق الذي يستخدمونه لغايات كثيرة ، ويرغبون في الملابس الزاهية . وقد كتب « دوكروك » : « ان سيول لمعمل كبير لتبييض النسج لا تتوقف فيه تكتكة المحاضيج قط ». واشتهرت البلاد بنسائها الانيقات الحريصات على العناية بشعرهن ، ورجالها الغيد اللحيانيين . وكانت ملكية مطلقة خفف من وطأتها كبار المسؤولين المثقفين ثقافة صينية . وقاومت كوريا التبشير بالديانة المسيحية ، لا بل عمدت الى اضطهاد اوجب على الغربيين القيام بمناورات بحرية في مياهها الاقليمية . ولكن الخطر احدق بها ، بعد السنة ١٨٧٠ ، من جهة اليابان التي ارغمتها على السماح لها باستخدام ثلاثة مرافيء ، على الرغم من اعتراضات الصين . وان موقع كوريا وضعفها قد جعلاها ، كما حدث من ذي قبل ، فريسة اليابان ، او أية تسلطية أخرى ، كلما عجزت الصين عن حمايتها .

تباشير التدخل الاوروبي في الصين واولى أزمات الامبراطورية الصينية ثورات ال « تايبنغ » والمسلمين

اتضح انحطاط السلطة الامبراطورية في الصين في اوائل القرن التاسع عشر . ولعل ابتزازات كبار الموظفين وتجاوزاتهم والغفلة والشنشنة العامة تفسر سوء حالة الطرق وخراب تحصينات المدن وفقدان الأمن ونقص الحبوب المتكرر في الشمال الذي جعل الحاجة اشد الحاحاً الى أرز المناطق الجنوبية . وكان كذلك لجشع كبار الملاكين العقاريين والتجار نصيبه في تفاقم سوء حالة الجماهير .

برزت منذ ذاك الحين مظاهر العداء لسلالة ال « تسنغ » ، ولا سيما في الصين الجنوبية حيث كان نفوذ الاباطرة المنشوريين ضعيفاً وحيث تأسست جمعيات سرية كثيرة (الثالوث ، النيلوفر الابيض ، السراط المستقيم) اتخذت شعاراً لها : « لنقلبن التسنغ ونعيدن المنغ » ، ولكنها لم تخف قط كراهيتها للاجنبي . الا ان تدخل الاجانب بالذات هو ما اثار الازمة ، والعون الذي تلقته بكين من هؤلاء الأجانب أنفسهم هو ما ضمن لها الخلاص .

بعد التنازلات التي سُلم بها لكراهية الأجانب ، ساءت العلائق بهؤلاء بسبب تحريم الدعاوة المسيحية (١٨١٤) ورفض التفاوض مع الدول الاوروبية على قدم المساواة . وقد شكى الأجانب من تزايد متطلبات جمعية الـ « كوهونغ » الحاصلة على احتكار التجارة في كانتون . وفي سبيل زيادة حجم مكاسبها ، حاولت شركة الهند الانكليزية ، التي كانت تشتري الشاي والخزف الصيني والحرائر والقطنيات الصفراء والصموغ ، تصريف الافيون في الصين على الرغم من المنع الذي استهدف هذا العقار . فاعترضت بكين ، واورد الامبراطور في احدى مذكراته في السنة ١٨٣٨ : « ان هذا الشعب (الانكليزي) الذي ليس لديه ما يؤمن به معيشته يسعى وراء استعباد البلدان الأخرى باضعاف سكانها اولاً ...) ، ولكن ما أقلق الحكام الصينيين اقلاقاً مماثلاً على الأقل هو انقلاب سعر المعدن الأبيض . فكان الرد من ثم على التهريب المطلق العنان الذي انصرف اليه الانكليز تحطيم صناديق الأفيون . فأفضى ذلك الى توجيه حملة عسكرية حاصرت كانتون ثم ضربت نانكين بالقنابل امام تصلب بكين. فوقّعت في نانكين في السنة ١٨٤٢ اولى « المعاهدات غير المتساوية » التي فتحت خمسة مرافىء وألغت احتكار الكوهونغ واكرهت الصين ، بالاضافة الى ذلك ، الى التخلي عن جزيرة هونغ – كونغ ودفع تعويض حربي .

ألحقت « حرب الافيون » الضرر بالصين ، ووجهت في الوقت نفسه ضربة قاسية لنفوذ السلالة المنشورية التي أعطت الدول الأخرى حق حرية التجارة في المرافىء المفتوحة . ولكن غليان الشعب تزايد باطراد . فشكى المحافظون ، الذين تألموا في كبريائهم من الذل الذي لحق بالامبراطورية السماوية ، اتفاق السلطات المبيعة مع « البرابرة » ، « تجار الأفيون والكتب المقدسة والبنادق ، وشاري العمال لمستعمراتهم . وبينما اخذ استيراد المصنوعات الاوروبية والاميركية يلحق أذى كبيراً بالصناعي اليدوي ، زاد خروج الفضة من البلاد في سوء حالة المزارعين والمكلفين الذين اضطروا الى إيفاء ما عليهم نقداً معدنياً اكثر ندرة . أجل لقد جمع تجار المرافىء الثروات ، ولكن واردات الحكومة هبطت حين توجب عليها دفع قيمة التعويض الحربي .

كانت حركة التايبنغ من ثم ثورة بؤساء وفلاحين فقراء انضم اليهم معوزو المدن والملاحون والحمالون وعمال المناجم وحتى الافاقون والقراصنة والفارون من الجندية . ولكنها جرت وراءها ، في كل مكان تقريباً ، المثقفين والملاكين العقاريين والتجار المعادين لبكين . وشاعت بعض التنبؤات حول عودة المنغ وقص ثوار كثيرون ضفيرة الشعر التي فرضها التسنغ عربونا للخضوع . وقد عرف الثوار باسم رجال « تاي ـ بنغ تيان ـ كوو » أي رجال « المملكة السماوية للسلم الاكبر » ، وهي جمعية تأسست في كوانغ ـ سي بين الفلاحين الـ « هاكا » ، الآتين من الصين الوسطى ، الواقفين في وجه الفلاحين المحليين الذين تساندهم بكين . فساروا وراء « هونغ هيو ـ شوان » الذي قرأ الكتاب المقدس وحفظ منه التوحيد وشمول مملكة الله .

وانتقدوا كونفوشيوسية كبار الموظفين الأنانية ، فحرروا المرأة وحرموا الأفيــون والميسر واعتمدوا روزنامة مستوحاة من الروزنامــة الغربية ووضعوا نصب أعينهم تنمية التجـــارة والصناعة ، ولكنهم نادوا كذلك بشيوعية زراعية بدائية واقتبسوا عن الصين القديمة الاولى بعض المؤسسات السياسية والعسكرية . ولن يلبث مثل هذا البرنامج ان يبعد عنهـــم العناصر المتمسكة بالتقليد .

الا انهم احرزوا في البدء نجاحاً صاعقاً . ففي أقل من سنتين ، انطلقوا من كوانغ — سي وهزموا اعداءهم في كافة انحاء حوض يانغ — تسي ، واستولوا على هان — كيو ثم على نانكين ونظموا حكومة تولت إعادة توزيع الاراضي لمصلحة جماعات الفلاحين وانشأت صناعة دولـه تنتج المستودعات العامة المعدة لتموين جيش مبني على الخدمة العسكرية الالزامية . ولكن التايبنغ اخطأوا هدفهم بتفويتهم فرصة قلب الامبراطور الضعيف « هيان — فونغ » . ولعــل جنودهم انفوا من المخاطرة بنفوسهم في السهل الكبير . ولكن مهما يكن من الأمر فان سيرهم على بكين قد انتهى الى الفشل بسبب تأخره وسوء تنظيمه . ولم تحرز الثورة بعد ذلك تقدمــاً يذكر لانها ضعفت بفعل الاثرة الاقليمية التي اضاعت عليها الاهداف الواجب بلوغها، وامتعاض المثقفين والأغنياء الذين اخافتهم سياستها الاصلاحية المتطرفة، وامتعاض الفلاحين الذين اضطرت بدورها الى فرض ضرائب ثقيلة عليهم . يضاف الى ذلك من جهة ثانية انها اعيقت في مؤخرتها، ابتداء من السنة ١٨٥٦ ، بثورة أخرى هي ثورة المسلمين في يونان التي اندلعت بين عمال مناجم كبريت الرصاص الممزوج بالفضة . وما لبث الاسلام الصيني بأجمعــه ، في كان — سو وسن — كيانغ ان انضم اليها .

ولكن بكين سوف تتمكن من الصمود . فقد ناصرها باديء ذي بدء إقطاعيو هــو — نان الذين جندوا الجيوش ووقفوا في وجه التايبنغ ، ثم التف حولهــا كافــة كبار الموظفين الذين توحدوا امام الخطر ورفعوا علم الكونفوشيوسية . الا ان الوضع سيبقى متأزماً طالمــا هي لا تستطيع الاستعانة بالاجنبي . والحال استفاد هذا الاخير من الازمة ليفرض رقابة جمركيــة حقيقية ، ثم تعلل بخرق المعاهدات ليقوم بمناورة جديدة تثبت قوته . فاستولى الفرنسيون والانكليز على تيان — تسن ثم تقدموا حتى بكين حيث اجتاحوا « القصر الصيفي » . وقــد ارغمت الامبراطورية على فتح مرافيء جديدة ودفع تعويض حربي جديــد والتسليم بوجود ممثلي الدول في عاصمتها ، بينما حصل الروس على الولاية البحرية واسسوا فيها فلاديفوستوك على شاطيء بحر اليابان . فكان ان اللورد « إلجن » ، الذي سبق لوالده ان نهب الاكروبول في اثينا، والذي تأثر هو نفسه بكنوز القصر الصيفي ، كتب في صحيفته ان التجارة « تمارس في ظروف فاحشة بالنسبة للصينيين ومفسدة للاخلاق بالنسبة لمواطنيه » . وعلى الرغم من ذلك ، فان السيد الحقيقي لعلائق الصين بالعالم اصبح منذ ذاك التاريخ السير « روبرت هــارت » ، مفتش الجمارك البحرية العام . وجلي في مثل هذه الظروف ان « البرابرة » ما كانوا ليقفوا الى جانب

التايبنغ . يضاف الى ذلك ان تحولاً قد طرأ على موقفهم حين آثر المرسلون والرأسماليـــون استتباب النظام في ظل سلطة تخضع لرقابة شديدة . ثم ان نجاحات الثورة الاسلامية قد اخذت تقض مضاجعهم ، فتكون بينهم وبين بكين تضامن لم يكن لمصلحـــة نانكين . فتدفقت الاسلحة والمتطوعون على المعسكر الامبراطوري ، واشرف الاميركي « وورد » والمـــاجور البريطاني غوردون – الذي سيشتهر باسم غوردون باشا – على العمليات العسكرية التي انتهت بسحق العصيان .

الا ان قمع الثورة الاسلامية سيتطلب سنوات طويلة . اجل لقد عقد من قبل اتفاق في يونان مع السلطات الامبراطورية ، الا ان القتال تجدد باشراف زعماء جدد حمل احدهم لقب السلطان . وفي سن – كيانغ مضى يعقوب في المقاومة حتى السنة ١٨٧٧ . فاجتيحت ولايات كاملة ، ودمرت بعض المدن كـ « سو – تشيو » ونانكين ويونانفو . وكانت آثار الخراب لا تزال ظاهرة في يونان حوالى السنة ١٩٠٠ . وقد عقبت هذه الحروب مجاعة السنة ١٨٧٧ – ٧٨ الرهيبة التي جاءت ضغثاً على إبالة .

فخرجت الصين من المحنة منهوكة القوى وخاضعة لوصاية تكاد لا تكون مقنّعة ، اعني بها وصاية الغرب .

نجاحات النفوذ الاجنبي الجديدة
والأزمة الثانية في الامبراطورية الصينية

منذ السنة ١٨٧٠ حتى السنة ١٨٩٥ ، عرفت الصين هدوءاً نسبياً أتاح بروز رأسمالية بلدية وانتشار آراء الاصـــلاح والتجديد في الاوساط التي تعاملت مع « البرابرة » ، ورافقت باانتباه التطورات المدهشة التي كانت اليابان مسرحاً لها .

استمر التعاون بين الغرب وبكين في الحقل العسكري . وقد أقلق تفوق البيض المفوض « لن تساو – سن » ، فاستصدر منذ السنة ١٨٤٤ ، ١٢ مجلداً من « حوليات الامم البحريـة المصورة » . كما ان المدفعية العصرية احدثت انطباعاً عظيماً . فتجند بعض الشبان في الوحدات البحرية البريطانية او تلقوا دروسهم في سان – شامون والـ « كروزو » ، بينما اسند نائب الملك في فو – كيان الى بعض ضباط البحرية الفرنسية امر بناء دار صناعة بحرية في فو – تشيو سوف يضربها « كوربيه » بالقنابل في السنة ١٨٨٤ . ونقلت مؤلفات علمية عديدة بعناية معهد أسسه القس الاميركي « و.ا.ب. مـارتن » : فعلّمت الاصول الدبلومـاسية ، ولقـن اللغات الاوروبية بعض موظفي وزارة الشؤون الخارجية – « تسونغ – لي – يامن » – التي انشأتهـا الامبراطورية بعد المعاهدة . ثم اخذ يسود الاعتقاد بأنـــه يكفي الحصول على سر التقنيات الغربية للعودة بالبلاد الى الاستقلال .

ولكن علاقة وثيقة جداً لوحظت بين اوساط الاعمال الاجنبية وبعض كبار الموظفين ،

ففي السنة ١٨٦٢ ، عين تسنغ – كوو – فان، الذي لعب دوراً هاماً في الحرب ضد التايبنغ، عدداً من المهندسين البريطانيين ، واسس اول دار صناعة بحرية على النهر الأزرق في نانكين. وبعد مرور ثلاث سنوات بدأت « شركة « كيانغنان » لاعمال الاحواض والهندسة » عملها في شنغاي . وفتح « تشانغ – تسي – تونغ » ، حاكم هونان ، مصنعاً للغزل ومصنع حياكة آلية في « او – تشانغ » ، ثم دار الصناعة البحرية في « هان – يانغ » . وكان « لي – هونغ – تشانغ » مثال الموظف الفطن ، فأقام ، بوصفه ناظر التجارة ، علائق ودية بينه وبين رقابة الجمارك ، ولم يهتم بتأسيس دور الصناعة البحرية ومصانع الغزل فحسب ، بل بتشجيع شركة « الملاحة البحرية لتجار الصين » وانشاء خط بين تيان – تسن وشنغاي بالاتفاق مع « شركة التلغراف الشمالية الكبرى» . فأدت مكاسب المقايضة الداخلية من ثم الى قيام مشاريع عصرية استمالت الرأسماليين الاوروبيين والاميركيين استمالة شديدة .

خضع هذا النشاط للسيطرة الانكليزية . ففي هذا العهد استطاعت منشستر الادعاء بالباس « السماويين » ، واحتلت لندن المرتبة الاولى كمستودع للشاي الصيني واحتلت مركز الصدارة في تجارة الحرائر التي اهتم بها « ارتشيبالد لتل » ، ممهد الطريق للملاحة البخارية في « يانغ – تسي» الأعلى . وانطلقت هونغ – كونغ انطلاقة قوية وسريعة عانت منها كانتون وماكاو . فأصبحت أكبر مستودع للبضائع ومركزاً مصرفياً اشع في كافة انحاء الشرق الاقصى . وقد تولى مصرف « جاردين – ماتسون » ، ومصرف « هونغ كونغ وشانغاي » المرتبط بـ « مصرف شبه الجزيرة والشرق » ، البت بكافة المعاملات . وبفضل حسن ادارة حاكمها « هنري بوتنغر » ، مثلث الجزيرة ، التي لا تتجاوز مساحتها ٧٥ كيلومتراً مربعاً، بأحواضها وأرصفتها وابنيتها الكبرى، انتصاراً على الصخر الغرانيتي والحميّات والقراصنة . ثم انطلقت شانغاي بدورها . فانتشر نقدها ، الـ « تايل »، في كافة انحاء الصين . وتجاورت المؤسسات البريطانية والفرنسية والاميركية على طول رصيف جميل – بوند – قامت أمامه احواض السفن والمعامل . أما المدينة الصينية المحاذية فقد حافظت داخل أسوارها على حوانيتها المضاءة بمصابيح ورقية والمعرف عنها بعناوين عمودية ، كما حافظت على قذارتها وروائحها النتنة . وبفضل نشاط الملاحة دبت الحياة في مياه النهر الازرق الوحلة بين شنغاي وهان – كيو ، المركز الصناعي الآخر الآخذ في النمو . واما تيان – تسن والمرافىء الشمالية فستنال في عهد لاحق قسطها من هذا النمو .

مائة وثلاثون مليونا في السنة ١٨٤٢ ، واكثر من مليار في السنة ١٨٨٠ : ان هذه الارقام لخير دليل على نجاحات التجارة الخارجية . الا ان الميزان التجاري ما زال في عجز : فان شراء القطنيات والافيون والارز قد ضخم حجم الواردات تضخما مفرطا . اضف الى ذلك ان بكين قد عمدت الى صك كمية متزايدة من النقد الفضي للتمكن من القيام بتعهداتها . وهبطت قيمة التايل الى نصف سعره بين السنة ١٨٦٥ والسنة ١٨٩٥ : فشجع ذلك عمليات التصدير ، ولكن البلاد استسلمت اكثر فأكثر الى الرأسمال الاجنبي عن طريق القروض وتوظيف الاموال .

ان الهجرة الى الصين ، المحدودة جداً بالنسبة لسكان هذه الاخيرة ، قد اصطدمت بعقبتين هامتين هما الفقر وكراهية الاجنبي . فان انشاء الخطوط الحديدية قد اعتبره العديد من"صينيين خرقاً للقدسيات : اذ ان التنين الصيني لن يغتفر لاولئك الذين يغرزون المسامير الاولية والمسامير المثناة في ظهره . وقد انتزع خط تبرعت به مؤسسة انكليزية في شنغاي لايصال هذا المرفأ بـ « اوسونغ » . وتعرض أحد بائعي الاراضي للضرب بالخيزران حتى الموت.ولم يباشر بناءخط بكين ـ تيان ـ تسن الا في السنة ١٨٨١ ، ولن يوصل بالشبكة المنشورية الا في السنة ١٩٠٧ .

نشبت نزاعات سنوية بين الحكومة الامبراطورية وبين هذه او تلك من الدول . وغالباً ما انحنت بكين أمام نفوذ التقليديين الذين ما كانوا ليرضوا بالتسليم بتدخل الدول الاجنبية في شؤون البلاد . ولم يكن بالامكان تجنب الحرب مع فرنسا بصدد الهند الصينية . ولكن نتيجتها المؤسفة لم تهدىء الافكار . وان في الصور الدعائية الجدرانية التي تمثل الخنزير بي ـ سو مصلوبا ، وتعديات الجماهير على الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية ، والمظاهرات العدائية بمناسبة تدشين الملاحة البخارية على اليانغ تسي ، لدليلا على المشاعر السامة التي لم يحاول البلاط مقاومتها كما يتضح من تقارير السفارات .

حدثت الازمة الكبرى الثانية حين هزمت الصين في حربها الكورية ضد اليابان في السنة ١٨٩٤ ـ ٩٥ ، فانقذها الاوروبيون مرة أخرى منتهزين الفرصة للاستفادة اكثر فاكثر على حسابها . وترد الازمة الى ان معاهدة الصلح ، حتى بعد اعادة النظر فيها ، قد قضت بالتخلي عن فورموزا ، واعطاء اليابان مركزاً ممتازاً في الحقل التجاري ، ودفع تعويض حربي كبير جداً . ولما كانت بكين عاجزة عن تسديد المبلغ المطلوب منها ، لم تستطع حرمان مقرضيها من الفوائد التي سلمت بها للمنتصر عليها. فأسرعت الدول الى اقتسام المغانم : هذا ما يعرف بتجزئة الصين . وعلى الرغم من اعتراضات اليابان ومن مناداة الولايات المتحدة بسياسة الباب المفتوح ، تخلت الصين عن بعض الاقاليم لقاء عقود تأجيرية لمدة ٩٩ سنة،فأقامت روسيا والمانيا وبريطانيا العظمى في رأسي لياو ـ تونغ وشان ـ تونغ ، الاولى في بورت- ارثور والثانية في كياو ـ تشيو والثالثة في اواي ـ هاي ـ اواي ، بينما أقامت فرنسا في كوانغ ـ تشيو قبالة جزيرة هاي ـ نان . ورافق هذا الاقتسام نفوذ اقتصادي سريع الخطى : فتح مناطق واسعة للتجارة ،وانشاء مؤسسات صناعية كثيرة (بعد ان حصلت اليابان على هذا الحق) ، وبناء خطوط حديدية جديدة ، واستثمار المناجم . وبرز توسع الرأسمال الغربي عمليا بتأسيس ثمانية مصارف هامة يدخل في عدادها المصرف الروسي الصيني الذي اسهم الفرنسيون في تمويله والذي اهتم بصورة خاصة بالمواصلات بين سيبيريا وبورت ـ ارثور عبر منشوريا ، فتميزت المعاملات التجارية وانتاج المصانع بالنشاط . ولكن الصناعة اليدوية انتهت الى الاضمحلال وميزان المقايضات بقي في عجز .

سلمت اوساط الاعمال وبعض المثقفين باضطرار الصين الى الاتفاق مع الاجانب ، فانتشرت

مؤلفات كانغ ـ يو ـ أواي التي أوصت باصلاح التعليم ، وطالبت باقتفاء أثر المستبدين المستنيرين ولا سيما بطرس الاكبر ، واستهدفت مداراة كبرياء الصينيين بارشادهم الى الدور الذي باستطاعتهم ان يلعبوه في المستقبل على مسرح العالم . وندد تشانغ ـ تشي ـ لانغ بالتمسك المفرط بالشكليات ونادى بدراسة التقنيات .

وهكذا حدثت في السنة ١٨٩٨ المحاولة المعروفة بمحاولة المائة يوم ، اي فترة الاسابيع المعدودة التي فرض خلالها كانغ ـ يو ـ اواي المتمتع بثقة الامبراطور الفتي كوانغ ـ سيو ، اصلاح الامتحانات ، وتبسيط الانظمة القضائية ، واحداث دوائر اقتصادية ، وتجديد الجيش ، ونشر الاخبار المتعلقة بالدول الاجنبية . ولكن الامبراطورة الام ، تسو ـ هـي ، قاومت المحاولة بمساعدة التقليديين والعسكريين المنشوريين : فأرغمت الامبراطور على الاستقالة . أما الجماهير فلم تحرك ساكنا .

ما زالت هذه الجماهير متأثرة بالدعاوة لكراهية الاجانب . فقد حققت شيعة « قبضة اليد » للسلام والعدالة ، التي اعلنت عداءها لغزو البرابرة البيض ، نفوذاً متزايداً في كافة الولايات الشمالية . وقد شجعها الانقلاب الذي قامت به تسو ـ هي ، فأتت أعمال عنف كثيرة ، مخربة الخطوط الحديدية ، ومحرقة الابنية ، ومتعرضة للمبشرين وللصينيين المعتنقين الدين المسيحي . وثارت بكين تلبية لندائها وحاصرت السفارات . فوجهت الدول ضد « الملاكين » جيشاً دوليا دخل العاصمة . ولم يتخلص البلاط من هذه الورطة الا بتسليمه ، بوساطة لي ـ هونغ ـ تشانغ ، بحل الجمعيات المعادية للأجانب ، ومنع استيراد الاسلحة والاعتدة ، ودفع تعويض حربي ثالث قيمته ١٣٧٥ مليونا .

وجملة القول إن ازمة السنوات ١٨٩٤ — ١٩٠١ انتهت كما ابتدأت بمذلة ومهانة . فمن اجل محاربة التايبنغ لجأت السلالة الى اوروبا واستسلمت لمشيئتها . اما الآن فعبثاً اعلنت عداءها للأجانب . وقد فقدت نهائيا كل امل حين سلكت الصين القديمة طريق الاصلاحات السياسية ، تحت ضغط القوى الاقتصادية والاجتماعية العصرية .

وجه اليابان القديمة المحبوب وازمتها

على غرار الصين ، خرجت اليابان نهائيا من عزلتها . وهو الاجنبي كذلك من أرغمها على فتح بابها . وانما توفرت هنا الشروط اللازمة لنهضة حقيقية .

تطيب الحياة فيها على ما يظهر . فان الارخبيل الذي ترتفع فيه الجبال ينقشه البحر بازميل امواجه . ويبسط عليه تآلف النور والرطوبة ونتوءات الارض زينة نباتات تلفت الانتباه باختلاف انواعها واريجها . ففي الجنوب يجعل الصيف منه احدى ولايات آسيا الحارة ؛ وفي الشمال ينزل الشتاء عليه ثلوج آسيا الباردة ؛ ولكن الربيع والخريف يستمران استمراراً كافياً لان يبقى المرج مزهراً ، والـ « هارا » ، التي يرتفع فوقها الـ « فوجي » ساطعا ، مثاراً لسحر

العيون السامي . كما أن جواً بحارياً في اغلب الاحيان يقرب الآفاق ويحيط بسر غامض ووهم تخيلي المساكن الخشبية الصغيرة الواهية والانيقة والنظيفة ، والمعابد والاديرة والقصور المحفوفة بالاشجار ، وأعمال السكان . ويطيب لهؤلاء ، الذين لا يتصنعون قط ، البحث في كل شيء عن الناحية المضحكة وحتى الماجنة ؛ ويجدون لذتهم في النكات الغليظة ، ويولعون بالصور الهزلية والالقاب ، ويعبر فن الـ « نتسوكي » ، واعني به تلك النقوش الهزلية الصغيرة التي يزينون بها الازرار ، عن الذوق اللطيف الذي يتحلى به شعب مرح ومرهف الحس ، كما تعبر عنه الصور المطبوعة على الخشب .

أجل ان الارض تتزلزل (تهدم ١٠٠ الف بيت وتفني ٣٠ الف شخص فيما يبدو في السنة ١٨٥٥) ، وتجتاح الـ « تسونامي » السواحل (تسبب احد هذه التيارات البحرية المتلاطمة الامواج في مقتل ٣٠ الف نسمة في السنة ١٨٨٥) ، ويقابل بركان فوجي الهادىء بركان « أساما » الغضوب ، وتتلف الحرائق الاكواخ الخشبية (أحرق ٥٠ الف كوخ في شتاء السنة ١٨٨١ – ٨٢ وحده) . الا ان الاستعارات المقندة اقل من ان تعبر عن جميل الكائنات التي يسعدها السكنى في ارض « الشمس الشارقة » ، المباركة من الآلهة ، حيث يوجد كل شخص في مكانه ، ابتداء من الـ « ارشيتو تنو » ، « الاله الحي بين البشر » ، حتى اوضع الفلاحين الذين الذين ينتجون الارز ، مروراً بالـ « ساي – اي – تاي شوغون » ، القائد المنتصر على البرابرة ، وصاحب الفضل الاول في استقلال البلاد ، المصون بمساعدة الـ « دايموس » العظام والـ « ساموراي » البواسل . وقد تعلقت اليابان بعاداتها ومؤسساتها التي اقتبست بعضها عن الصين من ذي قبل دون ان تخضع لها . ثم جاء الاوروبيون : فراقبتهم بفضول ، وربما فكرت باقامة العلائق معهم ولكنها اقصتهم حين خيل لها ان موجبات وجودها التقليدية مهددة بالخطر .

ان هذه العزلة المتوحشة حصرت « نيبون » في حضارة مرعليها الزمان لا يحجب عيوبها ما تنطوي عليه من جمال . ففي الارخبيل الصغير الذي تحتل الغابات والصخور ثلاثة ارباعه ، خاض ٣٠ مليون نسمة معركة قاسية لتأمين قوتهم اليومي . اضف الى ذلك ان الاجهاض وقتل الاطفال كانا علاجين مشينين حرمتها الانظمة واستخدما استخداما سهلا : وقد اشير الى هذه المالتوسية التي افضى اليها تزايد عدد السكان باسم « مابيكي » الذي يعني فن تخفيف الخضار .

ارتكز كل شيء الى زراعة غاية في التدقيق وغير كافية معاً . ووفر البحر الاسماك والاصداف والملح وحتى الاشنة التي استخرج منها نوع من السماد . ولكن الارز كان موضوع اعتبار تفضيلي . ولم تشكل الصناعة سوى تكملة لعمل الحقول ؛ وليس هنالك بالاضافة الى ذلك سوى مشاغل نادرة تصنع فيها الاسلحة والنقود . وقضى التنظيم الاجتماعي الشديد بأن تتوفر لكل شخص كمية المواد الاستهلاكية اللازمة له ، ولكنه شل كل نشاط ابتكاري

وعاد للسلطة الشوغونية (باكوفو) امر توزيع الارز . وكان الفلاح موضوع تكريم ، ولكنه خضع لرقابة مزعجة . وبالاضافة إلى ان الاراضي كلها كانت ملك الاسـياد ، وان طبقة الدايميوس النبلاء استوفت اتاوات عينية ، وان طبقة من الملاكين غير المستثمرين قـد تألفت واحتفظت بجزء من الحصيد فان هـذا الحصيد دخل الانابر العامة ، بعد احتفاظ المنتج بالكمية الضرورية لتأمين معيشته . وقـد حظر ترك الاراضي الصالحة للزراعة مواتا ، واستبدال الارز بزراعـة اخرى ، ومغادرة أرض المزارعة دون اذن صريح بذلك . ولكن على الرغم من سهر بيدو على الاحتفاظ بالطابع الدائم لارض المزارعة هذه ، فقد رهن الدايميوس اراضيهم المذخرة، وزاد وضع المستثمر سوءاً .

سعت السلطة الشوغونية منذ زمن بعيد وراء ارغام الدايميوس على الطاعة : وقـد كوفىء الامناء منهم بـ « كوكو » الارز . وحافظت طبقة المحاربين على امتياز حمل السيفين المعقوفين ، ولكنها الزمت بالخدمة وارغم اعضاؤها على الاقامة في بيدو سنة بعـد اخرى ، وترك الرهائن فيها اثناء غيابهم . وبسبب بطالتها اصبحت فاسدة الاخـلاق وسريعة الغضب . واذا توفق الـ « توكوغاوا » إلى اخضاع ارباب القصور في كوانتو — « بلاد الشرق » بالنسبة لـ « فوجي » — فان السلطة السيدية قد حافظت على كل امتيازاتها تقريبا إلى الغرب من هوندو وفي « كيو — سيو » .

تفسر ندرة النقد ورقابة سوق الارز القوة المتزايدة التي تمتع بها التجار اصحاب الامتيازات والصيارفة او « شونين » (اشتقاقاً : رجال المدن) . وكان من جملة اسباب اقفال البـلاد استدراك خروج النقد . ولم يكن مركز النشاط التجاري ناغازاكي ، حيث عقـدت بعض الصفقات مع الخارج ، وبيدو نفسها على الرغم من قوة جمـعية تجار الارز بالجمل فيها ، الـ « فودازاشي » ، بل اوساكا التي لقبت بـ « خزانة مؤونة الامبراطورية » بالنظر إلى اهمـية انابرها العامـة . وكان اعظم الشونين نفوذا الـ « توايا » او وكلاء النقل البحري ، لان الارباح سلكت طريق البحر بسبب نقص حيوانات النقل وكـثرة ضرائب المرور السيدية . وتعاطى بعض التجار تجارة النقد بأقراض الدايميوس من اثمان الارز المتجمعة لديهم . واستمروا في احتكار الاراضي وابتزاز اموال المزارعين. وقد ورد في نص يرتقي إلى السنة ١٨١٦ ذكر « البورجوازيين الادنياء النسب » و « انسباء المرابين » بين مشتري الالقاب الشرقية . فاثار فرار سكان الارياف الى المدن المخاوف الكثيرة لانه زاد من صعوبات التموين .

روّج ارتقاء اثرياء العاميين وضائقة النبلاء الفقراء الروايات والقصص والرسـوم الشعبية الطابع ، البذيئة حيناً ، والهجائية حيناً آخر . وبينما استمرت الـ « نو » او المأساة المقدسة في طريق الانحدار ، انقطع الادب والفن الى وصف الاخـلاق بعرض الرذائل او بالاستهزاء بالانحرافات . فأبدع « ايكو » في وصف حياة الجماهير . واذا ما نظر التقليديون الى « هوكوزاي » الحازم نظرهم الى لمصور القذر ، فلانه ينتمي الى مدرسة « اوكيو — يي » المبتذلة ويرسم كل ما

يرى ، حتى اكثر الحرف ضمة .

الا ان ردة فعل استهدفت الكونفوشيوسية التي اعتبرها موتووري مصدراً للاخلاق المتراخية . وعلى نقيض مدرسة الـ « كنغاكوسا » التي ما زالت تطري تقشف الفلسفة الصينية ، رجعت مدرسة الـ « فاغاكوسا » إلى الاصول القومية واعادت الاعتبار لتعاليم الـ « شنتو » . وان موتووري ، الذي اسهم اكثر من اي شخص آخر في تكوين الـ « فابون » اي اللغة اليابانية المكتوبة ، قد اشار بقوة ، في كتابه « كوجيكي » ، الى حقوق السلالة المنزوية في كيوتو والمعتصمة بالصمت . ثم جاء « هيراتا » بعده يشيد بدوره بالعبادة الامبراطورية . وضمت المدرسة الجديدة عدداً من مؤرخي الحوليات ، معاصري مؤرخي اوروبا الرومنطيقية وعلمائها الواسعي الاطلاع ، الذين حاولوا ايقاظ الماضي المجيد . وبينما نادى حزب الـ « ميتو » ، الذي كان يمت بصلة الى الـ « توكوغاوا » ، باصلاحات من شأنها بعث اليابان القديمة وفاقاً لتعاليم الفيلسوف « هودزيتا » ، مكنت شنتوية مدرسة « كاغوشيا » عند كبار الدايميوس في المناطق الجنوبية الغربية ، ولا سيا « سانسونا » و « شيوشيو » ، الحاقدين على بيدو ، الذين اقاموا علائق وثيقة بأوساط الاعمال في ناغازاكي . فنمت من ثم حركة عاطفة على إحياء الامبراطورية ، صادقة كانت ام غير صادقة في رغبتها في إنقاذ القيم الاساسية للحضارة القومية .

الا ان الظروف عاكست السلطة الشوغونية اثناء عهد « تمبو » الذي يوافق النصف الاول من القرن التاسع عشر . ومن حيث ان كلفة المعيشة ارتفعت ارتفاعاً حثيثاً مطرداً ، فقد قوبل تفخل البعض ، اكثر فاكثر ، ببؤس البعض الآخر . فبين السنة ١٨٣٠ والسنة ١٨٤٠ ، تجددت المجاعات الكبرى التي حدثت في اواخر القرن السابق وتخللتها اضطرابات على جانب من الاهمية . فهاجم الـ « ساموراي » والشعب جماعة الـ « شونين » . وفي اوزاكا ، صب الثوار جام غضبهم على صيرفي موسر يدعى « ميتسوي » . فأصدرت بيدو اوامرها الى الفلاحين بالعودة الى اراضيهم ، ولكنها عبثاً حاولت قضاء وطرها من الاغنياء بواسطة نصوص تحد من النفقات المفرطة ، وفرض ضريبة استثنائية ، والغاء ديونها الخاصة إلغاء جزئياً ؛ وعبثاً ألغت امتيازات جمعيات التجار والتجارة الكبرى بغية تخفيض الاسعار عن طريق المنافسة : فقد ابطلت كافة التدابير حوالي السنة ١٨٥٠ امام مقاومة يبدو انها ضمت اوزاكا والدايميوس في المناطق الجنوبية الغربية .

وجملة القول ان السلطة الشوغونية قد فقدت المزيد من اعتبارها حين جاء التدخل الاجنبي يعقّد مهمتها ويخدم مصلحة خصومها .

فتح اليابان للاجانب وانهيار السلطة الشوغونية

كانت المقايضات العادية بين اليابان والعالم الخارجي عادمة الاهمية . فقد خشيت بيدو خروج النقد وفرضت رسوماً جمركية مرتفعة . ولكن اعمال المهربين كانت آخذة في التوسع . الا ان نفوذ البيض قد افاد من الفضول الذي اثاره دخول ادواتهم العلمية وكتبهم . ففي

السنة ١٨١٠ اجازت الحكومة فتح مكتب ترجمة خرّج التراجمة وقراء المؤلفات الاجنبية . ومن هولندا أُتي بالاحصنة والبطاطا وبالتلقيح ايضاً . وان اوغاتا الذي مارس هذا الاخير ، قد اسس مدرسة للطب في اوزاكا وصنع ملقط جنين بالاستناد الى رسم . وفي ناغازاكي ، فتحت مدرسة عنيت بتعليم اللغة الهولندية التجارية بصورة خاصة ، وفي ييدو فتحت مدرسة اخرى عنيت بالتفضيل بالدروس العلمية . وفي السنة ١٨٤٢ اهملت الروزنامة القمرية الشبيهة بالروزنامة الصينية . وفي السنتين ١٨٤٧ و ١٨٤٨ ظهر التصوير وفاقاً لطريقة « داغير » وصناعة الثقاب الفوسفوري والزجاج . والى العهد نفسه يعود اول مصنع للبنادق والمدافع جهزه « ايغاوا » الذي انزل الى البحر سفينة بخارية مزودة بآلة ابتاعها من الهولنديين ، واكب على تحصين جون ييدو . واعرب بعضهم عن اعجابهم بما اتاه الغرب . فتذوق الرسام « شيبا – كوكان » رسوم الهولنديين ونقوشهم النحاسية وقلدها . والف « متسوجولي – غنبو » كتاباً شاد فيه بذكر الدول الاوروبية . وصودر كتاب « بازوو – دوكوغو » (مناجاة ريفي عجوز لنفسه) لمؤلفه « سوغيتا ـ غانباكو » الذي كان اول من كتب بحثاً في علم التشريح باللغة اليابانية . وقد صادقه الرسام « واتانابه – كازان » الذي يروى انه مات مسمماً لانه اسس جمعية غايتها نشر الافكار الاجنبية . واحرقت المخطوطة الاصلية للصحيفة التي نشر فيها آراء معادية للنظام القائم . ولكن هل باستطاعة اليابان ان تقوم بما عجزت عنه الصين وتقاوم مناورة عسكرية بحرية ؟

منذ زمن بعيد اخذ الروس يقتربون شيئاً فشيئاً ، مترددين الى شواطىء سيبيريا الغربية ومقيمين في الكوريل ، ثم في ساكالين ، في المياه الغنية بالاسماك . وجاءت سفن بريطانية تطلب تمكينها من التموين . ولكن المرافىء اليابانية كانت توفر التسهيلات المغرية للاميركيين بصورة خاصة ،على طريق الشاي البحرية . وبعيد حرب الافيون اضطر الشوغون الى التخلي عن فكرة منع الـ « ريو – كيو » . فسبقت واشنطن انكلترا وروسيا وارسلت الكومودور « بري » يتظاهر في خليج ييدو وارغمت الباكوفو المذعور على فتح « هاكودات » ، « وشيمودا » في السنة ١٨٥٤ . وعلى الرغم من وجود هذين المينائين في اطراف البلاد ،فان الخطوة الاولى قد خطيت ، ووقعت اتفاقات مماثلة وتكميلية اتاحت للدول ، بعد فترة قصيرة ، الوصول الى ناغازاكي ويوكوهاما ونييغاتا ، وتعهد مقيمين في ايبدو واوزاكا ، وتعاطي التجارة مباشرة شريطة تسديد الرسوم المتوجبة . فاضطرت امبراطورية الشمس المشرقة بدورها الى توقيع معاهدات غير متساوية .

ادت هذه التنازلات الى تزايد كراهية الاجانب وثقلت وطأة الازمة الاقتصادية وعجلت ردة الفعل ضد السلطة الشوغونية التي دفعها «ايي تاوسوكي» الحاذق الى مصافحة يد الغربيين دونما وجل . فاستقبل نبأ المعاهدات بصورة عامة كاهانة تلحق بالبلاد . وخاف العديد من الصناعيين اليدويين والتجار من المنافسة وخافوا على امتيازاتهم . فلم يُعتد على الاجانب فحسب ، بل اقنع الدايميوس الامبراطور بالامتناع عن ابرام الاتفاقات ؛ ومن جهة ثانيه أخذ دايميوس المناطق

الجنوبية الغربية على انفسهم إقفال مضيق « سيمونوساكي » . فكان الجواب قيام بعض السفن الحربية بقصف تحصينات المضيق بالقنابل ومراقبة الملاحة في مياه اوزاكا ، فأبرمت الاتفاقات وخفضت الرسوم الجمركية . فبدا عجز اليابان وكأنه غير قابل للمعالجة .

ولكن اليابان تعرضت لهزة اقتصادية ايضاً . فمن جهة تسببت الواردات في خروج النقد وألحقت ضرراً كبيراً بالصناعة البلدية ؛ ومن جهة ثانية ادت الصادرات الى ارتفاع سعر الحرير والقطن والحنطة . واذا علمت ان النسبة بين الذهب والفضة كانت نسبة ٨ الى ١ لا ١٥ الى ١ ، تبين لك ان المقايضة وفرت ارباحاً طائلة للأجانب الذين عمدوا الى اخراج الذهب . فحدث اندفاع حقيقي وراء ذهب اليابان ، تأثرت به كافة طبقات المجتمع تأثراً متفاوتاً . واختل الامن وسادت الفوضى ؛ فتعددت الافلاسات ، وجابت زمر الساموراي البلاد معتدية على الاشخاص والممتلكات.وتوفرت عناصر الحرب الاهلية بفعل استطاعة انصار الشوغون وخصومه الحصول على الاسلحة والاعتدة بواسطة الرأسماليين ، من أمثال ميتسوي ، الذين لم ينتصروا لا لهذه الفئة ولا لتلك . ومن اغرب ما حدث ان الدايميوس الراغبين في الاصلاح الامبراطوري قد اضطروا ، في سبيل تحقيق غايتهم ، الى سلوك السبيل الذي اخذوا على الـ « توكوغاوا » سلوكه . والحقيقة هي ان كل شيء آل الى احداث تبديل عميق.وهكذا اندلعت ثورة السنة ١٨٦٨ التي خرج الامبراطور الشاب موتسو هيتو في اعقابها ، بعد زوال السلطة الشوغونية ، من مقره في كيوتو وجاء يتولى الحكم في ييدو التي اطلق عليها اسم طوكيو (عاصمة الشرق) .

الـ « ميجي »

استلم النظام الجديد السلطة في جو البلبلة هذا ، ولم تتوفر له لا القوة العسكرية ولا الموارد المالية الكفيلة بمقاومة تدخل مسلح ممكن ، فلم يكن باستطاعته قطع علائقه بالدول . ومنذ السنة ١٨٦٨ ، حرص الميكادو على تسكين روعها حيال نواياه : الميجي يعني عهد الانوار ، وبالتالي عهد التعاون مع الدول المتطورة .

من هو بالضبط ذاك الذي سار باليابان في طريق التجدد ياترى ؟ لقد تكلم بعضهم عن استبداد مستنير كان من شأنه ، باسم أجلّ تقليد وطني ، المحافظة على استقلال الامة بواسطة التغييرات الضرورية ، وضمان مقام سام لامبراطورية الشمس المشرقة بين الامم . ولا يجوز الانخداع بأهمية « ميثاق البنود الخمسة » الذي وافق عليه موتسو هيتو بغية اتاحة « التعاون بين الحكام والمحكومين » . فالواقع هو ان بعض الاحزاب حلت محل غيرها رغبة منها في السيطرة بمساعدة بعض الرأسماليين الحذاق وفي كنف الاسم الامبراطوري الساحر . وقد استخدمت في الحقيقة ثلاث قوى : زعماء الحركة المنتسبين الى النبلاء والراغبين في اقامة النظام الجديد ، ورجال المال الحريصين على تطوير الاقتصاد ، وروح التضحية عند الجماهير .

يبدو ان حزبي ساتسوما وشيوشيو قد تقاسما السلطة . فقد وجهت الامبراطور فئة محدودة

من المستشارين الاقوياء : وقد ألفت ما يعرف بال «جنرو» او قيادة المشرفين على انتقاء الموظفين (وسوف يتكلم الاميركيون عن : « امتحان الدماغ ») . وكانت هذه الفئة توفد البعثات الى اوروبا للاطلاع على كل شيء ، فتعود وفي جعبتها مخططات جريئة لاعـــادة التنظيم . وكانت بدورها تفصل في كافة الامور ، لأنها لا تضع اي حد لامتيازات الميكادو الذي لا تتميز مصالح الدولة عن مصالحه . وقد برز من بين كبار هؤلاء الموظفين اوكوبو توشيميشي ، و « ايتاغاكي» و « ايتو هيروبومي » . وعلى الرغم من أن الجنرو انبثق من الاقطاعيين ، فانه الغـى اقطاعية اعتبرها بالية ووضعها في خدمة الامبراطور . ولن يكون هناك بعد اليوم سوى طبقـــة نبلاء الخدمة المدنية ، الشبيهة بال « تشين » ، التي ستمنح في المستقبل القاباً شرفية بحتة وفاقاً للطريقة الاوروبية . واذا اصبح المزارعون اصحاب الاراضي التي يزرعونها ، فان مجموع اعبائهم الاميرية آل الى خزانة الدولة التي وضعت يدها بالاضافة الى ذلك على ممتلكات الجمعيات البوذية . فأتاح هذا الاصلاح الاجتماعي الواسع رفع الادارات العامة الى مصاف الادارات العصرية : تبديـــل الاقطاعات بالولايات ، تجنيد جيش عن طريق التقييد السنوي للشبان البالغين سن ابتداء الخدمة العسكرية ، احداث تعليم قادر على تخريج مسؤولين اكفاء . وقد اقتُبس ذلك عن فرنسا والمانيا بسبب شهرة الاولى بمركزيتها والثانية بصفات موظفيها ، كما أتي من انكلترا أو امـيركا بمعظم الفنيين والقسم الاكبر من الادوات والتجهيزات . ولكن هذا الهيكل المتين كان تحت رحمـــة وضع مالي واقتصادي سيء .

ما كان المشرفون على الميجي ليجهلوا أهمية المسألة الزراعية ، ولم يفتهم ان قمع ثورة الفلاحين ليس حلا لها . فان الحرب الاهلية قد أضرت باعمال الزراعـــة ، والثورة خيبت آمال سكان الارياف الذين باتوا احراراً في ان يزرعوا كما يطيب لهم الزرع ، ويشتروا ويبيعوا ، ويمتلكـوا الاراضي التي كانوا يتصرفون فيها تصرف المستثمرين فقط ودون انقطاع ، والزموا بالخدمـــة العسكرية وبدفع ضريبة نقدية دونها الاتاوات القديمة أحياناً ، بصرف النظر عـن الاتاوات التي ما زال يحق للملاكين غير المستثمرين فرضها على مزارعيهم . وفقدوا كذلك حقـوق الانتفاع من الغابات التي ضمها الميكادو الى املاكه ، فكان هو وهؤلاء الملاكين غير المستثمرين اول المستفيدين من الاصلاح . أضف الى ذلك ان مجاعة السنة ١٨٧٠ — ٧١ الكبرى كانت اكبر دليل على سوء حال الزراعة . فان زارع الارز في قطعة الارض الصغرى التي يملكها ما كان ليستطيع تحسين ادواته وزيادة انتاجه : وان النظام الجديد قد سهل احتكار الرأسماليين للارض باقراره حرية بيع العقارات .

كان عهد الانوار كذلك عهد امثال ميتسوي وميتسوبيشي والمؤسسات الخمس أو الست الكبرى ، التي ساندت الاصلاح الامبراطوري . فقد كانت طوكيو بحاجة اليها لاصلاح سوق النقد وتمويل المؤسسات الصناعية والتجارية الجديدة . وفي الوقت الذي عقدت فيه قرضا مـــن لندن ضمنته بحصول الجمارك ، لجأت الى القروض الداخليـــة وسمحت لبعض المصارف باصدار

اوراق نقدية . فأتاح لها التضخم النقدي وفاء ديونها ، ولكن المصارف الوطنية المستوحاة من المثال الاميركي ، ما لبثت ان ضاقت مقاليدها ، بينا ازدهرت المصارف الخاصة ، كمصرف ميتسوي مثلاً ، ووظفت ارباحها في المناجم وشركات الملاحة والمعامل. وكانت النتيجة انخفاض قيمة النقد الفضي الجديد ، ال « ين » ، واستمرار خروج الذهب .

والحال انفت الروح الساموراثية من التخلي عن الاقتصاد للرأسماليين . فبذلت من ثم في البدء محاولة تستهدف تنمية رأسمالية رسمية حقيقية . فأخضع النشاط لرقابة شديدة تمارسها الادارة التي سعت جهدها لتأسيس شركات بمساعدة صغار النبلاء الذين كان يهمها ان تنتزعهم من الفقر : وقد يؤلفون طبقة تجارية جديدة ، هي طبقة ال « شيزوبو » ، المتشبعة بالتعاليم الكونفوشيوسية . فظهرت المبادهة الرسمية في كافة الاتجاهات : استثمار مناجم الفحم الحجري ، وانتاج المعادن والمنسوجات (انشيء اول معمل لحياكة القطن الآلية على يد أحد الاسياد وبادوات انكليزية في السنة ١٨٦٧ ، ولكن الحكومة اسست في السنة ١٨٧٢ معملاً نموذجياً لغزل الخيوط الحريرية تحت اشراف احد الفرنسيين) ، والزجاجيات ، والورق ، وصناعة الاسمنت ، ومد الخطوط الحديدية والخطوط التلغرافية الاولى . واتجه الانتباه بصورة خاصة شطر التسلح البري والبحري. ولكن ما لبثت الحكومة ان عدلت عن هذه السياسة التي اثقلت كاهل الموازنة وأثارت استياء اوساط الاعمال . وهكذا فقد عجزت شركة وطنية للنقل البحري عن منافسة شركة آل ميتسوبيشي ، كما ان آل ميتسوي استردوا اكبر مصنع لانتاج الورق واداروه لحسابهم .

والحقيقة هي ان الميجي قد تعرض بين السنة ١٨٧٣ والسنة ١٨٧٧ لامتحان عسير . فعلى الرغم من الاضطرابات الريفية ، وبلبة النقد المستمرة ، وعجز الميزان التجاري ، عرف الاقتصاد الياباني توسعاً بيّنا سهله التضخم وشجعته السلطة . ولكنه توسع عرّضته للخطر أزمة السنة ١٨٧٣ العالمية . فان انخفاض حجم الصادرات والتباطؤ في بناء الخطوط الحديدية اثارا بعض القلق. وتعرضت حينذاك عدة مؤسسات حكومية للخطر . فحرض سايغو ، وزير الحرب المنتسب الى حزب ساتسوما ، والمولع بضرب السيف على الطريقة القديمة ، على القيام بعمل حربي إلهائي في الخارج ، ولكن الغلبة كانت لانصار السلام : فعدلت اليابان عن خوض غمار الحرب في كوريا . فانسحب سايغو من الوزارة مستاء واصبح زعيم معارضة قوامها الاشراف. وضمت هذه الاخيرة جمهوراً كبيراً من الساموراي الذين اغضبهم الاصلاح العسكري واضرّ بهم تحويل جعالاتهم الى صكوك دخل متدنية القيمة تدفعها الدولة . وفي سبيل تهدئة هذا الهيجان ، تأسس مجلس شيوخ وغزيت كوريا لفترة قصيرة . ولكن النزاع الحاسم انفجر في السنة ١٨٧٧ ، حين حرض سايغو ساتسوما على العصيان بعد اعتراضه على هلهلة السياسة الخارجية وإلغاء السيفين واعتماد الاوساط السياسية البزة الاوروبية . فكان ذلك آخر ثورة اقطاعية اقليمية الطابع . وقد اغتيل اوكوبو على أيدي رجال حزبه بالذات ، ولكن الميجي خرج منتصراً ، وانتصر معه الاستبداد البيروقراطي . وارجأ الميكادو الى السنة ١٨٩٠ إعلان النظم الدستورية .

خرجت السلطة الامبراطورية راسية القواعد من هذه الازمة . الا انها اضطرت لأن تحسب حساباً متزايداً لاوساط الاعمال . فتخلت للمشاريع الخاصة عن عدد من المؤسسات التي كانت قد انشأتها . وسارت في تصميمها على تعديل موازنتها ، بينما لم تزل قيمـــة الـ « ين » في انخفاض مستمر ، فاكتفت بتقديم المساعدات المالية لانشاء خطوط مواصلات جديدة وتشجيع تأسيس المصارف المطلوب منها مساندة الصناعة والتجارة . فاستمر التحسن الاقتصادي على الرغم مـن الصعوبات المالية . وبين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٨٩٠ اتضح وجه اليابان الجديد اتضاحاً بيناً .

مظاهر اليابان المتناقضة قبيل توسعها

في السنة ١٨٩٤ ، وبفعل نزاعها مع الصين، دخلت اليابان المسرح العالمي دخولاً يلفت الانظار والانتباه . فقد دقت ساعة توسعها الاستعماري. وتميزت اذ ذاك بخليط غريب من الحضارة التقليدية والطرائق المقتبسة عن الغرب .

واذا ظهر فيها حزبان معارضان منذ السنة ١٨٨٠ ، فان احدهما ، حزب الاحرار (جيوتو) قد استند الى آل ميتسوي ، والثاني، الحزب التقدمي (كيشنتو) كان مرتبطاً بآل ميتسوبيشي . اما دستور السنة ١٨٨٩ ، وهو بمثابة تنازل للبورجوازية الكبرى الآخذة في التكوّن ، لم يول حق الاقتراع سوى نصف مليون منتخب، يختارون من بين المكلفين البارزين، ولم يتمتع الامبراطور، الذي يكون الوزراء مسؤولين امامه ، بحق تعيين اعضاء المجلس الاعلى فحسب ، بل بحق دعوة مجلس الممثلين ، المنتخبين عن طريق التصويت العام ، وحله ايضاً ؛ لا بل تمتع بحق تجاهل هـذا المجلس بتوقيعه مراسيم لها قوة القانون وبحق الامتناع عن توقيع القوانـين المقررة بالتصويت . وبالاضافة الى إشرافه الكلي على الجيش والاسطول والعلائق الخارجية ، حق له، بعد الاستئناس برأي الجنرو ، اتخاذ مقررات هامة جداً .

انه كا في السابق فوق الخصومات وفوق البشر ، اذا جاز التعبير . والدستور ينص صراحة على انه « نازل من السماء ، مكرم ومصون » ؛ ويضيف الى ذلك انه « لن يكـون موضوع اي تأويل او نقاش » . كان في البدء يظهر علانية مرتدياً الثوب الصيني ؛ ولكنه حين اعتمد الزي الاوروبي لم يعترض عليه احد وبات السير على خطاه مظهراً من مظاهر الادب . وقضى العرف بالسجود في حضرته (والزم الاجانب أنفسهم بالركوع في الشارع عند مروره) ، ولكنه قـد يسمح لاحد المستشارين أو احد الوزراء بالظهور امامه بالـ « كيمونو » والسيجار في الفم وحتى القبعة فوق الرأس . وتفقد محبة الوطن كل معانيها اذا لم تقترن بعبادة الاقنوم المقدس . وفرض الخط الشريف الصادر في السنة ١٨٩٠ (شوكونغو) ، الذي يحدد القواعد الاخلاقية للتعلـيم الابتدائي ، ان يكتسب الولد « الاعتزاز القومي والاخلاص للسلالة والتضحية للوطن». ويجدر الانتباه هنا الى ترابط هذه الصفات . واشتهر الياباني ، الذي أنف من التجريد، بشغفه بالصورة ، كما ان الجماهير التي يسرها وجود الكائن المبارك من الله فيما بينها تشعر بقشعريرة صرعية . الا

ان الدولة توقفت في عهد الميجي عن رعاية الشنتوية ، والبوذية من قبلهـــا ، وتساهلت تساهلا فعليا حيال المسيحية . ويرد ذلك الى الرغبة في الحصول من الاجانب على ابطال « المعاهدات غير المتساوية » : وبما ان الشعب ، ولا سيما الحكام ، لم يقفوا سوى موقف اللامبالاة من رسالة المبشرين (لم يكن هناك سوى ١٠٠٠٠٠ مسيحي في السنة ١٨٩٠)، لم يكن للبادرة،الانتهازية، أية أهمية جدية من الناحية الاجتماعية .

ان استبداد الدوائر والعسكريين لم يتداول لعمري في موازنة الواردات والنفقات العامة الا مع المصالح الكبرى . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان الاحزاب تنازعت المراكز وغالباً مـا ذكرت اعمال العنف الحكامَ بأن الشرف النيبوني لا يسلم ببعض النفاوضات المذلة مع الاجنبي. وقد حدث احياناً ان تعرض بعض كبار الزائرين للاغتيال . وفي ذلك الدليل على ان ذهنيـــة الساموراي الفظة ما زالت تختبىء وراء ظواهر المؤسسات العصرية .

شكلت الكتابة العقبة الكأداء في سبيل نشر التعلم نشراً واسعاً بين الجماهير . فكل مـا امكن تحقيقه في المدرسة الابتدائية هو معرفة واستنساخ ٥٠٠٠ حرف ضروري . ولذلـــك وجب صرف وقت طويل ومال وفير للارتقاء حتى مستوى المدارس التقنية والعليا التي تخرج كبار الموظفين وقادة الفكر .

ولذلك فان اقلية ضئيلة عرفت ما تدين به اليابان للغربيين . فكانت براعـــة التقليد اكثر موافقة في هذه الحالة ، لا سيما وان مخالطة الانكلوساكسون اسفرت عن نمو الجدارة العمليـة . فاليهم طلبت طوكيو الفنيين والاطباء والاساتذة، واليهم فوضت امر تثقيف طلابها؛ فانتشرت قوانينهم التي استطاعت الامرأة اليابانية بفضلها ، على غرار الرجل ، التقدم بدعوى الطلاق . واعترف بالحريات الفردية ، ونشأت صحافة انطلقت انطلاقة سريعة . لا بـــل تناول البحث موضوع جعل اللغة الانكليزية لغة رسمية . وعلى اي حال ، فقد ترجمت مؤلفات كبار الفلاسفة والاقتصاديين والعلماء البريطانيين ترجمة زادت في صعوبتها لغة ظريفة تفتقر الى الوضوح . وقد سبق لـ « هيراتا » تلميذ موتووري ، ان اشاد بالاصلاح الامبراطوري في مؤلفاته التاريخيـــة ؛ وجاء بعده « فوكوزاوا » ، الذي درس الفلسفة في انكلترا ونشر « شؤون غربية » ، فعـــلم التفعية في جامعة « كيو » وفي الصحيفة « جيجي » . وتبارى مع ناكامورا في ترجمة مؤلفات كثيرة . والى هذا التاريخ يعود استئثار « بنتهام » و « جون ستيـوارت مــــل » و « هربرت سبنسر » باستحسان المثقفين اليابانيين التفضيلي ، واقدام « تسوبوشي شويو » على ترجمـــة شكسبير .

وفتنت فرنسا اليابانيين بفكرها وقوانينها. فاستهوت مادية فلاسفة دائرة معارفها « ناكايه » الذي احب كذلك « روسو » و « كونت » . وسوف تعرف تمثيلياته نجاحاً عظيماً دائمـــاً . ولكن الالمان احرزوا تقدماً متزايداً بعد السنة ١٨٨٠ . فقد كان لانتصاراتهم العسكريـــة

وانضباطهم المدني وتحقيقاتهم التقنية اثر كبير في النفوس . فأرسلوا الى اليابان بدورهم الحقوقيين والاطباء والجراحين . ووفرت مؤلفات « ليست » التي ترجمت في السنة ١٨٨٥ - حين عاد « ايتو » من رحلة الى برلين وفيينا بمشروع دستور مقتبس عن الدستور الروسي- الحجج والادلة لانصار اقتصاد قومي خاضع لنظام الحماية . واعجب «كاتو هيرويوكي » بـ « هيغل » ومدرسته .ولن يلبث « نيتشه » ان يستهوي اليابانيين .

الا ان هذا الاقتباس قد اضر في نواح عديدة بأصلية عبقرية الشعب . ففي القصة برزت النزعات نفسها التي برزت في اوروبا يرافقها استعداد طبيعي للرومنطيقية في مؤلفات « كودا روهان»، ثم للواقعية في مؤلفات « شيمازاكي توسون » و « تاهاما كاتاي »، بينما انساق «موري اوغاي » ، مترجم « إبسن » و « سترندبرغ » ، وراء التقليد التصوفي . وبحث الشعر عن اشكال جديدة (شنتاي - شي) في مؤلفات « يامادا » رشيمازاكي ، بينما صمم « اوشياي » و « شيكي مازواكا » على بعث الـ « تانكا » والـ « هاي - كاي » التقليديين . اما المسرح الذي حاول « شويو تسوبوشي » إصلاحه ، فقد عرض بعض مشاهد الامانة الزوجية والبسالة الابية وعرف المشدهدين الاجانب برقصات الـ « غيشا » ، ولكن ما انطوى عليه من عقم سوف يحمل الميكادو في السنة ١٩٠٧ على ايفاد مؤلفين مشهورين لدراسة الفن المسرحي في باريس .

درس الرسامون قواعد رسم الاشياء كما تراها العين ، وسعوا وراء تمثيل نواتج الظل والنور، واستوحوا الطبيعة وحدها لان تمثيل العري كان محرماً : ولكن لم يحظ منهم بالاعجاب والرضى في المعارض الدولية لا مصورو المناظر الطبيعية المشهورون من امثال « هيروشيجي » و «هودا» و « كاواكوبو » ، ولا مصور الصور الهزلية « كيوزاي » من مدرسة « هوكوزاي » . واذا ما زال هناك بعض منتجي المصنوعات التزيينية المهرة وبعض المصورين المائيين الموهوبين ، على طريقة « كارانابي » و « شيبا يوما » ، وبعض النقاشين الاقوياء - يامادي كيزاي بصورة خاصة - فان صناعة الاسلحة قد فقدت علة وجودها ، وصناعة الخزفيات قد عانت من سماجة ذوق الشارين الاجانب ، والبناء لم يعد يجد في الدين مصدر وحي ، فقلد الانماط الغربية المألوفة تقليداً أعمى في الحقل المدني . اما الـ « سامي-سن» (اعواد ذات ثلاثة اوتار) التي تصطحب الاغاني والرقصات ، فقد وجد المجتمع الرفيع ان عهدها قد ولى .

اقض مضجع البعض فساد الاخلاق في اوساط الطبقات الحاكمة نفسها ، ولكن احترام فضائل الجدود في الارياف ومحافظة هذه الارياف على سحرها لم يحملا الميجي على تحسين مصير سكان الارياف تحسيناً ملموساً . فالملاك الصغير ، المرغم على دفع ضريبة عقارية ثقيلة والمحروم حق الانتفاع من الاملاك المشاعية ، عاش حياة صعبة . وسواء كان جني الارز سيئاً أو انخفض سعر الحبوب ، اضطر الى رهن ارضه او الى بيعها . ولكن ٧٤ ٪ من املاك الفلاحين و ٧١ ٪ من الاراضي المستثمرة لم تتجاوز الهكتار مساحة . فاشترى الافراد الاثرياء بأسعار بخسة . وبسبب ازدياد عدد السكان ، ارتفعت قيمة استئجار الاراضي الى ٥٠ وحتى ٦٠ ٪ من قيمة

المحاصيل ، فازدادت حالة المزارعين سوءاً على سوء . وتقاضت اليد العاملة المياومـــة ، التي استخدمها الملاك غير المستثمر اجوراً ضئيلة جداً (٠٫٠٨ ين — ٠٫٤٠ فرنك — حوالي السنة ١٩٠٠) . ثم تحولت الزراعة نحو النباتات الصناعية التي تفضل الارز ربعاً ، لا سيما وان الارز نادراً ما يسد حاجة الاستهلاك . يضاف الى ذلك ان الفلاحين غالباً ما باعوه واكتفوا بالخضار والاسماك . ولكن مهما كان من نشاطهم ومهارتهم في العمل ، فانهم ما كانوا ليعرفوا البحبوحة واليسار باستثمارهم اراضي تقدر بـ ١٢ آراً لكل عائـــلة تقريباً ، بعد ان حرموا دخـل نول الحياكة الصغير ، حتى ولو أخذنا بعين الاعتبار الدخل الذي وفرته لهم تربيـة دود القز . فلا عجب والحالة هذه اذا ما هاجروا الارياف نحو المدن مهاجرة مطردة السرعة .

كانت اليابان من ثم مسرح ثورة في توزيع السكان . فلم تضم المدن سوى ٢٥ ٪ من السكان في السنة ١٨٩٠ : ولكنها ضمت اكثر من ثلثهم بعد مرور عشر سنوات . ولما كان مجموع هؤلاء السكان قد ارتفع من ٣٠ الى قرابة ٤٥ مليوناً ، فان اكتظاظ الارياف بالسكان لم يتـــأثر تأثراً ملموساً بنمو المدن . وقد نجحت الحكومة في توطين ٨٠٠٠٠٠ نسمة — من فقراء الساموراي والجنود الفلاحين — في جزيرة هوكايدو الباردة المناخ التي تصلح لتربية المواشي اكثر من زراعة الارز . وشجعت السفر الى كوريا وهاواي وكاليفورنيا . ولكن اليابانيين انفوا من الهجـرة ، وآثروا تعاطي نشاطات المدن .

على الرغم من ان مقر الميكادو القديم ، كيوتو ، قد بدا لـ « بوسكيه » وكأنه « فرساي خشبي ، متناسق ، كئيب ، محتضر ، خال من الحياة ... » فانه قد نما ، ونمت بجانبه ضاحيـة « افاتا » التي قامت فيها مصانع حياكة ومعامل خزف وميناولك . وعلى المتوسط النيبوني ، سارت اوزاكا قدماً في تقدمها التجاري وألفت مع « كوبيه » مركزاً كبيراً للنشاطـــات النسجية والبحرية : فقبالة ابراج القلعة الشوغونية التي تشرف على شوارعها المرصوفة بالقراميد واقنيتها التي بنيت فوقها آلاف الجسور الصغيرة المحدّبة ، قامت الابنية العامة التي اعتمد فيهـا المبجي الطراز الاوروبي . وكانت يوكوهامـا بالامس مجرد قرية لصيادي الاسماك ، فاصبحت مرفأ للعاصمة بفضل مياهها العميقة ، وجهزت بمصنع بحري ، واتاحت لها تجهيزاتهـــا البحرية الأخرى استقبال اكبر السفن محمولاً . اما طوكيو التي تأسست في احـــد المستنقعات في القرن الثامن عشر فقد تقاربت احياؤها القديمة كما في المدن الصينية : الـ « سيرو » أو القصر الامبراطوري المحاط بالاسوار والخنادق ، والـ « سوتو — سيرو » مع الـ « يشكي » أو قصور اهل المقامات وكبار الموظفين ، والـ « مدزي » الذي كان — كما شاهد « هوبنر » في السنة ١٨٧٧ — « اختلاطاً من الشوارع المطروقة والمقفرة ، والحدائق ، والبساتين ، والمرزّات والرياض والمعابـــد » ، والـ « هونجي » حيث تجاور المستودعات العامة اماكن اللهو والنزهات . فقامت حول هــــذه الاحياء المساكن القرميدية والخشبية والمشاغـل والمصانع . وقـد عاش مليون نسمة في مساحة شاسعة (بين ٨ و ١٠ كيلومترات من الشمال الى الجنوب ومن الشرق الى الغرب) . وطافت

المدينة ابدأ الزوارق الشراعية في البحر والـ « جنريكيشا » ذات العجلتين في الشوارع ، ولكن خطوط الحافلة الكهربائية انشئت واستخدم الهاتف وانتشرت الاضاءة الكهربائية . واختلطت الازياء النيبونية والاوروبية . وما زال افراد المجتمع الرفيع يرتدون في منازلهم الـ « جوبان » أي القميص القومية ، والـ « كيمونو » اي الثوب الضافي الاهداب ، وفي الاحتفالات الـ « كاوري » أي اللباس المنشى الذي لم يخل من التصنع . واذا ما ظهروا بالمروحة والمظلة ، والـ « جيتا » (قباقيب خشبية) في أرجلهم ، فانهم قد ارتدوا كذلك السترة القصيرة والسترة الطويلة المشقوقة الذيل المقتبستين عن البورجوازية الغربية . وما زالوا مولعين بالـ « سونتو » والـ « جودو » ؛ ولكنهم اخذوا يهتمون بالـ « كريكت » وكرة السلة ايضاً .

الى هذه المدن وضواحيها جاء سكان الارياف المعوزون يبحثون عن عمل يؤمنون به معيشتهم . فنشأت من ثم طبقة عاملة اضطرت الى الاكتفاء بأجور كادت لا تتجاوز أجور العمال الزراعيين المياومين . ففي طوكيو تكدست في غرف لا تزيد مساحتها عن مترين مربعين عائلات مؤلفة من أربعة أو خمسة اشخاص تتغذى بحساء وخضار مطهية تفيض عن حاجة الثكنات والمستشفيات لا تدفع ثمناً لها اكثر من فرنك واحد في اليوم . وقد رافق ارتفاع الاجور حركة الاسعار حتى السنة ١٨٨٧ ، ثم توقف بعد هذا التاريخ ، فاضطرت النساء والاولاد الى العمل ايضاً . يضاف الى ذلك من جهة ثانية ان صناعيين كثيرين آثروا تغذية واسكان فلاحات شابات يخضعونهن لاقامة منفردة حقيقية . ولكن القاعدة التي اعتمدت هي عقد العمل لمدة ثلاث سنوات الذي لم يترك للعامل اية امكانية للاعتراض على شروط المعيشة المفروضة عليه . وصدرت في السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩٠٠ قوانين تمنع منعاً باتاً كل محاولة « تحالف » وتعاقبها عقاباً صارما .

في هذه الاثناء كانت بورجوازية الاعمال آخذة بالنمو . فبعد ان ورثت عن الدولة مشاريع عديدة ، حصلت على حق تأسيس شركات مساهمة . وهكذا توطدت سيطرة بعض المؤسسات الكبرى ، الـ « زيباتسو » ، التي استفادت من انخفاض الـ « ين » لتحقيق احتكار واسع في نطاق الصناعة والتجارة بفضل وسائلها المصرفية . فكانت اليابان أسرع من روسيا نفسها في قطع أشواط التقدم ، وهي سوف تعرف رأسمالية الاحتكار في الوقت نفسه الذي سيعرفها فيه الغرب . وسوف توطد اوليغارشية الاثرياء هذه مراكزها بفضل الانطلاقة الشاملة التي ستعرفها اليابان بين السنة ١٨٩٥ والسنة ١٩١٤ .

ولكن الواقع الذي لا مفر منه هو ان الارخبيل الياباني ، شأن الارخبيل البريطاني ، كان مضطراً الى التصدير لتأمين حاجاته . وقد عاني من تقيده بمعاهدات لا تتيح له مقاومة المنافسة الاجنبية مقاومة فعالة . يضاف الى ذلك ان صناعته الحديثة العهد جداً كانت مفتقرة الى الفنيين وبعض الخامات الهامة وحتى رؤوس الاموال . فحدث احياناً ان بيع الارز للتمكن من شراء القطن والحديد والآلات . وقد زاد من ضرورة معادلة الميزان التجاري ان البلاد مدينة للخارج . فهو مستوى الحياة المتدني وكد الفقراء ما أتاحا تحقيق النهضة .

أظهرت الموازنة العبء الثقيل الذي تمثله الضريبة العقارية في الواردات ، ودفع المتأخرات وتعهد القوى المسلحة في النفقات . ولكن التوسع بدا للعديد من اليابانيين وكأنه حاجـة ملحة. واذا لم تستهو المغامرة الرأسماليين ، فربما استهوت العسكريين الغُير على امتيازاتهـم . فتقرر في السنة ١٨٩٤ اختيار وزيري الحربية والبحرية بعد ذاك التاريخ من بين القادة وامراء البحر ، وقد نشبت الحرب في السنة نفسها مع الصين . فهل يجب اعتبار هذه الحرب بمثابـة عملية إلهاء؟ فمنذ انتخابات السنة ١٨٩٠ العامة تكوّن « حزب الشعب » ، المناوىء لرجال الجـنرو ، الذي انتقد الادارة الحكومية ، ثم توسع نفوذه مرة أخرى في شهر آذار من السنـة ١٨٩٤ : حـين اتضحت معارضة البورجوازيين لحزبي ساتسوما و شيوشيو . وسوف يحقق الحمـاس الوطنـي مرة اخرى الوحدة حول العرش الامبراطوري ، وهي الحرب الظافرة التي ستدفع الثمن .

منذ السنة ١٨٨٩ اصدر كبلنغ حكمه الصائب في اليابانيين : « انهم رجال خبثـاء قصار القامة يعرفون اكثر مما نتصور » .

احرزت اليابان انتصاراتها الاولى في شهر حزيران من السنة ١٨٩٤ . وفي شهر تموز وقعت مع انكلترا اتفاقية تجارية أبطلت احدى المعاهدات غير المتساوية ، ثم رشحت لان تحتل مركزها بين الدول العصرية العظمى بفضل نظامها العسكري ونزعتها التوسعية .

القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

قبل أن يخيم الظل على ملامح القرن التاسع عشر لاحت في الافق ملامح عصر جديد خلال السنوات التي سبقت الحرب العالمية الاولى .

الا أن ذلك لا يجيز الاعتقاد بأن كل شيء قد نيط بالكارثة التي أحس بها وخشيها وأعدها رجال هذا الجيل .

ما زال الاقتصاد الرأسمالي يمتلك قوة حقيقية ، ولكن نزعته الاحتكارية تعاظمت بعد أن باتت المنافسة أشد عنفا يوما بعد يوم ، فكانت تلك الايام أيام الدول الاستعمارية الكبرى . واذا ما وطدت البورجوازية مراكزها ، فان الطبقات الكادحة قد أحرزت بعض التقدم ورُشّحت الاشتراكية لخلافة فرضية ممكنة .

أشارت بعض الدلائل منذئذ الى ان اوروبا خلفت وراءها ساعات اولوية لا جدال فيها . اجل لقد جاء الاسهام السامي في الفتوحات التقنية والعلمية المستمرة والتجدد المدهش في الخلق الفكري والفني برهانا على ديمومة حيوية فكر قوي وحازم ؛ ولكن الارتيابات التي حامت حول قيمة النجاحات المحققة عبرت عن قلق يمت بصلة الى تأزم الخلافات الاجتماعية والدولية . وكي لا يحدث ما لا يرتق فتقه ، كان من الواجب ان يدوم السلم – مهما بلغ من وقتيته ، من حيث هو سلم مسلح .

الفصل الأول

وثبة جديدة الى الأمام

تكاثر البشر

لم يستمر ارتفاع عدد سكان العالم استمراراً فحسب ، بل ازداد ازدياداً مطرد السرعة . فارتفعت نسبة الزيادة السنوية بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ ارتفاعاً اسرع منة بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٩٠٠ . الا ان هذه الزيادة ابطأت في اميركا الشمالية واوقيانيا ، بينما هي اتصفت بمزيد من الزفوف في آسيا واميركا اللاتينية واوروبا . وانما يلفت الانتباه من جهة ان كندا كانت اكثر استفادة ، من حيث ان تقدم الولايات المتحدة كان محدوداً ، ومن جهة ثانية ان نسبة النمو الاوروبي ، اذا ما استثنينا روسيا الاوروبية ، ربما كانت اقل حجما كذلك (اذ ان نصيب روسيا وحدها كان ٣٤ مليونا مقابل ٨٧) .

اعار المعاصرون انخفاض نسبة الولادات اهمية كبرى . وقد برز هذا الانخفاض في كافة البلدان الاوروبية (باستثناء البلدان البلقانية) بما فيها روسيا ؛ وكان ملموساً جداً في البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحار ، ولكنه لم يثر اهتمام مناطق الرياح الموسمية في آسيا ، ولا الهنود الاميركيين ، ولا الافريقيين في الارجح . واشار العديد من المراقبين بقلق – قرناً بعد مالتوس – الى انحطاط العرق الابيض ، وتخوفوا من « الغزو الاصفر » وتكلم « لروا-بوليو » عن « مسألة شيخوخة الامم الرهيبة » ونندد « بالوثنية الجديدة » اي « الابتعاد عن المعتقدات والتقاليد القديمة » . فيتضح من ثم كيف ان لهجة الاقتصاديين الاحرار تبدلت تبدلا بيناً : اخذوا يقيمون صلة بين نقصان المواليد وارتفاع مستوى المعيشة ، مستندين الى ان سوء التغذية وفقدان التدابير الصحية ربما يفسران قوة الوثبة الحيوية في الصين والهند مثلا .

وعلى أي حال فان زيادة الولادات على الوفيات ربما كانت اقل حجماً لو لم ترتفع نسبة الوفيات ايضاً : وهي ظاهرة تثبت توفر ظروف صحية وغذائية فضلى تجلت بصورة خاصة في اكثر

المناطق الاوروبية تطوراً وفي بلدان ما وراء البحار حيث حالت بعض الشيء دون خطر تزايد عدد السكان .

تبرز خريطة تصنيف الامراض في الكرة الارضية ، بوضوح مؤثر ، التضاد بـين الرقعة الاطلسية الشمالية التي تكثر فيها الامراض الاجتماعية، وبين الاقسام المتبقية من العالم التي ما زالت تعنيها إما الامراض الموضعية وامراض المناطق الحارة وإما الاوبئة الآسيوية الكبرى كالطاعون والكوليرا والجذام .

بدت من ثم معرفة حياة الافراد الطبيعية والعقلية وكان من شأنهـا تعزيز الآمال التفاؤلية المعلقة على الثقة العمياء بامكانات العلم . والكل يعلم ان اواخر القرن سجلت عـدداً من اعظم الاكتشافات اهمية في حقلي الطب والجراحة . فقد شرع « لويس لابيك » آنذاك ابحاثه حول الفيزيولوجية العامة للجهاز العصبي واجلى مدلول الـ *chronaxie* أو الوقت الفيزيولوجي الخاص بقابلية تحرك الاعصاب ، واتسع حقل السيكولوجية الاختبارية بفضل ابحـاث « ريبو » و « ووندت » و « بافلوف » و « ماخ » ، وبدأ « سغموند فرويد » يستكشف العقل الباطن ، ويكشف الاثر الجنسي في الامراض العصبية ، ويقترح الاستقصاء السيكولوجـي كأسلوب للمعالجة . وتنظمت في الوقت نفسه دراسة اضطرابات النشاط التصوري الخاص (التأثر المفرط، الصرع) والامراض التي تؤثر على الحركة (*apraxie*) والحواس والكلام (*aphasie*) . وبينما حقق علم الاجنة نجاحات جديدة بفضل جهاز « شابري » ، جدد « توماس ـ هونت مورغان » علم الوراثة انطلاقاً من عناصر النواة الملونة في الخلية ، واكتشف « فونك » الفيتامينات و « لند ستاينر» الفئات الدموية، واستعاض «تيريون» و « تيريه » عن المناعـة بطريقة استئصال الجراثيم بدون استعمال مواد مضادة وذلك بالعودة الى تعاليم « باستور » . ومن الصين جاءت طريقـة المعالجة بوخز الابر .

نزوحات السكان الكبرى وتوسع المدينة

يلفت الانتباه ان الامم البيضاء في القارات الجديدة خشيت منذ ذاك التاريخ هجرة الملونين اليها ولا سيـما الآسيويين منهم . وبالمقابلة لم يحدث ما يحد من الخلـل المتسبب عن المهاجرين اليها من اوروبا . واذا استطاعت المانيا الحؤول دون نزوح مواطنيها ، فان بريطـانيا العظمـى وايرلندا ما زالتا ترسلان الى البلدان الانكلوساكسونية في ما وراء البحـار اعـداداً كبرى من المهاجرين الذين استوعبت كندا نصفهم .

الا ان اعظم موجة نزوحية سجلها التاريخ قد خففت في الحقيقة عبء اوروبا المتميزة بنسبة عالية جداً من الولادات في الارياف . فقد توجه فقراء شبه الجزيرة الايبيرية وشبه الجزيرة الايطالية باعداد وفيرة الى البرازيل والارجنتين اللتين استقبلتا منهم اكثر من ٣ ملايين بـين

السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٣ (وقد نزل نصف مهاجري السنة ١٩١٠ الى البرفي «ريو دي لابلاتا») وبلغ مجموع الايطاليين والسلافيين واليهود الذين نزحوا الى الولايات المتحدة ١٤٦٠٠٠٠٠ من اصل ٢٠٧٠٠٠٠٠ مهاجر ؛ واستقر بين ٦ و ٧ ملايين روسي في قفقاسيا وسيبيريا .

اما تيارات الهجرة من بلدان تتوفر فيها اليد العاملة الى بلدان مجاورة تفتقر اليها فكانت اقل اتساعاً واكثر ارتباطاً بفصول العمل . وهكذا فان فرنسا باتت بلاد اغتراب لكافة شعوب البلدان المحيطة بها ، وقد تجاوز عدد الاجانب فيها المليون نسمة ؛ ولكن المانيا نفسها استقبلت عدداً من البولونيين ، كما قصد بعض المكسيكيين الولايات المتحدة .

أعيق الصُفر في توسعهم في المناطق المعتدلة المناخ التي يسيطر عليها البيض فتدفقوا على جزر وشواطىء الشرق الاقصى : استعمر الصينيون بأعداد كبرى منشوريا حيث نزح كذلك كثير من اليابانيين الذين لم يجدوا لهم مكانا في هوكايدو او هاواي ؛ وتقاطروا دون انقطاع الى الهند الصينية والانسولند . أما الهند فقد هاجر عدد ضئيل من سكانها الى المستعمرات الاوروبية في ما بين خطي الجدي والسرطان .

ان الذين لم تؤمن الاراضي الزراعية القديمة معيشتهم ثابروا على إحياء الاراضي الجديدة واستثمار المنجم ، ولكنهم خضعوا بالتفضيل لجاذب المهنة المدنية . فنمت المدن نمواً مطرد السرعة في كافة البلدان ؛ وقد شمل هذا النمو كافة المناطق . فبين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٠ ، قفز عدد المدن التي تجاوز سكانها الـ ١٠٠ الف نسمة من ١١٨ الى ١٨٣ في أوروبا (كان ٤٢ في السنة ١٨٥٠) ومن ٣٢ الى ٤٨ في الولايات المتحدة. ودخلت في عداد المدن الهامة التي قاربت المليون نسمة، اذا لم تبلغ هذا العدد بعد ، ريو دي جانيرو وبوينوس ايرس ، كلكوتا وبومباي، طوكيو واوزا كا وشنغاي وهان - كيو في الارجح . وان انقلاب ميزان القوى على حساب سكان الارياف ، الذي حصل في بريطانيا العظمى ، قد حدث آنذاك في المانيا والولايات المتحدة ، ولن يلبث أن يحدث في فرنسا واليابان .

فتوطد من ثم ، في اواخر القرن ، نفوذ القطاع المدني بقوة لم يعرفها في اي يوم مضى ، وكان تعبيراً عن نداء النشاطات الصناعية والتجارية الذي لا يقاوم .

تجدد النهضة الاقتصادية (١٨٩٥ - ١٩١٤)

ابتداء من السنة ١٨٩٥ لاحظ المعاصرون انقلابا في حركة الاسعار العالمية ، التي اخذت في الانخفاض منذ السنة ١٨٧٣ ثم اخذت في الارتفاع . ويبدو ان ظاهرة الارتفاع لم تكن قصيرة الاجل ، اذ ان حركة تجدد النهضة قد استمرت استمراراً متواصلا. فاذا حددت نسبة الاسعار العامة بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين ، لتبين انها كانت ٩٠ في السنة ١٨٨٧ ، و ٨٣ في السنة ١٨٩٥ ادنى نقاط الخط البياني - ثم ارتفعت الى ٩٥ في السنة ١٩٠٠ ، وبلغت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . اجل لسنا نلاحظ النسبتين ١٤٠ (١٨٧٠) و ١٤٥ (١٨٧٣) حتى ولا النسبة ١٢٠ (١٨٨٠)،

ولكن هذه العودة الى الارتفاع تبدو من الاهمية بمكان اذا ما أخذنا بعين الاعتبار التزايد المظيم في حجم السلع المعروضة . وتتعلق هذه العودة بأجور النقل البحري (أصبح نقل ١٠٠ كيلو من نيويورك الى ليفربول يكلف ١٧،٦٠ فرنكاً في السنة ١٩١٣ بـــدلا من ١٤،٦٠ في السنة ١٨٩٢) وببضائع استهلاكية كثيرة . وهكذا اذا ما حددت نسبة اسعار ٢٠ مادة غـــذائية ضرورية في فرنسا بـ ١٠٠ في العقد الاول من القرن العشرين، لتبين انها كانت ٩٥ في السنة ١٨٩٢ وناهزت ١١٢ في السنة ١٩١٤ . فقد ارتفع إنفاق العائلة العمالية بنسبة ١٠٪ تقريباً في باريس . وهي كلفة الكراء التي ارتفعت اكثر من كلفة الخبز أو اللحم ، على كل حال ؛ ويلفت الانتبـاه بصورة خاصة ارتفاع كلفة المعيشة في الفنادق العائلية .

والحال تُثبت الاحصاءات توسع النشاط . فقد قدر مجموع اصدارات الاوراق المالية المنقولة بـ ١٩٧٨٠٠ مليون في السنة ١٩٠١ والسنة ١٩١٠ مقابل ١٠٠٤٠٠ بــين السنة ١٨٩١ والسنة ١٨٩٠ ، و ٦١٥٠٠ بين السنة ١٨٨١ و ١٨٩٠ . وارتفـــع حجم رؤوس الاموال التي وظفهـــا البريطانيون من ٤٢ الى ١٠٠مليار تقريباً بين السنة ١٨٩٣ والسنة ١٩١٤ ، والفرنسيون من ٢٠ الى ٦٠ ، والالمان من ٧ الى ٤٤. وتضاعف تقريباً مجموع النقد الاجنبي الموجود فيفرنسا بينالسنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٢ (٤٠ ملياراً بدلا من ٢٠) . واستخدمت مؤسسات الولايات المتحـــدة الصناعية والتجارية ١١٤ ملياراً في السنة ١٩١٤ بدلا من ٤٨ في السنة ١٨٩٩ . وعلى الرغم من الاحتكار وجمع المؤسسات ارتفع عدد الشركات المساهمة في معظم البلدان الرأسمالية الكبرى : فقفز بين السنة ١٩٠٠ والسنة ١٩١٤ من ٣٣٦٦ الى ٩٤٣١ في فرنسا ، ومن ٢٩٧٣٠ الى ٦٠٧٥٤ في بريطانيا العظمى .

ارتفعت النسبة العامة للانتاج الصناعي من ١٠٠ في السنة١٨٩٩ الى ١٧٥،٧ في السنة ١٩١٤ . واستُخرج ٥١٢ مليون طن فحماً حجرياً في السنة ١٨٩٠ و ١٣٤٠ في السنة ١٩١٣، كما استخرج ٩٨ مليون طن حديداً في السنة ١٨٩٠ و ١٤٥ في السنة ١٩١٣ . ولم تبلغ نسبة انتـــاج الوشائج النسجية ، في العقد التاسع من القرن التاسع عشر سوى ٤١،٥ للقطن و ٦١ للصوف و ٦٧ للكتان و ٥٩ للقنب و ٢٦ للقنب الهندي مقابل ١٠٠ قبيل الحرب العالمية .

وارتفع الانتاج الزراعي ارتفاعاً حثيثاً ايضاً . فالنسبة ١٠٠ في السنة ١٩١٣ قابلتها النسبة ٣٦ في الولايات المتحدة والنسبة ٢٧ في روسيا في السنة ١٨٩٠ . وازداد استهلاك الفرد للحنطة ازدياداً ملموساً: فبينما بلغ عدد سكان المانيا في السنة ١٩١٤ ٣٠ بالمائة اكثر منه في السنة ١٨٩٠، بلغت نسبة ارتفاع انتاج الحبوب ٨٠ بالمائة ؛ وقد بلغت هاتان النسبتان بالمقابلة ٢٥ و ٥٠ بالمائة في بلجيكا . واستهلك الاوروبيون مليون طن ونصف المليون من السكر في السنوات ١٨٩٨ - ١٩٠٠ و ٦ ملايين في السنة ١٩١٣ . وفي اليابان ارتفع استهلاك الاسماك بسرعة . اضف الى ذلك ان ألمانيا استخدمت أربعة أضعاف الاسمدة الكيميائية التي كانت تستخدمها ، كي تتمكن من مواجهة حاجاتها الجديدة .

وتضاعفت قيمة التجارة الدولية خلال ١٣ سنة بعد ان تضاعفت خلال ٣٠ سنة (٥٢ ملياراً

في السنة ١٨٧٠ ، و ١٠٤ في السنة ١٩١٠ ، و ٢٠٣ في السنة ١٩١٣) . وارتفع تصدير المصنوعات بالنسبة للشخص الواحد من ٥٢ فرنكاً الى ١٠٥ فرنكات في فرنسا ومن ٥٣ الى ١٢٥ في المانيا بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٩١٣ . وارتفع حجم تجارة الخيوط القطنية من٤٧٣١ طنا الى ١١٩٨٦ بين هذين التاريخين نفسيهما .

فكانت النتيجة اثراء لا منازَع فيه قد يعطينا الدليل عليه تقدير الدخل القومي : ٣٦ ملياراً في فرنسا في السنة ١٩١٣ مقابل معدل ٢٧ ملياراً بين السنة ١٨٩٠ والسنة ١٨٩٩ ، و ٦٠٠ في بريطانيا العظمى مقابل ٤٠٠ ، و ١٧٥ في الولايات المتحدة مقابل ٦٠ ، و ٥٠ في المانيا مقابل ١٧ . وقد ارتفع معدل الدخل الفردي في اميركا من ٣٥٧ دولاراً الى ٥٠٢ بين السنة ١٨٨٩ والسنة ١٩١٣ .

واذا تحقق احراز النجاحات في الولايات المتحدة وفي معظم الدول الاوروبية نفسها (ومنها ايطاليا والنمسا وروسيا) ، فان الانطلاقة ارتسمت بصورة مفاجئة في العالم الجديد (كندا والمكسيك والبرازيل والارجنتين) وفي افريقيا (الجزائر ومصر) وفي آسيا (الهند والصين واليابان) . اجل لقد كانت السرعة متفاوتة ، ولكنها كانت شاملة .

ومما يلفت الانتباه ان النشاطات الزراعية ليست وحدها ما هبطت هبوطاً نسبياً في اكثر البلدان تطوراً ؛ فان القطاع الصناعي قد بات اقل تقدماً ،بعد اليوم ، من القطاع المعروف بالقطاع الثالث اي ذاك الذي يختص بتوزيع الممتلكات وبالخدمات العامة . وقد لوحظت الظاهرة بوضوح منذ السنة ١٩٠٠ في الولايات المتحدة؛ ولكنها ما لبثت ان اصبحت محسوسة في شرقي الاطلسي ايضاً . وان في ذلك لدليلا على التبدل القريب ، العميق جداً ، الذي سيطرأ على توزيع المهام البشرية في الغرب .

اجل لقد جاءت ثلاث ازمات – في ١٩٠٠ و ١٩٠١ ، و ١٩٠٧ ، و ١٩١٢ – تذكّر دونما رحمة بأن الاقتصاد العالمي ليس بأمن من الهزات ، حتى في مراحل تقدمه . الا انها لم توقف الوثبة العامة البتة . ولم يتردد بعضهم ، كـ « ميلين » في فرنسا ، في تشهير «الافراط في الانتاج » و « الجنون الذي يدفع كافة البشر الى الانتاج اكثر فأكثر يوماً بعد يوم » . وقد فكر رئيس الولايات المتحدة ، « تافت » ، بالدعوة الى مؤتمر تكون مهمته ايجاد الوسائل الكفيلة بمقاومة ارتفاع كلفة المعيشة . ولاحظ آخرون بفرح شديد ازدياد الاستهلاك ، فكان موقفهم شبيهاً بموقف « جول سيمون » الذي قارن في السنة ١٨٩١ بين العصر الذي كان فيه والعصر الذي عرفه في شبابه ، فقال : « نحن اليوم قد ألفنا ملاذ « كانوا » .

أما أسباب تجدد النهضة العظيمة هذا فتفتح باب مجادلات كثيرة . فقد طاب للاقتصاديين الاحرار التشديد على دور المطابقة الجديد بالاعتبار بين تزايد عدد السكان من جهة ، وتزايد الطلب ومن ثم تزايد الانتاج والتبادلات من جهة ثانية ؛ وكان من شأن ذلك تخطئة مالتوس

مرة اخرى . وربما توجب كذلك أن تكون قدرة الجماهير على الشراء قد نمت نمواً كافياً لان يحدث انقلاب الاتجاه هذا ؛ ولكن ارتفاع الاجور الحقيقية ، خلال فترة الانحطاط السابقة ، بينما كانت الارباح الرأسمالية تتدنى تدنيا مستمراً ، قد تفسر ذلك . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان مكافحة الافراط في المنافسة بفضل اعادة تنظيم المؤسسات كان من شأنه كذلك ايقاف انخفاض الاسعار ، علة خمود المهمة ، واصلاح السوق ؛ وعندما تصبح قسمة الارباح اكثر مطابقة للعقل ، يتزايد توظيف الاموال .

ولكن مصادفة تجدد النشاط وتدفق المعدن الثمين معاً لم تفت انصار نظرية النقد الكمية . ففي السنة ١٨٩٥ ادرك « والراس » ان اثر ذهب الترانسفال في الاقتصاد المنحط سيكون اشبه بأثر منشط قوي . وفي الواقع ألقت اوستراليا الغربية وكولومبيا البريطانية وآلاسكا وافريقيا الجنوبية ، الواحدة تلو الاخرى ، في التداول ، كميات ضخمة من المعدن الاصفر . فبلغت الكميات المتداولة في السنة ١٩٠٤ اربعة اضعافها في السنة ١٨٨٥ . وقد انضمت الولايات المتحدة والنمسا وروسيا والهند واليابان الى معسكر المعدن الواحد ؛ ففرضت قاعدة الذهب نفسها . وكان من شأن ذلك اتساع التعامل بالدين ، وارتفاع اسعار الاوراق النقدية بسبب تجمع اموال الادخار في جيوب الافراد .

واستند بعضهم الى نظام الحماية . واعتبر سواهم ان حروب افريقيا الاستعمارية ومنازعات الشرق الاقصى ونشاطات التسلح قد كان لها دورها الفعلي في ايقاف انخفاض الاسعار والارباح ، كما حدث بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ ، لانها احدثت نزلا في مواد الاستهلاك وقوضت الثروات : واذا كان للذعر الذي سببته هذه الاحداث تأثيره السيء على المصفق ، فان سد حاجات القوى المسلحة قد ثبت اسعار المواد الخام وسير الاعمال في المؤسسات الهامة . اما الماركسيون فقد انتقدوا الاقتطاع الرأسمالي الذي شجعه التدني النسبي في الاسعار واعتبروا تطور النظام تطوراً عضوياً في اتجاه الاحتكارات دليلا على انحطاط عضال . واعتبروا كذلك الظرف مؤاتياً لنشاط المأجورين .

من عصر البخار الى عصر الكهرباء

تظهر ارقام الانتاج انطلاقة استخراج الفحم الحجري العجيبة . لذلك ما زالت السيطرة للفحم الحجري في السنة ١٩١٤ . وقد وفر آنذاك للانسان ، بحسب بعض الاحصاءات ، ٨٧ بالمائة من الطاقة واكثر من ٩٠ بالمائة مع الخشب المتفحم ، بينما لم يوفر البترول والغاز سوى ٧ والقوى المائية ٣٫٢ ؛ وبحسب احصاءات اخرى يجب الا ينسب اليه سوى ٧٥ بالمائة فقط من حيث ان الخشب وفر ١٥ بالمائة تقريباً . وسُير ٨٩ بالمائة من السفن بالفحم الحجري و ٨ بالمائة بالاشرعة و ٣ بالمائة بالبترول : فقد انتصر مسخن الماء من ثم على المركب الشراعي قبل ان يقلقه المحرك الذي يدار باحراق البترول . لقد تلوث منظر مناطق المصانع بدخان الفحم الذي تنفثه المداخن المرتفعة . فال « مدلندس » البريطانية والمنطقة الرينانية الوستفالية وحوض « سانت — اتيان » وحوض

بتسبورغ ، كلها بلدان سوداء نموذجية تتميز بها الحضارة الصناعية في القرن التاسع عشر المشرف على الانصرام، اعني بها حضارة الفحم الحجري والحديد والفولاذ التي شوهت الطبيعة واذلت الانسان.

والحال ولدت الكهرباء لتفتح آفاقاً اكثر بشاشة . اجل سوف تطلب مساهمة المنجم حتى بعد اكتشافها ، ولكن المهندس التفت الى الماء الذي ينحدر شلالات من الجبال، فولدت الطاقة المائية هذا الفحم الآخر الذي اطلق عليه اسم لا يخلو من الظرافة هو الفحم الابيض . فمنذ السنة ١٨٦٩ – سنة حصول « غرام » على براءة اختراع مولد كهربائي ذي تيار متصل – التي اعد فيها « برجيس » لمصنع الورق في « لانسي » شلالا يبلغ ٢٠٠ متر ارتفاعاً ، ومنذ ان نجح « مارسيل دبريه » في نقل الطاقة للمرة الاول الى معرض مونيخ – وقد اجري هذا الاختبار ، بعد مرور فترة قصيرة ، بين فيزيل وغرينوبل – اتاحت العنفة والدينم ، اللذان أحكما تدريجياً ، تحويل الطاقة المائية الآلية الى طاقة كهربائية . وقد لعبت العنفة المائية في مصنع انتاج الكهرباء بواسطة الماء الدور الذي لعبته العنفة البخارية في مصنع انتاج الطاقة الحرارية . وبينما صمم « فورنيرون » منذ السنة ١٨٢٧ العنفة الثانية التي بلغ انتاجها ٧٠ بالمائة لم تتحقق العنفة الاولى الا بعد السنة ١٨٨٤ بفضل السويدي «دي لافال» والانكليزي « بارسونز» : اشتق نموذج لافال من عجلة برانكا التجارية الدافعة (١٦٢٩) وعرف بالعنفة المحركة او المتساوية الضغط ، بينما عرف نموذج « بارسونز » بالعنفة غير المتساوية الضغط ؛ وكانت هذه سريعة جداً وتلك اقوى منها الى حد بعيد ؛ ولكنهما اعطيا كلاهما انتاجاً مرتفعاً جداً (٩٠ بالمائة) . فأتيح من ثم انتاج الكيلواتات انطلاقاً من الاحصنة البخارية .

بدأ بالتالي عصر الكهرباء مع عهد هذا المحرك الجديد الذي كان بالنسبة للآلة البخارية التناوبية ذات المكبس ما كانته هذه الآلة بالنسبة لآلة « نيوكومن » الهوائية .

اما نقل الطاقة الكهربائية فقد استلزم تحويلا في التيار حققه « غولار » . فاذا زيد فرق الطاقة بين طرفي خط كهربائي عشرة أضعاف، ازدادت الطاقة المنقولة مائة ضعف. ولكن خطر التوتر العالي والصعوبات التي انطوى عليها عزل الخطوط الناقلة حالت زمناً طويلا دون النقل الى مسافات بعيدة . وفي السنة ١٨٩١ ، عجب الناس من ان « فرانكفورت » تمكن ، بواسطة مولد التيار الكهربائي التناوبي (المعروف باسم مبتكره « تسلا ») ، من استخدام الـ ١٥٠٠٠ فولت المنتجة على الـ « نكار » على مسافة ١٤٠ كيلومتراً . ولذلك اقيمت مصانع الطاقة الحرارية من جهة على مقربة من المراكز البعيدة عن الجبال او الشلالات، ومن جهة ثانية فكر الناس باقامة التجهيزات التي يمكن عزلها بسهولة على مقربة من الجبال والشلالات . وفكروا بادىء ذي بدء باستخدام اما مياه المنحدرات القوية واما الشلالات الطبيعية (كشلال نياغارا مثلا) ؛ ولكنهم لم يلبثوا ان أنشأوا الشلالات بواسطة السدود الاصطناعية .

الا ان المصانع الحرارية ، التي كان تجهيزها سهلا ، قد انتجت تياراً مرتفع الكلفة ، في حال ان الفحم الابيض الذي يستلزم تجهيزات باهظة الاكلاف قد وفر التيار بكلفة دنيا . ولكن

الكهرباء ، على نقيض المنجم ، قد وزعت النشاطات ؛ وخلقت كذلك منظراً صناعياً جديداً لا يشوبه الدخان والغبار ، كان اكثر توافقاً والاطار الطبيعي ، ولم يخل من بعض العظمة حين تنتج الكهرباء من الماء . وقد حيا الامير كروبوتكين ، العالم والفوضوي ، مجيء هذه القوة المحررة .

استطاعت الساحرة ان تغمر بعطاياها بلداناً افقدها الفحم الحجري الحظوة : كاتالونيا ، سويسرا ، ايطاليا الشمالية ، سكنديناڤيا ، كندا ، وحتى اليابان. وقد اعتمدت اماكن عدة هذا المنبع الضوئي دون ان تعرف غاز الاضاءة من قبل،كما بنت اماكن اخرى الخطوط الحديدية قبل ان تنشىء طرقات جيدة . ولكن ذلك استلزم الكثير من رؤوس الاموال والعديد من الفنيين. فحوالي السنة ١٩٠٠ دفعت اعمال الانارة الكهربائية الى تأسيس شركات مساهمة قوية تشرف اما على انتاج التيار واما على تقديم المواد . ولكن الاهتمام بزيادة الدخل دفع الى تجهيز اوفر المساكن ثروة او ارفعها مستوى معيشياً بامكانات خلاقة مستعجلة . ويلفت الانتباه ان اميركا الشمالية احتلت مركز الصدارة في انتاج الفحم الابيض ، اذ كان لديها في السنة ١٩١٠ سبعة ملايين حصان بخاري (انتج شلال نياغارا وحده منها اكثر من مليون) ، مخلفة وراءها فرنسا والمانيا وايطاليا (مليون واحد في كل منها) والسويد ونروج وسويسرا (١/٢) . كما يلفت الانتباه كذلك ان بريطانيا العظمى ، التي نامت على غار اولويتها الفحمية،لم تحتل آنذاك سوى مرتبة وضيعة ، لا سيما وانها افتقرت الى الشلالات السهلة التجهيز . ولكن الترتيب يتبدل اذا ما اخذت المصانع الحرارية بعين الاعتبار .

في الحقيقة لم يتوفر النور الكهربائي بعد الا لعدد ضئيل من البشر . اجل ان مصباح اديسون ، الذي استهلك في البدء ٤,٤ وات للشمعة الواحدة ، لم يستهلك سوى نصف وات بفضل استخدام التونغستين ابتداء من السنة ١٩١٣ ؛ ولكنه لم يتقدم بعد على مصباح « اوير » الغازي . وعلى الرغم من ذلك كان للارياف حتى الغيرة من المدن .

احتل المحرك الكهربائي مكاناً ضيقاً ، ولم يستلزم عناية كبرى ، وادير بسهولة ، واعطى انتاجاً بلغ وتجاوز ٨٠ بالمائة ، ولكنّه اذا لم يستمد الطاقة من مراكم غير ثقيلة معبأة بشحنة تكفي لمدة طويلة ، فقد وجب ان يستمدها من التيار بواسطة خطوط ناقلة ممدودة فوق الارض او تحتها اذا استخدم للجر . ولذلك لم يستعمل بسهولة للجر الا على مسافات قصيرة : فسيرت بالكهرباء الحافلة البخارية او الحافلة التي تجرها الاحصنة منذ السنة ١٨٩٧ في لندن وفي معظم المدن الهامة من بعدها ؛ ثم استهوت وسيلة النقل هذه مدناً اخرى ؛ وقد فكرت بها العواصم الكبرى حين ارادت القيام ببناء الخطوط فوق الارض او تحتها ، كخط الـ « مترو » في باريس مثلاً . اما كهربة الخطوط الحديدية فسوف تنتظر تحسينات تقنية جديدة قبل ان يواجه استخدامها على نطاق واسع :ولكن لن يطلب منها سوى تسهيل تسلق المنحدرات القوية واجتياز الانفاق الطويلة .

على نقيض ذلك تكشف توزيع القوة المحركة عن مزيد من الاغراء كلما اعتمدت هـــذه القوة في عمل ينجز في مكانه . فان استخدام الهواء والماء المضغوطين او الاسلاك الناقلة القوة الى مسافة بعيدة كان يستلزم تركيبات محدودة الانتاج بسبب الاحتكاكات المختلفة . وحلت كذلك محل التحويلات الآلية تحويلات كهربائية تحققت باستخدام الدينمو في تسيير الآلة البخارية او العنفة المائية ، ما لم يكن التيار ناجماً عن التوزيع . وحدث ما هو اهم من ذلك ، اذ امكن تجهيز المثاقب والمقصات والغرانق والجسور الدائرة ، التي لا تستطيع السيور تحريكها بسبب انتقالها من مكان الى آخر ، بمحركات كهربائية . فبدا ممكناً بعد ذلك تسيير كل اداة صغرى ، وحتى كل آلة كبرى ، في المعمل وفي البيت ، دون ان تنبعث منها الحرارة والرائحة وحتى الضجة .

وانما اذا لم يستطع السلك بعد من نقل القوة المحركة الى مسافات طويلة ، فهو قد اجتازهـا لحمل رسائل الانسان واسماع صوته . فاتقن التلغراف والهاتف يوماً بعد يوم واتسعت شبكتاهما . وحين اخترع كازلّي الـ « بان تلغراف » (التلغراف الشامل) ، اعتقد الناس بامكانية نقل الصور كهربائياً . اما « كورن » الذي استخدم خاصيات السينيوم ، فقد حسن الطريقة في السنة ١٩٠٣ ، فحصلت الـ « الومتراسيون » على احتكار براءة الاختراع في فرنسا . وفي تاريخ لاحق وضـــع جهاز بلين لنقل الرسوم الجسادية ، تحت تصرف الصحف والشرطة ، وسيلة إعلامية حساسة وامينـــة .

وانما كان مقدراً لاختراع التلغراف اللاسلكي ان يثير الاعجاب اكثر من أي اختراع آخر ، لأنه جعل الكهرباء تبث عبر الفضاء اصواتاً واضحة سهلة الادراك بدون خطوط ناقلة . وقـد جاء هذا الاختراع نتيجة لابحاث طويلة . فقـــد سبق لـ « ماكسول » ان لفت الانتبـــاه الى موجات توصل « هرتز » في السنة ١٨٨٦ الى كشفها بواسطة « عازل » والتقاطها في « رنانـة » لا تتصلّ بأي سلك . وكان مقدراً لهذه الموجات الهرتزية ان يروضها « ادوار برانلي » و « اوليفر لودج » اللذان ابتكرا في آن واحد تقريباً من السنة ١٨٩٠ كاشفاً افضل هو « الملحم » البرادي ، و « بوبوف » الذي اخترع الهوائي اللاقط ، و « ماركوني » الذي عاد اليه فضل إرسال البرقيـة الاولى من انكلترا الى فرنسا في السنة ١٨٩٩ . وقد توفق لودج منذ السنة ١٨٩٤ الى تحقيق نقل حتى مسافة ٣٠ متراً وفكر بمطابقة طول موجة المحطة اللاقطة على طول موجة المحطة الباثة . وسوف يكتشف بعد ذلك المصباح الالكتروني – مصباح علاء الدين الجديد – : مصباح فلمنغ ذو القطبين الكهربائيين ، ومصباح « لي دي فورست » ذو الاقطاب الثلاثة ؛ وهما سوف يتيحان للموجات نقل الرسائل حتى اقاصي الارض .

بيد ان الساحرة التي نقلت فكر الانسان اما بواسطة السلك واما بدونـــه ، وساعدت الانسان منذ ذلك التاريخ على تسيير ادوات عمله وحتى على الانتقال ، قد أخذت تفعل في المادة نفسها وتحدث حركة ناشطة في تقنيات الكيمياء .

انطلاقة الكيمياء المستمرة

ان النطاق الشاسع الاطراف الذي وضعت الكيمياء يدها عليه خلال القرن التاسع عشر ، اخذت الصناعة تستثمره استثماراً واسعاً منذ السنوات ١٨٨٠ — ١٩٠٠ . لقد اهتم الرأسماليون والتقنيون في الدرجة الاولى بالمواد العضوية ، الكربون والهدروجين والاوكسجين والازوت . فحققوا منذئذ غاز الاضاءة والفحم المعدني المقطر ؛ ثم انشئت تجهيزات ضخمة اعطت كل يوم مزيداً من المنتجات الثانوية ، كالقار على انواعه والملونات والعطور والاسمدة والمتفجرات . وهو الفحم الحجري ماولد ابدا هذه الصناعات الجديدة ، الوفيرة الارباح ، في الوقت نفسه الذي انتج فيه التيار الكهربائي . فقد انتجت المانيا — بفضل منطقة الـ «رور» بصورة خاصة — في السنة ١٩١٠ ثلاثمائة مليون كيلوغرام من سلفات النشادر مقابل ٦٥ مليوناً في السنة ١٨٩٠ (وقد حقق « فريتز هابر » آنذاك النشادر التركيبي) ؛ واعطت مصانع استخراج المعادن فيها ١٨٠٠ مليون كيلوغرام من خبث الحديد مقابل ١٠ ملايين . ومن القار استخرجت بعض الزيوت الصالحة للتدفئة او للمحركات (زيوت ثقيلة وبنزول) وانواع حمض الفينول المستعملة في اعداد حمض البكريك وشتى انواع البكرات . وكان التحليل بالمجرى الكهربائي قد سهل الى حد بعيد انتاج ملح القلي والكلور والكلورات والكلورور والمنتجات الازوتية . فانتج بعد ذلك المواد الكلورية المزيلة الالوان (ماء جافيل) ومحلولات استخدمت لتبييض الاقمشة ومعجون الورق وتطهير مياه البواليع . واختصر دباغة الجلود . ووفر وسيلة لسقاية الادوات الفولاذية . واتاح كذلك طلياً بالنيكل جعل صفائح الرسوم المعدنية اكثر صلابة وصان القطع المعرضة للصدأ صيانة فعالة . واتاح بالطريقة نفسها استخراج المنغنيز والقصدير والفضة والنيكل نفسه بفعل قدرته على التحليل ولعل اهم تحقيقاته معدن الالومينيوم ، فقد كان هذا المعدن الجديد بالامس مجرد غرابة مختبرية ، ولكنه دخل نطاق التحقيقات العملية بفعل قابليته للتصفيح وخفته ومتانته : فقد هبط سعر كلفة الكيلوغرام من ١٠٠ فرنك في السنة ١٨٧٠ الى فرنك واحد في السنة ١٩١٠ ؛ وقفز الانتاج العالمي من ١٧٥ طناً في السنة ١٨٩٠ الى اكثر من ٥٠٠٠٠٠ في السنة ١٩١٢ ، اذ ان انتاج البوكسيت — وهو اهم المعادن غير الخالصة المستعملة في صناعته — قد تجاوز ٥٠٠٠٠٠ طن في هذا التاريخ الاخير .

وعلى نقيض ذلك نرى ان الكيمياء الصناعية وصناعة تنقية المعادن مجتمعتين، استخدمتا الفرن الكهربائي ، وتوفقتا بوجود التونغستين والنيكل والكروم الى ايجاد معادن مركبة جديدة ، اعني بها انواعاً خاصة من الفولاذ ضرورية لصناعة السيارات بصورة خاصة . واحدث « ألفرد ويلم » ثورة حقيقية في السقاية التي حققها في السنة ١٩٠٩ في « دورن » بواسطة الدورالومين المركب من الومينيوم ونحاس وكميات صغرى من المغنيزيوم والمنغنيز والسيليسيوم . ثم وضع « هنري له شاتلييه » في السنة ١٩١٣ سنّة السقاية المزدوجة المتعلقة بتغيير تركيب المعدن بمزجه بمادة أخرى تحت تأثير الحرارة . وعرف الانتشار كذلك لحام المعادن باذابتها ، وهو لحام

كهربائي بات ممكنـــاً بواسطة الاسيتيلين المستخرج من كربورالكلسيوم الذي ينتجه الفرن الكهربائي ايضاً .

وعادت للكيمياء العضوية في الفترة نفسها ابوة بعض النسائج الجديدة. وكان ريومور قد عبر عن يقينه بان الحرير الاصطناعي سيبصر النور قريباً . فعرض « شاردونيـــه » في السنة ١٨٨٩ اول طريقة صناعية ، انطلاقاً من سلولوز القطن ؛ وقد توجب ازالة الازوت من النسائج لجعلها غير قابلة الاحتراق . واستخدم « كروس » و « بيفان » و « بيدل » لب الاخشاب . وفكر « تريمري » و« اوربان » بتحليل السلولوز في ماء غالٍ يحتوي بعض الامونيـــاك والنحاس ، واســوا في السنة ١٨٩٩ مصانع « غلانزستوف» . وفكر غيرهم كذلك بـ «كسانتات السلولوز. ولكن هذه الخيوط الحريرية الصناعية لم تقو على مقاومة الرطوبة مقاومة طويلة الامد . وقـــد انتج منها ١٠٠٠ طن في السنة ١٩١١ (نصفها في فرنسا) و ١١٠٠٠ في السنة ١٩١٣، وسارت المانيا على رأس هذه الصناعة، لأن الانتاج الفرنسي لم يتضاعف . ولاحت دلائل عصـــر المواد العجينية.مع ظهور الـ « غالاليت » ، و الـ « باكيليت » التي امكن احلالها محل صمغ اللـّك .

واذا لم يفكر احد بعد بصناعة المطاط التركيبي ، فان « ساباتييه » و « سندرين » قد اثبتا ان مزج الاسيتيلين بالهدروجين بوجود النيكل من شأنه ان يعطي سائلاً شبيهاً بخلاصة البترول المكرر . والحال كانت تقنية المطاط والبترول تتقدمان تقدماً حثيثاً بدلالة الحاجات الجديدة . وعلى نقيض الصمغ الهندي العجيني والعازل ، امكن استخدام المطاط ، الرخص والمـرن ، في صناعة الانابيب والسيور والاحذية . الا انه توجب اخضاعه لعمليات مختلفة نخص بالذكر منها الكبرتة التي أشار بها « غوديير » لتغيير طبيعته : فان احماءه في البخار يزيـــل عنه كل قابلية التصاق ويصلبه دون أن يزيل عنه صفاته المميزة . وكان اختراع المطاط لعجلات الدراجة قـد ابرز دوره المحتمل في الآلات المتنقلة من مكان الى آخر ، وأثبت ميشلين ذلك في السنة ١٨٩١ بمناسبة السباق بين باريس وبرست : وكان ميشلين حفيداً لصانع كرات واختـــام وسيور من المطاط مقيم في « كلرمون ـ فران » ؛ وكان نسيبه بالمصاهرة ، « ماك انتوش » ،قـــد اكتشف قابلية ذوبان المطاط في البنزول . ولن يلبث دور طوق المطاط أن يصبح دوراً أولياً : ففـــي السنة ١٨٩٥ ظهرت السيارة الاولى ، « البرق » ، التي صنعها « بوجو » مزودة بمحرك « دايملر » ومركبة على أطواق من المطاط الخالص بعناية ميشلين؛ ثم عمت هذه الطريقة بعد السنة ١٩٠٥ . فارتبط مصير المطاط منذئذ بمصير العجلة والسيارة ولم تعد شجرة المطاط الـــبرية كافية لتموين المصانع التي تكبرت المطاط : فزرعت بعض الحبوب التي كان ويكهام قد جمعها في أمازونيـــا وأسفرت عن نمو ٢٠٠٠ شجرة جميلة في حديقة « كيو » على مقربة من لندن ؛ ثم أرسلت هـذه الاشجار الى سيلان . ولن تلبث مشاجر آسيا الجنوبية أن تتسع بسرعة : فمن أصـل ١٢٤ الف طن انتجت في السنة ١٩١٤ لم يعط المطاط البرازيلي سوى ٤٩ الفاً،وقد عاد ثلاثة أرباع لاستهلاك الصناعي للولايات المتحدة .

وهي الولايات المتحدة كذلك ما سارت في الطليعة لجهة انتاج البترول . وان هذا السائل ، الذي اعتبر نهائياً كمصدر للطاقة ، قد عرف في روسيا باسم النفط وفي آسيـــا باسم الزفت وفي الغرب باسم البترول او « الزيت » . ولكن تكريره بعث الآمال في استخدامه كوقود للدفـع الى الامام . وقد ابتكرت بالفعل مساخن قادرة على الحلول بجدوى محل الفحم الحجـــري في السفن . فزودت بها سفينتان في الولايات المتحدة في السنة ١٨٦٧ كما زود بها يخت نابوليون الثالث . واخذ الروس يسيرون سفنهم في بحر قزوين وقاطرات خـــط « باكو – تفليس » بدردي التكرير او « مازود » ، الذي كانت طاقته الحرارية ضعف طاقة الفحم الحجـري . ثم أتاح اتقان المحرك المسير بالغاز الاستفادة من غاز البترول . الا أن التقدم بقي بطيئاً حتى السنة ١٨٩٥ تقريباً . فقد كشف التكرير المتقن والمحرك المسير بانفجار الغاز آنذاك عن كل ما يمكن ان ينتظره الانسان من الوقود السائل . وارتفعت كمية البترول المستخرج من ٨ ملايـين طـــن في السنة ١٨٩٠ الى ٥٦ مليونـــاً في السنة ١٩١٤ ، استخرج منهـــا ٣٤ في امـــيركا الانكلوساكسونية وحدها . الا أن كميات البترول المكرر التي استهلكتها محركات السيارات والطائرات والغواصات لم تتجاوز ٦ ملايين طن ؛ فهي السفن التجـارية والسفن الحربية مــا اقتطعت حصة الاسد حتى قبل ان يثبت محرك « ديزل » افضليته على موقد بسيط للاحـتراق الخارجي . ولكن التكرير ، بصرف النظر عما تستلزمه صناعة استخراج البترول ونقـــله من معدات واجهزة ضخمة ، استوجب عمليات تسخين وتصفية معقدة (طريقة الحمض الكبريتي ، ثم طريقة الانيدريد الكبريتي السائل منذ السنة ١٩١٠ ، وطريقة الـ « الكراكنغ » او التكرير بالحرارة المرتفعة تحت الضغط العالي ، في السنة ١٩١٢) . فهنا ايضاً ، تخطت الكيمياء الى حد بعيد مرحلة الانبيق لبترول الاضاءة [1] .

وما كانت السينما لتبصر النور كذلك بدونها اخيراً . فلا ريب في أن التصـوير الشمسي كان نقطة انطلاق هذا الفن الجديد (في السنة ١٨٧١ بدأ مادوكس يستعمل « جيلاتينو – برومور » الفضة) ؛ ولكن السلولويد الذي اخترعه الاخوان «هيات» ، وهو جسم صلب وشفاف وقابل الاحتراق وقادر على مقاومة العوامل الطبيعية ، قد اثبت أهليته لصناعة ورق التصوير السلبي (الذي اطلق عليه « ايستمان » اسم « ستريبنغ فيلم »). ولم يبق بعد ذلك سوى اكتشاف جهاز يتيح بواسطة التصوير تحقيق تركيب مراحل الحركة وبالتالي ايهام الناظر برؤية الصورة المتحركة. وقد اسهم في ذلك « رينو » في الدرجة الاولى ، و « ماراي » و « دمـني » و « اديسون » من بعده . فاستفاد الاخوان « اوغست » و « لويس لوميير » من تجاربهم الطويلة وتوفقـا في السنة ١٨٩٥ الى تحقيق اول عرض سينمائي امام جمهور من الناس . وعند ذلك جهز « جورج ميلييس»

---

(١) فهي قد لعبت دورها كذلك في صناعة الاسمنت المستعمل في البناء بالـ « باطون » الذي احدث ثورة في مستهل القرن العشرين .

اول « ستوديو » (مكان خاص للتصوير وتسجيل الصوت) ونجح في تحقيق توافق الحاكي والسينما واهتدى الى بعض الاكتشافات ، كازدواجية الاشخاص . فولدت من ثم صناعة جديدة قامت على تعاون الكيمياء والآلية وضمت، في الولايات المتحدة مثلا ، شركات التصوير الهامة كـ « اديسون » و « ايستمان كوداك » .

من الآلة البخارية الى محركات الانفجار والاحتراق الداخلي : ظهور السيارة والطائرة

لم يتوقف القرن التاسع عشر يوماً عن مواصلة تحسين الآلة البخارية. ولكن النتيجة لم تتحسن قط : فقاطرة القطار الحديدي مثلا لم تحقق سوى تقدم بطيء . اجل لقد بدا أن الملاحة تدخر مستقبلا على بعض الهمان للعنفة البخارية . وانما بقيت الحاجة ماسة الى اختراع محرك يمكن تسييره اما بواسطة وقود سائل ، واما بخلط من الهواء والغاز ، ما دامت الكهرباء لم تحل محل الفحم الحجري للنقل البعيد . فأعطت الصيغة الاولى محرك الاحتراق الداخلي : يدخل السائل مباشرة الى الاسطوانة حيث يولد الضغط القوي الاشتمال الذاتي . أجل لقد كان مفروضاً ان يتيح هذا المحرك الوفير الانتاج استخدام الزيوت الثقيلة ، المعدنية ، واللزجة ، كالمازوت و « زيت الغاز » . وعلى الرغم من ذلك فقد وجب انتظار السنة ١٨٩٣ لمشاهدة أول نموذج من هذا النوع – نمورج ديزل – يمكن استخدامه في الغواصة والسفينة والجرارة . وفي السنة ١٩١٢ امتحن في تسيير احدى القاطرات . الا ان استخدامه لن يعم الا بعد الحرب العالمية الاولى .

لعل « هويغنس » كان أول من فكر بمحرك الانفجار ، عندما اكتشف ان امتداد الغازات المتسبب عن احتراق البارود في اسطوانة ينتج طاقة آلية . وفي السنة ١٨٦٠ –وهي سنة ابتكار الطريقة « المركبة » – توفق « جان – اتيان لنوار » الى تحريك مكبس باحداث انفجار خلط من الهواء وغاز الانارة بواسطة شرر كهربائي : ولكنه لم يبتعد بعد عن مفهوم الآلة البخارية ، ولم يحقق سوى طاقة ضعيفة ، اذ أن آلته التي قطعت مسافة ١٨ كيلومتراً في ثلاث ساعات استهلكت مترين مكعبين في الساعة للحصان الواحد . واذا فكر « بو دي روشا » بعيد ذلك بالضغط ودور الاوقات المتساوية الاربعة ، فان « سيغفريد ماركوس » لم يعتمد البترول المكرر ولم يفكر بالآلة المغنطيسية الكهربائية للحصول على الشرر الا في السنة ١٨٧٥ .

سار الكونت « دي ديون » والميكانيكي « بوتون » على خطى « كونيو » وصنعا سيارة بخارية تسير على الطرقات في السنة ١٨٨٣ . وبعد مرور سنتين سارت السيارات بالبنزين المكرر دون أن تتجاوز سرعة ٢٠ كيلومتراً في الساعة . فظهر بعد ذلك عدد كبير من النماذج التي اقتبست اشكال معظمها عن العربات التي تجرها الجياد .

ثم تحقق تقدمان حاسمان ابتداء من السنة ١٨٩١ : ابتكر « فرنان فورست » المحرك الرباعي الاسطوانات واخترع قبس الاشعال (بوجي) وزود جهاز اشباع الهواء بأبخرة البترول

المكرر بجهاز صغير ينظم دخول هذا البترول ؛ ولحق ارمان بوجو بسباق الدراجات بين باريس وبرست وعاد الى فالنتينيي التي انطلق منها . ثم ظهرت الدراجة البخارية بفضل دايملر الذي سير الدراجة العادية بمحرك غازي . وعلى طريق باريس – بوردو تفـوق « لفشّور » وشريكه « بانهارد » على البخار ، وحسن ميشلين طوق المطاط الذي صممه « دنلوب » واستخدمه « بوجو » . واخترع « رينو » طريقة الجمع المباشر ، وجهز اول معرض للسيارات في ساحة الـ « انفاليد » . وفي السنة ١٩٠٠ ، ابان السباق بين باريس وتولوز ، « اقشعرت فرنسا جمعاء تأثراً ديموقراطياً ورياضياً » ، كما يروي « بول موران » . فترك الحصان للقوميين وروث الحصان والبغل للثوريين . وكان عدد السائقين في الطرقات العامة اقل من ان يسمح بنعتهم بالداهسين . وهم الشيوخ وحدهم من اعترضوا وطالبوا وزير الداخلية دون جدوى بمنع هذه الالعاب البهلوانية ، وقالوا بوجوب اعداد مقابر خاصة لسائقي السيارات على جوانب الطرق » . وبعد السنة ١٩٠٠ تحسن هيكل السيارة وتوازنها المطاط ومحركها واجهزة نقل الحركة فيها ، واتضح شكلها الخارجي المميز . وفي السنة ١٩١٤ سارت السيارة بسهولة بسرعة ٧٥ كيلومترا في الساعة . وبلغ عدد السيارات مليونين استخدم قرابة نصفها في الولايات المتحدة التي اضطرت الى انشاء شبكة طرقات بسرعة . اجل لقد تناول التجديد طرقات اوروبا ايضاً ؛ ولكن طرقات المشاة القديمة لم تكن معدة لسير العربات المزودة بالمحركات ، فاضطرت السلطات العامة الى تنظيم السرعة في المدن . ثم غُطيت الطريق بأحد مشتقات البترول المكرر وهو القار ، فمنع الغبار .

في أواخر القرن الثامن عشر توصل الانسان الى الارتفاع في الهواء بواسطة كرى ملأى بالغاز : المنطاد المملوء بالهواء الساخن ، والمنطاد المملوء بغاز الاضاءة . فقد كتب ميشليه : « انها لساعة نادرة ! لانهاية الفضاء تتسع شيئاً فشيئاً ... » ثم تميزت عمليات الصعود الى الجو ، بغية استكشاف الطبقات الجوية العليا ، بمزيد من المغامرة والجرأة . ففي السنة ١٨٧٤ ارتفع احد المناطيد الى علو ٨٧٠٠ متر ، فغاب اثنان من ملاحيه عن رشدهما ولم يستيقظا قط . وفي السنة ١٩٠١ ارتفعت المناطيد الى اكثر من ١٠ آلاف متر .

تحقق منذئذ المنطاد المسير : وقد فكر « ديبوي دي لوم » و « جيفار » بالدفع الآلي الى الامام بواسطة المروحة والبخار . واحكم « رينار » و « كربس » جهازاً يسير بالكهرباء ، فكان ذلك حدثاً هاماً كرس له « فكتور هوغو » بعض أشعاره قبل ان تدركه المنية . فهل بالاستطاعـة تزويد سفن جوية حقيقية بمحركات انفجار يا ترى ؟ لقد آمن الناس في المانيا بمستقبل ما هـو أخف من الهواء ، وأسس الكونت « زبلين » في السنة ١٨٩٦ معامل انتجت سفناً جوية ضخمة : فان الـ « ساخسن » الذي سيبنى في السنة ١٩١٣ سيبلغ ١٤٠ متراً طـولاً و ١٥ متراً قطراً ، وسيزود بثلاثة محركات قوة كل منها ١٧٠ حصانا وسيتسع لـ ٢٠ راكبا .

ولكن أليست اسطورة « ايكار » سوى خيال يا ترى ؟ فمنذ مشروع الطائرة الطوافة الذي

عرض على أكاديمية العلوم في السنة ١٧٨٤ حتى طائرة فورلانيه المسيرة بالبخار التي اقلعت في السنة ١٨٧٨ ، قد انقضى قرن كامل تقريباً . وكم هم الذين تذكروا في هـــذه الاثناء رسوم « فنشي » او لم يتذكروها وحاولوا عبثاً الطيران على طريقة الطيور معرضين حياتهم للاخطار في اغلب الاحيان ؟ الا ان انصار ما هو اثقل من الهواء قد تعززت آمالهم بعد السنة ١٨٨٠ . وقد عبر « جول فيرن » عن هذه الثقة على لسان « روبور الفاتح » الذي تفوقت طائرته عـــلى المنطاد المسير . وللمرة الاولى توفق « كليمان ادر » الى الارتفاع عن الارض بوسائله الخاصة على الـ « أيول » بواسطة محرك بخاري . وفي السنة ١٨٩٧ ، في « صالون » ، طارت طائرته « افيون » مسافة ٣٠٠ متر ، وكانت شبيهة بالخفاش ؛ ولكنها تحطمت بهبة ريح شديدة ، فكف « أبو الطيران » عن مواصلة تحقيق مشروعه . فتوجب اكتشاف محرك آخر .

اهتدى اليه ميكانيكيا دراجات هما الاخوان « رايت » : في السنة ١٩٠٣ ، وبنـــاء على تعليماتهما ، قذف بهما في الهواء بواسطة منجنيق في احدى ساحات اميركا أمام خمسة مشاهدين؛ فارتفعت الطائرة الى علو ثلاثة امتار وقطعت مسافة ٢٦٠ متراً بفضل محرك انفجـار خفيف الوزن جداً . وبعد مرور ثلاث سنوات قطع البرازيلي « سانتوس - ديمون » ، صاحب احدى المزارع الكبرى ، الذي استهواه المنطاد من قبل ، مسافة ٢٢٠ متراً على ارتفاع ٦ امتار فوق الارض . فكانت نتيجة هذه المآثر الحقيقية التي أثارت الحماسة ، استحثاث الابحاث . وتعاقبت الاحداث بعد ذلك بسرعة مطردة : في السنة ١٩٠٨ قطـــع « فارمان » الكيلومتر الاول في مدار مقفل ، وفاز « ولبور رايت » بكأس ميشلين الاولى بتحليقه في الجو طيلة ساعتين ونصف الساعة وقطعه مسافة ١٢٤ كيلومتراً ؛ وفي السنة ١٩٠٩ اجتاز « لويس بليريو » بحر المانش عند كاليه ؛ وفي السنة ١٩١٠ اجتاز « شافيز » جبال الألب ؛ وفي السنة ١٩١٣ اجتاز « غاروس » المتوسط . وفي السنة ١٩١٤ جاوز الرقم القياسي ألف كيلومتر مسافة و١٣ ساعة طـــيرانا ، و ٦ آلاف متر ارتفاعاً ، ومئتي كيلومتر في الساعة سرعة . فما هي الحرب العالمية الا ان تندلع لان البشر سوف يعرفون كيف يقاتلون في السماء .

نصيب التقنيات الحربية الكبير

ان تطبيقات العلوم الطبيعية والكيميائية ، التي هلل لها بعضهم ، قد اثارت المزيـــد من التحفظات لدى اولئك الذين استوقفهم بالتفضيل خضوع الانسان لعلم الآليات ووسائل التدمير الجديدة .

ولقد زعم بعضهم ان الفضل الاكبر في الانتاج بالجملة يعود الى الحرب الآلية ، وان الجراحة مدينة بنجاحاتها لساحات المعركة في الدرجة الاولى .

في اواخر القرن التاسع عشر بدأ عصر الفولاذ . فلا ارتياب بعد اليوم حول الدور الاولي الذي يلعبه القطار الحديدي وخطوطه الفولاذية في نقل القوى المحاربة والاعتدة . وهـــي اصناف الفولاذ المختلفة - ولا سيما الاصناف الخاصة - التي زادت من قوة الاسلحة وقوة الدرع : وقـــد

استفادت المدفعية والسفينة المدرعة من طرائق « بسمر » و « مارتين- سيمنس » . فسيطرت مصانع الاسلحة الكبرى على صناعة استخراج وتنقية المعادن بعد أن يسرت اعمالهـــا الحروب التي نشبت بين السنة ١٨٥٠ والسنة ١٨٧١ . فقام بعد ذلك ارتباط وثيق بينها وبين الحكومات وبين القيادات العسكرية العامة . واشتد هذا الارتباط كلما تطورت تقنيات الصناعـــة . فالبندقية ما زالت اوسع الاسلحة انتشاراً ، وقد تحسنت تحسناً مستمراً . فحلت محل البندقية « شاسبو » المزودة بابرة لاطلاق النار ، التي كانت ملكة العمليات الحربية البرية في السنة ١٨٦٦ و ١٨٧٠ ، البندقية المزودة بجهاز حشو وبباورد لا ينبعث منه الدخان ، الـــتي تطلق طلقات متواترة « من طراز « لبل » و « موزر » .

ولكن المهندسين الاميركيين ، « حيرام مكسيم » و « ب. ر هوتشكيس »، قـــد احكما السلاح الذاتي الذي اطلق « ريفاي » عليه اسم مدفع الرصاص والذي حال تركيبه الدقيق دون استخدامه استخداماً فعالاً خلال الحرب الفرنسية الالمانية . وبعد ذلك بزمن قصير ظهر المدفع الذاتي الحركة السريع الاطـــلاق الذي لم يلبث ان عُرف باسم المدفع الرشاش . وبالمقابـــلة زاد المدفع المفرض من داخله والمطوق من خارجـه صلابة وبعد مرمى وقابلية حركة . وقد زوده الكولونيل « دي بانج » بصمام جمل حشوه من مؤخره اكثر فعالية . وزود كذلك بجهاز يمنع مفعول اندفاعه الى الوراء وبأجهزة تسديد تتيح الاطلاق غير المباشر. فبلغت سرعة القذائف المطلقة ، بعد اطلاقها مباشرة ، ٥٠٠ متر في الثانية . كما ان القذائف التي استطاعت المدفعيـــة اطلاقها قد بلغت الطن وزناً .

لقد حدثت ثورة حقيقية في فن اطلاق النار . ففي السنة ١٨٧٠ ، نادراً ما استعمل غـــير البارود الاسود الذي يرتقي استخدامه الى اواخر القرون الوسطى : ففكر « برتلو » باستبدال مزيج الفحم والكبريت وملح البارود هذا بأول اوكسيد الازوت السائل . ولكن الاميركيين كانوا قد استخدموا خلال الحرب الانفصالية بعض المواد المتفجرة المعول في تركيبهـا على بعض الغازات السريعة الانفجار. وبينما ولى «توربين » وجهه شطر البيكرات وحصل على الـ« ملينيت » آتـر « فياي » النيتروسلولوز المعروف باسم قطن البارود او القطن المنفجر ، و « نوبـــل » النيتروغليسرين الذي يعطي الديناميت . وقد اثبت هذا الاخير فاعليته بتدمير صخر تحت سطح البحر في مرفأ نيويورك وبالمساعدة على فتح نفق « غوتار » . ولجأ الارهابيون الايرلنديون اليــه لنشر الذعر في انكلترا . ثم توفق « فياي » الى تسهيل استعمال هذه المواد في الاطــــلاق بازالة خاصياتها التحطيمية . فجاء من ثم البارود الذي لا ينبعث منه الدخان يضاعف قوة النار بحشوة محدودة منه .

استفيد من كافة الاستحداثات. فقد سهلت ساعة قياس الوقت الدقيقة تقدير المدفعيين لسرعة القذائف عند اطلاقها . وهو احد هؤلاء المدفعيين ، « كولين » ، من اعلن : « ان التلغراف قد بدّل ظروف الحرب تبديلاً كلياً باتاحته تولي القيادة من مسافات بعيدة » .

الا ان واحداً لا يعلم ما اذا كان الهجوم سيفضّل الدفاع . وقد مال معظم الاختصاصيين الى العمليات الطويلة ، وعمليات « الخنادق » و « الحصار » ؛ ويبدو ان اختبار الحرب في منشوريا كان حجة قاطعة من هذا القبيل. وفي السنة ١٩١٢، بينما اصر القائد «دي برناردي»، وفاقاً لنظريات قيادة الجيش الالماني التي اوصت بزيادة قوة النار والهجوم حتى الموت ، على ان يكتب : « يجب استفراغ المجهود بغية احراز النصر بالسرعة القصوى » ، اجاب الكولونيل « مونتانيه » : « النهكة هي ما سوف يقرر مصير المعارك » . ولكن القائلين بهذا الراي او ذاك قد حسبوا حساب النتائج المرعبة التي سيسفر عنها الاصطدام الاول .فتصرفوا من ثم بحيث يكون هذا الاصطدام قادراً على تأمين النصر الكامل .

أُعيرت الاهتمام كذلك الاختراعات الجديدة في الحرب البحرية .فان اعتماد البخار كقوة محركة لم يبدل ظروف المعركة كما بدّلها ظهور التدريع والمتفجرات الازوتية في آن واحد تقريباً. وقد بدأ السباق بين هذه وذاك . فبنيت السفينة المدرعة ذات الابراج التي بلغت سماكة فولاذ هيكلها حتى ٥٠ سنتمترا وعرفت قياسات لم تعرفها السفن من قبل : فحوالي السنة ١٨٩٠ تجاوز طولها ١٠٠ متر واتسعت لحمول ١٠ أو ١٥ الف برميل ول ٨٠٠ أو ٩٠٠ طن وقوداً ، وسارت بسرعة تتراوح بين ١٥ و١٧ عقدة . فكانت شبيهة بحصن بحري حقيقي وقادرة على الشروع في القتال من مسافة بعيدة تساندها الطرادات المدرعة والطرادات المحمية التي كانت اسرع سيراً وأقل قوة . ولم يكن اعداؤها نيران العدو فحسب ، بل الالغام وقذائف نسف السفن ايضاً . وقد اوحت قذيفة « وايتهد » ، الذاتية الحركة، بفكرة السفينة النسافة السريعة التي زودت بأنابيب لرمي القذائف ، والتي اثبتت الحرب الروسية اليابانية مرونتها . ثم جاءت الكهرباء تتولى ادارة اجهزة الحركة والعلائم وتطلق الالغام .

ثم تعاظم شأن الغواصة التي استلزمت مجموع اجهزة محكمة ارتبطت كذلك بأجهزة الحركة الكهربائية . فقد واصل القرن الحادي عشر منذ ان توفق « فولتون » الى تغويص الـ « نوتيلوس » في السنة ١٨٠٠ . فسعى « برون » و « نوردنفلت » الى تحقيق جهاز يكون فيه الهواء مضغوطاً وتكون اقسامه الداخلية محكمة لا ينفذ اليها الماء . وفي السنة ١٨٩٩ ، ابتكر « لوبوف » الـ « نارفال » : و صممت هذه الغواصة بهيكلين رتبت بينهما الاثقال بغية اتاحة التغويص والعودة الى سطح الماء وسارت بواسطة آلة بخارية ؛ وادارت اثناء الغوص محركاً كهربائياً واستخدمت المنظار والبركار الجيروسكوبي . ثم لم تلبث ان اعتمدت محرك ديزل . وكانت قادرة على القيام بعمليات الاستكشاف وزرع الالغام ورمي القذائف فبدلت بدورها معطيات الستراتيجية البحرية .

كانت هذه الاخيرة موضوع دراسات كثيرة . الا ان كتاب الاميرال « ماهان » ، « اثر القوة البحرية في التاريخ » ، قد هيج الافكار ، والمنافسة الانكليزية الالمانية اسهمت اسهاماً

قوياً في تقدم التقنيات .

في السنة ١٩٠٥ ، وتحت تأثير الاميرال « فيشر » ، انزلت بريطانيا العظمى الى البحـــر الـ « دردنوت » ، المثال الجديد للسفينة المدرعة الكبرى ، الذي جاوز حموله ١٨٠٠٠ برميل : كان مزوداً بعنفات بخارية ومسلحاً بـ ١٠ مدافع من عيار ٣٠٥ ميلمترات و ٢٤ مدفعاً من عيار ٧٦ ، وقد استغني فيه عن المدفعية الثانوية . فكانت اسلحته من ثم خير اسلحة لمعركة يشترك فيها من مسافة بعيدة .

ثم اخذ الاميرال فيشر نفسه بعين الاعتبار فوائد البترول الفضلى ، فأمر باستبدال الفحم بالمازوت . فضوعفت دائرة العمل بوزن وقود متساو ، وزال الدخان . ولكن هذا التغيير كان في اولى مراحله فقط حين نشب نزاع السنة ١٩١٤ .

وكان مقدراً للحرب العالميـة ان توسع بسرعة استعمال الوقـــود الجديد والآلات المسيرة بمحركات انفجار او احتراق داخلي .

تباشير ثورة علمية جديدة : الاشعاع الذاتي والنسبية

في الوقت الذي تكاثرت فيه النتائج العملية ، والرهيبة في اغلب الاحيان ، للاختراعات التي بدا القرن وكأنه يعلق عليها سمعته ، كانت تُعدّ ثورة حقيقية في حقلي علم الرياضيات وعلم الطبيعة .

بينما كان القائلون بامكانات العلم الكلية يعتبرون العلم ، حوالي السنوات ١٨٨٠—١٨٩٠ ، مقعداً على مبادىء متينة ، انهار بناء الحتمية ، الذي اعتبر كلاسيكياً ، في سنوات قليلة امـام سلسلة من الاكتشافات غير المرتقبة . فبعد الاشعة المهبطيـة التي سُلم بالعديد مـن النظريات حـول طبيعتها ، اكتشفت في آن واحد تقريباً — اواخر السنة ١٨٩٥ واوائل السنة ١٨٩٦ — الاشعة التي دل « رونتجن » عليها بالحرف X ، والاشعة التي عزاها « هنري بكريل » للاورانيوم والتي لن يلبث « بيير وماري كوري » ان يهتديا اليها (١٨٩٨) منبثقة بمزيد من القوة عن جسمين آخرين هما البولونيوم ولا سيما الراديوم . وهكذا ظهر الاشعاع الذاتي أو النشاط الاشعاعي .

اجل لقد وجد في الشعاع الذاتي كما في الاشعة المهبطية الكهيرب المعروف — دل عليه لورنز في السنة ١٨٩٥ كعنصر تركيب - والموجات الهرتزية واشعـة X والنور نفسه؛ وانما اكتشف فيه كذلك إشعاع اطلق عليه اسم اشعاع «غاما» كما في اشعة X ؛ واخيراً حقق « روذر فورد » شخصية الاشعة « الفا » كنويات دون كهيربات لذرات الهيليوم . وهنا كان مثار الدهشة .

فما هي سنن الاشعاع يا ترى ؟ لقد لاحظ « لنار » ان اشعة ماوراء البنفسجي تنتزع بعض الكهيربات من المـادة بينما لا تستطيع اشعة ما دون الاحمر ذلـك . فكل جسم يبث مـن ثم اشعاعاته الخاصة بذبذباته الخاصة .

ثم جاء « ماكس بلانك » في السنة ١٩٠٠ يدلي بدلوه ايضاً ، فأنكر صدور الطاقة صدوراً مستمراً وصاغ مبدأ جديداً مفاده ان الطاقة تبدو كذلك بشكل جزئيات تنبعث عـن المـادة

انبعاثاً غير مستمر ؛ أما قيمة هذه الجزئيات فنسبية للتواتر .

وبعد انقضاء خمس سنوات اثبت « البير انشتاين » صحة هذه الثابتة بتطبيقها على مفعول الضوء والكهرباء الذي اوضحه هرتز في السنة ١٨٨٧ والذي يلخص بأن النور ينتزع بعض الكهربات من المادة ؛ وهكذا يظهر ان « لنار » قد تثبت الشيء دون ان يستطيع تفسيره .

وهكذا نشأت في وقت واحد النظرية الذرية ونظرية النسبية ، وقد اتصل بالاولى علم الذرات والكهربات الذي تختلف سننه اختلافاً كلياً عن سنن علم الطبيعة الكلاسيكي . فحدد « روذر فورد » الذرة في السنة ١٩١١ بأنها متكونة من كهربات تدور حول نواة ؛ وابان ان تصنيف الاجسام وفاقاً لعدد الكهربات يتيح استثبات جدول اقترحه « منديليف » منذ السنة ١٨٦٩ . اما « بوهر » فقد شدد الكلام في السنة ١٩١٣ على الطاقة المنبعثة عن الكهرب، بحسب نظرية الجزئيات ، شريطة ان يقفز من ذرة الى اخرى. فتكون هذه الطاقة من ثم غير مستمرة ، خلافاً لقواعد علم خاصيات التيارات الكهربائية ، وتتكون اما من جزئيات طاقة الضوء او اشعة ما وراء البنفسجي أو اشعة ما دون الاحمر أو اشعة γ ايضاً. ومنذ السنة ١٩٠٠، اي منذ « روذر فورد » و«سودي» عكف عدد كبير من العلماء - « موريس دي بروي » ، «ميليكان» ، « ج. - ج. طومسون » ، « ولسون » ، « استون » ، وسواهم - على قياس عناصر هذا الكون الجديد ، وحققوا تشابه الخواص ، بينما حدد « لنجفين » بدقة نظرية المغناطيسية .

وجاء علم الرياضيات ينصف ويدعم علم الطبيعة الجديد . فتخطى « فيتو فولتيرا » مرحلة المعادلات التفاضلية التي سبق ل « هنري بوانكاريه » ان وجد لها اسلوباً عاماً ووصل الى المعادلات التكاملية ؛ ونقل التحليل الى الدالات التي كشف القرن التاسع عشر القناع عنها والتي تعمق في درسها هنري بوانكاريه نفسه و « وايرشتراس » و « اميل بيكار » . وكان جورج كانتور من جهته قد توسع في مفهوم اللانهاية انطلاقاً من مجموع الاعداد العادمة القياس ، مما قلقل مفهوم الاستمرار . وسيطبق « بير » بدوره نظرية المجاميع والدالات هذه ، كما ان « اميل بوريل » و « لوبَسغ » سيحددان بعد ذلك خاصيات الدالات لمدة متحولات . اما نظريات الفئات التي طلع بها « غالوا » وتبناها « كوشي » و « كميل جوردان » من بعده ، فقد كملها اميل بيكار و « كارتان » ايضا . والحال كانت فئة « لورنز » مدخلا للنسبية المحصورة .

في هذه الاثناء كانت هذه النظرية آخذة في شق طريقها . فقد اثبت ميكلسون في السنة ١٨٨١ ان سرعة النور واحدة في كافة الاتجاهات . فكان اثباته هذا ملاحظة مدهشة اذ ان حركة المصدر الضوئي او حركة المراقب لا تغيران في الامر شيئاً . ثم انطلق انشتاين من هذا المبدأ ليثبت أن الزمان والفضاء ليسا مطلقين وان حجم جسم ما يتبدل بتبدل سرعته وان المادة نفسها ليست سوى شكل من اشكال الطاقة : فأدى ذلك الى انهيار الآلية الكلاسيكية كلياً بدورها والى استثبات نظرية الجزئيات في نطاق الاجسام المتناهية الصغر . وسوف يجمع

لويس دي بروي" في عهد لاحق بين الكهرب والموجـــة وبؤسس الآلية التموجيـة : ولكن « لان »كان قد أثبت في السنة ١٩١٢ طبيعة X التموجية . وسينتقل انشتين من جهته من نسبية « محصورة » الى نسبية « شاملة ». انها لآفاق جديدة كل الجدة في طبيعة الكون بالذات خلّفت بعيداً وراءها نظريات كوبرنيك وغاليليو ونيوتون ولابلاس .

نحو الثقافة الشعبية والرياضة

قليلون جداً هم الذين رافقوا تقدم العلم وقدروا اهميته . فـــما القول عن الجماهير التي سُدّ بابه سداً محكماً بالنسبة اليها .

في نظر « دوركهايم »،« ان الانسان الذي يجب ان تحققه التربية فينا ليس الانسان كما صنعته الطبيعة بل كما اراد المجتمع ان يكون » . لذلك فقد فرض المجتمع ابداً مدرسة على مثاله . وقـد عرف ذلك المحافظون والمجددون والثورويون على السواء . ولكن المسألة ازدادت خطورة يوماً بعد يوم لان الذين يطالبون بأن يكون لهم مكانهم في وليمة المعرفة قـــد تزايد عددهم تزايداً مطرداً .

اتاحت مطامع « هو » و « مارينوني » ومرّصفة« مرغنتالر » ثم سابكة « لانستون»تخفيض ثمن الكتاب الذي بات اكثر استهواء وأوفر حياة بفضل التصاوير والرسوم الزهيدة الكلفة . وصدر الكتاب المدرسي والقصة الشعبية بأعداد كبرى . ولكن الصحيفة ايضاً استفادت من النجاحات التقنية نفسها : فقد بيعت بـ ١٠، فرنـــك في فرنسا قبيل حرب السنة ١٩١٤ . وأصبحت من ثم في متناول الجميع . وكانت أداة اعلام عظيمة ، فوفرت المعلومات والألاهي ؛ وتملقت الرأي العام ووجهته ؛ فراعت جانبها واستخدمتها السلطات العامة والمصالح الخاصة : وقد امست لعمري احدى اعظم القوى الاجتماعية . وطبعت للشباب المجلة الدورية المسليـة : فأصدرت جمعية « اوفنستات » الباريسية مجلة « المدهش » التي خلقت مثال « الاقـدام المطلية بالنيكل » ، و « الفتاة » ، و « الشجاع » و «الجدجد». وقامت الاكشاك في الشوارع والساحات الآهلة جداً حيث بيعت كميات كبرى من المطبوعات الزهيدة الثمن (روايات عاطفية وبوليسية وروايات مغامرات) .

استمرت الامية في التقهقر ، ولكن احداً لا يستطيع تحديد اهمية هذا التراجع بدقـة . فان نسبة الاميين في الخدمة العسكرية التي هبطت في فرنسا من ١٤ الى ٤٪ بـــين السنة ١٨٨٠ والسنة ١٩٠٠ ، قد انحدرت الى ٢٪ في السنة ١٩١٤ ؛ ولكن مجندين كثيرين لم يحسنوا القراءة والكتابة . وبينما تزايد عدد الطلاب تزايداً مستمراً في الجامعات ، القديمة والجديدة منهـــا ، انتشر التعليم الابتدائي والتعليم الثانوي بسرعة . ففي انكلترا مثـــلا كلف « قانون التربية » الصادر في السنة ١٩٠٢ الجمعيات التمثيلية تأمين نفقات التعليم دون إلغاء المعاهد الخاصة ؛ وقد أملته رغبة في تسهيل انتقال التلامذة من المدارس الابتدائية الى المدارس الثانوية . اما في فرنسا وبلجيكا حيث ما زال الصراع على أشده بين العلمانيين والجمعيات الدينية ، فقد اعترف بوجوب

البقاء في المدرسة حتى سن الثانية عشرة او الرابعة عشرة ؛ وتُواصل الدروس بعد ذلك اما في المدارس الابتدائية العليا واما في المدارس التقنية .

ارتسمت حركة جديدة استهدفت تجديد الاساليب التربوية ، بعد أن أظهرت سيكولوجية الطفل فوائد التعليم المتفق واذواق كل عمر وامكاناته . فنادى « جون ديواي » وكرشنستاينر و « ألفرد بينه » بالاساليب المعروفة بالاساليب الفعالة التي استنتجتها « ماريا مونتسوري » و « ديكرولي » من ملاحظات اجرياها على المتخلفين وغير الطبيعيين .

وكانت الشاغلة نفسها سبباً لقيام الكشفية : فقد رغب مؤسس هذه الحركة ، احد ضباط الجيش البريطاني ، « بادن ـ باول » ، في انماء بداهـــة النشاط المفيد والميل اليه عند الولد ، عن طريق اللعب والانضباط المختار بحرية . وطمعت الكشفية بأن تكون مجتمع اولاد يخضع لقانون ادبي . وربطت بين سلامة الجسم وسلامة العقل . ويرد نجاحها الى حد بعيد بعد السنة ١٩١٠ الى حاجة الفرار نحو الطبيعة التي يشعر بها سكان المدن .

وللسبب عينه نرى أن الرياضة التي توفر فوائد الراحة والصحة معاً ـ للعمال اليدويين ورجال الفكر على السواء ـ احتلت المرتبة الاولى في النشاطات الاجتماعية . اجل غالبا ما تفرض مباريات وحشية وتتطلب جهوداً ترهق الجسم . ولكنها تستهوي وتذهب بالعقل . فالملاكمة حـــدث هام في الولايات المتحدة . وأسماء مشاهير المصارعين اخذت تثير اهتمام الرأي العـــام في العالم القديم ؛ وباتت شعبية سائقي الدراجات المشتركين في سباق الدوران حول فرنسا تفوق شعبية معظم البرلمـــانيين في قصر بوربون وفي مجلس الشيوخ . فانتقلت مفردات انكلـــيزية كثيرة (*tennis . rugby . football, basket - ball , base - ball*) الى لغـــات الشعوب الاخـــرى . وانتشرت الجمعيات الرياضية في العالم اجمع وعقدت فيما بينها علائق زادت وثوقاً يوماً بعد يوم . وفي فرنسا كرس « بيير دي كوبرتين » نشاطه «لبث التمارين الرياضية في التربية»،وأطلق فكرة اعادة الالعاب الاولمبية التي بعثت في السنة ١٨٩٦ في اثينا واشتركت فيها ١٣ دولة . فدخلت المباراة العصرية في التاريخ حين بعثت اولمبيا على نطاق عالمي .

واذا رسم « فرنيه » و « جريكو » فرسان السباق والجياد الاصيلة ، فان رياضة ركوب الخيل قد الهمت كذلك « مانيه » و « ديغا » ، بينما عالج « مونيه » و « سورا » المشاهد المائية بلذة . وسيطرت المدرسة التكعيبية بدورها على المواضيع الرياضية .

الانتاج الادبي الوفير والنهضة المسرحية

فما القول عن الآداب الجميلة والفنون الجميلة التي انـــها تخاطب العقول الجميلة بحسب التقليد ؟

افضت « الحركة العرقوبية » التي ظهرت بـــين السنة ١٨٨٠ و السنة ١٨٩٠ ـ و « هي أغرب حركات القرن » كما يقول بارّيس ـ الى انحطاط الواقعيـــة والطبيعية في فرنسا انحطاطاً نهائياً . واذا كان مقدراً لهذه النزعات ان تنفتح بعـــد ذلك في اوروبا واميركا ، ولا سيما في القصة ، فقد سيطرت العاطفة والغريزة في الشعر بفضـــل الرمزية

وتعددت المدارس في كل مكان تقريباً وتنوعت أساليب التعبير الذي يفسرهـا ليس فورة الافكار فحسب ، بل تزايد عدد الكتاب العائشين من قلمهم وتزايد عدد القراء ايضاً . وقـد انصرف اصحاب الاذواق الرقيقة و «منحطو اواخر القرن» الى الاكثار من المعابد الصغرى بلذة خاصة ؛ فآثروا التمييز ، وحتى العزلة ، على التجمع .

أما الجيل الطالع والباحث عن نفسه فقـد عبد الصدق والاعتراف الشخصي واستطاب التفكير بمسائل المصير البشري الكبرى . وقد شجع الازدراء بالمذهب العقلي الخدّاع انتقـال العاطفة الدينية الى الهجوم ، ودفع الى التحليل الباطني والبحث في الوعي الغامض والمسائـل الجنسية؛اضف الى هذا ان وصف البؤس الاجتماعي وصفاً عنيفاً وشجياً كان على الدوام موضوعاً جذاباً او مفيدا .

بعد السنة ١٩٠٠ استمرت افنان الشجرة الرمزية في الامتداد فوق اوروبا الشرقيـة ، فأزهرت في روسيا ازهاراً جميلا . ولكنها اخذت تذبـل من جهة الغرب . فنظم بعض الشعراء المبتدعين شعراً طليقاً جدا او مدروساً جداً ، نذكر منهم « ابولينير » ، « ييتس » ، و جامس ، « هولز » ، « دهمل » و « جورج » ، « فرودنغ » . وطلع الايطالي « مارينـتي » بمدرسة « المستقبل » في السنة ١٩٠٩ ، واسس مواطنه « اونغارتي » مدرسة « الحطامية » ؛ وقد تأثر كلاهما بـ « كروشي » المؤرخ والفيلسوف العنادي . ولاحت كذلك دلائل مدرسة استقبالية في روسيا . ولوحظت في اسبانيا حركة عرفت « بحركة السنة ١٨٩٨ » طالبت بعد الهزيمـة في كوبا والفيليبين بفحص الضمير فحصاً متيقظاً ؛ وفي الوقت نفسه مشى « روبن داريو » على رأس « مدرسة عصرية » غنائية لم تلبث ان استهوت معظم بلدان اميركا اللاتينية . وبعد ان قدرت المانيا طبيعية « هوبتمن » و « سودرمن » التي وقفت في وجهها مدرسة الرومنطيقيين الجدد ، « باهر » ، و « هوفمنستاهل » و شنيتزلر في النمسا ، تذوقت « الانطباعية » ، الذاتية ثم ـ بعد السنة ١٩١٢ ـ « التعبيرية » التي انفت من الوصف ولم تهتم الا بجوهر الاشياء . وسيطر الغنائيون والفرديون من بين « رجال السنة ١٨٨٠ » مدة طويلة في هولندا . واعتنق الغنائية كذلك مشاهير الشعر السكندينافي . اما النهضة الادبية التي حدثت من قبل بـين البلطيق والادرياتيك وايجيه ، فما زالت تثبت اقدامها ، ولا سيما عند البولونيين والتشيكيين والهنغاريين والرومانيين .

كان « ابسن » قد نقل الرمزية الى المسرح ؛ وقد عرفت مسرحيته « مترلنك » نجاحاً عظيماً جـداً . ثم ظهر التطور نحو الصوفية في مؤلفات « كلوديل » و « هوبتمن » ، بينما أنتجت ، ارضاء للمشاهدين المتزايدين عدداً يوماً بعـد يوم ، مسرحيات النظريات والمآسي الاجتماعية او السيكولوجية ، والمؤلفات المرتكزة الى التحليل العاطفي دون غيره . وحاولت المهزلة التملص من الدسيسة المبتذلة بالفكاهة والتهكم : وقد اشتهر في هذا الحقل « كورتلين » و « تريستان برنار

و « اوسكار وايلد » وبرنارد شو. اما « بيرندلو »، الذي انتقل من القصة الى المسرح وذهب في التأمل الباطني حتى النهاية ، فقد ابتغى اثبات صفة الوجود المغلقة .

توفر للمسرح من الوسائل الجديدة وبلغ من تنوع الالوان ما حـــال دون سيطرة اية نزعة او اتجاه . فمن جهة جمّلت تقنيات الاضاءة التمثيل الذي سمى وراء المشهد العظيم؛ ومن جهة اخرى حاول الاداء ، بردة فعل طبيعية ، اعادة الانتباه الى تمثيل الممثلين بالاستغناء عن التزيـــين المسرحي جهد المستطاع . فبعد « أدولف ابيا » ، حرص « لونييه -بو » في مسرح« العمل » ، و « كوبو » في مسرح « برج الحمام العتيق » ، و « انطوان » في « المسرح الحر » ، على التجديد الذي رأوا فيه رأي « ماكس رينهارت » مؤسس « المسرح الصغير » ، ورأي « ستانسلافسكي» مؤسس «المسرح الفني» وتلميذه « مايرهولد » . وان مسرح « الطليعة » هذا قـد اثار الاهتمام بتصميمه على الاتيان بشيء جديد على الرغم من تلمسه طريقه . وفي باريس احرزت التمثيليات الكلاسيكية والرومنطيقية مزيداً من النجاح بفضل ممثلين مشهورين بسحر فمنهم من أمثـــال « مونيه- سولي » و « ساره برنار » . زد على ذلك ان هوى المأساة القـــديمة قد ظهر في اطار الابنية التي لم تقو الايام على تدميرها نهائياً. وبينما امسى الرقص الكلاسيكي ايقاعياً او حراً بتأثير من « ايزادورا دونكان » ، توصلت مدرسة الرقص الرمزي الروسي ومدرسة « دياغيليف » الى خلق مشاهد تأخذ بمجامع القلوب، معيدتين الاعتبار في الوقت نفسه الى رقص الذكور ايضاً: انها الظاهرة جديدة للاعداء الشرقي الذي نمّاه ومهد له الطريق من قبل « مالارميه » و « ديغا » و كيفنه عبقرية « سترافنسكي » وسلمت به عبقرية « رافيل » .

اوائل ثورة موسيقية

لم تتوصل هيمنة « فاغنر » الى الاستقرار والرسوخ دون مقاومة، على الرغم من وضوحها ومن خدمة هوى الرمزية والنفوذ الالماني لها . فان ايطاليا كانت تفاخر بـ « فردي » وقـــد اسست المدرسة الواقعية الايطالية للادب والموسيقى ؛ وفي فرنسا عرف النغم كذلك ، على طريقة « غونو » ، نجاحاً ثابتاً راهناً . اضف الى ذلك ان الموسيقى الغنائية ما زالت اختيارية : ففي فيينا مثلاً نرى في عـــداد التمثيليات الغنائية المقررة « لوهنغرين » و « المشهّرون » و « عايدا » و « مينيون » وحتى الـ « هوغنو » . وظهرت مُغنّاة « بوريس غودونوف » لـ « موسورغسكي » فريدة من نوعها بفعـــل اختصار اللحن الالقائي المؤثر في النفس واهمية اللهجات الشعبية . ولحق « برامز » عـــبر الضوضاء الرومنطيقية ، بالاشكال البيتوفنية . وبشر فرانـــك بـ « عودة الى باخ » . نعم الشعور بأن كلاسيكية جديدة ستظهر في الافق : ولكن ظهورها قد تأخر .

فقد جرى حينذاك الحادث العرضي الذي اطلق عليه اسم الثورة الديبوسية . فاهتم «غبرييل فوريه » منذئذ بالعارض الزائل والافراط التوافقي الذي جعل موسيقاه تمت بصلة الى الاسلوب الانطباعي واشركه في الوقت نفسه بجمال الرمزية . وعلى غراره ، استوحى « كلود ديبوسي »

« فرلين » واحب « بودلير » وتردد الى مجلس المالارميين : فوضع في السنة ١٨٩٢ « مدخل الى ظهيرة احد آلهة الحقول» . واذا لم ينج فيه من السحر الفاغنري،فانه قد قاوم قول استاذ بايروت بالسلم الملون؛واذا لم يستوح « بوريس غودونوف » فقد اوثق الربط،على طريقة «موسورغسكي»، بين الغناء والكلام وفصل بين انواع الآلات الموسيقية المختلفة . وبموجب«المدخل» احتجب الخط وراء اللون ، وضحى اللحن بنفسه على مذبح توافق الاصوات، وملكت العاطفة نفسها خجلاً . وتأمن بعض الشهرة في السنة ١٩٠٢ ، بفضل « بليـاس وميليزاند » ، لهـذه التقنية الجديدة ، المقيدة والرقيقة والحالمة .

وفي لغة اكثر شهوانية وأشد قساوة اطـال « رافيل » و « روسيل » و « فـلوران شميت » عمر الديبوسية في فرنسا على الرغم من انهم تخطوهــا . ففي عهد « البنيز » و « غراناداوس » و «مانويل دي فالا » ، اراد « موريس رافيل » ان تكون اسبانيا – بالاضافة الى الرقص والمشهد الفاتن – احـد مواضيعه المفضلة : فال « لاهابانيرا » ، ورقصة ال « بافان»، و « القصيدة الاسبانية » و « الساعة الاسبانية » هي من أشهر ما انتجه صاحب الذوق الرقيق هذا .

اما الحقيقة فهي ان الانطباعية المتميزة بتوافقاتها الخالصة لم تلبث ان استنفدت مرادهــا وتأثيرها . فبالاضافة الى ان ديبوسي نفسه قد أسهم في تحوير المدلول التقليدي لخاصة اللحن ، جرى البحث بالمقابلة ، في قلب « مدرسة المغنين » ، عن لون جديــد عند « فنسان دندي » و « سكريابين » و « بيلا برتوك » و « ريشار شتراوس » (« الموسيقي الالماني العبقري الوحيد في ايامنا » كما قال عنه « رومان رولان » في السنة ١٩٠٥) . وسلك « اريك ساتي » طريــق « التحير اللحني » وابتكر « ارنولد شونبرغ » سلما موسيقياً حقيقاً لا لحن فيه اقصي عنه كل ايقاع بارز . وبدت انكلترا ،حيث تأسس في السنة ١٩٠٩ « تحالف موسيقي»،وكأنها اهتدت الى سر الخلق المدفون في ارضها منذ وفاة « بورسيل » . وفي هذه الاثناء برزت مواهب « ايغور سترافنسكي » : فتعاقبت مؤلفاته ، « الطــير الناري » و « بتروشكا » و « مسح الربيع » (وقد تكلم كوكتو عن « قنبلة المسح ») ، التي الفت موسيقى متعددة الاصوات انطوت على رسم غاية في الجرأة والتنوع . وجاء بروكوفييف في السنة ١٩١٤ يدعم هجوم « البرابرة » هذا بـ الملحق الغُنزي »

سيقول سترافنسكي عن موسيقى الجاز انها « تقليد الفولكلور » . ولكن الفن الجديــد ، الذي كان جامحاً حيناً وشهوانياً حيناً آخر ، لم يستطع التملص من واقعه : تحالف بين «البربري» والبدائي . فموسيقى الجاز هي إلى حد ما ، انتقام الزنوج ، في امـيركا اولا ، بألحانها الروحية الدينية والحنينية وانغامها الصارخة المسرحية او المضحكة . ولكنها كذلك تكيف الموسيقى تكيفاً مدهشاً وفاقاً للاسلوب الضاج الذي تميزت به الحضارة الآلية .

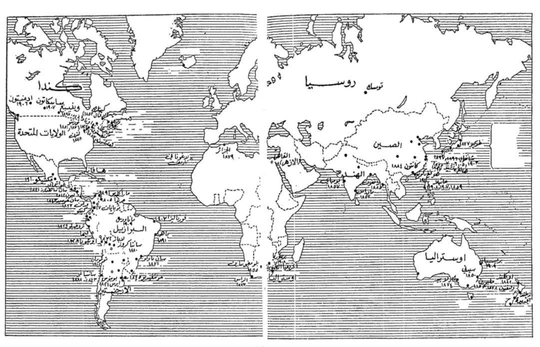
وهي في كلا الحالين بعض الهزيمة لاوروبا القديمة .

تعددت الصالونات والمعارض . وتكاثر السماسرة والهـواة . ودخلت اميركا المسرح بقابلية الجبابرة : فقـد جمع « جون بيربونت مورغان » العاديات البيزنطية المنقشة بالميناً واواني الخزف الصيني ولوحات « رافائيـــل » و « رمبرانت » و « فراغونار » و « غاينسبورو » ودفع ١٠٠ ٠٠٠ دولار ثمناً لاحدى لوحـــات « فرمير » ؛ ولكن مورغان وامثاله اشتروا ما عرفوا بوجوده عن طريق الاعلان . وانما حدث احياناً ان الولع كان نتيجة خداع . وربما صح ذلك في « مثل » لوحة « الجمركي » ل « روسو » التي روجها « ابولينير » و « سالمون » ، بحسب « فرنسيس كارلو » ، واستحسنها « غوغان » و « جارّي » و « ريمي دي غورمون » . وعلى الرغم من ذلك فان « فان غوغ » لم يعرف لا النجاح التجاري ولا اهتمام الهواة الصامت ؛ ونقل « ماتيس » لوحاته إلى الصالون على عربات جرها بيـــده ؛ وتخلى « اوتريلو » عن لوحاته لبائعي الخمور في مونمارتر مقابل قطعة نقدية او قنينة نبيذ .

وفرض رودان « الصاخب » نفسه بفضل الطابع المنجع في النفس الذي طبع به القلـــق البشري . فهو قد ضحى بكل شيء على مذبح التعبير والرمز . وجمـــلة القول انه بقي منعزلا بعض الانعزال . واما بورديل « الخلاق » فقد تقيد اكثر منه بمستلزمات الخط الهندسي ورجع الى الفن القديم الذي اوحى به علم الآثار . وهوي « مايول » الخطوط القليلة الانحنـاء التي سعى وراءها الاسلوب المصري . وقد برزت مواهب قوية في كل مكان تقريباً : « قولب » في المانيا ، و « ابشتين » في انكلترا ، و « وشتورسا » في بو هيميا ؛ ولكن النقاشة عانت من تعذر اشتراكها مع التصوير الذي ابتعد راضياً عن الفنون الاخرى وعن الجماهير ، ومع هندسة العمارة التي لم تسـلك طريقها بعد ؛ وعانت كذلك من استعبادها لطلبات زبائنها .

دان الرسم بنجاحه للاعلان والبطاقة البريدية المصورة والجريدة . وقد تفوق الرسامون النكاتون في الرسم الاعـــدادي المباشر . واشتهر في التصوير الهزلي « كين » و « هاين » والامـــيركي « جبسون » والتشيكي « موشا » و « كاران داش » و « فورين » و « ويليت » و « ستنلن » الذي امتدح اناتول فرانس « فنه المباشر والرصين » المتصف احياناً « بعظمـــة ورقة » . وتابع التصوير كذلك سيره بحزم في الطريق الاستقلالية التي بدت له وكأنها طريـــق الخلاص . وهذا ما عناه « ريمي دي غورمون » في الدرجة الاولى حين كتب في السنة ١٨٩٩ : «ان للفن هدفاً خاصاً انانياً كله ... لا يتكلف برضاه اية رسالة ، لا دينية ، ولا اجتماعيـــة ، ولا اخلاقية ...يريد ان يكون حراً ،ونكداً ،وغير معقول». فهل يعني ذلك انتصار ما هو مخالف للصواب يا ترى ؟

كان نفوذ الانطباعية كبيراً جداً ، وقد واصلت جولتها في اوروبا ، فكانت مصدر وحي في المانيا ل « فون اوهد » و « كورنت » ، وفي النمسا ل « كلمت » ، وفي السويد ل « زورن » و دخلت هنغاريا وروسيا بفضل « باستيان – له باج » . وانما حـــدث ما ازال بعض العطف



شكل رقم ٢٨ ـ الجامعا· في العالم في القرن العشرين

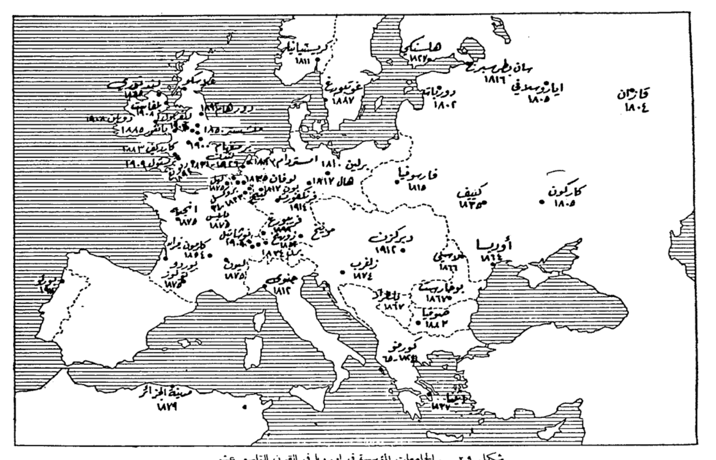
تشير الدوائر الى بعض الجامعات المؤسسة قبل القرن ا‍لسع عشر ، والنقاط السوداء الى الجامعات المؤسسة في القرن التاسع عشر . ولم يذكر في كندا سوى مؤسسات ا‍ليم العالي العامة. وحين تضم احدى المدن عدة جامعات ، يشار الى هذه الاخيرة بتواريخ تأسيسها . (نقلا عن د. ‍بر » ، « جامعات العالم »)

عليها . ويرد ذلـك الى ان طريقة « مونيه » قـد حيّرت في النهاية اولئك الذين لم يرضوا ، على الرغم من كل شيء ، بالتضحية بالتأليف ورغبوا في تأثر اعظم قوة . « هي العين مـــا تأكل الرأس » كما سيقول « موريس دني » عن التصوير الانطباعي . واراد « بوفي دي شـــافان » ، المزين الجدراني ، لصورة الرمزية ، رصانة يستوجبها التصوير على الجدران ؛ وتشاهـد رمزيته اكثر شهوانية عند « ألبير بسنار » واكثر غموضاً وتخيلاً عند « غوستاف مورو » . وانما أطلق اسم « الالف » على فنانين من أمثال « فانتين لاتور » كلفوا بالموسيقى الفاغنرية ، وأمثـــال « كاريير » اقصى اتجاههم الميتافيزيقي النشوة التصويرية ، واخضعوا جميعهم كل شيء للحيـــاة العميقة ، وقد انحدروا بسهولة الى التجريد والغموض .

كانت طريقة « تجديد البنيان» عمل ثلاث شخصيات قوية في الدرجة الاولى : « سيزان » ، غوغان ، « فان غوغ » . استطاع الاول في البدء الاختلاط بالفئة الانطباعية : عجز عن القبض على الحركة ، على ما هو سريع الزوال ، فنادى بما هو دائم ومتين . فأعاد للتصميم شأنه ؛ واهمل ما لا يهمه حتى ولو لم ينه موضوعه ؛ وكان كاثوليكيا غير صوفي ، وعقـلا ذكياً شغفا بالعظمة البسيطة ، فحن إلى ما هو بدائي وتسلطت عليه فكرة الشمول . اما غوغان فقريب الشبه اليه من اوجه كثيرة : اطلق عليه الرمزيون اسم « التأليفي » لانه لم يحفظ من الحواس الا اهمهـــا تأثيراً ؛ ولكنه لم يتوصل الى اشباع هواه البدائي الا بالعيش بين البدائيين الاصليين . وامـــا فان غوغ ، الذي ادمن على السكر ومات معتوهاً ، بعد ان انجز معظم انتاجه بين السنة ١٨٨٧ والسنة ١٨٩٠ ، باذلا في عمله جهداً عنيداً متواصلا ، فقد اعتمد اصباغاً لامعة واعاد الى اللون كافة امكاناته .

ثم جاءت « الانطباعية الجديدة » ، التي افرغت مجهودها في التعبير عن الضوء والنور بلجوئها إلى طريقة « التجزئة » ، المزعومة علمية ، التي اعتمدها « سورا » و « كروس » و «سينياك» . وجاء « الشقر » بدورهم حوالي السنة ١٩٠٥ : « ديرين » ، ماتيس ، « روو » ، وسواهم ، ولا سيما « فلامنك » الذي اعلن « ان التصوير انما هو المحبة » . وقد انتسب بعضهم الى غوستاف مورو والبعض الآخر الى غوغان وفان غوغ . اما في الحقيقة فلا يجمع بينهم سوى عـداء معلن للانطباعية والمجاهاة بمناهضة الثقافة . فهم انصار اللون الساخط في وجه اللون الساطع . ولكن ماتيس سعى وراء تحقيق نوع من « التوازن » ، وماركيه وراء الاتصاف برقـــة خفية وعظمة ساذجة ومنطقية معا . وفي ايطاليا نبضت مدرسة « المستقبل » بالثورة حين ارادت التعبير عن ارتعاش السرعة العصرية . وعلى نقيض الانطباعية ايضاً ، اعتمدت التعبيرية التبسيط الذي بلغ حد التصوير الهزلي احياناً : وقد ظهرت في المدرسة الالمانية ، المعروفة بـ « الجسر » ، التي دانت بالكثير لـ « سيزان » وللنروجي « مونخ » المؤثر في النفس الذي احيا « الفن الفقي » .

يجدر لفت الانتباه هنا الى ان سيزان وسورا وغوغان ، وبصورة عامة كل معتمدي الرسم الايجازي ، قد اتجهوا بالرسم نحو التكعيبية . فقـــد اعلن ابولينير : « ان الهندسة بالنسبة



شكل ٢٩ — الجامعات المؤسسة في اوروبا في القرن التاسع عشر
ان التواريخ المدونة بين هلالين هي تواريخ تأسيس الجامعات الكاثوليكية في بلجيكا وفرنسا وسويسرا

للفنون التصويرية هي بمثابة الاجرومية للكتاب » ؛ واعلن كذلك : « سيغدو التصوير العصري فناً جديداً كل الجدة وسيكون للتصوير ، كما نظر اليه حتى اليوم ، ما هي الموسيقى للادب » . فالتكعيبية مطلقة ، اصلية ، قاطعة ، واكثر اقفالاً من اي وقت مضى ، وتحدد بما يلي : « هندسة غنائية » . وقد جانبها كثيرون : فكانت اشبه بـ « ماتيس » تبسيطات الالوان ؛ وانتقلت من الحياة عند ديرين الى الاشكال المجردة حقاً ، التي يجب ان توافق « الحقيقة بحسب الروح » ، عند « براك » ثم عند بيكاسو . فبموجبها تشابكت المسطحات والمكعبات والزوايا الناتئة ؛ وتذكر الصور المفصلة كما يفصل الماس برسوم النقاشة الزنجية او البولينيزية . فان الاندلسي بيكاسو ، الذي اطلق عليه ابولينير اسم « عصفور بنين » ، قد جاء الى باريس في السنة ١٩٠٠ وخلق لنفسه عالماً اصبحت صوره هندسية بالتجريد . فكان ان بعضهم اكدوا مع الشاعر : « ليس للمشابهة اية اهمية ، لان كل شيء يضحى في سبيل حقائق وحاجات طبيعية سامية يفترضها دون ان يكتشفها . فتغلب عدم الاستمرار في هذا الفن كما تغلب في موسيقى « سترافنسكي » .

وانما اذا كانت غاية التكعيبية اكتشاف جوهر الاشياء ، فانها قد مثلت من بعض الاوجه ، شاءت ام ابت ، بجهود تصوير نقشي بغية الاتفاق وجسارات الخطوط الهندسية التي ظهرت تباشيرها .

من الاسلوب العصري الى هندسة العمارة الاسمنتية

منذ اوائل القرن فرضت المدينة نموها المسيخ والفوضوي . ووجب انتظار السنة ١٨٨٠ حتى يبرز ويعم الاهتمام بالتجهيزات التجميلية في المدن : فبعد نابوليون الثالث وهوسمن ، اوصى البرليني « ستوبن » باحترام الماضي والارض ، وشدد الفينيي « سيت » الكلام على التوافق الواجب بين الساحات والابنية ، وآثر الانكليزي « هارفارد » المدينة – الحديقة – التي حققها « اونوين » في « لشوورث » في السنة ١٩٠٧ ، وفكر السكتلندي « جدس » بتنظيم المناطق التي تضم عدة مدن . وبينما كانت المانيا البلاد الاولى التي نظمت توسيع المدن ، اعطت البلدان الانكلوساكسونية الجديدة مثل « نظام الساحة » . وطلع « غارنييه » بفكرة الطرق المرتفعة وترتيب الابنية وفاقاً لزوايا معينة . واتاحت المؤتمرات والمعارض مقابلة هذه النظريات وتمنت اقرار تعليم يوجهها . ولكن تجميل المدن ابطأ في وعي واجباته العظيمة .

كانت بعض التحقيقات صدمة « للمتمدنين القدماء » : فقد طاب لـ « باريس » في كتابه (كوليت بودوش) اظهار التضاد بين « متز » القديمة ، « مدينة الروح » الروح الفرنسية القديمة ، العسكرية ، الريفية » ، وبين الابنية الالمانية : « محطة القطار الحديدي الجديدة (التي). يبدو كأنها تتباهى بعزتها الثابتة على خلق اسلوب امبراطوري عظيم » ، و « التي ليست سوى قطيفة او فطيرة عظيمة محشوة باللحم » ؛ والحي الجديد المعبر عن جنون العظمة (الذي) يضم الخانات الكبرى والمقاصف البورجوازية المثقلة بالنقوش الاقتصادية الصاخبة ، ويتطلع الى العظمة

والثروة » ، و « ليس سوى كذب وفوضى وافلاس عبقرية » .

ولم يلمح الحديد كذلك نهضة هندسة العمارة : فالهياكل المعدنية الجيبة قد طليت حتى لا تتأكسد. اجل لقد عرف برج ايفل البقــــاء بفضل الرسوم المفروضة على الصعود اليه ؛ ولكن كثيرين لم يكفوا عن الانتقاد امام « الظل البغيض للعامود البغيض المصنوع من صفائح حديـــدية مثبتة بمسامير ضخمة » .

ولم يتوصل الاسلوب العصري ايضاً الى حجب فقر الابنية الرسمية او الابنية التي تعطي دخلا لمالكيها . فهو في تصميمه على تزيـين وجـه البناء بتقعيره او تحديبه ، كأنما يطيب له التهرب من الخطوط البسيطة التي بدا وكأن مواد البناء الجديدة تفرضها . الا انه جدد التزيين والورق الملون والفراش ؛ وكان مصدر وحي لمصنوعات الحديد المطرق الجميلة ؛ واعتمدت زخارفه الزهرية في الاعلان نفسه ؛ ولجأ اليه الزي النسائي باحكام الاكمام و « التنانير » في اعلاها وتوسيعهـــا في اسفلها بشكل نورات الزهر : فنعته الساخرون « بالاسلوب الحامل » و « المتموج » ، و « اسلوب الحرية » ايضاً الذي زعم في انكلترا انه مدين بالكثير الى ازياء ما قبل رافائيل .

هي الفنون التزيينية التي استفادت اعظم استفادة من « اسلوب السنة ١٩٠٠ » . وقـــد نظم اتحادها المركزي مظاهرة في مكان العرض . وفي معرض خريف السنة ١٩٠٣ ، خصها مهندس العمارة « فرانتز جوردين » بمكان فسيح . فأعطى تعليم « وليم موريس » و « وولـتر كراين » ، مجددي الفنون التطبيقية ، ثماره آنذاك ؛ فتلفت اليها « فان دى فلد » الذي أسس مدرسة في « نيمار » واستعاض عن الرسم المزهري بالخطوط المموجة .

عبثاً اصدر « فيوليه له دوك » حكمه على التزيين النافل باسم العقل . وقد وجب ان يظهـر الاسمنت المسلح مزاياه في الولايات المتحدة حتى ينطلق فن يتصف بـ « العقلية » . فقـــد ألبس الاميركيون الهياكل الحديدية بمزيد من الاسمنت والماء والرمل . ولم يقاوم بناؤهم النار فحسب ، بل كان انجازه سريعاً واقتصادياً ايضاً . وهو « وليم له بارون جني » من حقـق البناء الاول في شيكاغو في السنة ١٨٨٣ ؛ ثم جاء دور نيويورك في السنة ١٨٨٩ . والغرابة التي تلفت الانتباه هي أن معهد الفنون الجميلة في باريس هو ما خرّج معظم مهندسي العمارة الذين حددوا بـدقة ، شيئاً فشيئاً ، تقنيات ناطحات السحاب وسننها الجمالية . وهو « لويس سوليفان » ، خريـــج هذا المعهد ، من اقترح لمبنى الـ « اوديتوريوم » في شيكاغو اثبات الحجم العمودي ، ومن فرض نفسه في السنة ١٨٩٩ بمخازن كارسون الكبرى .

في السنة ١٨٩٤ استخدم « اناتول دي بودو » ، احد تلامذة « فيوليه له دوك » مادة البناء الجديدة في كنيسة مونمارتر للقديس يوحنا الانجيلي . فانتصب في العاصمة الفرنسية ، بعد مرور خمس سنوات ، شدف بناء من الاسمنت المسلح . ومنذ ذاك التاريخ كان الـ « وركبوند » ، الذي رغب في توحيد الفن والصناعة وتكلم عن « اسلوب موضوعي » ، قد بدأ دعاوته . فوجهها

« لووس » في النمسا ، و « موزر » في سويسرا ،و « سانتيليا » في ايطاليا ، والاخوان «بريه» و « له كور » في فرنسا . وقدم لها « فان دي فلد» مساعدة كبرى. فأصدروا حكماًعلى التقليد سواء كان كلاسيكياً مستعارا او نهضة مستعارة او فنا قوطيـــا مستعاراً او اسلوب فرنسوا جوزف . ففرض الخط المستقيم نفسه ، لا سيما وقد املاه القالب الخشبي . والى ماكس كلنجر عاد الفضل في صرامة العري . وانتقلت البساطة الى لندن في « كوداك بيلدنـــغ » و « ادلايبد هاوس » و « بوش هاوس) . وتركت مزيداً من التأثير مخازن ورتهايم الكبرى في برلين الـــتي بناها « الفرد مسل » . وفاز الفنانون « المونيخيون » بأغلبية الاصوات في معرض الخريف في باريس في السنة ١٩١٠ . أفلم تؤالف التكعيبية العين يا ترى ؟ وتوجب من جهـــة ثانية التسليم بالواقع الواضح : لما كانت الجدران لا تحمل ثقل البناء ، اذ ان الهيكل الاسمنتي يقوم بذلـــك ، اتسع المجال في التركيب الهندسي للحاجات العصرية. فكان ان القرن التاسع عشر قد خلّف في النهاية وعوداً بأسلوب هندسي جديد حقاً يجمع بين المتانة وجسارة الخطوط وصرامتها .

الفصل الثاني

تجدد الحياة التصوفية والروحية
في أوروبـــا

« كل ما حمل اسما في الفن او العـــلم او الادب كان مغايرا للدين » .

(« بول كلوديل » ، ١٨٨٦)

« فأفضى بي الامر الى انني ازدريت في ذاتي بذاك العلم الذي كان مبعثا لفخاري » .

(« اندريه جيد » ، « الماجن » ، ١٩٠٢)

المنازعة حول قيمة العلم

عند الانتقال من قرن الى قرن ، بدت انطلاقـــة التقنيات العلمية وكأنها قادرة على تبرير الآمال الـــتي وضعها الانسان الغربي في تحقيقات العبقرية البروميثية . لا بل ان مكاسب الثقافة توسعت توسعاً سريعـــاً ؛ واستفادت الآداب والفنون من مناخ مؤات . لذلك فقد عزم رينان ، قبل وفاته، على نشر كتاب«مستقبل العلم » الذي اوحى « برتلو » اليه به في السنة ١٨٤٨ والذي يمكن اعتباره بمثابة وصية وضعية . واكثر برتلو نفسه من المجاهرة بإيمانه العميق بامكانات العلم ؛ وقد صدرت خطبه ومقالاتـــه المجموعة في كتابين : « العلم والاخلاق » (١٨٩٧) و « العلم والفكر الحر » (١٩٠٣) .وصدر في الفـــترة نفسها كتاب « احاجي الكون » لـ « هَكَل » . فقد اعلن برتلو ان « العلم هو ولي نعمة الانسانية » . وهو يطالب اليوم بادارة المجتمعات الفكرية والاخلاقيـة على السواء . وبفضله تخطو الحضارة العصرية خطوات مطردة السرعة . ومهما يكن من مزاعم محتقريـه ، فهو سائر في سبيله ، مخففاً سنة العمل القاسية وخالقاً انسانية اخوية . « فمن معرفة الكون وتركيب الانسان الطبيعي والاخلاقي معرفة ابعد عمقاً ، ينجم مفهوم جديد لمصير الانسان

توجيه المداليل الاساسية للتضامن الشامل بين كافة الطبقات وكافة الامم » .

ولكن العلم نفسه بدا متخلخلا حتى في أسسه بفعل الثورة التي تعرض لها . « ظن خـــيراً بقواه الفتية ، ووعد متكبراً بأن يعطي الكلمة الشاملة عاجلا ام آجلا » : هذا هو الكلام الذي اطلقه « رومان رولان » على لسان رفيق مضطرب ، رومان رولان نفسه الذي تكـــلم عن « زلزلة السنوات ١٩٠٠ وثورانات الفكر التي قوضت واحرقت روح القرن (العشرين) الطالع» . فعقبت المفاجآت المدهشة مفاجآت اخرى أعظم اذهالا . بالامس استلزم كل مصباح يستخدم للاضاءة اشتعالا اجاجاً؛ أما اليوم فمصباح اديسون لم يعد يشتعل لأنه يرتكز الى مبدأ يمنع جذب الهواء . وبالامس اقعدت الداروينية التطور على الاستمرار ؛ أما اليوم فقـــد عاد « دراش » و « وايسمن » و « دي فريز » الى فكرة التحولات الفجائية واعلنوا: « ليس من استمرار بـين الانواع » . وفي الحقيقة لم يعد التفسير الآلي للكون ليقنع ويشبع الرغبات. ومنذ السنة ١٨٧٦، ابدى كيرشهوف بعض الارتيابات حيال قيمة النظام النيوتوني ، وجاء ماك يخطّىء تعابـــير « الاتساع المطلق » و « الزمان المطلق » لانها لا تطابق شيئاً في النطاق الكمي : واقترح عـلم طبيعة يرتكز الى الظواهر دون غيرها ؛ وقادت نظرية « الجزئيات » اميل بوريل الى التساؤل عما اذا لم يكن تفسير الظواهر تفسيراً احصائياً اكثر النظريات اقناعاً واشباعاً للرغبات ، اميل بوريل نفسه الذي تعمق ، مع « تشيبيشيف » و « هنري بوانكاريه » و « باشلييه » ، في درس حساب الاتفاق . وسوف يكون من ردة الفعل في أوساط علماء الطبيعة ان « لنين » سيتهمهم بالوقوع « في المثالية » عن طريق مذهب النسبية ، بسبب جهلهم الجدل » . وعلى أي حال فقد شدد الرياضيون على حاجتهم الى المبادىء الاساسية المسلم بها بدون برهان والى الحقائق البديهية للسير في نظرياتهم . فقد قال أميل بوريل : « ان موضوعية العلم الكاملة ليست سوى اضغاث احلام ؛ فعلمنا يقاس بمقياسنا » . ومع العلم ان بوانكاريه لم يترك اي مكان للاتفاق ، فانه قد اعتبر انه لا يمكن وضع اي شيء واضح مدقق وراء كلمتي قوة او مادة ، وبالتالي «ان الاختبار يترك لنا حرية الاختيار ... بمساعدته ايانا على تمييز اسهل طريق يمكن سلوكها » . وطاب له التذكير بأن « العلم لن يكون الا ناقصاً » ؛ «وان من يقول علماً يقول ثنوية بين العقل العارف والشيء المعروف » . وبعد ان يطرح هذا السؤال : « ما هو العلم ؟ » يجيب : « انه تبويب قبل اي شيء آخر، اي نوع من التقريب بين الاحداث التي تفرق بينها الظواهر ... » يجب الا نرى فيه سوى « نظام علائق » . وبالتالي اذا ما عين العلم حدوده ، وخطأ الاوهام الخادعة ، وطلب الينا التوقف عن اصدار احكامنا ، فان الكثيرين يعتقدون بأنه يرتاب بنفسه . فيحدث انتقال من اليقين الى الاحتمال البسيط في نظر « بوترو » الذي شدد على كثرة العلوم وكثرة طرائقهـا . وقرت عين مذهب العملية بتأكيده ان العلم مجموع مصطلحات سهلة الاستعمال ، او بالتفصيـل أن السنن ليست كلها سوى سنن تقريبية . وسوف يتمكن برغسون من التأكيد ان الاستمرار الحقيقي لا وجود له الا في الوعي فقط لأن استمرار المادة ليس سوى استمرار متحرك .

لقد لوحظ مراراً كثيرة ان السنة ١٨٨٩ ، سنة احد المعارض العامة ، قد شاهدت صدور كتابين معا هما «محاولة في معطيات الوعي المباشرة» ورواية «التلميذ» التي اظهر فيها «بورجيه » كيف ان « المنكر الكبير ، ذاك المحلل الواعي ، الذي كاد يكون عادم الانسانية بسبب قوة منطقه ، يتضع وينحني وينهار امام سر المصير المغلق » ، وارتد في النهاية إلى الله . وقد نشبت معركة حقيقية في فرنسا بمناسبة مقال « برونتيير » «بعد زيارة للفاتيكان » ، وكتاب رينان ، «مستقبل العلم» . فان برونتيير ، رفيق بورجيه ، قد وجد امامه برتلو الذي كان من قبل مصدر وحي لرينان . واعلن برونتيير : افلاس العلم ؛ فهو احد اولئك الذين انتقلوا بالاستنتاج من قول « نحن لا نعلم » إلى قول « نحن لن نعلم البتة » . فأجاب برتلو عن ذلك بجاهراته بعقائد العقلية . بيد ان « زولا » اعترف بأن العلم « لم يعد بالسعادة ، بل بالحقيقة » ، واضاف : « وللاكتفاء به يوماً ، يقتضي الكثير من التضحيات ونكران الذات نكراناً مطلقاً وطمأنينة فكر قانع يبدو وكأنها لا تصادف الا عند نخبة معينة . ولكن بانتظار ذلك ، اية صرخة يائسة تصدر عن الانسانية المتألمة ! » لذلك حاول برانكاريه التوفيق بين وجهات النظر المختلفة بتأكيده ان « الانسان لا يمكن ان يكون سعيداً بالعلم ، ولكنه ... بدونه سيكون اقل سعادة ايضاً » . وفي الرسالة الحبرية التي وجهها لاون الثالث عشر في السنة ١٩٠٢ ، خلص على الرغم من ذلك إلى عجز العلم « عن ارواء التعطش إلى الحقيقة ، والإلهيات ، واللانهاية التي نتطلع اليها برغبة شديدة ... » .

اكد المؤمن بامكانات العلم انه يمتلك مفتاح اليقين ، وان النتائج المحققة تتصف بركانة تكاد تكون جلية . وعلى عتبة عهد النسبية، بدت اعتقاديته وكأنها تشجع ردة الفعل اللاحتمية التي عقدت مع المذهب القائل بتفوق الايمان على العقل تحالفاً غريزياً .

سلمت التطورية اللاماركية بان التبدلات الناجمة عن البيئة تنتقل الى الذراري : وهكذا اعتقدت فئة من رجال الفكر ، ضمت « كونت » وسبنسر ، بتكامل الانسانية الفيزيولوجي والفكري معاً . اما التحولية فقد وجهت ضربة هائلة ، بقولها بامتناع هذا الانتقال ، لتفاؤل قرن تأمل الكثير من نمو افضل الميول . وانها ظهر ان النوع ، اذا تم الانتقاء الطبيعي بأقل فظاظة ، لا يتعذر عليه الترقي فحسب ، بل قد يتأخر في الواقع عضوياً ايضا . فافضى ذلك الى حل المالتوسية الجديدة الذي اقترحه علم تحسين النسل والذي يقضي بانتقاء طوعي ؛ وفي السنة ١٩٠٧ اجازت عدة تشريعات في الولايات المتحدة تعقيم بعض الافراد من ذوي العاهات. ثم الم يقترح « فاشيه دي لابوج» منذ السنة ١٨٨٨ الاستعاضة عن التوالد الحيواني والاختياري بالتوالد الموجه والعلمي ؟ » ...

الارتياب في تقدم النوع
رفض الحضارة العصرية
ودعوة الشرق الى اللاعنف

حام الشك في الوقت نفسه حول تفوق المبادىء التي طالب الغرب بالسيطرة باسمها . فهل يقتضي الاعتقاد ، بموجبها ، بالسلم الاجتماعي والسلم بين الشعوب ؟ لاشك في ان برتلو قد قام بوعد : « سيكتسب الانسان مزيـــداً من اللطف والاخلاق،لانه سيكف عن اعتماد التقتيل وافناء الخلائق الحية سبيلا للمعيشة » ولكن الجنرال « دي برناردي » ، حين اوضح مميزات « الحرب العصرية » ، لم يتردد كذلك في السنة ١٩١٢ في الجزم بمايلي : « المستقبل لـِ « بروميتيه » وليس لـ « ابيميتيه » » .

بانتظار ذلك تمنع الشرق عن الانحناء امام نظام لم يمثل في نظره سوى ظواهر قوة مادية . فقد سبق للصوفية الروسية ان رفضت القيم المرتكزة إلى تقدم التقنيات . وقد أسهب تولستوي في تفسير العظة على الجبل ، واصدر حكمه على بابل العصرية ، فأعلن هو ايضاً افلاس العــــلم وخص بلاده برسالة توفير النصر لثورة اخلاقية . فكتب في السنة ١٨٨٤ – ٨٥ : « مـــا هو المطلوب منا ياترى ؟ » مقاومة تقسيم العمل المشؤوم ؛ ورفض الوضعية ، والفن للفن ؛ « والتندم على الذنوب ، واقتلاع الكبرياء الذي تأصل فينا بالعلم ... » ، والاقلاع من ثم عن استغـــلال امثالنا في سبيل الاثراء ؛ والربط بين النشاط الفكري والعمل المــــادي . « انه لتعليم ساذج » يعبر ، في نظر لينين ،« عن عدم ادراك فلاح بطريركي بسيط» ويذكر « بصوفيات العـــالم الآسيوي » .

قال بعضهم ان التولستوية قد استقت علمها الاخلاقي من الانجيل واستوحت البوذية على الصعيد الفلسفي . اجل لقـد سحرت الهند بحكمتها . ولكنها حين قصدت هي نفسها اكتشاف الغرب ، لم تخف نفورها الشديد . فقد اغتم « فيفا كاننندا » اغتماماً مؤلماً.ثم جاء ابن «دبندرانات» « رابندرانات طاغور » ، الشاعر والفيلسوف والمؤلف المسرحي والموسيقي ، فوقف موقفـــاً مناهضاً لمذهب التزهد، ولكنه اصدر حكمه في الوقت نفسه على حضارة اقترفت ذنباً بايثارها النهضة المادية على التكامل الروحي والاخلاقي . واستسلم غاندي لافكاره في افريقيا الجنوبية حيث ذهب يدافع عن مواطنيه ضد الاوروبي : فقرأ روسكين ؛ وعرف تولستوي الذي اوحى بتشاؤم الروائي الياباني « هاسيغاوا فوتاباتاي » ؛ وجاهر بان الجمال يكمن في العمل اليدوي ورفض الاستسلام للغرائز العنيفة . وفي السنة ١٩٠٩ ناشد الهند « ان تنسى كل مـــا تعلمته منذ خمسين سنة » ، وذهب حتى النهاية في رفض التقدم كما يفهمه الغرب ، فأعلن: « يجب ان يتوارى عنا القطار الحديدي والتلغراف والمستشفيات والمحامون والاطباء ، الخ . » .

كان اللاعنف من ثم جواباً على العنف، مولـّد المجتمعات الجديدة – الذي اعتبره بعض علماء الاجتماع ، من أمثال « له دانتيك » و « له بون » و « ستينمتز » ، ملازماً للجنس البشري ، على نقيض « دركهايم » الذي كان مقتنعاً بان تقسيم العمل يكبح الغرائز الوحشية . وكان على

اللاعنف هذا ، في نظر اناتول فرانس،الابيقوري الذي اقلقه ثوران الاهواء القومية ، و «رومان رولان » المرهف الحس في تذوق الجمال ، ان يهب الى مساعدة العقل المستقل والكلف بالجمال .

التقليد الروحاني والتصوفي

اقصر القرن مسألة ما هو ممتنع المعرفة على دور حيادي ، أو مجهول أحياناً ، ما دامت المعرفة تتناول العلائق بين الاشياء فوق تناولها طبيعتها . فقد كان هناك علماء مؤمنون بامكانات العلم ، من امثال « تين » ، مثلوا العلوم الاخلاقية بالعلوم الطبيعية ؛ ولكن عقولا لاادرية كثيرة ، منذ كونت حتى بوانكاريه، قد سلمت بأن بعض المسائل ما زالت بعيدة المنال . والحال ، اذا كان صحيحاً أن العلم « لم يعد بالسعادة بل بالحقيقة » وان نسيان « هاجس اللانهاية » يقتضي كفراً بالذات لا يقوى عليه كثيرون ، لأدركنا حينذاك عجز المؤمنين بامكانات العلم عن اشباع رغبة اولئك الذين اعتبروا مسألة الاسباب الاولى والاسباب الغائية مسألة رئيسية ، حتى خارج الاعتقاد التقليدي . فبماذا يجب ربط مفهوم الواجب يا ترى ؟ هل يكفي القول ،كما فعل برتلو ، ان الاخلاق ليست منوطة « لا بالانانية ، ولا بالعصبية ؟ » فعلى افتراض ان العقل يفسر كل شيء ، يبقى عليه ان يفسر نفسه ، ونعود حينذاك الى درس المعرفة .

الا أن المصلحين لم يكونوا قلة في يوم من الايام . وسوف يقول بيغي : «روحانية « كوزين » الصبيانية والحكومية على الاقل» . وبعد مرور نصف قرن سعى « بول جانيه»جهده ليثبت ان العقل يسمح بالفصل بين نطاقين ، نطاق الحتمية ونطاق حرية الارادة : بايماننا بالحرية ، نجعل من أنفسنا أحراراً ونخلق الله بتصرفنا كما لو كان موجوداً . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان رينوفييه انطلق من نسبية تصوفية تجعل الفرد يستعذب المبادهة ، ولم يحد قط عنها حين سلم بالله مبدأ كل شيء .

وفي المانيا شوهدت كذلك عودة الى « كانت » : طالما ان الايمان يوفر « مزيداً من اليقين » اصبحت التمييزات الكانتية امراً واجباً . ثم برز تأثير شوبنهور قوياً ، وان متأخراً ، حين يقول : « لا يكون لدي ما يقلقني ، فان هذا بالذات ما يقلقني ؛ وقد اقام هذا الكانتي البرهان على تصميم على الحياة مخالف للصواب، وعلى وجود نزعة غامضة وعمياء ومحدودة وثابتة» .

حوالي ١٨٨٠ — ٩٠ ، تفتحت لعمري الروحانية التي تمثلت ، منذ باسكال ومالبرانش ، بـ « مان دي بيران » في السنوات ١٨٠٠ — ١٨٢٠ . واعاد « رافيسون » الاولوية لعلم ما وراء الطبيعة ومهد الطريق امام البرغسونية . وفي نظر « لاشلييه » ان الحقيقة الوحيدة هي الضمير ، من حيث ان الاشياء تعبر عن نشاط الفكر فقط . ويدخل « بوترو » في هذه الفئة بنظرية « عدم لزوم سنن الطبيعة » : في نظره ان « قابلية التحول هي القاعدة » . ولم يسبق ان وجه احد مثل الاتهام الشديد الذي وجهه الى مبادىء العلم الوضعي . وكان تأثيره عظيما على الفكر العلمي في اواخر القرن .

بالمقابلة انتصبت التصوفية الهيغلية في وجه الاختبارية والاعتقادية ، وغـزت البلدان الانكلوساكسونية . فلم يجد « هل غرين » ، في اوكسفورد ، فرقاً بين روح كل شخص والروح التي تبعث ، من الداخل ، التطور الكوني . وشدد تلميذه برادلي والاميركي «رويس» بدورهما ، الكلام على ان وساطة هذه الروح الكونية وحدها تتيح التعاطف بين شتى الضمائر المتناهية . اما نظرية الظواهر التي طلع بها الالماني « هوسرل » ، والتي لم تكتف بمبدأ ديكارت « افكر اذن انا موجود » ، بل ارادت بلوغ الذات اللانهائي الشامل ، فقد كانت « علم الضمير » وقادت الى علم المقولات السامي عن طريق اخرى .

وعلى الرغم من ان « ليون برونشفيغ » قد قال بأولوية العلم ، فقد انتهى هو ايضاً الى تصوفية لانهائية تعاكس الواقعية الاختبارية . وذهبت فلسفة هاملين من المجرد الى المحسوس ، بينما سترتكز فلسفة برغسون الى الاختبار المباشر المستعجل . ومن حيث هي فلسفة عقلية ، فقد ابرزت ، قبل اي شيء آخر ، وحدة الفكر وعينت بواعثها المنطقية . واليها توجهت تأثيرات « هيغل » و « رينوفييه » و « لاشلييه » .

تعظيم الشخصية

« ليس الشك بل اليقين ما يجعلنا مجانين » . هكذا تكلم نيتشه قبـل ان يصبح معتوهاً . وان هذا لشكل آخر من اشكال الاعتراض على القبول السهل بمبدأ الايمان بامكانات العلم . انطلق من شوبنهور ، فحاول ابداً الانتصار على «عناء الحياة» . وعندما خيبه « فاغنر » اتجه نحو زردشت الذي تعلم رسالته الانسان ، القادر على مواجهة المخاطر ، كيف يصل الى القوة ، اي كيف يرتفع فوق مفاهيم المحبة والمساواة غير المصيبة ، اذ ان المسيحية والديموقراطية مسؤولتان على حد سواء عن هذا « العناء » المقنط . « طالما انا حي ، اريد ن تكون الحياة في نفسي وفي كل ما هو سواي ، فائضة ووافرة وحارة جهد المستطاع » . وقد قدمت الرومنطيقية الجديدة والوثنية الجديدة الارستوقراطية والديونيسية لتفسير المواضيع الكبرى : موت الله ، خرافة العودة الازلية ، خلق انسانية متفوقة . « احدى الحركتين غير شرطية ، تسوية الانسانية ، المنامل البشرية الكبرى . اما الحركة الثانية ، حركتي ، فهي على نقيض ذلك ، ابراز التناقضات والمهاوي ، والغاء المساواة ، وخلق كائنات كليـة القدرة » . فكان صدى الرسالة عظيماً جداً في اوروبا وحتى في يابان الساموراي . اما « كيركغارد » ، المسيحي القلق ، فقد اقترح قاعدة سلوك تتيح للكائن ان يتحقق بكليته اذ ان الحقيقة ذاتيـة وخاصة وجزئية (وهذا الشعور المسرحي بالوجود قد كدر «اوناموبو» و«ماشادو دي آسي») . وجاء نيتشه بدوره – وقد جعله بعضهم احد مصادر الفلسفة الوجودية – يعظم الـ « انا » ويعين للانسان مهمة التفوق ابداً على اعماله السابقة .

وان موضوع الشخصية ، التي تتفتح في الجهد المبذول ، قد طرقـه كذلك « براندس » و « ليلبانكرون » و « جورج » و « دانونزيو » ، لا بل ظهر عند « توماس مان » و « ريلكه » ،

ايضا . وبالحرص على القيم الموجودة في هذا القمر المكر الذي استكشفه فرويد استكشاف العالم ، متت « الجونية » بصلة الى النيتشية : وقد املت على اندريه جيد تحليلا صادقا لكل الصدق لنفسه وللآخرين . واقترح الكالفيني السيفيني فلسفة للعمل المجاني في حاضر يجب التمتع به ، واوصى باعتماد الاقتسار ضد الاقتسارات : « يجب ان يكون الانسان طليقا من كل ناموس للاصغاء للناموس الجديد » . وقد قال بهذه الفلسفة « سوينبورن » و « مردث » و « وايلد » و « باتلر » و « ماردي » الذين طاب لهم تمثير المعجبين بالعصر الفكتوري المشرف على نهايته واهتدوا الى لهجات كبار الروائيين الروس العنيفة . وفي جوار هـذه الفئة النشيطة قام « ودكند » و « شو » و « بنفانت » الذين رفعوا القناع ايضاً وانتقدوا المراءاة على اشكالها المختلفة انتقاداً مرا . وبدا شو بصورة خاصة اشبه بوليير جديد نافر من البشر قد لا يتأخر عن اطراء « اشتراكية غير اجتماعية » . اما ريشار ستراوس ، الذي تردد بين التشاؤم واكثر التصوفيات غطرسة ، فقد استوحى زردست ولحّن مؤلف اوسكار وايلد : « سالومه » .

الموقف العملي

اما الذين كان كافيا في نظرهم تحديد الافكار بوجه استخدامها « لجعلها واضحة » فقد ركنوا الى ما في المعرفة من فائدة ملموسة جداً . وكان هذا الموقف شبيهاً بالاختبارية من اوجه كثيرة . وبردة فعل كذلك ضد التطورية السبنسرية ، اتجه الفكر الانكلوساكسوني اتجاهاً شبه طبيعي نحو عملية الاميركيين وليم جايمس وديواي القادرة بوجوب تحديدها نفسه على الدفع الى العمل : وقد اعتقد بعضهم باكتشافها في تعاليم ماركس نفسه الذي لم يفرض على نفسه مهمة تفسير العالم بل تحويله. واستعمل الانكليزي شيلر كلمة « الانسانية » للتعبير عن موقف يقوم بتوجيه البحث قبل اي شيء آخر نحو اهداف تتفق ومكانة الانسان . وقد مثل جميعهم ما هو حقيقي بما هو مفيد ، وسلموا واوصوا بكافة الاختبارات الانسانية ، بما فيها « الاختبار الديني » ، بنسبة قدرتها على تعيين الاعمال . وهي ظروف الحياة مـا يفرض الكيان ، وليس الكيان ما يفرض ظروف الحياة ؛ ولكن العمل يسمو على الفكر ، بينما يرى الماركسي الذي بقي امينا لمذهب العقلية ، ان الفكر ، الملازم للعمل ، يسمو عليه بالعـلم . فللايمان بالله ما يبرره في احدى الحالتين ، وليس له ما يبرره في الحالة الثانية . فاقترح العمليون من ثم تعليماً تفاؤليا للتقدم في احترام القيم العريقة في القدم . ويمكن ان يفسر ذلـك تفسيراً مختلفاً : فالعملية تساعد على اعادة الحياة العاطفية ومحاربة الحتمية العلمية ، كما تساعد على ايجاد ماكيافيلية عمل حقيقية والسلوك بسهولة بموجب الضمير .

الثورة البرغسونية

بينما ارتأى العمليون ، شأن بوترو وكثيرين سواه ، عـدم لزوم السنن الطبيعية ، متمسكين بمفهوم الفاعلية ، قامت هناك فلسفة استوحت العاطفة وهدفت الى تخطي موقفهم بالسمو على الاختبارية والعقلية على السواء . فكأنما حدثت ، بحسب « له روا » ، منذ صدور كتاب « محاولة في معطيات الضمير المباشرة » (١٨٨٩) ، ثورة حقيقية

شبيهة بـ « الثورة الكانتية » او حتى بـ « الثورة السقراطية » ؛ فكانت « ثورة على طريقة كوبرنيك » في نظر « وليم جايمس » الذي اعلن في السنة ١٩٠٧ : « لقد مات مسخ المذهب العقلي . فقد قتله برغسون بضربة قاضية » . وهلل بيغي بقوله : « لقد حطم قيودنا » .

انها لعملية حدسية نوعاً ما : فالمقصود هو معرفة الـ « انا » لا بتحليل قد يشوهه بتفكيكه اياه ، بل بواسطة « استماع » الى الضمير نفسه ؛ لان الـ « انا » لايقع تحت قياس يعطي الزمان دون الديمومة . وهكذا فان باستطاعة الحدس وحده التمكين من اكتشاف الـ « انا الغامض » .

والحال لا تتميز ظواهر الضمير في تعاقبها،بل هي تتعاقب دون ان تتميز : هنالك جريان لا آخر له في هذه الديمومة ؛ هذا هو مد الحياة بالذات،هذا هو «الاندفاع الحيوي».وفي كتاب «التطور الخلاق» الذي صدر في السنة ١٩٠٧ رفض برغسون الوجوب الآلي نهائياً.«لقد انقضى قرن كامل منذ اختراع الآلة البخارية ، ونحن بدأنا اليوم فقط نشعر بالهزة العميقة التي احدثتها فينا ... » . فـ « الانسان العارف » ليس قط من ثم هو « الانسان العامل » . واذا الغريزة حددت الصعود نحو الاشكال العليا ، فالعقل يدفع اليها ؛ ولكن المستقبل يبقى غير معين ، وحرية الفكر كلية ؛ واذا ما بدت الحرية غير قابلة التوفيق مع سنن العلم ، فمرد ذلك الى ان هذا الاخير لا يعبر الا تعبيراً ناقصاً عن الواقع ، الواقع غير المستمر ، اذ ان الاستمرار لا وجود له الا فينا ، في جريان الضمير الذي هو نوعية وديمومة .

كانت نظرية المعرفة ونظرية الحياة من ثم متلازمتين في مذهب يُحل الانسان في اعلى سلم الكائنات ، لانه يمتلك الضمير الذي يتيح له الوصول إلى المطلق ، إلى الله نفسه . وفي السنة ١٩٠٥ ، اظهر برغسون « الحاجة الى فلسفة اقرب الى المعطيات المباشرة من الفلسفة التقليدية » . ولما كانت هذه الفلسفة معاصرة لنظرية الجزئيات ، فقد اعتقدت ان بمقدورها استخلاص حرية ارادة على مستوى بشري من لا حتمية الجزئيات . ورجعت البرغسونية عن الحكم الذي اصدره كانت وكونت على علم المعقولات ، فجددت السيكولوجية واسهمت اسهاماً رئيسياً في نقد الايمان المطلق بامكانات العلم .

النهضة الدينية

برزت غزوة ما هو مخالف للصواب ، كما في العهد الملكي بعد الثورة ، بضخامة عدد الاهتداءات المدوية ، التي كانت الكاثوليكية المستفيد الاكبر منها ، كما في السنوات ١٨٠٠ - ١٨٢٠ . ففي غضون القرن ، وجهت الكاثوليكية كلامها الى الجماهير بصورة خاصة ؛ اما اليوم فهي اكثر استمالة لاولئك الذين لم تشبع الوضعية رغباتهم ، وتقززت نفوسهم من الواقعية والطبيعية الادبيتين . ويرد ذلك الى اثر الرواية الروسية (روايات دوستويفسكي بصورة خاصة) التي روجها كتاب « فوغويه » في السنة ١٨٨٦ ، فوغويه الذي عرف الكثيرين كذلك بفاغنر والثالوث الشمالي المعظم : «ابسن» ، « بجرنسون » ، « سترندبرغ» . ولكن تولستوي نفسه ابتغى الرؤية بمناظري الفلاح الروسي ؛ شعر بالحاجة الى التألم بكل تواضع

الجيلي مع البؤساء . ومن جهة ثانية انتقل ستريندبرغ من الالحـــاد والوقاحة الى الدين بقراءته مؤلفات سفندنبورغ : فنشر في السنة ١٨٩٧ كتاب « جهنم » ، الذي وصف فيه آلامه النفسية المبرحة ، واكتشف « طريقه الى دمشق » . واهتدى كذلك « فوغازارو » الذي قزت نفسه من المدرسة الواقعية الايطالية ، و « هويسمنس » الذي تخلص بذلك من تسلط فكرة المرض على عقله ، والشاعر كوبيه ، والاشتراكي هوبتمن ، وجورجنسن الذي كان « فرلين » مصدر وحي له في كتاب « اهتداء » ، والناقد الادبي « برونتيير » الذي استهواه القرن السابع عشر الكلاسيكي والمسيحي في نظره ، وكلوديل ، وغوساير وآدي المتصلون بالرمزية . فقد كتب هويسمنس في السنة ١٨٩٥ : « بعد ان عرضت امراضي النفسية على كافة مستشفيات الافكار ، ذهبت في النهاية ، بنعمة الله ، الى المستشفى الوحيد الذي يضجعونك فيه ويعتنون بك ، الى الكنيسة » . ونذكر ايضاً اهتداء كان له صداء العظيم ، اعني بـــه اهتداء بيغي ، عند الانتهاء من قضية « دريفوس » . فان بيغي هذا قد اعلن في السنة ١٩٠٠ : « سوف نقصي بحـزم هؤلاء الملافنة العائدين من روما الذين يوصوننا بانكار العلم والعقل ، والانقياد الدائـــم ، والصمت المتحذر والتوقيري » . وهو الذي كان اشتراكيا بالامس ، فنابذ الاشتراكية ، وجوريس وما اعتبره عداء للاكليروس وحبا للسلم باليين ، بل مشؤومين ، لان مسائل الخطيئة والنعمة تسلطت على عقله . لذلك كان « مستقبل العلم » في نظره كتاباً غاية في المراوغة ، وتنكيباً دائماً عن الحمية ، وسوء ائتمان . فأصبح ، كما يؤكد « لويس جيليه » ، « ذاك الذي يوحي لي صورة القديس بولس الحية » .

التحق هؤلاء المهتدون اذن بجماعة المؤمنين . فهذا هو الراعي فرنسن ، الروائي الرقيق الذي ألّف « جورن اوهل » و « هيلينجلاي » ؛ وهـــذا هو الصوفي « فرنسيس طومسون » الذي يضاهيه رقة ؛ وهذا هو هيلير بلوك ، واضع المحاولات الحماسية ؛ وهذا هو « ليون بلوا » الذي اطلق على نفسه اسم « أفاق الرب » وكان جريئاً في ادعاء الرؤيا ، قادراً على كل بغض عنيف ، معذباً بالبؤس والالم . اضف الى ذلك من جهة ثانية ان المفكرين الكاثوليك اختلفوا على طريقة اقعاد الايمان اقعاداً افضل ، فشدد « اولّيه ـ لابرون » على دور الارادة ، بينما لجـأ موريس بلونديل الى سمو الله لسد الفجوة بين الارادة وقدرة الضمير .

وبالمقابلة برز تجدد في الفن الديني . فان تاريخ القديسة جنفييف الذي رسمـــه « بوفي دي شافان » على جدران البانتيون ليس قط عمل فن مقدس ، ولا لوحـــة « المسيح والملائكة » لـ « مانيه » ، ولا لوحة « الصلب » لـ « سيزان » . وباستطاعتنا تعيين السنة ١٨٩٠ تاريخاً لنهضة هذا الفن الجلية بفضل لوحة موريس دونيس ، « السر الكاثوليكي » . ثم سار ديفاليير عـــلى خطاه ، واشار ليون بلوا منذئذ الى بلاغة « رووو » . وقبيل الحرب العالمية انتصبت ابنية العبادة الاولى المتميزة باسلوب جديد حقاً ، وبدأ باريليه يجدد فن صناعة زجاج الكنائس .

وكانت نهضة الموسيقى الدينية افضل ظهوراً ايضاً . وكان اصلاح الترتيل الطقسي نتيجـة لنشر الانغام الغريغورية الذي اعاد للترتيل الكنسي معناه الصحيح . وجعل الوحي الصوفي من

تلامذة مدرسة « نيدر ماير » ، و « ويدور » و «فيرن » و «فرانك» مجددي الارغن : فعبروا بشكل بساطة عن اندفاعات تقوى متينة لا مواربة فيها . وفي « مدرسة المرتلين » عند «فنسان دندي»، تسببت مأساة الحياة الداخلية في وضع مؤلفات اشد اغماما .

النزعة المحافظة ضد النزعة العصرية

سار موريس بلونديل في الخط الاوغسطيني ، في حال ان الكنيسة التي انشغلت في عهد لاون الثالث عشر بخطر الايمان المطلق بامكانات العلم ، ساندت الحركة التومية الجديدة التي ابتغت الاستعاضة عن تأكيدات الشائين المقوضة بتحقيقات العلوم العصرية ، ورغبت في تحليل نشاطات المسيحي الاجتماعية .

ولكن ما هو السبيل للتوفيق بين التقليد والعصر؟ لقد اعرب بعضهم مرة اخرى عن املهم، في عهد « الانضمام » الى الثورة الفرنسية وبراءة « الاشياء الجديدة » ، وفي الوقت الذي اقصر فيه « اوغست ساباتييه » اللاهوتي الكالفيني القدير ، المسيحية على حالة نفسية داخلية ورفض كل ما لا يمكن فرضه الا باسم سلطة خارجية وانتهى الى مسيحية بدون عقائد وطقوس ورؤساء. وعلى نقيض ذلك ، وفي مناخ عملي ، اخذت « النزعة الاميركية »،التي نادى بها الاب « كلاين »، بمجامع القلب ، لا بل ووجهت امكانية عقد مؤتمر للتقريب بين الاديان . ولكن لاون الثالث عشر استقبح في السنة ١٨٩٩ موقف الاحبار في ما وراء الاطلسي آخذاً عليهم تضحية الفضائل السلبية على مذبح الفضائل الفاعلة . ولكن النزعة العصرية تسلطت بالرغم من ذلك على العقول في المعاهد والمؤتمرات الكاثوليكية التي حاولت النهوض بعلم عقلي للدفاع عن العقائد المسيحية ، يمكن من محاربة العقليين في عقر دارهم . فكانت مؤلفات هولو ولويس دوشين وألفرد لوازي الهادفة الى تفسير الكتاب المقدس نتيجة التأويلات التي ما كان رينان نفسه ليتبرأ منها في الارجح . وارتأت لاون الثالث عشر وضع حد لذلك برقيمه « الله الكلي العناية » الذي انكر كل خلاف بين اللاهوت والعلم . ولكن الفلاسفة « له روا » وبلونديل والاب لابرتونيير قد اعتقدوا هم ايضاً بالاهتداء الى الله باندفاع الكائن وحده : فالتومية لم تشبع رغباتهم. وانتشرت في ألمانيا كاتبية كاثوليكية جديدة ، هي شقيقة العملية على الرغم من ان لاون الثالث عشر قد اصدر حكمه على هذه « النفسانية الجذرية » . وعمم الاب اليسوعي تيرل النزعة العصرية في انكلترا حيث احرزت « الكنيسة المتساهلة » نجاحات جديدة ؛ وقد انضم اليها مشايعون مجدون في ايطاليا : وقد فسر فوغازارو هذه الرمزية ببراعة في رواياته . وحين اقصي لوازي عن المعهد الكاثوليكي في باريس ، اصدر السنة ١٩٠٢ كتاب « الانجيل والكنيسة » : فاتهم هذه الاخيرة بمناقضة روح الانجيل واعتبر رينان « المعلم الاول للعصريين الفرنسيين » . وبينما ذكر ليون الثالث عشر قبل موته « بأن العلم البشري لم يجب على المسائل الكبرى التي تتعلق بمصالحنا السامية » ، استصدر الديوان البابوي مرسوماً يعدّد ٦٥ « خطأ وخيم العاقبة على العلوم المقدسة وتفسير الكتاب المقدس واسرار الايمان الرئيسية » .

في عهد بيوس العاشر وطدت النزعة المحافظة مواقعها. فان براءة السنة ١٩٠٧ نسبت الى النزعة العصرية انها « تجمع كافة الهرطقات » . وقد علق عليها اناتول فرانس ساخراً بما يلي : « يتعذر على الانسان ان يقدر حق قدرها حكمة البابا بيوس العاشر الذي اصدر حكمه على دروس تفسير الكتاب المقدس لأنها منافية للحقيقة المنزلة ووخيمة العاقبة على العقيدة اللاهوتية القديمة ومميتة للايمان » . ثم تناولت ردة الفعل كافة اشكال الكاثوليكية الحرة ، ولا سيما في فرنسا حيث بدا « الانضمام » قضية خاسرة منذ انفصال الكنائس عن الدولة . فهكذا صدر الحكم على مطبوعة « الاخدود » ؛ وهكذا حذرت براءة السنة ١٩١٢ الكاثوليك من اخطار العمل المشترك بين الطوائف الدينية على الصعيد الاجتماعي .

الا ان النزعة العصرية لم تفض إلى حركة هرطقية واسعة . فأمام انشقاق قليل الشأن عدديا، حافظت السلطة الروحية على مواقعها التقليدية التي بقيت جماهير المؤمنين متمسكة بها . وفي عهد بيوس العاشر ، الكاهن القديس الذي كرس نفسه للدفاع عن العقيدة بدون تساهل ، نرى الكنيسة الكاثوليكية ، التي كانت اقل حرصاً ظاهراً على تجديد الروح المسيحية منها في الماضي، تهدف في الدرجة الاولى الى ان تبقى خير معتصم في خضم الارتيابات والاضطرابات .

النفسانية والمادية امام التطور البشري

اذا سلمنا ، كما يعلم ماركس ، « بأن الآراء السائدة في زمن من الازمنة لم تكن يوماً سوى آراء الطبقة المسيطرة » ، فقد يجدر بنا معرفة ما اذا كانت ردة الفعل التصوفية والروحانية لا تبرز بالدرجة الاولى في الاوساط التي تقلقها « الاشتراكية العلمية » : استفادت البورجوازية من العلم ، فلم تأنف من الايمان بامكانات العلم المطلقة ؛ ولكن أليست الخشية من مادية معينة ، قد يحسن او يساء فهمها ، وتمثل بحتمية تحصى بموجبها ايام النظام الاجتماعي القائم ، دافعاً لها لأن تعتصم بارجحية وعرضية قادرتين على انقاذ حرية الفكر وبالتالي على استحقاب المستقبل ؟ هذا ما ارتآه « رومان رولان » : « منذ منتصف القرن التاسع عشر ، وبعد ايام حزيران ١٨٤٨ التي سالت فيها الدماء غزيرة ، اخذت البورجوازية تفقد محبة ذاك التقدم الذي لم يتوقف قط من اجلها ، وذاك العقل ، الممتنع التبدل ، الذي بذلت جهدها بدون ترو في سبيل إرساخ سلطته . وهي الطبقات الصاعدة ، اي انبياء البروليتاريا ومدارسها الاشتراكية ، من وضعت يدها عليها لحسابها » . وفي « اوهام التقدم » سوف يتولى جورج سوريل ، فيما يعنيه ، تقديم البرهان على ان التفاؤل القائل بامكانات العلم المطلقة انما هو انتاج بورجوازي ، وتحذير « الطبقة الصاعدة » من نظرية مجففة ، وفي الوقت نفسه ، وبصورة خاصة، انتقاد العملية ، وهي « التعبير الاخير الذي توصل اليه الفكر البورجوازي » . « ان هذه الفلسفة توافق موافقة كلية كل حديث نعمة يرغب في الانتماء الى عالم متساهل جداً ، بفضل دماثته ، وثرثرته وقحة نجاحه » . وقال « جوريس » على طريقته الخاصة : « ليس بعد اليوم سوى طبقة واحدة تستطيع اعطاء الفكر شكلا اجتماعياً : هي البروليتاريا » . ولذلك حرص

لينين على ابراز الاهتمام الذي يتوجب على هذه الأخيرة ابداؤه نحو تحقيقات العلم . وقد سخر من « العاصفة » التي اثارها كتاب هكل « في البلدان المتمدنة » وهلل «للاهمية الاجتماعية الحقيقية » التي ينطوي عليها هذا المؤلف ابان « صراع المادية ضد التصوفية واللاادرية » . واثبت اسباب انزواء الفلسفة في الفكر « الخالص » وحصر مهمتها في التبصر في ذاتها بدلاً من التبصر في الواقع ، خوفاً من ان يخطئها الواقع الاجتماعي . وفي رأيه ان الهرب امام نظرية المعرفة المادية قد ارتدى اشكالا مختلفة جداً ، لا سيما وانه يسهل جمع حلقات السلسلة التي تؤدي من النسبية العلمية الى العملية ، الى التصوفيات الكثيرة والروحانية القائلة بتفوق الايمان على العقل . فالتصوفية ليست سوى شكل محص من اشكال مذهب تفوق الايمان على العقل، الكلي القدرة ، الذي يعتمد على منظمات كبرى ولا يزال يؤثر على الجماهير تأثيراً مستمراً ، مستفيداً من اقل غوايات الفكر الفلسفي .

ولكن ما لا يمكن انكاره ، على كل حال ، ان المفهوم النفساني ، الذي احتفظ من جهة ثانية بانصار اقوياء ، قد الب في النطاق التاريخي عدداً كبيراً من خصوم الماركسية . اجل لقد امعن « ماكس وبر » النظر في العلائق بين « علم الاخلاق البروتستانتي وروح الرأسمالية » وامسك عن «احلال تفسير مادي من طرف واحد محل تفسير روحاني...من طرف واحد ايضاً » ؛ ولكن « درويسن » يجزم بأن « تأمل ومعرفة الاشياء الماضية لا وجود ولا ديمومة لها الا في الفكر المتناهي » ، و « روه » يضع في الحاضر « مركز رسم المنظور » ، و« توينبي» البرغسوني المقتنع ، سينتهي الى نوع من التاريخ اللاهوتي . اما « بندتو ـ كروتشي » فيعتبر ان التاريخ « يدخل في مفهوم الفن العام » ، وانه « روحاني » ، وان عليه اكتشاف الاندفاع الخلاق مرة ثانية ، كما اراده « فيكو » (الفن جدس خلاق ، وليس ، كما حدده « فرنسسكو دي سانكنس » تلميذ هيغل ، « نتاجاً لاشعورياً من نتاجات روح العالم في فترة معينة من فترات وجوده). وليس من تاريخ ، في نظره ايضا، سوى التاريخ المعاصر : « لأن موضوعه ، مهما بلغ من قدمه ، يعيش في فكر المؤرخ بهوى الحاضر نفسه » . فنحن من ثم امام تاريخ فلسفي ونسبي كان ردة فعل للتاريخ الوضعي الاسلوب والماركسي المفهوم .

رأى كروتشي في الواقع الاقتصادي نفسه عملا من اعمال الارادة . ولكن الاقتصاد السياسي ، فيما يعنيه ، يعيد التفكير في مسائله نفسها . فلما لم يعد الايمان بالتوافق ممكناً ، بحسب حلم المدرسة الحرة ، فقد فُرق بين الاقتصاد الخالص ، المجرد ، المنظور اليه نظرة توازنية خلوا من المغزى العملي، وبين الاقتصاد النشيط الذي يستلزم الاختلالات ويخضع لحاجات الانسان اكثر من الاقتصاد الاول . وعاد العلماء الى كورنو ، فاسندوا برهانهم الى قوة آخر رغبة اشبعت : فأراد « الفرد مارشال » « الاهتمام بعواقب الانسان ... الانسان المركب من لحم ودم » . هذه هي نظرية القيمة - الفائدة التي جعلها الهامشيون مقابلة لنظرية القيمة ـ العمل الماركسية : وقد استنتجوها من المبدأ النفساني ، باعتبار ان«الانسان الاقتصادي» يعمل في اتجاه مصلحته المدركة

خير ادراك . وهناك المدرسة الرياضية ، او مدرسة لوزان ، مع « جيفون » و « والراس » و « باريتو » ، التي يؤول كل شيء فيها الى مسائل توازن تطرحها آلية المقايضة دون غيرها ؛ ومدرسة فيينا او « منجر » السيكولوجية التي واصل تعليمها « بوهم - باورك » و « فون وايزر » اللذان يعتبران الجهد المبذول والتضحية المقبولة امرين جوهريين. فاعتقد شارل جيد في السنة ١٩١٣ ان بامكانه كتابة ما يلي : « لم يعد قط من اقتصادي يؤمن بأن القيمة ثمرة العمل ... فالرغبة هي سبب القيمة الاوحد ... » .

لقد خضعت مميزات الآليات الاقتصادية من ثم لجدل حام ، وساد الارتياب حول الاقتصاد المعروف بالاقتصاد الكلاسيكي . فلم يبق قط هنا سوى ارجحية بسيطة تخفف من تفاؤل الامس الذي وجه اليه ماركس والوقائع ضربات خطيرة .

الفصل الثاني

الدول الاستعمارية والحمى القومية
أعراض التقهقر الاوروبي

في الوقت الذي كانت فيه عوامل الحياة تتجدد باطراد ، أخذت اخطار مخيفة تتهددها باستمرار .فالاقتصاد الرأسمالي الذي ركبته حمى التوسع والانبساط يخضع لسنة الحشد والتجمع ويسعى دونما انقطاع الى توحيد السوق العالمية مع اثارته الروح الامبريالية التي اخذت تقيم الدول الاستعمارية الكبرى بعضها على بعض . وفي الوقت ذاته ،نشهد احتداما كبيرا في المشاعر القومية التي أخذت تجيش وتضطرم في نفوس هذه القوميات او الاقليات المستضعفة . وهكذا أطل على العالم احتمال قيام حرب عامة واستبدت الفكرة الى حد بعيد بأذهان البشر وسيطرت على تفكيرهم اليومي .

الاقلية الرأسمالية تزداد بأسا وحولا وتوسعا

ساعدت الازمة المالية التي عانى منها العالم طويلا بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ في تكوين تكتلات صناعية ومالية . وبالرغم من رجوع العافية الى الناس واستئناف النشاط ، فلا يزال مسيطراً على النفوس الخوف من وقوع ارتكاسات تجر وراءها ركوداً جديداً في الاعمال وهبوطاً اكبر في نسبة الأرباح ومعدل المكاسب . فالازمات التي كان يتجدد وقوعها بصورة دورية كانت تأتي فعلها في مثل هذا المصير الذي لم يكن من السهل تفاديه . فالأزمة المالية التي وقعت عام ١٩٠٠ / ١٩٠١ تسببت بتكوين ٧٩ اتحاداً احتكاريا في الولايات المتحدة الاميركية . ففي سنة ١٩٠٩ ان ١٪ من المشاريع الانشائية كانت تستخدم ٣٠ بالمائة من مجموع اليد العاملة كما كانت تستعمل ٣٨ بالمائة عام ١٩٠٤ . وفي تلك الغضون ، وقعت أزمة ١٩٠٧ التي سجلت ارتفاعاً في التكتلات التجارية

ارتفع عددها بين ١٨٩٦ – ١٩١٠ في المانيا وحدها من ٢٥٠ الى حوالي ٤٠٠ ؛ وفي سنة ١٩٠٨ كان واحد في المائة من المشروعات الانشائية يستخدم ٣٩ بالمائة من اصحاب الاجور ويسيطر على ٧٧ بالمائة من القوى المحركة. وهذا التطور يبدو على شكل اوقع وصورة أفعل في النفس في بعض البلدان الاخرى كروسيا واليابان اللذين حاولا قطع المراحل بسرعة . وبالرغم مما بلغ من اتساع ورحب حركة المنافسة ، فقد بقيت مع ذلك، مرتبطة ، على اقدار مختلفة بأقلية من المحتكرين . ان نصف ثروة الولايات المتحدة الاميركية القومية هي في يـــد ٢٥ الف فرد من افراد الشعب الاميركي .

فسيولة الرأسمالية النقدية هي التي استطاعت أن تؤمن لحسابها مثل هذا الحشد . هنالـــك بعض المصارف الكبرى ، لا يزيد عددها خمسة او ستة على الاجمال ، هي التي تستبد بأهم الدول الكبرى في اوروبا كما ان للولايات المتحدة الاميركية الخمسة الكبار *The Bib Fives* من هـذه المصارف. فالبنك الاهلي الالماني يشرف على ٨٧ مصرفاً ثانويا في البلاد كما كان يسهم في ادارة ٣٠ مصرفاً آخر ، عام ١٩١٠ . هنالك عدد لا يحصى من الاتفاقات والمشروعات ربطت ، بشكل آخر ، الاستثمارات الصناعية بهذه المصارف التي فتحت لها باب الاعتمادات المالية . فالبعض منها اتبع الحشد الافقي (امثال : دورمان ، لونغ وبلدوين في الميتالورجيا او الصناعات الحديدية ، وبرادفورد دايرز في صناعة الاصباغ والالوان ، وشركة *Cable Makers* لدى البريطانيين ، كما ان البعض الآخر آثر الحشد الشاقولي او العمودي ، فانطلقت كروب من صناعة الحديـد لشراء مناجم الفحم وتجارة الفحم والغاز ومشتقاته ، بينما ينصرف ثيزين وستينز للتخصص بتجـــارة الفحم من استخراج وتسويق وتنفيق، وينشىء في هذا السبيل شبكة من الخطوط الحديدية .ولم يقنع وليم هسكيث لفر،مؤسس شركة *sunlight* و *Port Sunlight* ان ينشىء امبراطورية له من فروع هذه الشركات في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية . بل ابتـاع له مزدرعات واسعة في افريقيا والفيلبين وانشأ فيها مصافي لتكرير البترول ، كما اهتم بانشاء مراكز لصيـــد السمك ، وانشأ صناعة المرجرين او السمن النباتي بحيث اصبح يتصرف بأكثر من مليون لـيرة انكليزية عام ١٨٩٠ ، وبعشرين مليون عام ١٩١٣ .

ونشاهد منذ الآن التفوق الساحق الذي حققته في اليابان شركتان يابانيتان همـا : المتسوبي والمتسوبيشي . وجبابرة المال على شاكلة مورغان وفندربلت وروكفلر ، سيطروا ايضـاً على مرافق صناعة الميتالورجيا وعلى الطاقة الكهربائية وعلى صناعة البترول في اميركا . لا يمكن ان نغفل عن ذكر هذه الشركات العقارية الضخمة وشركات المخازن الكبرى وشركات التأمين على الحياة وشركات صنع الاسلحة . فقد وحد باسيل زهاروف الذي رفعه ملك انكلترا الى رتبـة النبلاء بين شركة نوردنفلت وشركة مكسيم ، كما ضم ، فيما بعد ، مكسيم الى فيكرز ؛ ورئس البرت فيكرز اتحاداً دوليا من كبار رجال الاعمال من بعض الشركاء فيه بتلهم وترني ، كما أن شنيدر وكروب يشرفان على اعمال شركات *Poutilov* و *Skoda* . والكرتل الدولي لصناعـة

البارود وقع تحت اشراف اتحاد نوبل ودوبون دي نمور .

اما الارباح التي لا يزال بحثها العلمي في مرحلته الاولى ، فمعدلها يختلف نسبة بين سنة واخرى ، ومن قطاع الى آخر . فشركة دوبون مثلاً حققت ربحاً صافياً بلغ ٥٠ مليون دولار بين ١٩٠٢ – ١٩١٢ . وبفضل الطريقة المعروفة بارساء رأس المال نرى شركة صنع الفولاذ الاميركية ترفع رأسمالها من ٦١٧ الى ٧١٧ مليون دولار وتصدر اسهماً بـ ١٤٤ مليون دولار بعد ان امتصت شركة مناجم بحيرة سوبيريور البالغ رأسمالها ٩٢ مليون دولار وتطورت الى شركة جديدة رأسمالها ١٤٨ مليون دولار . ويعترف كروب بأن ارباحه بلغت ٢٠ مليوناً صافياً عام ١٩٠٣ و ٣٤ مليوناً عام ١٩١٣ – ١٩١٤ .

وراح فرقاء من أصحاب المصارف يخططون لهجوم نموذجي بعد ان اخذوا يتقاسمون فيما بينهم او يتنازعون في كل مكان ، المشروعات الاستثمارية ذات الاهمية . نحن نجهل الكثير من حوادث هذه المعركة ودقائقها وهي معركة خاضوها للسيطرة على الخامات الضرورية والاسواق العالمية . هنالك حرب صامتة كان من اهدافها السيطرة على القصدير ، وأخرى رمت للسيطرة على الكبريت واخرى للتحكم بالتبغ دارت رحاها بين الشركات الاميركية والانكليزية . واحدى هذه المعارك الاكثر معرفة لدينا في دقائقها وتفاصيلها هي معركة النفط او البترول ، نشبت اول ما نشبت ، بين شركة ستندارد اويل ورويال دتش شل من جهة ، وبين شركات نوبل – روتشلد . فوقائعها البارزة تدور حول نفط القفقاز وبين المناطق البترولية الجديدة التي تسيطر عليها الولايات المتحدة في المكسيك والعراق وايران . واتخذت هذه الحرب شكل صراع بين الانكليز والاميركيين . وقد شعر الرأي العام بمثل هذا الصراع الواسع المدى بين الدول دون أن يتبين تماماً مداه ، وهو صراع ان لم يهدد السلام مباشرة في العالم فقد زرع مع ذلك الاضطرابات في كثير من الدول .

ضعف اوروبا في الاسواق العالمية

اخذت المنافسة الاقتصادية بين الدول الاوروبية الكبرى تشتد وتحتدم ، وهو وضع يمكن رده الى الصعوبات والعراقيل التي اعترضت سياستها التوسعية الامبريالية .

ويبدو ان اوروبا اخذت تتلمس بعض مواطن التأخر والضعف النسبي في مركزها ونشاطها. ففي عام ١٩١٣ كانت اوروبا تسيطر على ٨٠ بالمائة من مجموع النقل البحري وهي نسبة لا تعادل سوى ٤٢ بالمائة من مجموع حركة النقل في العالم ، وهو معدل محترم الا انه آخذ بالتقهقر والهبوط تدريجياً ، وهو ادنى من حصة اميركا الشمالية (٢٦ بالمائة) بالنسبة لفارق السكان بين القارتين. لا تزال بريطانيا العظمى تحتفظ بمركزها الممتاز في صناعة النسيج والحياكة ، الا انها عجزت كما عجزت المانيا نفسها عن الاحتفاظ بالاسبقية في انتاج الفحم الحجري والميتالورجيا ، وهي اسبقية صارت الى الولايات المتحدة الاميركية التي سجلت في مجال الطاقة الكهربائية سبقاً

اكبر وأبعد .

وأخذت اوروبا تفقد شيئاً فشيئاً القدرة على الاكتفاء الذاتي وراحت تعتمد اكثر فأكثر كل سنة على اقطار اخرى في العالم ليس في الخامات التي هي بحاجة اليها فحسب بل ايضاً في المواد الغذائية التقليدية . ونلاحظ ان بريطانيا العظمى لم تعد تعول على محاصيلها الزراعية ، الا بنسبة ٦٠ بالمائة ، وان بلجيكا تستورد عام ١٨٩٠ نحواً من ٥٥ بالمائة من القمح و٧٥٪ بين السنوات ١٩١٠ — ١٩١٤ .

ان ٦٠ بالمائة من التبادل التجاري يقع في داخل اوروبا او بين هذه الدول والدول الاخرى في العالم . الا ان وضع اوروبا من هذه الناحية هو اقل من قبل لصالحها . والجدير بالملاحظة هنا التأخير الذي نلاحظه في موقف انكلترا التي كانت تنتج ستة اضعاف ما تنتجه الولايات المتحدة من الفحم ، عام ١٨٧٠، بينا انعكس الوضع بينهما عام ١٩١٣، اذ نقص انتاجها من هذه المادة الى الضعفين من انتاج اميركا . فاذا ما عرفت ان تحتفظ بالمرتبة الاولى الى عام ١٩١٠ بانتاجها للحديد ، فقد جاءت عام ١٩١٣ ، في المرتبة الثالثة ، بعد الولايات المتحدة والمانيا . ومجموع الحركة التجارية انخفض معدلها من ٢٢ بالمائة حوالي عام ١٨٧٥ ، الى ١٥ بالمائة عام ١٩١٣ ، وهبطت حصتها من النقل البحري الى الخمس بعد ان كانت الربع . ومن جهة اخرى بينا يأخذ الميزان التجاري في البلدان الواقعة الى الشرق من المحيط الاطلسي (هو ١٠ بالمائة لالمانيا و ٢٠ بالمائة لفرنسا و ٣٠ بالمائة لانكلترا) تسجل حركة الصادرات في الولايات المتحدة ارتفاعا كبيرا . واوروبا مدينة بما لها من قوة في ميزان المدفوعات لاستثماراتها العديدة في الخارج . فهي تحتفظ بثلاثة ارباع الثروة المنقولة ، بينا بريطانيا العظمى وحدها تبز الولايات المتحدة في حساب الثروات الوطنية . وقد تبين من عملية حسابية ان الفرد الواحد ينفق في السنة ٢٣ الف فرنك بينما لا ينفق الفرد الانكليزي سوى ٢٠،٧٠٠ ، والفرد الفرنسي سوى ١٤،٥٠٠ فرنك . وهذا انما يعني انه اذا كانت اوروبا لا تزال تبز سكان الولايات المتحدة استهلاكاً في العام للمواد الاستهلاكية من اي نوع كانت ، فلا يزال الاميركيون في الطليعة بالنظر لعدد الفرقاء المتناولين . والشعور السائد في اوروبا هو ان ما تتمتع به من مستوى اعلى في العيش ، يعود الفضل فيه لهذا التراث الذي خلفته لها العصور الماضية . ان اي تطور من هذا الشكل من شأنه الا يساعد قط على قيام حالة من التفاهم بين الدول ولا السلام الاجتماعي .

استثمار أقوى للبلدان الجديدة

لما كان تم تقريبا اقتسام كل الارض القائمة على كرتنا الارضية ، فقد انصرف الاستعمار اكثر فاكثر الى استثمار بطن الارض وثرواتها المخبوءة في هذه المستعمرات . فبين ١٨٩٠ — ١٩١٣، زاد طول شبكة الخطوط الحديدية التي انشئت في كل من اوروبا والولايات المتحدة الاميركية (٢٦٥،٠٠٠) كلم مقابل ٢٢٢،٠٠٠ كلم في المستعمرات وفي البلدان الاخرى المستقلة او المتمتعة بشيء من الاستقلال الاداري . فبينما

يرتفع ، في المدة نفسها، مجموع صادرات الدول الصناعية من ٣٢ ملياراً الى ٧١ مليار فرنك، زادت هذه الحركة ٢٤٪ داخل المجال الذي يسيطر عليه رأس المـــال ، و ١٤١٪ في هذه المنطقة التي لا يكاد يوجد فيها اي اثر يذكر لهذا الرأس المال . فاذا ما اخذنا بعين الاعتبار معدل الزيادة في حركة المبادلات التجارية نرى ان الدليل ١ في عـام ١٨٩٥ ارتفع في اوروبا الى ٢ عام ١٩١٣ ، والى ٤٤٣ في الارجنتين ، والى ٤٨٠ في اليابان . فمن اصل ٢٢ دولة سجلت تجـارتها الخارجية مليار فرنك واكثر عام ١٩١٣ هنالك عشر بينها ، باستثناء الولايات المتحدة ،تقع خارج اوروبا.

وقد تركز الانتباه حول الاقطار التي تستطيع تقديم الخامات والمواد الاولية او تصلح للتجهيز الصناعي والتقني . ومن الامور التي لها دلالتها ان الولايات المتحدة رفضت اعطاء الفيلبين استقلالها بعد ان وعدتها به، في الوقت الذي انصرفت فيه لمد هذا الارخبيل وكوبا وبورتوريكو بما تحتاج اليه من عدة وعتاد وتجهيزات. وقد قبلت بلجيكا من جهتها ، هبة الكونغو الذي كشف عن غناه بفلزات الحديد وإنتاجه لها . وقد اتجهت اطماع الدول الكبرى الى المغرب وطرابلس الغرب حتى الى تركيا ، ولم يعتم شمالي افريقيا من جبل طارق الى قناة السويس ، ان وقع تحت احتلال الدول الاوروبية . كذلك اتجهت حركة التبادل التجاري في انكلترا بالاحرى ، نحو الهند وبـــلاد الدومنيون ومقاطعات افريقيا الاستوائية ودول اميركا الجنوبية ، بينما لم تسجل هذه الحركة مع دول القارة الاوروبية والولايات المتحدة الاميركية سوى تقدم خفيف . وانصرفت جهـــود فرنسا الى ادخال تحسينات محسوسة على وسائل ووجوه استغلال امبراطوريتها الاستعمارية وهي سياسة قامت بخدمتها وتمهيد السبل لاحقاقها ، الجهود التي قام بها بعض رواد الاستعمار الفرنسي أمثال اتيين وجونار ودومر، كما اتجهت هذه الجهود لتقوية المصالح المصرفية والصناعية والتجارية. وهكذا اطلت علينا الجزائر كبلد تتوفر فيه محاصيل الكرمة وبواكير الفاكهة والمزيـــد من انتاج المعادن . وقد زاد انتاج البلاد من القمح مع بقاء المساحات الصالحة للزراعة على وضعها ، وادخلت وسائل جديدة على تخصيب التربة ورفع قدرتها الانتاجية . وقد جلبت زراعة الزيتون وثروات البلاد من الفوسفات الانظار الى تونس . وقد سار دومر قدماً في هذا المجال في الهند الصينية ولجأ الى فرض رسوم عالية على المشروبات الكحولية ، وعلى الملح لتغذية صندوق هـذا القطر الذي يتمتع باستقلال اداري ، كما عمد الى تنشيط حركة الانشاءات الكبرى بفضل مساهمة الشركات الخاصة . وقد لفتت مصر الانظار بسرعة تطور صناعة السكر وزراعة القطن بفضل السدود الكبرى التي اقيمت على النيل في الصعيد. وكان اهم من ذلك بكثير قدرة الهند والانسولاند الانتاجية، وهذا الدفع الاستعماري الذي شهده العالم في هذه الحقبة ، ساهمت به على اقدار متفاوته كل من كندا واوستراليا وروسيا والصين والبرازيل . وهكذا برزت امام العـــين سمات الدول الاقتصادية العظمى التي تقاسمت فيما بينها اقطار القارات الخمس .

التطور المتزامن للرأسمالية الدولية والقومية الاقتصادية

ومع ذلك فعندما ننظر الى النزعـــات القائمة نرى تضارباً قـــوياً بين السياسة التي ترمي الى توحيد السوق العالمية وبين السياسة التي تسعى الى تنشيط الحماية الجمركية .

فالى الـ ٦١ اتفاقاً دولياً عقدتها الدول حتى عام ١٨٩٠ ، يجب ان نضيف ٦١ اتفاقاً دولياً جـــديداً تم توقيعها بين ١٨٩٠ – ١٩٠٠ و ١٠٨ اتفاقات اخرى جرى توقيعها بين ١٩٠٠ – ١٩١٠ وقد قامت عبر الحدود والسدود عـلاقات اوثق واوطد . فشركة *Ritchie* الانكليزية الاميركية لاستثمار مناجم النيكل في كندا ، اقامت لها مصانع كبيرة في الولايات المتحدة وفي بلاد الغال وعلى مقربة من لندن . ومعامل الصلب في لنغواي تنضم الى معامل الصلب القائمة في روتشلنغ في ساربروك وتالت شركة *Thyssen* وشركة *Gelsenkirchen* امتياز استثمار فلزات الحديد في فرنسا ، وشركة دندل الفرنسية الالمانية لها معاملها الخاصة بصنع الحديد والفولاذ في مقاطعة اللورين ، ومصانع لاستخراج الكوك في الروهر ، ومصانع بوتيلوف وقعت تحت اشراف اصحاب معامل أسن وكروزو ، وتعمل معامل كروب سنيدرز وفيكرز على مد الدول القائمة فيها هذه المعامل والدول الاخرى ، بما تحتاج اليه من العتاد الحربي دونما تمييز فيما بينها . والرأسمال المال البلجيكي يساهم بشكل محسوس في بناء شبكة المترو في باريس ، كما ان ٦٠٪ من فنادق الشاطىء اللازوردي يعود لشركات اجنبية . وبناء خط بغداد الحـــديدي تم بعد عـــدد من الاتفاقات الدولية يشترك في التوقيع عليها ، عدد من المصارف والشركات في كل من المانيا وفرنسا وانكلترا . والتضامن يبدو على اكمله في هذه المراكز الدولية التي تتحكم باسعار البضائع وبحركة البورصات في العالم . وبشيء من الاعتداد بالنفس ، راح الامين العام للجنة مناجم الفحم في فرنسا ، هو هنري بيير يموف ، يصرح في حزيران ١٩١٤ قائلاً : « حلت سياسة المشروعات الاستثمارية محلاً مرموقاً وراء الحدود ، الى جانب السياسات الاخرى ، كسياسة المفاوضات الدبلوماسية والتنظيمات الكبرى » ويبدو ان عبقرية السان سيمونيين والكوبدنيين عملت دوماً بزخم مدفوعة الى ذلك بالتفاؤل وحب السلام للسير بالبشرية تحت قيادة وتوجيه نخبة من الاشخاص الدوليين ورجال الاعمال المتصفين بالدراية والحنكة . وهذه الشبكة الواسعة من رؤوس الأمـــوال التي تشد العالم بعضه الى بعض تتالف من ملايين المودعين ومن كبار رجـال المال المساهمين بعملية مسكونية باتساعها ، جماعية بالفعل لخير الانسانية الاكبر .

الا ان هنالك ، على كل حال ، ضغط مستمر على السلطات العامة والبرلمانات بحيث ان المنافسة الدولية لم تسبب اي اذى للنشاطات الوطنية . وهذه الغيرة ذات النزعة الخاصة التي افـــادت كثيراً من الازمات الطويلة التي اشتدت وطأتها بين ١٨٧٣ – ١٨٩٥ ، ومن الخوف من الحرب ، ومن الرغبة في التسلح لتأمين السيطرة والامتداد ، بقيت ناشطة بعد زوال الازمة وعودة الامور الى نصابها . فانتصار « لست » على كوبدن ظهر واتضح . صحيح ان بريطانيا العظمى رفضت الاخذ بالبرنامج الذي عرضته عليها عصبة اصلاح التعرفة الجمركية التي انشأها تشمبرلن . ونظام حرية

التبادل التجاري الذي اعتمدته وسارت عليه بعد ان ادخلت عليه تعديلات مستوحاة من نظام الدول الاكثر رعاية، عول كثيراً على اخراج الفكرة المرعية لاي دولة تعول على الخارج في امور معايشها ادهى ما تخشاه ارتفاع تكاليف العيش لديها. فمن ميلين الى بولوف، ومن ماك كيلي الى وايت، كان على التعرفة الجمركية ان تتيح للمزارعين وللصناعيين المتضامنين بعضهم مع بعض ان يخضعوا المستهلكين للقوانين التي يخضع لها المنتجون، الذين يرغبون في ان يكونوا بمأمن من هبوط جديد في الاسعار، مما يسبب لهم انخفاضاً في ارباحهم. والحماية الجمركية ذات النزعة الوطنية التي اصبحت كالاتفاق المهني، شكلاً لا بد منه من اشكال الاقتصاد المنظم، تعتبر بفضل استمرار الاخذ بها والعمل بموجبها، الدليل القاطع على تحول النظام الرأسمالي الحر.

اسس السياسة الاستعمارية الوطنية

تتصل السياسة الوطنية الاقتصادية بالسياسة الوطنية التقليدية، وتصدر مثلها من معين القومية الحذرة ومن كره الاجنبي المتأصل في ابناء البلاد. بلغنا، يؤكد ماك كنلي بصراحة، عام ١٩٠١، هذه الدرجة من النمو الصناعي بحيث لا بد لنا من ايجاد اسواق جديدة للفائض من انتاجنا، بعد ان تم لنا فائض يتحتم تنفيقه وتصريفه. وراح الفرد ملنر، بعد ان قام باصلاح النظام المالي في مصر، ورأس تكوين اتحاد جنوبي افريقيا، يصرح، عام ١٩٠٤، امام مجلس ادارة الرابطة البحرية البريطانية، قائلاً: « انا رجل استعماري، امبريالي مائة بالمائة ». والحال نرى مواطنه الاقتصادي الحر هوبسن ينسب الى الروح الاستعمارية الذي يصفه دربو، عام ١٩٠٧ بأنه الخاصة الاكثر تميزاً والاكثر جدارة بالملاحظة، التي برزت في اخريات القرن التاسع عشر، نطاقاً سياسياً – اجتماعياً واقعياً مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً باقتصاد رأسمالي يخضع للروح القومية. وهذا القول يتفق تماماً مع الرأي الذي قال به لنين وهلفردنغ ومعظم فلاسفة الاشتراكية. ومهما يكن من الامر، فقانون التضخيم التاريخي كما ورد على لسان تارب الذي قال باجتذاب الكتل الكبيرة للكتل الصغيرة، هذا القانون الذي عبر عنه عالم اجتماعي آخر، هو الاستاذ *Greef*، احد تلاميذ *Corey*، يجب ان يعمل لصالح الدول الكبرى، التي جاءت على مقاييس « امبراطوريات كونية ». وقد رأى هاز رئيس رابطة الجامعة الجرمانية في الامر مرحلة ضرورية في حركة تطوير اي جهاز عضوي حي سليم. فهذا الاندفاع الحيوي يحتاج الى مدى حيوي هو *Lebemstraum*.

ومن الطبيعي جداً ان تُشهد كل سياسة استعمارية الارض والسماء عالياً « بأن الامبراطورية الانكليزية، بما هي عليه من مساوىء وعيوب، تتمتع بنفوذ بشري، تمديني مسالم لا مثيل له في عالم اليوم »، وبولوف نفسه يصرح قائلاً: « يدعو الانكليز الى انكلترا عظمى، ويدعو الفرنسيون الى فرنسا كبرى، ومن حقنا نحن ايضاً ان ندعو لالمانيا كبرى ».

وفي سبيل الدفاع عن الوطن الام، راح عدد من دعاة الاستعمار سوادهم من الفرنسيين يفكر باستثمار المستعمرات الواقعة وراء البحار. افلم يقترح ملكيور دي فوغويه، عام ١٨٩٩،

حشد جيش من ١٠٠ او ٢٠٠ الف من هؤلاء الجنود البواسـل ، بين سنغاليين وسودانيين لا يعرفون للمنطق دوراً ولا للصفح محلا ؟ وقد كتب لويس سوبوليه ، عام ١٩١٢ ، قائلا : « على الزنجي ان يفهم ويدرك جيداً بان الدولة التي استقرت في داره وفرضت عليه سيادتها وسؤددها ، هي سيدة مطاعة ، تبسط سيطرتها فوق السهول والاحراج والغابات ، هي اقوى واجد من كل ما تعاقب عليه وعرف من اسياد وخبر في ما مضى من سلطات حاكمة . فما من شيء يأخـذ بمجامع قلبه ويؤثر فيه اكثر من اطلاعه على هذه الامجاد وهذه الانتصارات الحربية المجيدة التي سجلها كل من لويس الرابع عشر والجمهورية ونابوليون ، وهـذه المعارك الطاحنة التي دارت رحاها على مرأى منه »

« اني أقدم لكم هذه الامة المتشاوفة التي تدعي المسيحية ، العائدة اليكم بما هي عليه من ادران ووسخ ، ملطخة بالدماء ، مرضوضة ، فاقدة شرفها من اعمال القرصنة التي قامت بها في كياو — تشايو ، ومنشوريا وجنوبي افريقيا والفيلبين. فالدناءة والخنا ملء بردتيها وجيوبهـا منتفخة من الذهب الذي سلبته ، ولسانها يفيض رياء وكفراً . اعطوها ثياباً نظيفة وصابوناً ، ولكن اياكم والمرآة ، ابعدوها عنها » (مارك توين).

الدليل العرقي والعنصرية

لم يلبث مبدأ القوميات الذي استشرى الأخذ به في القرن التاسع عشر ان اتخـذ مظهراً له فكرة العرق او العنصر ، هذه الفكرة التي لم يعـد مدلولها ليقتصر على الجنس البشري ، بل تعداه الى شتى الفرق ليذوب في مفهوم الدولة او الدول . وهكذا اخذ الناس يعتقدون بوجود عروق سامية ، وهي عروق مختـارة او مصطفاة معدة لقيادة العروق الاخرى حتى راحت تعتقد ان مستقبل « الحضارة » مربوط ، الى حد بعيد بقيام هذه العناصر المختارة وبالرسالة السامية المرسومه لهـا من قبل العناية الالهية. وفي الوقت ذاته اخذت الاوساط العلمية تتردد ، في ابداء رأيها ، حول طبيعة العرق وجوهره ، وراح بعض الكيميائيين ، بدافع من الافكار الرجعية او بدافع من الغرض الشخصي يجعلـون من العرقية حقيقة واقعية تتميز كلياً عن الدولة وعن الديموقراطية والطبقة الاجتماعية ، وغـير ذلك من التجريدات المسلم بها اليوم .

بقي ان نعرف من هو لعمري العرق المختار. فقد سبق لغوبينو ان اقترح « العنصر الآري » ، وجعله العنصر الارستوقراطي في الدرجة الاولى بشهادة اشتقاق الاسم . وهكذا شـدد على المناقبية التي يتمتع بها الاوروبي الشمالي الفاتح او الغازي ، في الاصل ، وهـذه النظرة تتلاقى والنظرة التي قال بها وعلم بولنفيليه ومونتلوزييه اللذان راحا ، منذ القرن الثامن عشر يشيدان بما للفرنك من حق صراح بهذه المميزة بوصفه محارباً نبيـلا ، مؤهلا ليحكم العنصر الغالو- الروماني ، الذي غُلب على امره وبرهن عن دناءة وخساسة .

ولكن ما هو السبيل للتمييز ، بين السكسوني والجرماني ، في اوروبا اليوم ؟ فبعد ان رحب

كل من كارايل وكنغسلي ومن بعدهما دلك وسيلي، وبعد ان غنى كبلنغ راح الاول يشيد بالمآتي والانجازات الحربية التي تمت على يد سكان الجزر ، سواء في قلب الشعوب القديمة او في سباسب اميركا وافريقيا واوستراليزيا العذراء .

تراثنا واسع رحب ومساهمتنا وافرة

وروابطنا اقوى وامتن من هذه الحياة السريعة العطب (كبلنغ)

ومع ذلك فالاعتداد الاميركي لا ينقص بشيء عن تطرف الوطنية البريطانية وغلوها . فهما من أرومة واحدة . ولذا احتار هذان الاخوان المتنافسان ما اذا كان عليهما ان يمضي في تنافسهما الحاد للسيطرة على العالم او ان يتحدا معاً على حكمة وتعقل وفرض سيطرتهما عليه .

ومهما يكن ، فقد شدت بينهما رغبة واحدة بالمحافظة على نقاء الاصل عن طريق الامتناع عن مصاهرة ومخالطة العروق الملونة المعترف بانحطاطها ، فقد اخذا بصورة غريزية بمبدأ العرقية او العنصرية في هذه القارات الجديدة حيث يدعون انهم في ديارهم . فمن طريق الاستثناء او اقله عن طريق التمييز العنصري ، اخذوا يحدون من تطور الاسود والاصفر على السواء . فمن اجراءات فردية او جزئية اتخذت في كاليفونيا وفي فكتوريا ، توصلوا الى سن تشريعات منهجية منها :قانون تحديد الهجرة ، في الولايات المتحدة وفي استرال آسيا تجاه الآسيويين والميلانزيين ؛ وقانون التربية الوطنية في مدينة الكاب وفي بريتوريا،هذا القانونالذي اخذ يحدد مناطق الزنوج الاصلية (فجعلها ١٢٪ فقط من مجموع هذه البلاد ، وهو قرار تتبناه المحكمة العليا في واشنطون وتطبقه على الزنوج في الاتحاد الاميركي الذي يتسلح بشرط الجد البعيد او الارومة ويحتج بهذا الشرط ليحرم الزنوج من حقوق الانتخابات العامة ، مع الاحتفاظ شكلا ، بخرافة « المنافع المتساوية » . يجري كل هذا بصرف النظر عن ردود الفعل الجماعية البديهية او العنيفة ، والدوافع التي تملي على هذه الاشتراكية التي لا تنهض على اساس ، يقول بها الاستراليون، تنحصر في قانون جزيرة العمال الهادئة الذي صدر عام ١٩٠٤ ، وهو قانون نم عن عقلية صالحة لظهور ما يعرف بالاشتراكية الوطنية .

وقد راحت المانيا تدعي ، من جهتها ، التفوق العنصري او العرقي ،واستشهدت في هذا السبيل بأرمينيوس وشارلمان والامبراطورية المقدسة والقوة المستعادة التي يعمل تريتشكيه وسيبل على شرحها وتفسيرها بأسلوب مشوق . فهي تستشهد بغوبينو لاثبات نظريتها هذه وتعمل على نشر مؤلفاته وآثاره المخطوطة . وفي هذا الوقت بالذات ، ينشر الكاتب الانكليزي هوستن ستيوارت تشمبرلن،عام ١٨٩٩«من جهة نظر الشعور الجرماني »كتابه الموسوم : « اسس القرن التاسععشر» نحا فيه باللائمة على الدور الضار الذي قام به انسان البحر المتوسط كما يشجب التعاليم الدينية التي جاء بها ابن البابوية ، ويروح غليوم الثاني ينذر ، وهو يرأس مجمع سنيودس سان جان في مارينبورج : « بالانقضاض على «السرمات» تأديباً لهم على وقاحتهم بحيث يحقهم

محقاً ». ويعلل نفسه باقناع انكلترا – رهبة او رغبة – باقتسام الرسالة التمدينية امام الخطر الاصفر والمنافسة الاميركية التي تزداد حدة وسورة .

ما هي الاسس التي ينهض عليها التفوق الانكلوساكسوني ؟ يتساءل ديمولين ومهما يكن فهناك سبيل لنبذ الفكرة المغلوطة التي تقول بالمساواة بين الشعوب والتكافؤ فيما بينها، كما يصرح الدكتور غوستاف لوبون الذي يرى التصالب او التهجين يذهب بصفات الجنس المميزة . ويمتدح فاشيه دي لابونج فضائل « الانسان المستطيل الرأس، المعروف بحبه للسيطرة وبرغائبه الملحفة » ويحذر من البورجوازي « هذا الفطر الطفيلي السام الذي ينمو في ظل المقصلة ويرتوي من ولغ دماء النبلاء والكهنة » . والدعوة الى الغرائز الدفينة تجد صداها ، على الاجمال ، بين العاملين في الارض، وهي دعوة تتجلى عند بارس في قصته : « النشاط الوطني » . وعند بورجيه الذي يتبنى نظرية *Gobineau* و *Vereinigung* ويدعو الى بعث فضائل الاسرة ، وعند موراس الذي كان همه الاكبر الرجوع الى نظام ملكية لا مركزية نقابية ، وعند باسكولي واوتامونو . « لكن لدينا ، يقول بارس في كتابه : « الاكمة الملهمة » الشجاعة على استئناف السير على هذه الارض البدائية بجرأة وان نعنى، بالرغم من الظواهر البارد ة بجرأة بملكة الحماس القائمة » . فالكل ومن بينهم بيغي يشد العرق بالارض التي تغذيه وتنميه وتعطيه اسباب البقاء والديمومة . فاذا ما احتج احدهم ، فعلى الفوضى الجشعة وعلى اشتراكية الصراع الطبقي . فالعنصرية تهيء السبيل امام ثأر اللاتينية الكاثوليكية التي ترى نفسها مع « البعث الاسباني » عام ١٨٩٨ ، وفرنسا المتصلبة ضد دريفوس ، معدة هي الاخرى لمهمة تمدينية جديدة سامية .

العرقية اللاسامية وظهور الصهيونية الدولية

قبل عام ١٨٤٨ قام المستشرق لاسن يضع الساميين تجاه الآريين. فغوبينو يرى من جهته ان « الآري المتحدر من صلب يافث يسمو ليس على اقوام السود والصفر فحسب ، بل ايضاً على ذرية سام . وقد زعم بعضهم ان اليهود، خلافاً للمتعارف المألوف بين الناس، يؤلفون، بين شعوب اوروبا لعدم تزاوجهم الا فيما بينهم، العرق الصافي الوحيد، وهو الذي يستطيع وحده بالتالي ان يسود ويحكم . وعبثاً راح رينان الذي لم يكن مع ذلك ،دوماً فوق المغمغات والاخذ بالوجوه، يهاجم هذا الرأي الذي انتشر وشاع بين الناس بفضل جهود بعض الدعاة أمثال ادرار درومون .

والحال ، هنالك دعاوة مناهضة للسامية كانت غافية تحت الرماد تنتظر من يبعثها ويوقظها. فالى الوراء من الغرب الاوروبي ، حيث كان العنصر اليهودي يتغلغل ويرسخ بفضل الروح التحررية البورجوازية وعرف ان يحافظ الى الشرق من على القارة ما اتصف به من حيوية ،حيث شكلت المجتمعات اليهودية العديدة أقليات تمسكت بشدة بتقاليدها وعاداتها، بالرغم مما تعرضت له من الاضطهادات والتضييقات واسطورة الذبيحة البشرية التي دعموا ان الطقوس التلمودية

نصت عليها واوصت بها ، كانت لا تزال تلقى اذناً صاغية وألسنة تتناقلها بالرغم من تلاشي نفوذ التلمود بين اليهود ، في الاوساط اليهودية .

من الاسباب التي ادت الى اشتداد حركة مناهضة السامية في الامبراطورية الالمانية والامبراطورية الاوستروـ مجرية ، توافد اليهود اليها من بولونيا واوكرانيا . فاذا ما رأى الكثيرون في السامي، على الاجمال، مرابياً جشعاً لا امل باصلاحه ، فقد تبين بعضهم فيه ثورويا يتكالب على تقويض القيم المرعية وخلخلتها طمعاً منه بالصيد في الماء العكر. وصورة جانوس المزدوجة الوجه تذكرنا ملامح احدهما بملامح روتشيلد كما ان ملامح الوجه الآخرتنم عن ملامح ماركس . ومن جهة اخرى ، فالحسد مفسدة ويفضي للأذى في هذه البلدان وهذه الاوساط حيث يلاقي النشاط اليهودي ، بفضل التساهل الديني الذي يسود هذه البلدان والاوساط ، التسهيلات اللازمة للنجاح . وهكذا أطلت حركة منافسة اليهودية واتخذت شكل مناهضة السامية والتصدي لها ، واتجهت ضد الاجيال المتحررة ، بحيث راح اشخاص امثال برينو – بارادول وارنست هافيه، يرحبان بظهورها ويجعلانها من المنافع التي طلعت بها الحضارة. فكيف نفسر الغنى والثراء الذي يرفل فيها اليهود ؟ أليسوا لانهم تفننوا في اساليب السرقة والابتزاز ؟ وكيف نفسر نجاحهم في الوظائف العامة ؟ فهم يحتلون عن غير استحقاق ، الوظائف التي يمارسونها . اما كفاءتهم العلمية والادبية والفنية فكثيرون ينكرونها عليهم ويشكون بوجودها، من بينهم درومون ، مثلا .

قد يصرح بيبل قائلا : « ان عداء السامية ليس سوى اشتراكية المعتوهين »، كما ان باستطاعة فورنييه ان يوضح قائلا : « لنا إلهنا ماركس ولنا شيطاننا الرجيم رزتشيلد » . هنالك عدد من انصار فورنييه وبرودون وبلانكي ، ومن اعضاء حزب شعبيي الروس حتى وبين تلاميذ غسد يتهمون الرأسمالية ، اليهودية في صميمها ، بينما يرى ماركس ان عبادة المال تؤلف حائلا دون تحرير اليهود وتحرير جميع الناس ايضاً . « ليسقط روتشيلد ، ليسقط اليهود » ، كانت تهتف باريس ، عام ١٨٨٠ ، وهو الهتاف نفسه الذي يحرك دوماً شفاه الفقير المعدم ضد الغني الذي انتفخت صناديقه». وراح المستمسكون بالتقاليد يستغلون هذه الاحقاد ويحولونها ضد هذه الفئة المشبوهة التي تحوم حولها الشكوك والظنون ، ويثيرون غضب الجماهير واحقادها ، ويذكون في النفوس البغضاء ضد العنصر السامي المعروف بشعوبيته وبعدم انتمائه الى اي وطن ، فيؤلبون الناس احزابا وعصائب تطالب باتخاذ اجراءات جذرية لصيانة المجتمع ، وبالتمييز العنصري ، والطرد ، واحياناً بالمذابح (وهكذا أطل علينا مثلا بشخص موراس فلسفة وضعية مضادة لليهود) . وهذا لا يعني قط ان هؤلاء المنبوذين كلهم اغنياء . فاسمع ما يقوله هنا الكاتب الكاثوليكي المتحرر ، اناتول لاروا– بوليو : « لا اعتقد قط انه يوجد على كرتنا الارضية عنصر ذهب فريسة الاملاق والفقر المدقع مثله » ، كما ان بيغي يصرح من جهته قائلا : عنصر فقراء بين اليهود ؟ عددهم كبير ، هم من الكثرة بحيث يتعذر عدهم او احصاؤهم، أراهم في كل

مكان » . وهذه البروليتاريا تزرع الخوف في نفس الغني ، يهودياً كان ام غير يهودي ، ولأنه يهودي وهذا ذنبه الاكبر ، والبروليتاريون الآخرون لايطيقون منافسته لهم . فاذا ما راح القس ستوكير يشكل في بروسيا اتحاد العمال الاشتراكيين المسيحيين الذي اخذ يطالب بالحد من توظيف اليهود في الخدمات العامة وفي دواليب الاعمال ، وهو برنامج تبناه بحذافيره الحزب الوطني الالماني الذي شكله شونرير والذي مكن لويجر من الفوز بعمدة فيينا ، عام ١٨٩٥ ، فقد سنت انكلترا ، عام ١٩٠٥ ، قانون هجرة للاجانب الذي اوصد ابوابها دون الشرقيين المعوزين ، كذلك فعلت اوستراليا .

ومع ان حركة مناهضة السامية اخذت تمتد وتتسع في كل من النمسا والمانيا - مع ان بسمارك وغليوم الثاني يستخدمون رجال الاعمال من اليهود ويرعيان جانبهم ، والزعيم الوطني ترتشكيه يكتب : « اليهود هم مصيبتنا الكبرى - فروسيا هي التي تعلنها عليهم حرباً عواناً تتصف بالعنف والشدة بينما يحتفظ لفرنسا الجمهورية بعمل مشهود . أهو تلاقي الحلفاء ؟ فقد قابل فظائع كيشينيف وبياليستوك هيجان العواطف التي اثارتها قضية درايفوس . وعلى كل فبين الحادث الفردي الذي أثارته قضية الضابط الفرنسي وبين المأساة المشتركة التي وقعت في الشرق ، مأساة اليهودي البائس ، ليس من سبب مشترك الا في الظاهر . فالفضيحة الكبرى في نظر القرن التاسع عشر المتحرر هي : « القضية التي وضعت وجهاً لوجه النظام والحركة ، التقليد والعدالة . فالمبادىء الكبرى ، مبادىء عام ١٧٨٩ ، تعود فتتغلب وتفوز بالطبع ، ولكن بعد ازمة حادة طويلة خلفت وراءها ذكريات مريرة « الثورة الدريفوسية » كما يسميها جورج سوريل باسلوب غامض .

ولم تلبث نتائج هذا الدفع العنصري او الطغيان العرقي ان ظهرت دون تأخر . فيطل علينا « اليهودي التائه » الذي يمضي في سيره الموصول ، فنشهد هجرة من اقوى واشد الهجرات ينتقل معها اكثر من مليونين من يهود روسيا الى الولايات المتحدة الاميركية ، حيث اثار قدوم هؤلاء البائسين ، في الرأي العام الاميركي ، ردات فعل ضد دخول عناصر غير مرغوب فيها ، البلاد الاميركية بحرية .

ولما كان في العالم شعب يهودي يتميز عن غيره من شعوب الارض ، فلتعد اليه ، على الاقل ، البلاد التي عاش فيها قديماً والتي ألف فيها وطناً قومياً له ! ومنذ عام ١٨٦٢ ، راح احد حاخامات مدينة ثورن يدعى كاليشر ، يطالب بانشاء وطن قومي يهودي . وفي سنة ١٨٧٠ ، اي في السنة ذاتها التي تأسس فيه الاليانس الاسرائيلي ، انشأت هذه المؤسسة التربوية ، في مدينة يافا ، مدرسة زراعية لتدريب طلائع المهاجرين اليهود الى فلسطين . واذ قام جريتز يضع كتابه الكبير : « تاريخ اليهود » ليعيد الى اذهان ابنا جلدته ، امجاد الشعب اليهودي وانجازاته عبر الاجيال . فاذا ما مكنت الهبات المالية التي قدمها ادمون دي روتشيلد الى « اصدقاء صهيون »

من تأسيس اولى المستعمرات الزراعية في الاراضي المقدسة، فقد وقع اكثرهم، وفقاً لرغبة البارون دي هيرش، تحت تأثير الدعوة بالذهاب الى العالم الجديد. وقد جاء الحكم على الضابط اليهودي دريفوس وانتخاب لويجر عمدة لمدينة فيينا حافزاً حاسماً في توطيد عزم الزعيم المجري ثيودور هرزل على نشر كتابه الموسوم: «الدولة اليهودية»، محاولا بذلك ايجـــاد حل نهائي للقضية اليهودية، وهو كتاب صدر عام ١٨٩٦. وبالرغم من مقاومة فريق كان يخشى من ان يتحول اليهود عن الرسالة التي عهد بها الى اسرائيل – هذا الشعب النبوي، على زعيم بيغـــي – كما يخشى من استغلال المناهضين للسامية، لهذا الشعور القومي، فقـــد اخذت الفكرة الصهيونيـــة بالانتشار والسريان في العالم. وهرزل الذي كان رسول هـــذه القضية، والمجاهـــد الاكبر الذي نهض بها دونما ملل ولا سأم، عرف ان يضمن لقضيته انصاراً ومريدين متحمسين، من بينهم العالم الاجتماعي المشهور ماركس نوردو، والكاتب الاسرائيلي زنجويل. وعمل على عقد المؤتمرات، واكثر من اتصالاته برؤساء الدول ومراجعتهم، وحاول ان يكسب لدعوته هذه عطف البابا والسلطان العثماني والامبراطور غليوم الثاني والحكومة البريطانية. ولما كان محمولا في مسعاه بفكرة سياسية اكثر منها دينية فقد اضطر بعد ان ذاق مرارة الفشل واليأس، الى قبول عرض قدم اليه يقترح انشاء وطن لليهود في اوغندا. الا انه بعد عام ١٩٠٠، طلعت علينـــا الدعوة (*l'alyah* او العَودة) الى فلسطين وانشاء الصندوق الوطني اليهودي في سبيـــل شراء فلسطين وانشاء مؤسسة تل افيف وبعث اللغة العبرية.

الهيجان القومي في اوروبا واهم مناطق الخطر

في كتابه: مذكرات اوروبي، يصف لنا ستيفان زويغ الضيق الذي اعتراه، عندما حضر بوصفه يهودياً نمساوياً، في ربيع عام ١٩١٤ في احدى دور السينما في مدينة تورس حيث ظهر على الشاشة صورة غليوم الثاني وفرنسوا جوزف، والهياج الذي اثارته هذه الصورة بين النظارة والمشاهدين «في تلك الصالة المظلمة علاها الصفير الداوي وارتفعت جلبة جهنمية وقرع الارض بالاقدام... والكل يصيح ويعوي من نساء ورجال، واولاد يشتمون ويلعنون كأنما لحقت بهم اهانة نكراء. فقد اعتراني الخوف وشعرت بالقلق في الصميم، بعد ان تبينت الى اي حد بلغ تسمم مشاعر الجماهير وهياجها من جراء دعاية مغرضة مهيجة، استمرت سنوات بكاملها».

وهوس الحرب الذي تملك النفوس من جراء الحرب الالمانية الفرنسية (١٨٨٠ – ١٨٧١)، وسباق التسلح، هذا السباق الذي عجل في اندلاعها من جديد، وهذه الاستنفارات المتتالية – هذا الهوس الذي لا معنى له بدون هذه الهيجانات الدورية – زاد احتدامه عن طريق وسائل الدعاية المعروفة، اذ ذاك، كالصحافة مثلا، بما فيها من الانباء المثيرة والمقال الاخباري المأجور والخدمة العسكرية والمدرسة وبرامـــج التعليم حيث لم تلبث دروس الجغرافية والتاريخ ان استحالت مظاهرات وطنية. وراحت منظمات ومؤسسات عديدة تأخذ على نفسها الاشادة بقوة الامة وتتغنى بأمجادها الوطنية. وبينها من له من النفوذ ومن بعد الشأن ما يؤثر على مقررات

الحكومات ومقرراتها الحاسمة ، اما عن طريق مناورات وأساليب خفية واما عن طريق التلويح بالمظاهرات الشعبية. فأحاديث الحرب والتبجحات الصارخة، هي من بعض هذه العملات الدارجة . فها هو غليوم الثاني يكتب بمناسبة المؤتمر الاول للسلام المعقود عام ١٨٩٨ : « لا بأس عندي من الاشتراك بتمثيل مسرحية السلام، الا انني احتفظ بخنجري الى جنبي لرقصة الفالس»، كما راح يهتف وهو متجه نحو طنجه : « اليد على مقبض السيف والترس ممدود امامنا على الارض ، عسى ان نجيب *Tamen* او ليحدث ما يحدث ! » وها هو كليمنصو ، يصرح عام ١٩٠٨ : « انا مؤمن بالحرب وأومن ان ليس بالامكان تفاديها ... لن نأتي شيء يطلقها ، ويجب ان نمتنع عن الاتيان بأي شيء يفجرها . ولكن علينا أن نكون على اتم استعداد لها » . وبول كمبون يصرح في السنة التالية لاحد مراسليه قائلا : تمسكي بالسلام لا يقل بشيء عن تمسكك به . ويقيني ان خير طريقة للمحافظة على السلام هو ان نكون اقوياء . كل بلد ثائر الاعصاب يذهب فريسة اول طارىء يدهمه ، اما اذا كان هذا البلد مدججاً بالسلاح ، وتنبض الروح العسكرية في عروق شعبه ويكون على استعداد لخوض المعركة ، فهو على يقين بفرض احترامه على الآخرين ، وبتجنب فظائع الحرب » . والمصير ذاته يتجلى لثيودور روزفلت : « الحرب وحدها تتيح لنا ان نتحلى بصفات الرجولة التي لا بد منها للانتصار في حرب لا هوادة فيها ولا رحمة » . فخصوم دريفوس وقفوا منه هذه الموقف العسير ، دفاعاً عن شرف الجيش ، وذلك عندما راحوا يعارضون اعادة النظر في قضيته .

والرومنطيقية الحديثة نفسها التي تشيد بفضائل العرق والتي كثيرا ما تفننت بموضوعات هي موضوع احترام الجميع وتقديسهم ، مثل : ارض الوطن ، الجدود ، العَلَم ، لا تتحمل هنا اي شك ولا ترضى بأية مداعبة او مزاح في هذا الموضوع . « فالارستوقراطية الفكرية » التي يكشف برونتيير عن امرها ، و« التعقلية » او التعبد للعقل الذي يبدو للأب ديدون « العدو الذي ديدنه الوحيد الازدراء بالقوة والاستهانة بها » هما عرضة لهجوم عنيف. هل الامر مرتبط بروح نقدية او برأي مستقل ؟ ولذا رضخ الكثيرون ولم يجدوا جوابا والتزموا الصمت . هنالك بالطبع مسيحيون مخلصون يشجبون الحرب . فقد نشأت جمعية مسيحية هي جمعية *Gratry* للدفاع عن السلام والمحافظة عليه بين الدول لم تلبث ان استحالت عصبة دولية سلميه كاثوليكية، تولى رئاستها البلجيكي اوغست برنائرت . الا ان « يقظة البطولة » التي يشيد بها رجل من عيار مارك سانييه ، لا يتحرج من قضية الضمير الا عملا بما هو عليه من قناعة مخلصة ؛ والعصبة المسيحية الديموقراطية الايطالية التي لم يلبث البابا بيوس العاشر ان شجبها ، تمنت من الصميم استئناف الجهاد ضد النمسا ، في سبيل تحرير تريستا وترانت . والاشتراكية التي رأت موجباً لتزكي نفسها بالقول : « ان العمال لا وطن لهم ، وهو قول ينم عن مزاج عاطفي ويؤلف رداً منافيا للواقع ، يؤذي جداً الجدل الناشب بين البورجوازيين الوطنيين الذين رأوا في الشيوعية عنصراً هداماً للوطن » ، كما اعتقد جوريلس نفسه . وهكذا أعدت المأساة الدولية التي وقعت

عام ١٩١٤ .

« فباستثناء فرنسا ، لا يوجد في اوروبا دولة واحدة سلطتها وسيادتها هما صدى صادق لاماني كل الولايات وتعبير عفوي عنها » . هذا ما نقرأه في مفكرة جورج لويس سفير فرنسا لدى برلين، وهذا ما يعترف به ياغوف وزير الخارجية الالماني ، عام ١٩١٣ . هنالك اقليات وطنية وفئات غريبة تنتفض وتتحرك في كل ناحية ومكان في اوروبا . صحيح ان مطالب كتلونيا لا يكمن فيها اي خطر على وحدة اسبانيا ، كما ان مطالب الفلاندر لا تؤلف اي تهديد لسلامة بلجيكا . الا ان موقف برشلونا يهيج اعصاب مـــدريد كما ان موقف مدينة غنت يزعج بروكسل . وعبثاً يسعى البريطانيون للوصول الى اتفاق حبي مع ارلندا يؤمن لها مصالحها وسلامتها ، يحوز على رضى طلاب الاستقلال في دبلن وطلاب الانفصال في مقاطعة الاولستر. فقد عجزوا عن اجتذاب بلفاست كما عجزوا عن ايقاف الحـــركة الاستقلالية او الحد من المطالبين بوطن قومي لهم المعروفين باسم *Sinnfein* بحيث ان الحـــرب الاهلية كانت على وشك الانفجار في الجزيرة عـــام ١٩١٤ .

وبقيت الالزاس واللورين مثاراً للقلق بين فرنسا والمانيا . فاذا لم تفكر الاولى بالركون الى الحرب لاسترجاع ولاياتها السليب ، فقد برهنت الثانية عـــن نزق شديد لعجزها عن امتصاص السكان وتمثيلهم في هاتين المقاطعتين ، الذين لم يرضوا قـــط بالتنازلات الواسعة التي قدمتها لهم الحكومة الالمانية ، في الوقت الذي خضعوا فيه لسلطة برلين وادارتها...ودون ان نذهب بعيداً في شرقي المانيا ، فالحركة البولونية التي عرفت ان تصمد في وجـــه سياسة جرمنة البلاد كانت مثاراً لازعاج اولي الامر في برلين وبعث القلق في نفوسهم ... والاقلية الدنماركية في مقاطعة شلسويغ فشلت مساعيها للتحرر من السيطرة الالمانية كما ان النرويج تمكنت من زحزحة نير السويد عن رقبتها . ومهما بلغ من بطش وقوة الدولة التي كونهـــا بسمارك ، فهي تخشى كثيراً الابتكارات الجغرافية التي ستتجاوب في اراضيها من جراء اي وهن او اي ضعف يبدو عليها .

وعلى كل ، فالامبراطوريات الثلاث : الالمانية والروسية والاوسترو هنغارية تتحسس الخطر الذي يتهددها من جراء الحركات والهزات التي تقوم بها هذه القوميات الواقعة بين البحر البلطيقي والبحر الابيض المتوسط . ان تحرر الفنلندي والبلط والبولونيين والرومانيين من سكان بسارابيا انما يعني عند روسيا ، فقدانها اسواقها الغربية التي امنت التصرف بها على هواها في هذه البلاد من عهد بطرس الاكبر والرجوع بروسيا الى طابع آسيوي اكثر منه اوروبي . ثم ان بروز حركة سلافية دانوبية قوية لا تُدفع كان من شأنه ان يؤلف خطراً يهدد جدياً وجود الملكية الثنائية ، قبل ان يتحقق حلم «ليست» بقيام اوروبا وسطى تمتد من بحر الشمال الى البحر الاسود . وهكذا قضت الضرورة ، يوماً بعد يوم ، بايجاد صيغة جديدة تكون فدرالية الطابع او ثلاثية الاقنوم . والحال ان ادخال شريك جديد ، صربي – كرواتي على هذه الامبراطورية الثنائية ، سياسة

قوبلت بالعداء والتنكر من قبل الهنغاريين واليوغوسلافيين الذين يعملون لاستقلالهم الناجز . اما ضم البوسنه والهرسك فعمليـــة زرعت الشك في قلب بودابست ، كما اثارت بلغراد وقضت مضاجعها . ففي انصراف آل هبسبورج لكبح جماح الجامعة الصربية ، خطر يتهدد مصيرهم، كما انه يجر المانيا الى المجازفة بحرب عالميه كبيرة .

من سخرية القدر الغاشم ان يرتبط مصير المدنية الاوروبية بهذه الاقطار البلقانية التي قـال عنها بسمارك انها لاتسوى عظام جندي بوميراني واحـد . فالاوفق من جميع الوجوه الابقاء على التركي في مكانه بدلا من انتزاع التنازلات الاقتصادية منه شيئاً فشيئاً . ومع ذلك فشبة الجزيرة « يتبلقن » ، وهذه الاختلافات والمشاجرات التي تنشب بين الشعوب المحيطة بمقدونية ، واطماعها في البحر الادرياتيكي وبحر ايجيه تولد حرائق من الصعب احيانا حصرها والحد منها.

القوة الالمانية وسباق التسلح

كلف السلام اوروبا كثيراً منذ عام ١٨٧١، فقد تمتعت اوروبا بامتياز قد تكون الوحيدة فيه باستثناء اليابان التي زاحمتها وحدها فيه وهي ان ارض دولها كانت تفترشها الثكنات العسكرية ودور الصناعات الحربية والاستحكامات، كما كانت دولها تكثر من حشد ادوات التقتيل واعتدة التهديم، وتاخذ بنظام الخدمة العسكرية بحيث يستعد للحرب ويتدرب على فنونها ، الملايين من الشبان .

وليس من شك قط ان توحيد المانيا تم بسرعة وبشكل عنيد ، فظ. فقد وصفها كايو بأنها عملية بناء ضخم استخدم فيها السيمنت بخشونة وسرعة ، وبأنها كانت سبب هـذه المنافسة العسكرية الموصولة ، وهي منافسة قامت بين شعبين جاشت احشاؤهما بالعداء ، اثارها خوف الالمان من عملية ثأر على نطاق واسع يقوم بها الفرنسيون ، والخوف لدى الفرنسين من غزوة المانية جديدة على فرنسا .

وهكذا استمر الصراع الفرنسي الالماني خلال فترة السلام، فسمم الاجواء وشحنها بالمخـاوف والاراجيف. وعرفت الامبراطورية البسماركية ان تؤلب حولها روسيا والنمسا والمجر وايطاليا. وبذلك جعلت فرنسا في عزلة تامة . وهذا الحلف المقدس الجديد لم يتوقف عـن التسلح وانتهى امره الى القطيعة والتفرقه فالانحلال . والحال ، فقد جاشت المانيا بين ١٨٨٥ – ١٨٩٠ التي كان ازدهارها الاقتصادي مثار الاعجاب والدهشة، بروح استعمارية وشرهت نفسها الى بناء امبراطورية استعمارية لها . فمع غليوم الثاني طلع علينا جيل من الالمان قدر عالياً الانجازات التي قام بها الرواد وتطلع الى القيام بانجازات اكبر واروع . كان لا بد للشعب الالماني الآخذ بالنمو والازدياد وان يشتري وبالتالي كان عليه ان ينتج وان يبيع اكثر فاكثر كل يوم . ولما كان فخورا بمآتيه وبما تم له من عدة وعتاد ، وبالسبق الذي حققه في مجـال الصناعات الحديدية والكيميائية ، وبالمدن الجبارة التي قامت على ارضه ودياره ، وبثقافته النفيـة والعلمية ، فقد راح ينظر شزراً الى الثروة الضخمة التي تمت لفرنسا ، والى عظمة الامبراطورية البريطانية ،وقد تشبع بفكرة حقه الصراح

بتوزيع اعدل واقرب للمنطق ، للخامات والمواد الأولية في العالم ، وهو حق عرف ان يناله بعد فترة طويلة من القصور والعجز المشين، وبعد ان حقق مثل هذه النهضة العظيمة التي تمت له ، قام هنا في اوروبا الوسطى «شعب وقع تحت النير فطأطأ رأسه واقتصر وضعه على انضباط سلبي » كما يقول فيه بيغي ، ومجتمع جذل لخضوعه لدولة هي ظل العناية الربانية على الارض، ولهيئة من الموظفين المدنيين والعسكريين، وقدر عالياً قيمة النظام والبزة الرسمية وقد ثمّل بما تم له من قوة العدد والتنظيم والقدرة على تأليف الشركات . وهذا المجتمع عرف جيل هؤلاء الاشتراكيين الذين ابطلوا فعالية الدولية كما قدّر عالياً هؤلاء الذين دافعوا عن العرقية او العنصرية فصقلوا لهذه الامة مرآة ، ابرزت عند النظر اليها قسمات العنصر الالماني وسماته المميزة . فقد فرض واغنر على الاجنبي ذوقاً موسيقياً انبثق من المانيا ، وقد ارسل هذا الشعب هؤلاء التجار المتجولين الى جميع اقاصي الارض يرغّبون الناس ويدعونهم لشراء المصنوعات التي خرجت من يد النبوغ الالماني الخلاق ، ويحث بحارته في ان ينشروا العلم الالماني خفاقاً فوق جميع البحار كما دعا جيشه للاحتفاظ بباروده جافاً وان يتكلم قيصره عالياً . « فالدوران اعترى دماغه ، كما يقول رومان رولان ، عام ١٨٩٩ . فعند نيتشه وشتراوس والامبراطور غليوم شيء من النيرونية التي يعبق بها الجو » .

وبخلاف الاميركيين الذين يهدرون مواردهم هدراً ، يتفنن الالمان من جانبهم ، بالافادة مما تم لهم من هذه الموارد ، ومع ذلك فاقتصادهم يبقى ضعيفاً ، وهناً . وعندما يعجز الالمان عن تأمين التوازن في حساباتهم عن طريق الاستثمارات الناجحة في الخارج ، يضطرون للمضي في التوسع بعد ان يخفضوا اسعار الكلفة الى الحد الادنى . ولذا عاشت البلاد دوما تحت كابوس تضييق اسواقها التجارية . وبما ان موقفهم السياسي *Weltpolitik* يضطر بريطانيا العظمى للوقوف الى جانب فرنسا وروسيا ، فالسباق على التسلح البري تضاعف بسباق بحري لم يقل احتداما وخطراً وكلفة عن الاول . فبينما تعمد الدبلوماسية الالمانية الى الشانتاج احيانا والدعوة المكشوفة الى الحرب وهي طريقة لم تنفع في توسيع مدى المستعمرات الالمانية في الخارج ، وازداد الرايخ نرفزة بعد ان رأى نفسه محاطا من كل جانب . ان موقف المانيا الممتاز في قلب اوروبا جعلها في وضع ممتاز كذلك لبسط سيطرتها على هذا الجزء من القارة الاوروبية ، فهي تشعر بأن هنالك ما يحد من طاقتها من كلا الشرق والغرب على السواء ، مما يجعلها عرضة لفقدان حليفها الوحيد في الجنوب هو الامبراطورية الاوسترو – هنغارية ، اذ دهاها ما سبب انهيارها ، او اذا ما جرت الى مغامرة كبرى وقف هذا الحليف الى جانبها حتى النهاية .

وهكذا رزحت اوروبا تحت وطأة التسلح ، وهي وطأة شديدة شعرت بثقلها ليس الدول التي ارتبطت بعضها ببعض بمواثيق دبلوماسية او عهود عسكرية فحسب ، بل ايضا دول اخرى مثل بلجكا والسويد اللتان جزعتا جدا على استقلالهما وسلامتها . فالاستعداد للحرب زادت نفقاته ثلاثة اضعاف بين ١٨٧٥ – ١٩١٤ ، في كل من المانيا وبريطانيا العظمى ، كما ازدادت ضعفين في فرنسا ، ومثلت ثلث الميزانية العامة في روسيا . اما ايطاليا فقد كادت تنفلق لفداحة هذه

التكاليف عندها . فبينما ترصد الموازنة العامة في فرنسا ملياراً ونصف المليار للجيش وللاسطول الحربي ، فالبرلمان الفرنسي يرصد ٣٠٠ مليون فرنك للتربية والتعليم ، و١٠٦ ملايين للاشغال العامة في البلاد وللاسعاف العام ، قبل عام ١٩١٤ . ان بناء طراد واحـــد كان يكلف الدولة بين ٣٠ — ٤٥ مليون فرنك ، اذ ان الطلق الواحد يكلف ٤٠٠٠ فرنك (اي ما يوازي المرتب السنوي لموظف متوسط) .

فالمبدأ القائل : اذا اردت السلم فاستعد للحرب ، فرض نفسه كمبدأ ساحر وبدا ان لا مناص منه ولا حيدة عنه لاوروبا هذه الطاعنة في السن . نحن امام انقسام تاريخي ولاشك . ولكن هل كان من المقدور ان يحول تنوع الطاقات الوطنية بين دول القارة في نهاية الامر هذا التنوع الذي كان وراء عظمة الحضارة الاوروبية دون تحقيق وحدتها السياسية التي وحدها تستطيع ان تحول دون الانقسامات الجغرافية الاخيرة المنذرة بانهيار محتوم ؟ فالمـــانيا التي رشحت نفسها لرئاسة وقيادة تجمع اوروبي ، حلت نوعا ما ، بعد فارق ٧٥ سنة ، محل فرنسا التي حاولت هي الاخرى تحقيق مثل هذا التجمع ، وهي محاولة ستبوء بالفشل امـام الصخرة البريطانية ، فمعاصرو غليوم الثاني والاميرال تربتز يستطيعون اكثر مما تم لمعاصري نابوليون ، ان يضطلعوا بمهمات على مستوى عالمي . وانصار سياسة الـ *Weltpolitik* لن يعدموا وسيلة للنهوض بهذه السياسة ، ملوحين بالخطر الاصفر حينا ، وبالمنافسة الاميركية احيانا ، كما يحتجون ، من جهة ثانية ، بالعجز الذي نزل بالشعوب الاستعمارية القديمة والقصور الذي اصيبت به . ومع حرصهم على صيانة مصالحهم الاساسية والدفاع عنها ، فقد وقفوا الى جانب روسيا ، عام ١٨٩٥ ، لارغام اليابان ، على التخلي عـــن منشوريا والانسحاب منها وعملوا على تعيين قائد عام الماني لقيادة الجيش الدولي الذي عهد اليه اعادة نفوذ البيض الى العاصمة بكين . الا انهـــم نظروا الى الحلف المعقود بين انكلترا واليابان نظرهم الى خيانة مصالح اوروبا . وقد تجلت اطماعهم وبرزت بصورة اجلى واوضح في الوقت الذي اخذ فيه الاستعمار الاوروبي يصادف صعوبات جديدة .

ثلاث حوادث تثل تصاب بها اوروبا : الحبشة ، كوبا ، منشوريا

تمثل الحقبة ١٨٩٤ — ١٩٠٤ اكثر واوفر حقب هذا العصر حروباً بعد الحروب والفتن الدامية التي وقعت في منتصفه ، اذ وقعت خـــلال هـــذه السنوات العشر معظم الحروب الاستعمارية . يجب ان نضع جانبا قضية كوريا التي انتهت بتقهقر اليابان امام تدخل المانيا وفرنسا وروسيا . صحيح ان بريطانيا العظمى انتصرت على الترانسفال بعد تضحيات كبيرة ، في الوقت الذي تابعت فيه فرنسا تغلغلها في افريقيا السوداء باحتلالها جزيرة مدغشقر الكبيرة . الا ان الدول الاوربية خسرت ثلاث حروب خاضتها خلال هذه الحقبة ، فعجزت ايطاليا عن التغلب على الحبشة ، كما ان اسبانيا انهزمت في كوبا والفيلبين ، وروسيا غلبت على امرهـــا وانهزمت انهزاماً منكراً امام اليابان في منشوريا .

فانكسار ايطاليا في عدوة امام الاحباش يجب رده اصلا الى عدم تقدير الامور قدرها اللازم والى نقص جذري في الاستعدادات الضرورية . ومع ان هذا النصر تحققه الحبشة امّن لها فترة من الهدوء والسلام ، فلم يستطع ان يوقف الحركة الاستعمارية في افريقيا . وقد اصيب المراقبون في اوروبا بدهشة كبرى لدى انكسار الاسبان امام الاميركيين . وقد رد اناتول فرانس صدى تكهنات هؤلاء المراقبين ، في كتابه « التاريخ المعاصر » . اما هزيمة الروس فقد كان لها وقع دونه وقع الصاعقة ليس في الاوساط العالمية فحسب، بل ايضاً سبب ثورة ضد نظام الحكم العنصري هزته هزاً عنيفاً دون ان تسقطه ، كما سببت منافسة حادة بين فرنسا والمانيا نشبت حول قطر لا يزال حراً في افريقيا ، هو المغرب ، واخيراً ضد الرايخ الوليمي ، وتجمعاً انكليزياً فرنسياً روسياً ، جاءت اليابان تدعمه في آسيا .

هنا تكمن الاسباب الاصيلة لحادثين من اضخم الحوادث التي استهلت التاريخ المعاصر : الحرب العالمية الاولى ، ١٩١٤ والثورة البلشفية ، عام ١٩١٧

الدول الاستعمارية خارج اوروبا
بروز الولايات المتحدة الاميركية واليابان

حوادث الخيبة والفشل التي لحقت باوروبا في المجال الاستعماري، اصابتها في هذه الاقطار والاصقاع التي اصطدمت فيها بهذه الدول الاستعمارية الفتية المنافسة لها . وهذا الفشل يتفق وقوعه مع ظهور الولايات المتحدة الاميركية واليابان المتزامن ، بوصفهما دولتين من الدول الكبرى الغازية .

فبالرغم من الفوارق التي تباعد بين مجتمعيهما ، والمفارقات التي تميز حضارة كل منهما، فهنالك مع ذلك ، نظائر مشتركة بينهما اذا ما نظرنا الى سياستهما العالمية .

فالولايات المتحدة بلاد العجائب والغرائب المدهشة تؤلف بيئة حليمة مسعفة الى اكبر حد للنجاحات الفردية كما تكون ملاذاً يكن اليه كل من تعذر عليه العيش او اصيب بالضيم والحيف في العالم القديم . كل شيء فيها تم على عجل وبدا ضخماً جباراً وكل شيء فيها يدل على ان حضارتها امتداد لحضارة اوروبا الشيخة، في الوقت الذي راحت فيه الاذواق والنماذج الاميركية تتحرر وتتسع وتتنوع .

واليابان القديمة ، بما لها من طابع غريب محبب عرفت ان تسحر الشعراء والفنانين والهواة ، وبالرغم من هذا التحول الصاعق الذي حققته حضارتها الصناعية فقسماتها المميزة لم تتغير ولم تتبدل وما زالت تفتن بسحرها الاخاذ واحداً مثل اتكاديو هيرن، والذي عُرف عنها وذاع خبره بين الناس شرقاً وغرباً هو رخص البضاعة اليابانية التي اخذت تنافس الى حد بعيد مصنوعات اوروبا واميركا في الاسواق الآسيوية ، والاستوائية .

ويشيد جوريس « بهذا القطب الرأسمالي المتألق » ملمحاً بذلك الى جمهورية آل كارنجي وآل فندربلت وبيار بونت مورغان وروكفلر . فالفردية الليبرالية مهدت السبيل لطلوع طبقة

متنفذة من كبار رجال الثروات الطائلة لم تعد تحسب حساباً للحاكم وللنقابة والنظريات الثورية فتحت لها في الداخل اسواق تبز اوروبا باتساعها . وقد اطل علينا عهد من الامتداد والضخامة بحيث ان حركة التجارة الخارجية تضاعف حجمها بين ١٩٠٠ - ١٩١٤ ، وزادت ثلاثة اضعاف باتجاه آسيا . واستثمرت اكثر من ستة مليارات من الدولارات في الخارج وانشأت لها بالفعل امبراطورية في اميركا الوسطى والمحيط الهادي كما ان اميركا اللاتينية هي على وشك ان تصبح منطقة نفوذ لها وحدها بفضل سياسة الرابطة الاميركية . فمداخلاتها كتحكم لحل قضية منشوريا والمغرب تشير بالفعل الى ما بلغته من اشعاع عالمي ، كما ان سياسة « الباب المفتوح » التي اتبعتها في الصين وفي افريقيا الوسطى جاءت تناهض سياسة مناطق النفوذ التي سارت عليها الدول الاستعمارية الاوروبية واليابان . وهذه الرأسمالية المركزة تلعب دوراً بارزاً في طوكيو ايضا ، يشد من ازرها عدد من السكان يشكو الفقر ابداً في نماء وازدياد ، تشحذ الحاجة فيهم الاطماع . ولما كانت اليابان بأشد الحاجة للتصدير بأي ثمن لتأمين اسباب العيش للاهلين، فقد دخلت باندفاع وقوة لا تدفع عصر الاستعمار . فتحت ستار الدستور ، لا تزال احزاب الـ*Genré* تحكم البلاد باسم الميكادو وباسم النظام الاوتوقراطي المستبد الذي تسير عليه معتمدة فيه على الجيش والاسطول والبيروقراطية مبقية تحت قبضتها الجماهير العمالية . فبعد ان انتصرت على الصين وفازت بروسيا واصبحت حليفة لانكلترا وشريكة الإئتلاف الثلاثي في اوروبا ، احتلت نيبون (اليابان) فورموزا كما احتلت كوريا والقسم الجنوبي من منشوريا ، وأقامت لها علاقات تجارية وطيدة مع الهند والصين والهند الصينية واصبحت في آن واحد زبوناً للولايات المتحدة الاميركية تستورد منها وتصدر اليها ، زبونا من الدرجة الاولى ، وحاولت ان تكسب تجاريا على حساب اميركا ــ كل منطقة المحيط الهادي . فهذه الصين التي راحت فريسة الفوضى تسحرها بمالها من موارد وخامات ضخمة . فهي ان عملت على إيقاظ آسيا ، ففي سبيل طرد « البرابرة » البيض واخراجهم منها ، شريطة ان تعمل هي على استثمارها لوحدها .

طلائع الثورة الصينية

يؤلف انهيار الامبراطورية الصينية القديمة حادثا تاريخيا ضخما تتعدى نتائجه كل حساب . فمنذ الثورة التي قام بها اتباع الطائفة الدينية *taipings* ، عام ١٨٥٠ ، والصين تحاول البروز بصورة متجددة دون ان تحسن تحديد تقاطيع وجهها . هنالك قوى هادرة تعتمل في هذا الهيكل الصيني العتيق الضخم ، المتمسك بالتقاليد المستحكمة . فالرأسمالية حققت من جهتها نجاحات باهرة سريعة . فمنذ حادث البوكسر (الملاكمين) اخذت الصين تكثر من انشاء المصانع والشركات التجارية كما انشأت لها شبكة من الخطوط الحديدية ، ووثقت من الروابط التي شدت بين الطبقة البورجوازية التي اخذت تتكون وتقوى وبين الاجانب الذين ضاعفوا من استثماراتهم في البلاد خلال عشر سنوات . ثم ان وجود « البرابرة البيض » ، من جهة ثانية كان بمثابة جرح بليغ يجرح من كبريائها . فقد

اخذت المتضادات والمفارقات تبرز اكثر فأكثر . هنالك صين قروية ، ريفية زراعية يجري اعتصارها بشكل لم يسبق له مثيل من قبل . ولما كان الميزان التجاري يتسع يوما بعد يوم ، والوحدة النقدية الـ *Tael* تفقد من قيمتها الاسمية ، كانت تكاليف الحياة دوما في ارتفاع . ومن جهة اخرى ، فأزمة الشاي الناجمة عن انخفاض التصدير حملت الدمار والخراب الى الولايات الجنوبية بكاملها حيث كانوا يتخلصون بسهولة من المواليد الاناث . الا ان صين الاستثمارات وصين التجارة والاعمال الكبرى رفعت عالياً واجهتها البذخية ، فبدت مزيجاً غريباً من الروح الآسيوية ومن الروح الاوروبية ، كما بدت لنا في صورتها المثلى ، في مدينة شنغهاي ، مثلا ، كما رآها جان رود ، عام ١٩١٠ الذي يقارن بين هونغ كنغ ، مثال النجاح البريطاني في هذه الناحية من العالم ، وبين كنتون « المريعة » بقناتها القذرة التي تغص بما يطرح فيها من النفايات والاوساخ فتزيد من سواد مياهها النتنة ... ومنازلها المتهدمة التي تغشاها طبقة لزجة من الاوساخ ، وهذه الارتال من المستعطين تتقزز النفس لرؤيتهم ، يقابل في الطرف الآخر منظر أخاذ من السحر والتصنع .

وبعد ان احبطت حكومة الصين محاولة اصلاح استمرت مائة يوم عولت الادارة الامبراطورية على المباشرة باصلاح من طراز اسكندر الثاني : يتناول الوظائف العامة والامتحانات والمحاكم والجيش . ومنعت منعاً باتاً محششات الافيون ، ووعدت بمد البلاد بدستور جديد . الا ان عجزها الواضح غل في يدها وعجزت عن تحقيق شيء من هذا . فهي لاتستطيع الاعتماد على الاجنبي ، كما انها تعجز عن محاربته وايقافه عند حده . فقد آلت حركتها هذه في نظر طلاب الاصلاح الى الانتقاص من كرامة البلاط والحط من هيبتها ، دون ان تتوصل الى اصلاح شيء .

قام بين المفكرين والتجار العاملين خارج الصين حركة ثوروية رمت الى التخلص من الاسرة المنشوكية المالكة سعيداً ، ومن الـ *Melji* . فالانتصارات التي حققتها اليابان ، والثورة الروسية التي وقعت عام ١٩٠٥ ، بعثت فيها النشاط وحركت فيها الرغبة بعمل شيء ما للخروج من الوضع الزري الذي انحدرت اليه الادارة والبلاد ، ووضعت لهذه الحركة منهجاً استمدت خطوطه الكبرى من المثل الانكلوسكسونية ، واضعة نصب اعينها : الحرية والديموقراطية واحلال نظام الاقتصاد الرأسمالي محل الوسائل البالية المتبعة في الانتاج . والدكتور سن - يات - سن الذي تلقى دروسه تباعاً في الكلية الاميركية ، في هونولولو ، ثم في كلية الملكة في هونغ كنغ ، ثم انتقل الى كنتون قبل ان يقوم برحلة طويلة الى اميركا واوروبا طاف خلالها على الجاليات الصينية الكبرى الموافقة حول الامبراطورية السهارية ، دخل عضواً في عدد من الجمعيات السرية ثم انشأ ، هو نفسه « جمعية يقظة الصين » ، ودخل في عضويتها كثيرون من الصينيين ومن رجال الفكر ورجال المال والاعمال العاملين في مناطق الامتيازات الاجنبية او في اليابان وفي غير ذلك من المناطق والاقطار الآسيوية ، وراحت تنادي بسيادة الشعب وبتوزيع الاراضي

الاميرية على المزارعين . وحاولت هذه الجمعية ان تجر وراءها الطبقات المتململة ، المتذمرة وان تقيم لها علائق مع الجماعات الوطنية في التونكين التي تقوم بأعمال المشاغبة ، ولم تكن بغريبة قط عن محاولة انقلاب في كوريا ضد الاحتلال الياباني الجائر . وساعدت سلسلة من ازمات المجاعة وقحط المواسم المتعاقبة وبوارها على حمل جميع من يتأففون او يتذمرون لامر او لآخر على الوقوف موقفاً معادياً لبكين . وثار العمال العاملون على الخطوط الحديدية او العاملون في ترسانة هان - كيو ، كما تمرد قائد الجيش يوان - شي - كاي ، واعلن العصيان على الامبراطور . وهكذا وقعت ثورة عام ١٩١١ .

وعبثاً راح سن يوسن حزب الشعب باسم كومين - تانغ الذي رمى الى المناداة بنظام جمهوري ديموقراطي ، فلم يستطع ان يعتمد على الجماهير الامية البائسة . ولما كان صينيا من الجنوب فلم يستطع ان يكون اكثر من رئيس لجمهورية الصين الجنوبية ، ولم يلبث ان انسحب من الحياة العامة . فعادت السلطة الى يوان الذي ما كان يتخلص من الاسرة الحاكمة حتى راح يفرض نفسه على البلاد بأجمعها ، وبعد ان امّن لنفسه ولاء بكين والجيش في الشمال اعاد تكوين وحدة البلاد لمصلحته الخاصة . وعرف ان يؤلب حوله كبار الموظفين وحكام الولايات وارباب التجارة واصحاب الثروات والقوى الاخرى التي اشد ما كان يقلقها رؤية الفوضى في البلاد . وهكذا تمكن هذا الجندي الذي جاشت نفسه بالاطماع ان يجمع بين يديه وان يحتكر لنفسه السلطة في هذه الجمهورية الناشئة . وهكذا فصير هذه الصين الشاسعة الاطراف الغريبة الاطوار بقي لغزاً يحتار له العالم قبيل الحرب العالمية الاولى .

الحركات القومية خارج اوروبا
بوادر ردة مضادة للاستعمار

فاذا ما تحركت الصين وتمطت، فلم يكن ذلك المرة الاولى . ولم ينتظر فكتور بيرار نهاية الحرب الروسية اليابانية ، ليضع كتابه الموسوم : « ثورة آسيا » . وعلى الاثر توالى على الظهور فيض من المطبوعات والمؤلفات التي تعالج القضايا السياسية والاقتصادية والثقافية حتى والستراتيجية التي اثارتها انتصارات جيوش الميكادو والصدى الداوي الذي احدثته والاثر البعيد الذي اطلقته في البلدان والاقطار المتصلة بالمحيط الهندي والمحيط الهادي ، حتى في تركيا . فالمعلقون السياسيون ورجال السياسة من اليابانيين انفسهم لم يكتموا قط الآمال العراض التي جاشت بها نفوسهم . فالمؤلفات التي وضعها المؤلف الياباني اوكاكورا بعنوان : « مُثل الشرق » و « يقظة اليابان » تؤكد بوضوح وحدة الآمال التي تجيش بها قلوب الآسيويين . صحيح ان المؤسسات الاوروبية والاميركية لم يبد عليها ما ينم عن خوف او ما يشعر بقلقها ، الا ان حوادث الاضطرابات الفردية التي يكاد لا يشعر بها احد هنا او تتخذ لها هنالك طابعا مزعجا ، اخذ يتكاثر وقوعها ، شيئا فشيئا . فقد قامت حركات وطنية مناهضة للاستعمار . فالفتح الياباني اقلق خواطر كثيرة في بلدان كثيرة وراح سكان هذه الاقطار يقومون بحركات رجعية

بدافع مما ينبض فيهم من بغض شديد لما هو اجنبي ، لم يكن مع ذلك ليتنافى بالضرورة مع الرغبة باعداد محاولات اصلاح سياسية واجتماعية ، (وضع الصين خير شاهد على ذلك) ، كثيراً ما ارتدت شكل رفض لانماط الحياة الجديدة .

فحزب الاستقلال الذي غلب على امره في الفيلبين، عام ١٩٠٢ ، لم يستطع النهوض وراحت الولايات المتحدة تشدد من قبضتها على الارخبيل المذكور وتعمل بسرعة على مده بالاجهزة والاعتدة التي لا بد منها .

وفي الحين الذي اشتدت فيه مقاومة الكوريين لسيطرة اليابان ، وهي مقاومة لم يتمكن اليابانيون من كبحها وكمها الا بعد عام ١٩١٠ ، اخذت بنكوك تعمل عكس ذلك تماماً ، وتسعى الى توسيع حرياتها بالاعتماد على طوكيو . فالسلام هيمن على شبه الجزيرة الهند الصينية . فلم يقم في وجه الحاكم الفرنسي العام دومر اي حركة مقاومة يحسب لها حساب ، بعد ان امعن في إذلال الامراء وحكام الولايات قبل ان يبدأ بتطبيق برنامج واسع من الاشغال العامة . وقد راح خليفته بول بو يحاول تحسين العلاقات بين المثقفين وبين الفرنسيين مع قيامه ببعض الاصلاحات الانسانية . والخطر الذي ذر قرنه بين التونكين عام ١٩٠٨ حيث قامت حركة تمرد لم تلبث ان قمعت بسرعة ، بقي يراود ذكره الاذهان ، لا سيما في هذه السنوات التي تلت رأساً ، المساعدة التي يمكن ان يلاقيها خصوم فرنسا، في كل من الصين واليابان. وقد استؤنف العمل الاستعماري بين شعوب هذه الاقطار دون ان يتنكر احد منها للفوائد الناجمة عن هذا العمل .

اما في الهند ، فاليقظة القومية أخذت تنشط وتحتدم بسرعة . فعلى اللورد كورزن الذي يذكرنا نشاطه بنشاط دومر في الهند الصينية ، أن يحسب حساباً لهذه الجماهير الوطنية التي تعتمل فيها وتختمر قوى محافظة مشهورة بعدائها للبريطانيين ، وللذرائع والاساليب الاوروبية وطبقة من المثقفين تطمح بأبصارها الى التربع في الوظائف الكبرى ، وبورجوازية تساعدها الارباح التي تحققها في التجارة والصناعة الناشئة ، على تضخيم المطالب القومية .

فشبه الجزيرة الهندية ، كالصين نفسها، تفيض بهذه المفارقات والمتناقضات الحرية بالملاحظة . « فمدينة بمباي ، كما يلاحظ احد الاداريين الانكليز عام ١٨٩٩ ،مدينة صناعية عصرية حيث الصناعة الحديثة تأسر النظر بوجهيها الـكالح والمشع معاً. ففي بمباي احياء، منازلها واطية ، غير صحية يتكدس فيها السكان على اشد ما بلغه تكديس السكان في المدن الاوروبية. فيها العديد من اصحاب الملايين الذين ساعدوا بهباتهم ومكارمهم الانسانية ، على تشييد الابنية الضخمة التي تزدان بها المدينة » . والتحقيق الذي أجرته لجنة من لجان العمل ، عام ١٩٠٧ ، يشهد عالياً بالفقر المدقع الذي تتخبط فيه البروليتاريا ، وينوه بالمصانع التي يحلج فيها القطن حيث يعمل العمال من ١٧ — ١٨ ساعة في اليوم ، بأجر يتراوح بين ٢٥ — ٣٢ فرنكاً في الشهر الواحد ، كما يشير الى ان العديد من الاولاد ، بين السادسة والسابعة من اعمارهم يعملون ١٢ ساعة في اليوم

ويكسبون نصف هذا المبلغ في الشهر. إلام يؤدي نجاح حركة مقاطعة البضائع الانكليزية يا ترى ؟ فقد تبدى لبعض المفكرين في الهند، أمثال رابندرانات طاغور ان استغناء الهنود عن استعمال البضائع الانكليزية من شأنه ان يزيد استثمار الجماهير فداحة . اما فيما يتعلق بالاستقلال الذي يطالب به تيلاك والذي أقره المؤتمر الهندي عام ١٩٠٦ ، فهل يعني قيام دولة هندية تتطور على طريقة اليابان ، أو على الطريقة التي اقترح الاخذ بها غاندي منذ عام ١٩٠٧ ، اي اعلان المقاومة في وجه التقدم ، على اي شكل كان . وشجب التصنيع ، ومنع كل ما يولد الضجيج والرجوع بالبلاد الى المغزل . ومهما يكن ، فقد أطل على البلاد ، عام ١٩٠٨ ، عهد من الاضطرابات طلع اول ما طلع ، في البنغال ، لم تعمل على تهدئتها ولا على ادخال الطمأنينة الى النفوس القلقة، الاصلاحات التشريعية الجديدة التي أجراها اللورد منتو ومورلي . صحيح ان المؤتمر بقي تحت سيطرة المعتدلين الذين يخشون دوماً الحركات الارهابية المتسمة بالعنف ، والحادث المهم هنا هو ظهور العصبة الاسلامية لجميع الهند التي جاءت تردف هي الاخرى المعارضة لوجود الاجنبي في البلاد .عاد غاندي الى الهند ، عام ١٩١٤ ، وسيعطي بفضل ما له من شخصية بارزة ، الحركة الوطنية في الهند ، قوة جديدة ، ودفعاً شديداً الى الامام .

من اهم اغراض غاندي والاهداف الرئيسة التي وضعها نصب عينيه ، شد اواصر الوحدة بين المسلمين والهندوس . فهو لا يجهل قط ما للاسلام من اهمية وشأن كبيرين في آسيا وافريقيا. وقد لاحظ بعين ثاقبة الارتجاجات والهزات العنيفة التي واجه بها الضغط الاوروبي . وقد سلم المعتزلي خوده بخش « بأن القرآن يصح ان يكون دليلا ومرشداً للمؤمن لا ان يكون حجر عثرة او حائلا دون التطور الاجتماعي والادبي والقضائي والفكري » . كذلك ، شدد على إظهار المخاطر الكامنة تحت شعار بعض الفئات التي تدعى انها متطورة: «اخذنا عن الاوروبيين لباسهم وطريقة عيشهم حتى مساوئهم المعروفة من معاقرة الخمرة الى الميسر ، الا اننا لم نأخذ شيئاً من فضائل هؤلاء الاوروبيين » . هذا ما يتوجب معرفته لدى هؤلاء المعجبين بأوروبا . ولذا لم يتردد احد كبار ممثلي انكلترا في الشرق ، هو اللورد كرومر ان يكتب عام ١٩٠٨ قائلا : « لا سبيل الى اصلاح الاسلام .فالامر الذي يخضع للاصلاح لم يعد الاسلام ، بل شيئاً آخر ...لن يكون ممكنا كما يرجحون ان يصنعوا هميانا من الحرير الغربي من اذن خنزيرة شرقية» . فهو يرى ان المصريين المتخلقين بأخلاق الاوروبيين فقدوا اسلامهم واصبحوا اوروبيين من ذوي اللاافقريات» . ولويس برتران ، هذا المراقب الحصيف يذكر ، عام ١٩١٠ ، في كتابه الموسوم « السراب الشرقي » ملاحظاً : « لن ندرك ابداً هذا الغضب والحقد الذي يثيره في قلب سكان المدن الجزائرية ، من ابناء البلاد الاصليين ، الواجب المترتب عليهم بافراغ سلة القمامة في ساعات معينة من النهار » .

فالمسلم اعتبر دوماً ، على اقدار مختلفة ، وجود الاوروبي في دياره ، ضرباً من الاهانة تصيبه في الصميم ، فهو لا يمكن ان يألف او ان يأنس الى وجود حكومة تدين بغير دينه ، كما يلاحظ موظف روسي عمل مدة طويلة في التركستان . فهو يصف بالجنون هذا السباق الى

التسلح الذي يستسلم له غزاته ومستبيحو ارضه وبلاده . « بلغت اوروبا اوج قوتها وبطشها ، كما يؤكد يحيى صديق . وبالرغم مما حققت من امجاد وعظمة وقوة فهي اليوم اكثر انقساماً على نفسها واكثر عطباً من اي وقت مضى » . ولذا قام دوماً بحالة كمون ، شعور بجامعة اسلامية تحمل المقت لما هو اجنبي غريب ، كثيراً ما برهن عن وجوده ، هنا او هناك ، بشكل او بآخر ، واحياناً بعنف شديد ... ففي الوقت الذي ارتدت فيه الحركة الوهابية الى نجد ، فالخوف بقي محور الحركة السنوسية التي تقوم بدعوة لا تمل تمتد من ضفاف خليج سرتا الى مشارق النيجر ونهر الغانج . وقد احسنت الصمود في وجه الايطاليين في طرابلس الغرب . «توهمت ايطاليا انها امام تركيا، كما يلاحظ هنوتو، فقد وجدت نفسها وجها لوجه مع الاسلام». فالطريقة السنوسية اختارت لها طرائق سرية تتصف بالفطنة والحذر ، وابت ان تربط نفسها بعجلة القسطنطينية عندما حاول السلطان عبد الحميد ان يرفع فوقها علم الخلافة . فالجامعة الاسلامية ، هذه الرابطة السياسية الدينية التي سبق لغبرييل شارم ان حذر ، منذ عام ١٨٨٣ ، من الاخطار التي تمثلها ، اتخذت سلاحاً لها وعدّة الترهيب ودهاء الدبلوماسية ، لم تتورع عن هدر دماء المسيحيين في ارمينيا وكريت ومقدونيا ؛ والسلطان الاحمر نفسه طوح به الغرور لاقامة علاقات مع اليابان ، بعد أن راح بعضهم يبشر مهدداً بقرب اعتناقها الاسلام بالجملة . وهنالك حركة تقارب ظهرت سنة ١٩١٢ ، بين المسلمين وبين الوطنيين من الهنود والصينيين . فتحت تصرف الاسلام والمسلمين اكثر من ١٠٠٠ صحيفة اوروبية ، يخرج بعضها من القاهرة باتجاه بغداد وطهران وامرتسار ، والبعض الآخر من القسطنطينية باتجاه بمباي او باتجاه معاكس ، فتصدر عن كلكوتا باتجاه ايران وتركيا ومصر .

وهذه الجامعة الاسلامية الحميدية ينتصب في وجهها قوميات فتية . فلم تستطع كبت النفور المستعصي بين الاتراك والعرب ، في قلب السلطنة العثمانية وراح جمال الدين الافغاني يشيد عالياً بحضارة العرب وشهدنا في لبنان بعثاً من دعاته وحملته الكبار خليل مطران وجبران خليل جبران . ويقوم الكاتب السوري الكواكبي يطالب بوجود الخليفة – خليفة المسلمين– في مكة المكرمة . وفي عام ١٩٠٥ ، اذاعت عصبة الوطن العربي من باريس نداءها المشهور ، في الوقت الذي راح فيه نجيب عازوري ينشر كتابه : « يقظة الامة العربية » . ونشبت في الحين ذاته ، في الحجاز وفي اليمن ثورة عجزت تركيا عن قمعها بالقوة .

وبعد ذلك بقليل قامت في الاستانة ثورة استبدلت النزعة الاسلامية التي قال بها عبد الحميد، والتي باءت بالفشل وقابلها الناس بالاعراض ، بحزب وطني تركي هو حزب تركيا الفتاة .

وحوالي عام ١٨٩٥ ، أطلت علينا الجامعة الطورانية ، ظهرت اول ما ظهرت عند تتار روسيا ، اذ قام بعض اغنياء تجار باكو بدعم حركة تدعو للم شعث الجماعات الطورانية المتناثرة حلقاتها بين فنلندا ومنشوريا ، للوقوف في وجه القيصرية الروسية التي كانت تدعو وتعمل

« لترويس » هذه الاقوام . فقد ضم اول مجلس تمثيلي روسي (دوما) عدداً محترماً من الاعضاء المسلمين كان لهم وقع مهيب في النفس اقلق خواطر اولي الامر في روسيا . فلم تتطور الامور ، من هذه الناحية ، الى ابعد من ذلك . الا ان اكشورا اوغلو ، احد تتار الفولغا، جاء الاستانة واسس فيها جمعية طورانية ، حيث قام احد مواطنيه المدعو احمد بك آغا ببث دعاية ناشطة بين حملة الفكر من خصوم حكم السلطان عبد الحميد . وظهر اذ ذاك الى الوجود حزب تركيا الفتاة عرف ان يكسب له اعضاء كثيرين في الاوساط التركية وفي صفوف الجيش ، مستغلا الفشل الذي بليت به محاولات السلطان ومعرضاً بالتنازلات التي تخلى عنها لخليفة ظل. وراح هذا الحزب يتغنى بفضائل الشعب التركي المسلم البعيد عن التعصب ونجح باقامته ، في وجه العربي الذي وصفوه بالمتقلب والفوضوي ، حركة قومية متعصبة مستهجنة تسلمت مقاليد الحكم، في البلاد بفضل جيش افراده من الرعايا والذميين ، اطلق على لجنته الادارية اسم « الاتحاد والترقي » ، اذ كانت تضم بين صفوفها ، مسيحياً ويهودياً ، وانتسبت بالمبادىء التي نادت بها، الى اوغست كونت والى « فلسفته الوضعية الكاملة » ، وراحت تنادي «بالعثمانية » بحيث يصبح كل رعايا السلطنة دون اي تمييز عرقي فيما بينهم « عثمانيين » . الا ان الفشل جاء تاماً ، كاملا ، هنا ايضاً ، وذلك بفقدان تركيا طرابلس الغرب ، حيث تمثلت المقاومة وتبلور الصمود في وجه الغازي المستبيح، بالسنوسيين ، وبفقدان البلقان ، وبانفصال البلدان العربية تدريجياً من تركيا . وقد ظهر ان « الوطن العثماني » يجب ان يقتصر ، بعد امد وجيز على العثمانيين الاقحاح . ففي الحين الذي راحت فيه انكلترا تظهر عطفها على العرب، كانت المانيا تؤيد الجامعة الاسلامية الحميدية وتتظاهر بتأييد الحركة الوطنية التركية في الاستانة . وفي نهاية الامر ، لم يلبث حزب تركيا الفتاة ان دب سوء التفاهم بينه وبين الجامعة الجرمانية .

سقوط عبد الحميد عن كرسي السلطنة سبق بقليل سقوط الشاه محمد علي ، هذا الشاه المستبد في دولة راحت فريسة للفوضى المخزية . هنا حزب تركيا الفتاة وهناك حزب ايران الفتاة ، وقد تألف الاخير منهما من لميم الاعيان ورجال الفكر وبعض المغامرين جاؤوا من القفقاس ومن ارمينيا ومن بعض ائمة الشيعة . فتبريز تقف في وجه طهران. وقد راح الشاه فريسة هذا التقارب الذي تم بين الانكليز والروس ، فاضطر ان يجمع المجلس الوطني وان يعتزل الحكم عام ١٩٠٩ لابنه الشاب . الا ان الثورة التي تستجدي معونة المستشارين الاميركيين ، وتحاول لفترة قصيرة استمالة برلين الى جانبها ، لم تستطع الصمود امام التدخل المزدوج من قبل الروس والانكليز . فحوادث الفتن والاضطرابات لن ينتهي عهدها بسرعة في ايران التي راحت فريسة الدول الاستعمارية المجاورة لها .

والحوادث الدامية التي وقعت عام ١٩٠٨ - ١٩٠٩ في كل من تركيا وايران تردد صداها في القاهرة . فقد كان سبق للورد كرومر ان غادر مصر بعد ان كان قد تولى ادارتها مدة ٢٨

سنة ،وعمل على تنظيمها وفقاً لمتطلبات المصلحة البريطانية .ولكن الروح القومية المصرية التي بدت طلائعها في ثورة عرابي باشا ، لم تخمد جذوتها قط كما يلاحظ المستكشف شواينفورث عـــام ١٨٩٥ . فاذا ما رضي جناحها المعتدل ممثلا بالشيخ محمد عبده ، شكلاً من التعاون المؤقت ، فقد راح يؤكد بصوت مصطفى كامل « المصريون لمصر ومصر للمصريين » . ومع ذلك كان كامـــل يراعي جانب المحتل . وعندما توفي عاد الاضطراب الى البلاد واشتدت حركة المقاومـــة كما حدث في الصين والهند بفضل التطور الذي عرفته البروليتاريا الصناعية في البـلاد . « ان كلا ضفتي النيل ، كما يلاحظ لويس برتران ، عام ١٩١٠ – تزخر بالمصانع ومعامل السكر ومعامـل نسيج القطن التي ترتفع سحائب مداخنها السود فوق عزب الفلاحين ومنازلهم المتخذة من اللبن » . وجاء كتشنر واسرع الى تعطيل الجرائد الوطنية واخذ يلاحق احرار البلاد ويضيق على زعمائها الخناق . الا ان المعلق الصحفي سدني راح يعترف بالحقيقة قائــلا : « لسنا محبوبــين في مصر » . كما ان لوتي اخذ ينتحب قائلا : « مسكين هذا النيل ، حقا مسكين . . . ما هــذا الانحطاط الذي صار اليه ! بعد هجمته السحرية التي امتدت عشرين قرناً نراه اليوم تنتقـل على متن ظهره تكنات وكالة كوك الطافية ، ويغذي مصانع السكر ويجهد نفسه ليؤمن بما يفيض به من غرين خصب ، المواد الاولية للمنسوجات القطنية الانكليزية » .

حري بنا ان نلاحظ هنا ان الحركات الوطنية في العالم الاسلامي اخذت تستيقظ في هـــذا الوقت بالذات الذي بدا فيه ان الدول الاوروبية اخذت تقضم من جنباته وتمضي فيه نهشـــاً وتتقاسمه. فغزو الدول الغربية للفحم وقع في الوقت بالذات الذي تم فيه غزو المغرب ، فالضربة تلو الضربة ،اذ يحتل الايطاليون طرابلس الغرب ، ويفرض الفرنسيون حمايتهم على فاس ، ويفقد الاتراك كل ممتلكاتهم في اوروبا باستثناء تراقيا الشرقية ، وتبدو الاستانة وشيكة الوقوع بيد البلغار ،وآسيا الغربية تتمخض بانقسامات وطنية وشيكة الوقوع. أفلم يُنشأ وطن قومي لليهود في فلسطين ؟

والمقاومة في الغرب بدت عنيفة وطويلة ، فتمركزت في جبال الاطلس وفي الريف وحدود الصحراء الكبرى . ومن الامور التي لها مدلولها هنا ، مهما قل شأنها ، ظهـور الحركة الثورية لتونس الفتاة ، التي ضمت بين صفوفها،عدداً من رجال الفكر وبعض الشيوخ مطـــالبة بتوسيع الحريات وتتسبب ببعض حوادث العنف، اذ ان المقيم العام في تونس مسيو ألابتيت، والسكرتير العام السيد روي إستمرا في ادارة المحمية وفقاً للمبادىء والنصوص التي حددهـا كمبون وروى نفسها ، وهو اتفاق راعى مصالح الاقلية الاوروبية في البلاد والدولة الحسينية المتعاقبة على الحكم . وفي الجو الهادىء الذي ساد الجزائر حيث ازدياد حركة الاسكان بـين الفرنسيين لم تستطع ، بالرغم من النسبة العالمية التي سجلتها ان يزيل الفارق الكبير لصالح الاكثرية الاسلامية . واخذت ترتفع في تلك البـــلاد ، منذ عام ١٩١٠ بعض الاصـوات من بين الاوساط الوطنية

التي تخرجت ، هنا كما في تونس ، المعاهد المصرية على النهج الاوروبي. وقد اغتنم هؤلاء الشبان الجزائريون مناسبة تقديم مشروع الخدمة العسكرية ليطالبوا ، بالمقابل ، بالمساواة في الحقوق والواجبات امام الضرائب ، ونشر التعليم وتمثيلا اكبر في مؤسسات البلاد . أما اصحاب العمائم الذين تختار فرنسا من بينهم القضاة والاغاوات ، فقد رفضوا مشروع الخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي مدعين انهم انما يستجيبون ، في موقفهم هذا لمطلب الدفاع عن حقوق الاسلام .

صحيح ان افريقيا الجنوبية الغربية الالمانية شهدت عام ١٩٠٣ - ١٩٠٥ انتفاضتين قامت بها تباعاً قبائل الـ *Hereros* وقبائل الـ *Hottentots* احتجاجاً منهم على الاستثمار البشع الذي استهدفوا له ، وعلى سياسة العنف والبطش التي راحوا فريسة لها ، وهي سياسة اخذت الى حد ما ، تراعي جانب ابناء البلاد والتي استأنف الاخذ بها ، منذ عام ١٩٠٧ امين سر الدولة درنبرغ . الا ان الزنجي مسلماً كان ام وثنياً ، لم يكن سواء في السودان او في مناطق الكونغو على اختلافها ، لم تكن اعتملت نفسهبعد « بالروح الافريقية » .

ومدغشقر لم تعرف سوى فتنة بسيطة وقمت عام ١٩١٣. وعلى عكس ذلك يجب ان نسجل هنا طلوع روح قومية جياشة في قلب افريقيا الجنوبية التي تمد مليوناً ونصف مليون من البيض واربعة ملايين ونصف من السودان والهنود . فالمنافسة الحادة الطويلة التي قامت بين البيض من بريطانيين وبويرز لتأمين السيطرة لجانب من الفريقين انتهت ، عام ١٩٠٢ بغلبة الـ *Uitlanders* على الروح القومية التي يمثلها الـ *Afri Kanders* .الا ان الدومنيون الذي انشىءعام ١٩١٠نهض على الشعار المعروف : القوة في الوحدة . ان تضامن الفئتين وتوحيد موقفها تجاه سكان البلاد الاصليين عرف كيف يتغلب على وطنية الافريقيين ، وأمّن قيام عهد من التعاون بينهما وبين لندن نص على الدفاع عن حقوق البيض . وعلى غرار حادث شبيه بالحادث الذي وقع للولايات المتحدة الاميركية بعد حرب الانفصال ، فما كادت تنتهي حقبة « التعمير والانشاء » حتى راح العنصر الوطني المغلوب على امره يعمل على ترسيخ وشائج العنصرية التي قال بها وعلى إظهار عدائه للرأسمالية . وقد قام فريق من البويرز يلتفون حول الجنرال هرتزوغ يطالبون باتخاذ اجراءات تؤيد التمييز العنصري والتشهير بفريق ارباب المناجم . وفي كانون الثاني ١٩١٤ ، تألف حزب وطني في جنوبي افريقيا لم يلبث بعض المغالين من عناصره ان اتفقوا مع غلاة الوطنية في ايرلندا ، خلال الحرب العالمية الاولى ، على شن هجوم مشترك ضد بريطانيا .

لا نرى في ما تبقىمن اجزاء الدومنيون البريطاني من قوة طاردة شبيهة بالقوة التي تبديها النزعة الافريقية في الكاب وبريتوريا . ولما كانت المطالب الاقليمية الكندية قد برزت على بعد متساو من لندن وواشنطون فلم تصب مصالح انكلترا الاستعمارية،بأي اذى او ضرر يذكر، واوستراليا تعتمد على اتحادها مع البلد الام لتصمد في وجه التهديد الاسيوي . والحقيقة التي

لم يتطرق اليها اي شك هي ان هذه الشعوب أخذت تشعر بوجودها ، كما اننا نلاحظ عندها رغبة بأن تصبح امة معترفاً بها .

ولكي يحطم اصحاب المناجم في جنوبي افريقيا قوة اتحادات العمال لجأوا الى عمال افريقيين لم يكن ليسمح لهم بذلك من قبل . وبعد حوادث اضرابات عنيفة وقعت عام ١٩١٣ — ١٩١٤ ، اقبل هؤلاء العمال على الدخول في عضوية النقابات العمالية بأعداد كبيرة . الا انهم لم يلبثوا ان خضعوا هم انفسهم للتشنيع بالزنوج الخاضعين لوضع فيه نصف عبودية .

اما بلدان اميركا اللاتينية حيث اخذت الرساميل تتجمع ، فقد راح ارباب المال فيها يقيمون لهم علاقات ناجحة مع رجال الاعمال من الاوروبيين والاميركيين . لاشك ان العصا الضخمة التي اوح بها ثيودور روزفلت في اميركا الوسطى بعثت الريبة في النفوس وأبت الجامعة الاميركية ان تمهد الى « الولايات المتحدة الاميركية » بسلطة بوليس دولي في المنطقة ، وهو مطلب وقف بوجهه بعناد رجل القانون الأرجنتيني المشهور داغو ، الا انه لم يقم شيء ضد سيطرة رؤوس المـــال الأجنبية . وحري بنا ان نذكر هنا مثل المكسيك . فالثورة التي انهت عام ١٩١٠ نظام حكم الرئيس بورفيرو دياز ، عجزت عن احقاق مطالب جماهير الفلاحين المحرومين من الاراضي ، كما عجزت عن إشباع مطالب البروليتاريا ، الناشئة ، هذه البروليتاريا التي اخذت تترعرع في احضان النقابية والاشتراكية ، ولارضاء البورجوازية المستنيرة بعض الشيء التي تمنت قيام نظام حر ، وهذه الحكومات الصورية او الوحشية التي تعاقبت على الحكم في البلاد كان عليها ان تراعي جانب واشنطون التي كانت دوماً على استعداد التدخل بشؤون البلاد .

وهكذا ، في مكسيكو كما في بريتوريا ، في القاهرة كما في نانكين ، لم تلبث ان برزت قسمات وجه هذه القوميات الوطنية التي تطمع ان تكون سيدة مصيرها . وهكذا فالحركة التي بدت طلائعها في اوروبا ، منذ القرن الثامن عشر ، اخذت تثير في القرن العشرين اهتمام بلدان القارات الخمس . فقد اصبح « التجمع البشري » في الوطن ، امراً عاماً ، شائعاً ، شمل جميع المجتمعات البشرية بحيث ان فكرة الوطن لم تعد لتسند ، كما يلاحظ جوريس ، على الاصول الاقتصادية وحدها ، ولم تعد « تنحصر في دائرة ضيقة هي من حق طبقة معينة » لان « اصولها تنبع من طبيعة الحياة البشرية » . وفي وسط هـــذا « التجمع البشري » ، راحت المشاعر الفردية « تتجمع وتنطلق » عارمة بحيث ان « المستثمرين » و « المستعبدين » اخذوا يتذوق طعم الكرى والنوم الهني عند ادنى درجات الصرح الشامخ ، وتشعر في صميمها بارتياح اكبر مما كانت تشعر به « في هذا العالم البراني الذي يجيش بالعداء المنيف ويتنزى بالقلق الصاخب » .

الفصل الرابع

الارتكاسات العالمية والدفع الاشتراكي

العاملون على تأمين ضروريات العيش هم اكثر الناس افتقاراً لها ، بينما هي تتوفر بسخاء للذين لا يعملون شيئاً في انتاجها .

(أناتول فرانس : جزيرة البنغوين ، ١٩٠٨)

البروليتاريا ووضعها القائم في اواخر القرن

ان تحول النزعة الاقتصادية ، منذ عام ١٨٩٥ والانطلاقة الجديدة التي عرفتها حركة الانتاج والتبادل التجاري ، كل ذلك عاد بالخير العميم على الرأسمالية . غير ان الانتهاء من عملية اقتسام المستعمرات ، والمنافسة الحادة حول الخامات والمواد الاولية ، والسيطرة على الاسواق العالمية كل ذلك وقع في الوقت ذاته التي طلعت علينا اوليغارشية محتكرة شديدة البأس . ومن ثم ، فقد اضطر اصحاب الاعمال للتخلي ، شيئاً فشيئاً ، عن مواقفهم المفردة المتعذر بسطها التي لم يعد بوسعهم الدفاع معها عن مصالحهم . ففرنسا وحدها ، ارتفع عدد النقابات العمالية ، بين ١٨٩٠ – ١٩١٤ ، من ١٠٠٤ نقابة او رابطة الى ٤٩٦٧ ، كما ارتفع في الفترة ذاتها ، عدد الاعضاء المنتمين اليها من ٩٣ الف الى ٤٠٢٠٠٠ .

والثابت ان دنيا العمل المأجور اخذت تتطور ، من الوجهة العددية تطوراً عظيماً . فالى فئات العمل المختلفة العاملة في الصناعات الصغرى والوسطى والكبرى يجب ان نضيف هنا فئة اخرى تعمل في القطاع الذي يمكن ان نسميه : « القطاع الثلاثي » حيث يعمل اصحابه في توزيع المحاصيل والانتاج وتأمين الخدمات العامة ، والذين يتمثلون بهؤلاء العمال الذين يرتدون الياقة المستعارة وربطة العنق والقبعة اللينة . وقد كانت نسبتهم في فرنسا ، عام ١٨٦٦ ، بنسبة ١٠ موظفين الى ٢٤٠ عامل ، فارتفع الى ١٤٥ عام ١٩٠٦ ، والى ١٢٠ عام ١٩١٤ . ففي الحقبة الواقعة بين ١٨٩٥ – ١٩١٤ ، قدروا أرباب الاسر التي لا دخل لها سوى اجر رئيسها ، من ٨ – ١٢ مليون ونصف المليون ، وعدد الطبقة العمالية ، بحصر المعنى ، في الولايات المتحدة من ٥ – ٧ ملايين ، وفي روسيا من ٣ – ٤ ملايين .

فالازمة الكبرى التي نزلت باليد العاملة في بلدان اوروبا الوسطى واوروبا الغربية والانكلوسكسونية خارج اوروبا انقشعت كربتها عن بعض مكاسب تمثلت في تحسين ظروف العمل التي كانت تكتنفها . فاذا ما استمر ارتفاع الأجر الاسمي ، خلال الظروف التي اطلت . (راجع الجدول المثبت صفحة ٩٠) فالأجر الفعلي أجر لحقه بعض التأخر اذا ما نظرنا اليه من ناحية تكاليف الحياة . فالارتفاع في هذه التكاليف ، اختلف من بلد الى آخر ومن مهنة الى اخرى ، وبصورة ابرز واوضح ، في ايطاليا حيث الاجر كان اقل (كان الدليل الاسمي ٧٦ عام ١٩٠١ مقابل ١٠٠ عام ١٩١٣) وبدا زهيداً في انكلترا (الدليل ١٠٠ عام ١٨٨٠ ، مقابل ١٣٢ عام ١٩٠٠ ، و ١٤٣عام ١٩١٣) ، وتوقف في بلجيكا منذ عام ١٩٠٤ ، ثم عقبه حالة من الركود الفعلي (دليل ٨٩ عام ١٨٩٥ ، و ١٠٤ عام ١٩٠٤ ، و ٠٠ عام ١٩١٣) .

والمرافق الاكثر حظوة هي المناجم والميتالورجيا اللتان زاد الطلب عليها بصورة محسوسة . فعامل المناجم في الروهر كان يتقاضى ، عام ١٩١٠ ، ٦ ماركات عن كل طن فحم يستخرجه ، مقابل ٣ ماركات عام ١٨٩٧ . اما عامل مناجم الفحم في فرنسا الذي كان اجره ضئيلاً ، حتى ذلك العهد ، فقد حسنت اوضاعه وارتفع اجره (من فرنكين ، عام ١٨٥٠ الى ٣،٣٠ فرنكات عام ١٨٨١ ، ثم ٤،١٠ فرنكات عام١٨٩٥ ثم الى٥،٤٠ فرنكات عام ١٩١١) اما عامل النسيج فقسمته ضئزى : فالاجرة التي كان يتناولها في معمل ورتمان للنسيج في مدينة غنت لم تكن توازي اكثر من ٦٣ ٪ من كلفة الانتاج ، عام ١٩١٣ ، مقابل ١٢ بالمائة عام ١٨٩٧ ؛ ومع ان الكلفة العامة تضاعفت قيمتها ، فقد امكن المحافظة على تكاليف التوضيب كما حوفظ على معدل الربح اذ اتاح إدخال التصفيح تأمين زيادة في الانتاجية .

فالاجر يبقى متدنياً جداً في معظم قطاعات العمل . فاذا ما أوضح التحقيق الذي اجري في فرنسا ، عام ١٩١١ ان النجار وصانع الاقفال والسنكري يربح ١٠ فرنكات على الاقل ، في اليوم فعلى العمال المياومين ان يقنعوا بأجر يتراوح بين ٤ - ٥ فرنكات بينما تربح المرأة ما بين ٢ - ٣ فرنكات في اليوم ، وليس بنادر قط ان تقوم عاملات المنازل بعمل ١٥ ساعة لتربح ١،٥٠ فرنك . اما في آسيا ، فالارقام تهبط الى ادنى من ذلك بكثير ، اذ يتناول الولد الياباني الذي يعمل في المصنع نصف فرنك و٢٥ سنتيما اذا ما عمل في مزارع الأرز .

بالاضافة الى هذا كله ليس ثمة عمل موصول او مستمر . هنالك ازمات بطالة مزمنة . وحركة النزوح او الهجرة بالجملة التي يقوم بها البائسون على نطاق واسع تشهد عالياً على الفقر العام الذي تتخبط فيها الجماهير .

حتى في هذه البلدان الاكثر أخذاً باسباب التطور ، تبقى اليد العاملة في وضع مجحف جداً بالنسبة لرأس المال . فقد كان العامل في الولايات المتحدة ، عام ١٩١٤ ، يتناول من الدولارات ضعفي ما كان يتناوله منها عام ١٨٩٩ ، بعد ان ارتفع عدد العمال في البلاد ٤٠ بالمائة بينما اصاب الرأسمال من الربح ما يعادل الضعفين ونصف في عدد من الاستثمارات وزاد قليلاً عن قبل .

(فالدليل الاعلى ١٠٠ لعام ١٨٩٩ ، انتقل الى ١٣٦ في قطاع الاجور ، والى ١٧٠ في قطـــاع الارباح ، و ١٣٧ في الانتاج الصافي ، و ١٤٦ في تكاليف المواد الاولية) . ففي الوقت الذي زاد فيه ربح المعدن الفرنسي ٢٠ بالمائة تضاعفت فيه ارباح شركات الاستثمار . فهل من يستغرب بعد هذا كيف ان ٨٥ بالمائة من الدخل القومي في انكلترا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، كان يذهب الى جيوب ٥ بالمائة فقط من مجموع السكان ؟ ، وان ٢٥ مليونا في فرنسا لا يخـــلفون ، لدى وفاتهم اية تركة تـذكر ، وان ١٢ – ١٣ فرد منهم يملكون ٣٠ بالمائة من الثروة العامة ، وان اقل من مليون يملكون ٧٠ بالمائة ، وان في الولايات المتحدة الاميركية بين ٢٠ – ٢٥ مليون من المكلفين منهم ٣٢٥،٠٠٠ فقط مسجلة اسماؤهم في سجلات ضريبة الدخل ، وان دخـــل منهم يزيد ١٥،٠٠٠ فرنك ، وان في المانيا ٣ ملايين يتمتع الواحد منهم بدخل يزيد على ٣٠٠٠ مارك في السنة (بينهم ٩٠٠٠ يزيد دخل الفرد الواحد منهم على ١٢،٥٠٠ ، وان معدل مـــا يصرفه العامل يتراوح بين ٧٠٠ – ٢٢٠٠ مارك) .

انتاجية اكبر وظهور التخصص التقني (او التيلورية)

للمحافظة على ارباحه وحرصاً منه عـلى إنمائها ، راح رب العمل يدرس بعنـاية كلية قضيـة توزيع العمل في مصنعه والتخصص في كل وجه من نشاطاته . فلم يستطع يوماً ان يوحد نظرته الى العمال القائمين على تأمين الانتاج في معمله . فقد قسمهم الى فئات متميزة بين عمال مهرة وعمال ملفقين . كذلك لم يغفل قط عن ان العمل الفردي يختلف جودة واتقاناً بين عامل وآخر باختلاف ما هما عليه من اهلية ومراس واستعداد خلقي وتقنية مما يتوفر للواحد منهما . والشيء الذي فرض نفسه كنتيجة حتمية للتصنيع هو تقهقر العمل الموصوف بالتقني امام الآلة . ولهذا السبب نرى العامل نفسه يستنزل في مطلع العصر اللعنات والحرم على الآلة وعلى الذين استنبطوها بعد ان اتهمها بالقضاء على المهارة التقنية اليدوية . والحقيقة التي لا مراء فيها هـــو ان الآلة الميكانيكية اقتضت إعـــداد فئة خاصة من العمال المهرة المتخصصين يطلب اليهم إدارتها وتوجيه نشاطها . ليس مفروضاً في هؤلاء العمال ان يفقهوا دقائق ســير الآلة في مجموعه وعمل كل قطعة على حدة . المطلوب منهم ان يكونوا مراقبين لعملها الفني المحض . وعلى هذا الاساس نرى عدد العمال غير المتخصصين يهبط من ٦٥ الى ٢٥ بالمائة بين ١٨٣٠ و ١٩١٠

فاذا ما ادركنا على وجهه الصحيح الدور الذي يلعبه التصنيـع من هـــذه الناحية ادركنا الاثر الذي تتركه الآلة في رفع الانتاج ودفعه والتوفير الذي تتيحه من جهة اليد العاملة . ففي مناجم الفحم ، مثلاً حيث يخف الانتاج وينقص كلما عمق الاستخراج ، جاءت الآلة ترفع من كميته المستخرجة . ولما كانت نسبة ارتفاع الاجر مرتبطة الى حد بعيد بتطور الآلة التي تزيد من الانتاج فقد ساد الرأي العام ، الاعتقاد بأن تنظيم العمل تنظيماً دقيقاً يراعى فيه الاختصاص والمهارة والمراس ، يعود النفع فيه على العامل ورب العمل معاً ، وقد اتخـــذت الشركات الاستثمارية الكبرى حجة منه وذريعة للتعويل عليه اكثر فأكثر ، اذ تستطيـع معـــه اكثر مما

يستطيعه صاحب الورشة الواحدة ، تطبيق خير اساليب الاستثمار واجراء توفيرات محسوسه في سعر الكلفة والانتاج ، وبيع المصنوعات بالتالي بسعر ارخص مع تحقيق ربح اكبر .

ولذا كان لا بد من توزيع العمال في المصنع حسبما تقتضيه طبيعة العمل ومقتضيات مصلحة التصنيع الآلي . ان تكييف العامل وافراغه وفقاً لحاجة التصنيع من شأنه ان يوطد فيه الثقة بينه وبينها . فالنظرية العلمية تبعث فكرة المنهجية في العمل والمصنع . فهي قضية تتعلق في صميم علم النفس التطبيقي . فبينما كانوا يعتمدون إختبارات الذكاء للكشف عن كفاءات العامل واستعداداته النفسية ، راح موتستربرغ وهو من تلاميذ رونتا الذي هاجر الى الولايات المتحدة الاميركية ، يقترح عام ١٨٨٠ ، تطبيق علم النفس التقني على الصناعة .

الا ان المحاولة الاولى لتنظيم العمل تنظيما علمياً يجب ردها ، كما هو شائع المهندس تيلور . فقد اقترح على شركة بتلهم لصنع الفولاذ ، تحديد معدل الوقت الذي يقطعه العامل للقيام بحركة ما، على ان يتولى قسم التخطيط في المعمل تحديد الوقت القياسي لصنع غرض ما قياسي *Standard* واوصى بالوقت ذاته بتنحية او إبعاد كل عامل لا يتقيد بالخطة المرسومة .

وهكذا نرى ان التيلورية لم تكن بحد ذاتها اساساً لتحسين ظروف العمل لدى العامل ، بل كانت تتوخى الوصـــول الى تسجيل اعلى انتـــاج ممكن عن طريق تطبيق الآلية الذاتية (الاوتوماتيكية) هذه الاوتوماتيكية التي تجعل من العامل قطعة من الآلة .فاذا ما جاءت الطريقة في مصلحة الرأسمالية فـــلم تلبث من ناحية ثانية ان احـــدثت ردة عكسية لدى اصحاب الاجور . وامر مجلس الكونغرس الاميركي في واشنطون القيام بتحريات حول الادارة العلمية في العمل . ولم يكن نقد هذه الطريقة باقل حدة في اوروبا.فقد رأى فيها العالم النفساني ساخس «تنظيماً للجهد البشري»كما ان النقابي العمالي« بوجيه» استعمل هذا التعبير عنواناً لكتاب له يفضح هذه الطريقة التي تساعد على جعل العامل آلة ذاتية « بلهاء » .

وعندما راح فورد يخصص ، عام ١٩١٢ مكافئة للعامل المطيع الذي يستثمر وفره ويؤسس له عائلة ، لم يضع نصب عينيه ، من اقتراحه هذا ، هو ابضاً سوى تحسين وسائل الانتاج(فالدليل الأسمى للأنتاج الذي كان ١٠٠ عام ١٩٢٩ ، لم يكن سوى ٢٧٣ عام١٨٦٩ و ٤٢ عام ١٨٨٩ ، و ٥٩،٣ عام ١٩٠٩) .

وهكذا بدت العلاقات بـــين الانسان والآلة بشكل ابقى تابعية الانسان لمقتضيات الانتاج والسعي الموصول لتأمين المزيد من الربح وفقاً لمبادىء الرأسمالية .

المزيد من المؤلفات الاساسية

أطل علينا بعد جيل الرومنطيقية الاجتماعية أجيال عَنت تباعـــاً بالواقعية والطبيعية ، وانصرفت بكليتها لدراسة اوضاع المساكن والبائسين ووصف ما يكتنفهم من اوضاع اجتماعية وصفاً موضوعياً قلما خـــلا من الشعورية او الاحساسية .

وقد انتشرت هذه النزعات الشعورية واستطال الاخذ بها حتى اواخر القرن ، ان لم يكن في فرنسا ، فاقله في عدد كبير من البلدان الاوروبية الاخرى ، وقد كان للكاتب الفرنسي زولا اثره البالغ في هذا المجال امتد من سهول الفلاندر حتى مشارف البحر البلطيقي ، وظهرت هذه النزعة بوضوح عند فان كروننجن وكراين، كما ظهرت بوضوح عند نكس وريمونت وهوبتمان وقــد غزت حتى تشيخوف في قضية « الموجيك » ، وتغلغلت في روايه زولا : جرمينال ، والارض بالألوان مختلفة .

نحن الذين اصطلحوا على تسميتنا سفلة
بلغت منا الروح التراق ، نحن الافاكون
أفضل لنا الف مرة ان تذهب هياكلنا المظمية
مع هياكل اولادنا وبناتنا فننسج أكفاننا بأيدينا
(هوبتمان : الحان)

وانفجرت الثورة الاجتماعية في الولايات المتحدة الاميركية . من شتى قلم كتاب امثال درايزر وأبتن سنكلر وهوايتلوك . اذ اخــذوا بتحريك « الثفالة » ، وبلغت روسيا مع كوروليكو وغوركي ، و كوبرين .

الا ان الردة المثالية ليست بالضرورة هروباً من المشاهد المريعة . فقد وقف الى جانب المسكين : فرنسن بما عُرف عنه من حنووليون بلوا بقشعريرة انما بروح مسيحية حقة ، والروح المناهضة للدين ولرجاله التي جاش بها هذا الاخير كادت تتصل بابانيز وزولا .

والكذب التقليدي هو الذي يجر الى المعركة ويثيرها احتجاجاً على هــذا الظلم الاجتماعي الذي يبدو من البورجوازية ، كتاباً امثال شو وويلز . وقــد دفعت قضية دريفوس ، كاتباً فرنسيا هو جول رينار نحو الاشتراكية ، واخرجت من برجه العاجي اناتول فرانس ، هــذا الكاتب الساخر المستهزىء الناعم الذي عالج او بحث اموراً جميلة . بين هؤلاء الكتاب من يجعلنا نفكر بمسرح شعبي وبأغان شعبية ، فرومان رولان هذا الكاتب الرمزي الذي هو خير من يمثل الانسانية المسالمة يتوخى ان يترك لنا وصف عظام الرجال الذين تألموا وجاهدوا في سبيل رفع مستوى الحياة . فنحن امام طلع حقيقي من هؤلاء الشعراء والروائيين الاحقاق من ابناء الشعب لا يتورعون عن استعمال اللهجات الشعبية امثال شارل لويس فيليب ابن صانع القباقيب في مقاطعة البوربونية الذي كشفته لنا قصته المعروفة بوبا دي مونبارناس ، وجاره اميل غيومين ، واضع القصة : حياة احــد البسطاء والخياطة مرغريت اودو التي صرفت ٢٠ سنة في كتابة روايتها « ماري كلير » ، هم بعض هــذا الفريق الذي يمثل في فرنسا ، شلة الكتاب المتواضعين ، الدائبين على انفسهم ، الثائرين خير من يمثلون جيل الادباء في فرنسا اذ ذاك . وغوركي الذي يبدو لنا اليوم بوهيمياً ، يصور لنا بعاطفة ملؤها الرومنطيقية مثال التائه البطل . فما اكثر الادلة والشواهد على الآلام الاجتماعية .

الحريات العامة وروح التعاضد وقضية « ديموقراطية مسيحية »

ومع ذلك فقد راحت الطبقات العاملة تحتل يوماً بعد يوم ، محـلا اكبر في الحياة السياسية ، بعد ان افادت كثيراً من تطور الدول وتحـولها نحو النظام التمثيلي الذي ارتضته البورجوازية المتحررة وساعدت على رواجه . فالتحرر السياسي سار وفقاً للمبادىء الداعية الى الفردانية ومتطلبات السيادة الوطنية بينما تنزع القوى الاجتماعية منذ ذلك الحين ، الى تنظيم نفسها عن طريق المواثيق الصناعية والجمعيات المهنية . فالى اي حـد يا ترى يتمازج المـواطن « المواطن المجرد » بهذه المدنية الديموقراطية ، بهذا الانسان العالمي ؟

نرى ، قبل كل شيء ، ان النظام الاستبدادي او المطلق الذي استبدل في اليابان عام ١٨٨٩ بالنظام التمثيلي او الدستوري ، اخذ يتوارى تباعاً في كل من روسيا (١٩٠٥) وتركيا (١٩٠٨) وايران (١٩٠٩) ، والصين (١٩١١) . فالبلدان التي بقي فيها حق الاقتراع ، مدداً تقصر او تطول ، امتيازاً مقصوراً على اصحاب الثروات وحدهم ، استبدل بالاقتراع العام الذي اخـذ يفرض نفسه في كل مكان. والتمثيل النسبي الذي عجل به في كل من بلجيكا وسويسرا والارجنتين، اخذ يلقى ارتياحاً ورواجاً لدى الفرنسيين .

ومع أن الرأي العام اخذ يهتم، بفضل الصحافة على الاخص ، بنشاط الهيئات النيابية ، فحق الاقتراع الشعبي لم يكن ليعني قط اوليفيد ان المواطن اخذ يساهم ، اكـثر فأكثر ، بتسيير القضايا العاملة في البلاد . فقد بقيت هذه المساهمة اسمية أو نظرية ، في هذه البلدان الـتي لا يهـتم فيها جمهور الناخبين ، جهلا منه او تكاسلا ، الاقلا ، لواجباته وحقوقه المدنية ، وهي مساهمة تأتي جانبية او غير مباشرة في معظم الحالات ، وكثيراً ما حدت منها أساليب الاخذ بالنظام التمثيلي ، والمؤثرات الشخصية والحزبيات ومداخلات ارباب المال. ومن جهة أخرى، فالخدمات العامة التي تتطور بسرعة تأخذ موظفيها من رجال « السلك » ؛ فاذا ما تغلغلت فيهـا الروح النقابية ، كما هي الحال في فرنسا على الاخص ، فالدوائر العامة هي بمأمن من التيارات السياسية . الا ان الدولة التي لا يزال فيها انصار النظام القديم ينتقدون بشدة التدخل في الحياة الاقتصادية والاجتماعية ، نرى باستمرار دورها ينمو ويزداد بازدياد الضغط الذي تمارسه الهيئات والمنظمات النقابية المختلفة الحسنة التنظيم .

ان اعادة النظر في الليبرالية الفردانية الصرف التي بوشر بهـا منذ جون ستيورات مـل ورنوفييه اشتدت حركتها تحت تأثير الفلسفة الوضعية وعلم الاجتماع السبنسري ومدرسة دوركهايم. فالترابط القائم بين البشر رأى فيه كثيرون نتيجة حتمية للقانون الطبيعي الذي يشد بعضاً الى بعض، اعضاء كل جنس من الاجناس الاحيائية. فبدلا من حقوق الانسان التي تراعي الى حد بعيد جانب الفرد، راح ليون بورجوى يوصي العمل بالعقد ذات المفعول الرجعي المسلم به، والذي يقتضي قيام رابطة سابقة تشد الفرد الى المجتمع ، وذلك في بحثه الموسوم : « محـاولة حول فلسفة التضامن » . يرسم لنا فيه الخطوط الكبرى لفلسفة اشبه ما تكون بالليبرالية المستحدثـة التي

تبنتها الراديكالية الفرنسية . نحن امام علمانية إنسانية تفرض على « من ينعمون بالامتيازات » ، واجبا اجتماعيا عليهم ان يؤدوه باسم العدالة ، على ان يمنحوا المواطنين الاكثر حرمانا ، عونا ضد العجز الطبيعي والاخطار الاجتماعية مع التعهد بتأمين منافع التربية الابتدائية للجميع على السواء . وقد تبنى مثل هذا البرنامج عدد كبير من الاحزاب المتحررة المحافظة الموجودة في البلدان السكندينافية والانكلوساكسونية ، وفي سويسرا وبلجيكا و « التقدميون » في الولايات المتحدة الاميركية .

ان نظرية من هذا الشكل تتفق تماماً والمسيحية الاشتراكية كما يتمثلها بعض البروتستانت . فالكاتب الفرنسي شارل جيد الداعية الى التعاون يعرض علينا نظرية تعاونية أساسها الاختيار الادبي والاداري . وقد عرض لنا ولفرد مونو القضية بوضوح كلي في كتاباته العديدة ولا سيما بكتابه المعنون : « نهاية المسيحية » . « فالمسيحية ترزح تحت وطأة حرم ثقيل لأنها تأخذ بالجدية اللازمة ، العمل على محاربة البؤساء في العالم وازالة آثارهم » . فنظام الاجر المعمول به اليوم مقضي عليه امام محكمة العقل ومحكمة الضمير ومحكمة التاريخ » . اما ألمانيا ، فتسيطر عليها روح انسانية رحبة تقود الحزب الوطني الاجتماعي الذي اسسه نوماف اكثر منه حزب العمل المسيحي الاجتماعي المعروف بروحه المحافظة والمناهضة للسامية . اما في بريطانيا العظمى ، فالروح البروتستانتية هي التي تتنزى بالنزعات الفابية ونزعة الجمعية الفابية الانكليزية التي نشطت عام ١٨٨٤ والتي سعى اعضاؤها الى نشر المبادىء الاشتراكية بالوسائل السلمية .

وبالفعل فقد راحت الكنيسة الكاثوليكية تبحث عن طريقة تحد معها من حركة تجريد الطبقات من الروح المسيحية . فـ « البراءة البابوية » التي صدرت عام ١٨٩١ شجبت بعنف ليس الكفر والروح المادية التي تطفو على التعاليم الاشتراكية ، فحسب بل ايضاً نزلت باللائمة على الرأسمالية التي تعمل على عزل « العمال وجعلهم بغير دفاع عن حقوقهم في الوقت الذي وجدوا انفسهم واقعين تحت رحمة أرباب العمل الذين تجردوا من كل شفقة ، راحوا فريسة الجشع ومنافسة جنونية لا حد لها » . وراحت تؤكد ان الطبقتين المذكورتين معدتين من قبل الطبيعة للعمل معاً بانسجام كلي ، وتذكر الدولة بأن عليها واجبات معينة نحو « اصحاب الاجور » وتوحي بتشكيل جمعيات اخوية مشتركة بين ارباب العمل والعمال ، وبعبارة اخرى ، تأليف نقابات مختلطة تخضع « لادارة رائدها الحكمة » .

غير ان الكثلكة الاجتماعية اخذت تتأرجح بين روح محافظة ذات نزعة نقابية مناهضة لكل تعاون يقوم بين العلمانية وبين الحركات او التيارات التي تنتسب صورياً الى « الديموقراطية المسيحية » . فاذا ما راح الحزب الكاثوليكي ينتزع بنجاح من الحركة الاشتراكية جانبا من العمال الناخبين في بلجيكا وفي المانيا ، فالمسيحيون الاجتماعيون في النمسا راحوا يتخذون من محاربة السامية ذريعة لهم ، ومناهضة السامية التي تميزت بها بعض الاوساط الكاثوليكية في فرنسا هي التي تهدد بالخطر ، الفوز الذي يبسم للحركة الديموقراطية المسيحية خلال قضية

درايفوس . الا ان الاب لومير اصطدم ، على غرار البير دي مون من قبل ، بالقضية العلمانية المحافظة وبعصبة ارباب العمل التي لا يهمها كثيراً ان ترتبط بروابط قانونية .

ولذا راحت البراءة البابوية التي صدرت عام ١٩٠١ ، توصي بالفصل بين العمل السياسي والنشاط الاجتماعي . ومنذ ارتقائه السدة البابوية ، راح البابا بيوس العاشر يدعو العمل الشعبي الكاثوليكي للامتثال لتوجيهات السلطة الكنسية ، بعد ان وافق على موقف الاسابيع الاجتماعية في فرنسا . وعندما راح مارك سانييه وألسون يعلنان عالياً موافقتهما على الغاء الاجر الرسمي وسيادة الشعب، راح الكرسي الرسولي يشجب « هذه النزعات المقلقة » حتى هذه الاتفاقات والمواثيق المعقودة بين عدة طوائف في قلب الاتحاد العمالي في المانيا، فقد نصحت بالتخلي عنها. اما في ما يتعلق بالانتمائية الانطوائية فعلى البراءة *Rerum Novarum* ان تذكر بالقراعد والمبادىء التقوية : « كالفقر ليس حطة او اهانة ؛ وعلى الانسان ان يتسلح بالصبر لما هو عليه من وضع » .

الضرائبية الديموقراطية وتطور التشريعات العمالية

في اعتراف الليبرالية بضرورة المصالح العامة الدائمة اعتراف ضمني بحقوق الدولة باستيفاء ضريبة من افراد الشعب ، وفقاً لامكانيات الفرد وطاقته على الدفع . الا انه ظهر للكثيرين ان الضريبة المستوفاة يمكن ان تصبح بدورها اداة لتوزيع هذا الريع . وهذا التطور في مفهوم الضرائبية تم في الوقت الذي كانت فيه النفقات العامة ترتفع بسرعة في الدولة...وبالرغم من شجب الاشتراكيين للضرائب غير المباشرة باعتبارها اعتصاراً بغيضاً للأجور والدخل الصغير فقد استمرت تبهظ بثقلها الجماهير التي رزحت تحتها . ومن العسير جدا ان لايطلب من اصحاب الثروات القيام بجهود اضافي في هذا المجال . من هنا اللجوء الى الضريبة على الدخل التي تأتي تصاعدية نوعاً ما والتي قبلت العمل بها بعض المقاطعات السويسرانية ، مع ضريبة إضافية تم فرضها في الوقت ذاته على رأس المال ، في كل من بروسيا وساكس، على غرار بريطانيا العظمى التي سارت في تجارتها على سياسة حرية التبادل التجاري . وقد اعترض معارضون على هذه الضريبة ونعتوها بانها تفتيشية ، اذ انها تفرض التثبت من صحة الريع المعلن عنه ، وهي ضريبة عادلة ، على عكس ذلك ، لانها تصاعدية ، يجيب انصارها ومعظمهم اشتراكيون او من محبذي الاشتراكية . وهكذا تم في انكلترا نوع من التحالف اطرافه الاحرار والعمال لاقرار ضريبة عام ١٩١١ تعرف بضريبة الدخل ، وفرض رسم معين على التركات ذي طابع تصاعدي وهي ضريبة تقع بكاملها على ارستوقراطية اصحاب الاملاك، ولهذا راح لويد جورج يصرح قائلاً : « دوق واحد يكلف ما يكلفه صنع دارعتين » . ومن المستحب الاستشهاد هنا بمثل اوستراليا التي « آثرت ان يكون لها مجلس شيوخ اعضاؤه من الكنغورو على ان يكون لها مجلس لوردات» . فقانون البرلمان انقص من سلطة هذا المجلس ومهد الطريق امام تشريع اكثر تشبعاً بالروح الاشتراكية. اما في فرنسا، فالمعركة استمرت ١٢٤ سنة ؛ فمشروع القانون الذي قدمه كايو للمجلس

بشان الضريبة ، على الدخل ، وهو قانون صادف معارضة قوية في البرلمان ، ما كاد يمر في مجلس النواب حتى قام مجلس الشيوخ بدفنه الى عام ١٩١٤ . اما في الولايات المتحدة الاميركية وفي انكلترا في عهد بيل وكوبدن فالتخفيف من الرسوم الجمركية ، عـام ١٩١٣ ، قابله فـرض ضريبة الدخل .

اما في نطاق سياسة الاقتصاد التفضيلي حيث لا نلاحظ اي تاثير للحركة الاشتراكية ، فقد تطورت التشريعات ضد الاتحادات الاحتكارية *Trust* في الولايات المتحدة الاميركية التي بعد ان رأت خطراً يطل من « التباين » التصاعدي فقد امر الحزب الجمهوري الحـاكم حل شركة ستاندرد أويل والشركة الاميركية للتبغ اللتين اعادتا تنظيمهما بشكل آخر . ولما عـاد الحزب الديموقراطي الى الحكم من جديد عام ١٩١٢ ، عمد الديموقراطيون الى تشديد الاحكام المنصوص عنها في قانون شرمان الصادر عام ١٨٩٠ الذي جاء الاختبار يبرهن عن قلة جدواه واخذ الناس يتشككون في صلاحه .

ففي الوقت الذي لم تكن انطلقت فيه بعد في اوروبا ، حركة مناهضة الاتفاقات الصناعية ، راح عدد من الدول يحاول شراء شبكة الخطوط الحديدية في ارضها كلها او جزءاً منها ، وانتشرت من كلا جانبي المحيط الاطلسي عملية تأميم البلديات *Municipalisation* لمصالح المياه والغاز والنقل وجعلها خاضعة للبلدية إدارياً . ففي مدينة برمنغهام ، قام جوزف شمبرلين المعروف اذ ذاك بنزعته الراديكالية يوصي بفرض الضريبة التصاعدية ، وفرض ضريبة على الدخل ، وهي ضرائب تتيح جبايتها للبلدية تعمير مساكن شعبية .

وراح الاشتراكيون ينظرون ، تارة شزراً وطور نظرة رضى وارتياح ، الى هـذا التطور الذي حققه التشريع الاجتماعي الذي هدف الى تلافي المساوىء الفاضحة التي رافقت ، في الماضي ، النظام الرأسمالي ، بقصد تحسين العلائق والروابط بين العمال وارباب العمل . الا ان تدخـل القانون وتحكمه لم يقم على نظريات منهجية . فقد تباينت نصوص التشريعات الصادرة وتضاربت بين بلد وآخر باختلاف طبيعة التركيب الاجتماعي والمزاج الوطني في البلاد ، مع العلم ان التشريع في الولايات المتحدة الاميركية هو من اختصاص الولاية اكثر منه الحكومة الاتحادية .

والروح الفردية في فرنسا رأت نفسها ملزمة بمقاومة عنيفة ، هذا الالتزام الذي كان وقعه اخف في المانيا وبعض البلدان الانكلوسكسونية منه في فرنسا . فبلدان استرالآسيا التي مثلت هنا دوراً رائداً وجاءت ابداً في الطليعة ذهبت الى حـد ضمان حد ادنى للاجر ، بينما انكلترا حيث اقر القانون المعروف بـ *Trade Board Act* المبدأ الذي اقترح الاخوة *Ebb* تعيين « حد ادنى وطني » ، اقصرت تطبيقه على عمال المناجم لا غير . وتنظيم يوم العمل الذي قوبل بالاحترام على درجات مختلفة ، اخذ في الانتشار والتوضيح ، وان قصّر عن تحقيق مطالب العمال كلها : فاذا ما تبنت استرالآسيا قاعدة العمل ثمان ساعات في اليوم ، منذ عـام ١٨٩٠ – ١٨٩٣ فهذا

الاقتراح لا يطبق في انكلترا الا على العمل في المناجم ، وفي الولايات المتحدت الاميركية ، على عمال الخطوط الحديدية . اما تعطيل يوم الاحد ، فعادة دينية وصلتنا عبر الاجيال ، لم تشأ الروح الليبرالية ، منذ منتصف القرن التاسع عشر ، الاعتراف بها كواجب او عادة ملزمة . ومع انه لم يعد من يرتاب او يشكك بشرعية الحركة النقابية في البلدان الصناعية - باستثناء اليابان نرى بين ارباب العمل فريقاً يشمئز كثيراً من رسوخ هذا الامر ويرفض التسليم للمنظمات العمالية حق التكلم في المفاوضات باسم اصحاب الاجور . ولذا حرصت حكومات البلاد البورجوازية دوماً على قبول العمل بهذه الطريقة او باخرى ، في مفاوضات التحكيم ، فهي تقترح بعض القواعد التي لا بد من الاخذ بها في عقود العمل وضمان الاجر وتأمين الامور الصحية ، وراحت الدول الاوروبية ، على غرار المانيا ، تدرج في تشريعها العمالي نصوصاً معينة تؤكد الضمان في حوادث العمل الطارئة . ونظمت كل من انكلترا والنروبج وبلجيكا الضمان ضد البطالة ، بينما اقتصرت فرنسا مساعدتها على التبرع ببعض المال لصندوق النقابة . وسار البريطانيون بعد الالمان بزمان ، في طريق إقرار الضمان الالزامي ، عندما سنوا ، عام ١٩١١ ، قانون الضمان الوطني . الا ان تلك التدابير الجزئية التي اقرها البرلمان الفرنسي لم تؤد قط الى تشريع عام خاص بالمرض وبالشيخوخة قبل الحرب العالمية الاولى .

فمنذ انعقاد مؤتمر برلين عام ١٨٩٠ ، بُذلت جهود كبير في سبيل وضع تشريع عام خاص بالعمل . فالاهداف الاقتصادية كانت تسبق دوماً الاهداف الانسانية وتتقدمها . فقد رأى احد اعضاء مجلس بال المعروف بنشاطه الجم هو السويسري فراي في تخفيض معدل ساعات العمل ، علاجاً ضد اغراق الانتاج ، وقد اقر مؤتمر برن المعقود ، عام ١٩٠٥ ، مبدأ تحريم الفسفور الابيض في صناعة عيدان الثقاب او الكبريت الا ان السويد أبت ان توقع الاتفاق اذا تمنعت اليابان التي لم تحضر المؤتمر عن قبول مقرراته وتوقيعها . وتحريم العمل ليلا للاولاد والنساء اقتضى الوصول الى إقراره الكثير من الجدل والنقاش ، خلال هذه المؤتمرات التي تناولت بحث هذا الموضوع حتى عام ١٩١٤ . وقد وقعت بعض اتفاقات ثنائية ، مثلا بين فرنسا وبلجيكا ، وبين ايطاليا والمانيا نصت على حماية العمال بين البلدان التي ترسل او تقبل اليد العاملة التي يمكن لها استخدامها .

الاضطرابات الاجتماعية والهجوم الكبير التي هيأت اسبابه النقابية في كل من اوروبا واميركا .

ازدادت اضطرابات العمل ومصادمات العمال حدة بين السنوات ١٨٨٠ - ١٨٩٠ ، وبرزت الحركة العمالية اكثر رهبة من الدولية الاشتراكية الثانية ، في هذا النشاط الذي جاشت به ، ممثلا بهذه الاضرابات الواسعة العنيفة التي قامت بها وبهذه الاحتفالات الواسعة بعيد اول ايار ، تضخم الروح النقابية واستشراؤها .

فقد بدأ الاضراب والاعتصاب في اعين العمال خير الاساليب واسرعها للحصول على مطالبهم

والفوز بتحقيقها . فقد قام العمال في فرنسا وحدها عام ١٩٠٩ بأكثر من ١٠٢٥ إضراباً ، ونظموا في المانيا ١٥٣٧ اعتصاباً ، وفي انكلترا ٧٣٥ ، اشترك فيها اكثر من ٣٠٠،٠٠٠ عامل وجرت اضطرابات في مناجم الولايات المتحدة عام ١٩٠٠ ، و ١٩٠٢ ، و ١٩٠٣ ، ١٩١٢ ، و ١٩١٤ ، كما اخذ عمال مصانع الحديد بتحركون في هرج ومرج عام ١٩٠١ و ١٩٠٩ ، وعمال الخطوط الحديدية ، عام ١٩٠٤ و١٩١١ ، وعمال النسيج وصنع الالبسة عام ١٩١٠ ، و ١٩١٢ ، و١٩١٣ . اما ايطاليا فقد وقعت فيها ١٢٥٠ حركة اضراب بين ١٨٧٠ – ١٨٩٠ ، وحدث فيها ١٧٠٠ حركة اضراب بين ١٨٩٠ – ١٩٠٠ و ١٤٠٠ ، في سنة ١٩٠١ وحدها ؛ وهي انتفاضات وهيجانات رأى فيها جورج صاند « ملحمة » .

لنتصفح مذكرات نقابية مجاهدة هي الاما جونز التي ساهمت بنشاط في هذه المعارك العمالية التي وقعت في اميركا . فالوصف الذي تركته لنا عن هذه الاضطرابات شيء مزعج مقلق . ففي كولورادو ، عام ١٩٠٣ ، اعلن الاضراب في التاسع من تشرين الثاني ١٩٠٣ ،طالبة بثمان ساعات عمل في اليوم ، ولتعيين مدقق اوزان من قبل العمال وللمطالبة بعملة فضية ونقد عيني بدلاً من بونات ... فلم يستخرج من المنجم اي قطعة فحم . فالبرد قارس في تشرين الثاني في الكولورادو واخذ الناس يشعرون بوطأة الاضراب ... اخيراً وجه انذار للعمال ... فالمعارك الحامية العنيفة وقعت حول *Creeple Grack* ، وتم طرد العمال من منازلهم التي كانت ملكاً للشركة ، فالتجأوا الي الجبال الموحشة بعد ان نصبوا خيامهم وسط زمهرير الشتاء الذي سقطت درجة الحرارة فيه الى ٤٥ درجة تحت الصفر . ولفوا أرجلهم بالثياب الرثة اتقاء لقرص الزمهرير ، وضمرت وجوههم بعد ان عضهم الجوع كالذئاب في الغابات . ، فاضطرهم الجوع وحده لاستئناف العمل في المصانع .

وفي اوروبا اتصفت الاضرابات في المناجم بكثرتها وشدتها .ومما يلفت النظر تطور التضامن الصناعي ، اذ تضامن عمال الروهر عام ١٩١٢ ، مع عمال الفحم في انكلترا ، مما افضى الى زيادة محسوسة في الاجور وتحسين اوضاع العمل لدى هذه الطبقة المحرومة .

فاذا ما اكثر العمال البائسون في روسيا من إظهار تململهم من الوضع الذي يرسفون فيه ، فالعمال العاملون في المناجم والموانيء البحرية في كل من المكسيك والارجنتين والشيلي ، اخذوا ، هم ايضاً يتململون بشيء من الحدة في التسعينيات ووقعت بعض حوادث العنف في اليابان . فأضراب عمال مناجم الفحم ، عام ١٩٠٠ صادف نصف نجاح . وفي عام ١٩٠٧ ، ظهرت لاول مرة المقاومة ضد شركات الفحم في افريقيا الجنوبية ، حيث تميزت السنوات ١٩١٣ و ١٩١٤ بالحوادث العنيفة التي وقعت فيها .

والجديد في الامر هو دخول موظفي المصالح العامة الحلبة : ليس فقط عمال الفحم وبحارة الاسطول التجاري ، بل ايضاً عمال المناجم وعمال الشحن في المرافيء ، وعمال البناء .

والاضرابات في الريف ارتدت هي الاخرى ، بعض الاهمية . فقد هزت القلاقل والاضطرابات روسيا واميركا الجنوبية وعلى الاخص اقطار جنوبي اوروبا التي نزح عنها اهلها بعد ان وقعوا فريسة الازمة التي حلت بزراعة الكرمة . وقامت بالفعل فتن عديدة في الارياف الايطالية كما تكاثرت حركة الاضرابات بين فئة *Braccianti*. في كل مكان من البرتغال الى غاليسيا، اخذ القلق يساور الفلاحين ويدفعهم الى حركة انتقال واسعة تحملهم الى مجاهل اميركا . وهنالك قطر آخر مشهور بأستثماراته الكبيرة هو انكلترا حيث تقوم بروليتاريا من المياومين تُلحف بالمطالبة وتتشدد بها . ويقوم في فرنسا الكرّامون بعدة حوادث من الاضطرابات والمظاهرات الصاخبة : فقد ضاقوا ذرعاً بتصريف الكميات الضخمة من النبيذ والنبيذ المزغول ، التي انتجوها ، كما يعلل كايو قيام هذه المظاهرات في مذكراته . « فقد اشترط رئيس الحكومة اذ ذاك (كليمنصو) ان يعود كل شيء الى الهدوء ، وقد اكثر من ارسال الجيش الى المقاطعات الثائرة ، وسالت الدماء في ناربونا » . الا ان القائمين بأعمال الحصاد في حوض باريس والفحامين وجامعي صمغ الراتنج يرون انفسهم مدعوين للمظاهرات بدافع من البؤس الذي يتضورون منه .

وفكرة الاضراب العام الغاشم الذي لا يقهر ، المنتصر ، الفكرة القوة التي لا تدفع ، هذه الفكرة التي خطرت لجورج صوريل ، سارت طريقها في الاتجاه المرسوم ، بالرغم من الفشل الذي منيت به المحاولة الاولى التي قامت في ايطاليا ، عام ١٩٠٤ . فبعد ان نظر اليها الماركسيون نظرتهم الى شيء مستحيل ، إنتشرت الفكرة على الاخص ، بين انصار الحرية واللاسياسيين .

« فمع ندرته في الغرب ، كما يلاحظ تروتسكي في مذكراته : « حياتي » ، فالاضراب السياسي هو الطريقة الناجحة المثلى في روسيا » . فالاضراب يجر وراءه نحو مليون رجل الى قلب الثورة ، عام ١٩٠٥ ، واكثر من مليون في النصف الاول من عام ١٩١٤ .

ومن الامور التي لها دلالتها الخاصة هنا هو وقوع الاجماع على اختيار اول ايار واتخاذ العلم الاحمر لدى الطبقة العاملة تأييداً لمطالبها الحقة . « يوم » ورمز ذو طابع دولي . « ومما هو ادهى من ذلك ، كما يلاحظ سان سيمون بمناسبة الاحتفال بأول ايار عام ١٨٩٠، هو هذا التفاهم الدولي بهذا الشأن من فوق الحدود ، والاتفاق على نص واحد للتعبير عن المطالب المشتركة ، وطريقة واحدة مشتركة للتعبير عن المطالب الواحدة المشتركة . نحن امام تحول عظيم للنظام الاجتماعي » . سجل عيد العمل ، والحق يقال ، فترة قصيرة الامد من البطولة : فقد قامت عام ١٨٩١ ، مظاهرات شعبية حماسية وفتن في مدينة كليشي واطلاق العيارات النارية في مدينة *Fourmies* بفرنسا ، واصطدامات حامية في ايطاليا وفي فلورنسا وفي اسبانيا والمجر ، واضطرابات حامية في شيكاغو وفي البرازيل وحوادث في لودز وقعت عام ١٨٩٢ . هذه هي المناسبة التي راح فيها جان باتست كليمان يضع هذه الاناشيد الحربية :

لهذه الرأسمالية التي تتكلم بلهجة السيد الآمر
لنجعل هذه اليقظة اليوم رداً حاسماً قائلين
لكل انسان محله تحت الشمس
لكل انسان حقه من الراحة والرفاهية

ثم هبط الحماس وخمدت جذوته . وعند حلول العيد في تاريخه المعين كل سنة لم يعد اول ايار يلهب الخيال ويرعب الطبقات ويسمر الخوف في قلوب الاثرياء. فالمسيرة التقليدية تسير سيرها العادي المألوف وتتجاوب الارجاء صدى نشيد الدولية ، هذا النشيد الذي وضعه اوجين بوتييه ، عام ١٨٧١ ، وقد يرتفع فيه احياناً العلم الاحمر الذي رأى فيه ابناء الكومون « رمز السلام والمساواة » ، وقوى الامن تسهر على الامن وتكبح جماح المتظاهرين وتجبرهم على التزام الانضباط ولن يلبثوا ان يتفرقوا من حيث جاؤوا . وقد علق المجلس الشيخ في اليوم التالي لاول ايار عام ١٨٩٢ قائلا . «كان عيد اول ايار هنا (في لندن) جميلا جداً ، اذ انه اصبح شيئاً من هذه الاشياء العادية التي تمر كل يوم او بالاحرى كل سنة . فقد ذهب رواؤه الاول وولى رونقه » . ونشرت الجمهورية الصغرى ، في اول ايار ١٨٩٥ ، قائلة : « في الامس الغابر كانت تقوم ثورات اما اليوم فتنظم مسيرات . في الامس كان لابد من جيش يكبح هياج الجماهير وحماسها في الضاحية ، اما اليوم فبضعة انفار من قوى الامن تكفي لتشتيت بضعة الوف من المتظاهرين ». ما الفائدة لعمري من التظاهر في الشارع اذا كان لا بد من الانتهاء الى مثل هذه النهاية .

حاول زعماء الحركة النقابية مراراً ان يستغلوا عيد اول ايار . وبمناسبة الاحتفال به عام ١٨٩٦ ، وجه بلونييه نداء بأسم بورصات العمل ، وهو يرى ان على البروليتاريا ان تؤلف ، قبل كل شيء « جمعية عملاقة ، مدركة لمصالحها الحيوية عليمة بالوسائل والذرائع المحققة لها» . وراح مؤتمر العمال العام يحاول سنة ١٩٠٦ ، اثارة حماس المعركة لاجل تكريس العمل بثمان ساعات عمل في اليوم ، وذلك بالاستعداد وللاحتفال بعيد اول ايار بشكل مثير ؛ انه « لعيد فخم » بالحقيقة كما جاء على لسان ادوار فيّان ، ولكنه عيد لاغد له .

في هذه البلدان التي يشتد فيهـا الروح النقابية والاقبال عليها بحيث ارتفع عدد الاعضاء المسجلين فيها الى ٤ ملايين، كما هو الوضع في انكلترا ، ومليونين ونصف في المانيا ، ومليونين في الولايات المتحدة الاميركية ، عام ١٩١٤ ، يستنكف العمل السياسي تبنى برنامجاً اصلاحياً بصراحة ؟

فاتحاد العمل الاميركي الذي يرأسه غمبرز يصطدم بمقاومة عنيفة لا تلين من قبل ارباب العمل الذين يسخرون بمنظمي الاضراب والسلطة القضائية لكسر حدة الاضراب . ولذا وضع نصب عينيه تحسين وضع العمال باحترام اللعبة نفسها بتحقيق المزيد من المكاسب . الا ان حركة العمال

الصناعيين في العالم تبدو اكثر اخذاً بالاصول ، عام ١٩٠٥، وفي السنة نفسها يؤسس أبتن سنكلر الجمعية الاشتراكية الجامعية التي آلت رئاستها الى رجال لندن .

وفي المانيا راحت الحركة النقابية تنشق على نفسها نتيجة النزعات المختلفة والتيارات الفكرية التي هبت عليها : مسيحية ليبرالية لـ (هرش - دونكر) ، واشتراكية وراحت الفئة الاخيرة بزعامة ليجيان تنظم نفسها بيروقرطياً لا سيما وزعماء الحزب الاجتماعي الديموقراطي الماركسي لم يضعوا نصب أعينهم التضامن معها .

والحركة النقابية العمالية ساندت في بريطانيا العظمى كما في استراليا حزب العمال البريطاني. فقد شجعت العمل المباشر الذي اوصى باعتماده كل من فيلت وتوم مان في انكلترا ، ولاركن في إرلندا . فنظام العمل الذي إستنته لا يختلف كثيراً عما كان متبعاً في بلجيكا والبلاد الواطية وفي النمسا حيث المنظمات الدينية الطابع تنبذ جانباً كل ما يشتم منه العنف .

اما فرنسا، فالوضع فيها على عكس ذلك، اذ ان الروح النقابية توصي بعدم الثقة بالاشتراكية السياسية : ماركسية كانت ، ام اصلاحية ، وبالقيام بعمل مستقل يتفق ومنهج اتحاد العمل العام الذي عد بين اعضائه نصف مليون عضو منتسب ، عام ١٩١٤ . وتحت توجيه رؤساء امثال بلوتيه وبوجيه وغريفويلز ومرهايم الذين ينتسبون نوعاً ما الى برودون وباكونين وجان غرايف والى المذهب الفوضوي ، اكثر من انتسابهم الى ماركس، وهو اتحاد كان يرمي « للتخلص من ارباب العمل ومن اصحاب الاجور معاً . وقد ذهبت الى ابعد من ذلك ، الى التوصية بمقاطعة رب العمل المعروف بعدائه (*boy cottage*) والى اللجوء للتصنيف تمييزاً لهم ، او الى اعمال التخريب ، كما يدعو بحزم الى اتحاد البروليتاريا في كل العالم ، وادعى لنفسه بانه حزب العمال الحقيقي ». وبميثاق أميان الذي تم وضعه وتبنيه عام ١٩٠٥ ، راح اتحاد العمل العام C. G. T يؤكد رغبته في تزعم حركة « الصراع الطبقي .. بعيداً عن كل مذهب سياسي» . وقد ظهر تأثير المطالب التحررية ، بشدة في ايطاليا وفي قلب غرفة العمل والنقابات الزراعية ، كما ظهر للخارج باولى تجربة يقوم بها ، اذ اعلن اضراب وطني عام وتشكيل منظمات مناضلة ؛ منها مثلا : لجنة المقاومة ، والعمل المباشر ، والاتحاد النقابي . وراح لابريولا وليونيه يعملان على ترويج مؤلفات سوريل ويضعان جانباً المذهب الاصلاحي الذي تبناه اتحاد العمل العام الايطالي . وفي سنه ١٩٠٧، راح الفوضويون يعقدون مؤتمراً لهم في امستردام أقر اقتراحاً قدمه مالاتستا يحبذ العمل النقابي المستقل . وقد ادى ذلك الى ظهور منظمة التضامن العمال في كتالونيا التي عرفت بموقفها المعادي للدين وللحرب معاً ، ثم في عام ١٩١١ ، الى تأسيس اتحاد العمل العام الذي وقف في كل اسبانيا ، موقفاً مناهضاً لاتحاد العمال العام ، الذي تأسس سنة ١٨٨٨ ، أي في هذه السنة بالذات التي تشكل فيها الحزب العمالي الاسباني . ونلاحظ مثل هذه السيطرة عند الايديولوجيا في اميركا اللاتينية .

وكان من عمق الاختلاف والتباين بين هذه الفئات والمنظمات ما أفسد كثيراً عمل النقابية الدولية . فقد تألفت ضمن كل منظمة سكرتيرية وطنية ، منذ عام ١٨٨٩ ، وقام منها حتى عام ١٩١٤ ، ثمانية وعشرون سكرتيرية عامة ، منها ٢٤ جعلت من برلين مركزاً أساسياً لها . وبالاضافة الى هذا كله ، فقد اتخذت تدابير خاصة لاعداد اجتماعات دورية يحضرها ممثلون عن هذه النقابات المركزية . وتأسس عام ١٩١٣ ، اتحاد نقابي دولي جعل من مدينة زوريخ مركزاً له .

ومهما يكن، فسواء تعلق الامر بالكفاح ضد الرأسمالية او بموقف دنيا العمال من الامة، خلال الحرب ، لم يكن في وسع المنظمات العمالية ان تتجاهل ما للحركة الاشتراكية من عمل سياسي .

الدفع الاشتراكي وتركة ماركس

حققت الاشتراكية ، كالنقابية ، مكاسب جوهرية حتى في الولايات المتحدة الاميركية حيث لم يستطع مرشح الحزب ان ينال قسماً كبيراً من اصوات الهيئة الانتخابية . الا انه استطاع ان يؤمن لمرشحه ، في انتخابات الرئاسة ، عام ١٩١٢ نحواً من مليون صوت بينما عجز عن اعطائه ١٠٠،٠٠٠ صوت في انتخابات عام ١٩٠٠ . اما في اوروبا ، فقد قفز الحزب الاجتماعي الديموقراطي الالماني ، من ١،٥٠٠،٠٠٠ صوت الى ٤ ملايين ، بين ١٨٩٠ – ١٩١٢ ، وبلغ عدد اعضائه في هذا التاريخ بالذات المليون ، ونال الفرع الفرنسي للدولية العمالية ، عام ١٩١٤ ، نحواً من ١٠٣ مقاعد بقطع النظر عن الاشتراكيين المستقلين . وقد كان للفئات الاشتراكية ٧٩ مقعداً في المجلس النيابي الايطالي ، عام ١٩١٣ . ودخل حزب العمال في انكلترا الحلبة بحزم فنال ٢٩ عضواً في انتخابات ١٩٠٦ ، و ٤٠ عضواً عام ١٩٠٩ . ومقابل ضعف الحركة الاشتراكية في بلد كأسبانيا بالنسبة لعدد البروليتاريا فيها (عضو واحد في الكورتيس ، عام ١٩١٠) تقوم من جهة اخرى المكاسب السريعة التي حققتها المنظمات السياسية الاشتراكية الديموقراطية : كالحزب الاشتراكي الثوروي ، وحزب العمال والحزب الشعبي في روسيا ، وهي مكاسب كشفت عنها بسرعة ثورة عام ١٩٠٥ فقد نالت هذه الاحزاب مجتمعة ٤٠ ٪ من المقاعد في الدوما[1] الاولى . وكان لا بد من قانون الانتخاب الشديد الوطأة الذي اعلن عام ١٩٠٧ لتخفيض عدد ممثلي هذه الاحزاب في المجلس النيابي .

فمنذ الثورة الفرنسية ، عاد الى النبلاء – هم في مجموعهم من الطبقة البورجوازية – حق سن القوانين . فلم يقم حزب ما أصيل من الفلاحين . ولذا فظهور منظمات سياسية فيها تأخذ على نفسها الدفاع عن مصالح طبقة اجتماعية معينة وتفرض على اعضائها التقيد بالتزام سلوك معين في الانتخاب ، كان له دوي كبير في الخارج .

صحيح ان الاشتراكية بمساهمتها في الحياة النيابية لم تتخلَّ قط عن الاساليب التي سارت عليها،

(١) الدوما هو مجلس النواب في روسيا قديماً .

ولم تنبذ ما عُرفت به من اعراف وعادات . فقد استمرت بعملها في البلدان الانكلوسكسونية «دون ان يكون لها فلسفة خاصة بها. فنحن امام حركة عمالية مشبعة بالروح النقابية الاصلاحية، لها اهدافها المعينة ومؤثراتها الاخلاقية الخاصة . « لا يمكن لنا ان نرتبط بهذه النظريات الاشتراكية المعمول بها في اوروبا» يصرح العضو العمالي الاسترالي وطسن . نحن نؤمن بالمبادىء الاساسية التي تنادي بها الاشتراكية . كل شيء يجري على مهل » . عظيم هو النفوذ الذي تلعبه الطوائف والجمعية الفابيانية لدى البريطانيين على حزب العمال . فعامل المعادن بورت، لا ينقطع عن الوعظ في الكنيسة المتودستية اثر انتخابه عضواً في مجلس العموم . ويحدثنا زميله كير — هاردي عن تجلي الحقيقة الكبرى التي اعلنها السيد المسيح باذلاً حياته في سبيلها ، وهي ان لا سبيل لخلاص النفس الفردية انّ لم تخلص النفس الجماعية » . فمن رسكن الى وليم موريس الى وب الى رمسي مكدونالد ، فنقد المجتمع الرأسمالي لا ينتهي قط بالدعوة للثورة والانتقاض على المستثمر . فهذا يضع نصب عينيه، في الدرجة الاولى ، مصلحة الامة الكبرى . « غايتنا الاولى محو الرأسمالية وليس ازالة طبقة اصحاب الاجور ، كما يؤكد الاخوة وب الذين يفكرون بجعل كل الناس موظفين يتناولون اجورهم من الدولة » . ان تأميم وسائل الانتاج والخدمات العامة يجب ان يفسح المجال لنظام اجتماعي عادل . ومهما يكن فوضع البروليتاريا لا يزول من العالم تدريجيا الا تحت تأثير تشريع سلمي ملائم. فكما ان حزب العمال البلجيكي الاصلاحي الصميم يكسب انصاره على حساب حزب الاحرار وينحاز مع ذلك اليه ضد الاكثرية الكاثوليكية ، يقدم حزب العمال اصواته الى حزب الاحرار برئاسة لويد جورج الذي اعاد اللوردات الى الصواب . اما في فرنسا ، فالاكثرية بين البرلمانيين الاشتراكيين في المجلس إضطرت، لاغراض انتخابية ، الى مساندة « كتلة اليسار » المعروفة بمناهضتها للروح الوطنية المشهورة بروحها الرجعية والدينية، وذلك نزولاً منها عند «نظرية اتحاد الاحزاب الاصلاحية» التي في مقدورها وحدها ، كما يؤكد هربو ، عام ١٩٠٨ ، ان تعد السبيل امام طلوع « السلام الاجتماعي » عن طريق التطوير المطرد للديموقراطية .

والامر الذي استأثر باهتمام الولايات المتحدة الاميركية ، وبريطانيا العظمى هو غزو الماركسية لاوروبا الغربية ، الوقت الذي راحت فيه الفوضوية تتحصن وراء النقابية في الغرب. أو في قلب الحزب الاشتراكي الثوري في روسيا . فقد عاش انجلس حتى عام ١٨٩٥ . « تجلى امامنا هذا الرجل كأنه نصف اله ، كما يلاحظ فندرفلد ، هذا الرجل العظيم الذي عرف ماركس وعمل معه » . فقد كان من نشاطه ان حال دون الانتفاع ، كما يجب ، بهذه النصوص الاساسية التي وضعها المعلم ، بدلاً من هذه المقتطفات النادرة التي قدمها لنا . فالطبعة الاولى لكتابه « الرأسمال » صدر منها ١٠،٠٠٠ نسخة ، لم تكن نفذت كلها بعد صدور الكتاب بـ ٢٥ سنة . فتعاليم المعلم حملت في طياتها شيئاً غريباً ، نوعاً من ايمان جديد أخذ بالانتشار . وكما ان طلوع العصر الجديد من شأنه ان يرسم امام الناظر علامات استفهام كبيرة ، راح تلاميذه

يتساءلون قائلين : « ان ماركس كالتوراة، كان يقول ولهلم لبكنخت ، فالكل يفسره على هواه ويؤوله تأويلا مضاداً للآخر » .

وقد سبق لأنجلس ان استشعر بالخطر ، قبل وفاته اذ يقول : « نظرتنا ليست بعقيدة ، بل هي تعبير عن سير تطور ، وهذا التطور يفترض حدوث ادوار وعهود متتابعة » . وبدون ان ينكر اهمية المكاسب الديموقراطية التي تحققت فقد حذر من ان تغوص الاشتراكية في رمال الليبرالية البورجوازية . وفيما كان يؤكد ان « عصر الانقلابات المفاجئة والثورات تقوم بها اقلية واعية قد مضى وانقضى » فقد جعل من دكتاتورية البروليتاريا التي لا بد من طلوعها شراً ترثه البروليتاريا المنتصرة في صراعها من اجل تخفيف فوز الطبقات » .

ما لم نستنتج مع باريتو ان « تنبؤات ماركس وانجلس ليست بحقائق قط » ، ومع ليروى – بوليو ان الاشتراكية ليست الا خيمياء علم الاجتماع » هنالك امكانية الخروج ببرنامج عملي من هذه التعاليم المقصورة على فئة خاصة . الا انه يجب قبل كل شيء الوصول الى تفاهم حول المعنى الصحيح للحكم بالموت الذي صدر في اعقاب محاكمة الرأسمالية . فاذا كانت الفاجعة وشيكة الوقوع • تحتم علينا ان نكون على استعداد لمواجهة هذا الحادث الرهيب . اما اذا ما تأخرت ساعتها وجب علينا ان نعرف ما هو سبيل البورجوازية لتأخير سير عقرب الساعة . فاما ان تلعب الاوتوماتية الاقتصادية دورها او انه يُبالغ جداً في تحديد دورها (هنالك رائحة مذهب اللاحتمية في الجو) . ومهما يكن يجب فحص النصوص بدقة وتوضيحها على نور الايضاحات التي تقدمها الحوادث وفاقاً للمنهج ذاته .

ففي الوقت الذي تكشف فيه الفوضى بلسان كتاب امثال غرايف وركلو وكرمبوتكين بأنها تربط الصراع ضد استثمار رأس المال بالصراع ضد اي اضطهاد او استغلال ، فهي تشدد دوماً على الحرية الفردية ، وتختار دونما تردد ، جانب التعاون العفوي المتبادل، مع العلم انهم كثر عدد هؤلاء الاشتراكيون الذين مع انتسابهم الى الماركسية يخضعونها للنظر والنقد ، تحدث جورج سوريل، عام ١٨٩٨ ، عن ازمة الاشتراكية . وبعد ان انصرف لتحديد علم الاخلاق جملها وفقاً لوجهة نظر برغسون ، في خدمة الاخلاقية الديناميكية وبصفق استحساناً لموقف جوريس الذي اندفع، بالرغم من نصيحة غيسد له ، وراء معركة درايفوس . وبعد انتهاء « القضية » وامام عملية « التنظيف » يشتد انزلاق سوريل في الوقت الذي يعمل الفشل الذي مني به ، على ابعاد بيغي عن الاشتراكية .

غير ان الهجوم الداوي وقع عام ١٨٩٩ وفي المانيا بالذات ، قام به الحزب الاشتراكي الديموقراطي الذي بالرغم من استفحال شأنه الظاهر اخذ يصطبغ بطابع البيروقراطية . وينتقد برنشتاين في كتابيه : « الاشتراكية النظرية ، والاشتراكية الديموقراطية » ، العمالية الديالكتيكية والمادية التاريخية ، ونظريات التمركز ونظرية تقييم العمل ، والازمات والكنتية

المستحدثة ، ويطالب بإيلاء الثقة للنزعة الحرة نحو الخير . وبعد ان رفض الاخذ بنظرية الكارثة الخيرة التي تقول بها الماركسية البلانكية التي كانت تصلح لعام ١٨٤٨ راح يدلي ببراهينه على جدوى التكتيك الانتهازي . وقد تنطح كونسكي للرد عليه وروزا الكسمبورج محتجين على هذه الاقوال بالارقام ، موضحين مغالط التفسيرات المعطاة (من ذلك مثلا ان برنشتاين خلط بين اكتناز الثروات وبين حشد وسائل الانتاج في ايد قليلة) ، مع انه اعترف ، من جهة أخرى بفائدة المعركة البرلمانية ، وهو يتوقع « صراعاً طويلا مريراً » (الاصطلاح للكسمبورج) . وبعد هذا اوصى كرنسكي ، في الاقتراح الذي عرضه على مؤتمر المعقود في باريس ، عام ١٩٠٣ ، « بتنظيم البروليتاريا على غرار جيش مستعد للحرب الاجتماعية » ، وينبذ بعيداً ، وفقاً لرغبة غيسد ، فكرة كل تحالف اشتراكي مع الاحزاب البورجوازية الاخرى . الا ان الوحدة لم تتم بدون جهد طويل .

وقد تصادم غيسد وجوريس في فرنسا ، بعد أن اتجه جوريس في تفكيره نحو المصالحة التأليفية : « نحن إصلاحيون وواقعيون في الصميم وفقاً لطريقتنا بقدر ما نحن ثورويون في اهدافنا » . ومن جهة « الحياة الاقتصادية هي التي كانت في صميم مدار تاريخ الانسانية ، غير ان الانسان ، هذه القوة العاقلة يتطلع بأنظاره الى ملء الحياة الفكرية ويشرئب من كل جوارحه الى مشاركة العقل القلق ، المتطلع دوماً الى الوحدة والى هذا الكون الغريب... فالشجاعة هي في طلب المثل وتفهم الواقع .. اذ ان قيادة البشر وتوجيههم يقتضي له نور الفكر ... » ، اخلاقية الرجاء والشجاعة بقدر ما هي اخلاقية العدالة اولا واخيراً .

فاتباع الديموقراطية الاجتماعية لدى الروس ، بين منشفيك وبلشفيك ينقسمون على انفسهم عام ١٩٠٣ حول السلوك الذي يتوجب عليهم اتخاذه . فالاول من هذين الحزبين يحبذ قيام حزب يضم الجماهير ، بينما يحبذ الثاني حزباً نظاميا قوامه المركزية . فالأول يقول بالتحالف مع الاصلاحيين البورجوازيين ، بينما يعتقد الحزب الآخر بفائدة التعويل على طبقة الفلاحين .

ومن جهة اخرى فقد خسر الثورويون والاصلاحيون المعركة في قلب الحزب الديموقراطي الاجتماعي الألماني ، وذلك عندما دعا مؤتمر الدولية المنعقد في امستردام عام ١٩٠٤ ، بصراحة المنظمات الاشتراكية الفرنسية الى الاتحاد وبعد ان امتثل جوريس للدعوة طلعت علينا المنظمة . G. F. I. O.

وفي هذه الغضون ، وقع حادث خطير احدث هزة عنيفة في قلب الحركة الاشتراكية كلها الا وهو نشوب الثورة في روسيا .

الثورة الروسية عام ١٩٠٥ واثرها في الحركة الاشتراكية

عام ١٨٧١ ، قامت الكومون في باريس ، وعام ١٩٠٥ وقعت ضد النظام القيصري ، ثورة الفلاحين والبحارة الروس ، فقد سقط في يد الدولية الاولى وعجزت عن انقاذ الكومون ، بينما شاهدت الدولية الثانية ، وهي عاجزة ، المعركة الثوروية تضطرم وتتأجج من بطرسبورغ الى مدينة اوديسا على البحر الاسود .

بعد ان جُر الشعب الروسي ، إثر ازمة اقتصادية حادة قسراً منه وعصباً عنه ، الى حرب ثانية ضد اليابان ، قام هذا الشعب واعلن الثورة التي جاءت ضربة قاصمة على النظام القيصري لم ينهض منها . وقد دار في خلد نيقولا الثاني انه « للحؤول دون قيام الثورة لا بد من ضربة قصيرة رابحة » . الا أن الحرب استمرت اطول مما اراده وزادت من اوصاب الشعب وآلامه . وجاءت الهزيمة فيها وصمة عار في جبين الشعب الروسي ، كما جاءت تحقيراً له وانتقاصاً من كرامته ومنزلته . فثورة الكومون في باريس جاءت نتيجة الحماس الوطني ، وقامت في وجه حكام بورجوازيين انتقدت عاليا قصورهم الفاضح وخيانتهم. اما في روسيا فلن يكن من ينكر او يتغاضى عن مساوىء الحكم القيصري المستبد . ومع ذلك فقد راحت البروليتاريا تجر اذيال الخيبة والفشل .

تطور الاقتصاد الرأسمالي في امبراطورية القياصرة على غرار التطور الذي عرفته فرنسا خلال الامبراطورية الثانية . فبينما يستمتع الاعيان والنبلاء في غربي البلاد بتقاليدهم المتحررة ويحكمون بمساعدة طبقة من اصحاب الاملاك الفلاحين ، كان القسم الشرقي منها لا يزال بعد بحاجة ماسة لمثل ثورة ٩٨ الفرنسية ومن جهة أخرى ، فالبورجوازية الروسية لا تتوفر لها بعد قوة العدد ولا الاستقلال الاداري (يكفي ان نشير هنا الى الدور الحاسم الذي لعبته الدولة ورأس المال الاجنبي في التنمية الاقتصادية) في الوقت الذي لقي فيه حشد المشروعات الانشائية بعض التضامن وتأييد الطبقة العمالية . ولكن ما هو الدور الذي لعبه سكان الريف ، يا ترى؟ ثم لو افترضنا عجز البورجوازية وفشلها واستيلاء بروليتاريا فقيرة معدمة على مقاليد السلطة والسيطرة على دولة طابعها نصف طابع الأجيال الوسطى،فهل في الأمر ما يُرغب فيه او يُرضى عنه من الوجهة الاشتراكية ؟

فقد دهش ماركس لأول وهلة من النجاح الباهر الذي حققته نظرياته وتعاليمه في روسيا . فقد هزئوا طويلا من هذا الشعب الذي « بقفزة مميتة مفاجئة وجد نفسه ضمن مملكة فوضوية - شيوعية - ملحدة . فالانكسارات التي توالت عليه لم تفاجيء لنين : كل حرب تشنها دولة متأخرة تلعب دوماً ، كما حدث ذلك مراراً عبر التاريخ ، دوراً كبيراً في تعجيل الثورة وتفجيرها ، يمثل هذه الافكار والتأملات واجه سقوط بورت ارثور بيد اليابانيين. الا ان موقف الاشتراكية بدا هنا في غاية الدقة : « لا نستطيع الخروج فجأة عن الحدود البورجوازية للثورة الروسية » كما لاحظ رئيس الحزب البلشفيكي ، في الوقت الذي كان يستعد فيه للرجوع الى روسيا .

فقد جاءت الحوادث تثبت بصورة لا تدع مجالا للشك ، حدة الازمة وعجز الثوار : ماركسيين كانوا او شعبيين ، عن اسقاط النظام القديم . فقد وقعت ثورة قام بها الفلاحون وحدثت فتنة على يد البروليتاريا من سكان المدن ، واسعة ، وحركات عصيان وتمرد في الجيش والاسطول . من الحوادث البارزة ، اذ ذاك ، الأحد الأحمر الدامي الواقع فيه

٢٢ كانون الثاني ١٩٠٥ ، في بطرسبورغ ، وتمرد الطراد الذي يحمل اسم الامير بوتمكين ، وبيان ٣٠ تشرين الاول الذي اذاعه الامبرطور نيقولا الثاني يعد فيه البلاد بتشكيل حكومة دستورية ، ومعركة الشوارع في موسكو في كانون الاول . وقد خيل لبعض الماركسيين لمـــدة قصيرة ان سلطة شعبية ستطلع وتتولى الحكم من بين هذه الجماهير التي انتظمت صفوفها فجأة في السوفييت. فالشاب برونشتاين ، بقول تروتسكي ، شارك مشاركة فعالة في تشكيل مجلس السوفييت في بطرسبورج . اما لينين فقد رأى ان المحاولة مكتوب لها الفشل التام لافتقارها للتنظيم . الا انها افادت كثيراً في ضرورة وضع خطة منظمة لكل ثورة او فتنة .

وقامت القيصرية بتجربة الدوما (المجلس النيابي) لاول مرة ، هذا النظام الهجين الذي فشل في اعادة الحكم الاستبدادي الى البلاد كما عجز عن اقامة وترسيخ بورجوازية ليبرالية ، كما عجز عن تأمين نجاح عملية الاصلاح الزراعي التي حاول ستولبين القيام بها والتي رمت الى تشجيع الملكية الفردية في البلاد ، وما أدت الى تأمين الازدهار للانتاج الزراعي والصناعي الذي كان من شأنه ان حداً للاضطرابات الاجتماعية.

احدثت هذه الهزة ردة بعيدة المدى في الغرب. فاذا ما راح جوريس يتنبأ « بان تحرير الشعب الروسي سيلاقي تعبيره الكامل في قيام نظام عمـل في البلاد تبرز معه البرولتاريا الروسية ، الى الطليعة بين صفوف البروليتاريا في اوروبا » ، فقد راح اناتول فرانس يصرح من ناحيته قائـلا : « مهما كانت نتائج هذه المحاولة الضخمة المريعة ، فقد لعب اتباع البروليتاريا ، منذ الان دوراً حاسماً في مصائر بلدانهم ومصير العالم. فالثورة الروسية هي ثورة عالمية ». وقد رد ارثر ماير على هذا القول في جريدة الغولوا قائلا : « كل ثورة كبرى قامت في العالم زرعت حولها جرائم ضارة مؤذية ، الا ان الثورة الروسية لها جانبها الاحمر المرعب » ، ثم زاد قـائلا : « انا ضـــد ثورة معاكسة شاملة تستطيع وحـــدها تجنيبنا اسوأ الكوارث » . اما غليوم الثاني فقد اعرب للامبراطور نيقولا الثاني عن رأيه قائلا : « ها هي روسيا تطوي صفحة جديدة من سفر تاريخها .. فالوسائل التي يجدر لها التذرع بها ، والذرائع التي يحمل اعتمادها ، والاشخاص الذين يدعون لتنفيذ هذه المهمة ، كل هذا سيترك اثره المباشر على الدول الاخرى الواقعة على حدودها » . ليس من ينكر قط ان الضربة التي نزلت بالنظام الاستبدادي القيصري كان لها صـــداها البعيد في آسيا حيث نفوذ الغرب كان اخذ يتغلغل اليها كما تغلغلت الرأسمالية الاستعمارية الى روسيا .

وقد جاء الحادث يكرس نهائيا انقسام الماركسيين الروس . وعلى ضوء هذا الحادث ، فقد رفض لنين ان لا يرى في مجلس السوفييت سوى « جهاز اداري ليس الا على شكل مـــا تمناه المنشفيك . فقد اولاهم دور « اجهزة للفتنة » على طريقة تروتسكي الذي بقي مصراً على رأيه وتفكيره في ان « السوفييت يؤلف جامعة عمال الروس التي يمكن لها ان تستلم ، في المستقبل ، ادارة الجماهير الثائرة وتوجيهها » . فقد سبق لانجلس وكتب قائلا : « ان اسوأ ما يمكن ان

بصيب زعيم متطرف هو ان يرى نفسه مجبرا لاستلام الحكم عندما لا تكون حركة تاريخية معينة اتت أكلها بعد ، بحيث يؤمن السيطرة للطبقة التي يمثلها » .وقد حلا لبلاخانوف وبارتوف ودان ان يرددوا هذا التصريح مراراً . ولكن بخلاف هـؤلاء المنشفيك الذين لم يرضوا بمساهمة البروليتاريا في اقامة ديموقراطية بورجوازية ، وبعد ان اعادوا الى الاذهان الفشل الذي اصاب البابوفية الزراعية وبعد ان اتهموا بالتحول الى البلانكية ،توقع لينين، وهو اقوى يقينا واكثر ايماناً،قيام « دكتاتورية العمال والفلاحين الديموقراطية » في اعقاب ثورة بورجوازية يترتب على الديموقراطية البورجوازية دعمها قبل كل شيء . وفي مؤتمر براغ ، سنة ١٩١٢ ، حدد للبلشفيك اكثر من اي وقت مضى مهمة تحقيق اطار ضيق وادارة صارمة تشرف على القوى البروليتارية ، اذ ان القضية لا تطرح على بساط البحث في اي مكان من اوروبا كما تطرح عندنا في روسيا » . وهذا الاضطراب الاجتماعي الشديد المتجدد النشاط نمّى فيه اليقين الوطيد بان ازمة فاصلة هي وشيكة الوقوع في الامبراطورية القيصرية ، فوجه من كراكوفيا ، عام ١٩١٣ – ١٩١٤ تعليماته الدقيقة بحيث تلاقي هذه الازمة لدى وقوعها ، حزباً ماركسياً مستعداً للعمل يستطيع ان يجر القوى الشعبية ويقودها بفضل ما له من قوة وما تم له من دهاء التنظيم .

وعلى عكس ذلك ،كانت الحركة الاشتراكية في اوروبا الغربية والوسطى تدفع عنها بمشقة ، هجمات الايديولوجيا الوطنية ومغريات الحركة الليبرالية . وليس في سبيل الشيطان راح لينين يستعرض في كتابه « المادية والنقد التجريبي » المحتوى البورجوازي لمذهب اللاحتمية العلمي والفلسفي . وجَهِد جوريس في فرنسا ، بما اوتي من فصاحة وبلاغة ، على تحديد المثل الاعلى للاشتراكية التي تلهج دوماً بالاخوة والعدالة . وراح جورج سوريل من ناحيته يهاجم بعنف الديموقراطية البورجوازية ويدفع بعيداً العلمية وينادي بتفسخ الماركسية وانحلالها ، ولم يعد يتوقع التحرر الا من « الشعور بما هو سام » و « بالاسطورة » ، وهكذا يرى نفسه الى جانب المتمسكين بالتقليد . وراح احد تلاميذه ، هو ادوارد برث يتحدث عن الغسق الديموقراطي ، ولم يتوان قط عن قرع جرس الحزن معلنا انتهاء حكم « الادباء » امثال بيغي وانتهى الى الوقوف بجانبه ، عام ١٩١٤ . اما الاشتراكيون « المستقلون » فلن يتقاعسوا عن التعاون مع الجمهوريين الراديكاليين والمعتدلين . «فالبورجوازية تصفح بيسر للذين تهددوها عندما يتضح لها ان في مكنتهم الدفاع عنها وحمايتها » ، كما ألمع الى ذلك بوانكاريه في مذكراته . من الغريب جداً ، كما يلاحظ بول كمبون من ناحيته،ان رجاءنا الوحيد منوط في الاعتماد على آباء الاشتراكية امثال بريان او ملاران . فهم يدينون بوصولهم الى سدة الحكم لما اوتوا من فهم حاد وذكاء متوقد ... فلم يحبسوا انفسهم ضمن مدرسة خاصة ضيقة ، ولم تجش نفوسهم بروح حزبية ،فهم قابلون للتطور» .

وفي قلب الديموقراطية الاجتماعية الالمانية ، كتب النصر في نهاية الشوط « للتبديلية » المحكوم عليها حسب الظواهر . فبعد ان رفض بيبل وشيدمان القول : « بأن سنة واحدة من الثورة امنت للبروليتاريا الروسية التربية او الخبرة التي عجزت ثلاثون سنة من الصراع التمثيلي

تأمينه ولو بشكل مصطنع ، للبروليتاريا الالمانية ، ، وحملتها على رفض الاضراب العام ذات الهدف السياسي الذي اقترح اللجوء اليه روزا لكسمبورج .

غير انه لا يمكن للاشتراكية ان تبقى خالية البال امام تطور الاقتصاد الرأسمالي . فهلفرنغ، في كتابه : الرأس المال النقدي ، وروزا لكسمبورغ في كتابه الموسوم : حشد رأس المال ، يشددان على الضرورة المترتبة على رأس المال الاحتكاري بالسيطرة على مجالات غير رأسمالية، ليحافظ بذلك على وجوده وفقاً لمبادئه . فهذه المؤلفات الموضوعة اصلا باللغة الالمانية، انزلت القلق والاضطراب في قلب الديموقراطية الاجتماعية التي راحت فريسة تفكيرها بالمنافع والمكاسب التي من شأن الامبريالية ان تؤمنها للدول الصناعية . فهل تساعد هذه الامبريالية في نهاية المطاف ، على طلوع الاشتراكية ، وذلك برفع مستوى العيش في هذه الدول التي بلغت في تطورها الصاعد الى المستوى الاعلى، او انها تعجل في انقضاض الحرب وتقرب ساعة اعلانها لسقوط النظام البورجوازي ؟

الفصل الخامس

من السلم المسلح الى الحرب الاوروبية

عدم جدوى مقاومة العالم العمالي للامبريالية وللحرب

عللت الاشتراكية « الخيالية » نفسها بحلول سلام شامل في العالم ورؤية جميع شعوب اوروبا في جسم سياسي واحد مع احتفاظ كل منها باستقلاله الوطني كما عبر عن هذا الحلم المعسول سان سيمون واوغستين تياري ، منذ عام ١٨١٤ ، او بمجـيء جمهورية الله كما تمنى ذلك قسطنطين بكور عام ١٨٤٤ .

ومنذ عام ١٨٤٨ ، راح الديموقراطيون الانسانيون امثال هوغو يرددون كلمة السر : الولايات المتحدة الاوروبية ، وعقدوا في هذا السبيل عدة مؤتمرات للسلام . فقد تمنى بلانكي المعروف بروحه الوطنية إلغاء الجيوش المحترفة واستبدالها بمليشيا شعبية ؛ وبرودون نفسه وضع كل آماله في النظام الفدرالي . أما موقف ماركس فقد كان مغايراً لهذا كله : فالحرب ، هذه الفكرة الملازمة للنظام الرأسمالي ، سترتفع من هذا العالم بارتفاع هذا النظام والغائه الا انها قد تولد مجتمعاً جديداً . واذ خشي ماركس ، خلال الدولية الاولى من ان تغدو البروليتاريا ، في الغرب وفي ألمانيا هدفاً لعدوان مسلح من قبل الحكم القيصري المستبد ، فقد نبذ جانباً فكرة نزع السلاح . الا انه عدل من موقفه بعد الفشل الذي منيت به الكومون . ولم يعد انجلس يتوقع ، بعد ذلك بطويل ، خيراً من اي حرب تقع في اوروبا « لدينا وسائل اسلم للسير قدماً » ، كما راح يؤكد عام ١٨٩٣ ، فوسيلتنا الكبرى وحيلتنا المثلى هي العمل الحازم الذي تمثله البروليتاريا ، في بروزها الذي لا يُرد .

وجاءت امثولة عام ١٩٠٥ . فالحرب في منشوريا كالحرب في جزيرة القرم انزلت الوهن في النظام القيصري . وفي مؤتمر امستردام ، عام ١٩٠٤ ، راح بلاخانوف يعانق المندوبين اليابانيين قائلا : « لو قيض للقيصر وربح الحرب على اليابان ، لبات الشعب الروسي هو الخاسر الاكبر

والمغلوب على امره » . وقد وجد هذا القول صداه في كلمة القاها ستولبين : « الحروب وحدها تضمن فوز الثورة ، فبدون حرب تبقى الثورة عاجزة » . فالدرس يدعو الثورويين امثال لينين للتفكير جدياً في الامر .

وقد رفضت الاشتراكية في الغرب التسليم بالقول ان الحرب هي سبيل الخلاص . فقد « دلل جوريس على بطلان هذه النظرية ، الثوروية » . « لا نريد ان نعرض ايماننا الوطيـــد بتحرر البروليتاريا المتصاعد للقدر الغاشم الطالع من حبات النرد الدامية » .

ولكن أليست الامبريالية ، من هذه الذرائع المثلى الكفيلة بتخفيف ضغط الطبقة العاملة على ارباب العمل ؟ فقد ذكر جيوليتي في «مذكراته» ،عام ١٨٩٣،« ان الرأي العام في ايطاليا ذُهل لهذه الفضائح المصرفية وان الطبقات الحــاكمة كانت جد وَجلة من جراء هـــذه الاضطرابات الاشتراكية الطالعة ، وسنحت فرصة استعمارية مثلى لصرف الانظار وتحويلها عـن الوضـــع المتأزم » . ولذا راح سيسل رودس يكتب عام ١٨٩٥ بفظاظة قائلاً : « أليست الامبراطورية هي قضية بطن ، كما كنت دائماً اردد ؟ فاذا ما رغبتم في تجنب الحرب الاهلية ، عليكم ان تنصرفوا للاستعمار » . وهكـــذا ندرك تماماً كيف ان برنشتين ، رغبة منه في التوفيق بـــين الامبريالية والماركسية ، يبرر نزعات الرايخ الى المستعمرات . ثم ألم يلاحظ انجلس ، منذ عام ١٨٥٥ ، ان العمال الانكليز كانوا جد مرتاحين لعملية توسع وانبساط عادت عليهـــم بتحسين مستوى العيش عندهم ؟

يبقى بعد هذا ان بقدر ما تعمل الامبريالية على ديمومة النظام الرأسمالي وتأمين استمراره ، بقدر ذلك تعرض الاشتراكية على اصلائها حرباً عواناً لا هوادة فيها. اما السباق الى التسلح، فلا مبرر له على الاطلاق عندها ، اذ ان النفقات الباهظة التي يتطلبها التسلح يقع عبؤها على الجماهير.

ففي فرنسا وايطاليا واسبانيا حيث النقابات تتحسس عميقاً كلمة السر وتأتم بهـا ، حرص الفوضويون من ناحيتهم على بث فكرتهم بوجوب القضاء على الجيش باعتباره اداة الفتح وعـدة الحرب ، كما يجب ، في نظرهم كذلك القضاء على الكنيسة والدولة وارباب العمل . فالدسائس يحبكون خيوطها تتخذ ذريعة لسن القوانين « المجرمة » من قبل المجالس الفرنسية . فبعد قضية دريفوس راح جانب كبير من الرأي العام في فرنسا يتقزز من موقف اركان الحرب في البلاد واقلقته القلاقل الوطنية ، يتجه نحو مجافاة الروح العسكرية ومناهضتها ونحو الدعوة للسلام . واخذ فاكيه يعبر عن تذمره ، عام ١٩٠٤ ، قائلا : « يقتضي المعلم شجاعة كبيرة ليعبر عـــن ولائه لفرنسا » .

والاضراب العام الذي اقترح باكونين الدعوة اليه ، احتجاجاً على الحرب ، عام ١٨٦٨ ، امام الدوليـة الاولى ، بقي من هـــذه المستحبات والاماني الاثيرة لدى النقابيـــة الثوروية . « فالديماغوجيا الهرفستية » التي يعجها بيغي تتبنى هذا الاقتراح وتعرضه على الحزب الاشتراكي

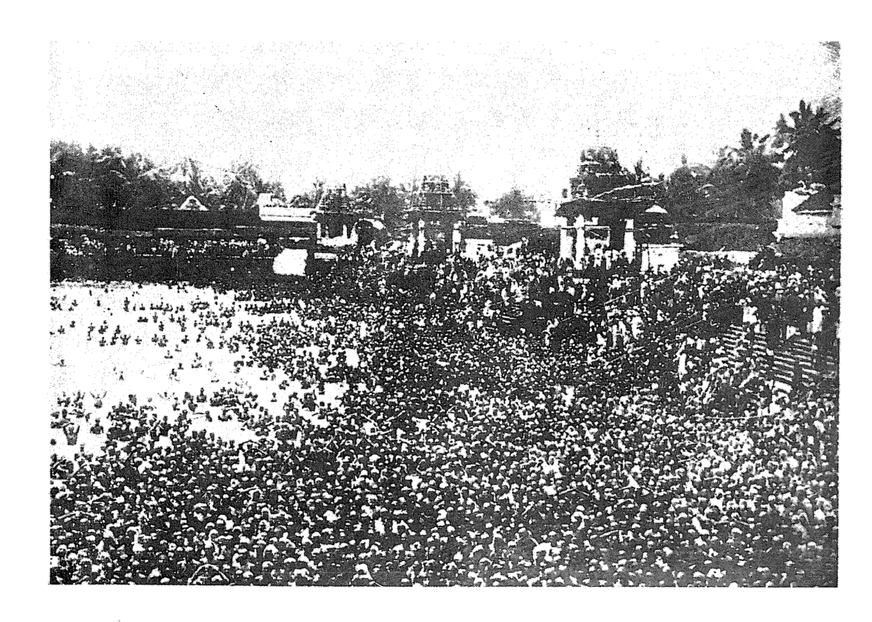


٣٣ – اول استعراض للعمال الاميركيين بمناسبة عيد العمل في نيويورك (١٨٨٠).



٣٤ — سوق لبيع العبيد في مدينة الجزائر .

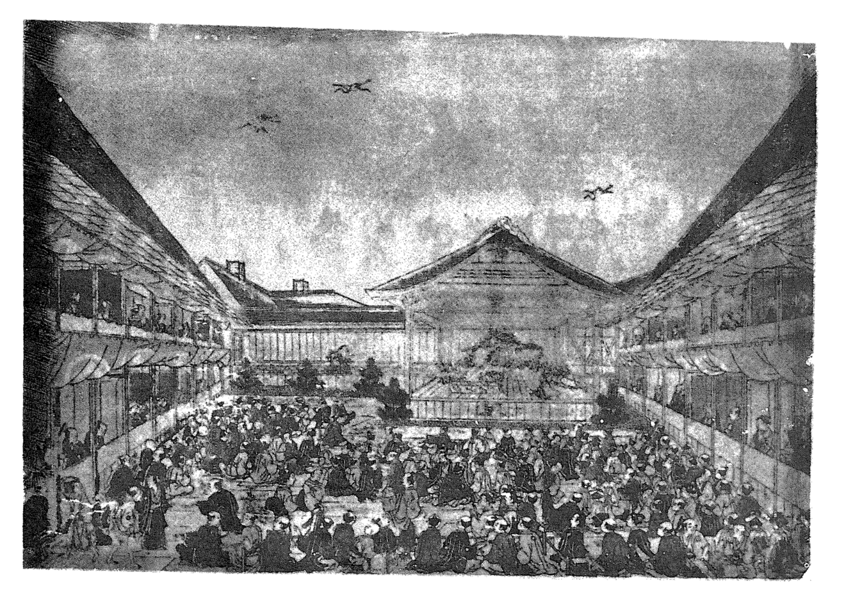
٣٥ – دخول النقيب (بنجر) الى (كونغ) (افريقيا الغربية الفرنسية) .



٣٦ — حمامات الغانج المقدسة .



٣٧ — دخول الجيوش الفرنسية الى قلعة (هونغ ـ هوا) ، في ١٣ نيسان ١٨٨٤ .



٣٨ – مسرح في اليابان ، في اوائل القرن التاسع عشر .



٣٩ — مصائب الحرب : النزوح عن (سان ـ كلود) (تشرين الاول ١٨٧٠) .

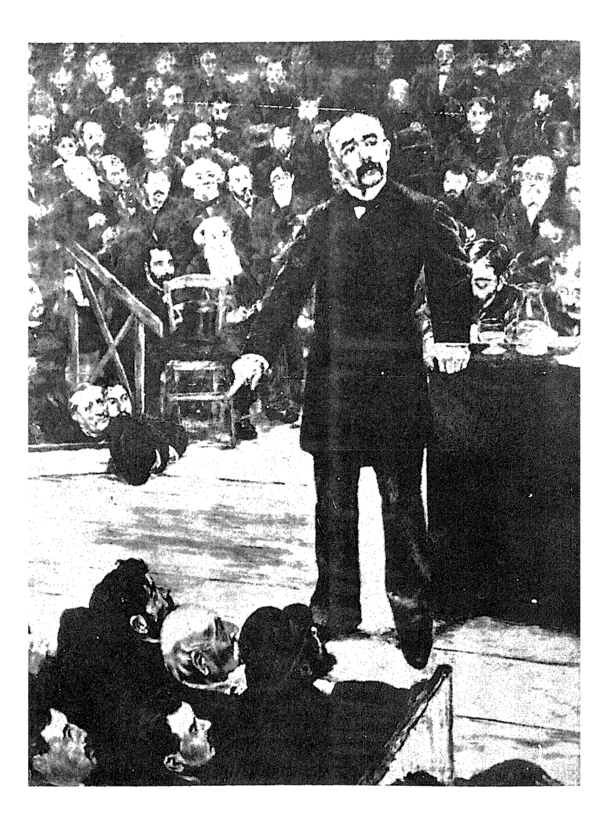


٤٠ — الاقتراع العام : قلم اقتراع في انتخابات ٧ كانون الثاني ١٨٧٢ .



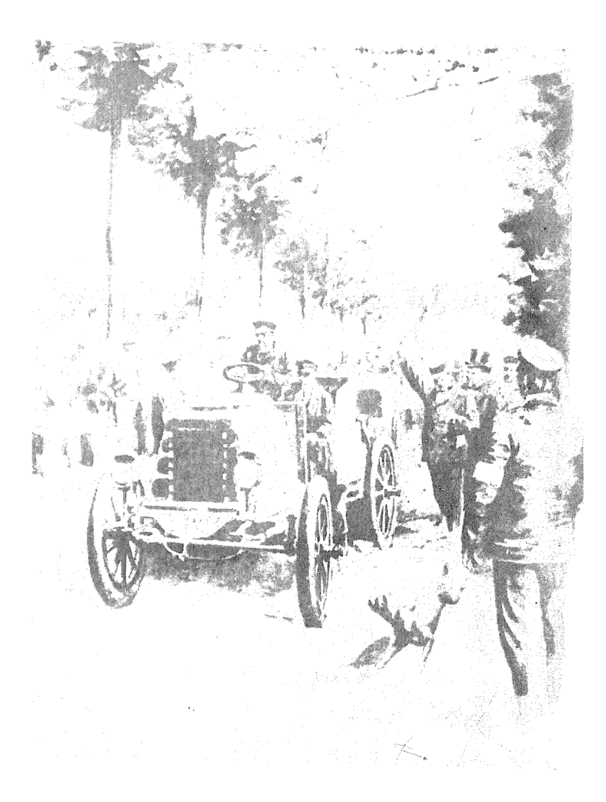
٤١ – الافسنتين .

٤٢ — اخراج الفرش من بيت الرهن .

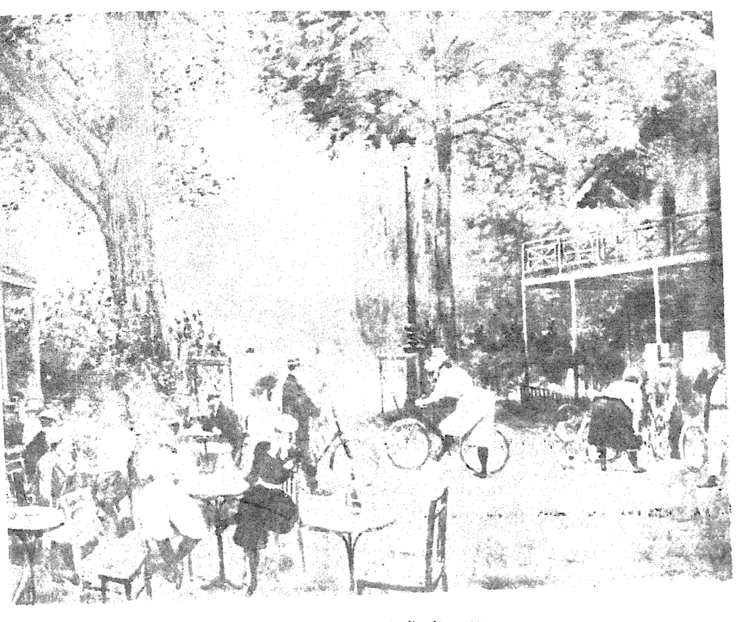


٤٣ — كليمنصو يلقي كلمة في اجتماع عام في ميدان (فرنندو) (١٨٨٥) .

٤٤ – عظمة البورجوازي وانحطاطه .



٤٥ – انطلاقة السيارات المتسابقة (باريس – برلين ، ٢٧ حزيران ١٩٠١) .



٤٦ — متنزه الدراجة فى غابة بولونيا .





٤٨ — النزهة الباريسية

الموحد . « نحن لسنا بوطنيين ، يصرح هرفيه ، ولا يمكن لنا قط ان نكون وطنيين ، طالما نحن اشتراكيون ». وجوهو ، السكرتير العام لاتحاد العمل العام ، يصرح في ٢٩ تموز ١٩١٤ قائلا : « الاضراب العام ... واجب يترتب على جميع العمال دونما تمييز ». وعند وقوع حوادث المغرب ، عام ١٩٠٩ اعلن عمال المرافىء في برشلونة الاضراب وحالوا بذلك دون ركوب وحدات الجيش البحر . وعلى أثر ذلك ، اطلقت النار على المجاهد الحر فرنسيسكو فرابر ، احد رواد المدرسة الحديثة .

غير ان الماركسيين لم يمتثلوا . فالروح العسكرية ، في نظر غيسد ، ليست سوى نتيجة الرأسمالية : فليس من مبرر ، والحالة هذه لمحاربتها ومناهضتها منفردة . واحسن من ذلك « هو ان الدول تمثل شيئا كبيراً في تطوير البشرية وتطورها . فهي تؤلف مرحلة من هذه المراحل التي يترتب على الاسرة البشرية ان تقطعها ، والدور الذي تلعبه هذه الدول الآن لن ينتهي امره غداً . وقد زاد جوريس على ذلك واخذ يوصي بتأليف « جيش جديد » يكون بشحمه ولحمه ديموقراطياً ، شعبياً ، « قادراً على الدفاع عن الوطن ويكون اعجز من ان يلحق أي أذى أو ان يقوم بأي عدوان ضد الجمهورية » . فهو لا ينبذ من حب الوطن الا ما يغله من بغض وحقد . ولم يتردد بيبل قط عن الافصاح عن عزمه وعن استعداده لتناول بندقيته للدفاع عن المانيا اذا ما هوجمت .

ومهما يكن من الامر فان قادة الاشتراكية الفرنسية يخشون كثيراً من هذا الالتباس المفجع الذي يغشى موقف الدولية العمالية . لا شك ان « عقبة اللغة » جعل من العسير تبادل وجهات النظر الضيقة والمباشرة بين رؤساء الفئات الوطنية المختلفة . ففي رأي فندرفولد ، هذا العائق لم يكن موجوداً ، في الدولية الاولى و« اركان حربها » الذين تألف سوادهم الاكبر من نازحين ومبعدين . وكثيراً ما ردد المجلس هذا الامر وتممه بأكثر من ١٧ لغة ولسان . وكان ماركس يكتب براحة دونما فرق لديه ، الفرنسية والانكليزية والالمانية . . . اما في الدولية الثانية ، فالامر على عكس ذلك تماماً . فتعدد اللغات والالسن ، باستثناء بعض الشواذات النادرة — هو من نصيب الاعضاء اليهود ، امثال تروتسكي وادلر وبلاخانون. .، ولذا لم يكونوا يتفاهمون دوماً.

والى هذا ، فلم يتخل ممثلو الاشتراكية الالمانية عن مشاعرهم المعادية للروس . ألم يُسر المجلس في اذن احد مراسليه ، في اثر توقيع الاتفاق الفرنسي الروسي قائلا : « اذا ما اعلن الروس الحرب علينا ، تحتم على الاشتراكيين الالمان مهاجمة الروس والفرنسيين وحلفاءهم ، ايا كانوا ، بعنف شديد » واذ كان الالمان يخشون كثيراً الامبراطورية القائمة شرقيهم ، ابى افراد امثال ادلر وبوير وربنر ان يتصوروا احتمال او امكان انحلال الامبراطورية النمساوية المجرية . ومن ثم فالتعديلية وفقاً لنظرية برنشتاين كانت تركت اثرها عميقاً في الديموقراطية الاجتماعية التي كان انصارها ومؤيدوها بمثابة عرفاء حسني التدريب في خدمة القيصر ، بينما جعل بيغي من جوريس « داعية للجامعة الجرمانية وعميلا للحزب الالماني ».

ففي ظروف كهذه ، ليس من عجب قط ان تكون احتجاجات الدولية واعتراضاتها على التسلح مجرد مطالب افلاطونية . فقد اسقط مؤتمر شتوتغارت ، عام ١٩٠٧ ، اقتراحاً باعلان الاضراب العام في حالة نشوب حرب مع تحريض العمال على القيام بأعمال التخريب بأي طريقة أو وسيلة يرونها ناجحة والتي تختلف باختلاف ضراوة كفاح الطبقات والوضع السياسي العام » . وقد لوّحوا في مدينة بال عام ١٩١٢ ليس « بصورة هذا التعاون العظيم بين العمال في جميع ارجاء العالم فحسب ، بل ايضاً بالخوف المستحوذ على الطبقات الموجهة ، من جراء قيام ثورة بروليتارية تعقب حرباً عالمية » . كل شيء ثم قبوله والتسليم به منذ ان غير جوريس رأيه قائلا : « اذا لم ينص الاقتراح عن طريقة معينة للعمل ، فهو لم يستثن أية طريقة على الاطلاق . وهكذا تعاقبت الاجتماعات وتوالت الخطب والاقتراحات . والصحيح هو ان المسؤولين عن الحركة الاشتراكية تركوا الامر مربوطاً بالقرار المتخذ . ولدى اجتماع مكتب الدولية الاشتراكية في بروكسل في ٢٩ / ٣٠ تموز ١٩١٤ وقع الحاضرون نص محضر عدم وجود . فالحزب الديموقراطي الاجتماعي ، اذ اعتبر روسيا المسؤولة الاولى عن الحرب ، صادق على الاعتمادات المرصدة للدفاع عن الحضارة وعن الاستقلال « الالماني » ، وقد رأى روزا لكسمورج في هذا القرار « انهياراً لا مثيل له في التاريخ على مدى الاجيال » .

وعندما غادر جوريس بيت الشعب في بروكسل ، أسر في اذن فندرفلدت قائلاً : « ما اشبه القضية بقضيه اغادير . سنشهد ارتفاعاً وهبوطاً ولكن الامر سينتهي بتسوية في نهاية المطاف . امامي ساعتان قبل ركوب القطار لنذهب للمتحف لنشاهد اسلافك الفلامان البدائيين » .

« شعرت البرولتاريا ان مصير الانسانية ومستقبلها متوقف عليها في هذه الساعة الحاسمة . . . » كما راح يؤكد المؤتمرون المجتمعون في مدينة بال . ولم يُخف جوريس قط انه يضع امله الوحيد في « قطاع المصالح الاقتصادية والمالية » التي تلزم الشعوب بمراعاة مصالح بعضها البعض ، وفي تجنيب الكوارث التي تجرها الحرب معها » . ومن جهته راح هآز احد اعضاء الحزب الديموقراطي الاجتماعي الالماني يصرح ، عام ١٩١٢ ، بالاتفاق مع برنشتاين وكوتسكي ، امام المؤتمر المنعقد في شمنتز ، بأن الفئات الرأسمالية ، في شتى البلدان المترابطة والمتعاقدة دولياً فيما بينها ، ترى من الافيد والاصلح لها ان تتقاسم الاسواق العالمية بدلا من ان تنهك نفسها في عراك دام لا يعرف احد ما ستكون نتائجه ، يهدد بالخطر كل المكاسب » وسيفضي التفكير بكلوتسكي الى وضع هذه النظرية التي يصفها لينين بأنها بلغت « منتهى الحماقة » ، وهي النظرية التي بموجبها ستتعاون الامبرياليات تعاوناً دولياً بحيث تتفادى الحرب .

وبانتظار ذلك ، وبسخرية من القدر العابث تعتمد الاشتراكية الانسانية النزعة على الرأسمالية في مهمة انقاذ السلام بانقاذ نفسها .

اولى « مؤتمرات السلام » .
فشل التحكيم الدولي والدعوة الى نزع السلاح

« الرأسمالية لا ترغب في الحرب ، الا ان الفوضى التي تثيرها تحول دون تفاديها » ، هـذا ما كان يصرح به جوريس . ليس من شك قط ان بعض ارباب الاعمال لم تشعر بدنو الحرب كما لم تكن لترغب فيها ، بينما قامت بعض الاوساط الاخرى ، من حيث تدري او لا تدري بنشاط لا يخلو قط من خطر . يصف لنا اناتول فرانس « القوى المالية » ، قوى هدامة لـلروح الوطنية والقومية ، ثم يكشف لنا ، من ناحية اخرى كيف ان كبار رجـــال الصناعة ينشطون لصنع المدافع وبناء البوارج الحربية غيرة منهم على الدفاع عن الوطن واستدراجاً للطلبات . ويطمئن كمبون ، عام ١٩٠٠ الى ان الامبراطور غليوم الثاني ليس سوى واحد من رجال الصناعة يسعى لاستثمار معمله واستقــلاله » . كذلك هو يضمن ما لليهود من نفوذ عظيم ... بيدهم السلم والحرب . فلا مجال للدهشة هنا ولا للاحتجاج . هذا هو الواقع القائم ، علينا ان نأخذه بعين الاعتبار . وبالفعل ، نرى مديراً يهودياً لاحـــد مصارف فرصوفيا هو جان دي بلوخ يشترك الى جانب الاقتصادي البريطاني فريدريك باسّي من انصار سيـاسة حرية التجـارة ، والى الجهز الحربي نوبل في « صليبية السلام » التي من اجلها يؤسس نوبل جائزة خاصة ، «هل من الممكن الاعتقاد ، امام هـــذه الارقام الفلكية ، المجازفة ، باعلان الحرب؟» ، يتساءل الامالي نبارك عندما راح يلمح الى هذه الملايين التي تمثل قيمة السندات الدولية . والمعروف ان كل هزة سياسية او ضغط سياسي شديـد كان يولد قلقاً او اضطراباً في الاسواق المالية . « انا آخذ على نفسي جانب الاوساط المالية الكبرى ، تدبروا انتم امر الدولية ، كلاهما يريد السلام . فاذا ما ارادنا ذلك استطعنا إنقاذ السلام » ، كان يقول كايو لالبرت توماس خلال ازمة اغادير .

حاول الاشتراكيون تأمين الاخوة الانسانية بين البشر عن طريق الاشتراكية والديموقراطيون عن طريق الديموقراطية ، والمسيحيون عن طريق الكنيسة ، وانصار سياسة التبادل الحـــر بالتجارة الحرة ، والفقهاء بالقانون . فالازمة الاقتصادية الكبرى عزاها العديدون من رجـــال الاعمال ، الى هذه الاخبار التي يأخذ الناس بترويجها باستمرار . وبمناسبة المعرض الدولي العـام الذي اقيم عام ١٨٨٩ ، تأسس مكتب دولي ومكتب برلماني دولي عام لنشر فكرة التحكيم الدولي بين الشعوب . ودوى اذ ذاك صوت البـــابا ليون الثالث عشر في مجمع الكرادلة ، كما اجتمع في واشنطون مؤتمر الجامعة الاميركية . ولكن هـــذا النشاط كله لم يخرج بشيء يلزم حكومات الدول الكبرى بالاتفاق

واخذت بعض موازنات الدول ترزح تحت وطأة اعباء التسلح الاوروبي . وهـــذا الوضع يفسر لنا الاقتراح الذي تقدمت به روسيا عـــام ١٨٩٨ ، في اعقاب الحرب الصينية اليابانية والحرب الاسبانية الاميركية . فموارد اوروبا لا تنهض باطماع القيصرية . وارسلت ٢٦ دولة الى مؤتمر لاهاي المعقود عام ١٨٩٩ ممثلين لهـا الى « اول مؤتمر دولي للسلم » . صحيح ان الفشل

كان كامناً ، لم يتمكن المؤتمرون ستره ، لهذه القرارات التي اتخذوها بشأن قوانين الحرب ، وبالتوصية التي اتخذوها بانشاء محكمة دائمة للتحكيم الدولي . فكيف التوفيق ، والحالة هذه ، بين مبدأ السيادة الوطنية التي تعتصم خلفها كل دولة ، وتحديد التسلح « الذي اعتبر امراً مرغوباً به جداً لتأمين المزيد من الرفاهية للجنس البشري » . ألم يقدم غليوم الثاني للامبراطور نيقولا الثاني هذا الاحتجاج الجازم ، الشديد : « هل يمكنك ان تتصور ملكاً أو الرئيس الاعلى في الدولة يأمر بتسريح وحداته العسكرية ، هذه الوحدات التي كرستها اجيال متطاولة عبر التاريخ المديد ، لتُرفع على جدران دور الصناعة وفي ابهاء المعارض هذه الاعلام والبيارق المجللة بالامجاد ، والتنازل ، بهذا الشكل ، عن هذه المدن والحصون والقلاع للفوضويين والديموقراطيين؟» والمؤتمر الثاني الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في مكسيكو ، عام ١٩٠١ ، بدعوة من الولايات المتحدة الاميركية ، تخفيفاً منها للتأثير السيء الذي تركه فيها اصطدامها باسبانيا ، لم يتمكن ، هو الآخر من التوصية بالرجوع إلزامياً الى التحكيم في كل مشكلة دولية يستعصي حلها .

قامت الحروب في الترنسفال والصين ، ومنشوريا ، ونزلت أزمة حادة في المغرب . وبناء على اقتراح ثيودور روزفلت ، عقد عام ١٩٠٧ فقط مؤتمر دولي في اعقاب المؤتمر الذي عقدته رابطة الدول الاميركية في الريو . ولما كانت الولايات المتحدة الاميركية تجر وراءها اميركا اللاتينية ، فقد حضر المؤتمر ٤٤ دولة . أعيد ولا شك تنظيم محكمة التحكيم . الا ان سلطتها التي تعوزها صفة الالزام والاستمرار ، تحد من آمالها وتقصرها على أقضية نادرة حول مشاكل وقضايا ثانوية ، اقتصرت على الجلوس في قصر منيف فخم ثم تشييده بفضل هبة سخية قدمها كارنجي . وقد جرى تبني النص الذي يوصي بانشاء محكمة عدل للتحكيم الدولي تجلس باستمرار ، غير ان تعيين القضاة الاعضاء بقي مجرد مشروع . ولذا راح القائد الاميركي هوميروس ليا يصرح قائلا : « ان التحكيم الدولي يتجاهل تماماً ما للشرائع الطبيعية من تصلب لا يقبل الرحمة . . . » اما الحد من التسلح فهو يصطدم بالاعتراضات ذاتها التي اصطدم بها عام ١٨٩٩ . لتكن راحتهم في الحرب » ، أخذ ينادي الصحافي وكهام ستيد . وبصعوبة كلية توصلوا الى إكمال التوصيات المتخذة عام ١٨٩٩ ، المتعلقة باعراف الحرب واخلاقها ، وبالتخطيط لمؤتمر تال يعقد عام ١٩١٥ ، الذي كان سيفضي من جراء الفشل المرتقب ، الى تطوير الجامعة الاميركية التي اقتنعت ، حتى الآن بالنتائج التي طلع بها مؤتمر بونس ايرس ، عام ١٩١٠ .

واذ ذاك ، أخذت الازمات تتعاقب آخذ بعضها برقاب بعض : من أزمة البوسنه الى أزمة المغرب ، الى أزمة طرابلس الغرب ومن جديد الى أزمة البلقان . فلا ايطاليا ولا الدول البلقانية فكرت بعرض اختلافاتها مع تركيا على محكمة العدل في لاهاي . فلا عجب والحالة هذه ان تغرق الدول في تسلحها وتغوص في إعداد العدة للحرب الى ما فوق أذنها . وأخذ الجنرال هيرنجن وزير حربية المانيا ، يصرح امام مجلس الرايخشتاخ قائلاً : التجربة التي تمت لنا بعد الاتفاق

المعقود بشأن المغرب والكونغو ، عام ١٩١١ ، علمتنا ان حشد قواتنا المسلحة لم يؤلف رادعاً كافياً » .

وعبثاً راح مدير شركة *Hamburg - Amerika* الملاحية ، والمتمول الانكليزي كاسل يخططان عام ١٩١٢ ، لوضع حد لهذه المنافسة الحامية بين انكلترا والمانيا للسيطرة على البحار . وعندما وصل الكولونيل هاوس ، سكرتير الرئيس ولسن الى اوروبا ، في ربيع عام ١٩١٤ ، حاول دعوة برلين ولندن الى الجلوس حول طاولة مستديرة للمفاوضات وصولاً الى اتفاق بحري . فالقضية النمساوية الصربية التي نجمت عن مقتل ولي العهد الارشيدوق فرنسوا فردينان ، في سيراجيفو وضعت حداً نهائياً لمحاولة تخفيض التسلح تخفيضاً جزئياً . وفي ٣٠ تموز رفضت المانيا الاقتراح الروسي بعرض المشكلة على محكمة العدل في لاهاي .

وقد بدا ان الجماهير اصابها الدوار فعطل فيها كل قوة على التفكير الصحيح حتى ان الجماهير في باريس توهمت انها ترى في ٢/٨/١٩١٤ ، كوكب المشتري منطاد زبلن يحوم في سماء العاصمة الفرنسية .

ساد صمت عميق عاجز او مشارك جو الكنيسة
وكتب النصر للنزعات القومية والامبريالية

من الجميل ان يحارب المرء ويداه نقيتان والقلب بريء وان يضحي بحياته مرضاة للعدل الالهي (لويس جيليه الى رومان رولان ، في ١-٨-١٩١٤)

يتمنى الجميع هذه الحرب من الصميم وهم راضون بالتضحية بدمائهم على هيكلها (رومان رولان : يوميات سني الحرب ١٩١٤ - ١٩١٨)

الخـــاتمـــة

١

من مِن الاوروبيين ألقى عام ١٩١٤ ، نظرة متمليـــة على اطلس جغرافي الا ان يكون تملكه الزهو وان ترتكض نفسه غبطة وحبوراً ، عندما تبين المدى البعيد الذي بلغت اليـــه سيطرته الاستعمارية . فهذه السيطرة تمتد فوق القارة الاوروبية بكاملها وتغمر اوقيانيا تقريباً وتشرف على نصف آسيا وعلى ربع القارة الاميركية ، بحيث تضم مع اوروبا ٦٠ ٪ من مجمـــوع مساحة الاراضي غير المغمورة ، كما تضم ٥٠ ٪ من مجموع سكان الكرة الارضية . فهـــو يعرف معرفة اليقين انه قلما يقوم على الارض قطر أو صقع لا ينتفع ، بوجه أو بآخر ، من نشاطه . فهو لا ينكر قط ما تمّ للولايات المتحدة الاميركية من بأس وقـــوة متصاعدة لا يرى فيها الآن أي خطر على نفوذه وسيطرته ، كما انه لا يخشى قط من ان تتمكن اليابان ، بمـــا تم لها من سؤدد وسلطان ، من إرغامه على الانسحاب والانكفاء من اقطار آسيا الشرقية . عندما يعتكف الى نفسه ويمايز الشوط الذي قطعه في مضار التمدن خلال قرن من الزمن يخرج من إلتفاتته هـــذه راضياً كل الرضى عن هذه النتائج التي سجلها ولسانه يردد قائـلا : الذي مضى وانقضى هو في الصميم ، قرن اوروبا . وعندما تنطّ الى خاطره تنبوءات ملطوس التشاؤمية ، تعتريـــه هزة شعورية ، بأن حدثان الزمان جاءت تكذبها وتظهر بطلانها . فلم ترفل يوماً هذه القارة بمثـــل ما رفلت به اذ ذاك من السكان ، اذ بلغ عددهم ٤٠٠ مليون بعد ان كانوا ٢٠٠ مليون، عام١٨١٥ كما انها لم تتمتع يوماً بمثل ما تتمتع به عام ١٩١٤ من مستوى عيش رفيع.

وما عسى ان تعتزم اوروبا تقديمه للعالم ؟ توحيده بحيث تتوفر للجنس البشري حياة افضل، وبحيث تستطيع هي ان تتحكم بالقدر الغاشم الذي قيض لها وفرة النسل وكثرة الناس في مثل هذه الرقعة الضيقة كما راحت تستذيق هذه الحضارة المرفهة . والحال ، فقد نهضت ، على خير وجه واوفر نشاط ، بالرسالة التي اضطلعت بها ، واوشكت ان تفرغ من عمليـــة استكشاف الكرة الارضية واقتسامها فيما بينها . فلم تعد البحار لتؤلف ، في القرن الثامن عشر ، عقبة تحد من مواصلاتها ، وتم لها منذ ذلك الحين اقتسام هذه القارات . فاذا ما توارت عن الانظار هذه الامبراطوريات الاستعمارية التي توصلت دول شبه الجزيرة الايبرية، الى انشائها، استطاع الغير من

هذه الامبراطوريات ان يرسخ اصوله ويُمرق في الارض . فـالمغامرة الروسية ترتـدي مقاييس اورآسية كما ان السيطرة الفرنسية إتسمت بطابع عالمي . الا ان الانجازات الانكلوسكسونية التي اقتضت جهوداً جبـارة تثير الفخر والاعجاب ،امّنت للعرق الانكليزي امبراطوريـــة استعمارية لم يعرف التاريخ لها مثيلا . من جهة انكلترا التي سيطرت على امبراطورية افترشت٣٣ مليون كيلومتر مربـع ، وضمت ٤٥٠ مليون نسمة ، ضمت في ما تضمنته اجزاؤها المقومة ، قارات بعرضها وطولها وسيطرت على معظم المواقع الستراتيجية الهامة ؛ ومن جهـــة ثانية ، الولايات المتحدة الاميركية، هذه الكتلة الضخمة التي تنعم بموارد لا حدّ لها ولا حصر : عملاقان جاءا على نسبة ما تم لهما من وسائل النقل الحديثة .

والمهم في هذه كله انتقال البضائع والافكار حتى والبشر ، اذا ما دعت الحاجة القصوى الى ذلك.وهكذا أخذت هذه الكرة الارضية تضيق على اهلها في هذا الوقت بالذات الذي أخذت تطل علينا هذه العوالم الفلكية والعوالم الاخرى المتناهية الصغر . ولم يكن في مقدور غوتيه ان ينتقل بأسرع ما تم لأرسطو . فاذا بالآلة البخارية تطلع علينا فجأة ، ولم تلبث ان طبعت العصر بطابعها ، كما يؤكد برغسن وأخذت في تصنيف جديد للمدنيات ، واضعة في المرتبة الدنيـــا هذه الكيانات الدولية التي لا تزال تعول في نشاطها الحياتي على العضل المفتول والهواء المتحرك . فالسيطرة ، والحالة هذه ، هي من نصيب هذه الشعوب التي تسيطر على هذا الشريط الجغرافي الضيق من الاراضي الغنية بالفحم الحجري ، الذي يمتد من بنسلفانيا الى الدونتز ، كما ستصبح بعد لأي قصير من نصيب البلدان التي افاضت عليها الطبيعة ، ثروات معدنية ، طائلة من الحديد والفولاذ ، أي المعمل الذي ينهض على المنجم ويعتمد عليه . كل هذا يضفي على العصر « رسالة » يوليها ميشال شفالييه طابعاً إلزامياً ، مصيرياً ، ربانياً ، وبعبارة أخرى ، صناعياً .

ومجمل القول وبكلمة واحده : وفرة الانتاج ووفرة وسائل العيش والسكن وتنوع نماذج اللباس ، وانتاج المجموعات الذي يوجب التقيد بالكمية السوية وحشد القوى العاملة ؛ وقد خرج من احتياطي الريف في اوروبا تياران قويان في حركة الاغتراب : الاول النزوح الى المدينـــة والثاني : الهجرة باتجـاه الاميركتين والاقطار الجنوبية الأخرى المعروفـــة باعتدال مناخها . وهكذا اطل على المجتمعات المدنية عهد من التطور الفاصل ، بينما برز في الريف سواء منـه في اوروبا أو في هذه البلدان الجديـدة ، مجتمعات ريفية اضافيـة تسهر على تأمـين اسباب العيش المجتمعات الاولى التي تسلمت بنشاط وحماس قيادة العالم وتوجيهه . وقد برزت لندن ، بـــين عواصم الدنيا الكبرى : اكبر مرفأ واكبر مركز تجمع لرأس المال في العالم كله . فهي عاصمـة أوسع وأغنى امبراطورية على كرتنا الارضية . فالبضائع على انواعها تروح وتجيء في كل مكان مع تنقل العملة بحرية وسهولة السيولة . فسياسة حرية التجارة التي نهجت نهجها عاصمة المال،قابلها في الطرف الآخر ، استقرار العملة . فالذهب يتدفق على اسواق اوروبا من منابعـــه الثرية : بونت مورغان ، ومن الجبال الصخرية والراند ،كما ان الاصفر الرنان يضمن نجاح المشروعات

الكبرى التي ينهض بها البيض ، في الوقت الذي تتدفق فيه على الهند وآسيا الصفراء عملات الفضة . والبركة ترفرف فوق رأس المال الآخذ بالتنافس لا يتهيب أية مغامرة ولا يرتد كليلا عن أي مشروع مهما ضخم ، فليس من يشك أو يتشكك بامكاناته وطاقاته التي لا حد لها .

فالحلم الذي راود العالم وعلله بطلوع حياة ملؤها الهناءة والسعادة اصبح تحقيقه على قاب قوسين وادنى . فبعد ان تمت للانسان السيطرة على القوى الطبيعية العابثة وسخرها لخدمته ، نراه يزداد رفاه وعافية بعد ان راح يتقصى اسباب المرض وعرف كيف يمط حبل الحياة . فبامكان التربية والعلم الاتيان بالعجائب المدهشة والقضاء على الاوهام والمخاوف الصبيانية التي عشعشت في الاذهان . انظر الى الخدمات الجلى التي افاضها الورق والطباعة على الادارة الحكيمة المدبرة . والجريدة المسلية والكتاب المهذب ، والشعور المتزايد بالتضامن والتضافر بين الافراد والجماعات. كل هذا وما اليه اخذ بالازدياد ولن تلبث فكرة الحرب ذاتها ان تصدم ادب العصر ، بعد ان وثقت الروابط التي شدت الشعوب بعضاً الى بعض . فبينا تأخذ الآلة العبدة محلا لها اكبر في خدمة الناس لا تلبث ان تصبح العبوديات على انواعها ، اثراً بعد عين ، في كل من اوروبا واميركا ، كما اخذت القهقرى في المناطق الاخرى .

فانجيل الحرية ينتشر حاملا الى الجميع بشرى انفتاح الشخصية البشرية وازدهارها. فالمجلون الجدد، وهذه الوجوه التي هي ملء العين والسمع ، أطلت من بين صفوف السوقة في الامس ، وطلعت من بين ابناء الطبقة الثالثة ، هم ابناء هذه الطوائف وهذه الجماعات التي رزحت طويلا تحت الضغط والاضطهاد كالبنائين الاحرار ، والمشاقين واليهود ، اي من الفوا عصر روتشيلد وعصر ماركس ، هذا العصر الذي كان اينشتاين خاتمته . والتسامح يسير جنباً الى جنب مع استثمار الطاقات والامكانات الخصبة . وهذا الايمان المبلّغ-مسيحياً كان ام علمياً — الذي يجيش به ربع العالم ، يعمل جاهداً ، على تهذيب وصقل الثلاثة الارباع الباقية . فجاشت روح جوريس بالتفاؤل « هذا التفاؤل المسلكي » كما ينعته بيغي ، كما جاشت به روح روكفلر وهو يردد : « انا لست متشائما . لي كل الثقة بالانسان والاخوة الانسانية » .

وهذا لا يعني قط ولا يفيد مطلقاً ان الحضارة المشتركة تؤدي بالضرورة الابداع الفكري : فحرية الفكر تخصب الابتكارات والابداع العقلي والفني التي قد تعبر احياناً عن التوق الى الانفلات والانطلاق . فاوروبا لا تتخلى ولا تتقاعس في هذا المجال لانها تنشد الخلق وتصبو الى الابتكار والابداع في المجالات كلها . فالتجدد عندها لا ينقطع كما ان التنوع على اشده . فمهما إشتدت وشائج الرومنطقية ، بالقرن الثامن عشر من وجوه عدة ، فقد اطلقت ، بعد ان دارت ظهرها للحركة العقلانية ، مشاعرها واحاسيسها المتأججة ، قبيل طلوع عصر البخار وبروز البورجوازية الرأسمالية . هذا هو مرض العصر بالنسبة للمصير الطالع.راحت الواقعية والطبعية تركز نظرها على حضارة الحديد وحضارة الذهب ، في الوقت الذي سارت فيه العلمية قدماً تشع على الناس املا ورجاء،كما راحت الفلسفة الوضعية،من جهتها تقترح على البشرية عبادة الذات.

الا ان العندية او مذهب الذاتية بقيت متمسكة بحقوقها . فبعد ان جرى إقصاؤها مدة عن المسرح ، عاودتها القدرة على التعبير من جديد ، وذلك عندما حدثت الردة اللاجبرية ، في هذا الوقت بالذات الذي وقع فيه تداعي التأكيدات المغالية .

وبالفعل فقد اخذت الحرية الفكرية في اوروبا تبدي عوارض الضعف في اواخر القرن الذي توقعت منه اوروبا ان يطلع عليها بما فيه شفاء غليلها واشباع اطماعها . فقد برز برغسون وانشتاين بعد افول نجم كلود برنار وبرتلو . كان من اللازم هضم واستمراء المكتشفات العلمية وتحديد المفهوم الصحيح للتطور .

٢

هذه الحضارة التي تبهى بها اوروبا وتفخر ، لا يمكن ان تخفي ، بما لها من سحر وفتنة ، قسمات سحنتها الحربية ، حتى في سنغافورة وفي هونغ كونغ حيث يتوارى الجندي وراء التاجر. فهي تتمسك بهذه الجزيرة الصغيرة التي احتلتها غلاباً وتشكل دمّلا او خراجاً في قلب مدنية تلك البلاد الوطنية ، تتبرم منه وتضيق به ذرعاً . هنالك حضور مشترك – كما ينم عنه الوضع في كل من الهند وافريقيا – او في اميركا الشمالية وأستراليا ، حيث تجري تصفية « المتوحش » بكل بساطة . ففي رسائل اسفاره، يبدو لنا كبلنغ ، المثال الاكمل لهذا المستعمر البريطاني الذي يتجافى الملونين ، ولا يتردد الا على ناديه المفضل ومجتمعه الاثير. صحيح ان الاوروبي يسخو في أعطياته ويرحب بكل مساعدة او مشاركة موالية كما يتمناها ويحدث عن مشاريعه الاستثمارية وعن الارباح المتدفقة التي يجنيها ، الا انه يشترط ، قبل كل شيء ، اساساً للنجاح ، الامتثال لتوجيهاته والعمل بها بكل دقة . ينشر لواء السلام ولا يتورع عن فرضه بالقوة . هو دوماً في حديث عما يجلب الخير للمستعمرة ، انما تجهيزها مربوط اصلا بمقتضيات مصلحته الخاصة . فاذا ما راح ينشر بشارة الانجيل وتعاليم السيد المسيح فلايمانه الوطيد انه يعمل على نشر مبادىء اخلاقية وادبية سامية . فاذا ما باع اصنافاً وسلعاً مصنوعة في اوروبا ، فلانه يعتقد بفائدتها للشاري وباهميتها له . يحز في نفسه ان يرى انه غير مقدر ، ويشعر بانه غير محبوب ، ولذا يروح ينعت الناس بالجحود ونكران الجميل . فاذا لم يعمل ، عامداً ، على نشر الامراض التي كثيراً ما عانى منها كالسفلس والتدرن الرئوي ، واذا لم يعمد ، عن سابق قصد وتصميم ، الى انهاك التربة ، فلم يجيء ركونه الى السخرة والعمل الاجباري وحرصه على الاتجار ، بالكحول عملا بغير وعي منه او شعور ، بل جاء إشباعاً لمطامعه الاشعبية . كم من هذه المدنيات التي وُصفت نافلة او متخلفة ، هُدرت واستبيحت على مذبح الحضارة المتطورة ؟

وهذه الانقلابات الواسعة التي قام بها العرق الابيض لا يمكن ادخالها في رصيد حساب اوروبا. فالمستعمرات الاوروبية الجديدة لم تلبث ان وعت إصالتها . فقد شهد القرن التاسع عشر ، عن

كثب ، التطور السريع الذي اخـــذت بأسبابه الممتلكات الانكلوساكسونية ، فهيأها لتلعب الدور الذي ستلعبه فيما بعد كدول كبرى ، واضعة نصب اعينها مثال الولايات المتحدة الاميركية التي كانت بمثابة بوتقة لجنس من البشر ، عرف بروحه المغامرة وبجبروته ، توفر له من الخامات والموارد الاولية الطائلة ما جعله يعقد الآمال الطوال على تحقيق مستوى رفيع من العيش الكريم الهنيء ، دونه ما تم منه لاوروبا القديمة التي ترزح تحت وطأة كثافة عالية ، من السكان كما ترزح تحت تقاليدها المرعية . فمنذ عام ١٩١٤ ، سارت اميركا الشمالية في طليعة الركب الحضاري ، بنشاطها الصناعي الزاخر ، واخذت تشرئب باعناقها ، نحو القيادة والرئاسة . وبالرغم من ان الدومنيونات البريطانية الاخرى لم يتم لها ما تم للولايات المتحدة ، فقد راحت مع ذلك ، تنظر الى حكومة لندن نظر الند للند ، بينما اخذ يبرز من بين دول اميركا اللاتينية ما يبشر بقرب طلوع امبراطوريات جديدة كالبرازيل والارجنتين والمكسيك ، التي وان خشنت منها الملامس ، يدب فيها دم الشباب الحار . ومن رأس هورن الى ريو غرانديه دي نورته ، يبسم الحظ ، من هنـــا ومن هناك ، امام الخلاسي او امام الهندي الاحمر ، بعد ان دقت عنده ساعة الثأر والانتقام لنفسه .

اما العالم الاسود فهو في خنوعه واستسلامه يلثم اقدام المستعمر . وهذا الاسلام المنكمش ، لم يفقد شيئاً من ايمانه وامانيه ، وآسيا الشرقية التي لا تقـــل عنه انكماشاً وغموضاً ، تأبى هي الاخرى ، الخضوع والاستسلام لهذا « البربري الابيض » . لم نر قط من المغرب الى المحيط الهادي وشائج بمثل هذه المتانة كالوشائج التي شدت بعضاً الى بعض ، مدنيات تفخر بأمجـادها الماضية وبما تم لهـا من ترف . كذلك لم نر قط ادلة اقطع وحججاً ادفع على مـا يقوم من تناقض مطلق بين عقليتين وذهنيتين لمفهوم الحياة . فالموقف يختلف تماماً عند مواجهة الغرب ، باختلاف المكان واختلاف الظروف . فالموقف يتناوح بين السلبية الصامتة ، نصف المستسلمة ، المستعلية ، وبين الثورة المكشوفة . فها هي اليابان ، ومثلها ينتصب امامنا ، تستمد من الحضـــارة الصناعية ومن التقنية ما تخفيان من امكانات وطاقات لتحسين وسائل الدفاع عن استقلالها الغالي . انه لدرس بليغ فيه كل العظة والعبرة ، اذ ان اسلحة الرقي والتطور ، ترتـد في آخر الامر الى وجـه من اتقنها وشحذها .

فالفوز بآسيا والفوز بالاسلام يقتضي له اساسـاً السيطرة على روح آسيا وعلى روح الاسـلام والتصرف بها . ولكن ما العمل وها هي اوروبا منقسمة على ذاتها ، تتناوش دولها وتتهاوش ، فأعمت الاحقاد قلبها . فمهما بلغ من تطور البروليتاريا فيها ، فهي اشبه ما تكون ضحية نظام يقوم على الظلم الاجتماعي : حرية غرارة ، كاذبة ، تحول دون توزيع المواد الغذائية ، توزيعـــاً عادلاً ، ضمن « المساويء » الاخرى ، التي نزلت بها — الكلمة للويس جيليه — فالروح القومية التي جاشت فيها ، غدت ، بالرغم من مرور مائتي سنة من السلام الموصول ، إنقسامات ضارة ، بعد ان عجزت اية سيطرة من اي لون كانت : فرنسية او انكليزية او روسية او المانية ، عن ان تضع لها حداً ، وانزاح السيطرة الى المانيا التي اخذت تنعي سوء حظها وقسمتها الضيزى

فيا تم لها من موقع جغرافي ، اثار ما هو اشد هولاً على السلام ، بعد ان خيم على القارة، ورزح على كلكلها ، شبح التسلح المضني ، الموهن الذي مكنت له المدنية الصناعية . وانحياز دول العالم الى المعسكرين القائمين في اوروبا ، الذي جاء نتيجة حتمية لاتساع رأس المال والروح الاستعمارية المستعصية ، يقدم لنا مشهدا لهذا العالم الذي يكافح ضد استعمار اوروبا ، وهو كفاح جاء يخدم في نهاية الامر الروح الاستعمارية في اميركا واليابان معاً .

وهكذا نرى العالم نفسه امام رهنين فكيف السبيل الى رفعها ؟ وهكذا نزلت بالعقل الاوروبي ازمة اخذت بخناقه عند مطلع قرن جديد كل دلائلها تنذر بمصاعب جديدة .

« وهذه الهرطقات العصرية » ، لا تزال الكنيسة ، ولا سيا الكاثوليكية منها ، تشجبها بعنف ، في المرتبة الاولى منها هذا الاعتداد الفاجر ، العاري من كل قيد ، على العقل البشري ، هذا الفجور المساوي لخطيئة الكبرياء . الا ان رفض الاخذ بالعنف ، وبعبارة اخرى ، المحبة ، محبة القريب وغير ذلك من هذه الروحانية ، التي اخذ المسيحي يتلمسها في الكتاب المقدس ، تؤلف شيئاً واحداً مع تعاليم الهند ، مع هذا الذي يسميه غاندي «*Ahimsa*» اي « اقصى حدود التواضع » . فبينما يتجه ، هذا الانسان – نيتشه – الى الحكمة القديمة ، هذا الرجل الذي يعلن على رؤوس الاشهاد « جدب القرن التاسع عشر الجذري » ، يتمنى لو يطلع علينا نموذج بشري اقوى واكمل ، اخذت اوروبا تطالب بحقوق الفكر ، بعد طغيان الروح المادية الجارف ، التي أسيء فهمها . وهل لفظ ، يا ترى ، الاقتصاد الحر ،كلمته الاخيرة؟فربابنة هذا الاقتصاد وكبار المساهمين فيه نظروا الى انفسهم نظرة ربان سفينة اشتدت العاصفة حولها . فاذا بالماركسية تطل وتنمو وتتسع ، واذا بصوت جوريس يجلجل ويطفو على صوت لينين مبشراً بطلوع مجتمع لا اثر فيه للطبقات .

صحيح ان نبوغ الغرب الخلاق لم يبال قط ولم يتب ، لا المعركة الاجتماعية القائمة ولا هذه الاستعدادات لحرب تحمل في طياتها الفناء والدمار. فأخذ يتقن الى اقصى حد هذه الاختراعات التي حققها في مجال الكهرباء والضوء ، كالمصباح الكهربائي والدينامو والسينما والتلغراف اللاسلكي ، ثم استنبط الغواصة والسيارة والطائرة ، ونفذ الى اسرار الذرة ، وانفتحت امامه اسرار الفضاء الزمني واسرار النسبية . وطلعت علينا ثورة جديدة في مجالات العلوم والتقنية بعد هذه الاكتشافات التي تناثرت حباتها طوال القرن التاسع عشر والتي كان من شأنها ان وطدت نفوذ اوروبا .

وما عسى ان يكون مصير اوروبا هذه عندما تندلع شرارة الحرب العالمية الاولى ؟ فراح بول فاليري يتساءل : « انبقى لنا اوروبا ، كما كانت دوماً لنا ، هذه اللؤلؤة الثمينة في عالمنا الارضي ، جوهرة هذه الكرة ، والدماغ النابض في هذا الجسم الجبار » . فنحن امام نوع من الاعجوبة ، لم نشهد لها مثيلا منذ بضعة اجيال ، هذه الاعجوبة التي يمكن للقدر الغاشم ، المهدد المزمجر ، ان يضع حداً لها .

التوجيه البيليوغرافي

لم يذكر في هذا الجدول سوى عدد محدود من المؤلفات التي اختيرت من كل ما هـــو حري باستيقاف انتباه القارىء الراغب في الاستزادة . ولم تذكر بصورة عامة المؤلفات الموضوعة بلغة غير الفرنسية . الا ان كتب الدراسة في معاهد التعلم العالي توفر مراجع اكثر تفصيـــلا وعرضاً للاحداث اكثر توسيعاً . ونقصد هنا بصورة خاصة :

LA COLLECTION «Clio» (Paris P.U.F.) **t. IX, l'Epoque Contemporaine : I Restaurations et Révolutions (1815-1871)**, par J. DROZ, L. GENET et **J. VIDALENC** (2e édit; 1963) ; **La paix armée et la Grande Guerre (1871-1919)**, par P. RENOUVIN, E. PRECLIN et G. HARDY (2e édit., 1947).

LA COLLECTION «Peuples et Civilisations» (Paris, P.U.F.), dirigée par L. HALPHEN et Ph. SAGNAC : **t. XV, L'éveil des nationalités et le mouvement libéral (1815-1948)**, par G. WEILL, 1930 (réed. F. PONTEIL, 1960) ; **Démocratie et Capitalisme (1848-1860)**, par Ch. H. POUTHAS (2e édit; 1948) ; **Du libéralisme à l'impérialisme (1860-1898)**, par H. HAUSER, J. MAURAIN, P. BENAERTS (2e éd., révisée et refondue par F. L'HUILLIER, (1952) ; L'essor industriel **et l'impérialisme colonial (1878-1904)**, par M. BAUMONT (2e éd., 1949) ; **La crise européenne et la première guerre mondiale**, par P. RENOUVIN (4e éd., 1962).

LA COLLECTION «NOUVELLE CLIO» (Paris P.U.F.) : **L'expansion européenne (1600-1870)**, par F. MAURO (Paris, 1964) ; **L'Europe de 1815 à nos jours. Vie politique et relations internationales** par J. B.

L'Histoire générale de la civilisation d' L'Amérique anglo-saxone de 1815 à nos jours par C. FOHLEN (**L'homme** (Paris, Colin, 1960) par Ch.

مؤلفات عامة

L'Essai sur la civilisation d'Occident. L'home (Paris, Colin, 1960) par Ch. MORAZE.

L'Histoire générale de la civilisation d'Colin, 1959) du même auteur.

L'Histoire générale de la civilisation d'Occident de 1870 à 1950. I. 1870-1914, par J. CHAPPEY (Paris, Presses Universitaires, 1950) ;

Les grands courants de l'histoire universelle par J. PIRENNE (Paris, Albin Michel) : **IV de la Révolution Française aux Révolutions de 1830** (1951) ; V. de 1830 à 1904 (1953); **VI** (1955) **et L'Histoire Générale** Contemporaine du milieu du **XVIII°** siècle à la deuxième guerre **mondiale** par F. FONTEIL (Paris, Dalloz, 1951).

La terre et l'évolution **humaine** (Paris, Albin Michel, rééd. 1949) par L. FEBVRE.

Les fondements de la géographie humaine, 3 tomes (Paris, Colin, 1943-1952) par MAX SORRE.

Principes de géographie humaine (Paris, Colin, 1922), par VIDAL DE LA BLACHE.

Nouvelle géographie universelle ,19 vol. (Paris, 1875-94), par E. RECLUS.

Atlas historique et géographie VIDAL DE LA BLACHE (Paris, Colin).

Atlas de **géographie historique** SCHRADER et CALLOUEDEC (Hachette).

Atlas du monde chrétien par A. FREITAG (Paris, Elsevier, 1959).

Nouvel **Atlas historique** par P. SERRYN, H. MARC-BONNET et BLASSELLE (Paris, Bordas, 1961).

التوسع الاوروبي

G. LE GENTIL, **Découverte du monde** (Collection «Pays d'Outre-Mer», P.U.F. 1954).

J. ROUCH, P.E. VICTOR et HAROUN TAZIEFF, **Histoire universelle des explorations** (Paris, Nouvelle Librairie de France, 1956).

R. CLOZIER, **les étapes de la géographie** (Paris, P.U.F., 1942).

G. HARDY, **La politique coloniale et le partage de la terre aux XIX° et XX° siècles** (Paris, Albin Michel 1937).

B. DE VAULX, **En Afrique : Cinq mille ans d'exploitation** (Paris, A. Fayard, 1960).

J. STENGERS, **Belgique et Congo : L'élaboration de la Charte coloniale** (Bruxelles, la Renaissance du Livre, 1963).

H. BRUNSCHWIG, **l'Expansion Allemande outre-mer du XV° siècle à nos Jours** (Paris, P.U.F., 1957).

J. TRAMOND et A. REUSSNER, **Eléments d'histoire maritime et coloniale contemporaine (1815-1914)** (Paris, Société d'Editions géographiques, 1924).

A. SIEGFRIED, **Suez, Panama et les routes maritimes mondiales** (Paris Colin, 1941).

G. HANOTAUX et A. MARTINEAU, **Histoire des colonies françaises et de l'expansion française dans le monde**, 6 vols. (Paris, Plon, 1930-34).

توسع فرنسا

H. BLET, **Histoire de la colonisation française, t. II et III** (Paris, Arthaud, 1947-1950).

H. DESCHAMPS, **Méthodes et doctrines coloniales de la France** (Paris, Colin, 1953).

R. DELAVIGNETTE et Ch. A. JULIEN, **Les constructeurs de la France d'Outre-Mer** (Paris, Corréa, 1946).

H. BRUNSCHWIG, **Mythes et réalités de l'impérialisme colonial français, 1871-1914** (Paris, Colin, 1960).

J.P. FAIVRE, **L'expansion française dans le Pacifique entre 1800 et 1842** (Thèse, Paris, 1953).

تطور التقنيات

P. ROUSSEAU, **Histoire des techniques** (Paris, A. Fayard, 1956).

P. DUCASSE, **Histoire des techniques** (Paris, P.U.F., 1942).

VIERENDEEL, **Esquisse d'une histoire de la technique, 2 vols,** (Bruxelles, Vromant, 1921).

H. PASDERMADJIAN, **La deuxème révolution industrielle** (Paris, P. U. F., 1959).

LEWIS MUMFORD, **Technique et civilisation** (Paris, Ed. du Seuil, 1950).

P. DES ROUSIERS, **Les grandes industries modernes, 5 vols.** (Paris, Colin, rééd. 1930).

L. GUILLET, **Les étapes de la métallurgie** (Paris, P.U.F., 1942).

D. FAUCHER, **Le paysan et la machine** (Paris, Ed. de Minuit, 1954).

H. FAUCHER, **La houille blanche,** (Paris, Colin, 1946).

P. ROUSSEAU, **Histoire de la vitesse** (Paris, P.U.F., 1942).

L.M. JOUFFROY, **L'ére du rail** (Paris, Colin, 1953).

A. THOMAZI, **Histoire de la navigation** (Paris, P.U.F., 1942).

J. GODECHOT, **Histoire de l'Atlantique,** (Paris, Bordas, 1947).

R. CHAMBE, **Histoire de l'aviation,** (Paris, Flammarion, 1949).

G. WEILL, **Le journal,** (Paris, Albin Michel, 1934).

LO DUCA, **Histoire du cinéma,** (Paris, P.U.F., 1942).

التطور الاقتصادي والرأسمالية

J. MAILLET, **Histoire des faits économiques des origines au XX° siècle** (Paris, Payot, 1952).

J. A. LESOURD et C. GERARD, **Histoire économique XIX° et XX° siècles,** (Paris, Colin, 1963).

A. PHILP, **Histoire des faits économiques et sociaux de 1800 à nos jours** (Paris, Aubier, 1963).

J. FOURASTIE, **Le grand espoir du XX° siècle** (Paris, P.U.F., 1952).

J. LACOUR-GAYET, **Histoire du commerce, t. III, IV, V** (Paris, Spid, 1951-1952 - 1953).

H. ARDANT, **Les crises économiques** (Paris, Flammarion, 1948).

JOHAN AKERMAN, **Structures et cycles écolnomiques** (Paris, P.U.F., 1955-57, 2 vol; paru en Suède en 1944).

F. MAURETTE, Les grands marchés de matière première (Paris, Colin, 1940).
H. PEYRET, La lutte pour les denrees vitales (Paris, P.U.F., 1942).
H. PEYRET, La Bataille des trusts (Paris, P.U.F., 1943).
W. SOMBART, L'apogée du capitalisme, 2 vol. (Paris, Payot, 1932).
F. STERNBERG, Le conflit du siècle. Capitalisme et socialisme à l'épreuve de l'histoire (Paris, Club français du Livre, 1960).
J. HALPERIN, Les assurances en Suisse et dans le monde (Neuchâtel, La Baconnière, 1945).
M. AUGE-LARIDE, La révolution agricole (Paris, Albin Michel, 1955).

المسائل والآراء الاقتصادية والاجتماعية

L. CHEVALIER, Démographie générale (Paris, Dalloz, 1951).
M. REINHARD et A. ARMENGAUD, Histoire générale de la population mondiale (Paris, Monchrétien, 1961).
A. SIEGFRIED, Itinéraires et contagions. Epidémis et idéologies, (Paris, Colin, 1960).
H.A. CITROEN, Les émigrations internationales (Paris, Librairie de Médicis, 1948).
J. LAJUGIE, Libre-échange et protectionnisme (Paris, P.U.F., 1963).
G. LEFRANC, Histoire des doctrines sociales dans l'Europe contemporaine (Paris, Aubier, 1960).
E. HALEVY, Histoire du socialisme européen (Paris, Gallimard, 1948).
H. ARVON, Le marxisme (Paris, Colin, 1955).
A. CORNU, Karl Marx et Frederich Engels (Paris, P.U.F., 1955-58, 2 vols. parus).
A. PIETTRE, Marx et le marxisme (Paris, P.U.F., 1955-58,
H. CHAMBRE, De Karl Marx à Mao-Tsé-Tung (Paris, Spes, 1959).
J. DUCLOS, La Première Internationale (Paris, Ed. sociales, 1964).
A. KRIEGEL, Les Internationales ouvrières (Paris, P.U.F., 1964).
G. HAUPT, L'Internationale socialiste 1889-1914). Etude de sources. Essai bibliographique (Paris-La Haye, Mouton, 1946).
P. VAN DERESH, La deuxième Internationale 1889-1923 (Paris, Rivière, 1957).
Th. RUYSSEN, Les sources doctrinales de l'Internationalisme, t. III (Paris, P.U.F., 1961).
A. SERGENT et C. MANUEL, Histoire de l'anarchisme, 2 vols, (Paris, Le Portulan, 1956).
G. LEFRANC, Le Syndicalisme dans le monde (Paris, P.U.F., 1949).
E. DOLLEANS, Histoire du mouvement ouvrier, 3 vols. (Paris, Colin, 1936-1947-1954).
G. MARTIN, Histoire de l'esclavage dans les colonies françaises (Paris, P.U.F. 1948).
E. TERSEN, Victor Schoelcher, Esclavage et colonisation (Paris, P.U.F.,

1948).
R. AIGRAIN, **Histoire des Universités** (Paris, P.U.F., 1949).
H. VAN EFFENTERRE, **Histoire du scoutisme** (Paris, P.U.F., 1947).
B. GILLET, **Histoire du sport** (Paris, P.U.F., 1949).

التيارات الدينية والفلسفية

A. FLICHE, et V. MARTIN, **Histoire de l'Eglise.**
J. LEFLON, **La crise révolutionnaire, 1789-1846** (Bloud et Gay, 1940).
DANIEL-ROPS, l'Eglise des Révolutions; **I : En face de nouveaux destins** (Paris, A. Fayard, 1960).
R. AUBERT, **Le pontificat de Pie IX** (Paris, Bloud et Gay, 1949-1952).
Ch. LEDRE, **Un siècle sous la tiare : De Pie IX à Pie XIII** (Paris, Amiot-Dumont, 1955).
H. MARC - BONNET, **La papauté contemporaine** (Paris, P.U.F., 1946).
H. MARC - BONNET, **Histoire des ordres religieux** (Paris, P.U.F., 1949).
J. M. SEDES, **Histoire des missions françaises** (Paris, P.U.F., 1950).
Mgr. DELACROIX et Collaborateurs, **Histoire universelle des missions catholiques; t. III : Les missions contemporaines, 1800 - 1957** (Paris, Grund, 1958).
R. LAURENTIN et Dom B. BILLET, **Lourdes, documents authentiques** (Paris, Lethielleux, 1958, 4 vol.).
E. G. LEONARD, **Histoire du protestantisme** (Paris, P.U.F., 1950).
E. G. LEONARD, **Histoire générale du protestantisme** (Paris, P.U.F., t. III, 1964).
A. CHOURAQUI, **Histoire du judaïsme** (Paris, P.U.F., 1957).
E. BREHIER, **Histoire de la philosophie, t. II.** (Paris, P.U.F., 1932).
P. DUCASSE, **Les grands philosophes** (Paris, P.U.F., 1942).
G. BOUTHOUL, **Histoire de la sociologie** (Paris, P.U.F., 1950).
A. BAYET, **Histoire de la libre pensée** (Paris, P.U.F., 1959).

الحركة العلمية

P. ROUSSEAU, **Histoire de la science** (Paris, A. Fayard, 1945).
S. F. MASON, **Histoire des sciences** (Paris, A. Colin, 1956).
R. TATON, et Collaborateurs, **Histoire générale des sciences; t. III : La science contemporaine** (Paris, P.U.F., 1961).
M. DAUMAS et Collaborateurs, **Histoire de la science** (Paris, Gallimard 1957).
P. MARCHAL, **Histoire de la géométrie** (Paris, P.U.F., 1943).
O. BECKER et J. HOFMANN, **Histoire des mathématiques** (Paris, Lamarre, 1956).
M. BOLL, **Les étapes de la mécanique** (Paris, P.U.F., 1943).
P. COUDERC, **Les étapes de l'astronomie** (Paris, P.U.F., 1943).

P. GUAYDIER, **Les étapes de la physique** (Paris, P.U.F., 1950).
M. CAULLERY, **Les étapes de la biologie** (Paris, P.U.F., 1941).
E. MAY, **La médecine, son passé, son présent, son avenir** (Paris, Payot, 1958).
LECENE, **L'évolution de la chirurgie** (Paris, Masson, 1923).
J. CUEILLERON, **Histoire de la chimie** (Paris, P.U.F., 1957).
L. LEPRINCE-RINGUET, **Grandes découvertes du XX° siècle** (Paris, Larousse, 1956).

الحركة الادبية والفنية

Encyclopédie française publiée sous la direction de L. FEBVRE, t. **XVI t. XVII, Arts et littératures dans la civilisation contemporaine; t. XVIII, La civilisation écrite** (Paris, Larousse, 1935-1939).
P. VAN TIEGHEM, **Histoire littéraire de l'Europe et de l'Amérique, de la Renaissance à nos jours** (Paris, Colin, 1941).
R. AYRAULT, **La genèse du romantisme allemand** (Paris, Aubier, 1960).
A. BEGUIN, **l'âme romantique et le rêve** (Corti, 1963).
R. M. ALBERES, **L'aventure intellectuelle du XX° siècle, 1900-1959** (Paris, Albin Michel, 1959).
L. HALPHEN, **Histoire et historiens depuiscinquante ans : 1867-1925, 2 vol.** (Paris, P.U.F., 1927-1928).
P. LAVEDAN, **Histoire de l'art: Les faits et les doctrines** (Paris, P. U. F., Collection «Clio», 1944).
L. REAU, **Histoire universelle des arts, t. III et V** (Paris, Colin, 1936).
L. HAUTECOEUR, **Histoire de l'art; t. III : De la nature à l'abstraction** (Paris, Flammarion, 1959).
A. FOCILLON, **La peinture aux XIX° et XX° siècles**, (Paris, Lamens, 1927).
L. REAU, **L'ère romantique, Les arts plastiques** (Paris, Albin Michel, 1949).
E. DEKEYSER, **L'Occident romantique, 1789-1850** (Skira, 1965).
P. COUTHION, **Le romantisme** (Skira 1961).
P. FRANCASTEL, **L'impressionnisme**, (Paris, Les Belles-Lettres, 1937).
M. SERULLAZ, **L'impressionnisme** (Paris, P.U.F., 1961) ; **Le Cubisme**, (Paris, P.U.F., 1963).
R. RAY, **La peinture moderne** (Paris, P.U.F., 1942).
LO DUCA, **L'Affiche**, (Paris, P.U.F., 1943).
E. VUILLERMOZ, **Histoire de la musique** (Paris, A. Fayard, 1949).
A. EINSTEIN, **La musique romantique** (Paris, Gallimard, 1959).
H. H. STUCKENSCHMIDT, **Musique nouvelle** (Paris, Corréa, 1956).
P. HUOT-PLEUROUX, **Histoire de la musique religieuse, des origines à nos jours** (Paris, P.U.F., 1957).
L. GUICHARD, **La musique et les lettres au temps du romantisme** (Paris, P.U.F., 1958).

التطور السياسي

Encyclopédie française, publiée sous la direction de L. FEBVRE, t. X, l'Etat **moderne** (Pars, Larousse, 1935).

J. TOUCHARD et Collaborateurs, **Histoire des idées politiques, t. II** (Paris, P.U.F., Collection «Thémis», 1959).

M. DUVERGER, **Les partis politiques** (Paris, Colin, 1951).

G. E. LAVAU, **Partis politiques et réalités sociales** (Paris, Colin, 1953).

A. LATREILLE et A. SIEGFRIED. **Les forces religieuses et la vie politique** (Paris, Colin, 1951).

R. FUSILIER, **Les monarchies parlementaires, Suède, Norvège, Luxembourg, Belgique, Pays-Bas, Danemark** (Paris, Les Ed. Ouvrières, 1960).

العلائق الدولية

P. RENOUVIN et J.B. DUROSEILLE, **Introduction à l'histoire des relations internationales** (Paris, Colin, 1964).

J. DROZ, **Histoire diplomatique de 1648 à 1919** (Paris, Dalloz, 2ème Ed. 1959).

F. L'HUILLIER, **De la Sainte Alliance au Pacte Atlantique. Le dix-neuvième siècle, 1815-1898** (Neuchâtel Ed. de la Baconnière, 1954).

L. DE SAINTE-LORETTE, **L'idée d'une fédération européenne** (Paris, Colin, 1955).

M. N. DRACHKOVITCH, **Les socialismes français et allemand et le problème de la guerre (1870-1914)** (Genève, E. Droz, 1953).

E. CARRIAS, **La pensée militaire allemande** (Thèse, 1948).

J. U. NEF, **La route de la guerre totale** (Paris, Colin, 1949).

F. SCHNEIDER, **Histoire des doctrines militaires** (Paris, P.U.F., 1957).

H. COURSIER, **La Croix-Rouge internationale** (Paris, P.U.F., 1959).

اوروبا

Ch. SEIGNOBOS, **Histoire politique de l'Europe contemporane. Evolution des partis et des formes politiques (1814-1914)** (Ed. 1924, Paris, Colin).

Ch. SEIGNOBOS, **Essai d'une histoire comparée des peuples de l'Europe** (Paris, Rieder, 1938).

B. CROCE, **Histoire de l'Europe au XIXe siècle** (Paris, Plon, traduction H. BEDARIDA, 1959).

A. SAUVY, **L'Europe et sa population** (Paris, Ed. Internationales, 1954).

G. WEILL, **L'Europe du XIXe siècle et l'idée de nationalité** (Paris, Albin Michel, 1938).

P. HENRY, **Le problème des nationalités** (Paris, Colin, 1937).

H. CONTAMINE, **L'Europe est derrière nous** (Paris, A. Fayard, 1953).

H. HEATON, **Histoire économique de l'Europe, t. II** (Paris, Colin, 1952).

A. DEMANGEON, **Le déclin de l'Europe** (Paris, Colin, 1920).
A. DEMANGEON et L. FEBVRE, **Le Rhin, problème d'histoire et d'économie** (Paris, Colin, 1953).
F. PERROUX, **L'Europe sans rivages** (Paris, P.U.F., 1954).
F. PONTEIL, **1848** (Paris, Colin, 1937).
E. TERSEN, **Quarante-huit** (Paris, Club Français du Livre, 1957).
J. DROZ, **Les révolutions allemandes de 1848** (Paris, P.U.F., 1957).

فرنسا

E. LAVISSE, **Histoire de France contemporaine, t. IV à VIII** par CHARLETY et SEIGNOBOS (Paris, Hachette, 1921).
P. GAXOTTE, **Histoire des Français, t. II** (Paris, Flammarion, 1951).
G. DUBY et R. MANDROU, **Histoire de la civilisation française, t. II** (Paris, A. Colin, 1958).
Ch. MORAZE, **La France bourgeoise (XVIII° - XX° siècles)** (Paris, Colin, 1946).
G. DUPEUX, **La société française, 1789-1900** (Paris, A. Colin, 1964).
F. PONTEIL, **La monarchie parlementaire** (Paris, Colin, 1948).
Ph. VIGIER, **La monarchie de Juillet** (Paris, P.U.F., 1962).
A. DANSETTE, **Louis-Napoléon à la conquête du pouvoir** (Paris, Hachette, 1961).
M. BLANCHARD, **Le Second Empire** (Paris, Colin, 1950).
G. BOURGIN, **La Commune** (Paris, P.U.F., 1953).
J. A. FAUCHER, **La véritable histoire de la Commune** (Paris, Atlantic, 1960, 3 vol.).
H. GUILLEMIN, **Les origines de la Commune** (Paris, Gallimard, 1950-1960, 3 vol.).
P. BOUJU et H. DUBOIS, **La Troisième République** (Paris, P.U.F., 1963).
H. REMOND, **La droite en France de 1815 à nos jours** (Paris, Aubier, 1964).
P. COMBE, **Niveau de vie et progrès technique en France, 1860-1939** (Thèse, Strasbourg, 1955).
G. P. PALMADE, **Capitalisme et capitalistes français au XIX° siècle** (Paris, A. Colin, 1961).
L. DUNHAM, **La révolutions industrielle en France (1815-1848)** (Paris, Rivière, 1953).
GIRARD, **La garde nationale 1814-1871** (Paris, Plon, 1964).
J. L'HOMME,**La grande bourgeoisie au pouvoir 1830-1880** (Paris, P.U.F., 1960).
G. WORMSER, **La République de Clémenceau** (Paris, P.U.F., 1961).
J. HOURS, **Le mouvement ouvrier français** (Paris, Ed. Ouvrières, 1952).
G. LEFRANC, **Le Syndicalisme en France** (Paris, P.U.F., 1953).
R. DAVAL, **Histoire des idées en France** (Paris, P.U.F., 1953).
R. GARAUDY, **Les sources françaises du socialisme scientifique** (Paris, Ed.

Hier et Aujourd'hui, 1948).
D. LIGOU, Histoire du socialisme en France (Paris, P.U.F., 1962).
G. LEPOINTE, L'Eglise et l'Etat en France (Paris, P.U.F., 1960).
E. CARRIAS, La pensée militaire française (Paris, P.U.F., 1960).
C. DIGEON, La criseallemande de la pensée française, 1870-1914 (Paris, P.U.F., 1959).

اوروبا الشمالية والشمالية الغربية

L. CAHEN, L'Angleterre au XIX° siècle. Son évolution politique (Paris, Colin, 1924).
E. HALEVY, Histoire du peuple anglais, 5 vol. parus (Paris, Hachette, 1913-1948).
A. J. BOURDE, Histoire de la Grande-Bretagne (Paris, P.U.F., 1961).
J. CHASTENET, Le siècle de Victoria (Paris, A. Fayard, 1947).
L. CAZMIAN, L'Angleterre moderne. Son évolution (Paris, Flammarion, 1928).
B. VAN KALKEN, Histoire de la Belgique et de son expansion coloniale (Bruxelles, Office de Publicité, 1954).
J. DHONT, Histoire de la Belgique (Paris, P.U.F., 1963).
E. VAN GELDER, Histoire des Pays-Bas (Paris, Colin, 1936).
L. KRABBE, Histoire du Danemark (Paris, Klincksieck, 1950).
SVANSTROM et PALMSTIERNA, Histoire de Suède (Paris, Stock, 1944).
P. JEANNIN, Histoire des pays scandinaves (Paris, P.U.F., 1956).

اوروبا الوسطى

J. ANCEL, Manuel géographique de politique européenne. L'Europe centrale, 2 vol. (Paris, Delagrave, 1937 - 1940).
P. BENAERTS, Les origines de la grande industrie allemande (Thèse, Paris, 1933).
H. LICHTENBERGER, L'Allemagne moderne. Son évolution (Paris, Flammarion, 1908).
J. DROZ, Le romantisme politique en Allemagne, (Paris, 1963).
E. VERMEIL, L'Allemagne contemporaine, sociale, politique, culturelle (Paris, Aubier, 1953).
J. DROZ, Histoire de l'Autriche (Paris, P.U.F., 1947).
J. ANCEL, Slaves et Germains (Paris, Colin, 1939).
B. AUERBACH, Les races et les nationalités en Autriche-Hongrie (Paris, Alcan, 1917).
L. EISENMANN, Le compromis austro-hongrois de 1867 (Thèse, Paris, 1904).
E. TERSEN, Histoire de la Hongrie (Paris, Hachette, 1959).
G. DE BERTIER DE SAUVIGNY, Metternich et son temps (Pars, Hachette, 1959).

Ch. GILLIARD, **Histoire de la Suisse** (Paris, P.U.F., 1944).

اوروبا الجنوبية

P. GUICHONNET, **L'unité italienne** (Paris, P.U.F., 1961).
M. VAUSSARD, **Histoire de l'Italie contemporaine (1870-1946)** (Paris, Hachette, 1950).
J. HURE, **Histoire de la Sicile** (Paris, P.U.F., 1957).
P. HURE, **Histoire de l'Espagne** (Paris, P.U.F., 1947).
Ch. E. NOWELL, **Histoire du Portugal** (Paris, Payot, 1953).

اوروبا الشرقية والتوسع الروسي

A. MOUSSET, **Le monde slave** (Paris, S.E.F.S., 1946).
J. MEUVRET, **Histoire des pays baltiques** (Paris, Colin, 1934).
H. DE MONFORT, **La Pologne** (Paris, La Renaissance du Livre, 1947).
A. JOBERT, **Histoire de la Pologne** (Paris, P.U.F., 1953).
J. ANCEL, **Manuel historique de la Question d'Orient** (Paris, Delagrave, 1927).
R. RISTELHVEBER, **Histoire des peuples balkaniques** (Paris, A. Fayard, 1950).
M. DEVOS, **Histoire de la Yougoslavie** (Paris, P.U.F., 1955).
N. SVORONOS, **Histoire de la Grèce moderne** (Paris, P.U.F., 1953).
J. TULARD, **Histoire de la Crète** (Paris, P.U.F., 1962).
A. EMILIANIDES, **Histoire de Chypre** (Paris, P.U.F., 1962).
P. MILLIOUKOV, Ch. EISENMANN, Ch. SEIGNOBOS, **Histoire de Russie, t. II et III** (Paris, Leroux, 1932).
G. ALEXINSKY, **La Russie révolutionnaire** (Paris, Colin, 1947).
M. SEMIONOV, **La conquête de la Sibéria** (Paris, Payot, 1936).
L. HAMBIS, **La Sibérie** (Paris, P.U.F., 1957).
B. PONOMAREV et Collaborateurs, **Histoire du parti communiste de l'Union Soviétique** (Moscou, Ed. en langue étrangère, 1960).
H. LEFEBVRE, **Pour connaître la pensée de Lénine** (Paris, Bordas, 1957).

الامبراطورية الالمانية

A. DEMANGEON, **L'Empire britannique. Etude de géographie coloniale** (Paris, Colin, 1923).
J. J. CHEVALLIER, **L'évolution de l'Empire britannique**, 2 vol. (Paris, Ed. Internationales, 1930).
J. MAGAN DE BORNIER, **L'Empire britannique, son évolution politique et constitutionnelle** (Paris, Mechelinck, 1930).
H. GRIMAL, **Histoire du Commonwealth britannique** (Paris, P.U.F., 1962).
R. RUMILLY, **Histoire du Canada** (Paris, La Clé d'Or, 1951).

J. A. LESOURD, **L'Union sud-africaine** (Paris, P.U.F., 1963).
A. W. JOSE, **Histoire de l'Australie** (Paris, Payot, 1930).
A. HUETZ DE LEMPS, **Australia et Nouvelle Zélande** (Paris, P.U.F., 1954).

امیرکا

P. CHAUNU, **l'Amérique et les Amériques** (Paris, Colin, 1964).
Ch. B. CLOUGH, **Histoire économique des Etats-Unis d'Amérique depuis la guerre de Sécession** (Paris, P.U.F., 1953).
H. U. FAULKNER, **Histoire économique des États-Unis d'Amérique** (Paris, P.U.F., 1958, 2 vol.).
J. NERE, **La guerre de Sécession** (Paris, P.U.F., 1961).
M. J. BUTCHER, **Les noirs dans la civilisation américaine** (Paris, 1958).
F. L. SCHDELL, **Histoire de la race noire aux Etats-Unis du XVII**e **à nos jours** (Paris, Payot, 1959).
O. W. LARKIN, **L'art et la vie en Amérique** (Paris, Plon, 1952).
H. S. COMMAGER, **L'esprit américain** (Paris, P.U.F., 1965).
P. CHAUNU, **Histoire de l'Amérique latine** (Paris, P.U.F., 1964).
A. SIEGFRIED, **Amérique latine** (Paris, Colin, 1934).
R. S. COTTERIL, **Histoire des Amériques** (Paris, Payot, 1946).
V. ALBA, **Le mouvement ouvrier en Amérique latine** (PaPris, Ed. Ouvrières, 1953).
G. FREYRE, **Maître et esclaves** (Paris, Gallimard, 1952).
P. MONBEIG, **Le Brésil**, (Paris, P.U.F., 1954).
Ch. MORAZE, **Les trois âges du Brésil. Essai de politique** (Paris, Colin, 1954).
J. TOUCHARD, **La République argentine** (Paris, P.U.F., 1952).
Ch. AUBRUN, **L'Amérique centrale** (Paris, P.U.F., 1952).
F. WEYMULLER, **Histoire du Mexique** (Paris, P.U.F., 1954).
E. PEPIN, **Le panaméricanisme**, (Paris, Colin, 1938).

العالم الاسلامي

H. MASSE, **L'Islam** (Paris, Colin, 1930).
L. GARDET, **La Cité musulmane: Vie sociale et politique** (Paris, 1954).
L. STRODDARD, **Le nouveau monde de l'Islam** (Paris, Payot, 1923).
X. DE PLANHOL, **Le monde islamique. Essai de géographie religieuse** (Paris, P.U.F., 1957).
G. NIGEON, **Manuel d'art musulman**, 2 vol. (Paris, Picard, 1927).
R. FURON, **La Perse** (Paris, Payot, 1938).
R. DOLLOT, **L'Iran, Perse et Arghanistan** (Paris, Payot, 1951).
G. HANOTAUX, **Histoire de la nation égyptienne, t. VI-VII** (Paris, 1935-36).
M. CHRETIEN, **Histoire de l'Egypte moderne** (Paris, P.U.F., 1951).
Ch. A. JULIEN, **Histoire de l'Afrique du Nord** (Paris, Payot, 1952).

Ch. A. JULIEN, **Histoire de l'Algérie** contemporaine (Paris, P.U.F., 1964).
J. KLEIN, **La Tunisie** (Paris, P.U.F., 1949).
J. GANIAGE, **Les origines du protectorat français en Tunisie, 1861 - 1881** (Paris, P.U.F., 1959, thèse).
E. F. GAUTIER, **Un siècle de colonisation : Etude au microscope** (Paris, Alcan, 1930).
A. AYACHE, **Le Maroc** (Ed. sociales, 1966).
R. MONTAGNE, **La civilisation du désert** (Paris, Gallirmard, 1946).
R. CAPOT-REY, **Le Sahara français** (Paris, P.U.F., 1953).
V. MONTEIL, **Les musulmans soviétiques** (Paris, Ed. du Seuil, 1957).
J. P. ALEM, **L'Arménie** (Paris, P.U.F., 1959).
E. E. RAMSAUR, **The Young Turks. Prelude to the révolution of 1908** (Princeton, University Press, 1957).

اسرائيل والحركة الصهيونية

C. ROTH, **Histoire du peuple juif** (Paris, Ed. de la terre retournée, 1948).
A. CHOURAQUI, **L'Etat d'Israël** (Paris, P.U.F., 1955).
J. COHEN, **Le mouvement sioniste** (Paris, Ed. de la terre retournée, 1946).
A. CHOURAQUI, **Théodore Herzl inventeur de l'Etat d'Israël** (Paris, Ed. du Seuil, 1960).
Chaïm WEIZMANN, **Naissance d'Israël** (Paris, Gallimard, 1957).

افريقيا السوداء وعالم ما بين خطي الجدي والسرطان

P. GOUROU, **Les pays tropicaux,** (Paris, P.U.F., 1941).
H. LABOURET, **Histoire des noirs d'Afrique** (Paris, P.U.F., 1946).
R. CORNEVIN, **Histoire des peuples de d'Afrique noire** (Paris, Berger-Levrault, 1960).
R. CORNEVIN, **Histoire du Togo** (Paris, Berger-Levrault, 1959).
R. CORNEVIN, **Histoire du Dahomey** (Paris, P.U.F., 1965).
D. PAULME, **Les civilisations africaines** (Paris, P.U.F., 1953).
H. DESCHAMPS, **L'éveil politique africain** (Paris, P.U.F., 1952).
RICHARD-MOLARD, **L'Afrique occidentale française** (Paris, Berger-Levrault, 2ème éd., 1952).
H. DESCHAMPS, **Les relgions de l'Afrique noire** (Paris, P.U.F., 1960).
E. REVERT, **Les Antilles** (Paris, Colin, 1954).
A. YOU, **Madagascar, Colonie française** (Paris, Société d'Editions géographiques, 1931).
H. DESCHAMPS, **Histore de Madagascar** (Paris, Berger-Levrault, 1960).
A. TOUSSAINT, **Histoire de l'Océan Indien** (Paris, P.U.F., 1961).
Ch. A. JULIEN, **Histoire de l'Océanie** (Paris, P.U.F., 1942).
D. L. OLIVER, **Les îles du Pacifique. L'Océanie des temps modernes à nos jours** (Paris, Payot, 1952).

آسيا : الهند والشرق الأقصى

P. MEILE, **Histoire de l'Inde** (Paris, P.U.F., 1951).
R. PALME DUTT, **L'Inde d'aujourd'hui et de demain** (Paris, Ed., sociales, 1957).
M. K. GANDHI, **Expériences de vérité ou autobiographie** (Paris, P. U. F., 1950).
Ch. ROBEQUAIN, **Le monde malais** (Paris, Payot, 1946).
J. BRUHAT, **Histoire de l'Indonésie** (Paris, P.U.F., 1958).
LE THANH-KHOI, **Histoire de l'Asie du Sud-Est** (Paris, P.U.F., 1959).
P. FISTIE, **Singapour et la Malaisie** (Paris, P.U.F., 1960).
GONNARD, **La colonisation hollandaise à Java** (Paris, Thèse, 1905).
E. DENNERY, **Foules d'Asie** (Paris, Colin, 1930).
P. GOUROU, **La terre et l'homme en Extrême-Orient** (Paris, Colin, 1947).
P. RENOUVIN, **La question d'Extrême-Orient** (Paris, Hachette, 1946).
A. MASSON, **Histoire de l'Indochine** (Paris, P.U.F., 1950).
A. MASSON, **Histoire du Vietnam** (Paris, P.U.F., 1960).
LE THANH-KHOI, **Viet-nam, histoire et civilisation** (Paris, Ed. de Minuit, 1955).
A. DAUPHIN-MEUNIER, **Histoire du Cambodge** (Paris, P.U.F., 1961).
A. DUBOSCQ, **l'évolution de la Chine** (Paris, Bossard 1921).
E. HOVELACQUE, **La Chine,** (Paris, Flammarion, 1923).
G. MASPERO, **La Chine, 2vol.** (Paris,Flammarion, 1923).
G. MASPERO, **La Chine, 2 vol.** (Paris, Delagrave, 1925).
R. GROUSSET, **Histoire de la Chine** (Paris, A. Fayard, 1946).
G. DUBARBIER, **Histoire de la Chine moderne** (Paris, P.U.F., 1949).
LA MAZELIERE, **Histoire du Japon, t. III, IV, V** (Paris, Plon, 1906).
R. BERSIHAND, **Histoire du Japon des origines à nos jours** (Paris, Payot, 1959).
F. LEGER, **Les influences occidentales dans la révolution de l'Orient: Inde-Malaisie-Chine, 1850-1950** (Paris, Plon, 1955).
S. SCHRAM et H. CARRERE D'ENCAUSSE, **Le marxisme et l'Asie, 1853-1964** (Paris, Colin, 1965).
K. M. PANNIKKAR, **L'Asie et la domination occidentale du XV[e] siècle à nos jours** (Paris, Ed. du Seuil, 1956).
L. AUBERT, **Les maîtres de l'estampe japonaise** (Paris, Colin, 1922).
G. WILLOQUET, **Histoire des Philippines** (Paris, P.U.F., 1961).

مـــراجـع عربيـــة

استكمالاً لجريدة المصادر الفرنجية رأت « دار منشورات عويدات » في بـــيروت تكليف الاستاذ يوسف اسعد داغر الاختصاصي بفن المكتبات والخبير العالمي بالببليوغرافيـــا الشرقية والتوثيق العلمي ، وأحد المترجمين لهذه الموسوعة التاريخية إعداد قائمة ببليوغرافية ، بالمراجع والمصادر التاريخية العربية التي تتعلق بأهم مواد هذا الجزء الخاص بتاريخ العالم بين ١٨١٥–١٩١٤ وقد نزل الاستاذ داغر عند رغبتنا هذه فأعد هذه القائمة خدمة للبحث العلمي وتيسيراً لأسبابه وللعاملين في مجالاته في عالم الضاد ممن يهتمون بالدراسات التاريخية العائدة لهذه الحقبة المهمة من التاريخ العام .

فعسى ان يجد الباحثون في هذه القوائم المختارة مـــا يغني بعض الشيء عن جهد التقصي والتقميش .

اوروبا ـــ التاريخ الحديث

حداد ، جورج مرعي – تاريخ اوروبا والمسألة الشرقية في الازمنة الحديثة ١٧٨٩ – ١٨٤٨ حلب المطبعة الوطنية ١٩٣٥ ، ٢٥١ ص ، مع صور ـ خريطة .

رايكنكر ، انطون – الوجه الاقتصادي لاوروبا ، ترجمة جابر عمر – بغداد ، دار المعرفة ١٩٥٣ ، ٣٢٣ ص .

شكري ، محمد فؤاد ـــ الصراع بين البورجوازية والاقطاع (١٧٨٩ – ١٨٤٨) ، القاهرة ، دار الفكر العربي ، ٣ مجلدات .

الفلكي ، محمود صالح – التكتلات الاقتصادية الغربية : نشأتها ، انظمتهـــا ، اغراضهـــا المباشرة ، اهدافها البعيدة – القاهرة ، دار النشر للجامعيـــات المصرية ١٩٦٢ ، ١٢١ ص ، مراجع ص ١١٧ .

فيشر ، هربرت البرت لورنس – تاريخ اوروبا في العصر الحديث ، ترجمة احمد نجيب هاشم ووديع الضبع – القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٤١ ، ٦٦٩ ص – خرائط .

قاسم ، محمد – تاريخ القرن التاسع عشر وما يليه من حوادث حتى نهاية الحرب العظمى – القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٤ ، ٣٥٦ ص ، صور ، خرائط .

هيروفيل ، هوبير – اقتصاديات بلدان الحوض المتوسط . ترجمة نهاد رضا – بيروت ، منشورات عويدات ١٩٦١ ، ١٨٧ ص .

قاسم ، احمد واحمد نجيب هاشم ، التاريخ الحديث والمعاصر – القاهرة ، دار المعارف ١٩٦١ ٢٥٦ ص – صور ، خرائط .

هيز ، كارلتون جوزف – الثورة الصناعية ، ترجمة احمد عبد الباقي – بغداد ، مكتبة المثنى ، ١٩٥٠ ، ٢١٩ ص .

روسيا

أنور الكيراي ، يوسف – كارثة القرم الاسلامية في الاتحاد السوفياتي – القاهرة ، مطبعة الصاوي ، ١٩٥٠ ، ١٨٢ – خرائط .

سليم قيصين – سياحة في روسيا – مصر .

نخلة قلفاط – تاريخ روسيا الحديث – بيروت ، ١٨٨٦ – ١٨٨٨ ، في اربعة اجزاء .

امين الشميل – الوافي : فصل في تاريخ المسألة الشرقية ومتعلقاتها وتاريخ الحرب العثمانية الروسية سنة ١٨٧٧ ، في كتابين يقعان معاً في ٦ أجزاء ، طبع اثنان منها فقط .

حقي العظم – دفاع بلفنا (في حرب الروس مع الدولة العثمانية) سنة ١٨٧٨ دمشق ، مطبعة الترقي ١٣١٨ هـ (١٩٠٠ م) ١٤٣ ص مع خريطة .

المقتطف – دولة الروس أو ثلثمائة سنة على بيت رومانوف ، مجلد ٤٢ (١٩١٣) ، ص ٣١٣ و ٤٧٦ ، و ٥٦٨ .

البلقان - تركيا - الحرب البلقانية - اليونان

ابن حبيب ، الحسن – درة الاسلاك في دولة الاتراك – دمشق ١٩٦٧ مجلدان .

الايام ، جريدة (يوسف نعمان معلوف) ، اسرار يلدز او العقد الثمين في تاريخ اربعة سلاطين نيويورك ، مطبعة الايام ، ١٩٠٠ ، ٣٣٧ ص مع صور .

بيهم ، محمد جميل – العرب والترك في الصراع بين الشرق والغرب . دراسة تستعرض دور العرب والترك في تنازع العالم على السيادة – بيروت المطبعة الوطنية ١٩٥٧ ، ص ٢٢٥ .

... فلسفة التاريخ العثماني – بيروت ، مطبعة صادر ، ١٩٢٥ – ١٩٥٤ ، مجلدان .

جودت ، احمد – تاريخ جودت ، ترجمة عبد القادر الدنا – بيروت ، مطبعة جريدة بيروت ١٣٠٨ هـ .

جياناكوليس ، ثيودور – اليونان : شعبها وارضها . ترجمة محمد امين رستم – القاهـــرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٣ .

العقاد، سليم – تاريخ الحرب البلقانية المصورتين الدولةالعثمانية ودول الاتحاد البلقاني–القاهرة مطبعة الهلال ، ١٩١٣ .

حلمي ، ابهم – التحفة الحليمية في تاريخ الدولة العلية – القاهرة، مطبعة ديوان عموم الاوقاف ١٩٠٥ ، ٢٥٤ ص .

خانكي ، عزيز – الذكرى المئوية لواقعة نزيب (٢٤ يونيه ١٨٣٩ – ٢٣ يونيـــه ١٩٣٩ – القاهرة ، ٣٨ صفحة .

دروزة ، محمد عزة – تركيا الحديثة – بيروت ، مطبعة الكشاف ١٩٤٦ ، ٣٥٥ صفحة .

البستاني ، يوسف افرام – تاريخ حرب البلقان الاولى بين الدولة العالية والاتحاد البلقاني ، القاهرة ، مطبعة الهلال ، ١٩١٣ ، ٢٢٧ صفحة – خريطة – صور .

الريس، محمد ضياء الدين – تاريخ الشرق العربي والخلافة العثمانية اثناء الدور الاخير للخلافة (١٧٧٤ – ١٩٢٤) – القاهرة ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٥٠ (يشتمل على تاريخ مصر وتركيا والشام والعراق وجزيرة العرب منذ اواخر القرن الثامن عشر الى العصر الحاضر) .

ساسون، عزرا صموئيل– تاريخ مدحت باشا وجمعية الاتحاد والترقي العثمانية –الاسكندرية مطبعة جرجي غرزوزي ، ١٩١٠ ، ١٠٤ صفحات.

شاكر ، علي – القول السديد في حرب الدولة العلية مع اليونان – القاهرة ، مطبعـــة الموسوعات ، ١٣٢١ هـ، ١٩٤ ص .

صفوت ، محمد مصطفى – مؤتمر برلين ١٨٧٨ واثره في البلاد العربية – القاهرة ، معهـــد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٧ .

... محاضرات في المسألة الشرقية ومؤتمر باريس – القاهرة ، معهد الدراسات العربيـــة العالية ١٩٥٨ ، ٦٢ صفحة .

كامل ، مصطفى – المسألة الشرقية – القاهرة ؛ مطبعة الآداب ، ١٨٩٨ ، ٣٥٢ ص .

ايطاليا ـ النزاع الايطالي في الحبشة (١٨٩٥ – ١٨٩٦) مأخوذ عن التقرير الايطالي المرفوع الى عصبة الامم ، ترجمة رستم درويش – ٣٢ ص .

المانيا

جمال الدين ، فوزي ـ من بسمارك الى هتلر (لتلاميذ وتلميذات السنة الرابعة بالمدارس الثانوية بالسودان). – امدرمان ، مكتبة الحرية ١٤٠ ص .

العقاد سليم – غليوم الثاني . ترجمته الشخصية والسياسية – القاهرة المطبعة المصرية ، لا . ت. ١٨٦ ص .

الاستعمار

رياض ، زاهر – استعمار القارة الافريقية واستغلالها – القاهرة ١٩٦٦، ٣٣٣ص – خرائط مراجع ص . ٣٢٦ – ٣٣٣ .

... استعمار افريقية– القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٥ ؛ ٤٦١ ص ـ صور ـ خرائط ـ مع مراجع .

الشهابي الأمير مصطفى ـ محاضرات في الاستعمار ـ القاهرة ، معهد الدراسات العربية العالية ، ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ، جزآن .

حربي ، محمد ـ تاريخ العصر الحديث : مصر . الولايات المتحدة ـ الاستعمار الاوروبي ـ القاهرة ، مطبعة دار الكتب ، ١٩٢٦ ، ٣١٣ ص ـ صور ـ خرائط .

عبده ، علي ابراهيم ـ اضواء على المنافسة الدولية في اعالي النيل ـ القاهرة ـ الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٢ ، ٢٠١ ص مراجع ص ١٩٧ – ٢٠١ .

... المنافسة الدولية في اعالي النيل (١٨٨٠ ـ ١٩٠٦) ـ القاهرة مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٥٨ ، ٣٩٨ ص ـ خرائط ـ مراجع ص ٣٨١ .

الغزالي ، محمد ـ الاستعمار : احقاد واطماع ـ القاهرة ، مكتبة الخانجي ، ١٩٥٧ ، ص ٣١٠ .

فهمي ، عبد العزيز – الاستعمار عدو الشعوب – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٣ ، ١٩٢ ص .

لينين ، ف. ا ـ الاستعمار اعلى مراحل الرأسمالية ، ترجمة راشد براوي ، مصر ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٤٧ ، ٢٠٨ ص .

محمد ، محمد عوض ـ الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ـ القاهرة ، دار الكتاب العربي ، ١٩٥٣ ، ١٦٤ ص .

نكروما ، كوامي ـ الاستعمار الجديد ، آخر مراحل الامبريالية ، ترجمة عبد الحميد حمدي القاهرة ، دار القاهرة للطباعة والنشر ١٩٦٦ ، ٣١١ ص .

افريقيا

ابو المجد ، صبري – ثورة افريقيا – القاهرة ، الشركة العربية ، ١٩٦٠ ٢٩٨ صفحة .

حمدان ، جمال – افريقيا الجديدة . دراسة في الجغرافية السياسية – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٦٦ ؛ ٤٠٧ ص ، خريطة .

رفلة ، حبيب – الجغرافية السياسية لافريقيا مع دراسة شاملة للدول الافريقية سياسياً واقتصادياً وجغرافياً ؛ طبعة ثانية – القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ٩٦٦ ، ٦٧٢ ص – خرائط .

سافيدج ، كاترن – قصة افريقيا جنوبي الصحراء الكبرى ، ترجمة راشد البراوي – القاهرة ، دار النهضة العربية ، ١٩٦٣ ، ٢١٠ صفحات – صور . خرائط .

سمبسون ، انتوني – حول افريقيا . ترجمة احمد حمزة ومحمد الخولي ـ القاهرة ، دار القومية للطباعة والنشر ، لا . ت ، ١٩٤ ص

الصقار ، فؤاد محمد ـ التفرقة العنصرية في افريقيا – القاهرة ، دار النهضة المصرية ١٩١٢ ، ٣٤ صفحة .

طاهر ، احمد ـ افريقيا في مفترق الطرق ـ القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والترجمة والنشر ، ١٩٦٥ ، ٤٩٩ صفحة .

العقاد ، صلاح – المغرب العربي والاستعمار الفرنسي الى التحرر القومي ـ القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ، لا . ت . مراجع .

عودة ، عبد الملك ـ السياسة والحكم في افريقيا – القاهرة ، مكتبة الانجلو المصرية ١٩٥٩ ، ٥٧٥ صفحة ـ مراجع ص ٥٥٧ ـ ٥٧٥ .

نكروما ، كوامي ـ الوجدانية : فلسفة وعقيدة للتحرر والتطور خصوصاً بالنسبة للثورة الافريقية ، ترجمة كريم عزقول ـ بيروت ، ١٩٧٤ ، ٢١٩ ص .

السويس

ابو السعود ، جمـــال سليمان – قناة السويس : ماضيها وحاضرها ومستقبلها – القاهرة ، مطبعة مصر ١٩٥٦ ، ٢٦٥ ص .

براوي ، راشد – المركز الدولي لمصر والسودان وقناة السويس – القاهرة مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٢، ٢٣٢ ص .

حرب ، محمد طلعت – قناة السويس – القاهرة ، مطبعة الجريدة ، ١٩١٠ ، ١٤٠ ص.

الحفناوي ، مصطفى – قصة قناة السويس ، القاهرة – مطبعة نخيمر ١٩٥٨ – ١٦٥ صفحة مع صور وخرائط .

... قناة السويس ومشكلاتها المعاصرة – القاهرة ، ١٩٥٢ ، ٣ اجزاء .

خازكي ، عزيز – قناة السويس: نبذة تاريخية ومالية – القاهرة ، المطبعة العصرية ، لا . ت . ٥١ ص .

رشوان ، عبدالله – المركز الدولي لقناة السويس ونظائرها – القاهرة ، مطبعة حجازي ، ١٩٥٠ ، ١٣١ صفحة .

الشاعر ، يحيى – قناة السويس بين ادارتين . دراسة تاريخية سياسية ، اقتصادية ، قانونية – بيروت ، الجامعة اللبنانية ١٩٦١ ، ٣٦٣ ورقة – خريطة .

شفيق ، احمد – قناة السويس معجزة القرن التاسع عشر – القاهرة مطبعة حوليات مصر السياسية ، ١٠٣ صفحات .

الشناوي ، عبد العزيز محمد – الدبلوماسية الفرنسية تربط بين مسألتي قناة السويس وابريد الجديدة – القاهرة ، مطبعة جامعة القاهرة ، ١٩٦٤ ، ٦٣ص .

... السخرة في حفر قناة السويس – الاسكندرية ، منشأة المعارف ١٩٥٨ ، ٣٧٦ ص – خرائط .

شونفيلد ، هيو جوزف – قناة السويس ، ترجمة احمد خاكي – القاهرة – لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤٥ ، ١٨٢ ص – خريطة .

صبري ، محمـــد – كتاب القناة : اسرار قضية التدويل واتفاقية ١٨٨٨ – القاهرة ، دار القاهرة ١٩٥٠ ، ٩٦ ص .

صفوت ، محمد مصطفى – انكلترا وقناة السويس ١٨٥٤ – ١٩٥١ – الاسكندرية مطابع رمسيس ١٩٥٢ .

... مسألة قناة السويس – القاهرة ، دار الشرق ، ١٩٥٧ ، ٣٢٤ ص .

غالي ، بطرس ـ قناة السويس ومشكلاتها ١٨٥٤ ـ ١٩٥٧ ـ الاسكندرية مطابع البصير ١٩٥٨ ، (نص بالفرنسي والعربي) .

غلاب ، محمد السيد وآخرون ـ السويس ـ القاهرة ، الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦ ، ٣٠٧ ص .

قناة السويس : حقائق ووثائق (مع الاتفاقات والمعاهدات والبيان الثلاثي) ـ القاهرة ، دار المعارف ، ١٩٥٧ ، ٢٨٠ ص ـ صور .

البحر المتوسط والبحر الاحمر

الجمل ، شوقي عطاالله ـ الوثائق التاريخية لسياسة مصر في البحر الاحمر ١٨٦٣-١٨٧٩ جمعها وحققها ورتبها واعدها للنشر ، مع دراسة تحليلية . . ـ القاهرة ، مطبعة لجنة البيان العربي ١٩٥٩ ، ٤٣١ ص .

خانكي ، جميل ـ امراء البحر في الاسطول المصري ، من النصف الاول من القرن التاسع عشر ، مصر ، ١٩٤٧ ، ١١٣ ص ، صور .

... تاريخ البحرية المصرية – القاهرة ، مطبعـــة دار الكتب المصرية ، ١٩٤٨ ، ٤٩٢ ص ، صـــور .

رفعت ، محمد – تاريخ حوض البحر المتوسط وتياراته السياسية – القاهرة دار المعارف ، ١٩٥٠ ، ٥١٤ ص – خرائط .

ضرار ، محمد صالح – تاريخ السودان والبحر الاحمر واقاليم البجّة – بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٦ ، ١٦١ ص – صور .

غزالة ، حبيب ، جزيرة رودوس جغرافيتها وتاريخها وآثارها – القاهرة ، مطبعة الاعتاد ، ٩١ ص مع خرائط وصور .

يحيى ، جلال – سواحل البحر الاحمر – الاسكندرية ، المكتبة الافريقية ١٩٦٠ ، ١٢٨ ص .

الولايات المتحدة الاميركية

برايس ، جيمس ـ المؤسسات والنظم الاميركية . نظرات تأملية في طبيعتها ، ترجمة أنيس صايغ ، مراجعة ابراهيم داغر ، بيروت الدار الشرقية للطباعة والنشر ، ١٩٦٤ ، ٣٧٥ ص .

بنيه ، ستيفن فنسنت – اميركا ، ترجمة عبد العزيز عبد المجيد – القاهرة ، مكتبة الولايات المتحدة الاميركية للاستعلامات – ١٩٤٥ ، ١٩٠ ص .

بيرلنجم ، روجير – آلات صنعت امة ، ترجمة احمد عبد الرحمن حمود – القاهرة، مكتبة الآداب . لا.ت – ٢٣٢ ص .

جيمس ، برستون – ملحمة اميركا الشمالية ، ترجمة جورج قاعي – بـــيروت ، المدرسة الشرقية لا.ت – ٢٠٨ ص .

الحناوي ، كمال الدين – الاستراتيجية في الحرب الاهلية الاميركية – القاهرة مكتبة النهضة المصرية ، ١٩٥٠ ، ٢٠٠ ص – خرائط .

زيادة ، نرحات – تاريخ الشعب الاميركي – برنستون ، مطابع جامعة برنستون ١٩٤٦ ، ٣٤٦ ص – صور – خرائط .

سيرز ، ارل شنيك – حضارة العالم الجديد من عصر الاستكشاف الى عصر الذرة . فصول تاريخية أسهم في اعدادها ٦٠ استاذاً جامعيا – بغداد ، مطبعة شفيق ، ١٩٥٨، ٣٨٤ ص، صور .

صبري ، محمد – تاريخ العصر الحديث ، مصر ، الولايات المتحدة – الاستعمار الاوروبي – القاهرة ، مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٢٦ ، ٣١٣ ص – صور خرائط .

صروف ، فؤاد – مشاهد العالم الجديد – القاهرة ، مكتبة العرب ١٩٢٥ ، ١٦١ ص .

فؤاد ، احمد عبد الحميد ـ امريكا في الشرق الاوسط ـ القاهرة ١٩٥٤ .

ليسني ، دان ـ الثورة الاميركية : دوافعها ، مغزاها ، ترجمة سامي ناشد ـ القـــاهرة ، مؤسسة سجل العرب ١٩٦٦ مجلدان .

ماير ، فكتور ـ معركة السفينة ، ترجمة صبحي الجيار ـ القاهرة ، دار النهضة العربيـــة ١٩٦٢ .

هاملتن ، الكسندر – الدولة الاتحادية : اسسها ، دستورها ، ترجمة جمال محمـد احمـد بيروت ، دار مكتبة الحياة ، ١٩٥٩ ٦٨٨ ص .

كوسولاس ، ديمتري – مفتاح التقدم الاقتصادي ، ترجمة محمد ماهر نور – القـاهرة، دار الفكر العربي ، لا . ت ١٣٢ ص .

كويل ، دافيد ـ النظام السياسي في الولايات المتحدة ، ترجمة توفيق حبيب – القاهـرة ، مكتبة الخانجي ١٩٥٢ ، ٣٢٠ ص .

كلاو ، شيبارد ـ الاساس الاقتصادي للحضارة الاميركية ، ترجمة احمد حلمي حجـاج ـ القاهرة ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٥٥ ، ١٩٩ ص .

ويرنت ، جون فيليب ـ الرخاء بدون تضخم . ترجمة حسن عمر ، القـــاهرة ، مكتبة القاهرة الحديثة ، لا . ت ، ١٨٠ ص .

جدول زمني مقارن

١٨١٥ ــ ١٩١٤

١٨١٥ ــ اختتام مؤتمر فيينا . نهاية نابليون . الحلف المقدس

١٨١٦ ــ قصف مدينة الجزائر وطرابلس الغرب تأسيس جمعية ارساليات فرنسا ورهبانية اوبلات مريم بلا دنس والجمعية المريمية . الدكتور لاينك يدشن طريقة الفحص بالقرع ــ هولر يضع كتابه : تجديد العلوم السياسية . ماجندي يضع : مختصر الفسيولوجيا ــ غريلبرزر يؤلف روايته : الجدة وهوفمان ، رحيق الشيطان ، وروسيني : حلاق اشبيليا .

١٨١٧ ــ تحرير الشيلي ــ الشروع باعمال ترعة بحيرة ايريه ــ اختراع البارون درايس للدراجة المسماة باسمه : « درايسينية » ــ اسرة روتشيلد تقيم في باريس ــ ريكاردو يضع كتابه : مبادىء الاقتصاد السياسي ــ وكارل ريتر كتابه : الجغرافيا ــ وستيلر : هنداتلاس ــ لامنيه يضع كتابه : محاولة حول اللامبالاة في امور الدين ــ وت. مور : لالا روخ .

١٨١٨ ــ وافدة التيفوس في اوروبا ــ اختراع الستركنين ــ فيكا يتوصل لصنع صنف من الاسمنت يشبه الاسمنت المسلح ــ جيفروا سانت هيلار ينشر كتابه : فلسفة على التشريح ــ وكيتس ينشر : انديميون ــ وشيلي : ثورة الاسلام ــ تأسيس اكاديمية الفنون الجميلة في هافانا على يد ج.هـ. فرماي احد تلاميذ دافيد .

١٨١٩ ــ تأسيس جمهورية كولمبيا ــ احتلال البريطانيين لمدينة سنغافورا ــ المجاعة تفتك في شمالي غربي الهند ــ بدء العمل بالاتحاد الجمركي الالماني Zallverein ــ اول سفينة تجارية لاسافانا تقطع المحيط الاطلسي ــ تأسيس جمعية مرسلي بال ــ تأسيس شتاين جمعية دراسة التاريخ الالماني ــ شوبنهوير ينشر كتابه : العالم بين التصميم وبين التحييز ــ جوزف دي مستر يضع كتابه : حول البابا ــ و. سكوت ينشر روايته : ايفنهو ــ و غريلبرزر : صافو ــ وجيريكو : طوف المدوزا ــ وثورنفلدس : اسد لوسرن .

١٨٢٠ ــ دخول جمعية الفحامين فرنسا ــ اتفاق ميسوري ــ مذكرات ماك آدم التقنية ــ فيربرن يضع نولا جديدا للحياكة ــ وتوماس الارثوميتر ــ اختراع دي لارو لاول مصباح للانارة ــ اورستد وآمبير يكتشفان المظاهر الكهرديتامية واداغو يتوصل الى توليد المغنطيسية من الكهرباء ــ هكمان يقوم باول محاولة للتخدير في الطب ــ المرسل والعالم الهندي كاراي ينشىء

مؤسسة تعنى بدرس المدنيات الهندية والاوروبية دراسة مقارنة — لامارتين يضع : تأملات شعرية — وشلي : بروموتيه محررا — و . و . ارفنغ : كتاب الرسوم — ولامب : محاولات ايليا .

١٨٢١ — ثورة اليونان — استقلال البيرو وتحرير فنزويلا — موت نابليون في جزيرة سانت هيلين — البابا بيوس السابع يحرم جمعية الفحامين — فريسنل يشرح نظرية تموجات النور وسيبيك يكتشف الكهربائية الحرارية — تاسيس معهد الوثائق (مدرسة الشارت) والجمعية الجغرافية الباريسية — سان سيمون يضع كتابه : النظام الصناعي — منزوني يضع كتابه : الخامس من شهر مايو — و . مولر يضع كتابه : اغاني الاغريق — ت . كونسي يضع كتابه : اعترافات آكل الافيون — كونستابل يضع روايته : عربة التين تجتاز المخاضة — ويبر يضع : الفريشلتز .

١٨٢٢ — استقلال البرازيل وتحرير الاكوادور — اتجاه انكلترا الليبرالي في الامور الاقتصادية — المجاعة في ايرلندا — تاسيس الجمعية العاملة لتنشيط الصناعة الوطنية في البلاد الواطية — تاسيس مجمع انتشار الايمان — شمبليون يفك رموز الخط الهيروغليفي — اول اجتماع تعقده جمعية علماء اللغة لالمانية — ج.ب. فوريه يضع كتابه : النظرية التحليلية للحرارة — بوشكين يضع روايته : اسير القنقاس — ديلاكروا ينشر روايته : قارب دانته — بيتهوفن يضع لحنه : قداديس على مفتاح ر — وشوبرت يضع : السنفونيا غير المنجزة .

١٨٢٣ — رسالة الرئيس مونرو — شركة للملاحة البخارية على الفولغا — اول منارة دوارة تعمل بعدسة — ليبس يشير الى مبادىء التصوير الفوطوغرافي — متشيافتش يضع ديوانه : اغان واناشيد — بيتهوفن يضع : السمفونية التاسعة مع القورس .

١٨٢٤ — هزيمة اسبانيا عند اياكوشو (البيرو) — المجاعة في الدكن الهند — تاسيس جمعية المرسلين الانجيليين في باريس — سادي كارنو يضع كتابه : تأملات حول قوة النار المحركة — كولار يضع : ابنة سلافا — وغريلبرزر : اوتوكار — اول معرض بريطاني في صالة باريس — افتتاح الناشنال غاليري — ديلاكروا يضع : مذابح اسيو .

١٨٢٥ — بناء الخط الحديدي بين ستوكتن ودرلنغتن باشراف ستيفنسن — رحلة الانترابرايز باتجاه كلكوتا — روبرتس يخترع النول المتحرك ذاتيا في حياكة القطن — شفروي وغاي لوساك يخترعان الشمعة المصنوعة من الستيارين — اولى منشورات اوغست كونت — ماكولي يضع كتابه : محاولات — اتربون يضع : جزيرة السعادة — تيجر : ساغافريتيوف — جوزي ماريا دي هيريديا : اشعار — دافيد دانجيه : قبر الجنرال فوا

١٨٢٦ — مؤتمر بناما — البريطانيون يغزون اسام — اول رحلة للسفينة رد روفر بين كلكوتا وهونغ كونغ — البابا ليون الثاني عشر يحرم الماسونية ببراءته الرسولية — اولى مذكرات آبل — مذكرة لوبتشفسكي حول الهندسة اللااقليدية — الموسوعة الجرمانية التاريخية — هاين يضع : ديزلبلدر — ليوباردي يضع : فرسي — ف. كوبر يضع : آخر الموهيكان — بلو يضع : غابات المنطقة الحارة — بيتهوفن يضع : الرباعيات الاخيرة .

١٨٢٧ ـ موقعة نافارين البحرية ـ سيفن يخترع المرجل الانبوبي ـ مرجل بركنز ـ فورنيرون يضع اول طوربين مائية ـ وهلر يحلل عناصر الماء لاول مرة ـ اوهم يضع قانونه المعروف ـ رحلة رينه كاييه ـ هوغو يضع : مقدمة كرومويل ـ منزوني يضع : الخطيبان ـ فيروس مارتي يضع : الوادي المسحور ـ انغر يضع رسمه المشهور : تاليه هوميروس .

١٨٢٨ ـ تحرير المشاقين في انكلترا ـ تاسيس حزب العمال في فيلادلفيا ـ رحلات منتظمة تقوم بها سفينة رد روفر بين ليفربول ونيويورك ـ وهلر يتوصل لاول مرة الى صنع البول التاليفي ـ محاضرات غيزو حول تاريخ الحضارة الاوروبية في كلية فرنسا ـ اول كونسرتو لشوبين في فيينا ـ اوبير يضع : Muette Vos بورتيشي

١٨٢٩ ـ تحرير الكاثوليك في انكلترا ـ عودة التيفوس الى اوروبا من جديد ـ اوني يؤسس مستعمرة نيوهرموني ـ ستيفنسن يضع قاطرته : الصاروخ ـ برايل يخترع كتابته النافرة للعميان ـ انطوان بيكريل يضع او بطارية (او حاشدة كهربائية) ـ هوغو يضع ديوانه الموسوم : الشرقيات ـ روسيني يضع روايته : وليم تل .

١٨٣٠ ـ استيلاء فرنسا على مدينة الجزائر ـ فتن وثورات في اوروبا ـ استقلال بلجكا ـ تأسيس شركة استراليا الجنوبية ـ ظهور وباء الهيضة في اوروبا ـ بناء الخط الحديدي بين منشستر وليفربول ـ باركورتيس ومادلاي يخترعان النول الدائم الحركة ـ تيمونيه يخترع ماكينة الخياطة ـ كوشي يصوب نظرية المتغيرة الخيالية ووظائفها ـ خناقة التشريح المقارن : كوفييه ضد جوفروا سانت هيلار ـ كونت يضع : دروس الفلسفة الوضعية ـ معركة هرناني ـ ستاندال يضع : الاحمر والاسود ـ فرجلاند يضع : الخليقة والانسان والمسيح ـ ديلاكروا يضع : الاستحكام او الحرية تقود الشعب كارو يضع : كاتدرائية شارتر ـ برليوز يضع : السمفونية الغريبة .

١٨٣١ ـ كبح الثورة البولونية ـ ماذيني يؤسس : ايطاليا الفتاة ـ عمال الحرير يثورون في مدينة ليون ـ المجاعة في ايرلندا وفي روسيا ـ محرر غاريسون ـ دال نغرو ينشيء اول محرك كهربائي كما يخترع ماك كورميك اول حاصدة ميكانية ـ اكتشاف الكلوروفورم على يد ليبيغ وسوبيران ـ اكتشاف فرادي لتاثير Induction رحلة داروين البحرية على ظهر السفينة بيكل ـ تأسيس الجمعية البريطانية لترقية العلوم وتطويرها ـ ميشليه يضع : المدخل الى التاريخ العام ـ بوشكين يضع : يوجين اونيغين ـ دوميه يضع : غرنتوا ـ وميير بير يضع روايته : روبرت العفريت .

١٨٣٢ ـ اعادة تنظيم الرهبانية البندكتية على يد غيرانجيه ـ براءة Mirari Vos للبابا غريغوريوس السادس عشر ـ اختراع سوفاج للدفاش ـ غالوا يخلف لنا قبل وفاته نظرية الفئات ـ دولاي يهاجم هندسة اوقليدس ـ لينو يضع ديوانه : قصائد ـ متشيافتش يضع كتاب : الامة البولونية ـ سلفيو بلليكو يضع : سجوني ـ رونبرغ يضع روايته صيادو . . . ـ أ . كلدرون يضع : مشاهد اندلسية ـ لار يضع روايته : رسائل المهتار

المسكين .

١٨٣٣ - المجاعة في الدكن الهند - بدء حركة اكسفورد - طلائع جمعية القديس منصور دي بول - قانون غيزو بشأن التعليم الابتدائي - الغاء الرق في المستعمرات الانكليزية - اوين يضع كتابه الاتحاد العمالي - وجريدة « الشمس » بنحاستين - التلغراف الكهرمغنطيسي اختراع غوس وويبر - وايكفيلد يضع : انكلترا واميركا - ليال : مبادىء اولية في علم طبقات الارض - غوتيه : فوست الثاني - بلزاك : اوجين غرانديه - انغر : رسم برتن البكر -جورج سنو يستعمل لاول مرة في واشنطون : اولى الصفات المعدنية

١٨٣٤ - فتن في باريس وليون - قانون الفقراء في انكلترا - الاتحاد الوطني للعمال في الولايات المتحدة - اول تريك عند البوبرز - ج.ب. دوماس يكتشف روح الخشب (الكحول المتبلي) - جاكوب بركنز يخترع طريقة للحصول على البرد الصناعي - اختراع صباغ الانيلين على يد رونج ، من نطران الفحم - لامنيه يضع كتابه كلمات مؤمن - متشيفتش يضع كتابه : السيد ثاديه - وغوغول يضع : طاراس بولبا - ودوميه : شارع ترانسنونان .

١٨٣٥ - اسبانيا ترضخ لقانون الزيارة - الاتراك في طرابلس الغرب - فرفانة تتحرر من حماية الصين ووصايتها - تأسيس وكالة تاس للانباء - غوردون بنيت يصدر جريدة نيويورك هيرلد - اختراع اول سكة من الفولاذ في الولايات المتحدة الاميركية - مورس يجري اول تجربة للتلغراف البرقي - بيرو يخترع جهازا للطباعة على القماش يحمل اسم « بروتين » د . ستراوس يضع كتابه : حياة يسوع - تكفيل ينشر كتابه : الديمقراطية في اميركا - واندرسن : قصص وحكايات - ولونروت يضع روايته : كالفالا - وكراسنسكي : الكوميديا غير الالهية - وف . هالفي يضع رقصة اليهودية .

١٨٣٦ - جكسون يعارض انشاء البنك المركزي - تاسيس شركة شنيدر وشركاه - تومسن يضع : دليل متحف كوبنهاغن - غاج يصدر : الفازية الوطنية الالليرية - تأسيس جريدتي : الصحافة والعصر - دكنز يضع روايته : اوراق بكويك - بلاتشكي يضع : تاريخ بوهيميا - توتشيف ينشر : قصائد مرسلة من المانيا .

١٨٣٧ - اضطرابات في كندا - ثورة ضد متسوي في اليابان - المجاعة تفتك في شمالي غربي الهند - رحلة دومون دورفيل الى انتاركتيك - تدشين خط سان جرمين آن لاي - تأسيس جمعية الجبل القديم - جاكوبي يحقق عملية الغلفنة - مورس ، ستاينهل و ويتستون براءة اختراع التلغراف البرقي - شاسل يضع كتابه : لمحة تاريخية في اصول طرائق الهندسة وتطورها - ميشليه يضع كتابه : تاريخ الثورة - ولامنيه كتابه : سفر الشعب - كارليل : الثورة الفرنسية - وتشافاريك : تاريخ الصقالبة القديم .

١٨٣٨ - بدء اضطرابات الموثقين - كوبدن يؤسس رابطة القانون المضاد لزراعة الذرة - بريطانيا العظمى تستولي على مدن - المجاعة في بمباي - رحلات السيريوس والغرايت وسترن - اختراع هول السطحي واختراع

ناسمث وفرنسوا بوردون للمطرقة ـ بســل يقيس لاول مرة بعد النجمة عن الارض ـ شيلدن يطلع بنظرية الخلايا النباتيــة ـ اولى ابحــاث بوشيه دي برث حول عصور ما قبل التاريخ ـ دافد دانجيه يضــع كتابه : هوغو ـ وس . روخ : نصب دورر في نورمبرغ .

١٨٣٩ ـ خطة دورهام في كندا ـ عهد الاصلاح في اليابان ـ انشاء البريد البري نحو الهنــد ـ غوديير يحقق كلفنة المطاط ـ اراغو يعرف باول صــور فوطوغرافية على طريقة داغير ـ مؤتمر بيزا العلمي ـ لويس بلان ينشر كتابه حول تنظيم العمل ـ وانجلس : رسائل من وادي وبير ـ ورانك : المانيا في عصر الاصلاح الديني ـ وستاندال : لاشارتروز دي بارمــا ـ ولنغفالو : هيبريون وليرمونتوف : الشيطــان .

١٨٤٠ ـ الحكم الذاتي لكنــدا ـ تاسيس حزب يطالب بالغاء الرق في الولايــات المتحدة الاميركية ـ حرب الافيون ـ البريطانيون يستولون على زيلانــدا الجديدة ـ ازدهار النخاسة في زنجبــار ـ طلائع رواج الغوانــو ـ ظهور فولاذ « بول » ـ تاسيس خط كونارد ـ اول بندقية أميركية متعــددة الطلقات ـ استعمال الطابع البريدي في انكلترا ـ لفنفستن يشرع برحلاته الاستكشافية ـ كابيه يضع قصة : رحلة الى ايكاريا ـ وبرودون كتابه : ما هي الملكية ـ وليبيغ : الكيمياء المطبقة على الزراعة ـ وسانت بوف : بورت رويال ـ وموسيه : الليالي ـ وغريلبدزر : دير تروم ، ابن لوبن ـ واندرسن : كتاب رسوم بــدون رسوم ـ وفت : البنثيون الشعــري ـ وشومــان : ليــدر .

١٨٤٢ ـ معاهدة نانكين ـ البريطانيون يحتلون هونغ كونغ ـ دستور ولاية نوفيل نقابة المعدنين في انكلترا ـ تاسيس الـ Punch ـ تاسيس توماس كول لاول وكالة للسفر ـ قانــون جول ـ ليســت يضع كتابه : النظــام الوطني للاقتصاد السياسي ـ وفيورباخ : كنه المسيحية ـ وامرســن : محاولات ـ وغوغول : النفوس المائتة .

١٨٤٢ ـ معاهدة نانكين ـ البريطانيون يحتلون هونغ كونغ ـ دستور ولاية نوفيل غال الجنوب (استراليا) ـ صدور جريدة لندن المصورة الاخبارية ـ لوز يحصل على شهادة اختراع صنع السوبر فوسفاط ـ رينوفييه يضــع كتابه : دليل الفلسفة العصرية ـ وسو : أسرار باريس .

١٨٤٣ ـ استيلاء الفرنسيين على مقر عبد الكريم ـ البريطانيون في ناتال ـ تريك البويرز الجديد ـ ظهور الدعوة السنوسية ـ بدء دعوة الباب ـ لاكوردير يعيد النشاط الى الرهبنة الدومنيكية ـ غربور يضع اول آلة كاتبة ـ بدء استخدام صمغ المطاط في الصناعة ـ بوتا يقوم بحفرياته في خرسبــاد ـ مذكرة ش. هرميت حول الدالة الاهليليجية ـ مول يكتشف بروتوبلازما الدم ـ كيركيفارد يضع كتابه : واما . . . واما ـ وج. س. مل يضع كتابه : المنطق ـ وماكولي : محاولات في النقــد والتاريــخ ـ وجيوبرتي : أوليــة الايطاليين المدنية والادبية ـ ورسكن يضع : المجلد الاول مــن رسامــي العصر ـ وهوغو : البرغراف ـ وبو ينشــر : الجعل الذهبي ـ وواغنر : السفينة الشبح ـ المهندس لابروست يباشر بناء مكتبة سانت جنفياف في باريــس .

١٨٤٤ ـ ثورة عمال النسيج في سيليزيا ـ تعاونية « الرواد العدول » في روشدايل ـ مزيني يؤسس أوروبا الفتاة ـ كلر يخترع الورق المأخوذ من رب الخشب كما يخترع غالواي اللينولايوم ـ مورس يصل واشنطون ببلطيمور هاتفيا بعد ان اخترع لويس بريفيه جهازا له وجه ساعة ـ ظهور بندقية درايز التي تشحن من المؤخرة ـ لاسن يباشر باصدار : تاريخ الهند ـ توسنل يضع كتابه : اليهود ملوك العصر ـ وكارليل : الماضي والحاضر ـ بيتوفي ينشر ديوانه : قصائد ـ وطوبفر يصدر كتابه : اسفار معوجة ـ و ا. أوجيه : الشوكران ـ واسكندر دوماس : الفرسان الثلاثة .

١٨٤٥ ـ المجاعة في ارلندا ـ انكلترا تولي اليهود حق الانتخاب ـ هلمان يخترع مشطا ميكانيكيا ـ ارساء كابل تحت نهر الهدسون ـ رحلة السفينة Chipper Rainbow ـ هو يدخل تحسينات هامة على آلة الخياطة ـ وليم بارسونز دي روس يكتشف لاول مرة مجرة حلزونية الشكل ـ ا. دي همبولدت يصدر كتابه : الكسموس (الكون) ـ و م. سترنر : الوحيد وخاصيته ـ و ف. انجلز : اوضاع الطبقة العاملة في انكلترا ـ دزرائيلي . سبيل ـ و واغنر : لوهنفرين .

١٨٤٦ ـ المجاعة والازمة تلم باوروبا ـ الغاء الرسوم المفروضة على القمح في انكلترا ـ ظهورات العذراء في ساليت ـ الصين تتساهل مع الكاثوليك ـ أعمال اركسون في قناة ترولهارتن ـ هو يدخل الاسطوانة المتحركة على الطباعة في فيلادلفيا ـ رايت يخترع القوس الكهربائي ـ زايس ينشىء مصنعه للاجزة البصرية في اينا ـ لوفرنييه يكتشف الكوكب عطارد بطريقة حسابية ـ قانون ويبر الخاص بعلم النفس ـ برودون يضع كتابه : نظام المتضادات الاقتصادية ـ ماركس ينشر كتابه : بؤس الفلسفة ـ هرزن : على من الذنب ؟ ـ وهاليس : الفلسفة الاساسية ـ وميشليه : حول الشعب ـ ومريميه : كارمن ـ وجورج صاند : مستنقع الشيطان ـ تأسيس المدرسة الفرنسية في اثينا ـ وبرليوز : هلاك فوست .

١٨٤٧ ـ المجاعة والازمة والطاعون في أوروبا ـ ظهور آفة ارمداد الكرمة ـ اكتشاف الذهب في كاليفورنيا ـ الروس يدخلون فرغانة ـ المؤتمر الدولي العمالي في لندن ـ مذكرة يضعها سمبسن حول خصائص الكلوروفورم المخدرة ـ كروب يتوصل الى صنع مدفع من الفولاذ ـ هلمبولتز يصدر كتابه : حول الابقاء على الطاقة ـ بوشيه دي برث : الاثار الكلتية والسابقة للطوفان ـ ايمرسن : قصائد ـ ا. برونتيه : مرتفعات هورليفان ـ وغوتزكوف : اوريال أكوستا ـ واراني : تولدي ـ وورود : يقظة نابوليون ـ متحف التصوير في ميونيخ .

١٨٤٨ ـ الثورات تنشب في أوروبا ـ ماركس وانجلس يصدران : بيان الحزب الشيوعي ـ الانتخاب العام في فرنسا ـ الغاء الرق في جميع المستعمرات الفرنسية ـ الغاء رق الارض في أوروبا الوسطى ـ انتهاء الحرب بين الولايات المتحدة والمكسيك بشأن التكساس ـ البريطانيون يستولون على البنجاب ـ جمعية لروح القدس ورهبانية قلب مريم الاقدس ـ مارينوني يصنع مكبس مجاوبة ذات اربع اسطوانات ـ صنع الزجاج والاسلحة في اليابان ـ وبرستراس يضع كتابه : مساهمة في نظرية التكامل الابليانية ـ

كلود برنار يكتشف عمل الكبد في توليد الغليكوز – ج. س. مل يضع كتابه : مبادىء الاقتصاد السياسي – وشاتوبريان : مذكرات من وراء القبر – وثاكراي : معرض الاباطيل – د. س. روستي يؤسس : الرابطة السابقة لرفائيل – ورافيت : العرض الليلي – وباري : القنطور واللابيت .

١٨٤٩ – ردة فعل عامة في اوروبا – الغاء قانون الملاحة في انكلترا – اكتشاف الذهب في استراليا – المجاعة في الصين – تأسيس اتحاد الكنائس الانجيلية الحرة في فرنسا – اختبار فيزو حول سرعة النور – دكنز يضع روايته : دافيد كوبرفيلد – ورسكن : مصابيح الهندسة السبعة – وكوربيه روايته : محطمو الحجارة .

١٨٥٠ – اتفاق كاليفورنيا – البرازيل يوافق على حق الزيارة – نهاية طريقة فان دن بوش – اعادة السلطة الدينية الكاثوليكية الى انكلترا – التصديق على قانون فلو – رحلة بارث الى السودان ؛ ولفنغستن الى افريقيا الجنوبية ورحلة ماك كلور الى الممر الشمالي الغربي – ارساء اول كابل بحري في مضيق كاليه – انتهاء الاشغال لاقامة الجسر الحديدي فوق مضيق مينيه وفقا لتصميم روبرت ستيفنسن – مطرقة المعدن لاستخراج الفحم في المناجم – عرض اول قاطرة بخارية – البيانو الميكانيكي – كبرتة الكرمة في مكافحة مرض التعفن – فوكو يخترع المرآة الدوارة والقوس الكهربائي – بستيا يضع كتابه : التناسق الاقتصادي – ا. باريت برونتغ يضع : اناشيد – وهوثورن الرسالة الارجوانية – وكوربيه : الدفن في اورنانس – – وروستي : البشارة – وميريون : الجسر الصغير – وليست : مازيبا .

١٨٥١ – ظهور الكوليرا من جديد في اوروبا – الجوع في روسيا – بدء ثورة التايبنغ في الصين – معرض لندن في صالة كريستال بالس – قانون مباني السكن في انكلترا – آل بورن يجهزون السفينة حمالايا بالدفاش – اول فرن على الغاز في المطابخ – بدء الطابعة المتحركة في الطباعة – انشاء وكالة رويتر للاخبار – اختبار هزاز فوكو – اعادة رهبنة الاوراتوار – حركة رجعية مضادة للمسيحية في فيتنام – كونت يصدر كتابه : نظام الفلسفة الوضعية – ملفيل يضع روايته جولي دك – وواغنر : اوبرا ودراما : ورسكن : الحركة السابقة لرفائيل وحجارة البندقية – فردي يضع روايته : ريغولتو .

١٨٥٢ – اعتراف الانكليز باستقلال الترانسفال وضمهم البيفو – انزال اول سفينة ناقلة للفحم الى البحر في انكلترا – اول ترامواي في نيويورك – تدشين محلات بون مارشيه في باريس – تأسيس مصرف التسليف العقاري والتسليف على المنقول – فرانكلاند يضع نظرية التكافؤ – هـ. سبنسر يضع كتابه : مبادىء علم النفس – السيدة بيتشر ستو : مغزل العم توم – ليكونت دي ليل : قصائد قديمة – تيوفيل غوتييه يضع كتابه : مصنوعات الميتا والكاميه – تورغنيف : حكاية صياد – اسكندر دوماس الابن : غادة الكاميليا – ت . روسو : الخروج من غابة فونتنبلو – بلطار : بناء الهال الوسطى في باريس .

١٨٥٣ – تدخل الاميركيين والروس في اليابان – الفرنسيون يحتلون كاليدونيا الجديدة – تخطيط لشبكة الخطوط الحديدية في الهند – المجاعة في دكن الهند وشمالي غربي الهند – هوسمان محافظ مقاطعة السين – ارساء

الكابل البحري في بحر الشمال وقناة الشمال ـ برونيل يعمل على بناء الخط الحديدي الشرقي ـ استعمال الفولاذ المذاب ـ صنع الساعات بالجملة ـ ب. غراتري يضع : فلسفة معرفة الله ـ غوبينو ينشر كتابه : حول عدم المساواة بين الاجناس البشرية ـ مومسن يضع كتابه : تاريخ الرومان ـ جوكاي يصدر روايته : نابات مجري ـ تامابو بي بوس : فرجيني ـ الكسندري : دويناس ومضعت ـ وليست : اغاني مجرية .

١٨٥٤ ـ حرب القرم ـ فيدهرب حاكم عام على السودان ـ عقيدة الحبل بلا دنس ـ تاسيس الارساليات الافريقية في ليون ـ نفق سمرينغ ـ اول سفينة معدنية تبنيها شركة كونارد ـ اول معمل لنسيج القطن يقام في مدينة بمباي ـ اوتيس يخترع مصعدا يتحرك بالماء ـ ريمان يصدر كتابه : الفرضيات الاساسية في الهندسة ـ م. برتلو يضع مبادىء الكيمياء الحرارية ـ سانت كلير ديفيل يعزل الالومنيوم بواسطة الصوديوم ـ لينسن يضع روايته : هجوم الكتيبة الخفيفة ـ جيرار دي نرفال : بنات النار ـ و ا. اجوبيه : صهر السيد بواديه ـ فيوليه لو دوك يضع : المعجم الفلسفي للهندسة الفرنسية .

١٨٥٥ ـ ثورة المسلمين في الصين ـ هزة ارضية عنيفة في اليابان ـ المجاعة في روسيا ـ معرض في قصر الصناعة في باريس ـ ظهور السفينة الحربية المدرعة ـ برتلو يتوصل الى اختراع الكحول الصناعي ـ له بلاى يصدر كتابه : عمال اوروبا ـ وبوخنر : قوة ومادة ـ تيوفيل غوتييه : رواية المومياء ـ وفريتاخ : له وعليه ـ هـ. تورو : وولدن ـ و. هويتمان . تشابير ـ بيلوتي : جسد ولنشتاين ـ رحلة راشيل في اميركا .

١٨٥٦ ـ مؤتمر ومعاهدة باريس ـ وافدة التيفوس في الشرق ـ حملة برتن وسبيك الى بحيرات افريقيا الوسطى ـ بسمر يعرف المحولة التي اخترعها ـ لويس شاتليه يبني الفرن ذات المصباح ـ هـ. و. بركنز يتوصل لصنع ملون الاتيلين ـ اكتشاف الامونياك ـ اكتشاف انسان نيندرتمال ـ ج. كلر يضع روايته : روميو وجوليت في القرية ـ سلتيكوف تشلشدرين يضع : رسم تقريبي للولاية .

١٨٥٧ ـ ازمة اقتصادية ـ ثورة السيباي في الهند ـ اجراءات لتحسين وضع الفلاح المصري ـ مباشرة الاشغال في نفق سنيس ـ اول معمل لنسيج الجوت في البنغال ـ باستور يضع مذكرة حول الاختمار اللبني ـ ابحاث كيرتشوف وبنزات حول التحليل الطيفي للنور ـ هرزت يؤسس الكولوكول ـ فلوبير يضع روايته : مدام بوفاري ـ وبودلير ديوانه : ازاهير البشر ـ وابسن : اولاف للجكرانز ـ ورايدبرغ : سنفوالا ـ وكورو : اغنية ريفية ـ وميليه : اللاقطات .

١٨٥٨ ـ الغاء شركة الهند الانكليزية ـ الحملة الفرنسية الانكليزية الى الشرق الاقصى : معاهدة تينسن ـ الروس ينزلون على ضفة نهر العامور اليمني ـ قانون المصارف المساهمة في انكلترا ـ محاولة ارساء كابل بحري في قلب المحيط الاطلسي ـ ظهورات العذراء في لورد ـ تاسيس اكاديمية تومية ـ كيكوله يكتشف الكربون الرباعي التكافؤ ـ فيرشوف يضع كتابه : دروس حول الباثولوجيا الخلوية ـ وواغنر يضع : سيغفريد .

١٨٥٩ ـ حرب ايطاليا ـ احتلال فرنسا لمدينة سايغون ـ الروس يضعون حدا لمقاومة الزعيم القفقاسي شامل ـ بدء الاعمال في شق قناة السويس ـ كوزا كسبودار الامارات الرومانية ـ فتح اول بئر بترولية في بنسلفانيا ـ دوريان يبني اول سفينة حربية مدرعة ـ بلانتيه يخترع المخثر الكهربائي ـ اكتشاف مغارة اورنياك التي تعود الى عصور ما قبل التاريخ ـ داروث يضع كتابه : اصول الانواع ـ وماركس : نقد الاقتصاد السياسي ـ ومسترال : ميراي ـ وبنسون دي تراي : انجازات روكمبول ـ وواغنر : تريستان وايزولت ـ وغونو : فوست .

١٨٦٠ ـ الحملة الفرنسية على سوريا ولبنان ـ الحملة الفرنسية الانكليزية على بكين ـ معاهدة بكين ـ المعاهدة التجارية بين فرنسا وانكلترا ـ اتحاد النقابات العمالية في انكلترا ـ تأسيس الاليانس الاسرائيلي العام ـ بناء المتروبولتن في لندن ـ سبيك وغرانت عند منابع نهر النيل ـ اختراع الماكينة المركبة ، ومحرك لونوار المفرقع ، وجهاز هوغ الناقل للبرقيات ـ استخدام الثاقبة الماسية ـ قانون فخنر في علم النفس ـ مؤتمر الكيميائيين في كارلزرو للوصول الى نظرية مشتركة حول التركيب الذري ـ م. برتلو يضع كتابه : الكيمياء العضوية المبنية على التاليف ـ تدشين مسرح الفولي برجير في باريس ـ لابيش يصدر قصته : رحلة السيد بريشون ـ جورج اليوت : الطاحون على الفلوس ـ اوستروفسكي : العاصفة ـ وداوس دكر (مولتاتولي) ماكس هافلار .

١٨٦١ ـ بدء حرب الانفصال في الولايات المتحدة ـ الغاء رق الارض في روسيا ـ المناداة بمملكة ايطاليا ـ صنع اول ظهر على طول السفينة ـ ميشو يتوصل الى صنع دراجة بدواسة ـ فيلبس يدخل تحسينات على زنبرك الساعات ـ بروكا يضع نظريته الخاصة بالتمركزات الدماغية ـ كورنو يضع كتابه : بحث حول ترابط الافكار الاساسية ـ و ج. اليوت يضع روايته : سيلاس مارنر ـ وبكل : تاريخ الحضارة في انكلترا ـ وهيبل : نيبلنجن ـ ودستويفسكي : تذكارات بيت الموتى ـ ومداخ : ماساة الانسان ـ غارنييه يباشر بناء الاوبرا في باريس ـ تمثيل تونهوسر في باريس يثير الهيجان .

١٨٦٢ ـ حرب المكسيك ـ احتلال فرنسا لمدينة اوبوك ـ المعاهدة الفرنسية الملغاشية ـ الثورة في كشفاريا ـ انشاء ترسانات بحرية في نانكين ـ قانون همستد في الولايات المتحدة الاميركية ـ ازمة حادة في بروسيا : تعيين بسمارك ـ انشاء السوكول في بوهيميا ـ تأسيس الجمعية العامة للعمال الالمان على يد لاسال ـ معرض لندن ـ فولو يقدر سرعة النور ـ بو دي روشاس يعرض نظرية الدورة ذات الازمنة الاربعة ـ هوغو ينشر روايته : البؤساء ـ بوميالوفسكي ينشر روايته : مولوتوف ـ وكاربو : اوغولين وبنوه ـ فيوله ـ لو ـ دوك ينتهي من ترميم قصر بيرفون .

١٨٦٣ ـ الثورة البولونية ـ روبرت هار يعين مفتشا عاما للجمارك في الصين ـ معاهدة هويه واعلان الحماية الفرنسية على كمبودجيا ـ الغاء الرق في مقاطعة غويانا الهولندية ـ اكتشاف مناجم الماس في جنوبي افريقيا ـ القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات ذات المسؤولية المحدودة ـ مؤتمر العلماء الكاثوليك في مونيخ بناء لاقتراح دولنجر ـ رينان يضع : حياة

يسوع ـ برتلو يحقق اختراع الاستيلان الصناعي ـ بوناس يخترع الآلة الخائطة المطرزة ـ لونوار يخترع جهازا يعمل على البترول ـ طريقة سلفاي لاصطناع السودا ـ بناءاول منارةكهربائية في راس هيف ـ هلمهوتز يضع : بحث فسيولوجي حول الموسيقى ـ لتريه يباشر وضع معجمه : قاموس اللغة الفرنسية ـ جول فرن يضع روايته : خمسة أسابيع في منطاد ـ مانيه يضع روايته : الفطور على العشب .

١٨٦٤ ـ حرب في سبيل الدوقيات الدانماركية ـ تصفية فتح القفقاس ـ تاسيس الجمعية الدولية للعمال ـ إعتراف فرنسا للعمال بحق الاضراب ـ اتفاقية جنيف : تأسيس الصليب الاحمر الدولي ـ البراءة البابوية Quantor Cura والسيلابوس أو فهرس الكتب المحرمة ـ اخترع فرن مارتن ـ الفرد نوبل يخترع النتروغليسيرين ـ كلوسيوس يضع : نظرية الحرارة الميكانيكية ـ هكسلي يصدر كتابه : مركز الانسان في الطبيعة ـ بيير لاروس يباشر نشر معجم القرن التاسع عشر الكبير ـ وفوستل دي كولانج: المدينة القديمة ـ وتنيسن : انوخ اردن ـ وتولستوي : الحرب والسلم ـ دوستويفسكي : رجل المفاور ـ اوفنباخ : هلن الجميلة ـ ا. توماس : العزيزة .

١٨٦٥ ـ الغاء الرق في الولايات المتحدة الاميركية ـ بدء حرب براغواي ـ الاتحاد التلغرافي الدولي ـ الاتحاد اللاتيني (النقدي) ـ الاعتراف القانوني في فرنسا بقيمة الشك أو التحويل ـ اصدار أوراق نقدية صغيرة في فرنسا من القطع الصغير بقيمة ٥٠ فرنكا الورقة الواحدة ـ بارنوم : الدجالون في العالم ـ قانون مندل ـ حراقة بنسن ـ كلوسيوس يعطي الصيغة الانتروبية للديناميكية الحرارية ـ لستر يأخذ باستعمال التطهير ـ مونييه يتوصل لصنع الاسمنت المسلح ـ كيكوليه يحدد صيغة البنزين ـ كلود برنار يضع كتابه : المدخل لدراسة الطب التجريبي ـ فرتز مولر Fur Darwin تاين يضع كتابه : فلسفة الفن ـ الاخوة غونكور : جرميني لاسرتو ـ سوينبرن : اطالنتا في كاليدون ـ انترودي كوانتال : اناشيد عصرية ـ مانيه : اولمبيا .

١٨٦٦ ـ الحرب النمساوية الالمانية : معركة سادوفا ـ تبني البندقية ذات الابرة وبندقية شاسبو ـ الازمة الاسبانية الشيلية ـ الروس في طشقند ـ الارهاب في روسيا ـ المجاعة في الدكن الهند ـ الباخرة مدينة باريس ذات الدفاش تجتاز المحيط الاطلسي بتسعة ايام ـ أرساء اول كابل بحري في المحيط الاطلسي ـ نوبل يكتشف الديناميت ـ هيكل يضع كتابه : مورفولوجيا عامة ـ فرلين يضع : اناشيد زحلية ـ زولا يصدر روايته تريز راكين ـ دوستويفسكي : الجريمة والقصاص ـ اوفنباخ : الحياة في باريس ـ سميتانا : الخطيبة المباعة ـ فوكوزاوفا : اشياء الغرب .

١٨٦٧ ـ الاتفاق النمساوي المجري ـ اعلان كندا دومنيون ـ شراء الولايات المتحدة لالاسكا ـ معرض باريس ـ تدشين نفق البرينر ـ حق الاضراب وحق الاتحاد النقابي في بلجيكا ـ تدخل بريطاني في الحبشة ـ رحلة دودار دي لاغريه وفرنسيس غرنييه في الصين الجنوبية ـ سقوط نظام الشوغونا في اليابان والمباشرة بصناعة النسيج الميكانيكي فيها ـ المجاعة في روسيا ـ

مؤتمر النقد الدولي ـ القانون الفرنسي الخاص بالجمعيات المساهمة ـ ماركس يضع كتابه : راس المال ـ (المجلد الاول) ـ اختراع مكبح وستنفهوس ـ اختراع مكبس مارينوني الدوار ـ شولز ودنسمور يخترعان الالة الكاتبة ـ اونو لانجن يخترع جهاز الغاز ـ باستور يدرس ظاهرات اجتماد النبيذ ـ ابسن يضع روايته : بيرجنت ـ ومنزل : الاحد في قصر التويلري – وداغنر : رؤساء المغنين في نورمبرغ .

١٨٦٨ ـ بدء العصر الجديد (عصر الانوار) في اليابان ـ الثورة في كوبا ـ المجاعة في الهند ـ الكوليرا في الجزيرة العربية ـ ظهور فيلوكسيرا الكرمة في فرنسا ـ تأسيس جمعية الاباء البيض أو مرسلي افريقيا على يد الكردينال لافيجري ـ أول مؤتمر لنقابات العمال في انكلترا ـ مؤتمر السلام والحرية انشاء الكلية الفرنسية في غلاتا ـ رحلة رختهوفن الى الصين ـ جنسن ولوكيير يكتشفان غاز الهليوم ـ دوبلكس يخترع الدبلكس في التلغراف البرقي – اختراع الكرو ـ مانيون . ا. دوديه ينشر كتابه : الشيء التافه ـ وموسورغسكي : بوريس غودونوف .

١٨٦٩ ـ افتتاح قناة السويس ـ الانتهاء من بناء أول خط حديدي عبر الولايات المتحدة الاميركية تنشىء نظم فارس (شفاليه) ، عمل ـ مجمع احرار اليهود في ارلندا ـ تأسيس الحزب الديمقراطي الاجتماعي في المانيا ـ الولايات المتحدة الاميركية تنشىء نظام فارس (شفاليه)، عمل ـ مجمعاحرار اليهود في لايبزيغ ـ ميج ـ موريس يتوصل الى صنع السمن النباتي ـ الاخوة هيات يخترعان السلولويد ـ برجيس يتوصل الى استخدام اول شلال في جبال الالب ـ غرام يخترع الدينامو لتوليد التيار المتصل ـ مكسويل يشرح نظريته حول كهرطيسية النور ـ مندلييف يضع لائحة العاصر البسيطة ـ كوربيه يعرض رسومه في برلين وليبل يحذو حذوه في باريس ـ سيزار فرانك يضع كتابه : التطويبات .

١٨٧٠ ـ الحرب الفرنسية الالمانية ـ اعلان عصمة البابا ـ ظهور الجمهورية الفرنسية الثالثة ـ اعلان روما عاصمة لايطاليا ـ فرنسا تعترف ليهود مدينة الجزائر بالجنسية الفرنسية ـ قتل الاجانب في لينسن ـ القانون الزراعي الخاص بالمزارعين في ارلندا ـ سيمانس يخترع فرنا كهربائيا ـ روكفلر يؤسس شركة ستاندار اويل ـ حفريات شليمان في طروادة ـ نيومن يضع كتابه : اجرومية الموافقة ـ ن. ريبو يضع كتابه : السيكولوجيا الانكليزية المعاصرة ـ وتين يضع كتابه : حول الفهم والادراك ـ وفرنشسكو دى سنكتس : تاريخ الاداب الايطالية ـ وفنتين ـ لاتور : مرسم مانيه في باتنيول .

١٨٧١ ـ تأسيس الامبراطورية الالمانية ـ ثورة الكومون في باريس ـ معاهدة فرنكفورت ـ قانون الضمانات في ايطاليا ـ الدستور القانوني لاتحاد العمال في بريطانيا العظمى ـ قانون « الجوف الخاوي » في البرازيل ـ اجراءات في صالح الفلاح المصري ـ ثورة بلاد القبيلي في الجزائر ـ الغاء نظام الاقطاع في اليابان ـ المجاعة في ايران ـ سويس يشرع بنشر كتابه : وجه الارض ـ رينان يصدر كتابه : الاصلاح الفكري والادبي ـ وفرانك : الفداء .

١٨٧٢ ـ بدء الكولتور ـ برنامج ايسناخ اجتماعي ـ الغاء الرق في كوبا ـ اضطرابات وقلاقل في الفيلبين ـ اليابان يعترف بالحرية الدينية ـ اول خط حديدي في اليابان ـ السفينة « تشالنجر » تقوم بتطوافها حول الارض ـ ماريتوني يعطي الصورة الاخيرة للروتاتيف ولضابطة الهامش الميكانيكية ـ باكلاند يتوصل لاول مرة لصنع اللدائن المعروفة باسم بكليت ـ جول فرن يضع روايته : دورة حول العالم بثمانين يوما ـ اختراع غريمالدي ـ كورنو يضع كتابه : خواطر حول سير الافكار والاحداث في العصر الحديث ـ وبرانديس ينشر كتابه : تيارات الادب الكبرى في القرن التاسع عشر ـ وسولتيكوف : الاخوة غولوفييف .

١٨٧٣ ـ الازمة الاقتصادية ـ اعلان الجمهورية لاول مرة في اسبانيا ـ « الصليبية باتجاه الشعب » في روسيا ـ سكوباليف في خيفا ـ فرنسيس غارنييه في هانوي ـ الاصلاح العسكري في اليابان ـ المجاعة في الدكن ـ احادية المعدن في النقد في كل من المانيا والولايات المتحدة الاميركية ـ فان در والز يوضح نظرية تمدد الغاز ـ وندت يصدر كتابه : مبادىء علم النفس المرضي ـ ورمبو : فصل في الجحيم ـ وتولستوي : انا كارنين .

١٨٧٤ ـ السباعية العسكرية في المانيا ـ البريطانيون في جزر فيجي ـ تأسيس الاتحاد العام للبريد ـ ظهور النادي الالبي الفرنسي ـ اختراع المضاعفة في التلفون الكهربائي ـ بوترو : حول امكان حدوث نواميس الطبيعة ـ مونيه : انطباع ، الشمس المشرقة ـ استعمال كلمة « انطباعية » لاول مرة ـ مارك توابن يصدر : العصر الذهبي ـ ومانيه : كأس الجعة الطيب ـ ورينوار : المحفل ـ وبوفي دي شافان يرسم افاريز البانثيون ـ وغريك يصدر : بيرجنت .

١٨٧٥ ـ برازا في الغابون ـ انكلترا تبتاع من خديوي مصر ما له من اسهم في قناة السويس ـ انكلترا تصدر القانون الخاص بالعمال وارباب العمل ـ اتحاد الاحزاب العمالية في مؤتمر غوتا في المانيا ـ تأسيس الكلية الانكليزية الاسلامية في الهند ـ م. برتلو يحقق التاليف الكيميائي ـ لمبروزو يصدر كتابه : الرجل المجرم ـ وتين يصدر كتابه : اصول فرنسا العصرية : النظام القديم ـ اليزيه ركلو يضع كتابه : الجغرافيا العامة الجديدة (المجلد الاول) ـ مارك توين : توم سوير ـ بيزيه يضع : كارمن .

١٨٧٦ ـ طلائع مجاعة هائلة في الدكن ـ ضم الروس لمقاطعة فرغانة ـ اتفاق تشه ـ فو ـ تأسيس الجمعية الدولية الافريقية في بروكسل ـ معرض فيلادلفيا ـ أول رحلة تقوم بها السفينة فريغوريفيك ـ بل وغراي يضعان أول تلفون يعمل على الكهرباء ـ اكتشاف الذيفان ـ بورا يقوم بنجاح بالعملية القيصرية ـ كوخ يبحث اسباب مرض الجمرة ـ مالارميه يصدر كتابه : كيف يقضي اله الحقول الاصيل ـ زولا يضع كتابه : المغلق ـ وفرشليكي : اناشيد ـ وفازوف : علم وغسلا .

١٨٧٧ ـ حرب البلقان والقفقاس ـ انكلترا تضم أول جزء من الترانسفال ـ ثورة صايغو في اليابان ـ سقوط ياقوب في آسيا الوسطى ـ المجاعة في الهند ، والصين الشمالية والبرازيل ـ اضراب عمال مناجم الفحم في الولايات المتحدة ـ توماس وجيلكريست يخترعان المحول الكهربائي ، شارل غرو واديسن الحاكي ، ودابنو البراكسينوسكوب ـ بورسل وفلراند يدخلان

تحسينات هامة على فرن مارتن – فرنسا تتبنى مدفع بانج – ليبرمان يصدر كتابه : البافيير .

١٨٧٨ – مؤتمر برلين يضع حداً للحرب في الشرق – البابا ليون الثالث عشر يشجب تعاليم العصر الكفرية ببراءته Quod Apostaloci – تأسيس جيش الخلاص – نوردنسكولد يجتاز الممر الشمالي الشرقي – تأسيس أول مكتب للهاتف في مدينة نيو هافن – راير يتوصل الى تركيب النيلة صناعيا – لافال يخترع النابذة في فصل القشطة عن الحليب – انجلس ينشر كتابه Anti Duhring – وكاردوتشي : اناشيد بربرية – وكيلر : اخبار من زوريخ – برنر جونز يعرض في باريس اثره الرائع : فيفيان ومرلين الساحر – بناء التروغاديرو .

١٨٧٩ – الرجوع الى سياسة الحماية الجمركية في المانيا – خلع الخديوي اسماعيل في مصر – خلق جمهورية الترانسفال – حرب افغانستان – حرب المحيط الهادي – براءة البابا ليون الثالث عشر للدفاع عن تعاليم القديس توما الاكويني – مؤتمر الجغرافيا التجارية في بروكسل – المجاعة في الصين – تأسيس تلغراف كولدج في تينسن – سوان وادیسن يخترعان المصباح المنير بالفراغ – باستور يكتشف مبدأ التلقيح – اختراع انابيب كروكس – ارنست سيمنس ينشىء أول قطار كهربائي – زحيل السفينة جانيت باتجاه القطب – هنري جورج يصدر كتابه : رقي وفقر – ومسبرو : دراسات مصرية – ولافيس : أبحاث حول تاريخ بروسيا – ترايشكيه يصدر : تاريخ المانيا في القرن التاسع عشر – وابسن : بيت الشعب – وسترندبرغ : الغرفة الحمراء – وكابوانا : تشياسنتا .

١٨٨٠ – اجراءات ضد الرهبانيات وقوانين التعليم في فرنسا – مؤتمر مدريد حول المغرب – الحرب الاولى بين الانكليز والبوير – نفق سان غوتار – بناء الخط الحديدي عبر القفقاس – تأسيس شركة قناة بناما – تنظيم تروست نوبل – تحسين مدوس الدراجة – عربة طابعة تسير على خط حديدي في الولايات المتحدة – ابيرت يكتشف باسيلوس التيفوئيد – تين : فلسفة الفن – ج . تمسن يضع : مدينة الليل والهوى – رودان يضع : المفكر .

١٨٨١ – قتل القيصر اسكندر الثاني – مذابح اليهود في اوكرانيا – بدء الحماية الفرنسية في تونس – انشاء الكلية التشيكية في جامعة براغ – مؤتمر الفوضويين في لندن – براء البابا ليون الثالث عشر حول نشأة السلطة المدنية – قتل بعثة فلاترز في الصحراء الكبرى – بناء الخط الحديدى عبر جبال الاندلس وفرع الخط الحديدي بين بكين وتينسن – انارة القطار بالكهرباء على خط لندن – برايتن – تأسيس شركة اديسن الكهربائية – باستور يجري اختباراته حول اللقاح ضد الجمرة – اختبار ميكلسن حول سرعة النور – هنري بوانكاريه : حول نظرية الدالات الوكشسية – ت. ريبو : أمراض الذاكرة – فوغزارو يضع روايته : مالميرا – وفرغا : مالافغليا – وماشادو دي اسيس : براز كوباس – واوسبانسكي : قدرة الارض – ورينوار يضع روايته : فطور البحارة .

١٨٨٢ – عقد الحلف الثلاثي – تدخل انكلترا في مصر – الايطاليون في الاريترية – تأسيس مدينة ليوبولدفيل – طرد اليهود من روسيا – منع هجرة العرق

الأصفر الى كاليفورنيا ــ قبول الملونين في الجسم الطبي في الولايات المتحدة الاميركية ــ اضطرابات اجتماعية في ايطاليا ــ تأسيس الاتحاد الكاثوليكي للدراسات الاجتماعية ــ توزيع النور الكهربائي في نيويورك للعموم ــ تأسيس حكر ستاندرد اويل ــ كوخ يكتشف باسلس التدرن الرئوي ــ تسلا يخترع المنوبة الكهربائية ــ ديبريز يحقق لاول مرة نقل الطاقة الكهربائية في معرض مونيخ ــ بيك يضع روايته : الغربان ــ فلوبرس : ازاهير الألم ــ المهندس سديل يبني مخازن البرنتان في باريس ــ واغنر يضع : برسيفال ــ الرباع الاول لفوريه .

١٨٨٣ ــ أول قانون للضمان الاجتماعي يصدر في المانيا ــ حرب التونكين ــ تدخل فرنسا في مدغشكر ــ الحركة المهدية في السودان ــ تأسيس الجمعية الفابية في انكلترا ــ ظهور الحزب الماركسي في روسيا ــ الاخوة تساندييه يصنعون منطادا مسيرا ، وديون وبوتون عربة بخارية تسير على الطرق ــ اديسن يكتشف « ظاهرة اديسن » التي تفضي الى المصباح الالكتروني ــ والبارون جني يبني أولى ناطحات السحاب في شيكاغو ــ كليبس يكتشف باسلس الدفتريا ــ نيجلي يضع كتابه : الميكانيكا الفسيولوجيا للتطور ــ ونيتشه يصدر كتابه : هكذا تكلم زرادشت ــ وسورات يضع : الحمام .

١٨٨٤ ــ قانون ناكيه حول الطلاق في فرنسا ــ الاعتراف قانونا بالنقابات في فرنسا ــ الثورة في كمبودجيا ومعاهدة حماية جديدة ــ حرب الصين ــ مؤتمر برلين الاستعماري ــ غردون في السودان ــ تأسيس الجنوب الغربي الافريقي الالماني ــ اكتشاف الذهب في الترانسفال ــ المجاعة في روسيا ــ الاستيلاء على مرو ــ تطور الحركة النقابية في بريطانيا العظمى ــ انشاء احتكار دولي للخطوط الحديدية ــ بارسنز يبني ظربين بخارية ومرجنثالر يخترع اللينوتيب ــ فييل يدخل تحسينات على « البارود بدون دخان » وتوربين على الناسفة ــ الاخوة رينار يبنون منطادا ــ سينوبوس يضع كتابه : تاريخ الحضارة ــ هويسمانز : بالمقلوب ــ وفرغا ــ الخيالة الريفية ــ افتتاح صالون : « المستقلين » ــ ماسينية : مانون .

١٨٨٥ ــ اتفاقية برلين بشأن الرق وانشاء دولة الكونغو المستقلة ــ فرنسا تعلن الحماية على مدغشكر ــ معاهدة تينسن الثانية وتوكيد الحماية الفرنسية على التونكين ــ انكلترا تضم بورما الى ممتلكاتها في آسيا ــ عقد أول مؤتمر هندي ــ تأسيس أول حزب للعمال في بلجكا ــ نشر الجزء الثاني من كتاب رأس المال ــ اختراع الحاصدة ــ الرابطة ، والرشاش مكسيم ــ باستور يشفي ولدا عضه كلب مسعور ــ دملر وبنز يصنعان عربة تسير على البنزين ــ أول رحلة علمية يقوم بها الامير البر ، امير موناكو ــ زولا يضع روايته : جرمينال ــ وبجرنسن : الى ما وراء القوى ــ بناء متحف امستردام الوطني غويترز ــ فان غوه يضع : اكلة البطاطا .

١٨٨٦ ــ اضرابات في بلجيكا ، وبريطانيا العظمى والمانيا والولايات المتحدة ــ مظاهرات أول أيار في الولايات المتحدة ــ تشكيل حلف العمل الاميركي ــ تأليف شركات مشارطة في كل من الكونغو ونيجيريا ــ بناء خط حديدي عبر كندا ــ العثور على الذهب في استراليا الغربية ــ انشاء فبركة حديثة للحرير في كنتون ــ اختراع المنفخ الكهربائي لصناعة الزجاج ــ هول وهيرولت

يتوصلان لصنع الالومينيوم بالتحليل الكهربائي كما توصل هرتز الى اكتشاف الموجات الكهرطيسية ـ استمان يخترع جهازا سينماتوغرافيا ـ ـ جان فاليس يضع روايته : الثائر ـ ودرومون كتابه : فرنسا اليهودية ـ و ج. تارد : الاجرام المقارن ـ ورمبو : الاضاءة التزيينية ـ ولوتي : صياد اسلندا ـ وبالاماس : اغاني بلادي ـ ولويس سوليفان اقام اوديتوريوم شيكاغو ـ وبارتولد : الحرية تضيء العالم ـ وفنسان دندي : سمفونية جبلية .

١٨٨٧ ـ اول مؤتمر يعقده ممثلو الامبراطورية البريطانية ـ الحكم الفرنسي البريطاني المشترك على جزر هبريدس الجديدة ـ انشاء الاتحاد الهندي الصيني ـ الغاء الرق في كوبا ـ الدكتور زامنهوف يضع لغة الاسبرنتو ـ اكتشاف طريقة سيندةالذهب ـ انطوان يؤسس المسرح الحر ـ رتشردسن يشيد مخازن مارشال فيلد في شيكاغو ـ موباسان يصدر روايته : الهورلا ـ ولوتي : مدام كريزنتام ، وكبلنغ : قصص بسيطة عن الروابي ـ دانتزيو : المراثي الرومانية ـ تشيخوف : اخبار مضحكة .

١٨٨٨ ـ فانسن في غرينلاند ـ أول قرض فرنسي لروسيا ـ تاسيس حزب العمال في سكتلاندا ـ الغاء الرق في البرازيل ـ براءة البابا ليون الثالث عشر حول الحرية البشرية ـ تدشين معهد باستور في باريس ـ هدفيلد يضع الفولاذ بالمنغنيز ـ فورست يخترع محركا يعمل على البنزين ـ ظهور البنوماتيك (الهواء المضغوط) واستعماله في الدراجة ـ لمبروزو يضع كتابه : الرجل النابغة ـ ونيتشه : المسيح الدجال ـ وباريس : تحت نظر البرابرة ـ روسني الاب يضع : الخيبهوس ـ وسترندبرغ : الدائنون ـ وسودرمان : الشرف ـ روبن وداربو : آزور ـ غوكن : الرؤية بعد الخطاب : أو يعقوب والملاك ـ رمسكي كورساكوف : شهرزاد .

١٨٨٩ ـ مؤتمر حول الرق في بروكسل ـ سقوط الامبراطورية في البرازيل ـ اعطاء اليابان دستورا جديدا ـ اول مؤتمر لرابطة الشعوب الاميركية ـ موجة اضرابات في اوروبا ـ معرض باريس : برج ايفل في الشان اليزية ـ تاسيس الدولية العمالية الثانية ـ تاسيس شركة : جنرال الكتريك ـ تشييد اول ناطحات السحب في نيويورك ـ اديسون يخترع آلة سينماتوغرافية ، واستمان الشريط التصويري من السلوليد ، وشاردونيه : طريقة لصنع الحرير الاصطناعي ، وهلريث : حاسبة كهربائية ـ براون سيكوارد يوضح وظيفة الغدد ذات الافراز الداخلي ـ غويو يضع كتابه : الفن من الوجهة الاجتماعية ـ وبورجيه يضع روايته : التلميذ ـ وكبلنغ : اول كتاب حول الادغال ـ ييتس : اسفار اولسن ـ ج. هوبتمان : قبل الفجر ـ غوكن : المسيح الاصفر ـ فان غوه : رسم الرجل المقطوع الاذن ـ رتشرد شتراوس : الموت والتجلي .

١٨٩٠ ـ مقايضة زنجبار بهليغولند ـ اتفاقات استعمارية افريقية ـ مؤتمر العمل الدولي في برلين ـ افلاس بنك بارينغ والازمة الاقتصادية ـ تاسيس شركة رويال دوتش ـ اللورد بنتنك يصدر في الهند قانون التسليم ـ تعرفة ماك كنلي ـ قانون شرمان بخصوص احادية المعدن في العملة ـ القطار السريع امبير ستايت تزيد سرعته على ١٠٠ كيلومتر في الساعة ـ برانلي ولودج

يخترعان كشافا لجهاز التلغراف اللاسلكي ــ لافال يبني طوربينا جديدا يعمل على البخار ــ ادر يرتفع على ظهر الايول ــ ماراي يخترع الكرونوفوتوغراف ــ المحاولات الاولى لتزفيت الطرق ــ ماهان يصدر كتابه : تاثير القوة البحرية على التاريخ ــ و. جيمس : مبادىء علم النفس ــ ب. فاليري يصدر كتابه : نرسيس ــ و س. جورج : اناشيد ــ ومسكاني كتابه : الخيالة الريفية ــ وموري اوغاي : الراقصة ــ ومونيه :

١٨٩١ ــ البراءة البابوية Rerum Novarum حول الوضع البشري ــ تأسيس الاكداس ــ و م. دنيس : السر الكاثوليكي ــ وبورودين : الامير ايغور . المكتب الدولي للسلام في برن ــ المجاعة في روسيا واجراءات معادية للسامية ــ الشروع ببناء الخط الحديدي عابر سيبيريا ــ نقل الطاقة الكهربائية الى مسافات بعيدة لاول مرة ــ فوريست يخترع محركا من ٤ اسطوانات ــ بافلوف يدرس رد الفعل المشروط ــ الدكتور دوبوا يكتشف انسان قردجاوا المنتصب القامة . ــ ا . وايلد يضع روايته : جريمة اللورد ارثر سافيل ــ كونين دويل : مغامرات شارلوك هولمز ــ س. لانجرلوف : ساغا كوستابرلنغ ــ مونيه ينشر كتابه : الحوريات ــ فرويدنغ: قيثارة واكورديون ــ وودكايند ــ يقظة الربيع ــ وبرونو : الحلم .

١٨٩٢ ــ الاتفاق العسكري الفرنسي الروسي ــ حكومة مالين وسياسة الحماية الاقتصادية ــ اضرابات في الروهر وفي صناعة التعدين في الولايات المتحدة ــ القوانين الاسترالية الخاصة بالمصالحة والتحكيم ــ التوسيع من صلاحيات المجالس التشريعية في الهند ــ مواسو يخترع فرنا كهربائيا ــ لورنتز يكتشف الكهيرب والالكترون ــ هـ . بوانكاريه يضع كتابه : المناهج الحديثة في دراسة الميكانيكية الفلكية ــ ا. وايزمان يصدر كتابه حول الوراثة والانتخاب الطبيعي ــ وهوبتمان : الحاكة ــ وشاربنتييه : انطباعات من ايطاليا .

١٨٩٣ ــ تأسيس حزب العمال المستقل في انكلترا ــ كيردوف ينشيء اتحاد الفحامين ــ الفرنسيون يحتلون الداهومي ــ والاميركيون جزر هاواي ــ الحبر الاعظم ليون الثالث عشر يعيد تنظيم رهبانية البندكتيين ورهبانية الترابست ــ اختراع محرك ديزل ــ ماري يكتشف الكشاف السينمائي ــ اول مطبخ كهربائي ــ ج.جرايف : المجتمع الجديد والفوضى ــ بلوندل يصدر كتابه : العمل ــ وكبلنغ : البحار السبعة ــ دوركهايم : حول انقسام العمل الاجتماعي ــ برادلي يصدر كتابه : بين المظهر والواقع ــ وفرلين : مراث ــ ج.م دي هريديا : الاسلاب ــ اناتول فرانس : مشوى الملكة بيدوك ــ كورتلين : السادة الموظفون الاداريون ــ س. غرانج : ماغي : ابنة الازقة ــ ديبوسي : تمهيد لبعد الظهر عند احد الحيوانات ــ غوكين : اغنية راعوية من تاهيتي .

١٨٩٤ ــ الحرب الصين ــ اليابانية ــ غاندي وتأسيس المؤتمر الهندي في ناتال ــ التشريع حول التحكيم الالزامي في زيلندا الجديدة ــ تكوين الحلف العمالي الارجنتيني ــ نشر المجلد الثالث من كتاب راس المال لانجلس ــ رو يكتشف مصلا ضد الدفتيريا ــ كما تكتشف يارسن باسيلس الطاعون الدملي ــ اونز ينشيء مختبرا للتبريد ــ ابحاث فولتيرا حول المعادلات الصحيحة ــ ليون بورجوا يصد كتابه : التضامن ــ وجورجنسن :

التحول ـ ورودين : بورجوا كاليه ـ وابيا : اخراج الدراما الواغنرية ـ ا.دي بوديه ، يشيد كنيسة يوحنا الانجيلي في حي مونمارتر .

١٨٩٥ ـ فشل مشروع وطني قومي لارلندا ـ فتح قناة كيتيل ـ الحملة الفرنسية على مدغشقر ـ تأسيس مستعمرات روديسيا ـ التهافت على المطاط في افريقيا الوسطى ـ حرمان فنلندا من استقلالها الداخلي ـ مذابح الارمن في لاستانة ـ دستور الاتحاد العام للعمال في فرنسا ـ الفرد نوبل يؤسس عند وفاته الجائزة التي تحمل اسمه ـ ابحاث برن ولورانتز حول الكهيرب ـ بوبوف يضع قارية (هوائي) للتلغراف اللاسلكي ـ بوجو يسير عربة على عجل يعمل بالهواء المضغوط ـ الاخوة لوميير يصنع جهازا للسينما ـ رتنجن يكتشف الاشعة السينية ـ هرزل يضع كتابه : الدولة اليهودية ـ دوركهايم يصدر كتابه : قواعد الطريقة الاجتماعية ـ فيرهيرن يضع كتابه : المدن ذات المجسات ـ ج.هـ. ويلز : جهاز لاستكشاف الزمن ـ وت. هاردي : جود المجهول ـ فوغزارو : العالم القديم الصغير ـ تولستوي مملكة الظلام ـ وسينكفتش : الى ايـن ؟ ـ فان غرونجن : قبضة من الكائنات البشرية ـ بروز مدرسة مونتريال الادبية

١٨٩٦ ـ الحملة الايطالية على الحبشة ـ المجاعة في الهند ـ ضم مدغشكر الى فرنسا ـ تأسيس مصانع زبلين ـ فورد يبني اولى سياراته ـ أولى الالعاب الاولمبية في اثينا ـ مساهمة مركوني في اختراع التلغراف اللاسلكي ـ كروبوتكين يصدر كتابه : الفوضى : فلسفتها ومثالها الاعلى ـ و ا. ريكلو : الفوضى ـ واناتول فرانس : التاريخ المعاصر ـ وبلاكو ابانيز : الارض الملعونة ـ وروبن داريو : النثر الدنيوي ـ بيكاسو يضع : المستعطي .

١٨٩٧ ـ حرب تركيا واليونان ـ الالمان ينزلون في كياو ـ تشابون ـ المجاعة في البنغال ـ تأسيس الحركة الصهيونية في مدينة بال ـ اكتشاف مناجم الذهب في الكلنديك ـ طيران على متن طائرة ـ لاغستن يدخل تحسينات ملحوظة على المونوتيب ـ هنري بكيريل يكتشف الطاقة الاشعاعية في الراديوم ـ فرنسا تتبنى مدفع عيار ٧٥ للجيش الفرنسي ـ غليوم الانفار والفولاذ مع النيكل ـ لندن تسير الترام الكهربائي ـ م.ا.س. بلوك يصدر كتابه : حرب المستقبل ـ ا. ساباتييه مدخل الى فلسفة الدين من خلال علم النفس والتاريخ ـ برونشويغ يصدر كتابه : كيفية الحكم ـ وبرتلو : العلم والاخلاق ـ ولانفلوا وسنيوبوس : المدخل الى الدراسات التاريخية ـ باريس يصدر قصته : من لا اصول لهم ـ وجيد : الاغذية الارضية ـ س. موم : ليزا لامبث ـ ر. م. ريلك : متوج الاحلام ـ سترندبرغ : جهنم ـ تشيخوف : الموجيك ـ انجال غانيفيه : المثال الاسباني .

١٨٩٨ ـ الحرب الاسبانية الاميركية ـ كتشنر يهزم المهدية ـ قضية فشودا ـ المحاولة الاصلاحية لمدة ١٠٠ يوم في الصين ـ الروس يحتلون بورث ارثور ـ قضية دريفوس في فرنسا ـ اضطرابات اجتماعية في ايطاليا ـ المجاعة في روسيا ـ اقرار استعمال اللغتين في بلجكا ـ بيير ومدام كوري يكتشفان الراديوم ـ سنتوس ـ دومون يبني منطادا ـ لويس رينو يخترع الوصلة المباشرة ـ أول معرض للسيارات في باريس ـ روستان يصدر

كتابه ـ سيرانودى برجراك ـ برنارد شو : تمثيليات مسلية ومزعجة ـ سترندبرغ : طريق دمشق ـ ايبانيز ـ الاستحكام ـ وبشيني : حياة البوهيمي .

١٨٩٩ ـ حرب الانكليز والبويرز ـ اول مؤتمر للسلام في لاهاي ـ الطاعون في مصر وفي سنغافورا ـ المجاعة في الهند ـ برانلي وماركوني يؤمنان اول اتصال بالتلغراف اللاسلكي ـ لوبوف ينزل اول غواصة الى البحر ـ تأليف المجلس الدولي الدائم لاستكشاف البحر في كوبنهاغن ـ الحبر الاعظم البابا ليون الثالث عشر يقف موقفا مناهضا للنزعة الاميركية الدينية ـ لويس سوليفان يبني مخازن كارسن الكبرى في شيكاغو ـ برنشتاين يصدر كتابه : الاشتراكية النظرية والديمقراطية الاشتراكية العملية ـ فاشيه دي لابوج يضع كتابه : الآري ودوره الاجتماعي ـ هيكل : اسرار الكون ـ تولستوي : القيامة ـ ويتس : الريح بين القصب ـ ريمي دي غورمون : استتيكا اللغة الفرنسية ـ رافيل يضع كتابه : الرقص الوقور للاميرة المتوفاة ـ اول منزل يقام في باريس بالباطون المسلح .

١٩٠٠ ـ معرض باريس ـ ثورة البوكر والحملة التأديبية على الصين ـ سن . يات .س يؤسس الحزب الاشتراكي الصيني ـ الفرنسيون يحتلون تشاد يضع نظرية الكم ـ الانتفاع بمادة الفالاليت Galalite لصنع ـ اضراب عمال المناجم في اليابان ـ المجاعة في البنغال .م. بلانك اللدائن ـ لاندستاينر يكتشف فئة الاحمر الدموي للرسم ـ لوكيير يصدر كتابه : التطور اللاعضوي ـ س. فرويد : تفسير الاحلام ـ موراس : بحث حول الملكية ـ كوتسكي يصدر كتابه : الماركسية وناقدها الاكبر برنشتاين ـ ج. رينار : شعرة الجزر ـ شارل لويس فيليب : بوبو مونبارناس ـ برناردشو : تلاميذ الشيطان ـ درايزر فيليب : كاري ـ ظهور النزعة : الفوفية في الرسم ـ المؤتمر الدولي الاول للموسيقيين في باريس ـ شاربنتييه لويزا ـ بتشيني : لاتوسكا .

١٩٠١ ـ تأسيس رابطة الدومنيون الاسترالي ـ تعديل بلات بشأن كوبا ـ مؤتمر جامعة الدول الاميركية في مكسيكو ـ انشاء الصندوق الوطني اليهودي ـ انشاء شركة فولاذ الولايات المتحدة ـ الاضراب الكبير في ايطاليا ـ انشاء المكتب الدولي للعمل في بال ـ البراءة البابوية Graves de Communi ـ لوازي يضع كتابه : الانجيل والكنيسة ـ روثر فورد يوضح طبيعة اشعاع الراديو ـ ه.دي فريز : نظرية التغييرات ـ فرويد : علم طبائع الامراض العقلية في الحياة اليومية ـ توماس مان : آل رودنبروك

١٩٠٢ ـ التحالف الانكليزي الياباني ـ اخضاع الفيلبين للاميركيين ـ الخط الحديدي عبر سيبيريا يصل فلاينستوك ـ الغاء الاتجار بالعبيد في زنجبار ـ مؤتمر برلين الاستعماري ـ انشاء امانة سر دولية نقابية ـ بلوتييه : تاريخ بورصات العمل ـ البابا الثالث عشر يشكل لجنة للدراسات الكتابية ـ مذكرة فريد هولم حول المعادلات الصحية ـ هنري بوانكاريه يصدر كتابه : العلم والحدس ـ ب. كروسي : الاستتيكا باعتباره علم الاحساس وعلم اللغة العام ـ اندريه جيد يصدر كتابه

الفاسق — غوركي : الاغـوار ــ آزورين : الارادة ــ ديبوسي : بليـاس ومليزانـــد .

١٩٠٣ ــ التخلي عن مشروع قناة بناما ــ الثورة في مقدونيا ــ المانيا تحصل على امتياز خط بغداد الحديدي ــ مؤتمر الحزب الديمقراطي الاجتماعي في لنـدن : الاصطدام بين البلشفيك والمنشفيك ــ مذابح جديدة لليهود في روسيا الجنوبية ــ المؤتمر الصهيوني ــ كورن يدخل تحسينات على طريقة ارسال الصور بالكهرباء ــ طيران الاخوة رايت ــ تأسيس محلات فورد ــ تسيولكوفسكي يصدر كتابه : درس الفضاء بالاجهزة المبنية على التجاوب الرجعي ــ زولا : الحقيقة ــ ر. رولاند : حياة بيتهوفن ــ كنراد : العاصفة ابانيز : الكاتدرائية ــ رايمونت : الفلاحون ــ افتتاح صالون الخريف في باريس

١٩٠٤ ــ بدء الحرب الروسية اليابانية — عقد الاتفاق الودي . سن ــ يات سن يؤلف حزب الكومنتانغ ــ محاولة اعلان الاضراب العام في ايطاليا ــ مؤتمر الدولية الاشتراكية في امستردام ــ وضع الحق القانوني بايعـاز من البابا بيوس العاشر ــ فلامنغ يخترع القنديل الكهربائي الثنائي القطب ــ بلتزــ يتوصل لصنع الفران (النيلون) ــ روما رولان يصدر تباعا : جـان كريستوف والفجر ــ سويريز : حول وفاة اخي ــ وغيومين : حياة ساذج ــ وهوبرت كراينز : الخبز الاسود ــ وبيرندللو : المرحوم متيـاس باسكال ــ وغولسورتي : فريسيو الجزيرة ــ لافكاديو هيرن : اليابان ، ومحاولة تبرير ــ فكتور بيرار : طريق آسيا ــ وبوتشيني : مـدام بترفلاي .

١٩٠٥ ــ انتهاء الحرب الروسية اليابانية ــ الثورة في روسيا والحركة الرجعية فيها ــ أزمة المغرب الاولى ــ وقوع الانفصال بين السويد والنروج ــ الغاء آخر مقاطعة للهنود الحمر في الولايات المتحدة ــ انشاء حزب الوطن العربي ــ فصـل الكنيسـة عن الدولـة في فرنسـا ــ مؤتمر برن حـول التشريع العمالي ــ انزال الدردنوط الى البحر ــ مذكرات انشتاين حول تأثير الضوء الكهربائي ونواميس النسبية ــ هنري بوانكاريه : قيمة العلم ــ فرويد : النظرية الجنسية ــ لافيس : لويس الرابع عشر ــ آلان : خواطر ــ برنشتاين : الزوبعة ــ ظهور التكعيبة في فن الرسم ــ بسترافنسكي : سمفونيا مي بيمول ــ بيلا بارتوك : النتيجة الاولى ــ مانويل دي فـالا : الحـياة القصيرة .

١٩٠٦ ــ مؤتمر الجزيرة حول المغرب ــ مؤتمر الشعوب الاميركية في الريو ــ القحط في روسيا واصلاح ستولوبين الزراعي ــ اتفاقية روما حول مراكز البريد الدولية ــ طيران سبنطوس دومون ــ قانون العطلة الاسبوعية في فرنسا ــ البراءة الرسولية Vehementer برغسون ينشر : التطور الخلاق ــ اختراع تفاعل واسرمان ــ ابتن سنكلر : الادغال ــ ادي : قصائد جديدة ــ نكسون : بل الفاتـح ــ بادن باول : الكشافـة لـلاولاد ــ شيمازاكسي توزون : المخالفة .

١٩٠٧ ــ المؤتمر الثاني للسلام في لاهاي ــ تشـكيل الائتـلاف الثلاثي والاتفـاق الروسي الياباني ــ انشاء محكمة عدل لاميركا الوسطى ــ البراءة البابوية

Pascendi — تاسيس جمعية غراتري لتوطيد السلام بين الشعوب — غاندي يتبنى سياسة Satyâgrapha بغية تنظيم المقاومة السلبية — الازمة الاقتصادية — المجاعة في الهند وفي الصين — اضراب عمال مناجم النترات في الشيلي — تاسيس شركة شل — تجربة التصوير الملون على يد لوميير — لي دي فوريست يخترع القنديل الثلاثي القطب — هوغ يضع كتابه : بحث في الجيولوجيا — هاملن : محاولة حول العناصر الاساسية في التمثيل — اونامونو : قصائد — هوايتلوك : دورة القبان — غوركي : الام — هازغاوا فونتباتيه : دون المتوسط — تاهاما كتاي : الغطاء — النزعة الى التربة تغزو كندا — شوانبرغ : سمفونيا الحجرة .

١٩٠٨ — ضم بلجكا للكونغو وضم البوسنه والهرسك الى النمسا والمجر — ثورة تركيا الفتاة — اختراع الريح الصدرية — ج. سوريل : تأملات حول العنف — دانونزيو : صحن الكنيسة — رافيل : امي الاوزة .

١٩٠٩ — الثورة في تركيا وبلاد فارس — ازمة البوسنه — الهيجان في برشلونا وتنفيذ حكم الاعدام بفرايز — اضرابات في الارجنتين — بيري يبلغ القطب الشمالي — بلاريو يجتاز مضيق المانش بالطائرة — ولم يطلع علينا بالدور الوميين — بيكلاند يوضح خصائص راتنج الفينول — الفورمول (الباكليت) — لنين يضع كتابه : المادية والنقد التجريبي — اندريه جيد : الباب الضيق — باريس : كوليت بودوش — بلوى : دم الفقير — مرغريت اودو : ماري كلير — ماتيرلنك : العصفور الاخضر — بورديل : هيراكليس النبال — بيكاسو : المراة والمندولين — دياغيليف والباليه الروسية في باريس —

١٩١٠ — انشاء دومنيون جنوب افريقيا — اليابان تضم كوريا — مؤتمر شعوب اميركا في بونس ايرس — اضراب عمال مناجم الفحم وقانون التقاعد العمالي في فرنسا — الحكم على بيون — سقوط الملكية في البرتغال — شافيز يجتاز جبال الالب — ماري كوري تعزل الراديوم — سلك تنفستين الذي وضعه كولدج يتيح للنغموير صنع مصباح يعمل بسلك تنفستين — هابر يتوصل الى الامونيا الصناعي — ظهور طريقة اللزوجة — توماس هونت مورغان يجدد علم الوراثة ويوجين باتايون يحقق التناسل العذري الصناعي — هلفردنغ يضع كتابه : الراسمال النقدي — نورمان انجل : الوهم الاكبر — وجوريس : الجيش الجديد — الاب سرتلانج يضع كتابه : القديس توما الاكويني — وبيغي : سر محبة جان دارك — ستافنسكي ودياجيليف : عصفور النار .

١٩١١ — الثورة في الصين — الازمة المراكشية — الايطاليون في طرابلس الغرب — الفتنة الزراعية في زاباتا ، المكسيك — ازمة سياسية في بريطانيا العظمى — امندسن يبلغ القطب الجنوبي — فونك يكتشف الفيتامينات — رازرفورد يوضح خصائص الذرة — ا. و ج. بريه يبنيان مسرح الشان اليزيه — بيكاسو : الطبيعة الميتة — سترافنسكي : بتروشكا — لاشتراوس : فارس الوردة — بيلا بارتوك : قصر بارب بلو .

١٩١٢ — الحرب البلقانية — يوان شي — كاي ، سيد الصين — اعلان الحماية الفرنسية على المغرب — مجلس العموم يصوت على الوطن القومي — التشريع حول الضمان في بريطانيا العظمى — ازدياد الهيجان الاجتماعي

في روسيا ـ مؤتمر الدولية الاستثنائي في بال ـ ر. لكسمبورغ يضع كتابه : تجمع رأس المال ـ تيلور : مبادىء الادارة العلمية ـ ظهور طريقة فورد للعمل ـ كاروس يجتاز البحر المتوسط ـ لاين يوضح طبيعة الاشعة السينية ـ هس يثبت حقيقة ظاهرة التأين ـ دوركهايم : الاشكال البدائية للحياة الدينية ـ اناتول فرانس : الآلهة العطشى ـ آلان فورنييه : مولن الكبير ـ كلوديل : البشارة لمريم ـ برنارد شو : بجمليون ـ بابيني : رجل انتهى ـ مارينتي : منتقيات مستقبلية ـ رافيل : دافني وكلويه ـ سوينبرغ : بييرو المعتوه .

١٩١٣ ـ الحرب البلقانية ـ قوانين الحرب في كل من المانيا وفرنسا ـ مجلس اللوردات يرد مشروع الوطن القومي في ارلندا ـ التشريع الاميركي ضد الاحتكار ـ المؤتمر العربي في باريس ـ لا شاتليه يوضح قانون سقاية الفولاذ الثنائية في عملية الكربنة ـ هابر يتوصل الى تركيب الامونياك الصناعي ـ فرويد : يصدر كتابه : الطوطم والتابو ـ هسريل : فلسفة مبحث الظاهرات ـ باريس : الاكمة الملهمة ـ مارتن دوغار : جان باروا ـ بروست : بحثا عن الوقت الضائع ـ هيمون : ماريا شبدلين ـ شارل لويس فيليب : شارل بلانشار ـ بيراندلو ـ منزل الآخرين ـ طاغور ينال جائزة نوبل ـ جان كوبو : تأسيس كولمبيه القديمة ـ ج. ابولينير : رسامو التكعيبة ـ سترافنسكي : تكريس الربيع .

١٩١٤ ـ الازمة الاوروبية ـ الاضطرابات في الاولستر ـ الانتهاء من شق قناة بناما ـ ه. ن. رسل يبسط نظرات جديدة حول تطور النجوم ـ اونايل : العطش بورديل : السنتور المحتضر ـ بروكوفيف حاشيه سكيثية ، والبط الصغير الرديء .

فهرست الاعلام

ب

ت

ث

ج

ح

ز

س

ش

ص

ض

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

ن

و

ي

فهرست الخرائط والتصاميم

فهرست الصّــــوَر

٢٦ – دخول غاريبلدي الى نابولي .
٢٧ – الساحة الحمراء في موسكو ، في السنة ١٨٤٤ .
٢٨ – برودواي ، في نيويورك ، في السنة ١٨٥٥ .
٢٩ – سنسناتي في السنة ١٨٦٠ .
٣٠ – دخول لنكولن الى مدينة ريتشموند ، عاصمة الولايات الجنوبية ، (١٨٦٥) .
٣١ – مكتب القطن في اورليان الجديدة (١٨٧٣) .
٣٢ – مدينة بوينوس ايرس في السنة ١٨٦١ : منظر مأخوذ من ساحة الجمرك .
٣٣ – اول استعراض للعمال الاميركيين بمناسبة عيد العمل في نيويورك (١٨٨٢) .
٣٤ – سوق لبيع العبيد في مدينة الجزائر .
٣٥ – دخول النقيب (بنجر) الى (كونغ) (افريقيا الغربية الفرنسية) .
٣٦ – حمامات الغانج المقدسة .
٣٧ – دخول الجيوش الفرنسية الى قلعة (هونغ – هوا) ، في ١٣ نيسان ١٨٨٤ .
٣٨ – مسرح في اليابان ، في اوائل القرن التاسع عشر .
٣٩ – مصائب الحرب : النزوح عن (سان – كلود) (تشرين الاول ١٨٧٠) .
٤٠ – الاقتراع العام : قلم اقتراع في انتخابات ٧ كانون الثاني ١٨٧٢ .
٤١ – الافسنتين .
٤٢ – اخراج الفرش من بيت الرهن .
٤٣ – كليمنصو يلقي كلمة في اجتماع عام في ميدان (فرنندو) (١٨٨٥) .
٤٤ – عظمة البورجوازي وانحطاطه .
٤٥ – انطلاقة السيارات المتسابقة (باريس – برلين ، ٢٧ حزيران ١٩٠١) .
٤٦ – متنزه الدراجة في غابة بولونيا .
٤٧ – حفلة راقصة في (طاحونة الطلمة) .
٤٨ – النزهة الباريسية .

فهرست عام

القسم الأول

بين الاستمرار والتغييرات المحتملة في مطلع العصر

القسم الثاني

قوى الغرب وتوسع الاوروبيين العالمي

القسم الثالث

الحضارة الاوروبية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر

القسم الرابع

الحضارات خارج اوروبا

القسم الخامس

على عتبة القرن العشرين

انتهى المجلد السادس، ويليه المجلد السابع والأخير

العهد المعاصر

زدني علماً

منشورات عويدات ٩١٩ / ١٩٨٧

HISTOIRE GÉNÉRALE DES CIVILISATIONS

publiée sous la direction de
MAURICE CROUZET
Inspecteur général de l'Instruction publique

TOME VI

LE XIX^e SIÈCLE

L'APOGÉE DE L'EXPANSION EUROPÉENNE
(1815-1914)

par

Robert SCHNERB
Professeur honoraire de Première Supérieure
Docteur ès Lettres

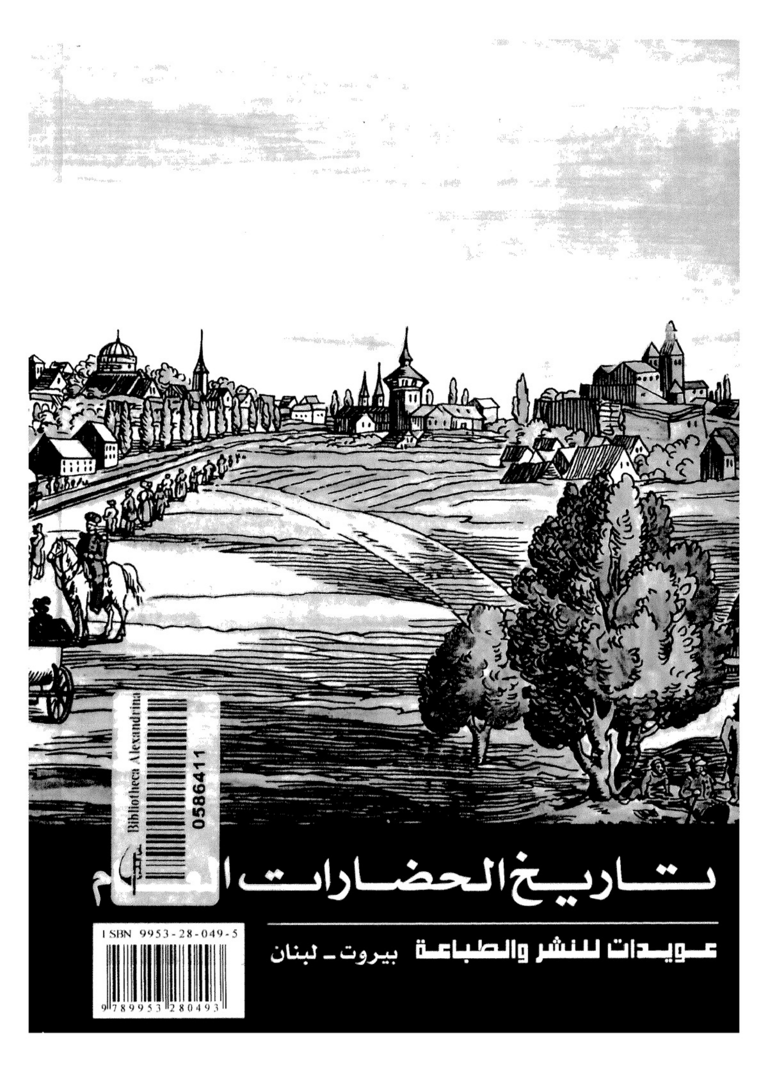
QUATRIÈME ÉDITION REVUE

Texte traduit en arabe

par

Youssef A. DAGHER & Farid M. DAGHER

EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth — Paris



ISBN 9953-28-049-5
9 789953 280493